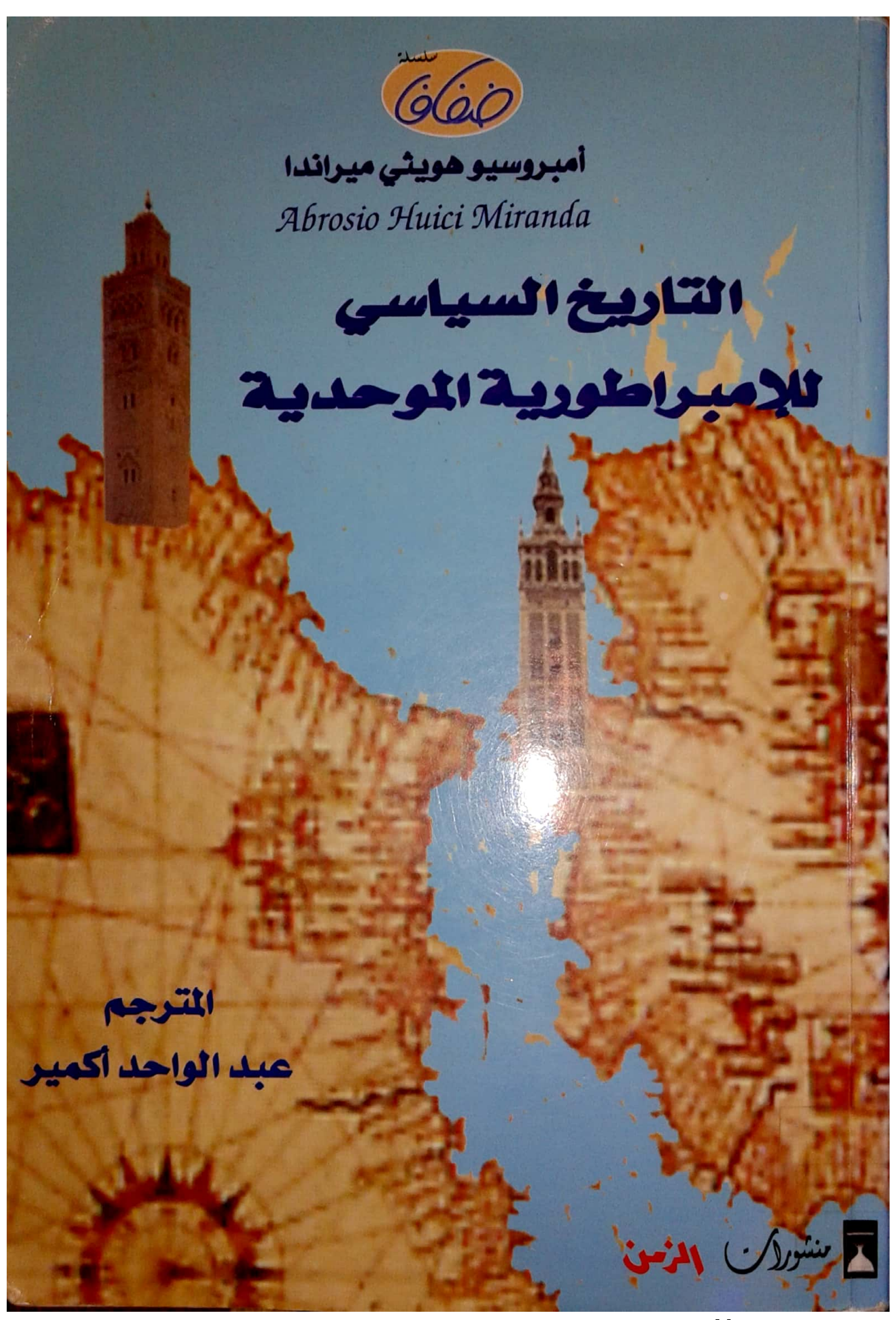


Scanned by CamScanner

الكتاب السابع

الإيداع القانوني : 2004/1964
الترقيم الدولي (ردمك) : 9954-408-41-X
طبع 2004 / الطبعة الأولى
النجاح الجديدة - الدار البيضاء
ضفاف: سلسلة تعريبات، يشرف عليها الدكتور محمد سبيلا، أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس، الرباط
المدير: **عبد الكبير العلوي الإسماعيلي**
الإخراج التقني : خديجة فارس
العنوان : 153، شارع سيدي محمد بن عبد الله رقم 7 -العكاري- الرباط
الهاتف + الفاكس : 44 98 29 37 212 00 - الهاتف : 96 34 64 37 212 00
البريد الإلكتروني: e-mail: mazzaman@menara.ma / az_zaman@hotmail.com

أمبروسيو هويثي ميراندا

Abrosio Huici Miranda

التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية

HISTORIA POLITICA DEL IMPERIO ALMOHADE

تعريب: د. عبد الواحد أكمير

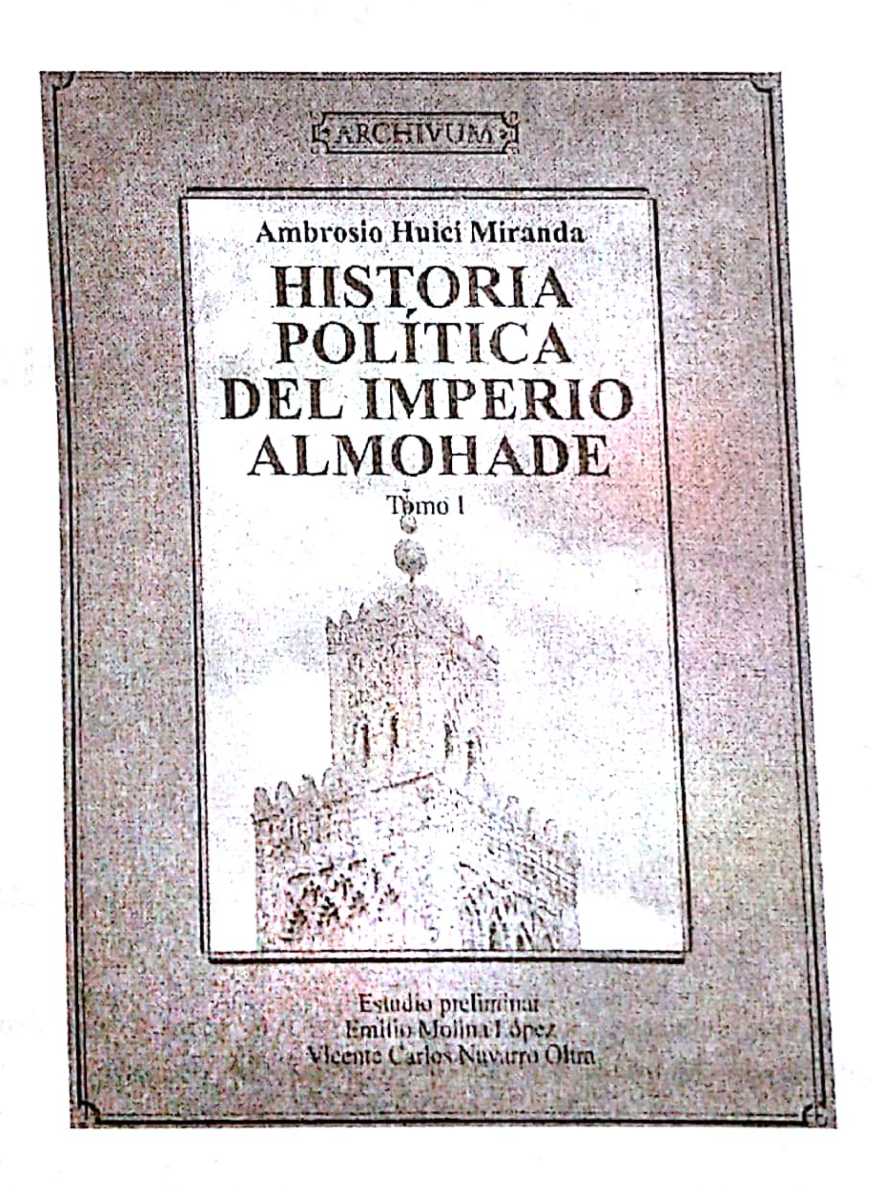
تم طبع ونشر هذا الكتاب بدعم مشكور من المديرية العامة للكتاب والأرشيفات والمكتبات التابعة لوزارة التربية والثقافة والرياضة الإسبانية

Esta obra ha sido publicada con la ayuda de la Dirección General del Libro, Archivos y Bibliotecas del Ministerio español de Educación, Cultura y Deportes

كلمة شكر

نتقدم بالشكر الخالص إلى السيدة "مرثيديس بياريس هويثي ميراندا"، وارثة حقوق التأليف والترجمة، التي تنازلت بكل أريحية عن حقوق ترجمة الكتاب إلى العربية، وقدمت لنا من المعلومات والوثائق والصور النادرة ما جعلنا نقترب أكثر من الكتاب ومن صاحبه، بل وتفضلت بكتابة تمهيد خاص بالطبعة العربية. كما نتقدم بالشكر إلى الزميلين "إميليو مولينا" و"بيثينتي نبارو" صاحبي تقديم الطبعة الإسبانية الجديدة من الكتاب، والتي أفادتنا كثيراً في كتابة تقديم الطبعة العربية. والشكر موصول إلى الإخوة الأساتذة محمد بنعياد ومحمد المغراوي وعمر أنا ومحمد العبوتي ومحمد الشيخي ومحمد المعتصم، على المساعدة الجسيمة التي قدموها لنا والتي سمحت بخروج هذا العمل، في الحلة التي يجدها عليه القارئ اليوم.

الزين - المترجم



تمهيد

بقلم مرثيديس بياريس هويثي ميراندا
حفيدة المؤلف

ترسخت في ذاكرتي وأنا في السابعة صورة تلك الطاولة الكبيرة التي تحتل صدر مكتبه، وهو يجلس خلفها بجسمه العملاق المتقابل مع نور النافذة التي يتدلى منها ستار أخضر داكن. كانت توجد على الجانب الأيمن للطاولة خزانة متحركة وضعت على رفوفها كتب قديمة مجلدة، وعلى الجانب الأيسر خزانة ثانية من عدة طوابق، وضعت بها كتب أخرى وملفات، تراكم بعضها فوق بعض في شكل فوضوي.

كان فوق الطاولة، ميزان قديم من النحاس الأصفر، تُستعمل قاعدته لحفظ أقلام حبرية ورصاصية مختلفة الأشكال والأحجام، وساعة دائرية قديمة، ومحبرة، ومجموعة من الممَاحي، وخاتم خاص بتوقيع الرسائل، وأكوام من الأوراق البيضاء، بعضها مسودات بحث أو ترجمة جديدة يشتغل بها، والبعض الآخر لم تستعمل بعد. أما بقية الطاولة فتكسوها كتب بلغة هي عبارة عن رموز غريبة بالنسبة لعمري آنذاك.

اعتدت أن أنظر بإعجاب إلى أصابع يده وهي تنطلق بالكتابة فوق الورق، تتوقف أحياناً، ثم تضيف كلمة قبل أن تتوقف من جديد، لتواصل هذه المرة الكتابة دون توقف في تناغم فريد. ومع مرور الأيام والشهور، وبالدرجة التي يتقدم بها في العمل الذي يكون بصدد إنجازه، تمتلئ الطاولة بالأوراق التي تتبعثر في فوضى منتظمة لا يستطيع ضبطها إلا هو، لذا كنا جميعاً نعرف أن تلك الطاولة مكان مقدس لا يمكن أن يلمس ما بها غيره.

كنت أحب كثيراً زيارته في مملكته الغريبة تلك، وكنت أقطن ووالدي في الطابق العلوي بينما كان هو وجدتي يقطنان الطابق السفلي لنفس البيت. وكان جدي يسعد كثيراً لزياراتي، ورغم أن

ذلك كان يعني إيقافه عما كان بصدده، فلم أذكر أبداً أنه انزعج يوماً ما لذلك. كان دائماً يهديني عبارته المعهودة: «أهلاً يا حلوة كيف حالك».

كنت أدخل بطبيعة الحال بدون استئذان، وأقول له دون مقدمات: «جدي، جدي احك لي حكاية طويلة جداً مثل تلك التي تحكي لي دائماً»، في تلك اللحظة يستأذن الرجل العملاق أوراقه وينظر إلي مبتسماً فيبدأ: «كان يا مكان في قديم الزمان، سلطانٌ يحكم في بلد بعيد ...!». كنت أحس بمتعة لا تقاس وأفتح عيني وكلي آذان صاغية لكلامه الفصيح وجمله القصيرة البسيطة. كانت تلك الحكايات العجيبة، المبتكرة دون شك مما كان بصدد إنجازه من أبحاث، تجعلني أسافر إلى عالم خيالي، لا أخرج منه إلا على صوت أمي التي جاءت لتؤنبني على "إزعاجي لجدي"، وتعتذر نيابة عني، وهو بالتأكيد اعتذار غير مقبول من طرف جدي، الذي كان مقتنعاً بأنه ليس هناك ما يجب الاعتذار عنه. كان يصل مسامعي بعد أن تكون قد سحبتني أمي من مكتبه، صوته المرح وهو يردد: «في المرة المقبلة سوف أحكي لك حكاية أمير من أمراء العرب تزوجت ابنته سراً من تاجر توابل فقير، اكتشفت فيما بعد أنه من أغنى الأغنياء، وقد عاشت معه في سعادة وهناء».

لكن وبالرغم من ليونته تلك، فقد كان رجلاً جاداً ويحرص على تربيتي على الأخلاق الحميدة. أذكر مرة أنه جاء لزيارته رجل فرنسي، أدخلت ملامحه الصارمة وشكله الذي لم أعهده الرعب في قلب طفلة صغيرة مثلي، لذا رفضت أن أحييه وذهبت جرياً إلى حجرتي. كان ذلك في أعياد رأس السنة. في اليوم الموالي، خرجنا جميعا إلى مكان مخصص للعب الأطفال، أردت أن أمتطي إحدى اللعب، لكنه رفض بصرامة، وقال لي بعدما ذكرني بسوء تصرفي في اليوم السابق: «لا يمكن أن نأخذ دون أن نعطي، يجب أن تتعلمي أن لكل شيء ثمنه».

وكما كان لجدي مكان متميز في ذاكرة طفولتي، أصبح له مكان متميز في ذاكرة مراهقتي، لن أنسى أبداً تلك الجولات التي كنا نقوم بها مشياً على الأقدام، وهو يجر سنوات عمره الثمانين مستنداً بإحدى يديه على عكازته وواضعاً يده الأخرى على كتفي، مرتدياً بذلته ومعطفه وقبعته القديمة والتي يرفعها من حين لآخر لتحية أحد معارفه. كان الكثير من هؤلاء تلامذته، والذي يوقفه بعضهم أكثر من مرة ليقول له كلاماً من قبيل: «دون Don أمبروسيو، أنا سعيد جداً لرؤيتك، هل تتذكرني، أنا فلان بن فلان، درست عندك اللغة اللاتينية في المعهد الفلاني سنة 1927 وحصلت منك على ميزة مستحسن ...!».

نصل إلى دار الكتب التي كان يمتلكها، فيبدأ بالدردشة مع شقيقه وابن هذا الأخير المكلفين بها، بينما أبدأ أنا بالتجوال بين ممراتها، أبحث عن الإصدارات الجديدة التي تتناسب وعمري. وقبل أن نودعهما، يحسن إغلاق معطفه، ثم يقول: «ياله من برد قارس (كنا نقوم عادة بتلك الجولات في فصل الشتاء)، ما رأيك أن نشتري بعض القسطلات المشوية لأمك وجدتك، ونستفيد نحن الاثنين ونحن نحملها بتدفئة أيدينا».

غير أن أكثر ما كان يشدني في جدي هو طبعه الهادئ، لا أذكر أبداً أنه رفع صوته في البيت وإن توفرت الأسباب لذلك، ولم يكن يتفوق على هدوئه إلا طبعه الرحيم المتسامح، وهو تسامح كان ينبع من صميم القلب، كان يعرف كيف يعيش في جلباب غيره، لأنه كان يعرف كيف يستمع للغير، كانت أغلب العبارات التي يستعملها في كلامه والتي يتوجب فيها إبداء الرأي، يبدؤها بـ«ربما من المفيد أن نفعل هذا ..» أو «ما رأيك لو نفعل ذاك...» كما كانت هناك عبارة يقولها باللغة الفرنسية باستمرار هي Laisser faire - laisser passer (دعه يعمل دعه يمر). لم يكن يفرض رأيه أبداً، لأنه آمن أن لغة الحوار قد تحقق المستحيل.

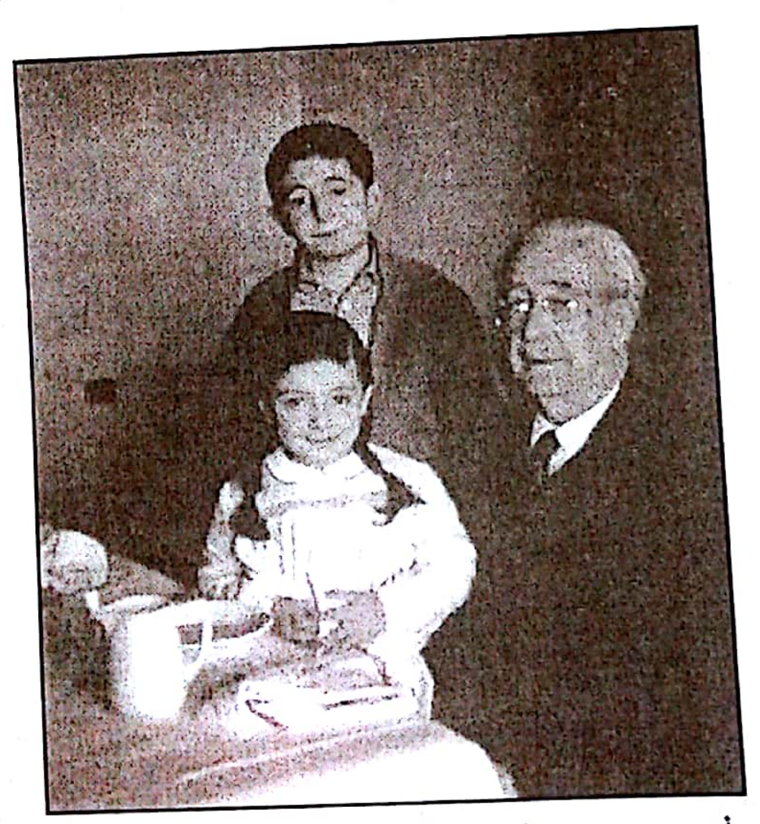
وبخلاف طبعه الهادئ ولونه الأسمر وعينيه البنيتين وقامته التي تتجاوز 1.90 سنتمتراً، كانت جدتي ضعيفة البنية، كثيرة الحركة ذات طبع يميل إلى العصبية، كما كانت وكأغلب أبناء جنسها من الألمان، شقراء الشعر زرقاء العينين بشرتها ناصعة البياض، هواياتها المفضلة السفر والطبيعة وسماع الموسيقى الكلاسيكية. وهي هوايات بعيدة عن هواياته هو والتي حصرها كلها في شيء واحد هو تاريخ العرب. أذكر ذلك الحوار الذي كان يتكرر بينهما كل اثنين، يتكلم هو قائلاً: «عندك حفل موسيقي اليوم؟ أتمنى لك فرجة ممتعة، احكي لي عنه لما تعودين، لأنني سأبقى هنا في المكتب لأشتغل قليلاً». كانت هي تدرك أن الموسيقى الكلاسيكية لا تحكى وإنما تسمع، لذا تعودت أن ترد على كلامه باستهزاء، مستعملة أية عبارة، قبل أن ترتدي قبعتها لتغادر البيت. كانت تستغرب كيف يتذكر ذلك الموعد الأسبوعي، مع علمها أن الموسيقى لم تكن بالنسبة له أكثر من ضجيج، وإن كانت أعذب أنواع الضجيج، وعلمها أن السهو من طباعه المميزة، بحيث لم يكن من السهل أن يتذكر أي يوم في الأسبوع نعيشه لذلك كانت أمي تناديه دائماً، باللغة الألمانية، Der zerstreute Profesor (الأستاذ الشارد). لكن ورغم كل هذا الاختلاف في الطباع بينه وبين جدتي، لم أعرف في حياتي زوجين غمرتهما السعادة مثلهما، وقد بقي ذلك الود حتى بعدما تقدم بهما العمر.

الآن وبعد مرور أكثر من ثلاثين سنة على وفاته، لازلت أحس بحنين إليه، إلى نصائحه الرشيدة، إلى رفقته. أبتسم لما أتذكر طبعه الشارد الذي يظهر أنني ورثته عنه، كما أبتسم عندما أتذكر الكيفية التي كان يتجاهل بها متطلبات الحياة اليومية، والتي تعتبر ضرورية عند غيره.

إن ما أتمناه هو أن أقدر على إعطاء الغير بعضاً من الكثير الذي أخذته عنه، سيكون ذلك خير وسيلة لإحياء ذكراه، وهنا أعتبر أن كتابتي لهذا التقديم هو اعتراف مني لما أخذته عنه. أقول هذا لأنني كتبته بقلب مفتوح وحب لا محدود أكنه لقارئ منتم إلى حضارة أحبها هويثي ميراندا أكثر من أي شيء آخر هي الحضارة العربية، لذا فإنا متأكدة أنه، وحيث يوجد الآن، سيحس بسعادة غامرة وهو يدرك أن كتابه "التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية" قد ترجم إلى اللغة العربية بعد مرور حوالي نصف قرن على صدوره بالإسبانية.

مرثيديس بياريس هويثي ميراندا

بلنسية في 3 مايو 2004



أمبروسيو هويثي ميراندا رفقة حفيدته مرثيديس

وحفيده ميغيل (بلنسية 1960)

تقديم

بقلم المترجم

1- هويثي ميراندا: من اليسوعية إلى الاشتراكية

ينتمي "أمبروسيو هويثي ميراندا" Abrosio Huici Miranda إلى جيل المستعربين الإسبان الذين كان يطلق عليهم اسم "بني كوديرا" Beni Codera نسبة إلى أستاذهم ومؤسس الاستعراب الإسباني المعاصر "فرانثيسكو كوديرا إي زيدين" Francisco Codera y Zaidin، وهم إضافة إلى "ميراندا"، من سيصبحون فيما بعد أعلام الاستعراب الإسباني في النصف الأول من القرن العشرين مثل "خوليان ريبيرا" Julian Ribera و"أسين بلاثيوس" Asin Palacios و"أنخل كونثالث بالينثيا" Angel Gonzalez Palencia و"إميليو غارثيا كوميث" Emilio Garcia Gomez.

كانت ولادة ميراندا سنة 1880 في قرية "أواتي" Huate بضواحي مدينة "بنبلونة Pamplona (شمال شرق إسبانيا)، في عائلة ميسورة، حيث كان والده طبيباً للقرية وأحد أعيانها. وقد نشأ نشأة دينية كاثوليكية، وهو ما دفعه لينخرط في بداية شبابه في إحدى الهيئات اليسوعية (جماعة المسيح) Compania de Jesus التي سهلت له منحة دراسية، أهلته للحصول على ليسانس في الأدب والفلسفة من جامعتي شلمنكة وسرقسطة سنة 1904، وقد أرسلته بعد ذلك هذه الهيئة الدينية إلى لبنان سنة 1905 لدراسة اللغات الشرقية في جامعة القديس يوسف ذات التوجه المسيحي. وإثر عودته إلى إسبانيا تسجل في جامعة غرناطة حيث حصل على شهادة ليسانس ثانية سنة 1908، وهي نفس السنة التي ناقش فيها أطروحة الدكتوراه التي سبق وسجلها بجامعة مدريد.

ومما لا شك فيه أن مروره بغرناطة سمح له باكتشاف الميراث الحضاري الأندلسي والذي سوف يشتغل به طيلة حياته. وكانت أولى بوادر ذلك قيامه بتأسيس مركز الدراسات التاريخية

في مدريد عام 1910 رفقة صديقيه "خوليان ريبيرا" و"أسين بلاثيوس"، حيث أشرف الثلاثة على تصنيف وفهرسة جزء من المخطوطات الأندلسية الموجودة في إسبانيا.

وكان ميراندا، قد انتقل سنة 1909 وبتشجيع من صديقه وأستاذه "ريبيرا" إلى المغرب، لتعميق معارفه في اللغة العربية وفي نفس الوقت للبحث عن نسخ جديدة من المخطوطات التي يشتغل به. وأثناء مقامه ذاك بالمنطقة التي ستصبح فيما بعد خاضعة للحماية الإسبانية في المغرب، انتقد المخططات الاستعمارية التي كانت تستهدف المغرب، وعبر عن ذلك من خلال المراسلات التي كان يبعث بها من هناك بانتظام إلى الصحف المعروفة آنذاك ومن بينها "الإمبرثيال" El Imparcial و"البلانكو إي نيكرو" El Blanco y Negro و"الدياريو دي نبرة"[1] El Diario de Navarra، وكذا من خلال محاضرة ألقاها بمدريد في مجمع "أتينيو" Ateneo العريق عام 1910 إثر عودته إلى إسبانيا.

لقد اكتشف ميراندا من خلال دراساته المتعمقة للحضارة الأندلسية وكذا للحضارة اللاتينية (سيصبح أستاذاً مبرزاً في اللغة اللاتينية) أن مبادئه لا تتماشى وما يقول به المجمع اليسوعي الذي ينتمي إليه، كما لا تتماشى مع توجهات النظام الملكي القائم في إسبانيا والذي كان يبارك استعمار المغرب. وهكذا قرر ترك هذا المجمع اليسوعي في وقت اقتنع فيه أن ميوله الحقيقي لجمهورية اشتراكية. وبما أنه كان واعياً أن إقدامه على تلك الخطوة، لم يكن ليمر دون أن يدفع الثمن، خصوصاً وأن هذا المجمع الذي مول دراسته داخل وخارج إسبانيا، لم يكن مستعداً للتخلي عن واحد من شبابه الواعدين، فقد احتفظ بالأمر سراً لبعض الوقت، وهكذا ففي مذكراته التي كتبها عام 1909 باللغة الإسبانية، يستعمل عبارات باللغة العربية للتعبير عن هذه الأمور، وذلك دون شك تخوفاً من أن تقع في يد الرقيب، فيكتب بلغة عربية في نفس النص الإسباني وبحروف لاتينية Ana nehib el chumhurie y el ichtiraki "أنا نحب الجمهوري والاشتراكي"، ثم يواصل باللغة الإسبانية "بالأمس مرت سنة" قبل أن يتم الجملة بالعربية، دائماً بحروف لاتينية u ana muharrar و"أنا محرر" (يقصد مرور سنة على تركه اليسوعية).

غير أن هويثي ميراندا والذي اقتنع بالنظام الجمهوري من أعماقه وكان من مؤسسي حزب اليسار الجمهوري الإسباني، سرعان ما تبين له بعد سقوط الملكية وتولي الجمهوريين السلطة

1- تجاوز عدد المقالات الصحفية التي نشرها عن المغرب المعاصر سنة 1909، الخمسين، نصفها تقريبا انتقد فيها التكالب الاستعماري الأوروبي. وحتى يتفادى الأضرار التي يمكن أن يسببها له ذلك، وقع هذه المقالات باسم مستعار.

عام 1931، أن هذا النظام لا يختلف عن غيره، وهنا يقرر ترك الحزب ويخصص كل وقته للبحث التاريخي، وهو ما لم يغفره له الجمهوريون الذين قاموا بنهب دار الكتب التي كان يمتلكها في بلنسية. إلا أنه ومن سخرية الأقدار لم يكن مصيره ومصير دار الكتب التي في ملكه بأحسن من هذا، بعد أن وضعت الحرب الأهلية أوزارها عام 1939، فقد نُهبت هذه الدار من جديد بعد اعتقاله، حيث وجه إليه الفرنكاويون تهماً أخطر بكثير من تلك التي وجهها إليه الجمهوريون، نذكر من بينها التحريض على التمرد والترويج للأفكار الاشتراكية من خلال ما يبيعه من كتب، وتأسيس فرع حزب اليسار الجمهوري في بلنسية والانتماء إلى الماسونية، وكانت هذه التهمة الأخيرة وحدها كافية لصدور حكم الإعدام في حقه، كما حدث مع الكثيرين. غير أن المحكمة العسكرية التي وقف أمامها كانت "رحيمة به" بحيث اكتفت بإصدار حكم مدته اثنتا عشرة سنة سجناً نافذة. وبعد مرور سنتين وهو في المعتقل تبين أن جل هذه التهم ملفقة، وهو ما أدى إلى إعادة الحكم، حيث صدر في حقه حكم سنتين سجناً مع وقف التنفيذ، شريطة البقاء رهن الإقامة الإجبارية، وهي الوضعية التي لم تكن أحسن من السجن بالنسبة له، لأنها كانت حسبه تحول دون انتقاله إلى مراكز وجود المخطوطات العربية التي يقوم بتحقيقها أو ترجمتها وذلك حتى يتمكن من مقارنة النسخ وضبط الهوامش. ومع كل ذلك، لم يتأخر في العودة إلى السجن من جديد، حيث تم اعتقاله عام 1948 بعدما أصبحت قراءته الثورية التجديدية للتاريخ الأندلسي، تزعج منظري الفرنكاوية الذين سعوا دائماً إلى طمس الدور الذي كان للحضارة الأندلسية، في تكوين الهوية الثقافية الإسبانية.

إن المواقف السياسية التقدمية لميراندا، ورفضه لسلطة الكنيسة وديكتاتورية فرانكو وقراءته التجديدية للتاريخ الأندلسي، وكما كانت وراء اعتقاله أكثر من مرة، كانت وراء حرمانه من التدريس في الجامعة، بحيث بقيت أبوابها مغلقة في وجهه طيلة حياته، بخلاف زملائه أمثال بلاثيوس و"بالينثيا" و"غرثيا كوميث"، وهكذا لم تنفع شهادة الدكتوراه التي حصل عليها بامتياز سنة 1908، ولا الجائزة التي تقدمها جامعة مدريد لأحسن أطروحة تناقش فيها خلال السنة، كما لم تنفع شواهد ليسانس الثلاث التي حصل عليها ما بين 1904 و 1917، في وقت كانت هذه الشواهد عملة نادرة تفتح أبواب الجامعة على مصراعيها لكل حاصل عليها. ولم يقف الأمر عند ذلك، بل طُرد كذلك من التعليم الثانوي كأستاذ مبرز للغة اللاتينية.

والظاهر أن هذا الحيف المرتكب في حقه، خلق لديه نوعاً من المرارة رافقه طول حياته، وهكذا كتب وهو في خريف العمر وقد تجاوز الثمانين عن هذه الوضعية متمنياً أن يقدم في يوم ما تفسيرا لهذا الإقصاء.

غير أن ذلك وإن حال دون التواصل المباشر بين ميراندا وبين طلبة الجامعة، فإنه لم يحل دون مواصلة تطوير منهجه في البحث التاريخي المتعلق بالأندلس، وهو ما سمح لكتاباته في هذا التخصص بفرض نفسها ليس فقط في إسبانيا وإنما خارجها كذلك، بدءاً من المغرب الخاضع آنذاك للاستعمار، حيث أصبح من الأقلام الفاعلة في مجلتي هيسبريس وتمودة، ثم فرنسا حيث ساهم بأكثر من خمسين مقالة في الطبعة الفرنسية من دائرة المعارف الإسلامية، ثم إنجلترا حيث أصبح قسم الحضارة الإسلامية بجامعة كامبريدج يعتبره مخاطبه الرئيسي، من بين الباحثين الإسبان المتخصصين في الدراسات الأندلسية، خصوصاً بعدما قام به من تحقيقات وترجمات لأمهات المصادر المتعلقة بتاريخ الغرب الإسلامي.

لقد وعى ميراندا، خصوصاً في المراحل الأخيرة من حياته، بأن التاريخ الأندلسي لا يجب أن يبقى حكراً على المنابر الأكاديمية والدوريات المتخصصة، وإنما يجب أن يصل إلى الجمهور الواسع، وهنا اعتبر أنه أمام مهمة اجتماعية تتمثل في تعريف سكان مدينته، -بالتبني- بلنسية بماضيها الأندلسي المجيد، وهكذا خصص السنوات العشر الأخيرة من حياته لكتابة مقالات صحفية مبسطة تصدر في الجرائد المحلية عن هذا الماضي، وقد تجاوز مجموع هذه المقالات المائة. لكن وفي نفس الاتجاه، ألف كتاباً أكاديمياً عن هذه المدينة صدر له سنة 1971 وعمره آنذاك تجاوز التسعين، وفيه فند العديد من الأساطير التي ألصقها المؤرخ المعروف "مينينديث بيدال" Menéndez Pidal بهذه المدينة ومرحلتها الإسلامية.

لقد توفي هويثي ميراندا سنة 1973 عن عمر يناهز 93 سنة، مخلفاً وراءه إرثاً من 13 ألف صفحة عن تاريخ الغرب الإسلامي الذي أحبه وأحب رجاله العظام، لدرجة أصبح هذا الحب مسيطراً على كيانه، ومما لاشك فيه أن رغبته الأخيرة والمتمثلة في "إخفاء خبر موته" كان فيها الكثير من التأثر بشخصية مؤسس الإمبراطورية الموحدية المهدي بن تومرت، والذي أشُكُّ أن يكون هناك من درس سيكولوجيته والأهداف الحقيقية وراء ادعائه المهدوية وطبيعة عقيدته، أحسن من ميراندا. وأظن أن خير ما يمكن أن نقوله عن ميراندا في ذكرى وفاته

الواحدة والثلاثين هو تكرار جملة المعلم الكبير "بيدرو شالميتا" Pedro Chalmeta الذي كتب بلغة عربية وحروف لاتينية في حق الرجل: "Rahimahu Allah رحمه الله وجعلنا نحذو حذوه" في مجال الكتابة التاريخية.

2- الكتابة التاريخية عند هويثي ميراندا

بخلاف صديقه أسين بلاثيوس والذي حاول فهم الحضارة الإسلامية في الأندلس اعتماداً على الدين وعلومه المختلفة وعلى رأسها التصوف، حاول ميراندا فهم الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس من خلال قراءة جديدة للتاريخ السياسي للغرب الإسلامي، وهكذا بين بأن تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية إبان القرون الوسطى (وليس تاريخ الأندلس فقط) لن يفهم بالشكل المطلوب دون اعتماد المصادر العربية، وكان المؤرخون الإسبان المهتمون بالجزء المسيحي من بلادهم يعتبرون أن دراسة ذلك التاريخ لا يفرض التمكن من العربية، كما كان المؤرخون العرب المهتمون بتاريخ الأندلس يرون أن التمكن من اللغة الإسبانية ليس ضرورياً لدراسة ذلك التاريخ.

لقد كانت اللبنة الأولى التي اعتمدها ميراندا في مدرسته هي التمكن من اللغات، وهكذا وبعد أن أتقن اللاتينية تمكن من العربية والعبرية، كما أتقن البرتغالية والفرنسية والإنجليزية والألمانية إضافة إلى اللغة البلنسية، والإسبانية لغته الأم.

وإذا كان التمكن من اللغات جعل ميراندا يتميز عن المؤرخين العرب والإسبان المهتمين بتاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية الإسلامي والمسيحي، فإن تمكنه من المنهج التاريخي (حصل على الليسانس في التاريخ عام 1917) جعله يتميز عن بقية المستعربين الإسبان، والذين وإن تمكنوا من اللغة العربية كان ينقصهم المنهج وكيفية التعامل مع النصوص التاريخية والآثار العمرانية، لذا كان اهتمامهم وبروزهم في مجالات أخرى متعلقة بالتراث الحضاري الأندلسي غير التاريخ.

لقد بدأت مهمة البحث التاريخي عند ميراندا بالتعريف بأمهات المصادر العربية، وهكذا شرع سنة 1908 وعمره 28 سنة في ترجمة كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس" لابن أبي زرع إلى الإسبانية. وعلى امتداد ستين عاماً نشر وحقق وترجم عشرات الكتب النادرة عن الغرب الإسلامي، كان آخرها "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة و الذي صدر بالإسبانية عام 1966 [2].

2- انظر قائمة المصادر العربية التي ترجمها هويثي ميراندا من الإسبانية إلى العربية في نهاية هذه الدراسة.

والظاهر أن القيام بهذا العمل في إسبانيا خلال تلك المرحلة المبكرة كان شيئاً خارجاً عن المألوف، ومجهوداً غير مضمونة ثماره، ومع ذلك لم يتوقف عنه أبداً، رغم ما كان يجده من عراقيل في نشر ما يترجمه، وهذا ما يعبر عنه عام 1910 وكان قد شرع في ترجمة كتاب العبر لابن خلدون، عندما يقول: « *ليس لي أمل في نشر ما أقوم بترجمته، لكن هذا لن يحول دون مواصلتي العمل في ذلك*».

ولم يكن اهتمامه بالمصادر اللاتينية التي تعود إلى نفس المرحلة بأقل من اهتمامه بالمصادر العربية، بحيث ساهم في التعريف بالعديد منها والتي كانت مجهولة إلى ذلك التاريخ. وقد سمح له هذا وذاك بإصدار كتابين يمكن اعتبارهما من عيون تاريخ الأندلس هما: "تاريخ حروب الاسترداد من خلال المصادر العربية" و"تاريخ حروب الاسترداد من خلال المصادر المسيحية"، هذا الأخير اعتبره ليفي بروفنصال ضرورياً لفهم تاريخ الغرب الإسلامي، حيث كتب بشأنه ما يلي: « *رغم مرور حوالي أربعين سنة على صدوره، يبقى كتاب تاريخ حروب الاسترداد من خلال المصادر المسيحية الذي ألفه (ميراندا) لأهداف بيداغوجية، أهم ما صدر في الموضوع إلى اليوم*»[3].

لقد وضع ميرندا إذاً الأسس التي أقامت عليها الاستريوغرافية الإسبانية المهتمة بالقرون الوسطى بناءها، حيث وعى المؤرخون الإسبان المهتمون بهذه المرحلة بأن تعلم اللغة العربية يعتبر أمراً ضرورياً لفهم تاريخ بلادهم، لما تتضمنه هذه اللغة من مصادر تهم التاريخ الإسباني. وكان من نتائج ذلك أن ظهر جيل جديد من المؤرخين في الجامعة الإسبانية، ينتمون إدارياً لأقسام اللغة العربية، وليس لأقسام التاريخ.

غير أن مدرسة هويسي ميراندا في الكتابة التاريخية لها فضل آخر على تاريخ الأندلس، فضبطه للتاريخ السياسي والعسكري للغرب الإسلامي في علاقته بإسبانيا المسيحية، سمح للمؤرخين الذين جاؤوا من بعده بالخوض في مجالات أخرى لم تُدرس من قبل مثل الفنون والعلوم والمجتمع والاقتصاد، بحيث نجد اليوم، باحثين تخصصوا -انطلاقاً من المخطوطات المتوفرة- في الفلاحة أو الصيدلة أو الطب أو علم الفلك بالأندلس.

3- صدر في جزءين عام 1913. انظر قائمة الأعمال الكاملة لأمبروسيو هويثي ميراندا في نهاية هذا الكتاب.

4- Ambrosio Huici Miranda .Historia Politica del Imperio Almohade .Estudio Preliminar. Emilio Molina Lopez y Vicente Carlos Navarro. Ed. Universidad de Granada., 2000 . P. 692 .

3- منهجية الكتاب المترجم

على الرغم من مرور حوالي نصف قرن على صدوره، وعلى الرغم من ظهور دراسات أكاديمية متعددة بالعربية والفرنسية والإسبانية عن الدولة الموحدية خلال العقود الأخيرة، يبقى "التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية" أوفى عمل، في تقديرنا، تناول الحياة السياسية في العصر الموحدي. وعلى غرار بقية مؤلفاته، كان هويثي ميراندا في هذه الدراسة مصاباً بـ"إرهاص الموضوعية" على حد تعبير واضعي تقديم الطبعة الإسبانية الجديدة من الكتاب[4]. وهكذا ومن أجل الاقتراب من الحقيقة التاريخية، يضع في كل حادثة يوردها مقارنة دقيقة بين ما جاء في مختلف المصادر التي ساقتها، ويصل أحياناً عدد المصادر التي يوردها حول الحادثة الواحدة إلى ستة أو سبعة، كلها تنتمي إلى نفس مرحلة الحدث أو متأخرة عنها بفترة غير طويلة. ويتوخى أن تكون بلغات مختلفة، ولأشخاص ينتمون إلى ثقافات وإيديولوجيات متباينة. وبعد أن يعرض لكل ما قيل يبدي رأيه والذي قد يدعم أحد الآراء التي أوردتها هذه المصادر، وقد يرفضها جميعاً، وهنا يُحَكِم منطقه.

وعندما يتعلق الأمر بالمواجهات العسكرية وطبيعة سير المعارك، لا يكتفي بالمصادر، وإنما ينتقل إلى عين المكان، خصوصاً إذا ما تبين له أن ما جاء في هذه المصادر لا يتماشى مع تضاريس المنطقة. فمع اقتناعه بأن التاريخ لا يمكن أن يتحرك إلا في الجغرافية، يعيد، بناءً على تضاريس المنطقة، تركيب المعارك، متوقفاً عند مكان وقوعها وعدد الجنود الذين شاركوا فيها والمكان الذي وضع فيه كل طرف مخيمه، وقد يصل إلى نتائج يرفض من خلالها التسليم بالمكان الذي تقول المصادر إن المعركة وقعت فيه. كما يرفض أحياناً أخرى، دائماً انطلاقاً من تحريات ميدانية، التسليم بأن بعض الحصون المندرسة التي وقعت فيها مواجهات عسكرية، توجد في الأماكن التي حددتها المصادر، وإن كان يعترف بعجزه في تحديد مكانها بالضبط. يقول عن حصن تجمع المصادر أن إحدى المعارك وقعت فيه: « *إن حصن طرش الذي يجعله صاحب البيان المغرب بمنطقة الينتخو لا يمكن أن يكون هو تورش بردش كما يظن دوزي، و لا حصن طمان، والحقيقة أنني لا أستطيع ضبط مكانه، كما لا يمكن أن نسلم حول مكانه بما ورد عند ابن عذاري، لأنه ونساخه غير أندلسيين، لذا فهم يجهلون أسماء الأماكن في شبه الجزيرة، والتي يكتبونها في كثير من الأحيان بشكل غير مضبوط* ». وللتذكير، فغير ما مرة كان ميراندا يبدي أسفه على عدم إنجاز أبحاث أركيولوجية جادة تسمح باكتشاف أماكن تاريخية في المغرب والأندلس، تُمكن

من تسليط أضواء جديدة على تاريخ الغرب الإسلامي. يقول في هذا السياق: «*قد يسمح القيام بدراسة جغرافية أو طبوغرافية متأنية لمنطقة وادي سوس بالتعرف على عدد من الأماكن التي وردت أسماؤها في المصادر التاريخية*». وهنا تجدر الإشارة إلى أن التحريات الأركيولوجية في إسبانيا خلال العقدين الأخيرين، سمحت باكتشاف عدد من ساحات المعارك وبقايا قلاع وقطع أثرية تتضمن معطيات جديدة حول تاريخ الأندلس.

وكما يبدي ميراندا رأيه في أماكن وقوع المعارك، يبدي رأيه في بعض ما هو شائع عن النتائج السياسية بعيدة المدى لبعض المعارك المشهورة مثل الأرك وشنترين والعقاب، بحيث يفاجئنا بخلاصات على درجة كبيرة من الجرأة.

لقد سمحت لميراندا الدراسة النقدية التي قام بها للمصادر العربية والمسيحية الوسطوية بتصنيف أصحابها حسب مصداقيتهم، فميز فيهم بين المتملق وذي الخيال الخصب في اختلاق الروايات، ومن تخونه الذاكرة، والذي يتناقض مع نفسه قبل أن يتناقض مع غيره، وأعطى لكل واحد صفة أصبح يعرفه بها كلما اعتمده كمصدر. وهكذا يقول عن ابن عذاري بخصوص ما أورده حول إحدى الحملات: « *يتهرب من إعطاء تفسير منطقي لما وقع ويقدم رواية يلفها الغموض*»، و يقول عن ابن خلدون بخصوص ما جاء عنده حول نفس الحملة: « *...وبموضوعيته المعهودة، لا يعير كبير اهتمام للخرافات*»، ويقول عن راوول ديسيتو Raul Diceto بخصوص الحملة ذاتها: « *تجعلنا إطلالة سريعة على ما كتبه... نقتنع أن ما يرويه لا يمكن أن يسلم به العقل البشري، لأنه يفوق المصادر العربية فيما يتعلق بمزج أحداث الحملة بعنصر الخيال*». و لا يتردد، وبحثاً عن المصداقية، في استعمال نفس المقياس مع المتأخرين من المؤرخين، وهكذا يقول عن دوزي : «*الظاهر أنه لم يطلع على عدد من المصادر المسيحية المهمة، أو أنه اطلع عليها ولم يعرف كيف يستفيد منها*».

وقد وضع ميراندا لكتابه "التاريخ السياسي للامبراطورية الموحدية" تصميماً خاصاً، حيث بدأه بمقدمة ومدخل، ثم قسم العمل إلى اثني عشر فصلاً اعتمد فيها التسلسل الكرنولوجي. وبحكم الطابع السياسي للكتاب فقد اهتم كل فصل بالأحداث السياسية والعسكرية التي وقعت في عهد خليفة من خلفاء الدولة الموحدية. وكان عدد صفحات الفصل تكثر أو تقل بحسب أهمية الخليفة والأحداث التي وقعت في عصره، وهكذا يصل عدد صفحات الفصل الأول حوالي سبعين بينما لا يتجاوز عدد صفحات الفصل السادس، عشراً، ويتضمن كل فصل عددا من

العناوين الجانبية غير المرقمة، تصل في الفصل الثاني إلى ثلاثة وثلاثين، بينما لا تتجاوز في الفصل الثاني عشر عنواناً واحداً، ويضيف في بعض الفصول ما يسميه اعتبارات عامة.

وتنتهي الدراسة بملحقين يتضمن الأول ما يسميه بالأساطير التي وردت في المصادر العربية عن بعض الشخصيات الموحدية، حيث يقدم لنا إحدى عشرة أسطورة من بينها أسطورة لقاء المهدي بالغزالي، وأسطورة دفن الأحياء، وأسطورة الرجل الذي ضحى بحياته من أجل عبد المومن.

أما الملحق الثاني فيتضمن السيرة الذاتية للخلفاء الموحدين وأقاربهم من الذين شغلوا مناصب رسمية. وإن عدم إقدامنا على ترجمة الملحقين، يعود لكونهما لا يضيفان، في نظرنا، جديداً بالنسبة للقارئ العربي، الذي يمكنه الاطلاع على ما يتضمنانه، في المصادر العربية التي يحيل عليها المؤلف، بخلاف القارئ الإسباني الذي يتوجه إليه المؤلف في النص الأصلي، وهو قارئ لا يعرف العربية أولاً، ولم يكن بميسوره ثانياً الوصول إلى تلك المصادر، وكان العديد منها، مخطوطاً وقت صدور كتاب ميراندا.

ومن الصعوبات التي اعترضتنا، هناك عملية ضبط وتحيين هوامش وببليوغرافية الكتاب، فالهوامش غير كاملة، بحيث عادة ما لا يذكر المؤلف دار النشر وسنة صدور المرجع، كما يغفل أحيانا ذكر شهر وسنة المجلات والدوريات المعتمدة. أما الببليوغرافية التي أدرجها في نهاية الدراسة، فيكتفي فيها بإيراد أسماء المؤلفين دون عناوين كتبهم. من هنا وجب القيام بضبط وتحيين الهوامش ووضع ببليوغرافية جديدة تأخذ بعين الاعتبار ما صدر من كتب وحقق من مصادر لها علاقة بالموضوع، خلال العقود الأخيرة.

هناك صعوبة أخرى، تهم أسماء الأماكن (قلاع وحصون ومدن وأودية أندلسية)، فكتابتها بشكل مضبوط، أو على الأقل أقرب إلى الصواب، لم يكن بالأمر السهل، لاعتبارات متعددة؛ فبعضها يحمل بالعربية أسماء غير التي يحملها بالإسبانية، والتي وردت بها عند ميراندا. وقد حتم علينا ذلك العودة إلى المصادر العربية، وهنا وجدنا أنه ليس هناك اتفاق على طريقة كتابتها، خصوصاً أن بعض مؤلفي هذه المصادر، وعلى اعتبار أنهم من غير الأندلسيين، كانوا يكتبونها بشكل خاطئ، وهنا وأمام صعوبة الاختيار، أوردنا اسم المكان بالكيفية الذي تتكرر كتابته في أكثر من مصدر، مع الإشارة في الهامش إلى الطريقة التي كتب بها في بقية المصادر.

هناك صعوبة ثالثة، وتتعلق بأسماء بعض القلاع التي لم تعد موجودة، أو قليلة الأهمية، وقد لا نجد أحياناً ذكراً لها في المصادر العربية، لذا قمنا بكتابتها بالعربية، حسب الكيفية التي تنطق بها بالإسبانية. في نفس السياق، وحتى نسهل مهمة القارئ، وضعنا لائحة في نهاية الدراسة بأسماء الأعلام والأماكن الأندلسية غير الشائعة، مع كيفية كتابتها بالإسبانية والعربية.

عبد الواحد أكمير

الرباط في 18 يوليوز 2004



أمبروسيو هويثي ميراندا (بيروت 1905)

المترجم (عبد الواحد أكمير)

- حاصل على دكتوراه في تاريخ أمريكا اللاتينية من جامعة كومبلوتينسي بمدريد
- أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب بالرباط
- مدير مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات بالرباط
- عضو أكاديمية أمريكا الشمالية للغة الإسبانية
- خبير اليونيسكو في شؤون الهجرة (مشروع العرب في أمريكا اللاتينية)
- حاصل على جائزة عبد الحميد شومان في العلوم الإنسانية (عمّان 1998)

من مؤلفاته

- العرب في الأرجنتين (بالعربية والإسبانية)
- الهجرة إلى الموت (إسبانيا وأحداث إليخيدو)
- وصف الممالك المغربية (ترجمة من الإسبانية إلى العربية)
- الحضور المغربي في إفريقيا الغربية (بالاشتراك مع باحثَيْن آخَرَيْن)
- العالم العربي وأمريكا اللاتينية (بالاشتراك مع مجموعة من الباحثين).

مقدمة

لم يتم لحد الآن كتابة تاريخ الغرب الإسلامي بالجدية والعمق اللازمين؛ فبالنسبة لإسبانيا المسلمة لم يظهر وبعد قرن كامل من صدور كتاب "دوزي" Dozy "تاريخ مسلمي إسبانيا" الذي يهم المرحلة الممتدة بين وصول المسلمين إلى إسبانيا وغزو المرابطين لها، إلا كتابا واحدا في المستوى المطلوب، هو الذي نشره "ليفي بروفنصال" Levi Provençal تحت عنوان "تاريخ إسبانيا المسلمة"، حيث تناول في أجزائه الثلاثة الأولى الأوضاع الداخلية والخارجية لإسبانيا المسلمة إلى غاية سقوط الخلافة الأموية. أما بالنسبة لشمال إفريقيا فإن الأمر لا يختلف، وهكذا فبعد تجربة "ايرنست ميرسيي" Ernest-Mercier -رائد الأبحاث العلمية الجادة حول هذه المنطقة- في نهاية القرن التاسع عشر، والتي توجها بكتاب صدر سنة 1888م تحت عنوان: "تاريخ إفريقيا الشمالية منذ أقدم العصور وإلى غاية الغزو الفرنسي"، لخص فيه كل ما ورد من معلومات حول الموضوع في المصادر المعروفة والكتب المنشورة إلى ذلك التاريخ، وبالتالي قدم لنا نظرة سياسية شاملة عن التقلبات التاريخية التي عرفها شمال إفريقيا وعن علاقة هذه المنطقة بشبه الجزيرة الإيبرية وصقلية. بعد تجربته تلك، لا نجد ورغم مرور مدة زمنية نسبياً طويلة، كتاباً آخر يفوقه من حيث الأهمية، غير ذاك الذي نشره منذ فترة قصيرة "شارل آندري جوليان" Charles André Julien تحت عنوان: تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس والجزائر والمغرب) من الفتح العربي إلى سنة 1830م، والذي قام بمراجعته وتنقيحه "روجي لو تورنو" Roger le Tourneau عام 1952م، معتمداً في ذلك على كل المصادر العربية المهمة التي اكتشفت على امتداد النصف الأول من القرن العشرين. على أنه وسواء تعلق الأمر بـ"ميرسيي" أو "أندري جوليان" فإنهما يكتفيان بتقديم فكرة عامة ومختصرة عن تاريخ شمال إفريقيا.

من خلال ما سلف ذكره، يتبين أنه من المتعذر كتابة التاريخ العام لشمال إفريقيا المسلمة بالعمق والصرامة العلمية اللازمين قبل دراسة هذا التاريخ مجزأ بحيث تتم الإحاطة أولاً وبدقة بمختلف مراحله، من خلال إنجاز أعمال مونوغرافية يمكن الاستفادة مما تقدمه لنا.

وللمساهمة في تحقيق هذه الغاية، وجهنا اهتمامنا لدراسة تاريخ الإمبراطورية الموحدية بشكل عام، بحيث كان علينا أولاً القيام بتمحيص دقيق للمادة الغزيرة المتوفرة والتي ستسمح لا محالة بتقديم فكرة واضحة ودقيقة عن التاريخ السياسي لهذه الإمبراطورية. ومن المصادر الأساسية التي اعتمدناها نذكر كتاب "أعز ما يطلب" الذي جمع فيه عبد المومن تعاليم المهدي، والذي سمح الاعتماد عليه وعلى الشروحات والتعاليق التي ذيلها به "كولدزيهير" Goldziher بدراسة العقيدة الإصلاحية الموحدية[1]، ثم مذكرات البيدق[2]، وكذا الجزء الثامن من "نظم الجمان"[3] الذي يقدم معلومات إضافية عن التنظيم الذي أنشأه ابن تومرت والأسس التي يقوم عليها والثقل الذي تمثله القبائل المؤسسة داخل الإمبراطورية، إضافة إلى الجزء الثاني من كتاب ابن صاحب الصلاة "المن بالإمامة"[4] والمخصص لتاريخ الأسرة الموحدية والذي تكمن أهميته فيما يقدمه من معلومات ثم فيما يتضمنه من وثائق.

وبخصوص الرسائل الرسمية التي اعتمدناها، فإنها كذلك ذات أهمية قصوى، أولاً لما تقدمه من معلومات حول الطابع التيوقراطي والشمولي للحكومة الموحدية، وثانياً لكونها تقدم فكرة مفصلة عن أهم مراحل تاريخ هذه الدولة.

وبجانب هذا وذاك، اعتمدنا مصادر أخرى نذكر من بينها "البيان المغرب"[5]، والذي يقدم لنا من خلال نسختي المخطوط الموجودتين في باريس ولندن، الرواية الأكثر دقة عن مراحل سير الدولة الموحدية، و"الروض المعطار"[6] والذي سمحت فصوله ذات الطابع الجغرافي والمتبوعة

1- حول آخر طبعة من الكتاب، انظر محمد بن تومرت (المهدي)، "أعز ما يطلب"، تقديم وتحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997. (المترجم).

2- أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق)، "أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971.

3- ابن القطان، "نظم الجمان"، تحقيق محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، د. ت.

4- عبد المالك بن صاحب الصلاة، "المن بالإمامة"، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1987.

5- ابن عذاري المراكشي، "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب"، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني ومحمد بن تاويت ومحمد زنيبر وعبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1985.

6- الحميري محمد بن المنعم الصنهاجي، "الروض المعطار في خبر الأقطار"، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط.2، 1984.

بملاحظات تاريخية، بالاطلاع على ما تضمنته المصادر التي اعتمدها والتي تعتبر مفقودة اليوم، و"الذخيرة السنية"[7] والذي تكمن أهميته فيما يقدمه من معلومات عن طبيعة العلاقة بين الموحدين في نهاية عهدهم وبين المرينيين.

هذا ما تعلق بالمصادر العربية، أما المصادر المسيحية المعتمدة، والتي لم تستعمل إلى حد الآن إلا بشكل محدود، كمادة لدراسة التدخل الموحدي في الأندلس، فهي "التاريخ اللاتيني لملوك قشتالة" و"أخبار الملوك السبعة الأوائل للبرتغال" ثم "التاريخ العام الأول" والذي تقدم نسخته المترجمة إلى البرتغالية إضافات لا نجدها في النص الأصلي.

فيما يتعلق ببقية المصادر العربية المنشورة، التي اعتمدها المؤرخون الأوربيون، ونقصد بها "العبر"[8] و"روض القرطاس"[9] و"المعجب"[10] و"الكامل"[11] و"تاريخ الدولتين"[12]، والتي لا تخصص إلا مجالاً محدوداً للموحدين؛ بحيث يأتي حديثها عنهم في إطار تناولها لما يمكن تسميته بالتاريخ العام، فإنه يجب إخضاعها لنقد وتمحيص صارمين لاعتبارات متعددة؛ فـ "المعجب" مثلاً والذي حرره عبد الواحد المراكشي خلال عهد يوسف الثاني، يتناول العهد الموحدي بنوع من السطحية واعتماداً فقط على ذاكرته الخاصة التي أصابها الوهن، دون شك نتيجة الحياة المضطربة التي عاشها.

وإضافة إلى تواضع ما تورده هذه المصادر، من الناحية الكمية عن العهد الموحدي، فإنها تتضمن أخطاء كثيرة، ناهيك عن افتقارها للموضوعية، ولعل أبرزها فيما يتعلق بهذه النقطة هو "روض القرطاس"، الذي وجدنا أنفسنا -مجبرين- على اعتماده أكثر من أي مصدر آخر، رغم ما ورد فيه من أخطاء وأساطير، ورغم خلطه المستمر بين الصحيح والزائف دون أية موضوعية تاريخية.

7-علي بن أبي زرع الفاسي، "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

8- عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، 1959، القسم الثاني من المجلد السادس.

9- علي بن أبي زرع الفاسي،"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، تحقيق عبدالوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ط. 2، 1999.

10- عبد الواحد المراكشي، "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، ضبط وتصحيح وتعليق وتقديم محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، 1978.

11- علي بن محمد بن الأثير، "الكامل في التاريخ"، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. 2، 1967.

12- أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1289هـ/(1872-1873م).

ومن بين الكتب المعاصرة التي نشرت حول العصر الموحدي والتي اعتمدت على المصادر ال
نحن بصددها هناك كتاب "ميي" R. Millet الذي صدر بالفرنسية عام 1923م تحت عنوان
"الموحدون: تاريخ سلالة بربرية". وهو كتيب صغير يفتقد لكل قيمة علمية، ثم كتاب ثان باللغة
العربية لمحمد رشيد مولين صدر عام 1946م تحت عنوان: "عصر يعقوب المنصور الموحدي أو الحياة
السياسية والثقافية والدينية بالمغرب ما بين 580هـ و595هـ"، فمونوغرافية نشرها بنفس اللغة
عام 1950م محمد المنوني حول العلوم والأدب والفنون في العصر الموحدي، وتفتقر بدورها للروح
النقدية وللاستغلال المطلوب للمصادر حديثة الاكتشاف.

ولم يتم إنجاز دراسة علمية جيدة في الموضوع، اعتماداً على المصادر سالفة الذكر، إلا عام
1952م، يتعلق الأمر بأطروحة دكتوراه باللغة الفرنسية تحمل عنوان: "أبو يوسف يعقوب المنصور
الموحدي 1184م- 1199م" ناقشها في جامعة السربون الباحث سعد زغلول عبد الحميد. وقد
تبين لي، بعد الاطلاع على هذا العمل، أن صاحبه ورغم انتمائه إلى منطقة بعيدة جغرافياً عن
المغرب والأندلس، تمكن من الموضوع تمكناً كبيراً، سمح له باعتماد منهجية علمية رصينة في
دراسته لتلك المصادر. وإذا كانت لنا من ملاحظة على هذا العمل فهي عدم استفادته من المصادر
المكتشفة حديثاً، مثل النسخ الجديدة من مخطوط "البيان المغرب" وخصوصاً مخطوط "الأخبار
التاريخية القشتالية والبرتغالية" وهو ما جعله يقع في بعض الأخطاء التي يتوجب تصحيحها.

إن الكتاب الذي أضعه اليوم بين يدي القارئ، يبين الأهمية التي أولاها المؤرخون والأدباء لهذه
المرحلة المزدهرة من تاريخ الغرب الإسلامي، ومع ذلك فقد ظهر لي مع تناولي للموضوع، أننا
نجهل عنها أكثر مما نعرف، على اعتبار أن جزءاً مهماً من المصادر المعاصرة للأحداث قد
تعرضت للضياع أو لم يتم العثور عليها لحد الآن.

وهكذا فإننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن السنوات العشر التي قضاها المهدي بن تومرت في
المشرق، كما أن الأخبار حول السنوات التسع التي قضاها في نزاع مع المرابطين قليلة وغامضة،
والسبب في ذلك هو التلف الذي أصاب ما كتب في الموضوع، وهكذا فـ"ابن القطان" الذي كتب
الكثير عن الموحدين وكان معاصراً لأواخر خلفائهم، لم يبق لنا من مؤلفه "نظم الجمان" إلا الجزء
الثالث عشر الذي يغطي المرحلة الممتدة ما بين سنة 500هـ و533 هـ، بل وحتى ما يتعلق بهذه
المرحلة القصيرة، فإن العديد من الصفحات الموجودة بالمخطوط الوحيد الذي لم يتعرض للتلف
يستحيل الاستفادة منها بسبب الحالة المتردية التي توجد عليها، نفس الشيء يقال عن مؤلف "الم

بالإمامة" الذي لم يبق لنا منه إلا مخطوط واحد يهم الجزء الثاني الذي يغطي المرحلة الممتدة ما بين 550هـ و 578هـ أي السنوات الأخيرة من عهد عبد المومن وجل عهد يوسف الأول. وقد تأكد لنا بعد الاطلاع على هذا المخطوط بأن ما ضاع منه يعتبر على درجة من الأهمية، لا تقل عن أهمية الرسائل الموحدية، وهي وثائق رسمية كان يأمر بكتابتها الخلفاء والسادة (أبناء الخلفاء) الموحدون والذين كان يوجد في خدمتهم باستمرار عدد من كتبة الرسائل الممتازين. ومما يؤكد كثرة هذه الرسائل، أن الخلفاء لم يكتفوا بكتابتها في المناسبات المهمة، بل أنها كانت أحياناً تكتب دون مناسبة معينة، ذلك لأن الهدف منها كان هو الحفاظ على النظام والانضباط، وضمان الخضوع للسلطة الموحدية، وفي نفس الوقت السير على خطى المهدي في كتابة الرسائل. وقد عثر "ليفي بروفنصال" على بعضها نشره تحت عنوان: "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية"[13].

ومن المصادر القيمة الأخرى التي لم نتمكن من الاستفادة منها كاملة، هناك كتاب "البيان المغرب"، فرغم أن ما أُنقذ منه يتضمن الكثير من التقارير المهمة، فالكتاب ضاع منه معظم ما أهم العصر الموحدي، وقد شمل البتر -في أحسن نسختين من المخطوط نتوفر عليهما- الفصلين الأول والأخير، بحيث لا يبدأ السرد التاريخي في أحسنهما حالاً إلا خلال السنة الخامسة من عهد يوسف الأول وينتهي قبل متم حكم أبي دبوس، أضف إلى ذلك أن أحداثاً مهمة من المرحلة التي تفصل العهدين والتي غطاها المؤلف قد تعرضت هي الأخرى للتلف.

من جهة أخرى، نجهل الكثير عن أسماء الأماكن التي وردت في هذه المصادر والتي كانت توجد بدرجة أولى بالأطلس وسوس ثم بالأندلس وشمال المغرب والجزائر وتونس، بحيث لم يعد لها وجود في الوقت الحاضر أو على الأقل لم تعد تحمل نفس الأسماء، وهكذا فما يورده مثلاً "البيان المغرب" بصدد الأماكن التي كانت بالحي الإمبراطوري في مراكش المعروف باسم "الصالحة"، ليس أكثر من أسماء دون مسميات، ذلك لأنه لم يبق مما شيده الموحدون في هذا الحي غير الأسوار ومسجد المنصور.

فيما يتعلق بالمنهجية التي اعتمدناها في الكتاب، فقد قمنا وبعد وضع التصميم، بالبحث في التاريخ السياسي للدولة الموحدية وبالخصوص في أسسه المتمثلة في الإصلاح الديني الذي قام به المهدي بن تومرت، مراعين بالأساس ضبط التطور الكرنولوجي لهذا التاريخ، وكانت غايتنا من ذلك، وضع حجر الأساس لبناء يمكن أن يسمى مستقبلاً تاريخ الدولة الموحدية في بعده الشمولي.

13- "مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المومنية" (مخطوط مجهول المؤلف) نشر ليفي بروفنصال. المطبعة الاقتصادية، الرباط 1941.

وإذا لم نخض من خلال هذا العمل في الحياة الفنية والأدبية والفلسفية والدينية والاقتصادية للعصر الموحدي، فذلك راجع أولاً لنقص الإمكانيات ثم لإحساسنا بعدم توفرنا على التكوين اللازم في هذه المواضيع. وهنا أعطي كمثال على ذلك، الجانب الثقافي؛ فالتداخل بين ما هو موحدي محض وما هو أندلسي، كبير ومتشابك ويصعب التمييز فيه على غير المتخصص، على اعتبار أن رموز هذه الثقافة عاشوا في العصر الموحدي وكانوا في الكثير من الأحيان من خاصة الخلفاء الموحدين، لكنهم في نهاية المطاف هم نتاج ثقافة أخرى هي ثقافة الإسلام الإيبيري.

❖ ❖ ❖

المؤلف (أمبروسيو هويثي ميراندا: 1880-1973) في سطور

- حاصل على دكتوراه في الأدب اللاتيني من الجامعة المركزية (كومبلوتينسي حاليا) بمدريد، 1908
- مراسل صحفي في المغرب، 1909
- عضو مؤسس لمركز الدراسات التاريخية بمدريد، 1910
- اعتقل وحرم من التدريس في الجامعة بسبب مواقفه السياسية التقدمية

من مؤلفاته

- المعارك الكبرى لحروب الاسترداد خلال عهد الغزوات الإفريقية
- تاريخ مسلمي بلنسية وضواحيها
- تاريخ حروب الاسترداد من خلال المصادر العربية
- تاريخ حروب الاسترداد من خلال المصادر المسيحية
- تحقيق وترجمة كتاب "البيان المغرب" لابن عذاري المراكشي، إلى الإسبانية



توطئة

المرابطون والإسلام في بلاد المغرب[1]

مع نهاية القرن الخامس الهجري كانت الدولة المرابطية قد دعمت نفوذها بشكل كبير في إفريقيا الشمالية الغربية والأندلس، ويرجع الفضل في ذلك، للفترة الزمنية الطويلة التي قضاها يوسف بن تاشفين في الحكم.

لقد رسخت معركتا الزلاقة وأقليش النفوذ المرابطي في الأندلس والذي لم تنل منه انتصارات "السيد القنبيطور"[2] العابرة، وهو ما أعطى للدولة المرابطية طابع الاستقرار والأمان، غير أن ذلك لم يدم إلا وقتاً محدوداً.

من جهة أخرى اختفت الصرامة الدينية والطبع الخشن لأولئك الصحراويين بشكل تدريجي أمام تأثيرات الحضارة الأندلسية، في وقت استأثر فيه الفقهاء، الذين هيؤوا الإطار القانوني ليوسف بن تاشفين للقضاء على ملوك الطوائف في الأندلس بإفتائهم بجواز ذلك، بالمناصب المهمة في الدولة من قضاء وغيره.

وبخلاف الحركية التي ميزت الحياة الدينية في الشرق الإسلامي، فإن الحياة الدينية في بلاد المغرب والأندلس ومنذ سيطر عليها فقهاء المدرسة المالكية في القرن الخامس الهجري،

---

1 - اعتمدت في تحرير هذا الفصل بالأساس على أعمال كولدزيهير "Goldziher" التالية:

-"Materialien zur Kentnis der Almohaden Wewegung". Publicado en el "Zeitschrift der Deutchen Morgenlandischen Gesselschaft", t . XLI, Pp. 30-140.

-"Mohamed Ibn Toumart et la Theologie de l'Islam dans le Magrib au XI siècle". que sirve de "Introduction au livre de Mohamed Ibn Toumart" . "Mahdi des Almohades", Alger, 1903.

-Die Zahiriten, Ihr Lehrsystem und ihre Geschichte . Leipzig, 1884 .

2-اسمه الكامل "رودريكو ديات دي بيبار Rodrigo Diaz de vivar لقب بـ"السيد القنبيطور" El cid campeador، وكان من رعايا ملك قشتالة الفونسو السادس. وقد مزجت المصادر التاريخية الإسبانية المنتمية للقرون الوسطى عند حديثها عن انتصاراته ضد المسلمين، بين الواقع والأسطورة، وحولته بذلك إلى بطل قومي (المترجم).

أصبحت تتسم بنوع من الجمود، وكما لاحظ دوزي فلم يكن مبلغ أولئك الفقهاء المتعصبين أمور الآخرة والجانب الروحي الذي دعا له الغزالي في "إحياء علوم الدين"[3]، وإنما هو إصدار الفتاوى في القضايا القانونية والخلافات التجارية والمدنية، والإشراف على الأعمال الخيرية والأمور المتعلقة بالإرث والأيتام والمناصب العمومية وهبات الأمير الحاكم.

وعلى الرغم من كون القرآن والحديث النبوي هما المصدران اللذان يستند إليهما علما الفقه والأصول، فإن فقهاء العصر المرابطي لم يهتموا بدراستهما والاستنباط منهما، وكانوا يكتفون وبشكل لا يقبل الجدل، بما استنبطه أساتذة المدرسة المالكية من القرآن والحديث، وهو ما جعل كتب الفروع هي المصادر الوحيدة الرائجة، وكانت العودة إلى أمهات المصادر بهدف مناقشتها وإضافة أشياء جديدة لها، مما يعتبر عندهم شيئاً عقيماً لا طائل من ورائه.

و يتحدث ابن طملوس في كتابه "مدخل إلى علم المنطق" عن مراحل تطور معارضة فقهاء الأندلس وبلاد المغرب للأفكار الدينية التجديدية، بحيث استهدفت هذه المعارضة في البداية الأفكار التي تمس بالفقه المالكي ثم بعد ذلك بالحديث والأصول ثم بالعقيدة الأشعرية فبعقيدتي الغزالي وابن تومرت واللتين بعد رفضهم لهما، انتهى بهم الأمر بقبولهما بل وباعتبارهما من مصادر الطريق المستقيم.

ولم يمل هؤلاء الفقهاء من تكرار بأن علمهم مما يقرب إلى الله، لكنهم وبكل بساطة كانوا يسخرون هذا العلم لخدمة مصالح الأمير الذي يوجدون تحت سلطته والذي لم يكن يبخل عليهم في المقابل بتعيينهم في المناصب الرفيعة، وهكذا تحول الفقه معهم إلى وسيلة يكرسون بها الوضع القائم. ولعل فتواهم المعروفة، التي يبررون بها موقف السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين بعد تنحيته لملوك الطوائف لخير دليل على ذلك[4].

لقد كانوا يتبعون حرفياً ما أفتى به مؤسس المدرسة مالك بن أنس دون أدنى اجتهاد؛ تبريرهم في ذلك كون الرعية في بلاد المغرب والأندلس مكتفية بالمعنى الظاهري للنص القرآني دون خوض في التأويلات، سيراً -حسبهم- على منوال السلف الصالح والذي تعتبر أكبر استحقاقاته، إيمانه المطلق بالوحي كما أنزل دون استعمال للعقل ولو كان النص الظاهري معارضاً لما يقبله العقل، والواقع أن فقهاء الغرب الإسلامي وبنحوهم هذا المنحى، بقوا بمعزل عن ما تعرفه المدارس المشرقية من جدل في أمور الدين.

3- رغم ادعائهم بأنهم مدافعون عن العقيدة، كان الغزالي يعيب على الفقهاء حصر اهتمامهم في القضايا الفقهية الدنيوية، وقد بين في "إحياء علوم الدين" أن العقيدة قضية قلبية وأن القلب لا يخضع لفتاوى الفقهاء.

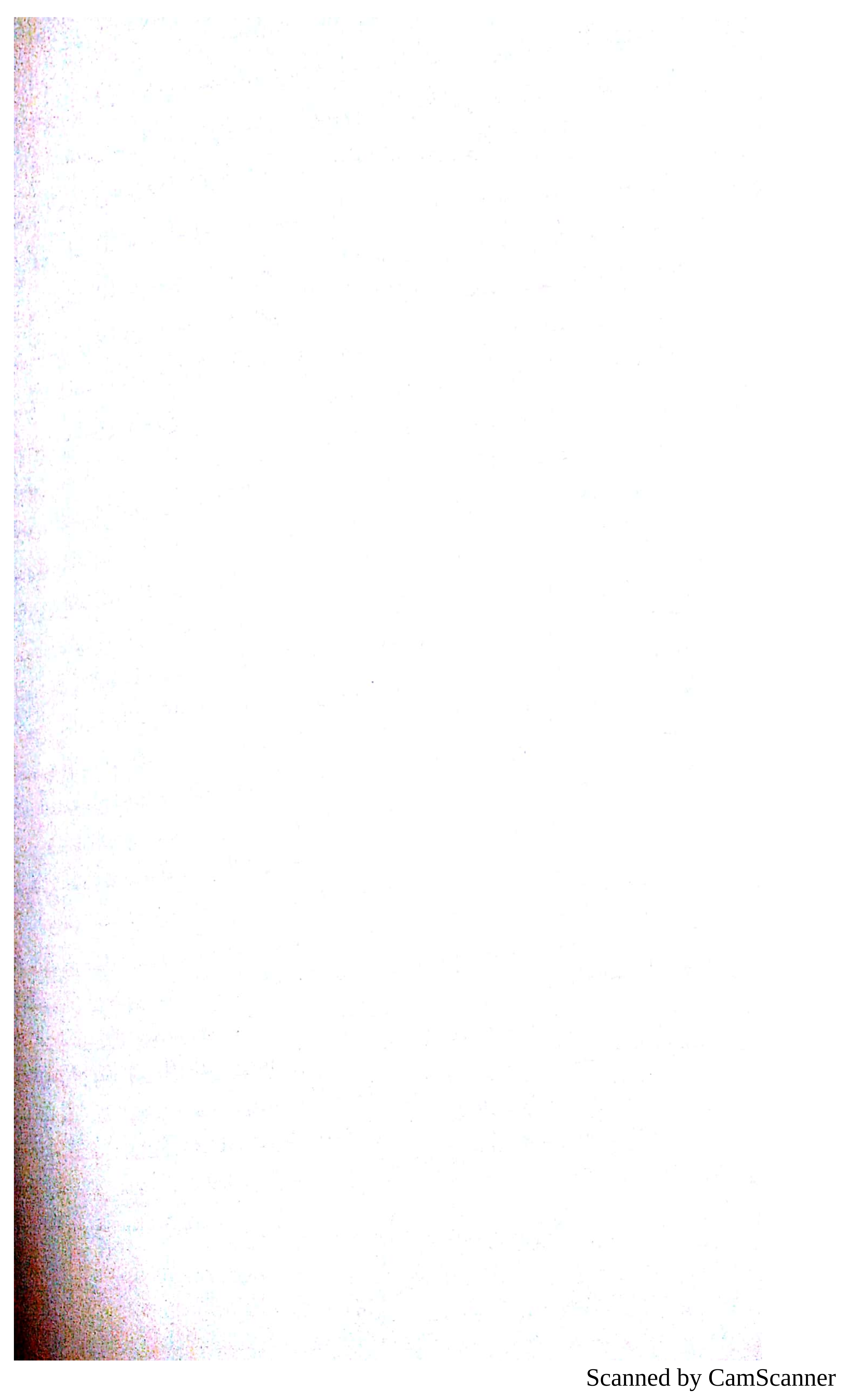
4- بعد أن أفتى فقهاء المغرب والأندلس بعزل ملوك الطوائف، قدموا ليوسف بن تاشفين فتاوى علماء العراق مثل الغزالي والطرطوشي، والتي تقول بنفس ما أفتوا هم به.

وبما أن القرآن يحرم التشبيه بين الصفات الإلهية والبشرية، فقد سهر فقهاء المالكية على خلق قناعة لدى العامة تتمثل في الإيمان والتسليم بالصفات الإلهية التي نجدها عند البشر مثل الاستواء والنظر دون الخوض في مغامرة التوفيق بين معناها الظاهري والباطني.

ولم يكن يعني هذا أن المذهب المالكي المتشدد والمتزمت هو الوحيد الموجود في بلاد المغرب والأندلس، وإنما كانت توجد مذاهب أخرى أتى بها من المشرق علماء المغرب والأندلس الذين كانوا يرحلون باستمرار إلى هناك إما لأداء فريضة الحج أو للأخذ عن كبار علمائه. وإذا كانت الأفكار المشرقية بما تحمله من جرأة بل وبدع قد جعلت بعض العلماء المغاربيين يصابون بالفزع، فإن آخرين تقبلوها عن طيب خاطر بل وتشبعوا بها، لكن عدد هؤلاء يبقى محدوداً، ولا أدل على ذلك النسبة المتواضعة جداً من الذين عادوا إلى بلادهم متأثرين بالفكر الأشعري أو المعتزلي، والذين لم يشكلوا، نتيجة لتواضع عددهم ذاك، أي خطر على فقهاء المالكية وما كانوا يتمتعون به من نفوذ وامتيازات. من جهة أخرى، إن هذه القلة من المفكرين والفلاسفة المتأثرة بالتيارات المشرقية، لا يمكن وصف موقفها إلا بالأرستقراطي؛ ذلك لأنه ومع قناعتها بضرورة الخوض في القضايا الفكرية والتأملية، كانت واعية بأن العامة، بإيمانها البسيط وتكوينها المتواضع، غير قادرة على إدراك ما تخوض هي فيه، لذا وجهت اهتمامها نحو الخاصة والتي كان الواحد من أفرادها يعادل في إدراكه، حسب هؤلاء المفكرين، ألف بل وعشرة آلاف من العامة. ويقدم ابن رشد تفسيراً ذكياً للأسباب التي دفعت الفلاسفة إلى استثناء العامة من تأملاتهم الإسكولائية؛ فالشخص البسيط لم يكن يهمه في شيء -حسبه- الخوض في قضايا مثل التعارض الظاهري بين الخالق الذي يعد وجوده ضرورياً والمخلوق الذي لا يعد وجوده كذلك، أو خلق الكون وهل جاء نتيجة لوجود أسباب ومسببات أم لإرادة أزلية، أو التوقف عند الصفات الإلهية أو عند قضية الجبرية.

في ضوء كل هذا، استمرت الحياة الدينية ببلاد المغرب في حالة من الروتينية المالكية الرافضة لأي تجديد، إلى أن ظهر على مسرح الأحداث طالب مغمور كله حماس وتعصب، قضى عشر سنوات من الدرس والتحصيل في المشرق، اطلع خلالها على أفكار مختلف الاتجاهات الدينية الرائجة، قبل أن يعود إلى بلاد المغرب وهو عاقد العزم على الاستفادة مما تعلمه.

لقد حمل هذا الطالب المشعل بيد وحمل السيف باليد الأخرى، وكان يستعمل هذا وذاك بالتناوب وحسب ما يتطلبه المقام، وهو ما مكنه في النهاية من الوصول إلى مناطق المرابطين ليدمر سلطة بني تاشفين من الأساس، ويفرض إصلاحه الديني ومعه يؤسس أعظم إمبراطورية بربرية في تاريخ شمال إفريقيا.



الفصل الأول

محمد بن تومرت
أصله وشبابه ورحلتاه إلى الأندلس والمشرق

من الصعب العثور، في تاريخ الغرب الإسلامي ككل، على شخصية أكثر إثارة من شخصية محمد بن تومرت واضع أسس الإصلاح الموحدي ومؤسس الامبراطورية التي سوف تعرف بنفس الاسم، فقد ولد بإحدى منخفضات الأطلس الصغير من أبوين لا ثروة ولا جاه لهما، في بيئة يسيطر عليها الجهل والبؤس. وكان فقر المنطقة يجبر الأهالي على الهجرة باستمرار بحثاً عن الرزق في مناطق أخرى. ويجعل ابن القطان مسقط رأسه في نومكران[1] وهي منطقة قاحلة لم يكن بها من مياه غير ما تجود به الأمطار، بحيث كانت تجمع وقت التساقطات في صهاريج خاصة. في المقابل يرى صاحب المعجب أنه ولد في إيجليز هرغة [2].

و لا نعرف عن طفولته وبداية شبابه غير تردده على الكتاب حيث حفظ القرآن بدل الاشتغال بالزراعة والرعي، كما لا نعرف أسباب رحيله أولاً إلى الأندلس ثم بعد ذلك إلى المشرق. وتكتفي المصادر عند الحديث عن شبابه الأول بالقول إنه لم يكن يشارك أترابه اللعب وإنه كان منهمكاً باستمرار بحفظ ما كان يكتبه من قرآن على اللوحة[3].

1- نظم الجمان، م. س.، ص. 37.

2- ويضيف المعجب أنه ينتمي إلى عائلة تحمل اسم "إيسرغينن" والتي تعني الأعيان. م.س.، ص. 262.

3-شب على قراءة القرآن ودراسة علوم الدين، وكان يلقب حسب ابن خلدون بـ"أسافو" التي تعني الضياء، وذلك لتردده المستمر على المساجد واستعماله القناديل من أجل القراءة والتحصيل. "العبر"، م.س.، القسم الثاني، المجلد السادس، ص.465. ويخالف صاحب "الحلل الموشية" ابن خلدون حيث يشير إلى أن الذي كان يحمل لقب "أسافو" هو والده. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط. 1، 1979م، ص.103.

ونجد عند ابن القطان أقدم وصف ورد في المصادر التاريخية عن شكله، حيث يقول إنه كان متوسط القامة، أسنانه الأمامية منفصلة عن بعضها، شعر لحيته خفيف، يوجد بأحد خنصريه زائدة لحمية تشبه الخاتم، وكان عفيفاً لا يعاشر النساء[4]. ويرى صاحب روض القرطاس أنه كان: «*حسن القد، أسمر اللون، رقيق البشرة، أفجل، أفنا، غائر العينين، خفيف العارضتين، له شامة سوداء في خده الأيمن*»[5].

وقد جاء في رسالة بعث بها عبد المومن عام 543هـ (1148م) إلى ابن غانية، أن النبي أخبر بابن تومرت وبصفاته وعصره وأفعاله ومكان ظهوره وكذا بأصحابه الذين سوف يدافعون عن الحق إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها[6]. هذا الكلام ورد كذلك في قصيدة رثاء ألقيت بضريح المهدي على عهد يوسف الأول بن عبد المومن[7].

وبخصوص تاريخ ميلاده، فإنه غير مضبوط وإن كنا نستطيع أن نستنتج من تاريخ وفاته التي حدثت عام 524هـ أنه رأى النور ما بين 471هـ و 474هـ، ذلك لأن ابن الأثير يؤكد أنه توفي وعمره يتراوح ما بين 51 و 55 سنة، وأبو الفدا يقول إنه توفي في الواحدة والخمسين من العمر، وابن القطان يرى أن المنية أدركته وهو في الخمسين، لكنه في المقابل يقول إن ولادته كانت عام 484هـ، وهو هنا لا يختلف تقريباً عن ابن الخطيب الذي يجعل ولادته عام 586هـ. أما "البيان المغرب" و"تاريخ الدولتين" فيجعلان ولادته في 491هـ، في حين لا يشير صاحب "المعجب" ومؤلف "روض القرطاس" إلى سنة الولادة ولا المدة التي عاشها.

ورغم أن "كولدزيهير" يعبر عن عدم ارتياحه من هذا التباين في المصادر العربية بصدد سنة ميلاد ابن تومرت، فإنه من جهته لم يزد الأمر إلا تعقيدا؛ فاعتماداً على ما ورد عند ابن خلكان وابن الأثير اللذين قالا إن ابن تومرت رحل إلى المشرق في شبابه، واعتماداً كذلك على ما ورد في مختلف المصادر من كون هذا الرحيل تم سنة 500هـ أو 501هـ، فقد اعتبر أن قيام ابن تومرت برحلته هذه وهو في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين لا يتماشى والمفهوم الذي كان للمشارقة في ذلك العصر عن مختلف مراحل الحياة البشرية؛ بحيث مصطلح الشاب عندهم كان

4- نظم الجمان، م. س.، ص. 38 و53.

5- روض القرطاس، م. س.، ص. 233.

6- مجموع رسائل موحدية، م. س.

7- المعجب، م. س.، ص. 277-278.

يطلق على الشخص الذي لم يتجاوز عمره العشرين، وقد استند " كولدزيهير" في هذا التحديد على نص ورد في كتاب "المنقذ من الضلال" للغزالي، غير أن هذا الافتراض يفقد مصداقيته أمام ابن الأبار الذي يوضح أنه رحل إلى المشرق وهو في زهرة شبابه وكان عمره 29 سنة. ومما لا ينفي احتمال رحيل ابن تومرت إلى المشرق وعمره 27 أو 28 سنة، أنه في هذه السن بالضبط كان عبد المومن قد عقد العزم على الرحيل إلى المشرق بعد أن أنهى دراسته في تلمسان، لو لم يلتق بالمهدي كما سنرى.

إن المعلومات المتوفرة لدينا عن أول لقاء بين الرجلين تجعلنا نرفض مختلف التواريخ التي وردت في المصادر عن تاريخ ولادة ابن تومرت وبالتالي نرجح ما استنتجناه أعلاه، وهو أن هذه الولادة كانت ما بين 471هـ و 474هـ. ومما يدعم هذا الاستنتاج أن عبد المومن المزداد عام 478هـ عند لقائه به لأول مرة وكان المهدي عائداً لتوه من المشرق وهو شعلة من العلم والمعرفة ومتمرس على جميع أنواع الجدل المعرفي، حياه تحية التلميذ لأستاذ جليل يكبره سنا. لكن إذا سلمنا أن المهدي ولد عام 491هـ فهذا يعني أنه يصغر تلميذه أربع سنوات[8]، وهذا غير منطقي على اعتبار التقدير والتبجيل الذي كان يكنهما عبد المومن للمهدي، بل وحتى إذا سلمنا أن تاريخ ميلاد المهدي هو 484هـ أو 486هـ كما تشير مصادر أخرى، فهنا كذلك سيكون عمره يفوق عمر تلميذه بمدة تتراوح فقط بين سنتين وثلاث سنوات[9].

بالنسبة لوالده والذي أُطلق عليه فيما بعد اسم عبد الله، لتبرير مهدوية ابنه من الناحية الجنيالوجية؛ فقد عرف منذ نعومة أظفاره باسم تومرت بن وكليد لأن أمه عند ولادته ومن فرحتها بدأت تكرر عبارة: "آتُومَرْتْ آيْنُوْ ايْسَّكْ آيوي"؛ ومعناه: "أنت فرحتي يا صغيري"، وكلما كانوا يسألونها عن الطفل كانت ترد "يَكْ تومَرْتْ" "هو فرحتي"، وهكذا انتهى الأمر بأن أصبح يدعى تومرت وهو الاسم الذي التصق بابنه من بعده حيث عرف المهدي بابن تومرت.

ويظهر هذا الاشتقاق الذي نجده في كتاب الأنساب[10]، أكثر منطقية من ذاك الذي نجده عند ابن القطان الذي يربط تسمية تومرت بقيام أخته عند ولادته "بلفه في تومرت"، وهنا يرى

8- وقع خلط للمؤلف في السنوات، فالصحيح هنا هو 13 سنة وليس 4 سنوات، كما أن الصحيح في الجملة الموالية هو6 أو 8 سنوات وليس سنتين أو ثلاث (المترجم).

9- حسب تقديري فإن السنة الأكثر احتمالاً لميلاد المهدي هي 471 هـ، وإن تلك التي أوردها كل من مؤلفي البيان المغرب وتاريخ الدولتين وهي 491هـ تعود لخطأ في النسخ حيث تمت كتابة رقم 9 بدل 7.

10- البيدق، أبو بكر الصنهاجي، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط 1971، ص. 27.

"أندري باسيط" Andre Basset أن كلمة تومرت لتكون بالمعنى الذي أعطاه لها ابن القطان يجب أن تربط بكلمة من أصل "كَوانشي" Guanche [11] هي "تاماركو" Tamarco والتي تعني لباس الجلد.

إن كل هذه التأويلات التي أعطيت لكلمة تومرت لتبرير تسمية والد المهدي، تفقد في نظرنا مصداقيتها عندما نعلم أنه ليس أول من حمل هذا الاسم؛ فقبله بمدة غير قصيرة، أي في منتصف القرن الرابع الهجري، عاش أديب في الأندلس يدعى محمد بن علي بن تومرت (توفي عام 391هـ)، ألف كتاباً تحت عنوان "كنز العلوم". وقد ذهب "كارل بروكلمان" Karl Brockelmann خطأً إلى حد جعل الأديب المذكور والداً للمهدي، كما ذهب "فلوجيل" Flugel إلى جعلهما من عائلة واحدة. ويجعل "دي سلان" De Slane، دون أساس علمي كذلك، اسم تومرت تصغيراً لاسم عمر.

ويطلق ابن خلدون على والد المهدي اسم الشيخ، المرادف في الأمازيغية لاسم أمغار[12]، ويقول ابن القطان إن تومرت هذا كان فقيراً ضعيف الحال إلى أن تزوج امرأة مسنة من مدشر بني يوسف التابع لقبيلة "مسكالة" الموجودة بسوس، حيث قدمت له عائلة العروس هدايا كثيرة أصبح غنياً بفضلها، ويضيف أنه قضى كل حياته بـ"إيجليز هرغة" حيث توفي، دون أن يلتحق بابنه الذي استقر بتملل.

وكانت أم ابن تومرت تدعى أم الحسين وهي ابنة يبوركن المسكالي الذي كان يقيم في أصروان يسمج، أما إخوته فهم ثلاثة ذكور: عيسى وعبد العزيز وأحمد[13]، وأنثيان واحدة من أمه، تدعى زينب، كان يقيم معها وكانت تشتغل بغزل الصوف، وهي التي كانت تمنحه النقود لتغطية مصاريف حياته البسيطة، وأخرى من أبيه، وهذه نجهل اسمها.

وفيما يتعلق بأصله، فليس هناك أدنى شك من كونه بربرياً، لكن وبعدما ادعى أنه المهدي المنتظر وجب ابتداع جنيالوجية أو بالأحرى جنيالوجيات متعددة تثبت أصله الشريف، وهكذا رُبط أصله بالأدارسة وبذلك أصبح منتمياً لأول عائلة عربية حكمت المغرب، وكان خَلَفه عبد المومن يؤكد أنه عربي قح، وهو الادعاء الذي لم تجرؤ حتى عائلته على تزكيته.

ويورد صاحب "كتاب الأنساب" جنيولوجيتين فاطميتين عن أصل المهدي[14]، يقول عن الأولى إنها صحيحة ومعروفة وعن الثانية إنها مجهولة من طرف الجميع بمن فيهم علماء الأنساب بل

11- "الكوانشي" هي اللغة التي كان يتكلمها السكان الأصليون في جزر الكناري قبل وصول الإسبان. (المترجم).

12- لم يمنح لقب أمغار لوالد المهدي وإخوته إلا بعد أن ادعى المهدوية.

13- كان أحمد هذا ضريراً لذا لم يشارك في الدسائس السياسية التي كانت سبباً في نهاية أخويه عيسى وعبد العزيز.

14- أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيدق)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 12-13.

وحتى من طرف أقارب المهدي. من جهته يورد صاحب "نظم الجمان" عن نسب المهدي ثلاث جنيالوجيات إحداها هي نفسها التي نجدها في "كتاب الأنساب".

وعند توقف "ليفي بروفنصال" عند هذه النقطة، يشير إلى اهتمام مختلف المصادر التي تناولت العهد الموحدي بنسب المهدي[15]، ويورد ما جاء عند ابن خلدون الذي ساق ثلاث احتمالات لهذا النسب، يقول اثنان منها بأصله البربري في حين يقول الاحتمال الثالث، وهو الأقل مصداقية، حسبه، بأصله الشريف[16].

وكما بُحث له عن أصل شريف بحث لقبيلته هرغة عن أصل عربي، فقيل إن جدها الأول هو الحسين بن علي وأن موسى بن نصير هو الذي نقلها إلى الأطلس الصغير. ويذكرنا هذا بما حدث مع الحفصيين في تونس عند قيام دولتهم، فقد بحث لهم مؤرخو البلاط عن أصل عربي، ونجحوا في إيجاد علاقة جنيالوجية بين جد الأسرة أبي حفص عمر والخليفة عمر بن الخطاب.

وتشكك أغلب المصادر العربية في النسب الفاطمي للمهدي بن تومرت، لذا تورد بجانب ذلك أنساباً بربرية لا تستبعد انتماءه إلى إحداها. وكما هو بديهي فإن أشخاصاً كثيرين من الذين عرفوا المهدي شخصياً كذبوا ادعاءاته وكذا ادعاءات خلفه عبد المومن بشأن أصلهما العربي، واعتبروا أن انتماءهما لآل البيت ليس أكثر من تلفيق وتزوير. وللخروج من هذا الجدل العقيم كان لزاماً كتابة رسالة تبين أن أبواب الجنة لا يفتحها النسب وإنما التقوى وأعمال البر والرحمة الإلهية، وقد استُشهد في الرسالة بآيات قرآنية مثل تلك التي تتضمن قصة قابيل وهابيل وقصص أقارب الرسول وعلى رأسهم جده أبو طالب، وكلها آيات تبين أن القرابة مع الأنبياء لا تعفي من الحساب. وتنتهي الرسالة، وبلغة معتدلة رزينة، إلى أن قضية الأنساب ليس لها من أهمية غير التعرف على القبائل ومن ينتمي إليها[17].

وقد بدأ ابن تومرت رحلته الطويلة التي دامت خمس عشرة سنة عام 500هـ (يوافق اليوم الأول منها 2 سبتمبر 1106م واليوم الأخير 21 غشت 1107م)[18]، عاد على إثرها إلى مسقط

15- Document Inédit d'histoire Almohade. Fragments manuscrit du "Legajo", 1919 du Fond arabe de l'Escoriale, Publié et raduits avec une introduction de Levi Provençal, Paris 1928, Librairie Orientaliste. P. 31.

16- العبر، القسم الثاني، المجلد السادس، م. س.، ص. 465.

17-Op. Cit- . Docs Inéd . P 18.

18- « *عندما كان يحتضر قال لذويه إنه ذاهب في سفر طويل، فردت أخته زينب: "وإلى أين تغيب عنا؟ ألم يكفك أنك غبت عنا خمسة عشر عاما؟"* ».

رأسه. وكانت البداية بالأندلس حيث قضى سنة واحدة. وكل ما نعرفه عن مقامه بها أنه زار قرطبة[19]، في المقابل نجهل كل شيء عن دراسته والأساتذة الذين أخذ عنهم هناك، وإن كنا نعتقد أنه تتلمذ على يد علماء المذهب الظاهري والذي لم يكن قد مر على وفاة مؤسسه ابن حزم أكثر من أربعين سنة، وبالتالي فالمذهب كان لايزال منتشراً بنوع من الأهمية، وهو ما يحتمل معه استئثاره بنفسية الشاب البربري التي لاتزال على الفطرة، والخالية إلى ذلك التاريخ من التأملات الفلسفية والدينية التي سوف يكون لها تأثير عميق على تكوينه الروحي فيما بعد. ويرى "كولدزيهير" أن أخذ ابن تومرت عن بعض تلامذة ابن حزم واطلاعه على بعض كتاباته أمر محتمل جداً، على اعتبار توافق أفكاره وأفكار ابن حزم بصدد أسماء الله الحسنى وكذا لخوضه، شأن ابن حزم، في قضية إدراك العقل لأحكام الشريعة[20].

ويؤكد الزركشي في "تاريخ الدولتين"[21] أن ابن تومرت أخذ عن القاضي ابن حمدون، غير أنه يجب أن يؤخذ ما يرد عند هذا المؤرخ بنوع من التحفظ، خصوصاً وأن هذا التأكيد لم يرد عند غيره، لذا فمما لاشك فيه أنه أخطأ في هذه النقطة كما أخطأ في تقدير سن ابن تومرت وكذا في تحديد تاريخ إقامته بالمهدية والذي جعله سابقاً لرحيله إلى الشرق.

وكان في السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين عندما بدأ دراسته في قرطبة التي لم يمكث فيها طويلاً، إذ جلبته شهرة مدارس شرق الأندلس، وهكذا انتقل إلى ألمرية (كانت تتوفر آنذاك على أهم ميناء بالأندلس وأحد أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط) والتي أبحر منها نحو الإسكندرية. ولا نعرف عن رحلته المشرقية هذه التي دامت عشر سنوات ولا المدن التي مر بها والأساتذة الذين أخذ عنهم غير النزر اليسير[22]. ويؤكد ابن خلدون أنه بعد الإسكندرية انتقل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ومن هناك إلى بغداد التي أقبل فيها وبشكل تام على طلب العلم[23].

19- كانت قرطبة على ذلك العصر حاضرة العلم والعلماء حسب ابن خلدون. "العبر"، ويؤكد صاحب "البيان المغرب" (الجزء الثاني، ص.303 من الطبعة الثانية) أنه غادر هرغة نحو قرطبة عام 500 هـ، ثم قصد بعد ذلك ألمرية والتي ابحر منها صوب المشرق.

20- Op. Cit. Goldziher , pp. 53-55.

21- تاريخ الدولتين، م. س.، ص. 2.

22- كان لطالب العلم كامل الحرية في اختيار اساتذته، لذا غصت حلقات علم الأساتذة المرموقين بالطلبة الطموحين والذين لم يكونوا يرغبون في الأخذ عن غير هؤلاء. ويشير ابن خلدون في المقدمة إلى ان الكثير من معاصريه وأمام انحطاط مستوى التعليم ببلاد المغرب، ذهبوا لنهل العلوم من منابعها بمصر وسوريا.

23- العبر، م. س.، ص. 465.

وفي الإسكندرية تردد على حلقات العالم المعروف أبي بكر الطرطوشي، وكان ذلك أثناء ذهابه حسب الزركشي[24]، وأثناء عودته حسب صاحب المعجب[25]، غير أنه لا يستبعد أن يكون قد أخذ عنه في المرتين معاً. أما في بغداد فقد تتلمذ على يد عدد من كبار العلماء من بينهم مبارك بن عبد الجبار الذي أخذ عنه علم الحديث وأبوبكر الساسي الذي أخذ عنه علمي الفقه والأصول[26].

وتشير كل المصادر التي تتحدث عن ابن تومرت، إلى لقائه في بغداد بأبي حامد الغزالي وهو من أهم علماء الإسلام في ذلك العصر. والواقع أن إقدام المرابطين وبشكل رسمي على إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي، ثم الانهيار المأساوي لإمبراطوريتهم فيما بعد، ما كان ليمر دون الحديث عن اللقاء بين الرجلين بل وصياغته في قالب مسرحي. وقد نسج خيال ابن صاحب الصلاة خيوط الحوار الذي دار بينهما، والذي يدعي أنه سمعه مباشرة من الفقيه أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن العراقي. ويشير ابن القطان من جهته إلى أن الإحراق الرسمي لإحياء علوم الدين حدث عام 503هـ، حيث التهمت النيران ببهو المسجد الجامع بقرطبة، وبالضبط بجوار الباب الغربي، نسخة مسفرة من الكتاب، صب عليها الزيت قبل إضرام النار فيها، وكان ذلك بحضور أعيان المدينة وشيوخها. وقد تم الإحراق بتوصية من الفقهاء وعلى رأسهم القاضي أبو علي بن حمدين. وعلى قلة المعلومات التي يقدمها ابن القطان عن رواية الإحراق هذه التي عرفها مسجد قرطبة، فإنه المصدر الوحيد الذي يوردها، كما أنه المصدر الوحيد الذي يشير إلى أن الأوامر صدرت إثر ذلك لإحراق كل النسخ التي يعثر عليها بالبلاد، وأن ذلك تم بالفعل رغم ما سببه من ألم لمن يمتلكها. وقد اضطر ميمون بن ياسين لتسليم نسخته تحت التهديد، في حين أخفى أبو بكر ابن العربي المعافري نسخته التي حملها معه إلى الجزيرة الخضراء ليلقيها هناك في الماء حيث تحللت معظم صفحاتها بينما أصاب التلف الصفحات المتبقية. وحسب ابن القطان دائماً، واصل المرابطون على امتداد ما تبقى من سنة 503هـ إحراق نسخ "الإحياء" التي سبق وبيعت في بلاد المغرب.

لقد أخذ صاحب "الحلل الموشية" عن ابن صاحب الصلاة وبالحرف، حكاية الحوار الذي دار بين الغزالي وابن تومرت، وينقل صاحب "روض القرطاس" الحكاية ذاتها عن ابن صاحب الصلاة

24- أخطأ الزركشي في تحديد سنه عند ذهابه إلى الإسكندرية، ولعل خطأه يعود إلى الناسخ، حيث إن النساخ يكتبون أحياناً رقم 10 بدل 20. تاريخ الدولتين، م. س.، ص. 2.

25- المعجب، م. س، ص. 263.

26- حث عدد من الأحاديث النبوية على السفر طلباً للعلم واعتبرت أن ذلك مما يرضي الله. وقد تطرق "كولدزيهير" في Muhammedan studien، (الجزء الثاني، ص. 175-193)، بنوع من التفصيل إلى رحلات طلب العلم لدى المسلمين، وكيف كان يتبجح علماء مغرورون سافروا، حسبه، إلى أبعد البلدان، دون غاية غير الاستماع إلى أحاديث نبوية كانت مجهولة لديهم.

مع إدخال بعض التغييرات، حيث إن الغزالي حسبه وبعد أن لعن المرابطين، قال إن الذي سيجعل لعنته تصيب هؤلاء يوجد بين من يستمع إليه من الحضور. وبخلاف هذه المصادر الثلاثة، يشكك في الحكاية كل من ابن خلكان والمراكشي والنويري، بينما يرفضها ابن الأثير جملة وتفصيلاً. وقد لا نحتاج إلى كبير مجهود لنستنتج بأن الغاية من هذه الحكاية المبتدعة كان إشهارياً صرفاً، كما قد لا نحتاج إلى أدلة إضافية لنتأكد أن ابن تومرت لم يأخذ قط عن الغزالي ولا حضر المواعظ والتوجيهات التي كان هذا الأخير يوجهها إلى تلامذته ومريديه.

وبعد أن أطلقت المصادر العربية العنان لخيالها في نسج أسطورة اللقاء بين الغزالي وابن تومرت وكيف جعل الأول من الثاني تلميذه المفضل والمؤهل لإعادة الاعتبار له، بعدما لحقه من أذى من جراء إحراق كتبه، عادت لتطلق العنان من جديد لهذا الخيال عندما ابتدعت أسطورة تقول إن الغزالي الذي كان عارفاً بالأسرار وبغرائب الأخبار التي أخذها جعفر الصادق عن علي ابن أبي طالب، عثر في أحد كتب السحر على رسم للمهدي وإشارات تنيط اللثام عن هويته. وقد تيقن بعد أن التقى به، أن الخالق اختاره لمهمة سامية، لذلك فقهه في علوم الدين ومكنه من أسرار الكهنوت وما ارتبط بها من سحر وكشف للغيب وتنبؤات مستوحاة من الآيات القرآنية، وما خفي من أسرار الكون ومن أسماء الله الحسنى. وتواصل هذه المصادر اختلاق الأساطير، عندما تدعي أن "سر العلمين"، وهو كتاب منتحل نسبته خطأ إلى الغزالي، ألفه هذا الأخير نزولاً عند رغبة عدد من سلاطين الأرض، الذين رأوا فيما يتضمنه من أسرار وسيلة لتحقيق طموحاتهم السياسية. وتضيف ذات المصادر أن الغزالي يشير فيه إلى أن أول من قام بنسخ الكتاب بعيداً عن عيون الناس، إثر عودته هو من أسفاره والتحاقه من جديد بالمدرسة النظامية، شخص مغربي من أهل سجلماسة اسمه محمد بن تومرت، تبين للغزالي بعد أن قرأ طالعه أنه سيصبح ملكاً[27].

ويؤكد التسلسل الكرونولوجي للأحداث أن اللقاء بين ابن تومرت والغزالي لم يحدث أصلاً: فإحراق أول نسخة من إحياء علوم الدين تم في مطلع سنة 503هـ (يوافق اليوم الأول منها 31 يوليوز 1109م) والبحث عن بقية النسخ لنفس الغاية استمر طيلة تلك السنة، وابن تومرت علم بحكاية إحراق الكتب عندما حل ببغداد، وكان الغزالي الذي تاقت نفسه إلى الحياة التأملية الهادئة، قد تركها صوب مسقط رأسه طوس بخراسان، حيث اعتكف رفقة ثلة من تلامذته، إلى

27- Op.Cit – Goldziher . p.19.

أن وافته المنية في 14 جمادى الثانية عام 509هـ (19 ديسمبر 1115م). ولا نجد أية إشارة في أي مصدر عربي عن انتقال ابن تومرت إلى خراسان، بل كلها تجمع على أن اللقاء بينه وبين الغزالي تم في بغداد، باستثناء صاحب "المعجب" الذي زاد الأمر تعقيداً بقوله إن اللقاء تم في دمشق، وهو الافتراض الذي أخذ به خليل بن شاهين والذي ذهب إلى حد القول إن الرجلين أقاما معاً في مسجد المدينة. وهنا وجب التوضيح بأن الغزالي غادر دمشق قبل سنة 490هـ بينما لم يصل ابن تومرت إلى سوريا إلا عام 501هـ .

وإذا كانت معلوماتنا عن إقامته في المشرق والأساتذة الذين أخذ عنهم قليلة بل أحياناً متناقضة أو خاطئة، فإن الأمر بخلاف ذلك بالنسبة لما تلقنه من علوم ساهمت في صقل أفكاره السياسية والدينية التي رأت النور بعد عودته إلى بلاد المغرب.

عقيدة المهدي بن تومرت

جمع عبد المومن في كتاب "أعز ما يطلب" أفكار المهدي ومعتقداته وتعاليمه والتي يظهر من خلالها تعطش هذا الأخير الكبير للعلم وتأثره بمختلف المدارس والاتجاهات التي تعرف عليها، دون الانسياق كلياً وراء أي منها ودون الانزعاج من التناقضات التي بينها حول المفاهيم الدينية.

لقد درس في قرطبة المذهب الظاهري على يد أحد تلامذة ابن حزم دون شك، كما مر بنا، واستوعب بسرعة هذا المذهب الذي يرفض التقليد والانسياق الأعمى وراء ما تتضمنه كتب الفقه، ويدعو في المقابل إلى العودة مباشرة إلى النص القرآني[28]، وهو ما كان يتماشى وعقلية رجل متطرف مثله اعتبر أنه لا يمكن قبول الأحكام الفقهية إلا إذا تقيدت بالمعنى الحرفي للمصطلحات القرآنية. وعلى منوال ابن حزم جادل ابن تومرت المدارس الفقهية المتحجرة وعبر عن عدم أخذه بالقياس وإن لم يكن ذلك بنفس الصرامة التي رفضه بها ابن حزم. ويمكن القول إنه اتخذ موقفاً وسطا بين موقف ابن حزم الرافض للقياس وموقف مدرسة العراق الداعية له، بحيث ميز بين نوعين من القياس، قبل أحدهما وهو القياس الجلي ورفض الآخر وهو القياس العقلي. غير أن خلاف ابن تومرت الجوهري مع المذهب الظاهري لم يكن في هذه النقطة وإنما في طبيعة العلاقة بين هذا المذهب والفقه، فقد حاول ابن حزم أن يجد علاقة

28- تأخذ المدرسة الظاهرية فقط بالمعنى الظاهري للنص القرآني وبأحاديث الرسول كمصدر للتشريع، وترفض القياس والاستنباط العقلي، وترى أن الإجماع في الأمور الفقهية يجب أن يقتصر على ما بث فيه الصحابة.

توافق بينهما وهو ما رفضه ابن تومرت الذي أخذ بعد ذلك بالعقيدة الأشعرية والتي يعتبر ابن حزم عدوها اللدود.

وأثناء إقامته في بغداد انبهر إلى حد كبير بفكر المتكلمين وما يتضمنه من عمق، وكان تأثره بالخصوص بالكيفية التي يتناول بها علم الكلام التشابه الظاهري القائم بين الصفات الإلهية والبشرية. هذه الأمور كانت معروفة في بلاد المغرب لكن دون فهم عميق، ذلك لأن الفقهاء وعلماء الحديث كانوا يرفضون الخوض في أي تأمل فلسفي يستند إلى النص القرآني ويكتفون بالتقيد بحرفية النص، وفي نفس الوقت يرفضون التشابه الظاهري بين الصفات الإلهية والبشرية، على اعتبار أن الخالق وكما ورد في القرآن ليس كمثله شيء. هذه الطينة من رجال الدين هي الوحيدة التي كان بإمكان ابن تومرت التعرف عليها والأخذ عنها قبل رحيله إلى المشرق، لذا لما انتقل إلى هناك، وتعرف على منهج التأويل، تبناه بكل حماس بل وتعصب له لدرجة جعلته ينعت بالكفر كل من يرفضه.

إن ما يلفت الانتباه هنا هو أن يتحول ابن تومرت الذي رفض من قبل كل اجتهاد عقلي في الأمور الفقهية على اعتبار أنه لا مكان للعقل في التشريع الإسلامي، يتحول إلى شخص يرى بضرورة إعمال العقل في تأويل الآيات المتشابهات وبضرورة الجدل في القضايا التي تمس جوهر العقيدة.

وكحامل للواء الأشعرية في بلاد المغرب، أقبل على دراسة الحديث والأصول تاركاً على الهامش كتب الفروع الشائعة في المغرب، لكن وبخلاف موقف الأشاعرة الذي يقبل بالتشبيه ويسلم بوجود صفات وأفعال إلهية مشابهة للصفات والأفعال البشرية، وإن كانت من ماهية مختلفة، رفض ذلك جملة وتفصيلاً، بل وصل به الأمر إلى نفي هذه الصفات عن الإله مما كان يعني القطيعة مع المدرسة الأشعرية. ودون أن يحاول التوفيق بين التحليلات الفلسفية للماهية الإلهية وبين الكيفية التي تظهر بها هذه الماهية في النص القرآني، أخذ بالمذهب المعتزلي الذي جعل منه قاعدة لعقيدته وأساساً لمذهبه الإصلاحي، وهو بذلك، وبأخذه بمصطلح "التوحيد" الرائج استعماله عند المعتزلة، فرض على أتباعه وبكل صرامة مبدأ وحدانية الله وبالتالي رفض أي إمكانية تشابه بين الخالق والمخلوق بل ورفض وجود صفات إلهية أصلاً، وهذا ما يعني أن أتباعه لن يصبحوا فقط رجال توحيد بالمعنى العام المعروف في الإسلام، أي عدم الإيمان بغير الله، وإنما سيصبحون "موحدين" أي مؤمنين بالوحدة المجردة للماهية الإلهية دون أية صفات إضافية يُعتبر القبول بها بمثابة اعتراف ضمني بتعدد الماهيات الإلهية. من هذا المنطلق إذاً اعتُبر التوحيد نقطة الانطلاق ورمز الإصلاح الموحدي. ويلخص ابن تومرت التوحيد على الشكل التالي: «*لا إله إلا الذي دلت عليه الموجودات*،

وشهدت عليه المخلوقات، بأنه جل وعلا، وجب له الوجود على الإطلاق من غير تقييد ولا تخصيص بزمان، ولا مكان ولا جهة، ولا حد ولا جنس، ولا صورة ولا شكل ولا مقدار، ولا هيئة ولا حال. أول لا يتقيد بالقبلية، آخر لا يتقيد بالبعدية، أحد لا يتقيد بالأينية، صمد لا يتقيد بالكيفية، عزيز لا يتقيد بالمثلية، لا تحده الأذهان، ولا تصوره الأوهام، ولا تلحقه الأفكار، ولا تكيفه العقول، ولا يتصف بالتحيز والانتقال، ولا يتصف بالتغير والزوال، ولا يتصف بالجهل والاضطراب، ولا يتصف بالعجز والافتقار، له العظمة والجلال، وله العزة والكمال، وله العلم والاختيار، وله الملك والاقتدار، وله الحياة والبقاء، وله الأسماء الحسنى، واحد في أزليته، ليس معه شيء غيره، ولا موجود سواه، ولا أرض ولا سماء، ولا ماء ولا هواء، ولا خلاء ولا ملاء، ولا نور ولا ظلام، ولا ليل ولا نهار، ولا أنيس ولا حسيس، ولا رز ولا هميس، إلا الواحد القهار، انفرد في الأزل بالوحدانية والملك والألوهية، ليس معه مدبر في الخلق، ولا شريك في الملك، له الحكم والقضاء، وله الحمد والثناء، لا دافع لما قضى، ولا مانع لما أعطى، يفعل في ملكه ما يريد، ويحكم في خلقه ما يشاء، لا يرجو ثوابا ولا يخاف عقابا، ليس فوقه آمر قاهر، ولا مانع زاجر، ليس عليه حق، ولا عليه حكم، فكل نعمة منه فضل، وكل نقمة منه عدل، لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون»[29].

إن قناعته بأن الطريق المستقيم هو طريق التأويل والتوحيد، دفعته إلى تكفير من اعتبرهم مجسمين لاكتفائهم بالنص الظاهري دون تأويل للآيات المتشابهات، وكذا تكفير من يسيرون على منهج الحشوية في قبول الصفات الإلهية[30]، في المقابل اعتبر التأويل وإعمال العقل للوصول إلى مفهوم الألوهية، أساس الإيمان وبالتالي وجب على الجميع التقيد به بمن في ذلك البربر الذين لازالوا على الفطرة.

وبما أن السلطان هو المسؤول الأول عن العقيدة في دار الإسلام، فقد حمل ابن تومرت علي ابن يوسف مسؤولية انتشار التشبيه في بلاده، وقام لذلك بمحاربته رافعاً شعار الجهاد في سبيل الله. وسنتناول فيما سيأتي الصرامة التي طبق بها قناعاته الدينية والنجاح الذي حققه في ذلك، ثم الكيفية التي استغل بها ما تعلمه من متكلمي المشرق للدفع بأهالي جبال الأطلس للتمرد على المرابطين.

29- محمد بن تومرت (المهدي). أعز ما يطلب. تقديم وتحقيق عبد الغني أبو العزم. مؤسسة الغني للنشر، الرباط 1997، ص. 223.

30- المقصود بالحشوية الفقهاء الذين يهملون بشكل تام دراسة الأصول ويكتفون بما يصلهم من فروع. ويقصد الغزالي بالحشوية علماء الدين الذين بجهلهم لكل شيء عن الجانب الباطني للعقيدة، يرون أن نجاة المؤمن تكمن فقط في الممارسة الدينية دون خوض في الأمور الباطنية. ويرى "كولدزيهير" أن حشوية أهل الحديث هم أولئك المفسرون الذين يصدقون كل ما يرد عليهم من أساطير وخرافات دون نقد أو تمحيص. انظر: Op. Cit. Goldziher, pp. 56-66.

إن ابن تومرت وأمام نهمه للأخذ من كل ما جد في علوم الدين، وبعد تنقله من الظاهرية إلى المعتزلية عبر الأشعرية، نجده يتجاوز حدود المذهب السني برمته ليصل إلى المذهب الشيعي، غايته في ذلك قضية عصمة الإمام التي تعتبر ضرورية في المذهب الشيعي. وبما أن العامة كانت تخلط بين الإمام المعصوم والمهدي المنتظر فقد عمد إلى استغلال ذلك، وأعد العدة له منذ كان بالمشرق حيث حرص على جمع الأحاديث المنسوبة للنبي والتي تتحدث عن ظهور منحدر من آل البيت، من نسل فاطمة، يحمل اسم جده رسول الله، في وقت سيشيع فيه الكفر وينتشر الفسق والفساد في الأرض. وسوف يكون على سليل الرسول هذا، محاربة كل الموبقات وملء الكون ورعاً ورحمة. وحسب نفس الأحاديث فإن تصديق سبط رسول الله والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه ونشر دعوته بين الكبار والصغار والأحرار والعبيد واجبة، لأن أوامره ونواهيه من أوامر الإله ونواهيه. والواقع أن استمرار الشر والخطيئة والظلم بين المسلمين حتى بعد نزول الوحي وانتشار الدعوة المحمدية، رسخ فكرة ظهور مخلص آخر في آخر الزمان ينير ظلام الليل ويقضي على الفساد السياسي والعقائدي ويعيد، وإلى الأبد، العدل الإلهي إلى الأرض.

لقد كان أول من دافع عن هذه الشعارات التي حملها ابن تومرت، أتباعه المقربون الذين رأوا فيها قبل أي شيء آخر، فرصة لإضفاء طابع القداسة والولاية على شخص بربري مثلهم، اعتبروا ودون تردد أنه المهدي المنتظر الذي قيل إنه سوف يظهر في نهاية القرن الخامس.

وكان استناد ابن تومرت في دعوته الإصلاحية هذه، على الآية القرآنية القائلة: «*كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله*»، والتي تبين الصفات التي يجب أن يتميز بها المسلم الصالح في كل زمان ومكان. وهنا نجد أنه لا يختلف عن كل من حمل على كاهله مهمة الإصلاح الديني في الإسلام، حيث إن الشعار المستعمل دائماً في محاربة البدع هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير أن ما ميزه عن غيره، هو صرامته وحماسه وحزمه في تطبيق ذلك منذ البداية، وقبل أن يمر إلى المرحلة الموالية والتي تهم الجهاد الذي قاده ضد المرابطين. وقد وجد في بلاد البربر مجالاً خصباً لنشر دعوته كما وجد في القرآن والسنة مصدراً غنياً يسمح له بالاستشهادات الضرورية التي يمكن أن يبرر بواسطتها أي تصرف من تصرفاته[31].

31- لا يستبعد كولدزيهير إمكانية اعتماد ابن تومرت على أفكار الغزالي التي تعتبر القرآن والسنة المصدرين الأساسيين للشريعة الإسلامية. انظر Muhammedan studien، م. س، ص. 94 وما يليها .

لقد نهى الإسلام عن الفتنة واعتبرها أشد من القتل، كما نهى عن حمل السيف ضد الحاكم ولو كان غاشماً، على اعتبار أن حاكماً غشوماً خير من فتنة تدوم على حد تعبير علماء الإسلام، غير أن تاريخ الإسلام يقدم لنا الكثير من الأمثلة التي حادت عن ذلك، لعل حالة ابن تومرت تعتبر إحداها، فهو ما كان ليتردد في حمل السيف، ليس فقط ضد من لا يتبع الشريعة كما يفهمها هو، وإنما كذلك ضد كل من يرفض الدخول في دعوته.

عودة ابن تومرت إلى مسقط رأسه واشهار دعوته

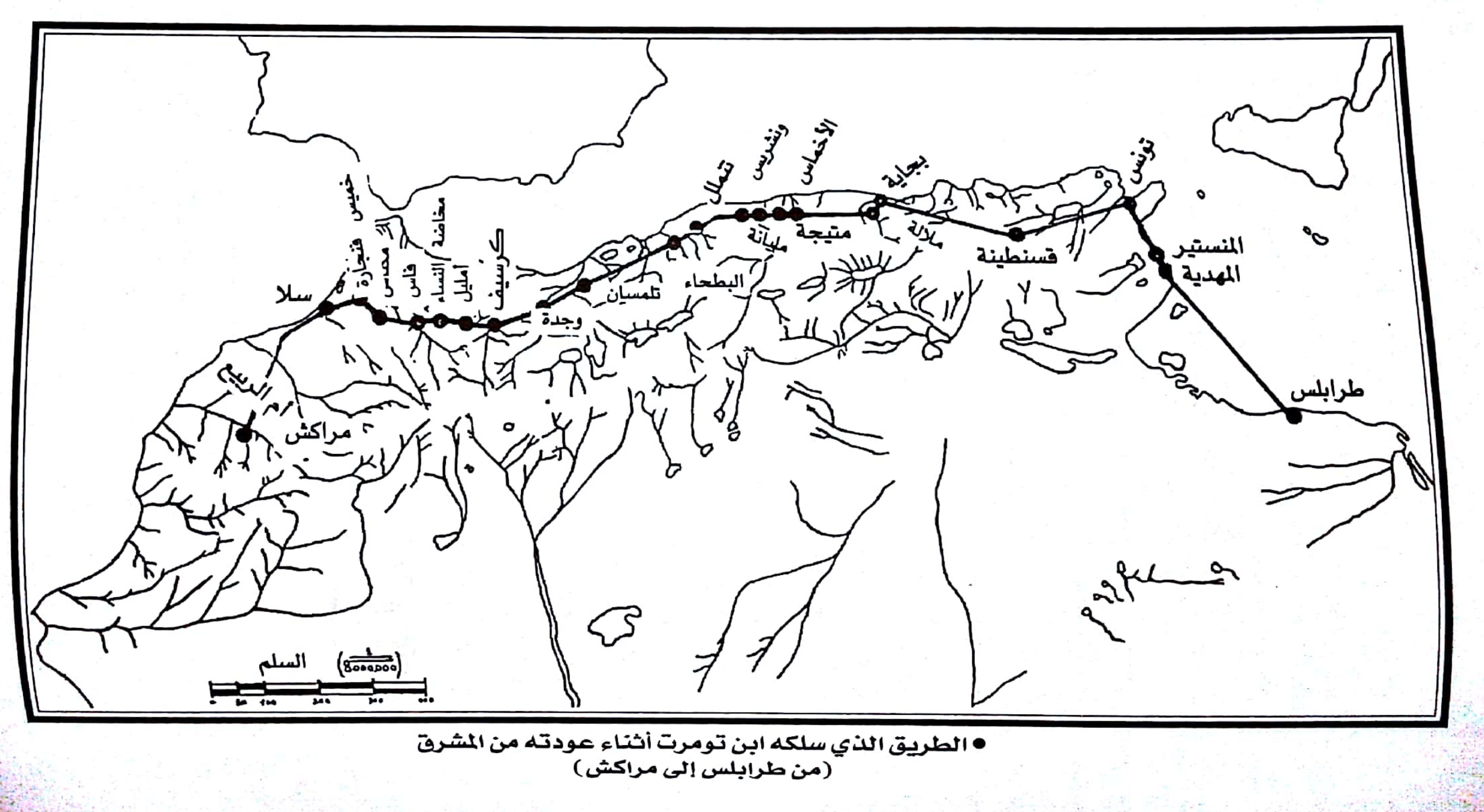
بعد أن قضى حوالي عشر سنوات في الدرس والتحصيل بالمشرق، قرر ابن تومرت العودة إلى وطنه حيث أبحر في نهاية 511هـ من الإسكندرية صوب إفريقية[32].

وأثناء إقامته الثانية بالإسكندرية، عاد للتردد على دروس الطرطوشي والتي أصبح يقوم فيها بدور الرقيب على ما يقوله الشيخ، وبهذه المدينة أثار عليه، وبسبب تصرفاته العنيفة التي كان يحاول أن يمنع بها ما يعتبره منافياً للشريعة، غضب العامة التي دبرت مؤامرة للتخلص منه بعد أن وضعت له كميناً في الطريق الذي كان يسير منه لحضور دروس الطرطوشي، غير أنه تمكن من الإفلات منه والالتجاء إلى مسجد على ساحل البحر، وكانت نجاته تلك، حسب ابن القطان، أول مظاهر عصمته. ولما لاحظ الطرطوشي غيابه ذهب يسأل عنه في المسجد، فأخبره بما يدبر ضده ثم ودعه وأبحر نحو بلاد المغرب[33].

وما أن صعد السفينة حتى عاد حماسه الديني ليتحرك من جديد، وهو ما أثار غضب بعض ركابها الذين كادوا يلقون به في البحر. وما أن رست السفينة بأول مدينة في الغرب الإسلامي، وهي طرابلس، حتى غادرها وبدأ لتوه بالتدريس واستنكار ما يراه مذموماً والتعريف بالعقيدة الأشعرية ولعن علماء بلاد المغرب الذين لم يأخذوا بها. وقد تعرض بسبب ذلك للتهديد والمضايقة مما أرغمه على مغادرة طرابلس نحو المهدية، التي واصل بها وبحدة

32- يجعل روض القرطاس م. س.. ص. 219، بداية رحلة العودة هاته في فاتح ربيع الأول عام 510 هـ (14 يوليوز 1116م)، بينما يجعل القفطي نقلاً عن ابن خلكان بدايتها في نهاية 511 هـ.

33- حول ما قيل عن المهدي من أساطير مؤيدة ومعادية، انظر مقالتي التي تحمل عنوان: La historia y la leyenda en los origenes del Imperio Almohade. Al-Andalus Vol XIV, Fasc 2, pagina 239 y siguientes.



● الطريق الذي سلكه ابن تومرت أثناء عودته من المشرق
(من طرابلس إلى مراكش)

أكبرى، استنكاره بالقول والعمل لتصرفات العامة المنافية للشرع، وكان أشد ما أثار غضبه بيع الخمور في الأسواق دون حرج، الشيء الذي دفع به لتكسير أقداحها، وهو ما أدى إلى حدوث شغب وفوضى. وقد أمره إثر ذلك أمير المدينة علي بن يحيى بن تميم بعدم تكرار هذه التصرفات[34]، لكنه رفض الانصياع، مما حذا بالأمير إلى التفكير في اغتياله حسب صاحب نظم الجمان[35]، غير أنه تراجع عن قراره واكتفى بأن بعث له فقيهاً يدعى المصري، أنبه وأخبره أن الأمير وجنده جد مستائين من تصرفاته وأنه من غير المستبعد أن يصبوا عليه جم غضبهم. وبعد أن أدرك الخطر الذي أصبح يحدق به، قرر مغادرة المهدية قاصداً ما سوف يعرف فيما بعد باسم المنستير، والتي ليس لنا من معلومات عن مقامه بها، غير مكوثه هناك وقتاً غير طويل تعرف خلاله على بعض الرجال الصالحين.

ومن المنستير انتقل إلى تونس[36] حيث قضى مدة طويلة اشتغل خلالها بالتدريس، وكان يحرص على تصحيح الأخطاء بما فيها الجزئية والتي ترتكب سهوا أو عن جهل أثناء ممارسة الشعائر الدينية[37].

وبعدما تبين له أن مهمته في تونس أوشكت على الانتهاء، طلب من أصحابه الاستعداد للرحيل نحو المغرب الأوسط، هؤلاء هم بالإضافة إلى يوسف الدكالي والحاج عبد الرحمن اللذين كانا قد خرجا لأداء مناسك الحج وربما التقيا به مصادفة، خادمه أبو بكر علي الصنهاجي المعروف بالبيدق صاحب المذكرات التي تتضمن معلومات كثيرة عن المراحل الأولى لقيام الإمبراطورية الموحدية.

34- العبر، م. س.، ص. 467.

وقع ابن الأثير في خطأ عندما جعل هذه الأحداث عام 505هـ على عهد يحيى بن تميم المتوفى عام 509هـ، وهو التاريخ الذي لم يكن ابن تومرت قد عاد فيه من المشرق بعد. وحسب ابن الأثير فإن ابن تومرت استقر في مسجد يقع جنوب مسجد السبت ولم يكن يملك غير زاد سفره وعصاه. وقد أمره الأمير بعدما علم من تصرفاته، بحضور مجلس للفقهاء من أجل المجادلة، وهناك وبعدما سمع منه ولاحظ غيرته الدينية، عظم شأنه وطلب بركته.

35- كتب مؤلف نظم الجمان عن ذلك ما يلي: «*ومن عصمته رضي الله عنه منع علي بن يحيى بن تميم منه وهو صاحب المهدية، ونجاته رضي الله عنه من شره، وذلك أنه لما حل بالمهدية رضي الله عنه رأى بها سوقا تباع فيه الخمر، فكسر دنانها وأراقها، وغير المنكر. ففيض بذلك واليها علي المذكور، وهم به، ثم رأى أن يوجه إليه المازري الفقيه، فتوجه إليه وعاتبه*». م. س.، ص. 40.

36- تبدأ مذكرات البيدق بتقديم مسار المهدي منذ وصوله إلى تونس، بنوع من التفصيل لا نجده في أي مصدر آخر. ومما ورد فيها أن المهدي ورغم قيامه بتصرفات عنيفة أحياناً ضد ما كان يعتبره مخالفاً للشريعة (كان يرغب بذلك في تقمص دور الإمام على أحسن وجه) فإنه لم يجرؤ أحد على مضايقته، وهذا ما يخالف ما جاء به ابن خلدون الذي يشير إلى أنه عانى كثيراً من مضايقات فجار وأشرار بجاية وتلمسان ومكناسة. العبر، الجزء الثاني، م. س.، ص. 467-468.

37- من بين ذلك ما قام به بعض الطلبة من رفض أداء صلاة جنازة أمها ابن تومرت، لأن المصلى عليه يهودي اعتنق الإسلام، وقد اعتذر الطلبة بعدما سمعوا منه، وبدؤوا بالتردد على دروسه. Docs Inéd. Op. cit. P. 75.

وكانت وجهته الموالية وأصحابه، مدينة قسنطينة التي استقبلهم بها الفقهاء بنوع من الترحيب، وأقبل الطلبة على الاستماع إليه. ولا يظهر أن أفكاره قوبلت بعداء. ومما نعلمه عن تصرفاته هنا، معارضته لحكم صدر في حق أحد قطاع الطريق، كان قد نجح هو في إقناعه بالتوبة بعدما شرح له شروطها. ومن قسنطينة رحل إلى بجاية التي وصلها حسب ابن القطان عام 511هـ[38]، والتي سبقته إليها أخباره، وكان حلوله بها في شهر رمضان (يوافق اليوم الأول منه 27 ديسمبر 1117م واليوم الأخير 25 يناير 1118م) حيث نزل بمسجدها. وقد أثار حنقه ما شاهده خلال الشهر المبارك من مظاهر وثنية مثل ارتداء الصنادل المذهبة والعمامات على الطريقة التي كان يرتديها في الماضي عبدة الأوثان وخصوصاً ارتداء الرجال للفتوحية وهي من لباس النساء[39]، وتزين الشباب المخنث بالشعر المستعار والأقراط والملابس الحريرية والمطرزة[40]. وبما أن هذه العادات الآثمة كانت تروق بعض الناس، وهو ما زاد من حدة غضبه، فقد عقد العزم على محاربتها بكل ما أوتي من قوة. وكان فقهاء المدينة يترددون على مكان إقامته طيلة شهر رمضان للاستماع إلى أفكاره. وفي صبيحة يوم العيد (26 يناير 1118م)، وعند خروجه إلى مصلى باب الشريعة لأداء الصلاة، فوجئ باختلاط الجميع في المصلى من نساء ورجال وكان الشباب من هؤلاء متزينين تزين النساء[41]. أمام هذا المشهد قام بالهجوم على الحاضرين وبدأ يضرب الجميع دون هوادة حيث أجبر بذلك الحاضرين على التفرق، وهو ما استغله الرعاع الذين قاموا بسرقة مجوهرات النساء. ولما لاحظ الأمير العزيز ما يقع من شغب سأل عن مصدره، فأجيب أن المسؤول عنه هو الفقيه السوسي (الاسم الذي كان يطلق على ابن تومرت قبل ادعائه المهدوية). وقد نجح أهل الشقاق في تأليب العزيز عليه، بحيث أمر هذا الأخير بتنظيم حلقة مجادلة بينه وبين الطلبة، يناقشه هؤلاء من خلالها في سبب عدم احترامه لسلطة الأمير.

وبعد إعداد مأدبة فاخرة بالمناسبة، أرسل الطلبة من يستدعيه، لكنه رفض الحضور، إثر ذلك ألحوا عليه من جديد وأرسلوا له هذه المرة كاتب الأمير عمر بن فَلفول الذي نجح وبكثير من

38- نظم الجمان، م. س.، ص. 20 . بالنسبة لابن خلدون فقد كان حلوله ببجاية عام 512هـ؛ العبر، الجزء الأول، م. س.، ص. 467.

39- كان يكرر بأن ارتداء الرجال للباس النساء مناف للشريعة عملاً بالحديث النبوي القائل: "لعن الله الرجل المتشبه بالمرأة". نقلاً عن السيوطي. الجامع الصغير، الجزء الثاني- ص 105.

40- نظم الجمان، م. س.، ص. 41.

41- ليس هناك شك في فساد عادات السكان في بجاية خلال تلك الفترة، لكن يظهر أن المصادر ولتبرير تصرف ابن تومرت بالغت في وصف ذلك.

اللباقة والأدب في إقناعه بقبول الدعوة. ومن خلال المجادلة التي دارت بينه وبينهم، تبين ذكاؤه وسعة معارفه أمام جهلهم وتواضع معارفهم، وهو ما أجبرهم على التزام الصمت في وقت بدأ هو في عرض أفكاره الثاقبة والجديدة عليهم. وقد حاول ابن فَلفول إثرها، وبلباقة إقناعه بالتخلي عن دور الرقيب الصارم الذي يطلع به، لكن ابن تومرت كان بعيداً عن الاقتناع بذلك، وفضل عليه مغادرة المدينة. هذه الرواية هي التي يوردها ابن القطان الذي لا يخفي إعجابه الشديد بابن تومرت وبالتالي يعتقد أن نجاته من غضب الأمير ترجع إلى كرامة أخرى من الكرامات التي من الخالق عليه بها. غير أن البيدق الذي لا يقل إعجاباً بابن تومرت وكان شاهد عيان على الاضطراب الذي أثاره هذا الأخير في المصلى يوم العيد، يشير إلى أنه ليس هناك أي شيء خارق للعادة فيما يتعلق بترك سيده لبجاية سالماً، وأن نجاته جاءت على يد أحد أبناء العزيز الذي توجه إليه بكل أدب وخاطبه قائلاً: «*يا فقيه لا تأمر السوقة بالمعروف وهم لا يعرفونه، فإني أخاف أن يأمروا فيك وتهلكهم، لا يستوي حد كريم مع شيطان رجيم*»[42].

وقد انتقل ابن تومرت إثر ذلك إلى رباط ملالة بضواحي بجاية[43] حيث قضى عدة أشهر، وكان لمغادرته المدينة، وهو ما سمح بتفادي الفتنة، وقع حسن لدى أبناء العزيز الذين رحلوا لزيارته بالرباط المذكور وشيدوا له مسجداً صغيراً توافد عليه به الطلبة من جهات مختلفة[44]. وكان بعد الانتهاء من التدريس الذي يشغل جل نهاره، يقصد حجراً مجاوراً يقع في مفترق الطرق ويجلس صامتاً متأملاً تحت شجرة خروب[45].

غير أنه لم يستطع مقاومة غيرته الدينية، وفي أحد الأيام عاد من جديد إلى بجاية حيث قصد مباشرة مكاناً يباع فيه الخمر يسمى باب البحر، وبدأ يصب الأقداح أرضاً وهو يصيح:

42- أخبار المهدي، م. س.، ص. 13.

43- يؤكد ابن خلدون خطأ أن بني ورياغل استقبلوه بملالة ورفضوا تسليمه للعزيز، وقد كتب عن ذلك ما يلي: «*وتعرض يوما لتغيير بعض المنكرات في الطرق فوقعت بسببها هيعة نكرها السلطان والخاصة وائتمروا به، فخرج منها خائفا ولحق بملالة على فرسخ منها وبها يومئذ بنو ورياكل من قبائل صنهاجة. وكان لهم اعتزاز ومنعة، فآووه وأجاروه، وطالبهم السلطان صاحب بجاية بتسليمه إليه، فأبوا واسخطوه، وأقام بينهم يدرس العلم أياما*»، العبر، م. س.، ص. 467.

44- إلى عهد ابن خلدون كان رباط ملالة و المسجد الذي حمل اسم ابن تومرت لا يزالان معروفين، وحسب نفس المصدر فإن المسجد شيد بجوار دار يرزيجن بن عمر المكنى أبا محمد. الذي أطلق عليه ابن تومرت فيما بعد اسم عبد الواحد حيث اصبح من "أهل الدار" وتولى مناصب مهمة في بدايات عهد الإمبراطورية الموحدية. أخبار المهدي، م. س، ص.14.

45- يقول صاحب المعجب: «*وكان شديد الصمت كثير الانقباض، إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة*». م. س، ص.249. بخلاف ذلك يقول البيدق إنه كان يداعب الأطفال في الشوارع، ويتأسف على الزمان الذي كتب لهم أن يعيشوه.

«*المؤمن تمار والكافر خمار*»[46]. ولما ألقى عليه القبض عبيد سبع بن العزيز وسألوه عن من كلفه بتولي مهمة الرقيب أجاب: "الله ورسوله". وبعد إطلاق سراحه عاد من جديد إلى ملالة[47] والتي سوف يقصده بها عبد المومن. وبما أن اللقاء بينهما أسس لقيام الإمبراطورية الموحدية، فقد طبعه خدام الدولة ومؤرخو بداية عهدها بطابع أسطوري.

اللقاء بين عبد المومن وابن تومرت

يعتبر البيدق، وهو من أشد المعجبين بعبد المومن ومن الذين خدموه بإخلاص عندما تولى الملك، اللقاء الأول بينه وبين ابن تومرت من الكرامات وخوارق العادات، حيث يقول إنه تدبير إلهي وتبشير بقيام الخلافة الموحدية، وهكذا يصور لنا ابن تومرت جالساً تحت شجرة خروب وهو ينتظر تحقيق ما وعده به ربه، وعندما وصل عنده عبد المومن، تيقن من أنه الشخص الذي اختاره الخالق لتحقيق ذلك الوعد. ويضيف البيدق أن ابن تومرت أخبر أصحابه بمقدم عبد المومن قبل يوم واحد من وصول هذا الأخير. وحسب نفس المصدر فإن عبد المومن غادر رفقة عمه يعلى تلمسان عبر متيجة في اتجاه بجاية، وكان قد شاهد قبل وصولها النبي في عدة رؤى. وعند حلوله بها نزل بمسجد الريان وكان يجهل إلى تلك اللحظة وجود المهدي بالمدينة، ومع ذلك قرر بشكل مفاجئ، بعدما سمعه عن غزارة علمه وعمق فهمه للقرآن والسنة[48]، الذهاب عنده ليحكي له رؤاه ويسمع منه في أمور الدين. وحسب البيدق دائماً، فإن عبد المومن كان ينوي السفر من بجاية إلى المشرق لطلب العلم، لذا كان عمه يعلى يستعجله أثناء حديثه مع ابن تومرت حتى لا تفوتهما السفينة التي ربما كانت ستحملهما إلى الإسكندرية، ويصف ذات المصدر بسذاجة لكن بحماس، الطريقة التي استقبل بها ابن تومرت عبد المومن، حيث يقول: «*لما جد السير نحو الأمام اجتمع مع الطلبة في طريقه فاصطحب معهم حتى بلغ باب المسجد فرفع المعصوم رضي الله عنه رأسه فوافقه أمامه، فقال له: ادخل يا شاب فدخل، فأراد أن يقعد في جملة الناس، فقال له الإمام المهدي المعصوم رضي الله عنه: ادن يا شاب، فلم يزل يدنو من الإمام والمعصوم يقربه حتى دنا منه، فقال له*

46- اخبار المهدي، م. س.، ص. 13.

47- نفسه، ص. 14.

48- بالإضافة إلى عمق معارفه والتي كانت تثير إعجاب اهالي مصمودة البسطاء، والسمعة التي نالها بسبب تقشفه، فإنه كان يتمتع لا محالة بقدرة كبيرة على جلب الناس، ويقول المراكشي في المعجب، إن كل من رآه كان يجله ويعظمه، ولتأكيد ذلك يورد الطريقة الخرافية التي أخرج بها أحد السجناء من السجن عندما نجح، وبقدرة قادر، في تنويم الحرس، المعجب، م. س.، ص. 269.

المعصوم: ما اسمك يا فتى؟ فقال: عبدالمومن، فقال له المعصوم وأبوك علي؟ فقال نعم! فتعجب الناس من ذلك، فقال له يا شاب من أين إقبالك؟ قال له: من نظر تلمسان، من ساحل كومية، فقال له المعصوم من تاجرا أم لا؟ فقال له نعم، فزاد الناس تعجبا، فقال له المعصوم رضي الله عنه أين تريد يا فتى؟ فقال يا سيدي نحو المشرق ألتمس فيه العلم، فقال له المعصوم رضي الله عنه: العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب»[49].

في تلك الليلة وبعدما هم الجميع بالانصراف، طلب ابن تومرت من عبد المومن المكوث، وفي حوار بينهما لم يحضره بالإضافة إليهما غير البيدق، أخبره بالمستقبل الرفيع الذي ينتظره، ورغم اعتراض عبد المومن المبدئي بسبب جسامة المسؤولية، فقد عينه ابن تومرت سراج الموحدين[50].

وفي اليوم الموالي حاول عمه يعلى إقناعه بمواصلة السفر نحو المشرق لكن دون فائدة، فقرار المكوث الذي اتخذه كان لا رجعة فيه. والحقيقة أن تعطشه للعلم تلاقى وإلحاح ابن تومرت عليه للدرس والتحصيل دون كلل طيلة الشهور التي قضاها إلى جانبه في ملالة، والتي سمح له خلالها الأخذ عنه، بالتفقه في علوم الدين، وذلك قبل أن تتفتق عبقريته كرجل دولة من الطراز الرفيع.

ويرفض ابن القطان الأسطورة التي يوردها البيدق عن لقاء ابن تومرت بعبد المومن، ويقدم في المقابل رواية أكثر واقعية لا يربطها بمعجزة ولا بكرامة؛ فقد ذاع صيت ابن تومرت بفضل الدروس التي كان يلقيها في ملالة، وتوافد عليه بسبب ذلك الطلبة من جهات مختلفة. وخلال الشهور الطويلة التي قضاها في ملالة أقام صداقة متينة مع الفقيه عبد الواحد عمر التونسي الذي ذهب بعد ذلك إلى رباط تلمسان حيث اشتغل بالتدريس، وعند وفاته هناك، ارتأى تلامذته الاقتراح على ابن تومرت تعويضه، وأرسلوا عبد المومن ليعرض عليه الأمر وكان أكثرهم مواظبة[51].

ويروي صاحب "نظم الجمان" على لسان عبد المومن كيف تم اللقاء الأول بينه وبين ابن تومرت والذي لا نجد فيه شيئاً خارجاً عن المألوف مما يشبه ما أورده البيدق، ومما نقرؤه عنده: *«كنت بتلمسان أقرأ كتب أصول الدين، وكان لي صاحب يقرأ كتب الفقه، فرحل عني من تلمسان يريد المشرق، فوصل إلى بجاية، فخاطبني منها يعرفني ويقول لي: قد وصل إلى هذه المدينة فقيه عالم بالعلم الذي تطلبه، فلتصل إليه، فعند وصول كتابه إلي رحلت إلى بجاية، فلقيت بها الإمام المهدي رضي الله عنه»*[52].

49- أخبار المهدي، م. س.، ص. 16.

50- نفسه، ص. 16.

51- نظم الجمان، م. س.، ص. 22.

52- نفسه، ص. 136.

ويرفض ابن خلدون هو الآخر حكاية إزماع عبد المومن قبل التقائه بالمهدي الانتقال إلى المشرق[53]، وباستثناء تغييرات طفيفة، نجده يورد نفس ما كتبه ابن القطان؛ فقد كان عبد المومن حسبه ينتمي إلى تاجرا وهو حصن يقع في الجبال التي تطل على حُنين من جهة الشرق، وفي بداية شبابه قصد تلمسان للأخذ عن أساتذتها من أمثال ابن صاحب الصلاة وخصوصاً الفقيه المبجل عبد السلام التونسي رفيق الشيخ أبي مدين، والذي رغب تلامذته بعد وفاته في البحث عن فقيه يكون في مستواه. في تلك الأثناء بدأت ترد عليهم الأخبار بوجود رجل متفقه في علوم الدين ببجاية يدعى الفقيه السوسي، وهو ما دفعهم لتشجيع بعضهم البعض للاتجاه إلى هناك من أجل حضور دروسه، غير أن أحدهم وكان الأكثر حماساً للالتقاء به، قرر الخروج إلى بجاية، لكن ليس للأخذ عن الفقيه، وإنما ليقترح عليه العودة معه إلى تلمسان، وكان لقاؤه به في ملالة. هذا المكان هو غير المكان الذي يحدده صاحب روض القرطاس الذي يجعل اللقاء بين الرجلين في مسقط رأس عبد المومن بقرية تاجرا القريبة من تلمسان[54]، وكذا الذي يحدده عبد الواحد المراكشي والذي يقول إن عبد المومن كان معلماً بمدرسة للأطفال في قرية فنزارة الواقعة بمنطقة متيجة، وأن ابن تومرت ذهب يبحث عنه هناك[55].

وبعد إيراده للحكاية سالفة الذكر، يقع ابن خلدون في تناقض عندما يقول إن عبد المومن رافق عمه إلى المشرق[56]، وهو بذلك ينحو منحى مؤرخي البلاط الذين أرادوا باختلاق حكاية رحيل عبد المومن إلى المشرق تشبيهه بأستاذه ابن تومرت.

المحطات التي توقف عندها ابن تومرت منذ خروجه من بجاية إلى غاية وصوله إلى سوس

لما قرر ابن تومرت العودة إلى مسقط رأسه كان يفتقر إلى دابة يتنقل عليها، لذا قدمت له أم عبد الواحد الشرقي (يعد من بين الأوائل الذين صاحبوه)، وكانت تدعى رامل، فرسا ليحمل عليه كتبه ومتاعه المتواضع، تكلف البيدق بحراسته والاعتناء به. وأثناء السفر ومن كثرة المشي أدميت

53- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 467.
54- روض القرطاس، م. س.، ص. 220.
55- المعجب، م. س.، ص. 267.
56- العبر، م. س.، ص. 467.

رجلا عبد المومن لذا ترجى ابن تومرت عبد الواحد ليتنازل له عن دابته، وقد لبى هذا الأخير الطلب دون طيب خاطر. ويستغل البيدق هذه الواقعة ليطلق من جديد العنان لخياله الخصب، حيث كتب أن ابن تومرت قال لعبد الواحد: « *يا عبد الواحد طيب نفسك، فلقد يجازيك عليها بالقصور المشيدة والجواري المزينة والخيول المسومة* »[57].

وفي متيجة منح للشخص الذي استضافه وأصحابه تميمة، وقد كرر ذلك أكثر من مرة مع الذين أكرموا مثواه، وكان البربر وهم من الذين يسلمون ببركة الأشخاص، يؤمنون كثيراً بتأثير التمائم. وفي طريقه إلى تلمسان قام وأصحابه بترميم مسجدين في قريتي الأخماس و" كساس ن ومرمور". وعند وصوله إلى ونشريس التقى بعبد الله بن محسن الونشريسي المعروف بالبشير[58]، الذي سوف يصبح لاحقاً مساعده الخاص ومستشاره المفضل ومن دون شك خلفه المنتظر لولا مقتله في معركة البحيرة. والحقيقة أن المصادر العربية فضلت السكوت عن بعض تصرفات البشير هذا، لأن ذلك يسمح لها بنسج الأساطير بحرية أكبر عن حياة الخليفة الموحدي الأول.

وعند مرورهم بتنملل بني يزناسن، أمر ابن تومرت ببناء مسجد بها، بعد ذلك عبروا وادي الشليف في اتجاه البطحاء[59]، حيث استقبلهم وبحفاوة وأكرم مثواهم أحد كبار الفلاحين يدعى يوسف بن عبد العزيز، والذي طلب من ضيوفه أن يختاروا يومياً وطيلة استضافته لهم الكبش الذي يروقهم من قطيع ماشيته لنحره من أجل إطعامهم. وقبل توديعه منحه ابن تومرت تميماً مصنوعاً من الجلد ثم خاطبه حسب البيدق الذي لا يمل من إيراد كرامات إمامه المعصوم، بما يلي: «*يا شيخ امسك هذا عندك، فإن مت يكون عند بنيك فإنه خير لك ولعقبك حتى يصل إلى هذا الموضع ملك وعسكر فادفع البراءة من يديك ليد الملك ولا تعطها أحدا غيره، فقال له نعم*»[60].

ويمكن ربط هذه النادرة بأسطورة أوردها ابن القطان[61] تقول إن عبد المومن وأثناء توجهه لغزو بجاية نزل بقرية كبيرة، وبعد أن أعد لجنوده الإقامة اللازمة، امتطى صهوة جواده واتجه

57- أخبار المهدي، م. س، ص. 18.

58- يؤكد صاحب الحلل الموشية بأن البشير اجتمع بهم ولم يفارقهم منذ تلك اللحظة، لكن البيدق لا يذكر اسمه عند إيراده أسماء من كانوا يرافقون المهدي عند وصوله إلى فاس، كما لا يذكره ابن خلدون عند حديثه عن مرافقي ابن تومرت.

59- تقع شمال غليزان بالقرب من ملتقى الشليف والمينة، ويدعي روض القرطاس أن عبدالمومن أسس هناك مدينة عند عودته من إفريقية عام 555 هـ (1160م) إكراماً لإسماعيل الهزرجي الذي قتل ودفن هناك، وكان قد ضحى بحياته من أجل عبدالمومن عندما علم بالمؤامرة التي دبرها ضده أخوا المهدي، حيث فضل الموت على الكشف عن المؤامرة، وهو بطبيعة الحال ما لا يقبله العقل.

60- أخبار المهدي، م. س.، ص. 19.

61- نظم الجمان، م. س.، ص. 137.

إلى منزل سأل عن قاطنيه، ثم عاد إلى خيمته وأرسل في طلبهم، ولما سألهم عن والدهم أخبروه أنه توفي منذ سنوات، وأنه قبل ذلك قسم بينهم أراض فلاحية شاسعة ومنح كلاً منهم ألف راس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار. وبعد أن سمع منهم، منحهم ظهائر توقير وامتيازات خاصة كما ولاهم أمر القضاء بقريتهم.

وقد وصل ابن تومرت وأصحابه إلى تلمسان ونزل في ربض أكادير غرب المدينة، وبدا كعادته في مهاجمة ما لا يراه لائقاً من تصرفات، وهو ما لم يفعله منذ مغادرته لبجاية، ومما قام به في هذا الاتجاه، اعتراض موكب عرس كان يحمل العروس إلى بيت الزوجية، حيث أوقف الموكب وكسر الدفوف وغيرها من الآلات الموسيقية وأرغم العروس التي كانت محمولة على الأكتاف وهي جالسة في الهودج، على النزول أرضاً. من جهة أخرى أثار البلبلة بين طلبة المدينة الذين حضروا للاستماع إلى إحدى دروسه، وذلك لجهره بمعتقدات مخالفة لما تعودوا وغيرهم من سكان المدينة على سماعه، وقد وبخه بسبب ذلك قاضي تلمسان ابن صاحب الصلاة الذي ظن أن ابن تومرت سيتعظ ويراجع أقواله وما يثيره من مواضيع، غير أن هذا الأخير لم يبال بالأمر واستمر في نشر ما كان يدعو إليه[62].

وبخلاف سكوته عن توبيخ قاضي المدينة للمهدي، يذكر البيدق أثناء حديثه عن الحملة التي وجهها عبد المومن إلى تلمسان ضد علي بن تاشفين حيث أقام مخيمه بجبل تارني في مكان يعرف باسم "الصخرتين"، يذكر أن الإمام المعصوم عندما كان وأصحابه في تلمسان، قال إن خليفة المستقبل وجيشه سوف ينزلون يوماً ما بـ"الصخرتين"[63].

وقد غادر تلمسان في اتجاه وجدة حيث واصل مهمته المزدوجة والمتمثلة في التدريس وفي تقويم ما اعوج حسبه من عادات الأهالي وطبائعهم. وبما أنه لاحظ خلال اليوم الموالي لوصوله أن النساء يتوضأن من نفس الينبوع الذي يتوضأ منه الرجال، قام بمد القناة إلى بركة توجد بجوار المسجد. وقد التقى بالمدينة الفقيه يحيى بن يصليتن ولامه على سماحه انتقال العرائس إلى بيت الزوجية في مواكب على الطريقة الوثنية[64]. ومن وجدة رحل إلى صاء (تاوريرت

62- اخبار المهدي، م. س.، ص. 20

63- نفسه، ص. 20.

64- ليبين له لا شرعية هذا التصرف، ذكره بالآية 31 من سورة النور، التي جاء فيها: «وقل للمؤمنات يغضضن من *ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها*». نفسه، ص.21.

الحالية) حيث استنكر من جديد ما لا يروقه مثل تزين النساء بالحلي في الشوارع، وقد غطى وجهه لما مر من أمام بعضهن وكن يبعن الحليب[65].

بعد ذلك انتقل إلى أكرسيف (كرسيف الحالية)، وطلب من مضيفيه أن يقوموا على غراره بالعمل من أجل تغيير الطالح من طبائع السكان، وحدث أن علم أثناء ذلك بقرار السلطات صلب رجل وهو حي، فثارت ثائرته واقتحم الجموع التي جاءت لتحضر عملية الصلب وهو يصيح بعدم جوازها، وبأنه إذا ما استحق الرجل الصلب فيجب أن يقتل قبل ذلك. ولما رأت العامة جرأته والطريقة التي يأمر وينهى بها، التجأت إليه تقدم الشكاوى من الحيف التي يلحقها من وزير الحاكم يحيى ابن فانو الذي أثقل كاهلها بالضرائب غير الشرعية، إثرها توجه ولتوه لزيارة يحيى حيث نجح في إقناعه برفع هذا الحيف عن السكان. بعد ذلك واصل السير عبر وادي أمليل[66] إلى أن وصل إلى مدشر قلال الذي نزل بمسجده، وهنا كذلك ثار غضبه عندما تبادر إلى سمعه موسيقى وغناء امتزجت فيه أصوات رجالية بأخرى نسائية. وقد أرسل كلاً من البيدق والحاج الدكالي ليضعا حداً لذلك، غير أن الأهالي لم يبالوا بهما وأخبراهما أن تلك عادتهما منذ القدم وأنهم لن يحيدوا عنها، ولما رجع الرجلان وأخبراه بالأمر عاد هو ليكرر الإنذار من جديد، وهو ما أثار غيض المنشدين الذين أخبروه بأنه إذا لم يتركهم وشأنهم فإنه سيتعرض إلى ما لا تحمد عقباه، عندها أحس ابن تومرت بالخطر. وبما أنه كان يعرف كيف يجب تفادي المواقف الصعبة، فإنه أمر البيدق بوضع الكتب على دابته وترك المكان عبر مخاضة النساء[67]، حيث توقف لبعض الوقت بالمقرمدة التي زاره فيها العديد من الطلبة، وذلك قبل أن يغادرها في اتجاه فاس.

وبهذه الأخيرة نزل أولاً في مسجد ابن جنان ثم بمسجد ابن ملجوم وأخيراً بمسجد طرجانة الذي توجد بمئذنته حجرة أقام بها، وقد شرع مباشرة في التدريس، وبفضل شهرته التي ذاعت، توافد على دروسه الطلبة من مختلف أرجاء المدينة التي لم يكن بها في ذلك العهد فقهاء مشهورون. وبحكم أن الدراسات حول أصول الدين كانت مهملة تماماً بفاس، فقد بهر ابن تومرت بفضل سعة معارفه في هذا المجال ومتانة حججه، كل من استمع إليه. وهنا كذلك لم يهمل

65- نفسه، ص. 21.

66- يمتقد ليفي بروفنصال ان الأمر يتعلق بوادي أمليل الحالي الموجود في قبيلة التسول، وهي محطة قديمة تقع على الطريق الرابطة بين فاس وتازة.

67- يضبط ابن عذاري مكان المخاض، عندما يقول إن يحيى بن الناصر: «*دفن في قلعة في فحص يعرف بفحص الزاد وهو بين وادي ابي حلو ومخاض النسا وهذا الموضع بين مدينة فاس ورباط تازا* ...»، البيان المغرب، م. س.، ص. 336.

محاربة ما كان يعتبره مناقضاً للشريعة في طبائع الناس، لذا أمر أصحابه، وكان عددهم سبعة، بالتوجه إلى مكان على ضفة النهر توجد به أشجار تين عقيمة وقطع جذوعها ثم إخفائها تحت ملابسهم والالتحاق به وذلك بغية استعمالها كهراوات. وعند وصولهم إلى زُقاق بزقالة حيث تعرض الآلات الموسيقية للبيع، أمر أصحابه بإشهار هراواتهم وكسر كل ما استطاعوا منها[68]. ولم يجرؤ التجار المتضررون على استعمال العنف ضده بل اكتفوا بالذهاب عند القاضي ابن معيشة لتقديم الشكاوى، وقد طردهم هذا الأخير مبيناً أن ابن تومرت وجد في الكتاب والسنة السند الشرعي الذي دفعه للقيام بما قام به.

ويسكت البيدق هنا عن غضب الفقهاء من ابن تومرت بسبب ما كان يتناوله في دروسه، خصوصاً الشروحات والتعليقات التي كان يقدمها عن العقيدة الأشعرية، وهو ما جعلهم يقدمون شكاوى ضده إلى عامل المدينة، حيث أمر هذا الأخير بعقد مجلس يناقش فيه الفقهاء ابن تومرت في الأمور التي تثير الجدل. ويتحدث البيدق عن المجادلة التي حسمت لصالح سيده، وكيف أن معارف مجادليه الدينية لم تكن تتجاوز ما تتضمنه كتب الفقه من فتاوى. وقد نصح الفقهاء اثر ذلك العامل بطرد ابن تومرت من المدينة حتى لا يفسد عقول العامة، وهو ما قام به العامل والذي بعث في الوقت ذاته "كتباً بخبره" إلى العاصمة مراكش[69].

وإثر مغادرته فاس، وبعد يوم من السير، وصل إلى حصن مجيلة الواقع بين فاس ومكناس، والذي غادره في اليوم الموالي قاصداً مكناس، وعلى مشارف هذه الأخيرة بمنطقة تدعى الكدية البيضاء وجد مجموعة من الرجال والنساء جالسين تحت شجرة لوز قام بتفريقهم بمساعدة أصحابه. بعد ذلك دخل المدينة واستقر كعادته بأحد مساجدها حيث التحق به العديد من الطلبة الراغبين في الاستماع إلى دروسه. وحسب البيدق فإن ابن تومرت لم يجد في مكناس إلا الرعاية والتقدير، غير أن ابن خلدون وهو أكثر صراحة وأقل تملقاً، يخبرنا أن تطرفه أثار غضب العامة التي ضربته وأرغمته على الفرار[70].

وقد ترك المدينة على عجل حيث توجه عبر خميس فنزارة، إلى سلا التي استضافه بها الفقيه السلاوي أحمد بن عشرة، وخلال مقامه المطول بالمدينة اشتغل بتدريس علم الكلام وحث تلامذته على محاربة البدع وما يرونه فاسداً في طبائع الناس.

68- أخبار المهدي، م. س.، ص. 23-24.

69- المعجب، م. س.، ص. 270-271.

70- العبر، م. س.، ص. 467-468.

ويورد المراكشي على لسان عبد المومن حكاية طريفة وقعت لابن تومرت وأصحابه أثناء مقامهم بسلا، تظهر منها حالة الفقر المدقع التي كانوا يعيشونها. أثناء عودة الخليفة الموحدي الأول ظافراً من إحدى معاركه في الأندلس، وفي الوقت الذي كان جيشه يعبر نهر أبي رقراق، وهو ينظر إليه محاطاً بجميع مظاهر الهيبة والعظمة، توجه بالحديث إلى من يرافقه قائلاً: «*أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلا رغيف واحد، فداموا عبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب، وبدلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة، فقال لهم أحدهم -وكان شابا جلدا-: خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة! فأخذا ثيابه معهما، وصعدا في القارب، فجعل الشاب يسبح، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح فضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه، فما بلغ البر إلا بعد جهد شديد!*»[71].

ولم يشك أحد من الذين استمعوا للرواية في أن الشخص الذي عبر النهر سباحة هو عبدالمومن وأن الشخصين اللذين عبراه ركوباً هما ابن تومرت وعبدالواحد الشرقي. والحقيقة أننا لا نعرف مدى صدق الرواية؛ فابن تومرت كان يرافقه على الأقل خمسة أشخاص إضافة إلى الفرس وهو ما لا يقول عنه المراكشي شيئاً.

ومن سلا اتجه عبر الطريق الساحلي إلى مراكش والتي سوف يتخذ بها أهم قرار في حياته كما سنرى. وقبل وصوله إليها مر بتابرندوست التي سطا فيها بعض السود يعرفون باسم أولاد تبرزوفت على فرسه. ولما وصل أم الربيع منع وأصحابه من اجتيازه إذا لم يدفعوا ضريبة العبور، وهو ما اغتاظ له، وقال متحدياً لمن منعه من العبور بأنه وأصحابه سيجتازون النهر دون أن يدفعوا شيئاً لأن الطريق هو في ملكية سائر المسلمين ولأن ضريبة العبور هي عمل يخالف الشرع.

إقامة ابن تومرت في مراكش وشجاره في أغمات

إن البلبلة والجدال اللذين أثارهما ابن تومرت بسبب غيرته الدينية وبسبب عمق معارفه، سيصلان ذروتهما عند حلوله بعاصمة المرابطين التي وبعد أن نزل فيها بمسجد صومعة الطوب، قام لتوه بمحاربة الغش والفساد المتفشيين في المدينة، وكان أكثر ما أثار حنقه من عوائد المرابطين سفور النساء دون الرجال. ولم يتوقف ما يقوم به من نهر وتوبيخ عند العامة، بل تجاوزه إلى العائلة الملكية، حيث إنه وبعد أن صادف في طريقه الأميرة "الصورة" أخت السلطان علي

71- المعجب، م. س.، ص. 331-332.

وهي تعبر الشارع في موكب من النساء السافرات، نهرها وفرق موكبها وأسقطها من على صهوة جوادها. بعد ذلك وفي يوم الجمعة توجه إلى المسجد الذي كان السلطان يؤدي فيه الصلاة، وقد وجده جالساً على غفارة (رداء) محاطاً بوزرائه الذين خاطبوه قائلين: «ود الخلافة على الأمير، *فقال لهم أين الأمير؟ إنما أرى جوار منقبات، فلما سمع ذلك علي بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق، فلما رآه المعصوم قال له الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف»*[72]، وأضاف موجهاً كلامه إلى علي أن الغفارة المغيرة (الرداء الأسود) التي يجلس عليها صبغت بمواد نجسة. وقد كان ذلك كافياً ليزعج هذا الأخير الذي قام من مكانه وغادر المسجد[73].

يؤكد ابن بجير[74] هذا اللقاء الأول بين ابن تومرت وعلي في المسجد مع بعض التغيير؛ فقد دخل حسبه ابن تومرت المسجد وجلس في الصف الأول قبالة المنبر، ولما نبهه الحراس بأن المكان مخصص لأمير المسلمين لم يبال بذلك على اعتبار أن المساجد لله وليست للأمير، ولما وصل هذا الأخير المسجد وقف الجميع احتراماً وتقديراً ما عدا ابن تومرت، وما أن فرغ من الصلاة حتى توجه مسرعاً نحو علي وخاطبه قائلاً بأن عليه أن يغير المنكر في بلاده، لأنه مسؤول عن ذلك يوم الحساب. وقد استغرب هذا الأخير من كلام ابن تومرت لكنه لم ينبس بكلمة، وعند عودته إلى قصره أرسل من يسأله عن حاجته فرد ابن تومرت بأنه لا يريد ولا يسعى لشيء غير النهي عن المنكر[75].

وبغض النظر عن مدى صدق هذا اللقاء بين علي بن تاشفين وابن تومرت، فإن ما يهمنا هنا هو قضية النهي عن المنكر التي أصبحت تستحوذ على كل تفكير ابن تومرت، والبلبلة التي أثارها بين الفقهاء لخوضه في علوم لا عهد لهم بها، وإثارته للشغب بين العامة وهو ما أرغم علياً على دعوة

72- أخبار المهدي، م. س، ص. 27.

73- حول لقاء ابن تومرت بعلي والحوار الذي دار بينهما حسب المصادر العربية، انظر مقالتي المشار إليها آنفاً والمنشورة في مجلة الأندلس، الجزء، XIV ص.339 وما يليها، تحت عنوان: "التاريخ والأسطورة". والحقيقة أن الأدب الإسلامي، وكما لاحظ كولدزيهير"، مصبوغ بتلك المشاهد المبتدعة في أغلبها، والتي تتحدث عن حوارات بين السلاطين والحكام من جهة، وبين الوعاظ والرجال الصالحين من جهة أخرى، والذين يعيبون على الأوائل ما اعوج من سيرتهم.

74- Op. Cit. Goldziher . P 93.

75- لم تكن أخلاق اهالي مراكش بالمثالية، لذا فسلطان ورع ولين الطبع كعلي، لم يكن بالشخص الذي يمكنه أن يجبر المرابطين، بعد أن اغتنوا بسرعة واستطابوا ما تسمح به حياة المدن وما وصلهم من الحضارة الأندلسية، بالعودة إلى حياة الخشونة والتقشف. وقد أضفت المصادر العربية طابع الجبرية على سقوط الدولة المرابطية، عندما اعتبرت ذلك عقاباً إلهياً لأولي الأمر القائمين على شأن الدولة، بسبب انحلالهم وفسادهم وحمايتهم للصوص وقطاع الطرق. انظر: المعجب. م. س.، ص. 273.

فقهاء مراكش لمجادلته في جلسة خاصة. وكما كان منتظراً فإن هؤلاء والذين كانت معرفتهم بعلوم الدين لا تتجاوز كتب الفروع وبالتالي كان اجتهادهم يقف عند الإفتاء في الأمور الشرعية، لم يكن بمقدورهم مجاراته في أمور اللاهوت التي جرهم إليها، باستثناء فقيه أندلسي يدعى عبد الله بن مالك ابن وهيب[76] كانت له بعض المعارف الفلسفية والفلكية وبالتالي كان قادراً على فهم ما أثاره ابن تومرت ومقارعته فيه، لكن هذا الفقيه وحتى لا يخالف رأي بقية زملائه الغاضبين الناقمين تحول إلى ناطق باسمهم واعتبر ابن تومرت مبتدعاً يسعى إلى إفساد عقول العامة وإثارة الفوضى ومحاولة التمرد على سلطة الإمبراطورية المرابطية، وقال في شأنه لعلي إنه رجل الدرهم المربع[77] وأضاف بأنه من الأفضل أن يضع السلاسل في رجليه حتى لا يسمعه طبول الحرب، ويصرف عليه ورفاقه ديناراً واحداً في اليوم وهم في السجن مع اتقاء شره، خير من تركه خارجه وآنذاك يضيع ثروته كلها في مواجهته[78]. وبحكم طبع علي المسالم فإنه لم يكن من السهل قبوله بما اقترحه عليه الفقيه الأندلسي، خصوصاً وأن السجن كان في نظره شقيق الموت[79]، ومع هذا وبسبب إلحاح الفقهاء أصدر أمره إلى أبي بكر بن تَيْزَمَتْ لتنفيذ ذلك، وهو ما عارضه اثنان من وزرائه هما ينتان بن عمر وسير بن وربيل اللذان خاطبا علياً قائلين: «*يا أمير المسلمين ماذا يقال عنك في البلاد تسجن رجلا يعرف الله وهو أعرف أهل الأرض بالله تعالى*»[80].

ويستشف مما ورد عند البيدق بخصوص هذه النقطة أن قرار الاعتقال الذي فوض لابن تيزمت لم ينفذ بسبب معارضة الوزيرين، لكنه في مكان آخر وعند حديثه عن احتلال الموحدين لمراكش يشير إلى أن ابن تيزمت هذا اعتقل وصدر في حقه حكم الإعدام، وعندما أخذ لينفذ فيه الحكم سأل عن ذنبه فأجابه عبد المومن: «*لأنك رميت يدك في المهدي رضي الله عنه وحملته إلى السجن، فتلك السنة*»[81].

76- من مواليد إشبيلية، استدعاه علي بن يوسف إلى مراكش حيث عينه وزيراً ومستشاراً خاصاً.

77- كان المنجمون قد تنبؤوا بظهور ملك جديد في بلاد المغرب سوف يقوم بتغيير شكل السكة، وذلك بعد التقاء النجمين الأكثر علواً. العبر، م. س.، ص 469.

78- يقول صاحب المعجب إن ابن وهيب هذا تنبه بسرعة للمواهب القيادية لابن تومرت والخطر الذي أصبح يحيق بمنطقة الأطلس بعدما حل بها، وإمكانية قيامه بتمرد ضد السلطة المرابطية، لذا نصح علياً بقتله، وتعهد هو بتحمل المسؤولية في ذلك لعلمه بنفور علي من مثل هذه التصرفات. المعجب، م. س.، ص. 272-273.

79- نفسه، ص. 273-274.

80- أخبار المهدي، م. س، ص. 28.

81- نفسه، ص. 65.

وأمام تباين موقف وزرائه، لم يستطع علي اتخاذ قرار حاسم بشأن ابن تومرت، وهو ما استغله يينتان بن عمر حيث أطلق سراح ابن تومرت، وبعد أن نقله إلى بيته، توجه عند علي حيث قال له إنه وبصفته أميراً للمسلمين، لا يجب أن يسجن عالماً مسلماً ظلماً، وقد رد عليه علي أن هذا العالم وحسب الفقهاء يمكن أن يكون سبباً في خراب مملكة المرابطين، حينئذ أجاب يينتان أنه إذا كان الخراب سيصيب مملكة المرابطين على يده، فمعنى ذلك أن الخراب قد دب في هذه المملكة. وحسب رواية أخرى فإن هذا الوزير أو ربما وزيراً آخر أقنع علياً بأن ملكاً عظيماً مثله لا يجب أن يتخوف من رجل مغمور مثل ابن تومرت لا يجد حتى ما يسد به رمقه. كل هذا جعل علياً في حيرة من أمر ابن تومرت. وحتى يخفف من حيرته هذه اقترح عليه يينتان أن يحتفظ بابن تومرت في بلاطه للتدريس أو يمنحه حريته ويسمح له بأن يجوب البلاد دون قيود. وقد قبل علي بالحل الأخير، لكن بشرط هو أن يغادر ابن تومرت مراكش. ورغم نقل يينتان القرار لابن تومرت فإن هذا الأخير لم يغادر المدينة، بل انتقل رفقة تلامذته إلى مقبرة ابن حيدوس، حيث استأنف التدريس بكل اطمئنان، ولما علم علي بذلك، أرسل من يذكره بقرار الطرد، لكن ابن تومرت أجاب الرسول بمكر بأنه لا يقيم في مملكة سيده وإنما يقيم مع الأموات. وبعد أن سمع علي هذا الجواب غير المنتظر ذهب شخصياً عنده وذكره مرةً أخرى بقرار الطرد، لكن ابن تومرت كرر عليه نفس الجواب والذي انسحب علي على إثره وهو في أشد ما يكون من التضايق والامتعاض من جسارة ابن تومرت. ولما أدرك يينتان بن عمر خطورة الموقف وما يمكن أن يجر عناد ابن تومرت عليه من ضرر، ذهب إليه من جديد وألح عليه بمغادرة مراكش، وهو ما قام به ابن تومرت الذي فر من المدينة مع أصحابه في اليوم الموالي[82].

وقد سلكوا طريق الأطلس عبر أغمات وأيلان، وبعد ثلاثة أيام من مغادرتهم العاصمة وصلوا إلى أغمات أوريكة التي كانت لابن تومرت فيها مجادلة حادة مع بعض الفقهاء حول علم الكلام، ويمكن القول إن المرحلة الأولى في علاقته بالمرابطين تنتهي بوصوله إلى أغمات اوريكة، والتي أقبل فيها على التدريس بمسجد وطاس بن يحيى والذي كان يدرس به في نفس الوقت فقيه آخر يدعى عبدالحق بن إبراهيم، دخل مع ابن تومرت هو الآخر في مجادلات مستمرة جعلت سكان القرية ينقسمون إلى قسمين كل واحد منهما يتبع أحد المدرسين.

وأمام تأكد ابن تومرت من تفوقه على الفقيه المذكور ومن ينحو نحوه، دعا الجميع إلى مجادلة عمومية أوردها كاملة في كتابه "أعز ما يطلب"، حيث بين كيف هزمهم وكيف أطبقوا الصمت. وقد

82- وردت هذه الحكاية في "أخبار المهدي"، ص. 28. كما وردت عند صاحب "روض القرطاس"، م. س.، ص. 223. الذي أغناها، وكعادته، بما جاد به خياله الخصب، حيث جعل عدد مرافقي المهدي إلى المقبرة 2500 رجل. وقد بدأ ابن تومرت حسبه بالتهجم على السلالة المرابطية، مما دفع بعلي لإرسال من يقوم بقطع رأسه، لكن الخبر تسرب إلى أحد تلامذته الذي أسرع بإخباره، وهو ما جعله يغادر مراكش لتوه صوب تنملل التي كان وصوله إليها في شوال 514هـ.

قال لهم في البداية عندما لاحظ أنهم يتحدثون جميعاً وكل يدلي بدلوه دون انتظام: «*قدموا من أنفسكم من تقوم به حجتكم، وتأدبوا بآداب أهل العلم، وقفوا عند شروط المناظرة*»[83]، وهو ما قبلوا به وعينوا أحدهم لينطق باسمهم[84]. عند ذلك أخذ ابن تومرت الكلمة وسأل مجادله عن مصادر وطرق المعرفة الإلهية «*وهل هي منحصرة أم لا؟*»[85]، ولما أجابه هذا الأخير أن تلك المعرفة منحصرة في الكتاب والسنة والمعاني، علق ابن تومرت ساخراً بأنه سأله هل مصادر المعرفة الإلهية محدودة في العدد، بينما هو أجاب ذاكراً فقط أحد مصادر هذه المعرفة وهو ما يعني أنه لم يجب على سؤاله، وبما أن المجادل لم يفهمه ولم يرد بأي جواب آخر، فقد وجه له ابن تومرت سؤالاً ثانياً عن أصل الحق والباطل، وعندما لاحظ عجز مجادله ليس فقط عن الجواب وإنما عن فهم السؤال، أخذ الكلمة حيث وضح أن أصل الحق هو العلم وأصل الضلال هو الجهل والشك والظن[86]. وهنا تجدر الإشارة إلى أن ابن تومرت يرفض اعتبار الرأي كأساس لحكم شرعي، رغم أن مجادليه بل وفقهاء وقضاة مرموقين آخرين قبلوا به[87].

بعد ذلك وضح لمجادليه الفرق في كل الأحكام الشرعية بين العلم أو اليقين الذي هو أصل وبين الرأي أو الافتراض والذي هو فرع، بمعنى أن الحكم الشرعي يمكنه أن يستفيد من الرأي أو الشهادة العينية أو الدليل لكنه لا يمكنه أن يستند إلا على العلم أو اليقين، أي الكتاب والسنة.

وقد جره هذا للخوض في الأحاديث الصحيحة وغير الصحيحة، حيث بين وبدقة، طبيعة كل منها والاختلاف بينها وأهميتها بالنسبة للأحكام الشرعية وكيف أنها تعتبر مصادر أساسية بالنسبة لعلم الأصول. وبخصوص الأحاديث المتواترة رجح سند تلك التي وردت عن محدثي المدينة. بعد ذلك تطرق إلى خصوصيات الأصول والفروع فبين أنواعهما والعلاقة بينهما واستحالة الوصول إلى نتيجتين متناقضتين استناداً إلى أصل واحد أو الوصول إلى نتيجة واحدة استناداً إلى أصلين مختلفين.

83- أعز ما يطلب، م. س.، ص. 35.

84- يتعلق الأمر دون شك بعبدالحق بن ابراهيم سالف الذكر. ويخلط ابن خلكان بين الفقيه الذي تولى مجادلة ابن تومرت والشيخ إسماعيل إيكيگ الهزرجي، الذي قدم له الحماية ومنحه الحرس، عندما صعد إلى الجبل، وأصبح فيما بعد احد أعضاء أهل الجماعة (جماعة العشرة).

85- أعز ما يطلب، م. س.، ص. 35.

86- نفسه، ص. 35.

87- يتحدث صاحب روض القرطاس عن هذه المجادلة، لكنه يقول إنها تمت في مراكش بين المهدي و فقهاء البلاط، وليس في اغمات، م. س.، ص. 222.

وبعد أن أظهر وبشكل جلي تفوقه الكبير على مجادله الذي أطبق الصمت، غادر أغمات متوغلاً في الأطلس الكبير، وهناك ومع إحساسه بالأمان وكذا مع اقتناعه بفشل محاولاته في نشر أفكاره في ظل السلطة المرابطية، أعلن تمرده رسمياً وأمر أتباعه بشق عصا الطاعة، وكان إلى غاية هذا التاريخ قد فكر فقط في تصحيح العادات الفاسدة التي تحيد عن الطريق المستقيم، ونشر المعارف الصحيحة والصائبة التي تعلمها في المشرق، وبالتالي لم يمر قط بخلده ما تنسبه له بعض المصادر من كونه اقتنع ومنذ مقامه في بغداد، أنه اختير ومنذ الأزل لتأسيس إمبراطورية جديدة، والدليل على ذلك أنه وخلال رحلته الطويلة التي استغرقت ثلاث سنوات، منذ أن حل بطرابلس وإلى أن وصل إلى أغمات لم يقدم على أية خطوة يرمي من ورائها الإطاحة بالسلطة المرابطية، واقتصر كل ما قام به، كما مر بنا، على محاربة البدع والعادات الفاسدة التي ألصقها البربر بالإسلام، ونشر العقيدة الصحيحة التي تعلمها وأخذ بها أثناء مقامه في المشرق. وقد رأينا كيف تعرض بسبب ذلك للمضايقة المستمرة، وهو ما يسكت عنه البيدق، كما رأينا كيف أنه سعى وباستمرار لجعل الفقهاء يتخلون عما تعودوا عليه من مناهج عقيمة في تناول الأمور الشرعية ويقبلوا بما يعرضه عليهم هو كبديل.

لكن بعدما تبين له أن مجهوداته تصطدم بالمعارضة الرسمية وأن فقهاء البلاط يشكلون ضده كتلة يصعب عليه تجاوزها، ادعى المهدوية على اعتبار أن المهدي المنتظر هو الوحيد المؤهل لتذليل الصعاب وإقامة ملك الله في الأرض وتطبيق عدله. ولتحقيق ذلك تبنى الأطروحة الشائعة آنذاك والتي تقول بظهور المهدي في بلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري. ورغبة منه في كسب دعم أبناء جلدته من المصامدة في صراعه ضد المرابطين، جعل هذا المهدي مصمودياً، وبحكم أنه لم يكن بين مصمودة من هو مؤهل أكثر منه لذلك، فقد سلم الجميع بأنه الشخص المختار. ومما يؤكد استناده إلى العصبية في إنجاح مشروعه المهدوي، أنه وإلى غاية وصوله إلى الأطلس لم يذكر ولو مرة واحدة قضية المهدوية، غير أنه يجب التذكير هنا أن قضية المهدوية لم ترسخ في باله إلا بعد فشل دعوته إلى تغيير المنكر وهو ما كان قد تجند له منذ وصوله إلى طرابلس.

بعد كل ما سلف ذكره، ولإنهاء هذا المحور، أعتقد أنه من المفيد واعتماداً على المعلومات القليلة التي تقدمها المصادر العربية، القيام برصد كرونولوجي للمحطات التي توقف عندها ابن تومرت منذ وصوله إلى إفريقية وإلى غاية عودته إلى مسقط رأسه. فقد كانت عودته إلى إفريقية حسب القفطي في نهاية 510هـ وحسب ابن القطان في 511هـ، وذلك بعد أن قضى عشر سنوات في طلب العلم بالمشرق، وكانت طرابلس هي أول محطة نزل بها. ويشير ابن خلدون إلى أنه كان يوجد ببجاية عام 512هـ، وهو ما يؤكده البيدق الذي يقول إنه بقي بالمدينة إلى غاية

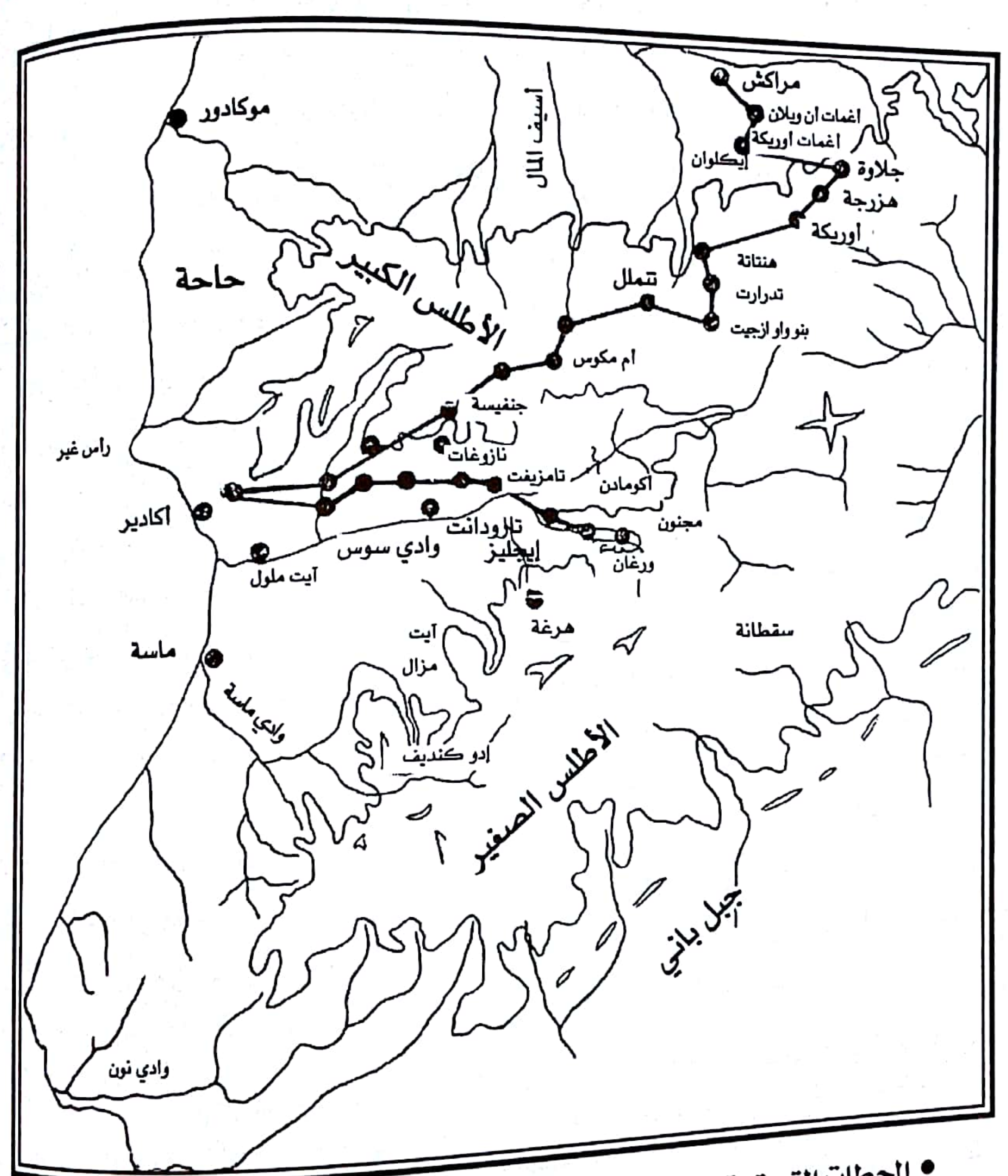
متم رمضان من السنة المذكورة (يوافق آخر يوم فيه 14 يناير 1119م)، حيث توجه غرباً صوب ملالة التي مكث بها عدة شهور. بعد ذلك وطيلة سنة 513هـ واصل تنقله من محطة إلى أخرى إلى أن وصل إلى سلا. أما حلوله بمراكش فيحتمل أنه كان في ربيع أو صيف 514هـ (1120م) على اعتبار أنه أقام ولمدة في مقبرة بالعراء، قبل أن يرحل إلى أغمات، ومنها، وقبل حلول فصل الشتاء ببرده القارس، إلى الأطلس حيث قضى شتاء 514هـ (1120م-1121م) بمنطقة أوريكة.

فرار ابن تومرت إلى الأطلس ومبايعته هناك

لقد جعلت الضجة التي خلفتها مجادلته لفقهاء المرابطين في أغمات، وما جرى له قبل ذلك بمراكش، جعلت ابن تومرت يشعر بالخطر وبالتالي يفكر في البحث عن ملجأ آمن وسط الجبال. ولا تتفق المصادر في تحديد الأسباب التي كانت وراء مغادرته لأغمات، فيرجع ابن خلدون ذلك إلى وشاية أهاليها الذين أخبروا علي بن يوسف بوجوده بينهم وبما يقوم به من أعمال، بينما يرى صاحب "الحلل الموشية" أن تركه لها كان بقرار من عاملها الذي أمر بنفيه إلى سوس بعد أن طرده[88]. ومن أغمات توجه إلى إيكلوان، حيث استقبله بها الشيخ إسماعيل بن يكيگ الذي أعجب به وأصبح سنده ومناصره منذ استمع إليه لأول مرة في أغمات. في تلك الأثناء أرسل رجال علي بن يوسف في أغمات من يخبر سيدهم بأن ابن تومرت رحل عن إيكلوان وهو ما تأسف له علي الذي ندم على سماحه برحيل ابن تومرت وتركه يفلت من قبضته. وبإيعاز من ابن وهيب، وبقية فقهاء البلاط بعث من يعيده إلى مراكش[89]، غير أن ابن تومرت لم يذعن لأوامر السلطان. وقد تمكن من النجاة بفضل مساعدة إسماعيل بن يكيگ الذي وضع رهن إشارته مائتي جندي قاموا بحراسته إلى أن وصل إلى قبيلته هزرجة. وبعد أن قضى بمنطقة أوريكة شتاء 514هـ-515هـ (1120م-1121 م)، توجه إلى هنتاتة والتي انضم إليه بها رجلان سوف يكون لهما شأن عند قيام الدولة الموحدية وهما: أبو حفص عمر ينتي الذي سيصبح الساعد الأيمن لعبد المومن ويوسف بن وانودين أحد أعضاء أهل الخمسين والذي سوف يتولى أبناؤه وأحفاده مناصب رفيعة طيلة العصر الموحدي.

88- إذا كنا لا نستطيع أن ننفي او نقبل مدى صحة طرده من أغمات من طرف عاملها، فإننا نستطيع الجزم ان هذا الأخير لم يقم بنفيه إلى سوس، لأنه سوف يذهب إلى هذه الأخيرة فيما بعد بمحض إرادته. نسجل كذلك ان صاحب "الحلل الموشية" اخطأ في تحديد التاريخ عندما قال إن قرار الطرد والنفي تم سنة 515هـ، الحلل...، م. س.، ص. 101.

89- إذا كان علي قد اقتنع في النهاية بضرورة التخلص من ابن تومرت، فإن المصادر العربية تختلف حول الكيفية التي تمكن بها ابن تومرت من النجاة، فيشير صاحب "روض القرطاس" إلى أن أحد تلامذته سمع علياً يصدر الأوامر بقتله، فتوجه لتوه إلى المقبرة وبدأ يتلو الآية القرآنية التي تتحدث عن قرار بني إسرائيل قتل موسى، وقد فهم ابن تومرت مغزى ذلك وفر بسرعة إلى اغمات. أما عبد الواحد المراكشي فيرى أن ابن تومرت علم بما دبر ضده في الأطلس، وبالضبط في قرية إسماعيل الهزرجي، وأن هذا الأخير هو الذي كان يتلو الآية المذكورة التي جعلت ابن تومرت يدرك الخطر الذي أصبح يحدق به.



• المحطات التي توقف بها ابن تومرت في فراره من الأطلس إلى إيجليز هرغة

بعد ذلك توجه ابن تومرت إلى تادرارت أغبار التي شيد بها مسجداً، في نفس الوقت واصل وبنجاح مهمة الوعظ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولتلك الغاية انتقل إلى جدميوة ومنها إلى بني واوزكيت ثم مر بتنملل، دون أن يتوقف بها، فإلى اين ماغوس وصودة قبل أن يصل إلى قبيلة جنفيسة، والتي استقبله أهلها استقبالاً حسناً وسمحوا له بنشر دعوته، بخلاف أهالي إد ومحمود الذين رفضوا الاستماع إليه. عقب هذا بدأ بالنزول التدريجي من الأطلس، حيث وصل إلى إيمسكينا بوادي سوس على ضفاف المحيط الأطلسي، غير أنه عاد من جديد للصعود عبر السفح الجنوبي للأطلس، وهناك اعتمد على مساعدة بني واكاس لإخضاع بني محمد وكلاهما من فروع جنفيسة. وقد توقف ابن تومرت من جديد بقبيلة جنفيسة وبالضبط بمدشر تامدغوست متاع إيركيتن لمدة ثلاثة أشهر في نهاية 514هـ (ربيع 1120م)، قام خلالها ببناء منزل ومخزن للحبوب كما حرث أحد الحقول. وكان يجلس، بمختلف المناطق التي مر بها، على حجر بجوار البيت الذي يقيم به، وهو محاط بأصحابه العشرة.

وبعد حلول سنة 515هـ، قرر عبور وادي سوس نحو إيجليز الواقعة بموطنه الأصلي هرغة، وأثناء وجوده هناك مع أبناء عشيرته أقام بالمغارة التي سوف تعرف فيما بعد بـ"الغار المقدس" حيث شرع في التعريف بعقيدته التي سيقوم عبد المومن بعد ذلك بتدوينها في كتاب خاص.

والحقيقة أن سعة معارف ابن تومرت وبلاغته في طرح أفكاره باللغة الأمازيغية ثم الشهرة التي سبقته، كلها عوامل أوقدت حماس أبناء عشيرته الذين أصبحوا يحسون بشرف كبير لكونه من جلدتهم وبالتالي سهروا على اتباع دعوته ومبايعته كزعيم لهم. وكان شيوخ هرغة يترددون دون انقطاع على المغارة التي يقيم بها لتحيته وطلب بركته، وهو ما كان يرد عليه بوضع يده على رؤوسهم والدعوة لهم. ومنذ دخوله المغارة لأول مرة أظهر حقيقة نواياه، حيث قال بلغته الأمازيغية إن العدل فر من المرابطين وجاء يبحث عن ملجأ له في تلك المغارة.

وقد ركز خلال هذه المرحلة من دعوته على قضية المهدوية وعلى النتائج السياسية والاجتماعية التي يمكن أن تترتب عنها[90]، ذلك لأنه كمسلم ورع ذي غيرة دينية، متذمر من شيوع المنكر والفساد، كان عاجزاً على إصلاح ما فسد اعتماداً على إمكانياته الخاصة، لذا اعتبر أن ادعاء المهدوية هي الوسيلة المناسبة لتحقيق ذلك، وهكذا تبنى أطروحة المهدي المنتظر المكلف من طرف الخالق بترسيخ

90- حول البربر والمهدوية، انظر الجزء الأول والثاني من مقدمة ابن خلدون، وكذا :
Henri Basset- Essai sur la literature des berbers. Alger, 1920 . pp . 268-272.

الإيمان ونشر العدل بين الخليقة. ولإقناع الناس بصدق ما يدعيه، قام وبطريقته الخاصة بتفسير ما ورد حول المهدوية من أحاديث صحيحة وغير صحيحة، وصل من خلالها إلى أن المهدي المنتظر سيظهر في نهاية القرن الخامس الهجري وبالضبط في بلاد المغرب، واعتبر أن ظهوره في هذا الوقت بالضبط يعود لتفشي الفحشاء وشيوع الظلم والفساد في بلاد الإسلام، وقد ألح على ضرورة طاعته والائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه، ذلك لأن طاعته من طاعة الله.

لقد أصبح الكون حسبه خاضعاً لسلطة الحكام الغاشمين والملوك الظلمة والدجالين المخادعين، وهذا سبب ظهور المهدي، الذي ليس له من غاية غير القضاء على الرذائل وإحياء الفضائل، لذا فالإيمان به، وهو الشخص الذي يسلم بظهوره العرب والعجم بدواً وحضراً، يعتبر أمراً إجبارياً وجب تكفير كل من يرفضه. وبحكم أنه معصوم صادق اصطفاه الله دون بقية العباد، فإن الاستخفاف به أو معارضته أو مقاومته أوصده عما يرمي إليه محرم. إن هذا المهدي سوف يقضي -حسبه- على الدجال ويغزو الكون من الشرق إلى الغرب وينشر العدل في ربوعه، وسوف يستمر حكمه إلى أن تقوم الساعة[91].

وبخلاف ما صبغ به المهدوية من صفات تدعو إلى الأمل والتفاؤل، لم يتوان في ذم المرابطين وبعض عاداتهم مثل طريقة المشي وكيفية مشط الشعر واللهفة على جمع المال وتلثم الرجال وسفور النساء وخصوصاً قولهم بالتجسيم وتأويلهم الحرفي للصفات الإلهية الواردة في القرآن. وقد دفعه حقده اللامحدود عليهم للإتيان بما لا يقل عن عشرين برهاناً جلها دون سند مقبول، يحاول من خلالها واستناداً إلى النصوص القرآنية تكفيرهم، ولإعطاء مصداقية لادعاءاته، ينتهي به الأمر إلى ابتداع أحاديث قصد بها النبي المرابطين دون غيرهم مثل: «*من يتبعهم ليس مني*» «*يجب الجهاد فيهم كما الجهاد في النصارى واليهود والمجوس*»[92]. وبابتداعه لهذه الأحاديث وجد سنداً شرعياً للإفتاء بتحريم طاعتهم وإحلال دمهم والاستيلاء على متاعهم. وبعد أن نجح في نشر هذه الأفكار، أشاع أنه سوف تظهر في بلاد المغرب طائفة جديدة تقوم بمحاربة المرابطين، وستنجح ، بمساعدة عيسى بن مريم الذي سيبعث مرة أخرى، في غزو العالم وقتل الدجال وملء الكون عدلاً وإيماناً، وأضاف أنه وبعد ثلاثين سنة من ظهور المسيح سيعم المنكر والفساد من جديد، آنذاك فقط سوف يظهر المهدي المنتظر الذي سينجح في القضاء على الموبقات وترسيخ العدل الإلهي إلى الأبد[93].

91- أعز ما يطلب، م. س.، ص. 400.

92- نفسه، ص. 400.

93- نفسه، ص. 296.

لقد سمح الحماس الذي تعامل به مع قضية المهدوية وميل أهل بلاد المغرب الطبيعي لتبجيل الصالحين والتسليم بولايتهم، بإنجاح مخططه، خصوصاً وأن حملته بلغت ذروة نشاطها خلال شهر رمضان حيث يقوى الإيمان وتزداد ممارسة الشعائر الدينية. وهكذا فخلال هذا الشهر وبعد إحدى خطبه البليغة والتي عاد فيها للحديث عن المهدي المنتظر وصفاته، صاح أصحابه العشرة ومعهم بقية الحضور: «*يا سيدي هذه الصفة لا توجد إلا فيك، فأنت هو المهدي*»[94]، وقاموا مباشرة بالمناداة به مهدياً. حدث ذلك في عام 515هـ.

ويقدم لنا صاحب نظم الجمان[95] الذي نقل عن صاحب الحلل الموشية، ملخص الخطاب الذي ألقاه بعد المناداة به مهدياً حيث جاء فيه: «*الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي لما يشاء. لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، وزمنه آخر الزمان، واسمه اسم للنبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي ﷺ وملائكته الكرام المقربون إليه وسلم. وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل!*»[96]. بعد ذلك خلع كل واحد من الحاضرين من أصحاب وتلامذة ومعجبين جلبابه أو البرنوس ووضعه أرضاً ليجلس عليه المهدي. ودعاهم هو في المقابل إلى الاحتفال بالمناسبة من خلال إعداد آسْمَاسْ (وليمة) ألقى على إثرها هو الملح في الطعام قائلاً: «*هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة*»[97].

ويصف البيدق بدقة مشهد الوليمة وفضول من حضرها وكيف كانوا ينظرون إليه وهو يأكل، غايتهم من ذلك أن يروا كيف يأكل الأنبياء، ولإشباع فضولهم أخذ بيده قطعة لحم من فخذ خروف ووضعها في فمه مؤكداً لهم أنه في هذا مثل بقية البشر، وأن الأنبياء يأكلون كما يأكل غيرهم[98].

ولا يفوت البيدق إحاطة الوليمة ببعض الكرامات، فيخبر أن المهدي بشر الحاضرين بأن أول انتصار لهم على المرابطين سيكون في إيجليز هرغة وأن هؤلاء سيفقدون في المعركة خيولهم، وأضاف أن عليهم -الحاضرين- بناء زريبة لإيواء الخيول التي سوف يغنمونها[99].

94- الحلل الموشية، م. س.، ص. 108.

95- نظم الجمان، م. س.، ص. 75-76.

96- نفسه، ص. 75-76.

97- اخبار المهدي، م. س.، ص. 33.

98- اخبار المهدي، ص. 33.

99- اخبار المهدي، م. س.، ص. 33.

وبجانب إعجاب كل من تعرف عليه به وتسليمه بسعة معارفه خصوصاً في العلوم الباطنية، أصبح يعامل معاملة الأنبياء ويذكر اسمه تبركاً قبل تناول الطعام. وقد تحول ضريحه بعد وفاته ولسنوات طويلة إلى مزار، وحملت مغارة إيجليز التي كان يدرس بها اسم "الغار المقدس"، كما مر بنا، وأصبح ترابها دواء يشفي الأجسام العليلة لمجرد وضعه عليها[100].

في تلك الأثناء وصلت الأخبار إلى علي بن يوسف حول تمرد حدث في قرطبة كرد فعل على تجاوزات الحامية المرابطية بها، وبما أن رسائله وتهديداته لم تنجح في إعادة الحامية إلى صوابها، فقد خرج في حملة تأديبية ضدها، دون أن يعير كبير اهتمام لما يقوم به الفقيه السوسي من نشاط معاد.

بداية المواجهة مع المرابطين

بدأ تمرد الموحدين يأخذ طابع الخطورة منذ ربيع 516هـ (1122م)، وهو ما دفع بعامل سوس المرابطي أبي بكر بن وربيل إلى إرسال أحد مساعديه ويدعى علي بن تابشا اللمتوني على رأس فصيلة من الجند النظامي لمباغتة بني وارتانك وهم من قبيلة هرغة، حيث نجح بعد محاصرتهم، في أسرهم ونقلهم إلى تيوينوين عاصمة سوس آنذاك[101].

ويقدم لنا البيدق وابن القطان دون غيرهما معلومات مفصلة عن المواجهات بين الموحدين والمرابطين خلال السنوات التسع التي تفصل تاريخ المناداة بابن تومرت مهدياً عن تاريخ وفاته، وهكذا يتحدث البيدق عن تسع مواجهات، لا يحدد تواريخها ولا يميز فيها بين تلك التي وقعت في إيجليز والتي كان خلالها ابن تومرت في موقف دفاع وبين تلك التي حدثت في الأطلس الكبير. في نفس الوقت لا يذكر شيئاً عن حصار المرابطين لهرغة، لكنه في المقابل يجعل النصر حليف الموحدين في كل المواجهات التي أوردها. بالإضافة إلى ذلك لا يميز بين القبائل التي تمردت على السلطة المرابطية وبالتالي أعلنت طواعية خضوعها للموحدين وبين تلك التي تم إخضاعها عنوة.

بالنسبة لصاحب نظم الجمان، فعلى الرغم من تحمسه هو الآخر لابن تومرت، فإنه يتطرق وبشكل أكثر تفصيلاً لأهداف ونتائج عدد من الحملات، غير أن النسخة الوحيدة التي تتوفر

100- العبر، م. س.، ص. 469؛ البيان المغرب، م. س.، ص. 44.
101- نظم الجمان، م. س.، ص. 81.

عليها من المخطوط بتر منها العديد من الصفحات، بينما توجد أخرى في حالة يرثى لها، أما ما تبقى، وهو في حالة جيدة، فيقدم معلومات غامضة وغير متناسقة عن النزاع المرابطي-الموحدي بمنطقتي الأطلس الكبير والصغير وسهل مراكش وشمال المغرب.

وبعد هزمهم وأسرهم لبني وارتانك، توغل المرابطون داخل قبيلة هرغة حيث هاجموا مدشر الملت ان ورغن الذي سبق للمهدي أن مر به، غير أنهم فشلوا في مباغتة أهالي المدشر الذين علموا مسبقاً بالهجوم واستعدوا له اعتماداً على وسائلهم الدفاعية المتواضعة، وعلى معرفتهم الجيدة بالمجال وجهل مهاجميهم له، وهكذا نصبوا لهم كميناً تمكنوا بواسطته من الاستيلاء على أسلحتهم وخيولهم. ورغم أن المواجهة انتهت بمقتل خمس وثلاثين من أهالي هرغة، فإنهم نجحوا في هزم أعدائهم، وكان ذلك أول انتصار يحققه الموحدون على المرابطين.

هذه الهزيمة أقلقت عامل سوس الذي قام بسرعة بجمع كل القوات التي يتوفر عليها، وهو عاقد العزم على القضاء على المهدي بشكل نهائي، ولما علم هذا الأخير بذلك، وكان واعياً بتواضع إمكانيات قبيلته[102] مقارنة مع إمكانيات عدوه، رأى أنه فقط بمقدوره الدفاع دون الهجوم، لذا أمر لتوه بحفر عدد من الآبار، على اعتبار أن الماء هو أكثر ما سوف يحتاج إليه في حالة قيام المرابطين بمحاصرته[103] . وقد قدمت دعمها له في تلك الأثناء، وبجانب هرغة، قبيلتا مسكالة وسجتانة وعدد من المداشر المجاورة التي انتقل أهاليها فيما بعد للإقامة بتنملل. في هذه الأثناء أرسل ابن تومرت بعثة مهمة لزيارة المناطق الداخلية من سوس والأطلس تلخصت مهمتها في البحث عن أنصار جدد. حدث كل هذا في النصف الثاني من سنة 516هـ (خريف وشتاء 1122م-1123م).

ويؤكد كل من ابن الأثير والنويري أن ابن تومرت كان يتخوف من تخلي أبناء قبيلته من أهالي هرغة عنه في حالة مهاجمتهم ومعاقبتهم من طرف المرابطين، لذا اقترح عليهم مغادرتها، لكن هؤلاء أكدوا له أنهم لا يخافون غير الله، وأنه إذا كان الخالق يرعاهم، فلن يستطيع مخلوق مسهم بأذى، وبإيرادهم لهذه الحكاية يؤكد المصدران التزام أهالي هرغة بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم يوم نادوا بابن تومرت مهدياً.

وكان المهدي قد كتب في سنة 515هـ إلى جزولة يدعوهم للانضمام إليه ودعم قضيته، وقد استعمل في الرسالة اسم "الزراجنة" للإشارة إلى المرابطين[104]، وهو اسم غريب لم يتم لحد الآن

102- هي أصغر قبائل الموحدين من حيث عدد السكان حسب المعجب، م. س.، ص. 481. وينتمي إليها العديد من أوائل الذين نادوا بابن تومرت مهدياً.

103- نظم الجمان، م. س.، ص. 86.

104- أخبار المهدي، م. س.، ص. 36.

تقديم شروح إضافية عن سبب استعماله من طرفه، فابن القطان على سبيل المثال يقول: «*وسماهم الزراجنة، شبههم بطائر أسود البطن، أبيض الريش، يقال له "الزرجان" لأنهم بيض الثياب سود القلوب*». ويظهر أنه أخذ هذه الفكرة من حديث نبوي أورده في كتابه يقول حسبه إن التعصب يجعل القلوب ضيقة حرجة باستمرار وأن القلب الذي يشرب من هذا التعصب يصبح دنساً بلطخة سوداء، بينما القلب الذي لا يشرب منه يبقى أبيض، وهكذا يوجد نوعان من القلوب تلك البيضاء الناصعة مثل الصفاء وهذه لا تصاب أبداً بسوء، والسوداء وهذه عليها غشاوة تمنعها من التمييز بين المذموم والمباح[105].

كما كان ينادي المرابطين بالمجسمين لعدم قبولهم بتأويل الآيات المتشابهات، في المقابل كان هؤلاء ينعتون الموحدين بالخوارج، لخروجهم عن طاعة الحاكم ولقولهم بما لا تقول به جماعة المسلمين.

ويقدم لنا البيدق أربعة من رسائل ابن تومرت اثنتان منها موجهة للموحدين وثالثة لعلي بن يوسف ورابعة للمرابطين، غير أننا لا نستطيع الجزم بصحة نسبتها إليه. وتدعو أولاها الموحدين للجهاد ضد المرابطين والقيام بالواجبات الدينية التي تتلخص في تعلم عقيدة التوحيد، وحفظ سورة الفاتحة وسورة أخرى من القرآن للتمكن من أداء فريضة الصلاة، والتردد على المساجد، وعدم الميل إلى الغلو، واجتناب الموبقات من سرقة وخيانة وحسد وخداع وشقاق وإسراف، وعدم المعاقبة ببتر أحد أعضاء الجسم، وعدم إدارة الظهر للعدو، والسهر على توزيع الغنائم بالقسط بحيث يكون نصيب الفارس ثلاثة أخماس وجندي المشاة الخمس ويخصص الخمس الباقي لبيت مال الدولة، وأخيراً الابتعاد عن شرب الخمر والاتجار فيه ونبذ العادات الوثنية من ندب ودعاء على الأشخاص بإنزال اللعنات والاستماع للموسيقى[106].

ويظهر أن دعوة ابن تومرت لم تلق القبول من قبيلة جزولة فقط، بل ومن قبائل هزميرة الجبل وجدميوة الجبل وجنفيسة الجبل وخصوصاً هنتاتة التي كانت لها سلطة ونفوذ بالمنطقة والتي أرسل شيوخها ممثلاً عنهم عبر له عن رغبتهم في الانضمام إليه.

وفي بداية ربيع 517هـ (1123 م)، بعد عودة علي بن يوسف من الأندلس، وعلم بتطورات الأحداث في المغرب وبالفاعلية الكبيرة التي يتحرك بها ابن تومرت، سعى لوضع حد لتطلعات

105- نظم الجمان، م. س.، ص. 85.

106- Op. Cit. Docs Inéd. P. 12 et suivantes.

هذا الأخير، بإرسال جيش لمحاصرة إيجليز[107]، وضع على رأسه إبراهيم بن تاعياشت، وكان يتكون من قبائل مصمودة السهل[108] والتي لم تكن قبلت بعد بالدعوة الموحدية. ولمواجهة الهجوم المرابطي طلب ابن تومرت مساعدة قبائل جنوب الأطلس والصحراء مثل جزولة ولمطة وهنكيسة وبني عزة ودرعة وصنهاجة الجنوب. وقد انطلق هجوم هؤلاء من جهة الجنوب رغم وعورة التضاريس بها، وقاد ابن تومرت بنفسه عملية الدفاع وكان يشجع رجاله على الاستماتة، ويحث من أصيبوا منهم بجروح في المواجهة، على مواصلة القتال ليضمنوا بذلك الشهادة. ولم يكن يتجاوز ما يوجد مع أتباعه من عتاد حربي الدروع والخيول. ومع وعيه بحاجتهم وخصاصهم، فإنه كان يبالغ في وصف غنى العدو ويعد رجاله بالغنائم والثروات التي سيخرجهم الله بواسطتها من الفقر الذي يعيشونه، غير أن ذلك لم يكن كافياً، في وقت أصبحت فيه هزيمة الموحدين شبه محققة بسبب حصار المرابطين، لكن وبشكل مفاجئ حدث طارئ حول الأمور رأساً على عقب؛ يتعلق الأمر بانضمام قبيلة هنتاتة إلى صفوف الموحدين، وكانت قد أرسلت أحد شيوخها إلى هرغة لتقصي الأخبار عن دعوة ابن تومرت[109]، وبعد أن اقتنع بها، عاد إلى قبيلته، حيث خاطب في تيفنوت، وهو أهم مدشر بها، شيوخها باللغة الأمازيغية بما معناه أن النور يوجد في هرغة، أما هم (أهل هنتاتة) فيعيشون في الظلام. إثر سماع هذا الكلام أعد الشيوخ وليمة قرروا على إثرها الانضمام إلى ابن تومرت والخروج على التو لنجدته. ولما سمع ابن تومرت قرع الطبول وكان يعمل بنفسه في بناء أحد المساجد، عرف أن مصدرها الهنتاتيون الذين جاؤوا لنصرته، وأرسل عبد المومن ليستقبلهم ويطلب منهم الاستراحة من عناء السفر، لكنهم وبحماس كبير

107- لم يتم لحد الآن ضبط مكان إيجيليز هرغة هذا، ومن المحتمل أن يكون، وعلى غرار كيليز مراكش، بخاصرة جبل شمال الأطلس الصغير على مشارف سوس، في نفس المكان الذي تقيم فيه اليوم قبيلة أركَان (تحريف لكلمة هرغة). أما المكان الذي كان مأهولا بالسكان من القبيلة فهو دون شك التل الذي تقع أسفله المغارة التي يسميها البيان المغرب بالغار، ونظم الجمان بالركن، والتي كانت في مكان ظليل قربه منبع ماء. ويضيف البيان المغرب أنه كان بجوار هذه المغارة رباطان يعرف الأول باسم رباط الونشريسي والثاني برباط المغارة والتي أصبحت تعرف بالغار المقدس كما مر بنا . وقد قام عبدالمومن في خريف عام 552 هـ (1157م) (بعدما تولى الخلافة)، بزيارة تبركية لإيجيليز حيث أمر بترميم المغارة من الداخل وتمهيد أرضها وسقفها ووضع باب لها. انظر البيان المغرب م. س.، ص. 149.

108- هذه القبائل هي: هسكورة وهزميرة وهزرجة وركراكة وحاحة وصودة.

109- قبل الاقدام على هذه الخطوة قام كبار شيوخ هنتاتة وهم أبوحفص عمر ينتي ووانودين بن يمصليت و نَمير بن داود وابو ماغليف بارسال أبي إسحاق بن عمر رفقة الطالب سكاتو للتعرف وبدقة على دعوة الموحدين وغايتها. نظم الجمان، م. س.، ص. 87.

رفضوا ذلك وعبروا عن رغبتهم الكبيرة في القتال، وبما أنها كانت ساعة الظهيرة فقد أدت صلاة الظهر جماعة وانطلق الجميع يقصد العدو وكان قد بدأ بصعود الجبل. وهكذا أصبح الجيشان الواحد قبالة الآخر بحيث لم يعد يفصل بينهما إلا خندق يعرف بوادي إينشو. إثرها قرر المرابطون، وكانوا إلى تلك اللحظة من يأخذ المبادرة، ملء الخندق ببرادع دوابهم وذلك حتى يتسنى لهم اجتيازه ومهاجمة المتمردين، لكن الموحدين والذين كانوا قد تمركزوا في موقع مناسب جداً للهجوم، وبفضل الإمدادات الجديدة التي تلقوها، انقضوا عليهم وتمكنوا من هزمهم والاستيلاء على مخيمهم[110]. هذا الانتصار ساهم بشكل كبير في رفع معنويات الموحدين، كما تمكن على إثره حوالي مائة شخص من أهالي هرغة، سبق وأسرهم المرابطون في قلعة تيونوين، من الفرار والانضمام إلى صفوف الموحدين.

وقد انشغل علي بن يوسف كثيراً لتزايد خطر الموحدين وقرر إنزال أشد العقاب بهنتاتة حتى تكون عبرة لبقية قبائل الأطلس التي قد تفكر هي الأخرى في الانضمام إلى المهدي واتباع دعوته. وكان علي مقتنعاً بأنه يمكن إخضاع قبيلة هرغة الموجودة في منطقة منعزلة بالأطلس الصغير إذا لم تتلق الدعم من القبائل الأخرى[111]. وبهدف القضاء وبشكل نهائي على الموحدين، قرر علي تكوين جيش من خيرة قوات المرابطين وضع على رأسه كلاً من سير بن فودي وأبي مسعود والريتسيغ بن يقور، وأضاف إلى هذه القوات فصيلة حاحا والجيوش النظامية العائدة من إذفرجال، وأمر الجميع بالتوجه عبر طريق لجاغة إلى تيفنوت وإضرام النيران بها. ولما علم ابن تومرت بالخبر وكان قد أرسل قوات هنتاتة لفك الحصار عن إيجليز، طلب منها العودة على الفور والاستعداد لمواجهة المرابطين، ومنح الهنتاتيين الخيول والأسلحة التي غنمها من المرابطين في المعركة السابقة. وكان يقود الهنتاتيين أبو ماغليف وهو من الأوائل الذين دعوا لانضمام قبيلته للموحدين. وقد توجه الهنتاتيون على التو إلى الأطلس حيث سبقوا المرابطين إلى منطقة تادرارت مما سمح لهم بالتمركز في المكان

110- يتعذر بسبب عدم وجود تسلسل فيما يرويه صاحب "نظم الجمان" وكذا بسبب ضياع بعض فقرات المخطوط المتعلقة بهذه النقطة، التأكد هل هذه الخطة الغريبة التي اعتمدها المرابطون والمتمثلة في ملء الخندق بالبرادع تهم هذه المواجهة أم تلك التي هاجموا فيها تيفنوت.

111- يشير البيدق إلى ان علياً كلف بقيادة الجيش المرابطي الذي انهزم أمام الموحدين في سوس ابنه باجو، في حين يقول صاحب "الحلل الموشية" إن علياً وبعد هزيمة إيجليز وبعد أن تبين له ان قبيلة هنتاتة انضمت إلى صفوف الموحدين منح قيادة جيشه إلى سير بن مزدلي اللمتوني.

المناسب وقطع الطريق على المرابطين وتحقيق انتصار كبير عليهم، تمكنوا من خلاله من قتل عدد من قادتهم والظفر بغنائم مهمة، بحيث حصل كل هنتاتي شارك في المعركة على كيس صغير من الدنانير[112].

و قد عاد الهنتاتيون إثر ذلك من تيفنوت إلى تادرارت للالتقاء بالمهدي، لكن أثناء مرورهم بوادي سوس، وبالضبط بنقطة تعرف باسم أنسا تقع بخاصرة أحد جبال الأطلس، باغتهم المرابطون أو بالأحرى المرتزقة الذين يعملون لحسابهم وقوات من قبيلة بني واو زكيت، جيران هنتاتة، وتمكنوا من هزمهم. ويقع البيدق في خطأ كرونولوجي عند حديثه عن مواجهتي تيفنوت وأنسا حيث يقول أثناء حديثه عن حملتي المهدي الخامسة والسادسة إن مناوشات أنسا كانت سابقة لهجوم تيفنوت، ولا يعترف بهزيمة الموحدين في أنسا بل يدعي أنهم حققوا انتصاراً على أعدائهم وهزموا زعيمهم الذي يدعى عمر بن ديان، وإن كان يعترف بعنف المواجهة وبسقوط ابن تومرت أرضاً مما أجبر رجاله على سحبه من ساحة المعركة.

وبغض النظر عن توقيت المواجهتين وأيهما أسبق ثم أيهما كان لها تأثير أكبر على ما سيأتي من أحداث، فإن هناك قناعة تولدت لابن تومرت والموحدين عامة منذ شتاء 517هـ (1123م-1124م)، عقب حصار إيجليز ومواجهتي تيفنوت وأنسا، هي أن المرابطين وبسبب تفوقهم في الرجال والعتاد يمكنهم القضاء على تمرد الموحدين بل وعلى المهدي الذي أصبحت حياته في خطر بعدما التجأ عامل سوس إلى الحيل والدسائس، حيث قام بإرشاء أحد أفراد قبيلة هرغة للتخلص منه، غير أن أفراد القبيلة كشفوا المؤامرة وقتلوا الشخص الذي كان ينوي تنفيذها[113].

احتلال الموحدين لتنملل

كان سكان تنملل على اتصال بالمهدي الذي دعوه، حسب بعض المصادر، للمجيء والإقامة بينهم، وسواء كان الانتقال إلى تنملل راجعاً إلى هذه الدعوة أم لا، فالمؤكد هو أن ابن تومرت صعد عام 518هـ (1124م) إلى الأطلس مع أتباعه حيث خضعت له قبيلتا بني وكاس وجنفيسة المجاورتان لمنبع وادي نفيس، وقام إثر ذلك وفي طريقه إلى تنملل بغزو بقية المناطق الموجودة

112- نظم الجمان، م. س.، ص. 90.

113- هنا كذلك وكما هو الشأن في أماكن اخرى، يربط البيدق انكشاف المؤامرة بإحدى كرامات المهدي.

بأعالي النهر، كما أخضع قبيلة كناوة الموجودة على ضفته اليمنى. وقد قضى الموحدون ما تبقى من سنة 518هـ وكل سنة 519هـ في تنظيم عاصمتهم الجديدة وقاعدة عملياتهم العسكرية، في وقت حصروا فيه اهتمامهم بمنطقة الأطلس الكبير.

ويشير اليسع إلى أن ابن تومرت انتقل إلى تنملل بعدما أخبره سكانها أن قبيلة هزميرة الجبل قد أعلنت هي الأخرى ولاءها له، ويضيف أن التنملليين طلبوا منه المكوث بينهم ليكون بجوار القبائل التي تنضم إليه وكذا ليتعرف عن كثب على مصمودة، لكن بخلاف هذه الرواية الرسمية التي يتبناها مؤرخو البلاط، هناك رواية أخرى سكت عنها هؤلاء وهي أنه لما استقر مع رجاله في تنملل استولى على الموارد المتواضعة للمنطقة، وعندما حاول بعض سكان القبيلة الاحتجاج، لم يتردد الموحدون في قتلهم والاستئثار بممتلكاتهم قاطعين الطريق بذلك على كل محاولة للانشقاق. هذا التصرف ما كان ليقبل به الفقيه التونسي، وكان من بين الأوائل الذين تبعوا المهدي، غير أن معارضته ورفضه لعصمة المهدي كلفته هو الآخر حياته، حيث طرد من الجماعة (أهل العشرة) قبل أن يقتل ويصلب.

لقد حاول البعض التشكيك في تصرف الموحدين هذا، وذهب آخرون إلى اعتباره مجرد دعاية، الغاية منها المس بسمعتهم من طرف المؤرخَيّن المشرقيَيّن ابن الأثير والنويري، غير أن هذه الرواية يؤكدها ابن القطان كذلك وهو مغاربي[114]، في سياق حديثه عن إعدام الفقيه التونسي. لكن وبشكل عام فإن بقية المؤرخين المغاربيين الذين تناولوا الموضوع يسكتون عن هذه الواقعة كما يقومون وعن قصد بالخلط بين هزميرة وتنملل عند الحديث عن عملية القتل الجماعي التي قام بها الموحدون. ويمكننا أن نستشف ما وقع لأهالي تنملل مما أورده صاحب الحلل الموشية الذي يقول إن ابن تومرت، وبعدما لاحظ موقع تنملل المنيع والذي يجعل منها مركزاً دفاعياً مناسباً جداً، وزع الأراضي والمنازل على أصحابه، وهو عمل ما كان لينفذ بغير استعمال العنف، لكن صاحب الحلل يتفادى بعد ذلك الدخول في التفاصيل ويكتفي بالقول إنها رواية يطول شرحها[115].

هناك دليل آخر يثبت أن التصرف الدموي الذي قام به المهدي من أجل فرض سلطته بالأطلس والسيطرة على قاعدة محصنة مثل تنملل، هو أمر حقيقي وليس مجرد دعاية معادية للموحدين؛

114- ابن القطان، م. س.، ص. 97.

115- الحلل الموشية، م. س.، ص. 112.

يتعلق الأمر بما نستشفه من كتاب الأنساب، فهذا المصدر يتحدث بدقة كبيرة عن القبائل التي تبعت دعوة المهدي والدرجة التي تحتلها في الهرم الموحدي، لكنه وعند تناوله لقبيلة تنمل يتخلى عن هذه الدقة ويكتفي بالتطرق لمجموعة غير متجانسة من المداشر المتفرعة عن هرغة يقول إنها تابعة لتنمل، يذكر من بينها تيفنوت وهو مدشر تابع لهنتاتة كما نعرف، ومسكالة ويقع بجوار هرغة الأطلس الصغير وتادرارت وأسنا الموجودين بالأطراف الجنوبية للأطلس وبني واوزكيت[116].

إن السبب الحقيقي لقتل المحتجين من أهالي تنمل ومصادرة أملاكهم يعود لتخوف ابن تومرت منهم، فقد جرت العادة أن يخرج كل يوم إلى مسجد الشريعة حيث يجلس على حجر ويشرع في التدريس[117]، وكان السكان يحضرون باستمرار للاستماع إليه، لكن عددهم المتزايد ثم حضورهم وهم مسلحون جعله يشك في نواياهم الحقيقية ويتخوف منهم على حياته، لذا قرر التخلص منهم حيث نجح في إحدى المرات في تجريدهم من سلاحهم وأمر بقتلهم، ثم أرسل بعد ذلك فصيلة إلى تنمل تولت أسر وقتل العديد من سكانها ونهب أملاكهم، وقد حضر عقب المجزرة العديد من الأتباع الجدد وذلك بغية الحصول على حصة من الغنائم[118].

لقد كان الوصول إلى تنمل من الصعوبة بمكان؛ فالمسلك الوحيد يمر عبر وادي النفيس وهو نموذج للأودية الجبلية الكبرى التي تخترق الأطلس الكبير جنوب مراكش، حيث تنزل المياه من أعلى القمم لتخترق الوادي، وكان ضيقاً كثير المنعرجات يمر بسفحين شديدي الانحدار كل واحد منهما بمثابة سور طبيعي تتكسر عنده الروافد النازلة من أودية أخرى، أما أسفل الوادي فهو سيل جارف ذو مياه صافية تمتد في كل اتجاه. هذا الوادي كان يستعمل، على الرغم من ضيقه وكثرة التواءاته، كطريق خلال فصل الصيف عندما تجف مياهه. وبسبب خصوصيته هذه يسميه "باسيط" Basset و"تيراس" Terrasse في مؤلفهما المشترك بالطريق الشيطاني[119]. ويقول

116- نفس الغموض نسجله عند المراكشي عندما يقول إن تنمل ليست قبيلة واحدة وإنما قبائل متعددة تشترك كلها في اسم تنمل. المعجب. م. س.، ص. 481.

117- يوجد غرب هذا المسجد إلى اليوم حجر أسود كبير تمتد جذوره داخل الأرض تظله دوحة كبيرة، يعرف باسم حجر سيدي وكَاكَ، يحتمل حسب كل من "تيراس" و "بايسط" Basset و Terrasse أن يكون الحجر الذي كان يجلس عنده ابن تومرت للتدريس. انظر: Sanctuaires et Forteresses Almohade. P. 35.

118- نظم الجمان. م. س.، ص. 97.

119- Op .Cit .Terrasse et Basset Sanctuaires... P. 37. Voir aussi Doutté. en Tribu p 168. et Ferriol Les ruines de Tinmel. Hesperis, 1922. pp.162-163.

الإدريسي المعاصر لابن تومرت إنه كان يكفي وقوف أربعة رجال بشكل متواز ليجعلوا أي مرور منه متعذراً[120]. ويشير صاحب "المعجب" من جهته إلى أن صعود هذا الطريق كان يشبه صعود سُلم، وهو ما يعني حسبه أن اجتيازه من طرف الدواب كان من الصعوبة بمكان[121]. نفهم من كل هذا أن الوصول إلى تنملل على ظهر الخيول كان أمراً متعذراً من جهة الشمال والجنوب، أما من جهتي الغرب والشرق فكان صعباً جداً، ذلك لأن الفارس كان بمقدوره أن يمر من جهة الغرب (طريق مراكش) ببعض الممرات المتسعة نسبياً دون كبير صعوبة، لكن عند وصوله إلى الممرات الضيقة كان يتوجب عليه النزول من صهوة جواده تفادياً للسقوط، أما من جهة الشرق فإن الفارس إذا مر بحصانه كان يجد أمامه انكساراً جبلياً في الأعلى وهوة في الأسفل بينهما معبر مشيد بالقطع الخشبية، يكفي حذف قطعة واحدة منه لتصبح عملية المرور متعذرة[122].

يتبين لنا إذاً أن تنملل كانت تتمتع بحماية طبيعية كبيرة، ذلك لأن وجودها على الضفة اليسرى لوادي النفيس وعلى امتداد رقعة جغرافية محدودة يجعل حمايتها سهلة. وبما أنها لم تكن في حاجة إلى تحصينات إضافية، فقد اكتفى الموحدون بتشييد سورين أحدهما جهة الشرق والآخر جهة الغرب، لم تتجاوز مساحة المجال الذي يفصل بينهما كلمتراً واحداً من الشرق إلى الغرب وما بين 500 و 600 متر من الشمال إلى الجنوب.

وكان السور الممتد على المنطقة السفلى من النهر سميكاً جداً وبه مجموعة من الأبراج يفصلها عن بعضها البعض مسافة تتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين متراً، وبهذا السور كان يوجد الباب الوحيد الذي يسمح بدخول المدينة، أما السور الثاني الموجود بأعلى النهر (خلف المسجد)، فكان أقل سمكاً؛ على اعتبار أن الهجوم الذي يمكن أن يأتي من جهة سوس عبر فج تيزي ن تاست لن يكون بنفس الخطورة، ومع ذلك ولمزيد من الاحتياط قام ابن تومرت بتشييد قلعة بقمة المنحدر الذي يراقب القرية وكل الوادي، أطلق عليها اسم تيضاف (برج المراقبة)، وضع عليها خفيراً مهمته الإنذار ضد كل هجوم أياً كان مصدره[123].

120- الإدريسي، "نزهة المشتاق في اختراع الآفاق"، طبعة نابولي، 1955، ص. 230.

121- المعجب، م. س.، ص. 64.

122- الحلل الموشية، م. س.، ص. 112.

123- يؤكد صاحب "الحلل الموشية" أن المهدي وبعد أن سور الأجزاء السفلى من جهتي الشرق والغرب والتي يمكن منها دون غيرها أن يمر الفارس كما مر بنا، مد السور إلى قمة الجبل حيث وضع برجاً يمكن من خلاله مراقبة كل ما يوجد خلف الأسوار.

وقد قضى ابن تومرت كل سنة 519هـ (يوافق اليوم الأول منها 7 فبراير 1125م واليوم الأخير 26 يناير 1126 م) في تحصين تنمل وتشييد السكن لكل أتباعه الذين جاؤوا للإقامة بها. خلال هذه السنة ظهر على مسرح الأحداث حسب ابن القطان، البشير الذي منحه ابن تومرت سلطات كبرى حيث جعله مساعده المباشر، وكان البشير هذا مصاباً بداء الصرع الذي يسبب له حالة إغماء تنتابه أحياناً في لحظات حرجة جداً[124]، غير أنه كان يتنبأ بالغيب بعد استعادته لوعيه، وكانت تنبؤاته تبشر الموحدين باستمرار بنجاحات جديدة. وقد اعجب ابن تومرت وأصحابه بخصوصية البشير هذه والتي اعتبروها هبة ربانية يجب الاستفادة منها للتمييز بين من صدق إيمانهم بالتوحيد وبين من هم غير ذلك، وهو ما سيستغله ابن تومرت ليقوم بتصفية كل من اعتبر مشكوكاً في إيمانه كما سنرى.

وفي سنة 520هـ (1126م) وبعد تنظيمه "للدويلة" التي أقامها في أعالي ضفتي النفيس، قام بتوسيع الرقعة التي تمتد عليها سلطته حيث استعمل القوة في الاستيلاء على قبيلة جدميوة كما أرسل أحسن تلامذته إلى مناطق أخرى بغية كسب أنصار جدد، غير أن نجاح هؤلاء في مهمتهم كان محدوداً حيث تم اغتيال عدد منهم بمنطقة هسكورة، وكانت القبائل التي تكونها، وإلى غاية سقوط مراكش، من ألد أعداء الموحدين وأكثر الرافضين لدعوتهم[125].

في تلك السنة قام ابن رشد الجد بزيارة مراكش حيث أخبر علي بن يوسف بشأن المستعربين Los mozarabes الذين ساعدوا ألفونسو الأول ملك أرغون إثر الحملة التي وجهها قبل ذلك بسنة إلى الأندلس، وقد تناقش ابن رشد مع السلطان المرابطي بشأن العقاب الذي يجب أن يناله المستعربون كما نصحه بضرورة تحصين مراكش تحسباً للخطر الموحدي المتزايد بمنطقة الأطلس، ومن المحتمل أن تكون تلك السنة قد عرفت تشييد القلاع التي تنسب للفلاكي خصوصاً وأن الغاية منها كانت مراقبة الموحدين للحيلولة دون نزوحهم نحو المناطق السهلية.

وأمام تعذر وصول المرابطين إلى المناطق الوعرة التي استقر بها الموحدون، حاولوا من خلال تلك القلاع وكذا من خلال استعمال المنشقين عن الموحدين، تدمير البنية الاقتصادية الفقيرة للقبائل الموحدية، معتقدين أن هذه القبائل سوف تتفكك من تلقاء نفسها بسبب الخصاص والذي سيدفع إلى انتشار الفوضى بين المصامدة مما سيضع حداً لتمرد ابن تومرت ويدفع بأبناء جلدته لتسليمه للسلطة المرابطية.

124- نظم الجمان، م. س.، ص. 102-103.

125- Op. Cit., Docs Inéd. P. 132 de texte et 223 de traduccion.

ويتحدث المؤرخان المشرقيان النويري وابن الأثير عن محاصرة المرابطين للموحدين في المنطقة الجبلية التي يوجدون بها، وهو ما حال دون وصول المؤونة إليهم، في وقت بدأ فيه ما كان معهم من تموين في التناقص، وقد أمر المهدي إثر ذلك أن تطبخ يومياً كمية معلومة من العصيدة، كان نصيب كل واحد منها، ما تحمله كف يده بعد إدخاله في القدر مرة واحدة.

وقد قاد ابن تومرت في سنة 521هـ (1127م) حملة إلى سوس احتل خلالها تاسريرت، وكتب آنذاك ما أسماه بـ"الرسالة المنظمة" الموجهة للموحدين، والتي يتحدث فيها عن بعض الحملات التي قام بها[126]، كما قام في السنة الموالية بمحاصرة قلعة أزليم التابعة لقبيلة هسكورة، حيث حدثت مواجهات عنيفة بين الطرفين أصيب خلالها المهدي بجروح في رأسه مما أجبر أتباعه على نقله بسرعة إلى المخيم، في وقت فشل فيه الموحدون في إخضاع القلعة. بعد ذلك قاموا بمهاجمة جدميوة وهي إحدى فصائل هسكورة وأبادوا أهلها انتقاماً للداعية أبي محمد عطية الذي قتل غدراً أثناء أدائه للصلاة بمسجدها، وكان المهدي قد بعثه إليها لإقناع أهلها باتباع دعوته، ومن جدميوة توجهوا إلى تازاكدالت حيث هزموا شيخاً هسكورياً آخر يدعى عمر بن تورتال[127].

وكرد فعل على ذلك، كان من المنتظر أن يشن المرابطون على الموحدين سلسلة من الهجمات خلال سنة 523هـ (1129م)، لكنهم لم يقوموا بذلك بسبب انشغالهم بأمر الأندلس؛ فقد وصلت علي بن يوسف أخبار من بلنسية تتحدث عن الاستعدادات التي يقوم بها ألفونسو الأول ملك أراغون لتوجيه حملة ضد الأندلس، وكان علي يتخوف من أن تكون هذه الحملة مشابهة من حيث خطورتها لتلك التي وجهها ثلاث سنوات إلى الوراء ألفونسو هذا إلى "أرنيسول" Arnisol، لذا وتحسباً لذلك فرض على كل واحدة من المدن المغربية المساهمة بفصيلة من الجند السود الذي كان يوجد بكل هذه المدن. وهكذا ساهمت فاس مثلاً بثلاثمائة من الشبان السود الذين تكفلت بتسليحهم ودفع أجورهم. وقد أبحرت هذه الفصائل إلى الأندلس تحت قيادة يدر بن ولكوط، ولما وصلت مرسية انضمت إليها القوات المرابطية الموجودة بالأندلس وكان يقودها ابن مجوز، في وقت أقام فيه ألفونسو مخيمه بجوار جزيرة شقر بمنطقة تدعى قليبيرة، ستقع بها المعركة التي

126- ضاعت مع الأسف هذه الرسالة التي كان بالإمكان أن تكشف عن الكثير من الجوانب الغامضة في هذه الحملات، وكان عبد المومن قد قام بنسخها وإرسالها إلى جزولة.

127- لم يتم أبداً اعتبار قبيلة هسكورة ضمن الموحدين الصادقين، بسبب المعارك الكثيرة التي خاضتها ضدهم قبل خضوعها لهم، وقد وصل رفضهم للموحدين إلى درجة أن خطيب الجمعة عندهم، كان يلعن حسب ابن خلدون هنتاتة وتنملل وشيخهم الضال المضل". العبر، م. س.، الجزء السادس، ص. 269.

انتهت بهزيمة المسلمين وسقوط حوالي 12 ألفاً منهم بين قتيل وجريح، وهو ما تأسف له علي كثيراً حيث كتب على إثره إلى مرابطي الأندلس يعيب عليهم ضعف همتهم[128].

وكما لاحظ ابن القطان فإن الموحدين استفادوا من هزيمة المرابطين أمام الأراغونيين، ثم أمام القشتاليين الذين كانوا يقومون بغارات متكررة على منطقة غليرة، والذين اندحرت أمامهم القوات المرابطية الموجودة في إشبيلية وكان يقودها عامل المدينة أجداي، وقد سطا القشتاليون في الوقت ذاته على قافلة مرابطية كانت تحمل المؤونة إلى مركز حدودي. ونتيجة لهذه المصائب المتكررة قام علي بن يوسف بعزل أجداي وعين مكانه يحيى بن بكون.

ولم تكن المشاكل التي تعترض علياً في الأطلس بأقل خطورة من تلك التي يتخبط فيها مرابطو الأندلس، فقد كان يجد صعوبة كبيرة في الوصول إلى ما يشبه وكر النسور والذي كان يحتمي به الموحدون، ذلك لأن جيشه كان يمن بالهزيمة تلو الأخرى في كل المحاولات التي استهدفت الموحدين. غير أن هذا لم يكن يعني بأن ابن تومرت أصبح بإمكانه توسيع رقعة نفوذه ونشر عقيدته بين قبائل مصمودة، فقد كان عليه أن يواجه كل قبيلة قبيلة، بل وأحياناً كان عليه أن يدخل في مواجهات مع مداشر ودواوير تنتمي لهذه القبائل؛ ذلك لأن الروح الانفصالية والرغبة في عدم الخضوع لأي كان، كانت تدفع بسكان تلك الجبال إلى التمرد من جديد وقتل المسؤولين الموحدين الذين عينهم بالمنطقة، مباشرة بعد انسحاب قواته. وهكذا يمكن القول إن الخضوع للموحدين والتمرد عليهم لم يكن ثابتاً بل كان خاضعاً للظرفية، وهو ما حاول الاستفادة منه أنصار علي ببثهم الشقاق وتدبيرهم المؤامرات في المناطق المحدودة التي يسيطر عليها الموحدون.

تنفيذ البشير لعملية التمييز ومهاجمة مراكش

هذه المؤامرات لم يكن ليتعامل معها بمرونة شخص ذو طبع عنيف مثل ابن تومرت، لذا قرر تصفية كل مشكوك فيه، وقد تكلف البيدق بتنفيذ عملية "التمييز" أو التصفية الجسدية، التي سمحت بالقضاء على كل خطر داخلي، وبالتالي سمحت لابن تومرت بتوجيه كل جهوده لمحاربة المرابطين، وكان الملقب بالبشير[129] يميز على هواه وبفضل ما أوتي من كرامات، المُخْلص من الخائن من بين أفراد القبائل الخاضعة للموحدين، وقد تمت بهذه الطريقة إبادة أعداد مهمة من أفراد قبائل ابن مكوس وجدميوة وهنتاتة. وكانت تصرفات البشير في هذا الاتجاه غريبة

128- أورد هذه المعلومات حول سيرة المرابطين في الأندلس لسببين أولهما أنها غير معروفة بما فيه الكفاية لأن المصادر التي تحدثت عنها لاتزال مخطوطة، وثانيهما لعلاقتها بتطور الصراع في منطقة الأطلس ضد الموحدين.

129- لقب كذلك لأنه كان يبشر بالأخبار الحسنة.

للغاية خصوصاً بعفوه على من يصنف في عداد الخصوم، مبرراً ذلك بأن هؤلاء أعلنوا توبتهم وأنهم أوفياء للدعوة الموحدية[130].

ويورد ابن الأثير معلومات منافية للعقل عند حديثه عن عملية "التمييز" فيقول إن ابن تومرت أمر شيوخ القبائل التي خضعت له بالقيام بالتحريات لمعرفة الخونة، وبعد انتهائهم من ذلك كانوا يقدمون اللوائح للبشير الذي يبث فيها، حيث يقوم بعملية الانتقاء الأخيرة، وكان معظم الذين نفذ فيهم حكم الإعدام حسب هذا المصدر، من المسنين الذين لم يتحمسوا لدعوة المهدي إما لعدم اقتناعهم بها أو لخوفهم من انتقام المرابطين.

ورغم أن الشباب الذي ينبهر عادة بكل ما هو جديد، تعصب لدعوة ابن تومرت تعصباً أعمى، بحيث لم يتردد بعضهم ولإرضاء الإمام في قتل أقرب المقربين إليه، فإن عملية التمييز خلفت وبشكل عام، استياء عميقاً بين أفراد القبائل التي طبق فيها، وللتخفيف من حدة هذا الاستياء كان ابن تومرت يعدهم ببحبوحة العيش في مراكش وبالغنائم المهمة التي سوف يحصلون عليها بعد إخضاعها.

وقد قضى ابن تومرت شتاء 523هـ/524هـ في الإعداد للحملة التي كان ينوي توجيهها إلى عاصمة المرابطين، وبما أنه نجح ودون كبير صعوبة في رد هجمات هؤلاء بأودية الأطلس الوعرة والضيقة، فقد اعتقد أنه بإمكانه تحقيق نفس النجاح بالمنطقة السهلية، والتي كانت جيوش علي انطلاقاً من القلاع التي شيدها المرابطون بها، تخرج لمهاجمة الموحدين.

وما أن انتهى فصل الشتاء، وكان البرد فيه تلك السنة قارساً، حتى توجه البشير بأمر من المهدي بسرعة نحو تاغازوت على رأس قوات موحدية قوامها 3000 من المشاة و300 من الفرسان، وقد نجح فيلق الفرسان وبعد عملية تمويهية، في مهاجمة قوات عمر بن يمللوك الذي قتل أثناء الهجوم، إثر ذلك قام نفس الفيلق بالسطو على حصن تافركونت الواقع بمنطقة كيك غيغرة[131]، وأباد الجنود الخمسمائة المدافعين عنه، واستولى على كل ما به من خيول وحمير وثيران وغنم والتي كان عددها الإجمالي مائة وخمسين.

130- يشير البيدق إلى ان عملية التصفية هاته تمت في 523هـ، وأن البشير شارك مباشرة بعدها في حملة البحيرة. مقابل ذلك يشير مؤلف نظم الجمان، وهو أقدم مصدر تحدث عن الموحدين بعد البيدق، إلى أن التصفية تمت عام 524هـ ويضيف أن التمييز تم أولاً في قرية هونا ثم بعد ذلك في تنملل، حيث قتل كل الخونة والمنافقين. ويتحدث المؤرخون من أمثال صاحب روض القرطاس عن أساطير من صنع الخيال عن عملية التمييز أوردت عدداً منها في مقالتي:
La historia y la leyenda en los origenes del Imperio Almohade . Al andalus . Vol XIW . Fasc . E . P 339.

131- يسمي البيدق في صفحة 39 من كتابه القائد المرابطي الذي قتل في المواجهة بعمر بن يمللوك، ويسمي الموضع بـ"كمار بيران تغرذ آيين" في حين يسميه في الصفحة 91 بعمر بن يندوك، ويسمى الحصن بـ تافركوكنت، أما ابن القطان في نظم الجمان فيقول إن القائد الذي قتل هو أبو بكر بن يندوج، ص 114-115.

هذا الانتصار شجع البشير على التقدم نحو أغمات حيث خرجت لمواجهته بجوار جبال أوريكة قوات مرابطية كان يقودها كل من بكو بن علي بن يوسف ويطي بن إسماعيل[132] وشيوخ مرابطين آخرين. في هذه اللحظة الحرجة أصيب البشير بحالة من حالات إغمائه المعهودة، وبعد استفاقته أخبر الموحدين بأنهم سيهزمون العدو رغم تفوقه العددي ويلاحقونه دون كلل ثم يستولون على كل ما معه من أمتعة وذخائر[133].

والظاهر أن تنبؤات البشير عملت عملها؛ فقد رفعت وبشكل كبير من معنويات الموحدين الذين هاجموا في اليوم الموالي عدوهم بحماس كبير في أمجدار[134] جنوب أغمات أوريكة، حيث هزموا قوات يطي وعمر بن تورجير قبل أن يتقدموا في اتجاه مراكش، وكان ذلك في 18 ربيع الثاني 524هـ (31 مارس 1130م).

وفي اليوم الموالي خرج سكان أغمات جماعة وبشكل تلقائي لردع الموحدين، ولما لاحظ قادة هؤلاء، العشوائية التي خرجوا بها للقتال، انقضوا عليهم بعنف حيث أبادوا العديد منهم واستولوا على مخيمهم، وكان من بين القتلى حوالي 3000 زنجي من كَناوة.

وقد قضى الموحدون ليلة الأربعاء فاتح أبريل في أفراج يوسف بن وغواد، وفي صبيحة يوم الخميس قصدوا باب الشريعة بمراكش حيث خرج ضدهم رعاع المدينة بحماس وعزيمة لكن دون سلاح تقريباً، كما خرج ضدهم علي بن يوسف على رأس قواته. ولما لاحظ هذا الأخير أن الرعاع غير مسلحين، أمرهم بواسطة مناد خاص بالعودة إلى المدينة من أجل التسلح. هذا الانسحاب المفاجئ أثار انتباه الموحدين الذين اعتقدوا أن الرعاع هموا بالفرار، لذا رفعوا السياج الذي وضعوه من قبل للاحتماء به إذا ما دعت الحاجة، وتعقبوا الرعاع الذين أمام هول المفاجأة

132- لما لاحظ المدعو يطي والذي يسميه صاحب "الحلل الموشية" بطي، أن هزيمة رجاله أصبحت محققة، قفز من على صهوة جواده وجلس على درعه وهو يحاول إعطاء التعليمات لرجاله للدخول من جديد في المواجهة، لكن الموحدين لم يمهلوه حيث تلقى ضربة قاتلة أثناء ذلك.

133- يشير ابن خلدون إلى أن عدد القوات الموحدية التي خاضت هذه المواجهة كان يقدر بـ 40 ألفا من المشاة و 400 من الفرسان وهو رقم مبالغ فيه دون شك، ذلك لأنه يستحيل جمع هذا العدد المهم من الرجال من خمس أو ست قبائل مصمودية، ويورد النويري وصاحب "الحلل الموشية" والزركشي نفس الرقم، أما ابن خلكان فيحصر عدد القوات الموحدية في عشرة آلاف رجل، في حين يكتفي البيدق بالقول إن الجيش الوحدي أثناء خروجه للمواجهة وبعد 15 يوماً من السير انضم إليه 3000 شخص من بينهم 300 امرأة.

134- يشير صاحب "نظم الجمان" بشكل عابر بأنه وقعت بين المرابطين والموحدين قبل مواجهة أمجدار مواجهة أخرى في منطقة الهراوية، لكن هذه المواجهة لا ذكر لها في أي مصدر آخر غيره.

تكدسوا بباب المدينة وكان الازدحام بها وراء مقتل العديد منهم. حدث ذلك أمام أعين علي الذي أصيب بالذهول وانسحب مجبراً عبر باب المخزن بعد إلحاح أحد مساعديه.

كل هذا شجع الموحدين على نقل مخيمهم إلى بحيرة "الرقايق" التي تقع بين باب الدباغين وباب أيلان (أغمات إن أيلان) واستولوا على ما كان في خزائنها من حبوب. وتجمع المصادر على وقوع مواجهات عنيفة خلال الأربعين يوماً التي مكث بها الموحدون بجوار أبواب مراكش. وعلى ما يظهر فإن علي بن يوسف لم يشارك في هذه المواجهات، ذلك لأنه وبسبب الهزيمة التي مني بها المرابطون في المواجهة الأولى فقد ثقته في جيشه واعتكف بالمدينة لا يبرحها، واكتفى بطلب الإمدادات من جهات أخرى، والتي لم تصل إلا بعد مرور أزيد من عشرين يوماً على بداية المواجهات، وكانت تتكون من حامية قادمة من هسكورة يقودها أبو بكر بن الجوهر وأخرى من صنهاجة تحت امرة يحيى بن ساقطن وثالثة من سجلماسة بقيادة وانودين بن سير (هزمت قرب باب الدباغين قبل دخولها مراكش) ورابعة من الغرب وكانت تحت امرة ياسين بن فيلو، هذه الأخيرة وبسبب رغبتها الملحة في الشروع مباشرة في القتال رفضت طلب علي بوضع مخيمها داخل أسوار المدينة، وفضلت وضعه على يمين مخيم الموحدين بجوار باب أغمات. غير أن هذه الرغبة اصطدمت بتردد علي الذي لم يعط الأوامر للشروع في القتال رغم مرور حوالي أربعين يوماً على بداية الحصار الموحدي. أمام هذا الجمود قام شخص أندلسي متعود على حرب الحدود في شبه الجزيرة الإيبرية، يدعى عبد الله بن همشك[135]، وكان يوجد على رأس فصيلة من مائة فارس ضمن الحامية التي يقودها القائد المرابطي أبو إسحاق، بالتعبير عن تذمره من هذه السلبية التي تجبر المحاصَرين على عدم القيام بأي رد فعل، وقد أذن له إثر ذلك بقيادة فصيلة من 300 فارس أدرك بعد مناوشة القوات الموحدية بواسطتها، أنها تتوفر على رماح أطول من رماح المرابطين مما يسمح لها بإصابة رجاله قبل أن يصلوا إليها. وقد قرر إثرها الانسحاب على رأس فصيلته نحو المدينة حيث أمر رجاله بإطالة رماحهم التي أصبح طولها ستة أذرع، وفي صبيحة اليوم الموالي خرج من جديد للمواجهة، ولم يعد إلى مراكش إلا ومعه ثلاثمئة من رؤوس العدو وهو ما سمح برفع معنويات المحاصَرين. عقب ذلك أمر علي قواته بالخروج للمعركة في الوقت الذي كانت فيه الإمدادات التي طلبها من مختلف الجهات قد وصلت مراكش.

ويقدم مؤلف "الحلل الموشية" تفسيراً مختلفاً لانسحاب ابن همشك بعد خروجه الأول ضد الموحدين، فيقول إنه لما رأى طول حجم رماح هؤلاء أمر رجاله بتقصير رماحهم ستة أصابع، وهو

135- وضع صاحب "نظم الجمان" علامات الشكل على الاسم، بحيث نقرأ عنده: "ابن هَمْشَك"، بينما لم يضع هذه العلامات صاحب "الحلل الموشية"، وهو ما يسمح بقراءة الاسم كما يلي: "ابن هَمُشْك". وبحكم انه أندلسي، فقد جعل هذا الأخير قرابة بينه وبين "إبراهيم بن هَمُشْك"، صهر أمير مرسية ابن مردنيش.

ما يعتبر أمراً غير منطقي، لأنه إذا ما استعمل الرماح القصيرة، سيصبح، وكما لاحظ صاحب نظم الجمان، عرضة لرماح الموحدين الطويلة، كما يعتبر أمراً غير منطقي عودة ابن همشك بعد خروجه الثاني بثلاثمئة من رؤوس الأعداء دون أن يفقد أياً من رجاله، وأخيراً يعتبر كذلك أمراً غير منطقي، أن يكون هذا الانتصار الصغير وليس وصول كل الإمدادات التي كان المرابطون ينتظرونها، سبباً في قرار علي ببدء المعركة، خصوصاً وأن هذه القوات كانت تنتظر بفارغ الصبر بداية القتال، كما يؤكد ذلك صاحب "نظم الجمان" الذي يقول إن بعض القوات التي جاءت من جهات أخرى رفضت دخول المدينة رغبة منها في الشروع في القتال في أسرع وقت، ووضعت مخيمها يسار المخيم الموحدي[136].

وكان انطلاق الهجوم المرابطي فجراً حيث خرجت الحامية الموجودة وسط المدينة من باب أيلان وهاجمت مقدمة الجيش الموحدي بينما هاجمت حامية الغرب التي يقودها ياسين بن فيلو جناحه الأيسر. ويشير البيدق إلى أن الموحدين قاوموا باستماتة هجوم العدو منذ بداية المعركة، غير أن التفوق العددي لهذا الأخير كان سبباً في هزيمتهم وانسحابهم مساء نفس اليوم. وقد وقعت المعركة بجوار بحيرة الرقائق في السهل المحاذي لباب الدباغين وباب أيلان والممتد إلى غاية الينابيع التي تزود البحيرة المذكورة بالمياه.

ورغم أننا لا نتوفر على معلومات بشأن عدد القتلى الموحدين في المعركة، فمن المؤكد أن الرقم كان مرتفعاً جداً، بدليل أن خمسة من أعضاء الجماعة (أهل العشرة) سقطوا خلالها بينما أصيب سادس هو أبوحفص عمر بجروح خطيرة[137].

ولتفادي الخطر الداهم، التجأ الناجون إلى الخنادق الموجودة في البحيرة التي تمر عبرها قنوات المياه والتي يصل عرض بعضها إلى ثلاثين ذراعاً[138]، وكان عبد المومن أول من قفز بجواده إلى إحدى هذه الخنادق بشكل أثار إعجاب جنوده. وأثناء تجمع المنهزمين وكان الوقت بين الظهر والعصر أدوا صلاة الخوف جماعة، وهو ما أثار انتباه علي بن يوسف الذي علق قائلاً: «*إن هذا لعجب: غلبوا فصلوا، وغلبناهم فعطلناهم! ما أظن هؤلاء إلا على الحق*»[139]. ويورد صاحب "نظم الجمان" دون غيره من

136- نظم الجمان، م. س.، ص. 117-118.

137- بسبب إصابته في المعركة دخل في حالة غيبوبة مستديمة. غير ان هذا الواقع تم تحريفه عند تأسيس المتحدرين منه للدولة الحفصية في تونس، حيث روجوا رواية أخرى تقول إنه قتل أثناء المعركة وأنه احتفظ به دون دفن بدعوى أن البشير كان قد تنبأ في وقت سابق بأنه لن يموت قبل اخضاع البلاد والقضاء على المرابطين نهائياً. انظر النويري، م. س.، ص. 113.

138- إحدى هذه الخنادق والتي قفز إليها عبدالمومن بحثاً عن الحماية الطبيعية تدعى وادي أسيل وهي من روافد تانسيفت وموقعها قرب السور الواقع شرق المكان الذي كان به مخيم الموحدين.

139- نظم الجمان، م. س.، ص. 119.

المصادر العربية، تاريخ المعركة، وهو الثاني من جمادى الأولى عام 524هـ (السبت 13 أبريل 1130م)[140]، لكن هناك عدة دلائل تثبت عدم دقة هذا التاريخ؛ فالموحدون وبعد خروجهم من تنمل مكثوا أربعين يوماً قبالة مراكش، وقاموا قبل ذلك بمهاجمة أحد الحصون، كما كانت لهم مواجهتان مع العدو، وهذا ما يعني أنه إذا سلمنا بـ 13 أبريل كتاريخ للمعركة، فإن تركهم لتنمل سيكون على الأقل في مطلع فبراير، وهذا أمر مستحيل، على اعتبار أن البيدق الذي شارك في الحملة يقول إن الوقت الذي قضوه منذ خروجهم من تنمل إلى غاية وصولهم إلى مكداز هو أسبوعان وأنهم تركوا هذا المكان في اتجاه البحيرة في التاريخ الهجري الموافق للأربعاء الأول من أبريل، وبما أننا نعلم أنهم قضوا في البحيرة أربعين يوماً فمن غير المنطقي أن يكون تاريخ المعركة هو 13 أبريل (2 جمادى الأولى)، وهذا ما يدفعنا للاعتقاد بأن المعركة وقعت يوم 12 جمادى الثانية (السبت 13 مايو).

وبعد حلول الظلام سحب الموحدون ضحاياهم من ساحة المعركة ودفنوا منهم ما تمكنوا من دفنه، ومن حسن حظهم أن الأمطار الطوفانية التي تهاطلت تلك الليلة حالت دون ملاحقتهم من طرف المرابطين. ولم يُعثر عقب المعركة على أثر للبشير[141]، أما أبو حفص عمر والذي أصيب بجروح خطيرة، كما مر بنا، فقد سحب من المعركة محمولاً على أذرع جنوده[142].

وحسب كل مؤرخي البلاط فإن بطل تلك المعركة كان ودون منازع هو عبد المومن الذي تعقبته في اليوم الموالي قوات مرابطية بحيث أدركته بمنطقة أغمات، غير أنه نجح في ردعها، وأرغمها على الانسحاب عبر باب مراكش. وقد قام الموحدون رفقة طلبة أغمات الذين انضموا إليهم، بعبور الأطلس ليلاً بعد أن انقسموا إلى مجموعتين يقود الأولى عبد المومن وهذه مرت من جهة اليمين، ويقود الثانية يعلى بن ملوية وهذه مرت من جهة اليسار. وعند وصولهم إلى هزرجة، وكانت قد خضعت لهم عنوة، خطط أهلها لمباغتة المنهزمين بفج "إيمي ن الزات ظ فم الزات"، غير أن عبد المومن تنبه لذلك وأمر خمسين من رجاله باحتلال الفج، كما أرسل البيدق على وجه السرعة لاخبار المهدي بالأمر[143]، حيث

140- لا يتوافق الملخص الكرونولوجي الذي ينهي به ابن القطان مؤلفه وما نجده في مذكرات البيدق بشأن تاريخ المعركة، بحيث يقول ابن القطان إن عملية التمييز (التصفية) حدثت سنة 523 هـ وأن المعركة وقعت في مطلع 524هـ. غير أن موت المهدي في 25 رمضان، بعد ثلاثة أشهر من معركة البحيرة تجعلنا نستنتج أن تاريخ المعركة كان في جمادى الثانية وليس الأولى.

141- تشير إحدى الروايات إلى أنه إثر مقتله في المعركة، قام عبدالمومن بدفنه دون أن يعلم أحد بذلك. ويجرؤ مؤلف "نظم الجمان" على القول، وإن بشكل مقتضب، إنه رفع إلى السماء.

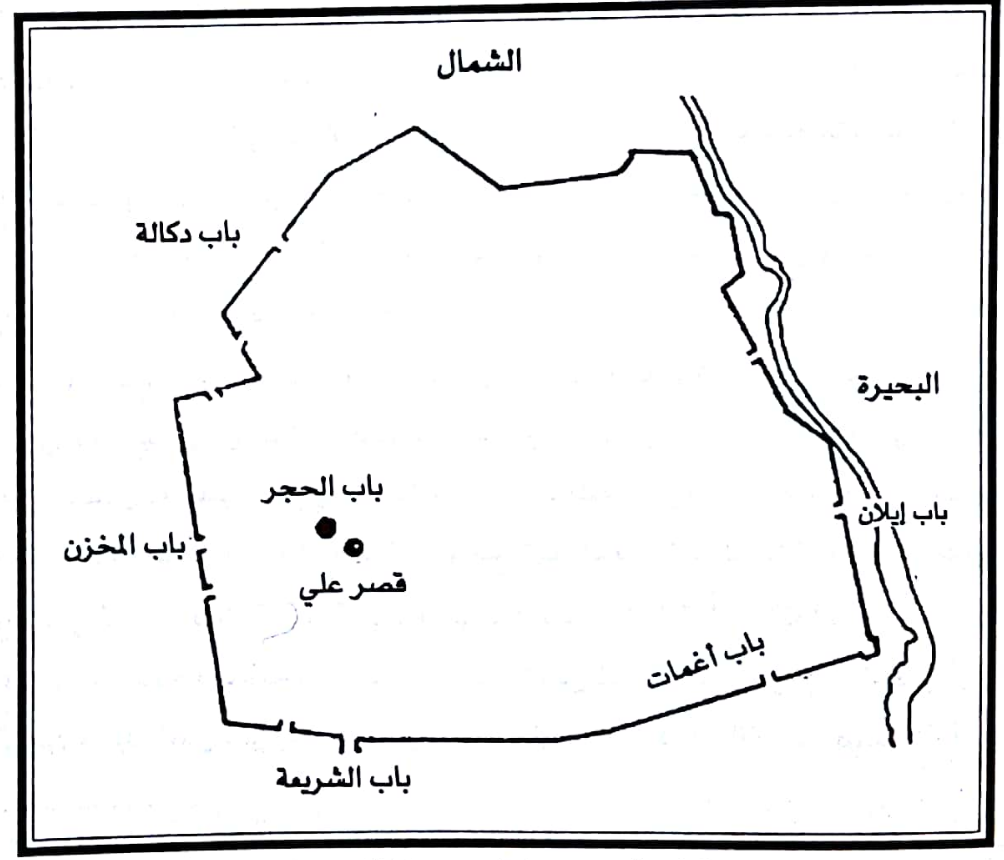
142- يخبرنا البيدق أن الشيخ زكريا بن جمور وهو من أهل الخمسين اصيب برمح في عينه أثناء أذانه للصلاة ومع ذلك لم يوقف الأذان. انظر: Docs Inéd, op. cit., P. 38.

143- يورد البيدق الحوار الذي دار بينه وبين المهدي وكيف اخبره ان عبدالمومن قد نجا من الموت وأنه فقط اصيب بجروح في ساقه اليمنى. اخبار المهدي، م. س.، ص. 40.

أرسل هذا الأخير فصيلة تولت حراسة عبد المومن ورجاله الذين تمكنوا من عبور منطقة تيفنوت والوصول إلى تنملل بسلام.

وقد تلقى المهدي خبر الهزيمة برباطة جأش وحاول أن يخفف من وقعها على نفسية من تكبدها من رجاله ويرفع من معنوياتهم. من جهته قام علي بن يوسف الذي اعتقد أن وحدة القبائل الموحدية قد تمزقت إلى الأبد بعد هزيمة البحيرة، بإرسال أربعة فصائل عسكرية إلى تنملل، لمحاصرة الموحدين بعقر دارهم. في هذه الأثناء التحقت بالمهدي قوات جديدة من هنتاتة وجنفيسة وجدميوة نجح بواسطتها في رد المهاجمين وذلك بعد مواجهة وقعت في مكان يدعى "أيجران بني توكريت"، (إيجر متاع بني كورييت عند البيدق) الموجود بمجال قبيلة جنفيسة.

نخلص إلى القول إن الموحدين الذين شجعتهم الانتصارات الصغيرة ذات الطابع الدفاعي التي حققوها ضد المرابطين، على النزول إلى المنطقة السهلية لمحاصرة مراكش، صرفوا النظر بعد الهزيمة النكراء التي منوا بها هناك عن تكرار التجربة، حيث لم يعودوا إلى ذلك إلا بعد مرور سبع عشرة سنة وفي وقت كانوا قد أخضعوا فيه كل شمال المغرب وجزءاً من الجزائر.



• المكان الذي دارت فيه معركة البحيرة

وفاة المهدي بن تومرت

إذا كان تحصين تنملل من طرف ابن تومرت قد جعلها في مأمن من أي خطر يمكن أن يأتيها من جهة وادي النفيس، فإن الأمر غير ذلك من جهة الجنوب، لذا وتحسباً لأي هجوم مرابطي من هذه الجهة قام ابن تومرت بتشييد برج تيظاف على مرتفع شديد الانحدار، كما مر بنا، حتى يتمكن من خلاله من مراقبة الطريق الوحيد الذي يمكن أن يأتي منه الخطر، والذي يمتد على مسافة عدة كلمترات بين الوادي ومجموعة من الخنادق. والواقع أن تشييد هذه المنشآت الدفاعية إضافة إلى تشديد المراقبة على القبائل الموحدية، وهو ما يتحدث عنه البيدق بنوع من التفصيل، أصبح الشغل الشاغل للمهدي خلال الأشهر الثلاثة التي تفصل هزيمة البحيرة عن تاريخ وفاته.

لقد أحس المهدي بالمرض في صبيحة يوم خرج فيه باكراً لفدان أمديوس، غادره على إثرها لتوه رفقة مساعديه الأقربين، وعند وصوله قرب بيته استدعى الموحدين وخطب فيهم خطاباً مطولاً دام إلى منتصف النهار، بعد ذلك دخل بيته لكنه عاد للخروج من جديد حيث خلع عمامته وخاطبهم قائلاً: «*اعرفوني وحققوني أنا مسافر عنكم سفرا بعيدا*»، وقد أبكاهم جميعاً كلامه، وقالت له أخته زينب: «وإلى أين تغيب عنا؟ ألم يكفك أن غبت عنا خمسة عشر عاما؟»، وقالوا له: «*إن كنت تسير إلى الشرق نسير معك؟*»؛ فقال: «*إنما أسافر وحدي*»[144]، وخطب فيهم خطاباً آخر دام من العصر إلى هبوط الظلام، وعندما لاحظ أن وقت الصلاة على وشك المرور، ذكرهم بضرورة أداء الصلاة في وقتها ثم انسحب.

ولا تتفق المصادر عند حديثها عن مرض المهدي وتصرفاته خلال أيامه الأخيرة، وهكذا فعلى الرغم من أنه لا ينبغي أن يكون له خلف على اعتبار أنه مهدي آخر الزمان، فإن مؤرخي البلاط الموحدي ينسبون له خطباً يصرح من خلالها بأن عبد المومن هو وريثه، ولا يكتفون بالحديث عن تنبئه بنهايته الحتمية بل ينسبون له كذلك رؤى في شكل أشعار تتحدث عن تاريخ هذه النهاية.

ومن بين الذين يوردون ذلك، صاحب المعجب الذي ينسب له خطاباً مختلقاً ألقاه على أتباعه وهو على فراش الموت، تحدث فيه عن الظلم والفساد اللذين كانا قد عما دار الإسلام قبل أن يُظهر الخالق من جديد العدل على يده، في نفس الوقت حثهم على التكافل والاتحاد وطاعة أولياء الأمور

144- نظم الجمان، م. س.، ص. 126

لأن ذلك هو سبيل النصر، ثم عين عبد المومن خلفاً له ليقينه من أنه لن يخيب أمله، ودعاهم لمبايعته وطاعته إذا قام بواجبه ولم يحد عن الطريق المستقيم، بعد ذلك مرر يده على وجوههم وصدورهم واحداً واحداً ، وكانت تلك آخر مرة شوهد فيها من طرف الموحدين، باستثناء الخمسة الذين كان لهم اتصال مباشر به وهم: خلفه عبد المومن وعضوا أهل العشرة أبو إبراهيم إسماعيل يكيگ وعمر أصناك و أخته زينب ثم الشيخ أبو محمد وسنار وهو من أهل الدار (خاصته)، وقد تولى إثر ذلك، حسب نفس المصدر، مهمة الخروج إلى العامة لينقل تعليمات المهدي، في حين تكلف من كان لايزال على قيد الحياة من أهل العشرة، بقيادة الكفاح ضد المرابطين.

وتجمع المصادر أن وفاة المهدي كانت في شهر رمضان 524هـ (غشت 1130م)، بحيث يجعلها صاحب "الحلل الموشية" والزركشي في 13 أو 14 رمضان، ويجعلها صاحب "روض القرطاس" يوم 13 رمضان كما يجعل بيعة عبد المومن من طرف الخاصة يوم 14 ، ويضيف أنه نقل هذه المعلومات عن وثيقة كتبها السيد يوسف (الخليفة يوسف الأول فيما بعد) بحضور والده عبد المومن. ولايختلف عن هذا ابن رشيق في "ميزان العلم" و ابن صاحب الصلاة في "المن بالامامة" فكلاهما يؤكد أن الوفاة كانت يوم الأربعاء 13 رمضان، أما البيدق فيجعل الوفاة يوم 24 رمضان بدل 14 ، لكنه يؤكد أن ذلك حدث يوم الأربعاء، وهذا غير ممكن، لأن 24 رمضان يوافق يوم الأحد في حين 14 منه يوافق يوم الأربعاء، وهو ما يؤكد لنا أنه وقع له خلط في التواريخ. ويُعتبر "العبر" لابن خلدون المصدر الوحيد الذي يجعل تاريخ الوفاة في 522هـ غير أنه يتدارك الخطأ فيما بعد، ويجعلها كغيره في 524هـ[145]، مضيفاً أن ذلك كان بعد أربعة أشهر من معركة البحيرة[146] التي نعلم أنها وقعت عام 524هـ.

وقد تم دفنه سراً ببيته أو بالمسجد المجاور له، وكان الأشخاص الخمسة الذين حضروا احتضاره واعين بعواقب إعلان خبر وفاته في وقت لم تتحقق بعد نبوءته المتمثلة في إعادة العدل إلى أرض الله وهزم الدجال، لذا قرروا إخفاءها عن بقية الموحدين الذين أشاعوا بينهم أن الإمام لا يخرج لأنه مريض فقط وأنهم يستشيرونه باستمرار ويأتمرون بأوامره[147].

وباستثناء ابن خلدون الذي يؤكد أن الشيخ أبا حفص عمر ينتي هو الذي كان وراء مبايعة عبد المومن من طرف هنتاتة[148]، لا تذكر بقية المصادر شيئاً عن الدور الذي قد يكون لعبه هذا

145- العبر، م. س.، ص. 471.

146- نفسه، ص. 471.

147- اخبار المهدي، م. س.، ص. 42.

148- العبر، م. س.، ص. 472-473.

الرجل للحفاظ على سرية وفاة المهدي ثم بيعة عبد المومن، وهذا أمر يثير الاستغراب، خصوصاً مع الدور الذي اطلع به فيما بعد، حيث أصبح الساعد الأيمن لعبد المومن وأحد الذين لعبوا دوراً أساسياً في تأسيس الدولة الموحدية.

من جهة أخرى يخبرنا ابن خلدون أنه على عهده كان ضريح المهدي يزار من طرف العامة الذين يترحمون عليه ويقدمون الصدقات، وكان القرآن يتلى باستمرار على قبره كما كان هناك حارس مهمته الحفاظ على النظام أثناء زيارة الضريح[149]. وإلى ذلك التاريخ كان أهل تمملل وغيرهم من المصامدة يعتقدون بأن المهدي سوف يبعث من جديد وأنهم، وكما وعدهم، سيهزمون تحت قيادته شعوب الأرض. ويقول ليون الإفريقي عن التنمليين إنهم أهل بدعة لكن لهم معرفة واسعة بعلوم الدين؛ بحيث كانوا يحفظون عن ظهر قلب ما كتبه ابن تومرت، وكان ولعهم بهذه العلوم يدفعهم إذا ما زارهم زائر، على جره للمجادلة في الأمور الشرعية، لكن كل هذا لم يعد له وجود على عهد ليون الإفريقي حيث نسيت حسبه ذكرى ابن تومرت ، ولم يعد أحد في تلك القرية البئيسة يتذكر شيئاً عن ماضيها التليد.

إن ما يلفت الانتباه هو أن يسلم الموحدون تسليماً مطلقاً في تلك البيئة الفقيرة، ورغم الهزيمة التي تكبدوها أمام المرابطين، بأن المهدي لازال حياً يرزق بعد مرور ثلاث سنوات عن وفاته، وأنه متم المهمة التي اختاره الخالق لها. وهنا وجب التذكير بعوامل ساهمت في ترسيخ هذه القناعة وبالتالي سمحت بالحفاظ على التكتل بين قبائل من خصوصيتها رفض أي وحدة أو تحالف طويل الأمد؛ إن من بين هذه العوامل بدائية القبائل التي سلمت بها، وسذاجة أهاليها وما أشيع عن قداسة المهدي، ثم دهاء مساعديه الذين آلت إليهم أمور الموحدين من بعده والذين نجحوا في إقناع أتباعهم بمواصلة الصراع ضد المرابطين إلى أن تمكنوا من هزمهم وتطبيق مشروعهم الإصلاحي وبالتالي تأسيس دولتهم في بلاد المغرب والأندلس.

شجاعة وعبقرية ابن تومرت

كان الإصلاح الذي دعا إليه المهدي دينياً بالأساس كما أن الدولة التي أسسها عبد المومن بناءً على تعليماته كانت تيوقراطية تعتمد الدين في تنظيم شؤون الحياة الدنيوية، وتعمل على تجديد الإسلام وتبني المنهج الذي كان سائداً إبان صدر الإسلام.

149- نفسه، ص. 472.

وإذا كان شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد رفعه كل المصلحين في بلاد المغرب، فإن ابن تومرت زاد على كل هؤلاء بادعائه المهدوية، حيث لم يكتف بمحاربة البدع بل أشاع بأنه الشخص الذي ينتظره كافة المسلمين حتى يطبق شرع الله ويظهر العدل في الأرض. وبالفعل فبفضل حيويته وهمته وقدرته على الإقناع نجح إلى حد كبير في ما ذهب إليه. وهكذا نعرف من خلال كتابه والرسائل المنسوبة إليه كيف نجح في إقناع مناصريه بضرورة محاربة المرابطين بطريقة لا هوادة فيها تفوق تلك التي يجب أن يقاتل بها النصارى وغيرهم من الكفار، على اعتبار أنهم عصوا الله لقولهم بالتجسيم ورفضهم للتوحيد، وهو ما يجعلهم في منزلة أبعد عن الطريق المستقيم من منزلة إبليس نفسه.

وقد أوصى أصحابه بصدق النية والزهد في الدنيا وعدم التعلق بمتاعها الزائل، وأمرهم باستذكار الفاتحة ثم سورة أخرى من القرآن كحد أدنى ليتمكنوا من أداء الصلاة التي أستحثهم على أدائها في وقتها، ونصحهم بارتياد المساجد باستمرار مع بنيهم وعبيدهم، كما نهاهم عن كل جور ورذيلة. بجانب ذلك فرض عليهم استذكار عقيدة التوحيد التي أملاها عليهم بالعربية والأمازيغية وأمرهم أن يتلوا يومياً حزباً واحداً منها عن ظهر قلب، وكان كل من يعجز عن ذلك يجلد إلى أن يستذكرها، وقد تصل العقوبة إلى الإعدام إذا ما استمر في عجزه. وكان الجميع مجبراً على حضور ما يلقيه من مواعظ، وكل غياب دون عذر مقبول يلاقى بعقاب ربما يصل إلى الإعدام كذلك. من جهة أخرى نحا منحى الرسول في إرسال الدعاة والوعاظ إلى القبائل، لتعريفها بالتوحيد ودعوتها لاعتناقه وتعليمها إياه. وكانت هذه القبائل إذا ما رفضت الدعوة أو قتلت الوعاظ، كما حدث غير ما مرة، تعاقب عقاباً صارماً. وقد أورد في كتابه[150]، تجربة الرسول التي اقتدى بها والتي تهم سبعين صحابياً من المهاجرين والأنصار كانوا يُعلمون الناس ليلاً أمور الدين من قرآن وسنة، بينما يشغلون نهارهم بنقل المياه إلى المسجد وبقطع الحطب وبيعه لتوفير المؤونة للفقراء، ومع هذا قوبلت دعوتهم غير ما مرة بالرفض بل قتل بسبب ذلك عدد منهم.

وكان أداء الشعائر الدينية يبدأ مع أذان صلاة الفجر عندما يخبر المؤذن بحلول يوم جديد قائلاً: "أصبح ولله الحمد". وتتلخص هذه التعاليم في ترك كل ما هو غير مشروع وعدم ارتكاب الكبائر، والتكافل وتفادي الشقاق والنفاق واجتناب الرذائل من سرقة وغدر وخداع وإسراف وتبذير، والعفو عند المقدرة، وعدم التشبث بمبدأ العين بالعين والسن بالسن، وعدم إمهال العدو،

150- اعز ما يطلب، م. س.، ص. 404.

وضرورة الجهاد ضده اقتداءً بالرسول وأصحابه، بشرط أن يكون ذلك الجهاد من أجل إعلاء كلمة الله والدفاع عن الدين الحنيف وليس من أجل الدنيا وزخرفها. كما حثت هذه التعاليم على ضرورة نبذ العادات الوثنية المتفشية في بلاد المغرب مثل الموسيقى وشرب الخمر والندب في المآتم والتشاؤم والتطير وعدم الرضى بقضاء الله وبما يقع من مصائب.

والحقيقة أن تعاليم ابن تومرت في هذا السياق كانت من الصفاء بحيث يصعب أن يفهم كيف قبل أناس مثل مصمودة، يغلب عليهم طابع الخشونة[151]، ومتشبثين بعاداتهم وتقاليدهم البربرية الموروثة ومتعودين على العيش باستقلالية وعدم الخضوع لأحد، كيف قبلوا ترك كل ذلك واتباع ماكان يفرضه عليهم الاصلاح الموحدي من التزامات. والواقع أن ابن تومرت الذي كان واعياً بطبائعهم، حرص أولاً على تهييئهم لقبول دعوته وذلك من خلال إقناعهم بفائدة اتباع الطريق المستقيم، الذي يعتبر ودون غيره طريق النجاة، ثم بعد ذلك توعيتهم بفساد أخلاق وعقيدة المرابطين الذين وجب الجهاد ضدهم، والاستيلاء على ما يملكونه من ثروات.

وقد خصص فصلاً كاملاً من كتابه للحديث عن المرابطين الذين اعتبرهم مجسمين وأهل بدعة وقدم في ذلك عشرين دليلاً استند فيها على القرآن والسنة، ويكفي إيراد بعضها للحكم عليه؛ فهم يذهبون حفاة عراة، يصبحون ويمسون في التجسيم والكفر لذا لا تجب مساعدتهم ولاطاعتهم ولا التعاون معهم بل يجب الجهاد فيهم.

إن ابن تومرت وبتطرفه هذا، جانب تعاليم الإسلام، ذلك لأن الحديث النبوي يمنع وضع اليد على متاع كل من تلفظ بعبارة «لا إله إلا الله»، غير أن ابن تومرت فضل تطبيق حديث آخر يقول بضرورة تغيير المؤمن للمنكر أولا بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان[152].

وبعد إقناعه لأتباعه بكل ذلك، اختلق مجموعة من الأحاديث تشيد بأهل المغرب، وتقول أنه ستظهر بينهم طائفة ستقوم بالجهاد من أجل نشر العدل، وأنها بعد أن تحقق ذلك، ستلتقي بعيسى بن مريم الذي سيبعث من جديد، وستهزم معه الدجال وتغزو بلاد النصارى واليهود وعبدة الأوثان، قبل أن تؤسس تلك المملكة الأزلية التي يسودها العدل والتي لم يكن بالإمكان إقامتها على عهد الرسول.

151- يقول عنهم الإدريسي: «لجفاء وغلظ الطبع»، م. س.، ص. 228.

152- نقل المؤلف نص الحديث من كتاب الغزالي، "إحياء علوم الدين"، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت)، الجزء الثاني، ص. 306. (المترجم).

وقد صبغ بألوان قاتمة آخر الزمان، وأورد حديثاً مختلقاً يقول إن الله يترك عباده عرضة للشر والرذيلة نصف يوم، وبحكم أن نصف اليوم ذاك مقداره خمسمائة سنة، فقد اعتبر أن نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري -أي عصره- هو تاريخ ظهور المهدي المنتظر سليل الرسول والذي اختير منذ الأزل لإعادة ملك الله وعدله إلى الأرض.

وإذا ما استثنينا بعض الاختلافات الجزئية، نسجل أن بعض ما علق بالإسلام، مما سلف ذكره، يشبه ما علق بالمسيحية التي، وبعد عدم التمكن من القضاء على الجور والرذيلة مع المسيح، وجدت في سفر الرؤيا عزاءها، بحيث فُسر هذا السفر بما مفاده أن المسيح سيبعث بعد انقضاء الألفية الأولى للميلاد ليملأ الأرض عدلاً.

ورغم أن ابن تومرت سلم بأن محمدا هو خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين، فإنه اعتبره كغيره من بني البشر، ليس له من صفات الألوهية شيء وبالتالي لم يكن بالإمكان جعله، كما فعل مع عيسى، يبعث قبل يوم الحساب أو يظهر ثانية كبشر-إله. وبالتجائه إلى أسطورة المهدي سليل الرسول الذي ينير الله طريقه والذي سوف يملأ الأرض عدلاً وإحساناً، تبنى البدعة الشيعية التي تقول بعصمة الإمام، ورفض المذهب السني الذي يحث على الاجتهاد، والذي كان وراء ظهور المجتهدين، وهم علماء دين بارزون تحظى آراؤهم بقبول الجميع من متكلمين ومقلدين وعوام. ولضمان نجاح ما رمى إليه، أقنع أتباعه أن كل من لا يعترف بإمام زمانه يموت موتة الجاهلية، وأجبرهم على أداء القسم الذي يؤكدون من خلاله إيمانهم المطلق بالإمام المعلوم المعصوم.

لقد استغل ابن تومرت المهدوية إذاً، لوضع تصوره التاريخي للأخلاق منذ ظهور الإسلام وإلى عصره؛ فمحمد ومن خلال الوحي تمكن من نشر العدل وإشاعة الحقيقة، لكن بعد وفاته بدأ ذلك العدل يختفي وتلك الحقيقة تندثر ليحل محلهما عصر الموبقات الذي بلغ ذروته مع المرابطين المجسمين المبتدعين، إلا أن ذلك الظلام لن يفتأ أن ينجلي بظهور المهدي.

ويتحفظ المؤرخون الأوربيون في قبول ما ورد في المصادر العربية بشأن تسليم أتباع ابن تومرت بمهدويته، ويعتبرون ما قيل في الموضوع مجرد خرافات وأساطير ابتدعها منتقدوه، غير أننا نرى أن سكان تلك الجبال الوعرة ببساطتهم وجهلهم بل وبدائيتهم ما كانوا ليترددوا في تصديق كل ما جاء به ابن جلدتهم. لكن الأهم من هذا كله والذي ترك دون تحليل هو مدى قناعة ابن تومرت نفسه بمهدويته. إننا كمسيحيين وإذا كان من غير الصعب علينا التسليم بما نسمعه من كرامات

بعض القديسين، فإنه ليس من السهل علينا التسليم بذاك بالنسبة للمسلمين. وهنا تجب الإشارة إلى أن المهدي أظهر إيماناً وورعاً وتشبثاً كبيراً ببعض تعاليم الإسلام واستعداداً للسير على خطى الرسول، واستعمل من أجل إصلاح الدين وتقويض الفاسد من العادات، الوعظ حيناً والسيف حيناً آخر، واعتبر تسليم أصحابه بما أوتي من خوارق العادات، ومبايعة القبائل له ودخولها في طاعته على أساس أنه مبعوث إلهي، اعتبر ذلك سراً إلهياً وإرادة ربانية الغاية منها كشف مهدويته. وإن اعتقاده الراسخ بأن ظهور المهدي يجب أن يكون خلال ذلك العصر وببلاد المغرب، زاد من تكريس قناعته بأنه الشخص المختار.

وإذا كان التشابه واضحاً بينه وبين الرسول فيما يتعلق بحرصهما على نشر العدل ورفع كلمة الإسلام، فإن التشابه يتجاوز ذلك، ليهم حياة الرجلين بل ونفسيتهما، فكلاهما صادق في إيمانه وكلاهما مقتنع بأن الإرادة الإلهية اختارته للمهمة التي يطلع بها، وكلاهما كان فقيراً مغمور المولد والنشأة، وكلاهما وصل إلى قمة المجد بفضل نبوغه وعبقريته[153]، وابن تومرت ألف الكتاب الأكثر تلاوة في تلك البلاد بعد القرآن، ثم إنه نجح في توحيد وتنظيم قبائل الأطلس دائمة الصراع والتناحر على غرار ما فعل الرسول مع قبائل شبه الجزيرة، كما أنه وعلى غرار الرسول الذي أصر على فرض مفاهيم كانت إلى ذلك التاريخ غريبة على عقلية أهل مكة، حاول ابن تومرت وبشتى الطرق نشر أفكار كانت مخالفة تماماً لأفكار الفقهاء المرابطين. وعلى غرار محمد الذي هاجر بسبب أفكاره من مكة إلى المدينة ليشد عضده بالأنصار، فر ابن تومرت من مراكش إلى الأطلس بحثاً عمن يشد بهم عضده ويدافع بهم عن دعوته. وكما هو الشأن مع محمد عرف ابن تومرت كيف يستفيد من مؤهلاته كمرشد نير، تتجاوز إمكانياته المجال الديني لتشمل التنظيم السياسي الذي استند فيه إلى معرفته بالواقع المادي والأخلاقي لأهالي تلك الجبال والذين كان الجهل ضارباً أطنابه فيهم. أخيراً وكما لم تحل وفاة محمد -خاتم الأنبياء والذي اختاره الخالق مع عيسى ليحضر البعث النهائي يوم الحشر- دون انتشار الإسلام ولم يشكك أحد من بعده في أسس عقيدته التي تتحدث عن قيام الساعة وعن الحياة الأخرى، لم تحل وفاة المهدي -وإن لم ينجح في نشر العدل في الكون وإخضاع النصارى واليهود وعبدة الأوثان- دون استمرار عقيدته التي تحولت إلى القاعدة التي قامت على أساسها الإمبراطورية الموحدية.

153- لا نستغرب أن يضع المؤلف، وهو شخص بدأ حياته يسوعياً ليصبح فيما بعد اشتراكيا، مثل هذه المقارنة بين الرسول ﷺ وشخص مبتدع مثل ابن تومرت. (المترجم).

مؤَلَّف ابن تومرت

توجد في جناح المخطوطات العربية بالخزانة الوطنية بباريس النسخة الوحيدة من مؤلف ابن تومرت الذي يتحدث عن عقيدته، وهي تحمل رقم 1451 [154]، وقد قام "لوسيان "D.Lucian عام 1903م بنشرها في الجزائر، وذلك بعد أن أضاف إليها السيرة الذاتية للمهدي والتي انتقاها من مصادر عربية على رأسها "المعجب" لعبد الواحد المراكشي و"الكامل" لابن الأثير و"روض القرطاس" لابن أبي زرع و"وفيات الأعيان" لابن خلكان و"العبر" لابن خلدون، وكذا مقدمة تحت عنوان "محمد بن تومرت وتيولوجية الإسلام في شمال إفريقيا خلال القرن الحادي عشر الميلادي" كتبها في الأصل باللغة الألمانية أستاذ بارز من جامعة بودابيست يدعى "كولدزيهير"، وترجمها إلى الفرنسية الباحث "كَواديفروي ديسمومبين" Guadefroy Desmombyne [155].

ونقرأ في الصفحة الأولى من المخطوط أنه يتضمن كل ما ألفه المهدي وقام بنسخه أمير المؤمنين عبد المومن، أما في قلفونته فنقرأ أنه تم الانتهاء من نسخه في الأيام العشرة الأواخر من شعبان عام 579هـ (1171م) على عهد يوسف الأول بن عبد المومن والذي ألف الفصل الأخير من الكتاب والمخصص للجهاد.

وفي مقدمة الكتاب ينبه الناشر إلى ما يلي: «*اعتمدنا على النسخة الوحيدة الموجودة من المخطوط والتي محي مداد بعض فقراتها بينما توجد فقرات أخرى في حالة يرثى لها، وهو ما يحول دون قراءتها أو يجعل قراءتها أمراً في غاية الصعوبة، وقد دفعنا هذا لنضع بين قوسين الفقرات التي تمكنا من فك رموزها بصعوبة بينما تركنا فراغاً في الفقرات التي محي مدادها*».

ولا يتوافق فهرس محتويات المخطوط مع ما يتضمنه من معلومات، وهكذا فبخلاف أي كتاب يعتمد منهجية علمية واضحة، لا نسجل في الفهرس أي تماسك بين المواد التي يوردها، ناهيك عن إيراد مواد لا نجدها في المتن مثل حديث رواه عمر بن الخطاب وأحاديث رواها مسلم وبعض

154- أشار الدكتور عبد الغني أبو العزم إلى أن نسخة ثانية من المخطوط توجد بالمكتبة الوطنية بالرباط تحت رقم 1214 وكانت من قبل في مكتبة الجامع الأعظم بمدينة تازة. أعز ما يطلب، م. س.، ص. 7 (المترجم).

155-صدرت آخر طبعة من الكتاب سنة 1997، كما سلف ذكره، وهي من تقديم وتحقيق الدكتور عبد الغني ابو العزم، توجد في 524 صفحة، وهي من منشورات مؤسسة الغني للنشر بالرباط. وقد أورد المحقق في التقديم معلومات عن عدد النسخ المخطوطة والاختلافات بينها مع ذكر ترتيب أبوابها، وأشار إلى النسخ المحققة، ثم قام بوصف المخطوط الموجود بخزانة ابن يوسف تحت رقم 403، كما أشار إلى الخطة المتبعة في التحقيق، هذا إضافة إلى لمحة عن عقيدة ابن تومرت. (المترجم).

الأبيات الشعرية الحماسية. بالإضافة إلى ذلك لا نسجل أي تسلسل أو ترابط بين فصول الكتاب، وهكذا مثلاً يلي المبحث الذي تطرق فيه للمنطق مبحث قصير يهم العبادات.

ويبدأ ابن تومرت عرض عقيدته بتمجيد العلوم الدينية التي يشبهها بنور القلب الذي يميز بين الحقيقة والضلال، وبالحديث عن الجهل الذي يشبهه بالظلام الذي يحجب الحقيقة، ثم بالحديث عن مصادر الشريعة التي اعتمدها في الدروس التي ألقاها برباط هرغة بسوس عام 515هـ، والتي ينتقل منها للحديث عن خصوصيات العلم والجهل والشك والرأي، بنفس الطريقة التي تناول بها هذه المواضيع أثناء مجادلة أغمات سالفة الذكر، ثم يتناول وبتأن، علم الأصول حيث يبرز براهين هذا العلم وحقيقته، فطبيعة العلاقة بينه وبين الفروع، ومن هناك يمر للتطرق إلى قضية التكليف فيبين أن الخالق لا يمكنه أن يكلف العباد بأمور غير قادرين عليها. بعد ذلك يبدأ بالحديث عن اللغة، فيدرس كلماتها ومعانيها ويحاول أن يبين كيف أنها مصدر الفكر والعلم. ويتناول في محور موال وبتأن، موضوع الحديث حيث يميز بين الأحاديث المتوارثة والأحاديث أحادية المصدر، ورغم أنه يسلم بأن هذه الأخيرة لها مصداقية أكبر فإنه يشير إلى أن صحتها نسبية كذلك على اعتبار أنها يمكن أن تتضمن أخطاء مصدرها تشدد من يقوم بروايتها أو نسيانه أو إهماله أو كذبه. وقد اعتبر الحديث مصدراً ضرورياً لدراسة علم الأصول ومال بالخصوص إلى الأحاديث المتواترة التي رواها أئمة المدينة والتي اعتبرها ضرورية لفهم الشريعة، وهو بذلك عبر عن تعاطفه مع المدرسة المالكية ومؤسسها مالك بن أنس إمام دار الهجرة، وهذا ما يتبين من خلال إيراده وباستمرار لكتاب "الموطأ" الذي اعتبره مصدراً فقهياً أساسياً. وبعد الانتهاء من عرضه الإسكولائي هذا لعلم الحديث، خصص فصلاً خاصاً للصلاة توقف فيه عند شروطها وشعائرها ومعانيها، كما قام في فصل آخر بتحليل دقيق لقضية الشريعة حيث بين اعتماداً على الحجج الدامغة أنه لا يمكن الاكتفاء بالعقل البشري لفهم كل ما تتضمنه. ومن الأمور التي توقف عندها في هذا الإطار هناك قضية القياس الذي رفض اعتباره مصدراً للشريعة، ورغم قبوله بالقياس الشرعي والذي يهم نوازل مطابقة تقريباً لتلك التي وردت فيها أصلاً الأحكام، فإنه يرفض القياس العيني.

بعد ذلك تناول بشكل مطول وفي أربعة فصول مواضيع مرتبطة بعلم المنطق قدم فيها تعريفات لبعض المصطلحات مثل العام والخاص والمجرد والملموس والنوعي والفردي، كما تطرق للمعنى الخاص الذي تأخذه بعض المصطلحات عندما يتم استعمالها في العلوم الدينية التي يتوقف للإشادة بها، قبل أن يبدأ بمناقشة مفاهيم الوجود والأسباب والمسببات وتنافر الأضداد، لينتهي في هذه الفصول الأربعة، بحمد الله الذي ليس كمثله شيء.

ويواصل في فصل موال حديثه الرتيب، بالتطرق للمخلوقات التي ميز فيها بين الحي والجامد وبين العاقل وغير العاقل، وهذا قبل أن يعود للحديث عن مفاهيم الوحدانية والتعددية والسلطة الإلهية.

ويعرض في الفصل الأخير من الكتاب لعقيدة التوحيد التي قامت عليها دعوته، فيأتي بالدلائل التي تثبت وحدانية الله واستحالة تشبيهه بالبشر، ويتطرق لصفاته الخارقة التي لا يمكن أن يستوعبها العقل البشري، كما يورد على منوال ابن حزم أسماء الله الحسنى، ثم يتطرق لنبوة محمد التي تؤكدها معجزاته والتي تعتبر أبرزها معجزة القرآن، قبل أن يختم بإيراد الأحاديث التي تحرم الغش خصوصاً في توزيع الغنائم، وكذا تلك التي تحرم الخمر والفسوق.

وفي قلفون الكتاب نجد رسالة كتبها يوسف الأول بن عبد المومن هي عبارة عن جرد للأحاديث (معظمها صحيحة) التي تعدد فضل الجهاد ومزاياه، وكان يوسف قد أمر قواده ورجال بلاطه بنسخ هذه الرسالة وتلاوتها باستمرار لتكون حافزاً لجيوشه على محاربة الكفار.

لقد كان الإيمان بالتوحيد يعني بالنسبة له التسليم بالإمامة، ولإقامة الحجة على ذلك قام بسرد تاريخي للإمامة وخصوصياتها منذ عهد إبراهيم الخليل إلى عهده هو، واعتبر التصديق بالإمامة والخضوع التام لسلطة الإمام أمراً ضرورياً. وفي سياق حديثه عن الإمامة والمهدوية يذكر بالآثام التي يرتكبها المرابطون والتي تفرض الجهاد فيهم، وهو ما سيقوم به وكما ذكر الرسول -حسب ادعائه- طائفة من المسلمين سوف تظهر في بلاد المغرب خلال نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري.

إن عبد المومن الذي آمن بمهدوية ابن تومرت وعمل على إشاعتها والإقناع بها في كل إمبراطوريته، لم يحاول أبداً في الكتاب الذي حرره انطلاقاً مما سمعه من ابن تومرت، إثبات مهدوية هذا الأخير، بل اكتفى بالحديث عن صفات المهدي المنتظر وضرورة الإيمان به لكن دون أن يربطها بأستاذه، ورغم أنه يقول: «*فإذا وصلكم كتابنا هذا فتأملوه فإن كلام المهدي* ﷺ *نور وضياء، ورحمة وشفاء لما في الصدور، وهو كله حكمة وعلم وموعظة، فإذا تأملتموه ينفعكم الله به، وتجدون بركته إن شاء الله عز وجل، فاشكروا الله عز وجل الذي خلصكم به، اعرفوا نعمة الله عليكم، فقد خصصناكم به لقوة رجائنا فيكم، وطمعنا لكم في الانتفاع به في الدنيا والآخرة، ولم نخص به أحدا قبلكم فتأملوه، فإن معانيه عظيمة، وحكمه بليغة، فأقبلوا عليه بأفكاركم، وتأملوا حكمته بعقولكم، فإنكم لا تخيبون من بركته إن شاء الله بفضله ورحمته، ونرجو لكم خير هذا الكتاب، والانتفاع به، ونحن نحب لكم ما نحب لأنفسنا من الخير، ولا نريد لكم إلا الخير والعز*

الدائم في الدنيا والآخرة إن شاء الله، فكونوا عند الظن بكم، وانظروا لأنفسكم واعلموا ما يراد بكم، ولا تتركوا حظكم من الخير، وهذه تذكرة ونصيحة، فقد ذكرناكم فتذكروا، ونهيناكم فانتهوا، ونصحناكم فاقبلوا، ودعوناكم فأجيبوا، زودنا الله وإياكم بالتقوى، وختم لنا وإياكم بالحسنى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وهو حسبنا ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير»[156]، رغم أنه يقول كل هذا، فإننا لا نستطيع الجزم هل كان يقصد ابن تومرت أم كان المقصود المهدي المنتظر بشكل عام. وكيفما كان الحال فإن ما يستشف من الكتاب هو أن عبد المومن حرره قبل مبايعة ابن تومرت مهدياً بشكل رسمي في إيجليز هرغة.

خلاصة القول إن كتاب "أعز ما يطلب" والذي يسمح لنا بكشف جوانب من شخصية ابن تومرت تهم طبيعة مزاجه وإيمانه الملتهب وذاكرته القوية، هو في النهاية ليس أكثر من مجموعة أفكار دينية متداخلة فيما بينها -وردت في كتب أخرى من قبل- اكتفى ابن تومرت بعرضها بشكل بسيط وسطحي. في غياب أي وحدة عضوية أو فكرة محورية وهو ما يشكل عادة جوهر أي كتاب. ولعل هذا راجع إلى حد ما إلى الظروف التي حرر فيها، فناسخه عبد المومن كان يكتفي بما يسمعه خلال الدروس التي يلقيها ابن تومرت والتي كانت موضوعاتها ترتبط بدرجة أولى بالوضعية السياسية والدينية التي تعيشها بلاد المغرب آنذاك. وهذا ما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن الأمر لم يكن يتعلق بتأليف كتاب بمعنى الكلمة، دليل ذلك أولاً غياب عنوان خاص به، لأن عبارة "أعز ما يطلب" والتي أصبحت عنواناً له فيما بعد، ليست أكثر من جملته الأولى، وثانياً وكما لاحظ كولدزيهير لأن ابن تومرت لم يكن يسعى لتأليف كتاب وإنما تقديم تعاليم دينية تكون نبراساً لمريديه، وهذا ما جعله لا ينشغل بسرد الأفكار العميقة وتوثيقها بما جاء بصددها في أمهات الكتب. يتأكد لنا ذلك من غياب أي ذكر للمصادر التي ألفت في الموضوع خلال المرحلة اللاحقة لصدر الإسلام. وباستثناء القرآن فإن كتب الفقه والحديث التي يذكرها اقتصرت على موطأ مالك وعلى أحاديث مسلم والترمذي وأبي داود، في حين تجاهل غيرهم، وبعضهم من الذين أخذ الكثير من أفكارهم، مثل الأشعري وابن حزم.

التنظيم السياسي عند ابن تومرت

لا يمكن إلا أن نفاجأ ونحن نطلع على طبيعة التنظيم السياسي الصارم والمعقد الذي وضعه ابن تومرت كأساس للدولة الموحدية الناشئة، والذي حاول أن يأخذ فيه بعين الاعتبار

156- اعز ما يطلب، م. س.، ص. 411.

الشكل البدائي والبسيط لما يمكن تسميته بالجمهوريات البربرية في الأطلس الصغير بمؤسساتها الديموقراطية والأوليغارشية مثل المزوار والجماعة، والتي كان عليه أن يجعلها قاعدة لنظامه لكن مع صبغها بطابع جديد استفاد فيه مما أخذه في المشرق من معارف علمية وروح تحليلية وقدرات تنظيمية. وبفضل نظام إداري قائم على التراتبية والانضباط الصارم نجح في تحويل مجموعة من القبائل التي تناصب العداء بعضها البعض إلى كونفدرالية سوف يستند عليها عبد المومن في غزو بلاد المغرب والأندلس والقضاء على الإمبراطورية المرابطية.

لقد بدأ مهمته دون أن يكون له من عضد غير الدعوة التي نذر نفسه لنشرها وعشرة من المريدين الذين يطيعونه طاعة عمياء والذين منحهم في المقابل أهم الامتيازات وأعلى التشريفات ووصفهم بملح الأرض، وكون منهم الجماعة أو المجلس الاستشاري[157]، واعتبر كل مخلوق على البسيطة عبداً لهم ولأبنائهم وأحفادهم. وكان انضمامهم إليه جميعاً أثناء رحلته الطويلة ببلاد المغرب وقبل وصوله إلى مسقط رأسه، ولم يكن أحد منهم ينتمي لقبيلته.

وتقدم المصادر العربية من المعلومات ما يسمح لنا بالتعرف بنوع من التفصيل على هؤلاء وعلى أسمائهم ونسبهم. يتعلق الأمر بـ: أبي محمد عبد المومن بن علي وهو زناتي من كومية، وأبي حفص عمر أصناك بن علي الصنهاجي واسمه البربري هو أويملوك، وأبي حفص عمر بن يحيى ينتي واسمه البربري فاصكة ظ أومزال[158]، وأبي محمد عبد الله بن محسن الونشريسي[159]، وأبي إسماعيل بن ايسلالي الهزرجي[160]، وأبي الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي وهو من أغمات[161]، وأبي مروان موسى بن تماية الجدميوي، أمين أو مزوار الموحدين[162]، وأبي عبد الله

157- يتحدث البيدق في كتاب الأنساب عن سبعة عشر شخصاً كانوا اول من بايعه. ويرى "صاحب الحلل الموشية" أن جماعة العشرة تم تكوينها مباشرة بعد مبايعته، كما أن المؤرخين المتأخرين يرون أن جماعة الخمسين تشكلت مباشرة بعد جماعة العشرة، غير ان هذا يجانب الصواب على اعتبار أن هذه الهيئة تم تشكيلها في وقت لاحق وبالضبط عند انضمام هنتاتة إلى هرغة من أجل تقديم الدعم له في إيجيليز.

158- أصبح فيما بعد الساعد الأيمن لعبد المومن وسوف يؤسس المنحدرون منه فيما بعد الدولة الحفصية في تونس.

159- لقبه ابن تومرت بالبشير لتنبؤاته اثناء حالات الإغماء التي كانت تنتابه، وكان رجله المفضل والمرشح لخلافته لولا مقتله في معركة البحيرة.

160- تكفل بحماية ابن تومرت في أغمات اثناء هربه، ونجح في إيصاله إلى بر الأمان بالأطلس، وقد ولاه هذا الأخير القضاء فيما بعد.

161- عينه ابن تومرت كاتبه الخاص وقد قتل في معركة البحيرة.

162- قتل هو الآخر في البحيرة.

محمد بن سليمان وهو من مدشر أنسا الكائن بقبيلة مسكالة بالسفح الجنوبي من الأطلس الكبير[163]، وعبد الله بن يعلى الزناتي وهو من تازة وكان يلقب بابن ملوية[164]. كل هذه الأسماء يوردها البيدق ويضيف إليها اسمين آخرين هما: أبو موسى عيسى بن موسى الصودي وأبو محمد عبد العزيز الغيغائي واللذان يحتمل أن يكون ابن تومرت قد عينهما لملء الفراغ الذي خلفه من قُتل في البحيرة، ويكتفي البيدق بالقول إنهما خادما المهدي دون أن ينسب لهما أية مهمة أخرى. ويذكر صاحب "نظم الجمان" ستة من أسماء أفراد الجماعة كلهم ممن ذكرهم كذلك البيدق، غير أنه وأثناء تصنيفهم كان أكثر موضوعية من هذا الأخير بحيث لا يجعل عبد المومن إلا في المرتبة الثالثة، ويشير أنه كان ضمن الجماعة فقيه من إفريقية (لا يذكر اسمه) تمت تصفيته بعد انتقاده لمجزرة تنملل ورفضه لعصمة المهدي.

وإذا كان النبي قد بشر عشرة من أصحابه بالجنة، وهؤلاء لازال أئمة المساجد يدعون لهم في خطب الجمعة بعد الدعاء لأمير البلاد، فإن المهدي حاول دون شك في اصطفائه لعشرة من أصحابه تقليد النبي.

ويشير صاحب "المعجب"[165] أن هناك من يضيف إلى العشرة أبا محمد وسنار وهو دباغ أسود من أغمات انضم إلى المهدي أثناء مروره بتلك المدينة، وقد تكلف خلال السنوات الثلاث التي تفصل وفاة ابن تومرت عن بيعة عبد المومن من طرف العامة، تكلف بنقل تعليمات المهدي "المريض" إلى الموحدين، وكان رجلاً بسيطاً ورعاً، خدم سيده ابن تومرت بكل صدق واعتنى بعد ذلك بضريحه كما اعتنى بضريح عبد المومن، وتوفي عجوزاً فقيراً في وقت كان بامكانه الاغتناء وتكوين الثروة. ويصنف كل من صاحب "نظم الجمان" والبيدق، وسنار هذا ضمن أهل الدار[166].

بعد مقتل خمسة من أفراد الجماعة العشرة في البحيرة وإعدام ابن ملوية، بقي مع عبد المومن عند توليه الحكم ثلاثة فقط من أعضاء الجماعة وهم عمر أصناك الذي توفي عام 537هـ بسبب مرض ألم به أثناء الحملة الكبيرة التي وجهها عبد المومن نحو الشمال، وعمر ينتي وإسماعيل الهزرجي وكلاهما عمَّر إلى ما بعد وفاة عبد المومن.

163- تنتمي أم ابن تومرت إلى هذه القبيلة

164- نجا من الموت في البحيرة لكن أهالي جدميوة قتلوه عام 527 هـ بعدما رفض مبايعة عبدالمومن

165- المعجب، م. س.، ص. 275-276 .

166- Op. Cit., Docs Inéd p. 29 .

وبعد أن استقر ابن تومرت في تنملل وانضمت إلى دعوته قبائل هنتاتة وجدميوة وجنفيسة، قام بإنشاء النواة السياسية والإدارية الثانية المسماة أهل الخمسين، اعتمد فيها كنموذج على مؤسسة تقليدية مترسخة بين البربر تعرف باسم آيت الأربعين[167]، وكان هذا المجلس والذي يشارك فيه شيوخ قبائل الدولة الناشئة يتماشى مع عقلية وعادات جمهوريات مصمودة، وقد تم الاعتماد عليه بشكل كبير في القضاء على الميولات الانفصالية لبعض القبائل وفي إعطاء طابع التماسك لامبراطورية المستقبل. ويورد كل من ابن القطان والبيدق لائحة أعضاء الجماعة، ويذكر هذا الأخير أربعاً وأربعين اسماً يقول إن اثنين منهم فقط من هنتاتة، أما باقي أفراد هذه القبيلة والذين يحتمل أن يكونوا أفراداً في الجماعة فلا يتذكر اسمهم. وبالنسبة للائحة ابن القطان التي نقلها عن ابن صاحب الصلاة فإنها تتضمن واحداً وأربعين اسماً فقط، ويتساءل ابن القطان هنا عن عدم ذكر ابن صاحب الصلاة لأسماء بقية الأعضاء ولا يستبعد أن يكونوا هم الأعضاء السبعة الذين يكونون ما أسماه بالمجلس الخاص. والملاحظ أن أعضاء جماعة الخمسين لم يتم تعيينهم في وقت واحد، بل إن شيوخ هسكورة وصنهاجة تم ضمهم إليه في وقت لاحق، كما أنه وبعد عملية التمييز التي كُلف بها البشير عام 523هـ، أضيف إلى الهيئة، عشرة أو اثنا عشر شخصاً جديدا توجد أسماؤهم ضمن اللائحة التي أوردها البيدق[168].

وبالإضافة إلى هاتين الهيئتين كان لابن تومرت حاشية من نوع خاص تعرف باسم "أهل الدار" وتضم حوالي عشرين شخصاً، من بينهم أربعة يقومون على خدمته، وكان من "أهل الدار" عدد من أعضاء هيئتي العشرة والخمسين. ويضيف ابن صاحب الصلاة إلى كل هذه المجالس، مجلساً من سبعة أشخاص يورد أسماء أعضائه دون بقية المصادر.

ويصل مجموع أعضاء هذه المجالس الاستشارية-التنفيذية الأربعة إلى سبعين شخصاً، ولعل هذا ما جعل ابن اليسع يختلق هيئة سماها أهل السبعين سلم بوجودها كذلك بعض المؤرخين المتأخرين، لكن ابن القطان ينفي وجود هذه الهيئة، والتي لا نجد لها في الواقع أي حضور على امتداد تاريخ الدولة الموحدية.

167- حول هذه المؤسسة وامتدادها وطابعها انظر:

Op. Cit., Les Berbéres el le Makhzen dans le Sud du Maroc. p. 221.

168- كان من الطبيعي أن يقوم عبدالمومن بعد تأسيسه للامبراطورية الموحدية بإنشاء مؤسسات إدارية تتجاوز في أهميتها مجلساً بربرياً محلياً وتقليدياً، لكن وبحكم تقديره لمن بقي على قيد الحياة من أعضاء هيئة الخمسين، عينهم وكذا أبناءهم من بعدهم في مناصب مهمة، مما جعل ذلك المجلس يختفي من تلقاء نفسه.

لقد تمكن ابن تومرت بواسطة هذه الأطر القيادية من فرض نظام اعتمد فيه الصرامة تارة والوعظ أو الإغراء بالغنائم تارة أخرى، كما تمكن بواسطة هذه الأطر من فرض تقليد جديد يتمثل في إقامة استعراضات عسكرية يجبر من خلالها أهالي الأطلس، المعروفين بعدم انضباطهم، على الخضوع لعملية تمييز دورية، الغاية منها معرفة درجة انضباط القوات المتوفرة وكذا المرتبة التي يحتلها كل فرد من أفراد هذه القوات داخل المؤسسة الموحدية. وكانت اللوائح التي تهم المشاركين في هذه الاستعراضات تهيأ بشكل دقيق ومضبوط، حيث يوجد في المقدمة أعضاء أهل العشرة فأعضاء أهل الخمسين وبعدهم "أهل الدار" ثم القبائل التي ساندت ابن تومرت في بداية دعوته، وهنا كانت قبيلة هرغة تحتل المقدمة على اعتبار أنها أول من سانده.

هذا التراتب عرف عدة تغييرات مع مرور الوقت، ففي عهد عبد المومن أصبحت قبيلته كومية وكذا الطلبة والحفاظ الذين سهر بنفسه على تكوينهم يحظون بمنزلة خاصة، وبعد احتلال مراكش عام 541هـ أصبحت قبيلة هسكورة تحظى هي الأخرى بمنزلة خاصة. ومع توطيد نفوذ الإمبراطورية الموحدية أضيفت لوائح جديدة لأشخاص أصبحوا يساهمون في تسيير مؤسسات الدولة، يتعلق الأمر بفئة عبيد المخزن والتي تضم بالأساس أسرى الحرب المرابطين وحملة النبَال والطبالين والمؤذنين. وقد عين بكل قبيلة محتسبَين يتكفل أحدهما بشؤون الأشخاص الذين ناصروا الدعوة الموحدية في بداية عهدها بينما يتكفل الثاني بشؤون الأشخاص الذين ناصروها فيما بعد، هؤلاء هم الذين أصبحوا يعرفون ابتداءً من عهد يعقوب المنصور بالغزاة. ويولي "كتاب الأنساب" اهتماماً خاصاً للتراتب الإداري الذي عرفته الدولة الموحدية فيتحدث عن مناصب أخرى مثل تلك التي يشغلها المكلفون بأمور الزكاة، ويضع في أسفل الهرم الإداري الجيش النظامي الذي ينتمي إلى مجموعات قبلية غير مصمودية.

مرحلة ما بعد وفاة المهدي

(ما بين 524هـ و527هـ)

لم يقم ابن تومرت بتعيين خلف له، على اعتبار أنه المهدي المنتظر الذي بعث في آخر الزمن والذي لا يصح أن يخلفه أحد، لكن صاحب "روض القرطاس" يقول إن المنحدرين من نسل عبد المومن كانوا يؤكدون أن المهدي عين هذا الأخير خلفاً له، في حين يقول الزركشي إن عمر أصناك هو الذي

تمت مبايعته بعد وفاة المهدي، وكان ذلك من طرف أعضاء الجماعة الأربعة الذين لا يزالون على قيد الحياة، غير أنه وبعد مدة قصيرة تنازل عن القيادة لعبد المومن على اعتبار أنه هو الذي وقع عليه اختيار المهدي[169]. وبالإضافة إلى إيراده لما يمكن تسميته بأسطورة تعيين عبد المومن، يدعي صاحب "روض القرطاس" بأن المهدي قام بتكليف عبد المومن بإمامة المصلين وأنه بناءً على ذلك تمت مبايعته اقتداءً بما فعله الرسول الذي كلف أثناء مرضه أبا بكر بإمامة الناس في الصلاة[170]. ويختلف صاحب "كتاب الأنساب" مع مؤلف "روض القرطاس" في شأن الشخص الذي وقع عليه اختيار المهدي ليؤم المصلين فيقول إنه أبو عبد الله محمد بن سليمان والذي نعلم أنه قتل في معركة البحيرة[171]. من جهته يقول صاحب "نظم الجمان" إن عبد المومن تمت مبايعته مباشرة بعد وفاة المهدي وأن ذلك كان بشكل سري[172]، في حين تتحدث بعض المصادر المتأخرة عن الاشمئزاز الذي كان يحس به أهل مصمودة لتعيين خلفٍ للمهدي من زناتة وليس منهم، كما تشير إلى تطلعات بعض المصموديين لخلافة ابن تومرت[173]، وهو ما يعني أن مبايعة عبد المومن لم تكن بالإجماع. هذا الاحتمال يزكيه موقف ابن ملوية، وهو أحد أفراد أهل العشرة، عند مبايعة الخليفة الموحدي الأول علناً، إذ عبر عن رفضه لذلك، بل وانضم إلى صفوف المرابطين من أجل العمل على الإطاحة بعبد المومن كما سنرى.

وقد اكتفى الموحدون خلال ما تبقى من سنة 524هـ التي توفي فيها المهدي، وبداية سنة 525هـ(خريف وشتاء 1130م-1131م) باتباع ما صدر عنه من تعليمات متعلقة بترسيخ دعائم النظام الذي وضع أسسه، ويؤكد صاحب "نظم الجمان" أنهم لم يقوموا بأي عمل عسكري خلال هاتين السنتين[174]، في حين يقول البيدق إنهم قاموا بغارتين على منطقة وادي سوس لم تكن لهما أهمية كبيرة، إذ استولوا في الأولى على محاصيل الذرة بمنطقة آسنكار بينما احتلوا في الثانية، والتي قادها أبو يعقوب بن وانودين، كلاً من إيجلي وهي العاصمة القديمة لسوس وتارطكال[175].

169- تاريخ الدولتين، م. س.، ص 5.

170- روض القرطاس. م. س.، ص. 236.

171- Op. Cit., Docs inéd. P. 50.

172- نظم الجمان، م. س.، ص. 130.

173- من بين هذه المصادر ابن خلدون. العبر، م. س.، ص. 472.

174- نظم الجمان، م. س.، ص. 70.

175- اخبار المهدي، م. س.، ص. 95.

وفي سنة 526هـ (يوافق يومها الأول 23 نوفمبر 1131م ويومها الأخير 11 نوفمبر 1132م) قاموا بغارة مباغتة على تاسغيموت[176] وهي قلعة كبيرة واقعة في خاصرة جبل شمال الأطلس الكبير على بعد35 كيلومتراً جنوب مراكش و10 كيلومترات شرق أغمات، والقلعة صعبة المنال لأنها محاطة بأجراف ذات ارتفاعات يصل طولها إلى مئات الأمتار دون أي منفذ نحو السهل، وهو ما يجعل احتلالها من طرفهم في تلك المرحلة المبكرة أمراً مستحيلاً على اعتبار أنهم لم يكونوا يتوفرون بعد على العتاد الحربي والتنظيم الضروري لفرض حصار طويل الأمد، وهو الوسيلة الوحيدة التي قد تسمح بسقوطها. ويقول البيدق إن الموحدين قاموا باحتلالها من خلال تلك الغارة التي كان يقودها عبد الرحمن بن زكو الجنفيسي أحد أعضاء أهل الخمسين، وأن ذلك كان بعد موت المهدي وقبل مبايعة عبد المومن، وقد هزم الموحدون هناك حسبه القائد المرابطي ميمون بن ياسين واستولوا على الغنائم. ويعمد البيدق هنا لإخفاء الحقيقة التي كشف عنها ابن القطان، وهي تواطؤ فصيلة من هزرجة مع الموحدين بحيث وعدتهم بتسليم القلعة دون قتال. وقد أسفرت الغارة عن مقتل القائد المرابطي أبي بكر أزروال ورجاله، وقام المهاجمون بعد ذلك بإحراق باب القلعة لأخذ صفائحها الحديدية والتي وضعت على باب الفخارين بتنمل.

ويعترف البيدق، وإن بشكل غير مباشر، بأن الموحدين احتلوا القلعة غدراً، عندما يقول إنهم دخلوها في إحدى الليالي وقاموا بتشتيت حاميتها[177]. كما يقع عند حديثه عن الغارة في تناقضين: يتعلق الأول باسم القائد المرابطي الذي هزمه الموحدون، فيقول إنه ميمون بن ياسين، غير أنه في مكان آخر يشير إلى أن ابن ياسين هذا هو الذي شيد القلعة أما القائد الذي هزمه الموحدون فهو أبو بكر بن اللمطية، أما الثاني فيتعلق بالسنة التي تم فيها إخضاع القلعة، فبعد أن قال، وعلى غرار "نظم الجمان"، إن ذلك حدث بعد احتلال تنمل، يعود ليقول في الملخص الكرونولوجي الذي ضمنه كتابه، أن ذلك حدث عام 517هـ وأن حاكمها الذي يسميه ابن وزروال قتل أثناء ذلك.

وقد انضم في تلك السنة (526هـ) إلى صفوف الموحدين المدعو الفلاكي وهو قاطع طريق سابق، ينتمي أصلاً إلى إشبيلية، وإليه ينسب خطأً بناء كل القلاع المحيطة بمداخل الأطلس وكان عددها

176- حول هذه القلعة انظر :

H-Basset et H- terrasse- Les sanctuaires et forteresse almohades, Le Tasgimut . Hesperis, T, VII, ano 1927 . pp . 157-171- et CH . Allain et J . Meuné Recherche archéologique au Tasghimot des Mesfioua . Hesperis, 1951- 3-4° Trmi

177- اخبار المهدي، م. س.، ص. 45.

مرتفعاً جداً وبعضها كبيرة ومنيعة مثل تاسغيموت. ويعطينا الإدريسي معلومات عن أكثر من ستين قلعة بالمنطقة، كما يورد البيدق لائحة بأسماء القلاع التي شيدها المرابطون لإقامة جيوش المشاة والخيالة[178].

إن الحقيقة هي أن الفلاكي هذا لم يكن أكثر من قاطع طريق ترك نشاطه الأصلي ليعمل كمرتزق -على غرار "هلكون كريس" Halcon Gris الذي عاش في عهد المعتمد- وقد انضم إلى الحامية المرابطية في إشبيلية قبل أن يأمر علي بن يوسف بنقله إلى سوس، لذا فمن المستبعد جداً أن تكون له أية معرفة بهندسة بناء القلاع[179].

لقد اقتصر نشاط الفلاكي على الدفاع عن القضية المرابطية، لكن وبسبب خلاف مع علي بن يوسف مر إلى صفوف الموحدين، غير أنه، ووفاءً منه لأخلاق قطاع الطرق، خرج عليهم ليعود من جديد إلى صفوف المرابطين، ثم ليتركهم عام 535 هـ وينضم مرة أخرى إلى صفوف الموحدين لتنتهي بذلك مغامراته.

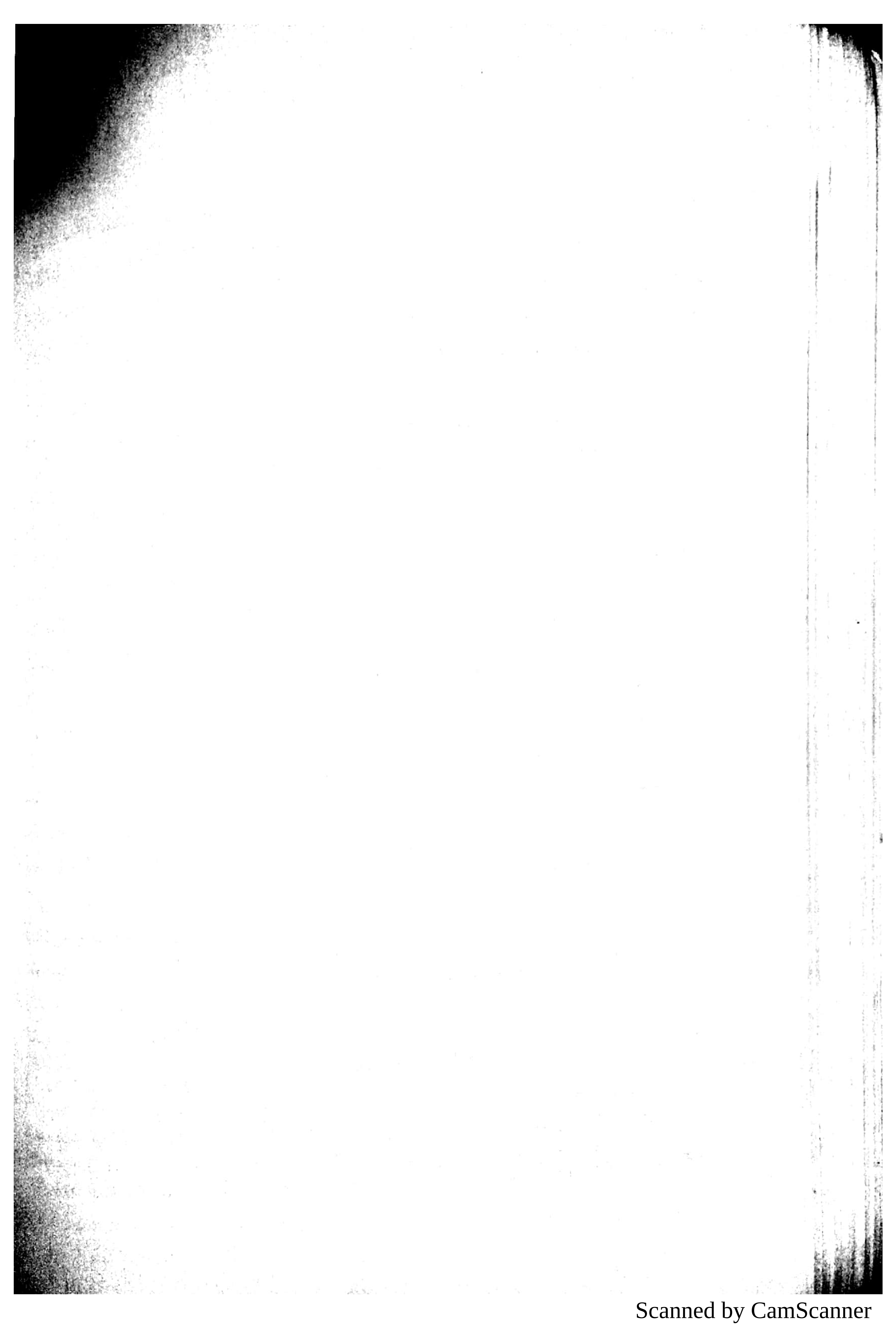
وفي تلك السنة كذلك (526هـ) قام عبد المومن بحملة عسكرية على درجة ما من الأهمية بالمنطقة الشرقية من الأطلس، تمكن بواسطتها من إخضاع قبيلتي هزرجة وهسكورة، وقد أمر خلالها عمر بن يحيى بتدمير كلاوة ومهاجمة أوصليم للانتقام من سكانها الذين سبق وارتدوا على المهدي وأصابوه بجراح عندما حاول احتلالها عام 522هـ. نفس الانتقام طال أهالي هزرجة التي أُضرمت النيران في قلعتها انتقاماً للجيش الموحدي الذي قام أهالي القبيلة بمضايقته إثر انسحابه منهزماً من معركة البحيرة، ولم تنج من العقاب مدينة جشجال التي أمر عبد المومن بإبادة سكانها. وعند وصوله إلى منطقة داي أمر الخليفة الموحدي إحدى فصائل جيشه بالعودة إلى هزرجة من جديد لمباغتة أهلها الذين ظنوا أنهم أصبحوا في مأمن من خطره، وقد قامت الفصيلة المذكورة بمجزرة رهيبة في صفوف الهزرجيين، قبل أن تنتقل إلى هسكورة مرة أخرى حيث أعدمت في أجلاجال ثلاثمئة من الغجداميين، انتقاماً لمقتل الداعية أبي محمد عطية وزوجه العجوز.

إن ما قام به الموحدون خلال العملية من سلب ونهب وإضرام للنيران وبث للرعب جعلت قبيلتي هزرجة وهسكورة يذعنان للأمر الواقع وينضمان للكنفدرالية الموحدية. ويشير صاحب نظم الجمان دون غيره لهذه الحملة حيث يقول إن الموحدين لم يتركوا تنملل طيلة عام 525هـ والتي حافظوا خلالها على سرية وفاة المهدي، لكن بعد انقضاء تلك السنة تركوها في اتجاه الشرق نحو منطقة كلاوة[180] الموجودة هي الأخرى بالأطلس.

178- يؤكد البيدق أن عدد القلاع التي شيدها المرابطون في جبال الأطلس لمواجهة هجومات الموحدين هو ثلاثة وعشرون، وان هؤلاء استولوا عليها جميعاً فيما بعد . نفسه، ص. 90-93.

179- وردت جملة في الحلل الموشية، ص. 113 ، قد يستفاد منها أن الفلاكي كان مختصاً في تشييد القلاع، غير أن هذه الجملة تفقد مصداقيتها عند مقارنتها بما ورد عند البيدق. ص. 90-93 الذي يقول إن المرابطين هم الذين قاموا بتشييد القلاع الموجودة في الأطلس، أكثر من ذلك يعطي اسم ميمون بن ياسين والذي شيد أهمها وهي تاسفيمون كما مر بنا.

180- Op. Cit., Docs Inéd . P. 196.



الفصل الثاني

بيعة عبد المومن وخلافته

ليس من السهل تقديم كرنولوجية مضبوطة للأحداث التي عرفتها المرحلة الموالية لوفاة المهدي، فالبيدق يجعل بيعة عبد المومن الرسمية في 527هـ، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة المهدي، وابن عذاري وابن القطان وابن الأثير يجعلونها في 529هـ بينما يجعلها مؤلف "روض القرطاس" يوم الجمعة 20 ربيع الأول 526هـ، أي نفس السنة التي يوردها ابن صاحب الصلاة والذي اعتمده روض القرطاس، أما ابن خلدون فيكتفي بالقول إن البيعة تمت ثلاث سنوات بعد وفاة المهدي.

لقد وقع ابن عذاري وابن الأثير وابن القطان بذكرهم لسنة 529هـ في الخطأ الذي يتكرر باستمرار عند نسخ الأرقام العربية، وهو الخلط في الكتابة بين رقم سبعة وتسعة، أما بالنسبة لروض القرطاس فأعتقد أنه يستحسن عدم أخذ التاريخ الذي أورده مأخذ الجد، ليس فقط لأن 20 ربيع الأول لا يوافق يوم الجمعة كما جاء عنده وإنما الأربعاء، بل لأنه يجعل من تلك السنة تاريخاً لعدد من الحملات العسكرية التي سوف يقوم بها الموحدون في وقت لاحق كما سنرى. زد على هذا عدم وجوب أخذ الحكاية السخيفة التي يوردها عن الأسد والداهية لتبرير هذه البيعة مأخذ الجد[1].

لقد تمت البيعة بعد أن أصبح الحفاظ على سرية وفاة المهدي أمراً مستحيلاً، وبعد أن أصبح عبد المومن متأكداً من أنه يمسك بزمام الأمور. وهكذا استدعى إلى تنمل ممثلي جميع القبائل الموالية، حيث نظم تجمعاً حضرته النساء كذلك، وإن تم فصلهن عن الرجال بواسطة سياج. وبعد أن أهاب بالحضور وقال لهم في آخر كلامه: «*بقي عندكم عهد بيعة المهدي* رضي الله عنه»[2]، ومع ردهم

1- عن هذه الحكاية انظر مقالتي: OP. Cit., Al-Andalus- la Historia y la leyenda en los origenes del imperio almohade , Vol XIV, Fasc 2.

2- أخبار المهدي، م. س.، ص. 45.

بالإيجاب، جلس هو وقام عضوان من أهل العشرة هما أبو إبراهيم إسماعيل يكيگ وعمر أصناك، وشيوخ آخرون بالخطاب فيهم، قبل أن يأخذ هو الكلمة من جديد، حيث أخبر هذه المرة بوفاة المهدي. ومع انخراطهم في البكاء أمرهم بلهجة صارمة بالكف عنه. إثر ذلك توجه إليه بالكلام كل من إسماعيل يكيگ وعمر أصناك وعبد الرحمن بن زاكو -وهو من أهل الخمسين- والشيخ محمد بن محمد قائلين. «*امدد يمينك للبيعة التي عقدناها مع الإمام المهدي*»[3]، وبعد أن مدها بدأ الحاضرون يمرون أمامه الواحد تلو الآخر لمبايعته إلى أن هبط الظلام حيث توقفت العملية لتستأنف في اليوم الموالي، وقد استغرقت عملية تقديم البيعة ثلاثة أيام كاملة[4].

ولا يأتي البيدق بأي ذكر لأبي حفص عمر ينتي عند حديثه عن البيعة ، في حين يؤكد ابن خلدون أن أبا حفص كانت له كلمة الحسم فيها، لأنه جعل هنتاتة وغيرهم من مصمودة يبايعون عبد المومن رغم نفورهم الطبيعي من الخضوع لأي شخص خصوصاً إذا كان غير مصمودي. وبما أن ابن خلدون أورد خطأً سنة 522هـ كتاريخ لوفاة المهدي (تدارك الخطأ فيما بعد)، فإنه جعل بيعة عبد المومن سنة 524هـ، وهذا ما دفعه ليقدم الحملتين اللتين قام بهما الموحدون على تادلة ودرعة عن وقتهما الحقيقي حيث جعلهما في 526هـ أي نفس سنة احتلال تاسغيموت[5].

الصراع في سوس ودرعة

بعد الانتهاء من مراسيم البيعة، أمر عبد المومن ممثلي القبائل بتعبئة رجالهم للخروج في حملة إلى منطقة درعة قام بقيادتها بنفسه، واحتل خلالها قلعة تازاكورت التي ضرب، حسب ابن القطان، رأس واليها المرابطي يحيى بن مروان، كما أباد ما لا يقل عن عشرين ألفا من أتباع هؤلاء لقولهم بالتشبيه في الصفات بين الخالق والمخلوق. في نفس الوقت اعتقل زوجة الوالي ميمونة ابنة ينتان بن عمران التي احتفظ بها أسيرة إلى أن تمت مقايضتها بالسجناء الموحدين الذين أسرهم "الريرتير" Reverter في لجاغة.

ونستشف من رواية أوردها البيدق أن بيعة عبد المومن فرضت بالقوة وأنه كان هناك من عارضها، لعل أبرزهم الملقب بابن ملوية وهو أحد أفراد أهل العشرة، سبق أن عينه المهدي على رأس قبيلة جنفيسة كما أنه قاد مع عبد المومن عملية الانسحاب إثر هزيمة البحيرة. وبعد رفضه لبيعة عبد المومن

---

3 - نفسه، ص. 45.

4- نفسه، ص. 46.

5- العبر، م.س.، ص. 473.

رحل إلى مراكش وأعلن خروجه عن الموحدين واقترح على علي بن يوسف القيام بحملة إلى تنملل الهدف منها القضاء نهائياً على التمرد الموحدي، وقد استجاب هذا الأخير لطلبه ومنحه فصيلة مرابطية خرج على رأسها. وفي طريقه إلى تنملل مر بجنفيسة بهدف إقناع أهاليها والمتعودين على طاعته الانضمام إليه، لكن تعصب هؤلاء للمهدي ووفاءهم لقضيته حال دون ذلك، خصوصاً عندما جمع أحد شيوخها ويدعى عبد الله بن وسدّرن الأهالي ودعاهم لشجب تصرف ابن ملوية هذا، مبيناً لهم أنه خان المهدي ودعوته. إثر ذلك مباشرة قام أحد أعضاء أهل الخمسين وهو أبو سعيد بن يخلف ابن حسن أتيكي وخادمه بقتل ابن ملوية الذي نقلت جثته إلى تنملل حيث صلب.

ولما علم عبد المومن بما وقع، أخذ طريق العودة إلى عاصمته، وقد شكر أهل جنفيسة على وفائهم. وبعد أن وزع الغنائم التي حصل عليها في تازاكورت، اتجه إلى منطقة صنهاجة وبالضبط إلى المكان الذي يعرف اليوم باسم إزناغن، والذي قام باحتلالها وعين عليه علي ابن ناصر وهو من أبناء قبيلته وأحد أفراد "أهل الخمسين"[6].

وخلال سنة 528هـ ركز عبد المومن اهتمامه على منطقة سوس التي استولى على كل قلاعها، ويظهر أن الفلاكي كان تلك السنة قد عاد من جديد إلى صفوف المرابطين، مما أرغمه وأمام انتصارات عبد المومن على ترك سوس في اتجاه أغمات. في تلك السنة كذلك احتل الموحدون منطقتي تارودانت وإيليغ مما أجبر المرابطين الموجودين بهما على الفرار نحو جزولة وهنكيسة، وقد حدثت مواجهات أخرى بين الطرفين قتل فيها القائد المرابطي توجين. وأمام حالة الإحباط التي سببتها لهم هذه الهزائم المتوالية، اضطر المرابطون للالتجاء إلى قلعة تيوينوين[7] وكانت كل ما بقي تحت سلطتهم بمنطقة سوس. آنذاك ظهر على مسرح الأحداث شخص مسيحي يسميه ابن القطان «المخذول العلج والأعرج»، ويقصد به لا محالة المغامر المعروف الربرتير[8] الذي انضم

6- أخبار المهدي، م.س.، ص. 46.

7- تبعد مسيرة يوم واحد عن تارودانت وعن مصكروطن، وقد احتلها الموحدون كما سنرى بصعوبة كبيرة، ومما اشتهرت به، كثرة المتمردين الذين كانوا يلتجئون إليها والذين يذكر صاحب البيان المغرب أسماء بعضهم مثل أبي قصبة الذي تمرد عام 528 هـ على عهد الخليفة الناصر الذي قاد بنفسه حملة مرت بركراكة، ثم عبر الطريق الساحلي إلى أن وصلت إلى قلعة تيونوين، حيث تمت محاصرتها، وبعد مجهود كبير تم هزم المتمرد المذكور وقطع رأسه الذي علق على باب الشريعة. كما يذكر نفس المصدر متمرداً آخر يسميه أبا جوجة، ويقصد به دون شك الفقيه الأندلسي عبدالرحمن بن فارس الذي رغم رؤيته لغير ما مرة رأس أبي قصبة معلقة على باب الشريعة، لم يستطع مقاومة إغراء التمرد، وهو ما جعل مصيره لا يختلف عن مصير سلفه (انظر الاستقصاء للناصري). وقد أصبحت، حسب ابن خلدون، القلعة المذكورة على عهد المرتضى ثم على عهد أبي دبوس قاعدة عمليات علي بن جدار. وتختلف المصادر العربية في طريقة كتابتها، فعند صاحب نظم الجمان "تيونوين" وعند البيان المغرب "تيومنوين" وعند ابن خلدون "تيويوين" وعند البيدق "تيمونوين" وعند الإدريسي "تيونيون".

8- نظم الجمان، م.س.، ص. 210.

إلى صفوف المرابطين ونجح في انقاذ المتحصنين منهم في تيوينوين، بعد أن خرج من أجرفرجان عبر طريق إيغيران تطوف المراقب من طرف الموحدين، وتمكن من استغلال لحظة كان فيها هؤلاء في حالة سهو، ليمر بهذا الطريق دون أن يلفت انتباههم. ورغم أنهم قاموا بتعقبه إلى غاية سوس بعدما علموا بمروره، فإنهم لم يستطيعوا اللحاق به، ولا بالمحاصرين الذين تمكنوا من مغادرة تيوينوين بفضل الخيول الأربعمئة التي سهلها لهم. ومما لاشك فيه أن عمله البطولي هذا ترك صدىً واسعاً بين من أنقذهم والذين اعتقدوا أن هذا النصراني سيخلصهم من الكابوس الموحدي.

ولم يغير هذا من قرار عبد المومن المتعلق بمواصلة حملته على سوس، حيث أرسل جيشاً إلى منطقة تارودانت، نجحت فصيلة منه في التقدم ليلاً إلى أقصى المنطقة السفلى من سوس والتي لم يكن المرابطون قد انسحبوا منها بعد، وقامت بنهبها. أما بقية الجيش والذي توجه إلى تارودانت فإنه وجدها فارغة، ذلك لأن الفارين من تيوينوين أخبروا سكانها بتقدم قوات الموحدين نحو مدينتهم، مما دفعهم إلى مغادرتها بحيث لم يمكث بها إلا قلة كانت تقيم بحيي تاجندويت ورقالة الواقعين على مشارف المدينة. وأثناء حملة سوس هذه، أعدم الموحدون كل من وجدوه في طريقهم من المرابطين، كما أضرموا النيران في مزارع قصب السكر، وكان المحاصرون بتاجندويت قبل مغادرتها، يشاهدون تصاعد النيران دون أن يتمكنوا من فعل شيء. وقد فقد أنصار علي بن يوسف فيما بعد، كل الآمال التي كانوا يعلقونها على النصراني الربرتير لإنقاذهم من قبضة الموحدين، حسب الرسالة التي كتبها عبد المومن عن هذه الحملة[9].

في تلك السنة كذلك قام عبد المومن بحملة أخرى لا نتوفر على أية معلومات بصددها، كان الهدف منها الانتقام من قبيلة بني يبغز الواقعة بجوار جزولة بين سوس ودرعة، وذلك لرفضها دعوة المهدي وقتلها لمبعوثه أبي محمد عبد العزيز الفيغائي الذي حل بالقبيلة لنشر الدعوة الموحدية. وعندما وضع عبد المومن مخيمه بأشفشد، التجأ أهل بني يبغز إلى حيلة تذكرنا بحيل "أنيبال" Anibal[10]، فقد وضعوا زمراً من الحطب على ظهور جمالهم وأضرموا فيها النيران ليلاً ثم وجهوها صوب مخيم الموحدين الذي دب فيه الذعر. بعد ذلك هاجموا أعداءهم بفعالية كبيرة بواسطة النبال.

ومن حسن حظ عبد المومن أنه ترك خيمته المعهودة، حيث كان ينام، ليلتين قبل الهجوم، إلى مكان سري، وذلك تحسباً لأي خطر، وهو ما ضمن له النجاة. وابتداءً من تلك الليلة أصبحت

9- ينقل "نظم الجمان" جزءاً من رسالة عبد المومن، م. س.، ص. 212.
10- زعيم قرطاجي، قام بغزو إسبانيا سنة 218 قبل الميلاد. (المترجم).

الخيمة التي ينام بها الخليفة تخضع لحراسة مشددة، حيث تقوم عليها ساقة جيشه. ومع ذلك تمكن اثنان من بني ييغز من التسلل إليها بهدف اغتياله، لكن الحرس الموحدي نجح في اعتقالهما. وبعد استنطاقهما ومعرفة غايتهما تم إعدامهما. وقد بقيت القوات الموحدية في أشفشد مدة أربعين يوماً غادرتها بعد ذلك صوب تنمل دون أن تحقق أية نتائج مهمة[11].

وفي سنة 530هـ عاد عبد المومن إلى سوس من جديد (يوافق يومها الأول 11 أكتوبر 1135م ويومها الأخير 28 سبتمبر 1136م) وذلك لمهاجمة قبيلتي أجرفرجان ومصكروطن، ومن أجل إيقاف زحفه أرسل المرابطون جيشاً وضعوا على رأسه ولي العهد سير بن علي. ولما علم عبد المومن بذلك، أمر بمراقبة هذا الجيش انطلاقاً من الجبال، وهكذا ما أن أُخبر بأنه يوجد في مصكروطن[12] وهو مكان يصعب عليه القتال انطلاقاً منه، حتى أمر قواته بمغادرة الجبال ومباغتته حيث تمكنت من هزمه واستولت على كل عتاده الحربي.

وقد قام عبد المومن، تلك السنة كذلك، وحسب ابن القطان الذي نقل عن ابن صاحب الصلاة، بعد توزيع البركة على الجنود وبعد استشارة شيوخ الموحدين، بالتوجه سراً إلى تادلة، حيث قام بمباغتة الحامية المرابطية الموجودة بها والتي اضطرت إلى مغادرتها. ومن هول المفاجأة ركب عامل المدينة المرابطي صهوة جواده محاولاً الفرار، لكن جواده تعثر مما جعله يسقط من على ظهره بشكل عنيف أودى بحياته[13].

إن تادلة التي هاجمها عبد المومن والتي يقول عنها كل من ابن خلدون ومؤلف روض القرطاس، إن عبد المومن وجه إليها أول حملة عسكرية بعد بيعته، تم تحديد مكانها بشكل خاطئ، ذلك لأن الأمر لا يتعلق بما يعرف اليوم بتادلة (قصبة تادلة)، والتي كانت لاتزال بعيدة من حيث المسافة عن المناطق التي يحتلها الموحدون وبالتالي كان بإمكان المرابطين حمايتها دون صعوبة كبيرة، وإنما بمنطقة أخرى تحمل نفس الاسم تقع جنوب شرق مراكش (لازالت موجودة إلى اليوم وتبعد 15 كلمترا عن آيت ورير) بجوار منطقة تاسغيموت التي احتلها الموحدون عام 526هـ. ويقول صاحب البيان المغرب عن موقع تادلة، عند حديثه عن الحملة التي وجهت ضدها عام 531هـ (ربيع 1234م)[14]، إنها توجد في المنحنى الشمالي للأطلس وأنها تعتبر عاصمة

11- نظم الجمان، م. س.، ص. 213-214 . يسمي البيدق القبيلة "آيت ييغز"، لكنه لا يذكر شيئاً عن هذه الحملة، م. س.، ص.77.

12- يعرف هذا المكان اليوم باسم فُم مسخود ويقع عند منبع وادي السوس بجوار فج إيمن تانوت.

13- نظم الجمان، م.س.، ص. 226.

14- البيان المغرب، م.س.، ص. 320.

هسكورة. وبفضل ضبط مكانها، يمكن أن نضبط المناطق التي تعرضت لهجوم الموحدين خلال هذه الحملة التي استهدفت على التوالي: تاسغيموت وهزرجة وهسكورة وصولاً إلى سهل داي، ويقدم لنا صاحب "نظم الجمان" دون غيره تفاصيل عن هجوم الموحدين على هذه المناطق.

وفي سنة 530هـ أو ربما في السنة التي قبلها، قرر عبد المومن العودة من جديد لمهاجمة قبيلة بني يبغز بعدما فشل في إخضاعها خلال حملة سابقة، لكن القبيلة المذكورة وبعدما علمت بتمراره، وعملاً بنصيحة القبائل المجاورة، قررت الخضوع طواعية، وهذا ما جعل عبد المومن يعدل عن الهجوم ويعود من جديد إلى تنملل. ولا يذكر صاحب "نظم الجمان" الذي اعتمد كمصدر ابن صاحب الصلاة، شيئاً عن الهجوم الذي كان عبد المومن ينوي القيام به خلال هذه السنة، ويكتفي بالقول، إن الموحدين لم يقوموا خلالها بأية حملة عسكرية.

الحملة الموحدية الأولى في اتجاه الشمال

يقدم لنا ابن القطان معلومات عن حملة أخرى قام بها عبد المومن سنة 532هـ (يوافق اليوم الأول منها 19 سبتمبر 1137م واليوم الأخير 7 سبتمبر 1138م) لاتزال غير معروفة إلى اليوم، فقد تقدم نحو جبل غياثة الذي وضع به مخيمه، في حين وضع الجيش المرابطي الذي خرج لمواجهته مخيمه في جراندة بالقرب من القرمدة على ضفة وادي أبي حلوا، وكان يقوده ولي العهد سير بن علي بن يوسف، الذي انضمت إليه قوات من الغرب يقودها عبد الله بن يحيى بن أبي بكر ابن تيفلويت الذي وضع مخيمه على بعد عدة أميال من مخيم سير بن علي، ومن هناك قام باستدعاء جيش زناتة الذي يقوده أخوه يحيى بن فانو وكان قوامه 5000 فارس.

لقد كان التفوق العددي للمرابطين يوحي بهزيمة محققة للموحدين في هذه المواجهة، خصوصاً مع وجودهم في مكان بعيد جغرافياً عن قواعدهم الأصلية، لكن آنذاك وقع ما يتكرر باستمرار في تاريخ بلاد المغرب وهو خروج شيخ قبيلة معينة عن سلطة من يقاتل في صفوفهم، يتعلق الأمر هنا بشيخ زناتة زيري بن ماخوخ الذي ترك معسكر المرابطين وانضم إلى صفوف الموحدين، وليثبت حسن نواياه طلب من هؤلاء قوات يقاتل بواسطتها الجيوش المرابطية الموجودة بمنطقة الغرب، وهو ما قبل به عبد المومن الذي منحه فيلقاً وضع على رأسه شيخاً موحدياً تمكن من مباغتة مخيم قوات منطقة الغرب المرابطية، وبعد أن قتل ونهب عاد إلى المخيم الموحدي محملاً بالغنائم. ومن بين الذين لقوا حتفهم في الهجوم قائد زناتة تلمسان، يحيى بن فانو.

أمام هذا الوضع الطارئ، وتخوفاً من تفرق من بقي من جيش زناتة، أمر سير بن علي، القائد محمد بن يحيى بن فانو الإسراع بلم شملهم، والانتقال بهم إلى قرية قريبة من وجدة تدعى أقلال حيث وضع لهم مخيما هناك. وبعد أن علم المرابطون أن عبد المومن يخطط للتوجه نحو منطقة تمارة عملوا على الحيلولة دون قيامه بذلك، وأرسلوا جيشاً من ألفي فارس كانت مهمته تتلخص في عرقلة تقدمه وقطع الطريق عليه، وبعد أسبوع من خروج هذا الجيش، عوض بجيش آخر كلف بنفس المهمة، وقد تكرر هذا السيناريو شهرين كاملين، وهي المدة التي قضاها الموحدون بجبل غياتة.

وأمام عجز الموحدين عن التقدم، دخل زيري بن ماخوخ في اتصالات سرية مع أبناء قبيلته من زناتة أقنعهم من خلالها بالانسحاب من المعركة اثناء المواجهة، إثر ذلك أرسله عبد المومن على رأس فيلق من خيرة رجاله ضد مخيم محمد بن يحيى الذي انهزم أمام الموحدين بعد قتال عنيف حسب ابن القطان[15].

وبعد هذه الحملة الاستطلاعية التي اقتصرت على الخدع والمناوشات والمباغتات والسلب والنهب، دون أن تجرؤ على مغادرة الجبال ولا أن تسعى لتحقيق النتائج الحاسمة، عاد الموحدون إلى قواعدهم الأصلية لقضاء فصل الشتاء، وهو ما قام به كذلك سير بن علي، الذي وأمام خيبة أمله في القضاء على أعدائه، عاد إلى مراكش ليقبل على حياة اللهو والمجون، وقد وصل به الأمر إلى أن دخل في إحدى المرات إلى بيت أخيه عمر يريد الاعتداء على زوجته، لكن تمت مباغتته وطعن طعنة أودت بحياته، حدث هذا في اليوم الأخير من صفر 533هـ (5 نوفمبر 1138م)[16].

إثر ذلك سعت السلطانة الأم (أم علي)، لتعيين إسحاق أخي سير ولياً للعهد، وكانت هي التي تولت تربيته لأنه كان يتيم الأم، لكن شيوخ المرابطين رفضوا ذلك لصغر سنه[17]، وعينوا في الثامن من ربيع الثاني 533هـ (13 ديسمبر 1138م) ولياً للعهد بدلاً عنه تاشفين بن علي، وكانت له تجربة في ميدان الحرب والقتال وشهرة كبيرة اكتسبها من حملاته في الأندلس، وهو ما دفع علياً لتعيينه بجانب ذلك، قائداً عاماً للجيش المرابطي. إن هذه المعلومات التي يقدمها لنا صاحب "نظم الجمان" عن تاشفين[18] تكشف لنا أن ما قيل عن غيرة سير من النجاح الذي كان يحققه

15- نظم الجمان، م. س.، ص. 232.

16- تجهل الأسباب الحقيقية لوفاته، ويكتفي ابن الخطيب بالقول: «*فقضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر في اسمه*». لسان الدين ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط.2، 1973، المجلد الأول، ص.447.

17- سوف يتم تعيينه فيما بعد كآخر سلطان مرابطي وبالتالي آخر ضحية في التراجيديا التي انتهت بها سلطة بني تاشفين.

18- نظم الجمان، م. س.، ص. 242.

أخوه في حملاته ضد النصارى في الأندلس، وعزله من منصبه واستدعائه إلى المغرب لإهانته وجعله تحت إمرته لا أساس له من الصحة، ذلك لأن تاشفين لم يستدع من الأندلس إلا لتعيينه ولياً للعهد وكان هذا بعد مقتل سير بثمانية وثلاثين يوماً.

مواجهات الموحدين مع تاشفين والربرتير وحملتهم على حاحة

منذ ربيع 1139م دخل الموحدون في مواجهات مع القوات المرابطية التي يقودها تاشفين ومساعده الوفي الربرتير الذي سوف ينتهي به الأمر، وبسبب الهزائم المتكررة التي حصدها على امتداد ست سنوات، إلى الإلقاء بنفسه من أحد الأجراف المجاورة لمدينة وهران[19]. وتشير "La Chronica Adefonsi Imperatoris" إلى أن الأمر انتهى به في صفوف المرابطين، بعد أن أسره أمير البحر علي بن ميمون، غير أن هذا يتعارض وفحوى رسالة بعث بها الربرتير إلى الكونت رامون بيرينغر الرابع Romon Berenguer IV ، يخبره فيها أنه يعيش منفياً في بلاد المرابطين وأنه لن يتنازل عن حقوقه كـ"فيكونت" (من الألقاب النبيلة) برشلونة، وأنه يفكر في عودة قريبة لوطنه الأصلي، وهو ما لم يتحقق أبداً.

وبعد وفاته في الجزائر، استعاد أحد ابنيه ويدعى "الربرتير بيرينغر" Reverter Berenguer جميع حقوق والده ومنها لقب فيكونت برشلونة، أما الابن الثاني وقد عرف باسم علي بن الربرتير ويلقب أبي الحسن (لا نعرف مدى صدق اعتناقه للإسلام)، فقد تمكن في وقت لاحق، كما سنرى، وبتواطؤ مع بعض المسيحيين الموجودين بميورقة والذين لا نعرف هل كانوا مرتزقة أم أسرى، تمكن من استعادة الجزيرة مؤقتاً لفائدة الموحدين[20].

لقد ترك عبد المومن وبشكل مفاجئ مشاريعه التوسعية في الشمال، ليتوجه نحو الغرب بغية معاقبة سكان منطقة حاحة الذين تمردوا من جديد على الموحدين بعد أن خضعوا لهم من قبل، وهكذا وضع مخيمه في بني ملول[21] حيث تقيم قبيلة منانة السهل، ومن هناك بدأ بمهاجمة قبيلة

19- بعض المصادر العربية تسميه الأوبيتر وأخرى الزوبيتر أو الروبيتر. وكان في الأصل فيكونت برشلونة، غير أن تجريده من لقبه من طرف متطفل يدعى "رامون برينغر" Ramon Berenguer دفع به للانضمام إلى صفوف المرابطين حيث كان له حضور متميز في المعارك التي خاضوها ضد الموحدين.

20- حول الربرتير الأب والابن انظر ليفي بروفنصال. Docs ined، م. س.، ص. 139.

21- تعرف اليوم بآيت ملول وهي قبيلة في أسفل سوس على بعد 17 كلم من أكادير الحالية.

منانة الجبل والتي ما كانت تأخذ بالدعوة الموحدية حتى تخرج عنها، حيث تكرر ذلك ثلاث مرات، وكانت قد أخذت بالدعوة للمرة الأولى بعد أن أمر علي بن يوسف بقتل شيخها.

ودون أن يحيد عن خطته المتمثلة في الضرب بقوة على يد كل من تسول له نفسه التمرد على سلطته، استمرت غارات عبد المومن بمنطقة الأودية الضيقة التي يقيم بها أهالي منانة الجبل أقصى غرب الأطلس، مدة شهر وثلاثة ايام، في وقت وضع فيه تاشفين والربرتير مخيمهما في نقطة تعرف باسم تاحكوط[22]. إثر ذلك وبعد معاقبته لقبيلة بني وجدزان، انتقل عبد المومن إلى سوس ليصعد من هناك صوب جبال الأطلس، وقد سد عليه تاشفين الطريق الذي يربط بين قبيلتي أجرفرجان وجبل مزورخ، غير أن هذه الأخيرة ومعها قبائل أخرى مجاورة قدمت دعمها للموحدين، مما سمح لعبد المومن بهزم تاشفين بأجرفرجان في ثلاث معارك متتالية، اضطر معها هذا الأخير لينسحب عبر سوس قبل أن يدخل مراكش من جهة السهل. وأثناء الانسحاب، حاولت قوات جزولة التي شاركت في الحملة إلى جانبه، السطو على الغنائم التي ظفر بها، حيث اتجهت صوب المنطقة التي وضعها بها الموحدون، وبما أن عبد المومن علم بما ترمي إليه، فقد وضع مجموعة من المكامن في الخنادق المحاذية للطريق التي تمر منها هذه القوات، قبل أن يخرج عليها وهو محمل بالغنائم، وفي اللحظة التي حاولت اعتراض طريقه والسطو عليها، انقضت عليها قواته المختبئة في الخنادق وقامت بإبادتها. إثر ذلك عاد الموحدون ظافرين إلى تنمل عبر جنفيسة.

وحسب رواية أخرى أوردها ابن القطان، فقد حاول عبد المومن قطع الطريق على المرابطين للحيلولة دون الانتقال من ساحل حاحة إلى وادي سوس، لذا قام بتشييد حصن بالأودية الواقعة أقصى جبال الأطلس قبالة المحيط الأطلسي، ولما تنبه تاشفين لذلك قرر العودة إلى مراكش، وعند وصوله إلى منطقة ركراكة تخلت عنه قوات قبيلة جزولة، التي وأثناء انسحابها فاجأها عمر أصناك بهجوم مباغت غنم فيه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف حصان وزعها على الموحدين[23]، في وقت لم يجد فيه أهالي جزولة بداً من إعلان خضوعهم لسلطة الموحدين.

22- كان يرافق تاشفين حسب البيدق خلال حملته الأولى هذه ببلاد المغرب القائد المعروف "الشنيور" الذي سوف يتركه بعد انسحابه من وهران عاملاً على تلمسان (روض القرطاس، م. س.، ص. 240). والذي اعتقد ليفي بروفنصال خطأ أن الأمر يتعلق بمسيحي وأن sanyur هي تحريف لكلمة "سنيور" Senor. انظر:

Op. Cit., Docs ined, P. 136.

23- نظم الجمان، م. س.، ص. 242-243.

ويصعب علينا أن نثبت هل هذه الحملة التي استهدفت منطقة حاحة هي نفسها التي يتحدث عنها البيدق بشكل مختلف تماماً، أم أن الأمر يتعلق بحملة أخرى تم القيام بها في السنة الموالية (534هـ). ويسمي البيدق تلك التي يتحدث عنها بحملة تاككوطت متاع حاحة، ويقول عنها إن تاشفين والربرتير حاصرا الموحدين لما يزيد عن شهرين مما أرغم هؤلاء، ومن أجل الحصول على الزاد، على نحر الماشية التي أخذوها من العدو في وقت سابق. ويضيف أن المرابطين كانوا متيقنين من قرب استسلام الموحدين بحيث كانوا يخاطبونهم قائلين: «*اصعدوا في السماء او غوصوا في الأرض*»[24]. أمام هذه الوضعية الحرجة لم يجد عبد المومن بداً من الخروج للمواجهة، حيث ترك المنطقة المرتفعة التي كان محاصراً بها وقاتل بعنف على امتداد نهار وليلة، ورغم أنه كان منهزماً في بداية المعركة فإنه تمكن من تدارك الموقف وزعزعة صفوف العدو، بحيث أصيب الربرتير في المواجهة وفقد إحدى راياته. وإثر انتهاء المعركة انسحب الموحدون إلى تنملل والمرابطون إلى مراكش[25]. غير أن المواجهات سوف تتجدد بين الطرفين وهذه المرة في "أمسميص متاع جدميوة"، ورغم أنها لم تفض إلى نتيجة حاسمة فإن سكوت البيدق عنها، مع ما عرف عنه من تملق للموحدين، يؤكد لنا أنها لم تكن في صالح هؤلاء[26].

ومن أجل توسيع المنطقة محدودة المجال التي يحتلها، واصل عبد المومن توجيه الضربات للعدو، وهكذا نجده يدخل في مواجهة جديدة مع الربرتير بمنطقة أكظرور في صيف 535هـ (1140م). ويقول البيدق إن الربرتير أصيب بجراح في المواجهة وأنه فقد كل رجاله، غير أن الصحيح هو أن المعركة لم تحسم لأي طرف حيث عاد كل إلى قواعده. وفي انتظار مواجهات أخرى تكون أكثر حسماً قام عبد المومن في فصل الصيف ذاته بمهاجمة حصن أسكابو الواقع في السفح الشمالي من الأطلس بجبل تينلين[27].

وقد حاصر عبد المومن الحصن لمدة ثلاثة أيام بواسطة الفيالق الثلاثة التي كانت ترافقه، غير أن الربرتير ودون كلل نجح في مد حامية الحصن المرابطية بالمساعدة اللازمة وهو ما أجبر الموحدين على فك الحصار. وأمام فشلهم الجديد هذا، اضطروا للانسحاب في الاتجاه المعاكس

24- أخبار المهدي، م. س.، ص. 46.

25- نفسه، ص. 47.

26- نفسه، ص. 47.

27- يتحدث البيدق عن المكان الذي وقع فيه الهجوم في موضعين فيسميه في الأول "تينلين متاع يركين بن ويدرن"، بينما يسميه في الثاني، تنيغرم، م. س.، ص. 91.

صوب سوس، حيث حطوا بـ "أنفك متاع أمسكروطان" التي شيدوا بها حصناً بالطين والحجر والشطب، حسب تعبير البيدق، للحيلولة دون مرور المرابطين. ولم يتوان الريرتير في التوجه إلى الحصن المذكور، لكن أمام عجزه اقتحامه اضطر للانسحاب نحو مراكش. هذا الانسحاب استغله الموحدون ليتوغلوا عبر الوادي نحو "أبْرُمناذ ميمون" و"زحريفة" و"مغيلة" التي قاموا باحتلالها، كما احتلوا تاسلولت قبل أن يتوجهوا إلى تارودانت التي فر عاملها معلب بن لوعلوع إلى حصن تيمّونوين، والذي لم يتأخر الموحدون في السطو عليه هو الآخر وقتل قائده صالح بن سارة قبل أن يعودوا محملين بالغنائم إلى إيجليز هرغة.

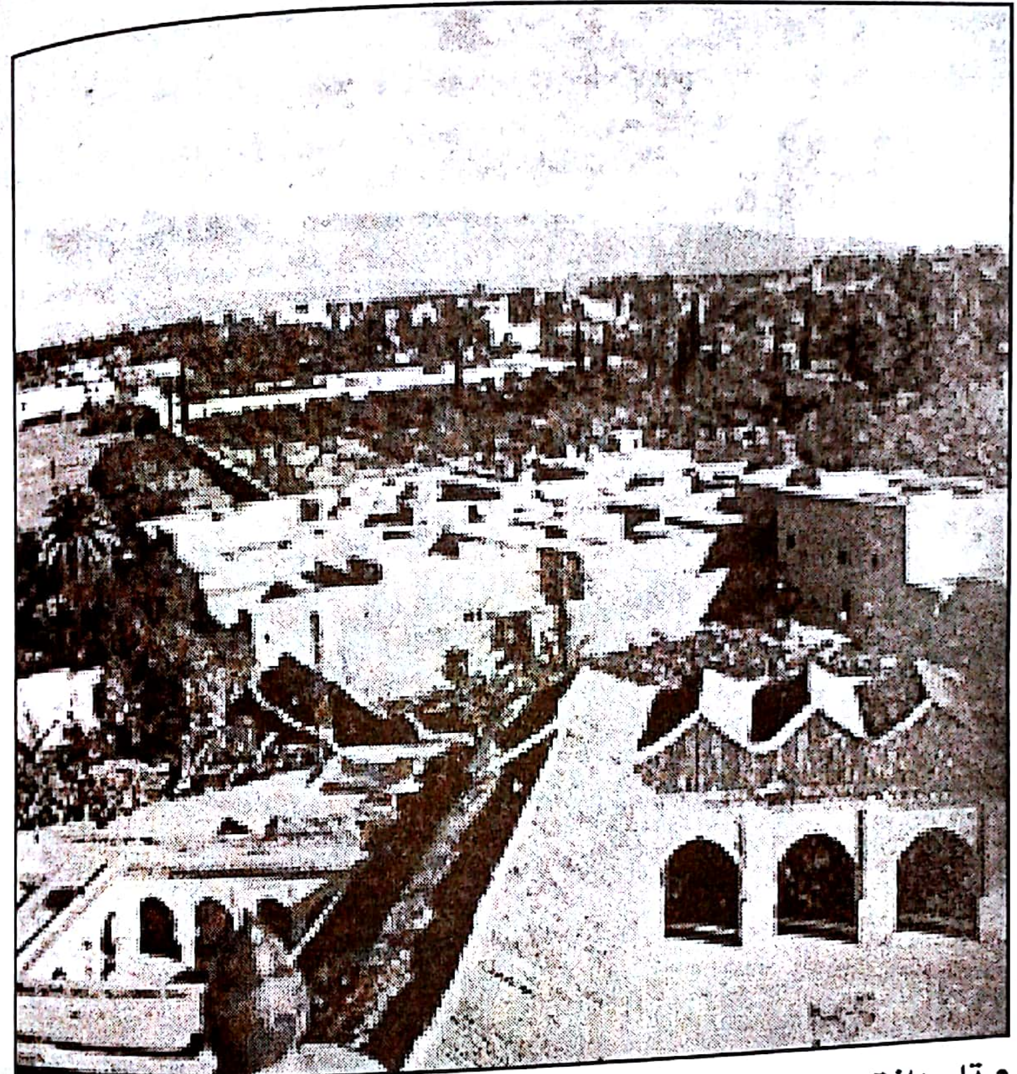
هكذا نجح الموحدون في غزو كل سوس، في وقت قام فيه الفلاكي، وبعد أن أصبح متأكداً من فشل المرابطين بهذه المنطقة، بالانضمام إلى صفوف الموحدين الذين التحق بهم في إيجليز، ومن هناك وبعد اعتناقه للعقيدة الموحدية رافق عبد المومن إلى تنملل. ومن بين الغنائم التي نقلها الموحدون إلى عاصمتهم نجد حوالي خمسمائة امرأة تم وضعهن في ساحة مسيجة، كانت ضمنهن تاماكونت ابنة ينتان بن عمر.

وبالنسبة للريرتير فإنه وأمام عدم توفره على القوات الكافية التي تسمح له بغزو سوس، قرر التوجه نحو الشمال حيث هاجم حصن "تيغيغايين ن تاماروت" وأخذ كأسرى نساء قبيلة الغيغائيان وضمنهن حواء زوجة يعزى بن مخلوف الهرغي أحد أعضاء جماعة الخمسين.

وأثناء وجودها في الأسر، طلبت ابنة ينتان بن عمر مقابلة عبد المومن الذي ذكرته بالمساعي التي قام بها والدها لدى علي بن يوسف من أجل المهدي، وتمكنت بذلك من إقناعه بإطلاق سراحها وبقية الأسيرات اللواتي أعيد لهن اعتبارهن، حيث أمر عبد المومن بحراستهن إلى غاية وصولهن إلى العاصمة. ولم يكن علي بن يوسف بأقل شهامة، حيث قرر من جهته إطلاق سراح زوجة يعزى بن مخلوف وبقية الأسيرات اللائي عدن إلى حال سبيلهن معززات مكرمات ومحملات بالهدايا. وعند وصولهن إلى الأطلس علق عبد المومن على تصرف المرابطين هذا قائلاً: «*إنما أعمالنا ردت علينا، ونحن قوم لا نعمل على هتك العرض*»[28].

وقد حل شتاء 1140م-1141م والموحدون لم يحققوا بعد أية نتائج حاسمة، رغم ما ينسبه لهم مؤرخوهم من انتصارات عادة مبالغ فيها. وإلى ذلك التاريخ، كانت قد مرت تسع سنوات على ظهور دعوتهم وبداية محاربتهم للمرابطين، كان سلاحهم الأساسي هو دعوة التوحيد التي رفعها المهدي،

28- اخبار المهدي، م. س.، ص. 49.



• تارودانت

وسمعتهم التي دفعت بعدد من القبائل للانضمام إليهم وإن كان ذلك دون اقتناع أحياناً، مما جعل إمكانية ارتداد هذه القبائل واردة، خصوصاً مع الخطر الذي كان المرابطون لايزالون يشكلونه عليها.

إن إيمان الموحدين بعدالة قضيتهم جعلهم يبحثون وبكل الطرق عن الوسيلة التي تسمح لهم بالقضاء نهائياً على الدولة المرابطية، وقد وصل بهم ذلك إلى حد التفكير في مهاجمة مراكش، لكن هزيمة البحيرة رفعت الحجاب عن الحقيقة التي كان يخفيها تعصبهم، وهي التفوق المرابطي عدةً وعتاداً، لذا فقد صرفوا النظر بعد هذه الهزيمة وخصوصاً بعد وفاة المهدي عن ذلك، واكتفوا بالعمل على الحفاظ على المناطق المحدودة التي يسيطرون عليها وبمباغتة أراضي أعدائهم بالغارات التي تسمح لهم بالحصول على الغنائم، وفي نفس الوقت بترسيخ العقيدة الموحدية بين أتباعهم.

حملة السنوات السبع الكبرى

اقتنع عبد المومن بعد مرور عشر سنوات على وفاة المهدي باستحالة القضاء على المرابطين اعتماداً فقط على الإمكانيات التي يتوفر عليها في منطقة الأطلس، لذا جدد نشاطه الحربي في منطقة سوس وسفوح الأطلس، ثم بعد ذلك وابتداءً من منتصف 535هـ (شتاء 1140م-1141م) قرر البحث عن دعم مصامدة غمارة وكذا قبائل زناتة ومن بينها قبيلته الأصلية كومية. ومنذ النصف الثاني من 535هـ (فصلا الربيع والصيف) اتخذ قراره الحاسم المتمثل في القيام بحملته الكبيرة نحو الشمال والمعروفة باسم حملة السنوات السبع، والتي انتهت باحتلال مراكش والقضاء نهائياً على المرابطين.

وقد عين عبد المومن عاملاً على تنملل قبل خروجه في الحملة المذكورة، صهره أبا عمران موسى بن سليمان، وكانت المحطات الثلاث الأولى التي نزل بها هي: وانزال، و وفاد، و أشبار. ولما علم تاشفين بذلك خرج يقتفي أثره في أشبار التي كان الموحدون قد غادروها صوب تاساوت ومنها نحو دمنات[29]، في وقت ترك فيه تاشفين أشبار إلى يمللو التي وضع بها مخيمه[30].

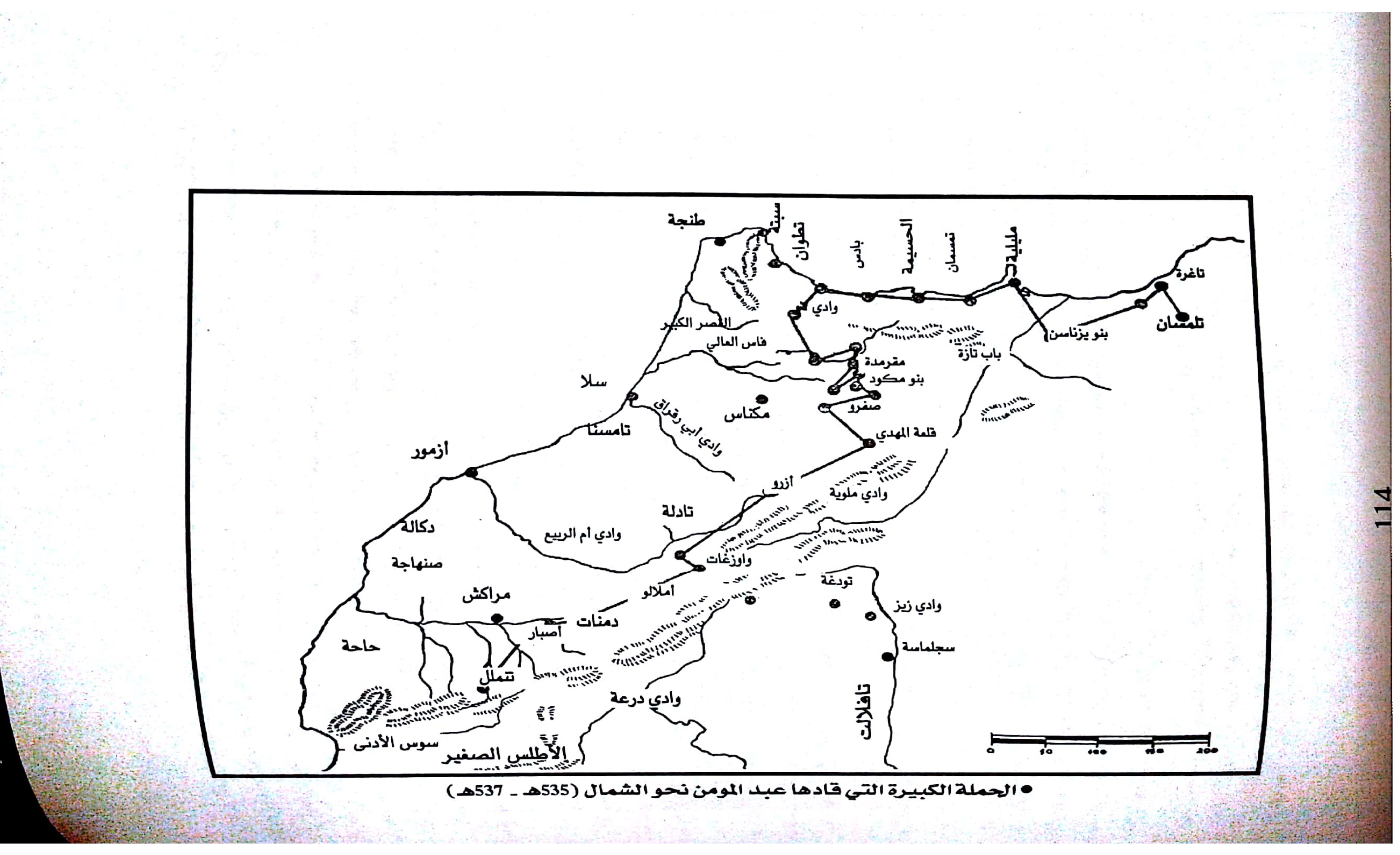
ويقدم لنا البيدق الذي شارك في الحملة، تفاصيل حول المحطات التي توقف بها كل طرف وكذا المواجهات التي دارت بينهما[31]، وهكذا نعلم أن المواجهة الأولى وقعت بجوار واويزغت وخلالها انضمت قبيلة صنهاجة إلى الموحدين. بعد ذلك وقعت مواجهة أخرى في تيزي انتصر فيها الموحدون الذين وصلوا إلى داي [32] بعد مهاجمة أعدائهم في تاكرارت حيث قاموا باحتلالها بعد فرار عاملها علي بن ساقطرا.

29- هي عاصمة هسكورة القديمة، تقع في قدم الأطلس على بعد 13 كلم شرق مراكش.

30- يظهر أن الأمر يتعلق بحفص إيمالو التي يتحدث عنها البكري والمعروفة اليوم باسم تاملالت.

31- أخبار المهدي، م. س.، ص. 49-51.

32- حول داي، انظر : E-F- "Medinat-ou-Day" Gautier. En Hesperis-t-VI-pp. 5-25.



● الحملة الكبيرة التي قادها عبد المومن نحو الشمال (535هـ - 537هـ)

وبعد غزو منطقة تادلة، مر عبد المومن إلى تل تازكًارت حيث هزم يحيى بن ساقطرا، ومنه إلى حصن واوّمَا الذي خرج منه لمواجهة يحيى بن سير والذي نجح عبد المومن في هزمه هو الآخر وتشتيت جيشه قبل أن ينتقل إلى أزرو[33] بمنطقة فزاز وهي نقطة استراتيجية مهمة اقام بها مخيمه الذي نجح انطلاقاً منه في إخضاع قبائل المنطقة الواحدة تلو الأخرى.

وقد أرسل عبد المومن من أزرو إلى تنملل وفداً من شيوخ الموحدين ليخبر من تخلف بها بالمراحل التي قطعتها الحملة وفي نفس الوقت ليقوم بزيارة ضريح المهدي، بعد ذلك قام سكان فزار وبتعاون مع الموحدين بمهاجمة قلعة المهدي بن توالة.

وأمام هذا التقدم قام كل من تاشفين والريرتير الموجودين بفاس بإرسال قوات عسكرية إلى مكناس، لكن الموحدين تمكنوا حسب البيدق من هزم هذه القوات والاستيلاء على كميات كبيرة من الغنائم لم يسبق لهم أن ظفروا بمثلها من المرابطين[34]، غير أن البيدق الذي يورد هذا الخبر لا يقول شيئاً عن احتلال الموحدين لقلعة المهدي بن توالة.

اتجاه الحملة نحو الأطلس المتوسط والريف

وعلى الرغم من أن عبد المومن كان لايزال إلى ذلك التاريخ يتفادى الدخول في مواجهات مع المرابطين بالمناطق السهلية التي يسيطرون عليها، فإنه تمكن من توسيع مجال تحركه بعبوره لمنطقة الأطلس المتوسط واحتلاله لمناطق غريس وتدغة ووادي زيز، هذا الاحتلال ثم الدعم الذي أصبح يحظى به عبد المومن من طرف قبائل المنطقة، أقنعا عامل سجلماسة المرابطي أبا بكر بن شعرة بعجزه عن مواجهته لوحده، وهو ما جعله يذهب لزيارته وربما لبيعته، رغم أن البيدق لا يؤكد ذلك بشكل صريح.

لقد نجح عبد المومن خلال الفترة الممتدة ما بين فبراير وغشت 1141م في ضم كل من منطقتي تادلة وفزاز الواقعتين في الأطلس المتوسط وبالضبط بالسفوح الغربية المقابلة للمحيط الأطلسي، ومنطقتي غريس وتدغة، إضافة إلى وادي ملوية وزيز وكلها تقع في السفوح الشرقية للأطلس المتوسط. ولم تكن السلطة المرابطية قد امتدت إلى هذه المناطق إلا بشكل اسمي. وقد ساهم الأتباع الجدد الذين كان يحركهم بالأساس إغراء الغنائم في شد عضد الموحدين.

33 - ربما يتعلق الأمر حسب ليفي بروفنصال بأزرو بني مخلد الواقعة في الأطلس المتوسط. انظر: Op. Cit., Docs Ined. P. 45.

34- اخبار المهدي، م. س.، ص. 50.

ومع بداية سنة 536هـ (يوافق اليوم الأول منها 6 غشت 1141م) استأنف الموحدون سيرهم نحو الشمال، وفي 5 محرم (10 غشت 1141م)، انفصل عبد الرحمن بن زاكو ومعه قوات موحدية عن بقية الجيوش حيث وصل يوم عاشوراء (10 محرم) إلى صفرو التي هاجمها واستولى على ثرواتها قبل أن يعود من جديد للالتحام ببقية القوات التي مكثت في الفلاج[35]، ومن هناك انتقل الجميع إلى قبيلة بني يازاغة[36].

ولما علم تاشفين الموجود في فاس باقتراب العدو، انتقل إلى جبل العرض[37]، وبعد أن قام باستعراض قواته أرسل الريرتير إلى الفلاج، حيث نجح في هزم من تخلف بها من القوات الموحدية، وقتل قائدها يحيى أغوال وكان أحد العشرة الأوائل الذين بايعوا المهدي. إثر ذلك وتحسباً لأي طارئ آخر انسحب الموحدون بحذر من فاس ووضعوا مخيمهم بقبيلة بني مكود، غير أن تاشفين قام بتعقبهم واضعا مخيمه بمكان قريب من مخيمهم يدعى القرمدة[38]، وهو ما أجبر الموحدين على ترك بني مكود في اتجاه غياتة وبالضبط صوب جبل عَفرا الذي وضعوا مخيمهم عنده، في حين نقل تاشفين مخيمه إلى سهل النواظر[39].

وقد عرف فصل شتاء تلك السنة (1141-1142م) تساقطاً مطرياً دام ودون انقطاع خمسين يوماً وكان وراء فيضان أنهار سبو وفاس وورغة، وبسبب ذلك تعرض الطرفان المتحاربان لعدة أضرار في وقت ارتفعت فيه الأسعار في المعسكرين، بحيث وصل ثمن "السطل" من الشعير إلى ثلاثة دينارات في معسكر عبد المومن ووصل ثمن الرطل من الحطب إلى دينار واحد في معسكر تاشفين. وعلى امتداد فصل الشتاء هذا وقعت عدة مناوشات كان يبادر بها هذا الطرف أو ذاك لكن لم تقع أية مواجهة حاسمة.

وكان عبد المومن قد نقل مخيمه لقضاء شتاء 536هـ (1141م-1142م) إلى جبال كرانده المجاورة لفاس، في حين وضع تاشفين ورجاله مخيمهم بالحصن الموجود في نفس المنطقة، ومن المشاكل التي اعترضتهم، الخصاص في الحطب، بحيث قضوا عدة شهور دون فحم أو حطب

35- هي واحدة من القلاع التي بناها المرابطون. انظر: Op. Cit., Docs Ined. P. 221.

36- توجد جنوب شرق فاس بين آيت يوسي وآيت سفروشن.

37- يتعلق الأمر بإحدى التلال الموجودة شرق فاس، ويرى ليفي بروفنصال أن المقصود هو ما يعرف اليوم بجبل الشواشي.

38- يتعلق الأمر لامحالة بقلعة قارمادا التي وردت عند ابن حوقل والإدريسي والواقعة على الطريق القديم الذي كان يربط فاس بتازة. انظر: Massignon:"La Maroc dans les premières annèes de XVI siecle". P. 217.

39- يقول النويري أن تلك السنة أصبحت بذلك تعرف باسم سنة النواظر وانه أصبح يؤرخ بها لأحداث معينة.

مما اضطرهم لتعويضه بقضبان خيامهم وخشب أكواخهم، كما اضطروا كذلك حسب النويري لاستعمال أسرجة دوابهم لإيقاد النار. ومن الدلالات التي تثبت حاجتهم إلى الحطب، إرسال إحدى النساء إلى تاشفين بصينية مغطاة بقماش اعتقد أن بها بعض الفاكهة، لكنه لما أزاح القماش عنها وجد بها حطباً وهو ما أسعده كثيراً[40].

وخلال ربيع 1142م ومع بداية تحسن أحوال الطقس انتقل الموحدون إلى لكاي الواقعة على بعد 35 ميلاً شمال فاس، حيث احتلوا حصن الولجة (الولاجة بالعربية الفصحى) الواقع على ضفاف ورغة بعد هزمهم للقائد المرابطي يدّر بن ولكوط[41]. وقد حاول تاشفين والربرتير محاصرتهم هناك، إلا أن عبد المومن تمكن من مغادرة المكان على رأس قواته في اتجاه منطقة غمارة التي كانت قد أخذت بعقيدة التوحيد، وبعد اجتيازه لمنطقة "صنهاجة غدّو" نزل بـ"تازغدرا متاع لجاية"[42] في حين نزلت قوات الربرتير في مدينة بني تاودا[43] على الضفة المقابلة لنهر ورغة، ومن هناك عبرت النهر لمهاجمة الموحدين. ويشير البيدق إلى وقوع معركة حامية الوطيس دامت يومين كاملين دون انقطاع، سقط على إثرها قتلى من الطرفين. بعد ذلك، ودائماً في سباقهما نحو الشمال، حط الموحدون في أودور[44]، بينما وضع المرابطون مخيمهم بسفح جبل أمركو. وأثناء وجود الموحدين بالقرب من القصر الكبير أصيب عمر أصناك وهو أحد أفراد الجماعة (أهل العشرة) بالمرض الذي أودى بحياته، وكان ذلك في عز صيف 1142م (نهاية 536هـ وبداية 537هـ)، وقبل أن يسلم الروح، خرج عند الموحدين وخطب فيهم خطاباً مطولاً قدم فيه الوعظ وحثهم على طاعة عبد المومن، قبل أن يعود إلى خيمته ليسلم الروح في مساء نفس اليوم[45].

وقد واصل الموحدون تقدمهم نحو الشمال حيث وصلوا إلى غاية بني سعيد الواقعة بمنطقة وادي لو، وكانت القبائل التي يمرون بها تعلن خضوعها لهم الواحدة تلو الأخرى. من جهته لم

40- Notes d'histoire almohade. Un noveau fragment de chronique anonyme. Hesperies. Tome X. Fascule I. 1930. P.3. Publié et Traduit par Levi Provençal.

41- سبق لهم هزمه سنة 527 هـ في تازغورت، وسنة 535 هـ عندما حاول تقديم النجدة لقلعة المهدي بن توالة.

42- تقع بين قبيلتي لجاية وبني زروال.

43- تعرف كذلك باسم فاس البالي، وتقع على ضفاف ورغة، وبها توجد قلعة أمركو التي يتم، انطلاقاً منها، حراسة المدينة. انظر: Levi Provençal. Las ruinas almoravides del pais de Warga. En el boletin archéologique. Ano: 1918. pp. 194-200.

44- هو أحد روافد الضفة اليمنى من ورغة ويخترق مجراه الأسفل قبيلة بني زروال.

45- أخبار المهدي، م. س.، ص. 53.

يتوقف الربرتير عن اقتفاء أثرهم، ومن أجل ذلك وصل حتى تطوان. في تلك الأثناء عبر عبد المومن قبيلة بني منصور، ولما وصل إلى الساحل تراءت له الفصيلة المرابطية التي كان يقودها بن ميمون، ومع ذلك واصل سيره عبر الخط الساحلي إلى أن وصل إلى بادس. في هذه الأثناء كان تاشفين والربرتير قد عادا إلى فاس، لكنهما تركاها مع قواتهما مباشرة وخرجا لتعقب العدو من جديد، وبعد أن مرا بقبيلة بني سلامة، لحقا به في منطقة اكزناية التي وقعت فيها مواجهة بين الطرفين، اتجه على إثرها عبد المومن إلى الحسيمة. ومن الراجح أن ذلك تم في خريف أو شتاء 1142م (537هـ)، على اعتبار أن البيدق يقول إن سوء أحوال الطقس فاجأه مما أجبره على البقاء بـ"قلعة متاع بادس" (الحسيمة). لمدة ثمانية أيام كادت معها دوابه تغرق من كثرة الأوحال[46]. ومن بادس اتجه عبد المومن إلى تلمسان التي قضى بها مدة غير طويلة التحق به أثناءها أخوه إبراهيم[47]. ويكشف لنا هذا الالتحاق مظهرا من مظاهر التعصب الذي دافع به الموحدون عن المستحقات التي منحها لهم إصلاحهم الديني، فرغبة من عبد المومن في تشريف أخيه وإكرامه، أمر بأن ينزل بالمكان المخصص لمحمد بن أبي بكر بن يكيگ وهو ابن أحد أفراد الجماعة، وقد غضب محمد من هذا التصرف وقام بقتل إبراهيم، ولما وصل الخبر إلى عبد المومن أمر بإعدام المعتدي، إلا أن أبا حفص عمر ينتي ويوكوت بن وكاگ فاجآه بمعارضتهما للأمر، مذكرين إياه بقرار المهدي الذي يعتبر كل من على الأرض عبيداً لأفراد الجماعة والمنحدرين منهم. وهذا ما جعل عبد المومن، وكان نفسه من المتعصبين لأقوال المهدي، يعدل عن قرار الإعدام ويكتفي بتقسيم المخيم إلى عدة أقسام خصص كل واحد منها لقبيلة بعينها.

وأثناء وجود القوات الموحدية بتلمسان، اتجه عبد الرحمن بن زاكو وهو من أهل الخمسين، على رأس قوات موحدية إلى مليلة التي قام بمحاصرتها ثم بتخريبها والاستيلاء على ما بها من غنائم، والانسحاب في اتجاه سوق الخميس أمتيلي الذي التقى فيه ببقية القوات حيث تم توزيع الغنائم، قبل أن يواصل الجميع السير عبر الطريق الساحلي. وعند الوصول إلى "مهدية متاع ابن مليح" أعدت "أسماس" وليمة لكل أفراد الجيش ومن هناك تم الانتقال إلى قبيلة بني يزناسن التي فر سكانها لتفادي الخضوع للسلطة الموحدية. بعد ذلك انتقلت القوات الموحدية إلى قبيلة ندرومة ثم

46- نفسه، ص. 54.

47- لا نجد اسم ابراهيم هذا ضمن إخوة عبد المومن الذين تحدثت عنه المصادر العربية، ومع ذلك فالحفاوة التي استقبله بها تجعلنا نظن أن الأمر يتعلق فعلاً بقرابة دم وليس فقط بقرابة قبلية.

إلى قبيلة كومية التي ينتمي إليها عبد المومن، وبالضبط إلى مسقط رأسه مدشر تاجرا الذي قام فيه باستعراض قواته، وكان هذا الاستعراض إضافة إلى رابطة الدم وراء حصوله على الدعم اللامشروط لأبناء قبيلته[48].

وفي تاجرا قسم عبد المومن الجيش إلى ثلاثة فيالق وضع على رأس الأول عبد الرحمن بن زاكو الذي قام بهجوم مباغت على وهران عاد على إثره محملاً بالغنائم، ووضع على رأس الثاني اسماعيل يكيگ الذي شن غارة على قبيلة بني وانون، بينما وضع على رأس الثالث يوسف بن وانودين الذي هاجم قبيلة مديونة بمنطقة تلمسان. وكانت القوات المرابطية التي خرجت لمواجهة هذا الفيلق الأخير تتألف من حامية المدينة ومن جيوش زناتة، وقد تولى قيادتها كل من عامل تلمسان محمد بن يحيى بن فانو والقائد أبي بكر بن جوهر اللمتوني اللذين قتلا في المواجهة التي وقعت بالمكان المعروف باسم وادي الزيتون، وهو ما أجبر تاشفين على تعيين عامل جديد على تلمسان هو أبو بكر المزدلي.

وبوصول عبد المومن إلى هذه المنطقة التي ينتمي إليها، بدأ ميزان القوى في صراعه ضد المرابطين يميل لصالحه، خصوصاً بعد أن خضعت له قبيلة بني ومانو ذات الثقل الكبير بالمنطقة، وكان شيخ هذه القبيلة وشيوخ قبائل مجاورة قد ذهبوا عنده أثناء وجوده في تاجرا وقاموا بمبايعته كما عبروا عن دعمهم له، وهو ما جعله يرسل معهم قوات وضع على رأسها كلاً من ابن زاكو وابن جمور. وبفضل هذه القوات نجح الشيوخ في إقناع كل أبناء قبائلهم بالانضمام إلى صفوف الموحدين باستثناء قبيلة بني يلومي، التي رفضت الانضمام إلى الموحدين بعد أن انضمت إليهم قبيلة بني ومانوا وكانت تناصبها عداء تاريخياً. وهنا تجدر الاشارة إلى أن انضمام بني ومانو إلى صفوف الموحدين ربما يكون قد ساهم فيه انتماء الشيخ أبي وارزيگ الزناتي إليها، وكان من أهل الدار (خاصة المهدي)[49].

في تلك الأثناء أرسل عبد المومن أحد قواده وهو زيزي بن ماخوخ إلى قبيلة غياتة لإقناع أهلها بالانضمام إلى صفوف الموحدين، لكن إحدى أفخاذها وتدعى بني مكود نجحت في الغدر بهذا الأخير وقتله ثم إرسال رأسه ويديه إلى فاس حيث علقت بباب السلسلة. وبجانب هذه المؤامرة، سبق لأهالي المنطقة، أثناء تولي محمد بن فانوا الحكم في تلمسان باسم المرابطين، أن دبروا مؤامرة أخرى ضد

48- يتحدث مؤلف "المعجب" عن رحلة أخرى قام بها إلى مسقط رأسه عندما أصبح خليفة، كانت الغاية منها زيارة قبر والدته وتوزيع الهدايا على اقاربه، وقد تم ذلك عقب عودته من حملة بجاية. م. س.، ص. 301.

49- Docs inéd. P. 29.

الموحدين عندما قام بعضهم بتسليم المدعو أبي طاشور إلى عامل المدينة. وكان رد فعل عبد المومن على ذلك هو الحكم بالاعدام على عشرة منهم، نفذ في تسعة بينما صدر عفو في حق العاشر.

بالنسبة لتاشفين والريرتير فإنهما انسحبا إلى فاس لقضاء شتاء 1142م-1143م بعد مواجهتما للقوات الموحدية في كزناية، وبانسحابهما تركا عبد المومن يتحرك دون قيود. وقد بقيا بفاس إلى غاية فصل الصيف حيث انتقلا إلى تلمسان. وإلى هذا التاريخ، لم يكن عبد المومن يتوفر على القوات الكافية التي تسمح له بمواجهة المرابطين في تلمسان، لذلك توجه إلى مدشر تيفسرت الواقع بقبيلة مديونة غرب المدينة، ومن هناك أرسل كلا من أبي حفص عمر ويصلاسن ضد قرية العيون الكائنة بمنطقة صاء، وقد نجحا مع قواتهما في الإغارة على أربعة قبائل قبل أن يعودا إلى المعسكر العام محملين بالغنائم.

الحرب في المغرب الأوسط

استغل عبد المومن على أحسن وجه الفرصة التي اتيحت له لتوسيع نفوذه بالمغرب الأوسط والمتمثلة في نزاع داخلي عرفه المرابطون؛ فقد توفي علي بن يوسف في رجب 537هـ (يناير 1143م)، وخلال المدة التي احتفظ فيها بوفاته سراً وهي ثلاثة أشهر، حدث نزاع بين قبيلتي لمتونة ومسوفة سببه عدم الاتفاق على الشخص الذي يجب أن يخلفه[50]، وأصل الخلاف قديم، فقبيلة مسوفة لم تكن موافقة على بيعة علي بعد وفاة يوسف بن تاشفين وكانت تفضل حفيداً لهذا الأخير من ابن آخر غير علي. وبعد وفاة علي وخلافته من طرف تاشفين وليس من طرف مرشح مسوفة إسحاق، اندلعت حرب أهلية، انضم على إثرها شيخان مرابطيان بارزان إلى صفوف الموحدين هما براز بن محمد و يحيى بن تاكفت، وقد شن يحيى هذا وكان مسوفياً، غارة على تلمسان خرج ضده فيها محمد بن زاكو اللمتوني الذي تمكن من قتله وابنيه وأرسل برؤوسهم إلى تاشفين، ورغبة من هذا الأخير في الانتقام من مسوفة، بعث بهذه الرؤوس إلى سجلماسة التي كانت تحت سيطرة مسوفة، وكانت تقيم بها أخت يحيى[51].

ويشير ابن خلدون إلى أنه على إثر وفاة علي وتمرد مسوفة في نهاية 537هـ وبداية 538هـ، حاصر عبد المومن سبتة لكنه لم ينجح في اقتحامها بسبب الحصار المستميت الذي قاده القاضي

50- الإحاطة في أخبار غرناطة، م. س.، ص.446-447.

51- Op. Cit. Notes d'histoire almohades. P. 22-23.

عياض. هذه المقاومة سوف تجر على القاضي عياض فيما بعد غضب السلطة الموحدية التي قررت نفيه إلى تادلة حيث بقي إلى غاية وفاته، وحسب نفس المصدر فإنه لم يتوقف في منفاه عن مزاولة مهنة القضاء[52].

وقد أمر عبد المومن الذي كان لايزال بتيفسرت حلفاءه الجدد بني ومانوا المدعمين بقوات موحدية، بمهاجمة أعدائهم التقليديين بني يلومي الذين أصبحوا يدينون بالولاء للمرابطين عقب انضمام بني ومانوا للموحدين. وتمكنت القوات التي كلفها عبد المومن بشن الهجوم، من تحقيق الانتصار والظفر بالغنائم، لكن بعد ذلك مباشرة أي في مطلع 538هـ (صيف 1143م)، أرسل تاشفين الموجود بتلمسان الربرتير على رأس قوات مرابطية ومسيحية لمعاقبة بني ومانو، غير أن هؤلاء تمكنوا من الفرار والتوغل في الجبال مع قوات موحدية وزناتية. ورغم تعقب المرابطين لهم فإنهم لم ينالوا منهم، بل أكثر من ذلك، دارت الدائرة على المرابطين في النهاية.

وقد حاول ثلاثة من شيوخ الموحدين وهم ابن وانودين وابن زاكو وابن جمور الاستفادة من هذا الانتصار الصغير وغزو قبيلة بني يلومي من جديد إضافة إلى قبيلة بني عبد الواد التي تدين هي الأخرى بالولاء للمرابطين، وقتلوا في هجومهم عليهما عدداً كبيراً من أبناء القبيلتين، كما ظفروا غنائم مهمة بعثوا بها إلى عبد المومن، غير أن المنهزمين قاموا بهجوم مضاد استعادوا من خلاله الغنائم التي كانت في طريقها إلى معسكر هذا الأخير، كما قتلوا حوالي 600 شخص من الذين كانوا يحملونها، معظمهم من قبيلة بني ومانو، وكان من بين القتلى زعيم القبيلة زيري بن ماخوخ.

إثر ذلك عاد ابن وانودين ومعه القوات الموحدية للتحصن في الجبال بينما رحل المرابطون إلى مدشر منداس التابع لقبيلة بني يلومي، حيث انضمت إليهم قوات هذه القبيلة وغيرها من

52- العبر، الجزء السادس، م.س.، ص. 474، نسجل في رواية ابن خلدون هاته عدة هفوات، أولها أنه عندما وقع الخلاف بين مسوفة ولمتونة ودارت الحرب بينهما، كان عبد المومن يوجد بالشرق وبالضبط بمناطق ندرومة وكومية وتلمسان. وثانيها أن عبد المومن لما ترك القصر الكبير توجه نحو الساحل تاركاً سبتة على اليسار، ولم يكن خلال هذه المرحلة يفكر في مهاجمة اية مدينة لها أسوار فكيف بمدينة شديدة التحصين مثل سبتة، خصوصاً وانه لم يكن يتوفر على القوات المتخصصة في محاصرة المدن، زد على هذا أن تاشفين والربرتير اللذين كانا يتعقبانه لم يكونا ليمنحاه الفرصة للقيام بذلك. وثالثها أن سبتة وقاضيها عياض عبرا عن دعمهما لعبد المومن منذ سقوط فاس وقبل احتلال سلا، أي في نهاية 540 هـ (ماي 1146م)، وقد عين إثرها عبد المومن، يوسف بن مخلوف وهو أحد أعضاء هيئة الخمسين عاملاً على المدينة، هذا الأخير لم يقم سكان سبتة بقتله إلا عام 542هـ، أي نفس سنة تمرد المساطي بها وعودة الصحراوي إليها. وعندما أخمد عبد المومن التمرد نقل القاضي عياض، وكان عمره 75 سنة، إلى مراكش حيث توفي عام 544 هـ وليس إلى تادلة كما يقول ابن خلدون.

القبائل الزناتية. في هذه الأثناء، كان عبد المومن يعد العدة لنقل مخيمه إلى منطقة مجاورة لتلمسان تدعى الصخرتين، تلقى زيارة وفد من بني ومانو جاء يطلب النجدة، وقد رحل معهم إلى منطقة سيرات التي حشد بها قواته، وانطلق في غزو جديد لقبيلة بني يلومي. وكرد فعل على ذلك أرسل تاشفين كل قواته ضد الموحدين، حيث وقعت المواجهة في مدشر منداس على الضفة اليمنى لنهر مينا، وقد قاتل الموحدون والذين كانوا في حالة دفاع، بنجاح وتمكنوا من تحقيق أول انتصار مهم على المرابطين.

ويصف صاحب الحلل الموشية الطريقة التي حقق بها الموحدون هذا الانتصار؛ فقد كانوا محاصرين من طرف العدو، كما أن جيشهم كان أقل عدداً من جيشه، وبما أنهم أصبحوا في وضعية تحتم عليهم القتال في السهل، فقد اضطروا لتوزيع قواتهم على شكل مربع وضعوا في كل واحد من أطرافه الأربعة حزاماً بشرياً من المشاة المسلحين بالرماح الطويلة والأتراس، ثم وضعوا خلفه حزاماً آخر من المشاة، يحمل السهام والدروع، فحزاماً ثالثاً يحمل المقالع ورابعاً (دائماً من المشاة) يحمل النبال، أما في الوسط فوضعوا فرقة الفرسان.

وعندما شنت فرقة فرسان المرابطين الهجوم، اصطدمت بأصحاب الرماح الطويلة والسهام مما أجبرها على التراجع، وهو ما استغلته فرقة فرسان الموحدين التي خرجت أكثر من مرة من الأجنحة لتصيب بفعالية كبيرة قوات العدو، وعندما كان هذا الأخير يحاول العودة من جديد للهجوم كانت نفس الفرقة تنسحب محتميةً بالأحزمة التي شكلها مشاة الموحدين المسلحين بالرماح الطويلة والسهام[53].

ولما لاحظ تاشفين انضمام عدد من شيوخ مسوفة وزناتة مع قواتهم إلى صفوف عبد المومن، وهو ما يجعل إمكانية تحقيق انتصار حاسم على الموحدين أمراً بعيد المنال، بعث برسائل إلى مختلف أنحاء أمبراطوريته يطلب فيها من القبائل الموالية بعث إمدادات عسكرية على غرار ما فعلت أثناء معركة البحيرة، وقد توصل بالامدادات من سجلماسة وكذا من بجاية التي وصل منها فيلق كان على رأسه ظاهر بن قباب قائد صنهاجة بني حماد، كما وصلت في نهاية نفس السنة قوات من الأندلس قوامها أربعة آلاف فارس كان يقودها ولي العهد إبراهيم. وبعد أن جمع تاشفين كل هذه الجيوش بمراكش، قام باستعراضها في المكان الذي يفصل باب القرمادين عن مقدمة سفوح الجبال، والواقع أن هذا الاستعراض كان يثير الإعجاب بسبب عدد الجنود وعدتهم[54].

53- الحلل الموشية، م. س.، ص. 132.

54- اخبار المهدي، م. س.، ص. 58.

لكن في اللحظة التي كانت تصل فيها الإمدادات أو بالأحرى قبيل ذلك، فقد تاشفين رَجُله الوفي وقائده المحنك الربرتير وكان يعتبر الدعامة الأساسية للسلطة المرابطية المتراجعة. وحسب البيدق فإن عبد المومن أرسل ضد الربرتير جيشاً من جزولة تمركز بمنحدر قبالة المكان الذي وضع فيه الربرتير مخيمه، بينما تبعه هو (عبد المومن) بجيش آخر تمركز في منطقة أعلى. في تلك الأثناء قام جيش جزولة بمهاجمة الربرتير الذي أجبر على الانسحاب. وقد كتب هذا الأخير عقب ذلك غاضباً إلى عبد المومن ينصحه بقتل الجزوليين، لأنهم حسبه، وبنفس الطريقة التي خانوا بها المرابطين سوف يخونونه هو[55]. ويظهر أن عبد المومن عمل بالنصيحة حيث قام أولاً بتجريدهم من أسلحتهم، ثم أمر عبيد المخزن، وعلى ضربات الطبول بإعدامهم جميعاً وتوزيع أملاكهم على رجاله.

ولما علم الربرتير بالأمر طلب من تاشفين أن يستعرض قواته ويلحق به من أجل قطع الطريق على الموحدين والاستيلاء على ما أخذوه من جزولة، لكن تاشفين وبعد استعراضه لقواته لم يفعل ذلك، وهذا ما جعل الربرتير يدخل المواجهة بقواته فقط، مما جعله ينهزم أمام الموحدين الذين قتلوه ومعظم رجاله في المعركة[56].

هذه هي الرواية التي يقدمها البيدق عن مقتل الربرتير والذي يجعله عام 539هـ (يوافق اليوم الأول منه 4 يوليوز 1144م واليوم الأخير 23 يونيو 1145م)، أي سنة كاملة عن تاريخ مقتله الحقيقي. ويقدم لنا ابن خلدون من جهته رواية مختلفة عن نفس الحادث، حيث يقول إن تاشفين وقبل وصول امدادات بجاية، أرسل الربرتير في حملة ضد بني سنون وزناتة السهل الذين أصبحوا خاضعين للموحدين، وأنه بعد الاغارة عليهم وأخذه الغنائم منهم وأثناء انسحابه، اعترض طريقه الموحدون الذين قاموا بقتله وصلبه.

محاصرة تلمسان ووهران ومقتل تاشفين

بعد تخلص عبد المومن من ألد خصومه وأخطرهم، وبعد انتهاء تلك المواجهات العسكرية طويلة الأمد والغامضة، والتي تتباين المصادر حول تاريخ وظروف وقوعها، توجه إلى منطقة

55- تنتمي قبائل جزولة إلى نفس اصل المرابطين، وتُذَكِر رسالة الربرتير عبدالمومن كيف أنهم حاربوا عام 533 هـ بجانب المرابطين ضد الموحدين، وكيف تخلوا عنهم اثناء المواجهة مما جعل الموحدين يحققون الانتصار، ثم كيف انهم حاولوا الاستفادة من كل ذلك عندما هاجموا الموحدين للاستيلاء على الغنائم التي ظفروا بها، لذا ينصحه بإبادتهم، لأنهم لا محالة سوف يقومون بخيانته.

56- تتحدث La cronica del emperador عن الحزن الذي سببه موت الربرتير للمرابطين وكذا للأسرى المسيحيين في المغرب. انظر: الجزء الأول، ص. 401 "Mis cronicas latinas de la Reconquista".

الصخرتين التي وضع مخيمه بها، وذلك بهدف محاصرة تلمسان. من جهته واستعداداً للمواجهة، وضع تاشفين مخيمه في حصن سَطَفْسِيف. وقد وقعت ولمدة شهرين كاملين مناوشات يومية بين الطرفين، بعد ذلك وصل إلى معسكر تاشفين الجيش القادم من بجاية، وبما أن قائده لاحظ أن تاشفين متردد كعادته ولا يريد المغامرة والقيام بعملية حاسمة، نبه إلى ذلك وذكره بعجزه، وأضاف أن صبره نفد وأن غايته هو تخليصه من العدو والعودة في أقرب وقت ممكن إلى حال سبيله. ويظهر أن هذا الكلام أغضب تاشفين الذي طلب من قائد بجاية أن يهاجم بمفرده إذا كان مستعجلاً. وبالفعل قام هذا الأخير وبشكل عشوائي بمهاجمة مواقع الموحدين وكانت شديدة التحصين، لذا لم يستطع معها شيئاً، وهو ما أجبره على التراجع منهزماً حيث تعقبته القوات الموحدية إلى غاية حصن سَطَفْسِيف الذي احتمى به. في هذه الأثناء كان تاشفين، وبشكل لا يقل عشوائية، يرسل قواته، فصيلة تلو الأخرى ضد بني ومانو، وبعد أن نجح هؤلاء في طرد آخرها، مر بهم جيش بجاية المنهزم أثناء انسحابه، فاعترضوا طريقه وظفروا منه بغنائم مهمة(57).

وبعد أن أدرك تاشفين وكبار شيوخ المرابطين أن الاحتفاظ بمخيمهم في سطفسيف المجاورة لتلمسان لن يسمح لهم بتحقيق أي تقدم على الموحدين، قرروا ترك المنطقة في اتجاه وهران ليواصلوا من هناك مقاومتهم للهجومات الموحدية(58)، وقد نزلوا بحصن وهران الذي كان تاشفين قد أمر ببنائه.

من جهته قام أبو حفص عمر ينتي بالاغارة على قبيلتي بني توجين وبني ورسيفن وبعد نهبهما تعقب الفارين بواسطة وحدات عسكرية موحدية وزناتية، إثر ذلك اجتمع بعبد المومن قرب وهران، وكان قد خرج ضد بني يلومي الذين نجح في هزمهم(59).

في تلك الأثناء أصبح يسيطر على المعسكر المرابطي جو من التشاؤم ينبئ بكارثة وشيكة الحدوث، الشيء الذي ساهم في تزايد عدد الذين تخلوا عنهم، وقد شمل ذلك حتى أقرب المقربين، وهكذا فمن بين الشيوخ الثلاثة الذين كانوا يرافقون تاشفين فر أولاً عبد الله بن ونكي

57- الحلل الموشية، م. س.، ص. 133 . العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 476. وقد أرسل عامل بجاية حمادي ميمون أثناء ذلك برسالة إلى عبدالمومن يخبره بأخذه بعقيدة الموحدين ويعده بتسليمه بجاية عند مجيئه لمهاجمتها، وهو ما تم بالفعل.

58- في نهاية شعبان وقبل أخذ طريق وهران أرسل تاشفين ابنه وولي عهده إلى مراكش رفقة كاتبه الخاص احمد بن عطية ومجموعة من شيوخ لمتونة. العبر، الجزء السادس، م س.، ص. 476.

59- دامت إقامة تاشفين بوهران شهراً كاملاً دون أن يقوم بأية عملية عسكرية ضد الموحدين، ذلك لأنه فضل انتظار وصول أمير البحر محمد بن ميمون الذي جاء من المرية على رأس اسطول من عشرة سفن رسا بها بجوار المعسكر الموحدي. العبر، الجزء السادس، م س.، ص. 477.

حيث ترك مخيمه الذي وضعه بمكان يعرف باسم صُلب الكلب، وقصد المغرب الاقصى، وبعده بيوم واحد فر الشيخ أنكمار الذي قصد الصحراء، ولم يمكث مع تاشفين إلا الشيخ تيتلاً الذي فضل الإقامة داخل وهران وليس بالمخيم حيث يوجد الأمير المرابطي.

وكان أبو حفص عمر قد وضع مخيمه قرب العين التي تمد وهران بالماء، وبعد أن نزل إليها معظم جنود الموحدين المتمركزين بالجبل المطل على المدينة وسقوا خيولهم، صاحوا صوتاً واحداً: "أصبح ولله الحمد" وانطلقوا ضد المرابطين، بحيث لم يتوقفوا إلا عند خيمة تاشفين الموجودة قبالة الحصن الذي سبق وأن أمر ببنائه. وأمام هول المفاجأة التجأ تاشفين مع بعض مرافقيه إلى الحصن، أما بقية الجنود فأمام عجزهم القيام بأي رد فعل، وأمام الموت المحقق الذي أصبح ينتظرهم، لم يجدوا من خيار غير الاحتماء بأسوار المدينة[60].

إثر ذلك قام الموحدون بهدم الأكواخ التي توجد بالمخيم وجمعوا حطامها إضافة إلى ما بالمخيم من خشب ومواد أخرى قابلة للاشتعال ووضعوا كل ذلك بباب الحصن ثم أضرموا فيها النيران، وهو ما أجبر تاشفين على الالتجاء إلى الطابق العلوي من الحصن. ومع حلول الليل وكان لهيب النار يزداد اشتعالاً، اقتنع أن النار ستطاله وأنه لا محالة ميت محترقاً إذا ما مكث بالحصن، لذا قرر مغادرته صحبة عامل تلمسان ابن المزدلي والعلج البشير وخادمه الفتى صندل. وقد تمكن ابن المزدلي من التسلل بين الجثث ودخول وهران، لكنه وبسبب تأثير ما أصيب به من صدمة وهلع، توفي بعد ثلاثة أيام من وصوله المدينة والتي استسلمت للموحدين. ولم يكن حظ صندل أحسن، إذ سقط في النار وقضى نحبه، أما تاشفين والبشير فقد اتجها إلى الطاحونة الموجودة بجوار النهر ولما لم يسمح لهما بالمكوث بها، خرجا نحو البحيرة المالحة ومنها في اتجاه البحر، وكانا ينويان الفرار على متن إحدى السفن[61]، غير أنهما وقبل الوصول إليه سقط فرس تاشفين ويدعى ريحانة، في أحد الخنادق بشكل عنيف بترت معه رأسه عن بقية الجسد، وقد مات تاشفين لتوه في الحادث وكان ذلك في ليلة القدر سنة 539هـ (22 فبراير 1145م)[62].

60- Op. Cit., Notes d'histoire almohade, P. 10.

61- يقول ابن الخطيب: «*كتب الله عليه، فالتاث سعده، وفلَّ جده، ولم تقم له قائمة إلى أن هزم، وتبدد عسكره، ولجأ إلى وهران، فأحاط به الجيش، وأخذه الحصار، قالوا فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل، وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله، ليرفعه إلى الأندلس، فخرج ليلا في نفر من خاصته فرقهم الليل، وأضلهم الروع، وبددتهم الأوعار، فمنهم من قتل، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية*»، الإحاطة، م س.، ص.454.

62- تختلف المصادر العربية عند الحديث عن حكاية مقتل تاشفين وملابساتها لكنها تتفق بشكل عام حول تاريخ وقوعها، مع بعض الاستثناءات تهم كلاً من عبد الواحد المراكشي الذي يورد خطأً سنة 540هـ وابن خلدون الذي يقع في تناقض في تحديد التاريخ (كما فعل عند حديثه عن وفاة المهدي) حيث يجعله أحياناً 539هـ وأحياناً أخرى 541هـ.

وفي صبيحة اليوم الموالي وجده الموحدون فوق صهوة فرسه وهو جثة هامدة، حيث قطعوا رأسه وسلموها لعبد المومن الذي قام بتحنيطها ثم بعث بها إلى تنمل ليتم تعليقها على شجرة صفصاف، حتى تكون شاهد إثبات على النصر الذي حققه ضد المرابطين. وفيما يتعلق بمصير خاصة تاشفين وهم حوالي ثلاثمائة نفر من خدم وحشم وجند غير نظامي وروم، فقد حاولوا الدفاع عن أنفسهم انطلاقاً من برج الحصن لكن دون جدوى إذ قتلوا جميعاً باستثناء سبعة، أما بقية الجيش المرابطي وكان على رأسه الشيخ تيتلاً فإنه اضطر للاستسلام بعد أربعة أيام من مقتل تاشفين، أي في فاتح شوال 539هـ (26 فبراير 1145م) وذلك بسبب انهيار معنويات الجنود وليس بسبب العطش كما تشير بعض المصادر، وقد قام الموحدون بإعدام تيتلاً وكل من بقي معه من المرابطين باستثناء واحد تم استبداله بأسيرتين كانتا بيد المرابطين في فاس، هما فندة بنت علي (من الراجح أنها أخت عبد المومن) وابنة لها.

وعندما وصلت إلى تلمسان أخبار ماجرى للمرابطين بوهران، فر منها في اتجاه فاس كل شيوخ لمتونة، وكانوا قد جاؤوها مع القائد الصحراوي لتقديم النجدة لتاشفين، ولم يبق بالمدينة غير سكانها الأصليين وخصوصاً العامة منهم. وكانت تلمسان على ذلك العهد مقسمة إلى قسمين: المدينة القديمة وتدعى أكَادير، ثم المدينة التي شيدها يوسف بن تاشفين وتدعى تاكرارت، وهذه كانت توجد بها المؤسسات الإدارية كما كانت تقيم بها الحاميات العسكرية. وإثر الهزيمة أرسل المرابطون وفداً يضم ستين من الأعيان لطلب الأمان من عبد المومن، لكن أثناء الرحلة وعند وصولهم إلى مكان مجاور لنهر تافنا التقوا بفصيلة موحدية يقودها يصلاسن الزناتي قامت بإبادتهم جميعاً.

ونقرأ في Les notes d'histoire almohade وتحت عنوان: «رواية حصار تلمسان واحتلال جزء المدينة المعروف باسم تاكرارت»، أن حصار تلمسان استمر إلى ما بعد رحيل عبد المومن إلى فاس، وأن الذي تولى مهمة إخضاعها هو القائد الموحدي إبراهيم بن جامع. ومما يؤكد ذلك، أن القائد المذكور وبعد إخضاعها حاول الالتحاق بعبد المومن في فاس لكن بني مرين اعترضوا طريقه بمنطقة أكَرسيف (كَرسيف الحالية) وألقوا القبض عليه وعلى رجاله، ولما علم الخليفة ذلك أمر العامل الموحدي المعين على تلمسان أن يخرج ضدهم على رأس فيلق يضم قوات موحدية مدعمة بقوات أخرى من بني عبد الواد، وقد تمكن الفيلق من هزم المرينيين وقتل أميرهم[63].

63- العبر، الجزء السادس، م.س.، ص. 478-479.

ويميز أبو الفدا عند حديثه عن سقوط تلمسان بيد الموحدين، بين مدينتين يقول إن الموحدين أخضعوا الأولى بسهولة بينما استمر حصارهم للثانية سنة كاملة، وأن عبد المومن تركها أثناء الحصار ليتوجه إلى فاس.

وعن الظروف التي تم فيها احتلال تلمسان، نعلم أن عبد المومن لما اقترب منها خرج للقائه وطلب عفوه الطلبة والأعيان وتلاميذ الكتاتيب القرآنية الذين كانوا يحملون ألواحهم، غير أن الموحدين جردوهم من ثيابهم، وقام "السفاح" يصلاسن بقتل عدد من سكان المدينة على مرأى ومسمع من عبد المومن الذي كان يرافقه إسماعيل الهزرجي وهو أحد أعضاء أهل العشرة. إثر ذلك قام الموحدون بمهاجمة تاكرارت وقتل من كان يدافع عنها. هذا التصرف دفع سكان المدينة القديمة (أكادير) إلى إقفال أبوابها ومقاومة الحصار إلى آخر رمق. وبعد مرور سبعة أشهر على بدايته (ما بين شوال 539هـ وربيع الثاني 540هـ) دون أي مؤشر على قرب سقوط المدينة، قرر عبد المومن التوجه إلى فاس التي التجأ إليها المرابطون الفارون من وهران وتاكرارت حيث أعادوا تنظيم صفوفهم تحت قيادة الصحراوي.

وقد كلف عبد المومن، يوسف بن وانودين عضو أهل الخمسين وأحد الأوائل الذين أخذوا بعقيدة الموحدين، بمواصلة حصار أكَادير، ورغم استعمال هذا الأخير لعدة تقنيات لدخول المدينة مثل الأبراج المتحركة والسياجات، فإن مقاومة الحصار دامت سنة كاملة وكان يقودها فقيه يدعى عثمان، هذا الأخير وبعدما اقتنع أن الموحدين لن يبرحوا مكانهم دون دخولها، أرسل من يتفاوض معهم، بحيث تم الاتفاق على فتح باب المدينة التي ما أن دخلها المحاصِرون حتى حولوها إلى مجزرة جماعية[64].

ويمكن القول إن عبد المومن عندما غادر تلمسان في ربيع الثاني 539هـ (أكتوبر 1144م) كان قد خضع له كل المغرب الأوسط؛ فقد انضمت إليه القبائل والقوات غير النظامية التي جاءت من مختلف الجهات، كما خضعت له وجدة وكرسيف التي قضى فيها على مقاومة متمردين عُزل حاولوا وبسذاجة الوقوف في وجهه. وبهذه المدينة كذلك كان عليه مواجهة نفس الشيخين اللذين كانا هناك عند مرور المهدي بها وهما عمر بن تاكرطاست والحاج التكروري الكناوي، وبخلاف الأخير الذي أعلن خضوعه له، فإن الأول فضل مقاومته إلى أن قتل.

64- يخلط الاشيري بين تاريخ احتلال وهران و تلمسان ، بحيث يجعل سقوط هذه الأخيرة بيد الموحدين في 30 رمضان 539هـ (25 فبراير 1145م)، الذي هو في الحقيقة تاريخ احتلال وهران. انظر: Op. Cit., Notes d'histoire Almohade, P. 12.

احتلال فاس ومكناس وسلا

بعد ذلك ترك عبد المومن كَرسيف عبر الطريق الذي سبق أن مر منه مع ابن تومرت، وقد وضع مخيمه بمنطقة المقرمدة المقابلة لفاس، وهناك انضمت إليه جيوش غمارة التي كان يقودها أبو بكر بن الجبر والذي قام وبأمر من الخليفة بمحاولة تقصي قوات العدو حيث اجتاز نهر سبو ثم السهل المجاور للمدينة، وتحصن بجبل زلاغ المحيط بالمدينة من جهة الشمال. آنذاك خرج الصحراوي من فاس ضد الموحدين على رأس جيش مكون من 1.500 رجل، لكن وبسبب سعي كل طرف للتمركز في مواقع استراتيجية تسمح له بالانقضاض على العدو عندما تسنح الفرصة، لم تقع أية مواجهة بينهما. غير أن هذا الوضع لم يدم كثيراً لأن عبد المومن نقل مخيمه لجبل العرض الذي قام بتحصينه بحيث وضع أولاً وبشكل مؤقت سياجاً أزاحه بعد أن شيد خلفه جداراً، وقد استعمل الأشجار والأخشاب التي استخدمها في السياج لتغيير مجرى النهر نحو أسوار المدينة، وهو ما أدى إلى سقوط باب السلسلة وتسرب المياه نحو الداخل[65]. إلا أن الصحراوي تمكن من تدارك الموقف عندما خرج ورجاله إلى ما خلف الأسوار التي لم يغادرها إلا وهو مُرمم ما أصاب الباب والأسوار من أضرار.

وبما أن حصار فاس –شأن حصار تلمسان– طالت مدته، فقد أرسل عبد المومن أحد الفيالق لمحاصرة مكناس، غير أن ابن ولكوط اللمتوني وعلى رأس جيش قوامه 3.000 رجل من حشم وروم وافراد القبائل المجاورة، خرج من المدينة ضد الفيلق الموحدي الذي تمت إبادته عن آخره. ولما وصل الخبر عبد المومن غضب غضباً شديداً، وبعد أن كلف أبابكر بن الجبر بمواصلة الحصار، غادر هو المخيم مع بقية القوات دون أن يتنبه الفاسيون لذلك[66].

وما أن وصل إلى مكناس حتى أمر باكتساح وتدمير أرباضها وذلك قبل أن يفرض عليها حصاراً خانقاً، إثر ذلك عاد أبوبكر عمر وهو من أهل العشرة، وكان يرافق عبد المومن، إلى فاس لينسق الجهود مع إسماعيل بن يكيگ وكان هو الآخر من أهل العشرة، وكذا مع أبي بكر بن الجبر، من أجل مباغتة المدينة. ويظهر أن الفرصة التي كانوا ينتظرونها للقيام بذلك سرعان ما أتيحت،

65- توجد باب السلسلة على ضفة نهر فاس، بسور المدينة المحاذي لحي القرويين، وكانت تعرف من قبل بباب الفرج، وبحكم موقعها هذا فإنها كانت معرضة باستمرار للفيضانات. وقد اتى عليها، حسب البيدق، فيضان النهر في شتاء 536هـ (1141م - 1142م).

66- Op. Cit., Docs inéd, P. 101.

فالصحراوي وبسبب إثقاله لكاهل جابي المدينة عبد الله بن الجياني بما كان يطلبه منه من اموال، جعل هذا الأخير يتفق سراً مع أبي بكر بن الجبر ليفتح له الأبواب التي كان يحتفظ بمفاتيحها. وهكذا ففي إحدى الليالي كان الصحراوي يحتفل بزفافه من صحراوية مثله، أعد الجياني مأدبة بالمناسبة، كان غرضه منها شغل الصحراوي ورجاله عن الحراسة.

وفي صبيحة اليوم الموالي قام الجياني بفتح إحدى أبواب المدينة، ولم يفطن الصحراوي لذلك إلا عندما رأى الموحدين داخلها، وبواسطة قلة من جنوده لا يتجاوز عددهم رؤوس الأصابع، تمكن من كسر مزاليج باب الفتوح التي فر عبرها رفقة مجموعة من الشيوخ حيث اجتاز وادي سبو، وعند الوصول إلى مدينة بني تاودا، التجأ مرافقوه إلى حصن أمركو، أما هو فلم يجرؤ على ذلك خوفاً من الموحدين، لذا واصل السير إلى غاية طنجة ومنها إلى الأندلس. وقد توجه بعد ذلك أبو بكر بن الجبر إلى حصن أمركو حيث لم يجد أدنى صعوبة في اقتحامه وإلقاء القبض على المعتصمين به ونقلهم إلى فاس وإعدامهم جميعاً باستثناء عمر بن يينتان الذي أودع السجن، وسبب ذلك أن والد عمر بن يينتان هذا، كان قد دافع عن المهدي أمام علي بن يوسف في مراكش، وهو ما جعل ابن تومرت يأمر الموحدين بالامتناع عن قتل أبنائه مهما كانت الأسباب[67].

ويقول ابن صاحب الصلاة إن حفل زفاف الصحراوي كان في ليلة 11 ذي القعدة 540هـ (26 أبريل 1146 م)، وإن الموحدين احتلوا المدينة صبيحة اليوم الموالي، أما ابن الأبار فيشير إلى أن احتلال المدينة كان في 14 ذي القعدة. ويؤكد البيدق أن الحصار استمر تسعة أشهر[68]، لكننا نعلم أنه لم يتجاوز سبعة أشهر[69]. ولما علم عبد المومن بسقوط فاس وكان حينها يحاصر مكناس، توجه إليها مباشرة، وقد قضى بها أربعة أيام عين خلالها أبا إسحاق بن جامع عاملاً

67- تقدم Notes d'histoire almohade رواية مختلفة تماماً حيث تقول إن يحيى بن إسحاق آنكمار قصد عبدالمومن في مجموعة من مسوفة وكانوا جميعاً ملثمين لكنهم وعند اقترابهم من فاس أزاحوا اللثام وارتدوا لباس الموحدين، اما عمر ابن يينتان فقد فر حسب نفس المصدر من مراكش حيث تخلى عن الأمير علي بن يوسف وانضم إلى صفوف عبد المومن الذي استقبله بحفاوة، لكنه فر بعد ذلك من جديد إلى فاس. ولما سقطت هذه بيد الموحدين تم أسره مع عدد من الموالين للمرابطين والذين تم اعدامهم جميعاً أما هو فقد كان مصيره احسن إذ تقرر العفو عنه تنفيذاً لتعليمات المهدي الذي اوصى عند وجوده في مراكش، خيراً بسلالة يينتان والمنحدرين منه. ص 15.

68- اخبار المهدي، م. س.، ص. 63-69.

69- يرجع الخطأ فقط إلى النسخ، ذلك لأن الخلط بين رقم سبعة وتسعة عند عملية النسخ باللغة العربية يتكرر باستمرار بحكم التشابه بين الرقمين من حيث الشكل

عليها، كما احتفظ بعبد الله بن الجياني جابياً. إثرها عاد إلى مكناس حيث كلف أبا زكريا بن جمور بمواصلة الحصار. وسوف يترك مكناس بعد ذلك قاصداً سلا[70].

وعند وصوله، عَبَرَ النهر على ظهر سفينة بعد مناوشات خفيفة كانت الغاية منها قطع الطريق عليه. وكان احتلاله للمدينة في 7 ذي الحجة سنة 540هـ (20 مايو 1146م)، وهو نفس التاريخ الذي استولى فيه على القصبة التي سبق أن شيدها هناك تاشفين. وقد نزل عبد المومن ببيت ابن عشرة وهو الشخص الذي استضافه والمهدي عندما مرا بسلا في طريقهما إلى مراكش. وبعد احتفاله بعيد الأضحى (23 مايو) وتعيينه لعبد الواحد الشرقي عاملاً عليها، أخذ في اليوم الموالي طريق مراكش التي قرر محاصرتها.

ويقول ابن خلدون إن عبد المومن عند مغادرته لسلا أرسل الشيخ أبا حفص عمر في حملة ضد برغواطة، لكن المصادر المعاصرة للأحداث، وعلى رأسها البيدق لا تقول شيئاً عن الحملة المذكورة. وإذا لم يكن قد وقع خلط لابن خلدون بين هذه الحملة وحملة أخرى أكثر أهمية قادها عبد المومن ضد برغواطة لاخماد تمرد المساطي، فإن الأمر هنا لن يكون أكثر من فسحة عسكرية، على اعتبار أن عبد المومن غادر سلا في 11 ذي الحجة، وقبل أن يصل في نهاية نفس الشهر إلى مراكش كان أبو حفص عمر قد لحق به[71].

ولا يذكر أي من المصادر التاريخية الطريق التي مر منها عبد المومن في تنقله من سلا إلى مراكش، ورغم أن الافتراض الأكثر احتمالاً هو استعماله لطريق الساحل، فإن البيدق يخبرنا أنه بعد مغادرته لسلا انتقل إلى مكناس حيث توصل هناك من صنهاجة تيسغرت بسنبلة قمح ورسالة جاء فيها: «*بادر زرع دكالة لا يدخل مراكش ولا تأخذها أبدًا*»[72] (ومعناه: أسرع بالمجيء قبل وصول حبوب دكالة وإلا فإنك لن تدخلها أبداً). عند ذلك عين يحيى بن يومور عاملاً على مكناس التي غادرها في اتجاه تادلة. وبعد وصوله إلى هذه الأخيرة ضم إلى جيشه عدداً من أبنائها، كما ضم جنوداً آخرين أرسلتهم قبيلتا هسكورة وصنهاجة. ومن تادلة نزل عبر أم الربيع إلى أن وصل إلى منطقة أزمور التي أقام مخيمه بها. في هذا المخيم زاره وفد من صنهاجة قدم له التموين اللازم،

70- في طريقه من فاس إلى سلا توصل برسالة من أهل سبتة يبايعونه ويعبرون عن خضوعهم لسلطته وأخذهم بعقيدة الموحدين. وتؤكد Notes d'histoire almohade هذه البيعة التي تجعلها في 540هـ.

71- العبر، م.س.، ص. 479.

72- أخبار المهدي، م. س.، ص.63.

كما استدعى هو سكان دكالة الذين عبروا ولأول مرة عن خضوعهم له. بعد ذلك اجتاز وادي تانسيفت، ولما أصبح بجوار مراكش استعرض جيوشه في تاقايط ثم ضرب خيمته الحمراء بتل إيجليز الذي وضع به مخيمه.

حصار مراكش

بدأ حصار مراكش في فاتح محرم 541هـ (13 يونيو 1146م)، وقد خرجت الحامية المرابطية ضد الموحدين خلال أربعة أيام متتالية، وكان على رأسها أهم شيوخ المدينة، وفي اليوم الخامس انكسر المرابطون أمام أعدائهم الذين تعقبوهم إلى غاية باب الشريعة وقتلوا العديد منهم. وقد أثنت هذه الهزيمة شيوخ المرابطين عن مواصلة القتال باستثناء الشيخ إسحاق بن ينتان. في هذه الأثناء نجح الشيخ المرابطي أكنكي، وكان قد انضم إلى صفوف الموحدين منذ فراره من بجاية، نجح في إقناع ينتان أن يحذو حذوه ويغادر مراكش مع كافة رجاله.

وحسب الأشيري[73] فإن الجيش المرابطي الذي تخلف مع الأمير إسحاق بمراكش، اعتقد بعد مرور عدة أيام على بدء الحصار، أنه بإمكانه رد المحاصرين، لذا تمركز من أجل القتال في السهل الموجود قبالة باب دكالة، لكن الموحدين تمكنوا من هزمه. إثر ذلك أمر عبد المومن بقطع رؤوس القتلى، وقد ظفر الموحدون عقب المواجهة بغنائم مهمة قدرت بـ 800 حصان وكميات كبيرة من الأسلحة والأتراس.

ويقول ابن صاحب الصلاة إن حامية مراكش وقوامها 5.500 فارس بالإضافة إلى عدد كبير من المشاة خرجت بكاملها لمواجهة الموحدين، إلا أن عبد المومن استغل غفوة المرابطين ساعة الفجر ووضع كميناً تمكن بواسطته من مباغتتهم، مما أجبرهم على الفرار إلى غاية باب دكالة. وبعد مطاردتهم قتل الكثير منهم كما أخذ منهم ما لا يقل عن ثلاثة آلاف حصان. في تلك اللحظة وصلت إلى مراكش قوات من لمطة للقتال بجانب المرابطين، وقد أمرها الأمير إسحاق بالدخول في المواجهة مباشرة، غير أن مصيرها لم يكن بأحسن ممن سبقها، حيث ألحق بها الموحدون هزيمة نكراء وأخذوا منها أعداداً مهمة من الجمال[74].

ومع مرور الوقت كان حصار مراكش يزداد حدة لدرجة لم يعد بامكان أحد دخولها أو مغادرتها، وكان الجوع قد تمكن من سكانها وكل من التجأ إليها فراراً من بطش الموحدين، وتتحدث بعض

73- Op. Cit., Notes d'histoire almohade, P. 20.

74- نفسه، ص. 18.

المصادر التاريخية (غير معاصرة للأحداث) عن ضحايا المجاعة، وهكذا يجعل النويري عدد الذين ماتوا جوعاً مائة ألف، ويقدم صاحب الحلل الموشية من جهته صورة قاتمة عن الكيفية التي استفحل بها الجوع بحيث يقول إن السكان أكلوا لحم الأموات بعد نفاد المؤونة[75].

ورغم استفحال المجاعة وفرار عدد من الجنود الذين التحقوا بصفوف الموحدين، فإن حصار مراكش دام تسعة أشهر ونصف. ولا يعود استمرار الحصار طيلة هذه المدة لاستماتة المحاصرين أو لشجاعتهم وإنما لتوفر المدينة على أسوار منيعة. ولا نتوفر على أية معلومات حول طريقة الحصار ولا المراحل التي مر بها غير ما أشرنا إليه والذي يهم بالخصوص الأيام الأولى منه.

وحسب صاحب الحلل الموشية، فقد دخل جيش الروم الموجود ضمن حامية مراكش في مفاوضات مع عبد المومن، تعهد من خلالها ومقابل حصوله على الأمان، فتح باب أغمات وتسهيل سيطرة الموحدين على المدينة[76]. غير أن هذه الرواية لا تتماشى وما نجده عند البيذق وابن صاحب الصلاة اللذين يشيران إلى أن عبد المومن وفي الوقت الذي أدرك فيه عجز حامية مراكش المقاومة لمدة أطول، قرر شن هجوم شامل، بحيث أمر بصنع أعداد كبيرة من السلالم التي وزعها على مختلف القبائل المشاركة في الحصار، والتي استعملتها يوم 18 شوال 541هـ (24 مارس 1147م) لدخول المدينة عبر الأسوار، دون أن تجد مقاومة ذات بال من طرف المرابطين، وهكذا دخل أفراد قبيلتي تنملل وهنتاتة عبر الأسوار المجاورة لباب دكالة، ودخل أفراد قبيلة صنهاجة وعبيد المخزن عبر الأسوار المجاورة لباب الدباغين، في حين دخل أفراد قبيلة هسكورة والقبائل الصغيرة عبر باب يينتان .

وقد التجأ الأمير إسحاق وشيوخ المرابطين إلى قصر الحجر الذي بناه يوسف بن تاشفين حيث واصلوا القتال من هناك إلى غاية منتصف النهار، وكانت بطلة المواجهة دون منازع هي فانو ابنة عمر يينتان[77] التي قاتلت بحماس وشجاعة أدهشت الموحدين الذين لم يعرفوا أنها امرأة إلا بعد موتها، ذلك لأنها كانت متنكرة في لباس رجل.

75- يقول مؤلف الحلل الموشية: «*واشتد الجهد بهم، ولكثرة خيلهم ورجلهم نفد طعامهم، وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا، ولما طال عليهم الحصار، واشتدت أحوالهم، هلكوا جوعا حتى أكلوا الجيف، وأكل أهل السجن بعضهم بعضا ...*»، م. س.، ص.137-138.

76- نفسه، ص. 138.

77- أخبار المهدي، م. س.، ص. 64.

بعد ذلك قام الموحدون بالسطو على القصر الملكي حيث أسروا علياً وسير بن بينتان وشخصيات مرابطية أخرى، بينما التجأ عدد آخر من المرابطين الذين رفضوا الاستسلام، إلى غرفة موجودة فوق باب علي بن يوسف حيث طلبوا الأمان مقابل استسلامهم، وهو ما لم يمنح لهم.

وكان أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين قد عين ولياً للعهد من طرف والده، ولما توفي هذا الأخير بويع في مراكش، لكن بسبب صغر سنه وانهيار معنويات المرابطين والخلافات التي نشأت بينهم تم عزله بدعوى عدم قدرته على مواجهة الوضع الصعب الذي كانت تجتازه البلاد، وعين مكانه عمه إسحاق بن علي بن يوسف، لكن هذا الأخير وحسب ما نستشفه من البيدق وNotes d'histoire almohade لم يكن قد تجاوز سن المراهقة كذلك. وعند حديث المصادر العربية عن دخول الموحدين مراكش تشير إلى أنهم نفذوا حكم الإعدام في إسحاق بن علي، بينما لا تذكر أي شيء عن الأمير أبي إسحاق بن إبراهيم الذي لا نعرف ما آل إليه مصيره[78].

وقد أسندت مهمة الجلاد لأبي الحسن بن واكاگ الذي أمر بقتل خدم القصر بعين المكان في حين نَقل أصحاب المنزلة من المرابطين كأسرى إلى إيجليز، حيث أمر أولاً بتنفيذ حكم الإعدام في كبار الشيوخ والذين يسميهم البيدق بالسلاطين، وعندما بقي فقط الأمير إسحاق وخادمه طلحة وأبو بكر بن تيزمت بدأ الأمير الذي لم يكن عمره يتجاوز 16 سنة يستعطف الخليفة قائلاً: «*يا أمير المؤمنين مالي في الرأي شيء*»[79] عند ذلك صاح فيه طلحة بخشونة ولم يكن قد تجاوز كذلك سن المراهقة: « *اصمت عنا هل رأيت ملكا يتضرع لملك مثله*»[80]. وقد أحس عبد المومن من خلال هذا الموقف بنوع من الشفقة نحو المراهقين وقال لابن واكاگ « *اترك هؤلاء الصبيان ما الذي تعمل بهم*»[81]، لكن ابن واكاگ ودون أن تتحرك عواطفه بدأ يصيح: « *ويوا ويوا الموحدين! ارتد علينا عبد المومن، يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة*»[82]، وقد قام الخليفة من مكانه إثر ذلك وانصرف غاضباً يتبعه بقية الموحدين باستثناء عمر ينتي وابن واكاگ الذي قاد الأمير إسحاق إلى المقصلة وقطع رأسه[83]. بعدها جاء دور طلحة الذي توجه قبل إعدامه بالكلام وببرودة

78- يؤكد ابن الأبار في عتاب الكتاب، وعند ترجمته لأبي جعفر بن عطية، أن الذي أعدم هو اسحاق بن علي.

79- أخبار المهدي، م. س.، ص. 65.

80- نفسه، ص. 65.

81- نفسه، ص. 65.

82- نفسه، ص. 65.

83- يحيل صاحب الحلل الموشية على البيدق هنا، لكن روايته تتضمن بعض الاختلاف، لأخذه دون شك عن ابن اليسع الذي يقول إن الذي اعدم هو الأمير أبو اسحاق ابراهيم وليس عمه اسحاق، كما أنه يجعل الشخص الذي انب الأمير على طلبه العفو هو الشيخ سير بن حجاج وليس الخادم طلحة، ويقول ابن اليسع أن ابن حجاج لم يلم فقط أبا اسحاق وإنما صفعه على خده. ويزيد النويري على ذلك أن ابن حجاج شتم عبدالمومن ناعتاً إياه بالكافر الذي لا إيمان له والذي لا يخاف الله.

أعصاب لابن واكاك قائلاً: « *يا عمي أبا الحسن سلاحي ما الذي نفعل به عسى أن أعطيه لك*»[84]؛ عند ذلك فك الحرس قيوده ليسلمها له، وعندما اقترب منه طعنه بواسطة خنجر كان ضمنها طعنة قاتلة منتقماً لسيده، قبل أن يتم إعدامه هو الآخر. وفي الأخير ساق الحرس أبا بكر بن تيزمت ليمثل بين يدي عبد المومن الذي أُخبر أن الأمر يتعلق بخادم ومستشار علي بن يوسف. وعندما سأل ابن تيزمت عن السبب الذي جعل الموحدين يقررون اعدامه، أجابه الخليفة: «*لأنك رميت يدك في المهدي* ﷺ *وحملته إلى السجن، قتلتك السنة*»، عند ذلك أجاب ببرودة أعصاب: «*إذ أموت ولابد أقول لك مسألة، قال الخليفة قل، قال عندي برمتان من مال كلها ذهب يأخذها الموحدون لأني أخاف أن أموت وأحاسب عليها فأعطيني أمناء أريها لهم ويحملونها*»[85]. وقد اختار عبد المومن اثني عشر رجلاً؛ اثنين من كل قبيلة رافقوا ابن تيزمت إلى منزله بمراكش ليطلعهم على مكان البرمتين (القدرين). وعند وصولهم إلى المنزل أغلقه من الداخل ومنحهم مَجَارِف لحفر الأرض، وفي غمرة انشغالهم بذلك تمكن من قتلهم الواحد تلو الآخر بواسطة خنجر كان يخفيه، ولم ينج إلا واحد منهم، تمكن من الفرار عبر نافذة توجد في الطابق العلوي وأسرع إلى إيجليز ليخبر الموحدين بما جرى، مما سمح لهؤلاء بإلقاء القبض على ابن تيزمت وقتله[86].

وعلى امتداد ثلاثة أيام، منع عبد المومن أياً كان من دخول مراكش أو مغادرتها، حيث قام الموحدون على امتدادها بالقتل والسلب والنهب في صفوف المرابطين، بعد ذلك أصدر الخليفة عفواً عاماً وأطلق سراح الأسرى بعد أن أقنعهم من خلال وزيره وعدد من مساعديه بتسليم أسلحتهم ومتاعهم للمخزن، في وقت تم بيع نسائهم كجوار. وبهذه الطريقة انتهت ثروات أمبراطورية المرابطين المنقرضة في بيت المال الموحدي.

لقد نفذ حكم الإعدام في كل شيوخ المرابطين الذين ألقي عليهم القبض في القصر الملكي باستثناء أبناء ينتان، وذلك بسبب وصاية المهدي سالفة الذكر[87]، وبيعت كجوار كل نساء المرابطين، باستثناء زينب ابنة يوسف بن تاشفين، التي احترم بيتها على اعتبار أنها زوجة يحيى ابن إسحاق المسوفي الملقب بـ ونزمار (أمغار)، وكان قد فر من قبيلة مسوفة والتحق بالموحدين بعد ارتداد قبيلته عن الدعوة الموحدية[88].

84- أخبار المهدي، م. س.، ص. 65.

85- نفسه، ص. 65-66.

86- Op. Cit., Docs ined , P. 104-105 .

87- أخبار المهدي، م س.، ص. 66.

88- الحلل الموشية، م س.، ص. 143-144.

ولم يبد عبد المومن وحاشيته وجيشه أية رغبة في دخول المدينة والاستقرار بها، لذا بقوا في إيجليز، وعندما سُئلوا عن السبب أجابوا: « *لأن المهدي كان يقول لهم، لا تدخلوها حتى تطهروها، فسأل الموحدون الفقهاء عن ذلك، فقالوا لهم، تبنون أنتم مسجدا آخر، فكان ذلك*»، هذا الرد كان كافياً ليجعل الفقهاء يلتزمون بتطهير المدينة من الدنس وبهدم المساجد وإقامة مساجد أخرى تكون مَحَاربها موجهة بدقة أكبر نحو القِبلة. ومن بين المساجد التي سرى عليها ذلك، مسجد علي بن يوسف الذي هدم محرابه ثم أعيد ترميمه بعد توجيهه بشكل أكثر دقة نحو القبلة.

آنذاك فقط دخل عبد المومن مراكش، حيث سيقضي ما تبقى من عام 541هـ (يوافق اليوم الأخير من ذلك العام، فاتح يونيو 1147م) في إعادة تنظيم المرافق العامة و إحصاء وتوزيع الغنائم وبيع الجواري وترميم المساجد[89]، بالإضافة إلى استقبال الوفود القادمة من الأندلس، ذلك لأن صدى الانتصار على المرابطين والذي وصل إلى الضفة الاخرى للمضيق، دفع بملوك الطوائف الذين ظهروا في الأندلس من جديد، إلى أن يحذو حذو كل من ابن قصي الذي بعث بسفارة لعبد المومن أثناء حصاره لتلمسان عام 540هـ، وأمير البحر علي بن عيسى بن ميمون الذي زار شخصياً عبد المومن في نفس سنة 540هـ حيث بايعه بجوار أسوار فاس (هو أول من دعا للموحدين في خطبة الجمعة بالمسجد الأعظم بقادس)، وعامل قرطبة ابن حمدون وكذا عامل شيريس أبي الغمر بن عزون واللذين أرسلا مبعوثيهما إلى عبد المومن أثناء حصاره لمراكش.

وكان ابن قصي هو أول من أعلن تمرده على سلطة المرابطين في الأندلس، لكن وبسبب ادعائه المهدوية لم يعره عبد المومن أي اهتمام، وبعد مقتل تاشفين ومحاصرة عبد المومن لتلمسان، أدرك ابن قصي هذا أن الكلمة الأخيرة ستكون لا محالة للموحدين، لذا قرر المجيء شخصياً إلى المغرب ليعترف بهم وبدعوتهم وليطلب منهم إرسال جيش إلى الأندلس من أجل القضاء على المرابطين وعلى كل من له هناك تطلعات انفصالية. وبعد عبوره المضيق نزل بسبتة حيث أكرم مثواه عاملها الموحدي الذي منحه فرقة حرس رافقته إلى غاية مراكش.

وبما أن الموحدين كانوا قد نجحوا في القضاء على كل مقاومة منظمة ببلاد المغرب، وبما أن التمرد الذي سيقوده المساطي لم يكن بدأ بعد، فإن عبد المومن قبل بما اقترحه عليه ابن قصي

89- حول قضية هدم المساجد وترميمها، انظر:

Terrasse et Basset. "Sanctuaires et forteresses almohades, P. 101 et J- Meunie" recherche archeologique à Marrakus" p. 33.

بشأن محاربة المرابطين وكذا ممالك الطوائف التي ظهرت على أنقاضهم في بعض جهات الأندلس، وعين على رأس الجيش الذي عبر المضيق رفقة ابن قصي شخصاً ينتمي لمسوفة يدعى براز بن محمد المسوفي، خرج على المرابطين وانضم إلى الموحدين مع من انضم إليهم من أبناء قبيلته، بسبب العداء الذي كان بينها وبين قبيلة لمتونة.

وكان وصول هذا الجيش إلى الأندلس في نهاية 541هـ وبداية 542هـ (صيف 1147م) وبعد إخضاعه لطريفة والجزيرة الخضراء توجه نحو منطقة غرب الأندلس (ناحية لشبونة ويابرة) حيث خضع له كل من أبي الغمر بن عزون أمير شيريس ويوسف البطروجي أمير لبلة. إثر ذلك قام براز بغزو ميرتلة وشلب اللتين عين عليهما ابن قصي، ثم توجه إلى باجة فبطليوس التي خضع له أميرها سدراي بن وزير، وذلك قبل أن يعود إلى ميرتلة ليقضي هناك فصل الشتاء.

وفي 13 شعبان 542هـ (مطلع سنة 1148 م) تمكن براز المدعم بجيوش المدن والحصون التي خضعت له بغرب الأندلس من احتلال إشبيلية، وكانت كل من طلياطة وحصن القصر قد خضعتا له قبل ذلك[90].

ومباشرة بعد احتلال مدينتهم، أرسل أهل إشبيلية سفارة إلى مراكش لتقديم البيعة لعبد المومن، وكان على رأسها القاضي أبو بكر ابن عربي الذي قتل ابنه أثناء هجوم الموحدين على المدينة. في تلك الأثناء كان تمرد المساطي قد بلغ أوجه، وبلاد المغرب برمتها في حالة اضطراب، لذا لم يتمكن أو بالأحرى لم يرغب عبد المومن في استقبال الوفد قبل القضاء على تمرد المساطي وتمردات أخرى يعود الفضل الأول في إخمادها إلى عزيمة وصرامة أبي حفص[91].

تمرد المساطي والصحراوي وملوك طوائف الأندلس

انطلق التمرد من قبيلة جزولة بمنطقة وادي سوس المجاورة للساحل[92]، حيث نجح مشاغب من أصل وضيع ودون أية مؤهلات قيادية يدعى المساطي[93]، في تحقيق انتصار حاسم كاد

90- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 311.

91- يختلق صاحب الحلل الموشية (ص 122) عند حديثه عن السفارة، حواراً بين عبدالمومن وابن عربي يخبر فيه هذا الأخير الخليفة أنه سمع أثناء إقامته بالمشرق، الغزالي وهو يتحدث عن ابن تومرت وقرب ظهوره بالمغرب. للتذكير عاد ابن عربي من المشرق قبل رحلة ابن تومرت إليه بسبع سنوات.

92 - سبقت الاشارة إلى الرسالة التي وجهها الربرتير إلى عبدالمومن والتي يذكره فيها بالكيفية التي خان بها الجزوليون أبناء جلدتهم وأنهم على استعداد للغدر بأي كان، وقد قام عبدالمومن إثر ذلك بإبادة العديد منهم، لذا لم يترددوا رغبة في الانتقام منه، في التحالف مع المساطي.

93- يسميه البيدق، معاذ المسطاسي. اخبار المهدي، م. س.، ص. 84.

يقضي من خلاله على حركة الموحدين الإصلاحية، والتي فرضت نفسها بعد خمس وعشرين سنة من المعارك المتواصلة ومن استعمال جميع أنواع العنف والإرهاب في بلاد المغرب.

لقد تمكن المساطي بعد احتلاله لجزولة من مد نفوذه إلى حاحة وركراكة وهزميرة وهسكورة السهل ودكالة وبني ورياغل، ووصل إلى غاية مسقط راسه سلا. ولمواجهة خطره، أرسل عبد المومن قوات من مصمودة يقودها ابن يكيت بالإضافة إلى جيش يضم عناصر من الموحدين وآخرين من قبيلة مسوفة، وضع على رأسه أنكمار المسوفي الذي سبق وأعلن وأتباعه ولاءهم للموحدين أثناء حصار هؤلاء لفاس. ويظهر ان الجيش الذي أرسله عبد المومن ضد المساطي لم يكن بأهمية تمرد هذا الأخير، ذلك لأن الخليفة اعتقد في البداية أن الأمر يتعلق بأحد التمردات التي تحدث باستمرار في مختلف أنحاء البلاد والتي كان يخمدها دون صعوبة.

لكن المساطي تمكن من الانتصار على الجيش الذي أرسله عبد المومن، وهو ما شجع العديد من القبائل التي خضعت من قبل لسلطة الموحدين على التمرد، وهكذا فسبتة التي خضعت لهم منذ 540هـ، وكان عبد المومن قد عين عليها عاملاً أحد أعضاء جماعة الخمسين، أعلنت تمردها وقتلت العامل المذكور ونادت بابن الصحراوي الذي عاد من الأندلس للدفاع عن القضية المرابطية والعمل على الإطاحة بالموحدين. وقد تمردت كذلك أماكن أخرى من بينها طنجة[94] وسجلماسة ودرعة، وباختصار لم يبق بيد الموحدين في بلاد المغرب غير العاصمتين: فاس ومراكش، والقبائل الست التي شكلت النواة الأولى لدولتهم.

وفي الأندلس قام ملوك الطوائف الذين بايعوا عبد المومن تحت تأثير الانتصارات الكبيرة التي حققها، بنقض هذه البيعة وإعلان استقلالهم من جديد عندما علموا أنه انهزم أمام شخص من الأغمار وأن بلاد المغرب برمتها حملت السلاح ضده. وإذا كان ابن قصي هو الذي حفز الموحدين على إرسال جيش إلى الأندلس، فإنه كذلك كان أول من تمرد عليهم بها، بعد ما وصلته أخبار الأحداث التي كان يعرفها المغرب. وبسبب تواضع القوات التي كانت مع براز بن محمد المسوفي واستحالة وصول إمدادات من المغرب، خرج عن سلطة الموحدين كل غرب الأندلس وكان ذلك بنفس السهولة التي خضع لهم بها. غير أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد بل إن ابن غانية

94- من اسباب تمرد طنجة، أن المرابطين الثلاثمئة الذين رافقوا ابن الصحراوي إليها إثر فراره من فاس، قضوا بها خمسة اشهر وهم في حالة رهيبة من الحاجة والعوز، لذا لما عبر ابن الصحراوي إلى الأندلس، انضموا إلى ابن جابر، وهو أحد اعضاء هيئة الخمسين، وكان يوجد بالقصر الصغير. وقد قام بواسطتهم بمهاجمة طنجة التي احتلها وقتل عدداً من اعيانها من بينهم قاضيها.

الذي كان لايزال يحمل الراية المرابطية في الأندلس أرسل ابن الصحراوي إلى المغرب من أجل العمل على عودة المرابطين إلى الحكم.

وعندما أدرك عبد المومن خطورة الموقف، جهز بصرامة وببرودة أعصابه المعهودة جيشاً جراراً شكله من القبائل الأولى التي أخذت بالعقيدة الموحدية والتي حافظت على ولائها، وقد انضم إلى هذا الجيش فيلق من الرماة وآخر من الروم الذين كانوا في خدمة المرابطين أثناء حصار مراكش، الذين منحهم الموحدون الأمان عندما دخلوها. ولضمان فرص أكبر للنجاح، وضع على رأس هذا الجيش رجل ثقته وساعده الأيمن أبا حفص عمر الذي غادر مراكش عبر السهل المحادي للأطلس، وقد هاجم أولاً قبيلة هزميرة التي نجح في تشتيت قواتها قبل أن يأخذ طريقه نحو وادي سوس الذي ستقع بجواره المواجهة مع قوات المساطي[95].

ورغم استماتة المساطي، ورغم الأعداد المهمة من الجنود الذين كانوا معه، فقد انهزم وقتل على ضفة وادي سوس كما قتل عدد مهم من رجاله، إما أثناء المواجهة أو غرقاً في النهر أو أثناء الفرار حيث طاردهم الرماة الموحدون. وبهذا الانتصار تم إخماد بؤرة التمرد بنفس السرعة التي اندلعت بها.

ويشير ابن خلدون إلى أن المعركة وقعت في ذي الحجة عام 541هـ (مايو 1147م)[96]، في حين يقول صاحب "روض القرطاس" إن أبا حفص عمر غادر مراكش في فاتح ذي القعدة عام 542هـ (24 مارس 1148م) وإن المعركة وقعت في ذي الحجة من نفس السنة (يوافق اليوم الأول منه 22 أبريل واليوم الأخير 21 مايو)[97]. وإذا كان ابن خلدون بشكل عام يتمتع بمصداقية أكبر من التي يحظى بها مؤلف "روض القرطاس"، فإن الأمر ليس كذلك هنا، بحيث نعتقد أن التاريخ الذي ورد عند هذا الأخير هو الأقرب إلى الصواب، خصوصاً وأنه يتماشى مع ما ورد عند ابن الأبار الذي يقول في كتابه "عتاب الكتاب"، وأثناء ترجمته لأحمد بن عطية، إن المساطي قتل في المعركة يوم الخميس 16 ذي الحجة 542هـ (7 ماي 1148م)[98].

وحتى إن لم نأخذ بعين الاعتبار ما ورد عند ابن الأبار، فإن الوقائع تؤكد أن التاريخ الذي ورد عند ابن خلدون غير مضبوط؛ فقد احتل الموحدون مراكش يوم 17 أو 18 شوال 541هـ (21 أو 22

95- Op. Cit., Docs Ined, P. 106.

96- العبر، الجزء السادس، م.س.، ص. 480.

97- روض القرطاس، م.س.، ص. 245.

98- ابن الأبار، م. س.، ص. 196.

مارس 1147م) وبما أنهم خصصوا، لتنظيم إقامتهم بالمدينة وتوزيع الغنائم وفرض الإصلاح والعقيدة الموحدية، شهراً كاملاً حسب البيدق، وشهرين حسب ابن صاحب الصلاة، فإن المعركة لا يمكن أن تكون قد وقعت في مايو 1147 م؛ على اعتبار أن وقوعها في هذا التاريخ يعني أن المدة المتراوحة ما بين 23 مارس وبداية مايو ستقع فيها كل الأحداث التالية: دخول الموحدين لمراكش وإقامة قواعد نظامهم بها، وإعلان المساطي لتمرده وامتداد هذا التمرد لمختلف أنحاء البلاد، وإرسال الجيش الموحدي إلى سوس وهزيمته هناك، وتكوين جيش آخر أكثر عدة وعدداً وإعادة إرساله من جديد إلى سوس وهزمه لقوات هزميرة. هناك دليل آخر على أن المعركة وقعت في نهاية 542هـ هو أن السفارة الإشبيلية التي كان على رأسها ابن عربي استقبلها عبد المومن يوم عيد الأضحى 542هـ، بعد هزمه للمساطي، وقد ودع ابن عربي عبد المومن في الشهور الأولى من 543هـ، على اعتبار أنه توفي بفاس وهو في طريقه إلى الأندلس في ربيع الأول أو ربيع الثاني من السنة ذاتها.

وقد قيل إن أبا حفص قام بنفسه بقتل المساطي، قبل أن يأمر بنقل جثته على ظهر بغل إلى مراكش حيث تم صلبها وتعليقها على باب الشريعة. والظاهر أنه سعد كثيراً بهذا الانتصار، الذي أراد أن يزفه إلى عبد المومن في رسالة تكون في مستوى الحدث من حيث جمالية الخط والأسلوب، لذا بحث بين جنوده عن الشخص المناسب الذي يمكنه تحريرها[99]، ولم يجد غير جندي مرابطي يدعى أبا جعفر أحمد بن عطية، كان فيما مضى كاتباً خاصاً لإبراهيم بن تاشفين، لكنه، وحتى لا ينكشف أمره، انضم إلى صفوف رماة الموحدين. وبفضل تلك الرسالة أولاً ثم بفضل ذكائه ونبوغه سوف يصبح ابن عطية هذا فيما بعد أحد الكتاب الخاصين لعبد المومن وفي نفس الوقت أحد وزرائه المفضلين.

ولم يطل مقام أبي حفص في العاصمة، إذ يؤكد كل من البيدق وابن خلدون أنه غادرها من جديد على رأس جيش موحدي لإخضاع قبيلتي النفيس وهيلانة الواقعتين بالسفوح الشمالية لجبال الأطلس وكانتا قد انضمتا إلى تمرد المساطي، بعد ذلك توجه إلى قبيلة هسكورة التي يمتد مجالها إلى غاية منطقتي درعة وتودغة، وقام بالسطو على حصونها والاستيلاء على ما بها من

99- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 309. يغلب على الرسالة الطابع البلاغي، وقد أسرف محررها في الاطراء على عقيدة الموحدين واتباعها، وكان أبو جعفر هذا قد شاهد سنتين قبل تاريخ الرسالة كيف وقع والده (الكاتب الخاص لعلي ابن تاشفين) أسيراً بيد الموحدين وكيف أعدمه هؤلاء عندما حاول الفرار أثناء حصار فاس. والحقيقة أن الجديد الوحيد الذي تقدمه الرسالة هو ما تضمنته من معلومات عن عدد القتلى المرتفع الذين سقطوا في المواجهة ضد المساطي، حيث تقول في هذا السياق إن مياه وادي سوس أصبحت حمراء بسبب كثرة دمائهم.

غنائم واسر ما بها من عذارى، ومن هناك واصل تقدمه في اتجاه الصحراء إلى غاية سجلماسة التي قام باحتلالها، وكانت هي الأخرى قد انضمت إلى التمرد.

وبعد أن أخضع كل المنطقة الجنوبية، أخذ ودون كلل طريق الشمال حيث دخل تامسنا التابعة لمملكة برغواطة لكنه هزم هناك، مما أجبره على الانسحاب إلى تادلة التي أعاد بها تنظيم قواته، قبل أن يتجه إلى مكناس التي كانت هي الأخرى قد أعلنت تمردها على الموحدين[100].

في تلك الأثناء ظهر على مسرح الأحداث من جديد الصحراوي (عرف باسم ابن الصحراوية) الذي حمل لواء المرابطين وقام باسمهم، بلم شمل العناصر المعادية للموحدين. وكان هذا المرابطي الشجاع والمزعج حفيداً ليوسف بن تاشفين وابناً لأبي بكر بن يوسف من امرأة صحراوية، وقد حمل لقب أمه وليس أبيه جرياً على عادة المرابطين، وبعد مقتل إبراهيم بن تاشفين أثناء حصار مراكش، اعتَبر نفسه أحق من غيره بإمارة المسلمين وبتولي العرش، لكونه الوريث الشرعي لبني تاشفين، ومن أجل ذلك ضرب أثناء وجوده في سبتة السكة باسمه. وقد فهم كوديرا Codera تطلعات ابن الصحراوية خطأً، حيث اعتقد أنه ادعى المهدوية[101].

وكان حلوله بسبتة تلبية لنداء أهلها الذين تعاطفوا معه، ومن أجل القضاء على تمرده أرسل الموحدون أسطولاً لمحاصرة المدينة، وضعوا على رأسه أمير البحر علي بن عيسى بن ميمون. أمام هذا الوضع، تظاهر ابن الصحراوية باستعداده للخضوع للموحدين وهو ما سمح له بكسب ثقة ابن ميمون الذي غادر أسطوله ودخل المدينة للقاء ابن الصحراوية الذي ما أن تقابل معه حتى رماه برمح قضى عليه. وقد توجه ابن الصحراوية إثر ذلك إلى طنجة، بعد أن تأكد من أنها محصنة بما فيه الكفاية، حيث حث عاملها المرابطي يحيى بن تاعيشت على الصمود، وقصد سلا التي وجد بها والد المساطي، وكان يزاول مهنة الخياطة، في حالة صراع مع سكان المدينة، وبحكم أنه كان يعتبره من أعدائه -شأن الموحدين- فقد ألقى عليه القبض وقطع رأسه ورمى بجثته في البحر، قبل أن يغير على قبيلة فنزارة لمبايعتها لذلك الخياط[102].

ومن أجل البحث عن معاضدين بين أعداء الموحدين، توجه إلى منطقة برغواطة التي أعجب سكانها بشجاعته ومواهبه القيادية، لذا حاولوا إقناعه بالمكوث بينهم، لكنه رفض. وبعد مدة وجيزة انتقل إلى

100- Op. Cit., Docs Inéd, P. 106.

101- Codera- La familia real de los Banu tasufin . P 31.

102- Op. Cit., Docs Inéd, P. 107.

دكالة التي بايعه أهلها أميراً عليهم، وقد انضمت إليه بعد ذلك مباشرة قبيلتا ركراكة وحاحة، وكذا عدد مهم من الرافضين للسلطة الموحدية والذين لم يجدوا من يلم شملهم بعد مقتل المساطي.

كل هذا جعل الأوضاع تتعقد مرة أخرى بشكل لم يعد معه أمام عبد المومن من حل غير تجهيز جيش جديد وضع على رأسه شخصاً من خاصة المهدي يدعى يصلاسن الهرغي، غادر مراكش عبر تادلة قاصداً سلا التي قام بمهاجمتها واحتلالها قبل أن ينتقل إلى منطقة بني ورياغل[103] حيث هزم وقتل المتمرد القاسم بن حسان. وبعد حمله الغنائم إلى مكناس التي كانت قد خضعت لأبي حفص عمر، واصل طريقه في اتجاه الهبط فإلى طنجة التي استولى عليها بعد أن قتل عاملها يحيى بن تاعيشت، وقد خضع له كذلك صنهاجيو هذه المنطقة، لكنه لم ينجح في احتلال سبتة رغم قيامه بحصارها. ومع انسحابه فقط، أرسل القاضي عياض إلى عبد المومن يعلن خضوعه وسكان المدينة للسلطة الموحدية، مما جعل الخليفة يعين عاملاً موحدياً جديداً على سبتة.

في هذه الأثناء لم يعد هناك من تمرد غير الذي يقوده ابن الصحراوية، والذي كان واعياً بأنه آخر من استعصى على الموحدين، لذا حرص على تسخير كل ما بيده من إمكانيات وما يمتلكه من شجاعة وشهرة للوقوف في وجههم، في وقت قرر فيه عبد المومن القضاء عليه مهما كان الثمن، ولتحقيق ذلك استنفر جميع جيوشه، حيث استدعى قوات المغرب الأوسط التي كان يقودها شيوخ زناتة مثل الأميرين ومانو وتاشفين بن ماخوخ وقوات منطقة الغرب التي كان يقودها الجياني (سبق وسلم فاس للموحدين) بالإضافة إلى قوات زناتة الغرب التي كان يقودها شيوخهم، كما انضمت إلى هذه الحشود قوات من غمارة وصنهاجة. وقد غادر عبد المومن مراكش في اتجاه "شبور متاع هسكورة" التي اجتمعت بها جميع القوات قبل الانطلاق في اتجاه دكالة وبالضبط نحو آيْصزوڭ حيث يوجد يحيى الصحراوي[104].

ومع بداية الهجوم اقتنع الدكاليون أنه لا قبل لهم بمواجهة ذلك الجيش الجرار، لذا فر شيوخهم مع الصحراوي في اتجاه سوس كما فر فرسانهم، وقد تعقبهم يصلاسن إلى منطقة

103- كانت قبيلة بني ورياغل هذه توجد بين سلا ومكناس، ويشير الادريسي عند وصفه لمكناسة وحديثه عن قبائلها أنه كانت توجد بها قبائل من بينها بنو ورياغل. ص 78. ونستشف من كلام البيدق كذلك أن بني ورياغل كانت توجد بهذه المنطقة عندما يقول إن يصلاسن نقل الغنائم التي اخذها منها إلى مكناسة. انظر:
Op. Cit., Docs inéd, P. 108-124.

104- Ibid, Docs Inéd, P. 108.

ركراكة التي نجح في إخضاعها في وقت تمكن فيه الصحراوي من الإفلات والفرار إلى الصحراء. وبعد هزمه لدكالة، قام عبد المومن بأسر نسائهم اللائي باعهن كجوار، ولم يكن حظ البرغواطيين أحسن، لأن عبد المومن تمكن من هزمهم كذلك وفرض عليهم دفع المغارم وإرجاع الغنائم التي أخذوها من أبي حفص عمر، واطلاق سراح ابن هذا الأخير وجاريته اللذين وقعا في أيديهم. ولم تقع بعد هذا إلا حالات تمرد محدودة الأهمية وعمليات انتحارية تم إخمادها بسهولة. ومع انتهاء صيف 543هـ (1148م) كانت كل بلاد المغرب خاضعة للموحدين.

لقد تمكن عبد المومن من فرض سلطته المطلقة في بلاد المغرب، المتميزة بطغيان النزعات الفردية وبالفوضوية البربرية، بفضل صرامته وإيمانه بالقضية الموحدية، وكذا بفضل تلاحم قواته ورباطة جأش القائد العام لقواته أبي حفص عمر الذي لقب بعد هذه الحملة بسيف الله تيمناً بخالد بن الوليد.

ومباشرة بعد انتهاء الحملة، انتقل عبد المومن إلى تنمل لزيارة ضريح المهدي والاطلاع على الأشغال الجارية بالمسجد الذي أمر بتشييده بها[105]. وهناك كتب رسالته المطولة المؤرخة في 16 ربيع الأول 543هـ (4 غشت 1148م) والتي تأثر بها خلفاؤه من بعده، حيث دأبوا على كتابة رسائل مشابهة، وكانت الرسالة في الأصل موجهة إلى رعاياه بالأندلس، لكنه قرر بعد ذلك تعميمها لتشمل كل سكان الإمبراطورية. وتشير الرسالة إلى أنه ذهب إلى تنمل لزيارة ضريح المهدي، الذي حقق الموحدون الانتصار على المساطي بفضل بركته، وليراقب الأشغال بالمسجد الذي بناه لتمجيد ذكراه، كما تشير إلى الأضرار التي تنجم عادة عن الفتن والتمردات. بجانب ذلك تذكر بضرورة إعلاء كلمة الحق والتشبث بالعدل ونبذ الظلم وما شابهه من التصرفات التي تنهى عنها الشريعة، والتي عادة ما تكون سبباً في وقوع الفتن والتمردات، كما تحذر عمال وممثلي السلطة في مختلف الجهات من مغبة المغالاة في استعمال نفوذهم. هذه النقطة لا تمل الرسالة في تكرارها المرة تلو الأخرى بحيث تحض على التقيد بشرع الله وعدم ارتكاب أي حيف في حق المسلمين مهما كانت تفاهته[106]، وتهدد في المقابل بالضرب وبصرامة على يد كل من تسول له نفسه القيام بغير ذلك، خصوصاً من يحاول فرض الضرائب غير الشرعية، والذي قد تصل

105- حسب Basset et Terrasse في كتابهما Sanctuaire et fortéresse almohades فإن المسجد المذكور شيد في وقت لاحق وبالضبط في سنة 548هـ.

106- أورد هذه الرسالة مؤلف نظم الجمان، كما أشار إليها ابن صاحب الصلاة في "المن بالامامة" ص. 225-229 عند حديثه عن رسالة كتبها على منوالها يوسف الأول في 3 رمضان 561هـ.

العقوبة في حقه إلى الإعدام. وهنا ترى الرسالة أن عقوبة الإعدام لا يجب أن تنفذ وفي كل الأحوال دون استشارة الخليفة، وفي انتظار تلقي الجواب يودع المتهم السجن كما يوضع حجر على أملاكه وفقاً للأحكام الشرعية بعد أن يفتي بذلك فقيه عارف.

وبعد أن تحث الرسالة على الاستقامة والأمانة ونبذ البدع والتشبث بتعاليم المهدي، تمنع بيع الخمر والرُّب (مربى العنب) وشربهما، وتأمر بتعيين مراقبين مهمتهم ضبط كل من يوجد في حالة سكر. من جهة أخرى تمنع الجند من إرغام سكان المناطق التي يمرون بها من أداء الضرائب غير الشرعية أو توفير المأوى لهم عنوة، كما تأمر بتوفير العدد الكافي من الخيام للجنود عند خروجهم في حملة عسكرية حتى لا يأخذوا خيام الأهالي العزل.

وعن القائمين على بيت مال الأمة، تقول إنهم وبنفس الكيفية التي لا يميزون فيها بين المال الحلال والمال الحرام، يمكنهم اختلاس ما يوجد في خزائن الدولة، وهنا تذكرهم بأن الأموال العامة هي ملك لله وحده، لذا لا يجب التصرف فيها دون إذن الخليفة، وتضيف أن هذا الأخير سيكتب بهذا الشأن إلى كل القائمين على مالية الدولة بمختلف أنحاء مملكته، وسيأمر بتنفيذ حكم الإعدام في حق كل من ثبتت إدانته. بعد ذلك تعود للتذكير بأن الحفاظ على العدل والاستقامة هو شغل الخليفة الشاغل.

وقد ختم عبد المومن الرسالة بخاتمه الخاص ليثبت صحتها، وأمر بأن يوصل فحواها إلى كل الموظفين، بل إلى كل الموحدين، وأن يطبق ما بها من تعاليم، لأن الغاية منها السهر أولاً وأخيراً على رحمة المسلمين والرأفة بهم.

وبعد قضائه أحد عشر يوماً في تنملل، عاد إلى مراكش (في 17 غشت)، حيث كتب مباشرة بعد حلوله بها إلى صنهاجة تاسغرت المقيمين في السهل الواقع بين مراكش وأزمور يشكرهم على تأكيد بيعتهم من خلال ممثليهم الذين وفدوا عليه في تنملل، وفي نفس الوقت يبعث لهم بنسخة من الرسالة سالفة الذكر[107].

قيام عبد المومن بتصفية معارضيه

وبخلاف ما تضمنته رسالته من مواعظ تحث على العدل والإنصاف، بقي عبد المومن وفياً لطريقة شيخه المبجل المهدي فيما يتعلق بتصفية أعدائه، حيث قام بذلك بشراسة تفوق تلك التي

107- مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة 1.

تصرف بها البشير عشية معركة البحيرة، وكرد فعل على قتل بعض سكان مكناس لعاملين ينتمون لقبيلة توجد بضواحي فاس، جمع شيوخ الموحدين وبعد أن خطب فيهم وحثهم على الوفاء للسلطة الموحدية، منحهم وبكل برودة أعصاب لائحة بأسماء من تجب تصفيتهم من مرتكبي الجريمة، وكذا من أبناء القبائل الذين ساندوا المساطي في تمرده.

ويتحدث المراكشي في كتابه "المعجب" عن السهولة التي كان المصامدة يريقون به دماء أعدائهم وكيف أن ذلك كان يعد أمراً طبيعياً بينهم، ويضيف أنه أثناء إقامته بسوس شاهد أشياء من هذا القبيل يصعب تصديقها[108]. وتمثل لنا حالة الفقيه القرطبي محمد بن خيرة نموذجاً حياً للرعب الذي عم البلاد إبان عهد عبد المومن، فقد فر هذا الفقيه خوفاً من بطش الموحدين إلى الإسكندرية لكن هناك لم يحس بالأمان ففر من جديد إلى شبه الجزيرة العربية، ومع ذلك بقي يحس بالخطر، ولم يرتح باله إلا بعدما رحل إلى الهند.

وتتحدث المصادر العربية، وأحياناً بنوع من المبالغة، عن عمليات "التمييز" التي مارسها المهدي ضد أعدائه، لكنها تسكت في المقابل عن القمع الدموي الذي مارسه عبد المومن، ولا يذكره غير البيدق الذي يسميه وبكل بساطة بـ"الاعتراف"؛ بحيث إنه وبعد أن يتوقف عند كل جزئياته يعتبره نعمة حبا به الله الموحدين الذين تمكنوا بواسطته من جعل الأمن يستتب والحق ينتصر والإيمان يتقوى والاختلاف في الرأي يختفي[109].

وقد تولى الشيوخ مهمة تنفيذ الأحكام بين أفراد قبائلهم، وكانت البداية بضواحي مراكش التي قام فيها شيوخ هزميرة بإعدام خمسمائة شخص بعد جمعهم في رباطها، بعد ذلك قام شيوخ ركراكة بنفس الشيء في حق ثمانمائة شخص، ثم شيوخ حاحة الذين أعدموا عدداً مشابهاً. وسوف تمتد عدوى الإعدامات شمالاً لتشمل كل القبائل التي تفصل مراكش عن المحيط الأطلسي، وجنوباً لتصل إلى غاية سوس، وهكذا أعدم 600 شخص في قبيلة إيجلي و500 في قبيلتي جزولة وهسكورة، كما أعدم بعد ذلك 2500 آخرين ينتمون إلى هذه الأخيرة. ولم تتوقف سلسلة الإعدامات عند هذا الحد بل إنها امتدت إلى تادلة والقلعة ثم إلى تازة التي تم فيها إبادة ما لا يقل عن 12 ألف شخص، انتقاماً منهم لمقتل زعيم بني ومانو زيري بن ماخوخ والذي سبق وبعثه عبد المومن إليهم أثناء مواجهته لتاشفين والريرتير بتلمسان، كما تم قطع رؤوس بالجملة في فاس ومكناس وغمارة ومنطقة الغرب وبرغواطة وتامسنا ودكالة. بعد ذلك أرسلت إلى شيوخ

108- المعجب، م. س.، ص. 287.

109- Op. Cit., Docs ined, P. 112.

هيلانة ولجاغة وأوريكة لوائح تتضمن أسماء الأشخاص المنتمين لهذه القبائل الذين تقرر تنفيذ حكم الاعدام فيهم، كما هيئت لوائح تتضمن الرؤوس التي يجب قطعها في سجلماسة ومرتفعات سوس. وقد وصل مجموع من تم إعدامهم إلى 32.730، وهو عدد كاف ليجعل الرعب ينتشر والنظام يحترم والسلم يستتب في بلاد لم تكن تعير ذلك أدنى أهمية من قبل.

وإذا كان غياب زعيم معارض يوحد صفوف المتمردين ويجمع كلمتهم قد جعل مهمة عبد المومن سهلة في بلاد المغرب، فإن الأمر لم يكن بأسهل من ذلك في غرب الأندلس، لأن ملوك الطوائف المتنافسين فيما بينهم والمفتقدين لأية قوة فعلية، وبنفس السرعة التي خرجوا بها عن سلطة عبد المومن بعدما رأوا أمبراطوريته مهددة بسبب كثرة التمردات، عادوا للخضوع بعدما علموا أنه أرسل ضدهم جيشاً يقوده يوسف بن سليمان التنمللي، أحد أعضاء جماعة الخمسين.

الخضوع الشامل للأندلس وبلاد المغرب

يرجع ابن خلدون تمرد الأندلس على سلطة الموحدين إلى تجاوزات أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى[110] اللذين كانا يشغلان مناصب قيادية في الجيش الموحدي الذي حل بإشبيلية، وقد قاما انطلاقاً من هناك بأعمال شغب غير مبررة من بينها محاولة مهاجمة عامل لبلة يوسف البطروجي وكان قد أعلن خضوعه للسلطة الموحدية. وإذا كنا لا نستغرب لتصرفات أخوي المهدي هاته، والتي تبين، وكما حدث ست سنوات بعد ذلك عندما حاولا احتلال مراكش، بأنهما لا يقيمان أي اعتبار للأخلاق والمبادئ، فإننا لا نظن أن تجاوزاتهما كانت السبب في التمرد العام الذي عرفه غرب الأندلس، بل إن هذا التمرد كانت له علاقة مباشرة بما وقع في بلاد المغرب من تمردات؛ فقد اعتقد الأندلسيون أن نهاية الموحدين باتت وشيكة، وقام يوسف البطروجي بسبب ذلك بطرد الحامية الموحدية من لبلة عام 542هـ، وفعل نفس الشيء ابن قصي في شلب وعلي بن ميمون في قادس ومحمد بن الحجام في بطليوس، ولم يبق على عهدة الموحدين إلا سيد شيريس أبو الغمر.

وقد حاول ابن غانية الاستفادة من هذا الوضع، فأرسل الصحراوي إلى سبتة، وكانت في حالة تمرد، كما تحالف مع يوسف البطروجي الذي زحف في اتجاه طلياطة وحصن الفرج ووصل إلى غاية الجزيرة الخضراء. في ظل هذه التطورات أصبح أخوا المهدي في وضعية حرجة بإشبيلية بسبب عدم توفرهما على القوات الكافية التي تسمح بمواجهة المتمردين، لذلك اضطرا للفرار إلى بُبَشتَر ومن هناك، وبفضل الدعم الذي قدمه لهما أبو الغمر بن عزون اتجها نحو الجزيرة الخضراء التي نجحا في محاصرتها واحتلالها قبل أن يعبرا المضيق قاصدين المغرب.

110 - العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 311.

وكان ابن غانية قبل هزيمة ومقتل المساطي، وبسبب تهديد الفونسو السابع الذي ارغمه على مغادرة بياسة وأبدة، قد التقى سراً بالقائد الموحدي ابن براز في استجه واتفق معه على التنازل للموحدين عن قرطبة وقرمونة مقابل جيان. ولما علم عبد المومن بالاتفاق، وكان ذلك في 9 ربيع الثاني 543هـ (27 غشت 1148م) أي أقل من أربعة أشهر عن تاريخ الانتصار الذي حققه في وادي سوس، بارك ذلك وحث ابن غانية على الالتحاق بالموحدين على غرار أبناء قبيلته مسوفة[111].

وقد انسحب ابن غانية وفق الاتفاق إلى جيان في انتظار الدعم الموحدي الذي وعده به، باسم عبد المومن، ابن براز، لكن ألفونسو السابع تمكن وقبل وصول الموحدين، من محاصرته بها، ولم يفد ابن غانية للخروج من هذه الوضعية الصعبة، إلا احتجاز بعض النبلاء المسيحيين المرافقين لألفونسو وكلهم ممن يحملون لقب الكونت، وسجنهم في "القلعة الملكية" Alcala Real، بحيث أجبر بذلك الفونسو على فك الحصار والانسحاب. إثر ذلك وبالضبط في نهاية جمادى الثانية 543هـ (مطلع نوفمبر 1148م) التجأ ابن غانية إلى غرناطة، وكانت المدينة الوحيدة التي لاتزال بيد المرابطين بالأندلس، حيث وصل إلى اتفاق مع شيوخ مسوفة ولمتونة يقضي بتسليمها للموحدين، إلا أن المنية فاجأته يوم الجمعة 24 شعبان 543هـ (6 يناير 1149م) قبل أن يتم تنفيذ الاتفاق[112].

وقد قضى عبد المومن ومساعداه أبو حفص عمر ينتي ويصلاسن سنة 543هـ (يوافق اليوم الأول منها 22 ماس 1148م واليوم الأخير 10 مارس 1149م)، في إخضاع برغواطة والقبائل التي ساندت تمرد المساطي، وسبتة التي خرجت عن سلطة الموحدين من جديد، والتي حاول يصلاسن أثناء الحملة التي وجهها إلى الهبط وطنجة إخضاعها دون نتيجة، بحيث لم تعلن خضوعها إلا بعد انسحابه، من خلال رسالة بعث بها القاضي عياض إلى عبد المومن كما مر بنا. وقد خرج هذا الأخير بعد ذلك في الحملة المهمة التي نجح من خلالها في إخضاع برغواطة ودكالة. وبعد عودته منها بعث برسالة جوابية (غير مؤرخة) إلى أهل سبتة يخبرهم من خلالها بنتائج الحملة[113]. ويجعل ليفي بروفنصال الرسالة في سنة 542هـ، غير أننا نعتقد أن تاريخها الحقيقي متأخر عن ذلك، على اعتبار أن سبتة كانت لاتزال عام 542هـ وفية للصحراوي الذي لم يهزمه الموحدون إلا عام 543هـ كما تشير مذكرات البيدق[114].

---

111 - عين عبدالمومن عدداً من المسوفيين في مناصب مهمة، نذكر من بينهم العامل المرابطي السابق على تلمسان يحيى انغمار انظر: مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة، 4.

112 - كان ضريحه معروفاً في غرناطة على عهد ابن خلدون. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص 312.

113 -مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة، 1.

114- اخبار المهدي، م.س.، ص. 69.

وبالنسبة لسنة 544هـ (يوافق يومها الأول 11 مايو 1149م ويومها الأخير 29 أبريل 1150م)، فإن عبد المومن خصصها وبعد قضائه على كل المتمردين، لعملية التطهير الشامل والتي سمحت له، ومن خلال بث الرعب في الرعايا، بفرض سلطته المطلقة. وقد أرسل خلال السنة المذكورة جيشاً إلى الأندلس وضع على رأسه يحيى بن يومور الذي تمكن بدعم من ابن عزون من إرغام الفونسو السابع على رفع الحصار عن قرطبة. وفي الثاني من صفر (11 يونيو) كتب إلى أهالي قرطبة يشكرهم على بيعتهم له وخضوعهم للسلطة الموحدية وكذا على الوفد الذي بعثوا له من أجل تقديم البيعة [115].

تأسيس الرباط وحملة بجاية

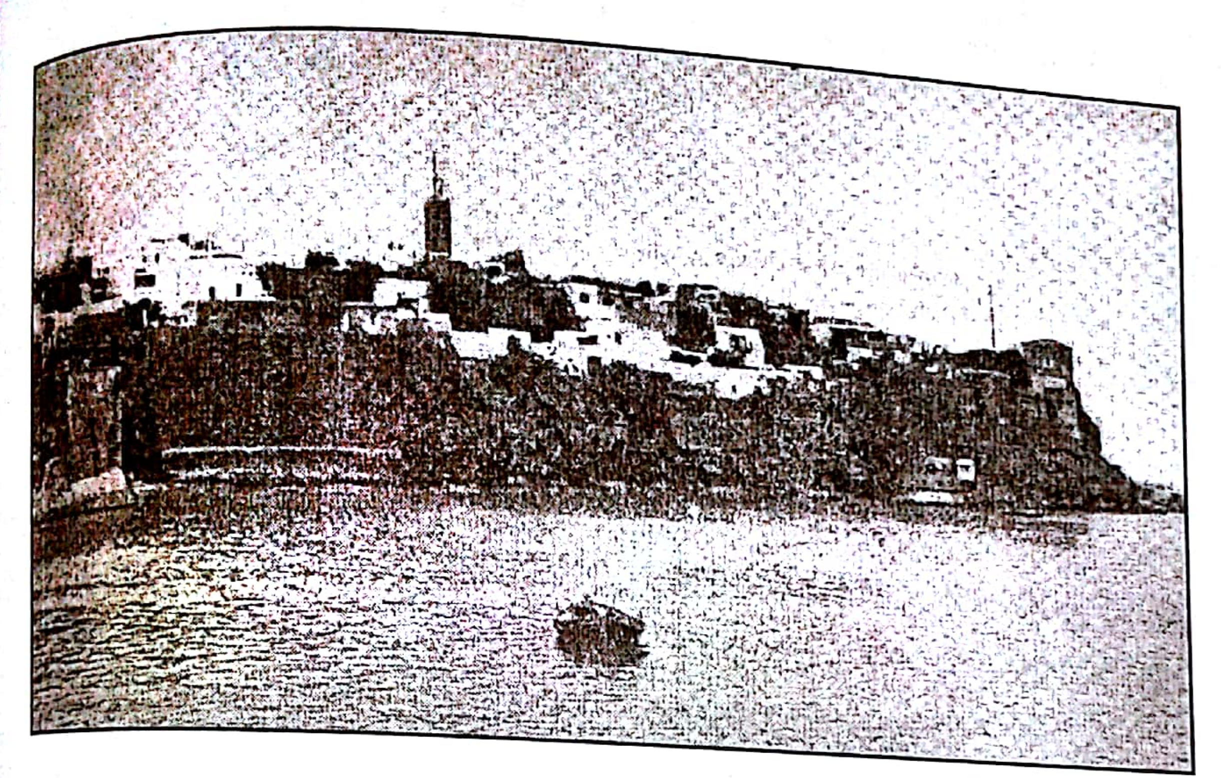
وفي ربيع نفس السنة، انتقل عبد المومن إلى سلا وشرع في بناء رباط الفتح على الضفة الأخرى لأبي رقراق، وقد أطلق عليها كذلك اسم المهدية، ليس تيمناً بالمهدي وإنما لتشابه موقعها وموقع مهدية إفريقية [116]. وكان قرار بناء رباط الفتح في ذلك المكان بالضبط يستجيب لمخططات على المدى البعيد؛ فموقعها لن يسمح فقط بالانطلاق ضد نصارى الأندلس ونورمان إفريقية، وإنما كذلك ضد الأمراء المسلمين الذين رفضوا الخضوع للموحدين مثل ابن مردنيش في مرسية وبني حماد في بجاية وكذا ضد برغواطة. كما أن اختيار موقع المدينة كانت له أهداف استراتيجية أخرى؛ فمصب نهر أبي رقراق الذي بنيت عليه، يعتبر ملتقى طريقي فاس ومراكش، كما أنه يمكن السيطرة انطلاقاً من المدينة على سهلي الغرب وتامسنا الخصبين والغنيين بالموارد التي قد يستفاد منها في تموين الحملات العسكرية، بالإضافة إلى كل هذا، يعتبر موقع رباط الفتح مجالاً مناسباً جداً لحشد القوات، سواء تلك المتجهة نحو الأندلس والتي عليها أن تمر عبر القصر الكبير ثم القصر الصغير قبل عبور المضيق، أو تلك المتجهة نحو المغرب الأوسط والأدنى.

ويجب أن نضيف إلى ما أشرنا إليه بخصوص تأسيس الرباط والذي استقيناه من مصادر مختلفة، ما ورد عند ابن صاحب الصلاة الذي يقول: « *موضع هذه المدينة المسماة الآن بالمهدية وبرباط الفتح كان في أيام السيرات فيه برج للسكنى، وما حواليه أرض محرث براح ومسرح،*

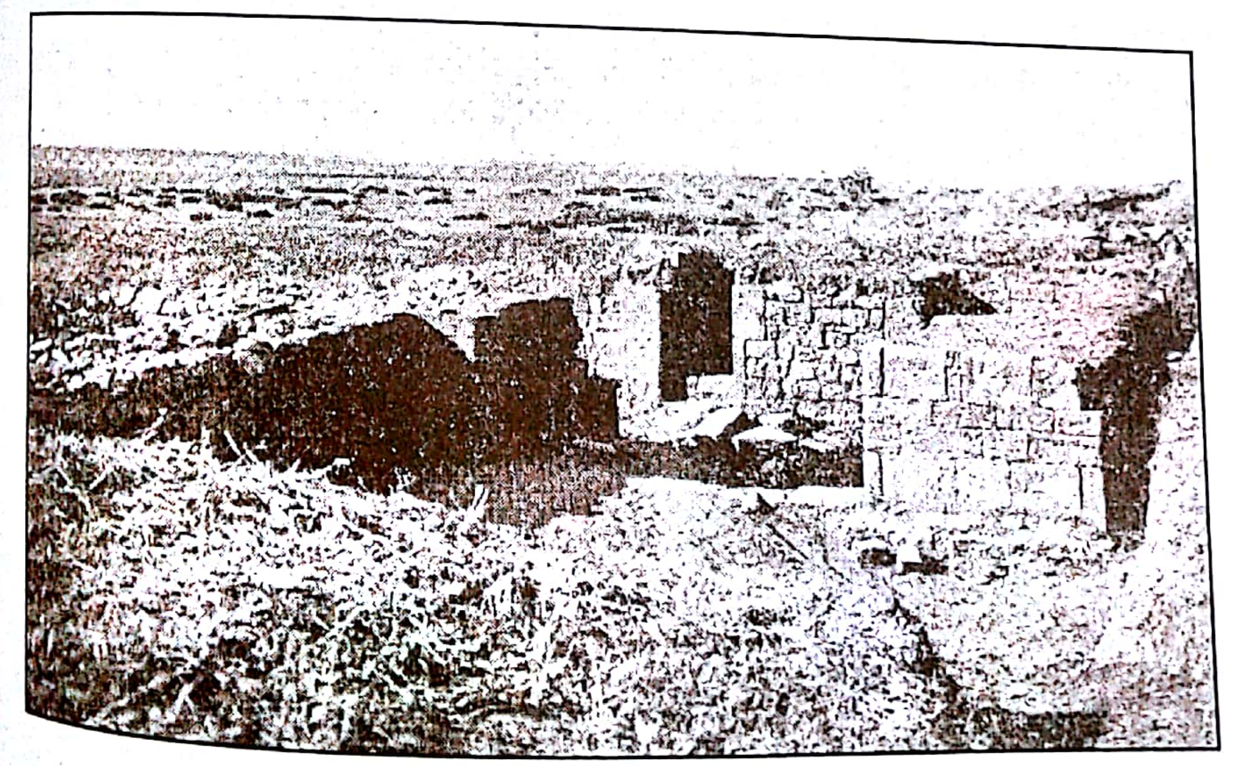
---

115 - مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالتان، 2-3.

116 - حول تاريخ الرباط وتاسيسها انظر: J.Caillé. La Ville de Rabat jusqu'au Protectorat Français



● قصبة الاوداية



● عين غبولة

متملك للمخزن ولأهل سلى ولابن وجاد من أهل إشبيلية، فاشتراه الخلفاء من أربابه وخلص لهم، وكان أهل الأثر يقولون في ذلك التاريخ: سيكون في هذا الموضع مدينة عظيمة لخليفة! فلما وصل أمير المؤمنين الخليفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى سلى في عام خمسة وأربعين وخمس مائة لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس، واستدعاء شيوخها وطلبتها من الموحدين وثوارها الأندلسيين، على ما تقدم الذكر به في هذا التاريخ، أمر ببناء قصبة حصينة في ذلك الموضع على فم البحر الداخل إلى سلى، وأقام بمحلاته المؤدية على عين غبولة، والفعلة معه والمهندسون، فأجروا لها الماء من عين غبولة المذكورة في سرب تحت الأرض حتى إلى قصبة المهدية المذكورة، ودام اشتغال الأمر بذلك شهورا وهو مقيم بعسكره حتى وصل الماء المذكور إليها، فصنع له سقاية لشرب الناس والخيل وسقي الأرض حواليها، فصارت فيها البحائر والجنات المغروسات، ثم اتصل الأمر العزيز بسكناها بالناس وبناء الديار حواليها والأسواق، ولم يزل الخلفاء يخصونها بالاهتمام، وإذا خرجوا في الغزوات يلمون بها غاية الإلمام، ويجعلون لها حظا وافرا من التشويق لها بالاختصاص فيها والمقام، حتى غدت عراقا! وتلاحق الناس بها لحاقا، وأشرقت الآمال فيها إشراقا، وأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين هذا هو الذي مصرها ومهدها، وابتدأ بناء أسوارها من جهة الجوف والغرب»[117].

لقد تناولنا لحد الآن من شخصية عبد المومن، الجانب الذي يتحدث عن ذلك الطالب البسيط، الذي دفع به حماسه لعقيدة المهدي وتشبعه بها، إلى أن يصبح عالم دين دَوَّن في كتاب جامع ما سمعه عن إمامه من أفكار ذكية وتعاليم عبقرية، نجح في إقناع قبائل مصمودة، بما جبلت عليه من فضاضة، بقبولها والتشبع بها. كما تناولنا الجانب الذي يتحدث عن ذلك المحارب الفذ ذي العزم القوي الذي نجح، أولاً في حسم نزاع دام ما يزيد عن عشر سنوات بمنطقة الأطلس، وثانياً (ومن خلال حملته الكبيرة نحو الشمال) في وضع حد للامبراطورية المرابطية، وثالثاً في القضاء على كل المتمردين الذين ظهروا ببلاد المغرب والأندلس. وسوف نتناول كذلك، جانباً آخر من شخصيته، ذاك الذي يصوره كملك همام يشجع الفنون ويؤسس المدن ويقيم سياسة خارجية ناجحة سمحت بتحقيق نتائج ممتازة في كل من الأندلس وإفريقية.

وأثناء وجوده بسلا لتنفيذ مشاريعه العمرانية، استدعى طلبة الأندلس وشيوخها وملوك الطوائف الذين لم يحددوا بعد موقفهم بشكل ثابت من الدولة الموحدية. وقد لبى دعوته حوالي خمسمائة شخص بين فقيه وقاض وأمير، كلف باستقبالهم واستضافتهم كلاً من أبي حفص عمر

117 - المن بالإمامة، م. س.، ص. 357-359.

ينتي وأبي جعفر أحمد بن عطية (الذي رقاه إلى منصب وزير) بالإضافة إلى مجموعة من شيوخ الموحدين. وبعد ثلاثة أيام من وصول أعضاء الوفد، أي في فاتح محرم 546هـ (20 أبريل 1151م) قام باستقبالهم شخصياً، وعلم منهم ما عانته قرطبة من هجمات ألفونسو ومن أعمال السلب والنهب التي قامت بها قواته. وقد قرر إثر ذلك أن يضم إلى حاشيته بعض أمراء غرب الأندلس، الذين سبق لهم وأن خضعوا لسلطته بعد حصولهم على الأمان الذي طلبوه من يحيى بن يومور، هؤلاء هم سيدراي بن وزير سيد باجة ويابرة ويوسف البطروجي سيد لبلة وابن عزون أمير شيريس ورندة وابن الحجام أمير بطليوس وابن منيب أمير طبيرة. وكان الوحيد الذي تخلف عن الموعد هو ابن قصي، الذي ورغب في الحفاظ على استقلال امارته بتحالفه مع ملك البرتغال، وبسبب ذلك قتل من طرف رعاياه أنفسهم في جمادى الأولى عام 546هـ (يوافق اليوم الأول من هذا الشهر 16 غشت واليوم الأخير 14 سبتمبر 1151م)[118].

وبعد أن مكث في الرباط للإشراف على تأسيسها مدة خمسة أشهر (شتاء وربيع 1150م)[119]، عاد عبد المومن إلى مراكش مع حلول فصل الخريف، بعد أن كلف عبد الحق بن إبراهيم بن جامع لينوب عنه في إتمام أعمال البناء. وفي محرم 546هـ (ربيع 1151م)، انتقل من جديد إلى الرباط ليستقبل، كما مر بنا، ملوك طوائف الأندلس، بغية ترحيلهم إلى مراكش ليضمن بذلك عدم قيامهم بأي تمرد آخر، وهو ما سمح له بتخصيص مزيد من الاهتمام بالوضعية التي توجد عليها إفريقية. لأجل ذلك عقد مجلسا حربيا حضره بالإضافة إلى عضوي "أهل العشرة" اللذين لازالا على قيد الحياة وهما: أبو حفص عمر ينتي وإسماعيل بن يكيگ، بقية شيوخ الموحدين من ذوي المنزلة داخل مؤسسات الدولة، بحيث تقرر الشروع في تجهيز حملة توجه إلى إفريقية، حدد كتاريخ لانطلاقها من مراكش نهاية 546هـ[120].

ويقدم لنا البيدق معلومات دقيقة عن المراحل التي قطعتها الحملة، بخلاف المصادر غير المعاصرة والتي تقول خطأً إن عبد المومن لم يعد إلى مراكش لتجهيز الحملة، وإنما خرج على رأسها انطلاقاً من الرباط في اتجاه سبتة، التي غادرها بعد ذلك متظاهراً أنه ينوي العودة إلى مراكش، لكنه وعند وصوله إلى القصر الكبير أخذ طريق بجاية، وكان حسب هذه المصادر، ورغبة منه في عدم

118- العبر، الجزء السادس، م س.، ص.487.

119- Op. Cit., Docs inéd, P. 113.

120- العبر، م س.، ص. 490.

الكشف عن مخططه، قد بعث بفيلق إلى الأندلس وضع على رأسه كلاً من أبي حفص عمر ينتي والسيد أبي سعيد بن عبد المومن، مما جعل الاعتقاد يسود بأن الحملة متوجهة إلى الأندلس.

وعند وصوله إلى سلا قادماً من مراكش، استعرض القوات التي قدمت له الولاء، قبل أن ينطلق في اتجاه الهبط ثم المعمورة، وهو ما جعل الجميع يقتنع، خصوصاً مع استقباله لوفود الأندلس واستماعه إلى تظلماتهم، أنه ينوي عبور المضيق، غير أن الأمر لم يكن كذلك، على اعتبار أن وضعية إفريقية كانت تفرض أكثر من وضعية الأندلس تدخلاً مستعجلاً[121].

لقد دفع عبد المومن للقيام بالحملة عوامل متعددة، فهناك الرغبة في معاقبة صنهاجة الذين يناصبهم العداء (على غرار بقية أبناء جلدته من الزناتيين)، وبالأخص منهم بنو حماد حكام بجاية، الذين لم يحسنوا استقبال المهدي عندما مر بهم، والذين أرسلوا قوات عسكرية لمساعدة تاشفين في صراعه ضد الموحدين. وهناك الرغبة في وضع حد لأعمال النهب التي كان يقوم بها العرب والتي أتت على الزرع والنسل وأشاعت الفوضى في البلاد وأفقرت العباد؛ بحيث أصبحت القيروان شبه خالية من السكان كما أصبحت بجاية تحت رحمة عرب رياح. وأخيراً هناك الرغبة في طرد نورمانديي صقلية الذين سيطروا على طرابلس والمهدية.

إن الوضع الذي آلت إليه إفريقية، جعل عبد المومن يقتنع بأن الخطر الحقيقي هو الذي يمكن أن يأتي من جهة الشرق، لذا قرر بعد تفكير طويل ومناقشات مستفيضة مع كبار شيوخ الموحدين القيام بالحملة. ومن أجل ضمان نجاحها وضع تصميماً مضبوطاً للطريق الذي يجب المرور منه؛ وهكذا، بعد وصوله إلى القصر الكبير، أرسل من يراقب الطريق الذي يربط سلا بمكناس والطريق الذي يربط هذه بفاس، ثم الطريق الذي يربط فاس بتلمسان، حيث تم وبكل صرامة منع استعمال كل هذه الطرق من طرف أي كان. ولمزيد من الاحتياط أصدر قراره بإعدام كل من تسول له نفسه من قواته إفشاء سر الطريق التي تنوي الحملة المرور منها؛ وهكذا ففي إحدى المحطات التي توقفت عندها الحملة وتدعى شبريط، قام مجموعة من الفرسان السود عند الانتهاء من ضرب المخيم، ببعض التمارين أراد خلالها أحدهم ممالقة عبد المومن حيث خاطبه قائلاً: « *كذا نفعل يا أمير المؤمنين في بجاية إن شاء الله* »[122]. هذه الجملة كانت كافية لإصدار الأمر بقتله[123].

121- أخبار المهدي، م. س.، ص. 73.

122- نفسه، ص. 74.

123- نفسه، ص. 74.

وقد عبَرَت الحملة نهر ورغة تاركة فاس على يمينها، ثم أخذت في اتجاهها نحو تلمسان طريقاً غير ذاك المستعمل عادة، بحيث مرت بمسون وعبرت ملوية، وكان إيقاع سيرها سريعاً. وإثر وصولها إلى تلمسان توقفت يوماً واحداً فقط قبل أن تواصل السير نحو مدينة الجزائر التي باغتتها وقامت باحتلالها، وبهذه المدينة اجتمع عبد المومن بأمير المهدية الحسن بن علي[124]. وعند مغادرتها في اتجاه بجاية، حاولت اعتراض طريقه قوات صنهاجية تم جمعها بسرعة وبشكل عشوائي، لكنه نجح في تفريقها بسهولة، ووصل إلى بجاية التي احتلها دون مقاومة حيث سلمها له القائد أبو محمد ميمون بن علي بن حمدون بتواطؤ مع الطلبة والتجار الذين كانوا قد دخلوا في وقت سابق في مفاوضات مع الموحدين. ولم يخذل عبد المومن محمد بن ميمون بحيث عينه وعدداً من المقربين منه في مناصب مهمة[125]، أما أمير بجاية يحيى بن عبد العزيز فتمكن من الفرار بحراً إلى بونة ومنها إلى قسنطينة، لكن خطر الموحدين سيدركه هناك، إذ وصلوا إلى المدينة بعد وقت قصير مما اضطره للاستسلام لهم.

ردود فعل العرب وحدوث معركة سطيف

بعد إخضاع بجاية توجه الجيش الموحدي وكان يقوده عبد الله بن عبد المومن إلى القلعة، عاصمة بني حماد القديمة، حيث تم احتلالها وقتل أميرها جوشن بن عبد العزيز أخي يحيى وكذا الشيخ الدحاس سيد قبيلة أثبُج العربية والتي عانت المنطقة من جبروتها الأمرين. إثر ذلك قام

124- التحق في البداية بالجيش الذي أرسل عبد المومن لمساعدة شيخ العرب محرز بن زياد على مهاجمة مدينة تونس، لكن وبعد بضعة شهور أحس أن محرزاً لا يرتاح لوجوده، لذا قرر الرحيل إلى مصر والالتجاء إلى بلاط الخليفة الفاطمي وكان يعتبر نفسه من رعاياه، غير أنه وبعدما استأجر سفينة لذلك، علم أن أمير بحر صقليا خصص عشرين سفينة لمراقبته واعتراضه عند ركوبه البحر، لذا فكر في الاستسلام لعبدالمومن، وقد أخبر بذلك أولاً ابن عمه يحيى بن العزيز أمير بجاية وطلب منه الإذن لزيارته قبل الاستسلام، إلا أن يحيى ومن خلال وزيره ميمون بن حمدون أقنعه بعدم الاستسلام لعبدالمومن وبالمجيء إليه في بجاية ليوفر له الحماية اللازمة. لكنه لما وصلها رفض يحيى استقباله وأمره في المقابل بالتوجه إلى الجزائر رفقة القائم أخي يحيى، حيث وضع هناك تحت الإقامة الإجبارية. وعند وصول عبد المومن إلى مدينة متيجة عام 549 هـ (1154 م)، اثر احتلاله لمدينتي مليانة والجزائر، استقبله استقبالاً حسناً. وللانتقام من ابن عمه، شجع الخليفة على احتلال بجاية. وقد أسفرت المواجهة التي وقعت بجبل زيري عن هزيمة القوات الصنهاجية وفرار يحيى بشكل مخجل عن طريق البحر، وكان ينوي الانتقال إلى برقة ومنها إلى بغداد حتى يتفادى الوقوع بيد الفاطميين في مصر. ولما وصل "بونة" استقبل استقبالاً سيئاً من طرف سكانها. إثر ذلك التجأ إلى قسنطينة حيث سيستسلم بها لعبدالمومن كما سنرى. رحلة التجاني ، م. س.، ص. 245-246.

125- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 4.

الموحدون، وبعد تحويلهم القلعة إلى خراب، بالتوجه إلى قسنطينة التي اختار يحيى بن عبد العزيز الاحتماء بها بسبب موقعها الاستراتيجي. وقد كبد الموحدون أعداءهم هزيمة نكراء، ومن أجل تسهيل استسلام المدينة، التي كانت عبارة عن حصن طبيعي منيع، كاتب عبد المومن شيوخها يحثهم على الاقتداء ببجاية والاستسلام، ويعدهم في المقابل بإلغاء كل الضرائب غير الشرعية، وكانت غايته من ذلك تفادي القيام بمجهودات إضافية محفوفة بالأخطار قد يدفعه لها حصار يطول أمده[126].

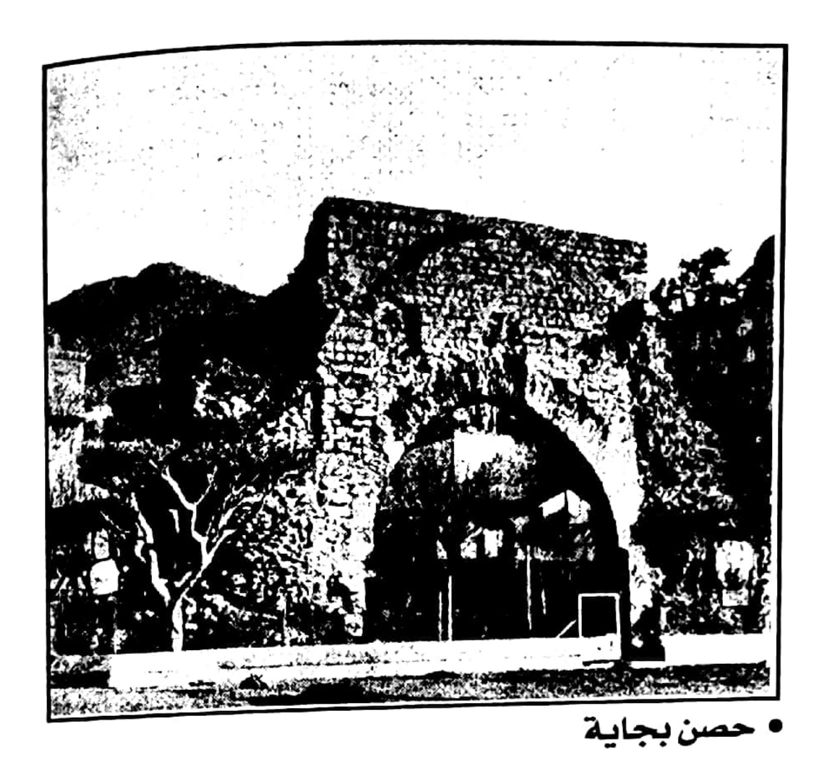
إن الهزيمة السالفة الذكر، وما تلاها من تأييد فئة من سكان بجاية لتسليم المدينة بعد توصلهم برسالة عبد المومن، جعلت يحيى بن عبد العزيز يفقد الثقة في قدرة قسنطينة على مقاومة الزحف الموحدي، ويقرر إرسال وفد إلى بجاية مكون من شيوخ صنهاجة وقسنطينة كان برأسه أحد إخوته، وذلك حتى يضفي على استسلام المدينة طابعاً رسمياً، وقد دخلت إثر ذلك حامية موحدية قسنطينة كما تم نشر قوات عسكرية بمختلف أنحاء المنطقة، في وقت أخذ فيه يحيى بن عبد العزيز وحاشيته طريق بجاية.

ولم ينظر العرب، الذين كانوا يأخذون مقابل حمايتهم لأراضي بني حماد نصف محاصيلها الفلاحية، بارتياح لغزو الموحدين لبجاية وعزلهم لأميرها، وبسبب ذلك كثفوا من غاراتهم ضد الموحدين، وهو ما دفع بالخليفة إلى تجهيز جيش مهم للخروج ضدهم، ووضع على رأسه كلاً من صهره عبد الله بن وانودين (زوج ابنته) ويصلاسن بن المعز، وكانت بين الرجلين منافسة شديدة سرعان ما تحولت إلى خصومة؛ بحيث عير ابن المعز ابن وانودين بزوجته وانسحب مع الفيلق الذي كان يقوده، وقد استغل العرب هذه الفرصة وهاجموا قوات ابن وانودين الذي وقع في الأسر وقام أحد العرب إثر ذلك باغتياله.

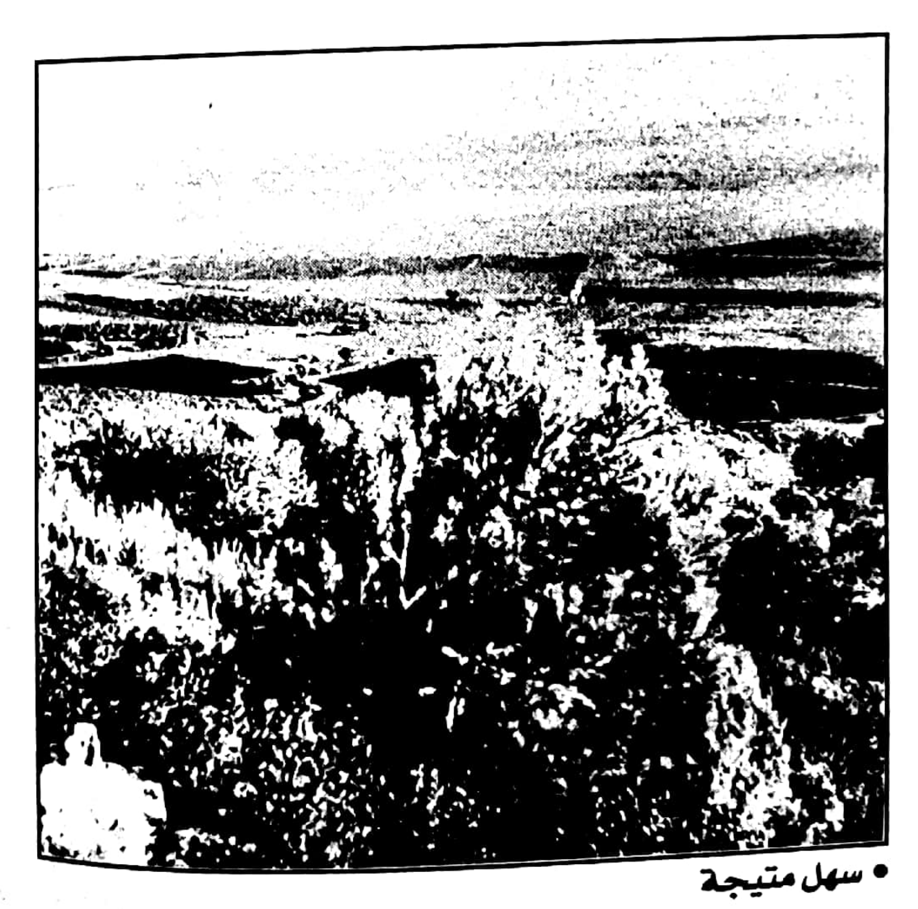
ولما علم عبد المومن بالخبر، اغتاظ له وقام لتوه باستعراض الجيوش الموحدية التي أرسلها في هجوم كاسح ضد العرب بحيث لم يبق معه هو إلا حرسه الخاص والخدم، وقد تولى شيوخ القبائل الإشراف على قوات قبائلهم المشاركة في الهجوم. في تلك الأثناء أعلن أحد "السلاطين" (شيوخ العرب) ويدعى ديفل بن ميمون خضوعه للموحدين. وكان عبد المومن عارفاً بخطة العرب في الكر والفر لذا خاطب جيوشه قائلاً: « *إذا سمعتم العرب تقول الرواح اتبعوهم ولا تشتغلوا بالغنائم*»[127]، وبعد بداية القتال، وفي الوقت الذي تظاهر فيه العرب بالانسحاب، قام الموحدون

126- نفسه، الرسالة، 7.

127- العبر، الجزء السادس، م س.، ص. 491.



• حصن بجاية

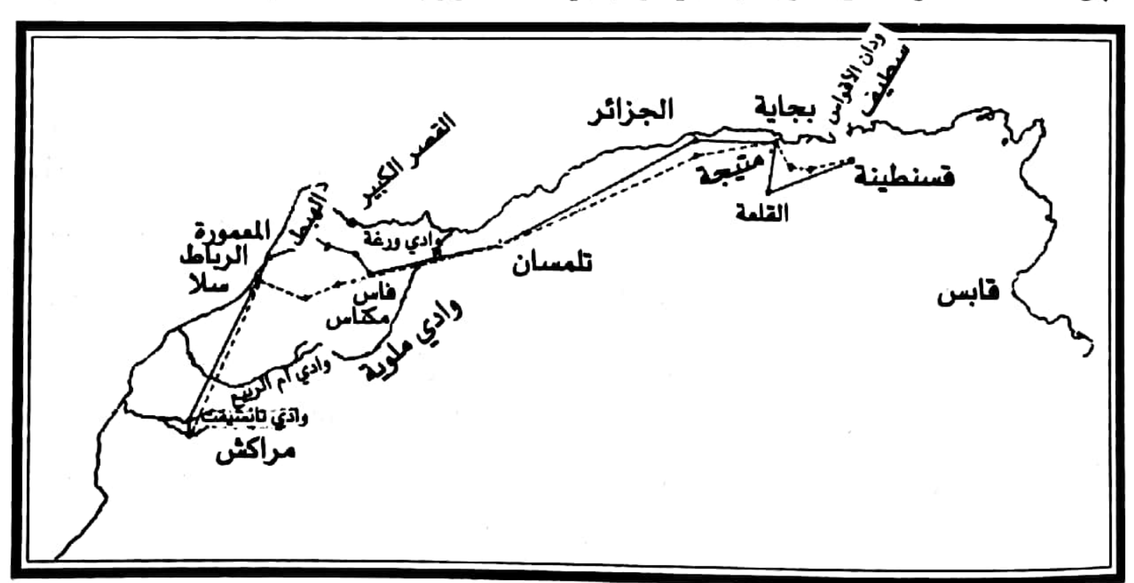


• سهل متيجة

بمطاردتهم طيلة يوم كامل بنهاره وليله، وكبدوهم هزيمة ساحقة أرغمتهم على التراجع إلى غاية تخوم الصحراء، آنذاك فقط قام الموحدون بأخذ الغنائم.

وقد استغل أحد المتمردين ويدعى أبا قصبة وجود عبد المومن في بجاية دون قوات غير حرسه الخاص وخدمه كما مر بنا، وخرج في قوات من قبيلة بني زلدوي لمهاجمته، لكن عبد المومن وبصرامته المعهودة، استعد للمواجهة مع العدد المحدود من الرجال الموجودين معه، بحيث حمل بنفسه رمحه الذي لم يشهره منذ معركة البحيرة التي وقعت عام 524 هـ، وتمكن من هزم أبي قصبة ومن معه من رجال بني زلدوي[128]. ولا نعرف درجة صدق هذه الرواية التي يوردها البيدق والتي حاول من خلالها إبراز شجاعة عبد المومن وعبقريته، ذلك لأن ابن الأثير والنويري يقولان إن الذي هزم أبا قصبة هو أبو سعيد يخلف أتيكي[129] الذي كان يقود قوات نظامية قام بواسطتها بعد ذلك باحتلال القلعة، وأنه لم يهزم فقط بني زلدوي وإنما مجموعات أخرى من صنهاجة ولواتة وكتامة، اندحرت كلها أمامه بالجبل الواقع شرق بجاية[130].

وبعد أن تكللت حملته على المغرب الأوسط بالنجاح، قرر عبد المومن العودة إلى مراكش، تاركاً قوات عسكرية في المناطق التي خضعت له بهدف مراقبة العرب، لأن خضوع هؤلاء للموحدين كان مشكوكاً فيه، بحيث إنهم وبموازاة مع الوفود التي كانوا يبعثونها لهم للتعبير عن خضوعهم، كان شيوخهم يحثون أبناء جلدتهم في إفريقية والمناطق المحتلة من طرف الموحدين على تنسيق الجهود لمواجهة هؤلاء، ومن أجل ذلك انتقلت قوات من العرب الهلاليين واليمنيين للاستقرار بمنطقة قسنطينة.



حملة عبد المومن إلى بجاية وقسنطينة

128- المصدر الوحيد الذي يشير إلى هذه المواجهة هو البيدق، أخبار المهدي، م. س.، ص. 75.

129- تم ضمه إلى أهل الخمسين بعد عملية التمييز التي قام بها البشير.

130- النويري، م. س.، ص 171، وابن الأثير، الجزء التاسع، م. س.، ص. 31.

وقد صدرت الأوامر للجيش الموحدي الذي مكث بالمغرب الأوسط للخروج ضدهم، لكن قادته، وبعدما تبين لهم التفوق العددي للعرب، أرسلوا من يخبر بذلك عبد المومن الذي وصل إلى منطقة متيجة وبالضبط إلى السهل الواقع بين مدينة الجزائر وأطلس البليدة. إثرها بعث عبد المومن وبشكل مستعجل إمدادات إضافية، تمكنت من اللحاق ببقية القوات قبل حدوث المواجهة، والتي سيكون وادي الأقواس بمنطقة سطيف مسرحاً لها. وقد قرر العرب أن يرموا بكل ثقلهم في ساحة المعركة، التي أطلقوا عليها اسم معركة النساء، لأنهم تركوا نساءهم وأطفالهم بمكان مقابل لمكان وقوعها، ومن أجل حمايتهم شكلوا حزاماً واقياً من الإبل التي ربطوها هناك. وكان القتال عنيفاً جداً بحيث استمر النهار بأكمله، ولم تنته المعركة إلا مع حلول الليل، وفيها تكبد العرب هزيمة نكراء، إذ أن الموحدين طاردوهم بعد انسحابهم لمسافة تزيد عن خمسة وأربعين ميلاً، وأثناء الانسحاب اضطر العرب لترك غنائم مهمة.

وبعد استراحة يوم واحد، انقسمت القوات الموحدية إلى عدة فيالق أخذ كل منها اتجاهاً معيناً، وقد تقدم بعضها طيلة أربعة أيام كاملة إلى أن وصلت إلى تخوم إفريقية، دون أن تلقى أدنى مقاومة من طرف العرب، وكانت تقوم بأعمال السلب والنهب بكل المناطق التي تمر بها. إثرها عادت هذه الفيالق إلى قواعدها في حين التحقت بعبد المومن، الذي وصل إلى تلمسان، الفرقة التي بعثها أثناء وجوده بسطيف لتشارك في القتال ضد العرب.

وتؤكد الرسالة الرسمية التي بعث بها الخليفة إلى الشيخ أبي محمد وسنار وشيوخ مراكش وطلبتها وسكانها، أن وصوله إلى تلمسان كان في فاتح ربيع الثاني 548هـ (26 يونيو 1153م)، وهذا ما يجعلنا نستنتج أن معركة سطيف وقعت في نهاية صفر وبداية ربيع الأول من نفس السنة (مايو 1153 م)[131].

وقد قام عبد المومن بتوزيع الأسرى العرب والغنائم التي ظفرها منهم على مدن فاس ومكناس وسلا، إثر ذلك انتقل إلى مراكش التي رافقه إليها أمراء العرب ونساؤهم، والذين بعد أن أكرم مثواهم سمح لهم بالعودة إلى حال سبيلهم وأمر القبائل التي يمرون بها بالاعتناء بهم.

ويمكن القول إن معركة سطيف أفرزت حدثين بالغي الأهمية: أولهما نجاح عبد المومن في وضع حد للزحف المستمر للعرب ببلاد المغرب؛ لأن هؤلاء وإلى ذلك التاريخ، كانوا يتقدمون داخل المنطقة على هواهم دون أن تستطيع أية قوة منعهم من ذلك، لكن هزيمتهم في هذه المعركة أقنعتهم أنه ليس لهم من خيار غير الخضوع لما يمليه عليهم عبد المومن أو الدخول معه في حرب

131- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 9.

مفتوحة ليس لهم أدنى حظ في ربحها. وثانيهما أن عملية التهجير القسري إلى المغرب الأقصى التي فرضها عليهم، والتي استمرت على عهد خلفائه من بعده، سوف تكون لها عواقب وخيمة على مستقبل الدولة الموحدية، لم يكن بإمكان عبد المومن أن يتنبأ بها، وهنا يمكن القول إن مؤسس أعظم أمبراطورية بربرية في تاريخ الغرب الإسلامي، وبسبب تساهله مع العرب، وهو ما كان يرمي من ورائه تقوية شوكة المسلمين في شمال إفريقيا للجهاد ضد النصارى والنورمان، قد خان ودون أن يدري القضية الموحدية.

إعدام يصلاسن وتمرد بني ييغز

عاد عبد المومن إلى مراكش في عز الصيف، حسب ما نستخلص من رسالة بعث بها من العاصمة إلى ابن مردنيش مؤرخة في 16 جمادى الثانية 548هـ (9 سبتمبر 1153م)، ومع وصوله إليها، قرر الانتقام لصهره من الإهانة التي ألحقها به يصلاسن، وأمر عامله في سبتة عبد الله ابن سليمان أن يدبر حيلة يقبض بواسطتها عليه، هذا الأخير دعا يصلاسن إلى رحلة بحرية بالمضيق، وعند وصول السفينة إلى أعالي البحار، أمر بتكبيله بالسلاسل وإيداعه السجن، قبل أن ينتقل إلى مراكش ليخبر عبد المومن بذلك، وقد أمره الخليفة بالعودة من جديد إلى سبتة لتحرير حكم شرعي في حضور شهود، يعدم ويصلب بمقتضاه يصلاسن[132].

وينتمي يصلاسن، هذا شأن المهدي، إلى قبيلة هرغة بل وكان من خاصته (أهل الدار)، ويظهر أن إقدام عبد المومن على إعدامه لا يعود فقط للرغبة في الانتقام لصهره، بل ولتورطه في الأحداث السياسية الخطيرة التي تزعمها أخوا المهدي، واللذان تطاولا أكثر من مرة بكل وقاحة وغطرسة على سلطة عبد المومن، دون أن يقوم هذا الأخير باتخاذ أي قرار في حقهما اعتباراً للقرابة التي تربطهما بالمهدي. وكان أن وصل بهما الأمر إلى حد تدبير مؤامرة ضده أثناء حملته على إفريقية، حيث اعتقدا بأن الحملة ستفشل لا محالة، لذا بدآ يخططان لاستعادة الإرث السياسي لأخيهما، على اعتبار أنهما أحق به من عبد المومن. وكان يصلاسن الموجود في سبتة، من بين الذين قدموا لهما المساعدة من أجل إنجاح خطتهما، حسب ما نستشفه من رواية رسمية تضمنتها إحدى رسائل عبد المومن[133].

132- يسميه صاحب روض القرطاس إسليطن ويقول إنه من أقارب المهدي ويجعل إعدامه سنة 548هـ، أما البيدق فيتناقض مع نفسه بشأن تاريخ إعدامه، فيقول إنه أعدم بعد عودة عبدالمومن إلى مراكش عام 546 هـ، لكنه في مكان آخر يجعل هذه العودة سنة 547هـ. وتسمح لنا الرسائل الرسمية لعبدالمومن بتحديد تاريخ الاعدام والذي تم دون أدنى شك في خريف 547 هـ(1153م).

133- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة رقم 11.

وقد نفذ حكم الإعدام كذلك في حق بقية المتورطين في المؤامرة من أبناء قبيلتي هرغة وتنمل، في حين أن المتورطين الأساسيين وللسبب الذي سلف ذكره لم يطلهما هذا العقاب، بل تم الاكتفاء بسجنهما لمدة قصيرة، أطلق على إثرها سراحهما ونفيا إلى فاس مع أفراد عائلتيهما. ويرجع سبب نفيهما إلى هذه المدينة إلى سهولة مراقبتهما بها. حدث كل هذا عام 548هـ، عقب عودة عبد المومن من حملته على المغرب الأوسط. وفي نفس السنة وقعت تمردات أخرى قامت بها من جديد قبيلة جزولة، التي بايعت، بعد مقتل زعيمها، يحيى الصحراوي، والتي نجح رجالها تحت قيادته في الاغارة على منطقة سوس. كما تمردت قبيلة لمطة ثم قبيلة بني ييغز التي قام رجالها بتدمير تازاكورت وقتل عاملها الموحدي وامازير بن حواء الهنتاتي. هذه الأعمال أثارت سخط عبد المومن الذي خاطب على إثرها ساعده الأيمن أبا حفص عمر قائلاً: «*قامت الناقة بحملها يا أبا حفص*» وقد أجابه أبو حفص: «*أيها الخليفة نرقِّدها إن شاء الله*»[134].

عندها جهز أبو حفص فيلقاً خرج على رأسه في اتجاه الجنوب، وأثناء مغادرته لمراكش قتل برمحه رجلين تكهنا شراً للحملة. وقد أرغم بني ييغز على الانسحاب من سوس والفرار إلى آيت للكست حيث يوجد الصحراوي. إثرها واصلت الحملة الموحدية السير عبر وادي سوس، ولما وصلت إلى سيروان أمر أبو حفص بجمع سكان قبيلة بني واوزكيت، الذين سبق لهم التمرد، وضم جزءاً منهم إلى قبيلة تنمل والجزء الآخر إلى قبيلة هنتاتة، وذلك للحيلولة دون قيامهم بتمرد جديد.

وبما أن عدد الجنود الذين يشكلون الفيلق الذي خرج مع أبي حفص كان متواضعاً، فقد اضطر للعودة إلى مراكش ليخبر الخليفة بأهمية التمرد. آنذاك تم إعداد جيش أكبر، قسم إلى خمسة فيالق صدرت الأوامر لاثنين منها للتوجه إلى آيت للكست في حين أُمرت الثلاثة الباقية بالتوجه إلى نول لمطة بجوار وادي نون. وبعد الإغارة على لمطة وإخضاع "سلطان" (شيخ) لمتونة أهوكَار، قامت الحملة وهي في طريق عودتها إلى مراكش بتفريق أفراد قبيلة هشتوكة. وعند وصولها العاصمة، تم عرض ما ظفرته، للبيع بباب الشريعة، وكان يتشكل من نساء جزولة ولمطة ومن ماشيتهم. وقد حصل عبد المومن على نصيبه من الغنائم وكان مقداره 800 جمل. بعد ذلك، وعقب إخماد كل التمردات، أخذ الخليفة طريق تنمل للقيام بزيارته التبركية لضريح المهدي[135].

134- أخبار المهدي، م. س.، ص. 77.

135- Op. Cit., Docs inéd, P. 117.

إعلان الخلافة الوراثية وتعيين ولي العهد

وكانت زيارة عبد المومن لتنملل في بداية سنة 549هـ (يوافق اليوم الأول منها 18 مارس 1155 م). ومباشرة بعد عودته، انتقل إلى سلا للوقوف على أعمال البناء الجارية في الرباط، وهناك استدعى قواته وأعلن رسمياً تعيين ابنه البكر محمد ولياً للعهد حسب ما يؤكده البيدق[136]. وكان عبد المومن واعياً بأهمية الخطوة التي يقدم عليها بإعلانه الخلافة الوراثية، والتي ليس من السهل نجاحها بسبب الطابع التمردي الانفصالي الذي يميز العناصر المختلفة التي تكون أمبراطوريته، لهذا الغرض، ولفرض ما رمى إليه التجأ إلى الطرق الدبلوماسية.

وقد بدأ خطابه أثناء اجتماعه بممثلي هذه القوات، بتوجيه الشكر إلى سلطات وأهالي طنجة وسبتة[137]، على وفائهم للنظام وكذا على المساعدة التي قدموها له شخصياً من أجل إنجاح مشاريعه ومخططاته، في نفس الوقت أخبرهم بالقرار الذي أقدم عليه الموحدون والمتمثل في تعيين ولي للعهد. وهنا تجدر الإشارة إلى أن عدداً من الشيوخ والشخصيات النافذة بمختلف الولايات، بالإضافة إلى عرب بني هلال وصنهاجة وقبائل من المغرب الأوسط، سبق وطلبوا منه ومنذ مدة تعيين ولي للعهد، وأرسلوا لذلك الغرض وفوداً عنهم اقترحوا من خلالها اسم ابنه البكر محمد، إلا أنه أجابهم بأنه لم يفكر في هذا الأمر. وبما أن الوفود التي جاءت من المغرب الأوسط وقبل أن تعود إلى حال سبيلها ألحت في معرفة الجواب، فإنه جمع شيوخ وطلبة الموحدين وعرض عليهم الموضوع موضحاً لهم أنه لم يتخذ القرار بعد، وبحكم أن الموحدين ما كانوا ليرضوا بأن تأتي بادرة تعيين ولي العهد من طرف العرب وقبائل المغرب الأوسط حديثة الخضوع، فإنهم لم يعارضوا تعيين ابن عبد المومن البكر ولياً للعهد، وأعلنوا على لسان أبي حفص عمر أنهم أول من له الحق في اختيار ابن الخليفة أميراً عليهم وولياً للعهد، ليحمل على عاتقه مسؤولية الاصلاح الموحدي ومسؤولية توطيد السلط وكبح جماح كل انشقاق سياسي أو ديني.

وقد بين عبد المومن في خطابه أنه لم يكن هناك أي تدخل أو تخطيط مسبق من طرفه بشأن اتخاذ هذا القرار، وأن الموحدين رحبوا به بعد اقتراحه من طرف أبي حفص عمر، وأنه شخصياً ما صادق عليه إلا من أجل مصلحة الجماعة، عند ذلك مباشرة قام أبو حفص ومعه كل الشيوخ والطلبة الحاضرين بالإعلان عن حفل التعيين.

136- Ibid. P. 118-119.

137- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 13.

ولا يمكن إغفال الدهاء السياسي الذي تمكن عبد المومن بواسطته من جعل الموحدين يطلبون منه وبشكل تلقائي ما كان يتمناه من صميم قلبه، وهنا لا نستبعد أن يكون اللطف والكرم اللذان قابل بهما أمراء العرب المنهزمين، كما مر بنا، والذي اعتبر بمثابة خيانة لأبناء جلدته من البربر، مجرد مناورة هدف من خلالها الحصول على نتائج على المدى الطويل تتمثل في تهييء الجو المناسب لتعيين ابنه البكر ولياً للعهد.

ويرفع ابن الأثير، وهو الذي يورد أكثر من أي مصدر آخر جزئيات حول قرار التعيين، الستار عن نوايا عبد المومن، فيقول إن عاطفته الأبوية جعلته يتراجع في وعده لأبي حفص بتعيينه ولياً للعهد[138]، في وقت رأى فيه أن أبناءه المتعددين والذين حرس دائماً على تربيتهم التربية اللائقة يصلون سن الرشد، ولتنفيذ ما رمى إليه، استعمل العرب الذين استقدم معه من إفريقية والذين لم يبخل عليهم بالهدايا النفيسة، لدرجة جعلتهم يتمنون أن يعين كوريث للعرش أحد أبنائه.

وقد تظاهر عبد المومن حسب ابن الأثير دائماً، بعدم قبوله لطلبهم، بسبب ما يكنه من احترام لأبي حفص والذي كان يحظى بتقدير كل الموحدين. لكن هذا الأخير بعدما رأى ما يجري وتكهن بنوايا عبد المومن، خاف منه على نفسه وأخبره بأنه يتخلى عن رغبته في ولاية العهد، وهو ما جعل الطريق معبداً لتعيين ابن الخليفة البكر لهذا المنصب. ولا تحمل الرسالة التي عين من خلالها عبد المومن ابنه ولياً للعهد أي تاريخ، ويعتقد ليفي بروفنصال الذي قام بنشرها ومقارنتها بالرسالة الموالية التي كتبها عبد المومن في 12 ربيع الأول 551هـ، والتي تتضمن قرار تعيين أبنائه عمالاً على عدد من أقاليم الإمبراطورية، يعتقد أنها تعود لنفس التاريخ. غير أن تعاقب الأحداث وربطها ببعضها البعض يجعلني أرجح أن تاريخ كتابتها هو عام 549هـ، وأن ذلك تم قبيل وقوع تمرد أخوي المهدي، ومما يؤكد ذلك عدم ورود أي ذكر للتمرد في الرسالة. بعد هذا، وبمدة غير قصيرة، عين عبد المومن بقية أبنائه عمالاً على الأقاليم وكانوا قد أنهوا دراستهم. ومن بين الذين تم تعيينهم، هناك ابنه يوسف الذي ولاه أمر اشبيلية وقرطبة، حيث أرسله إلى هناك رفقة الطلبة الأندلسيين الموجودين بمراكش، والذين عينوا بجانبه في المناصب الرفيعة.

مؤامرة أخوي المهدي

وكان عمر الخليفة عندما قرر تعيين ابنه ولياً للعهد أربعاً وخمسين سنة، وعدد أبنائه الذكور أربعة عشر. ورغم كل ما خطط له ليجعل قرار التعيين يحظى باجماع الموحدين، فإن ذلك الإجماع

138- لم يذكر اي مصدر آخر هذا الوعد، وليس من المستبعد أن يكون قد اختلق في وقت لاحق لتبرير استقلال الحفصيين بتونس. الكامل، الجزء التاسع، م. س.، ص. 50-51.

لم يتحقق، وكان هذا سبباً في تدبير مؤامرة خطيرة ضده من طرف أخوي المهدي عبد العزيز وعيسى المعروفين باسم آيت أمغار، واللذين سبق إبعادهما إلى فاس بعد فشل مؤامرتهما الأولى، حيث كلف بمراقبتهما عبد الله الجياني أحد رجال عبد المومن الأوفياء. وقد اقتنع الأخوان أن تعيين محمد بن عبد المومن ولياً للعهد يعني تبخر آخر آمالهما في استعادة إرث أخيهما، لذا قررا التحرك بجدية وبسرعة؛ وهكذا استغلا وجود عبد المومن بسلا، وتوجها إلى مراكش بغية القيام بهجوم مباغت يستوليان من خلاله على السلطة. وبعد مغادرتهما لفاس بشكل سري، أخذا طريق "المعدن" الذي يمر بمكناس وتادلة، وعند وصولهما إلى صنهاجة استقبلا من طرف أهلها استقبالاً حسناً، حيث منحوهما ما يحتاجانه من مؤونة، ومن هناك توجها نحو العاصمة. وقد شجعهما أتباعهما العديدون في مراكش، ومن خلال رسالة مفصلة بعثوا بها إليهما، على مباغتة المدينة والاستيلاء على السلطة.

وعند وصولهما العاصمة، نزلا ببستان يمتلكانه قرب باب الدباغين حيث قضيا ليلتهما، وفي اليوم الموالي أعدا وليمة ذبحا فيها بقرة واستدعيا المتواطئين معهما لتنفيذ الخطة. ومع سقوط الظلام توجها إلى منزلهما بمراكش، وكانا قد اتفقا مع المتواطئين معهما ببدء الهجوم مع طلوع الفجر. وفي الموعد المحدد، قاما مع أتباعهما بمباغتة عمر بن تفراكين الذي تركه عبد المومن مسؤولاً عن أمور المدينة وكان في طريقه إلى المسجد، وحاولا إرغامه على تسليمهما مفاتيح القصر الملكي، لكنه رفض، وبسبب ذلك احتد الجدل بينهما، وهو ما جعلهما يأمران عبيدهما بقتله. وبما أن المؤذن، الذي صعد الصومعة للأذان، سمع الصراخ، فإنه بدأ يصيح قائلاً: «*أغلقوا الأبواب فقد قُتل ابن تفراكين*».

وبعد أن تعذر عليهما فتح أبواب القصر الملكي، ركبا فرسيهما وانطلقا مع المتواطئين معهما صوب المدينة، آنذاك وكان قد طلع النهار، تعرف عليهما الأهالي، لكن بدل الانضمام إليهما، وقفوا بجانب الحامية الموحدية التي خرجت لمواجهتهما، وقد وقعت المواجهة في حي الدباغين القديم، وخلالها قتل أخوا المهدي مع أتباعهما، حيث سقط عبدالعزيز بجوار باب الدباغين وعيسى بجوار باب أيلان، في حين سقط كاتبهما الخاص صريعاً قرب باب أغمات(139).

139- حاول كل من عبدالواحد المراكشي ومؤلف "روض القرطاس" من خلال ما أورداه عن الحادث إضفاء طابع البطولة على تصرف إسماعيل بن يكيگ أحد أعضاء جماعة العشرة حيث بينا وبشكل لا يقبله العقل كيف ضحى بحياته من اجل انقاذ عبد المومن. انظر مقالتي:
La historia y la leyenda en los origenes del Imperio Almohade . Al Aandalus . Vol . XVV . Fasc 2

وبعد أن تم التحكم في الوضع، قام السوقة بجر جثث المتمردين وتعليقها على باب الشريعة، إثر ذلك خرجوا إلى بحيرة أخوي المهدي حيث يوجد أبناؤهما ونساؤهما، وبها عثروا على كيس مليء بالرسائل سلموه لشخص أمين ليحتفظ به، وكان الجابي قد أخبر عبد المومن الموجود في سلا بمغادرة بني أمغار لفاس، مما دفع به ليرسل على وجه السرعة إلى مراكش وزيره أبا جعفر ابن عطية من أجل السيطرة على الوضع، لكن عندما وصل هذا الأخير إلى هناك وجد الأمور قد عادت إلى نصابها. عندها تسلم كيس الرسائل التي قرأها في نفس الليلة، ووضع بناءً على ما تضمنته من معلومات، لائحة بأسماء المتورطين، بعثها مباشرة إلى عبد المومن الذي أمر الحدادين بصنع كميات كبيرة من الأغلال، ومع عودته إلى مراكش واطلاعه على فحوى الرسائل أمر باعتقال ثلاثمئة شخص تم تكبيلهم بتلك الأغلال.

وتظهر لنا حنكة عبد المومن السياسية مرة أخرى، من الخطاب الذي ألقاه في سكان مراكش عقب الأحداث، فبعد أن استدعاهم خاطبهم قائلاً: «*اليوم أعرف أنَّ مالي إخوانا ولا جيرانا غيركم وأنتم أهل الأمانات، بارك الله لنا فيكم*»[140]، ثم وزع عليهم السلاح من سيوف ورماح ودروع وخناجر، وطلب منهم الانتظام في صفين، من مدخل قصر "إيمي-ن-تكمي" إلى باب السجن، إثر ذلك أمر بإخراج المذنبين كل عشرة على حدة حيث تم خصيهم وقتلهم. وعندما كان بعض المذنبين يتساءل عن ذنبه كانت تكشف له الرسالة التي بعث بها إلى بني أمغار والتي تثبت تورطه[141].

تكوين أطر الدولة وتعيين أبناء عبد المومن عمالاً على أقاليم الإمبراطورية

وفي العام الموالي، 550هـ (1155م-1156م)، وعقب زيارته المعتادة إلى تنملل، عاد عبد المومن إلى سلا حيث قضى ما يزيد عن سنة، خصصها للإشراف على أعمال البناء بالرباط. وكان إلى ذلك التاريخ، يختار للمناصب القيادية في الجيش ويعين عمالاً على الولايات الشيوخ والطلبة الذين انضموا إلى الدعوة الموحدية في بدايتها، وهم في معظمهم من أهل الخمسين أو من أهل الدار (خاصة المهدي)، غير أنه ولضمان وفاء مساعديه الأقربين، وضمان انتشار عقيدة التوحيد بشكل أكثر فاعلية، ثم لضمان تكوين موظفين أكفاء ونزهاء، قرر تلك السنة إنشاء مركز تربوي

140- اخبار المهدي، م. س.، ص. 179.

141- Op. Cit., Docs inéd, P. 118-119.

فريد من نوعه. ولتنفيذ مشروعه، طلب من القائمين على مدن إشبيلية وقرطبة وفاس وتلمسان إرسال مجموعات من الشبان المنتمين إلى عائلات معروفة، لضمهم إلى شبان آخرين اختيروا من مصمودة، من أجل استذكار القرآن وموطأ الإمام مالك بالإضافة إلى ما ألفه المهدي. وكانت مدة التكوين بالمركز تدوم ستة أشهر. وحسب صاحب الحلل الموشية فقد تكون به حوالي ثلاثة آلاف شاب. وكان الخليفة يجتمع بطلبة المركز في قصره كل جمعة بعد الصلاة، ليتعرف عليهم ويتأكد بنفسه من مدى تقدمهم في الدرس والتحصيل. وبجانب حرصه على تكوينهم في علوم الشريعة بشكل عام، حرص على أن يقوموا بشكل منتظم بالتمارين الرياضية والعسكرية، حتى يتمكنوا من أداء المهام التي سوف تناط بهم بعد تخرجهم، على الوجه الأكمل؛ وهكذا خصص يوماً للفروسية وآخر للرماية وثالثاً لسباق القوارب ورابعاً للسباحة في مسبح يزيد طوله عن 500 متر، شيده الخليفة بجوار حديقة قصره، وكان يتكفل بكل مصاريف المركز، أكثر من ذلك كان يشجع المتفوقين بالجوائز ويعاقب في المقابل المتهاونين[142].

وقد تتبع التكوين بالمركز، وباستثناء ولي العهد، بقية أبنائه الذكور الثلاثة عشر الذين حصلوا عقب تخرجهم منه على لقب الحفاظ. وبعد أن تبين له بأنهم يتوفرون على التكوين اللازم الذي يؤهلهم لشغل مناصب عمال الأقاليم، خطط لاقناع الموحدين بذلك بنفس الطريقة التي خطط بها من قبل لتعيين ولي العهد، حسب ما نستشفه من الرسالة التي بعث بها إلى أهل سبتة[143].

لقد كان هؤلاء يعلمون بالكيفية التي تم بها تعيين محمد ولياً للعهد، لذا أخبرهم من خلال الرسالة، أن وفداً عن القبائل العربية قدم من المغرب الأوسط يطلب منه تعيين ابنه البكر عاملاً عليهم، لكن وبحكم أن هذا الأخير تم تعيينه ولياً للعهد، فقد ترجوه ليرسل ابناً آخر له عاملاً عليهم، لأن ذلك سوف يضمن السلم والاستقرار للبلاد. وبعد استشارته -حسب الرسالة- للشيوخ والطلبة وغيرهم من كبار الموظفين، تحمسوا جميعاً لهذا التعيين، وألحوا عليه للقيام به، بل وتعميمه من خلال تعيين أبنائه الآخرين على بقية الأقاليم. وقد تقدم مباشرة بعد ذلك -دائماً حسب الرسالة- وفد تلمسان وطلبتها بطلب مشابه، وبعد أيام تقدم وفد من ممثلي المنطقة الشمالية الوسطى بنفس الطلب، حيث رغبوا في تعيين أحد الأمراء عاملاً على غمارة، لكنهم عدّلوا طلبهم بعد ذلك، واقترحوا أن يتولى الأمير المعين في الوقت ذاته السلطة في طنجة وسبتة وساحل الأندلس الذي

142- نظم الجمان، م. س.، ص. 132. والحلل الموشية، م. س.، ص. 125.

143- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 14.

يضم كلاً من الجزيرة الخضراء وطريفة ومالقة. وكانت الغاية من تعيينه على كل هذه المنطقة، ضمان استمرار المواصلات البحرية عبر المضيق، وفي نفس الوقت الإشراف على إنشاء الأسطول الحربي اللازم، والذي سوف يقوم بالحملة الكبيرة المزمع توجيهها ضد الكفار.

وكما كان الشأن أثناء تعيين ولي العهد، حاول عبد المومن أن يقنع أهل سبتة، من خلال الرسالة، أن لا دخل له فيما تقدم به الشيوخ والطلبة وكبار الموظفين من طلبات واقتراحات بشأن تعيين أبنائه كعمال على الأقاليم، ومع ذلك فإنه قرر، بعد مناقشة الموضوع مع مستشاريه، أن يعين بجانب كل واحد من أبنائه مجلساً من الطلبة والحفاظ والقضاة والفقهاء وغيرهم من الأشخاص الموثوق بهم، هذا بالإضافة إلى مجموعة من الضباط المتمرسين والذين سوف يساعدون العامل على تكوين الجنود وحسن استخدامهم، وعلى الحفاظ على العقيدة الموحدية الحقة.

وقد عين السيد أبا محمد عبد الله على بجاية والمنطقة الواقعة شرقها، واستوزر له أبا سعيد يخلف وهو من أهل الخمسين، وككاتب خاص أبا بكر بن حبيش، وعين السيد عمر على تلمسان ووضع بجانبه كوزير عضو أهل الخمسين عبد الحق بن وانودين وككاتب خاص عبد الواحد ابن عياش، وعين السيد يوسف (يوسف الأول فيما بعد) على اشبيلية ووضع بجانبه كوزير أبا جعفر أحمد بن عطية، وعين على فاس السيد أبا الحسن علي، الذي وضع بجانبه كوزير عضو أهل الخمسين يوسف بن سليمان وككاتب أبا العباس بن مضا اللخمي، في حين عين على ضفتي المضيق (سبتة وطنجة والجزيرة الخضراء ومالقة) السيد أبا سعيد، أما على سوس فقد عين السيد أبا عبد الرحمن -كان من أم لمطية- لكنه لم ينتقل إليها بسبب صغر سنه، وأخيراً عين على تادلة السيد أبا الربيع سليمان[144].

وفي 5 جمادى الثانية 551هـ (26 يونيو 1156م) غادر عبد المومن سلا بعد أن أرسل أبناءه إلى المناطق التي عينهم عليها، وقد عاد إثر ذلك لمراسلة سكان سبتة ليخبرهم بالنجاح الذي حققه ضد أعداء النظام، وبالتحريات التي يقوم بها ليصل إلى مصدر كل تمرد، والغيرة التي يعمل بها الموحدون قاطبة من أجل بعث الإيمان الصحيح في النفوس وكذا من أجل إخماد الشقاق وإدامة الإيخاء[145].

144- الحلل الموشية، م. س.، ص. 151؛ العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.491. الكامل، م. س.، الجزء التاسع، ص. 50-51؛ Docs ined, P. 116.

145- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 15.

ويقول ابن الأثير إنه ولتنحية كبار شيوخ الموحدين، الذين شكلوا في الماضي حرس المهدي، من المناصب المهمة التي كانوا يشغلونها، أمر بتعليم أبنائهم مع أبنائه، ثم بعد ذلك استدعاهم واقترح عليهم ترك مناصبهم لأبنائهم، لأنهم يتوفرون على تكوين أكثر متانة، على أن يبقوا هم بجانبه. وكان من بين هؤلاء الشيوخ من رفض تعيين أبنائهم دون أبناء الخليفة، والذين لا يقلون ثقافة وعلماً، في المناصب المهمة، لذا طلبوا منه تصحيح هذا الوضع غير العادل. وقد تظاهر هو وبدهاء بالرفض في البداية، ثم بين بعد ذلك أنه لم يقبل إلا تلبية لطلبهم حيث عين أبناءه عمالاً على الأقاليم[146]. وفي نظرنا فإن رواية ابن الأثير هذه تفتقد للمصداقية على اعتبار أن من رافق السادة عند تعيينهم عمالاً على الولايات كمستشارين وأوصياء هم كبار شيوخ الموحدين وليس أبناءهم.

وإلى هذه الفترة كذلك تعود رسالة أخرى غير مؤرخة، يتحدث من خلالها الخليفة عن المجهودات المتكررة التي قام بها لمحاربة الفساد والاعوجاج، ويذكر أنه استدعى القائمين على القبائل، وطلب منهم أن يحثوا أبناء قبائلهم على قراءة القرآن ودراسة التوحيد، كما يذكر كيف أن ذلك قوبل بالإيجاب من طرف مختلف القبائل. وقد قسم هذه القبائل بشكل نهائي عند اجتماع القائمين عليها في العاصمة إلى ثلاث مجموعات، وضع كل واحدة منها في مرتبة معينة، وهو ما جعل كل مجموعة تعرف قدرها واستحقاقاتها. وكان ضمن المجموعة الأولى، القبائل التي اعتنقت التوحيد وقبلت دعوة المهدي منذ البداية، وكذا تلك التي شارك أبناؤها في معركة البحيرة، وضمن المجموعة الثانية القبائل التي انضمت للدعوة الموحدية ما بين معركة البحيرة واحتلال وهران، وضمن المجموعة الثالثة كل القبائل التي انضمت للموحدين منذ احتلال وهران وإلى الوقت الذي تم فيه التقسيم[147].

ويتحدث صاحب "روض القرطاس" عن رسائل أخرى وجهها سنة 550هـ لطلبة الأندلس وبلاد المغرب يطلب منهم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإحراق كتب الاجتهاد الفقهي والاكتفاء بالقرآن والسنة. والواقع أن كتابة عبد المومن لهذه الرسائل ومنحها طابعاً رسمياً يرجع إلى عوامل نذكر من بينها الرغبة في القضاء على التمردات -آخرها تمرد أخوي المهدي- وتوطيد أسس الإصلاح الموحدي، وإعطاء قضية ولاية العهد طابعاً وراثياً.

وعقب هذه الإجراءات البيروقراطية والدعائية، خصص الخليفة ما تبقى من سنة 551هـ لتهيىء الحملة المزمع توجيهها ضد ألمرية. وكانت الحملة التي سبق وأن وجهها ضد بجاية

146- الكامل، الجزء التاسع، م. س.، ص. 50-51 .

147- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 8.

والتمردات الداخلية ثم الانشغالات السياسية التي هدف من خلالها حصر الحكم داخل أسرته، قد حالت دون قيامه بالجهاد في الأندلس، لذا اعتبر بعد فراغه من كل ذلك، أن الوقت حان للشروع في الجهاد، خصوصاً وأن الأندلس كانت تستنجد به وتستصرخه ضد هجومات ألفونسو السابع المتكررة. وجاء اختياره لألمرية بعد أن تداول الموضوع بشكل متأن ومطول مع مستشاريه، حيث تبين للجميع أنها أنسب مكان لتوجيه الحملة؛ فهي مدينة كبيرة تربط غرب الأندلس بشرقها، وتتوفر على ميناء مهم يصل المناطق القارية بالمناطق البحرية. وقبل إعطاء إشارة الانطلاق، استدعى إلى مراكش الطلبة المكلفين بتسيير الشؤون الإدارية في ولاية غرناطة، وأعطاهم التعليمات المتعلقة بتهييء الجيش الذي سيقوم بحصار ألمرية من جهة البر، في وقت صدرت الأوامر لحامية سبتة لتقوم بالحصار من جهة البحر. وقد تولى قيادة الحملة الأمير أبو سعيد عثمان الذي عين قبل ذلك بمدة قصيرة عاملاً على غرناطة.

ولا نعرف بالضبط تاريخ بداية ولا نهاية الحصار، غير أن هناك رسالة لعبد المومن تتضمن بعض الإشارات التي يمكن أن تساعدنا على ضبط مراحل الحملة من الناحية الكرونولوجية؛ فقد حررت في الأيام العشر الأولى من شعبان (ما بين 8 و17 سبتمبر)، ومنها نعلم أنه ومع اقتراب الموحدين من ألمرية، قامت مجموعة من المسيحيين المدافعين عنها بالتمركز في المرتفعات والمنخفضات المجاورة لها، في وقت شن فيه المحاصرون هجوماً على المدينة ثم على القصبة التي التجأت إليها حامية المدينة. وقد استنجدت هذه الأخيرة بابن مردنيش، وكان يعتبر ألمرية تابعة لمنطقة نفوذه، لذا حاول وبتنسيق مع الفونسو السابع (السليطن) واعتماداً على الأعداد المهمة من القوات التي معهما فك الحصار، غير أنهما لم ينجحا في ذلك مما اضطرهما إلى الانسحاب. ولا تقدم لنا المصادر التاريخية أية معلومات إضافية عن أسباب فشل محاولة ابن مردنيش وألفونسو في فك الحصار.

ويظهر أن الحامية المسيحية قاومت الحصار لمدة طويلة نسبياً، أي الوقت الكافي الذي تطلبه، من جهة إخبار ابن مردنيش وتنسيق هذا الأخير مع ألفونسو، وجمعهما لقواتهما وتوجيهها لنجدة الحامية المحاصرة، ومن جهة أخرى إخبار عبد المومن من طرف الطلبة الذين يشرفون على الحصار، بمجيء قوات ألفونسو وابن مردنيش من أجل فك الحصار.

وما أن وصل الخليفة الخبر، حتى جهز جيشاً آخر تولى قيادته بنفسه، غير أنه وبعد أول محطة توقف عندها، تلقى خبر انسحاب ابن مردنيش وألفونسو. وقد قام المحاصِرون بعد ذلك

بتضييق الخناق على القصبة التي نجحوا في احتلالها إثر مهاجمتها. وكرد فعل على هذا، توجه المسيحيون إلى غرناطة بغية مباغتتها واحتلالها، مستغلين في ذلك عدم توفرها على ما يكفي من القوات للدفاع عنها، على اعتبار أن جل ما كان بها وجه إلى قصبة ألمرية، غير أن استماتة الحامية التي تخلفت بها جعلت المسيحيين يقتنعون باستحالة احتلالها ونهبها.

وبعد استسلام قصبة ألمرية، قامت الجيوش الموحدية بتعقب العدو إلى غاية بياسة والتي استقبلتهم ساكنتها المسلمة استقبال الفاتحين. وقد حاول عدد من أفراد الحامية المسيحية الموجودة بالمدينة المقاوِمة، لكن رد فعل الساكنة المسلمة أرغمتها على الفرار إلى حصن أبذة الذي تعقبتهم إليه القوات الغرناطية، التي نجحت في احتلاله واحتلال عدد من الحصون المجاورة له.

وقد توفي ألفونسو السابع بقرية "فريسندة" Fresenda ، مباشرة بعد عبوره لثغر موراداان الواقع بمنطقة العقاب الجبلية، وكان ذلك في 21 غشت 1157م[148].

ومما لا شك فيه أن انسحاب المسيحيين من ألمرية ومحاولتهم احتلال غرناطة ثم جلاءهم عن بيسة وأبذة ووصولهم إلى غاية "فريسندة"، تم خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من غشت، وهو ما يعني أن احتلال ألمرية من طرف المسلمين حدث قبل هذا التاريخ بقليل، أي نهاية يوليوز أو بداية غشت. وكانت مدة الحصار حوالي سبعة أشهر، ومن نتائجه قيام ألفونسو وابن مردنيش بإرسال جيوش النجدة لفكه ووصول الإنذار بذلك إلى مراكش وخروج عبد المومن على رأس قوات جديدة قاصداً الأندلس.

استناداً إذاً إلى المدة التي استغرقها الحصار وإلى المعطيات الأخرى التي أسلفناها، نخلص أنه بدأ في مطلع فصل الربيع، ذلك لأن الموحدين ما كانوا ليغامروا ويبدؤوه في فصل الشتاء، رغم أن الأمر يتعلق بمدينة ألمرية ذات المناخ المعتدل خلال هذا الفصل[149].

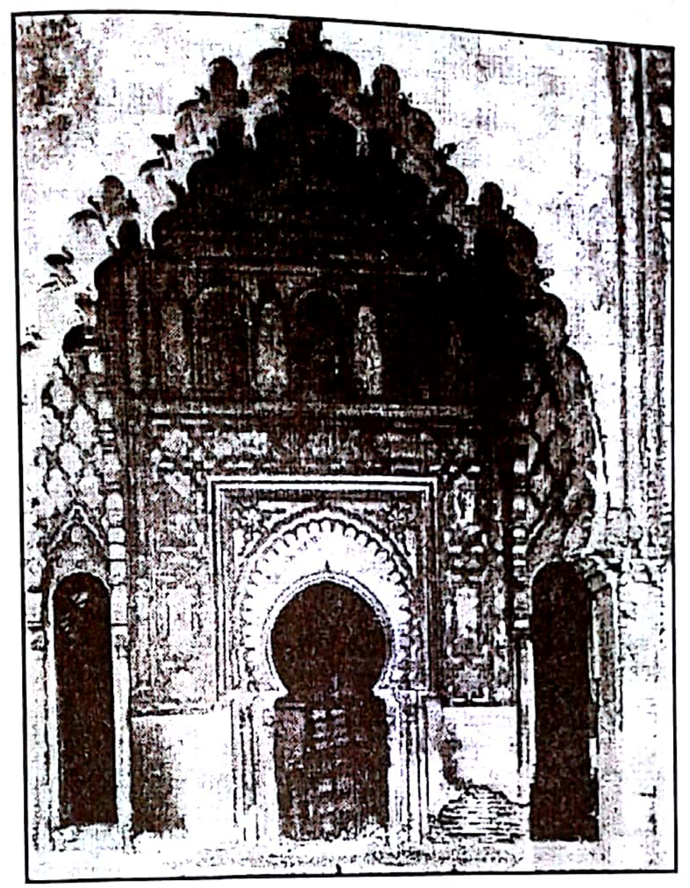
إنشاء حديقة مراكش وزيارة تنملل

وفي الوقت الذي كان يجاهد في الأندلس، لم يغفل عبد المومن وعلى غرار عظام الملوك، القيام بمشاريع عمرانية كبيرة وإضفاء طابع الأبهة والجمال على عاصمة ملكه. ويخبرنا البيدق في هذا الإطار، أنه أثناء عودته من سلا عام 551هـ[150]، شيد بضواحي مراكش حديقة

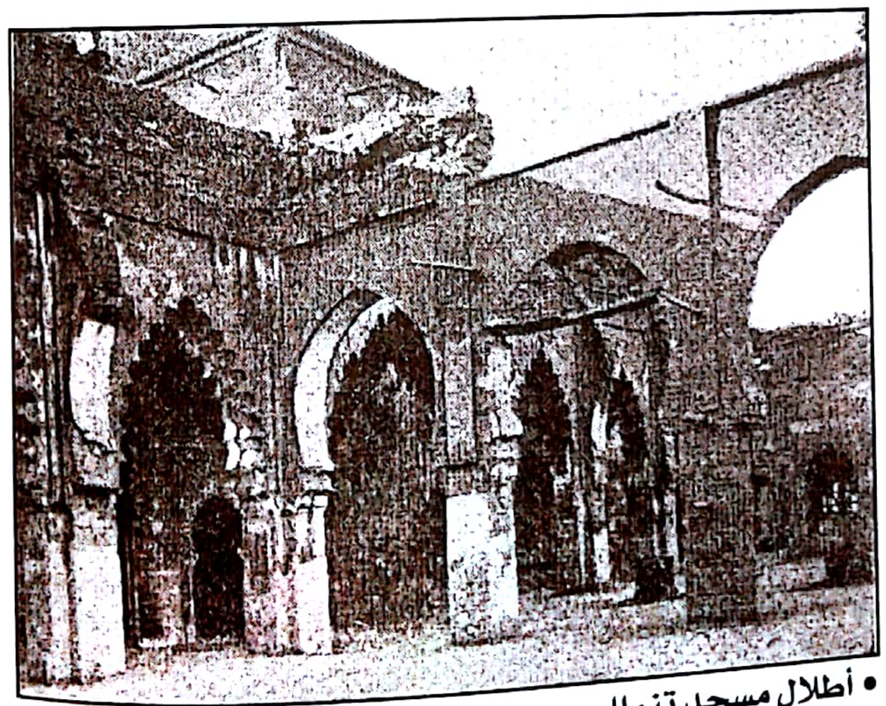
148- Anales toledanos . P 348 del tomo primero de "mis" Cronicas Latinas de la Reconquista.

149- لم يجد الموحدون صعوبة في احتلال المركز الحضري للمدينة ذي الساكنة المسلمة، لكن القصبة صمدت لحصارهم إلى نهاية فصل الصيف تقريباً.

150- يخطئ صاحب الحلل الموشية في تحديد سنة عودة عبدالمومن من سلا حيث يجعلها في 543هـ، م. س.، ص. 120.



• محراب مسجد تنملل



• أطلال مسجد تنملل

شنطولية[151]. التي تمتد على مساحة ثلاثة أميال طولاً وما يوازي ذلك عرضاً، وقد غرس بها كل ما يخطر على البال من الأشجار المثمرة، وجلب إليها قنوات المياه من أغمات، كما حفر بها عدداً من الآبار والسواقي. ويقدر ابن اليسع قيمة ما كانت تنتجه من الفواكه ومن الزيوت المستخلصة من أشجار زيتونها بـ30 ألف دينار مومني، وذلك على الرغم من انخفاض أسعار هذه المواد. ومما يورده عبد الواحد المراكشي عن هذه الحديقة، أن الخليفة استقبل مرة في أحد أجنحتها الوزير أبا جعفر بن عطية، وكان مكان الاستقبال يسمح برؤية شاملة لها، وهو ما جعل الوزير يعبر بنوع من المبالغة عن الأثر الذي يتركه جمالها في النفس. وبعد أيام من ذلك استدعاه الخليفة لحضور استعراض عسكري، وهناك توجه إليه قائلاً بأن منظر الجيوش المنظمة تنظيماً محكماً، أجمل من منظر الأشجار والفواكه والأزهار[152].

وكان الشخص الذي كلفه عبد المومن بالإشراف على هذه الحديقة الشاسعة هو أحمد بن ملحان؛ وهو من ملوك طوائف الأندلس، سبق واستقل بقادس على عهد ابن حمدين. وبفضل استثماره في الفلاحة أصبح أغنى رجل في عصره، وكان في خدمته علماء مشهورون من بينهم ابن طفيل وأبو الحكم هردوس. وبسبب مضايقات ابن مردنيش الذي كان يرغب في الاستيلاء على ثرواته، أعلن خضوعه للموحدين عام 546هـ (1151 م) حيث نقل إلى مراكش التي تولى بها إدارة أمور الزراعة والري بالبحيرة[153].

وبعد إنشاء هذه الحديقة الرائعة التي تليق بعاصمة الأمبراطورية، وبعد النجاحات التي حققها جيشه في الأندلس، خصص عبد المومن ما تبقى من سنة 1157م لرحلة تفقدية طويلة عبر خلالها كل السهول المحيطة بالأطلس الكبير من جهة الشمال، قبل أن يعبر وادي سوس فالأطلس الصغير ثم "تيزي ن تست" (ممر بين جبلين) الذي انتقل بعد اجتيازه، إلى تنملل للقيام بزيارة تبركية لضريح المهدي.

وكان هدف عبد المومن من عبور أراضي القبائل التي تكون نواة الحزب الموحدي والاتصال مباشرة مع أهاليها وإلقاء الخطب العمومية فيهم، كسب دعمهم وتأييدهم للعقيدة الموحدية. ولتحقيق هذه الغاية، استدعى لمرافقته عدداً من الأعيان والشيوخ والطلبة والحفاظ. وقد استقبل خلال الرحلة المذكورة ممثلي قبائل جدميوة وجنفيسة ومصمودة وركراكة وحاحة التي التقى فيها

151- أخبار المهدي، م. س.، ص. 79.

152- المعجب، م. س.، ص. 294-295.

153- ابن الخطيب، لسان الدين، أعمال الأعلام، تحقيق أحمد المختار العبادي، دار الكتاب، الدار البيضاء 1964، ص. 304.

كذلك بوفد عن كونفدرالية كزولة للكست كان يقصد مراكش بهدف تقديم الولاء. وبعد أن تلقى منه ذلك وبين له الالتزامات التي تترتب عنه حسب عقيدة المهدي، أخذ طريق الأطلس عبر الساحل ووصل إلى سوس في فاتح رمضان (7 أكتوبر 1157م)، حيث نزل بعاصمة الإقليم تارودانت، التي زارته فيها وفود قبائل أخرى جاءت لتقديم الولاء كذلك. بعدها قام الموكب الملكي بزيارة الأماكن التي شرفها المهدي بمروره بها، وهكذا توقف لعدة أيام بإيجليز حيث زار الخليفة المسجد الذي بناه المهدي والمغارة (الغار المقدس) التي كان يلقي بها دروسه ومواعظه. وطيلة مدة وجود الموكب هناك، كان القرآن يتلى بالمسجد ليل نهار ودون توقف. وخلال مدة إقامته بإيجليز عقد الخليفة عدة لقاءات بمشايخ هرغة كما أمر بترميم "الغار المقدس".

وعقب مغادرة الموكب سوس، اتجه إلى أنسا بخاصرة الأطلس حيث كان بانتظاره ممثلو تنمل وهنتاتة وغيرها من قبائل المنطقة، كما حضر كذلك ممثلو قبيلتي صنهاجة وهسكورة الجنوب والذين جاؤوا لتقديم الولاء بشكل رسمي. وفي متم شهر أكتوبر، ومع اقتراب فصل الخريف من نهايته، قرر عبد المومن ختم السفر بزيارة ضريح المهدي في تنمل. وأثناء توجهه إليها، وبعد يوم واحد من مغادرته أنسا، حضرت وفود جديدة من هسكورة وجزولة وقبائل جبلية أخرى لتجديد الولاء، رافقته إلى غاية تانسيفت. وقد حضرت إلى تنمل وفود أخرى لنفس الغاية. وبعد القيام بهذه الزيارة الالزامية لضريح المهدي ومسجده، أخذ طريق العودة إلى مراكش، ترافقه أمطار الخير التي اخضرت بواسطتها السهول. وكان وصوله إلى عاصمة ملكه في 28 رمضان (4 نوفمبر 1157م).

مقتل ابن عطية ونشوب النزاع في الأندلس

وخلال فصل الشتاء ذاك والذي قضاه عبد المومن بمراكش، بدأ بتجهيز حملة ثانية سوف يقودها بنفسه عام 553هـ إلى إفريقية، وكانت لا تقل أهمية من حيث العدة والعتاد عن الحملة الأولى، لكن قبل ذلك وبسبب عدم ثقته في كل من سبق له أن عمل مع المرابطين، قرر تصفية كاتبيه الخاصين وكذا ابن الصحراوية. وكان عبد المومن قد عين عام 551هـ ابنه السيد يوسف حاكماً على اشبيلية، حيث توجه إليها رفقة حوالي خمسين من الشبان الإشبيليين الذين تلقوا تعليمهم بمراكش، وكان يرافقه كذلك أحمد بن عطية الذي عينه عبد المومن وزيراً ومستشاراً ليوسف، وأمره بعد أن يستقر الأمير في إشبيلية، بالذهاب إلى المرية لتقديم الدعم اللازم للسيد أبي سعيد عثمان الذي كان يحاصرها. وبعد احتلال المرية، توجه ابن عطية وبسرعة نحو غرناطة

التي سبق إليها ألفونسو الذي حاول احتلالها كما مر بنا. إثر ذلك عاد إلى اشبيلية ليكون عوناً وسنداً ليوسف والذي نجح في احتلال طبيرة والقضاء على تمرد المدعو الوهيبي.

وأثناء غيابه عن مراكش، نجح خصوم ابن عطية وحساده، والذين ارتفع عددهم بارتفاع المرتبة التي أصبحت له داخل البلاط، في تدبير مكيدة ضده، حيث أقنعوا عبد المومن بميوله المرابطية وبعدم صدق ما يتظاهر به من تشبع بالعقيدة الموحدية. ومن بين الذين دبروا المؤامرة، شخص من أقارب الخليفة يدعى عبد السلام كان يسعى للوزارة، غير أن وشاية هذا الأخير لم تؤثر في الخليفة بقدر ما أثرت فيه وشاية مروان بن عبد العزيز، وهو من ملوك الطوائف السابقين، آل إليه في وقت ما أمر بلنسية، وكان قد دخل بسبب عدائه الكبير للمرابطين، في مواجهة دموية معهم انتهت بوقوعه بيدهم في منطقة ألمرية وبنقله إلى جزيرة ميورقة الموجودة تحت حكم عبد الله بن غانية، والذي سجنه في زنزانة مظلمة مدة طويلة تراوحت بين عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة[154].

وبفضل شفاعة ابن عطية لدى إسحاق بن غانية أخي عبد الله وخليفته، أطلق سراح ابن عبد العزيز الذي أرسل إلى بجاية ومنها انتقل إلى مراكش حيث قدمه ابن عطية للخليفة. بعد ذلك وعقب ما ألصق بابن عطية من تهم أثناء وجوده في الأندلس، وبدل أن يقوم ابن عبدالعزيز بالدفاع عنه ورد الجميل الذي له في ذمته، كان من أشد المتحمسين للإيقاع به، لأن حقده على المرابطين، والعز والحظوة اللذين نالهما ابن عطية على عهد وجوده في خدمتهم، كان أكبر من يذكره بذلك الجميل، وهكذا نظم قصيدة شعرية زادت من شكوك عبد المومن في اخلاص ابن عطية[155].

وقد وصلت هذا الأخير أخبار ما يحاك ضده في البلاط الموحدي، أثناء وجوده بجانب السيد يوسف في إشبيلية وكان ذلك عام 552هـ، وبسبب انشغاله لذلك، قرر العودة إلى مراكش بهدف استعادة ثقة الخليفة به، وبالفعل تمكن من اقناع هذا الأخير ببراءته وعين من جديد وزيراً. وبما أنه علم أن صهره ابن الصحراوية وجهت له نفس التهم، فقد أرسل زوجته (أخت ابن الصحراوية) لتخبر هذا الأخير بالأمر وتطلب منه التظاهر بالمرض إذا ما استدعي إلى البلاط، وفي نفس الوقت يفر إلى إحدى الموانئ التي يمكن أن يبحر منها نحو ميورقة. لكن وبسبب عدم اتخاذ ابن الصحراوية للاحتياطات الضرورية افتضح الأمر، حيث وصل خبر كل ذلك إلى عبد المومن الذي أمر باعتقال الرجلين وكذا الكاتب الخاص للخليفة، العاقل أخي أحمد بن عطية[156].

154- حول السيرة الذاتية لهذا الأخير، انظر الحلل الموشية. م. س.، ص. 215، والبيان المغرب، م.س.، ص.57-58.

155- الإحاطة، م.س.، ص. 268 .

156- المعجب، م. س.، ص. 291-292.

وقد فضل عبد المومن في البداية، وكان كثير الاعجاب بخصال ابن عطية و مواهبه الأدبية، التريث في اصدار قرار الاعدام، لكن تخوفه من قيام المرابطين وأتباعهم، أثناء الحملة الطويلة التي ينوي القيام بها إلى إفريقية، بمحاولة جديدة لاستعادة سلطتهم المفقودة، دفعته لاتخاذ هذا القرار. وهكذا أودع، قبل خروجه في حملته التبركية إلى ضريح المهدي في صفر 553هـ (مارس 1158م)، ابن الصحراوية السجن (بقي فيه إلى وفاته)، بينما حمل معه كأسيرين الأخوين ابن عطية. وفي 31 مارس من نفس السنة، ومع عودته إلى مراكش، أمر بقتلهما عند الدغل المحادي لحصن أغمات بجوار الملاحة التي توجد هناك. وكان عُمر أحمد بن عطية 36 سنة أما أخوه العاقل فلم يكن قد تجاوز 23 سنة. وأثناء وجوده في السجن وكذا خلال سفر عبد المومن إلى تنملل، كتب له أحمد بن عطية رسائل وقصائد شعرية مليئة بالمعاني والحكم، يناشده من خلالها العفو ويتضرع فيها إلى المهدي الذي كان يؤمن بدعوته، غير أن كل ذلك لم يحل دون النهاية التعيسة التي كانت تنتظره[157].

من جهة أخرى، فإن السيد يوسف الذي تمكن خلال وجود ابن عطية بجانبه في الأندلس من إخضاع طبيرة التي تمرد بها المدعو الوهيبي، والمرية التي سقطت بيد القوات الموحدية التي كان يقودها أخوه أبو سعيد، عاش بعد ذلك محنة كبيرة؛ فقد وصلت كتائب آبلة المسيحية إلى غاية إشبيلية وهزمت يوسف في مواجهة قتل خلالها اثنان من ملوك الطوائف السابقين هما أبو الغمر عزون صاحب شيريس ومحمد بن الحجاج صاحب بطليوس، بالإضافة إلى عدد من شيوخ وطلبة الموحدين.

ويقول البيدق إن ابن مردنيش وابن همشك ومدار الأقرع كانوا رفقة القوات المسيحية التي هزمت الأمير يوسف في إشبيلية، وقد قتل حسبه في المواجهة بالإضافة إلى صاحبي شيريس وبطليوس (يسميه ابن علي) صاحب يابرة وباجة سدراي بن وزير، الذي سبق وأن ساهم بشكل فعال في إخماد تمرد ابن قصي، وعدد من شيوخ الموحدين من بينهم عمر بن ميمون الهرغي ومحمد بن عمر الصنهاجي ويحيى بن أبي بكر الجبر وكذا الملقب بعين الزجاج وهو ابن واسنار والذي كان من خاصة المهدي. وقد تمكن الأمير يوسف من النجاة بأعجوبة بعد نجاحه في الفرار من إشبيلية ليلاً، وكان والده عبد المومن يوجد وقتئذ في مراكش[158].

157- نشر هذه القصائد صاحب روض القرطاس، م. س.، ص. 257-268.

158- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 186.

خروج الحملة إلى إفريقية

في تلك الأثناء كان عبد المومن قد انتهى من الاستعدادات المتعلقة بأعمال الجهاد التي كان ينوي القيام بها ضد نورمان صقلية والذين احتلوا المدن الساحلية من إفريقية. وكانت مغادرته لمراكش في فاتح شوال 553هـ (26 أكتوبر 1158م)، حيث توجه إلى سلا التي كانت قواته متمركزة بها، ومن هناك أرسل وزيره الجديد عبد السلام، بحراً إلى الأندلس للقيام بزيارة تفقدية سريعة أملتها التطورات الأخيرة التي عرفتها المنطقة. وبعد زيارته لكل من إشبيلية وغرناطة وقرطبة ونقله أوامر الخليفة لطلبتها، قفل عائداً إلى المغرب بعد خمسة عشر يوماً فقط من مغادرته[159].

وانطلاقاً من سلا، أو بالأحرى انطلاقاً من الرباط، اتجه عبد المومن على رأس قواته إلى تلمسان، حيث انضم إليه عاملها ابنه السيد أبو حفص، بعدها انتقل إلى بجاية حيث انضم إليه عاملها وابنه الآخر السيد عبد الله. وكان يرافق عبد المومن خلال الحملة صاحب المهدية السابق الحسن بن علي. وقد وصل الخليفة وقواته إلى مشارف تونس في 24 جمادى الثانية 554هـ (13 يوليوز 1159م)، أي بعد ثمانية أشهر ونصف من مغادرته مراكش، وستة أشهر من مغادرته سلا، وهو ما يعني أن الإيقاع الذي سارت به الحملة كان بطيئاً؛ على اعتبار أن الفارس يقطع عادة المسافة بين سلا وتونس في ستين يوماً. ويقدم لنا صاحب الحلل الموشية[160] معلومات مفصلة عن الكيفية التي كان يتنقل بها الجيش الموحدي عندما يكون على رأسه أمير المؤمنين، فاليوم يبدأ بعد صلاة الفجر، بعد أن يضرب على طبل كبير ثلاث ضربات متتالية، وكان هذا الطبل ذا لون داكن، منمق بالذهب، يصل محيط دائرته إلى خمس عشرة ذراعاً، ويصل صدى ضرباته إلى مسافة نصف يوم مشياً على الأقدام إذا لم تكن هناك رياح. وكان الجميع يعلم أن الضربات الثلاث تعني الاستعداد للرحيل. وبما أن الجيش كان يقسم إلى أربعة فيالق، فإن كل واحد منها كان يعرف مسبقاً اليوم الذي عليه أن يغادر فيه المخيم، وكذا مورد الماء الذي سيحط بجانبه خلال المرحلة اللاحقة والتي تنتهي وقت الظهيرة مع حلول موعد الغداء والاستراحة، ولم يكن يستأنف السير بعد ذلك إلا في فجر اليوم الموالي.

ولا تبدأ الجيوش بالتحرك إلا عندما يركب الخليفة جواده، وكان موكبه يتكون من خاصته التي تهتف داعية له بطول العمر لحظة الانطلاق، ومن حوالي مائة فارس يتقدمونه، وكانت

159- المن بالإمامة، م. س.، ص. 112-113.

160- الحلل الموشية. م. س.، ص. 152.

تتوسطهم ناقة وضع عليها هودجا علقت بجوانبه الأربعة رايات حمراء، وفوق ذلك الهودج وضعت وبعناية، نسخة من القرآن -يعتقد خطأً أنها نسخه عثمان- أرسلت للخليفة من قرطبة حيث أنفق على تزيينها الأموال الطائلة. وكان يوجد ضمن الموكب كذلك أبناؤه، وعلى رأسهم ولي العهد، حيث يأخذون مكانهم مباشرة خلفه، ويأتي بعد هؤلاء حاملو الرايات والطبول، فكبار رجال الدولة والذين يتبعهم بقية الجيش بشكل منتظم ودون أي ازدحام؛ بحيث إنه وقبل أن يضرب المخيم تكون كل قبيلة قد عرفت المكان الذي ستحط به دون أن يجرؤ أحد غيرها على شغله. وكان يرافق الحملة العدد الكافي من الحرفيين وذلك لتلبية حاجياتها كل في مجال تخصصه.

احتلال تونس والمهدية وقفصة

ويشير البيدق إلى أن سكان تونس لم يبدوا عند وصول عبد المومن إليها أية مقاومة ذات بال، بحيث استسلموا مباشرة[161]، بخلاف ذلك يؤكد المراكشي أن المدينة تم احتلالها عنوة[162]. أما صاحب الحلل الموشية فيقول إن سكان المدينة طلبوا الأمان الذي منح لهم لكن بعد مصادرة أملاكهم التي تم بيعها[163]، ويقدم لنا التجاني معلومات مفصلة عن الحملة، إذ يخبرنا أن صاحب المهدية السابق الحسن بن علي الذي سبق له وأن استسلم للموحدين ونُقل إلى مراكش، حيث أصبح من خاصة الخليفة، كان يحض هذا الأخير باستمرار على العودة إلى إفريقية من أجل طرد المسيحيين من المهدية، وقد قبل عبد المومن بذلك في نهاية المطاف حيث انطلقت الحملة عام 554هـ (1159م)، وكان هدفها الرئيسي القضاء على مملكة بني خرسان بتونس. وعند وصول الخليفة إلى باجة استعرض قواته وكان عددها مائة ألف من الفرسان وما لا يحصى من المشاة، ومن هناك أرسل من يعرض على سكان تونس العفو والأمان، لكنهم رفضوا معتقدين أنه بامكانهم إعادة ملحمة عام 552هـ (1157م) عندما نجحوا في هزم عبد الله بن عبد المومن، الذي الحقوا بقواته أضراراً كبيرة عندما حاولت محاصرتهم، مما أرغم السيد على الانسحاب بطريقة مهينة[164].

161- أخبار المهدي، م. س.، ص. 80.

162- المعجب، م. س.، ص. 333-334.

163- الحلل الموشية، م. س.، ص. 153.

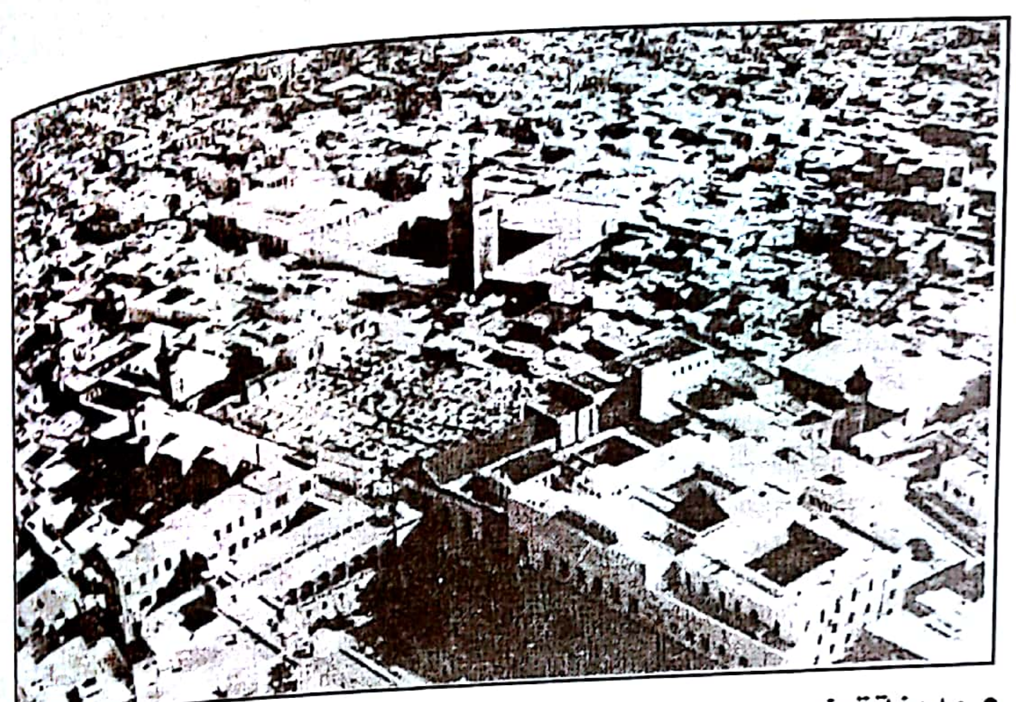
164- هناك توافق بين المعلومات التي يقدمها كل من النويري والتجاني عن الحصار، والخلاف الوحيد بينهما يهم قول احدهما بأن القتال كان عنيفاً خلال اليوم الأول.

ومن باجة انتقل عبد المومن إلى طبرية التي وضع بها مخيمه، وأرسل من جديد من يعرض الأمان على أهالي تونس الذين رفضوه هذه المرة كذلك. وأمام هذا الإصرار في الرفض، توجه الخليفة إلى تونس التي ضرب مخيمه قبالتها يوم السبت 10 جمادى الأولى عام 554هـ (29 يونيو 1159 م)، وشرع مباشرة في محاصرتها، وكانت خيام المحاصرين تمتد من الحنية إلى حلق الواد. وقد أدرك سكان تونس وقتئذ أنه ليس في مقدورهم مقاومة الحصار أكثر من ثلاثة أيام، لذا أرسلوا وفداً من مشايخهم لإعلان خضوعهم. وبعد جهد جهيد نجح المشايخ في إقناع عبد المومن بالعفو عن سكان المدينة لكن شريطة تسليم نصف أملاكهم وثرواتهم إلى المخزن دون أن يستثنى منها شيء غير ما يرتدونه من ملابس، أما حاكم تونس علي بن أحمد بن خرسان فقد أصدر الموحدون في حقه أمراً بمغادرة تونس والانتقال إلى بجاية.

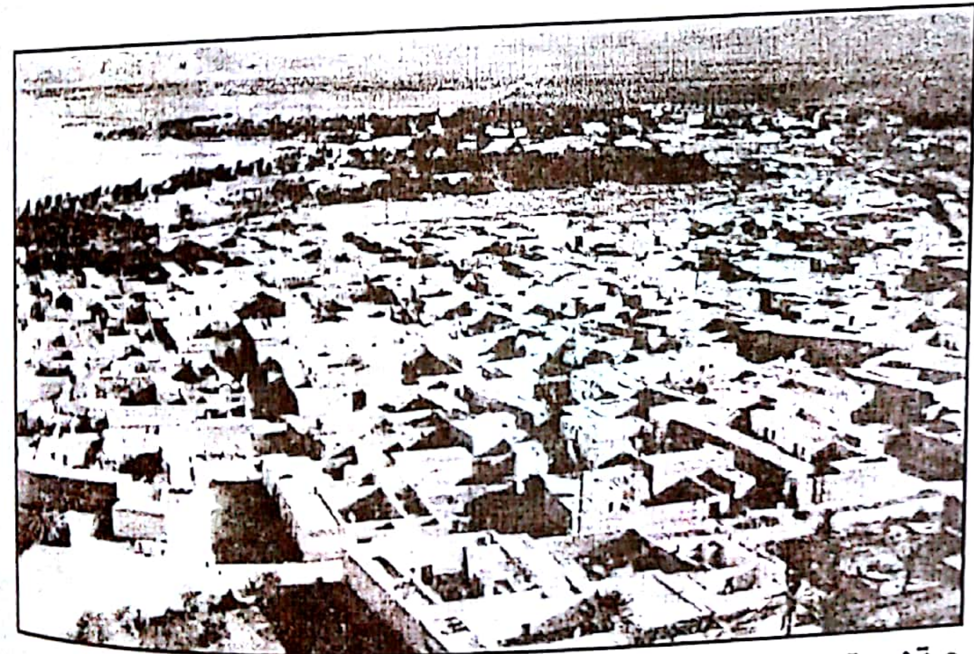
وبعد أن مكث عبد المومن بتونس ثلاثة أيام، غادرها في اتجاه المهدية تاركاً نائباً عنه بها، قريبه أبا محمد بن عبد السلام الكومي الذي كُلف بمعية مشايخ الموحدين بنزع أملاك التونسيين وثرواتهم، وهكذا تعرضت المنازل للنهب وقام الموحدون ببيع ما استطاعوا من هذه المنازل وغيرها من أملاك، ولم يقتصر ذلك على تونس المدينة بل شمل ضواحيها، حيث أجبر الأهالي على تقديم نصف ما يملكونه إلى المكلفين بالتحريات.

ويستند التجاني إلى ابن شداد، عند حديثه عن الكيفية التي كان يحترم بها الجيش الموحدي الجرار، أثناء توجهه إلى تونس، الأراضي المزروعة والكيفية التي كانت عناصره تؤدي بها الصلوات الخمس بانتظام. ولإعطاء فكرة عن الأهمية العددية لهذا الجيش، يشير المصدر المذكور إلى أن المسافة التي تفصل مقدمته عن ساقته كانت تصل إلى عدة أميال، بحيث إن فرق الطليعة والتي تضم 12 ألف رجل كانت تفصلها عن بقية القوات مسيرة يومين. وكانت فرق الطليعة هذه، مكلفة بحفر الآبار وتوفير المياه اللازمة، وهو إجراء لاغنى عنه لضمان عبور المسافات الطويلة دون المعاناة من العطش. وأثناء مرور الحملة بمنطقة وجود القبائل العربية، كان شيوخها وأعيانها يسرعون في الحضور لتقديم الطاعة. وقد سمح عبد المومن لهؤلاء، والذين أهينوا من قبل في معركة سطيف، بمرافقته.

وكان قوام الأسطول البحري الموحدي المشارك في الحملة ستين سفينة، يتولى قيادتها بالإضافة إلى محمد بن عبد العزيز بن ميمون، وهو من عائلة معروفة بالقيادة البحرية، أشخاص آخرون لهم تجربة في نفس المجال نذكر من بينهم أبا الحسن الشاطبي وابن الخراط.



• مدينة تونس



• قفصة وواحتها

وللانتقام لنفسه من الهزيمة المهينة التي ألحقها به التونسيون من قبل، أقسم السيد عبد الله نجل الخليفة، على قتل كل من يجده في طريقه اثناء دخولها، ولتفادي وقوع مجزرة، أمر السكان بأن لا يبرحوا منازلهم إلا بعد أن يسمعوا صوت المنادي وهو يخبر بأن عبد الله قد دخل المدينة، وهكذا دخل الأمير تونس وهو شاهر سيفه، غير أنه لم يعثر في طريقه إلا على رجل مسن، كان الضحية التي جعلت عبد الله في حل من القسم الذي قطعه على نفسه. وقد دعا عبد المومن عقب ذلك النصارى واليهود لاعتناق الاسلام، وكان الموت مصير من رفض منهم، كما أمر ببناء قصبة شيدت أبراجها بشكل مثلث، بني أمامها سور ليفصلها عن المدينة[165].

بعد ذلك توجه عبد المومن إلى المهدية التي وضع مخيمه قبالتها في 12 رجب 554هـ (30 يوليوز 1159 م) أي بعد خمسة عشر يوماً من وصوله تونس. وقد انتقل إليها كذلك وعن طريق البحر الأسطول الموحدي، والمهدية آنذاك مدينة محصنة كان النورمان يحتلونها منذ 1148م، غير أن حاميتهم الموجودة بربض زويلة وأمام الخطر الموحدي، اضطرت إلى مغادرة الربض عبر منطقة رملية ضيقة جداً، وتحصنت داخل المدينة وهي عازمة على مواصلة المقاومة من هناك. إثر ذلك تمركز عبد المومن بالربض المذكور، مع قواته ومساعديه من صنهاجة والعرب وغيرهم من متطوعي المنطقة الذين حضروا للجهاد.

وحسب النويري[166]، فإن عبد المومن سبق له وأن استقبل تلك السنة في مراكش وفداً من زويلة، جاء لطلب النجدة و تقديم التظلمات ضد المسيحيين وما يرتكبونه من مجازر ومن أعمال السلب والنهب، وقد وعدهم الخليفة بتقديم المساعدة وأمرهم بتخزين كميات كبيرة من المؤونة على امتداد الطريق الذي سوف تمر منه الحملة. وكان عبد المومن قبل مغادرته العاصمة قد ترك نائباً عنه بها أبا حفص عمر ينتي، كما عين يوسف بن سليمان عاملاً على فاس.

وسوف يدوم حصار المهدية مدة خمسة أشهر وعشرين يوماً، لم يتمكن الموحدون خلالها من تحقيق أي تقدم بسبب مقاومة الحامية المسيحية للمدينة، وكذا بسبب ضيق الطريق الوحيد المؤدي إليها والذي يعتبر المرور منه أمراً إجبارياً للقيام بأي هجوم ضدها، على اعتبار أن المدينة محاطة بالبحر من بقية الجهات، بحيث إنها على شكل يد ممدودة كلها داخل البحر باستثناء المعصم. وكان المسيحيون من داخل المدينة، وبروح قتالية عالية يقومون بهجومات مباغتة ضد أجنحة الجيش الموحدي التي ألحقوا بها أضراراً كثيرة. وللحد من فعالية العدو، قام عبد المومن

165- الكامل، م. س.، ص. 63. المعجب، م. س.، ص. 336، روض القرطاس، م. س.، ص. 260، الحلل الموشية، م. س.، ص. 154.
166- النويري، م. س.، ص. 176.

بتشييد سور منيع غربها، كما قام أسطوله بسد جميع المنافذ التي يمكن عبرها ركوب البحر، في نفس الوقت أعطى الأوامر بهد أسوار المدينة بواسطة المجانيق[167].

وبعد أكثر من شهر على بداية الحصار وبالضبط في 21 شعبان (7 سبتمبر)، حل الأسطول الصقلي وقوامه 150 سفينة -دون إحصاء السفن التي تحمل المؤونة والعتاد الحربي والخيول- بالمدينة، وكان هدفه فك الحصار عنها وتزويدها بالمؤونة. آنذاك قال -حسب التجاني- قائد الأسطول الموحدي لعبد المومن: « *إن هذا الأسطول قد أقبل ولا يصل إلا متفرقا بحكم النوء فلتأذن لنا في الخروج إليه*»[168]، وبما أن عبد المومن لم يجب، فقد استغلوا صمته وأسرعوا نحو السفن التي وضعوا بها الذخائر الحربية اللازمة وخرجوا ضد العدو مباشرة، في حين قام غيرهم من القوات الموحدية بتطويق الشاطئ. وحسب الحاكي الذي حضر كل ذلك، فإن عبد المومن كان يبكي ساجداً لله وهو يقول: «*اللهم لا تضعضع دعائم الإسلام*». وكان يقود الأسطول الموحدي ابن ميمون الذي أمر باعتراض طريق السفن المسيحية، التي أنزل بعضها الشراع استعداداً لدخول الميناء. وقد استولى الموحدون على ثمانية منها، في حين تراجعت بقية السفن منهزمة. إثر ذلك صلى عبد المومن شكراً لله، ونفح قوات أسطوله بـ 12 ألف دينار مومني.

وفي متم ذي الحجة (يوافق يومه الأخير 11 يناير 1160)، وبعد أن فقدت المهدية كل أمل في تلقي النجدة من جديد والإفلات من القبضة الموحدية، حضر عند عبد المومن أحد عشر فارساً من الفرنجة المسيحيين، عبروا له عن استعدادهم لتسليم المدينة مقابل منح الأمان لهم ولأهلهم ومتاعهم والسماح لهم بالرحيل. ورغم أن عبد المومن حاول في البداية إقناعهم باعتناق الاسلام، فإنهم رفضوا ذلك رفضاً قاطعاً، لذا لم يجد بداً من منحهم ما طلبوا، وأمر بنقلهم بحراً إلى بلادهم، وبما أن الفصل كان فصل الشتاء، فإن البحر هاج عند اقترابهم من صقلية، مما أدى إلى مقتل أغلبهم غرقاً.

ويبالغ النويري عند حديثه عن ما غنمه الموحدون من محاصيل فلاحية عند مغادرة المسيحيين المهدية، حيث يقول إن هذه المحاصيل بعد جمعها، كونت جبلاً من القمح وآخر من الشعير[169].

167- اخبار المهدي، م. س.، ص. 80. والعبر، الجزء السادس، م. س.، ص.494.

يقول التجاني في الرحلة إن عبدالمومن ركب في إحدى السفن، ومعه الحسن بن علي الذي سبق وطرد من المدينة، ليتعرف عن كثب على مدى قدرة المدينة على المقاومة، وقد اقتنع بعد اطلاعه على مختلف حدودها البحرية باستحالة احتلالها من خلال معركة واحدة وبأنه ليس هناك من حل لدخولها غير فرض حصار طويل الأمد عليها. رحلة التجاني م. س.، ص. 347-348.

168- نفسه، ص. 348.

169- النويري، م. س.، ص 177.

وتتأكد لنا مبالغة النويري، من كلام عبد المومن الذي يقول أثناء حديثه عن احتلال قفصة، إنه رغم حصول الجنود على المؤونة الكافية تلك السنة، فإن مطامير الحبوب كانت فارغة وموسم الحصاد لم يكن جيداً[170]. وهذا ما يؤكده كذلك صاحب المعجب الذي يقول إن الموحدين عانوا كثيراً من الخصاص أثناء حصار المهدية، وإنه بسبب ذلك ارتفعت الأسعار في مخيمهم لدرجة وصل معها ثمن سبع حبات من الفول درهماً مومنياً واحداً.

وقد دخل عبد المومن المهدية، دخول الفاتحين يوم عاشوراء، وكانت أكثر مدن إفريقية تحصناً[171] (سوف تصبح في وقت لاحق أهم معقل لقراصنة شمال إفريقيا وهو ما أكسبها شهرة تثير الفزع). وقبل شهر ونصف من احتلالها، وبسبب انشغاله بوضعية الأندلس، كتب عبد المومن إلى طلبة غرناطة وسكانها بشأن تحصين جبل طارق وجعله ما أمكن في مأمن من الخطر المسيحي، لتلك الغاية أرسل إليه كلاً من الشيخ أبي إسحاق براز والحاج يعيش لدراسة الميدان عن كثب، وطلب من مشايخ غرناطة وإشبيلية الالتحاق بهما من أجل تحديد المكان المناسب لوضع الحصون، كما كتب إلى الشيخ أبي حفص والقائد أبي عبد الله الجيار يطلب منهما، إذا أمكنهما ذلك، التوجه إلى جبل طارق لنفس السبب. وكانت الرسالة التي بعثها لهما مؤرخة في 20 ذي القعدة 554هـ (4 ديسمبر 1159م)، وفي الوقت الذي كان يهم بإرسالها، وصلته الأخبار عن خضوع قفصة لسلطة الموحدين، لذا ذيل هذا الخبر بحاشيتها، كما أشار إلى الأمان الذي يطلبه منه العرب الملتجئون في قابس، وإلى نيته في العودة إلى الجهة الغربية من إمبراطوريته بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الحملة[172].

170- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 20.

171- سعى الحسن بن علي ليصبح عاملاً موحدياً على المهدية، لكن الخليفة فضل عليه أبا عبدالله محمد بن فرج الكومي. وقد استقر الحسن بعد ذلك في زويلة عشر سنوات. ولما توفي عبدالمومن وتولى الخلافة ابنه أبو يعقوب يوسف أمره بالانتقال إلى المغرب الأقصى، وفي طريقه إلى هناك مع عائلته وحاشيته واثناء وصوله إلى تامسنا، وافته المنية بجوار المكان المعروف باسم آبار زلو وكان ذلك في رجب 566 هـ (مارس 1171). رحلة التجاني، م. س.، ص. 349.

172- حسب الرسالة 19 من مجموع رسائل موحدية، يعتبر مدافع بن الرشيد بن مدافع بن كامل بن جامع آخر أمير مستقل لقابس ، وكان عبدالمومن عند وصوله إلى إفريقية قد دعاه وبطريقة حبية للاعتراف بسلطته، وذكر اسمه في خطبة الجمعة، لكنه تجاهل ذلك ورفض الرد على عبدالمومن، وأثناء حصاره للمهدية أرسل الخليفة ضد قابس جيشاً وضع على رأسه ابنه عبدالله، وما أن علم مدافع بذلك حتى جمع عائلته وخاصته ولاذ بالفرار، لكن حامية موحدية قامت بتعقبه وقتل الكثير ممن يرافقونه، أما هو فقد وجد ملجأ له بين عرب طرابلس، لكن في النهاية انتهى به المطاف مستسلماً لعبدالمومن الذي سمح له بالعودة للاستقرار في قابس. نفس المصدر، ص. 100-101.

وبعد مدة قصيرة من احتلال المهدية، انتقل عبد المومن إلى قفصة التي استسلمت للموحدين ومنها كتب إلى أهل قرطبة يخبرهم بالطريقة التي تم بها غزوها، وكان بنو الرند قد أسسوا بقفصة عام 445هـ (1053م-1054م) إمارة صغيرة يحكمها بشكل صوري عجوز يدعى أبا عمر المعتز، تمكن حفيده المسمى يحيى بن تميم والمدعم من طرف مجموعة من المغامرين العرب والأكراد من زرع الرعب في كل المناطق المجاورة، من خلال ما كان يقوم به من سلب ونهب. وكان عبد المومن عند وصوله إلى إفريقية قد قرر القيام بحملة على قفصة اعتماداً على جيوشه وعلى العرب الذين قام بإخضاعهم وكذا على حامية بجاية. وقد انتقل إليها مع كل هذه القوات، التي كانت ممونة تموينا جيداً، عبر القيروان ومن طريق لم يكن يستعمل إلا نادراً. وكان سكان قفصة الرافضون للسلطة الموحدية، يظنون أن جيوش عبد المومن لن تنال منهم شيئاً، لأن مدينتهم منيعة الحصون ثم إن الصحراء تحيط بواحاتها من كل جانب، زد على ذلك صعوبة فرض حصار طويل الأمد عليها، بسبب تعذر حصول المحاصرين على التموين الكافي.

وبعد أن أصبحت على مشارف المدينة، قامت القوات الموحدية بوضع المؤن في المطامير، وشرعت في تحطيم الدور والمزارع التي تعوق الحصار، وفي نفس الوقت بدأت بصنع المجانيق، مستفيدة في ذلك من الكميات الكبيرة من الخشب التي كان النصارى قد حملوها إلى إفريقية. ومع عدم استجابة المحاصرين للإنذار الأخير الذي وجهه لهم الموحدون للاستسلام، تم الشروع في هد الأسوار وملء الخنادق بالركام، وهو ما سمح باجتياز الجدار المؤدي إلى المدينة، والذي دمر جزء منه، كما حطم أحد أبراج المدينة، حيث قتل الكثير من المدافعين عنها، في وقت اقتنع فيه الباقون بعدم جدوى المقاومة، وهو ما حذا بهم لطلب الأمان الذي منح لهم.

ورغم أن السنة التي قام فيها الموحدون بحملتهم على إفريقية كانت سنة جفاف، فإنهم لم يعانوا من نقص في التموين، والفضل في ذلك يرجع إلى حد كبير لما حصلوا عليه من مؤونة في قفصة وواحاتها الغنية.

أخذ الخليفة طريق العودة إلى المغرب وفرض الخراج

وفي الوقت الذي أخذ عبد المومن طريق العودة في اتجاه المغرب، كانت الأندلس تلح في طلب النجدة. وقد أمر عرب إفريقية بمرافقته، واعتبر أن استخدامهم في الجهاد بالأندلس سيكون بمثابة تكفير لهم عما قاموا به من تصرفات غير محمودة في الماضي. ومما لا شك فيه أن عبد المومن

كان لا يزال في قفصة في شهر فبراير 1160م، على اعتبار أنه وضع مخيمه على مقربة من قسنطينة في ربيع الأول (يبتدئ في 11 مارس وينتهي في 9 أبريل)، حيث أرسل من هناك من يخبر ابنه السيد يوسف وأهل اشبيلية باحتلاله لقفصة وبقبول عرب بني سليم بالعقيدة الموحدية وبأخذه لطريق العودة نحو عاصمة ملكه[173].

وعند وصوله إلى بجاية وكان ملكه في أوجه، مر بسوق صغير بجوار باب تاطنت، ومع احساسه بنشوة انتصاراته المتتالية، ذكر مرافقيه كيف مر في بداية شبابه مع المهدي وأصحابه بتلك الحوانيت وكانوا قد قضوا أياماً دون أن يجدوا ما يسدون به رمقهم، لذا رهن محبرة كان يمتلكها مقابل الحصول على قطعة خبز. وفي نفس اليوم وأثناء تجواله بشوارع المدينة ممتطياً دابته، أدار رأسه نحو يحيى بن عبد العزيز، وكان يمشي بجواره على قدميه، وذكره بالمكان الذي يوجدان به، وكيف أن يحيى وفي الوقت الذي كان فيه أميراً على بجاية، أمر في أحد الأيام عبداً له بأن يزيح بعنف عبد المومن عن طريقه[174].

وكان يروق الخليفة وهو محاط بكل تلك الهالة وينعم بذلك العز، أن يذكر بأصله الفقير، وذلك حتى يضفي على حظه السعيد ومواهبه الاستثنائية بريقاً أكبر، وهكذا وبنفس اللغة التي تحدث بها لمرافقيه عند مروره ببجاية، ذكر، أثناء وضع مخيمه بمكان يوجد بين البطحاء وتلمسان، كيف حل في شبابه بذلك المكان في ليلة ممطرة ولم يكن معه ما يسد به رمقه لذا قضى ليلته جائعاً. وقد مر خلال هذا السفر الظافر بقريته الأصلية تاجرا، وهنا كذلك لم يستطع مقاومة الاحساس بالزهو[175]، خصوصاً أمام إعجاب ودهشة سكانها القرويين البسطاء الذين لم يسبق لعينهم أن رأت جيشاً جراراً مثل ذاك الذي حل بهم وهو على رأسه[176].

وعند وصوله إلى تلمسان، كرر على مسامع وزيره عبد السلام وببرودة أعصاب، الكيفية التي وضع بها سنتين إلى الوراء حداً لحياة أحمد بن عطية. وحسب الرواية الرسمية التي أوردها ابن صاحب الصلاة، فإن عبد السلام هذا وفي نشوة الترقية التي حصل عليها، وبسبب ثقته العمياء في القرابة التي تربطه بالخليفة (أخوه من أبيه)، كان قد استولى بشكل غير مشروع على كل ما حصل عليه الموحدون من غنائم في قابس[177]، وهو التصرف الذي لم يرق الأمراء (السادة) والمشايخ

173- ابن صاحب الصلاة، م. س.، ص.77.

174- المعجب، م. س.، ص. 338.

175- هذا الاحساس بالزهو نجده كذلك عند ابنه البكر محمد الذي كان يتبجح امام الملأ بكونه ابن الخليفة.

176- المعجب، م. س.، ص. 339-340.

177- المن بالامامة، م. س.، ص. 115.

الذين قدموا شكوى في الموضوع إلى الخليفة، وكذّبوا ما وجهه عبد السلام من تهم إلى السادة. ومما زاد الطين بلة، وصول الوفود الأندلسية في تلك الأثناء إلى تلمسان، حيث قدمت بدورها تظلماتها ضد العمال الذين عينهم عبد السلام، والذين كانوا ينهبون المال العام بتواطؤ معه، ويمارسون أنواعاً مختلفة من الحيف ضد الرعايا.

وقد اغتاظ عبد المومن لما علمه، وأمر في نفس اليوم باعتقال عبد السلام، كما انزعج للصعوبات المالية التي كان يمر بها الموحدون، والتي لم يسبق للمرابطين من قبل أن عرفوا مثلها مع أن امبراطوريتهم لم تكن أقل مساحة. وعند مغادرته لتلمسان، فكر الخليفة في إطلاق سراح عبد السلام لما كان يحسه نحوه من مودة القرابة، لكنه أبطن هذا الاحساس وأمر عامل المدينة باتخاذ الاجراءات اللازمة لتصفيته، وهو ما قام به هذا الأخير مباشرة حيث نجح في تسميمه.

من جانب آخر، إذا كان الإلغاء التام للضرائب غير الشرعية، كما مر بنا، قد استقبل بارتياح كبير من طرف العامة، خصوصاً وأن الهدف منه كان هو القضاء على الفساد الإداري والحفاظ على الاستقامة، فإن هذا الإجراء ساهم في خلق الكثير من الصعوبات المالية. ويؤكد صاحب روض القرطاس، أن عبد المومن ومن أجل حل هذا المشكل قام بقياس مساحة أمبراطوريته من برقة إلى سوس بالفراسخ والأميال طولاً وعرضاً، بحيث لم يستثن من ذلك إلا الجبال والأنهار والغابات ومخازن ملح البارود. وبناءً عليه، أخضع لضريبة الخراج كل المناطق التي تم قياسها، حيث أصبحت كل قبيلة ملزمة بالمساهمة بجزء من الحبوب والمال. ويعتبر عبد المومن أول من طبق ضريبة الخراج بهذا الشكل في بلاد المغرب. ومما يلفت الانتباه أننا لا نجد أي ذكر لهذا الإجراء لدى البيدق وابن صاحب الصلاة وهما معاصران للأحداث، غير أن هذا المصدر الأخير وكذا البيان المغرب الذي اعتمده، يقولان إن مداخيل بيت المال ارتفعت بشكل واضح على عهد خلف عبد المومن يوسف الأول بفضل الجبايات والخراج[178].

هزم القبائل العربية ونقلها إلى المغرب

ولم يقتصر اهتمام عبد المومن بعد وصوله إلى إفريقية على إخضاع تونس ومحاصرة المهدية وبقية المدن الساحلية وأخذها من الروم، وإنما عمل كذلك على إخضاع المدن الداخلية وكذا القبائل العربية التي كان رؤساؤها يتولون السلطة بهاته المدن بشكل مباشر أو غير مباشر

178- روض القرطاس، م. س.، ص. 270.

من خلال شيوخ القبائل البربرية الخاضعين لهم، وهكذا فبالإضافة إلى قفصة وقابس أخضع زرع وطبرقة وجبل زغوان والأربس.

وكانت القبائل العربية تسيطر على هذه المناطق بشكل كامل، لكن بسبب عدم اتحادها، ثم بسبب الخسائر التي كبدها إياها الموحدون في الرجال والأراضي، اضطرت مجموعة منها للخضوع لهؤلاء دون قيد أو شرط، بينما حاولت مجموعة أخرى الدخول معهم في مفاوضات؛ وهكذا خضعت للموحدين قبيلة جشم كما خضعت لهم قبيلة بني محمد (هي جزء من رياح)، وعرض زعيمها يوسف بن مالك (سيلقب فيما بعد بالصادق) على الموحدين خدمات قبيلته التي عبرت عن استعدادها للجهاد ضد النصارى. وقد اقترح عبد المومن على القبيلتين وغيرهما من القبائل العربية مرافقته إلى المغرب. وبجانب تلك التي أعلنت خضوعها، دخلت قبائل أخرى في مفاوضات مع الموحدين، حيث تظاهرت ببعض الاستعداد للخضوع لهم، غير أنها لم تكن صادقة فيما ذهبت إليه، وكان هدفها الحقيقي هو ربح الوقت وانتظار مغادرة القوات الموحدية لإفريقية وعودتها إلى مراكش. وهكذا طلب المفاوضون باسمها من القيادة الموحدية معرفة الكيفية التي يجب أن يتم بها خضوع القبائل التي يمثلونها، وبعد توضيح ذلك لهم، ادعوا أنهم سيقومون بدراسة الموضوع ويقدمون الجواب في وقت لاحق، لكن ومع ابتعاد عبد المومن نحو الغرب، بدأت هذه القبائل تخطط للدخول في تحالفات مع بعضها البعض، لمواجهة السيد عبد الله بن عبد المومن الذي مرت ثماني سنوات على توليه الحكم باسم والده في بجاية، والذي سبق لهم وأن هزموه أثناء محاولته احتلال تونس كما مر بنا.

وفي يوم الاثنين 14 ربيع الثاني 555هـ (23 أبريل 1160 م)، كتب عبد المومن الموجود في سهل متيجة بالجزائر رسالة إلى سلطات فاس وساكنتها[179]، يخبرهم، استناداً إلى ما أخبرته بذلك الفيالق الموحدية التي غادرت إفريقية بعده، بأن كل المؤشرات تؤكد بأن السلم قد استتب في إفريقية وأن العرب قد بدأوا بالخضوع. غير أنه في هذا الوقت بالذات وقعت المواجهة الخطيرة بين العرب المتشبثين بفكرة طرد الموحدين من إفريقية وبين الجيش الذي كان تحت إمرة السيد عبد الله.

وقد نجح عبد المومن أثناء وجوده في إفريقية، وكما كان الأمر في المغرب الأقصى، في إخضاع أغلب القبائل العربية التي كانت تعرف، بسبب خلافاتها الداخلية والمنافسة القائمة بينها، نظام حكم شبيه بحكم ملوك الطوائف في الأندلس، وهو ما جعلها تتعرض للهزائم

179- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 21.

المتتالية. وكان عرب طرابلس وصفاقس الواقعون تحت سيطرة النورمان قد أعلنوا خضوعهم لعبد المومن بعد سيطرته على المهدية.

وتبالغ بعض المصادر العربية المشرقية، عند حديثها عن الإجماع الذي حصل بين القبائل العربية، والكيفية التي أعلنت بها تمردها بعد مغادرة عبد المومن لإفريقية مباشرة، كما أن ذات المصادر تقدم رواية غير مضبوطة عن معركة سطيف التي أُجبرت فيها قبائل رياح على الخضوع. إن هذه المعركة لم تكن بالحدة التي تصورها بها تلك المصادر، وكل ما جرى فيها، هو أن عبد المومن كان يوجد بين الجزائر وتلمسان عندما وصله خبر تمرد العرب من جديد، لذا أرسل وبشكل مستعجل جزءاً من قواته بغية معاقبتهم، وقد قامت هذه القوات عند وصولها إلى القيروان بالانقضاض على عرب رياح حيث هزمتهم وقتلت زعيمهم.

ولا يعدو أن يكون ما أورده عن هذه المعركة ابن الأثير والنويري الذي نقل عنه، أسطورة من نسج الخيال؛ فعبد المومن حسبهما أجبر العرب على تسليمه عشرة آلاف فارس ليرحلوا معه إلى الأندلس، وعند وصوله إلى جبل زغوان، أخبره يوسف بن مالك (الصادق) بنية العرب في الفرار، غير أن الخليفة لم يفعل شيئاً للحيلولة دون ذلك غير الإسراع في السير، ومع وصوله إلى مشارف قسنطينة، توارى عن الأنظار لمدة عشرين يوماً، في وقت فر فيه العرب الذين يرافقونه إلى الصحراء، وبعد أن قاموا من جديد بغزو بعض المناطق و بأعمال سلب ونهب، وضعوا مخيمهم بجبل القرن شرق القيروان، وهناك أدركهم الجيش الذي أرسله عبد المومن ضدهم، والذي تمكن من إبادتهم بعد معركة دموية جرت في أحد أيام العشرية الثانية من شهر ربيع الثاني 556هـ (أبريل 1161م)، وكانت نساء العرب ضمن الغنائم التي ظفرت بها قوات عبد المومن بعد المواجهة. ويضيف المصدران سالفا الذكر أن أمراء رياح حضروا عند عبد المومن إثر ذلك لطلب العفو، وأن هذا الأخير لم يكتف بمنحه لهم، بل أغدق عليهم العطايا وقرر نقلهم معه إلى الأندلس، في نفس الوقت أطلق سراح نسائهم الأسيرات، وحسب المصدرين دائماً فإن عدد قتلى العرب في معركة سطيف كان من الأهمية بحيث شكلت عظامهم ربوة ناصعة البياض.

هجوم ابن مردنيش على قرطبة

وكان لانتقال عبد المومن إلى إفريقية مع كل قواته نتائج وخيمة على الوضع في الأندلس، فقد تمرد ابن مردنيش وصهره ابن هَمُشْكُ واللذان أصبحا بتحالفهما مع المسيحيين عدوين

للموحدين. وهكذا قاما بمهاجمة قرطبة، كما قام ابن همشك، وخلال ثلاثة مواسم متتالية (فصول صيف 553هـ و 554هـ و555هـ) بنهب الحقول المحيطة بها والتي أصبحت شبه فارغة من السكان بعدما اضطر سكانها لمغادرتها بشكل جماعي.

وفي سنة 554هـ (1159م) حاصر ابن مردنيش جيان، وهو ما أجبر عاملها محمد بن علي الكومي بالتنازل له عنها. وقد سلمها هذا الأخير بدوره إلى صهره ابن همشك مع أبذة وبيسة، قبل أن يقوما معاً بمحاصرة قرطبة، وكانا يعتقدان أن مصيرها سيكون نفس مصير جيان، غير أن حاميتها واصلت المقاومة بشكل حيوي. ومع استمرار الحصار التجأ عاملها إلى حيلة نجح بواسطتها في فكه؛ وهكذا أمر قاضي المدينة بتحرير رسالة مزورة حملت خاتم سيدراي بن وزير صاحب يابرة وباجة السابق، والذي سبق وأعلن خضوعه للموحدين. وتنصح الرسالة ابن مردنيش برفع الحصار عن قرطبة والانتقال مباشرة إلى إشبيلية حيث يضمن له هو دخولها.

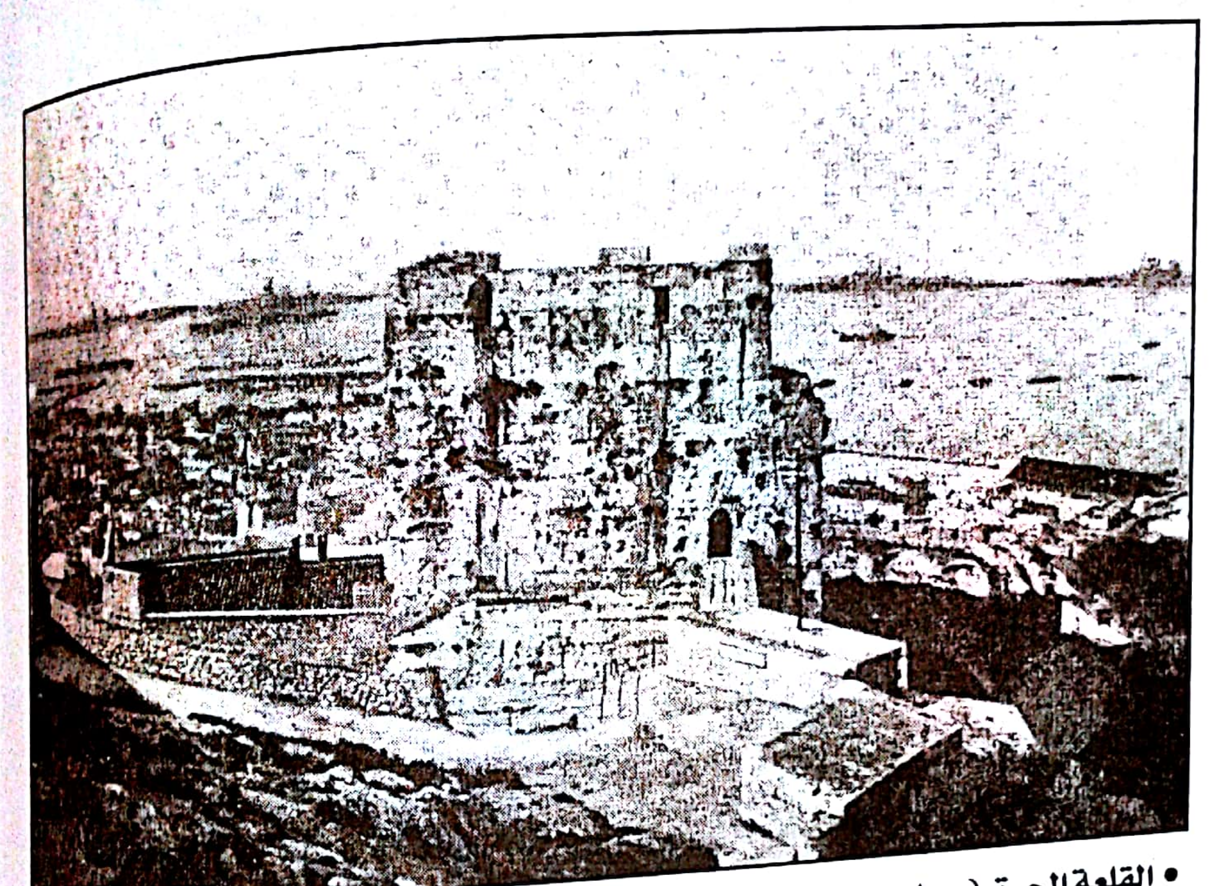
وقد قام أحد خدم القاضي، وكان متنكراً في هيئة زيات من الشرف، بنقل الرسالة إلى ابن مردنيش الذي اعتبر تصرف سدراي بن وزير طبيعياً، خصوصاً وأن الموحدين قاموا بعزله، وأخذ طريق إشبيلية بعد أن رفع الحصار عن قرطبة. في تلك الأثناء تسلل من معسكره جاسوس موحدي توجه على وجه السرعة إلى إشبيلية وأخبر السيد يوسف بأمر الرسالة وبقرب وصول ابن مردنيش، الذي وضع مخيمه بمنطقة ألفونت على بعد ميل واحد من إشبيلية. إثرها قامت سلطات المدينة باعتقال ابن وزير الذي لم يكن له علم بأمر الرسالة ولا بالحيلة التي دبرت في قرطبة لفك الحصار، كما بدأ السيد يوسف ومشايخ إشبيلية بالاستعداد للدفاع عن المدينة. في تلك الأثناء أدرك ابن مردنيش أن كل ذلك ليس أكثر من خدعة، لذا اضطر لرفع مخيمه بعد ثلاثة أيام من وضعه.

وفي صفر 555هـ (يوافق اليوم الأول منه 11 فبراير واليوم الأخير 11 مارس 1160م)، وصلت إلى إشبيلية رسالة عبد المومن التي تخبر باحتلال المهدية، غير أن الفرحة بهذا الانتصار لم تدم طويلاً، بسبب مقتل عامل قرطبة، في كمين وضعه له ابن همشك بقرية ألبة (كان قد هجرها سكانها)، بالمكان المعروف باسم الدارّات. وقد رد السيد يوسف على رسالة والده، برسالة يطلب فيها مده بالنجدة بشكل مستعجل.

لقاء عبد المومن والسيد يوسف في جبل طارق

وفي طريق عودته من إفريقية، وعند وصوله إلى قسنطينة وكان ذلك في ربيع الأول 555هـ (مارس 1160م)، كتب إلى ابنه رسالة أخرى مؤرخة في 9 من الشهر المذكور (19 مارس)[180]،

180- ابن صاحب الصلاة، م. س.، ص. 90.



• القلعة الحرة (جبل طارق)

يطمئنه من خلالها بقرب مجيئه إلى الأندلس ويأمره بالشروع في أعمال البناء بجبل طارق[181]. غير انه وقبل وصول الرسالة، وبالضبط في 15 ربيع الأول (25 مارس) نجح ابن همشك الذي كان قد احتل استجه بتواطؤ مع عبد الله بن شراحيل وأتباعه، في دخول قرمونة[182].

في هذه الأثناء عم القلق إشبيلية التي أصبحت مهددة شأن قرطبة[183]. وقد واجه السيد يوسف الوضع برباطة جأش، وأرسل قواته لمحاصرة قرمونة، في نفس الوقت بدأ يستعد وبتنسيق مع أخيه السيد عثمان عامل غرناطة، للشروع في أعمال البناء بجبل طارق.

وبعد عدة شهور على بداية الأشغال التي جند لها كل ما أمكن جمعه من بنائين، تلقى السيد يوسف رسالة أخرى من والده يخبره فيها أنه يوجد بمنطقة فاس، وأن برفقته أعداداً كبيرة من عرب بني رياح وبني جشم وبني عدي.

وإذا كان ابن صاحب الصلاة من المصادر التي يجب أن نعتد بها، على اعتبار أنه معاصر للأحداث بل وشاهد عيان، فإن انسياقه في كثير من الأحيان وراء ميوله الموحدية وولائه للبلاط، يجعلنا نتريث في التسليم ببعض ما يقدمه من معلومات وتواريخ بشأن الموضوع الذي نحن بصدده، وهكذا يقدم لنا مثلاً تواريخ مغلوطة، يهدف من خلالها إلى تبرير الحب الأبوي وإظهار رغبة يوسف في رؤية والده؛ فالسيد يوسف لم يكن بإمكانه أن يعرف، عكس ما ورد في هذا المصدر، أن والده كان يوجد بفاس يوم 15 ربيع الأول وبأنه سعى للسفر إلى الأندلس ليكون هو أول من يلتقي به، ذلك لأن ابن صاحب الصلاة نفسه يقول في مكان آخر إن عبد المومن كتب في نفس الشهر رسالة من قسنطينة إلى ابنه يخبره بنيته في العبور إلى الأندلس، ثم بعد شهر واحد من ذلك (14 ربيع الثاني)، بعث له برسالة ثانية من متيجة (سهل الجزائر) يخبره من خلالها بخضوع العرب للسلطة الموحدية[184].

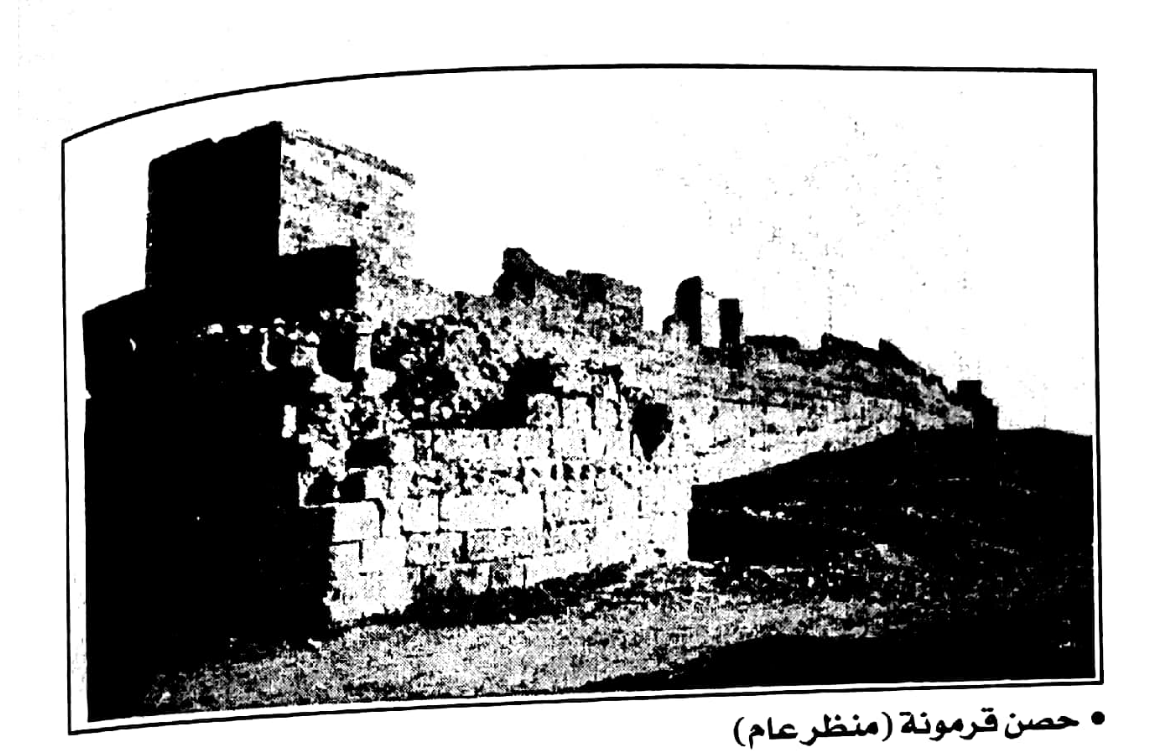
لقد ترك عبد المومن العرب في المغرب، وانتقل هو إلى سبتة التي عبر منها مع بعض قواته إلى جبل طارق في ذي القعدة 555هـ (نوفمبر 1160م). ولم تكن نيته الجهاد، ذلك لأن حملته على أفريقية كانت طويلة وشاقة، كما كان على دراية بشجاعة وإمكانيات أعدائه في شبه الجزيرة. لذا فانتقاله إلى الأندلس في ذلك الوقت بالذات، والذي كانت تعيش فيه كل من إشبيلية وقرطبة

181- نفس المصدر، ص.91.

182- نفسه، ص.91.

183- في عشية اليوم الأخير من رمضان (2 اكتوبر 1160م)، توفي بقرطبة ابن قزمان، وإلى ذلك التاريخ كان لا يزال يعاصرها ابن همشك باسم ابن مردنيش. انظر مقالتي في مجلة الأندلس: Al Andalus, T IXK fas 2, P.355.

184- ابن صاحب الصلاة، م. س.، ص. 82-83.



• حصن قرمونة (منظر عام)



• حصن قرمونة (المدخل الرئيسي)

حالة حصار وتوجد فيه غرناطة في وضعية غير مطمئنة، كان لسببين: أولهما تدارس الخطة التي يجب اتباعها ضد الأعداء في الأندلس والإمكانيات اللازمة لنجاحها، وثانيهما الاطلاع على أعمال البناء في جبل طارق، والتي كان ينوي أن يجعلها قاعدة عملياته العسكرية، خلال الحملة الكبيرة التي كان يريد توجيهها إلى شبه الجزيرة الإيبيرية.

ولم يمنع هذا الدهاء في أمور السياسة والحرب، والذي جعل الأندلس برمتها متوسلة له ساجدة أمام رجليه، عبد المومن من الاهتمام بالثقافة ورعاية الفنون والآداب، في وقت أصبح فيه الكثيرون يتملقون إليه ويسعون للتقرب منه. وتشيد المصادر العربية بمجالس الشعر التي دعا إليها خلال رحلته هذه إلى الأندلس، والتي أحيطت بكل مظاهر الأبهة، وتوافد عليها الشعراء من كل حدب وصوب لإلقاء قصائد المدح التي تتغنى بشجاعته.

وقد وصلت المدة التي قضاها في جبل الفتح (جبل طارق) إلى حوالي شهرين، حيث بدأت في منتصف نوفمبر 1160م (بداية محرم 556هـ) وانتهت في يناير 1161م، وخصص عشرين يوماً منها لاستقبال الوفود الأندلسية، التي جاءت لتهنئته بعيد الأضحى (11 ديسمبر 1160م)، والتي أجزل لها العطاء قبل عودتها إلى حال سبيلها. وطيلة فترة إقامته به، راقب بكل دقة وتأن أشغال البناء التي أمر بإنجازها، وهنا كذلك كان كريماً مع القائمين بهذه الأشغال. في نفس الوقت درس الوضعية السياسية والعسكرية التي توجد بها المراكز الموحدية في شبه الجزيرة. والواقع أنه لم تقع في الأندلس طيلة مدة إقامته بجبل طارق، أية مواجهات حربية، باستثناء هجوم مسيحي (قام به هؤلاء دون شك بتنسيق مع ابن مردنيش) على منطقة جيان، نجح الموحدون في إحباطه ومطاردة من قام به[185].

وقبل عودته إلى المغرب، زكى عبد المومن في منصبيهما كعاملين على إشبيلية وغرناطة، ابنيه السيدين يوسف وعثمان، وبحكم أن الأخيرة كانت أكثر تعرضاً للخطر من إشبيلية، فقد عين عليها بجانب السيد عثمان، ساعده الأيمن ورجله الوفي أبا حفص عمر.

ومباشرة بعد توديعه لوالده وعودته إلى إشبيلية في بداية سنة 556هـ (يناير 1161م)، بدأ السيد يوسف بالاستعداد لمحاصرة قرمونة، وقد أرغم بواسطة القوات التي هيأها لذلك، المتمردين على السلطة الموحدية ومن بينهم الحاميات الشرقية التابعة لابن مردنيش، بالتراجع خلف أسوار المدينة، مما حال دون قيام هؤلاء بأعمال النهب في سهول إشبيلية الخصبة، في وقت نجحت فيه القوات الموحدية، ومن خلال هجوم مباغت، في أسر عبد الله بن شراحيل الذي سبق

185- يؤكد صاحب الحلل الموشية وكذا صاحب روض القرطاس (دون سند صحيح) أنه أرسل خلال إقامته في جبل طارق جيشاً مكوناً من 18 الف فارس في عز الشتاء ضد أعدائه بمنطقة بطليوس. الحلل، م. س.، ص. 155 . روض القرطاس، م. س.، ص. 129.

وتنازل عن قرمونة لابن همشك، لكن هذه القوات لم تنجح في إخضاع قرمونة إلا بعد سنة كاملة من الحصار، ولم يكن ذلك بواسطة القوة وإنما نتيجة لتواطؤ جزء من ساكنة المدينة معهم[186].

وعند عودته من جبل طارق، توقف الخليفة بالرباط، وبعد أن أمر العرب الذين أتى بهم من إفريقية بالاستقرار في منطقتى الهبط وتامسنا، واصل طريقه نحو مراكش التي ما أن وصلها، حتى بدأ باعداد جيش وضع على رأسه يوسف بن سليمان أحد قدماء الموحدين وعضو جماعة الخمسين الذي خرج لتوه نحو الأندلس، حيث مر أولاً بقرطبة التي زودها بالمؤونة والسلاح، ثم انتقل إلى اشبيلية بهدف حمايتها من الخطر الذي قد يأتيها من جهة قرمونة. وعقب الانتهاء من هذه المهمة، عاد يوسف بن سليمان إلى مراكش رفقة السيدين يوسف وعثمان، للتداول بشأن الحملة الكبيرة التي قرر الموحدون توجيهها إلى الأندلس[187].

وقد ترك السيد يوسف في إشبيلية نائباً عنه لمواصلة الحصار ضد قرمونة، الحافظ عبد الله ابن أبي حفص بن علي، الذي وضع مخيمه قرب حصن جابر، وبالضبط عند المكان المعروف باسم حصن ابن سلامة. وبسبب الهجومات المتكررة التي اعتمد فيها على الجيوش الأندلسية وعلى الامدادات الموحدية، اضطر المحاصَرون الذين لم يتوصلوا بأية مساعدة من طرف قوات ابن همشك، للتفاوض مع عبد الله بن أبي حفص؛ حيث سلموه مقابل حصولهم على الأمان، البرج المعروف باسم قرن المغرة. إثر ذلك حاولت الحامية الشرقية الموجودة في المدينة الاحتماء بالقصبة، لكن ومع قناعتها بأنها لن تستطيع الصمود كثيراً، اضطرت للاستسلام على غرار بقية المحاصرين للموحدين، وكان ذلك يوم الخميس 10 محرم 557هـ (30 ديسمبر 1161م)[188].

احتلال ابن همشك لغرناطة ووقوع معركة مرج الرقاد

وكرد فعل على هذه الهزيمة، استولى ابن همشك بشكل مباغت على غرناطة[189]، وكان قد دخل في اتصالات سرية مع اليهود الذين أجبروا على اعتناق الإسلام، والذين نجحوا في اقناع ابن دهري

186- المن بالإمامة، م. س.، ص. 120.

187- نفسه، ص. 120-121.

188- نفسه، ص. 121-122.

189- تطرق دوزي لاحتلال غرناطة هذا في عمل يحمل عنوان: Sur ce qui passe a Granade en 1162. 3 edic, T-1- p. 364 حيث شارك في العملية حسبه كل من المرابطين والنصارى واليهود، وكان يقود من بقي من المرابطين ابن الدهري. وقد انضم المسيحيون إلى قوات ابن مردنيش وابن همشك لوجود الكثير من أبناء ملتهم بغرناطة. أما اليهود فقد انضموا لهذه القوات لحقدهم على الموحدين الذين أرغموا عدداً من أبناء ملتهم على اعتناق الإسلام.

بفتح أبواب الربض لقوات ابن همشك، وكان ذلك في إحدى ليالي الشهور الأولى من سنة 557هـ. وقد اضطرت الحامية الموحدية للمدينة للتحصن بالقصبة، في وقت أرسل ابن همشك من يخبر ابن مردنيش الموجود في مرسية بالنجاح الذي حققه، ويحثه على المجيء على رأس قواته لإخضاع القصبة. ولم يتردد ابن مردنيش في قبول العرض، حيث جمع لتوه قواته والمرتزقة المسيحيين الذين كان يقودهم "البارو رودريكيث" Alvaro Rodriguez (الملقب بالأصلع)، وانطلق صوب غرناطة[190].

وبعد احتلال ابن همشك للمدينة، وضع مخيمه بالقصبة الحمراء الواقعة بجبل السبيكة والمقابلة للقصبة القديمة التي احتمى بها الأهالي، وبدأ يهد هذه الأخيرة بالمجانيق التي لم يكن يحشوها بالحجارة فقط وإنما بالأسرى الموحدين كذلك.

أمام هذا الوضع، طلب المحاصَرون والذين كانوا يتوفرون على المؤونة والذخائر الكافية، من عبد المومن النجدة بشكل مستعجل، وكان قد ترك مراكش نحو الرباط في طريقه إلى الأندلس للجهاد، وقد وصله خبر سقوط غرناطة وهو بجوار وادي كساس[191] الذي يبعد عن الرباط مسافة يومين، وأمر إثر ذلك ابنه السيد عثمان عامل غرناطة الذي كان يرافقه، أن يتوجه على وجه السرعة إلى الأندلس مع بعض قواته، ويحاول دخول القصبة القديمة، ومنها يعمل على إرغام ابن همشك على مغادرة القصبة الحمراء. وكان السيد عثمان يعتقد أن ابن همشك ليس معه غير قواته، ولم يعلم أن ابن مردنيش مده بقوات إضافية قوامها ألفا فارس وما يفوق ذلك بكثير من المشاة، وأن هذه القوات كان على رأسها "البارو رودريكيث".

وبعد عبور السيد المضيق انطلاقاً من القصر الصغير (قصر مصمودة)، توجه إلى مالقة، حيث طلب من هناك وبشكل مستعجل، من عامل إشبيلية بالنيابة، أن يلتحق به قرب غرناطة على رأس قواته. وقد وصلا في وقت واحد تقريباً إلى السهل القريب من المدينة، حيث واصلا السير

190- يخلط ابن الخطيب عند حديثه عن الحملة التي قام بها ألفونسو المحارب El batallador إلى غرناطة عام 1126م، بين المستعربين Los Mozarabes الذين كانوا يقيمون منذ أجيال في غرناطة وأحوازها والذين تم نفيهم إلى المغرب الأقصى على عهد علي بن يوسف، وبين المرتزقة المسيحيين الذين ضمهم ابن مردنيش إلى جيشه، وهكذا يقول إن المرابطين نفوا الكثير من المسيحيين المستعربين الذين استنجدوا بألفونسو المحارب، لكنه يضيف أن عدداً مهماً تخلف في غرناطة، وأنهم كونوا ثروات كبيرة إثر ذلك بفضل الحماية التي كانوا يتمتعون بها من طرف بعض الأمراء، لكنهم في سنة 557 هـ (1162م) أبيدوا جميعاً تقريباً إثر معركة السبيكة.

191- هكذا يسميه ابن صاحب الصلاة، م. س.، ص. 127، أما ابن عذاري فيسميه وادي كسكس ومكانه بين الرباط ومراكش، ويقول الدكتور عبد الهادي التازي إن هذا الوادي هو "وادي التويمي" بالشاوية جنوب سطات، انظر حواشي المن بالإمامة، م. س.، ص. 127. (المترجم).

معاً في اتجاهها، لكنهما وبعدما أصبحا على بعد أربعة أميال منها، وبالضبط في المكان المعروف بمرج الرقاد، فاجأهما ابن همشك الذي خرج ضدهما على رأس جيشه.

وحسب ابن صاحب الصلاة، فإن الموحدين ما أن وعوا بالكمين الذي وضعه لهم ابن همشك، وشاهدوا العدد الكبير من القوات التي ترافقه والتي كان ضمنها جنود مسيحيون، حتى خارت قواهم وانهارت معنوياتهم، في وقت تعذر عليهم فيه الفرار بسبب كثرة السواقي الموجودة بالمنطقة، والتي قضي على العديد منهم بعد سقوطهم بها. وقد تمكن السيد عثمان من النجاة والالتجاء إلى مالقة، في حين عاد ابن همشك إلى القصبة الحمراء التي قام فيها بتعذيب وقتل الأسرى الموحدين على مرأى ومسمع من إخوانهم المحاصرين في القصبة القديمة.

الانتصار في معركة السبيكة واستعادة الموحدين لغرناطة

وقد علم عبد المومن بالخبر وهو في الرباط، حيث حشد أعداداً مهمة من القوات قوامها عشرون ألف رجل، جلهم من الموحدين والعرب الذين استقدمهم من إفريقية. ومن هذه القوات انتقى فيلقاً تولى قيادته اسمياً ابنه يوسف وعملياً القائد المحنك يوسف بن سليمان[192]. هذا الفيلق ركب البحر انطلاقاً من الرباط، وبعد عبوره المضيق، نزل بالجزيرة الخضراء التي وضع بها مخيمه، وهناك التحقت به القوات الموحدية الموجودة في الأندلس، وانتقل الجميع عبر الطريق الساحلي، إلى مالقة، حيث انضم إليهم السيد عثمان، قبل أخذ طريق غرناطة. وحتى لا يتم إرهاق الجيش كانت المسافة التي يتم قطعها يومياً محدودة جداً[193].

ويظهر أن القوات المسلمة والمسيحية التي يقودها ابن مردنيش والتي كانت تراقب من بعد تقدم القوات الموحدية، كانت متأكدة من تحقيق انتصار ثان خصوصاً مع تفوقها العددي على عدوها، وقد تمركزت على ضفتي وادي حدارّة، حيث تولى ابن همشك قيادة تلك الموجودة بالقصبة الحمراء الواقعة بجبل السبيكة على الضفة اليسرى للنهر، بينما تولى ابن مردنيش قيادة تلك الموجودة بالجبل المحاذي للقصبة القديمة على الضفة اليمنى، في مكان يسمح بتشديد الخناق على المحاصرين بالقصبة المذكورة.

192- ابن صاحب الصلاة، م. س.، ص. 130.
193- نفسه، ص. 130-131.

وبعد أن تنبه يوسف بن سليمان لخطة أعدائه، وضع بشكل سريع خطة مضادة قادته للنصر، وهكذا عبر أولاً وادي دلر انطلاقاً من مكان مجاور لقرية الهمدان، نحو قرية شنيل التي توجد في الضفة الأخرى، متظاهراً بعدم رغبته في الاقتراب من العدو ولا التوقف عن السير الذي كان يتم بإيقاع بطيء. وفي يوم الخميس 27 رجب (12 يوليوز 1162م) عرض خطته على بقية قادة الجيش من موحدين وعرب، وحثهم على القتال بكل استماتة. وفي مساء نفس اليوم، بدأ هؤلاء يعدون العدة للمواجهة، وأمروا القوات التي توجد تحت إمرتهم بالسير طيلة ليلة اليوم المذكور بإيقاع بطيء، في اتجاه الجبل المطل على شنيل والمجاور لجبل السبيكة الذي كانت توجد بقمته القصبة الحمراء[194].

وفي فجر يوم الجمعة 13 يوليوز، انقضوا على مخيم العدو وكان جنوده النصارى نياماً[195]، ولم تنفع بسبب ذلك المقاومة التي كانت ارتجالية. وأمام حالة الرعب التي سرت في قوات ابن همشك، فرت عبر المنحدرات التي تقود إلى وادي حدارة، في محاولة للعبور إلى الضفة الأخرى والاجتماع بقوات ابن مردنيش، غير أن أغلب أفرادها لقى حتفه غرقاً، وكان ضمن القتلى كل القواد والفرسان الرئيسيين وعلى رأسهم "البارو رودريكيث" وابن عُبيد (صهر ابن مردنيش)[196].

ولم يستطع ابن مردنيش شيئاً أمام هذا الوضع المفاجئ، لذا رفع مخيمه وصعد عبر وادي حدارة تاركاً خلفه خيامه وبقية أمتعته، في حين فر ابن همشك إلى شقورة. وقد دخلت القوات الموحدية إلى المدينة التي نجحت في تحريرها بمساعدة حامية القصبة، وقتلت كل من شارك في التآمر ضد الموحدين مع العدو[197]. إثر ذلك حضر إلى غرناطة من أجل طلب العفو، سكان السهل المجاور الذين سبق وأعلنوا خضوعهم لابن همشك. وبعد أن تمت مصادرة أملاكهم وأملاك من وقف موقفهم، شرع الموحدون في ترميم الأجزاء المتضررة من القصبة والتي نقلوا

194- يتعلق الأمر بالمكان المعروف باسم برج الشمعة الذي سوف تشيد فيه أسرة بني الأحمر فيما بعد قصر الحمراء، ويرتكب ابن صاحب الصلاة خطأ إملائياً بحيث يسمي المكان السبكة بينما الصحيح هو السبيكة كما نجده عند ابن الأبار والمقري وابن الخطيب .

195- كان ابن مردنيش قد وضع مخيمه في المكان المعروف بشريعة البيازين في حين وضع ابن همشك الذي تمركز ببرج الشمعة مخيماً خاصاً للجنود الألفين الذين بعث له بهم ابن مردنيش، بمكان مجاور للبرج، على اعتبار أنهم لم يتسعوا بسبب عددهم المرتفع داخل البرج، وكان هؤلاء أول من انقض عليهم الموحدون.

196- يرى "سيمونيت" Simonet أن مقتل الجنود القشتاليين بالنهر لا يعود إلى الغرق على اعتبار أن مياه وادي حدارة عادة قليلة، وإنما إلى تدحرجهم داخل النهر، عندما حاولوا الفرار عبر المنحدر المعروف باسم "منحدر الأموات" وغيره من الممرات الأخرى الضيقة وشديدة الانحدار، وهو ما ادى بهم إلى السقوط بقعر النهر.

197- المن بالإمامة، م. س.، ص. 134.

إليها المؤونة اللازمة. وفي نفس يوم تحقيق الانتصار، أرسل السيدان يوسف وعثمان والقائد العام للجيوش الموحدية يوسف بن سليمان، من يزف الخبر السعيد لعبد المومن، قبل أن ينطلقوا في اتجاه جيان لمحاصرة ابن همشك الذي التجأ إليها.

نقل العاصمة إلى قرطبة

ومن الرباط أرسل الخليفة إلى غرناطة الأسلحة والمؤونة الضرورية من قمح وشعير وملح، وذلك بهدف ملء خزائن قصبتها، كل ذلك نقل بحراً إلى حصن المنكب ومنها إلى غرناطة. وقد كلف بمراقبة القصبة حامية أندلسية كان الموحدون متأكدين من إيمان أفرادها بالعقيدة الموحدية.

بالنسبة لابن همشك فإنه غادر جيان بعدما كلف قائده المفضل أحمد بن عبد الرحمن الوقشي بمهمة الدفاع عنها[198]. هذا الأخير قام بذلك بحيوية كبيرة أجبر معها المحاصرين على الانسحاب، خصوصاً وأن هؤلاء وفي الوقت الذي كانوا لايزالون بجوارها، وصلتهم رسالة من الخليفة تأمرهم بفك الحصار والاتجاه نحو قرطبة لإعادة تعميرها، وتوفير الحماية اللازمة لها لتفادي سقوطها بيد العدو، وتحويلها من جديد إلى المقر الرئيسي للسلطة الموحدية بالأندلس. ولم يكن قرار الخليفة هذا راجعاً فقط لموقعها الاستراتيجي الكائن وسط الأندلس وإنما للدور التاريخي الذي اطلعت به في الماضي كحاضرة الأمويين في الغرب الإسلامي[199].

وقد كلف عبد المومن أحد قدماء المرابطين ويدعى براز المسوفي، بمهمة نقل كل الأجهزة الإدارية من اشبيلية إلى قرطبة التي وصلها السيدان يوسف وعثمان والقائد يوسف بن سليمان يوم الأحد 12 شوال 557هـ (26 سبتمبر 1162م). ويقول ابن صاحب الصلاة عن وصولهم إليها والكيفية التي تم استقبالهم بها ما يلي: «*فخرج جميع أهل قرطبة إلى لقائهم وكنت أحد من خرج للتبرك بهم مع وفد الكتاب أهل إشبيلية الذين ذكرتهم إلى باب القنطرة المتصل بالفحص إلى طريق جيان وأعيان قرطبة الباقون منهم في الفتنة مع أهل إشبيلية على أقدامهم بادرين إليهم مع النظارة من أهل قرطبة فكان عدد أهل قرطبة اثنين وثمانين رجلا لجلائهم من الفتنة عن البلاد*»[200].

198- انظر معلومات عن سيرته الذاتية عند صاحب "الحلل الموشية". م. س.، ص. 230.

199- المن بالإمامة، م. س.، ص. 138.

200- يؤكد ابن الأبار هذا الخبر الغريب الذي أورده ابن صاحب الصلاة، عندما يقول إن عدد المستقبلين كان ثمانين شخصاً فقط لأن التمرد كان قد أتى على معظم ساكنة المدينة والجوع الناجم عن الضغط الذي مارسه عليهم ابن همشك كان قد شتت شملهم لدرجة أن القليلين ممن تخلفوا بالمدينة، اكتفوا بزراعة المساحات غير المبنية الموجودة داخلها، للحصول على قوت يومهم.

وبها كان حل ببلدتهم من القفر بغورها والنجاد، وقد ظهر على هيأتهم وصورهم البؤس، واستمر على بلدتهم وعليهم من الفتنة الدروس، قد لبسوا من الثياب أطمارا، واستبشروا على حالهم لذلك اللقاء، ودعوا إلى الله أن يزيدهم في عمرهم أعمارا، فلقد ذاقت قرطبة وأهلها من بؤس هذه الفتنة الأندلسية، ما لم يذقه أحد من أوائلهم في الفتنة الحمودية»[201].

وقد تولى نفس المهندس الذي كان يشرف على أعمال البناء في جبل طارق، إعادة ترميم المدينة وإصلاح أسوارها التي أصبحت عبارة عن أطلال. في تلك الأثناء غادر القرطبيون البادية نحو منازلهم، واختفت تدريجياً مظاهر البؤس التي عرفتها المدينة وضواحيها خلال الحرب الأهلية، بحيث انتعشت الفلاحة وعادت التجارة إلى سابق عهدها.

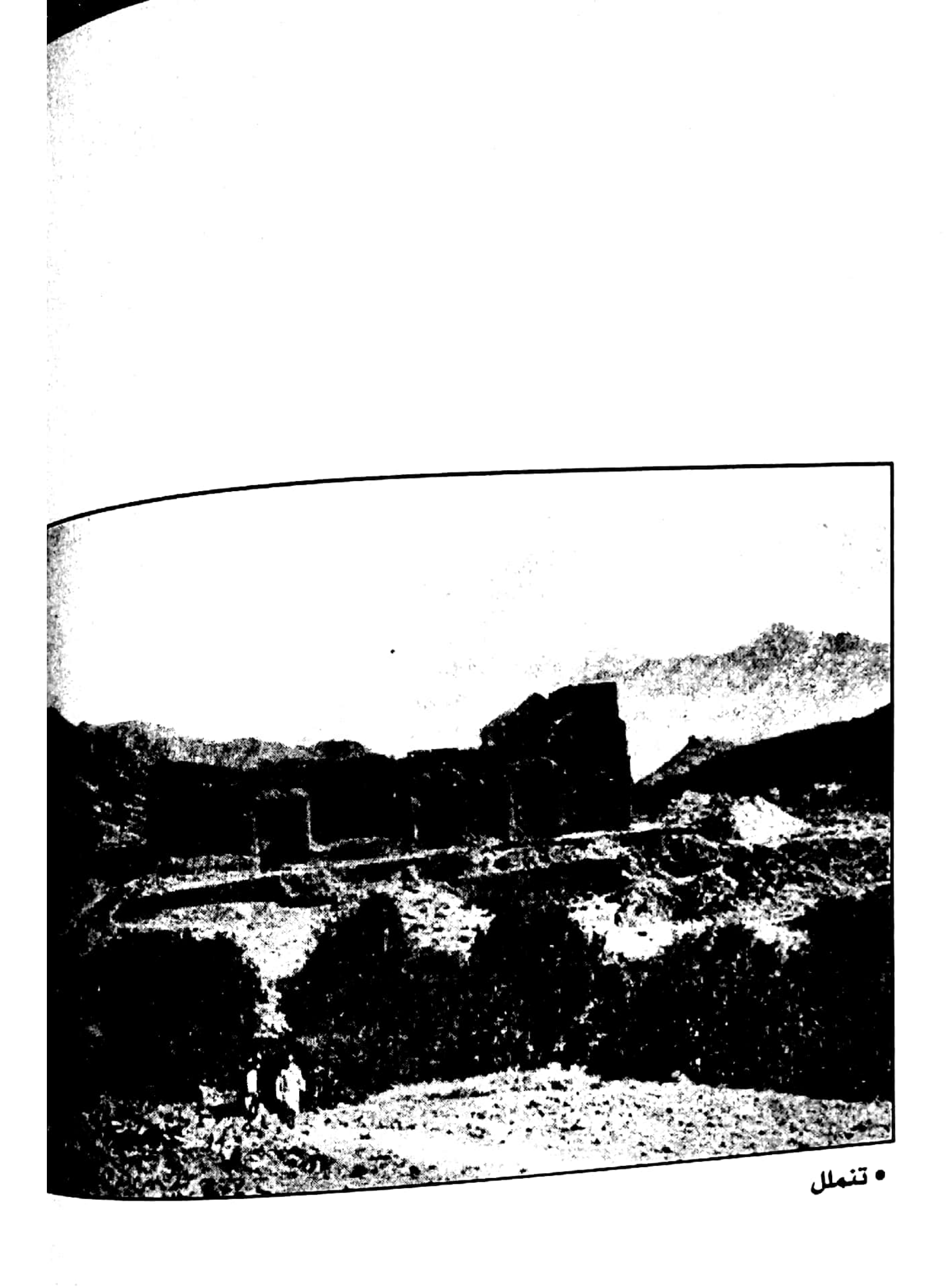
وبعد سنة من إعادة تعميرها، وفي الوقت الذي كانت كل المؤشرات توحي بأن قرطبة سائرة في طريق استعادة سابق مجدها، توفي عبد المومن ومعه اقبرت تلك المبادرة الرامية لإعادة أمجاد المدينة؛ ذلك لأن ابنه وخليفته يوسف، الذي سبق له وقضى ست سنوات بإشبيلية، وكان معجباً بجمالها وبهائها، أمر مباشرة بعد اعتلائه العرش، بإعادة الأجهزة الإدارية من جديد إلى هذه المدينة التي ستصبح مرة أخرى مركز السلطة الموحدية بالأندلس[202].

الاستعداد للجهاد وزيارة تنملل

وكان عبد المومن بالرباط عندما وصله خبر انتصار الموحدين في السبيكة، وهو الحدث الذي تغنى به الشعراء وقدموا فيه التهاني للخليفة. وبعد الاحتفال بعيد الفطر (9 غشت 1162م)، عاد إلى مراكش وهو لا يفكر في غير الحملة الكبيرة التي كان ينوي توجيهها عن طريق البر والبحر ربيع تلك السنة ضد المسيحيين وغيرهم من متمردي الأندلس. وكان يطمح من خلالها تحقيق انتصارات توازي تلك التي حققها في المغرب الأوسط وإفريقية. ومن أجل ذلك كون أسطولاً ضخماً قوامه مائتا سفينة صنعت 120 منها في أوراش ميناء المعمورة بمصب نهر سبو، والباقي في مختلف موانئ المغرب والأندلس. ولنفس الغاية خصص خريف وشتاء 1162 م لتجنيد الرجال وجمع كميات كبيرة من المؤونة والأسلحة،

201- لم تكن معاناة القرطبيين وقتذاك بالشيء الهين، فقد انقض عليهم ابن حمود حسب تعبير ابن حيان (أورده ابن بسام) وأذاقهم كل أنواع التنكيل وفرض عليهم كل أنواع الجبايات، وجردهم من أسلحتهم، وحطم منازلهم، ووضع القيود بأيدي القضاة حتى لا يطبقوا القانون، وفرض كل أنواع المغارم على العامة، ووضع على المساجد أسوأ الأشخاص والذين تفننوا في خلق كل أنواع الفساد. المن بالإمامة، م. س.، ص. 140.

202- لم تبق قرطبة عاصمة للسلطة الموحدية في الأندلس إلا فترة محدودة، امتدت من نهاية شتمبر 1162م إلى منتصف ماي 1163م.



• تنملل

كما جمع الخيول من مختلف أنحاء شمال إفريقيا، وأمر قائده يوسف بن سليمان أن يخصص حوالي 14 ألفاً منها للعرب الذين استقدمهم من إفريقية. والحقيقة أنه لم تعرف أي واحدة من حملاته السابقة الاستعدادات التي حظيت بها هذه الحملة، والتي أغدق فيها ودون استثناء العطاء على جنوده.

وفي يوم السبت 22 ذي الحجة 557هـ (فاتح ديسمبر 1162م)، وفي الوقت الذي كانت فيه الاستعدادات للحملة جارية على قدم وساق، قام مسيحيو شنترين باحتلال باجة التي احتفظوا بها أربعة أشهر وثمانية أيام (إلى غاية 8 أبريل 1163م)، ولم يغادروها إلا بعد أن قاموا بتخريبها[203].

وأمام رغبته الأكيدة في عدم تضييع الوقت، قرر القيام وفي عز الشتاء بالزيارة الإلزامية لضريح المهدي في تنملل من أجل طلب مباركته للحملة، ولم يثنه عن ذلك لا الأمطار الغزيرة، ولا البرد القارس الذي تعرفه تلك المناطق المرتفعة، ولا الجليد الذي غطى منطقة الأطلس طولاً وعرضاً، وهو ما عانى بسببه كل من رافقه في الرحلة. وعند الوصول إلى وادي النفيس الواقع بين حصن كيك ومدينة تنملل، وجدوه في حالة فيضان ناجم عن الأمطار الغزيرة وذوبان الثلوج النازلة من المرتفعات.

ولما تبين للخليفة أن الانتظار إلى غاية تراجع مياه النهر قد يطول، خصوصاً مع عدم توقف الأمطار الطوفانية، قرر العبور فوق مطيته، غير أن مستوى المياه أدرك صهوة جواده وبلل ملابسه في وقت سببت له برودته الجليدية الكثير من الأذى. ولما شاهد مرافقوه عبور الخليفة بتلك الطريقة، لم يترددوا في فعل نفس الشيء. وبعد اجتياز النهر، تم وضع المخيم في أحد الميادين المجاورة حيث أوقدت النار للتدفئة، قبل مواصلة السير نحو ضريح المهدي[204].

وأثناء عودته، وفي الوقت الذي كان يقاوم فيه وعكته الصحية بحماس، لاحظ أن ابنه وولي عهده محمداً لم يتوقف عن السكر، بحيث شوهد من طرف كبار مشايخ الموحدين وغيرهم ممن رافقه إلى تنملل وثيابه مبللة بالخمر، وهو ما تألم له كثيراً.

وحسب المصادر العربية، فإن محمداً بجانب معاقرته الخمر، عرف باستهتاره وقصر نظره، وبسبب ذلك قرر عبد المومن حسب هذه المصادر تنحيته عن ولاية العهد[205]، حيث استدعى مباشرة بعد عودته إلى مراكش، ابنه يوسف أمير إشبيلية الذي كان في قرطبة رفقة أخيه عثمان. وما أن

203- المن بالإمامة، م. س.، ص. 289.

204- نفسه، ص. 149-150.

205- بخلاف ذلك يرى مؤلف "المعجب" أن سبب تنحيته هو معاناته من مرض الجذام، م. س.، ص.168.

وصله أمر والده، حتى غادر يوسف قرطبة نحو إشبيلية التي حل بها يوم الأربعاء 10 محرم 558هـ (10 ديسمبر 1162م)، وهناك قضى خمسة أيام فقط قبل أن يأخذ طريق العاصمة[206].

وفي يوم الثلاثاء 6 ربيع الأول (12 فبراير 1163م)، وبأمر من والده، نسخ يوسف الحوار الذي دار بين مشايخ الموحدين والمهدي عند وجود هذا الأخير على فراش الموت، وكان عبد المومن هو الذي يملي عليه[207]. وطيلة الأيام السابقة لانطلاق الحملة، قام بمساعدة والده في الإجراءات المتعلقة بها. وفي يوم الخميس 15 من نفس الشهر (21 فبراير)، أعطيت انطلاقة للحملة التي تولى قيادتها الخليفة بنفسه، وكانت تسير بنفس الإيقاع البطيء الذي تعودت حملات الموحدين السير به، في وقت سبقها فيه إلى إشبيلية يوسف للقيام بالاستعدادات اللازمة لاستقبالها. وتبالغ المصادر العربية، بما في ذلك المعاصرة للأحداث، في تقدير عدد الجنود المشاركين في الحملة، وهكذا يقول ابن صاحب الصلاة، إنه بعد أن تم حشدهم جميعاً في الرباط، ضاق بهم السهل الممتد ما بين هذه المدينة و عين غبولة[208].

وفاة عبد المومن

وفي المجلس الحربي الذي عقده بالمناسبة، أخبر عبد المومن أعضاء المجلس بأن الهجوم سيتم عن طريق البر والبحر، وبما أن عدد الجنود الذي تجمع لديه كان كبيراً جداً، فقد اعتبر أنه بالإمكان فتح أكثر من جبهة في وقت واحد، وهكذا وبعد استشارته لأعضاء المجلس من شيوخ الموحدين، قرر تكوين أربعة فيالق يقوم كل واحد منها بمهاجمة إحدى الممالك المسيحية الأربعة، وهي: البرتغال وليون وقشتالة وأراغون[209].

وبعد اتخاذ هذا القرار الهام، وفي الوقت الذي شرع في تنفيذه حيث أخذت القوات طريق الرباط، أصيب عبد المومن بمرض لم ينفع معه علاج، رغم محاولات الأطباء الذين لم يكونوا يفارقونه ليل نهار، وكان رقاده الطويل على فراش الموت بدأ يؤثر سلباً على معنويات الجنود الذين ضاقوا من الانتظار. وفي مطلع جمادى الثانية، وكان قد مر شهران ونصف على مغادرته مراكش، وفي الوقت الذي أدرك فيه أن أجله دنا، أمر بإلغاء ذكر اسم ولي العهد، إلى ذلك التاريخ ابنه

206- يؤكد ابن صاحب الصلاة خطأً أنه منذ وصوله إلى مراكش لم ينفصل عن والده إلى أن توفي هذا الأخير.

207-Op. Cit., Docs inéd, P. 32.

208- المن بالإمامة، م. س.، ص. 151.

209- نفسه، ص. 152-153.

محمد، من خطبة الجمعة، وكلف ابنه عمر (أخا يوسف غير الشقيق) بتنفيذ القرار الحساس الذي اتخذه في شأن من سيخلفه، في نفس الوقت استدعى مساعده الوفي أبا حفص عمر ينتي، وكان آخر من وجه لهم تعليمات تهم أمور الدولة.

ولم يكن قد بقي على قيد الحياة من أهل العشرة بجانب عبد المومن غير أبي حفص عمر ينتي وعضو آخر. وحسب ابن خلدون فإن الخليفة نصح ابنه يوسف بأن يضع ثقته الكاملة في عمر ينتي، وأن يعين في المناصب العسكرية المهمة بالأندلس القواد المصامدة، لأنهم لن يتركوا ابن مردنيش ينعم بسلام هناك، كما طلب منه الاحتفاظ بعرب إفريقية في المغرب الأقصى، لاستعمالهم في محاربة ابن مردنيش عندما يتطلب الأمر ذلك، وأخيراً أمره بأن لا يقوم بأي إجراء خلال الأيام الأخيرة تلك من حياته، وأن ينتظر إلى أن يواريه الثرى. ودائماً حسب ابن خلدون، فإن عبد المومن أسمع يوسف عصارة فكره عندما قال له إن عقاب العرب هو المال وعقاب البربر هو السيف لذا لا يجب أن يشهر سيفه في وجه البربر ولا أن يرغم العرب على أداء المغارم.

وكانت وفاة عبد المومن قبل الفجر، وتتفق المصادر العربية أنها حدثت في جمادى الثانية عام 558هـ[210]، وتختلف هذه المصادر فقط في تحديد اليوم، حيث يجعلها البعض في الثامن من الشهر المذكور، بينما يجعلها البعض الآخر في العاشر أو العشرين أو السابع والعشرين. ونعتقد أن أقرب التواريخ للصواب هو الثامن من جمادى الثانية (14 مايو 1163م)، على اعتبار أن كلاً من صاحب البيان المغرب والبيدق يتفقان عليه، وهو ما لا نسجله معهما في التواريخ الأخرى التي يوردانها. كما تتفق هذه المصادر في تحديد المدة التي قضاها في الحكم، والتي حصرها صاحب روض القرطاس في 33 سنة وثمانية أشهر و23 يوماً، بدءاً من نفس يوم وفاة المهدي وهو الأربعاء 14 رمضان 524هـ. وتشير بعض المصادر المذكورة إلى أن وفاة عبد المومن بقيت سراً إلى أن نقل إلى مراكش[211] ، وأن ما أشيع أثناء نقله، هو وجوده في حالة مرض. إلا أن هذا غير صحيح ولا يمكن أن نفسر به اختلاف المصادر في تحديد يوم الوفاة، خصوصاً مع تأكيد البيدق أن بيعة يوسف تمت في نفس يوم وفاة عبد المومن، وأن حفل البيعة استمر إلى يوم الخميس 10 جمادى الثانية

210- نظم الجمان. م. س.، ص. 65. البيان المغرب، م. س.، ص. 79. يجعل ابن صاحب الصلاة الوفاة ليلة الجمعة، 10جمادى الثانية، م. س.، ص. 155، أما ابن الأثير فيجعلها يوم 20 ، في حين يجعلها النويري الذي نقل عنه يوم 10، وهو نفس التاريخ الذي يورده الزركشي، أما المراكشي والمعتمد على ذاكرته فقط والتي تخونه عادة عندما يتعلق الأمر بالتواريخ، فيشير إلى أن الوفاة حدثت يوم 27.

211- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 496.

558هـ(15 مايو 1163 م). وكان إيمان الخليفة الموحدي الأول، بدعوة إمامه المبجل المهدي، وراء توصيته بأن يدفن عند قدمي هذا الأخير، وهو التقليد الذي اتبعه خلفاؤه من بعده.

أعمال عبد المومن

على غرار غيرها من الإمبراطوريات البربرية، تميزت الإمبراطورية التي أسسها عبد المومن بحيوية كبيرة لكن بعمر قصير، بحيث إنها تستجيب في هذا السياق للنظرية الخلدونية التي تحصر عمر الإمبراطوريات البربرية في ثلاثة أجيال. ومع ذلك، يمكن اعتبار هذه الإمبراطورية الأعظم من نوعها في تاريخ الغرب الإسلامي خلال القرون الوسطى، بمنطقة خضعت باستمرار لحكم الأجانب من غير البربر. من هنا، ولمجرد أنه أسس دولة خلافة في الغرب الإسلامي ذات جذور بربرية، يعتبر عبد المومن دون شك أبرز سياسي على الإطلاق أنجبه البربر.

ولإبراز عظمته، تمت مقارنته بالأمبراطور شارلمان (مع الاحتفاظ لكل منهما بخصوصياته). والحقيقة أن ما قام به من أعمال، يعتبر دليلاً كافياً لتأكيد هذه العظمة، فقد أقام العدل على طريقته الخاصة في مغرب تسوده الفوضى، وفرض بالقوة نظاماً مستمداً من مبادئ الإصلاح الموحدي.

ورغم أنه لم يستطع تحقيق كل ما بشر به إمامه المبجل الذي وبعد أن ادعى المهدوية، أخبر أن شخصاً في آخر الزمن سيُتِم ما بدأه النبي؛ والمتمثل في غزو بلاد فارس وكل الممالك المسيحية، وهزم الدجال، وتوحيد العالم وتهييئه ليوم الحساب من خلال إقامة شرع الله به، رغم أنه لم يستطع ذلك، فالواقع أن ما حققه، يفوق كل ما يمكن أن يطمح إليه أولئك الأشخاص البسطاء الذين آمنوا بدعوة المهدي أثناء وجوده في إيجليز هرغة. كيف لا وخلافته فاقت من حيث القوة العسكرية والامتداد الجغرافي، الخلافتين الأخيرتين اللتين ظهرتا في الغرب الإسلامي، وهما الفاطمية والأموية، على اعتبار أن امبراطورية الموحدين امتدت من قشتالة غرباً إلى طرابلس شرقاً.

لقد تعلم من المهدي كيف يفكر بمنطق الصرامة، ومع تحوله من طالب علم وتلميذ للمهدي إلى أمير للمؤمنين، استفاد من منطق الصرامة ذاك في وضع أسس نظام مملكته الذي طبعه بتلك الصرامة، وهكذا فرض وبشكل يصعب فهمه نوعاً من الانضباط الدقيق على القبائل المغاربية المتعودة على الفردية والاستقلالية وعدم الخضوع.

لكن مشروع عبد المومن، والذي سمحت عبقريته بترعرعه خلال فترة حكمه، كان يتضمن من الداخل عناصر هدم حكمت عليه بعد ذلك بالتفكك؛ فعجز بربر مصمودة عن إقامة دولة قائمة على عصبيتهم، ووجود العناصر العربية داخل الأمبراطورية مع ما يشكلونه من خطر، وتراجع

الإيمان بالعقيدة الموحدية بسبب الاتصال بالحضارة الأندلسية، واختفاء تلك الروح القتالية التي ميزت القبائل المؤسسة في الماضي، كلها عوامل ساهمت في هدّ ذلك الصرح الشامخ من أساسه، كما سنرى عند الحديث عن أسباب سقوط الامبراطورية.

لقد اعتمد عبد المومن في نجاحاته على مواهبه السياسية الخارقة، ولكنه في نفس الوقت استفاد من عنصر الحظ؛ فبما أن وفاة المهدي دون تحقيق ما كان يدعيه من إقامة العدل الإلهي في الكون، وهزم دجال آخر الزمان، ما كان ليمر دون أن يهز ثقة أتباعه به، فقد أخفى عبد المومن، لمدة تكاد لا تصدق، وباتفاق مع المجموعة القليلة من الأتباع التي عبرت له عن دعمها اللامشروط، خبر تلك الوفاة. ونجح وهو الشخص الغريب عن مصمودة، في قطع جذور كل مقاومة تستند إلى الروح القبلية، في نفس الوقت، نال الاعتراف به كخليفة للمهدي، رغم أن هذا الأخير وعلى اعتبار أنه ظهر في آخر الزمان، ما كان ينبغي أن يكون له خليفة.

إن ما أورده مؤرخو البلاط بشأن تفضيله على غيره من طرف المهدي، وكذا بشأن أصله الشريف، ليس أكثر من ادعاءات أريد من خلالها تبرير تعيينه كخليفة لابن تومرت. والصحيح هو أن مقتل البشير، المساعد العسكري المباشر لابن تومرت وملهم أفكاره الخارقة، في معركة البحيرة مع أربعة آخرين من أهل العشرة، ثم تنازل عمر ينتي، وهو الذي تولى إمامة المصلين بعد وفاة المهدي، لعبد المومن عن السلطة (لا نعرف هل كان إرادياً أم قصرياً)، سمح لهذا الأخير بالوصول إلى الحكم.

إن بعد نظر عبد المومن ودهاءه السياسي يتجلى لنا كذلك في الكيفية التي خطط بها، بعد أن قضى 27 سنة في الحكم وعقب غزوه لإفريقية وإخضاعه للعرب، خطط بها لإقامة حكم وراثي ولتعيين أبنائه على مختلف ولايات الإمبراطورية، كما يتجلى في عفوه عن عرب إفريقية وإكرامه مثواهم، لكن مع نقلهم إلى المغرب، ليكونوا تحت مراقبته، وفي نفس الوقت ليستفيد منهم في تكوين جيشه النظامي وفي حملاته العسكرية وخصوصاً في جهاده بالأندلس، على اعتبار أنهم يفوقون شجاعة أبناء جلدته من البربر. وبطبيعة الحال، لم يكن بإمكانه في ذلك الوقت المبكر، أن يتنبأ بما سوف يترتب خلال العصور اللاحقة عن نقل هذه المجموعات البشرية إلى المغرب.

إن الخلافة الموحدية التي ظهرت في الغرب الإسلامي على أساس إصلاح ديني قام به المهدي، وعلى أساس تنظيم سياسي واجتماعي بربري بدائي قامت به قبائل الأطلس، لم تكن لتبقى حبيسة الدويلة التي أنشأها المهدي في منطقة تنمل. لكن عبد المومن، ورغم انتقاله بهذه الدولة إلى مستوى

آخر، حافظ على النظام التراتبي الذي ميزها خلال بداية عهدها، مع طبعه بخصوصيات أملاها الامتداد الجديد للدولة. وهكذا شكلت القبائل المؤسسة، الأرستقراطية العسكرية والحكومية، لكن وبشكل تدريجي، بدأت بالانضمام إلى هذه النواة محدودة العدد، والتي اطلعت بمناصب المسؤولية، قبائل أخرى صعبة المراس تم إخضاعها فيما بعد، مثل هسكورة وصنهاجة ومسوفة، كما انضمت إليها عناصر من أبناء عشيرته كومية الذين استقدمهم إلى مراكش وولاهم المناصب المهمة، وهو ما فعله كذلك مع أبناء هرغة، رغم أنهم غير مصامدة، وذلك لكونهم أول من ناصر المهدي وساند دعوته. وقد شكل كل من سلف ذكرهم، حاشيته خلال مراحل حكمه الأولى. بعد ذلك، وإثر توطيده لدعائم أمبراطوريته، قسم الموحدين إلى ثلاث مجموعات تتفاوت من حيث الأهمية؛ ضمت الأولى، أولئك الذين أخذوا بالدعوة الموحدية قبل معركة البحيرة التي وقعت عام 524هـ، والثانية أولئك الذين خضعوا للموحدين خلال المرحلة الممتدة ما بين معركة البحيرة واحتلال وهران، والثالثة كل الذين خضعوا للموحدين ما بعد احتلال وهران[212]. هكذا وبطريقة تشبه إلى حد ما ما يعرف في السياسة الرومانية القديمة بالحقوق المدنية -Jus Civitatis- منح حقوق المواطنة الموحدية وبشكل تدريجي إلى مختلف رعايا أمبراطوريته.

ورغم ما كان يكنه من عداء للمرابطين، حافظ على البنية الإدارية التي أنشؤوها، حيث نقل عاصمته من تنمل إلى مراكش، واعتمد على الكتاب الخاصين والوزراء الذين عملوا في بلاط بني تاشفين. وبجانب اعتماده الهيكلة الإدارية المرابطية، تبنى بعض المظاهر الإدارية التي ميزت للأندلس، وهو ما فقدته على عهد ملوك الطوائف. وبهذه الطريقة نجح في المزج بين التنظيم الحكومي الأندلسي والتراتب البيروقراطي البربري. في هذا الإطار أعاد إلى قرطبة وضعيتها السابقة كعاصمة

لكن عبد المومن وقبل أن يكون ملكاً عظيماً ومؤسساً لأمبراطورية شاسعة الأطراف، كان مسلماً ورعاً وعالماً متفقهاً، قام بتطبيق الاصلاح الديني الذي آمن به، بغيرة وعزيمة لا هوادة فيهما. ويخبرنا البيدق أنه بسبب رغبته في التعمق في علوم الدين، كان ينوي الرحيل إلى المشرق، وأنه تخلى عن قراره فقط بعدما التقى بالمهدي وكان ذلك مصادفة[213]، أما ابن القطان فيقول إنه

212- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 22.

213- اخبار المهدي، م. س.، ص. 16.

ترك تلمسان حيث كان يدرس، نحو بجاية قاصداً المهدي الذي ذاع صيته بسبب غزارة علومه[214]. وإذا كنا لا نستطيع الجزم في هذه النقطة، فإن المؤكد هو تأثره الكبير بكل ما سمعه من المهدي، واعتناقه لعقيدة هذا الأخير بكل إيمان، متحملاً في سبيل ذلك، ودون كلل، ما كان يلحق المهدي من إهانات ومطاردات.

ولم يكن ليثنيه شيء عن المهمة الخطيرة التي نذر نفسه لها، والمتمثلة في الإطاحة بالسلطة المرابطية، وهو ما كافح من أجله زهاء خمس وعشرين سنة، تمكن خلالها من فرض العقيدة الموحدية في كل بلاد الغرب الإسلامي. وكان ذلك بالترغيب حيناً وبالترهيب أحياناً، وهو ما سمح بانتشار هذه العقيدة بين كل رعاياه، بمن في ذلك النساء والعبيد. وكان الجميع مجبراً على حفظ مبادئ هذه العقيدة عن ظهر قلب وعلى رأسها جملة تذكر بالهداية إلى الصراط المستقيم وبالإيمان بوحدانية الله، والتي كانت عقوبة الإعدام تنتظر كل من توانى في حفظها.

وقد سهر كذلك وبكل صرامة، على أن لا يتهاون رعاياه في أداء الصلاة، واعتبر كل متهاون في ذلك كافراً، وأمر الطلبة أن يقوموا بشكل دقيق بالعمل على حسن أدائها، حيث كلفهم أن يعلموا العامة وكحد أدنى، الفاتحة وسورة أخرى من القرآن حتى تجوز صلاتهم. وبجانب تكليفه للطلبة والحفاظ برعاية ونشر الإصلاح الموحدي في مختلف الولايات، كلفهم كذلك بالأعمال التجارية والقيادة العسكرية. في نفس الوقت، أنشأ تقليداً جديداً يتمثل في جمع العلماء، أساساً المتفقهين في أمور الدين، ببلاطه. وقد سمى هؤلاء والذين كانوا يفدون عليه من مختلف ولايات الأمبراطورية بـ "طلبة العاصمة". وكان يعقد معهم ومع الطلبة الموحدين المنتمين إلى قبيلة مصمودة، جلساته العلمية التي كان يفتتحها بنفسه باقتراح مناقشة موضوع ديني معين، كما كان يختتمها بنفسه بالدعاء والابتهال.

وبنفس الحزم، فرض أداء الزكاة ومنع شرب الخمر وحرص على القضاء على التقاليد والعادات الوثنية الموروثة، وعلى التصرفات غير النزيهة التي تخل بأمانة الوظيفة، والتي يقوم بها بعض رجال السلطة.

من جهة أخرى، يجب التذكير أن العنف والقسوة اللذين تعامل بهما مع المجسمين وغيرهم من الذين يخالفونه الاعتقاد، ما هو إلا نسخة من التعصب الذي ميز المهدي. ومما قام به في هذا السياق، إغلاق الكنائس وغيرها من أماكن تعبد المسيحيين واليهود، بحيث اختفى كل أثر لكنائسهم داخل أرجاء إمبراطوريته الواسعة، ولم يترك للذين رفضوا اعتناق الإسلام منهم من خيار، غير مغادرة البلاد أو الموت.

214- نظم الجمان، م. س.، ص. 23.

بالإضافة إلى ذلك حظر كل مظاهر اللهو المبتذل؛ من حفلات ترفيهية وغيرها، وألح في المقابل على تلاوة القرآن، وكان هو نفسه يواظب على تلاوته وعلى دراسة علم الحديث (خصوصاً الأحاديث الصحيحة) وغيره من علوم الدين.

وتتضمن رسائله الرسمية، التي يخبر فيها بحملاته ويوجه فيها الأوامر للطلبة والشيوخ وأولي القبائل التي اعتنقت عقيدة الموحدين، تتضمن الكثير من التوجيهات حول ضرورة الاستقامة والتشبث بالتعاليم الدينية.

وخلال تنقلاته المستمرة، كان يُتلى القرآن صباح مساء، وهكذا يبدأ اليوم بصلاة الفجر والتوجه بالدعاء والتضرع إلى الله، وكان الخليفة يشارك بنفسه في ذلك بترديد الأدعية في خشوع ويده ممدودة إلى السماء. بعدها يبدأ الطلبة الجالسون خلفه في ترتيل حزب من القرآن وبعض الأحاديث النبوية وبعض النصوص من عقيدة المهدي وتعاليمه، وهذه كانت تردد بالعربية والأمازيغية. إثر ذلك، وقبيل الانتهاء، يرفع الخليفة من جديد أكف الضراعة إلى الله، وهي العملية التي يكررها مرة ثالثة عند دخوله لخيمته.

إنه أمر مدهش حقاً، أن تنبثق كل هذه العبقرية العسكرية والسياسية عن هذا البربري المغمور، المنتمي لإحدى قرى المغرب الأوسط، والذي كان مبلغ همه أن يصبح فقيهاً، بعد أن ينهل من العلوم التي كان ينوي أخذها عن علماء المشرق والتي أخذها في النهاية عن ابن تومرت.

لقد خرج عبد المومن ظافراً من كل التجارب الصعبة التي أخضعته لها السلطة المرابطية ذات التنظيم المحكم، وكذا من التمردات الثلاثة والثلاثين (بعضها خطير جداً) التي قام بها أبناء جلدته من البربر، والذين رفضوا صرامة الإصلاح الموحدي، بسبب ما رمى إليه هذا الإصلاح من تعويض أعرافهم وقوانينهم القديمة بأعراف وقوانين جديدة.

ويكفي لإعطاء البرهان على عبقريته، التذكير بالطريقة التي غير بها استراتيجية مواجهته مع المرابطين؛ فبعد الهزيمة القاسية التي مني بها الموحدون في البحيرة قبالة مراكش، وبعد أن كان جيشهم في حالة دفاع، ومحتمياً بجبال الأطلس الوعرة، قرر تغيير طريقة المواجهة، بترك قاعدة عملياته بمصمودة، والتوجه عبر الجبال إلى مسقط رأسه في زناتة حيث نجح في إقناع كونفدرالية بني ومانو المهمة بدعم قضيته. في نفس الحين، استغل النزاع القائم بين لمتونة ومسوفة ليقوم بهجومه الحاسم والذي صوب من خلاله الضربة القاضية للأمبراطورية المرابطية، مستفيداً في ذلك من جيش اعتمد في تأطيره على قادة القبائل المصمودية الست الأولى التي

اعتنقت العقيدة الموحدية، وفرض عليه انضباطاً صارماً. ومن أجل الحفاظ على ذلك الانضباط، طبق عدة إجراءات من بينها: الحرص على التفوق العددي لجيشه في حالة المواجهات الفردية مع العدو، واتباع طريقة خاصة في تنقل الجيوش وإقامتهم، وتخزين المؤونة الخاصة بالحملات.

وتبين لنا مواجهته مع العرب في إفريقية، مدى الصرامة والانضباط الذي ميز جيشه؛ فقد حاول العرب أثناء المواجهة اتباع خطة إغراء، تتمثل في ترك الغنائم في متناول جيشه الانسحاب، لجعل هذا الجيش ينشغل بها مما يسمح بالانقضاض عليه، لكن قوات عبد المومن لم تتوقف عند الغنائم إلا بعد أن طاردت العرب وهزمتهم وقامت بتفريقهم.

وقبل الانتهاء من هذه النقطة، لا ضرر في التذكير بمثال آخر لشجاعة عبد المومن وبسالته، ويتمثل في حمله الرمح بنفسه للمشاركة في القتال عندما يرى أن الوضع يفرض ذلك.

التنظيم المالي

لقد كان تشدد الإصلاح الموحدي، وضعف الإمكانيات المادية لقبائل الأطلس، وراء إلغاء كل الجبايات غير الشرعية التي سبق وأن فرضها المرابطون، وهكذا اعتمد أوائل المصامدة الذين اعتنقوا العقيدة الموحدية والمتعودون على حياة بسيطة، في الحفاظ على وجودهم العسكري، على الغنائم التي كانوا يحصلون عليها من الغارات. ولم يكن لعبد المومن في بداية دولته، من مصادر مالية غير تلك المتوفرة مما أمر به الشرع من زكاة وعشر[215].

إن الثروات المهمة التي أخذها من المرابطين والحموديين في بلاد المغرب والأندلس، والغنائم التي استولى عليها بعد قضائه على كل المتمردين، ثم الإقطاعات والأملاك التي حصل عليها والتي منحها لساعديه الأقربين، كانت كافية لتغطية مصاريف حملاته الأولى وكذا مشاريع البناء والتشييد التي أنجزها. وهكذا فإلى ما بعد الاستيلاء على بجاية والذي تم في 24 جمادى الأولى 547هـ (27 غشت 1152م)، كانت الضرائب المفروضة هي الشرعية فقط، وهذا ما نستشفه من دعوته لسكان قسنطينة للخضوع، بحيث يذكرهم بالفرق الشاسع في الجبايات بين ما كان مفروضاً عليهم على عهد المرابطين الذين كانوا يلزمونهم بجانب الجبايات الشرعية، بأداء جبايات أخرى مثل المكوس والقبالة والمغارم، وبين ما سيطالَبون به عند خضوعهم لسلطة الموحدين، بحيث إنهم، بفضل الإصلاح الذي أقره المهدي، لن يُطالِبوهم بغير الجبايات الشرعية التي فرضها القرآن والسنة.

215- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 7.

غير أن المصاريف المرتفعة التي كلفتها حملة إفريقية الطويلة، أدت إلى نفاد كل ما تجمع في بيت المال من مذخرات عمليات الغزو السهلة والسريعة التي قام بها الموحدون من قبل، وهكذا فأثناء عودته من إفريقية، وعند وصوله إلى تلمسان، وجد نفسه دون موارد تقريباً، آنذاك تنبه إلى أن المرابطين وبأمبراطورية أقل شساعة كانوا أكثر ثراءً من الموحدين. ويؤكد مؤلف روض القرطاس، كما مر بنا، أنه ومباشرة بعد الانتهاء من غزو إفريقية، أمر بقياس مساحة أمبراطوريته الموجودة بالشمال الإفريقي بالفراسخ والأميال، وبعد إسقاط ثلث المساحة والتي كانت تشكلها الجبال والأنهار والطرق والأراضي القفرة، أخضع الباقي للخراج، بحيث فرض على كل قبيلة أداء كميات معلومة من الحبوب والأموال، وبين أن كل ذلك استحدثه هو شخصياً بسبب الضرورة.

وليس من المستبعد أن يكون ما أورده صاحب روض القرطاس صحيحاً، وأن عبد المومن لما أدرك أن الموارد الشرعية لا تكفي للحفاظ على استمرارية الأمبراطورية، أخضع للخراج كل بلاد البربر، باستثناء المنطقة التي انطلق منها الغزو الموحدي بالأطلس الكبير. غير أن ما يلفت الانتباه هنا هو أن كلاً من البيدق وابن صاحب الصلاة المعاصرين واللذين يتناولان بدقة وتفصيل أحداث تلك المرحلة، لا يذكران شيئاً عن هذا الإجراء.

وبالنسبة للأندلس، فإنه احترم المؤسسات الإدارية القائمة منذ عهد الخلافة الأموية، وكان قد عين منذ إخضاع هذا الجزء من الغرب الإسلامي للسلطة الموحدية، برزان بن محمد المسوفي مسؤولاً عن الجبايات. ونعلم أن برزان كان لايزال يشغل هذا المنصب عندما أمر عبد المومن بنقل عاصمة الموحدين في الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة، كما نعلم أنه كان برفقة برزان عند انتقاله إليها، أمناء السر والجباة والمكلفون بالمحاسبة وجمع الزكاة والضرائب الشرعية. ويظهر أن مؤسسة الجباية وبشكلها القائم على الإصلاح الموحدي، لم يكن قد تسرب إليها الفساد خلال هذه المرحلة، ولا أدل على ذلك أن عهد عبد المومن لم يعرف معاقبة الجباة المخلين بالأمانة، بخلاف عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. والعقوبة الوحيدة التي علمنا بها، المرتبطة باختلاس المال العام خلال عهد عبد المومن، أهمت وزيره عبد السلام الذي عوقب، كما مر بنا، بسبب استيلائه بشكل غير مشروع على الغنائم المتحصلة من احتلال قابس، وبسبب غضه الطرف عن التصرفات غير المشروعة التي قام بها أبناء قبيلته من الكوميين الذين كان قد عينهم عبد السلام هذا في المناصب المهمة بالأندلس[216].

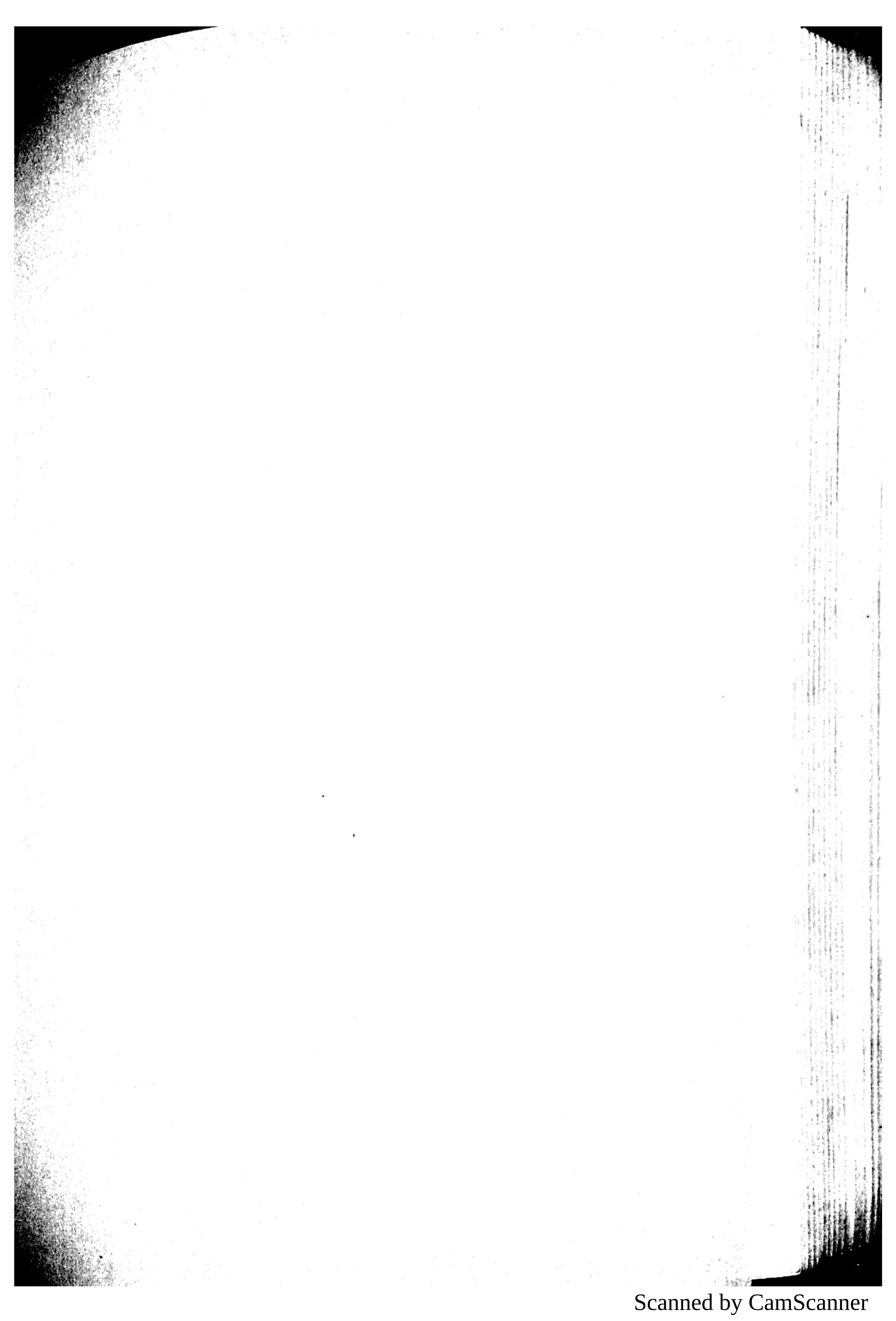
وتجمع المصادر العربية على الخصال الحميدة لعبد المومن، وكذا على ذوقه الرفيع، والذي يجعله لا يختلف في شيء، عن أي أمير ينتمي إلى أسرة توارثت الملك أباً عن جد. لكن هذه المصادر، تجمع

216- هناك سبب آخر لهذا العقاب ويتلخص في حقد الوزير عبدالسلام على أبناء الخليفة ووشايته بهم.

في الوقت ذاته، على ما اتصف به من قسوة وتعصب ديني. وهنا وبخصوص قسوته يخبرنا أحد معاصريه، أنه كان يكفي أن تصدر عن شخص ما كلمة تزعجه، ليأمر بقتله، وكأن الأمر يتعلق بحياة خنزير لا بحياة إنسان. أما بخصوص تعصبه الديني، فينبغي الإشارة إلى أن ذلك كان نتيجةً حتميةً لتأثره الكبير بأفكار المهدي، والذي كان يعتبر الفهم البسيط للشريعة الذي ميز العهد المرابطي، كفراً ومروقاً يجب إيقافه بحد السيف، ومن هنا يمكن اعتبار تعصب عبد المومن للعقيدة الموحدية بمثابة تطبيق لأفكار ابن تومرت الاستبدادية.

إن التشابه الكبير بين سياسة عبد المومن هذه، والسياسة المتبعة من طرف الأنظمة الاستبدادية اليوم، والتي تقوم على العنف والقمع والديماغوجية والرقابة وسياسة الحزب الواحد واستغلال الحكام للخيرات الاقتصادية لبلدانهم، هو أمر يثير الاستغراب، لسبب بسيط، يتمثل في الاختلاف بين العهد والبيئة اللذين عاش فيهما عبد المومن والبيئة والعهد اللذين نما وترعرع فيهما الاستبداد المعاصر.





الفصل الثالث

بيعة أبي يعقوب يوسف

في عام 549هـ (1154م) عين عبد المومن ابنه البكر محمداً ولياً للعهد، وهو التعيين الذي رحب به كافة شيوخ الموحدين وعلى رأسهم الشيخ عمر ينتي، وقد بقي محمد هذا ولياً للعهد طيلة السنوات العشر التي تفصل التاريخ المذكور عن وفاة عبد المومن[1].

وتُرجع المصادر العربية سبب تنحية عبد المومن لابنه البكر من منصب ولي العهد، لاستهتاره وطيشه وخصوصاً لمعاقرته الخمر، بل وتذهب إحدى المصادر إلى حد القول إنه كان مصاباً بداء الجذام[2]. وإذا كان ما جاء في هذه المصادر صحيحاً، فإننا نتساءل عن السبب الذي جعل عبد المومن يغض الطرف على امتداد هذه السنوات الطويلة عن تصرفات ابنه البكر، بحيث لم يفكر في عزله. ويقول ابن صاحب الصلاة إن عبد المومن بعدما لاحظ في الشتاء السابق لوفاته، إدمان محمد على شرب الخمر، منع ذكر اسمه في خطبة الجمعة السابقة لوفاته، والتي حدثت في الثاني من جمادى الثانية 558هـ(8 ماي 1263م)[3]. وقد فُسر هذا الإجراء على أنه قرار هدف عبد المومن من خلاله، تنحية ابنه البكر عن ولاية العهد. وقيل إن عبد المومن أخبر برغبته الأخيرة هذه ابنه ووزيره أبا حفص عمر، غير أن كل هذا، وفي غياب السند القانوني، لم يكن كافياً لعزل محمد الذي بقي يتمتع بكافة حقوقه كوريث للعرش.

وتؤكد كل المصادر العربية وعلى رأسها البيدق، أن يوسف لم يكن موجوداً في الرباط عند وفاة والده، ذلك لأنه وبعد أن حل بمراكش في مطلع 558هـ للتداول في شأن الحملة التي كان ينوي عبد المومن

1- مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة، 13.

2- المعجب. م. س.، ص. 344

3- المن بالإمامة، م. س.، ص. 154.

توجيهها ضد النصارى، عاد إلى اشبيلية، وكان كما نعلم عاملاً عليها[4]. ولا يستثنى من هذه المصادر، إلا ابن صاحب الصلاة وابن خلدون اللذان يقولان إن يوسف وبعد انتقاله إلى مراكش للمساهمة في الاعداد لحملة الأندلس، بقي بها إلى أن رافق والده إلى سلا، وأنه وبعد أن وافت المنية هذا الأخير هناك، نادى به أخوه عمر ملكاً دون أن يأبه بوضعية أخيه محمد ولي العهد الشرعي. لكن ما يجب أن نوضحه هنا هو أن محمداً بويع خليفة، بل وحكم لمدة خمسة وأربعين يوماً[5]، وهذا ما يعني أن ابن صاحب الصلاة -أحد اثنين اللذين أوردا الخبر- ورغم كونه مؤرخاً للبلاط وبالتالي عارفاً بما يقع، فقد جانب الصواب بخصوص هذه النقطة.

لقد استدعى السيد أبو حفص عمر وهو الوزير المقتدر والرجل المكلف بجميع الشؤون السلطانية، عند وفاة والده عبد المومن، أخاه يوسف الذي غادر اشبيلية قاصداً الرباط على وجه السرعة. ودون أن يعلن رسمياً عن وفاة والده، قام السيد أبو حفص بمبايعة يوسف وعزل محمد الذي أرغم على التنازل عن العرش ونقل سجيناً إلى أغمات[6]، حيث بقي إلى أن قام الشيخ عمر ينتي، إثر عودته إلى مراكش من أسامَّرن آيت سنان الواقعة بمنطقة تودغة شرق الأطلس الكبير[7]، وكان من المتحمسين لبيعته، قام بالإفراج عنه على اعتبار أنه اعتقل ظلماً. والواقع أن تدخل الشيخ في القضية، حال دون اتخاذ أية عقوبة أخرى في حق ولي العهد التعيس، والذي لم يكن أمامه من خيار غير الخضوع للأمر الواقع، والقناعة بقرابته من الخليفة الجديد، وهو ما سمح له أن يصبح من أفراد حاشيته كبيرة العدد، لكن دون أن يشغل أي منصب رسمي أو يتمتع بمنزلة رفيعة. ونعثر على أول ذكر له وهو في وضعيته هذه، بعد ثماني سنوات من عزله، عند ابن صاحب الصلاة، الذي يورد اسمه ضمن أسماء إخوته وأبناء إخوته، الذين كانوا ضمن ساقة الخليفة في استقبال العرب القادمين من إفريقية[8].

4- Op. Cit., Docs Inéd. P. 121.

5- يقول مؤلف "المعجب" إن اخاه عمر ويوسف عزلاه في شعبان من نفس سنة تعيينه، م. س.، ص. 345، ويؤكد ذلك ابن خلكان الذي يضيف أن اسمه كان منقوشاً على السكة في حياة والده بصفته ولياً للعهد. ابن خلكان أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1968م، الجزء السابع، ص. 324.

6- Op. Cit., Docs Inéd. P. 166.

7- ذهب الشيخ عمر ينتي إلى هناك لاخماد تمرد ثان قام به موسى بن حماد، الذي سبق له أن تمرد في نفس المكان على عهد عبدالمومن. وكان ابن حماد هذا هو المتمرد الرابع والعشرين ضد السلطة الموحدية، وقد بقي عمر ينتي بتلك المنطقة إلى ان نجح في إخضاعه. انظر: Ibid, PP. 146-210.

8- المن بالإمامة، م. س.، ص. 342.

تمت بيعة يوسف الأول إذاً، بعد عملية انقلابية قام بها أخوه الوزير أبو حفص عمر الذي تولى كل السلطات إثر وفاة والده[9]، ولإنجاح العملية أخفى خبر الوفاة، كما استغل غياب عمر ينتي، وهو أهم شخصية في الأمبراطورية، والذي خرج كعادته لإخضاع أحد المتمردين، في وقت استدعى فيه أخاه يوسف من اشبيلية، حيث بايعه هو أولاً، ثم أمر شيوخ الموحدين بالقيام بنفس الشيء، على اعتبار أن تلك كانت رغبة عبد المومن الذي طلب منه تنفيذها وهو على فراش الموت[10].

ولم يقبل كل شيوخ الموحدين بالبيعة، لكن الوزير أبا حفص عمر، وهو الرجل القوي في البلاد، كتب رسالة رسمية يطلب فيها من الجميع التشبث بالعقيدة الموحدية، والخضوع لسلطة حكامها. وبما أن الرسالة لقيت دعم الشيخ عمر ينتي، فإنه لم يكن هناك بد من قبول الجميع بالأمر الواقع[11]. ومع ذلك، كانت بيعة جزئية؛ بحيث إن يوسف لم يحمل لقب أمير المؤمنين وإنما أميراً فقط. وتم الاحتفال بها من خلال إقامة وليمة كبيرة ومنح هبات مالية لكل الجنود[12].

لقد تكلف السيد أبو الحسن علي عامل فاس الذي حضر وفاة والده، بنقل جثته إلى تنملل حيث دفنه بجوار المهدي، وبالضبط عند قدمه، وذلك تلبية لرغبته. وعاد بعد ذلك، حسب تعبير ابن صاحب الصلاة: «*وفي نفسه علة من دخل الحسد، مؤذنة له في العاجل والأجل بطول الكمد. فأقام مكبودا فريدا بما في نفسه يظهر إخاء وفي طيه حقودا فلم تمهله علته ولا طالت له مدته، حتى فاضت نفسه في تلك الأيام*»[13]. وكانت وفاته قبل متم 558هـ (صيف -خريف 1163م).

ولم يكن أبو الحسن علي الوحيد من بين آل عبد المومن الذي كان له هذا الموقف من بيعة يوسف، فقد رفض الاعتراف بها السيد عبد الله عامل بجاية (مات مسموماً كما سنرى)، والسيد عثمان عامل قرطبة. هذا الرفض يساعدنا على إدراك سبب تريث يوسف، وكان ذا طبع أقل عنفاً من طبع والده، واكتفائه في البداية بلقب الأمير، بحيث ارتأى أن لا يتخذ لقب أمير المؤمنين، قبل أن يُخضع جميع الرافضين لدعوته، أو أن يقضي بطريقة أو بأخرى عليهم.

9- كان السيدان يوسف وعمر اخوين شقيقين يعزان بعضهما كثيراً، أمهما هي زينب ابنة موسى بن سليمان التنمللي أحد اعضاء أهل الخمسين والذي كان عبد المومن يكلفه عادة بالنيابة عنه في أمور الحكم بمراكش عند خروجه في حملات عسكرية. انظر المعجب. م. س.، ص. 345.

10- يؤكد ابن صاحب الصلاة أن عبدالمومن وهو على فراش الموت أخبر السيد عمر في حضور شيوخ الموحدين أنه عين ابنه يوسف ولياً للعهد مكان ابنه البكر محمد الذي قبل بذلك، لكن هنا يجب أن نعلم أن ابن صاحب الصلاة كان من أدباء بلاط الخليفة يوسف الأول، كما عرف بتملقه ، وهو ما يجعلنا نأخذ ما أورده في هذا الموضوع بتحفظ. م. س.، ص. 163.

11- نفسه، ص. 164.

12 - Op. Cit., Docs Inéd. P. 121.

13- المن بالإمامة، م. س.، ص. 170.

وأمام غياب الاجماع عليه، قرر تأجيل الحملة الكبيرة التي كان والده ينوي توجيهها ضد النصارى إلى أن يأذن الله بها ويجتمع الموحدون على كلمة سواء، وبسبب ذلك سرح الجيش الجرار المحتشد في الرباط[14].

وبعد الانتهاء من الإجراءات التنظيمية الأولى، وإثر تسريحه للجنود، عاد يوسف إلى مراكش حيث استقر بقصر والده المعروف بدار الحجر، الذي شيده المرابطون. وكان عمره يوم اعتلى العرش خمساً وعشرين سنة قضى سبعاً منها في الأندلس (منذ كان عمره ثماني عشرة سنة) بمدينته المفضلة اشبيلية التي حصل فيها على ثقافة عالية[15]، والتي جعلها مباشرة بعد توليه الحكم عاصمة للأندلس، بعد أن فقدت هذا الدور على عهد والده لمدة قصيرة لفائدة قرطبة. وقد زكى في منصبه كوزير، أخاه الشقيق أبا حفص عمر والذي بعد أن كان الملك بيده، تنازل له عنه بكل شهامة وكرم، وذلك، حسب المصادر العربية، لما يكنه له من محبة، ولقناعته بأن عيوبه الشخصية تجعله غير أهل لمنصب الخلافة، وكيفما كان الحال، فإن نفوذ أبي حفص عمر تدعم مع يوسف الأول أكثر مما كان على عهد والده، ذلك لأنه لم يعد مجرد وزير، وإنما أصبح يشارك أخاه في الحكم، وهو ما نجم عنه شبه فراغ في الوزارة، تم ملؤه بتعيين إدريس بن ابراهيم بن جامع في منصب الوزير، ليتولى الإشراف على الشؤون الإدارية داخل البلاط[16].

وتقدم لنا المصادر العربية، وعلى عادتها في تقديم أوصاف عن صورة الخلفاء، معلومات عن يوسف، فيقول المراكشي وهو قريب جداً من عصره، إنه كان «*شديد سواد الشعر*»[17]، بينما يقول مؤلف "روض القرطاس" إنه كان ذا لحية شقراء.

ولم يتوقف رفض بيعة يوسف عند إخوته وشيوخ الموحدين فقط، بل تجاوزه إلى سواهم، وهكذا، ما أن عاد إلى مراكش وأعلن رسمياً عن وفاة والده، حتى تمرد في واكرارن المدعو مزيزدغ الغماري المنتمي

14- نفسه، م. س.، ص. 164.

15- كان متمكناً بشكل كبير من لغة العرب وأخبارهم ومآثرهم إبان العصر الجاهلي ومرحلة صدر الإسلام، هذا الاهتمام تفتق لديه بالخصوص أثناء ولايته على إشبيلية، حيث قرب منه علماء كباراً في علوم الدين واللغة مثل المعلم الفيلسوف ابن مكول. ويقول صاحب المعجب إنه كان يحفظ أحد الصحيحين (الراجح صحيح البخاري)، وأن نُبل نفسه وتطلعاته السامية دفعت به فيما بعد لدراسة الفلسفة. المعجب، م. س.، ص. 345-346.

16- هو نجل ابراهيم بن جامع الأندلسي أحد رجال النظام الأوفياء، والذي كان في الأصل نحاس المهنة، وقد جاء إلى المغرب على عهد ابن تومرت الذي جعله من أصحابه. أما ابنه ادريس فقد تربى داخل البلاط، وسوف يتولى الوزارة التي بقي على راسها طيلة 15 سنة. وفي 573 هـ نفي إلى ماردة حيث بقي هناك ست سنوات، غادرها إثر ذلك بعد أن عفا عنه يعقوب المنصور اثر عودته من حملة شنترين.

17- المعجب، م. س.، ص. 346.

لصنهاجة المفتاح، حيث ضرب العملة باسمه، وكتب عليها جملته المشهورة: «*مززدغ الغريب نصر الله قريب*». وقد بايعته أعداد مهمة من أهالي غمارة وصنهاجة وأورية، بعد أن اجتاح كل المنطقة التي يقيمون بها، بما في ذلك مدينة بني تودة (فاس البالي) والتي أسر وقتل عدداً من سكانها. وأمام استفحال خطره، لم يجد الأمير يوسف بداً من أن يرسل ضده القائد يوسف بن سليمان الذي أجبره على الفرار. ويقول البيدق إنه خضع لسلطة الموحدين في النهاية حيث انتهى به المطاف تحت الإقامة الإجبارية في قرطبة، لكن مؤلف روض القرطاس بخلاف ذلك يقول إن تمرده انتهى بقطع رأسه الذي أرسل إلى مراكش[18].

والراجح أن التمرد لم يتم إخماده بشكل نهائي سنة 559هـ وإنما في السنة التي تلتها، وهذا ما يستشف من كلام ابن صاحب الصلاة، الذي يقول إنه في سنة 560هـ وأثناء وجود السيد عمر في الأندلس للقتال ضد ابن مردنيش، قدم الطاعة سكان جبال صنهاجة ومن يجاورهم، بحيث تصادف خضوعهم النهائي مع الانتصار الكبير الذي حققه الموحدون في نهاية 560هـ (أكتوبر 1165م) بفحص الجلاب على ابن مردنيش[19].

هناك شيئان آخران شغلا بال يوسف خلال سنة 560هـ، هما رفض أخويه عاملي بجاية وقرطبة لبيعته، وتنفيذ رغبة والده الأخيرة بتوجيه حملة عسكرية إلى الأندلس. وبسبب نفوره الطبيعي من العنف (بخلاف والده عبد المومن وابنه يعقوب)، اكتفى بأسلوب الاقناع في محاولاته الرامية إلى جعل أخيه عبد الله عامل بجاية يوافق على بيعته. ومن أجل ذلك بعث له عدداً من الرسائل. وقد قرر هذا الأخير، وبعد سنة ونصف من التردد، الانتقال إلى مراكش لمبايعته، لكن بعد بضعة أيام على مغادرته بجاية، فاجأته المنية والتي كان يحملها في داخله حسب تعبير ابن صاحب الصلاة، الذي يقول: «*وأما السيد أبو محمد عبد الله فأقام ببجاية بعد الحال، يقدم رجلا ويؤخر أخرى... ثم عزم وترك عن بجاية وظاهره إيصال الشمل الموصول، وأن أمله خير مأمول، فلما استقلت به الرواحل، أدركته المنايا*»[20].

المواجهة مع ابن مردنيش

ولإخضاع أخيه حاكم قرطبة الذي رفض مبايعته، وكذا لمحاربة ابن مردنيش وأتباعه من المسيحيين، أرسل يوسف حملة إلى الأندلس غادرت مراكش في مطلع ربيع الأول (النصف الثاني من

18- روض القرطاس، م. س.، ص. 184. و Docs Inéd. Op. Cit., P. 184.

19- المن بالإمامة، م. س.، ص. 232.

20- نفسه، ص. 201. يقول عنه ابن سعيد المغربي في الإيناس في علم الأنساب، إن أخويه يوسف وعمر دبرا مؤامرة اغتياله قامت بتنفيذها إحدى جواريه، والتي استعملت في ذلك قماشاً حيضياً مسموماً.

يناير 1165 م) وضع على رأسها أخاه وساعده الأيمن السيد عمر. وكان ضمن الحملة عدد من أعيان الموحدين، وأبناء من شكلوا في الماضي أهل العشرة، والشيوخ الأندلسيون، وفصيلة من المرابطين السابقين قوامها 400 فارس، وحوالي 4000 من الجنود العرب الذين كان يقودهم علي بن محرز.

وعند وصول السيد عمر إلى الرباط، وبعد أن أمر مرافقيه من العرب أن يواصلوا السير، توقف هو هناك لمدة قصيرة، راسل خلالها أخاه السيد أبا سعيد عثمان، حيث أخبره بقرب وصوله إلى الأندلس، وهو ما رحب به هذا الأخير. وسوف ينتقل السيد عمر إثر ذلك إلى طنجة والتي عبر منها مع خاصته إلى سبتة على ظهر أحد القوارب، بينما أمر بقية القوات المشكلة للحملة بالانتقال إلى نفس المدينة عبر القصر الصغير عن طريق البر، وكان ذلك في ربيع الثاني سنة 560هـ (يوافق اليوم الأول من هذا الشهر 15 فبراير 1165م واليوم الأخير 14 مارس). وفي اليوم الموالي لوصوله إلى سبتة، عبَرَ المضيق على رأس قواته في موكب رهيب، قرعت فيه الطبول ورفعت الأعلام، في وقت حل فيه السيد أبو سعيد عثمان بجبل طارق لاستقبال أخيه. وكان ذلك الاستقبال من الحفاوة لدرجة سمحت بوضع حد للخلاف بينهما وبإغراق النوايا السيئة في بحر من الاحتفالات دامت خمسة عشر يوماً، ألقيت خلالها القصائد الشعرية والخطب الحماسية[21].

إثر ذلك عاد السيدان معاً إلى سبتة، ومنها إلى فاس ثم إلى مراكش التي وصلاها في فاتح رجب 560هـ (13 مايو 1165 م)، حيث قضيا هناك ما تبقى من رجب وشعبان (يوافق اليوم الأخير من شعبان 11 يوليوز). في تلك الأثناء، كانت طليعة جيش العرب التي سبقت السيد عمر إلى الأندلس قد حطت باشبيلية، حيث أرسل قائدها فصيلة من 500 فارس ضد فيلق مسيحي قادم من شنترين نجحت في هزمه (كان البرتغاليون قد بدؤوا يشنون انطلاقاً من شنترين هجومات خطيرة ضد الموحدين)[22]، أما بقية جيش العرب فاتجهت إلى قرطبة لطرد قوات المناطق الشرقية التابعة لابن مردنيش، والتي كانت تتمركز بالمنطقة. وقد حدثت المواجهة الأولى بين الطرفين والتي يجعل ابن صاحب الصلاة الانتصار فيها حليف العرب، في حصن لگ[23]. ويخبرنا المصدر المذكور أن المواجهة كانت عنيفة. ومن المصدر ذاته نستشف أن وضعية العرب خلال المواجهة كانت صعبة، والدليل أن قائديهما كتبا بشكل مستعجل إلى مراكش يخبران بالتطور الخطير الذي عرفه الصراع، ويطلبان إرسال إمدادات جديدة على وجه السرعة. وقد وصلت الرسالة إلى مراكش في فاتح

21- المن بالإمامة، م. س.، ص. 197.

22- نفسه، ص. 199.

23- نفسه، ص. 196.

رمضان (11 يوليوز)، ونظرا لما حملته من أخبار، ازداد السيد عمر رغبة في القتال، لذا جهز جيشه المكون من الموحدين والقوات المساعدة المؤلفة من عرب الرياحيين والأثبجيين، وخرج قاصداً الأندلس على وجه السرعة، وكان يرافقه أخوه أبو سعيد عثمان حاكم قرطبة.

وعند الوصول إلى اشبيلية، تم عقد مجلس حربي تقرر من خلاله مهاجمة ابن مردنيش. وكانت مغادرة القوات الموحدية لاشبيلية في فاتح ذي القعدة 560هـ (8 سبتمبر 1165م)، إذ شنت الهجوم الأول على أندوجر[24] التي كانت تشكل خطراً مستمراً على قرطبة، بل وكانت بمثابة شوكة في حنجرتها، بحيث تُعرقل وصول الأشخاص والمؤونة إليها من جهات أخرى. وقد نجح الموحدون في إخضاعها في نفس يوم حصارهم لها، كما أخضعوا بواسطة فرق الفرسان كل حصون المنطقة والتي حصلوا فيها على غنائم مهمة. وبما أنهم لم يجدوا في طريقهم أية مقاومة، فقد وصلوا إلى غاية بَاسْطة التي تمكنوا بعد الإغارة عليها من الحصول على كميات وفيرة من المؤونة بما في ذلك الفواكه، خصوصاً العنب، في وقت اضطر فيه سكان المنطقة للالتجاء إلى القلاع والأماكن المحصنة. إثر ذلك وضع الغزاة مخيمهم قرب بسطة في مكان يعرف باسم وادي الغزالة، مكثوا به عدة أيام في انتظار أن تلتحق بهم القوات الموحدية التي غادرت غرناطة.

وأثناء فترة الانتظار، قاموا بغارات على مناطق غليرة وقرياقة وبسطة وجبال شقورة حيث حصلوا على غنائم مهمة خصوصاً من الماشية. وبعد انضمام القوات القادمة من غرناطة لهم، تقدم الجميع نحو قلية التي استسلمت لهم دون مقاومة كما استسلمت لهم بقية القلاع المجاورة. بعد ذلك تمت مواصلة السير في اتجاه منطقة بلش المليئة بالقلاع والحصون والتي أعلن حاكمها التابع لابن مردنيش خضوعه مقابل حصوله على الأمان.

معركة فحص الجلاب

في تلك الأثناء علم الموحدون أن ابن مردنيش الذي تخوف من فقدان لورقة توجه إليها بهدف تقديم المساعدة لقواته الموجودة بها، كما علموا أن العديد من سكان مرسية قد غادروها نحو البادية، وهذا ما دفعهم للتخلي عن نيتهم في التوجه إلى لورقة وتوجهوا بدل ذلك إلى سهل الفندون[25].

وقد اعتقد سكان المناطق الشرقية من أتباع ابن مردنيش في البداية أن الجيوش الموحدية تسير نحو قرطاجنة، لكن بعد ذلك تبين لهم أنها تتقدم نحو مرسية عبر الضفة اليمنى لنهر

24- بلدة من مقاطعة جيان شمالي شرقي قرطبة (المترجم).
25- يحاذي هذا السهل الخصب نهر "سانكرونيرا" ويمتد على مسافة 25 ميلاً، بالمنطقة التي تفصل بين لورقة وقرطاجنة.

"سانكرونيرا" sangronera بمحاذاة الجهة اليمنى من المنطقة الجبلية، وهو ما أجبر قوات ابن مردنيش بعدما قطع عليها الموحدون الطريق، السير عبر الجهة اليسرى لنفس المنطقة الجبلية.

ومع غروب شمس يوم الجمعة 7 ذي الحجة 560هـ (15 أكتوبر 1165م)، وصل الموحدون إلى سهل مرسية وبالضبط إلى المكان المعروف بفحص الجلاب، والذي يقع على بعد عشرة أميال من المدينة. وقد حاولت قوات ابن مردنيش المكونة حسب ابن صاحب الصلاة من 8000 فارس[26] جلهم يرتدون الدروع الواقية، من إبعاد الموحدين، حيث شنوا عليهم ثلاثة هجومات متتالية، كان الأول ضد عرب رياح والذين أخلوا المكان حسب الخطة المرسومة لهم، والثاني والثالث ضد القوات الموحدية والتي لم ينجح ابن مردنيش من اختراق مقدمتها، وهو ما أجبره وبعد مواجهة دموية[27] على الانسحاب إلى ربوة قريبة تظاهر في عملية تمويهية أنه يريد التحصن بها، حيث ضرب خيمته هناك، لكنه بعد ذلك استغل فرصة نزول الظلام ليلتجئ إلى مرسية.

ولم تتأخر القوات الموحدية في ملاحقته، إذ حلت بالمدينة في صبيحة اليوم الموالي (16 أكتوبر 1165هـ)، وعسكرت قبالتها، بجوار إقامة الاستجمام الخاصة التي يمتلكها ابن مردنيش بأحواز المدينة[28]. وفي نفس ذلك المكان، وبعد أن نهب الموحدون بساتين تلك الإقامة واستولوا على ما فيها من ثروات، احتفلوا بعيد الأضحى (الإثنين 18 أكتوبر 1165م). إثر ذلك كتب السيدان إلى مراكش للإخبار بالانتصار الذي حققاه، وأمرا من كُلفوا بحمل الرسالة أن ينقلوا معهم إلى مراكش أعلام المنهزمين. وقد تم قطع المسافة بين مرسية ومراكش في وقت قياسي لم يتجاوز 16 يوماً[29].

ولم تكن في نية الموحدين محاصرة مرسية، وهو ما يؤكد أن الحملة كانت عقابية، الهدف منها قطع دابر ابن مردنيش، وهكذا اكتفوا باحتلال أندوجر وقلاع أخرى على درجة من الأهمية، لكن دون أن يحتلوا باسطة ولورقة[30].

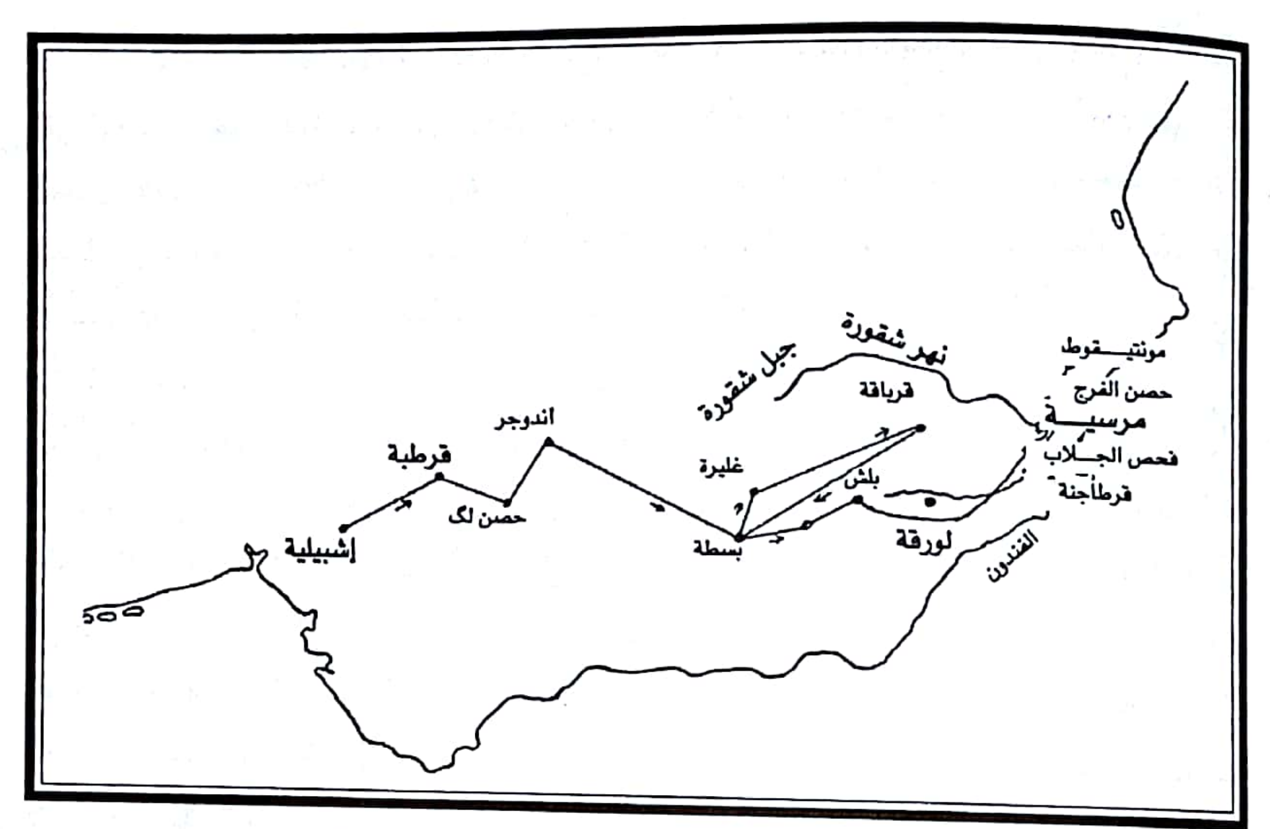
26- المن بالإمامة، م. س.، ص. 199.

27- حسب البيدق، قتل في المواجهة الشيوخ السبعة الموجودون ضمن الجيش الموحدي، أخبار المهدي، م. س.، ص. 80-81.

28- تعرف تلك المنطقة باسم حصن الفرج ، وقد أورد اسمها كل من البيدق في مذكراته و القرطاجني في مقصورته. ويحدد "طوريس بالباس" Torres Balbas (مجلة الأندلس Vol II-Fasc, 2، ص. 371) مكانها، حيث يقول إنها توجد على ربوة صغيرة بالشمال الغربي خلف تل "كاستييخوس" Castillejos المحاذي لهضبة "مونتيقوط" Monteagudo والمعروفة اليوم باسم "العرائش" Larache والتي تسميها الوثائق القديمة "الحراشي" أو "البراشي" والتي تحرفت لتصبح الفرج Alfarache أو حصن الفرج Aznalfarache.

29- كان وصول مبعوثي السيدين إلى مراكش صبيحة الأحد 23 ذي الحجة 560 هـ (31 أكتوبر 1165م). ويورد ابن صاحب الصلاة النص الكامل لرسالة السيدين والتي يتحدثان فيها عن جزئيات الحملة وكذا عن القصائد الشعرية التي أنشدت بالمناسبة. م. س.، ص. 200-209.

30- خلال حصار مرسية قامت بعض الفرق الموحدية من جيش الخيالة بمباغتة "أوريولة" orihuela ووصلت إلى غاية "إلج". نفسه، ص. 318.



• طريق الحملة التي وجهها الموحدون عام 1165م
إلى مرسية ضد ابن مردنيش

وقد غادر السيدان مع قواتهما المنطقة التي ضربا بها مخيمهما قبالة مرسية، صوب قرطبة التي بقي بها عاملها السيد أبو سعيد، في حين عاد أخوه عمر عبر اشبيلية إلى مراكش التي وصلها في 11 ربيع الثاني 561هـ (14 فبراير 1166م)، حيث خرج لاستقباله الأمير يوسف، ونظمت بالمناسبة احتفالات كبرى أقيمت خلالها الولائم ومنحت الهبات لمن شارك في الحملة؛ وهكذا حصل كل شيخ على مائة دينار وكل فارس على عشرين. إثر ذلك تم تسريح القوات المشاركة فيها بحيث عاد كل إلى قبيلته.

وقد استمر تمرد ابن مردنيش خمس سنوات أخرى، إذ لم يتم القضاء عليه إلا بعد أن نشب الخلاف بينه وبين صهره (أبو زوجته) ابن هَمُشْكُ، حيث توفي أثناء محاصرته في مرسية عام 566هـ (يوافق اليوم الأول من هذه السنة 14 سبتمبر 1171 م واليوم الأخير 3 سبتمبر 1172م).

الإجراءات الإدارية

بعد الانتهاء من احتفالات انتصار فحص الجلاب، قرر يوسف تعيين عمال جدد بالعمالات التي يوجد بها هذا المنصب شاغراً، وهكذا عين على بجاية أخاه يحيى الذي توجه إليها في مطلع جمادى الأولى سنة 561هـ (يبتدئ هذا الشهر في 4 مارس 1166م)، وكانت ترافقه حاشية تضم عدداً من المنحدرين من أهل العشرة بالإضافة إلى الحفاظ والجنود. وبما أن اشبيلية كانت هي الأخرى دون عامل، فإن يوسف الأول عين عليها يوم الجمعة 21 جمادى الأولى (16 مارس) وبشكل مؤقت الحافظ أبا عبد الله؛ وهو نجل إسماعيل بن يسلاّلي الهزرجي صاحب المهدي الوفي. وقد غادر العامل المعين مراكش في موكب ضخم يوم فاتح جمادى الثانية (3 أبريل)، حيث عبر من القصر الصغير إلى طريفة رفقة قوات عسكرية. وكان وصوله إلى اشبيلية في فاتح رجب (4 مايو 1166م). وبعد ثلاثة أيام من ذلك، انتقل إلى قرطبة حيث تباحث ولمدة ثمانية أيام مع عاملها. في تلك الأثناء، قام فيلق مسيحي قادم من شنترين بالإغارة على طليانة، لكن خرجت ضده حامية اشبيلية يقودها أبو العلاء بن عزون، وتمكنت من هزمه، واستعادت الغنائم التي كان الفيلق قد ظفر بها؛ وقوامها 100 فارس، كما نجحت في أسر عدد من أفراده. وبعد خمسة أشهر من هذا التاريخ، وبالضبط في فاتح ذي الحجة 561هـ (28 سبيتمبر 1161م)، حل باشبيلية عاملها الرسمي السيد إسماعيل، وكان قد التقى في القصر الصغير، وقبل عبوره المضيق، بأخيه السيد عثمان، عامل قرطبة، الذي مر يوم 10 ذي القعدة 561هـ باشبيلية، وهو في طريقه إلى المغرب.

وفي 3 رمضان 561هـ (3 يوليوز 1161م)، تقرر أن تكون "العلامة" الخاصة بجميع الوثائق الرسمية الصادرة عن الأمير هي عبارة "الحمد لله" مكتوبة بخط يده[31]. وللإخبار بذلك، بعث بدورية في الموضوع إلى كافة العمال، يأمرهم من خلالها كذلك بالتزام الاستقامة وتلقين التوحيد للرعايا وعدم إصدار أحكام الإعدام قبل التأكد من ثبوت التهمة على من تصدر في حقه، وإخبار الأمير بأمرها قبل تنفيذها. في نفس الوقت، حثهم على التبصر والتريث في إصدار بقية الأحكام الأخرى. وفي النهاية طلب منهم العمل ما أمكن على إشاعة وتعميم هذه الأوامر، بسبب ما تتضمنه من فائدة.

31- يشير ابن خلدون في العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 436-439، فصل ديوان الرسائل والكتابة، إلى أن سبب استعمال العبارة المذكورة يعود إلى وجودها على ورقة كتبت بخط المهدي. وقد حوفظ على تقليد استعمال العبارة بالرسائل الملكية إلى سقوط الدولة الموحدية.

إن الأمير يوسف ومن خلال هذه الدورية، لم يقم إلا بتقليد والده الذي حرر رسالته المعروفة المؤرخة في 16 ربيع الأول 543هـ (4 غشت 1148م)، والتي كتبها في تنملل أثناء زيارته لضريح المهدي، حيث حث من خلالها، وكما مر بنا، على ضرورة إقامة العدل وشجب كل عمل غير شرعي.

تمرد غمارة

وخلال خريف وشتاء سنة 562هـ (يوافق اليوم الأول منها 28 أكتوبر 1161م واليوم الأخير 16 أكتوبر 1162 م)، تمرد في الجبل المجاور لسبتة بربري من غمارة يدعى سبع بن مزيزدغ[32]، والذي تحصن بعد ذلك في الجبل المعروف باسم جبل الكواكب، في وقت امتد فيه تمرده إلى غاية منطقة القصر الكبير (قصر كتامة)، وهو ما جعل إرسال جيش موحدي ضده أمراً حتمياً. وقد كُلف بقيادة هذا الجيش الشيخ أبو سعيد يخلف بن حسين، الذي توغل عبر الجهة الجنوبية لـ"القلعة"، في ذات الحين أرسل الشيخ عمر ينتي الموجود بالمنطقة المذكورة، فيلقاً آخر تقدم دون شك عبر الجهة الغربية لـ"القلعة"، كما انتقل الأمير يوسف بدوره إلى المنطقة، وكان يرافقه أخواه السيدان عمر وعثمان .

وقد احتمى المتمردون في المناطق الوعرة التي يصعب الوصول إليها، دون أن يستجيبوا لرسائل الأمير التي كانت تستحثهم على الطاعة. وأمام هذا الرفض، ترك الموحدون ما ثقل وزنه من عتاد في منطقة المنزان، وتقدموا نحو جبل ودكة الذي أغاروا عليه دون أن تقف في طريقهم مقاومة ذات بال، وكان هذا في بداية شهر رمضان (يوافق اليوم الأول منه 21 يوليوز). إثر ذلك، قرر يوسف منح كل شهر رمضان كمهلة للمتمردين من أجل وضع السلاح، وهو ما سمح بتخصيص الشهر المذكور لاستراحة قواته التي تفرغ أفرادها للتعبد وأداء الشعائر الدينية من صلاة وصيام.

وخلال فترة المهلة هاته، قررت بعض القبائل إعلان خضوعها، من بينها قبيلتا بني نال وبني بال اللتان تقيمان في نفس جبل الكواكب، وكان من أكثر مناطق غمارة وعورة. كما طلب بعض الشيوخ ومن بينهم المدعو عمران، وهو أخو قائد التمرد، الأمان الذي منح لهم، شريطة حضورهم إلى معسكر الأمير يوم عيد الفطر (21 يوليوز 1162 م). وبما أنهم نقضوا ما التزموا به، فقد شن الموحدون في الخامس من شوال (25 يوليوز) هجوماً شاملاً استهدف كل دواوير جبل الكواكب التي رفضت الخضوع. وهو ما سمح بإخضاعها والقضاء على تمرد سبع بن مزيزدغ، الذي حاول الفرار معتمداً في ذلك على مساعدة بعض أقاربه من غمارة، لكن هؤلاء غدروا به وسلموه إلى الأمير.

32- هو ابن الشخص الذي يحمل نفس الاسم والذي قام بتمرد كذلك، قبل ثلاث سنوات من التاريخ المذكور. أخبار المهدي، م. س.، ص. 124.

وكانت المدة التي استغرقتها الحملة قصيرة نسبياً، ذلك لأن يوسف أعلن رسمياً عن تحقيق الانتصار في 14 شوال (3 غشت)، وذلك من خلال رسالة يذكر في نهايتها ما تم الظفر به من غنائم، وتتمثل في 1200 رأس من البقر و27 ألف رأس من الغنم و627 من الدواب إضافة إلى 3647 أسير[33]. وقد كتب السيد عمر من جهته، رسالة مشابهة، بعث بها إلى الحافظ أبي عبد الله إسماعيل عامل غرناطة والذي نجح في احتلال حصن ليه الواقع بين غرناطة ووادي آش، وأسر كل المسيحيين الذين يوجدون به، وهم في الأصل مرتزقة يعملون لحساب ابن مردنيش، كانت مهمتهم تتلخص في الإغارة على سهول غرناطة.

وبعد قتل متمرد غمارة وصلبه، خضعت بقية المناطق المجاورة والتي منحها الشيخ عمر ينتي -باسم الأمير- الأمان الذي طلبته. وفي الوقت الذي عاد فيه الأمير والسيد عمر إلى العاصمة، واصل الشيخان عمر ينتي وأبو سعيد بن حسين عملية إقرار السلم في البلاد، بحيث أعلن خضوعه متمرد آخر هو المونَطى الذي سلمهما قلعة أسمر.

من جهة أخرى، وفي الوقت الذي كان فيه يوسف منشغلاً بقضية إخوته الذين رفضوا بيعته إلى ذلك التاريخ، وكذا بمحاربة ابن مردنيش في شرق الأندلس، قام قائد برتغالي بفتح جبهة ضد الموحدين غرب الأندلس، حيث هاجم خلال سنتي 560هـ-561هـ وبنجاح قلاع المنطقة ومدنها.

"خيراردو سام بابور"[34] والموحدون في البرتغال

لقد تمكنت مملكة البرتغال الشابة التي أسسها ألفونسو هنريكيث، من تدعيم وجودها بعد احتلالها لشنترين ولشبونة وجزء مهم من منطقة الجوف Extremadura، دون أي رد فعل ذي أهمية من طرف الدولة الموحدية في بداية عهدها؛ ذلك لأن عبد المومن وبسبب انشغاله بالأمور

33- خصص ابن صاحب الصلاة 18 صفحة من مخطوطه لهذه الحملة وجزئياتها، وللرسائل الرسمية التي كتبت بالمناسبة وكذا للقصائد الشعرية التي ألقيت بعد تحقيق الانتصار. المن بالإمامة م. س.، ص. 231-245.

34- يسميه "دافيد لوبيث" David Lopez وهو أول من تحدث بنوع من التفصيل عن انتصاراته، بـ"السيد القنبيطور البرتغالي"، لكن في المقابل تعتبره "La Chronica Gothorum" مجرد زعيم عصابة من قطاع الطرق. ويقول ابن صاحب الصلاة إنه وبعدما استولى على ترجالة و يابرة باعهما إلى النصارى، ويظهر أن "دافيد لوبيث" لم يفهم جيداً هذه الجملة حيث ترجمها بـ"عمرهما بالنصارى". وحول نفس الشخصية، يشير مؤلف "La chronique Latine des Rois de Castille" أنه وبعد وقوعه في الأسر وتسليمه لـ"فرناندو رودريكيث" القشتالي، ثم قيام هذا الأخير بإطلاق سراحه، وجد نفسه فقيراً ودون مصدر للعيش وهو ما دفع به للانضمام إلى صفوف الموحدين.

الداخلية لأمبراطوريته في شمال إفريقيا، وبإخضاع الطوائف الأندلسية التي رفضت السلطة الموحدية، لم يستطع أن يخصص إلا اليسير من الوقت لإيقاف المد المسيحي. وعندما أعد جيشه الجرار الذي كان ينوي به التدخل في الأندلس، وفي الوقت الذي كان يستعد فيه لاجتياز المضيق، وافته المنية في الرباط[35]، وهو ما نجم عنه تسريح الجيوش التي كانت معه. أما ابنه يوسف، فلم يتمكن خلال سنوات حكمه الأولى من إيقاف الزحف المسيحي في الأندلس. ذلك لأنه وفي الوقت الذي كان فيه منشغلاً بإقناع أخويه، عاملي قرطبة وبجاية للاعتراف به كوريث لعرش والده، وبإخضاع مملكة مرسية والقضاء على تمرد غمارة، كانت الغارات التي يقوم بها ألفونسو هنريكيث على منطقة "الينتخو"، و"خيراردو سام بابور" على ما لم يخضع بعد للبرتغال من منطقة الجوف، تسبب أضراراً كبيرة للموحدين[36].

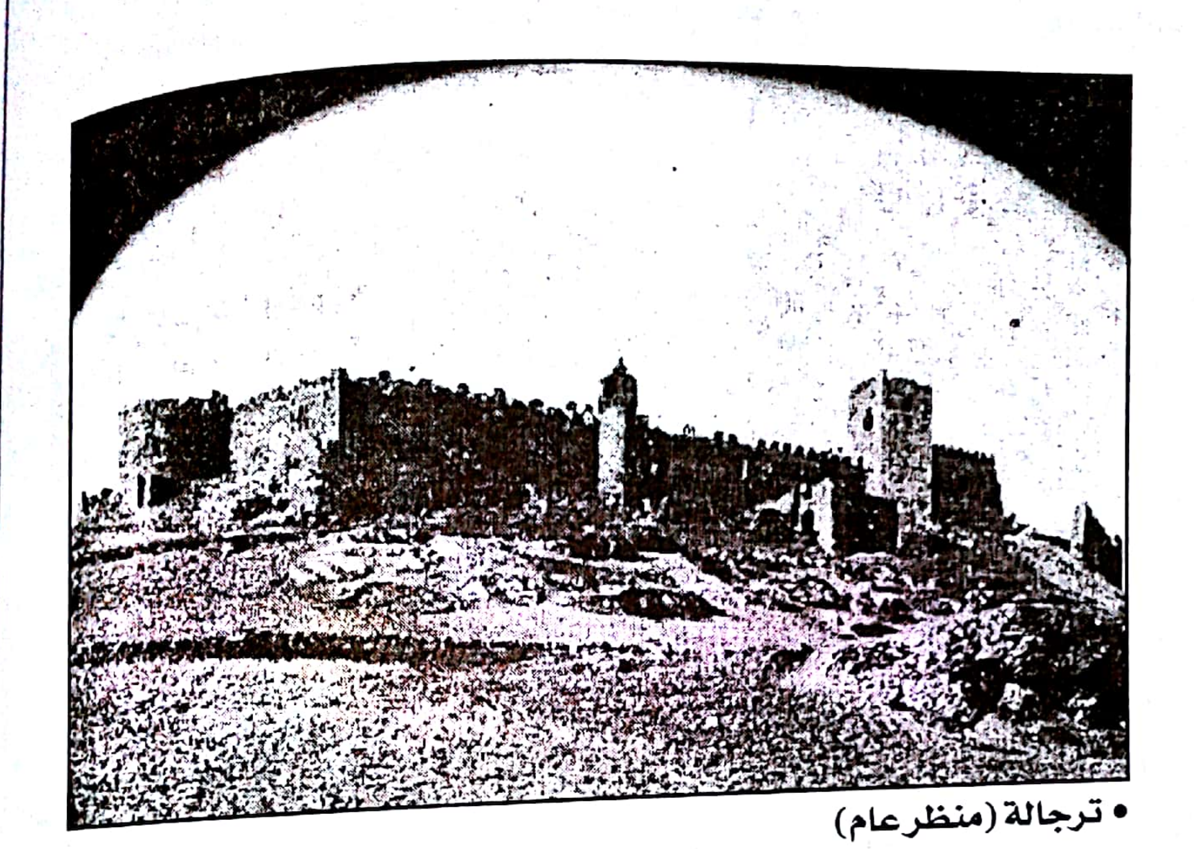
لقد أصبح بإمكان البرتغاليين بعد انهاء نزاعهم مع ليون عقب توقيع معاهدة "ليريث"Lérez [37]، شن هجومات على المناطق الواقعة على ضفتي نهر "وادي آنة"، دون أن يتمكن الموحدون المنشغلون بجبهات أخرى ردعها بفعالية. وهكذا فقد هاجم "خيراردو سام بابور" ترجالة[38] في جمادى الثانية 560هـ (يوافق اليوم الأول من هذا الشهر 15 أبريل 1165م واليوم الأخير 14 مايو 1165م)، في حين عبر الجيش الموحدي الذي يقوده الشيخان أبو سعيد يخلف بن الحسين وأبو عبد الله يوسف، المضيق لمهاجمة ابن مردنيش في مرسية في ربيع الثاني من نفس السنة (يوافق اليوم الأول منه 15 فبراير 1165م واليوم الأخير 14 مارس). حيث نظمت، كما مر بنا، احتفالات كبرى بمناسبة تكلل تلك الحملة بالنجاح، دون أن ينشغل الموحدون كثيراً، على ما يظهر، بغزوات خيراردو، الذي شجعته الانتصارات التي حققها، على إعادة الكرة من جديد في سبتمبر (ذي القعدة)، بعد أربعة أشهر من هجومه على ترجالة، إذ تمكن هذه المرة من الاستيلاء على يابرة التي باعها مع ترجالة للمسيحيين.

35- كانت وفاته حسب ابن صاحب الصلاة في ليلة الجمعة 10 جمادى الثانية عام 558 هـ(16 ماي 1163م). المن بالإمامة، م.س.، ص. 152.

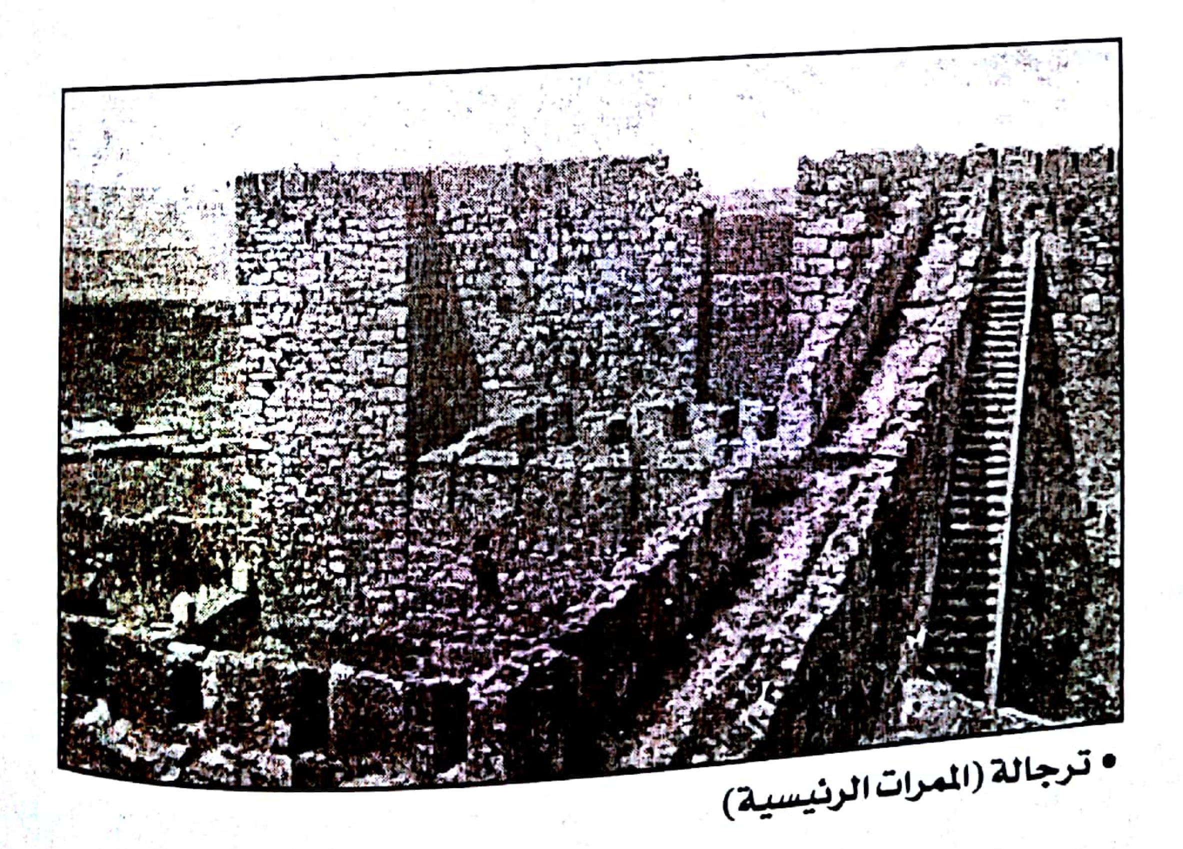
36 – نفسه، ص. 290.

37 – تم توقيعها في "بونتيبيدرا" Pontevedra يوم 30 ابريل 1165م.

38 – تقع شمال ماردة على مقربة من نهر تاجه (المترجم).



• ترجالة (منظر عام)



• ترجالة (الممرات الرئيسية)

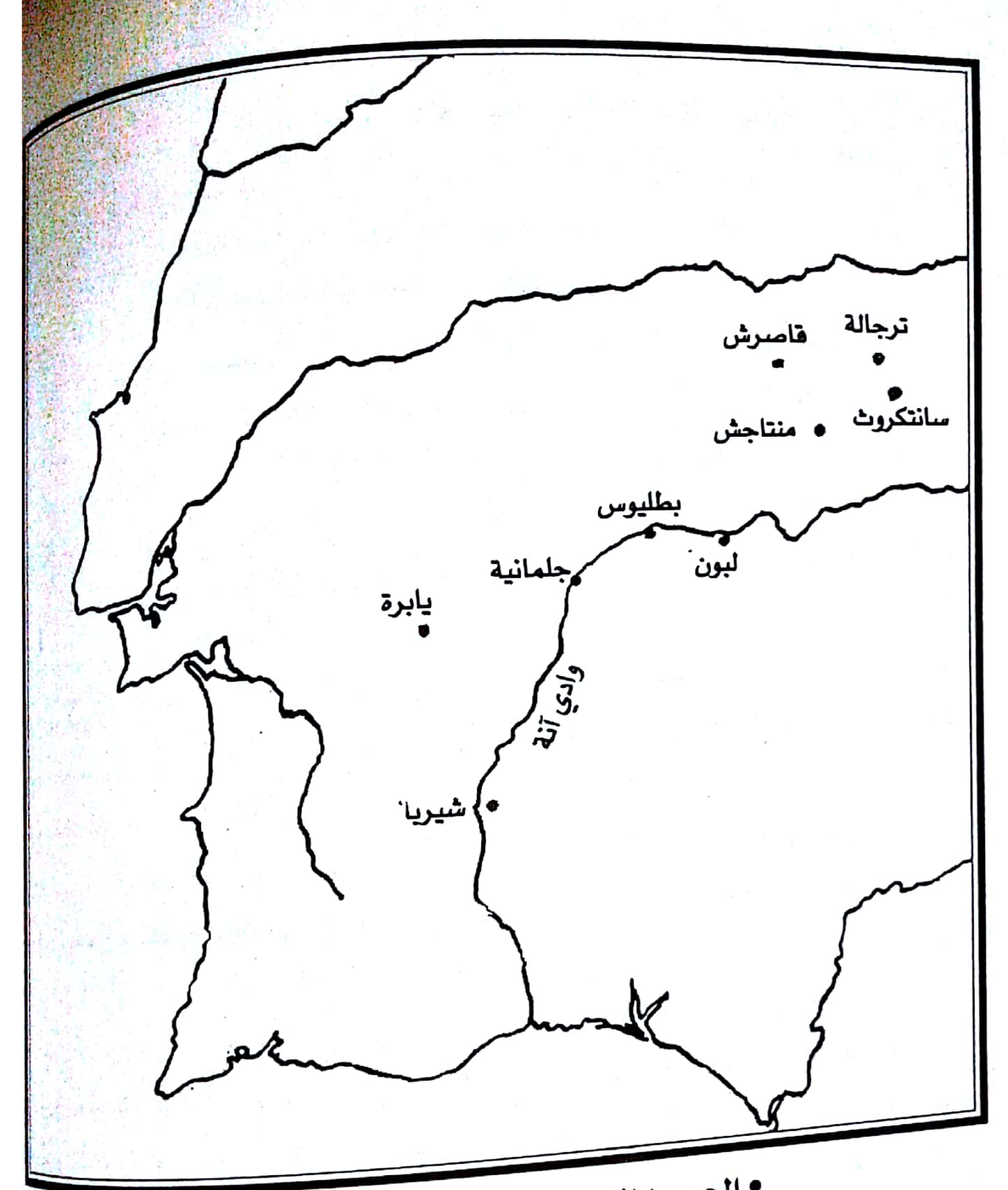
وفي ديسمبر من نفس السنة (صفر 561هـ)، وفي الوقت الذي كان فيه المنتصرون في فحص الجلاب عائدين إلى مراكش، هاجم خيراردو قاصرش، وفي مارس (جمادى الأولى) احتل منتاجش ثم شيربة فجلمانية دون أي رد فعل من طرف الموحدين. وقد وضع خيراردو حامية عسكرية بهذه الأخيرة ليقوم بواسطتها بمهاجمة بطليوس.

ويقول ابن صاحب الصلاة[39] إن خيراردو "الكلب" كان يقوم بغاراته خلال الليالي الظلماء التي تهب فيها الرياح العاصفة وتتساقط فيها الثلوج، حيث يقصد المدن التي يود مهاجمتها حاملاً معه سلالم يفوق علوها أسوار المدينة، وإذا ما كان الخفير نائماً فإنه يضع السلم على جانب البرج الذي يوجد به هذا الأخير ويصعده بنفسه. ويظهر أن هذا التعميم في وصف خطة خيراردو لا يخلو من مبالغة، ذلك لأن قاصرش وحدها احتلها في عز الشتاء (ديسمير)، في حين احتل ترجالة ما بين النصف الثاني من أبريل والنصف الأول من مايو، و يابرة في سبتمبر، ومنتاجش وشيربة في أواخر مارس أو بداية أبريل، بينما باغت باجة في نهاية غشت مستغلاً في ذلك عدم وجود الخفير ببرجها، أما احتلال بطليوس فتم بعد حصار طويل، بتواطؤ مع حاكمها، ومع ذلك نجح فقط في احتلال المدينة دون القصبة.

ويظهر أن غارات خيراردو لم تكن أكثر من مناورات مجموعة من المغامرين على رأسهم قائد موهوب يعمل لحسابه الخاص، والدليل على ذلك أن فرناندو الثاني ملك ليون، وكان في حالة حرب مع ألفونسو هنريكيث[40] بعد غزو هذا الأخير لمنطقة جليقية، لم يحتج بشكل رسمي على ما يقوم به خيراردو. ومع ذلك لا يمكن نفي استفادة هنريكيث مما كان يقوم به هذا الأخير، والدليل على ذلك، محاولته استغلال هذا الوضع لاحتلال بطليوس. وهو ما لم يسكت عنه فرناندو الثاني، كما سنرى، حيث خرج ضده وارغمه على الانسحاب، وبالتالي على العدول عن التدخل في المناطق الواقعة على الضفة اليسرى لنهر واد آنة.

39 – المن بالإمامة، م س،، ص. 373.

40– لم تحط هذه الحرب اوزارها إلا بعد توقيع معاهدة "ليريث" بينهما وزواج "أوراكا" Urraca ابنة هنريكيث من ملك ليون.



• الحصون الذي قام بغزوها خيراردو سام بابور

أبو يعقوب يوسف يحمل لقب أمير المؤمنين

وبعد وفاة بعض السادة من الذين رفضوا مبايعته، وإذعان آخرين للأمر الواقع، وهزم ابن مردنيش واخماد تمرد غمارة وصنهاجة، وكانت قد مرت خمس سنوات على اعتلائه العرش، قرر يوسف وبموافقة كبار شيوخ الموحدين، حمل لقب أمير المؤمنين والذي سبق وحمله والده من قبل. ومن

اجل هذا، كاتب أخاه إسماعيل عامل اشبيلية يطلب منه تجديد البيعة وإقناع أهالي اشبيلية وقرطبة ومالقة وغرناطة وغرب الأندلس للمناداة به إماماً وأميراً للمؤمنين[41]. وقد قام إسماعيل بدوره بإرسال نسخة من الرسالة إلى عامل غرناطة. هذه المساعي أعطت أكلها، بحيث بعث أهالي غرناطة واشبيلية برسائل البيعة إلى مراكش موقعة من طرف شيوخهم، وكانت مؤرخة في منتصف جمادى الثانية 563هـ (28 مارس 1168م). وعندما توصل يوسف بهذه الرسائل، أقام احتفالات كبرى عفا خلالها عن السجناء، ووزع الهبات، وقُدمت له بالمناسبة هدية، هي عبارة عن سيف ذي حدين، نُقش عليه بيت شعري يذكر بلقبه الجديد.

عقب ذلك، تقرر إعلان الحرب من جديد على ابن مردنيش والذي على الرغم من هزيمته السابقة، واصل غاراته على منطقتي قرطبة وغرناطة. وقد عين أمير المؤمنين أخاه إبراهيم عاملاً على قرطبة وأرسل معه قوات عسكرية مهمة، كلفت بتوفير الحماية اللازمة للمدينة. وفي 22 جمادى الثانية (5 مارس 1168م)، كتب الخليفة في هذا الشأن إلى عامل غرناطة يطلب منه أن تتعاون حامية مدينته وكذا حامية اشبيلية، مع قوات إبراهيم في محاربة جيوش المناطق الشرقية التي تدين بالولاء لابن مردنيش.

غارة قوات المناطق الشرقية
وتوقيع معاهدة سلم مع ليون واحتلال طبيرة [42]

وخلال النصف الثاني من شهر مارس (تاريخ وصول رسالة الخليفة إلى غرناطة)، خرج مسيحيو "واد آش" الذين يعملون لحساب ابن مردنيش، في غارة ضد الموحدين أوصلتهم إلى منطقة رندة، التي استولوا على ماشيتها ومحاصيلها الفلاحية. وقد أرسل عامل غرناطة ضدهم فيلقاً تمكن من هزمهم في منطقة توجد بين غرناطة وقادس، واستعاد منهم الغنائم، كما أسر 53 منهم ضربت رؤوسهم جميعاً في غرناطة. اثر ذلك أرسل العامل من يوصل الخبر إلى مراكش والتي تلقى منها رسالتي شكر وتهنئة إحداهما تحمل خاتم الخليفة والأخرى خاتم السيد عمر، وكانتا مؤرختين في 3 رمضان (12 يونيو 1168م)[43].

41- المن بالإمامة، م.س.، ص. 163-168.

42- يقع حصن طبيرة على شاطئ البحر المتوسط جنوب شرق مدينة شلب، وهو غير حصن طلبيرة الذي يقع شمال غرب طليطلة. انظر: المن بالإمامة، م. س.، ص. 367. (المترجم).

43- نفسه، ص. 274.

وفي نفس الشهر (ابتدأ رمضان تلك السنة في 10 مايو وانتهى في 9 يونيو)، حل باشبيلية فرناندو رودريكيث القشتالي -صهر فردناندو الثاني ملك ليون- الذي عرف في التاريخ بشجاعته وبتقربه من الموحدين. وكانت غايته من الانتقال إلى اشبيلية اعلان ولائه لهم، لذا انتقل من هناك إلى مراكش التي قضى ببلاطها خمسة أشهر. وقد تعهد أثناء مقامه هناك بأن لا يهاجم أبداً الموحدين، وبأن يكون حليفهم وعضدهم. وبسبب موقفه ذاك أصبح يعتبر وكذا إخوته وأصحابه من رجال الخليفة[44].

ومن نتائج هذه الزيارة إبرام معاهدات سلمية وتحالفات بين يوسف الأول وفردناندو الثاني المعروف في المصادر العربية باسم "الببوج" (الحلزون)[45]. وقد تمكن فرناندو بفضل هذا التحالف من طلب قوات موحدية، التحقت به في "ثيوداد رودريجو" (مدينة رودريق Ciudad Rodrigo)[46]، وبواسطتها تمكن من محاربة أعدائه آل "لارا" Lara[47]، ومن اجتياح منطقة قشتالة التي استمرت غارته عليها لمدة خمسة أشهر كاملة. وللتعبير عن امتنانه للموحدين، أقام معهم حلف "دفاع وهجوم مشترك" أقسم على الوفاء به في كتدرائية بلاطه[48].

وفي نهاية تلك السنة، قضى الموحدون على المدعو عبد الله بن عبيد الله الذي تمرد بغرب الأندلس واستقل بحصن طبيرة منذ مطلع 546هـ (أبريل 1151م)، حيث جمع حوله شرذمة من المغامرين وقطاع الطرق، قام اعتماداً عليهم بأعمال النهب والقرصنة ضد التجار والمسافرين على ضفتي المضيق. ولإجباره على الاستسلام حاصره بحراً الأسطول الموحدي وبراً جيش موحدي مهم كان يوجد بحصن الغزالة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن يوسف الأول قام عندما كان عاملاً على اشبيلية بمحاولتين لإخضاع المتمرد المذكور لكن دون نتيجة[49].

44- يقول عنه ابن صاحب الصلاة إنه أوشك على اعتناق الإسلام، نفسه، ص. 401.

45- استعملت المصادر الإسبانية فيما بعد نفس اللقب حيث سمته El Baboso وتعني "كثير اللعاب" وكذا "الأبله".

46 كانت تسمى بالإسبانية القديمة cibdad (المدينة)، والتي حرفت في العربية إلى "سبطاط"، لذلك كان يطلق على رودريق "صاحب السبطاط" ومنها "صاحب ثيوداد رودريجو". المن بالإمامة، م. س.، ص.370 (المترجم).

47- ظئرة في المصادر العربية (المترجم).

48- المن بالإمامة، م. س.، ص. 401.

49- نفسه. ص. 367.

تحرير بطليوس

وبحلول سنة 564هـ (يوافق اليوم الأول منها 15 أكتوبر 1168 م)، كان السلم قد استتب في بلاد المغرب لكن ليس في الأندلس، لذا لزم إرسال جيش آخر كان الخليفة ينوي قيادته بنفسه، وقد كتب إلى طلبة الموحدين بالأندلس في 21 ربيع الأول (22 يناير 1169م) يخبرهم بذلك[50].

وفي رجب (أبريل)، وبعدما علم أن خيراردو استولى على بطليوس وأن ألفونسو هنريكيث يحاصر الموحدين الموجودين بقصبتها وأنه أعطاهم مهلة للاستسلام، خرج لتوه قاصداً الأندلس على رأس قواته، وعند وصوله إلى وادي تانسيفت وضع مخيمه هناك حيث مكث ثلاثة أيام. وبسبب مظاهر العظمة والأبهة التي كانت تحيط بالمواكب الخليفية، فقد كانت هذه مجبرة على السير بإيقاع بطيء، لذلك قام الشيخ عمر ينتي بالانفصال عن موكب الخليفة والاسراع في السير على رأس جزء من الجيش، من أجل إنقاذ بطليوس أو على الأقل قصبتها.

لكن عندما وصل إلى اشبيلية، علم أن فرناندو الثاني الذي كان لا يزال ملتزماً بالمعاهدة السلمية التي وقعها منذ أمد قصير مع الموحدين جاء لتحرير بطليوس. والحقيقة أن ما دفع ملك ليون إلى ذلك، هو قيام ملك البرتغال باحتلال مدينة كان فرناندو يرى أنه إذا كان هناك من ملك مسيحي من حقه استردادها من يد المسلمين، فذلك الملك لا يجب أن يكون غيره، على اعتبار أن اتفاقية "ساكون" Sahagun التي سبق ووقعها في 23 مايو 1158م مع سانشو الثالث ملك قشتالة، تقضي بأن يتم تقسيم الأندلس بينهما بعد استردادها من يد المسلمين[51].

وقد تمكن فرناندو من تحرير المدينة بتنسيق مع عاملها أبي علي عمر بن تمصيلت الذي فتح هوة في القصبة- بمكان غير ظاهر للبرتغاليين- تسرب منها بعض الجنود الموحدين، والذين توجهوا إلى أقرب باب للمدينة وفتحوه لقوات فرناندو، وقام إثر ذلك الموحدون والليونيون جنباً إلى جنب بمهاجمة قوات ألفونسو هنريكيث التي أرغموها على مغادرة المدينة. وأثناء انسحابها، تعثر فرس هنريكيث في عتبة الباب التي حاول الفرار منها، وسقط أرضاً حيث أغمي عليه. وقد نقله رجاله على وجه السرعة إلى قاية بجوار بطليوس، لكن أعداءه ألقوا عليه القبض هناك وقاموا بأسره.

50- نفسه، ص. 374؛ والعبر، م. س.، ص.376.

51- تم الاتفاق على أن يحصل ملك ليون على المنطقة الممتدة بين لبلة و لشبونة والتي تضم بالاضافة إلى المدينتين كلاً من ميرتولة و يابرة وبطليوس وميريدة ومونتانشس وشلب، كما يحصل على نصف إشبيلية وعلى كل القلاع التي توجد بينها وبين لبلة. مقابل ذلك يحصل ملك قشتالة على كل ما تبقى من الأندلس وخصوصاً المنطقة الممتدة بين الوادي الكبير وغرناطة.

وبعد انتهاء المواجهة، سلم فرناندو الثاني بطليوس مع كل الغنائم التي أخذت من البرتغاليين إلى عامل المدينة عمر بن تمصيلت وانسحب مع جيوشه، وكان ذلك في 22 شعبان (21 مايو 1169م).

وتختلف الرواية التي يقدمها المؤرخ الليوني "لوكاس دي توي" Lucas de Tuy والقشتالي "خيمينيث دي رودا" Jimenez de Roda حول الواقعة، عن تلك التي تقدمها المصادر البرتغالية، كما تختلف هذه بدورها عن تلك التي تقدمها المصادر العربية؛ فالمصدر البرتغالي الذي يحمل عنوان: "أخبار الملوك السبعة الأوائل للبرتغال"[52] يقول إن ألفونسو هنريكيث كان قد أوشك على الاستيلاء على بطليوس لما علم أن كلاً من فرناندو الثاني ودييغو لوبيث (سيد بلاد الباسك) وفرناندو رودريكيث دي كاسترو يتجهون ضده، لذا انطلق على وجه السرعة مع كل قواته لمواجهتم، لكنه في الوقت الذي همز فرسه وكان يهم بالخروج من باب المدينة، ارتطمت رجله مع مزلاج الباب مما أدى إلى كسرها، وبما أن الفرس الذي كان يمتطيه أصيب بجروح، فقد سقط أرضاً بعد أن وصل لأحد حقول الشعير. ولما علم فرناندو رودريكيث بالأمر، أخبر بذلك على وجه السرعة فرناندو الثاني الذي قام بأسر ملك ليون وأغلب مرافقيه دون أن يكونوا قد دخلوا المعركة بعد. مقابل ذلك تقول المصادر القشتالية والليونية إن فرناندو الثاني هزم البرتغاليين بعد مواجهة في ميدان مفتوح. ولم يكن حظ خيراردو أحسن كثيراً من حظ ملكه، فقد وقع هو الآخر في الأسر، وللحصول على حريته اضطر للتنازل عن كل القلاع التي سبق واستولى عليها وهي: ترجالة ومنتاجش ومونفرا وسانتاكروث، لفرناندو رودريكيث الذي سبق له وأن عقد معاهدة سلمية مع المسلمين. ويظهر أن حصول هذا الأخير على كل هذه القلاع وضمنها ترجالة تفسر لنا لماذا يسميه ابن صاحب الصلاة بسيد ترجالة.

ولم يثبط كل هذا من عزيمة خيراردو الذي استأنف بعد ذلك غاراته بحيث احتل قلعة جلمانية التي لا تفصلها عن بطليوس إلا كلمترات قليلة. ولا نعرف لمن آلت هذه القلاع بعد أن تنازل خيراردو عليها لهنريكيث، وإن كان هناك احتمال كبير بأن المسيحيين احتفظوا بترجالة ومنتاجش -على اعتبار أن يعقوب المنصور سوف يستولي عليهما عام 1196م، وعلى اعتبار أن ابن صاحب الصلاة يسمي رودريكيث بصاحب ترجالة كما مر بنا- في حين عادت قاصرش إلى الموحدين، ذلك لأننا نعلم أن فرناندو الثاني حاصرها في شتاء 1183م-1184م دون أن ينجح في احتلالها، كما عادت إليهم شيربة، على اعتبار أننا نعلم كذلك أن قائدها خرج على رأس حامية

52- Op. Cit., Edic.Tarouca de Silva, I. P. 96

عسكرية في يونيو- يوليوز 1178م ضد قصر أبي دانس الذي هزم وأسر به. أما جلمانية فقد استعادها السيد أبو حفص عمر في نهاية 1170م أو ربيع 1171م. ومن المرجح أن تكون يابرة الواقعة على الضفة اليمنى لوادي آنة هي الوحيدة التي بقيت بيد البرتغاليين.

خضوع ابن هَمُشْكُ

وبعد أن تم إنقاذ بطليوس بفضل تدخل ملك ليون، توجه الشيخ عمر ينتي على رأس قواته إلى قرطبة التي كانت لا تزال مهددة من طرف ابن مردنيش، وقد أمره الخليفة بأن يبقى في حالة دفاع بالمدينة دون أن يسعى لمهاجمة ابن مردنيش الموجود في مرسية، وكان الخليفة، إلى غاية ذلك الحين، يعلق الأمل على أخذ هذا الأخير بعقيدة الموحدين، خصوصاً وأنه كتب له رسالة من مراكش مؤرخة في فاتح رمضان 564هـ (29 مايو 1169م)، يعده فيها بمنصب رفيع ويبين له الفوائد الروحية والامتيازات المادية التي سوف يحصل عليها إذا ما أقدم على تلك الخطوة، كما يذكره بالعرض الذي قدمه له والده عبد المومن، ثماني أو عشر سنوات إلى الوراء، وفي النهاية يخبره أن الشيخ عمر ينتي قد حل بالأندلس على رأس قوات موحدية مهمتها الجهاد ضد المسيحيين وإخضاع المسلمين المنشقين، وأنه أعطاه الأوامر ليتنقل إلى منطقة نفوذه لمعرفة جوابه الذي يجب أن يكون إيجابياً وسريعاً.

ولم يبال ابن مردنيش بما عرضه عليه الخليفة، عكس صهره ومساعده ابن هَمُشْكُ[53] الذي حضر إلى قرطبة في نفس شهر رمضان (وافق اليوم الأول منه 29 مايو واليوم الأخير 27 يونيو)، للأخذ بالعقيدة الموحدية[54].

في هذه الأثناء بدأ يشوب العلاقة بين الصهرين بعض الفتور، لذا وخوفاً منه على حياته قطع ابن همشك اتصالاته بابن مردنيش وتوقف عن زيارته. ويرجع سبب فتور العلاقات بين الرجلين

53- يسلم كل من دوزي وكوديرا برواية ابن الخطيب التي تقول إن سبب حمله لهذا الاسم هو كون إحدى أذنيه كانت مبتورة. غير أن هذا التفسير غير مقنع بدليل أنه في سنة 524هـ وعند قيام الموحدين بمحاصرة مراكش للمرة الأولى، كان هناك قائد أندلسي يحمل نفس الاسم (عبد الله بن همشك).

54- بعد اعتناقه للعقيدة الموحدية وفقدانه لمعظم المناطق التي كان يسيطر عليها، انتقل إلى مراكش وكان ذلك عام 565هـ، وقد شرفه الخليفة بتزكيته على رأس القلاع التي كانت لا تزال بيده في الأندلس، وفي 571 هـ تم نقله إلى مكناس حيث منحته هناك عدة إقطاعات، وبها توفي بعد مدة قصيرة من التاريخ المذكور نتيجة شلل نصفي، مرده حسب صاحب "الإحاطة" أنه استحم بالماء الساخن جداً وبسبب عدم قدرته على مقاومة شدة حرارة المياه خرج من الحمام وهو يصيح، أثناء ذلك أصابته نزلة برد كانت سبباً في نهايته. لمزيد من المعلومات عن ترجمته انظر الإحاطة، م. س.، ص. 159-164 ومايليها، والمن بالإمامة، م. س.، ص. 368-392.

إلى الطريقة المهينة التي طلق بها ابن مردنيش كريمة ابن همشك، والمعاملة السيئة التي عامل بها والتي جعلها تأتي والدها باكية، وهو ما دفعه إلى مراسلة الشيخ عمر ينتي يخبره برغبته في الأخذ بالعقيدة الموحدية. وقد استقبل هذا الخبر من طرف الموحدين بارتياح كبير وقاموا بتشهيره في مختلف أرجاء إمبراطوريتهم، واعتبروا أنه تم بشكل تلقائي وصادق، خصوصاً وأن المبادرة أتت من طرف ابن همشك نفسه. هذا الموقف أغاض ابن مردنيش الذي أعلن الحرب على ابن همشك وقام بالهجوم تلو الآخر وعلى مدار سنة كاملة على جيان ونواحيها، في وقت كان فيه ابن همشك يلح في طلب النجدة من الموحدين والتي لم تصله إلا خلال السنة الموالية.

الصراع في بطليوس وغارة قشتالة

وفي نفس الوقت الذي كان فيه الشيخ عمر ينتي يتفاوض في قرطبة مع ابن همشك حول شروط خضوعه للموحدين، ويقوم بالاستعدادات اللازمة لمهاجمة مرسية، قام الموحدون بتقوية القدرات الدفاعية لحامية بطليوس والتي وضعوا على رأسها قائداً جديداً هو أبو يحيى بن الشيخ عمر ينتي، وبنوا، تحسباً لأي حصار محتمل في المستقبل، بئراً جديدا داخل قصبتها أطلق عليها اسم بئر القُرابة تم الاعتماد فيها على مياه "وادي آنة".

ولم تثن هذه الإجراءات ولا الهزيمة السابقة التي تكبدها، خيراردوا عن شن عدة هجمات على بطليوس انطلاقاً من قلعة جلمانية. ورغم أن حامية المدينة تمكنت من رد هجماته الواحدة تلو الأخرى، فقد وضع في النهاية كميناً لها تمكن بواسطته من إلحاق هزيمة شنعاء بأفرادها والذين قتل الكثير منهم، كما نجح من خلال نفس الكمين بأسر عدد من الشخصيات الموحدية البارزة والتي لم يطلق سراحها إلا بعد أن حصل على فدية مالية مهمة.

وطيلة سنة 564هـ وبالضبط منذ شهر جمادى الأولى (فبراير 1169م) وإلى مطلع 565هـ (يوافق اليوم الأول منها 25 سبتمبر 1169م)، بقي السيدان عاملا اشبيلية وقرطبة والشيخ محمد بن إسماعيل عامل غرناطة بمراكش، يهيئون للحملة المزمع توجيهها ضد ابن مردنيش ويناقشون جزئياتها مع الخليفة[55]. وفي صفر 565هـ (نوفمبر 1169م) عاد السيدان إلى الأندلس يرافقهما السيد أبو علي الحسن عامل سبتة وزكريا بن يحيى بن سنان (ابن أحد أفراد أهل الخمسين) والذي عُين عاملاً على "طبيرة" بعد أن استعادها الموحدون.

55- كانوا قد غادروا الأندلس في فاتح جمادى الأولى 564 هـ (31 يناير 1169م). المن بالإمامة، م. س.، ص. 392-395.

وخلال تلك السنة، خرج الكونط "لارا" (القمط نونة ظئرة) الوصي على ألفونسو الثامن، في غارة هاجم خلالها رندة وجبالها، ووصل إلى غاية الجزيرة الخضراء حيث تمكن من أسر عدد من المسلمين، كما حصل على بعض الغنائم[56]. ومن المحتمل أن يكون تاريخ هذه الغارة هو ربيع 1170م، وبالضبط شهر رجب (يوافق اليوم الأول منه 21 مارس واليوم الأخير 19 أبريل) والذي ازداد فيه تهديد خيراردو لبطليوس التي لم يعد بالامكان الوصول إليها وتموينها. وعندما عُلم في اشبيلية بما تعانيه من خصاص، وجهت إليها قافلة من خمسة آلاف دابة محملة بالمؤونة والكلأ والأسلحة، وكان يقودها الحافظ زكريا بن علي، لكن خيراردو بواسطة جيشه والإمدادات التي تلقاها من شنترين، خرج ضد القافلة واستولى على كل ما تحمله من مؤونة بعدما هزم الحامية المكلفة بحراستها، وكان ذلك يوم الخميس 26 شعبان (14 مايو 1170م)[57].

وقد تأخر موعد الحملة المزمع توجيهها إلى الأندلس بسبب مرض الخليفة، في وقت استفحل فيه وباء الطاعون بمراكش حيث أصيب به أغلب السادة والكثير من العامة. وبما أن مرض الخليفة طال أمده، في وقت لم يعد بإمكان ابن همشك تحمل المزيد من تهديدات ابن مردنيش، تقرر تلبية طلبات النجدة المتكررة التي كان يوجهها للموحدين. وفي بداية ذي القعدة 565هـ (يوافق اليوم الأول منه 15 يوليوز 1170 م)، خرج السيد عمر بهمته المعهودة منْ مراكش قاصداً الأندلس على رأس جيش مهم، وكان يرافقه عدد من أبناء أعضاء جماعتي العشرة والخمسين والقائدان الأندلسيان أبو الحسن علي بن وزير وأبو العلاء بن عزون اللذان كانا على رأس القوات الأندلسية الموجودة بمراكش[58]، والتي يعود سبب مرافقتها للجيش إلى معرفتها بالميدان وبتقنيات القتال عند المسيحيين.

وكان وصول هذه القوات إلى اشبيلية في مطلع 566هـ (يوافق اليوم الأول من السنة المذكورة 14 سبتمبر 1170م)، أي بعد ثلاثة أشهر من مغادرتها مراكش. وبعد استراحته من تعب الرحلة، عقد السيد عمر مجلساً حربياً حضره الشيخ عمر ينتي وابن همشك اللذان قدما من قرطبة[59]. وقد تقرر إثر ذلك، أن ينتقل أولا السيد عثمان إلى بطليوس رفقة جيش مكون من الموحدين

56- نفسه، ويضيف ابن صاحب الصلاة أن الجفاف عم الأندلس خلال السنة المذكورة بحيث تأخر سقوط الأمطار إلى غاية شهر ديسمبر، كما ضربت الزلازل عدة جهات من البلاد، كان أعنفها ذلك الذي دمر منطقة " اندوجر" ولم تسلم من هذه الهزات الأرضية مناطق إشبيلية وقرطبة وغرناطة. ص. 397.

57- نفسه ، ص. 397.

58- نفسه، ص. 399-402.

59- نفسه، ص. 403.

والعرب والأندلسيين الذين كان يقودهم، كما مر بنا، القائدان أبو الحسن سدراي بن وزير وأبو العلاء بن عزون العارفان بالمنطقة وبتضاريسها.

ويظهر أن موضوع بطليوس لم يشغل الموحدين فقط، بل فرناندو الثاني كذلك والذي بعد لاحظ أنها أصبحت مهددة بالسقوط في يد خيراردو وألفونسو هنريكيث، توجه إليها على رأس جيش مسلح بالمجانيق من أجل الدفاع عنها، وقد تمركز بسهل الزلاقة بجوار بطليوس. ولما علم السيد عثمان بالأمر، أرسل له وفداً مكوناً من القائدين الأندلسيين سالفي الذكر وأحد شيوخ الموحدين لتقديم التحية له ومعرفة نواياه. وبعدما تبين أنه كان يريد فقط الحفاظ على المدينة تحت سلطة أمير المؤمنين، اقترح عليه الوفد الالتقاء بالسيد عثمان، وهو ما قبل به، حيث التقى الرجلان بنفس سهل الزلاقة، وتحدثا وكلاهما على صهوة جواده. وقد تكلف بمهمة الترجمة كل من ابن وزير وابن عزون[60]. إثر ذلك تم توقيع معاهدة جديدة انسحب على إثرها فرناندو إلى بلاده، بينما توجه السيد مع جيشه إلى قلعة "جلمانية" التي حاصرها ثم استولى عليها، مبعداً بذلك خيراردو عن منطقة بطليوس. حدث كل هذا في ربيع الأول من سنة 566هـ (يوافق اليوم الأول منه 12 نوفمبر 1170م واليوم الأخير 11 ديسمبر).

توجيه حملة جديدة إلى مرسية

وخلال فصل شتاء تلك السنة، وعقب عودة السيد عثمان إلى اشبيلية، تدارس مع أخيه السيد عمر والشيخ عمر ينتي، موضوع الحملة التي تقرر في النهاية توجيهها مع حلول فصل الربيع إلى المنطقة الخاضعة لابن مردنيش. وقد غادرت القوات الموحدية اشبيلية نحو قرطبة في مطلع رجب (يوافق اليوم الأول منه 10 مارس 1171م) وعلى رأسها الأميران والشيخ عمر ينتي الذين كان يرافقهم إبراهيم بن همشك.

وبعد توقف في قرطبة لبضعة أيام، واصلت الحملة طريقها نحو قيجاطة التي حاصرتها واستولت عليها[61]، قبل أن تستأنف السير وبسرعة عبر السهول الممتدة بتلك المنطقة. ومع وصولها قبالة مرسية استولت على المكان المعروف بحصن الفرج والذي توجد به إقامة استجمام ابن مردنيش. والملاحظ أن غارات الحملة على تلك المنطقة السهلية الخصبة تمت بدقة متناهية وفعالية كبيرة، وذلك بفضل الاستفادة من المعلومات التي كان يقدمها ابن همشك عن مواطن ضعف العدو[62].

60- رغم أن السيد كان يتقن لغة مخاطبه فقد تظاهر بجهله لها وذلك من أجل التأكد من حسن نواياه. نفسه. ص 402.

61- عملاً بنصيحة ابن همشك ضُرب عنق قائد قيجاطة.

62- المن بالإمامة، م. س.، ص. 403.

وقد عرف ربيع وصيف 1171م انهيار سلطة ابن مردنيش الذي تخلى عنه الكثير من أتباعه، بحيث إنه وبعد أن استدعى المرتزقة الذين يعملون لحسابه، لم يحضر منهم إلا 400 نفر اضطر لإرسالهم تحت إمرة رجله الوفي أبي عثمان عيسى، إلى لورقة بغية حماية قصبتها، غير أن سكان المدينة وبعدما تبين لهم أن الأمور في مرسية تسير من سيئ إلى أسوأ، أعلنوا تمردهم وأرسلوا من يستدعي السيد عثمان، الذي رفع الحصار لتوه عن مرسية وتوجه نحو لورقة التي حاصر قصبتها مما أجبرها على الاستسلام بسبب الخصاص في المياه والمؤونة[63].

ولما وصلت هذه الأخبار إلى الخليفة، أمر بمواصلة حصار مرسية في وقت بدأت فيه مدن الأندلس وقلاعها الخارجة عن سلطة الموحدين تعلن خضوعها الواحدة تلو الاخرى، وهكذا طلبت إلج والقلاع المجاورة لها الأمان، كما استسلمت باجة للحافظ محمد بن إسماعيل[64].

وبعد انتشار الأخبار عن التقدم الذي حققه الموحدون على ابن مردنيش، وكان قد عرف عنهم إعطاء الأمان للمناطق التي تعلن خضوعها، عكس ما عرف عن ابن مردنيش، توالت التمردات على هذا الأخير، وكان من بينها تمرد ألمرية الذي قاده ابن عمه (هو في نفس الوقت صهره) محمد، المعروف بابن صاحب البسيط، والذي سلم عامل المدينة ابن مقدام[65]، المعين من طرف ابن مردنيش، للموحدين. وقد جن جنون ابن مردنيش لتصرف ابن صاحب البسيط، لذا ورغبة منه في الانتقام، قتل زوجته (أخت ابن صاحب البسيط) وأمر جلاده بأن يلقي بولديها في بحيرة بلنسية ليموتا غرقاً[66].

63- حسب ابن صاحب الصلاة، أسرت الفصيلة الموحدية التي خرجت للاغارة على سهل لورقة أحد ابناء القائد أبي عثمان بن عيسى حيث نقل مكبل اليدين إلى جوار القصبة على مراى من والده، ومع ذلك رفض هذا الأخير الاستسلام وقاوم بشجاعة، ولم يذعن إلا بعد ما نفدَت من القصبة المياه والمؤونة وبعدما الح عليه في ذلك المرتزقة المسيحيون الذين يرافقونه. بعد ذلك وبفضل وساطة ابن همشك أطلق سراح ابنه الذي رافقه وكذا بقية جنوده إلى مرسية في حين انصرف المرتزقة المسيحيون الذين كانوا برفقته إلى بلدانهم. نفسه، ص. 404.

64- حول خروج مدن وقلاع المناطق الشرقية عن سلطة ابن مردنيش، يقول البيدق: «*... وبعد ذلك قام على بن مردنيش اخوه ببلنسية وصهره بجزيرة شقر، وقام عليه ابن الدلال بشبرب، وقام في شاطبة ابن عمروس، فاغتاضا ابن مردنيش لما حل به وقتل أخته وحمق من أجل ما حل به، وكتب العقد إلى امير المؤمنين انه خليفة على اولاده، ثم وحد اولاده واخوه وقواده*»، أخبار المهدي، م. س.، ص. 88-89.

65- تتحدث المصادر عن شخص آخر يحمل نفس الاسم تمرد قبل ذلك في " بورشينة" وقد خرج ضده من المرية عبدالله بن سليمان على رأس فصيلة موحدية، غير أن بعض افرادها غدروا به وقتلوه. إثر ذلك خرج ضد المتمرد الشيخ أبو حفص عمر ينتي حيث أغار على بورشينة وقتل ابن مقدام ، وقام بعدها مباشرة بمحاصرة لورقة التي أعلنت خضوعها له. وقبل عودته إلى قرطبة أعلنت خضوعها له كذلك كل من قرطاجنة ومالقا وبلج.

66- حسب ابن صاحب الصلاة. قام الجلاد المدعو ابن الربيع بنقلهما إلى مكان مجاور للبحر، قريب من بلنسية يعرف باسم البحيرة، ووضعهما في قارب القى بهما منه دون رحمة، م. س.، ص.407.

من جهة أخرى، بعدما لا حظ ابن سفيان سيد مدينة لبدة أن ابن مردنيش يحاول تطعيم الحامية المسيحية الموجودة في بلنسية بعناصر جديدة من أجل تقوية شوكتها، وأنه ولإرضاء عناصرها يطرد العديد من المسلمين من ديارهم التي يمنحها لأفراد الحامية، بعدما لاحظ ذلك خاف أن يتم عزله، فأعلن تمرده. وبما أن ابن مردنيش كان لايزال يعتقد أنه بإمكانه استعادة بلنسية ومعاقبة المتمرد، فقد حاصر لبدة في منتصف شهر يونيو (شوال 566هـ) بمساعدة أخيه أبي الحجاج يوسف أمير بلنسية. هذا الحصار استمر إلى غاية منتصف شهر غشت (ذو الحجة) عندما قام الخليفة (حل بقرطبة في شهر يوليوز) بمعية السيد عمر ينتي الذي كان يحاصر مرسية، بنجدة سكان لبدة الذين أرسلوا كموفد عنهم لدى الخليفة أبا محمد هلال، صديق ومساعد ابن صاحب البسيط في تمرد المرية. وقد أدرك ابن مردنيش آنذاك فقط استحالة استعادته المرية لذا قرر فك الحصار والانسحاب[67].

حملة الخليفة إلى الأندلس

عبر الخليفة المضيق في طريقه إلى الأندلس في 27 رمضان (3 يونيو 1171م)، وكانت قد وصلته الأخبار عن الانتصارات التي يحققها الموحدون هناك. ومباشرة بعد العبور، أخذ طريق اشبيلية التي وصلها في 12 شوال (24 يونيو). ولم يلتحق السيد عمر بأخيه رغم علمه بوصوله إلى عاصمة الأندلس، بل واصل حصاره لمرسية لشهرين آخرين، بحيث لم يرفعه إلا في نهاية ذي الحجة (يوافق اليوم الأخير منه 3 سبتمبر 1171م). ولا نعرف سبب رفع الحصار وإن كنا نعتقد أن الموحدين اقتنعوا بأن ابن مردنيش بعد مرضه وبعد أن تخلى عنه الجميع لم يعد يشكل عليهم خطراً، والدليل على ذلك أنه أعلن عقب مهاجمته في الربيع الموالي بمرسية، خضوعه وانتقل إلى اشبيلية التي وصلها في 15 محرم 567هـ (18 سبتمبر 1171م) ليقدم الولاء للخليفة.

وقبل أن ينتقل إلى الأندلس، أصيب الخليفة بمرض بقي معه طريح الفراش طيلة سنة 565هـ وإلى منتصف ربيع 566هـ (26 نوفمبر 1170م)، أي ما مدته أربعة عشر شهراً، وإن لم تكن حالته

67 - إن المصدر الوحيد الذي يخبرنا بانتقال الخليفة إلى مدينة لبدة هو البيدق والذي نعلم من خلاله أن الخليفة أثناء إقامته بقرطبة خلال شهري يوليوز وغشت 1171م، وبعد خضوع صاحب بلنسية أبي الحجاج يوسف (أخي ابن مردنيش) انتقل إلى مدينة لبدة حيث عين عاملاً عليها يوسف بن محمد بن ييكيت، كما ترك، للحفاظ على الأراضي حديثة الخضوع، عدداً من الفصائل التي استقدمها معه من المغرب في نقاط مختلفة، وهكذا أمر فصيلة عرب زناتة بالمكوث في بلنسية، وفصيلة صنهاجة وهسكورة في شاطبة ومرسية وفصيلة تنمل في لورقة وفصيلة كومية في المرية وبورشينة. أخبار المهدي، م. س.، ص.81.

خطيرة[68]. وكان يشرف على علاجه خلال هذه المدة طبيبان بارزان هما أبو بكر بن طفيل وأبو مروان بن القاسم واللذان أخضعاه لنظام غذائي صارم. وخلال مدة مرضه هذه، كان الفقيه أبو محمد المالقي يخبره بكل مستجدات حملة مرسية. وفي الوقت الذي أحس فيه بتحسن حالته، بعث لعرب إفريقية قصيدة شعرية من نظم ابن طفيل[69]، يستنهضهم من خلالها على القتال ويدعوهم للمشاركة في الحملة التي ينوي القيام بها، وفي نفس الوقت يذكرهم بروابط الدم التي تجمعهم به على اعتبار أنه مثلهم سليل قيس غيلان. ولما تأخروا في الرد عليه، عاد ليلح عليهم ويستعجلهم بقصيدة أخرى من نظم كاتبه الخاص ابن عياش يذكرهم فيها أنه مصمم على الجهاد. هذه المرة استجاب عرب إفريقية والزاب والقيروان حيث قرروا الالتحاق به ومرافقته إلى الأندلس، وكان بينهم المدعو جبارة بن أبي العينين الذي سبق وأن فر إلى مصر ثم الحجاز فاليمن لكي لا يخضع لسلطة الموحدين، قبل أن يعود إلى قبيلته حيث خرج على رأس قواتها إلى بجاية، لمرافقة السيد يحيى وبقية عمال إفريقية إلى مراكش. وقد انتقل من إفريقية إلى مراكش حوالي 4000 فارس حملوا معهم 150 دابة محملة بالنقود المسكوكة. وقبل أن يصلوا إليها، انضم إليهم في تلمسان السيد موسى بمعية 500 فارس و50 دابة محملة بالنقود المسكوكة والمتحصلة من الجبايات[70].

وصول عرب إفريقية إلى مراكش

وكان الخليفة قد تماثل للشفاء عندما وصل السيدان مع العرب إلى مراكش، وكان ذلك يوم الجمعة، وقد خرج لأول مرة إلى المسجد بعد مرضه الطويل. وفي اليوم الموالي (السبت 28 نوفمبر 1170م) كَلف القاضي الحجاج بن يوسف بدراسة الأمور القضائية العالقة، وذلك قبل أن يترأس في 30 نوفمبر حفل استقبال رسمي في ساحة "باب الأسطوان"، التي بقيت مغلقة طيلة مدة مرضه، والتي تعود أن يعقد فيها جلساته، وألقيت بالمناسبة قصائد شعرية بالعربية

68- في خريف 1170م (3 صفر 566هـ) وبعدما تماثل للشفاء وبدأت الاستعدادات المتعلقة بالحملة، تم ترميم قنطرة تانسيفت من أجل مرور الجيوش المشكلة لها، وكان علي بن يوسف قد أحسن تشييدها حيث اعتمد في ذلك على المهندسين الأندلسيين، لكن الفيضانات المهمة التي حدثت عقب ذلك خلعت أغلب ركائزها وجرفتها إلى غاية البحر. نزهة المشتاق، م. س.، ص. 233.

69- أوردها ابن صاحب الصلاة، ص. 411-417. وقد ترجمها إلى الإسبانية إيميليو غارثيا غوميث الذي نشرها في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. العدد الأول، ص. 21 من النص الإسباني و25 من النص العربي.

70- المن بالإمامة، م. س.، ص. 419.

والأمازيغية ونفح الخليفة الأدباء والطلبة، وكان من بين المنعم عليهم ابن صاحب الصلاة الذي يورد عدة تفاصيل عن الحفل المذكور[71].

وقد أقام العرب الذين قدموا من إفريقية مخيمهم على مشارف مراكش، وفي يوم السبت 2 ربيع الثاني 566هـ (13 ديسمبر 1170م) تلقوا الأوامر بدخول العاصمة، وتكلفت بالاستقبال حامية موحدية تحت إشراف الوزير إدريس بن جامع. إثر ذلك خرج الموكب الخليفي لاستقبالهم كذلك، وكان الخليفة الذي شوهد لأول مرة من طرف العامة منذ مرضه، ممتطياً جواده الأشقر، وبجانبه وزيره ابن جامع الذي كان يستلم العرائض والملتمسات المرفوعة للخليفة، وخلفه أخوه محمد "المخلوع" وبقية إخوته الصغار وحفدة عبد المومن. وقد رفعت في المكان الذي يفصل ساقة الموكب عن الحامية المكلفة بالاستقبال ست عشرة راية موحدية كبيرة، يحمل كل واحدة منها إحدى الشخصيات الموحدية البارزة، وكان كل هؤلاء يرتدون دروعاً طويلة تصل إلى أسفل القدمين، وهي نفس الدروع التي كان يرتديها الحرس الخليفي والمسيحيون والعبيد وبعض العامة حسب ابن صاحب الصلاة[72].

وعند خروج الخليفة من باب الشريعة، أمر بإقامة الاحتفالات في السهل الواسع الذي يقابلها، وبعد أن ضربت الخيمة الإمبراطورية، قام باستقبال إخوته والعرب، كما استعرض الجيش وكان ذلك على قرع الطبول. وقد قضى الخليفة معظم يومه في مشاهدة المناورات والمبارزات العسكرية قبل أن ينسحب ويعود العرب بدورهم إلى مخيمهم.

وفي اليوم الموالي (3 ربيع الثاني الموافق ل 11 سبتمبر) بدأ شيوخ العرب وبقية الجيوش التي حلت بمراكش بأداء قسم الولاء أمام الخليفة، وقد استمرت هذه العملية خمسة عشر يوماً، بحيث لم يتم الانتهاء منها إلا يوم الأربعاء 20 ربيع الثاني (31 ديسمبر).

وفي يوم الجمعة 22 ربيع الثاني (2 يناير 1171م)، توجه الخليفة بعد الصلاة، إلى بستان البحيرة حيث شرع في إقامة الولائم على شرف كل حديثي العهد بالوصول إلى مراكش، وكان عدد المحتفى بهم يومياً يقدر بحوالي 3000 شخص. وكما جرت العادة في مثل تلك المناسبات، فقد أعد صهريجاً من المشروبات، كان يتوجه إليه المحتفى بهم، بعد الانتهاء من الأكل وتقديم التحية للخليفة، وذلك من أجل الشرب واللهو.

71- نفسه، ص. 430.

72 - نفسه. ص، 433.

وفي يوم الأحد 8 جمادى الأولى (17 يناير) بدأ الخليفة باستعراض القوات في ساحة قصره القديم (دار الحجر)، وتم ترتيب القبائل حسب أسبقيتها في اعتناق العقيدة الموحدية، لذا كان العساكر المنتمون لقبيلة زغبة أول من مر أمامه. ورغم أن عملية الاستعراض كانت تبدأ بدون انقطاع من الصباح إلى المساء، فقد امتد ذلك إلى 22 جمادى الأولى (31 يناير). وفي فاتح جمادى الثانية (9 فبراير)، شُرع في استعراض القوات من جديد وهذه المرة لتوزيع الأسلحة والخيول واللباس و"البركة" التي وصلت قيمتها بالنسبة للفارس العربي المسلح تسليحاً تاماً (بما في ذلك الفرس وكل معداته) 25 ديناراً، ولمن دون ذلك من الفرسان 15 ديناراً وللمشاة 7 دنانير، في حين منح الشيوخ 50 ديناراً وقادة القبائل 100 دينار. وقد تم بالمناسبة كذلك توزيع 3000 حصان على الفرسان الذين لم يكونوا يمتلكونها.

الانتقال إلى الأندلس

وأخيراً تقرر انطلاق الحملة التي استُعد لها كثيراً وقيل عنها أكثر، وكان ذلك يوم السبت 4 رجب (13 مارس 1171م)، وقد خرج الخليفة من باب دكالة يسبقه حملة الأعلام البيضاء حسب العرف الموحدي، وجَمَل ضخم وضعت نسخة من قرآن عثمان في هودجه المنمق بالأحجار الكريمة والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر، والزمرد الأخضر الرفيع. وكان يتبع الجمل المذكور جمل آخر يحمل نسخة من قرآن المهدي. في حين أحاطت بالخليفة حاشيته المكلفة بحمل الطبول وأعلام الامبراطورية، والتي تموضع خلفها بقية الجيش. وكانت المحطات التي يجب أن تتوقف عندها الحملة معروفة ومحددة منذ عهد والده، بحيث توجد في كل واحدة منها المنازل المخصصة للإقامة.

وفي اليوم الأول لمغادرته مراكش، أمر الخليفة بضرب المخيم على ضفة وادي تانسيفت الذي يبعد عن العاصمة مسافة ثلاثة أميال[73]، وفي اليوم الموالي (5 رجب) استراح مع حاشيته في بيته الواقع بـ"دشر الحطابة" ثم انتقل يوم الثلاثاء (7 رجب) إلى توقطين وهنا كذلك نزل ببيته. وقد واصل السير بنفس الإيقاع وكان ينزل دائماً بمنزله الخاص، وعند وصوله إلى نهر أم الربيع

73- يظهر أن الحملة سلكت نفس الطريقة التي تحدث عنها الإدريسي ;م. س.، ص. 236، الذي كتب: «ومن مدينة مراكش *إلى مدينة سلا على ساحل البحر تسع مراحل أولها* قرية تونين»، والتي توجد دون شك في المكان المعروف حالياً بسيدي بوعثمان والواقع على بعد 35 كلم شمال مراكش وكانت تتوقف عنده عادة الحملات العسكرية. وقد اكتشفت بجواره، حسب ما أخبرنا الأستاذ كولان G-S Colin، مجموعة من صهاريج المياه.

وضع جسراً من القوارب[74]. وبعد أن نزل بإقامته المجاورة للنهر أصدر أوامره بشأن الطريقة واليوم الذي يجب أن تعبر فيه كل قبيلة الجسر، وذلك لتفادي أي ازدحام أو أضرار تلحق بالجسر. لكن العرب وبفوضويتهم المعهودة، تزاحموا من أجل العبور وهاجموا بل وقتلوا من أجل ذلك بعضهم البعض، وكادوا يدخلون بينهم في نزاع خطير لولا تدخل الخليفة في الوقت المناسب حيث دفع فدية دم الضحايا وهدأ الأعصاب المتوترة. وبعد عبور الجسر نزل الخليفة في بيته الواقع بالجيسل[75]، وهنا وزع القمح والشعير واللحوم على كل الجنود. إثر ذلك واصل السير عبر نفس الطريق التي استعملها والده من قبل، وعند توقفه بمحطة مكول[76] المجاورة لنهر وسنات قام من جديد بتوزيع المؤونة على الجنود.

وقبيل وصوله إلى الرباط، وضع مخيمه في سهل شاسع وأمر أن توضع في الزوايا الأربع للمكان الذي توجد به العلبة التي تحوي قرآن عثمان، أربعة أعلام ملونة بالأحمر والأبيض والأصفر والأصفر اللامع، علقت في أربعة رماح قصيرة يوجد برأس كل منها تفاحة من ذهب. بعد ذلك أمر برفع المخيم ومواصلة السير. وكان الخليفة يمتطي صهوة جواده، ومع اقترابه من الرباط أمر أن يسبقه حاملو الأعلام وأصحاب الطبول والجملان اللذان يحملان نسختي القرآن (نسخة عثمان والمهدي) وكذا حاشيته.

ولما وصل باب المدينة أوقف جواده، وبعد توجهه بالدعاء إلى الله ليوفق الجميع أمر أن يوضع المخيم في سهلها، وكان دخوله لها يوم الإثنين 20 رجب (30 مارس 1171م)، أما المدة التي استغرقتها الرحلة منذ مغادرته مراكش فهي 17 يوماً[77].

وكانت الرباط هي النقطة التي تلتقي عندها الجيوش، إذ أنشأها والده لتنطلق منها الحملات الكبيرة سواء صوب الجزائر وتونس أو في اتجاه الأندلس. وقد واصل بها أعمال البناء التي بدأها والده، بحيث قام بتشييد الأسوار الواقعة جنوب وغرب المدينة (سوف يتم ذلك فيما بعد ابنه يعقوب المنصور)، كما قام بترميم العين التي شيدها عبد المومن عام 545هـ والمعروفة بعين غبولة بعد أن انقطعت عنها المياه، التي شيد، لضمان استمرار جريانها، بركة كبيرة بجوار العين.

74- توجد بلدة أم الربيع على الضفة الجنوبية لنهر كبير لا يمكن عبوره حسب الإدريسي إلا بواسطة القوارب. نزهة المشتاق، م. س.، ص. 237.

75- هي قرية جميلة بمنطقة الشاوية، قريبة من أم الربيع تعرف اليوم بالجيسير، توجد بها مجموعة من العيون المتدفقة من الصخور.

76- يتعلق الأمر بقلعة مكونة الحالية، ولازالت بقايا القصبة إلى اليوم حيث توجد بجوار أحد ينابيع المياه.

77- المصدر الوحيد الذي تحدث عن الرحلة هو المن بالإمامة، م. س.، ص. 446-452.

بالإضافة إلى هذا، شيد جسراً من القوارب بين الرباط وسلا، بجوار ذاك الذي أقامه والده والذي دمر بفعل تعاقب السنين وبفعل العواصف.

وبعد استعراض جديد للجنود وتوزيع مستلزمات الحملة عليهم، أعطى الأوامر يوم الجمعة 9 شعبان (17 أبريل) للشروع في عبور النهر، وهي العملية التي استغرقت خمسة أيام، وكان هو وحاشيته آخر من عبر. إثر ذلك وضع مخيمه على مقربة من وادي سبو في المكان المعروف بحمام المعمورة[78].

وكان قوام القوات التي ترافقه 10 آلاف فارس موحدي ونظيرهم من العرب بالإضافة إلى من تطوع بهدف الجهاد، هذا دون إحصاء القوات التي سبقته إلى الأندلس والتي كان يقودها السيد عمر والشيخ عمر ينتي، وقد فاق عدد القوات في مجموعها عدد قوات أي من الحملات السابقة التي قام بها الموحدون.

وصول يوسف الأول إلى الأندلس وإقامته في قرطبة وإشرافه على أعمال البناء في اشبيلية

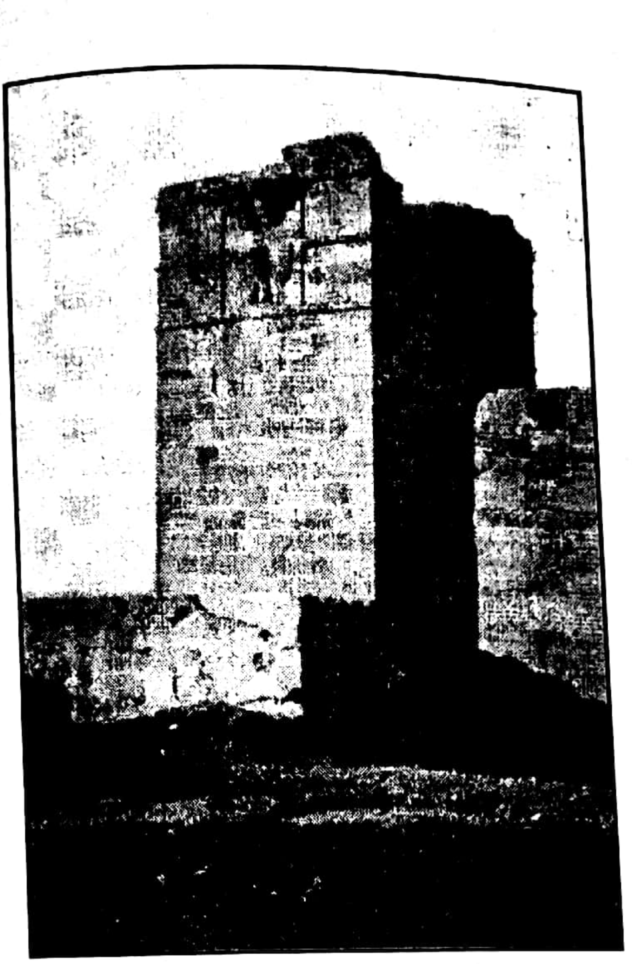
في فاتح رمضان (8 مايو) بدأت الجيوش الموحدية التي وصلت إلى القصر الصغير بعبور المضيق، وفي 27 منه (3 يونيو) نزل الخليفة مع حاشيته بطريفة، وقد جاءت الوفود لاستقباله من مختلف أنحاء الأندلس. وفي يوم الجمعة 12 شوال (18 يونيو)، دخل اشبيلية دخولاً رسمياً، وكان ذلك بعد ثلاثة أشهر وخمسة أيام من مغادرته مراكش. وفي 23 شوال (29 يونيو)، وبعد عشرة أيام من وصوله إلى اشبيلية، غادرها نحو قرطبة التي وصلها في فاتح ذي القعدة (5 يوليوز)[79].

وللانتقام من الكونط "لارا" الذي قام سنة قبل ذلك بالإغارة على رندة والجزيرة الخضراء، أرسل يوسف الأول عبد الله بن تيفرجين[80] (هو ابن عامل مراكش الذي قتله أخوا المهدي في محاولتهما الفاشلة الاستيلاء على السلطة) على رأس قوات موحدية تمكنت وبعد أن عبرت نهر تاجة من الإغارة على طليطلة والعودة محملة بالغنائم إلى قرطبة. وقد استمرت إقامة الخليفة

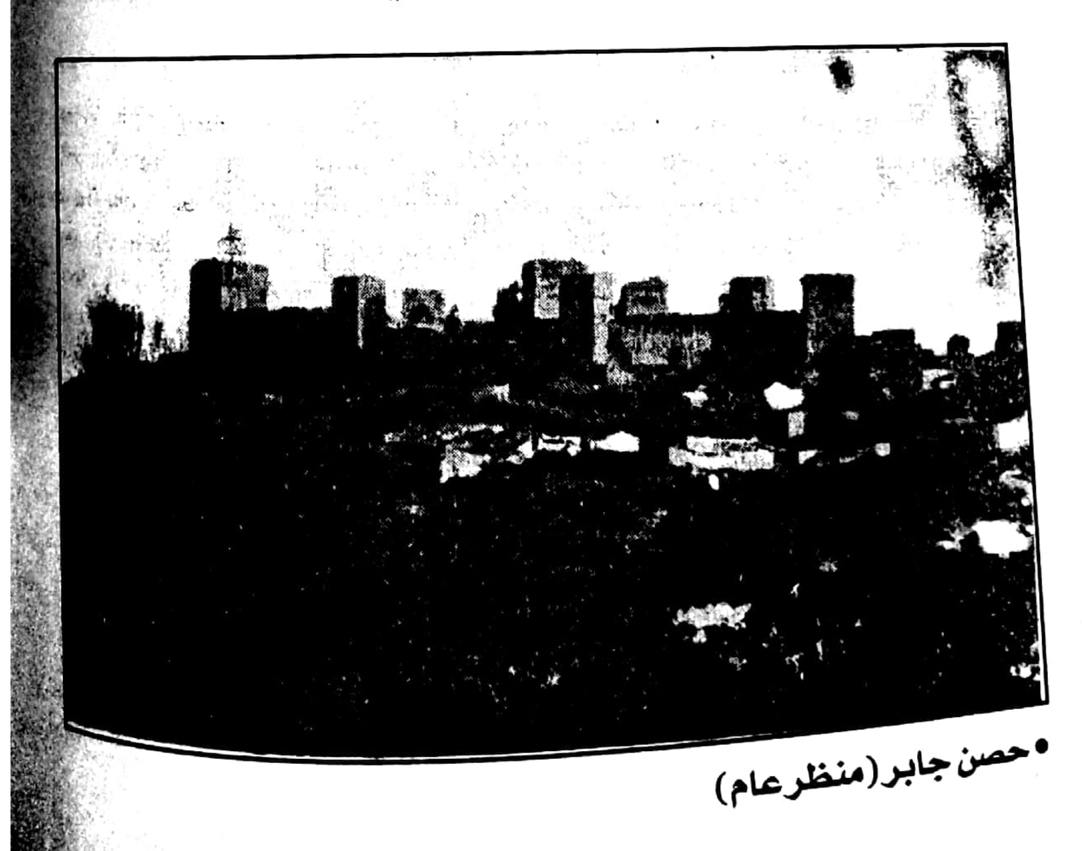
78- لازالت أطلاله قائمة على ضفة نهر الفوارات في المكان المعروف اليوم بالحمام، والذي يقع على مسافة 11 كلم جنوب بور ليوتي.

79- حول هذه النقطة انظر: "إشبيلية وآثارها العربية" لمؤلفه "أنتونة" M-Antuna وهو أول من استعمل المعلومات التي أوردها ابن صاحب الصلاة (م. س.، ص. 461-468). يمكن العودة كذلك إلى المقالة التي نشرها "توريس بالباس" Torres Balbas تحت عنوان: "معلومات حول إشبيلية خلال عصرها الإسلامي". انظر : Al Andalus. X- Fasc, 1P. 181 y siguientes.

80- ابو عبد الله محمد بن الشيخ الشهير بأبي فحص بن تيفرجين ويحمل اسم تفراكين في مصادر أخرى. المن بالإمامة، ص. 393. (المترجم).



• حصن جابر (البرج الرئيسي)



• حصن جابر (منظر عام)

بهذه الأخيرة إلى نهاية سنة 566هـ (يوافق اليوم الأخير منها 3 سبتمبر 1171م)، وهو ما يعني أنه مكث بها مدة شهرين. وبها احتفل بعيد الأضحى الذي تلقى فيه تهاني الشيوخ ورجال البلاط والشعراء، كما عين موظفين إداريين جدداً وعزل آخرين. وقبل مغادرتها ومن أجل ضمان الحماية اللازمة لها، ترك قوات عسكرية داخلها وخارجها وعلى ضفتي الوادي الكبير.

وخلال خريف وشتاء 1171م/1172م شَرع في إنجاز الأعمال العمرانية الكبرى باشبيلية، وهكذا فبعد وصوله إليها مباشرة وكان ذلك يوم فاتح محرم (4 سبتمبر 1171م) أمر بمد جسر من القوارب يربط المدينة بمنطقة طريانة[81] استغرق العمل فيه مدة 36 يوماً، وتم تدشينه يوم 7 صفر (10 أكتوبر) حيث أقيمت بالمناسبة احتفالات كبرى[82].

ولا يظهر أن يوسف قام خلال السنوات السبع التي قضاها عاملاً على المدينة في حياة والده، بأعمال عمرانية. فقد كان عمره عند وصوله إليها لأول مرة يتراوح ما بين 17 و 18 سنة، لذا لم ينشغل بأمور الحكم التي كان يقوم بها عنه المستشارون الذين عينهم والده بجانبه، بقدر ما انشغل بالدرس والتحصيل، وهو ما أهله فيما بعد للبروز في مجال العلم والمعرفة. وتعود أولى أعمال البناء التي انجزت على عهده في اشبيلية إلى سنة 564هـ (يوافق اليوم الأول من هذه السنة 5 أكتوبر 1168م واليوم الأخير 24 سبتمبر 1169م)، وكان ذلك نتيجة للفيضان الذي عرفته المدينة (كانت تعرف فيضانات مستمرة) والذي دمر الأسوار المجاورة للنهر، وهو ما جعله يعطي الأوامر، من عاصمة ملكه مراكش، لترميم ما دمر على نفقته الخاصة. ومن المحتمل أنه أمر في نفس الوقت بتشييد "الزلالق" (المنحدرات) التي تمنع تسرب المياه إلى المدينة وقت الفيضانات.

ويقول ابن صاحب الصلاة إن الخليفة بالإضافة إلى أعمال البناء التي قام بها بالقصبة الموجودة داخل المدينة إثر حلوله بها سنة 567هـ، أمر بالشروع في بناء القصبة الواقعة خارجها، لكن الأشغال توقفت دون أن يتم الانتهاء من تشييد السور[83]. أما بخصوص برج الذهب فلم يشيده الخليفة وإنما السيد أبو العلاء كما يذهب صاحب الذخيرة السنية وصاحب روض

81- منَ أحياء إشبيلية الأندلسية، كان يصنع بها أحسن الزليج الإشبيلي، وتعتبر اليوم من أهم أحياء اشبيلية. (المترجم).

82- يظهر أن الموحدين كانوا عاجزين عن القيام بتشييد الجسور على الأنهار الكبيرة، وهكذا اكتفوا في أم الربيع وأبي رقراق بوضع جسور مؤقتة من القوارب، وكذلك الشأن في إشبيلية حيث اكتفوا بوضع دعامتين على ضفتي الوادي الكبير، تربط بها القوارب المستعملة كجسر، أما على تانسيفت فلم يقوموا بغير ترميم الجسر الصغير الواقع على النهر والذي شيده المرابطون.

83- المن بالإمامة، م. س.، ص. 468.

القرطاس الذي نقل عنه[84]، وكان ذلك عندما أصبح عاملاً على اشبيلية عام 568هـ (1172م)
وهنا نظن أن هذا السيد الذي قام بترميم أسوار اشبيلية وطوقها بالخنادق هو الذي أتم بناء
القصبة الخارجية، وضمنها البرج الذي سماه برج الذهب، وكانت غايته من ذلك الاستفادة منه
في الأعمال الدفاعية ضد المسيحيين.

وأثناء قيامه بأعمال البناء، أُخبر الخليفة أن أخاه عمر رفع الحصار عن مرسية بعد استيلائه
على أكبر جزء من المنطقة التابعة لابن مردنيش، وأنه أخذ طريق اشبيلية من أجل الالتقاء به. وبما أنه
كان يوجد خارج اشبيلية، فقد عاد إليها لتوه ودخلها في الثاني من محرم (5 سبتمبر). وفي 15 منه
(18 سبتمبر) وصلها السيد عمر رفقة الجيش الذي حاصر بواسطته مرسية، حيث استقبله الخليفة
بحفاوة كبيرة على مسافة ميلين منها. وكان الخليفة أثناء عودته إلى اشبيلية قد أمر بإخلاء 60
منزلاً من أصحابها لينزل بها شيوخ الموحدين، كما اشترى من ماله الخاص 100 منزل آخر لإقامة
الوفود التي جاءت لزيارته. وبالنسبة للجنود فقد تم إيواؤهم بمختلف ضواحي اشبيلية. وكان
الخليفة وأخوه، خلال مدة تشييد الجسر الذي سيربط المدينة بحي "طريانة"، يتبادلان الرأي
بشكل مستمر حول وضعية الأندلس والتطور الإيجابي للأحداث بمنطقة مرسية. في تلك الأثناء
وبسبب التهديدات التي كانت تعرفها بطليوس والتي كانت تحول دون وصول المؤونة إليها، تقرر
إرسال قافلة من 4000 دابة محملة بالمؤن والأسلحة تكلف بحراستها فيلق مهم. هذه القافلة
اجتازت الجسر في 8 صفر، مباشرة بعد الانتهاء من تشييده، وقبل وصولها إلى بطليوس، وعملاً
بنصيحة أبي العلا بن عزون، قام الفيلق الذي يحرسها بمهاجمة قلعة "لبون" Lobon وكانت بها
حامية مسيحية تابعة لـ"خيراردو سام بابور"، وهو ما سمح بوصولها إلى بطليوس بسلام.

في تلك الأثناء توفي ابن مردنيش، وكان ذلك في اليوم الأخير من رجب 567هـ (28 مارس
1172م)[85]، وبعد شهر على وفاته، جاء ابنه هلال رفقة وفد من مرسية، إلى اشبيلية للأخذ بعقيدة
الموحدين، وكانت قد مرت ستة شهور على رفع السيد أبي حفص عمر الحصار عن مرسية.

84- هو ابو العلاء ادريس بن يوسف الأول، عرف باسم أبي العلاء الكبير، للتمييز بينه وبين ابن أخيه أبي العلاء المأمون،
وقد نحي من منصبه كعامل لإشبيلية في نفس السنة التي كان يقوم فيها بهذه الأعمال العمرانية. انظر العبر، الجزء
السادس، م. س.، ص. 381.

85 - هذا هو تاريخ الوفاة الذي ورد عند ابن الخطيب في الإحاطة وعند ابن الأبار في التكملة، أما ابن صاحب الصلاة والشريف
الغرناطي (في تعليقه على قصيدة للقرطاجني) فيجعلان وفاة ابن مردنيش في العاشر من رجب (8 مارس)، ويضيف الغرناطي
ان ابن مردنيش احتل مرسية عام 542 هـ، وبذلك تكون مدة حكمه بها قد امتدت 25 سنة، وكان عمره عند وفاته 48 سنة.

وخلال خريف وشتاء سنة وفاته، قام ابن مردنيش الذي تخلى عنه معظم رجاله، وكان قد بدأه المرض، بأعمال انتقامية ضد الموحدين لم يكن لها من هدف غير إخماد فورة غضبه. غير أنه بعد ذلك، وفي الوقت الذي أحس فيه بدنو أجله، نصح أبناءه بالخضوع لسلطة الموحدين والاستفادة منهم، قبل أن يجدوا أنفسهم وبعد فوات الأوان مجبرين على الخضوع لهم.

وفي نفس خريف 567هـ، أعطى يوسف الأول الأوامر للشروع في بناء القصور وبستان البحيرة في ساحة باب جوهر، وقد انتقى بنفسه أنواع أشجار الفواكه التي تم غرسها مقلداً في ذلك والده الذي شيد بستان شنطولية بضواحي مراكش[86]. ولتوفير المياه الضرورية لسقي البستان، تم في شتاء نفس السنة مد قنوات المياه والتي بدأ استعمالها في 15 جمادى الثانية (12 فبراير 1172م). ومما تجدر الإشارة إليه أنه أثناء مد هذه القنوات اكتشفت بجوار باب قرمونة المجاري المائية التي يعود تاريخها إلى العهد الروماني والتي كان منطلقها حصن جابر. وبعد تقفي أثرها وتسوية قنواتها، تمت الاستفادة منها من أجل نقل المياه إلى البحيرة وإلى قصر الخليفة، في نفس الوقت، ومن أجل استفادة سكان اشبيلية كذلك من هذه المجاري، تم مد قناة للمياه انطلاقاً منها وإلى غاية شارع المدينة الرئيسي حيث شيد أحد الأحواض.

وبما أن القصور وبستان البحيرة كانت بجوار باب جوهر، وبما أن هذه الباب كانت محاذية لباب قرمونة التي تمر عبرها المواسير المعروفة باسم مواسير قرمونة والممتدة إلى البحيرة، فإنه من السهل، وكما لاحظ "توريس بالباس" Torres Balbas، معرفة وبكل دقة المكان الذي كانت توجد به باب جوهر، لكن الذي يصعب هو أخذ فكرة عن الشكل الذي كانت عليه المنطقة ككل، على عهد يوسف الأول، خصوصاً بعد اختفاء حي تَغريت Tagarete الذي قامت مقامه الشوارع والمنازل الحديثة، وذلك على الرغم من أن اللوحة المنشورة في كتاب Civitales Urbis Terrarum (يعود تاريخه إلى النصف الثاني من القرن السادس عشر) تقدم لنا معطيات هامة بهذا الخصوص؛ فهي تصور لنا شمال غرب اشبيلية، بحيث تظهر مجموعة من الأشجار فوق الهضبة، ثم حي تَغريت الذي يوجد خلفه المذبح، فحي القديس فرناندو، فمواسير قرمونة التي ظهرت بجوارها لافتة كتبت عليها عبارة "بستان الملك".

وبعد مجيء هلال بن مردنيش إلى اشبيلية ودخوله في طاعة الموحدين، أرسل يوسف الأول إلى مرسية الشيخ عمر ينتي ليتولى أمورها، كما كلف اثنين من إخوته بالخروج لاستقبال أهالي

86- اخبار المهدي، م. س.، ص. 79.

مرسية الذين رخص لهم بالمجيء إلى اشبيلية لتقديم البيعة. وقد تميز حفل البيعة ب[illegible]
مظاهر الأبهة والعظمة اللتين تستحقهما المناسبة، وخلاله قام إدريس بن جامع بتقديم [illegible]
مرسية للخليفة ثم قام بعد ذلك موسى بن عمران بإلقاء خطاب التهنئة. وكان الخليفة قد [illegible]
القصر الفخم الذي كان يقطنه فيما مضى المعتمد بن عباد لإقامة هلال بن مردنيش[87]

إن هذا الحدث السعيد المتمثل في انضمام مملكة مرسية لسلطة الموحدين، إضافة إلى
الاستفادة من الأموال المهمة التي عثر عليها في خزينة ابن مردنيش، ثم التزايد العددي لساكنة
اشبيلية، كلها عناصر شجعت الخليفة للشروع خلال شهر رمضان من تلك السنة (مايو 1172م) في
تشييد المسجد الأعظم[88]، الذي سوف يتحول مع مرور الوقت إلى مسجد المدينة الرئيسي بدل
مسجد العدبس[89] الذي ضاق بمصليه. وهنا كذلك سار يوسف على خطى والده الذي أسس
مسجدي تنملل والكتبية.

وخلال المدة التي قضاها الخليفة بالأندلس بعد الشروع في بناء المسجد وهي ثلاث سنوات و
وأحد عشر شهراً، لم تتوقف الأشغال التي كان يشرف عليها المهندس أحمد بن باسو. وقد تم بعد
حيازة الميدان الذي تقرر أن يشيد عليه المسجد، تحويل اتجاه الساقية التي كانت تخترقه، كما شيدت
الصهاريج وقباب الصحن والمحراب والممر المؤدي إلى القصر، وكان الخليفة يراقب كل ذلك بنفسه
بحيث إنه كان يزور ورشة البناء يومياً تقريباً.

وقبل أن يأخذ طريق العودة إلى مراكش، وكان ذلك في 14 شعبان 571هـ (27 فبراير 1176م)
ودع المهندسين والبنائين والصناع المكلفين بأمور البناء. ولا نعرف الإيقاع الذي سارت به
الأشغال بعد ذلك، لكن الذي نعرفه هو أن الخليفة أمر عام 577هـ (1181م) أن تلقى خطبة
الجمعة في المسجد الجديد، وكان المنبر المخصص للخطيب قد وضع بالمسجد في 19 شعبان
570هـ (15 مارس 1175م) في وقت كان الخليفة لا يزال فيه باشبيلية.

وعند عودته إليها من جديد في 13 صفر 580هـ (26 مايو 1184م)، وقبل خروجه إلى
شنترين، أعطى الأوامر بتشييد سور حصين يمتد من أقصى القصبة الداخلية إلى غاية المسجد

87- المن بالإمامة، م. س.، ص. 464.
88- حول المسجد الأعظم في إشبيلية، انظر :
Henri Terrasse, La Grande Mosqueé Almohade de Seville " en memorial Henri Basset . T, P 249 y siguientes .
89 – نسبة إلى القاضي عمر بن عدبس الذي كان يتولى القضاء في إشبيلية على عهد عبد الرحمن بن الحكم، المن بالإمامة، م. س.، ص. 475 .

وداخل هذا السور أمر أن تشيد بجانب صومعة المسجد ورشة لصناعة السفن، امتد مكانها من السور المطل على النهر وبالضبط من باب "القطايع" (السفن) إلى باب الكحول.

وبعد مغادرته لاشبيلية تواصلت الأشغال لمدة شهر ونصف تحت إشراف أبي داود جلول بن جلداسن، لكنها توقفت بسبب وفاة هذا الأخير التي تلتها مباشرة وفاة الخليفة والتي حدثت عقب حملة شنترين. هذه الوفاة حالت دون تشييده لصومعة لاخيرالدا والتي سيعود شرف بنائها لابنه يعقوب.

خروج الموحدين في حملة إلى قشتالة

أصبحت مملكتا ليون والبرتغال خلال هذه المرحلة تشكلان خطراً على الموحدين يفوق ذاك الذي تشكله مملكة قشتالة، لأن هذه الأخيرة اعتلى عرشها آنئذ ملك شاب لا يتجاوز عمره ست عشرة سنة هو ألفونسو الثامن، الذي كان منشغلاً في بداية عهده باستعادة الأراضي التي اقتطعها من قشتالة ملك نبرة، وبإقامة تحالف مع مملكة أراغون، وكذا بالزواج من الأميرة الإنجليزية ليونور، لذا فحملاته الاستردادية ضد الموحدين لن تبدأ إلا بعد خمس سنوات من توليه الملك، وقد دشنها بحصار واحتلال "قونقة".

لكن إذا لم تكن قشتالة قد أعلنت الحرب على الموحدين قبل التاريخ المذكور، فإن رجالها المسلحين شكلوا أكبر دعم لابن مردنيش خلال صراعه الطويل ضدهم. وحتى بعد وفاة هذا الأخير، فإن القشتاليين الذين عملوا معه نجحوا في احتلال مراكز استراتيجية مثل بلج والكرس، كما أن قونقة وقبل أن يحتلها ألفونسو الثامن، تعرضت لحصار المسيحيين؛ بحيث إنه، وفي الوقت التي وصلها يوسف الأول، كان هؤلاء يوجدون بجوارها، وكانت قد مرت خمسة أشهر على بداية حصارهم لها. بجانب هذا كان عدد من الولايات القشتالية وعلى رأسها "آبلة" تشن وباستمرار غارات على مختلف أنحاء الأندلس.

وكرد فعل على كل هذا، ورغبة من هلال بن مردنيش وأهالي مرسية في تأكيد حسن نواياهم وقطع علاقتهم بشكل نهائي بالمسيحيين، اقترحوا على يوسف الأول القيام بحملة كبيرة على قشتالة[90]. وهكذا بينوا له بعد حفل تقديم البيعة بأنه من السهل الاستيلاء على مدينة وبذة لكونها حديثة التشييد ولقربها من الأراضي الخاضعة للسلطة الموحدية، وهو ما يجعل مشكل تموين الجنود أثناء الحصار غير مطروح، كما أخبروه أن أسوار المدينة غير منيعة وأنها لا تتوفر على أبواب ولا حرس مكلف بمراقبة الدخول إليها. وقد اقتنع الخليفة بكلامهم وقرر توجيه الحملة إليها وأمرهم بالاستعداد للمشاركة فيها بعتادهم ورجالهم مباشرة بعد انقضاء شهر رمضان (يوافق اليوم الأخير منه 26 مايو).

90- تناول ابن صاحب الصلاة بإسهاب هذه الحملة، التي شارك فيها. م. س.، ص. 371 وما يليها.

وكما كان مقرراً، خرج يوسف الأول بنفسه على رأس الحملة التي تركت اشبيلية [فجر]
الإثنين 11 شوال 567هـ (6 يونيو 1172م)، وفي يوم الأحد الموالي (12 يونيو) وصلت إلى
قرطبة حيث أمر بضرب المخيم على ربوة تطل على ميدان "فحص السرادق"[91] والمسيل
المحاذي لمدينة الزهراء[92].

وبعد أن قضى به ليلة الإثنين 13 يونيو، دخل المدينة والتي نزل فيها بالقصر القديم (قصر
الأمويين المجاور للمسجد الأعظم). وقد مكث بقرطبة أسبوعاً كاملاً (إلى غاية 20 يونيو)
خصصه لإتمام الاستعدادات المتعلقة بالحملة، قبل أن يغادرها على رأس قواته، حيث قضى
ليلته الأولى على بعد بضعة أميال منها، ثم واصل الطريق عبر الوادي الكبير مروراً بالقُصير
وأندوجر. وعند اقترابه من بياسة خرج لاستقباله ابن هَمُشْك الذي كان يحاصر حصن بلج
والذي سبق لابن مردنيش - بعد قطيعته مع ابن همشك - أن أرسل حامية مسيحية قامت
باحتلاله وذلك رغبة منه في الانتقام. وقد اقترح ابن همشك على الخليفة إثر اللقاء، توجيه كل
قواته في نفس ذلك اليوم ضد الحصن لإخضاعه. وعملاً بالنصيحة انطلقت القوات الموحدية
مباشرة نحو الحصن الذي وصلته مساء الجمعة 24 يونيو، وفي صبيحة اليوم الموالي، وبعد ان
شاهد أفراد الحامية المسيحية ذلك الجيش الجرار وهو يعد العدة لمهاجمتهم، أعلنوا
استسلامهم إثر وساطة ابن همشك الذي كلفه الخليفة بالمكوث به والدفاع عنه في حالة
الضرورة، في حين توجهت الحملة يوم الإثنين 2 ذي القعدة (26 يونيو) إلى حصن القصير الذي
كان ابن مردنيش قد تنازل عنه هو الآخر للمسيحيين. وبعد خمسة أيام من ذلك، أي في يوم الجمعة
6 ذي القعدة (30 يونيو) استسلمت القوات المسيحية الموجودة بهذا الحصن والذي عُهد بحمايته هو
الآخر لابن همشك[93].

91- كان يتم على عهد الأمويين تجميع الجيوش في هذا الميدان قبل انطلاق الحملات العسكرية، وحسب ابن حيان في المقتبس (الجزء الخامس، ص. 190). فإن "فحص السرادق" كان يمتد على سهل قرطبة من جهة الطريق المؤدية لوادي الحجارة.

92- ترجم انتونيا خطأً، سهول منطقة الزهراء بأبراج مدينة الزهراء، ومما يؤكد ذلك أنه خلال تلك المرحلة لم تكن هناك ابراج بمنطقة الزهراء، ثم انه إذا اعتبرنا أن المنطقة التي احتشد فيها الجنود تطل على الأبراج وليس على السهول، فإن الجملة ستكون لا معنى لها. انظر ترجمة "مانويل أنتونيا" M Antuna لهذا الباب من "المن بالإمامة" في: Campanas de los almohades en Espana. Ed. El Escorial, 1935

93 - حسب "التاريخ اللاتيني لملوك قشتالة"، بقي الحصن المذكور تحت سلطة الموحدين إلى أن استولى عليه عام 610هـ (1213م) الفونسو الثامن. م. س.، ص. 74.

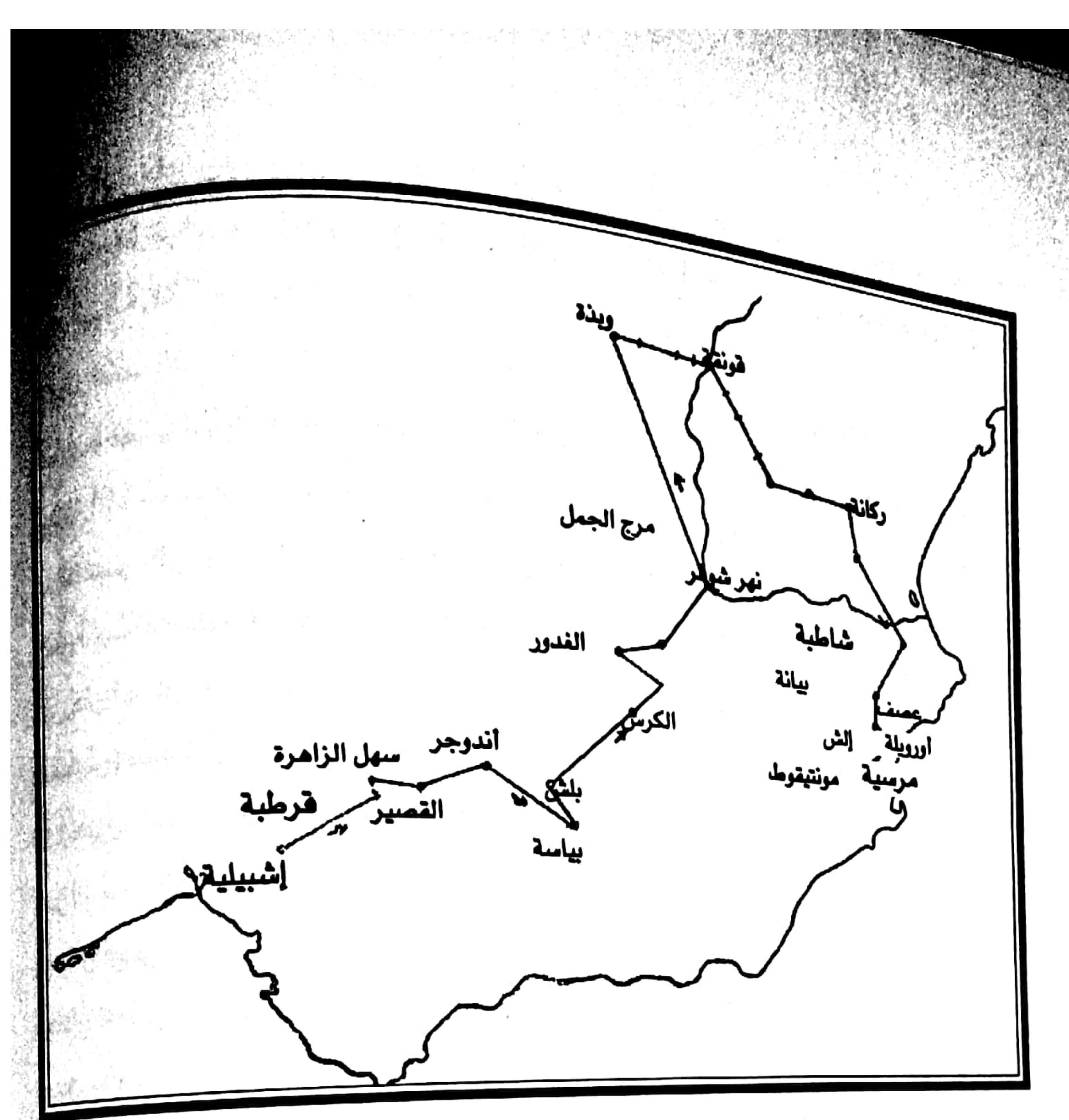
وفي اليوم الموالي (7 ذي القعدة) واصلت الحملة سيرها نحو منطقة بلاط الصوف المجاورة لوادي جنجالة الواقع على الحدود مع بلاد المسيحيين، حسب ما يخبرنا به ابن صاحب الصلاة الذي شارك في الحملة[94].

وقد قضت القوات المشكلة للحملة ليلة السبت في منطقة "الغُدُر"[95] التي ينبع منها نهر "وادي آنة"، بينما قضت ليلة الأحد 2 يوليوز في بلاط الصوف . وإثر تزودها بالمياه عبرت سهل "البسيط" يوم الثلاثاء، حيث وصلت إلى شوقر في نفس اليوم، وبعد أن استراحت يوم الأربعاء، واصلت السير يوم الخميس على امتداد النهر وذلك لتفادي أي خصاص في المياه. آنذاك أمر الخليفة أخاه السيد عثمان أن يسبقه على رأس فيلق مهم للإغارة على وبذة، وكان مشكلاً من الموحدين والعرب، وبجانب النُبَل كان الفيلق يضم حوالي اثني عشر ألف فارس. وقد واصل الفيلق السير في نفس اليوم (الخميس) طيلة النهار والليل، ومع مطلع الفجر دخل إلى الأراضي الفلاحية الواقعة تحت سيطرة المسيحيين، حيث باغت حصناً صغيراً يعرف باسم مرج الجمل[96] وقتل من وجد به من رجال ثم أسر النساء والأطفال. وكان دليل الفيلق منذ انفصل عن بقية القوات، القائد الأندلسي ابن عزون. وبعد أن أرسل السيد من يخبر الخليفة بهذا الانتصار الصغير، واصل السير على رأس الفيلق في اتجاه وبذة التي حط قبالتها يوم السبت 8 يوليوز. وقد أمر السيد قواته بأن تنتشر بشكل يلفت انتباه العدو، وهو ما سيجعل عددها المرتفع، حسب اعتقاده، يصيب حامية المدينة بالفزع والاحباط ويدفعها للاستسلام دون قتال، غير أن هذه الأخيرة خرجت للقتال بتصميم وهي عاقدة العزم على رد الموحدين على الرغم من العدد المتواضع من الفرسان والمشاة الذين يشكلونها حسب ابن صاحب الصلاة، الذي يضيف أن بعض العرب أظهروا رخاوة وضعف همة كانت سبباً في مقتلهم أثناء المواجهة، وبالتالي في فشل المسلمين في تحقيق الانتصار. وقد انسحب السيد مع قواته إثر ذلك وضرب مخيمه على التل المشرف على المدينة في انتظار مقدم الخليفة مع بقية القوات، والتي وصلت يوم الثلاثاء 11 يوليوز.

94- في الفصل الذي يخصصه ابن صاحب الصلاة للحملة، يقول في عنوانه إن الحملة وبعد أن استولت على حصني "بلج" و"القصير" قامت باجتياح حصني أوقليش وسرتة، لكن عند حديثه بنوع من التفصيل عن غارات الحملة لا يذكر اي شيء عن اجتياحها لهذين الحصنين. المن بالإمامة، م. س.، ص. 269-287.

95- يتعلق الأمر دون شك بغُدُر (جمع غدير) "روديرا" Ruidera التي ينبع منها نهر وادي آنة الأعلى.

96- مكان غير معروف اليوم.



• حملة الموحدين إلى قشتالة وحصار وبذة عام 1172م

حصار وبذة[97]

وكان الخليفة وهو على مشارف وبذة قد أمر قواته بحمل السلاح والاستعداد للمواجهة، وهكذا فبعد انضمام كل جندي إلى قوات القبيلة التي ينتمي إليها، صعد الجميع إلى التل الذي كان السيد عثمان قد ضرب به مخيمه[98]. وعلى مرأى من الخليفة وإخوته وغيرهم من المنحدرين

97- توجد وبذة في سفح سهل منحدر، تحميها من جهة الغرب حواجز طبيعية تمثلها التلال المتفرعة عن جبل "سيراثويلا" Sierrazuela وكان في أسفلها سهل خصب. انظر:
Curiosidades Historicas de la Ciudad de Huete. J J Amor .Madrid, 1904 .

98 - احتل الموحدون التل الذي يشرف على المدينة من جهة الغرب ثم سيطروا على السهل المجاور لها واضعين خيامهم بجوار البساتين واشجار الكروم.

من اعضاء جماعتي العشرة والخمسين وكذا من أقارب المهدي، وعلى ضربات الطبول (كان عددها يناهز المائة) والتكبير وترديد عبارات التوحيد، انطلق الهجوم حيث استولى الموحدون على البساتين الواقعة بالريض[99].

إثر ذلك عقد مجلسا حربيا بخيمة الخليفة الحمراء، تم خلاله عرض خطة الهجوم الموالي، التي وبناءً عليها، قام السيد عثمان وكل أفراد القيادة العليا رفقة الحرس، بجولة استطلاعية حول أسوار المدينة التي طوقت بالفيالق التي كان على رأس كل واحد منها أحد السادة. وفي مساء نفس اليوم كانت كل القوات المحاصرة في الأمكان التي حددت لها . وقد التجأ النصارى لحماية الريض إلى حفر خندقٍ خارج أسوار المدينة قاموا بتسييجه بالخشب الذي أخذوه من أبواب منازلهم.

وفي يومِ الأربعاء 12 يوليوز[100] ، وبعد أداء صلاة الفجر وتلاوة حزب من القرآن حسب ما تقتضيه السنة، وقيام السادة والشيوخ بتقديم التحية للخليفة، بدأ الموحدون بالتسلح وضبط الصفوف، إثر ذلك أعطيت الإشارة للشروع في الهجوم من خلال قرع الطبول المائة الموجودة مع القوات الموحدية.

وبما أن الريض لم تكن له أبواب، فقد غادره النصارى للاحتماء خلف الأسوار بعد أن اجتاز الموحدون الخندق. في تلك الأثناء قام ابن عزون بمهاجمة البرج الواقع بالزاوية الغربية للمدينة، إلا أن مقاومة المدافعين عنه حالت دون سقوطه بيده. إثر ذلك هاجم الكنيسة وأخذ منها سبعة أجراس، قبل أن يعود من جديد إلى الخليفة ليطلب منه إمدادات جديدة تساعده على احتلال البرج الذي كان بمثابة القاعدة الدفاعية للمدينة، غير أنه وجده خائضاً في حوار ديني مع أخيه عثمان وطلبة البلاط لذا لم يعر أهمية لطلبه، ولم يمتط -كما كان يتمنى ابن عزون- صهوة جواده ويخرج إلى الجنود ليشجعهم ويستحثهم على إعادة الكرة والقيام بالهجوم النهائي. نفس اللامبالاة لقيها ابن عزون من السيد عثمان القائد العام للجيوش الموحدية، لذا انسحب فاتر الهمة مع بقية قواته نحو أسوار المدينة، التي وصلوها بعد أذان الظهر، وهناك توقفوا عاجزين بعدما تأكد لهم استحالة حسم المواجهة لوحدهم ودون أي دعم إضافي[101].

99- إذا سلمنا أن الموحدين دخلوا في ذلك اليوم إلى الريض، فالمؤكد أنهم تركوه في نفس اليوم، لأن ابن صاحب الصلاة يؤكد أن النصارى قاموا بتحصينه بعد الهجوم الأول عليه. وقد قام الموحدون بتكرار الهجوم عليه بعد يومين من الهجوم الأول.

100- كتب المؤلف يوم 19 يوليوز، غير أن الراجح، حسب ما يؤكده تعاقب الأحداث، هو يوم 12 يوليوز (المترجم).

101- يوجد تناقض في رواية ابن صاحب الصلاة، فهو من جهة يقول إن المدينة لم تكن بها أبواب (ص. 496) كما لم يكن هناك من يدافع عنها لأن النصارى غادروا أسوارها حيث التجؤوا إلى القصبة تاركين كنائسهم عرضة للنهب، لكنه بعد ذلك يقول إن المسلمين ورغم تفوقهم العددي لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها مما حال دون استيلائهم عليها.

وبما أن الموحدين لم يحملوا معهم المجانيق و الأبراج المتحركة (الديدبان) والسلالم لتجاوز الأسوار، وهو ما يعني تعذر إخضاع المدينة دون حصار طويل الأمد[102]، فقد أمر الخليفة بضرب هذا الحصار وفي نفس الوقت بصنع المعدات الحربية اللازمة في عين المكان. وفي يوم الخميس 13 يوليوز وإثر انعقاد مجلس حربي، تقرر تكليف ربع الجيش للقيام بأعمال الحصاد وجمع المؤونة والكلأ من تلك المنطقة وذلك لضمان استمرار الحصار.

وفي ذلك اليوم نفسه جاء مبعوث من المدينة يعبر عن استعداد سكانها للاستسلام إذا ما منحوا الأمان، وبما أنه لم تتم المبالاة بطلبه فقد انسحب إلى حال سبيله، غير أنه عاد في ليلة نفس اليوم يلح في ذلك. ويرجع سبب عدم رغبة الموحدين في تلبية طلبه إلى تأكدهم من أن الاستسلام اللامشروط أصبح أمراً مؤكداً، إما عن طريق الهجوم أو عن طريق الحصار الذي سيجعل المحاصرين يعانون من العطش بعد أن حيل بينهم وبين موارد المياه.

وفي صباح الجمعة 14 يوليوز هبت عاصفة صيفية هوجاء مرفوقة برياح عاتية أزاحت الخيام من أماكنها مما أدى إلى اختلال النظام داخل المخيم، وللتخفيف من حدة العاصفة اضطر الموحدون وبشكل عشوائي لوضع سياجات من أشجار الفواكه. وفي اليوم الموالي عاد إلى المخيم الفيلق الذي كلف بالاغارة على الحقول محملاً بالحبوب والكلأ، وبفضل ذلك انخفض ثمن القمح والشعير داخل المخيم. وكان الفيلق العائد قد أسر أثناء الغارة ستة من المسيحيين ضربت رؤوس خمسة منهم. في تلك الأثناء التحق بالحملة الشيخ عمر ينتي رفقة يوسف بن مردنيش وقوات مرسية وبلنسية. وأمام تزايد عدد القوات الموحدية واشتداد الحصار ونفاد الماء، عاد المحاصرون لطلب الأمان من جديد غير أنهم لم يحصلوا عليه هذه المرة كذلك.

وفي مساء يوم الأحد 16 هبت عاصفة أقوى من التي هبت يوم الجمعة[103]، سببت خسائر أكبر من سابقتها داخل المخيم الموحدي، وبفضل تهاطل الأمطار تمكن المسيحيون من التزود بالماء والتخلص من شبح العطش الذي كان قد دفع بهم إلى التعبير عن استعدادهم للاستسلام.

وفي صباح يوم الإثنين 17 ، اتخذ الخليفة قراره بالشروع في الهجوم واجتياز الأسوار، لكن في الوقت الذي كان الجيش برمته على أهبة الانطلاق، تكررت العاصفة من جديد بنفس الحدة وكانت

102- كانت قد مرت خمسة أيام فقط على تمركز الموحدين قبالة المدينة.

103- تتحدث المصادر المسيحية عن عاصفة واحدة تجعلها في 19 يوليوز، يوم ميلاد الطفلتين "خوستا" Justa و"روفينا" Rufina واللتين أصبحتا فيما بعد قديستين بسبب ولادتهما في يوم هبوب العاصفة.

ترافقها أمطار طوفانية حالت دون القيام بالهجوم، وفي منتصف النهار انقشعت السحب لذا أمر الخليفة أن يبدأ الهجوم في المساء، غير أن تراخي القوات الموحدية التي قامت به، حال دون تحقيق الانتصار المنشود. وقد انشغل الخليفة لتراجع الرغبة القتالية لجنوده، واعتكف بسبب ذلك في خيمته ليلة اليوم الموالي -18 يوليوز- ، بحيث لم يستقبل حتى وزراءه وأفراد حاشيته. وفي ليلة ذلك اليوم خرج المحاصَرون وبطريقة جريئة نحو الجهة التي كانت قوات قبيلة هسكورة مكلفة بحصارها حيث اجبروها على الفرار و إخلاء مكانها. وعندما علم الخليفة بهذا، أمر بجلد الفارين عقاباً لهم.

وبسبب قلة المؤونة والكلأ، أعطيت في صبيحة يوم الخميس 20 يوليوز، الأوامر لثلث المحاصرين للخروج إلى الحقول المجاورة للبحث عنه، وكان يقودهم عبد الله بن تفرجين وإبراهيم ابن همشك. وتجدر الإشارة هنا إلى أن نقص التموين في المخيم، مرده أن الموحدين اعتادوا عدم حمل المؤونة الكافية خلال الحملات التي يعتقدون أنهم سوف يحققون خلالها انتصارات سريعة، على اعتبار أن تلك المؤونة سيحصلون عليها بنفس المكان بعد حسم المواجهة. وفي اليوم الموالي عاد الذين خرجوا بحثاً عن المؤونة خاويي الوفاض، في وقت نفدت فيه المؤونة تقريباً من المعسكر وهو ما أدى إلى ارتفاع الأسعار داخله بشكل كبير.

وفي يوم الجمعة 21 يوليوز، وأمام نقص المؤونة وفتور الهمة، خطب الشيخ عبد الواحد في كل القبائل المشاركة في الحملة بالعربية والأمازيغية يحثهم على الجهاد، غير أن ذلك كان دون فائدة. وأمام هذه التطورات غير المنتظرة بدأ التفكير بجدية في منح الأمان للمحاصرين، حيث أوفد الخليفة مبعوثه مرتين ليخبر بذلك حاكم المدينة[104]. وقد حاول هذا الأخير في المرة الأولى التملص باختلاق بعض الأعذار مثل عدم توفره على البذلة المناسبة التي تليق بمثوله أمام الخليفة، لكنه خلال المرة الثانية أخبر مبعوث هذا الأخير أنه تلقى رسالة من ألفونسو الثامن تفيد أنه بصدد جمع قواته والتوجه إلى وبذة من أجل تقديم النجدة اللازمة لها.

رفع الحصار وانسحاب الموحدين

وفي يوم السبت وبعدما علم الخليفة بالخبر، عقد مجلساً حربياً تقرر على إثره رفع الحصار، وفي نفس الليلة أمر بإضرام النيران في البرج الذي صنعه من الخشب بغية مراقبة ما يجري

104- يتعلق الأمر بابن الكونت "مانريكي دي لارا" Manrique de Larra الذي قتل ثماني سنوات إلى الوراء (في 11 يوليوز 1164م) من طرف "فرناندو رودريكيث دي كاسترو" Fernando Rodriguez de Castro الذي كان يقود كتيبة مدينة وبذة. بعد ذلك سوف يتم عزل "كاسترو" وستعود السلطة في وبذة إلى آل لارا. انظر: "التاريخ اللاتيني..."، م. س.، ص. 32.

داخل المدينة، كما أمر بإضرام النيران في بقية المعدات الأخرى التي كان ينوي استعمالها في اختراق المدينة، في نفس الوقت أمر الشخص المكلف بالدواب بأن يحمل عليها الأجراس التي أخذت من العدو. ومع إطلالة فجر يوم الأحد تم قرع الطبل الكبير إيذاناً برفع المخيم. ويظهر أن الانسحاب بهذه الطريقة العشوائية شجع المحاصرين على الخروج مرة ثانية ضد الموحدين حيث عبروا النهر وهاجموا المخيم وأضرموا النيران في الأكواخ والسياجات بل ووصلوا إلى غاية السوق الذي اقامه الموحدون بجانب المخيم، وقتلوا من تخلف به من مرضى ومنهكين. والحقيقة أن برودة الأعصاب التي واجه بها الخليفة وأخوه السيد عثمان الموقف حالت دون حدوث كارثة حقيقية، ذلك لأنه أمر ألا يبرح الجنود أماكنهم قبل أن ترفع كل الخيام وضمنها خيمته التي كانت آخر ما رُفع. كل هذا سمح بأن يتم الانسحاب بانتظام حال دون استفادة المحاصرين من الوضع رغم المحاولات التي قاموا بها، وكانت قبيلة تنملل هي أول من أذن لها بالانسحاب وكان على رأسها السيد عثمان الذي كان يمتطي صهوة جواده وهو مرتد درعه.

وقد أخذ الموحدون طريق قونقة[105]، وبعد ابتعادهم عن وبذة بحوالي ثلاثة أميال، ضربوا مخيمهم من جديد[106]، في وقت كانت فيه ساقة الجيش المدعمة بعناصر أندلسية تحاول ردع المحاصرين الذين أصروا على ملاحقتهم.

وفي يوم الإثنين 24 يوليوز تقدم الموحدون عشرة أميال أخرى إلى الأمام وقاموا بنهب قرية توجد في موقع جميل به مزارع كثيرة، بعد ذلك توجهوا إلى شوقر التي لا تبعد عن قونقة إلا مسافة ميلين، حيث وضعوا مخيمهم فوق بعض المرتفعات الواقعة غربها، وكان محمد بن مردنيش قد منح المسيحيين الأراضي المجاورة للمدينة والتي قاموا بزراعتها. وبعدما علم المسيحيون باقتراب وصول جيش يوسف الأول، وكان قد مر على بداية حصارهم لقونقة خمسة أشهر، رفعوا مخيمهم وانسحبوا.

ومع وصولهم قام الموحدون بالإغارة على الأراضي التي زرعها المسيحيون. وبعد أداء صلاة العصر دخل أمير المؤمنين رسمياً المدينة، وكان في استقباله ساكنتها المكونة من حوالي 700 نفر (بين محاربين ونساء وأطفال)، والذين خارت قواهم من جراء الحصار الطويل، لدرجة أصبحوا معها

105- مدينة تقع شمال غرب بلنسية. انظر معلومات عنها في "المن بالإمامة"، م. س.، ص. 504-510. (المترجم)

106- كان ذلك بجانب مورد للمياه، ويدل المسح الجغرافي الذي قمنا به أن الأمر يتعلق بـ "بوربوتون" Borboton أو "مايور" Mayor، ويعتبر "أنتونيا" أن الأمر يتعلق بمنبع نهر وبذة ، لكن المنبع المذكور لا يوجد في الطريق الشرقي المؤدي إلى قونقة وإنما في الطريق الغربي.

عبارة عن جثث آدمية متحركة. وقد رق الخليفة لحالهم ومنحهم هبات مالية، بحيث حصل كل جندي من الفرسان على 12 مثقالاً ومن المشاة على 8 وحصل النساء والأطفال على 4 مثاقيل للنفر، كما منحهم حوالي 60 بقرة وهو كل ما كان قد بقي مع الحملة. ولم يتردد كبار الشخصيات من جهتهم في تقديم بعض الهبات لهؤلاء المنكوبين. هذه الخطوة حمست الجميع لتقديم المساعدة بمن في ذلك الجنود الذين تنازل كل واحد منهم لسكان المدينة على مد إلا ربعاً من القمح والشعير.

وفي يوم الأربعاء 26 يوليوز أمر الخليفة بعض قواته بالخروج إلى الحقول قصد الاستيلاء على المحاصيل الفلاحية التي يجدونها بها، لكن عند وصولها إلى ممر جبلي ضيق مجاور لقونقة، اعترضت طريقها قوات مسيحية، وقد اعتقدت أن الأمر يتعلق بجيش ألفونسو الثامن والكونط "تونيو دي لارا" (القينط نونة ظئرة في المصادر العربية) لذا عادت لتوها إلى المعسكر الموحدي لتخبر الخليفة بذلك، دون أن تحمل معها شيئاً من المحاصيل الفلاحية. وقد أمر هذا الأخير عندئذ بنقل المخيم إلى نقطة تصبح معها شوقر في مكان وسط بينهم وبين النقطة التي ضرب فيها المسيحيون مخيمهم، لأجل ذلك توجب اجتياز النهر، غير أنه أثناء عملية العبور، أثار تياره المائي القوي الذعر بين الموحدين الذين حاولوا الوصول بسرعة ودون انتظام إلى الضفة الأخرى، وهو ما أدى إلى فقدانهم لبعض أمتعتهم.

من جهتهم تمركز المسيحيون بجبل تونبس[107] قبالة المكان الذي ضرب به الموحدون مخيمهم، بحيث لم يعد يفصل بين الجيشين غير النهر. وقد بقي كل طرف في مكانه دون أن يحرك ساكناً. وفي يوم الخميس 27 يوليوز عقد الموحدون مجلساً حربياً آخر تقرر على إثره شن الهجوم في صبيحة اليوم الموالي، لكن العرب المتعودين على القتال في المجالات المفتوحة اعتماداً على خطة الكر والفر، رفضوا ذلك على اعتبار أن النصارى كانوا متحصنين في جبل شديد الانحدار، بخلاف ذلك عبر بقية الموحدين ومعهم القوات الأندلسية عن استعدادهم للقتال بحيث وصل الأمر بفيلق يقوده ابن عزون إلى حد الدخول في مناوشات خفيفة مع المسيحيين. ورغم أن موقف العرب أجبر الخليفة على تأجيل الهجوم، فإن هذا كان بشكل مؤقت فقط، ذلك لأنه استعرض قواته يوم السبت 29 من أجل الدخول في المواجهة. وكما هي عادته أرسل فجراً فصيلة يقودها ابن عزون لتقصي أخبار العدو، وقد عاد هذا الأخير في ضحى نفس اليوم ليخبره بأن المسيحيين رفعوا مخيمهم وعادوا إلى

107- المن بالإمامة، م. س.، ص. 507. حسب انتونيا، يقصد ابن صاحب الصلاة دون شك جبل "طورقاس" Torcas والذي يعرف اليوم باسم "مونتيس دي لوس بلانكاريس" Montes de los Palancares.

بلادهم. إثر ذلك قام الموحدون بنفس الشيء حيث رفعوا مخيمهم الموجود بجبل الصومعة على مسافة عشر كلمترات من "قونقة". وكان المخيم يعرف خصاصاً كبيراً في المؤونة لدرجة وصل معها في تلك الليلة ثمن المد الواحد من القمح والشعير إلى دينارين. وفي يوم الأحد 30 يوليوز واصل الجيش السير، وكان عليه أن يقطع مسافة 16 ميلاً؛ إذ لم يتوقف إلا عند نهر تامطة. وأثناء الرحلة تاه المكلفون بالأمتعة عن بقية الجيش، والذي أصبح بين عشية وضحاها دون خيام ولا أمتعة ولا مؤونة. ومع ذلك اضطر في اليوم الموالي إلى قطع مسافة 12 ميلاً أخرى، حيث ضرب مخيمه بجوار وادي برج الواقع بطريق بلنسية. ورغم التحاق المكلفين بالأمتعة ببقية الجيش بعد ذلك، فإن هذا الأخير عانى من الجوع والإرهاق بشكل أدى إلى وفاة عدد من عناصره إضافة إلى الدواب.

وفي مساء الثلاثاء فاتح غشت تم استعراض كل الجيش للتأكد من عدم تخلف أي من الفصائل التي تشكله، ومع إطلالة فجر اليوم الموالي استأنف السير، وبعد عبور المنحدر الوعر المعروف باسم "عقبة الأباليس"، واصل السير إلى أن وصل إلى قنطرة جبريل. وبسبب الإرهاق والجوع مات هنا كذلك عدد من الدواب، ولم يكن الجنود بأحسن حالاً من الدواب بحيث إن الجوع والإرهاق تمكنا بشكل كامل من عدد منهم. في هذه الأثناء فقط وبعد أن وصلت الأمور إلى هذا الحد، تم منحهم أجورهم المتأخرة عن الشهرين الماضيين (لم يتقاضوها منذ بداية الحملة) بحيث حصل الفرسان على خمسة مثاقيل والمشاة على مثقالين. وقد ارتفع ذلك اليوم ثمن المد الواحد من القمح داخل المخيم إلى ثلاثة دراهم.

وفي يوم عيد الأضحى -الخميس 3 غشت- ومباشرة بعد الاحتفال بالعيد، رفع المخيم، وكان على الحملة أن تقطع خمسة عشر ميلاً أخرى، بحيث ضُرب هذه المرة بمرج القبداد[108] الواقع بجوار قلعة ركانة، التي انتقل إليها الموحدون في اليوم الموالي، في وقت ضرب فيه الجوع أطنابه من جديد في المخيم بسبب الخصاص الشامل الذي كان يعرفه. وفي يوم السبت 5 غشت وفي هذه الظروف الصعبة، ضل الطريق بعض قادة الجيش مما أجبر الخليفة وأخاه السيد عثمان، من أجل البحث عنهم، على المرور بطريقين مختلفين دون أن يحملا معهما الأمتعة والمؤونة. وقد التقيا بعد ذلك في مكان يعرف باسم "مجمع الأودية" ضربوا عنده مخيمهم[109]، في وقت كاد ينفدُ فيه القمح والشعير من المخيم، لدرجة أن ثمن المد الواحد منه وصل إلى أربعة دراهم.

108- يعرف اليوم باسم سهل "كواداليتي دي لاس فوينتيس" Guadalete de las fuentes.

109- يلتقي عنده فقط نهرا "خوكار" Jucar و "جبريل" Gabriel دون "سيتي اغواس" Siete Aguas كما يظن "انتونيا" Antuna.

وفي اليوم الموالي (الأحد 6 غشت) استأنفت الحملة سيرها، غير أنها وبسبب وعورة الطريق لم تتمكن من أن تقطع أكثر من سبعة أميال، وعند الوصول إلى جوار "بنيول"، غادر المعسكر الوحدي معظم جنود جنوب وشرق الأندلس المشاركين في الحملة، والذين عادوا إلى بلنسية وغيرها من المناطق التي ينتمون إليها بحثاً عن المؤونة، ولم يخفف من حالة الخصاص التي كان يعرفها المعسكر غير وصول قافلة مهمة محملة بالدقيق والشعير -في نفس يوم الأحد- أرسلها عامل بلنسية يوسف بن مردنيش[110].

وبعد أربعة أيام من مغادرته حصن بنيول وصل الخليفة مدينة شاطبة التي دخل قصبتها يوم الخميس 10 غشت، وفي يوم الجمعة وبعد أن أدى الصلاة بمسجدها الرئيسي اجتمع بالشيوخ. وقد استأنف السير يوم السبت غير أنه لم يتم قطع غير مسافة قصيرة، وذلك بهدف منح فرصة أكبر للجنود من أجل الاستراحة. وفي يوم الأحد 13، انتقلت الحملة إلى بليانة، وفي اليوم الموالي إلى حصن عصف ثم إلى إلج يوم الثلاثاء فإلى "أوريولة" يوم الأربعاء، وفي يوم الخميس وبعد توقف قصير وقت الضحى في مونتيقوط[111]، انتقلت إلى مرسية حيث نزل الخليفة بقصرها الملكي وكان محاطاً بجميع مظاهر العظمة والأبهة. وقد استقبل هلال بن مردنيش وبقية أهالي المدينة القوات الموحدية بحفاوة كبيرة كما لو تعلق الأمر بعودتهم من حملة مظفرة.

وبعد أسبوعين من ذلك، وبالضبط في فاتح محرم (23 غشت 1172م) رُخص لمعظم القوات المشكلة للحملة بما في ذلك النظامية منها، بالعودة إلى حال سبيلها وذلك بسبب الخصاص الذي أصبحوا عرضة له في مرسية، بعد مرور الأيام الأولى التي استمتعوا فيها بكرم ضيافة أهالي المدينة. وقبل تسريحهم تقاضى الفرسان المسلحون تسليحاً كاملاً، خمسة مثاقيل، ومَن دونهم تسليحاً، أربعة مثاقيل، ومثقالين للمشاة المسلحين تسليحاً كاملاً، ونصف مثقال لمن دونهم تسليحاً.

وقد مكث الخليفة في مرسية مع حاشيته وشيوخ الموحدين طيلة شهري محرم وصفر، ومع إطلالة هذا الشهر الأخير (يوافق اليوم الأول منه 2 شتمبر) شَرع في تنظيم قواته من جديد وفي ضبط عملية مراقبة الحدود، في وقت متن فيه أواصر الصداقة مع أبناء ابن مردنيش الذين

110- يرجع النويري في كتابه نهاية الأرب في فنون الأدب، سبب الفشل الذي مني به الموحدون في ويذة إلى الخصاص الذي عرفته الأندلس تلك السنة، ويؤكد مؤلف " El Cronicon Conimbrencense " ذلك عندما يقول إن العالم عرف خلال تلك السنة مجاعة لم يعرف مثلها منذ نشوء الخليقة.

111- يقول " انتونيا" خطأً إن الحملة توقفت بمونتيقوط فجر يوم الخميس.

أجزل لهم العطاء وأغرقهم بكرمه، بل قربهم منه وجعلهم ضمن صفوة الموحدين عندما أمرهم بالاستعداد من أجل مرافقته إلى مراكش ليصبحوا جزءاً من خاصته، في ذات الحين زكى أحدهم (يوسف بن مردنيش) عاملاً على بلنسية.

وفي فاتح ربيع الأول (21 أكتوبر 1172م) غادر الخليفة مرسية عبر غرناطة، التي بقي بها عاملها، أخوه السيد عثمان، وفي 18 من نفس الشهر (7 نوفمبر) وصل إلى اشبيلية. وقد أنزل آل ابن مردنيش الذين يرافقونه في قصر المعتمد بن عباد ومنازل أخرى ابتاعها لهم، في نفس الوقت عين غانم بن مردنيش قائداً على جيش الأندلس[112] وهلال بن مردنيش وبقية إخوته البالغين أعضاء في مجلس الخلافة.

احتلال البرتغاليين لباجة

بعد فشل البرتغاليين في احتلال بطليوس وبعد المرض الذي أقعد ملكهم، توقفوا لمدة ثلاث سنوات امتدت إلى صيف 1172م عن القيام بغارات ضد الموحدين. وسوف تتجدد هجوماتهم في صيف تلك السنة، وكان ذلك في نفس الوقت الذي وجه فيه يوسف الأول حملته الكبيرة ضد وبذة، وهكذا قام "خيراردو سام بابور" بغارة من غاراته الجريئة، استهدفت هذه المرة مدينة "باجة" التي احتلها يوم 23 غشت (فاتح محرم 568هـ)، أي في نفس اليوم الذي سرح فيه الخليفة جيشه منهار المعنويات.

ويقدم لنا مؤلف البيان المغرب بالإضافة إلى تاريخ الهجوم على باجة، وصفاً دقيقاً للطريقة التي تم بها؛ فقد انطلق من جهة البرج المقابل لباب القصبة والمعروف باسم برج الحمامة، وكان يتولى حراسته خفير يتقاضى أجرة يومية قيمتها قيراط واحد، غير أن عامل المدينة عمر بن سحنون

112- يشيد ابن صاحب الصلاة إشادة كبيرة بغانم بن مردنيش، ويقول إنه ومن منصبه الجديد قاد الجيوش الأندلسية في غارات ناجحة ضد المسيحيين استهدفت في البداية طليطلة و"طلبيرة" ثم بعد ذلك "آبلة" ، والتي اجبر قواتها على الدخول في مواجهة معه. ويضيف أن قوات "آبلة" أثارت إعجاب قادة الجيش النظامي وقادة القبائل العربية التي أصبحوا يقلدونها. غير أن المعطيات التي بين أيدينا تجعل ما ذهب إليه ابن صاحب الصلاة، فيما يتعلق بتحديد تاريخ الغارات التي قادها غانم بن مردنيش أمراً متعذراً ، ذلك لأن يوسف الأول عين غانماً على رأس القوات الأندلسية بعد وصوله إلى إشبيلية في شتاء 1172م (7 نوفمبر)، في هذا الوقت كان الكونط "خيمينو" Gimeno ومجلس آبلة والقوات الكنسية قد توغلوا في الأندلس عبر الوادي الكبير، مما يعني أنهم لم يخرجوا لرد غارة ابن مردنيش على آبلة، وبالتالي فالاحتمال الأرجح هو أن تكون الغارات التي قام بها هذا الأخير لصالح الموحدين على آبلة وطليطلة وطلبيرة، قد تمت بعد الغارة المسيحية التي قادها الكونط "خيمينو".

حرمه من تلك الأجرة مما جعل الخفير يترك البرج المذكور، وهو ما استغله المسيحيون الذين تمكنوا من الوصول في إحدى الليالي الظلماء إلى أسوار المدينة التي تسلقوها دون أن ينتبه إليهم أحد، ووضعوا السلالم بالممر المؤدي إلى البرج غير المخفور. في تلك اللحظة تنبه الحراس الذين بدؤوا بالصياح بأعلى صوتهم منذرين بالخطر، وقتئذ فقط استيقظ العامل من نومه العميق، وتوجه إلى باب القصبة، لكن المسيحيين كانوا قد استولوا عليها وفتحوها لبقية قواتهم، والتي أدى دخولها المدينة إلى انتشار حالة من الهلع والفوضى بين سكانها الذين فروا عبر أبوابها، حيث تمكنوا من النجاة دون أن يسقط بينهم أعداد مهمة من القتلى والجرحى. أمام هذه التطورات لم يبق أمام عمر بن سحنون غير تسلق أسوار المدينة والفرار على قدميه إلى مرتلة.

وعندما دخل ألفونسو هنريكيث باجة -عقب الغارة التي قام بها خيراردو- لاحظ أنه لن يكون في مقدوره الاحتفاظ بها، أولاً بسبب كبرها وشساعة أطرافها، وثانياً بسبب بعدها عن مملكته، لذا قرر مغادرتها، لكن بعد أن أضرم فيها النيران ودمر أسوارها وحمل معه الكثير من أهاليها أسرى. حدث ذلك حسب صاحب البيان المغرب في فاتح يناير 1173 م، بعد ثمانية أشهر وثمانية أيام من احتلالها.

ويجعل ابن صاحب الصلاة وكذا مؤلف كتاب "تاريخ الملوك السبعة الأوائل للبرتغال" احتلالها قبل التاريخ أعلاه الذي أورده صاحب البيان المغرب، وهكذا فابن صاحب الصلاة وفي سياق حديثه عن الانتصارات التي حققها "خيراردو سام بابور" يقول إن احتلاله للمدينة كان ليلة السبت 22 ذي الحجة 558هـ (فاتح ديسمبر 1162م)، لكنه في مكان آخر يقول إن أول غارة وجهها "خيراردو" ضد الموحدين، وكانت على ترجالة، حدثت في التاريخ الهجري الذي يوافق ربيع 1165م، وقد تلتها حسبه في نفس تلك السنة ثم في ربيع السنة الموالية غارات أخرى استهدفت يابرة وشيرية وقاصرش ومنتاجش. إن هذا يجعلنا نعتقد أن هجوم خيراردو على "باجة" حدث عام 567هـ وليس في 558هـ كما يذهب ابن صاحب الصلاة، ومما يدعم هذا الاحتمال، أنه في 567هـ كان يوم السبت يوافق 22 ذي الحجة، في حين هو غير ذلك بالنسبة لسنة 558هـ، زد على هذا أن التاريخ الذي نعتقد أن الهجوم وقع فيه لا يتوافق مع ذاك الذي أورده البيان المغرب إلا بأسبوع واحد. هناك شيء آخر تجب الإشارة إليه هنا، وهو أن ابن صاحب الصلاة لا يذكر، فيما حفظ من كتابه، احتلال باجة إلا بشكل عرضي، وهو ما لا يستبعد معه أن يكون قد عاد للتطرق لاحتلالها بنوع من التفصيل في الجزء الثالث من الكتاب والذي يعتبر لحد الآن مفقوداً، وهنا لا نستبعد أن يكون البيان المغرب قد نقل عن هذا الجزء المفقود، كما فعل مع الأجزاء الأخرى، وإن كان لا يشير أبدا إلى ذلك.

باجة (التحصينات القديمة والجديدة)

Scanned by CamScanner

وفيما يتعلق بالمصادر التي تجعل احتلال باجة في 1150م أو في 1155م، فإن الربط بين الأحداث يؤكد لنا عدم صحتها، لأن ألفونسو هنريكيث لم يكن يفكر خلال هذه المرحلة بل وحتى بعدها بقليل في غير احتلال منطقة قصر أبي دانس (قصر الملح) ، ومن أجل ذلك أرسل عام 1151م سفارة إلى إنجلترا على رأسها مطران لشبونة، كانت الغاية منها إقناع حكامها بالمشاركة في حملة صليبية ضد مسلمي شبه الجزيرة الإيبيرية، وقد تم بالفعل وبمساعدة السفن الإنجليزية محاصرة "قصر الملح" مرتين لكن دون نتيجة، ولم يتم احتلاله إلا في 24 يونيو 1160م بعد محاصرته لمدة شهرين كاملين. ويجعل صاحب "التاريخ البرتغالي" خطأً احتلال قصر أبي دانس عام 1158م، وهو نفس الخطأ الذي وقع فيه "هركولانو" Herculano وغيره من المؤرخين المتأخرين الذين نقلوا عن المصدر المذكور. ومما يؤكد الخطأ كون "التاريخ البرتغالي" نفسه يخبرنا أن الاحتلال تم في السنة الثانية والثلاثين من حكم ألفونسو هنريكيث، والسنة الثالثة من وفاة الملكة "متيلدي" Matilde. ويخبرنا ابن الأبار من جهته، وهو أكثر دقة في ضبط تواريخ الأحداث من مؤلف "التاريخ البرتغالي" عند إيراده لترجمة محمد بن سيدراي، أن احتلال "قصر الملح" تم عام 555هـ (1160م)، وهذا ما يؤكده "كوندي" Conde كذلك، ودون إشارة إلى المصدر، عند قوله إن المسيحيين احتلوا عام 1160م "قصر الفتح" (يقصد قصر الملح) الواقع غرب الأندلس، والذي كان يطلق عليه كذلك -حسبه- وقت احتلاله، اسم "قصر أبي دانس"، وأنهم ذبحوا كل من كان يقوم بالدفاع عنه.

غارة الكونط الأحدب
وتوقيع الهدنة مع قشتالة والبرتغال

لم يقم الموحدون بأية محاولة لاستعادة باجة من البرتغاليين، وهكذا حل فصل شتاء 1172م دون أن يحركوا ساكناً. وقد استغل ذلك الكونط خيمينو الأبلي المعروف بالأحدب، والذي يلقبه المسلمون بسبب تلك العاهة بأبي البردعة[113]، وقاد رجاله في غارة على اشبيلية تمت ما بين 18 مارس و15 أبريل 1173م. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتدخل فيها بأراضي المسلمين، فقد قام بذلك في شبابه وكهولته ثم بعدما تقدمت به السن، وكان يصل في غاراته إلى غاية طريفة والجزيرة الخضراء.

113- يقول مؤلف روض القرطاس إنه سمي كذلك لأنه كان يضع فوق مطيته بردعة من الحرير منسوجة بالذهب ومكللة بأصفاد الجواهر. م. س.، ص. 187.

وخلال الغارة التي نحن بصددها، اجتاز الوادي الكبير انطلاقاً من المعبر الموجود بين منطقتي نخلة النهر والجرف وهاجم لتوه استجة والمناطق القروية الواقعة جنوب قرطبة، حيث استولى على 50 ألف رأس من الغنم و200 رأس من البقر كما أسر حولي 150 شخصاً، قبل أن يعود إلى بلاده عبر معبر القتبانية المجاور لحصن القصير.

وكرد فعل على ذلك، جهز الخليفة جيشاً وضع على رأسه أخاه السيد إسماعيل[114] الذي خرج ضد أبي البردعة يوم الخميس 13 شعبان (30 مارس)، حيث اجتاز الوادي الكبير انطلاقاً من معبر القتبانية وواصل السير إلى أن وصل إلى قرطبة، وكان ذلك في الثاني من أبريل. ولما علم أن المسيحيين اجتازوا في اليوم السابق معبر القصير، قرر مغادرة المدينة لتوه من أجل مطاردتهم. وفي مساء نفس اليوم (2 أبريل) انضم إلى طليعة الجيش، الشيخ عمر ينتي الذي لا يعرف الكلل، حيث تم الانتقال إلى بطروج التي وجدها الجيش الموحدي فارغة بعد أن هجرها سكانها. وقد تُرك هناك الجنود الذين لم يعد بإمكانهم مواصلة السير بسبب حالة الإرهاق الشديد التي كانوا عليها، بينما واصلت بقية القوات طريقها مقتفية أثر العدو، وكان يقود عملية الاستطلاع والمطاردة هذه، عامل يابرة موسى بن حمو الصنهاجي.

وفي يوم الأربعاء 19 شعبان (15 أبريل) وبعد أن قضى المسيحيون ليلتهم في سهل كركوى المجاور لقلعة رباح، واصلوا السير لكن بإيقاع بطيء بعد أن اطمأنوا لعدم وجود أي خطر. ولما علم بذلك موسى بن حمو الصنهاجي نقل الخبر في الحال إلى بقية القوات حيث تقرر مهاجمة المسيحيين، ورغم محاولة هؤلاء الرفع من إيقاع سيرهم، فإنه لم يعد بإمكانهم تفادي العدو الذي أصبح قريباً جداً منهم، لدرجة أنه كان يشاهدهم بالعين المجردة عند مرورهم بالفجاج والوُهدان. وأمام إدراكهم بأنهم أصبحوا في متناول الموحدين لم يجدوا بداً من الاحتماء بجبل في المنطقة كانت تكسوه الأشجار.

إثر ذلك جمع أبو البردعة رجاله، وبعد أن خطب فيهم، بدأ القتال الذي استمر بشكل عنيف طيلة الصباح، وكان يراقبه من خيمته التي نجح الموحدون في الوصول إليها وقتله بها، في وقت لم يتمكن فيه من النجاة أكثر من مائتي جندي مسيحي. وقد استعاد المنتصرون كل الغنائم

114- يقدم نفس المصدر رواية مختلفة نعتقد أنها تجانب ماحدث، فحسبه أرسل الخليفة ابنه زكريا ضد بلاد النصارى، وقد وصل الأمير إلى غاية طليطلة، وقام بالقتل والنهب وإضرام النيران في مختلف القرى التي مر بها، أثناء ذلك خرج ضده زعيم الروم المعروف بأبي بردعة، وقد نشبت بين الجيشين معركة طاحنة قتل على إثرها زعيم الروم وكل رجاله، ص. 187.

كما حرروا الأسرى. وفي مساء نفس اليوم أُرسل رأس أبي البردعة على وجه السرعة إلى اشبيلية، بحيث قضى حاملوه كل مساء وليلة ذلك اليوم على صهوات جيادهم، وهو ما سمح لهم بالوصول في صبيحة اليوم الموالي إلى قرطبة ثم في مسائه إلى اشبيلية، وفي اليوم الثالث من تحقيق الانتصار (الجمعة 7 أبريل) مثلوا بين يدي الخليفة، قبل أن يُنظم يوم السبت احتفال رسمي بالمناسبة ألقيت فيه، وكما هو التقليد، الخطب والقصائد الحماسية[115].

بعد ذلك بدأ التفكير في تموين بطليوس من جديد وفي القيام بحملة تأديبية على طلبيرة، وقد كلف فيلق من 400 فارس من الموحدين والعرب والأندلسيين بحراسة القافلة التي أرسلت إلى بطليوس وكانت تضم ثلاثة آلاف دابة محملة بالأسلحة بالإضافة إلى الدقيق ومؤن أخرى. ومن بطليوس توجه الفيلق إلى طلبيرة التي أغار عليها، حيث استولى على ما يزيد عن ثلاثين ألف رأس من الماشية كما أسر عدداً من المسيحيين قبل أن ينسحب سالماً.

وخلال فصل الربيع ذاته تم القيام بغارة أخرى استهدفت هذه المرة طليطلة، ولم يجد المغيرون هنا كذلك أية مقاومة، في وقت اضطر فيه الكونط "نونيو دي لارا" لإرسال مبعوثيه إلى اشبيلية لطلب الهدنة، وهو نفس ما سعى إليه ملك البرتغال الفونسو هنريكيث. وقد حلت البعثتان باشبيلية في ذي الحجة 568هـ (يوافق يومه الأول 14 يوليوز ويومه الأخير 11 غشت)، واستمرت المفاوضات لمدة شهرين تكللت بقبول الخليفة توقيع الهدنة، خصوصاً وأنه كان يريد تكريس وقته لتعمير المناطق الفارغة من البلاد والاستعداد لأي هجوم مباغت يمكن أن يشنه "خيراردو سام بابور" انطلاقاً من المناطق الحدودية بغرب الأندلس. من جهتهم فإن القشتاليين الذين أقاموا تحالفاً مع أراغون، حرصوا على توقيع الهدنة مع الموحدين حتى يتسنى لهم التهييء للهجوم الكاسح الذي كانوا ينوون القيام به في صيف تلك السنة (1173 م) على نبرة، والتي سبق لملكها سانشو السادس (خال ألفونسو الثامن) أن استولى على أراض شاسعة من مملكة قشتالة عندما كان ابن أخته لايزال قاصراً. وسوف يتمكن ألفونسو من خلال ذلك الهجوم من احتلال "نبرتي" و"بريفيسكة" و"لوكرونيو" والوصول إلى مشارف "بمبلونة"، بعد أن هزم ملك "نبرة" في معركة حامية الوطيس.

115- كتب الخليفة بالمناسبة رسالة رسمية يخبر فيها بالانتصار الذي حققه الموحدون، كما يخبر بأنه بالإضافة إلى حامية مدينة آبلة شاركت في القتال قوات أخرى، وأن الموحدين استولوا على أعداد كبيرة من رؤوس الغنم بمنطقة إستجة، وتذكر الرسالة كذلك بالطريق التي سلكتها القوات الموحدية التي حققت الانتصار، حيث مرت عبر الحقول الواقعة جنوب قرطبة والمؤدية إلى "مونتورو" Montoro، وفي الأخير تحدد المكان الذي وقعت فيه المواجهة والذي يسمى حسبها بفحص الهلال (تعذر علينا تحديد هذا المكان بالضبط).

ولم يكن حرص ألفونسو هنريكيث على توقيع الهدنة مع الموحدين بأقل من حرص ألفونسو الثامن، وهكذا أخلى باجة وكان يتخوف إذا ما مكث بها أن يوجه الموحدون كل ثقلهم ضده رغبة منهم في الانتقام. وقد نجح مبعوثوه إلى اشبيلية في توقيع هدنة مدتها خمس سنوات، قبل أن يعودوا في شهر صفر 569هـ (سبتمبر-أكتوبر 1173م) إلى "قلمرية" .

في تلك الأثناء انضم "خيراردو سام بابور" إلى صفوف الموحدين بعدما أعلن خضوعه لهم. ونجد تفسيراً لهذا الانضمام -الذي أسال الكثير من المداد على اعتبار أنه أمر غير عاد- في العادات الفيودالية التي تفرض على كل قائد الولاء لملك ما؛ فبما أن توقيع الموحدين للهدنتين مع قشتالة والبرتغال جعل قيام خيراردو بأية غارة باسم أحد الملكين على الحدود الإسلامية أمراً متعذراً، وبما أنه كان واعياً أن جنوده لن يحافظوا على وفائهم له لأنه لم يكن يمتلك الاقطاعات التي يمكن أن يغريهم بها بعد أن تنازل عقب أسره في بطليوس، عن كل الأراضي التي قام بغزوها من قبل لفائدة "فرناندو رودريكيث دي كاسترو" Fernando Rodriguez de Castro، وبما أنه انسحب من باجة وكانت آخر ما قام باحتلاله، فإنه وسيراً على عادات ذلك العصر وتقليداً لـ "السيد القنبيطور" El Cid Campeador[116]، اضطر ورجاله الثلاثمئة والخمسين، وضماناً لقوت يومهم، اعلان ولائهم للخليفة الذي رافقوه إلى مراكش إثر عودته إلى المغرب في مارس 1176م.

وقد عينه الخليفة بعد ذلك على رأس حامية سوس العسكرية حيث بقي هناك مدة من الزمن كانت له خلالها -حسب أحد المصادر- مراسلات مع الفونسو هنريكيث، اقترح عليه من خلالها تجهيز أسطول حربي والاستيلاء بواسطته على ساحل وادي سوس الخصب الفسيح وإنشاء مستعمرة برتغالية على الساحل المغربي. هذه المراسلات دليل على أن انضمامه إلى صفوف الموحدين ومرافقته لهم إلى تلك البلاد البعيدة لا يرجع إلى قطيعته مع ملكه. ويشير صاحب البيان المغرب من جهته إلى أن ألفونسو هنريكيث هو الذي كاتب "خيراردو" مرات متعددة، يخبره بحنينه إلى خدماته ويستحثه على العودة إلى وطنه. ويظهر أن الروايتين صحيحتان خصوصاً وأنهما لا تتعارضان. وقد وقعت هذه المراسلات في يد الموحدين، ونظراً لما كانت تعنيه دعوة خيراردو لهنريكيث بالقيام بحملة ضد ساحل سوس من خيانة للخليفة، فقد تم نقله إلى سجلماسة وبعد عزله عن رجاله دبر عامل درعة مؤامرة تمكن بواسطتها من اغتياله.

116- سبق التعريف به في الفصل الأول من الكتاب (المترجم).

إعادة تعمير باجة وإعلان الحرب على ليون

استغل يوسف الأول الهدنة الموقعة مع قشتالة والبرتغال وكذا الانتصار الذي حققه على ليون، ليقوم بإعادة تعمير باجة والحصون المجاورة لها، ومن أجل ذلك بعث رسائل إلى المسؤولين بمختلف جهات الأندلس التي فر إليها سكان باجة يدعوهم من خلالها إلى إبلاغ الفارين بإمكانية العودة إلى مدينتهم. وقد استقبل الخليفة العائدين استقبالاً رسمياً يوم السبت 16 كتوبر 1174م وجعل رهن إشارتهم حامية موحدية، كما أمر عامل المدينة الجديد أبا علي بن تيمصلت وعامل شيرية أبا بكر ابن وزير بجمع العمال والجنود والذين نقلوا إليها يوم 3 نوفمبر للمساهمة في ترميم القصبة وحماية المدينة، والتي التحق بها في 29 من نفس الشهر حوالي مائتي شخص آخر من الفارين، والذين ساهموا بدورهم في ترميم القصبة التي استقروا بها. وبعد الانتهاء من ترميم ما تدمر من المدينة وكان ذلك في أواخر مارس 1175م، شرع في ترميم أسوارها.

من جهة أخرى، وقبل الهدنتين اللتين وقعهما الموحدون مع مملكتي قشتالة والبرتغال، وقعوا سنة 1169 م، وعلى إثر حصار بطليوس من طرف البرتغاليين، هدنة مع ملك ليون، التزم بها هذا الأخير إلى غاية 1174 م حيث بدأ بشن عدة غارات على الأندلس، جعلته في حالة حرب مع الموحدين استمرت إلى 1178 م. ونجهل السبب الذي دفع بملك ليون إلى إلغاء الهدنة، فإرجاع ذلك فقط لرفضه للهدنة التي وقعها يوسف الأول مع ملك قشتالة هو أمر غير مقنع، على اعتبار أن إلغاء الهدنة كان يعني أن مملكة ليون ستجد نفسها مجبرة على فتح جبهة ثالثة للقتال تنضاف إلى الجبهتين اللتين تقاتل فيهما ضد البرتغال ثم ضد ألفونسو الثامن وآل "لارا" (ظئره في المصادر العربية).

وقد حاصر السيد عمر في 3 صفر 570هـ (3 سبتمبر 1174م) "ثيوداد رودريكو" (مدينة رودريق) وكان يرافقه أثناء الحصار "فرناندو رودريكيث" القشتالي الذي أصبح من أتباع الموحدين. ورغم أن الحصار لم يحقق النتائج المتوخاة، فإنه سمح للسيد بالاستيلاء على مدينتي القنطرة وناضوش[117]. ولم يقم ملك ليون بأي رد فعل على ذلك طيلة السنتين المواليتين (1175م-1176م). وفي يناير 1177م بدأ القشتاليون بمحاصرة "قونقة" وهو ما رد عليه السيدان

117- يجعل ابن الأبار تاريخ الحصار عام 569 هـ ويورد القصيدة التي قيلت بمناسبة الحملة على "ثيوداد رودريغو". الجزء الخامس ص. 26 و 232، من جهة أخرى يتحدث صاحب روض القرطاس عن حملة وجهها الموحدون إلى شرق الأندلس يقول إنها استهدفت مدينة قرقونة، غير أن ما يذهب إليه لا نجده في أي مصدر آخر مما يجعلنا نعتقد أنه يقصد "ثيوداد رودريغو"، لأن مدينة قرقونة لاوجود لها أصلاً، كما أن المعطيات التي بين أيدينا تجعلنا نستبعد أن يكون الأمر يتعلق بـ"طرثونة" Tarazona .

عاملا قرطبة واشبيلية بغارة على "طلبيرة" في ربيع نفس السنة. وفي شهر يونيو التقى ملوك قشتالة وليون وأراغون في طرثونة. وإذا كنا نجهل جزئيات هذا الاجتماع، فإننا نعلم أن موضوعه الأساسي كان هو تقديم أراغون الدعم لألفونسو الثامن في حصاره لقونقة، ولفرناندو الثاني في غاراته على أراضي الأندلس المسلمة، والتي أوصلته إلى غاية أرقوس وشيريس.

وباتفاق مع قوات مملكة ليون أو على الأقل في نفس الوقت الذي شنت فيه غارتها على أراضي الأندلس، قامت فصيلة من طلبيرة ورغبة منها في الانتقام من الغارة التي شنها السيدان على المدينة، بالإغارة على أراضي المسلمين، غير أن هذه الفصيلة، وبخلاف قوات ليون، تأخرت في الانسحاب، مما سمح للمسلمين باللحاق بها واستعادة الغنائم التي ظفرتها وأسر ثمانين من أفرادها.

وفي 1178م توقفت المواجهات بين المسلمين والمسيحيين في وقت تجدد فيه الصراع بين مملكتي قشتالة وليون، وحتى توجه كل اهتمامها لهذا الصراع، وقعت ليون في نهاية نفس السنة هدنة جديدة مع الموحدين لمدة خمس سنوات، إلا أن ذلك لم يحل دون انهزامها في 1179م أمام ألفونسو الثامن في قسطعقان، لكنها في المقابل تمكنت وفي نفس السنة من هزم الأمير البرتغالي سانشو في أرقنال. ومما عرفته سنة 1179م كذلك، خروج الموحدين في غارة ضد منطقة أبرنيش الواقعة وسط البرتغال.

من جهة أخرى، وقبيل الشروع في تعمير باجة، احتُفل بزفاف الخليفة الذي عقد قرانه على إحدى بنات ابن مردنيش في جو من البذخ والأبهة، وكان ذلك ليلة السبت الخامس من ربيع الأول 570هـ (4 أكتوبر 1174م)[118]. ويبين هذا الزواج المكانة التي كانت تحظى بها الأندلس والأندلسيون لدى الخليفة، خصوصاً وأن إخوة العروس أصبحوا، بجانب بعض ملوك الطوائف السابقين، وبعض المنحدرين من نسل ابن همشك وابن عزون، من بطانة الخليفة.

وليس لنا من أخبار عن نشاط الموحدين خلال شتاء 570هـ وكل سنة 571هـ (يوافق اليوم الأول من هذه السنة 22 يوليوز 1175م واليوم الأخير 10 يوليوز 1176م) غير التحريات التي قام بها الخليفة قبل عودته إلى المغرب بشأن الثروة التي جمعها جابي اشبيلية محمد بن عيسى، حيث ثبت قيامه باختلاسات كثيرة. وكإجراء أول أمر الخليفة بتجريده من هذه الثروة التي جمعها لامحالة أثناء أعمال التشييد والبناء التي عرفتهما المدينة. وبسبب عدم تحمله لوقع الفضيحة حاول محمد بن عيسى هذا الانتحار بواسطة سكين لكنه لم ينجح في ذلك، غير أنه لفظ أنفاسه

118- البيان المغرب، م. س.، ص. 134.

أثناء خضوعه لعملية التعذيب والاستنطاق. وقد ألقيت عقب ذلك جثته في النهر، الذي جرفها لمدة أيام، ثم ألقى بها من جديد عند أحد أبواب المدينة.

عودة الخليفة إلى مراكش
وانتشار وباء الطاعون وفقدان قونقة

وبعد قضاء الخليفة لكل فصل الشتاء بمدينته المفضلة اشبيلية، غادرها بشكل مفاجئ ودون أن يودع أحداً، إلى طليطلة التي عبر منها البحر على ظهر سفينة شراعية، وكان ذلك يوم الخميس 14 شعبان[119] 571هـ (28 فبراير 1176 م)، وقد نزل بطنجة التي مكث بها إلى أن لحقت به حاشيته، حيث انتقل إلى مراكش التي وصلها في منتصف شهر رمضان (28 مارس).

وفي بداية ذي القعدة (يوافق اليوم الأول منه 12 مايو) انتشر وباء الطاعون بمراكش بشكل رهيب، وكان قد مر على وصول الخليفة إليها شهر ونصف. وحسب البيان المغرب فإن عدد الضحايا الذين كان يحصدهم الوباء يومياً تجاوز 190. وبسبب الخوف من العدوى اضطر الأهالي لمغادرة المدينة نحو البادية، وكان العديد منهم يلقون حتفهم على الطرقات وقبل وصولهم إلى هذه الأخيرة. ولم ينج الخليفة وإخوته من الوباء الذي عانوا منه لمدة طويلة وكان سبباً في موت أربعة من السادة على الأقل، كما كان سبباً في نهاية الشيخ عمر ينتي وهو أحد الذين قامت على كاهلهم الأمبراطورية، حيث داهمه الوباء بالقرب من الرباط التي دفن بها، وكان في طريقه من مراكش إلى قرطبة. وقد استمر الوباء كل ما تبقى من سنة 571هـ والنصف الأول من سنة 572هـ، ولم يقتصر على المغرب بل انتشر كذلك في الأندلس حسب ما نستشفه من البيان المغرب الذي يحصي عدداً من الشخصيات الأندلسية التي لفظت أنفاسها الأخيرة بسببه.

وفي 4 ذي القعدة (4 مايو) وبعد أن تماثل للشفاء، خرج الخليفة من مراكش لإخماد تمرد قامت به قبائل صنهاجة الجنوب، وقد ترك نائباً عنه في العاصمة أخاه عمر. وعند وصوله إلى هسكورة، أمر عدداً من جنوده بتشييد المنازل والاستقرار فيها بشكل نهائي، بينما كلف ابنه يعقوب بقيادة بقية الجنود الذين توجهوا لإخماد تمرد صنهاجة، في وقت عاد هو إلى مراكش والتي لم يدم غيابه عنها أكثر من سبعة عشر يوماً.

119- يجعل "البيان المغرب" سهواً تاريخ إبحاره في 14 رمضان، ويتأكد لنا أن ذلك غير مضبوط من خلال البيان نفسه والذي يقول في مكان آخر إن دخوله إلى مراكش كان في 15 رمضان. م. س.، ص. 135.

وفي شهر يناير من تلك السنة (1177م)، وبعد اختفاء الوباء، وفي الوقت الذي كان يوسف الأول منشغلاً بتمرد صنهاجة الجنوب، قام ألفونسو الثامن[120] بحصار "قونقة" [121]، وكانت ساكنتها منهكة بحيث لم تتمكن من المقاومة إلا بسبب وجودها في مكان حصين، وقد طلبت النجدة من الخليفة غير أنه لم يكن بإمكانه القيام بحملة جديدة، لذا فإن كل ما استطاعه هو إعطاء الأوامر للسيدين حاكمي قرطبة واشبيلية للقيام بمناوشات في منطقتي طليطلة وطلبيرة، الغرض منها إزعاج العدو مما قد يدفعه إلى رفع الحصار. وقد غادرت حامية قرطبة التي يقودها السيد أبو الحسن علي مدينتها في 6 شوال (7 ابريل 1177م) نحو طليطلة، كما قامت حامية اشبيلية التي يقودها السيد الحسين[122] وكان قوامها أربعة آلاف من الفرسان ومثلهم من المشاة، بنفس الشيء وكانت وجهتها طلبيرة. وحسب ابن صاحب الصلاة، فإن السيد الحسين عبر نهر تاجة على ظهر قارب حمل على الأكتاف من اشبيلية لتلك الغاية. وسوف يعود بعد ذلك إلى هذه الأخيرة ولم يحقق من نتيجة غير الظفر ببعض الغنائم واعتقال مجموعة من الأسرى عقب غارة باغت بها العدو[123]. أما عامل قرطبة فقد اكتفى باستعراض قواته في منطقة طليطلة، غايته في ذلك إرهاب العدو بسبب عددها المرتفع، غير أن هذا لم يكن كافياً ليجعل الفونسو يتراجع عن حصار قونقة.

وتخلط النسخة الموجودة في لندن من مخطوط ابن عذاري بين طلبيرة وطبيرة (الواقعة جنوب البرتغال)، وهذا ليس بالشيء الغريب على اعتبار أن صاحبه كان مغربياً وبالتالي لا يعرف بما فيه الكفاية جغرافية شبه الجزيرة الإيبيرية. ونستشف من هذا المخطوط أن السيد لم يصل إلى طلبيرة، وذلك عندما يقول أثناء حديثه عن حصارها من طرف ابن وانودين عام 578هـ، إن آخر

120- تعتبر هذه أول عملية يقودها الفونسو الثامن ضد المسلمين وكان عمره وقتها اثنتين وعشرين سنة، وقد استفاد في ذلك من عوامل متعددة من بينها عودة الخليفة إلى المغرب حيث أصيب بالطاعون الذي اباد جزءاً من ساكنة عاصمته، والمساعدة التي تلقاها من ليون وأراغون ثم الهدنة التي أقامها مع نبرة. وكان ضمن قوات الفونسو أثناء الحصار المطران "خيمينث دي رادا" Ximenez de Rada الذي كان متمكناً من اللغة العربية ومعجباً بما يتضمنه أدبها من نفائس، لذا قام بانشاد قصائد غنائية بالمناسبة قلد فيها الشعراء العرب.

121- يسمي مؤلف التاريخ العام الأول قونقة، قلعة العرب في إسبانيا.

122- يخلط كل من صاحب الحلل الموشية وصاحب نظم الجمان بين الرجلين لتشابه اسميهما حيث يدعى الأول أبا الحسن علياً والثاني أبا علي الحسن.

123- الجملة التي يستعملها البيان المغرب في هذا السياق غير واضحة، لأنها توحي بأن الغارة التي قام بها السيد استهدفت الحصن الواقع على الضفة اليسرى لنهر تاجه المؤدية إلى إشبيلية، وليس الحصن الواقع على الضفة اليمنى المؤدية لطلبيرة. انظر البيان المغرب، م. س.، ص. 138.

مرة حاصرها المسلمون كانت قبل ذلك التاريخ بستين سنة، وكان يقصد دون شك الحصار الذي قام به ضدها علي بن يوسف عام 503هـ والذي سمح باحتلالها.

من جهته قام فردنانو الثاني (ملك ليون) بغارة ثانية على الأندلس توغل فيها بأراضي المسلمين أكثر من المرة السابقة حيث اجتاز الوادي الكبير ووصل إلى منطقتي أرقوس وشيريس. وقد قامت بتعقبه قوات من اشبيلية، لكن قبل الوصول إليه اعترضت طريقها فصيلة طلبيرة التي أرادت الانتقام من الإشبيليين بعد الغارة الأخيرة التي شنوها على مدينتهم، وقد نجحت الفصيلة في إبادة القوات الاشبيلية حيث أعدموا الجنود الثمانين الذين تمكنوا من أسرهم، بالإضافة إلى من قتل في المواجهة. في هذه الأثناء كان الفونسو الثامن لايزال يحاصر قونقة التي سقطت بيده في أكتوبر 1177م، بعد تسعة أشهر من الحصار، وكانت المجاعة التي استفحلت في المدينة وراء استسلام أهاليها.

وفي سنة 573هـ (يوافق اليوم الأول منها 30 يونيو 1177م واليوم الأخير 19 يونيو 1178م) وبعد فقدان قونقة، استدعى يوسف الأول أخويه عاملي قرطبة واشبيلية اللذين غادرا هذه الأخيرة يوم الثلاثاء 18 رمضان (27 فبراير 1178م)، وكان يرافقهما مجموعة من الموظفين السامين، وقد وصلا مراكش في 23 مارس حيث احتفلا بعيد الفطر. وبعد أن مكثا هناك حوالي ثلاثة أشهر تداولا خلالها مع الخليفة وكبار رجال الدولة حول أمور الأندلس والجهاد ضد المسيحيين، غادرا العاصمة صوب شبه الجزيرة في شهر محرم (يوافق اليوم الأول منه 19 يونيو واليوم الأخير 19 يوليوز).

وأثناء وجود السيدين بمراكش، قام الخليفة بعزل عدد من الوزراء وسامي الموظفين، من بينهم أفراد أسرة بني جامع الذين تولوا الوزارة لمدة خمس عشرة سنة. وقد تم إبعادهم إلى ماردة التي مكثوا بها ست سنوات، بحيث لم يبرحوها إلا بعد وفاة يوسف الأول على إثر حملة شنترين، وإصدار الخليفة الجديد يعقوب المنصور العفو في حقهم. وكان مصير بعض الموظفين الذين اتهموا بالفساد الإداري أسوأ من ذلك، ومن بين هؤلاء جابيا اشبيلية وسجلماسة اللذان حكم عليهما بالإعدام بعد مصادرة أملاكهما.

وفي سنة 574هـ (1179م) توفي اثنان من إخوة الخليفة وكان أحدهما عاملاً على غرناطة والثاني على مالقة، وقد عين مكانهما كلاً من السيد أبي زيد والسيد أبي محمد وهما ابنا أخيه السيد علي عامل قرطبة. ومن أحداث تلك السنة كذلك، فيضان الوادي الكبير الذي ألحق أضراراً

كبرى بمنطقة طريانة، وكان ذلك دون شك في فصل الربيع. وفي نفس السنة انتهت هدنة الخمس سنوات التي كانت للموحدين مع مملكة البرتغال، وقد قرر الفونسو هنريكيث على إثرها استئناف المواجهات حيث أرسل ولي عهده الأمير سانشو على رأس فيلق مهم للإغارة على اشبيلية والمنطقة السفلى من الوادي الكبير، وكانت الغاية من الغارة، الظفر بالغنائم وأسر الأسرى.

الحملة البرتغالية على غرب الأندلس والمنطقة السفلى من الوادي الكبير

هناك روايتان متضاربتان عن الحملة، إحداهما عربية والثانية برتغالية، وقد أورد الأولى صاحب البيان المغرب وتقول إن ألفونسو هنريكيت أو ابن الرنك كما تسميه، نقض الهدنة التي سبق ووقعها مع الموحدين، بحيث خرج في صيف 573هـ (1178م) ضد باجة التي حاصرها لعدة أيام وكان على وشك احتلالها، وقد قام خلال نفس الحملة باكتساح الأراضي الفلاحية الموجودة حولها والتي أتلف مزروعاتها. وبعد رفع الحصار، توجه صوب اشبيلية حيث وصل إلى غاية منطقة طريانة وهناك أضرم النيران في السفن الراسية بالوادي الكبير قبل أن ينسحب.

وفي الوقت الذي كان فيه قبالة اشبيلية، قام كل من عامل باجة عمر بن تنصليت وقائد شيرية علي بن وزير بالإغارة على "قصر الملح" وذلك بهدف الانتقام من تعديات البرتغاليين، وإرغام سانشو على التعجيل بالانسحاب، غير أن حامية "قصر الملح" خرجت للمواجهة، وقبل حسم النزاع، فوجئ الموحدون بفيلق قادم من شنترين تمكن من هزم القائدين المسلمين وأسرهما، وبسبب ذلك عم الرعب سكان باجة الذين اضطروا لمغادرتها والالتجاء إلى مرتلة .

وبخلاف رواية البيان المغرب هذه، تؤكد الرواية البرتغالية التي وردت في "تاريخ ألفونسو هنريكيث"[124]، أنه وبعد انقضاء خمس سنوات وهي مدة الهدنة التي وقعها البرتغاليون مع الموحدين عام 1174م، أرسل ألفونسو هنريكيث عام 1178 م ابنه وولي عهده الأمير سانشو للإغارة على اشبيلية. وقد توقف هذا الأخير وهو في طريقه إليها، بـ"يابرة"، حيث انضمت إليه الحاميات الحدودية خصوصاً حامية باجة التي حضرت برمتها تقريباً، ولم يتخلف بالمدينة للدفاع عنها في حالة الضرورة غير عدد قليل جداً من الجنود. وفي 18 أكتوبر، ترك سانشو يابرة وعبر جبل الشارات، وقبل وصوله إلى

124- Cronica de los reis de Portugal .Edic .Critica, Por Carlos de Silva Tarouca .Lisboa, 1952 .Tomo. I. P. 107 y siguientes.

اشبيلية، خرجت ضده قوات موحدية حيث وقعت المواجهة بمنطقة الجرف، وقد تمكن سانشو وكان بمعيته 2400 من الفرسان و400 من المشاة من هزم الموحدين بعد قتال عنيف.

ويتحدث المصدر البرتغالي سالف الذكر بالتفصيل عن الطريقة التي وزع بها سانشو قواته التي قسمها إلى خمس فرق، وعن القواد الذين عينهم على رأس كل فرقة، وكذا عن مقاومة المسلمين والذين لم ينهزموا إلا بعد أن نجح القائد البرتغالي "مين مونيث" في إسقاط العلم الموحدي أرضاً، وهو ما أعقبه تشتت العدو وفراره. وأثناء تعقب البرتغاليين للفارين إلى منطقة طريانة، حاولت مجموعة من المنهزمين اجتياز القنطرة الموجودة على الوادي الكبير بهدف نجدة اللاحقين، غير أنهم وفي اللحظة التي وصلوها، وصلها كذلك الفارون والذين جاؤوها من الجهة الأخرى، وقد نجم عن ذلك ازدحام سرعان ما تحول إلى فوضى ثم إلى حالة رعب انتابت الجميع وكان من نتائجها مقتل العديد من الذين يوجدون على القنطرة في وقت أصبح الباقي لقمة سائغة بيد العدو. ومن جراء العدد الكبير من القتلى جرت الدماء في النهر بشكل رهيب، لدرجة أن مياهه أصبحت ولعدة أيام حمراء اللون.

بعد معركة اشبيلية هذه، أخذ سانشو طريق لبلة، في وقت عَلم فيه أن جيوشاً موحدية تقوم بمحاصرة باجة التي لم يكن قد بقي بها تقريباً أية قوات يمكنها الدفاع عنها، لذا وللحيلولة دون سقوطها بيد المسلمين، أرسل إليها بشكل مستعجل حوالي 1400 فارس تم اختيارهم من بين أحسن العناصر التي تكون جيشه. بعد ذلك وصل هو مع بقية القوات حيث حقق انتصاراً جديداً على الموحدين.

ونجد في المصدر البرتغالي الذي يقدم لنا هذه الرواية خلطاً بصددها بين أحداث صحيحة وأخرى مغلوطة، وسبب ذلك أن المؤرخين البرتغاليين الذين اعتمدوه خلال القرن الخامس عشر الميلادي، أضافوا إليه أشياء وبتروا أخرى، وذلك بهدف جعل ما يتضمنه يتوافق مع ما يوجد في مصادر أخرى، وهكذا نجدهم يربطون بين حملة سانشو على "طريانة" وحصار المسلمين لباجة والتي لم يقم حسبهم البرتغاليون بإخلائها، كما نجدهم يمددون الفترة التي استغرقتها حملة سانشو بشكل مبالغ فيه؛ بحيث يجعلونها تستغرق كل صيف وخريف وشتاء 1178م، بل وتمتد إلى السنة الموالية.

نخلص من خلال المقارنة بين الروايتين العربية والبرتغالية سالفتي الذكر، أن الأمير سانشو وبعدما اقتنع بعدم امكانية الاستيلاء على باجة توجه نحو طريانة. في هذه الأثناء، وبعد هزيمة المسلمين في "قصر الملح" انسحبوا من باجة التي احتلها البرتغاليون من جديد، لكن الموحدين عادوا لمهاجمتها مرة أخرى. وفي نفس السنة (1178م) وإثر عودة سانشو من طريانة ولبلة، أرسل حامية عسكرية إلى باجة لتتولى الدفاع عنها. ومما يؤكد أن حملته إلى طريانة لم تمتد إلى

1179م وأنه لم يكن موجوداً في باجة في منتصف السنة المذكورة، أنه في ربيع هذه السنة وفي الوقت الذي كان فيه القشتاليون يهددون بشكل كبير ملك ليون، أرسله والده ألفونسو هنريكيث على رأس جيش برتغالي ضد "ثيوداد رودريكو"، حيث مني بهزيمة نكراء بالمكان المعروف بـ"ارقنال"، قتل وأسر على إثرها القشتاليون العديد من رجاله.

المواجهات البحرية بين الموحدين والبرتغاليين

في سنة 1179م كثف البرتغاليون من هجماتهم على الأراضي الموحدية براً وبحراً، في تلك الأثناء عين الخليفة غانم بن مردنيش قائداً لأسطول سبتة، وقد قام غانم إثر ذلك بغارة على ميناء لشبونة تمكن من خلالها من الاستيلاء على سفينتين، وكرد فعل على ذلك احتل البرتغاليون جزيرة "سلطيش"[125] وأسروا العديد من سكانها[126].

وفي الوقت الذي كانت فيه الأندلس الموحدية تتعرض للخطر البرتغالي، وبدل أن يعود يوسف الأول إليها على رأس قواته، اكتفى بتكليف أمير البحر غانم بن مردنيش بتكثيف الهجمات على الساحل البرتغالي، بينما قرر هو الخروج في حملة عسكرية ضد قفصة بإفريقية، انطلقت يوم 14 مارس 1180م. وفي شهر مايو من نفس السنة نزل غانم وأخوه أبو العلاء على رأس قوات موحدية بـ"سان مارتين دي بورتو" San Martin de Porto أو بـ "نصري" Nazaré ومن هناك توغلا داخل التراب البرتغالي، حيث حاولا مهاجمة "بورتو دي موس" Porto de Mos ، لكن عامل المدينة الأميرال "فواس روبينو" Fuas Ropinho استنجد بقوات شنترين و"القانية" التي هبت لمساعدته، مما سمح له بوضع كمين للمهاجمين بجبل منديغة حيث ينبع النهر الذي تقع عليه "بورتو دي موس"، تمكن بواسطته وبعد مباغتتهما في ممر ضيق، من هزمهما وأسرهما مع خمسين من مرافقيهما.

إننا نجد هنا كذلك أن " تاريخ ألفونسو هنريكيث" يقوم بتغيير الحقائق ويورد معلومات مغلوطة[127]، فليس من المستبعد أن يكون غانم بن مردنيش قد هاجم "بورتو دي موس" لكن ليس صحيحاً أنه كان ملكاً أو حاكماً على "قاصرش" و"بلنسية القنطرة" Valencia de Alcantara كما يدعي هذا المصدر، ولا أنه قام بالهجوم انطلاقاً من الأندلس مروراً بنهر تاجة، في وقت كان يعلم فيه أن الأمير سانشو موجود في باجة. من جهة أخرى وبخصوص تعاقب الأحداث يتضمن

125- يسمي صاحب البيان المغرب البرتغاليين الذين احتلوا الجزيرة بالشياطين. م. س.، ص. 140.

126- يخصص صاحب الروض المعطار فصلا كاملا من مؤلفه لاحتلال البرتغاليين للجزيرة.

127- Op. Cit., Cronica dos Sete Primeros Reis de Portugal . T-I- p. 125 y siguientes.

المصدر المذكور خطأً كرونولوجياً، فهو يقول إنه وبعد هزيمة وأسر غانم وأبي العلاء بن مردنيش في "بورتو دي موس"، خرج الأميرال "فواس روبينو" من لشبونة على رأس أسطول بحري وهاجم بجوار رأس "إسبيشل" Espichel تسع سفن موحدية وكان ذلك في 16 يونيو 1180م، وهو ما لا يمكن قبوله إذا ما سلمنا بما جاء في البيان المغرب الذي يقول إن أسر الأخوين ابن مردنيش في "بورتو دي موس" Porto de Mos تم في التاريخ الهجري الذي يوافق 11 يونيو.

وكيفما كان الحال فإن الانتصار الذي حققه الأميرال "فواس روبينو" شجعه وبقية القائمين على أسطول لشبونة لتكثيف الجهود من أجل تكوين أسطول أهم، خرج على رأسه "روبينو" نفسه والذي اجتاز ساحل غرب الأندلس وأغار على سبتة، غير أن الأسطول الموحدي الذي كان يضم سفن سبتة واشبيلية تمكن من تعقبه بناحية شلب، ولحق به بجوار رأس "إسبيشيل" في نفس المكان والزمان الذي وقعت فيه مواجهة السنة الفارطة (15 محرم)، وقد حقق الموحدون انتصاراً كبيراً قتلوا خلاله الأميرال البرتغالي واستولوا على عشرين من السفن التي توجد ضمن أسطوله.

ويعود "تاريخ ألفونسو هنريكيث" للخلط بين الأحداث، حيث إنه يجعل من هذه المواجهة الأخيرة مواجهتين، عندما يقول إن أسطول "روبينو" قام بغارة أولى على سبتة انسحب على إثرها مباشرة ليعود من جديد في غارة ثانية في وقت كان فيه أسطول المسلمين وقوامه أربعة وخمسون سفينة قد خرج يقتفي أثره. وبدل التوجه إلى سبتة دفعت الرياح بأسطول "روبينو" إلى المكان الذي وقعت فيه المواجهة مع الموحدين الذين نجحوا في قتل الأميرال البرتغالي وتدمير أسطوله، وكان ذلك في 17 أكتوبر 1180هـ.

ومن سجنه، كتب غانم بن مردنيش إلى الخليفة يحيطه علماً بالوضعية التي يوجد فيها هو وأخوه أبو العلاء وكذا بالفدية المرتفعة التي يطالب بها البرتغاليون من أجل فك أسرهما. وقد توصل الخليفة بالرسالة في فاتح صفر 576هـ (27 يونيو 1180م) وكان يوجد بتلمسان حيث جمع قواته قبل الانطلاق نحو قفصة. وما أن توصل الخليفة بالرسالة حتى أرسل هلال بن مردنيش إلى مراكش من أجل ترتيب الأمور المتعلقة بفدية أخويه وكذا العمل من أجل بناء أسطول بحري جديد.

في تلك السنة كذلك، استغل المسيحيون وجود الخليفة بإفريقية لتكثيف هجماتهم البحرية والبرية على أراضي الإمبراطورية، ولم يتوقفوا عن ذلك إلا في مارس 1181 م بعدما علموا أن الخليفة أخذ طريق العودة صحبة قوات جديدة من العرب.

وبعد وصول الخليفة إلى عاصمة ملكه، جاءه وفد يمثل ساكنة اشبيلية ليقدم التهنئة لنجاح الحملة وسلامة العودة، وكان يرأسه ابنه السيد إبراهيم، كما جاءه لنفس الغرض وفد آخر يمثل

ساكنتي قرطبة ومرسية وكان على رأسه ابنه السيد يعقوب عامل مرسية. وقد مكث هذا الوفد الأخير بمراكش إلى فاتح ذي القعدة (8 مارس 1182م).

وبما أن ألفونسو الثامن استأنف هو الآخر هجماته على الأندلس بعد انقضاء مدة الهدنة الموقعة مع الموحدين (في نفس السنة التي انقضت فيها مدة الهدنة التي وقعها الموحدون مع البرتغال)، فإن الخليفة لم يجد من حل للحد من هذا الخطر المتجدد غير نقل عرب إفريقية إلى المغرب الأقصى ثم إلى الأندلس، وكان قد انتقل إلى قفصة بعدما علم أن هؤلاء العرب كانوا يسعون للتمرد بها بتحريض من المدعو علي (الملقب بالطويل)، والمنحدر من أسرة بني الرند التي سبق لها أن تولت الحكم بقفصة.

حملة قفصة

خرج يوسف الأول من مراكش صوب قفصة يوم الخميس 15 شوال 575هـ (13 مارس 1180م)[128]، وكان عدد القوات التي ترافقه كبيراً جداً، بحيث إن قيمة "البَرَكة" التي تكرر توزيعها على المشاركين في الحملة، حسب شاهد عيان، كان يصل في كل مرة إلى مليون دينار. وكان الجيش، وعلى عادة الحملات الموحدية التي يقودها الخليفة، يسير بإيقاع بطيء، وهو ما جعل عيد الأضحى يدركه دون أن يكون قد وصل بعد إلى تلمسان. ومباشرة بعد الاحتفال به، أمر الخليفة ابنه يعقوب أن يسبقه على رأس قوات الطليعة إلى تلمسان حيث قام هناك بجمع بقية القوات المزمع مشاركتها في الحملة. وبعد أن لحق به الخليفة استأنف السير وكان ذلك في 12 صفر (8 يوليوز)، أي بعد خمسة أشهر من مغادرة مراكش. وعند الوصول إلى بجاية التي وضع بها الخليفة مخيمه، عُلم أن القائد ابن المنتصر قريب علي بن الرند[129] تحالف سراً مع هذا الأخير، وأنه بسبب ذلك بدأ يحرض العرب على التمرد، وقد أمر الخليفة بسجن ابن المنتصر. وبعد تفتيش منزله عثر على مراسلات له مع العرب تثبت إدانته، وكان ذلك كافياً لمصادرة أمواله والحكم عليه بالإعدام.

128- البيان المغرب، م. س.، ص. 140-141.

129- ينحدر علي بن الرند، من أسرة تولت الملك على عهد ملوك الطوائف في الأندلس وكان عبدالمومن قد عزل آخر ملوكها ونفاه إلى بجاية مع عائلته، وقد قام أحد أفراد هذه العائلة بتشجيع علي بن الرند على التمرد، وحسب البيذق فإن الموحدين لم يكتفوا بمصادرة أملاك علي هذا، وإنما نفذ فيه حكم الإعدام (أخبار المهدي، م. س.، ص. 86). بينما يشير ابن خلدون، والظاهر انه الأقرب إلى الصواب، أنه بعد استسلامه نقل إلى مراكش ثم إلى سلا حيث توفي (العبر، الجزء السادس. م. س.، ص. 502).

ومع اقتراب الحملة من قفصة، أسرع شيوخ عرب رياح لإعلان خضوعهم وطلب الأمان الذي منح لهم، إثر ذلك قامت الجيوش الموحدية بمحاصرة المدينة التي استسلمت في شتاء 1180-1181م بعد ثلاثة أشهر من الحصار، في وقت أعلن فيه المتمرد علي بن الرند (الطويل) خضوعه لسلطة الخليفة. وفي 15 شوال من نفس السنة (4 مارس) كان يوسف الأول قد وصل إلى تونس التي بعث منها رسالة رسمية إلى أهل قرطبة[130] يخبرهم أنه بعد إخضاع قفصة (كانوا قد علموا بذلك من خلال رسالة سابقة)، توجهت القوات الموحدية إلى المناطق الساحلية من إفريقية، كما يخبرهم أن شيوخ قبيلة رياح حضروا عنده وعبروا عن رغبتهم وأبناء عشيرتهم في الانتقال إلى الأندلس بغية الجهاد، وأن عدداً من أبناء القبيلة قد بدؤوا بالانتقال إلى المكان المخصص لتجمعهم قبل مغادرة إفريقية، وتضيف الرسالة أن زعيم عرب رياح الشيخ أبا سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ساهم وبكل نبل وشهامة في تحقيق هذا المسعى.

ومع هجرة عرب رياح نحو الغرب تركوا المجال الذي يقيمون به للبربر المستقرين، في وقت لم يبق به في إفريقية من عرب غير بني سليم الموجودين بمنطقة طرابلس، والذين اعتقد الخليفة أنهم سوف يخضعون لا محالة لسلطته إذا ما أرادوا تفادي مواجهة تستعمل فيها القوات الموحدية كل ثقلها.

وبما أن العرب كانوا رافضين دائماً الخضوع لسلطة الغير، وبالتالي عبروا باستمرار وبشكل لا يقبل الجدل عن عدم قبولهم بالسلطة الموحدية، فإن الخليفة اعتبر أن حملته حتى وإن لم تقم بأي شيء آخر غير إخضاعهم، تكون قد حققت النجاح المتوخى.

إلا أن تفاؤل يوسف بقرب خضوع العرب بشكل نهائي سرعان ما كذبته الأحداث، فعرب رياح وهم الذين عبروا أكثر من أي قبيلة عربية أخرى عن استعدادهم للخضوع، بقيت مجموعات منهم في إفريقية، وسوف يقدمون هناك الدعم لكل من تمرد على السلطة الموحدية. وقد تمرد شيخهم أبو سرحان مسعود، الذي تخلى عن قراقش وخضع للموحدين إثر حملة قفصة، على عهد يعقوب المنصور الذي سيضطر لنفيه وأهل قبيلته إلى الهبط في المغرب الأقصى، غير أنه سينجح في الفرار ويعود من جديد، وإلى غاية وفاته، للعمل ضد الموحدين ولحساب قراقش وابن غانية. وسوف يسير بعد ذلك ابنه محمد على نفس المنوال في تحالفه مع أعداء الموحدين.

وعقب حملة قفصة أخذ يوسف الأول طريق مراكش من جديد مروراً بمدينة فاس التي وصلها في صفر 577هـ (يوافق اليوم الأول منه 15 يونيو 1181م واليوم الأخير 13 يوليوز)، وكان قد عين أخاه السيد الحسن والياً على إفريقية كما عين أخاه السيد أبا موسى عاملاً على القيروان.

130- مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 26.

غارة ابن وانودين على يابرة

بعد عودة الحملة من إفريقية، تم تكوين جيش في اشبيلية خرج ضد يابرة تحت قيادة أبي محمد عبد الله بن وانودين الذي وصلها في 25 مايو 1181م وقام بنهب ضواحيها، غير أنه لم يتمكن من دخولها بسبب مقاومة حامية المدينة. وبعد يومين من ضرب مخيمه أمام أسوارها، اقتنع باستحالة احتلالها دون حصار طويل الأمد، وكان ذلك ما دفعه لرفع المخيم والتوجه بشكل مفاجئ إلى حصن قريب منها نجح في احتلاله. ويشير مؤلف البيان المغرب إلى أن ابن وانودين، بعد أن رفع مخيمه من أمام يابرة، أصبح في اليوم الموالي في حصن يسميه فنج، وقام باحتلاله. ولا نعتقد أن الأمر يتعلق بحصن قليج ذلك لأن الوصول إلى هذا الحصن يتطلب مسيرة عدة أيام. من جهة أخرى يشير صاحب البيان المغرب إلى أن ابن وانودين وضع مخيمه أمام يابرة يوم عاشوراء -10محرم 577هـ- (25 مايو 1181م) وأنه بعد يومين من ذلك انتقل إلى الحصن الآخر حيث سطا عليه قبل أن يعود في شهر محرم نفسه (أي قبل 15 يونيو) إلى اشبيلية، وهذا شيء إن لم نقل مستحيلاً فهو في غاية الصعوبة، إذا كان الأمر يتعلق فعلاً بحص نقليج"، على اعتبار المسافة التي تفصله عن يابرة.

إننا نعتقد أن الأمر يتعلق هنا بحصنين مختلفين، الأول هو الذي يتحدث عنه صاحب البيان -لم نتمكن من معرفة مكانه- وهذا تمت مهاجمته دون شك في ربيع 1181م (نهاية مايو وبداية يونيو)، أي قبل التاريخ الذي يورده البيان، على اعتبار أن ابن وانودين وبعد احتلاله سيرافق عاملي قرطبة واشبيلية إلى مراكش حيث مكث إلى 8 مارس 1182م، والثاني هو حصن قليج، وهذا تم احتلاله من طرف المسلمين في عام 1180م كما يؤكد ذلك مؤلف "التاريخ البرتغالي"[131].

وكرد فعل على الهجومات الموحدية، خرج فيلق برتغالي من الفرسان من شنترين حيث نجح في هزم حامية اشبيلية بعد أن وضع لها كميناً بمنطقة الجرف، في نفس الوقت قام القشتاليون بغارة جديدة على منطقتي قرطبة و"إستجة". وفي ربيع السنة الموالية -1182م- تجددت هجومات المسيحيين وكانت أكثر حدة لدرجة أن الجيوش الموحدية في الأندلس اضطرت لطلب النجدة من الخليفة الذي بعث من المغرب بعدد مهم من الجنود.

لقد أغار البرتغاليون على قرية شلوقة ثم حصن الفرج وبقية حصون منطقة الجرف قبل أن ينسحبوا عبر لبلة، في حين وضع ألفونسو الثامن، في مطلع يونيو 1182م، مخيمه بجوار قرطبة

131- يعتقد مؤلف روض القرطاس خطأً أن احتلاله تم عام 1182م، م. س.، ص. 154.

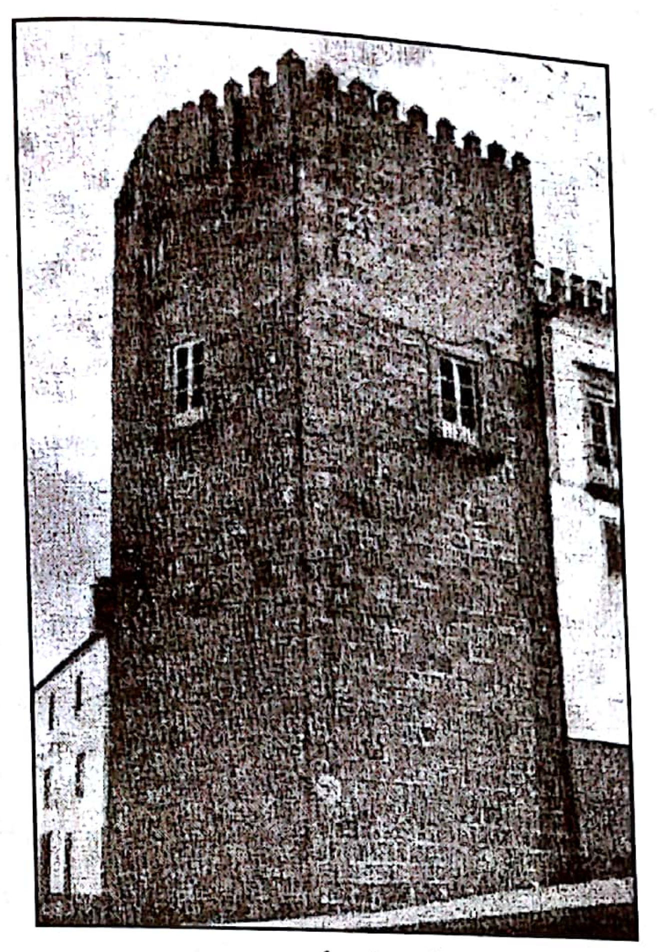
وأمر جنوده بالإغارة على مالقة ورندة وغرناطة. هذه الغارات تؤكد هي الأخرى أن ابن وانودين لم يكن بإمكانه مهاجمة حصن قليج في شهر يونيو من السنة المذكورة، على اعتبار أنه كان آنذاك مقيداً بالتزامات عسكرية أكثر أهمية، تمثلت في القيام بالدفاع عن اشبيلية والحد من الأضرار التي كان المسيحيون يلحقونها بقرمونة ثم مباشرة بعد ذلك (فصل الخريف) باستعادة شنتفيلة والقيام بحملة تأديبية على طلبيرة.

لقد خصص يوسف الأول سنة 1183م للقيام بأعمال عمرانية بعاصمة ملكه، وفي نفس السنة وتلبية للطلبات الملحة للأندلسيين، قرر الخروج في حملة هامة ضد البرتغاليين (سوف تكون سبباً في نهايته)، وأمر بالقيام بتعبئة شاملة لتوفير الشروط اللازمة لنجاحها، في هذا السياق، ومن أجل توفير المؤونة للمشاركين فيها، طلب من رجاله باشبيلية تجهيز قافلة من 4000 دابة محملة بالمؤن.

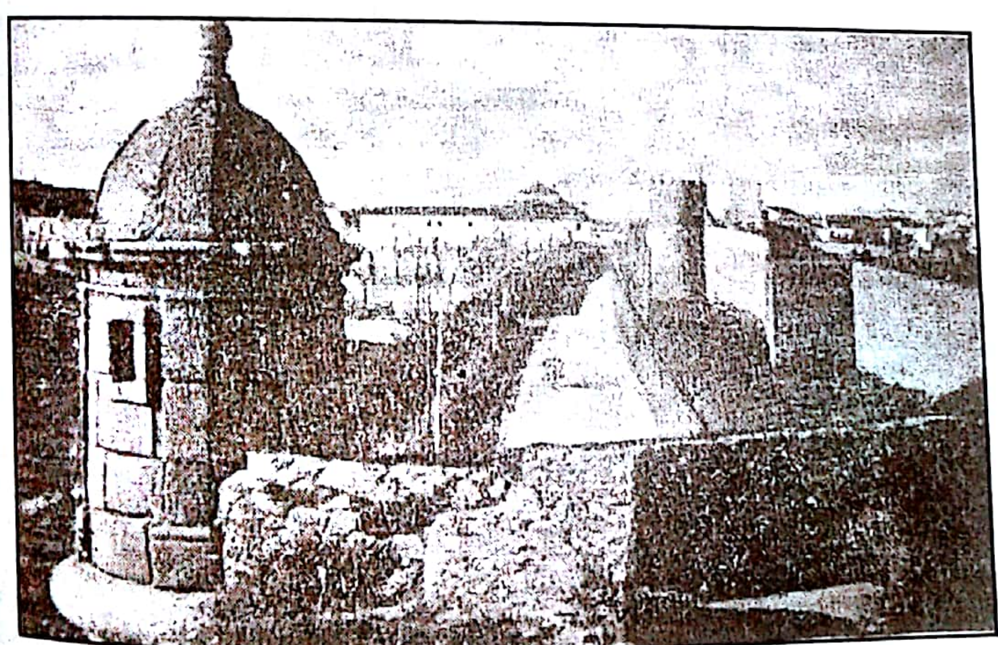
من جهة أخرى تمكن أسطول سبتة خلال تلك السنة، من الثأر لنفسه من الهزيمة التي ألحقها المسيحيون خلال السنة الفارطة بالقوات التي كان يقودها أمير البحر غانم بن مردنيش. وقد تحقق هذا الانتصار بعد أن ضم قائد المدينة الجديد عبد الله بن جامع أسطوله إلى أسطول اشبيلية الذي كان يقوده أبو العباس الصقلي، حيث وصل عدد السفن بعد تجميعها في ميناء قادس إلى أربعين، خرج على رأسها القائدان الصقلي وابن جامع إلى شلب حيث وقعت مواجهة في نفس المكان والزمان (15 محرم) اللذين هزم فيهما قبل ذلك بسنة غانم بن مردنيش. وكانت هزيمة البرتغاليين هذه المرة مدوية، إذ قتل منهم، حسب ابن صاحب الصلاة، حوالي 1800 من رجال الأسطول، إضافة إلى الأسرى والذين ضرب عنق كل من لم تتم فديته منهم. في نفس الوقت غنم الموحدون ثلاثين سفينة بكل ما فيها من أسلحة وعتاد[132].

ولم تحل هذه الهزيمة دون مواصلة المسيحيين لغاراتهم عن طريق البر، خصوصاً حامية شنترين التي كثفت من هجماتها على منطقة الجرف، رغم أن الإشبيليين نجحوا في إحدى المواجهات في قتل ما لا يقل عن 170 من المسيحيين. من جهتها كررت فرقة فرسان جيش طليطلة هجماتها على منطقتي قرطبة وإستجة. وقد أخبر الخليفة بهذه الغارات والأضرار التي تلحقها بالأندلس الموحدية، غير أنه لم يقم بأي رد فعل عملي خلال السنة المذكورة، وهذا ما شجع مملكتي قشتالة والبرتغال على تكثيف الغارات خلال السنة الموالية 578هـ (يوافق اليوم الأول منها 7 مايو 1182م واليوم الأخير 23 أبريل 1183م)، بحيث قام فيلق مكون من ألف فارس ومثلهم من المشاة قادم من شنترين ولشبونة

132- مقابل ذلك يشير ابن صاحب الصلاة إلى أن المسلمين لم يفقدوا غير جندي واحد، وهو ما يؤكد مبالغته.



• يابرة (البرج الروماني)



• يابرة وحصنها

بنهب قرية شلوقة وقتل عدد من سكانها ثم الإغارة على منطقة حصن الفرج، قبل العودة عبر طريق لبلة محملاً بالغنائم والأسرى.

حملة شنتفيلة [133]

في 4 صفر (9 يوليوز 1182م) خرج ألفونسو الثامن الذي أصبح عمره آنذاك 26 سنة (تولى الملك وهو طفل)، في حملة ضد الأندلس الموحدية[134]، حيث ضرب مخيمه أمام مدينة قرطبة التي كانت تعرف في تلك الأثناء ارتفاعاً كبيراً في أسعار المواد الغذائية وذلك بسبب ندرتها، ومن هناك انطلق في غارات ضد غرناطة ورندة ومالقة مما زاد من تأزم أوضاع المنطقة ومن ندرة المؤونة. ولم يكن بإمكان ابن وانودين الذي يقود قوات اشبيلية، أمام هذا الجيش المسيحي ذي العدد المهم، غير تقوية القدرات الدفاعية لحاميته التي خصصت كل إمكانياتها للحد من الأضرار التي كان المسيحيون يلحقونها بالمنطقة خصوصاً بسهول قرمونة.

لقد أصبح فرسان العدو وفي غياب أية مقاومة حقيقية يجوبون المنطقة بكل حرية، في هذا الإطار قاموا بمحاصرة إستجة التي تمكنوا من فتح ثغرة بأسوارها حاولوا انطلاقاً منها احتلال المدينة غير أنهم لم ينجحوا في ذلك. وفي 13 صفر (18 يونيو)، وبعدما تبين لألفونسو الثامن أن الحصار قد يطول دون احتلالها، أمر برفع المخيم وتوجه إلى اشبيلية التي قام بنهب وتخريب حقولها، ومنها إلى رندة حيث نجح بتواطؤ مع أحد اليهود في احتلال قلعة مجاورة لها أسر بها 1400 شخص، إثر ذلك واصل زحفه إلى أن وصل إلى الجزيرة الخضراء. وقد غنم أثناء الزحف ما لا يحصى من المواشي. وفي 17 صفر (22 يونيو) وبعد أربعة أيام من رفعه الحصار عن إستجة استولى على حصن شنتفيلة على الرغم من أنه كان محصناً بشكل جيد، وأسر به 700 شخص حصل مقابل إطلاق سراحهم على 2775 دينار.

وبعد دخوله الحصن، أدرك أهميته كقاعدة يمكن استعمالها للإغارة على قرطبة واشبيلية، ومن أجل ذلك قرر الاحتفاظ به حيث ترك هناك حامية من 500 فارس وألفاً من المشاة، طمأنهم

133- حول شنتفيلة وموقعها انظر مقالة لـ"هرناندث خيمينث" Hernandez Jimenez بمجلة الأندلس (مصدر سابق)، والتي تحدد مكانها في نظري بشكل خاطئ حيث تخلط بينها وبين "شنتلة" Santaella الواقعة على بعد 36 كلم جنوب غرب قرطبة، في مكان مقابل لقرمونة يعرف حاليا بـ"لورا ديل الريو" Lora del Rio يوجد به معبد عذراء شنتفيلة Setefila قديسة القرية. انظر كذلك:

Isidoro de las Cagigas. "Memorias étnico-religiosas", T-IV. los Mudéjares. P. 312 .

134- سمحت له معاهدة "ريوسيكو" Rioseco السلمية التي وقعها مع مملكة ليون في 21 مارس 1181م بالاستعداد الكافي لحملة شنتفيلة ضد الموحدين.

بأنه سوف يقدم لهم النجدة اللازمة إذا ما اقتضى الأمر. وبعد مغادرته الحصن وعلى امتداد خمسة وأربعين يوماً، لم يتوقف عن القيام بأعمال السلب والنهب بالمنطقة، التي لم يغادرها عائداً إلى بلاده إلا في 13 ربيع الأول (17 يونيو).

ولم يكن للموحدين أي رد فعل على هذه الغارات، بحيث لم تغادر القوات الموحدية الموجودة في اشبيلية مدينتها إلا في فاتح ربيع الثاني (الرابع من غشت) بعد أن عادت القوات القشتالية إلى ديارها. وقد قصد الموحدون الذين كان يقودهم السيد أبو إسحاق حصن "شنتفيلة"، وفي نفس ذلك اليوم كان فرسان الحامية القشتالية الذين تركهم ألفونسو الثامن بالحصن قد خرجوا في جولة بالمنطقة، وهو ما دفع بالمسلمين الموجودين في قرمونة والحصون المجاورة إلى تعقبهم وقتل ما لا يقل عن سبعين منهم وأسر عدد آخر اقتيدوا إلى السيد أبي إسحاق الذي كان في طريقه إلى "شنتفيلة" حيث أمر بإعدامهم جميعاً. ورغم أن السيد حاصر الحصن إثر ذلك لمدة 46 يوماً فإنه فشل في اقتحامه. وفي السادس من جمادى الأولى (7سبتمبر) وبعد أن وصله خبر مغادرة ألفونسو الثامن لطليطلة صوب الحصن لتقديم النجدة لحاميته المحاصرة به، أمر برفع الحصار. وبعد أربعة أيام من ذلك وصل ألفونسو الذي أمر بمغادرة الحصن بسبب الحالة المزرية التي وصلت إليها الحامية الموجودة به، وكان ذلك في 15 من نفس الشهر (16 سبتمبر 1182م).

تمرد زكندر والإغارة على طلبيرة

وفي الوقت الذي كان فيه ألفونسو الثامن يكتسح أراضي الأندلس، كان الخليفة منشغلاً بإخماد تمرد ظهر في جبال منطقة سوس بجوار هرغة (مسقط رأس ابن تومرت) قامت به قبيلة بني واوزكيت التي حاصرت قبيلة زكندر القائم اقتصادها على منجم مهم للفضة، سطا عليه المتمردون دون اعتبار لحقوق الخليفة فيه[135].

وقد خرج الخليفة على رأس جيشه من مراكش في فاتح صفر (6 يونيو) قاصداً المنطقة الجبلية التي يقيم بها بنو وازكيت الذين حاصرهم وأضرم النيران في منازلهم، في وقت قام فيه أهالي هسكورة، ومساهمة منهم في الهجوم، بصعود الجبل ومحاصرة القبيلة المتمردة من الجهة

135- حول الطريقة التي كان يُستغل بها هذ المنجم والخمس الذي كان يمنح للخليفة في القرن الثالث عشر، انظر ما ورد عند القزويني في آثار البلاد، ص. 199، والذي ترجمه كولان G.S Colin بمجلة هسبيريس:

1°, 2°, Trimestre. P. 229-230, Année 1954.

المقابلة، وهو ما أجبرها على الاستسلام. إثر ذلك أمر الخليفة بتشييد قلعة بجوار المنجم تولت حراستها حامية من الجند النظامي، في حين توجه هو إلى مسقط رأس ابن تومرت حيث قام بزيارة تبركية للمغارة التي أقام بها المهدي والتي درس فيها لمريديه عقيدته[136]، وكان يوجد بجانبها رباطان يعرف أحدهما باسم رباط ونسري والثاني باسم رباط المغارة، اشتهرا بالتربة التي كان يحملها الناس منها لعلاج مرضاهم. إثر ذلك أخذ يوسف الأول طريق تنمل بهدف زيارة الضريح الذي يرقد فيه جثمان المهدي وعبد المومن، يرافقه وفد من أهل اشبيلية جاء يخبره بالوضعية التي آلت إليها الأندلس.

وقد تلخصت التعليمات التي تلقاها الوفد من الخليفة في أن يدأب الأندلسيون على مقاومة العدو وفي أن لا يترددوا في الهجوم عند الضرورة، على غرار ما قاموا به عقب احتلال القشتاليين لشنتفيلة[137]. وتنفيذاً لتلك التعليمات، كون ابن وانودين فيلقاً خرج على رأسه من اشبيلية في 8 جمادى الثانية (9 شتمبر) -بعد حوالي شهرين من إخلاء الحامية القشتالية لشنتفيلة- عبر طريق قرطبة. ولما وصل حصن بسطة[138] قام باستعراض قواته كما عقد مجلسا حربيا تقرر خلاله مهاجمة طلبيرة. وبعد ثلاثة أيام من مغادرته الحصن، التقى بفصيلة مسيحية من عشرين فارساً أتى عليها برمتها باستثناء قائدها الذي لاذ بالفرار. وقد واصل الفيلق عقب ذلك طريقه في اتجاه منطقة نهر تاجة التي، وبخلاف ما كان يتوقعه، لم يجد بها أي أثر للماشية التي كان ينوي الاستيلاء عليها، وهو ما يعني أن القائد الفار سبق إلى هناك وأنذر بقرب وصول الفيلق الموحدي. إثرها أسرع هذا الأخير في اتجاه طلبيرة التي استولى على ما يوجد في سهولها من ماشية، قبل أن يضع في 15 جمادى الثانية (16 أكتوبر) مخيمه فوق تل يبعد ميلاً واحداً عن المدينة والتي لم يصدق سكانها أعينهم بوجود مسلمين هناك، لأنهم ولما ينيف عن سبعين سنة لم يشاهدوا مسلماً بمدينتهم إن لم يكن أسيراً[139]. وقد خرجت حامية طلبيرة وغيرها من حاميات الحصون المجاورة ضد المسلمين. وبما أن ابن وانودين لم يكن يرغب أن تقع المواجهة في أراضي المسيحيين، فقد أمر بنقل المخيم

136- هو الغار المقدس والذي زاره كذلك عبد المومن في أكتوبر 1157م. انظر: مجموع رسائل موحدية، م. س.، رسالة 17.

137- البيان المغرب. م. س.، ص. 146-147 .

138- لم يعد مكان هذا الحصن معروفاً اليوم.

139- حسب نظم الجمان، استولى عليها علي بن يوسف المرابطي يوم السبت 15 محرم 503 هـ (14 غشت 1109م)، م. س.، ص. 510.

خلف أحد الجبال، ومن هناك هاجم العدو وهزمه. ويشير البيان المغرب إلى أن قوات ابن وانودين قتلت ما يزيد عن عشرة آلاف رجل، من بينهم حوالي ألف يهودي. لكننا نعتقد أن الانتصار لم يكن بالأهمية التي صورها مؤلف البيان المغرب، كما أن عدد القتلى لم يصل إلى هذا الرقم المبالغ فيه. ومما يؤكد ذلك، موقف الخليفة بعدما علم بالأمر، فقد عنف ابن وانودين كما وبخ ابنه أبا اسحاق الذي تخلف عن الحملة، وحسب صاحب البيان المغرب نفسه، فقد عاقب كل من تراجع إلى الوراء أثناء القتال، أو هم بالفرار[140].

توسيع مدينة مراكش

في سنة 579هـ (يوافق اليوم الأول منها 26 أبريل 1183م واليوم الأخير 13 أبريل 1184م) قرر يوسف الأول القيام بإصلاحات عمرانية في مراكش حيث أمر بهد جزء من أسوارها ورفع أسوار أخرى ذات محيط أوسع، وكانت المدينة آنذاك تعرف جواً من الأمن والاستقرار ساهم في ازدهار التجارة بشكل كبير، بحيث توافد عليها التجار من مختلف الجهات، كما أن الحياة داخل البلاط الملكي وصلت إلى مستوى رفيع من الرقي والترف، خصوصاً مع الثروات التي كانت تتدفق على الخليفة من مختلف أنحاء إمبراطوريته واسعة الأطراف. وكان هذا الأخير قد أمر سكان قبيلتي هسكورة وصنهاجة بالانتقال إلى مراكش للإقامة بها، غير أنهم، وبسبب كثرة ساكنتها، لم يعثروا على مساكن تأويهم إلا بصعوبة.

وفي فاتح ربيع الثاني (24 يونيو 1183م) خرج ابنه وخلفه السيد يعقوب ممتطياً جواده وبرفقته عدد من شيوخ الموحدين بالإضافة إلى المهندسين والبنائين لتحديد الجهة الأنسب التي يجب القيام انطلاقاً منها بتوسيع المدينة، وقد تبين ليعقوب ومرافقيه أن التوسيع يجب أن يتم من الجهة الجنوبية، وهو ما وافق عليه الخليفة الذي بعث العمال والعبيد لهد السور القديم الموجود بجوار باب الشريعة. وكانت بداية الأشغال في صبيحة الإثنين 25 ربيع الثاني (17 غشت)، وبعد خمسة وأربعين يوماً من العمل المتواصل تم الانتهاء من ذلك حيث شيد سور آخر، كما تم إعادة بناء باب الشريعة من جديد[141].

140- في الرسالة التي كتبها الخليفة إلى ابن وانودين، استشهد بالآية القرآنية التي جاء فيها: "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى" وهو ما قد يفيد أنه لم يكن هناك انتصار باهر كما يشير البيان المغرب. م. س.، ص.147، وإنما فشل وانسحاب غير مشرف.

141- يشير البيان المغرب إلى أن فكرة توسيع المدينة وضم مجال جديد إليها اقترحها السيد يعقوب الذي أشرف على أعمال البناء بنفسه، وسوف يقوم بعد توليه الخلافة بتشييد الحي الإمبراطوري المعروف بالصالحة في هذا المجال الجديد، م. س.، ص. 153-155.

وخلال نفس السنة وفي الوقت الذي كان فيه يوسف الأول منشغلاً بتوسيع عاصمة ملكه، قام عرب بني سليم الموجودين بمنطقة قابس والذين لم يخضعوا للموحدين عندما قام بذلك عرب رياح، قاموا بأسر السيد أبي الحسن بن عبد المومن في جبل قصري. وتسمح لنا الطريقة التي سقط بها في أيديهم بأخذ فكرة عن الروح القتالية المهزوزة للموحدين وبالتالي التنبؤ بالأحداث الخطيرة التي ستساهم في إضعاف شوكة إمبراطوريتهم عند دخول بني غانية حلبة الصراع؛ فلما طالت المواجهة مع بني سليم تلقى فرسان الجيش الموحدي الأوامر بنقل مخيمهم إلى جبل قصري للاحتماء به من هجمات العرب، غير أن بقية عناصر الجيش اعتقدوا أن رفع المخيم يعود إلى انهزام الموحدين، لذا تركوا أماكنهم وأمتعتهم وانسحبوا بشكل عشوائي. وأمام هذا التصرف غير المنتظر لم يجد السيد بداً من التحصن مع خاصته في الجبل في وقت قام العرب بمحاصرته به، ومع نفاد الماء حاول فك الحصار إلا أنه وقع وكل مرافقيه في الأسر، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن دفع الفدية، إثرها عاد إلى مدينة تونس وكان ذلك في 2 ربيع الثاني (25 يونيو 1183م).

وفي نفس السنة كذلك تواصلت الهجمات البرتغالية على الأندلس، وقد قرر الخليفة في البداية حصر المساعدة في المؤونة، حيث جُهزت لتلك الغاية قافلة من أربعة آلاف دابة محملة بالمؤن التي تحصلت من حملة ابن وانودين، لكن وأمام طلبات النجدة المتواصلة، قرر وضع حد للخطر البرتغالي المتكرر، وبدأ الاستعداد للقيام بحملة عسكرية مهمة ضد مملكة البرتغال.

حصار شنترين

أولى دوزي، وهو المؤرخ بعيد النظر الذي له الفضل في كشف حقائق متعددة حول تاريخ المسلمين بشبه الجزيرة الإيبيرية، اهتماماً خاصاً لحملة أبي يعقوب يوسف ضد البرتغال[142]، حيث نشر عدداً من النصوص التي وردت في المصادر العربية واللاتينية بصددها، وقام بالتعليق عليها بكفاءة كبيرة مقدماً لنا بذلك الإطار العام للحملة ولحصار شنترين والذي انتهى بمقتل الخليفة الموحدي بطريقة مأساوية. غير أنه وبسبب غلبة الميول الأدبية بل والعاطفية على تحليلات دوزي، ثم بسبب الهفوات التي وقع فيها عند تفسيره لبعض النصوص، وكذا بسبب جهله بوجود نصوص أخرى، لم يتمكن من تقديم صورة موضوعية للحملة وللهجوم الموحدي على البرتغال، بحيث إنه اعتبر أن فشل ذلك الهجوم كان حاسماً في استمرار مملكة البرتغال الشابة والتي لم يكتب لها، حسبه، النجاة والاستمرارية

142-Op. Cit. Dozy. Recherches . 3° Edic . II . P . 442 del texto y CIX de los apéndices

• حصن شنترين



• نهرتاجة

إلا بفضل معجزة حقيقية. إلا أننا نرى أن هذه المعجزة لا توجد أصلاً، لأن القوات الموحدية لم تسع أبداً، في هجومها على البرتغال، إلى تنفيذ المخطط الذي ينسبه لها دوزي، وذلك بكل بساطة لأنه لم يكن في مقدورها، كما سنرى، تحقيق المخطط المذكور.

لقد انساق دوزي وراء ما ورد في أحد المصادر البرتغالية[143]، ولم يستفد من المصادر الأخرى التي كانت تحت تصرفه، بحيث لم يخضعها لعملية تمحيص وقراءة نقدية، وسلم دون أدنى تحفظ بمبالغات مؤرخين اعتمدوا في تناولهم للموضوع، في الكثير من الأحيان، على خصوبة خيالهم، وهذا ما يجعل مراجعة عمله شيئاً ضرورياً، بعد اكتشاف مصادر جديدة تسمح من جهة بتعميقه وإغنائه، ومن جهة أخرى بتصحيح وتعديل (مع كل احترام) الملاحظات والاستنتاجات الخاطئة التي أتى بها دون دليل، والتي تُفقد دراسته قيمتها العلمية[144].

لقد عمل فرناندو الثاني ملك ليون، كما رأينا، بشتى الطرق من أجل إقامة تحالف مع الموحدين في وقت كان مهدداً فيه من جهتي الشرق والغرب من طرف مملكتي قشتالة والبرتغال. هذا التهديد كان يقف حجر عثرة أمام مساهمته هو الآخر في حروب الاسترداد، كما قضت بذلك اتفاقية "ساكون" Sahagon المبرمة في 23 ماي 1158م[145].

وبمقتضى تحالفه مع الموحدين، قام فرناندو الثاني في مايو 1169م بتقديم العون للمسلمين الذين كان يحاصرهم البرتغاليون في بطليوس، وقد سمح له تدخله الحاسم هذا بأسر ملك البرتغال الفونسو هنريكيث وكذا خيراردو سام بابور، كما استعاد لفائدة الموحدين كل المراكز التي كان البرتغاليون قد أخذوها منهم بمنطقة الجوف Extremadura . غير أن التحالف الموحدي- الليوني لم يعمر إلا سنوات محدودة، ذلك لأن ليون وقعت معاهدة "فريسنو- لابانديرا" Fresno-Lavandera السلمية مع قشتالة في فاتح يونيو 1183م[146] والتي تعهد بمقتضاها فرناندو الثاني بإلغاء تحالفه مع المسلمين، كما تعهد، شأن ألفونسو الثامن، بعدم إقامة أي تحالف آخر معهم مستقبلاً. في نفس الوقت اتفق الطرفان على الحفاظ على سرية الاتفاقية الموقعة، لمدة سبعة أشهر (إلى غاية بداية السنة الميلادية الجديدة)، ثم ابتداءً من ذلك التاريخ إعلان الحرب على الموحدين.

143- Op. Cit. Chronicon Lusitano

144- انظر في هذا السياق مقالتي التي نشرت تحت عنوان: Los Almohades en Portugal بمجلة: Los "Anais da Academia Portuguesa da Historia"II- serie, Vol- 5- ano 1954 . P. 29-51 .

145- انظر نص المعاهدة في: "Regesta de Fernando II" P.J .Gonzalez, p 241.

146- نفس المصدر، ص 291.

وتنفيذاً لذلك قام فرناندو الثاني بمحاصرة قاصرش في عز الشتاء، وكان حصاراً شاقاً وطويلاً اضطر إلى رفعه في مطلع شهر يونيو بعدما علم بوصول قوات موحدية إلى النج بجوار بطليوس، وكان أمير المؤمنين يوسف الأول قد قرر القيام بحملة كبيرة ضد واحدة من الممالك المسيحية التي تناصبه العداء في شبه الجزيرة الإيبيرية وهي قشتالة وليون والبرتغال، على إثر توصله بتقارير حول معاهدة "فريسنو-لاباندير" Fresno-Lavandera. وقد قرر في النهاية توجيهها ضد مملكة البرتغال لسببين: أولهما الانتقام من الهجومات التي وجهتها ضد منطقتي ألينتخو وغرب الأندلس، وثانيهما اعتقاده أن هزم البرتغال سيكون أسهل من هزم قشتالة او ليون، خصوصاً بعد انسحاب خيراردو من مسرح الأحداث وخضوعه الجزئي للسلطة الموحدية.

لكن ومهما كانت الطموحات التي علقها يوسف على هذه الحملة، فإنها لم تكن لتصل أبداً إلى ما ذهب إليه مؤلف "التاريخ البرتغالي" في قوله إن الغاية من الحملة، بعد إخضاع شنترين، هي غزو كل البرتغال والوصول إلى غاية نهر دويرة ثم الانطلاق من هناك لإخضاع طليطلة.

إن الموحدين الذين عانوا خلال السنوات السابقة للحملة من الغارات المسيحية المتكررة التي أفقدتهم عدداً من حصونهم، والذين لم يتمكنوا من الاحتفاظ ببطليوس إلا بصعوبة وبمساعدة مملكة ليون، لم يكونوا في وضعية تسمح لهم بتنفيذ المخطط الذي ينسبه لهم مؤلف المصدر البرتغالي سالف الذكر، ولا الإعداد للحملة بالدقة والأهمية التي اعتقدها دوزي. إن الصحيح هو أن الموحدين ركزوا في هذه الحملة على الجانب الكمي دون غيره؛ بحيث إنهم حاولوا تعويض تواضع القدرات القتالية لجنودهم بضم أكبر عدد ممكن من الرجال للحملة، وكان مخططهم يرمي إلى تدمير شنترين لا غير، على اعتبار أنها المركز الذي كانت تنطلق منه العمليات العسكرية البرتغالية الجريئة بالمنطقة السفلى لوادي آنة وبمنطقة الوادي الكبير.

لقد حاول يوسف الأول في حملة شنترين هذه، الاستفادة من أخطاء الحملة التي قام بها في صيف 1173م ضد وبذة، عندما فشل بجيش قوامه 100 ألف رجل[147] في احتلال مدينة صغيرة وشبه مفتوحة، مما اضطره للانسحاب بعد وصول إمدادات عسكرية من قشتالة، خصوصاً أن الجيوش الموحدية عانت قبل وصول هؤلاء، من الجوع بسبب سوء التنظيم الحاصل في عملية التموين.

147- يظهر لنا انه رقم مبالغ فيه رغم أن الذي أورده كان شاهد عيان.

وقد بدأ الخليفة بجمع قواته استعداداً لحملة شنترين في 23 سبتمبر 1183م، وفي 15 ديسمبر خرج على رأسها من مراكش (نفس التاريخ تقريباً الذي كان فيه فرناندو الثاني يتوجه نحو قاصرش) حيث حل بسلا في 27 فبراير 1184م ومنها إلى مكناس ثم فاس التي قضى بها شهر مارس، وفي 17 مايو عبر المضيق، وكان وصوله إلى اشبيلية في 25 من نفس الشهر، وبعد أن قضى بها عدة أيام غادرها نحو الشمال في 7 يونيو. في تلك الأثناء اضطر فرناندو الثاني، الذي كان يعلم بأهميتها وبالخطورة التي يمكن أن تشكلها عليه، لرفع الحصار عن قاصرش، وكان حصاراً شاقاً ومرهقاً، وانسحب نحو ثيوداد رودريكو (مدينة رودريق).

إن فهم دوافع الحملة ومراميها يحتم علينا القيام بدراسة متأنية لما يوجد بالمصادر العربية والمسيحية بصددها، لأن هذه المصادر تتضمن الكثير من المبالغات بل والأساطير، وربما نصل من خلال المقارنة بين نقاط الاختلاف والتشابه بينها إلى بعض الحقائق التي قد تكون قد بنيت عليها تلك المبالغات والأساطير.

حملة شنترين حسب المصادر العربية

بعد إشادة المصادر العربية بالاستعدادات المكثفة التي خصصت للحملة والأعداد المهمة من الجنود الذين شاركوا فيها، وجدت هذه المصادر نفسها -بشكل لاشعوري تقريباً- مجبرة على البحث عن مبررات للكارثة التي تعرض لها الموحدون بمجرد بداية حصار القلعة البرتغالية؛ فحسب البيان المغرب قامت الفيالق المتقدمة من الجيش الموحدي، وبعدها بقية القوات التي كان يوجد ضمنها أمير المؤمنين، باستعراض عسكري يومي 27 و28 يونيو أمام شنترين، وفي اليوم الموالي (الجمعة 29) هاجم الموحدون الربض الذي استولوا عليه. هذا الانتصار السهل جعلهم يعتقدون أن اختراق الجهة المحصنة من المدينة سيتم في وقت قريب جداً. وخلال الأيام الثلاثة الموالية، وقعت مواجهات عنيفة قاوم خلالها البرتغاليون ببسالة حيث أرغموا المسلمين على التراجع، كما ردوا عليهم بهجومات مضادة، ويضيف البيان المغرب بأن الخليفة أمر في ليلة الإثنين قواته برفع المخيم ونقله إلى مكان آخر، لكنه لا يقدم أي تفسير لهذا القرار ولا لسبب انهيار معنويات الجنود الموحدين والفوضى والبلبلة التي عمت معسكرهم. مقابل ذلك يتوقف عند أحداث ثانوية يحاول من خلالها تبرير الرعب الذي دب في صفوف الموحدين أثناء الانسحاب، فيشير إلى أن السيد أبا إسحاق الذي كان مكلفاً بنقل تعليمات والده إلى الجنود أصيب بكسر في رجله إثر سقوطه من فوق صهوة جواده مما توجب معه نقله ممدداً في سرير إلى المخيم. وفي نفس ذلك اليوم اعترض طريق حامية مرسية التي خرجت من المخيم بحثاً عن الكلأ، فيلق مسيحي تمكن من هزمها واستولى على خمسين من الدواب

التي كانت معها. وبحكم أن هذه الهزيمة تصادفت مع قرار رفع المخيم، فإن أحد فقهاء البلاط الموجودين ضمن الحملة ويدعى أبا الحسن علي بن عبد الله المالقي، انتابته بسببها حالة رعب ودون أن يدري وجهته، انتقل إلى مخيم العدو الذي قام بقتله. في هذا الجو من الاضطراب أصيب الخليفة بمرض أمر بسببه قواته بالانسحاب.

بعد ذلك يقدم رواية أخرى مختلفة لكنها أكثر واقعية استند فيها إلى المؤرخ أبي الحجاج يوسف بن عمر الموجود ضمن الحملة. وهكذا يخبرنا أن الأراضي الموجودة في ضواحي المدينة كانت تكسوها الغلال الفلاحية وأشجار الفواكه، كما أن الطرق الموجودة بين سياجات البساتين كانت كثيرة المنعرجات وهو ما جعل القيام بأي هجوم ناجح أمراً مستحيلاً. بسبب هذا لم يجد الخليفة من حل غير تضييق الحصار على المدينة، غير أن ذلك لم يؤد إلى أية نتيجة. في تلك الأثناء توصل الخليفة بأخبار مقلقة (تعمد البيان المغرب عدم تحديد طبيعتها) اضطر معها لرفع الحصار وعبور النهر نحو الضفة اليسرى. ورغم أن القيادة العامة الموحدية كانت قد اتخذت الإجراءات اللازمة ليتم الانسحاب بشكل منتظم، حيث قررت أن تنقل أولاً الأمتعة ثم تنسحب بعد ذلك القبائل بالتتابع كل حسب دورها، فإن الذعر سرعان ما تمكن من هذه الحشود البشرية التي تسابقت من أجل اجتياز النهر، وهو ما خلق فوضى شاملة تشتتت خلالها الجيوش الموحدية. وبخلاف ما اعتقد في المخيم، فإن الخليفة لم يكن قد اجتاز النهر بعد، في وقت قام فيه كل رجاله بذلك، وهكذا وفي الوقت الذي كان يوجد فيه بخيمته الحمراء، داهمته فرقة من القوات المسيحية المدافعة عن شنترين وأصابته بجروح نقل على إثرها إلى الضفة الأخرى للنهر. وأثناء انسحابه نحو اشبيلية أمر بالإغارة على كل المناطق المسيحية التي مر بها، إثر ذلك توقف في حصن "طروش" حيث مُدد في سرير مغطىً قبل أن يُستأنف السير، وكانت حالته قد ازدادت سوءً، وفي يوم 28 يوليوز، لفظ أنفاسه الأخيرة وهو في طريقه إلى يابرة.

تظهر لنا إذاً أكثر واقعية هذه الرواية الثانية والتي نقلها البيان المغرب عن شاهد عيان، غير أن هذا الشاهد وبحكم أنه مؤرخٌ للبلاط (سيصبح فيما بعد كاتب سيرة يعقوب المنصور)، فهو لا يتكلم عن سبب الرعب الذي انتاب الجيش الموحدي والذي أدى به إلى الانسحاب بشكل مفاجئ وفوضوي.

بالنسبة لعبد الواحد المراكشي فإنه يحاول هو الآخر التخفيف من حدة الفشل لكن بطريقة أخرى، فبسبب بطء الإيقاع الذي كانت تسير به الحملة، توفر ألفونسو هنريكيث على الوقت الكافي لتحصين شنترين وتوفير الحماية الضرورية لها اعتماداً على أحسن الرجال[148]، وبسبب استماتة هؤلاء في

148- المعجب، م. س.، ص. 156-158.

المقاومة، وخوفاً من أن يمتد الحصار إلى فصل الشتاء، مما يجعل إمكانية فيضان النهر واردة، نُصح الخليفة بالعودة إلى اشبيلية وتجديد الحصار في فصل الربيع. هذا التفسير يجبر المراكشي على جعل تاريخ حصار شنترين في نهاية فصل الخريف[149].

فيما يتعلق بحادث الفقيه سالف الذكر، فإن المراكشي أضفى عليه طابعاً روائياً، بحيث يقول إن الخليفة بعدما اقتنع بنصائح مستشاريه، قرر رفع المخيم وحدد لذلك اليوم الموالي، وكان الفقيه من بين القلائل الذين علموا بالخبر، لذا واستعداداً للرحيل فك خيمته في نفس الليلة التي علم فيها بالخبر، وعندما شاهده بقية الجنود فعلوا مثله، دون علم الخليفة، في وقت سرب فيه الجواسيس الخبر إلى مسيحيي شنترين الذين قاموا بمباغتة الخليفة في خيمته الحمراء وطعنوه برمح في بطنه، إثرها نقل إلى الضفة الأخرى للنهر حيث مدد في سرير، وقد توفي بعد يومين أو ثلاثة من ذلك.

وبخصوص صاحب روض القرطاس فإنه يتهرب من إعطاء تفسير منطقي لما وقع[150]، ويقدم بدل ذلك رواية يلفها الغموض، فحسبه قرر الخليفة، بعد أن وضع مخيمه شمال شنترين التي قام بمحاصرتها، قرر بشكل مفاجئ نقل المخيم جهة الغرب وهو ما لم يرق بقية القوات والتي كانت تجهل سبب هذا التصرف، في نفس الوقت أمر ابنه السيد إسحاق (عامل اشبيلية) بالخروج على رأس القوات الأندلسية للإغارة على ضواحي لشبونة، غير أن السيد فهم الأمر خطأً إذ اعتقد أن ما طلب منه هو الانتقال في تلك الليلة إلى اشبيلية، وعندما شاهد بقية الجنود ذلك اعتقدوا أن الخليفة أمر برفع المخيم، لذا قاموا هم كذلك بمغادرته، وفي فجر اليوم الموالي، وكان الخليفة لا يعلم شيئاً بمغادرة قواته للمخيم، هوجم من طرف العدو. وقد دافع عن نفسه بشجاعة الأسد حيث قتل ستة من المسيحيين بالإضافة إلى ثلاثة من جارياته ارتمين عند قدميه، قبل أن يسقط جريحاً. إثر ذلك انتقل مع من بقي معه من القوات إلى اشبيلية، ومنها إلى الجزيرة الخضراء التي لفظ أنفاسه بها يوم 13 يوليوز عندما كان على أهبة عبور المضيق.

أما مؤلف الروض المعطار فيكتفي بالقول إن الأسطول الموحدي وصل أولاً إلى لشبونة التي حاصرها لمدة عشرين يوماً، قبل أن ينتقل الخليفة على رأس 100 ألف من قواته لمحاصرة شنترين وهي أهم مدينة بمملكة ابن الرنق (ألفونسو هنريكيث)، وكان ينطلق منها في غاراته ضد المسلمين، وأثناء الحصار سيصاب الخليفة بالمرض الذي سيكون سبباً في وفاته. وكان قد أجبره على أخذ طريق العودة، بحيث مدد على سرير ووضع على ظهر مطيته. وخلال الأيام الموالية وأثناء أخذه لطريق العودة لم تزدد

149- نفسه، م. س.، ص. 220.

150- روض القرطاس، م. س.، ص. 193.

حالته إلا سوءاً، وهكذا، وفي الوقت الذي اقترب منه بعض أفراد خاصته لتفقد حالته، وجدوه ميتاً. وقد حل محله مباشرة ابنه يعقوب الذي تولى قيادة الجيش وهو في طريقه إلى اشبيلية[151].

وبخلاف كل هذه الروايات، فإن ابن خلدون وبموضوعيته المعهودة لا يعير كبير اهتمام لهذه الخرافات، ويرى أن يوسف الأول حاصر شنترين بضعة أيام ثم أمر برفع المخيم، وعندما بدأ جنوده بالانسحاب مع طلوع النهار، خرج النصارى من المدينة وباغتوا الخليفة الذي قاوم بشجاعة. وعن وفاته يقول ابن خلدون إنها حدثت في نفس اليوم الذي هوجم فيه، لكنه لا يستبعد ما ورد في بعض المصادر من كون الوفاة حدثت وهو في طريق عودته وأن ذلك تم بسبب مرضه.

حملة شنترين حسب المصادر المسيحية

الظاهر أن دوزي لم يطلع على عدد من المصادر المسيحية المهمة أو أنه اطلع عليها ولم يعرف كيف يستفيد منها، وهكذا نجده يتوقف بالخصوص عند تلك التي تفتقد المصداقية ويغلب عليها الطابع الخيالي؛ فهزيمة الجيوش الموحدية، والعشوائية والفوضوية التي انسحبت بها، يعتبر بالنسبة له لغزاً غير مفهوم، قنعه المؤرخون المسلمون بأقنعة شتى، بينما لم يوله المؤرخون المسيحيون الاهتمام الذي يستحق. فـ"راوول ديسيتو" Raul de Diceto لم يقدم أي تفسير لما حدث، ومؤلف كتاب "التاريخ البرتغالي" يوقف وبشكل مفاجئ روايته عن الحملة عند توجه يوسف إلى شنترين، وهو ما يأسف له دوزي، الذي يورد بشكل مقتضب، بعض ما ورد عن الحملة في كتاب "أخبار تاريخية عن قلمرية". وبخصوص سكوت المؤرخَيْن الإسبانيين "لوكاس دي توي" Lucas de Tuy و"رودريغو خيمينث دي رادا" Rodrigo Ximénez de Rada عن الحملة، يقول دوزي إن مرده كونها لا تهم تاريخ إسبانيا، وهو تبرير غير مقنع بالمرة وذلك لأن مصدراً إسبانياً آخر هو "التودينسي" El Tudense يتوقف عندها، ويحاول ان يبحث في سبب هزيمة يوسف الأول، كما يحاول أن يجد تفسيراً معقولاً لقرار الانسحاب المفاجئ[152]. غير أن ما هو أدهى من كل ذلك، هو عدم اعتماد دوزي على كتاب "التاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيث" وهو أكثر المصادر المسيحية إسهاباً في تناول الحملة، حيث يخصص لها فصلين كاملين.

إن المصدر المسيحي الوحيد الذي يعيره دوزي عناية خاصة ويتبنى ما ورد فيه بصدد الحملة هو كتاب "راوول ديسيتو"، علماً أن إطلالة سريعة على ما كتبه هذا الراهب الإنجليزي، تجعلنا نقتنع أن ما يرويه لا يمكن أن يسلم به العقل البشري، لأنه -في نظرنا- يفوق المصادر العربية

151- الروض المعطار، م س.، ص. 175.

152- Hispania illustrada .IV .P . 107

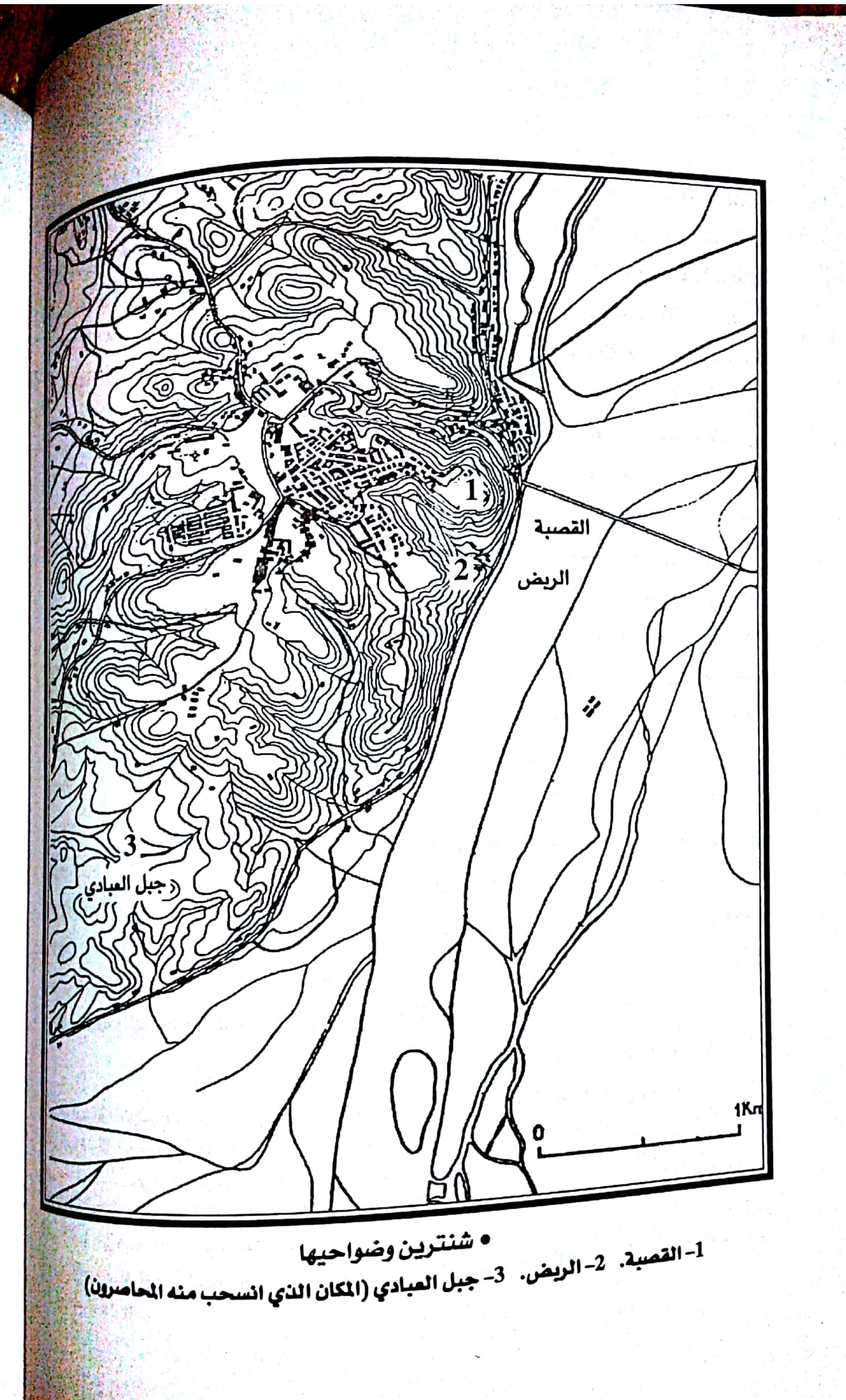
فيما يتعلق بمزج أحداث الحملة بعنصر الخيال[153]؛ فهو يرى أن حصار شنترين من طرف يوسف الأول بدأ يوم 24 يوليوز (يوم عيد القديس يوحنا)، وبعد قتال عنيف دام ثلاثة أيام بلياليها، تمكن الوحدون من دخول المدينة عبر ثغرة أحدثوها في سورها، لكن في اليوم الموالي وصلت قوات برتغالية جديدة كان على رأسها كل من مطران مدينة أويورتو وابن ملك البرتغال، تمكنت من قتل 15 ألفاً من جنود الوحدين، شكلت جثثهم سوراً بشرياً أغلق بواسطته الثغر الذي أحدثه هؤلاء في سور المدينة. وفي اليوم الموالي (26 يونيو) حضر مطران شنت ياقب (Santiago) ومعه 20 ألف رجل تمكن بواسطتهم وفي فجر نفس اليوم من قتل 30 ألف مسلم. ولا يذكر المصدر بعد ذلك أي شيء عن الأحداث منذ اليوم الذكور وإلى غاية 20 يوليوز؛ التاريخ الذي يقول إن المسلمين قاموا فيه بذبح عشرة آلاف من النساء والأطفال المسيحيين في منطقة القصبة الواقعة على مسافة 100 كلم من شنترين، كما قاموا بإبادة ثلاثة ملوك مسيحيين مع جيوشهم[154]. ودائماً حسب "ديسيتو"، فإن الخليفة علم في 24 يوليوز أن ملك جليقية فرناندو الثاني قد أخذ طريق شنترين، يدفعه التحدي والرغبة في الدخول في مبارزة شخصية معه، وهو الشيء الذي قبل به الخليفة الذي بدأ بالاستعداد للمنازلة، لكنه قبل ذلك سيسقط من صهوة جواده ثلاث مرات متتالية كانت الأخيرة سبباً في وفاته، في وقت لاذ فيه كل جنوده بالفرار مخلفين وراءهم عتادهم وأمتعتهم التي ظفر بها عدوهم. إن هذا الراهب ذا الخيال الخصب و"بقتله" للخليفة بهذه الطريقة، وقبل أن تبدأ المبارزة، يحرمنا من الاستمتاع بمشهد فريد من نوعه[155].

غير أن خيال الراهب لم يتوقف عند هذا الحد، فقد قام الأسطول الموحدي حسبه، وفي نفس الوقت الذي لاذ فيه مرافقا الخليفة بالفرار، بمحاصرة لشبونة، وكانت توجد ضمن الأسطول معبرة وضعت بها آلة عجيبة كانت تنقل قوات الأسطول إلى داخل المدينة متجاوزة الأسوار دون أدنى صعوبة، وبما أنه كان بلشبونة شخص مسيحي يعرف كيف يغطس تحت الماء، فقد وصل إلى المعبرة وخرقها مما أدى لغرقها، لكنه قبل ذلك تمكن من أخذ الآلة العجيبة، دون مقاومة من المسلمين بل ودون أن يكلفه ذلك مجهوداً كبيراً، وعلقها على سور المدينة لتكون شاهداً على ملحمته.

153- Radulfus de Diceto . Edc . Stubbs . Tomo II . Pp . 28-30 .

154- في البداية لفت انتباه دوزي كيف يكتب شخص يقيم في إنجلترا عن حملة الخليفة الموحدي إلى البرتغال في وقت كانت فيه وسائل الاتصال محدودة جداً، ويتساءل أليس من الأجدر أن تقبل روايته بنوع من التحفظ، لكنه بعد ذلك يتخلى عن هذا التحفظ ويرى أن أخبار ما حدث في شنترين وصلت إلى مسامع "ديسيتو" عن طريق شخص انجليزي سمعها من شخص برتغالي كان ضمن موكب الأميرة "طيريسا" Teresa (ابنة ألفونسو هنريكيث) التي انتقلت إلى انجلترا بعد عقد قرانها على كونط فلاندرا قريب ملك إنجلترا.

155- يتدارك دوزي الموقف في النهاية ويرى أن ما يورده الراهب بشأن المبارزة بين الملكين هو ضرب من الرومانسية التي من الخطأ القبول به.



• شنترين وضواحيها

1- القصبة. 2- الريض. 3- جبل العبادي (المكان الذي انسحب منه المحاصرون)

ويكفي مقارنة سخافات "ديسيتو" ومبالغات المصادر العربية، بما جاء في كتاب "التاريخ العام الأول" الذي استند إلى كتاب "لوكاس دي توي"[156]، ليتبين لنا كيف جانب الراهب الإنجليزي والمؤرخون المسلمون الحقيقة[157].

ويُقدم لنا من جهته كتاب "التاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيث" روايتين مختلفتين عن هذا الحدث التاريخي، الأولى والأقرب إلى التصديق لا تختلف كثيراً عن تلك التي وردت في "التاريخ العام الأول"، وهي كذلك كما هو الشأن بالنسبة للمصدر المذكور استندت إلى "التودينسي" El Tudense، وقد أخطأت فقط في تحديد التاريخ الذي جعلته 1172م بدل 1184م، أما الثانية فإنها خلطت بين هذه الحملة وتلك التي قام بها يعقوب المنصور عام 1190م، غير أنها وعلى الرغم من وقوعها في هذا الخطأ وأخطاء أخرى، وتشويهها لبعض الحقائق، فإنها تقدم معلومات مفيدة خصوصاً فيما يتعلق بالحصار والذي تناولت مراحله المختلفة بإسهاب وإفاضة.

لقد خرج ملك البرتغال حسب هذه الرواية على رأس فيالقه قاصداً شنترين، وهو آنذاك ليس بالملك الشاب القوي الذي يمكنه أن يحارب بنفس الحيوية التي كان يقوم بها من قبل، في نفس ذلك الوقت مر أبو يعقوب (يوسف الأول) بمنطقة "أليتخو" حيث سلب ونهب وضرب بحد السيف كل من صادف في طريقه من المسيحيين. وحسب ذات المصدر فإن يوسف عبر يوم الأحد 24 يونيو (عيد القديس حنا) على رأس قواته نهر تاجة حيث هاجم حصن طرش الذي قام بتخريبه، قبل أن يواصل السير صوب "مونتي بومبيو" Monte Pompeu الذي توقف به يوم الإثنين 25، ثم صوب ردنة التي وصلها يوم الثلاثاء 26، فإلى حرطة لوجة التي وصلها يوم الأربعاء 27، وذلك قبل أن يأخذ طريق شنترين يوم 28.

لقد كان معظم سكان هذه الأخيرة يقيمون بالربض الموجود على ضفتي النهر، وبما أنهم كانوا معرضين أكثر من غيرهم لخطر الموحدين، فإن حامية المدينة شيدت حولها وبشكل عشوائي سياجاً مؤقتاً من البراميل والأبواب والأتراس، كما قامت بتدمير منازل الربض التي بقيت خارج السياج بسبب كثافتها، وخلال الأيام الخمسة الموالية، ردت هجومات الموحدين المتكررة التي انهار

156- راهب ومؤرخ قشتالي توفي سنة 1249 م.

157 Op. Cit. Primera Cronica General. P. 678 y el Tudense, Hispania illustrada " IV- 107.

جزء من السياج، مما جعل من كان يحتمي به في وضعية مكشوفة ترتب عنها سقوط العديد من القتلى، في وقت بدأ فيه التفكير في مغادرة الربض والالتجاء إلى القصبة[158].

ويقول "دوارتي كالباو" Duarte Galvao مؤلف كتاب "التاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيث" في رواية أولى، إن أخباراً وصلت في هذه الأثناء المحاصَرين والمحاصرين، مفادها أن ملك ليون يقترب مع جيشه من شنترين، وأن يوسف الأول وفي نفس الليلة التي علم فيها بذلك (12 يوليوز) أعطى الأوامر برفع الحصار. وقد علم جنود شنترين بالرعب الذي دب في معسكر الموحدين وهو ما استغلوه، حيث هاجموه بعنف مع طلوع ضوء النهار، مما نجم عنه قتل وجرح الكثير من الموحدين من بينهم أمير المؤمنين الذي أصيب بجروح بليغة، في نفس الوقت ظفر المهاجمون بغنائم مهمة. بينما يقول ذات المصدر في الرواية الثانية (خلط فيها بين هذه الحملة وحملة يعقوب المنصور وجعل الفونسو هنريكيث مكان فرناندو الثاني) إن الموحدين انسحبوا بشكل تدريجي إلى مكان يبعد كيلومترين عن المدينة يعرف باسم جبل العبادي، وأن ملك البرتغال تمكن

---

158 - يصف مخطوط De expugnatione Scalabis المكتوب باللاتينية و" التاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيث" المكتوب بالبرتغالية، تضاريس شنترين أثناء حصار المسلمين لها، فيوضحان أن هجوم هؤلاء استهدف الجهة الغربية حيث دمروا الأسوار والمعاقل والابراج، وكانت هذه الجهة هي الأنسب للهجوم بحكم انبساطها النسبي، مقارنة مع بقية الجهات، وكانت لذلك تعرف باسم al-Plan (السهل)، ويعود سبب ذلك الانبساط للتربة التي كانت تنقل إليها على ظهور الأسرى، والتي ملئت بها الهوة الموجودة هناك. وبالنسبة للجهة الشرقية فإن تضاريسها تأخذ انحداراً عمودياً لدرجة أنها سميت بالعربية بالحافة، وكانت ترمى منها جثث الذين نفذ فيهم حكم الإعدام، والتي كانت بسبب شدة الانحدار تتدحرج إلى أن تنتهي في نهر تاجه. أما الجهة الجنوبية فإن عوامل التعرية عملت عملها بحيث حولتها إلى هوة سحيقة عرفت لذلك باسم "الحنشة" (الحنش)، وبسبب ذلك لم يكن من السهل الوصول إليها إلا من خلال بعض المنافذ الجانبية. ومن جهة الشمال فللمنطقة نفس الحماية الطبيعية والمتمثلة في تضاريس صخرية وعرة. ويصف لنا الإدريسي تضاريس شنترين عام 1154م (30 سنة قبل حصارها)، فيقول إنها شيدت فوق جبل مرتفع توجد في جهته الجنوبية حافة شديدة الانحدار، وفي سفحه، ربض يمتد إلى النهر، لم تكن له أسوار على عهد الإدريسي. ويمكن أن نفهم من كلام الإدريسي أن الأمر يتعلق بالربض الذي أشرنا إليه. من جهته يجعل صاحب روض القرطاس الذي يجهل طبغرافية المنطقة، الخليفة يضع مخيمه شمال المدينة في مكان غير مناسب تماماً وذلك بسبب انحداره وطابعه الصخري، ثم ينتقل من هناك حسبه إلى الجهة الغربية، دون أن يتنبه إلى أن هذه المنطقة كانت توجد بها القصبة والتي قوى بها المحاصرون قدراتهم الدفاعية، كما لم ينتبه إلى أن كل هجمات الموحدين تركزت على الربض الموجود جهة الجنوب. أما صاحب البيان المغرب فيقول أن الموحدين وضعوا مخيمهم بالجبل المرتفع المطل على شنترين، وهو أعلى نقطة بالمنطقة حسب ما يفهم من كلامه، لكن هنا يجب التوضيح أنه لا يوجد هناك أي مكان أكثر ارتفاعاً من القصبة التي يصل علوها إلى 180 متراً والتي يليها من حيث الارتفاع المكان الذي توجد به المقبرة في الوقت الحاضر والذي يصل علوه إلى 103 أمتار، وبين النقطتين توجد الهوة السحيقة التي كانت تعرف باسم الحنشة.

في تلك الأثناء، وبتنسيق مع القوات التي يقودها ابنه وكذا مع حامية شنترين، من هزم الموحدين والاستيلاء على مخيمهم. وتضيف الرواية معلومات غريبة عن الحملة نجهل مصدرها، تشبه إلى حد ما تلك التي وردت عند "راوول دوسيتو"؛ فالموحدون حسبها وبعد انهزامهم وفرارهم، وبعد عبورهم نهر تاجة توجهوا لمحاصرة "ألنقير" Alenquer التي تبعد عن شنترين مسافة أربعين كلمتراً، شجعهم على ذلك عددهم الذي كان لا يزال مرتفعاً، لكنهم فشلوا في احتلالها. إثرها توجهوا إلى رودة التي قاموا بنهبها وتخريب حقولها قبل أن يتوغلوا في منطقة الجوف البرتغالية. ودون أن يأبهوا بالخطر الذي يمكن أن يأتيهم من طرف البرتغاليين والليونيين حاصروا "تورش بردش" لمدة أحد عشر يوماً دون أن ينجحوا في إخضاعها. آنذاك فقط -حسب هذه الرواية- لاحظوا التراجع الحاصل في عدد جنودهم وفي ثرواتهم وعدتهم وعتادهم وقرروا أخذ طريق العودة، والتي لفظ خلالها ملكهم أنفاسه الأخيرة متأثراً بجراح أصيب بها في إحدى المواجهات التي كانت لهم مع المسيحيين[159].

وإذا كان تعدد الروايات حول حملة شنترين يحتم علينا عدم الأخذ برواية بعينها، فإن تضارب التواريخ حول المواجهات التي وقعت خلال الحملة والتي كان التراب البرتغالي مسرحاً لمعظمها، يفرض علينا عدم التسليم وبشكل تلقائي ببعض هذه التواريخ ورفض البعض الآخر. بل يجب استناداً على كل هذه التواريخ القيام بعملية ضبط لكرنولوجية الحملة؛ وهنا إذا اعتبرنا أن المدة التي استغرقتها الحملة من اشبيلية إلى شنترين هي عشرون يوماً[160] -علماً أنه لم يحدث أي طارئ يمكن أن يؤخرها- وإذا سلمنا بصحة ما جاء عند المؤرخ البرتغالي "بوتيلو دا كوستا بيغا" Bothelo da Costa Veiga ، الذي اعتمد مصادر من القرون الوسطى، بخصوص الطريق التي سلكها الجيش الموحدي إثر انسحابه من شنترين[161]، فإن هذا الجيش سيكون قد ترك المدينة في 3 يوليوز، وفي اليوم الموالي وصل إلى "النقير" التي تفصلها عنها مسافة أربعين كلمتراً، حيث حاصرها خلال الفترة الممتدة ما بين 5 و 10 يوليوز (علماً أن فيلقاً من الجيش توجه لنهب رودة في نفس فترة الحصار)، قبل أن يغادرها يومي 11 أو 12 يوليوز نحو تورش بردش التي تفصلها عنها مسافة 31 كلم، والتي تم حصارها لمدة أحد عشر يوماً (ما بين 12 و 22 يوليوز).

159- Op. Cit. Cronica de Alfonso Henriquez. p . 137.

160- Op. Cit. Chronicon Lusitano. En Flores, Espana Sagrada. XIV. P. 431.

161- Estudios de Historia Militar Portuguesa . Tomo. I . p . 265

إن قبول هذه الكرنولوجية يجعل المدة التي استغرقها الجيش الموحدي في طريق عودته هي 18 يوماً، لكن إذا أخذنا بعين الاعتبار أن الحملات الموحدية التي يقودها الخليفة يكون إيقاعها بطيئاً، فإن الحالة التي نحن بصددها ستكون أبطأ لكون الخليفة كان يعاني من جروحه الخطيرة، ولكون طريق العودة أضيف لها على الأقل 60 كلمتراً مقارنة مع طريق الذهاب والتي قطعها الموحدون في عشرين يوماً كما مر بنا، في وقت كان الخليفة في صحة جيدة ويتمتع بمعنويات عالية.

لقد اعتمد "دوارتي كلباو" Duarte Galvao على مصادر موثوق بها وأخرى تفتقد لكل مصداقية، دون أن يقوم بتمحيصها بشكل يزيح عنها غبار المبالغة والأخطاء، ولعل أبلغ دليل على ذلك، خلطه بين حملة شنترين هذه، وحملة حصن طرش وطمان، دون مراعاة للتاريخ الذي وقعت فيه كل واحدة منهما، حيث حدثت الأولى عام 1184م على عهد يوسف الأول، كما نعلم، بينما حدثت الثانية عام 1190م على عهد يعقوب المنصور كما تؤكد ذلك رسالة بعث بها هذا الأخير في 31 يوليوز من السنة المذكورة إلى سكان سبتة[162].

استنتاجات تاريخية حول الحملة

بعد أن توقفنا عند مختلف المصادر التي تتناول الحملة والتي تقدم لنا معلومات يغلب عليها عادة الطابع الذاتي، حيث يقوم كل مؤرخ بالتخفيف من حدة فشل أبناء ملته بنفي أو على الأقل بالتقليل من أهمية نجاح العدو، سنحاول من خلال بعض المعلومات المقبولة منطقياً والتي وردت في هذه المصادر، إعادة بناء الأحداث وذلك بهدف تقديم صورة عن الحملة تكون، حسب تقديرنا، أقرب من غيرها من حقيقة ما وقع.

ففرناندو الثاني ملك ليون الذي عرف بشجاعته وغيرته على المسيحية ورغبته الكبيرة في محاربة المسلمين وتوسيع مملكته على حسابهم، تناسى كل ذلك عندما هددت البرتغال وقشتالة مملكته وعرشه، ودخل في تحالف مع الموحدين سمح له من جهة بصد هجومات الكونط "تونيو دي لارا" والملك ألفونسو الثامن، ومن جهة أخرى بإيقاف الزحف البرتغالي على الضفة اليسرى لوادي آنة، بالمنطقة التي آلت لمملكة ليون، بمقتضى معاهدة "ساكون" Sahagon التي وُقعت عام 1158م [163].

162- توجد ضمن مجموع رسائل موحدية، م. س.، ص. 118 وما يليها.

163- J. Gonzalez "Regesta de Fernando II" p. 28

لكنه بعد أن حل معظم خلافاته مع الدولتين المسيحيتين، ووقع على اتفاقية "فرينسو-لابانديرا" Fresno-Lavandera السلمية في فاتح يوليوز 1183م مع قشتالة، تخلى عن تحالفه مع الموحدين، وحاصر مدينة قاصرش واضعاً بذلك حداً لسنوات من التعايش السلمي بين مملكته والمسلمين.

من جهته قرر أمير المؤمنين يوسف الأول والذي لم يخرج في حملة ضد ممالك المسيحيين منذ 1172م، في وقت كثف فيه هؤلاء هجماتهم على المقاطعات الموحدية بالأندلس، خصوصاً أثناء انشغاله هو بالتمردات التي كانت تعرفها بلاد المغرب، قرر توجيه حملة ضد شبه الجزيرة الإيبيرية تكون على درجة كبيرة من الأهمية. اختار كهدف لها مملكة البرتغال، وذلك لكونها أضعف الممالك المسيحية بها، ثم لكونها الأكثر ازعاجاً للموحدين، بحيث إن الغارات التي كان يقودها انطلاقاً من حصن شنترين، ألفونسو هنريكيث ورجاله الأجراء من أمثال خيراردو سام بابور، كانت تلحق أضراراً متعددة بمنطقتي الجوف وغرب الأندلس.

لقد استعد الموحدون للحملة بشكل كبير، وحشدوا لها أعداداً مهمة من الجنود، لكن الإيقاع الذي سارت به بعد انطلاقها كان بطيئاً جداً كما رأينا، ولإعطاء فكرة عن هذا البطء، يكفي التذكير أنها قطعت المسافة بين اشبيلية وحصن الأنج في ثمانية أيام، بحيث غادرت الأولى في 7 يونيو ولم تصل الثاني إلا في 15 منه، بعدما كان ملك ليون قد رفع الحصار عن "قاصرش" وانسحب نحو "ثيوداد رودريكو"، كما أنها غادرت بطليوس يوم 21 ولم يصل جيش الطليعة منها إلى نهر تاجة إلا يوم 27 [164].

هذا البطء وفر للبرتغاليين الوقت الكافي لتهييء الحماية اللازمة، وكذا المؤونة الضرورية لحصن شنترين تحسباً لحصار قد يطول أمده، في نفس الوقت وانطلاقاً من الحصن وقبل وصول المسلمين، شنوا هجمات مضادة ناجحة على أراضي هؤلاء، استغلوا فيها الحواجز الطبيعية المتمثلة في البساتين والأشجار وكذا السياجات التي أقاموها، بعد أن علموا بانطلاق الحملة، بهدف إعاقة تحرك جيوشها، خصوصاً العرب منهم والمتعودين على القتال في المجالات المفتوحة اعتماداً على خطة الكر والفر[165].

164- البيان المغرب، م. س.، ص. 106.

165- يشير مؤلف البيان المغرب(ص.104-107) إلى أن المواجهات وقعت في البساتين والحراج الموجودة بضواحي المدينة، وأن المسيحين كانوا يختفون وراء هذه الحراج السميكة ثم يتركونها في هجومات مباغتة، وأنهم لم يتراجعوا خلف اسوار قصبة شنترين إلا بعد إدراكهم للخطر الذي أصبح يحيق بهم نتيجة التفوق العددي للموحدين. بخلاف ذلك يجعل مؤلف "التاريخ البرتغالي لألفونسو هنريكيث" منطقة الربض مسرحاً لكل المواجهات، ويقول إن الموحدين قاموا بتدمير سياجه، وهو ما لاينفيه البيان الذي يقول إن الموحدين هاجموا الربض.

لقد سمح التفوق العددي للموحدين باحتلال ربض شنترين لكن بعد قتال عنيف. في تلك الأثناء كانت قد مرت أربعة أيام على بداية المواجهات، ترك فرناندو الثاني "ثيوداد رودريكو" التي تراجع إليها بعد انسحابه من قاصرش وتوغل داخل التراب البرتغالي بهدف تقديم النجدة للمحاصرين، وذلك تنفيذاً لما تعهد به إثر توقيع اتفاقية "فرينسو لابانديرا"[166].

وبعدما علم الخليفة باقتراب فرناندو من شنترين، وإدراكاً منه للخطر الذي أصبح يشكله عليه هذا التحالف البرتغالي- الليوني، قرر رفع الحصار والانسحاب، وكان ذلك في الثاني من يوليوز[167]، في وقت أدرك فيه أن احتلال شنترين أصعب مما كان يتوقعه، وهو ما سكتت عنه المصادر العربية أو على الأقل تناولته بشكل غامض يجعل انسحاب الخليفة وما تلاه من أحداث شيئاً يصعب فهمه.

الانسحاب من شنترين

حرص رجال البلاط وقادة الجيش على أن يتم الانسحاب بشكل منظم واتخذوا الإجراءات اللازمة لذلك، حيث قرروا أن تنقل الأمتعة أولاً ثم تنسحب كل قبيلة عندما يأتي دورها، وكان مع الموحدين الوقت الكافي للقيام بذلك وفق ما خُطط له، غير أن حالة رعب غريبة انتابت المخيم في تلك الليلة (الثاني من يوليوز)[168]، بدأ معها الجميع يتسابق من أجل العبور تاركين الخليفة إلى الوراء. وفي فجر اليوم الموالي تنبهت قوات شنترين إلى حالة الفوضى تلك وهاجمت ساقة الجيش الموحدي وخيمة الخليفة الحمراء التي كان لا يزال بها، وأصابته بجروح اضطر معها إلى اجتياز النهر إلى الضفة اليسرى حيث تم توفير الحماية اللازمة له[169].

بعد ذلك قام ابنه وخليفته يعقوب المنصور والذي تؤكد الكثير من الدلائل شجاعته وإقدامه، عندما تولى الحكم، قام بمجهود كبير لإنهاء عملية الانسحاب بطريقة أحسن من التي بدأت بها،

166- في 27 سبتمبر وبعد أقل من شهرين من عودته من قلمرية، تنازل فرناندو الثاني لمطران شنت ياقب وفي شخصه لكنيستها، عن قرية "يقلة" Yecla وذلك كتعويض عن الأموال الكثيرة التي أنفقتها الكنيسة في خدمته: "خصوصاً في الحملة التي وجهناها إلى البرتغال لطرد المسلمين منها" حسب تعبير "خ-كونثالث" J-Gonzalez في كتابه: "Regesta de: Fernando II" p. 497. لقد كانت مساهمة مطران شنت ياقب في القتال ضد المسلمين ودخول فردنان الثاني البرتغال بهدف تقديم المساعدة، بمثابة الزاد الذي غذى به "راوول ديسيتو" Raul Decito خياله الخصب أثناء تناوله لحملة الموحدين ضد شنترين.

167- البيان المغرب، م. س.، ص. 67.

168- نفسه، ص. 110.

169- نفسه، ص. 68.

وهكذا جمع قواته في جبل العبادي وأرغم قوات شنترين المهاجمة على التراجع. في تلك الأثناء أرسل والده من يأمره بالحضور عنده على وجه السرعة، ولم يهدأ خاطره إلا بعدما رآه أمامه على الضفة الأخرى لنهر تاجة، في وقت لم يعد هناك من خطر يتهدد الموحدين، خصوصاً مع وجود الحاجز الطبيعي الذي يمثله النهر. من جهة أخرى يجب التذكير أن الموحدين لم يفكروا بالمرة في اجتياز النهر من جديد قصد نهب المنطقة الشمالية من لشبونة، بخلاف ما يدعي دوزي والذي اعتمد هنا على خصوبة خيال كل من "راوول ديسيتو" و"دوارتي كالباو" (في روايته الثانية المغلوطة التي سلف ذكرها) واللذين يجعلان الموحدين يجتازون من جديد النهر، وهو ما يخالف ليس فقط ما ورد في المصادر المسيحية، بل والعربية كذلك والتي ما كانت لتسكت عن عمل مثل هذا، على اعتبار أنه يخفف معنوياً من حدة فشل حملة شنترين وعواقبها المفجعة.

لقد كانت معنويات الجيش الموحدي بعد اجتياز النهر منهارة، خصوصاً بعد الجراح الخطيرة التي أصيب بها الخليفة، وبالتالي لم يكن في وضعية تسمح له بالعودة إلى الضفة الأخرى من جديد قصد مهاجمة العدو، لأن ذلك كان يعني تطويقه من طرف القوات البرتغالية والليونية في المنطقة الممتدة بين لشبونة وشنترين.

وأثناء عودة الموحدين إلى اشبيلية عبر الأراضي التابعة للعدو، قاموا بأعمال النهب وإراقة الدماء وإضرام النيران في كل منطقة "الينتخو" دون أن يقف أحد في وجههم، لأن كل القوات البرتغالية والليونية كانت بشنترين، وعلى هذا المنوال واصل الموحدون السير إلى أن وصلوا إلى حصن طرش[170] حيث ضربوا مخيمهم بربوة بجواره دون أن يقوموا باحتلاله. في تلك الأثناء والتي خلد فيها الخليفة للراحة والعلاج، أمر بشن غارات على أراضي المسيحيين كانت الغاية منها القيام بأعمال النهب والحصول على الغنائم وخصوصاً المؤونة التي بدأت تنفد من المخيم[171].

170- إن حصن طرش الذي يجعله صاحب البيان المغرب بمنطقة الينتخو لا يمكن أن يكون هو تورش بردش كما يظن دوزي، ولا حصن طمان، والحقيقة انني لا أستطيع ضبط مكانه، كما لا يمكن أن نسلم حول مكانه بما ورد عند ابن عذاري، لأنه ونساخه غير أندلسيين، لذا فهم يجهلون أسماء الأماكن في شبه الجزيرة، والتي يكتبونها في كثير من الأحيان بشكل غير مضبوط.

171- كان العدد الكبير من الجيوش التي تشارك عادة في الحملات الموحدية تجعل المؤونة قليلة وإن كثرت، وفي الكثير من الحالات كان هذا سبباً في فشل حملاتهم والتي تضطر القوات المشكلة لها ولتفادي مجاعة محتملة رفع الحصارات التي كانت تقوم بها، قبل الأوان، وقد وقع هذا ليوسف الأول نفسه، سنوات قبل حملة شنترين عندما اضطر لرفع الحصار عن "وبذة"، كما وقع بعد ذلك لخلفه يعقوب المنصور أثناء حصار "طمان" حيث اجبر على رفع حصار، كانت كل الدلائل تؤكد نجاحه، والعودة بسرعة إلى إشبيلية بسبب نقص المؤونة في مخيمه وتعذر الحصول عليها في المنطقة التي كان يوجد بها، وكذا تعذر وصولها من قرطبة كما يؤكد الخليفة نفسه ذلك في رسالته الرسمية التي سلف ذكرها.

ويتبنى دوزي هراء صاحب "التاريخ البرتغالي" الذي يقول إن يوسف الأول كان ينوي السيطرة على كل البرتغال والوصول إلى غاية قلمرية التي سينطلق منها بعد ذلك وعبر نهر دويرة في اتجاه طليطلة ليحتلها هي الأخرى، وأنه قرر عدم التراجع عن قراره ذاك حتى ولو اجتمع ضده ملوك فرنسا وأنجلترا وأرغون وقشتالة وجليقية والبرتغال. بعد ذلك يتبنى دوزي هراء "راوول ديسيتو" والذي لا يقل سخافة عن ذاك الذي ورد عند صاحب "التاريخ البرتغالي"، بحيث يحول انسحاب الموحدين من أمام شنترين إلى هجوم حاصروا خلاله كلا من لشبونة و"القبشة" Alcobaza التي أبادوا ساكنتها. ولا يتوقف دوزي في تفسيره الخاطئ للأحداث عند هذا الحد بل يتجاوز ذلك، وهكذا يفهم ما جاء في البيان المغرب بطريقته الخاصة، عندما يقول وبكل سذاجة إن حصن طرش (هكذا كتب في مخطوط كوبنهاكن)[172] الذي وضع أمامه أمير المؤمنين مخيمه هو طرش بردش، دون أن يأخذ بعين الاعتبار كل الدلائل الموجودة والتي تؤكد أن المكان الأول ليس هو الثاني.

وقد بقي الخليفة طريح الفراش بحصن طرش عدة أيام لم يتمكن خلالها أحد من رؤيته، بعد ذلك واصل السير حيث مدد في سرير مغطى يحميه من الحر والبرد وضع على صهوة جواده، وكان يسهر على علاجه أحسن أطباء الأمبراطورية. ويشير صاحب البيان المغرب في رواية أولى أنه وبعد أن ابتعد عن طرش بعدة أميال، وعندما توجه خدمه إلى السرير وجدوه جثة هامدة، لكن نفس المصدر يورد بعد ذلك رواية أخرى تقول إنه توفي بطريق يابرة. ويرجع دوزي سبب اختلاف المصادر العربية في تحديد يوم ومكان وفاة الخليفة إلى قيام كبار رجال الدولة بإخفاء الوفاة إلى أن يصل إلى اشبيلية كل الجيش وكذا وارث العرش.

لقد قطع الجيش الموحدي المسافة بين اشبيلية وشنترين أثناء رحلة الذهاب في عشرين يوماً كما سلف ذكره، وهي مدة معقولة في نظرنا إذا أخذنا بعين الاعتبار معنويات الجيش العالية ورغبته في الإسراع ما أمكن لمباغتة المدينة التي ينوي إخضاعها، أما العودة والتي تمت عبر طريق يابرة فقد استغرقت ما يزيد عن الشهر، ويرجع سبب التأخر دون شك إلى المعنويات المنهارة للجيش وحالة الاحتضار التي كان عليها الخليفة، وهكذا فقد عبر ولي العهد نهر تاجة يوم 3 أو 4 يوليوز ولم يصل إلى اشبيلية إلا يوم 6 أو 7 غشت، وبعده بثلاثة أيام، وصلت الفيالق الأخيرة من الجيش والذي استقر بالمدينة وضواحيها، وذلك قبل أن تتم مبايعة يعقوب المنصور بشكل رسمي.

172- في مخطوط لندن نقرأ "طرش" وفي مخطوط باريس نقرأ "هرش".

اعتبارات عامة

يقدم لنا دوزي، يوسف الأول في صورة الملك الهمام المتحلي بروح العدالة والانضباط، وهو ما انعكس إيجاباً على عصره الذي ساد فيه الأمن والازدهار وسمح باغتناء الدولة، أولاً بثرواتها وثانياً برجالها الأفذاذ، لذا يرى في الكارثة التي أودت بحياته لغزاً غير قابل للتفسير، وإلا كيف يمكن أن يمنى بهذا الفشل الذريع قائد عظيم تحت تصرفه جيش مخيف. غير أن دوزي لو توقف توقفاً متأنياً عند حملة "وبذة"[173] التي قام بها يوسف الأول اثنتي عشرة سنة قبل حملة شنترين، لتمكن من فك رموز ما يعتبره لغزاً، وبالتالي لاقتنع أن الإطار اللامع الذي وضع فيه صورة يوسف لايعكس بصدق الواقع.

إن المعطيات التاريخية التي بين أيدينا تؤكد أن ذلك الجيش الموحدي العرمرم اقتصرت عظمته على ظاهره دون جوهره، وأن يوسف الأول لم يكن له من المواهب ما يسمح بقيادة حملة ثانية أصعب من حملة "وبذة" التي بينت وبشكل لا يقبل النقاش تواضع مواهبه القيادية وغياب الروح القتالية لرجاله. لقد اقتنع الموحدون ومن خلال الغارة الأولى التي شنوها على شنترين والتي منيت بالفشل، أن الأمر يتطلب من أجل إخضاعها ضرب حصار طويل الأمد وخوض قتال دموي لم يكن مهيئاً له لا الخليفة ولا رجاله. وإن الغارات المباغتة التي قامت بها حامية المدينة وخصوصاً القرار المفاجئ لملك ليون للمجيء من أجل تقديم النجدة للمدينة كان يكفي ليثني يوسف الأول ومستشاريه عن عزمهم ويجعلهم يقررون الانسحاب ويعبرون نهر تاجة قبل فوات الأوان. ويؤكد لنا الطابع الارتجالي للجيش الموحدي وغياب الروح القتالية لديه بل وانهيار معنوياته، الفوضى التي عمت بين أفراده أثناء عبور النهر؛ حيث لاذ الجميع بالفرار دون أن يفكروا في مساعدة الخليفة الذي أصيب بجروح خطيرة.

وقد مكث فرناندو الثاني بجوار شنترين ثلاثة أيام ولم يبرحها عائداً إلى مملكته إلا بعدما تأكد من أن الغزاة أخذوا طريق اشبيلية، التي قبل أن يصلوها، وعند مرورهم بـ"آلينتخو"، وأمام مرارة الفشل وما أصيب به خليفتهم من جروح قاتلة، أراقوا الدماء وأضرموا النيران.

شخصية يوسف الأول

رغم أنه من أب زناتي وأم مصمودية، ورغم أنه ولد بقرية تنملل النائية والموجودة بقلب الأطلس الكبير، فقد كانت ليوسف ثقافة واسعة لم تقتصر على علوم الدين والعقيدة الموحدية كما

173- قمنا في محور سابق بالسرد المفصل لأحداثها اعتماداً على ابن صاحب الصلاة الذي شارك فيها، المن بالإمامة، م. س.، ص. 492-499.

كـان الشـأن مع والده، بل إن تكوينه لم يخـتلف عن ذاك الذي كـان يتلقـاه ملوك الطوائف في الأندلس، وهكذا ألم بالأدب العربي ومآثر الإسلام وتاريخ المتقدمين من الأمم.

وإذا كان طبع يوسف أصلاً حساساً ليناً وذوقه مرهفاً، فإن إقامته في الأندلس وخصوصاً في اشبيلية زادت في صقل هذا الذوق بحيث جعلته رفيعاً راقياً، ولا أدل على ذلك إقباله على العلوم الفلسفية والتأملية وتشجيعه للفنون وولعه بالمعمار والتشييد[174].

لقد كان محاطاً دائماً بالأدباء والفلاسفة والأطباء الأندلسيين، وبعد وفاة والده الذي سبق وأمر بجعل قرطبة من جديد عاصمة للأندلس، قام هو بنقل الأجهزة الإدارية مرة أخرى إلى اشبيلية التي أضفى عليها أثناء إقامته بها وهو خليفة، الكثير من مظاهر البهاء والعظمة، وأقام بها العديد من المشاريع العمرانية.

وهناك أكثر من دليل على ولعه بالعلوم، فقد كان يحفظ عن ظهر قلب أحد الصحيحين وعدداً من القواعد الفقهية، كما كانت له بعض المعارف في الفلسفة والطب، وقد قورنت مكتبته الخاصة لأهميتها بمكتبة الحكم الثاني. ومن بين العلماء الذين قربهم منه وأعجب بهم، هناك ابن طفيل الذي قدم له علماء آخرين من بينهم ابن رشد والذي يشير صاحب المعجب إلى أن "تعليقاته" المشهورة على أعمال أرسطو كانت تلبية لطلب يوسف الأول. وقبل أن يتولى الخلافة، وأثناء ولايته على اشبيلية، عين أبا مروان عبد الملك ابن زهر (صديق ابن رشد) طبيباً خاصاً ومستشاراً، بعد ذلك عين ابن هذا الأخير محمد بن عبد الملك ابن زهر (يعرف بالحفيد) طبيباً خاصاً حيث بقي بجانبه إلى غاية وفاته أثناء عودته من شنترين.

لقد كان يوسف الأول يشرف ويوجه شخصياً نشاط العلماء الذين كان يخضعهم لنوع من المراقبة العلمية، ونعلم في هذا السياق كيف أمر بتحرير كتيب خاص حول الجهاد قبل انطلاق حملة شنترين، كما نعلم من خلال كتاب التيسير لابن زهر، كيف أن الخليفة كان يلح عليه ليبدأ في تحرير كتابه، وكيف أنه وبعد مدة وجيزة من شروعه في ذلك قام يوسف الأول بالاطلاع عليه ولم يرقه، على اعتبار أنه لن يفهمه غير المتمكنين من الطب، بينما كان هو يريد من طبيبه الخاص تأليف كتاب يفيد العامة[175].

ويعتبر البعض يوسف الأول أعظم ملوك الموحدين، وإذا كان هناك من يجادل في هذا الرأي، فإن ما لا جدال فيه هو أنه ليس هناك من يضاهيه ثقافة من بين ملوك هذه الأسرة، ومن هنا جاءت مقارنته مع الخليفة الأموي الحكم الثاني. والحقيقة أن مواهبه السياسية لم تكن تقل عن

174- يظهر أن عادة البناء والتشييد ورثها عن والده.

175- N, Morata. La presentacion de Averroes en la corte almohade . "La ciudad de Dios". Vol.CLIII. P. 120.

مواهبه العلمية؛ وأبلغ دليل على ذلك الإبقاء على التقليد الذي سنه والده والذي اعتمد فيه على السادة والشيوخ والطلبة الموحدين في تسيير المؤسسات الحكومية، وهو ما سمح بالحفاظ على قوة الامبراطورية وازدهارها. لكن بخلاف ذلك كانت مواهبه العسكرية محدودة، ورغم أنه نظم وأشرف شخصياً على عدد من الحملات العسكرية، فإن النجاح الذي حققه فيها كان متواضعاً، بل إن هذه الحملات كانت لها أحياناً عواقب وخيمة.

وإذا ما استقرأنا الوضع السياسي في مختلف أنحاء الأمبراطورية خلال عهده، وجدنا أن إفريقية والعرب المقيمين بها ماحافظوا على الهدوء والسكينة إلا بعد الدرس القاسي الذي لقنهم إياه والده وسلفه، بحيث لم يخرج عن سلطة الموحدين غير قراقش وعرب بني سليمان الموجودين في أطراف طرابلس القاصية، في حين لم تحرك بقية القبائل العربية ساكناً، وكان عليها للقيام بذلك انتظار قدوم بني غانية الذين نجحوا في تأليبهم على الأمبراطورية. وفي قفصة فإن التمرد الذي وقع لم يكن ذا أهمية كبرى وبالتالي لم يكن القضاء عليه بالأمر الصعب، خصوصاً وأن الذي قام به هو خياط مغمور قادم من بجاية، لم ينجح في الحصول على دعم عرب رياح، مما أفقد تمرده كل خطورة. أما في الأندلس فقد فشل يوسف أثناء ولايته على اشبيلية في إخضاع متمرد متواضع ظهر في طبيرة أثناء قيام أخيه السيد عثمان عامل غرناطة بغزو المرية. ثم إنه إذا كان قد نجح في النهاية في الاستيلاء على أراضي ابن مردنيش وتقويض سلطته، فإن ذلك لا يرجع لعبقريته ومجهوداته الخاصة، وإنما لتصرفات ابن مردنيش والذي كانت قسوته وطغيانه سبباً في انفضاض الجميع، بمن في ذلك أخلص وأحسن رجاله، من حوله؛ حيث قام ابن همشك وأخوه وصهره وبقية أقاربه، والذين أصابهم الهلع من أعمال ابن مردنيش الجنونية وميولاته الدموية، بتسليم بلنسية ولورقة و"ألثيرة" و"باثة" للموحدين، وهو ما جعل مرسية (عاصمة ابن مردنيش) تسقط بيدهم كفاكهة يانعة. وبالنسبة للمغرب الأقصى فإن التمردات متواضعة الأهمية التي كان يقوم بها بين الفينة والأخرى الغماريون في الشمال وبنو واوزكيت في الجنوب (بجبل سروة) لم تكن لتشكل خطراً حقيقياً على أمبراطورية قوية.

نخلص في هذا الاستقراء إلى أن الأندلس التي كرس لها يوسف الأول جل اهتمامه وذلك من أجل إيقاف الخطر المسيحي، هي التي أظهرت أكثر من غيرها عجز إمكانياته العسكرية وتواضع القدرات القتالية لجيشه الجرار المفتقد للتجانس. وهكذا تمكنت الممالك المسيحية الموجودة في شبه الجزيرة الإيبيرية، كل منها اعتماداً على إمكانياتها الخاصة، من إفشال أهم حملتين عسكريتين عرفهما عصره، وكان قد تطلب إعدادهما الكثير من الوقت والإمكانيات والرجال؛ فقد فشل يوسف

أمام مملكة قشتالة رغم النزاعات الداخلية الخطيرة التي كانت تعرفها بسبب الصراع على السلطة بين أسرتي "كاسترو" و"لارا"، ورغم وجودها في حالة حرب مع الممالك المسيحية المجاورة، كما فشل أمام مملكتي ليون والبرتغال رغم حالة التشرذم التي كانتا تعرفانها بسبب الصراع الحدودي بينهما.

ويقدر ابن صاحب الصلاة عدد القوات التي قامت بحملة "وبذة" التي شارك فيها هو شخصياً بـ 100 ألف فارس وراجل[176]، ورغم أن هذا الرقم قد يكون مبالغاً فيه، فالمؤكد أن عدد أفراد الحملة كان أكثر من كاف لاحتلال مدينة ذات قدرات دفاعية متواضعة وتحرسها حامية محدودة العدد. ومع ذلك فإن الجيش الموحدي الجرار انسحب بعد أيام قليلة من بداية الحصار عندما علم بقرب وصول قوات مسيحية من قشتالة. وإن حالة الخصاص التي عرفها الجيش الموحدي عقب الانسحاب، والمجاعة التي عانى منها، والكيفية التي هامت بها الكثير من عناصره على وجهها، ثم الكيفية التي ضاعت بها أمتعة الحملة، كلها قرائن تؤكد عجز الموحدين وعدم تبصرهم.

وسيتكرر في شنترين نفس السيناريو تقريباً؛ فالحصار لم يدم أكثر من خمسة أو ستة أيام، بحيث إنه وفي الوقت الذي اقترب فيه ملك ليون من المدينة بهدف تقديم النجدة للمحاصرين، دب الرعب في الجيش الموحدي الذي عبر النهر بشكل ارتجالي وفي حالة من الفوضى التامة تاركاً وراءه الخليفة دون حماية تقريباً، مما جعله في متناول العدو الذي أصابه بجروح خطيرة، وهكذا عاد هذا الجيش أدراجه إلى اشبيلية دون أن يقاتل البتة.

ومما يؤكد كذلك أن خطر الجيش الموحدي، على عهد يوسف الأول، كان يقتصر على مظهره الخارجي والمتمثل في التفوق العددي، أن هذا الجيش عجز وباستمرار على الوقوف في وجه أعدائه المسيحيين رغم تواضع إمكانياتهم ورغم الانقسامات والنزاعات التي كانت بينهم كما مر بنا، وهنا نكتفي بالتذكير بالانتصارات التي حققها "خيراردو سام بابور" على الموحدين بمنطقة غرب الأندلس، وغزو ألفونسو الثامن لمنطقة "قونقة"، وأخيراً غارات فرناندو الثاني والتي وصلت إلى غاية طريفة والجزيرة الخضراء.

176- المن بالإمامة، م.س.، ص. 497.

الفصل الرابع

أبو يوسف يعقوب المنصور

في اليوم الموالي لوفاة والده، أي 19 ربيع الثاني 580هـ (30 يوليو 1184م) وفي طريق عودته من بابرة إلى اشبيلية، تمت مبايعة يعقوب المنصور سراً من طرف أقاربه وكبار قواد الجيش في اجتماع خاص، في وقت لم يكن قد أُعلن فيه بعد عن وفاة يوسف الأول. وكان عمره وقت مبايعته أربعاً وعشرين سنة ونصفاً. وقد قضى في الحكم حسب صاحب الحلل الموشية أربعة عشر عاماً وأربعة عشر يوماً، وهو ما يؤكد أن بيعته السرية تمت في اليوم الموالي لوفاة والده.

ورغم أن الخليفة لم يعينه ولياً للعهد ولا جعله يؤدي القسم الخاص بذلك، فإنه كان ينوي الإقدام على تلك الخطوة، كما أخبر بذلك المنصور فيما بعد، لذا ولاه الوزارة وكلفه بالمسؤوليات الخطيرة في الدولة.

ويعقوب المنصور هو في الأصل ابن جارية، أهداها إلى والده أحد ملوك الطوائف يدعى سيدراي ابن وزير؛ وكان ملكاً على شلب قبل أن يخضع لسلطة الموحدين. ويقول صاحب البيان المغرب إنه ولد في الأيام العشرة الأخيرة من ذي الحجة 554هـ (ما بين 2 و 11 يناير 1160م)، لكن وبما أنه رأى النور في قصر عبد الكريم[1]، فإننا نرجح أن يكون تاريخ الولادة الصحيح هو الذي ورد عند صاحب روض القرطاس، أي 555هـ، رغم أن هذا المصدر أول بطريقته مكان ولادته، بحيث إنه

1- يخطئ سعد زغلول عبد الحميد في تحديد مكان قصر عبدالكريم (يسمى كذلك بقصر كتامة والقصر الكبير) ويخلط بينه وبين القصر الصغير، (ص. 10 من أطروحته)، كما لا يتنبه للأخطاء التي وقع فيها البيدق عند حديثه عن تعيين أبناء عبد المومن عمالاً على الولايات، وهكذا يقول إن السيد يوسف عين على إشبيلية عام 548 هـ، وانه وصل إليها عبر قادس مع نسائه وخدمه، لكن خلال السنة المذكورة لم يكن عُمّر يوسف قد تجاوز 14 سنة، كما أن رسالة تعيينه الرسمية التي تحمل خاتم عبدالمومن تقول إنه لم يصل إشبيلية إلا بعد ربيع الأول عام 551هـ. انظر مجموع رسائل موحدية، م.س. الرسالة، 13.

أخطأ في كتابة ما نقله عن غيره بهذا الخصوص، وكتب بدل قصر عبد الكريم قصر عبد المومن ومن هنا وكعادته في إطلاق العنان لخياله يجعل يعقوب يولد في قصر جده بمراكش.

لقد استندنا في ترجيح ولادة يعقوب عام 555هـ بقصر عبد الكريم إلى أحداث تلك السنة، فعند عودة عبد المومن من إفريقية في نهايتها وأخذه طريق جبل طارق، أسرع ابنه السيد يوسف عامل اشبيلية في عبور المضيق لتهنئته على سلامته وعلى الانتصارات التي حققها، وكانت ترافقه من ستصبح أم يعقوب وهي على وشك أن تضع مولودها، وهذا ما يؤكد أن مسقط رأس هذا الأخير هو القصر الكبير[2].

وحسب البيان المغرب فقد كان بحترياً أسمر اللون ذا شعر كثيف يغطي أذنيه، وعينين واسعتين سوداوين لم يعرف عهده أجمل منهما، وأنف معقوف ولحية متوسطة الكثافة غزا الشيب جزأها الداخلي، غير أن ما كان يشد الانتباه إليه هو طبعه وشخصيته لا شكله؛ فقد كان فصيحاً سريع البديهة، يراقب بحرص كل أجزاء مملكته، كما كان صارماً مع أعدائه يبادر دائماً بالهجوم في مواجهاته معهم، بالإضافة إلى ذلك كان يعرف وبدقة مدى شجاعة وإخلاص كل واحد من رجاله، ولم يكن يخفى عنه شيء من أمور رعاياه، لكل هذا لم يكن يجرؤ أحد على خداعه.

تعيينه

إثر بيعته السرية من طرف الخاصة، أسرع في العودة إلى اشبيلية دون أن يقوم بأي هجوم مضاد ضد المسيحيين، بعد ذلك بأحد عشر يوماً أي في فاتح جمادى الأولى (10غشت) تمت مبايعته رسمياً في نفس المدينة.

ويصف لنا صاحب البيان المغرب[3] ذلك الانسحاب الحزين للموحدين إثر مقتل يوسف قائلا: «*لما توفي أبوه كما تقدم ذكره أخفى خبره ومشت الدابة به على حالها حتى كان النزول بالمنزل فضربت أخبيته على جرى عادته وأحدق الخدمة والفتيان به على عادتهم في سكونهم وهيئاتهم فلما تمهد النزول وتكامل الناس بالوصول بعث السيد من حينه عن بعض البنين الأكابر -ووجوه الموحدين والأشياخ المزاوير وذكرهم وعرض عليهم مبايعة الأمير أبي يوسف وعاينوا الأمير أبا يعقوب مسجى بينهم فبايعوه من وقت الزوال إلى عشية اليوم بعينه وأضرب عن تعريف من اتهم في*

2- المن بالإمامة، م. س.، ص. 93.

3- البيان المغرب، م. س.، ص. 163-164.

صفاته وشك في وفاته- وتمادى المشي بعد هذا والمطية على حالها يظهر الاعتناء بها وتنزل المضارب والألوية على حالها وكتم مودته عن الإشاعة والتصريح وكفن وصلى عليه وأدرج في تابوت وتقدم إلى اشبيلية ولما كان الوصول إلى اشبيلية روح أبو يوسف يعقوب المنصور بها ثلاثة أيام حتى تلاحقت الناس وتكاملت المحلات واستوفت جموع العرب وسائر أصناف الجيوش واتسق الجميع باشبيلية وأكنافها فلما كان يوم الجمعة غرة جمادى الأولى ندب الناس على الخصوص والعموم للمبايعة وحضر من يجب حضوره ومن وسعته القصبة في اليوم المذكور وفي يوم السبت بعده على طبقاتهم فأفاض على قرابته وأهل بيته غامر الإحسان وخص السيد أبا زيد بعشرة آلاف دون أهل بيته لتقدمه لخدمته»[4].

ويقدم لنا عبد الواحد المراكشي، فكرة عن حفل بيعة يعقوب المنصور من خلال ما أورده عن حفل بيعة يوسف الثاني الذي سوف يحضره شخصيا فيما بعد، فيقول: « وبويع البيعة الخاصة يوم الخميس، ويوم الجمعة بايعه أشياخ الموحدين والقرابة، وفي يوم السبت أذن للناس عامة، شهدت ذلك اليوم وأبو عبد الله بن عياش الكاتب قائم يقول للناس: «تبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ﷺ، من السمع والطاعة في المَنْشَط والمَكْرَه واليُسر والعُسر والنّصح له ولولاته ولعامة المسلمين، هذا ماله عليكم ولكم عليه: الا يُجَمِّر بعوثَكم، والا يدخر عنكم شيئا نعمّكم مصلحتُه، وأن يعجِّل لكم عطاءكم والا يحتجب دونكم، أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلِّدَ من أموركم». بعد هذا القول لكل طائفة، إلى أن انقضت البيعة، ثم اتصلت وفادة أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تم له الأمر»[5].

وبعد مبايعته بخمسة أيام، وفي الوقت الذي كان يقوم فيه بالترتيبات الأخيرة المتعلقة بأمور الأندلس قبل مغادرتها، وفي نفس الوقت يستقبل الوفود التي جاءت لتقديم البيعة، بعث برسالة رسمية إلى سكان مدينة غرناطة يطلب منهم وبقية سكان الولاية الحضور إلى اشبيلية للقيام بنفس الشيء[6]، وما يهمنا من الرسالة هنا هو أنه لم يسم نفسه بأي لقب جديد وإنما

4- قلد السيد أبو زيد في ذلك والده الذي كان قد بايع يوسف الأول، وبفضل هذا الدور الذي لعبه السيد أبو زيد في بيعة يعقوب المنصور، فقد شغل على عهد هذا الأخير مناصب على درجة كبيرة من الأهمية، وكان له تأثير كبير في الحياة السياسية كما سنرى. البيان المغرب، م. س.، ص. 142.

5- المعجب. م. س.، ص. 462-463

6- مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة، 27؛ والبيان المغرب، م. س.، ص. 171.

اكتفى بلقب الأمير[7]، وإن كان يأمر من وجهت إليهم الرسالة، أن يضيفوا عند الدعاء له في خطبة الجمعة ما يوجد في حاشيتها. ولا نعرف بالضبط ما تضمنته تلك الحاشية، غير أننا نعلم من الرسالة أن البيعة تمت من الناحية البرتوكولية بنفس الطريقة التي بويع بها المهدي وبعده عبد المومن ثم يوسف.

العودة إلى المغرب

بقي يعقوب المنصور في اشبيلية بعد بيعته عشرين يوماً فقط، حيث إنه وبعد أن أمر قواته بالاستعداد للرحيل أخذ طريق العودة يوم الأحد 24 جمادى الأولى (2 سبتمبر)[8]، وكان من بين مرافقيه أمير البحر أبو العباس الصقلي[9] الذي كان على رأس أسطول من 13 سفينة، سبقت اثنتان منها عند الوصول إلى طريفة، وكانت محملة بالأمتعة، بقية الأسطول إلى الرباط.

وقد أعد للخليفة في اشبيلية حفل وداع رسمي، حيث زينت سفينة بالأعلام رست بالوادي الكبير بجوار ساحة الاحتفالات، وبعد الانتهاء من مراسيم الوداع عبر على ظهرها النهر في اتجاه منطقة طريانة، قبل أن يواصل طريقه نحو شيريس والتي رفع منها مخيمه يوم الثلاثاء 4 سبتمير. وعند وصوله إلى مدينة شذونة Medina-Sidonia استقبل ابن عمه السيد أبا زكريا عمر الذي قدم من تلمسان رفقة أعيان قبيلة زغبة العربية (عبرت دائماً عن وفائها للموحدين) وعناصر أخرى من العرب وهم في مجموعهم 700 فارس، جاؤوا بهدف الجهاد في الأندلس[10]. وفي ليلة الخميس ترك المكان المعروف بعين الشمس حيث

7- يؤكد البيان المغرب أنه لم يحمل لقب أمير المؤمنين إلا بعد عودته من الأندلس ووصوله إلى الرباط. م. س.، ص. 172.

8- يخطئ ابن خلدون في قوله إنه عند عودته من شنترين ومبايعته رسمياً في إشبيلية خرج هو وأخوه السيد أبو يحيى من جديد في حملة عسكرية استوليا خلالها على حصون الكفار وخربا ديارهم أو حسب تعبيره: « *لما هلك الخليفة ابو يعقوب على حصن شنترين سنة ثمانين، بويع ابنه يعقوب، ورجع بالناس إلى إشبيلية واستكمل البيعة، واستوزر الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن أبي حفص، واستنفر الناس للغزو مع أخيه السيد أبي يحيى، فأخذ بعض الحصون وأثخن في بلاد الكفار*». العبر، المجلد السادس، م. س.، ص. 504-505.

9- من أصل بربري ولد بجزيرة جربة حسب ابن خلدون، وأسر وهو طفل من طرف القراصنة النورمانديين، وقد تربى في صقلية ببلاط روجير الثاني الذي عمل بعد ذلك في أسطوله، لكن نشوب عداوة بينهما دفعته للرحيل عند الموحدين الذين لم يترددوا في الترحيب به، وبفضل كفاءته ومعرفته الجيدة بمختلف سواحل البحر الأبيض المتوسط عينوه أميراً للبحر وكلفوه بقيادة حملات بحرية مهمة.

10- تلقى 200 فارس آخر من الذين يرافقون السيد أبا زكريا عمر، الأوامر للمكوث بطنجة.

حل في صبيحة اليوم الموالي بـ"حجر الأيل"[11]، وفي يوم السبت 7جمادى الثانية (9 سبتمبر) وصل البحر وكانت في انتظاره حاميته العسكرية. وبعد أن ودع في خيمته الحمراء الفخمة إخوته السادة أبا إسحاق وأبا يحيى وأبا زيد الذين عينهم على ولايات الأندلس، وكذا مختلف الوفود الأندلسية التي جاءت لتوديعه، عبر البحر نحو القصر الصغير، حيث بقي إلى غاية 15 سبتمبر تاريخ عبور آخر قواته.

وفي الرباط حيث حمل لأول مرة لقب أمير المؤمنين، استقبل عاملي فاس ومكناس مع وفدي المدينتين[12]، وقام بعزل عامل فاس إبراهيم بن إسماعيل وأرسل في طلب بقية كبار موظفي المدينة للحضور إلى العاصمة من أجل تقديم كشف بالحسابات المتعلقة بالموارد المالية التي كانوا يشرفون عليها، في نفس الوقت دفن والده بشكل مؤقت في الرباط واتجه إلى مراكش. وبما أنه لم يكن قد عُين ولياً للعهد على حياة والده وبالتالي لم تكن له حقوق شرعية في العرش، فقد كان لطيفاً كريماً مع الجميع خلال الأسابيع الأولى لتوليه الحكم، لكن بعد وصوله إلى مراكش ومبايعته مبايعة نهائية وأخذه بزمام الأمور، بدأ بإظهار طبعه الحازم في إدارة أمور الإمبراطورية[13].

الإجراءات الحكومية التي قام بها بعد اعتلائه العرش

في فاتح رجب (8 أكتوبر) وقبل مرور شهر واحد على مغادرته الأندلس، وليبين للقضاة مدى اهتمامه بأمور القضاء وفي نفس الوقت ليظهر صرامة سلطته، أنشأ محكمة خاصة اختار مقراً لها المسجد الكبير المجاور لقصر الحجر[14]، كان يترأس في أيام معلومة جلساتها التي كانت تمتد من

11- يوجد بخاصرة جبل "إنميديو" Enmedio والذي يبعد ثمانية كيلمترات عن طريفة، وفيه سوف تضع مخيمها قوات التحالف البرتغالي القشتالي عام 1340م استعدادا لوقعة طريف.

12- حسب مؤلف الذخيرة السنية، كان يترأس الوفدين أبو محمد عبدالله بن محمد بن يحيى المعروف بابن اليسمين الذي خدم المنصور ثم ابنه الناصر من بعده، والذي كتب أرجوزة حول علم الجبر، وقد مات مذبوحاً في مراكش عام 601هـ. م. س.، ص. 39.

13- يقدم لنا مؤلف البيان المغرب لائحة بأسماء كبار موظفيه، ومنها نعرف أن الوزارة تولاها على عهده أولاً أخوه أبو عبدالله ثم أبو علي عمر بن أبي زيد الهنتاتي فأبو يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص، وأخيراً أبو زيد بن حُجان، والحجابة عهد بها إلى فضيل ثم إلى عنبر، في حين تولى القضاء ، على التوالي كل من ابي العباس بن مداع وأبي عبدالله بن مروان وأبي القاسم بن بقي، أما كتابته الخاصة فقد تولاها أبو الفضل بن عبدالطاهر وبعده أبو عبدالله بن عياش في حين عين على شؤون الإدارة العسكرية كلاً من أبي الحسن ثم محمد بن الخطيب فمحمد القبشي.

14- حول قصر الحجر أو دار الحجر كما جاء في بعض المصادر والذي بناه المرابطون، انظر الحلل الموشية ، م. س.، ص. 139، والمن بالإمامة. م. س.، ص. 169 والبيان المغرب. م. س.، ص. 173، و"Recherche arquéologiques à Marrakech, par Jacques Meunié et Henri Térasse.

بداية الصباح إلى منتصف النهار. غير أن التجربة سرعان ما باءت بالفشل بسبب وقاحة بعض السوقة الذين لم يتورعوا في التهجم علناً على السيد أبي زيد وبعض كبار رجال الدولة الذين فضلوا لذلك عدم حضور الجلسات. وتفادياً للصخب والفوضى الذي يمكن أن يثيره العوام داخل المحكمة تم أكثر من مرة قبول شكاوى مبتدعة والحكم لصالح من رفعها. كما أنه وبسبب رغبة الجميع مشاهدة الخليفة، فقد كانت القاعة التي تعقد بها الجلسات تتكدس بالأهالي مما يخلق نوعاً من الازدحام يتحول إلى فوضى. لهذا وذاك تم حل المحكمة بعدما تبين أنها أتت بنتائج عكس المتوخاة.

وخلال الأيام التي تولى فيها الإشراف على الجلسات في المحكمة الخاصة التي أنشأها، نُقل إلى مراكش 150 أسيراً مسيحياً وقعوا بيد أمير البحر أبي العباس الصقلي بعد هزمه لأسطول مسيحي في الساحل القريب من الوادي الكبير. و لا نتوفر على أية معلومات أخرى بشأن هذه المواجهة غير أنها وقعت في خريف 580هـ (1184 م) وانتهت بانتصار أمير البحر الموحدي وبإعدام الأسرى بعد أن أمر المنصور بذلك.

من جهة أخرى، أقبل الشيوخ والجنود الذين شاركوا في حملة شنترين، على حياة اللهو والترف، واصبح سماع الموسيقى وشرب الخمر شائعاً بينهم، ولوضع حد لهذا الانحراف صدر قرار في اليوم الأخير من رمضان (4 يناير 1185 م) يمنع شرب "الرب" (دبس العنب) ويأمر عمال الأقاليم بإتلاف كل السوائل المسكرة الموجودة في عمالاتهم وبتهديد من يقوم بإنتاجها بعقوبة الإعدام. وقد حث هؤلاء العمال وكذا الجباة، في الرسائل الرسمية التي بعث بها لهم بشأن هذا الموضوع، على إقرار العدل والرفق بالرعايا خصوصاً عند إلزامهم القيام بواجباتهم، والسهر على حمايتهم ممن يريد إيذاءهم، والسماح لصاحب كل ذي شكوى بالوصول إليه إذا ما رغب في ذلك[15]. وبهذه الطريقة بدأ يبرهن على غيرته الدينية ويدحض ادعاءات أقاربه الذين اعتبروه غير أهل للعرش بسبب عدم استقامته في بداية شبابه.

ويتعذر علينا تحديد طبيعة التصرفات المجانبة للاستقامة التي عرف بها المنصور في شبابه الأول والتي قد تكون سبباً في تردد والده في تعيينه ولياً للعهد رغم إلحاح القواد ورجال البلاط، لكن الذي نعرفه أنه حرص، ومنذ اعتلائه العرش، على وضع قطيعة مع ذلك الماضي وتزكية نفسه كحام للملة والدين ومدافع عن شرع الله[16]، ومن أجل ذلك أصدر مرسوماً يلح فيه على ضرورة تفادي البذخ والإسراف ويأمر أن يُباع وبأثمان مخفضة كل ما يوجد في خزائن الدولة من ثروات كالحلي الذهبية

15- في إحدى هذه الرسائل يأمر جباة إشبيلية بأن يسلموا زكاة الفطر بعد تحصيلها إلى شخص يدعى أبا المكارم يتولى توزيعها على الفقراء. مجموع رسائل موحدية، م. س.، الرسالة، 28.

16- البيان المغرب، م. س.، ص. 173.



وملابس الحرير والديباج، في نفس الوقت يأمر -من خلال نفس المرسوم- المكلفين بالأمن بأن لا يترددوا في الضرب بيد من حديد على محترفي الموسيقى والطرب، والذين لم يبق لهم من خلاص غير الرحيل والاختفاء في الأطراف القاصية من الأمبراطورية.

تأسيس حي الصالحة

بعد الاهتمام الذي أولاه لأمور القضاء، وذيوع صيته بين الرعية كسلطان عادل، وبعد استتباب الأمن في كل الأراضي الخاضعة له ببلاد المغرب، وجه اهتمامه لمجال البناء والتشييد والذي كان له ولع كبير به، خصوصاً مع قناعته بأن الأعمال العمرانية الكبرى سوف تمنح بريقاً مميزاً لعهده، وهكذا فبعدما تبين له أن قصر الحجر، مقر إقامة جده ثم والده، لم يعد يفي بالمطلوب ليأويه وخلفاءه من بعده، قرر إنشاء حي أمبراطوري خاص أطلق عليه اسم "الصالحة". وحتى يكون في مستوى ما يطمح إليه استقدم للمساهمة في تشييده الصناع والبنائين من مختلف أرجاء مملكته.

وقد بدأت أعمال البناء في حي الصالحة يوم الخميس فاتح رجب 581هـ (28 سبتمبر 1185م)، اما الانتهاء منها فكان في ربيع الأول 584هـ (مايو 1188م)، ووصل عدد العمال الذين شاركوا فيها إلى اربعة آلاف قدموا من الأندلس وإفريقية وفاس وسوس، وبلغ مجموع المباني التي تضنمها الحي اثني عشر بين قصر ومسجد. ويعتبر صاحب روض القرطاس خطأً أن المنصور شرع في تشييد الصالحة عام 585هـ وانتهى منه عام 593هـ، وأن ذلك تم في نفس الوقت الذي أمر فيه بالبدء في أعمال البناء في الرباط، وكان هذا، حسب نفس المصدر، أثناء مروره بهذه المدينة في طريقه إلى الأندلس لخوض معركة الأرك. ويقدم لنا العمري في "مسالك الأبصار" ونقلاً عن ابن سعيد، وصفاً لحي الصالحة الذي كان يعرف كذلك بتمراكشت[17].

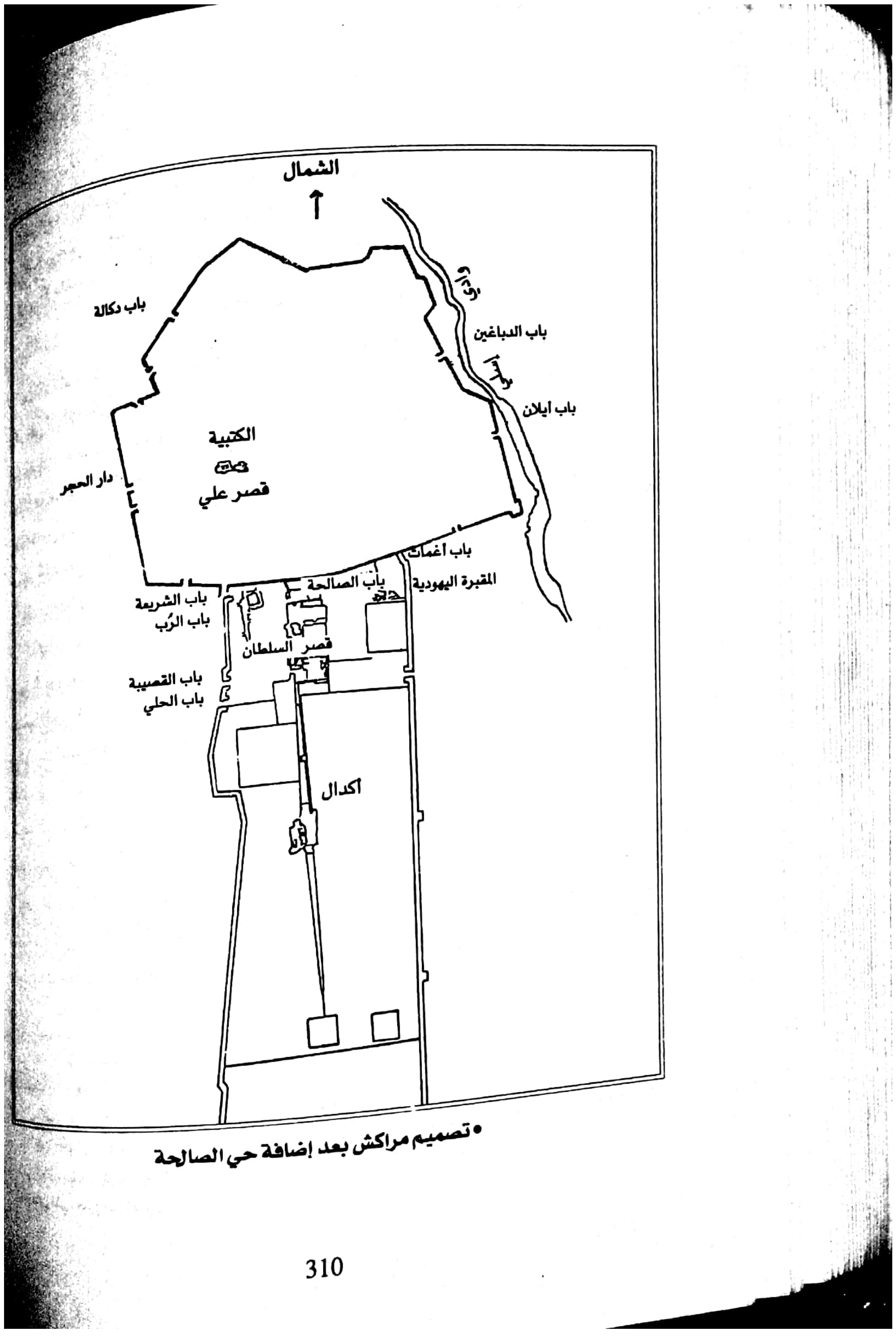
وفي الوقت الذي كانت فيه أعمال البناء جارية على قدم وساق بالصالحة، وصلت أخبار مقلقة من إفريقية تقول إن بني غانية قاموا بعملية إنزال في بجاية[18]، وهو ما سوف تنجم عنه اضطرابات خطيرة ستستمر طيلة عهدي المنصور وابنه محمد الناصر.

17- تبركشت عند صاحب الذخيرة السنية. م. س.، ص. 80. داعت شهرة هذا الحي وحديقته الغناء، حيث اصبح يتغنى بها الأطفال في المغرب إلى اليوم، إذ ينشدون: «أجرادة مالحة! فين كنت سارحة! في جنان الصالحة!» (المترجم).

18- كتب "الفريد بيل" Alfred Bel كتاباً موثقاً عن بني غانية يحمل عنوان:

Les benou ghanya, derniers representants de l'empire al-moravide et leur lutte contre l'empire almohade"

غير انه وبسبب جهله بوجود البيان المغرب وبالرسائل الرسمية للمنصور والناصر فإنه أورد الكثير من المعلومات الخاطئة والتي تحتاج إلى تصحيح.



• تصميم مراكش بعد إضافة حي الصالحة

عملية الإنزال التي قام بها بنو غانية

حافظت جزر البليار على استقلالها بعد انهيار دولة المرابطين ولم يكن عبد المومن قد وجد الفرصة التي تسمح له بإخضاعها، وهكذا فإسحاق بن محمد بن غانية الذي عاصر يوسف الأول ورغم اعترافه بالخلافة العباسية، سعى لكسب ود الإمبراطورية الموحدية القوية، لذا كان يرسل مرتين في السنة إلى البلاط الموحدي الهدايا المتحصلة من غنائم أعمال القرصنة التي كان يقوم بها عرض البحر الأبيض المتوسط[19].

وفي سنة 578هـ وفي الوقت الذي أعلن أبناء ابن مردنيش القائمون على مملكة مرسية خضوعهم للموحدين، دعا يوسف الأول بني غانية لنفس الشيء وطلب منهم ذكر اسمه في خطبة الجمعة، وإلا فسيجبرونه على استعمال القوة في إخضاعهم، ولا نعرف مدى قبول إسحاق بن غانية بذلك، لكن الذي نعرفه أنه على إثر وفاته، أرسل يوسف الأول أسطول سبتة العسكري إلى ميورقة وكان على رأسه علي بن الربرتير Reverter، ليطلب من أبناء إسحاق الاعتراف بسلطة الموحدين[20].

وقد قبل محمد بن غانية خليفة إسحاق الرسمي، الخضوع عن طيب خاطر، أما بقية إخوته، فبعد أن استقبلوا علي بن الربرتير في ميورقة بحفاوة، وعبروا له عن استعدادهم للتفاوض، وبعد أن اطمأن إليهم، استولوا على سفنه ووضعوه تحت المراقبة وبدؤوا بالتلكؤ في قبول ما طلبه منهم. في تلك الأثناء وقعت كارثة شنترين التي توفي يوسف على إثرها. ولم يعلم بنو غانية بخبر الوفاة في حينه، فقد حدثت يوم 22 يوليوز 1184م، بينما لم يعلموا بها إلا بعد البيعة الرسمية ليعقوب المنصور والتي كانت في 10 أو 11 غشت، وكان رد فعلهم هو رفض سلطة الموحدين وعزل الأمير محمد بن غانية الذي قبل بهم.

أمام هذا التطور، فر الأمير محمد إلى شمال جزيرة ما يورقة حيث تحصن تحسباً للخطر الذي يمكن أن يأتيه من إخوته الذين عينوا مكانه أميراً على الجزيرة، أخاهم علي بن غانية[21]، هذا الأخير وصلته في تلك الأثناء رسائل من أنصار بني غانية في بجاية تدعوه للحلول بها،

19-Codera . Decadencia y desaparicion de los almoravides . Cap. "Los baleares bajo los almoravides . P. 167.

20- البيان المغرب، م. س.، ص. 175 .

21- تمكن علي بن غانية حسب ابن خلدون من إلقاء القبض على أخيه محمد. العبر، المجلد السادس، م. س.، ص. 505-506.

وتؤكد له بأنه لن يجد أمامه أية مقاومة بعد أن عبر عامل المدينة الموحدي عن استعداده للتعاون معه، وبعد أن قضى الموحدون على أمراء بني حماد المنشقين. وقد قصد علي بن غانية بجاية على رأس أسطول من 30 سفينة على ظهرها 200 فارس و4000 من المشاة، كان يقودهم بجانبه أحد مواليه المسيحيين يدعى الرشيد[22].

وما أن تراءت له بجاية، حتى أمر علي إحدى السفن بالتقدم من الحصن بغاية التجسس، وطلب من طاقمها التظاهر بأنهم قراصنة جاؤوا بحثاً عن المؤونة، وقد نجح الطاقم في أخذ المعلومات التي يحتاجها الغزاة، والذين علموا وبفضل الأخبار التي كان يسربها المتواطئون معهم من أهالي المدينة، بأن الظرفية جد مناسبة للقيام بغزوها، لذا بدؤوا مباشرة بعد وصلوهم بشن الهجوم وكان ذلك في الصباح الباكر. وبفضل تنظيمهم المحكم والكميات المهمة من الأسلحة التي كانت معهم، لم تستطع حامية المدينة المتواضعة شيئاً أمامهم؛ بحيث إنهم احتلوها بسهولة[23] . ومن بين الذين وقعوا في الأسر هناك السيد أبو موسى عيسى بن عبد المومن عامل القيروان الذي كان وعائلته في الطريق إلى مراكش.

ويشير صاحب المعجب[24] عند حديثه عن إقامة هذا السيد في بجاية إلى حكاية غريبة تفتقد في نظرنا للمصداقية خصوصاً وأنه لا يوردها غيره؛ فقد قام العرب حسبه بنهب منطقة في إفريقية لا يحدد مكانها، وكرد فعل على ذلك خرج أبو موسى هذا مع أخيه أبي علي وجيش مصمودة والجيش النظامي (الجند) وقوات بعض القبائل العربية ضد المتمردين. وأثناء المواجهة هُزمت القوات الموحدية ووقع السيدان في الأسر، ولما علم أبو يعقوب بالأمر كتب إلى العرب حول الموضوع، غير أن هؤلاء وضعوا عدة شروط مقابل إطلاق سراح السيدين ومن أسر معهما، من بينها الحصول على فدية قيمتها 36 ألف مثقال. وقد اعتبر الخليفة أن هذا القدر من المال مرتفع جداً حيث علق قائلاً: « *هذه أيضا مضرة أخرى، إن أعطيناهم مثل هذا المال تقووا به على ما يريدونه من الفساد!*»[25]، ومع ذلك قبل بتسليمه لهم، وأمر من أجل توفيره، بسك دنانير خاصة من النحاس الأصفر.

22- لا يتحدث البيان المغرب عن عدد السفن التي كونت الأسطول بينما يقول ابن الأثير (الكامل، ص. 334 الجزء الحادي عشر) ان عددها عشرون ، ويجعل كل من الزركشي وابن خلدون عددها اثنتين وثلاثين، ويضيف هذا الأخير ان الأسطول كان يضم إضافة إلى السفن الميورقية تلك التي أخذت من علي بن الربرتير. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.507.

23- هذا ما نجده عند البيان المغرب، م. س.، ص. 176. وهو لا يختلف كثيراً عن ما نجده في بقية المصادر والتي تقول ان قوات بني غانية سيطرت على المدينة بشكل مفاجئ وانها لم تجد أية مقاومة.

24- المعجب، م. س.، ص. 390-391.

25- نفسه، ص. 390.



ولا تتوافق أحداث الرواية مع التاريخ الذي أورده نفس المصدر عن سقوط بجاية في يد علي ابن غانية. وهنا يجب التذكير بأن المصادر العربية بشكل عام لا تتفق على تاريخ احتلال المدينة، فكتاب الاستبصار وروض القرطاس والكامل والمعجب ووفيات الأعيان يجعلونه في 6 شعبان (13 نوفمبر 1184م)[26]، بينما يؤخره العبر وتاريخ الدولتين والبيان المغرب إلى 19 صفر 581هـ (22 مايو 1185م). ويظهر أن التاريخ الأول هو الصحيح وأن الأمر بالنسبة للتاريخ الثاني لا يتعلق باحتلال بجاية من طرف بني غانية وإنما باستعادتها من طرف القوات الموحدية. وبما أن المدة بين التاريخين هي ستة أشهر، فإننا نسلم بما جاء في هذا الصدد عند صاحب روض القرطاس الذي يقول إن احتلال بني غانية لبجاية دام ستة أشهر.

الغزوات المرابطية

وبعد احتلال علي بن غانية للمدينة، ترك بها أخاه يحيى ومولاه الرشيد، وهب مقتفياً أثر عاملها الموحدي السيد أبي الربيع الذي خرج إلى أنحاء الولاية لاستقصاء الوضع، وقد التقى به في منطقة يلميلول حيث هزمه بسهولة بعد أن تخلى عنه العرب الذين كانوا رفقته والذين انضموا لابن غانية. وعلى إثر هزيمته، نجح السيد في الفرار إلى مدينة الجزائر، غير أنه لم يحس فيها بالأمان بسبب تواضع قدراتها الدفاعية، لذا انتقل إلى تلمسان والتي كان بها أخوه السيد أبو الحسن[27].

ويشير ابن خلدون[28] إلى أن عامل قلعة بني حماد علم في متيجة، وكان في طريقه إلى مراكش، بسقوط بجاية، لذا قرر قطع سفره والتوجه إليها لنجدة عاملها السيد أبي الربيع الذي لم يكن معه أكثر من 300 فارس إضافة إلى حوالي ألف من العرب والبربر الذين انضموا إليهم فيما بعد.

ويذهب "بيل" Bel ودون سند مقبول إلى أن السيد حاول وبواسطة هذه القوات استعادة بجاية، غير أن تخلي العرب عنه والتواضع العددي لقواته، مقارنة مع قوات علي بن غانية، جعلته يسقط لقمة سائغة في يد هذا الأخير الذي نهب مخيمه وأرغمه على الفرار إلى الجزائر ومنها إلى تلمسان.

26- هذا هو التاريخ الذي أخذ به "كوديرا" في Decadencia y desaparicion de los almoravides و"بيل" في **Les benou ghanya**

27- البيان المغرب، م. س.، ص. 176؛ والكامل. م. س.، ص. 171.

28- العبر، م. س.، ص. 507.

وقد استغل ابن غانية الاضطراب الذي دب في صفوف العدو وتواضع عدده، ليتقدم نحو مدينة الجزائر التي سقطت هي الأخرى بيده. وبعد أن ترك عليها ابن أخيه طلحة، توجه يحيى بن غانية إلى مليانة التي آلت إليه كذلك حيث عين عليها يدر بن عائشة، قبل أن يواصل الطريق نحو أشير ثم قلعة بني حماد اللتين عرفتا نفس المصير.

وإثر هذه الانتصارات السريعة والسهلة، عاد علي بن غانية إلى بجاية تغمره السعادة، وتمت مبايعته في مسجدها كممثل للخلافة العباسية التي رفع رايتها السوداء. بعد ذلك قام بنهب كل ما يوجد في خزائن المدينة من مؤن كما فرض ضرائب مجحفة على السكان.

وبعدما آلت إليه المنطقة الغربية من إفريقية، ترك في بجاية من جديد أخاه يحيى ومولاه الرشيد وتوجه على رأس جيش كونه من العرب والمرابطين وغيرهم من المغامرين، لمحاصرة قسنطينة أكثر مدن إفريقية تحصناً.

رد الفعل الموحدي واستعادة بجاية

في ظل هذه التطورات، أصبح لزاماً على يعقوب المنصور الذي لم تكن قد مرت أكثر من خمسة أشهر على اعتلائه العرش، أن يثبت بالدليل المحسوس كفاءته وحزمه، لذلك بدأ يعد العدة وبشكل مكثف لتوجيه حملة عسكرية ضد بني غانية، وقد أرسل في هذا الإطار بعض الطلبة إلى سبتة لمراقبة الأعمال الجارية في إعداد الأسطول المزمع مشاركته في الحملة والذي حرص أن يتم تجهيزه في وقت قياسي. بموازاة مع ذلك، أشرف شخصياً على الجيش الذي تم تكوينه في العاصمة لنفس الغاية والذي عين على رأسه أبا زيد بن السيد عمر بن عبد المومن، في وقت وضع على رأس الأسطول الذي خرج من سبتة أمير البحر أبا محمد بن إسحاق بن جامع والذي كان بجانبه كمساعدين كل من أبي محمد بن عطوش الكومي وأبي العباس أحمد الصقلي. وقد أمر الخليفة قيادة الجيش، بمنح الأمان للمدن التي سقطت بيد ابن غانية، ومعاملتها برأفة إذا ما عبرت عن استعدادها للخضوع من جديد لسلطة الموحدين.

وبما أن القوات البرية غادرت مراكش في عز الشتاء، فقد اضطرت وبسبب سوء أحوال الطقس للتوقف في مدينة فاس في مطلع سنة 1185م، ولم تغادرها نحو تلمسان إلا بعد تحسن أحوال الجو. وفي تلمسان تم استقبال الجيش من طرف السيدين أبي الحسن بن عمر وأبي الربيع اللذين كانا يقومان بترميم حصونها وتقوية القدرات الدفاعية لحاميتها، تحسباً لأي هجوم جديد

لفرقة الخيالة التابعة لجيش يدر بن عائشة والذي كان ينطلق من مليانة في هجومات مباغتة ضد منطقة مازونة [29].

بموازاة مع كل هذا، وفي الوقت الذي أرسل فيه قواته ضد بجاية، كاتب المنصور كل المناطق التي احتلها العدو واعداً سكانها بالعفو إذا ما قبلوا بالسلطة الموحدية، وحتى بالنسبة لبجاية، فمع اقتراب القوات الموحدية منها تسلل إليها جواسيسهم حاملين رسائل سرية من الخليفة لقيت القبول الحسن من طرف الأهالي.

وكان الأسطول الموحدي قد سبق القوات البرية؛ حيث احتل مدينة الجزائر وأسر عاملها المرابطي يحيى بن طلحة بن غانية وحاشيته. وعندما علم أهالي مليانة بأن الجزائر سقطت بيد الأسطول وأن القوات البرية الموحدية تقترب منها، أعلنوا تمردهم على بني غانية، في وقت لاذ فيه يدر بن عائشة بالفرار، غير أن سكان المدينة قاموا بمطاردته ولحقوا به بقرية أم العلو، وبعد مقاومة محدودة وقع أسيراً مع مرافقيه، حيث نقلوا جميعاً إلى شلف[30] التي وصلها في تلك الأثناء السيد أبو زيد الذي أمر بضرب أعناقهم.

وفي غياب المعطيات التاريخية الكافية أطلق "بيل"، في سرده لهذه الأحداث، العنان لخياله، وهكذا يقول إن الأسطول المايورقي فر عام 581هـ من المنطقة التي احتلها بعدما علم بقرب وصول الأسطول الموحدي، وأنه ربما يكون قد التجأ إلى صقلية أو طرابلس من أجل الحصول على الحماية اللازمة من طرف "كييرمو" الثاني Guillermo II أو قراقش، وأن جزءاً من الأسطول -وكان يقوده عبد الله بن غازي- انتقل بأمر من علي بن غانية إلى ميورقة مروراً بصقلية.

ومع قناعته بأنه سيستقبل في بجاية بحفاوة، سبق القائد أبو العباس محمد الصقلي على ظهر سفينته بقية الأسطول إليها، وكان برفقته بعض أبنائها من المؤيدين للسلطة الموحدية والذين سبق لهم أن حملوا رسائل الخليفة السرية إلى أهاليها. وما أن رست السفينة بالميناء حتى فتحت العامة أبواب المدينة لتدخلها

29- يسميها صاحب البيان المغرب، وكذا ابن خلدون في العبر، مازونة لكن "دو سلان" De Slane يرى أن اسمها الحقيقي هو موزية، ويقول ابن خلدون إن علي بن غانية استولى عليها وعلى مليانة بعد احتلاله لمدينة الجزائر، لكن ابن عذاري يقول بعدم احتلالها من طرفه، وهذا ما تؤكده كذلك رسالة المنصور الرسمية التي تتحدث فقط عن احتلاله للجزائر ومليانة وأشير والقلعة. مجموع رسائل... م. س.، الرسالة، 29.

30- لم يعد لهذه المدينة أثر اليوم، ويقول "دو سلان" الذي نقل عن البيان المغرب إنها توجد على ضفة نهر شليف، لكنه لا يقدم أية معلومات إضافية وذلك بسبب عدم توفره على المعطيات الضرورية.

بقية قوات الأسطول. إثر ذلك عمت الفوضى وأعمال النهب وهو ما دفع بأمير البحر ابن جامع [illegible] بحزم وصرامة لإيقاف ذلك. ويظهر أن عامل المدينة يحيى بن غانية استغل حالة الفوضى هذه ولاذ بالفرار مع قلة من مرافقيه من المرابطين إلى قسنطينة التي كان أخوه علي يحاصرها منذ مدة.

ومن المرجح أن يكون الموحدون قد استعادوا بجاية في شهر مايو، وهنا تجدر الإشارة إلى أن اخوي علي، يحيى وطلحة، واللذين توليا أمر بجاية بعد غزوها من طرف بني غانية، حاولا رغم تواضع عدد القوات التي معهما -على اعتبار أن معظم الجيوش المرابطية كانت تشارك في حصار قسنطينة- بكل شجاعة عرقلة تقدم القوات البرية الموحدية وذلك من خلال ملء كل المنافذ المؤدية لبجاية بقوات تابعة لهما[31]، غير أن الأسطول الموحدي تمكن قبل وصول القوات البرية، وبمساعدة سكان المدينة الذين توصلوا برسائل يعقوب المنصور، كما مر بنا، تمكن من هزم الحامية الميورقية رغم مقاومتها المستميتة ورغم الهجومات المضادة التي كان يقودها مولى علي المسيحي الرشيد الذي وقع في الأسر، في وقت أجبر فيه على الفرار إلى قسنطينة كل من طلحة ويحيى، وهو ما استفاد منه الموحدون الذين نجحوا في إخضاع الأسطول الميورقي الذي ضموه برمته إلى أسطولهم[32].

أمام هذا الانتصار الذي حققه الأسطول الموحدي، لم تر قواتهم البرية داعياً للدخول إلى بجاية، وفضلت التوجه مباشرة إلى قسنطينة بهدف فك الحصار عنها، لكن في الطريق إليها وعند الوصول إلى مدينة تيكلات[33]، علمت أن علي بن غانية رفع الحصار عن المدينة منذ ثلاثة أيام خلت، وأنه بعدما أضرم النيران في الأدوات التي كان يستعملها في الحصار، انسحب مخلفاً وراءه أمتعته وقطعان ماشيته. وعقب علمها بالخبر توقفت القوات الموحدية مدة يومين في تيكلات، استقبل خلالهما قوادها وفداً ضم شيوخ وطلبة بجاية على رأسه السيد أبو موسى الذي أطلق سراحه حديثاً، وقد جاء الوفد ليهنئ الجيش الموحدي بالانتصار ويذكر بتأييد سكان بجاية له.

وفي اليوم الثالث واصلت القوات الموحدية السير متعقبة علي بن غانية، لكن عدد أفرادها المرتفع وكثرة الأمتعة التي كانت معها، أرغمها على السير بإيقاع بطيء تعذر معه اللحاق بالقائد المرابطي الذي مر بمقرة ونقاوس متوغلاً في الأطلس الصحراوي عبر منخفض الحضنة ليصل

31- مجموع رسائل....، م. س.، الرسالة، 29.

32- لا يقدم مؤلف البيان المغرب أية معلومات عن عدد السفن أو عدد الجنود الذين كان يضمهم الأسطول الميورقي، والذين يجعلهم ابن الأثير عشرين ألف رجل. الكامل، م. س.، ج. 9، ص. 171.

33- تيكلات عند ابن عذاري وتكلات عند ابن خلدون. (المترجم).

إلى الواحات الواقعة جنوب الأوراس التي قام بنهبها قبل أن ينتقل إلى الجريد. وبعدما تبين للموحدين أنهم لن يتمكنوا من اللحاق به، عادوا إلى بجاية حيث خلدوا إلى راحة مستحقة لم يذوقوا طعمها منذ ستة أشهر، أي منذ مغادرتهم مراكش في مطلع 1185م.

ونستشف من رسالة رسمية مؤرخة في 5 رجب 581هـ (6 يوليو 1185م) بعث بها الخليفة إلى أهالي اشبيلية يخبرهم من خلالها بالانتصار، أن سقوط بجاية من جديد بيد الموحدين تم في النصف الثاني من يونيو 1185م؛ دليلنا في ذلك أن المدة الفاصلة بين استعادة المدينة ثم تلقي الخليفة للخبر وكتابته للرسالة ستكون قد تراوحت على أقل تقدير بين 15 أو 20 يوماً. وقد تلقى الخليفة المعلومات التي ضمنها الرسالة من قادة الأسطول وكذا من قادة القوات البرية التي ضربت مخيمها بمتيجة (سهل الجزائر). ولا تتضمن الرسالة أي ذكر لتحرير الموحدين لقسنطينة، ذلك لأن تحريرها سيتم بعد كتابة الرسالة، أي في نهاية يونيو وبداية يوليوز.

ولما عاد السيد أبو زيد إلى بجاية وجدها في حالة يرثى لها بسبب أعمال النهب التي قام بها العرب والميورقيون؛ بحيث أقفرت السهول وضربت المجاعة أطنابها وانتشر وباء الطاعون. وأمام عجز السيد عن إيجاد حل لهذه المشاكل المستفحلة، بدأ الحديث في المدينة عن عدم كفاءته في تسيير شؤونها الإدارية، وبدأت الشكاوى في هذا الصدد تصل إلى مراكش. ورغم ما كان يكنه له الخليفة من تقدير، فقد أرسل من ينذره ويذكره بعجزه.

في تلك الأثناء رجع الأسطول الموحدي إلى قاعدته بسبتة، غير أنه مباشرة بعد ذلك عادت الأوضاع لتضطرب من جديد بعد هجوم مباغت على أشير قام به فيلق مرابطي يقوده غزي الصنهاجي. وقد أرسل الموحدون ضد الفيلق قوات[34] تمكنت من تدارك الموقف، حيث هزمته وظفرت منه بغنائم مهمة بعدما تمكنت من قتل قائده، غير أنها لم تستعد أشير التي واصل عبد الله أخو غزي احتلالها والدفاع عنها، إلى أن نجح القاضي أبو العباس بن الخطيب في أسره ونقله إلى بجاية التي صلب بها بجوار المكان الذي علق فيه رأس أخيه.

الصراع في البليار

في الوقت الذي كان فيه السيد أبو زيد يحاول إعادة الأمور إلى نصابها في بجاية وفي نفس الوقت ينزل العقاب بكل الذين تعاونوا مع ابن غانية أثناء احتلاله لها، نجح علي بن الربرتير الأسير

34- كان على رأسها كل من السيد أبي حفص عمر بن السيد أبي زيد، و أبي الظفر غانم بن مردنيش الذي قاد العملية التي قتل على إثرها غزي الصنهاجي. انظر: البيان المغرب، م. س.، ص. 181.

في ميورقة، كما مر بنا، في استمالة المسيحيين الذين أسرهم بنو غانية في أعمال القرصنة
كانوا يقومون بها. وقد وعدهم بالحرية في حالة تعاونهم معه، وهكذا ففي أحد أيام الجمعة، والذ
انشغال السكان بالوضوء لأداء الصلاة، قاموا تحت قيادته باحتلال القصبة وإبادة حاميتها. إثر ذلك
هاجمته القوات المرابطية الموجودة بالمدينة من جميع الجهات مستعملة في ذلك المجانيق وأسلحة
أخرى، ولإرغامها على إيقاف الهجوم، أسر أم علي بن غانية وابنيه وأقاربه ونقلهم خارج أسوار
القصبة حيث أصبحوا عرضة للسهام التي يلقي بها المحاصرون. في ظل هذه التطورات، وبعد مرور
عدة أيام على بدء الحصار، وصل الطرفان إلى اتفاق قبل بمقتضاه ابن الربرتير تسليم القصبة
وإطلاق سراح عائلة بني غانية، مقابل فدية مالية مهمة إضافة إلى السماح له بمقابلة محمد
ابن غانية المؤيد للموحدين والسجين في إحدى أطراف الجزيرة[35]، وكذا السماح للأسرى المسيحيين
بمغادرة الجزيرة نحو بلدانهم، بعد تمكينهم من الأسلحة التي تسمح لهم بحماية أنفسهم، وأخيراً
السماح له ومساعديه ومحمد بن غانية بمغادرة الجزيرة، حيث توجهوا إلى مراكش التي
استقبلوا فيها بحفاوة كبيرة. وقع كل هذا في نهاية 1181م (متم 581هـ ومطلع 582هـ) حسب
مؤلف Cronica de San Salvador de Marsella الذي يضيف أن الأسرى المسيحيين احتلوا في
السنة المذكورة "قصر مدينة ميورقة" (القصر الملكي) وأنه بسبب ذلك أطلق سراحهم.

لقد ساد الاعتقاد أن أبا الحسن علي نجل الربرتير اعتنق الإسلام، غير أنه يتعذر علينا في
غياب أي دليل، عدا الاسم الذي يحمله، إثبات ذلك؛ على اعتبار أن الأسماء العربية سادت بين
الكثير من المستعربين المسيحيين بمن فيهم القضاة والأساقفة. لذا من غير المستبعد أن يكون
الربرتير (الابن) الذي عاش مدة طويلة بين المسلمين[36]، قد حافظ على ديانته المسيحية خصوصاً

35- يشير مؤلف البيان المغرب إلى أنه تم خلال تلك السنة الحكم بالاعدام على نجلي القائد ابن حملة كما نفي بنو حمدون
إلى سلا وقد اضطروا بسبب ذلك إلى بيع أملاكهم بأرخص الأثمان، وبنو حمدون هؤلاء هم أقارب ميمون بن علي بن حمدون
وكان وزيراً للأمراء الحموديين الذين حكموا بجاية، وكان أثناء مطاردة عبد المومن لتاشفين بن علي في تلمسان قد انتقل
على رأس قوات عسكرية إلى هذه الأخيرة لتقديم النجدة لتاشفين، غير أن قواته تقهقرت أمام الموحدين مما أجبره على
الخضوع لهم، اثرها أكرم عبدالمومن مثواه وأخاه محمد وبقية عائلته، حسب ما تشير إليه الرسالة التي بعث بها الخليفة
الموحدي إلى أهالي قسنطينة و المؤرخة في 24 جمادى الأولى 547هـ (27 غشت 1152م). وفي وقت لاحق، وبسبب وفائهم
لأسيادهم السابقين انتقل أبناء ميمون وأبناء أخيه محمد بن حمدون إلى ميورقة وكانوا لازالوا يعلقون الأمل على عودة
المرابطين إلى الحكم، وبسبب مواقفهم هذه قام الموحدون بملاحقتهم ونفيهم، م. س.، ص. 181-182.

36- توفي عام 583هـ بينما توفي والده عام 539هـ.

وأنه لم يكن مجبراً على تغييرها. ومما يؤيد احتمال احتفاظه بديانته الأصلية، السهولة التي افتتح بها الأسرى والمرتزقة المسيحيون في ميورقة بالتعاون معه، وحرصه هو على تهيئة الظروف المناسبة لهم من أجل العودة إلى بلدانهم. وكيفما كان الحال، فإننا نجهل كيف مر الربرتير الابن إلى صفوف الموحدين الذين عهدوا إليه بمناصب مهمة، رغم أن والده كان أحد أهم قادة المرابطين ومن بين آخر أبطالهم والذين ضحوا بحياتهم دفاعاً عن الراية المرابطية.

ولا يفهم ابن خلدون جيداً ما حدث في ميورقة حيث يخلط بين تلك الأحداث وما وقع في عهد عبد الله بن غانية، وهكذا يقدم رواية بعيدة الاحتمال مفادها أن محمد بن إسحاق الذي عزل وسجن من طرف إخوته، غادر السجن مع علي بن الربرتير باتفاق مع بعض أفراد حاشيته، وأنه قام بعدها بمبايعة يعقوب المنصور حيث بعث من أجل ذلك علي بن الربرتير إلى مراكش، وقد أرسل المنصور (دائماً حسب ابن خلدون) بعد تلقيه لبيعة محمد بن غانية، أسطولاً يقوده أمير البحر أبو علي بن جامع لاحتلال ميورقة، غير أن محمداً تراجع آنذاك عن موقفه المؤيد للموحدين وكتب إلى "طاغية" برشلونة يطلب منه قوات مسيحية تساعده على محاربة الموحدين، ورغم أنه أجيب إلى طلبه فإن الميورقيين طردوه من الجزيرة وعينوا مكانه أخاه تاشفين. ولما علم علي بن غانية بالأمر وكان ذلك أثناء محاصرته لقسنطينة عام 581هـ، أرسل أخويه عبد الله والغازي ضد تاشفين حيث نجحا في الإطاحة به[37].

ويساعدنا ما ورد عند صاحب البيان المغرب على كشف الغموض العالق بهذه النقطة؛ فمحمد ابن غانية حافظ حسب المصدر على وفائه للموحدين، وهؤلاء لم يكتفوا فقط باستقباله بحفاوة عندما حل بمراكش، وإنما عينوه عاملاً على دانية. وكما سنرى فيما بعد، فإن محمداً هذا وبسبب وفائه للموحدين كان من بين الذين أوصى بهم يعقوب المنصور في وصيته الأخيرة.

الإصلاح المالي وردود الفعل المرابطية

وفي نفس سنة 581هـ والتي استعاد فيها الموحدون بجاية واستولى فيها علي بن الربرتير على ميورقة، قرر يعقوب المنصور إدخال إصلاح على العملة؛ حيث زاد في وزن الدينار وفي قيمته حسب صاحب البيان المغرب، بعدما لاحظ أن خفة وزنه لم تعد تتماشى وعظمة الأمبراطورية، وهكذا فبعدما كان وزن الدينار الموحدي على عهد عبد المومن ويوسف الأول لا يتجاوز 236 غرام، أصبح مع يعقوب المنصور 472 غرام، أي الوزن التقليدي الذي عرف به الدينار في المشرق.

37- ابن خلدون. العبر، م. س.، المجلد السادس، ص. 508-509.

وبسبب مضاعفة وزنه، أصبح الدينار الموحدي يعرف بين مسيحيي شبه الجزيرة الإيبيرية بـ"الدبلون" Doblon أو "الدوبلة" Dobla [38].

وبعد أن أصبحت ميورقة تحت السلطة الاسمية للموحدين، وقبل أن يعين الخليفة عليها عامله ويرسل إليها قواته، توجه إليها عبد الله بن غانية قادماً من صقلية، وكان قد التجأ إليها بعد مغادرته إفريقية. وفي ميورقة نزل بمنطقة معزولة التف حوله فيها وبسرعة أنصاره الذين تمكن بواسطتهم من احتلال الجزيرة.

حدث ذلك دون شك في ربيع أو صيف 582هـ (1186م). في تلك الأثناء كان السيد أبو زيد قد استدعي إلى مراكش، قام علي بن غانية وعقب فشله في حصار قسنطينة، بنهب الواحات الواقعة جنوب الأوراس، كما نجح في استمالة عرب رياح وجشام بعد أن أغدق عليهم العطاء. وعند وصوله إلى منطقة الجريد حاصر توزر التي قطع نخيلها، غير أنه لم ينجح في احتلالها إلا بعد جهد جهيد وبتواطؤ مع بعض أهاليها. وإثر تخريب توزر، توجه علي إلى قفصة التي استسلمت له دون مقاومة، ومنها إلى طرابلس حيث وجد في الأرميني قراقش حليفاً جديداً ضد سلطة الموحدين[39].

وقد انضم إليهما كل عرب المنطقة وكذا من تخلف هناك من قبيلتي لمتونة ومسوفة المرابطيتين، وهو ما جعل كل منطقة الجريد تخضع لسلطتهما، في وقت نقل قراقش عاصمته إلى قابس التي خضعت له هي الأخرى.

ولم يستطع عامل تونس الموحدي شيئاً أمام انتصارات علي بن غانية الذي، وبعد استعادته لجزر البليار، سيطر على كل إفريقية (باستثناء تونس والمهدية) وقام بأعمال السلب والنهب والقتل بالجملة، وكان أقصى ما ذهب إليه عامل تونس هو مراقبة تحركات علي من بعيد، وبعث التقارير بذلك إلى المنصور الذي وبسبب خطورة الوضع لم يجد بداً من الانتقال شخصياً إلى إفريقية على رأس حملة عسكرية.

38- البيان المغرب، م. س.، ص. 182. انظر كذلك:

Prieto Vives La reforma numistica de los almohades . En Miscelanea de textos arabes. p .15 y siguientes.

También R- Brunshvig. Esquisse d'histoire monétaire almohade hafcide. En Mélange wiliam Marcais . P. 63 y siguientes.

39- دخل هذا المغامر الأرميني الأصل إفريقية عام 568 هـ في فصيلة من الغز تنتمي أصلاً إلى جيش تقي الدين (ابن أخي صلاح الدين)، واستولى على واحتي أوجلة (وزلة في رحلة التيجاني) وفزان، بمساعدة عرب دباب وأمير رياح مسعود بن سلطان قبل أن يحتل طرابلس. وقد انضم كل العرب الرحل في إفريقية إلى التحالف الذي شكله قراقش وعلي بن غانية.

حملة يعقوب المنصور

قضى يعقوب المنصور جزءاً مهماً من سنة 582هـ (1186م) في الاستعدادات العسكرية وفي تحصين البلاد. وفي شهر رمضان 582هـ (يوافق اليوم الأول منه 15 نوفمبر واليوم الأخير 14 ديسمبر 1186م)[40] وعلى منوال جده ووالده، زار تنمل ليلتمس بركة المهدي. إثر ذلك، وبالضبط في 3 شوال (17 سبتمبر) خرج على رأس الحملة، بعد أن ترك نائباً عنه في مراكش السيد أبا الحسن أكبر أبناء عمه أبي حفص[41]، حيث كلفه بالإشراف على إتمام أعمال البناء في الصالحة.

وقد حرص الخليفة أن تخضع الحملة لتنظيم محكم، وهذا ما نستشفه من الرسائل التي وجهها قبل انطلاقها إلى المكلفين بأمور النقل والتموين[42]. ومنذ مغادرتها مراكش، لم تتوقف إلى غاية الرباط والتي استقبل بها ولاة الأندلس وبقية ولاة المغرب الذين استدعاهم إلى هناك لإعطائهم تعليماته. ومما نسجله في هذه الحملة، استغناء الخليفة عن خدمات العرب المقيمين في المغرب، وكان ذلك دون شك بسبب تخوفه من تمردهم عليه عندما تقع المواجهة مع عرب إفريقية، ولم يرافقه منهم إلا بعض الشيوخ الزيانيين المنتمين لقبيلة رياح والذين كان متأكداً من وفائهم[43]. ومن الرباط انتقل إلى فاس التي توقف بها خلال جزء مهم من فصل الشتاء (بداية 1187م)، والتي أكرم عاملها القوات المشاركة في الحملة غاية الكرم. وأثناء مقام الخليفة بفاس، اتجه علي بن غانية، وبعدما عجز في احتلال تونس، إلى شبه جزيرة شريك الواقعة شرق تونس وحاصر مدينة بشاق، أما يعقوب المنصور فقد اتجه عقب مغادرته لفاس إلى تازة.

وعلى امتداد مراحل الحملة، ظهر بجلاء ما كان يتصف به الخليفة الموحدي من عدل؛ فقد كان يقف بنفسه على الدعاوى التي كان يرفعها الرعايا. من جهة أخرى، كانت غيرته من إخوته

40- هذا هو التاريخ الذي يقدمه صاحب روض القرطاس، بينما يقول ابن خلدون في إحدى فقرات العبر (م. س.، ص. 509) إن المنصور خرج من مراكش سنة 582هـ، غير أنه في فقرة أخرى يشير إلى أن مغادرته للعاصمة كانت في 583هـ، من جهته يقول ابن الأثير (م. س.، ص.171)، إن ذلك كان في صفر 583هـ (أبريل مايو 1187م)، ويحاول "بيل" أن يجد توفيقاً بين التاريخين عندما يجعل في الأول مغادرة الخليفة لمراكش وفي الثاني مغادرته للمغرب بعد مقامه المطول بفاس.

41- أبو الحسن محمد بن السيد أبو حفص عمر بن عبد المومن هذا، هو والد أبي دبوس والذي كان آخر من تولى العرش من الأسرة الموحدية.

42- البيان المغرب، م. س.، ص. 185-186.

43- يقول ابن الأثير إنه خرج في عدد محدود من الرجال لم يتجاوز حسبه 20 ألفاً وإن ذلك كان لنقص في المؤونة سببه الأزمة الناجمة عن الحرب مع علي بن غانية. الكامل، الجزء التاسع، م. س.، ص. 171.

وأبناء أعمامه وبقية أقاربه تزداد يوماً عن آخر، بسبب ما كانوا يرتدونه من معاطف بنفسجية وبرانس ملونة بلون المسك. وليضع حداً لذلك، أمر السيد أبو زيد[44] أن يجمعهم ويخبرهم رسمياً بقرار منع ارتداء تلك الألوان على اعتبار أنها، وحسب تقاليد البلاط، خاصة بالخليفة دون غيره.

وعند وصول الجيش الموحدي إلى منطقة قسنطينة، قامت القوات الميورقية والغز الموجودون تحت إمرة قراقش وعرب بني سليم الذين انضموا إليهم بالتقدم عبر سهل القيروان بشكل كبير، بحيث أصبحت مقدمة جيشهم على مرأى من طليعة الجيش الموحدي، وقد أراد يعقوب المنصور عندئذ الانقضاض عليهم ومباغتتهم، قبل أن ينظموا صفوفهم للدخول في المواجهة، لكن في مجلس الحرب الذي دعا إليه لم يكن أغلب الوزراء والشيوخ مع هذا الرأي، بحيث إنهم ارتأوا ضرورة الانتقال أولاً إلى تونس من أجل استراحة الجنود من تعب الرحلة[45].

معركة العمرة

وما أن وصل إلى تونس حتى بدأ الخليفة يستعد للمواجهة بكل جدية، حيث أعد لذلك فيلقاً واحداً قوامه ستة آلاف رجل اعتقد أنه كافٍ لهزم العدو[46]، وقد عين على رأسه ابن عمه السيد أبا يوسف الذي قصد قفصة حيث يوجد ابن غانية. وفي يوم الجمعة 15 ربيع الثاني 583هـ (24 يونيو 1187م)[47] حدثت المواجهة في سهل العمرة المجاور للمدينة، وكان ذلك بعد ستة أشهر من مغادرة الموحدين لمراكش. ويظهر أن القوات الموحدية التي دخلت المعركة لم تكن متفقة على الخطة التي يجب أن تقاتل بها، الشيء الذي جعلها تحارب بشكل عشوائي، وهو ما استغله الغز والقبائل العربية الذين قاموا بتطويق الموحدين.

وقد حاول علي بن الريرتير تدارك الموقف حيث قام ورجاله بمهاجمة العدو، غير أن هذا الأخير نجح في أسره، نفس المصير لقيه علي بن يومور الذي سقط بيد العدو بعد أن غدر به العرب الذين كان يقودهم. أمام هذا الوضع اضطر الخليفة إلى ترك مخيمه وما فيه من أمتعة

44- هو أبو الحسن بن أبي حفص عمر الذي عزل من حكومة إفريقية بعد استعادة الموحدين لبجاية، حيث استدعاه الخليفة إلى مراكش في شتاء 1185م-1186م.

45- البيان المغرب، م. س.، ص. 187.

46-ابن الأثير، م. س.، ج. 9، ص. 171.

47- لا يوافق 15 ربيع الثاني الجمعة وإنما الأربعاء، وهنا إذا سلمنا أن المواجهة وقعت فعلاً يوم الجمعة، فمن المحتمل أن يكون ذلك في 25 ربيع الأول (4 يوليوز)، هذا الاحتمال قد يزكيه ما ورد عند ابن الأثير، م. س.، ص. 171، الذي قال إن المعركة حدثت في ربيع الأول (يوافق اليوم الأول منه 11 ماي واليوم الأخير 9 يونيو)، ويميل دوزي إلى هذا الشهر حيث يقول إن المواجهة حدثت في يونيو. انظر: Op. Cit., Recherches... .

والفرار إلى تونس مخلفاً وراءه الجرحى وغيرهم من الذين حال التعب والعطش دون هروبهم إلى تونس، والذين اكتفوا بالالتجاء إلى قفصة القريبة من مكان المعركة. ولم يبال المنتصرون بملاحقة الفارين، كما لم يول قراقش أهمية لمصير الذين التجؤوا إلى قفصة، بخلاف علي بن غانية الذي تظاهر بأنه يرغب في مساعدتهم، وبعد أن تمكن من جمعهم، أمر بقتلهم جميعاً.

وفي الوقت الذي كان فيه ابن غانية بالخيمة التي ظفرها من الخليفة منشغلاً بتوزيع الغنائم على رجاله، حاول علي بن الريبرتير إرشاء سجانيه من أجل مساعدته على الفرار، غير أن هؤلاء نقلوا الخبر إلى ابن غانية الذي أجزل لهم العطاء، وطلب منهم مُدَارَات ابن الريبرتير، ولما هم هذا الأخير بالفرار ألقوا عليه القبض وسلموه لابن غانية الذي قام بتعذيبه قبل أن يأمر بقتله[48]، هذا المصير كان ينتظر أيضاً علي بن يومور والذي علقت جثته على باب قفصة[49].

معركة الحمة

عمت بسبب هزيمة العمرة حالة قلق في كل أنحاء البلاد، لذا كان على الخليفة أن يرد بشكل سريع، وقد واصل خلال الشهرين المواليين الاستعداد ودون توقف لمواجهة ثانية. وفي فاتح رجب (6 سبتمبر) غادر تونس نحو القيروان، ومن هناك كاتب العدو يدعوه للخضوع واعتناق عقيدة الموحدين، غير أن ابن غانية، والذي زاده الانتصار الأخير غطرسة، لم يبال بما طلبه منه الخليفة ووجه كل اهتمامه للمواجهة الحاسمة. وأثناء إقامته بالقيروان وتجوله بأحيائها، تأثر يعقوب المنصور غاية التأثر لحالة الخراب التي آلت إليها المدينة بسبب أعمال النهب التي كان يقوم بها العرب، وعند دخوله مسجدها وجده في حالة يرثى لها، لذا كتب بشكل مستعجل إلى المسؤولين في شرق الأندلس يطلب منهم أن يرسلوا في أقرب الآجال الزرابي وبقية أمور الزخرفة لتجهيز المسجد من جديد. إثر ذلك واصل السير، وبعد أيام معدودة أصبح على مرأى من العدو الذي لم يحاول الفرار. وكان المكان الذي وضع به الخليفة مخيمه يقع على بعد فرسخين من الحمة[50].

48- لما علم "بيرينكر بن الريبرتير Berenguer b Reverter (هو دون شك ابن الريبرتير المعروف والمتوفى عام 539 هـ) الذي تربى في البلاط المرابطي حيث كان يوقع فقط باللغة العربية وكان يحمل عام 1154م ،حسب ما نعلم من احد المصادر، لقب نائب كونط Visconde برشلونة، لما علم بمقتل أخيه انتقل في تلك السنة (1187م) إلى المغرب لحيازة املاكه وربما لينقل جثته إلى برشلونة. انظر: Homenaje a Codera. En Carreras Candi Vizconde de Barcelona. P. 124 .

49- يتعلق الأمر بابن أو حفيد عبدالله بن يومور الذي كان قد كلف عام 544 هـ (1149م) من طرف عبدالمومن ليقوم بعملية التصفية الثانية بين هسكورة.

50- هي قرية صغيرة توجد بين قابس ونفطة وتظهر تحت برج الحمة في خريطة أرشيفات الحرب الفرنسية لعام 1857م، أما اليوم (تاريخ صدور الكتاب) فيطلق عليها اسم حمة الأرض وتقع على مسافة 32 كلم من قابس.

وفي صبيحة اليوم الموالي، وكان الفصل فصل خريف والضباب يغشى السهل، أمر كل رجاله بالاستعداد للمواجهة، وحثهم على القيام بواجبهم على الوجه الأكمل. وقد أبدى كبار رجال البلاط استعدادهم للموت من أجله، وطلبوا منه عدم المشاركة في القتال والمكوث بخيمته، لكنه رفض ذلك رفضاً قاطعاً. وقد كلف كبار القادة من أقاربه وأهل ثقته بقيادة القبائل وبقية الجيش وتولى هو القيادة العامة، إثرها بدأت القوات بالتحرك وأخذ هو موقعه في الطليعة مباشرة خلف قادة الجيش[51].

وقد رفعت شجاعة الخليفة من معنويات الجنود وزادتهم حماسة، حيث انقضوا على العدو الذي هزموه بعد قتال عنيف. ويرجع الفضل في هذا الانتصار بدرجة أولى إلى مناورة ذكية قامت بها فرقة الخيالة التي تسربت في فجر يوم المعركة إلى المكان الذي ترك فيه العدو ذويه وأمتعته واستولوا على كل ذلك. وبعدما علم بذلك العرب الذين يوجدون ضمن قوات ابن غانية تفرقوا عنه، وهو ما تأثرت له معنويات الميورقيين الذين لاذوا بالفرار، غير أن الموحدين قاموا بتعقبهم طيلة ذلك اليوم، بحيث لم يتوقفوا إلا عند وصولهم إلى قابس[52].

ومع طلوع شمس اليوم الموالي (15 أكتوبر)، خرج سكان المدينة لاستقبال المنتصرين وطلب الأمان الذي منح لهم. وقد التجأ أبناء وحريم قراقش المتخلفون في قابس إلى القصبة مع فرقة عسكرية من جيشه، غير أنهم اضطروا للاستسلام بعد الحصار المكثف الذي ضرب عليهم. ورغم أن الموحدين لم يعملوا فيهم السيف فإنهم صادروا أملاكهم واستعبدوا نساءهم وأطفالهم، هذا المصير هو الذي لقيه كذلك نساء وأطفال أولئك الذين قتلوا في المعركة أو فروا منها.

حصار قفصة

ومن قابس أخذ يعقوب المنصور طريق توزر متعقباً قائدي جيش العدو، غير أنهما كانا قد توغلا في الصحراء، وأمام عجزه اللحاق بهما، اخترق منطقة الجريد برمتها حيث قضى على كل المتمردين الذين ظهروا بها وأعاد الزعماء المحليين السابقين إلى مناصبهم. إثر ذلك انتقل على رأس كل القوات الموحدية إلى قفصة المحصنة تحصيناً منيعاً، وكانت فرقة من الغز مكلفة بحمايتها.

وفي الثاني من رمضان (5 نوفمبر)، كتب إلى أهل تونس يخبرهم بأنه يحاصر قفصة[53]، وأنه تلقى في نفس اليوم الذي بدأ فيه الحصار رسالة من قراقش يعبر من خلالها عن رغبته في

51- البيان المغرب، م. س.، ص. 191.

52- الروض المعطار، م. س.، ص. 200-202.

53- مجموع رسائل... م. س.، الرسالة، 30. حررت في 18 شعبان (23 أكتوبر 1187م) بضواحي قابس وأرسلت من واحة تنزاوة.

الخضوع للموحدين والانضمام إلى صفوفهم. وفي اليوم الموالي استقبل مبعوثي ابي زيان، وهو قائد من الغز انفصل عن قراقش واستقل بطرابلس، والذين أخبروه أن سيدهم على استعداد للخضوع للموحدين وإعلان سلطتهم في المدينة.

وكان المنصور قد وضع مخيمه أولاً في ضواحي قفصة، بنفس المكان الذي وضع فيه والده مخيمه عندما قام بحصارها، ومن هناك واصل الاستعدادات. وبعد أن قام بجمع المؤونة اللازمة[54]، نقل مخيمه إلى جوارها، حيث وضع ديدباناً من الخشب[55] ليتمكن انطلاقاً منه من مراقبة القتال وكل ما يجري بالمدينة، كما أمر أن تحاط أسوارها بالمجانيق والتي تمكنت طلقاتها من اختراق الأسوار تاركة عدة منافذ، في نفس الوقت أمر بتشييد برج من سبعة طوابق تجاوز علوه علو الأسوار، أمر مجموعة من النبالين وغيرهم من المقاتلين بصعوده. إثر ذلك ردم الخندق المحاذي للسور والذي فتحت فيه طلقات المجانيق إحدى المنافذ، وهكذا أصبح الطريق معبداً لتنفيذ الهجوم، الذي كلفت به حامية موحدية، في اليوم الموالي لردم الخندق.

وقد وجدت هذه الحامية بعض المقاومة لذا آثرت الانسحاب على أن تعود في اليوم التالي لتخضع المدينة بشكل نهائي، وبما أن سلطات هذه الأخيرة أدركت الخطر المحدق بها، فإنها ارتأت طلب الأمان، وأرسلت في ليلة نفس اليوم وفداً من الأعيان رخص له باجتياز سور المدينة من المنفذ المجاور للخندق، حيث نزل بجوار خيمة الخليفة الذي قرر، بعد أن تداول مع مستشاريه وأقاربه، منحه الأمان الذي جاء يسعى من أجله، والذي على ضوئه سمح لسكان المدينة وكذا للغز بالاحتفاظ بأملاكهم، لكن ليس للميورقيين والمتواطئين معهم والذين لم يطلهم الأمان[56].

54- نفسه، الرسالة، 31.

55- الديدبان هو من اختراعات الحرب التي نقلها مسلمو شمال إفريقيا عن البزنطيين، وقد ورد ذكره في البيان المغرب الذي يقول عند حديثه عن الغزو العربي لإفريقية، وبالضبط عن معركة سبيطلة التي وقعت عام 648م، والتي هزم وقتل فيها البطريق "غريغوريو" Gregorio، يقول إن هذا الأخير صعد في ديدبانه لمراقبة أحداث المعركة.

56- أورد أهم التفاصيل حول موضوع الأمان هذا، ابن عذاري، في البيان المغرب، (م. س.، ص. 141). من جهته أورد التجاني في "الرحلة" معلومات مفادها أن المنصور رغم عفوه على سكان قفصة وسماحه لهم بالاحتفاظ بأملاكهم، فإن هؤلاء أصبح لهم فقط حق الاستفادة من هذه الأملاك دون حق حيازتها، ويضيف نفس المصدر أن الشخص الوحيد من الغز الذي رفض الخليفة العفو عنه هو ابراهيم بن قراتكين وذلك دون شك بسبب تسليمه قفصة للميورقيين بعد احتلالهم الجريد. يقول التيجاني: « *ثم توجه المنصور الى قفصة فحاصرها حصارا شديدا الى ان خرج اليه اهلها راغبين في العفو فشاطرهم على تأمين أهل البلد في أنفسهم خاصة وتبقى املاكهم بأيديهم على حكم المساقاة وجميع من عندهم من الحشود والغرباء ينزلون على الحكم فوقع الاتفاق على ذلك* » م. س.، ص. 138.

وفي ساعة متأخرة من الليل، انسحب الوفد الذي جاء لطلب الأمان بعدما أجبر على قبول كل الشروط التي أملاها عليه الخليفة، وكان كل أفراده يتمنون أن تقبل حامية المدينة بهذه الشروط وتقدم الطاعة ليعقوب المنصور وذلك حتى تنعم المدينة بالأمان. وفي صبيحة اليوم الموالي لم يبق في قفصة من الذكور من لم يأت لتقديم الطاعة، إثر ذلك أذن المنصور للجميع بالعودة إلى مدينتهم أحراراً، في وقت ألقي فيه القبض على الميورقيين والمتواطئين معهم والذين سجنوا في برج الطوابق السبعة سالفة الذكر. وبعد أدائه لصلاة الظهر صعد الخليفة إلى الديدبان ليشهد بنفسه عملية إعدام السجناء، و كان أول من سيق إلى المقصلة أحد أبناء علي بن غانية والذي تولى ضرب عنقه الوزير أبو يحيى. ومن بين الذين نفذ فيهم حكم الإعدام ذلك اليوم، المدعو إبراهيم بن قراتكين.

وبعد إعدام كل من تمت إدانتهم، ألقيت الجثث وعلى مرآى من سكان المدينة في خندق يوجد بها. إثر ذلك رفع الخليفة مخيمه الذي أعاد وضعه في المكان الأول الموجود بضواحي قفصة في وقت أمر قوات القبائل المشاركة في الحملة بهدم أسوارها، وقد نجحت هذه القوات وفي مدة يومين، في هد هذه الأسوار عن آخرها، كما أعطيت الأوامر بإضرام النيران في كل المجانيق وبقية الآلات الحربية وذلك قبل أن ينسحب الخليفة إلى تونس التي دخلها ظافراً في العشر الأواخر من شوال (ما بين 23 ديسمبر 1187م و فاتح يناير 1188م).

ويقدم لنا صاحب البيان المغرب تاريخاً مغلوطاً عن استعادة قفصة من طرف الموحدين عندما يقول إن ذلك تم في شعبان 583هـ (أكتوبر 1187م) وهو شيء غير منطقي، على اعتبار أن الخليفة وإلى غاية 2 رمضان (5 أكتوبر) لم يكن قد دخلها، بحيث إنه كتب من مخيمه الذي ضربه بجوارها إلى أهالي تونس في اليوم المذكور، وهو ما يعني أنه أقام ذلك المخيم في نهاية شعبان. ومما يؤكد خطأ ما ذهب إليه البيان المغرب، أنه يجعل المدة بين مغادرة القوات الموحدية قابس وسقوط قفصة عشرين يوماً فقط، علماً أن الجيش الموحدي قبل وصوله إلى قفصة كان عليه استعادة كل منطقة الجريد (قبائل توزر ونفزاوة والحمة ونفطة و تيجس)، وعند وصوله إليها كان عليه صنع عدد مهم من المجانيق في عين المكان ومن ثمة ضرب حصار طويل الأمد، وذلك قبل تطويق الأسوار وإضرام النيران في برج ابن زواغة، وهو ما لا يمكن القيام به في عشرين يوماً. ولعل الرسالة المؤرخة في 13 ذي القعدة (14 يناير 1188م) التي بعث بها المنصور إلى سلطات وأهالي مراكش يخبرهم فيها بسقوط قفصة، دليل آخر على أن ذلك تم بعد التاريخ الذي يورده صاحب البيان المغرب [57].

57- مجموع رسائل...، م. س.، الرسالة، 32.

ويذهب ابن الأثير إلى أن حصار قفصة دام ثلاثة أشهر، بينما يرى ابن خلدون أن المدة لم تتجاوز بضعة أيام، والحقيقة أن كلا المصدرين جانبا الصواب بخصوص هذه النقطة، لأن مدة الحصار هي شهر ونصف، أما المدة التي مكثها يعقوب المنصور في مدينة تونس بعد عودته من قفصة فهي شهران، قام خلالهما وبعد الانتهاء من الاحتفال بالنصر، بتنظيم الحياة الإدارية والاقتصادية لإفريقية التي عين والياً عاماً عليها السيد أبا زيد.

العودة من إفريقية ومعاقبة بعض السادة

وفي محرم 584هـ (مارس 1188م) غادر يعقوب المنصور تونس نحو المهدية، وكان قد أرسل إلى المغرب الأقصى من يخبر بقرب عودته، بعدما وصلته الأخبار عن تصرفات بعض أقاربه وكذا عن الوضع في الأندلس. وأثناء مقامه في المهدية أصدر تعليمات تلزم العرب باحترام السلطة الموحدية، في وقت عبرت فيه أهم قبيلتين متفرعتين عن بني سلمان عن خضوعهما. ومن المهدية انطلق وبإيقاع أسرع من الذي تسير به حملاته عادة، نحو عاصمة ملكه عبر طريق تاهرت، دون أن يتوقف أو يعرج على قلعة من القلاع إلى أن وصل إلى تلمسان التي استراح بها جيشه وتزود بالمؤونة. وبهذه المدينة علم بأخبار جديدة عن سوء سيرة بعض السادة وهو ما دفعه إلى اختصار الطريق، والعمل على الوصول إلى عاصمة ملكه في أقرب وقت ممكن.

لقد شجع بعض ما علق بسيرته خلال شبابه الأول، وكذا عدم تعيينه كولي للعهد على حياة والده، وهو ما أفقده السند القانوني لتولي الخلافة، شجع أعمامه على التمرد والتطلع إلى تولي الحكم، خصوصاً بعد هزيمته في معركة العمرة وقناعتهم بأن حملة إفريقية آيلة للفشل. ولوضع حد لكل ذلك كان على يعقوب المنصور أن يتصرف بصرامة دون أن يعير أدنى اهتمام لروابط القرابة التي تجمعه بهم.

وكان أول من أدى الثمن، عمه السيد أبا إسحاق إبراهيم الذي سبق للخليفة أن قربه إليه وأغدق عليه العطاء، لكنه اكتشف فيما بعد أنه غير صادق في دعمه له، لذا أمر بنفيه إلى تلمسان، ومن هناك وأثناء حملة يعقوب المنصور على إفريقية، قام أبو إسحاق هذا بحملة دعائية نشيطة ضد مخططاته. وخلال توقف الخليفة بتلمسان على إثر عودته الظافرة من حملة إفريقية، ذهب أبو إسحاق لتقديم التحية، غير أنه وفي الوقت الذي حاول الجلوس بجوار الخليفة نهره هذا الأخير وأمره بمغادرة مجلسه والانسحاب دون أن يدير ظهره، في نفس الوقت أمر بأن

يمنع من مطيته ويعود إلى بيته راجلاً، وعندما علم العوام بما جرى اعترضوا طريقه، وبعد أن جردوه من ثيابه قاموا بقتله.

وبجانب أبي إسحاق، تطاول على سلطة الخليفة اثنان من أقاربه ذهبا أبعد مما ذهب إليه أبو إسحاق أحدهما هو أخوه أبو حفص عمر الرشيد الذي علم بهزيمة الجيش الموحدي في معركة العمرة، فوقع حلفاً مع ألفونسو الثامن، واستولى على أموال بيت المال ليمول مشاريعه الانفصالية. هذا بجانب إساءته التصرف تجاه الرعية، غير أن انتصار الموحدين في الحمة أجهض مخططاته. وعند عودة المنصور إلى مراكش أرسل في طلبه في وقت تخلى عنه أتباعه الذين سبقوه إلى العاصمة من أجل الوشاية به. وأمام هذا المأزق، لم يجد بداً من التوجه إلى مراكش وليس له من مخرج غير الطمع في رحمة أخيه. أما المتطاول الآخر على سلطة يعقوب المنصور فهو عامل تادلة عمه السيد أبو الربيع سليمان الذي حاول تحريض القبائل المجاورة على التمرد، وقد أرسل الخليفة ضده عمه السيد أبا زكريا[58] على رأس فصيلة موحدية، وبما أن المتمرد لم يحصل على دعم القبائل التي حاول استقطابها، فقد اضطر لتسليم نفسه للفصيلة التي جاءت تقتفي أثره.

ولا يخبرنا صاحب البيان المغرب هل قتل أول هؤلاء المتمردين الثلاثة من طرف العوام دون تدخل من المنصور أم أن هذا الأخير هو الذي أمر بقتله، غير أنه وعند تناوله لقضية القرارات التي اتخذها الخليفة في حياته والتي ندم عليها في أيامه الأخيرة، يورد فقط مقتل السيدين عمر الرشيد وأبي الربيع سليمان. ولا يربط ابن خلدون مقتل أبي إسحاق هذا بما خطط له ضد الخليفة، لكنه يعترف أن هذا الأخير كان غاضباً منه وأنه أنبه على ما صدر منه. في حين يكتفي صاحب روض القرطاس بالقول إن يعقوب المنصور أمر بقتل أخويه يحيى وعمر الرشيد وعمه أبي الربيع سليمان دون أن يأتي على ذكر مصير أبي إسحاق. أما عبد الواحد المراكشي والذي ألف كتابه اعتماداً على الذاكرة كما يشير في مقدمته، فيقع له هنا خلط بين الأشخاص والأحداث وكرنولوجيتها، بحيث يقول إن المنصور، وإثر عودته من حملة شلب عام 587هـ أصيب بمرض كاد يودي بحياته، وقتها كان أخوه السيد أبو يحيى والي الأندلس يماطل في العودة إليها لتولي مهامه، وكانت غايته من المكوث في مراكش انتظار وفاة أخيه ليحل محله، غير أنه وبسبب تأخر وفاة هذا الأخير أجبر على الرحيل، لكنه بقي ينتظر خبر الوفاة وكان متيقناً من دنو أجل الخليفة، من أجل ذلك خطط بتواطؤ مع شيوخ الموحدين في الأندلس لتولي العرش كما نجح في إقناع أهالي مرسية بمبايعته.

58- هو أبو زكريا يحيى نجل السيد أبي حفص عمر. البيان المغرب، م. س.، ص. 198-199.

في تلك الأثناء وعلى عكس توقعاته، وصلته أخبار مفادها أن الخليفة الموجود بفاس يتماثل للشفاء وأنه علم بما قام به، آنذاك لم يجد بداً من عبور المضيق من أجل تقديم الاعتذار، غير أنه وقبل أن يتمكن من فعل ذلك أمر يعقوب المنصور بإلقاء القبض عليه ونقله إلى سلا حيث نفذ فيه حكم الإعدام[59].

وقبل عودته إلى العاصمة، أي خلال ربيع وصيف 1189م، كان الخليفة يحتفظ بالسيدين -أخيه وعمه-[60] كسجينين في مخيمه، وقد أرسلهما تحت حراسة مشددة إلى قصبة سلا، وعند وصوله إلى مراكش وتلقيه التهاني بالانتصار، تداول في شأنهما مع السيد أبي الحسن -الذي أنابه عنه خلال غيابه عن مراكش- ومع بقية شيوخ الموحدين، حيث وقع إجماع على إدانة السيدين بتهمة الخيانة العظمى، ووفقاً لذلك صدر في حقهما حكم بالإعدام نفذه فيهما وبقية المتواطئين معهما قاضي الرباط.

بداية الاستعدادات للتدخل في الأندلس واحتلال البرتغاليين لشلب

وبعد أن ضمن بواسطة هذه الوسائل الدموية تدعيم ركائز حكمه، قضى ما تبقى من سنة 584هـ (شتاء 1188م-1189م) في الإعداد للتدخل بشبه الجزيرة الإيبيرية، وبالتالي تنفيذ ما وعد به رعاياه في الأندلس بإيقاف الخطر الناجم عن الغارات البرتغالية والقشتالية. وقد استمر الإعداد للحملة طيلة سنة 585هـ (يوافق اليوم الأول منها 19 فبراير 1189م واليوم الأخير 8 فبراير 1190م) التي عين خلالها ابن عمه أبا حفص يعقوب عاملاً على اشبيلية -كان والده عمر الأخ المفضل للخليفة يوسف والد المنصور- كما كتب إلى عمال مختلف الولايات يطلب منهم المساهمة في الحملة بالعتاد والمؤونة، في نفس الوقت أرسل الدعاة إلى مختلف ربوع مملكته ليطلبوا من الأهالي القيام بالجهاد عن طريق المشاركة في الحملة، ورغم أنه جعل ذلك أمراً اختيارياً، فقد تطوع عدد كبير من الرجال تمكن بواسطتهم من تكوين جيش جرار[61].

وبسبب البطء المعهود الذي تتحرك به القوات الموحدية، ونظراً للحاجة إلى الوقت الكافي لاستراحة الجنود بعد الحملة الشاقة والطويلة على إفريقية، تأخر انطلاق الحملة الجديدة إلى

59- المعجب، م. س.، ص. 403-404.

60- عمر الرشيد وأبي الربيع سليمان

61- البيان المغرب، م. س.، ص. 201.

مطلع 1190م. هذا التأخر استغله المسيحيون لتكثيف هجماتهم طيلة سنة 1189م، وكان أخطرها تلك التي قام بها ملك البرتغال ابن الرنق الذي استفاد من مجيء أسطول صليبي إلى لشبونة ليقوم بواسطته بمحاصرة شلب.

لقد كان من الصعوبة بمكان على يعقوب المنصور إيقاف خطر الأعداء في وقت واحد بكل من الأندلس وإفريقية، وهكذا فقد استغل البرتغاليون والقشتاليون أولاً وجوده في إفريقية، ثم حالة الإرهاق التي كانت عليها قواته بعد العودة منها، وأخيراً انشغاله بمؤامرات أقاربه، ليكثفوا من هجماتهم التي امتدت إلى مختلف أنحاء الأندلس. ففي البرتغال وبعد أن خصص سانشو، الذي خلف والده الفونسو هنريكيث على العرش عام 1185م، السنوات الثلاث الأولى من عهده لإعادة تعمير وتنظيم المراكز والقلاع التي أصابها الخراب من جراء الحروب، وهو ما جعله يستحق لقب "المعمر" Povoador الذي اشتهر به، بدأ بمهاجمة أراضي المسلمين، وقد استغل في ربيع 1189م وجود الجيوش الصليبية الجرارة القادمة من بلدان الشمال، على أراضي مملكته، وكانت عادة تتوقف في الموانئ البرتغالية إما اضطراراً أو اختياراً أثناء توجهها نحو فلسطين، ليقوم وبمساعدتها بغزو شامل لمنطقة غرب الأندلس، وكانت البداية بأهم معاقل هذه المنطقة وأكثرها تحصناً وهي مدينة شلب[62].

وخلال نفس سنة 1189م، أي بعد عام واحد من استعادة القدس من طرف صلاح الدين الأيوبي، أرغمت العواصف البحرية عدداً مهماً من الفلاندريين والألمان المتوجهين إلى فلسطين على ظهر أسطول مكون من خمسين سفينة فرنسية، للالتجاء إلى ميناء لشبونة، وكانت هذه السفن قد توقفت قبل ذلك في ميناء شنت ياقب. وأثناء وجودهم في لشبونة اتفقوا مع سانشو للتوجه إلى شلب على اعتبار أنها كانت ملجأً للقراصنة، وعلى اعتبار أن المسلمين كانوا ينطلقون منها نحو مختلف جهات بحر المحيط (المحيط الأطلسي) حيث يأسرون الكثير من المسيحيين ويستولون على ثرواتهم[63].

وقد استهدف الهجوم في البداية مدينة "البور"[64] حيث تمكن الفيلق الصليبي الذي قام به، من إبادة ساكنتها التي تقدر بستة آلاف نسمة، هذا النجاح شجع سانشو على تكرير العملية خصوصاً

62- توجد جنوب باجة وتبعد عن البحر الذي يقع غربها مسافة ثلاثة أميال. ويشير صاحب الروض المعطار، (م. س.، ص.75)، الذي تحدث عنها بنوع من التفصيل (نقلاً عن الادريسي) أن بها مرسى نهريا وترسانة لصناعة السفن.

63- Las Cronicas dos Sete Primeros Reis de Portugal. T. I. P. 152-153 . وقد درس هيركولانو Herculano مختلف المصادر التي تطرقت للحملات الصليبية التي شاركت في الحصارات ضد المدن الأندلسية خلال هذه المرحلة، ويكفينا لفهم أسباب مشاركتها في تلك الحصارات الاطلاع على ما توصل إليه ومقارنته مع ما جاء في المصادر العربية والمسيحية التي لم يتمكن من الوصول إليها.

Herculano Alexandre. Historia de Portugal. Nona ediçao definitiva. Tomo III. Pp. 163 y siguientes.

64- تقع على بعد 16 كلم من شلب ما بين "لاغوس" Lagos و"بورتماو" Portimao.

مع مجيء قوات صليبية أخرى ألمانية وإنجليزية. وقد غادرت هذه القوات خليج تاجة يوم 16 يوليو 1189م، وفي ظرف أربعة أيام رست في خليج "بورتيماو" Portimao على بعد 12 كلم من شلب، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ميناء نهر "درادي" Drade الواقع على مسافة ثلاثة أميال من شلب وذلك للالتقاء بالقوات البرتغالية البرية المشاركة في الحصار وكان على رأسها الكونط "ميندو" Mendo.

مباشرة بعد هذا، تمت مهاجمة شلب بعزيمة كبيرة حيث تم احتلال أرباضها، وأمام هول المفاجأة، انتابت سكانها حالة رعب التجؤوا معها إلى ما خلف أسوار المدينة دون أن ينتبهوا إلى أنهم تركوا أبوابها مفتوحة. وحسب مؤلف "تاريخ سانشو الأول"[65] فإنه كان من السهل وقتها احتلال المدينة، غير أن جشع الأجانب المشاركين في الهجوم حال دون ذلك؛ حيث انهمكوا في النهب وحمل كل شيء نفيس وجدوه بالأرباض إلى سفنهم وإضرام النيران فيما دون ذلك.

وفي 21 يوليو وكان قد مر شهر كامل على بداية الحصار، التحق سانشو الأول بالمحاصرين على رأس قوات برية جديدة، في نفس الوقت أرسل أسطولاً من 40 سفينة بحرية للمشاركة في الحصار من جهة البحر. ورغم تشديد الخناق على المحاصرين باستعمال المجانيق والبراقيل، ورغم محاولة الفلاندريين تدمير أسوار المدينة، فإن استماتة سكانها حالت دون احتلالها.

وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وجوده في المخيم، اقتنع سانشو باستحالة اختراق المدينة، واعتبر أن الوسيلة الوحيدة لإخضاعها تتمثل في قطع المياه عنها، وكان نجاح هذه الخطة رهيناً بالسيطرة على بئر قراجة، وكانت هذه الأخيرة حسب مؤلف "تاريخ سانشو الأول" محاطة بثلاثة أبراج للمراقبة وبسور يمتد إلى غاية النهر، وقد تمكن المحاصرون من هد أحد الأبراج الثلاثة -الأقرب منها إلى البئر- ثم اجتازوا بعد ذلك الأسوار بواسطة السلالم، وهو ما سمح لهم بالسيطرة عليها. ولما لاحظ المسلمون أن المحاصرين اجتازوا السور المحاذي للبئر، وأنهم يتجهون نحو أبواب المدينة، خرجوا ضدهم، حيث وقعت معركة حامية الوطيس دامت إلى نزول الظلام دون أن تحسم لأحد. إثر ذلك تراجع المسلمون داخل المدينة، بعدما أحكموا إغلاق أبوابها[66].

ابتداءاً من تلك اللحظة خفت حدة المواجهات، في وقت بدأ الفلاندريون الذين تعبوا من الحصار بعدما طال أمده، يشككون في نوايا البرتغاليين، معتقدين بأن هؤلاء ينوون توقيع

65- Op. Cit., Cronica de Sancho Primero. P. 155.

66- Op. Cit., Las Cronica dos Sete Primeros Reis de Portugal . Tomo I- p . 159-160.

هدنة مع المحاصَرين، وهو ما جعلهم يفكرون في الانسحاب، غير أن الأخبار الواردة من المدينة والتي حملها الفارون، أكدت أن العطش بدأ يتمكن من الأهالي، على ضوء ذلك، تقرر مواصلة الحصار، في انتظار أن تخور بشكل تام قوى المحاصَرين ليتم شن الهجوم النهائي، غير أن ذلك لم يتحقق رغم مرور أكثر من ستة أسابيع على التحاق سانشو بمخيم المحاصرين، في وقت نفد فيه صبر الصليبيين أو كاد، خصوصاً أن الحصول على المؤونة في مخيمهم أصبح أمراً صعب المنال. وأمام هذا الوضع انعقد مجلس حربي تقرر على إثره إخلاء المخيم من المرضى والنساء ورجال الدين والفقراء، وحددت مدة أقصاها أربعة أيام للشروع في شن الهجوم النهائي.

في تلك الأثناء حل بالمخيم وفد يمثل سكان المدينة كان على رأسه عاملها الذي عبر عن استعداده لتسليمها إذا ما سمح للسكان بمغادرتها مع كل ما يمتلكونه، وقبل أن يرد على طلبهم، استشار سانشو الفلاندريين وكانوا قد عقدوا العزم على إبادة كل من يوجد بالمدينة، وبعد أخذ ورد قبلوا بالسماح للسكان بمغادرتها شريطة ألا يحملوا معهم غير ما يرتدونه من ملابس.

ورغم أن البيان المغرب لا يتحدث عن الحصار بنفس الدقة التي تناولها بها "تاريخ سانشو الأول"، فإنه يقدم لنا معلومات أساسية عن الحملة مثل تدمير قلعة البور، وإبادة من يوجد بها، واستسلام سكانها بعد أن أوشكوا على الهلاك من جراء الجوع والعطش، وإرغامهم على التخلي عن كل ما يمتلكونه. وكانت المدة التي استغرقها الحصار حسبه هي ثلاثة أشهر[67].

وفي جمادى الأولى (يوافق اليوم الأول منه 17 يونيو واليوم الأخير 16 يوليوز 1189م)، وعندما كان البرتغاليون يقومون بهذه الحملة، خرج ألفونسو الثامن ضد حصن طمان الذي حاصره، وكان سكانه المدنيون قد أخلوه قبل وصوله. وبعد شهر من ذلك رفع الحصار عنه واتجه إلى "راينة" Reina التي قام بمهاجمتها ونهبها. إثر ذلك واصل تقدمه نحو قلعة جابر

67- هذا ما يذهب إليه صاحب البيان المغرب الذي يقول إن ابن الرنك وضع مخيمه بجوار شلب في ربيع الثاني 585هـ (ما بين 19 ماي و17 يونيو 1189م)، واستمر حصاره لها بقية ذلك الشهر وشهري جمادى الأولى والثانية والأيام التسعة عشر الأولى من رجب، وكان دخوله إليها في يوم 20 من الشهر المذكور (3 شتمبر 1189م). البيان المغرب، م. س.، ص. 202. في حين يقول صاحب الروض المعطار (م. س.، ص. 342) إن سانشو الأول حاصر شلب في ربيع الأول وأن حصاره لها استغرق خمسة أشهر، لكنه وكما هو الشأن مع البيان المغرب يجعل سقوطها بيده في 20 رجب.

فإلى حصن شلير، قبل أن يعود إلى طليطلة في جمادى الثانية (يوافق اليوم الأول منه 18 يوليوز واليوم الأخير 15 غشت 1189م).

عبور الخليفة إلى الأندلس

وبعد خمسة أشهر على سقوط شلب، قضاها يعقوب المنصور في الإعداد للحملة المزمع توجيهها ضد النصارى، قرر العبور إلى الأندلس. وتتحدث كل من المصادر العربية والمسيحية عن العدد الكبير من المسلمين الذين لبوا نداءه للمشاركة فيها وعن العزيمة والحماس اللذين انطلقت بهما[68].

وكانت مغادرته لمراكش في 14 ذي الحجة (23 يناير 1190م)، وعند وصوله إلى الرباط توقف مدة أربعين يوماً لإتمام الاستعدادات، في نفس الوقت بعث برسائل إلى الأندلسيين يخبرهم بقرب وصوله ويستحثهم على الجهاد. وفي مارس 1191م (نهاية محرم 586هـ) واصلت الحملة طريقها نحو قصر مصمودة[69]، حيث عبر الخليفة المضيق في اتجاه طريفة يوم 23 أبريل. وقد خصص الأيام التي قامت فيها بقية القوات بعبور المضيق، للاستراحة من تعب السفر ولاستقبال الوفود الأندلسية التي جاءت تقدم تظلماتها من تطاول العمال الموحدين.

وفي الثامن من مايو، غادر طريفة[70]، غير أنه وبدل التوجه إلى اشبيلية كما كان منتظراً، انتقل إلى "أركوس دي لافرونتيرا" Arcos de La Frontera ومن هناك أخذ طريق قرطبة، في وقت أعطى فيه الأوامر لابن عمه يعقوب بن أبي حفص عامل اشبيلية الجديد لتكوين جيش من الجنود الذين معه وجنود غرناطة والمتطوعين الأندلسيين ومن انضاف إليهم من قوات قبيلتي صنهاجة وهسكورة، والخروج على رأسه من أجل محاصرة شلب. وفي السادس من يونيو خرج السيد يعقوب نحو شلب التي أقام مخيمه بجوارها، وفي الخامس

68- هذا ما نجده في "تاريخ سانشو الأول"، م. س.، ص. 169. وعند مؤلف البيان المغرب الذي يقول: *ثم اشيع في الجبال القبلية والبلاد الغربية النداء بالجهاد من غير تكليف على حكم التطوع وتأتي الإرادات فترادفت الأمم من الجبال والبسائط طامعين متطوعين وأتت أناس كثيرة من حبش غانية وعمرة الصحارى مبادرين، فاجتمع بالحضرة من الأحمر والأسود وشتى اللغات من الحشود المطوعة وعموم الأعراب من الجنود من معدود وغير معدود، ما ضاق بهم رحيب الفضاء وتكاثر عن العد والإحصاء*». م. س.، ص. 201.

69- يقول ابن عذاري إن الخليفة علم هناك بهزيمة الأسطول المسيحي حيث قتل جزء من قواته بينما أسر الباقي، ولا نجد أي إشارة في أي مصدر آخر عن المواجهة بين هذا الأسطول والقوات الموحدية. البيان المغرب، م. س.، ص. 203.

70- كما أوضحت ذلك في الهوامش التي ضمنتها الترجمة الإسبانية للبيان المغرب، فإن التواريخ التي يقدمها المصدر المذكور، بخصوص هذه الحملة، غير مضبوطة.

من يوليو حل بالمدينة الأسطول الموحدي الذي قام بتنسيق معه بضربها بالمجانيق، غير أنه لم يتمكن من اقتحامها.

في تلك الأثناء كان يعقوب المنصور قد حل بقرطبة حيث نزل بقصر أخيه السيد يحيى[71] وقام مباشرة بعد وصوله بزيارة أطلال مدينة الزهراء[72]، كما صرف سفراء ألفونسو الثامن الذين جاؤوا للتفاوض من أجل توقيع هدنة جديدة. وحسب رسالة الخليفة الرسمية[73]، فإن المسيحيين تملكهم الفزع قبل وصول القوات الموحدية، لذا حاولوا بشتى الطرق إقناع الموحدين بتوقيع الهدنة، لدرجة أنه أثناء وجود الخليفة بالقصر الصغير، وصل إلى اشبيلية مبعوثو ملك قشتالة الذين عبروا عن استعداد سيدهم إعلان ولائه ليعقوب المنصور والتحالف معه ضد الملوك المسيحيين أنفسهم.

وقد ارتاح يعقوب المنصور لهذا الانقسام في صفوف العدو، وقرر في النهاية توقيع الهدنة مع مملكة قشتالة، كما جدد تلك التي كانت له مع مملكة ليون، وبهذه الطريقة تمكن من عزل البرتغاليين الذين أصبحوا وجهاً لوجه أمام الموحدين، وهو ما أجبرهم على التحصن داخل قلاعهم.

والجدير بالذكر أن هناك مجموعة من العناصر خدمت الموحدين في حملتهم ضد البرتغال، فهناك الهدنة الموقعة مع بقية الممالك المسيحية، وهناك تفوقهم العددي، ثم هناك شجاعة الخليفة وخبرته في تنظيم الحملات العسكرية.

لكن ومع كل هذا، كان يعقوب المنصور واعياً بمناعة "شلب"، والتي جعلت البرتغاليين والصليبيين يلقون صعوبة كبيرة في السيطرة عليها رغم حصارهم الدموي وطويل الأمد لها، لذا قرر أثناء محاصرتها، ولتفادي مجيء سانشو الأول لنجدة المحاصَرين، وهو ما يمكن أن تتكرر معه مأساة يوسف الأول في شنترين، قرر شغل هذا الأخير بمهاجمة وسط البرتغال كذلك، على اعتبار أن هذا سيحول دون وصول أية مساعدة لمنطقة غرب الأندلس.

71- حول هذا القصر انظر:

Torres Balbas. Arte almohade nazari y mudejar. Tomo IV del "Ars hispaniae" p. 30 y fig 16 de la p. 26.

72- كان له اهتمام خاص بالمعالم العمرانية، وهكذا لم يفوت أثناء حملته على إفريقية فرصة زيارة مسجد القيروان، وها هو هنا وبعد أن استقر بقصر أخيه في قرطبة يقوم بزيارة مدينة الزهراء، وقد قام خلال تلك الزيارة بإزاحة التمثال الموجود على أحد أبوابها (باب القنطرة) وكان تمثال السيدة العذراء كما يؤكد البكري.

73- مجموع رسائل...، م. س.، الرسالة، 35.

هجوم الموحدين على شلب وحصني طمان وطرش

وأثناء وجود الخليفة في قرطبة، أمر ابن عمه السيد أبا زكريا بن أبي حفص، بالانتقال إلى اشبيلية لتكوين فيلق من جنود زناتة وتلمسان (كان عاملاً على هذه الأخيرة) وغيرهم من الذين يضعون أنفسهم تحت تصرفه. وقد خرج السيد عقب ذلك على رأس الفيلق من اشبيلية إلى يابرة عبر الينتخو، وكان يقوم بنهب وتخريب كل ما يجده في طريقه، قبل أن ينتقل إلى وادي تاجة ليلتقي بالخليفة الذي ضرب مخيمه على ضفته[74]، حيث عبراه معاً على رأس قواتهما.

وكان يعقوب المنصور قبل مغادرته قرطبة، قد أشرف بنفسه على الاحتفال المعروف بـ"سوق الرايات"[75] والذي وزع خلاله "البركة" على جنوده. وعند مغادرتها، ترك بها أمتعته، لأنه لم يكن يفكر أن يغيب عنها كثيراً، ولا أن يقوم بحصار طويل الأمد لمدينة يصعب اختراقها مثل شلب.

ولا نعرف بالضبط النقطة التي عبرت منها وادي تاجة القوات التي كان يقودها يعقوب المنصور والسيد أبو زكريا، لكن يظهر أن ذلك تم قبل الوصول إلى حصن طرش، والدليل على ذلك أنهم بعد العبور مباشرة أقبلوا على نهب مزارع الحبوب الموجودة شمال شنترين، وبعد ذلك فقط أخذوا طريق حصن طرش. وكان البرتغاليون يعتبرون هذا الحصن بمثابة المفتاح أو بالأحرى المزلاج الذي يحول دون اختراق بلادهم. وتقول عنه رسالة الخليفة الرسمية، إنه حصين شاهق الارتفاع تحيط به خنادق يصعب تجاوزها. ورغم هذه الحواجز الطبيعية التي تحيط به، فقد نجح الموحدون، بعد استعمال كل قواتهم، في إخضاعه، حيث اضطر قائده إلى الاستسلام، وإن كان لم يفعل ذلك إلا بعد أن أذن له به سانشو[76].

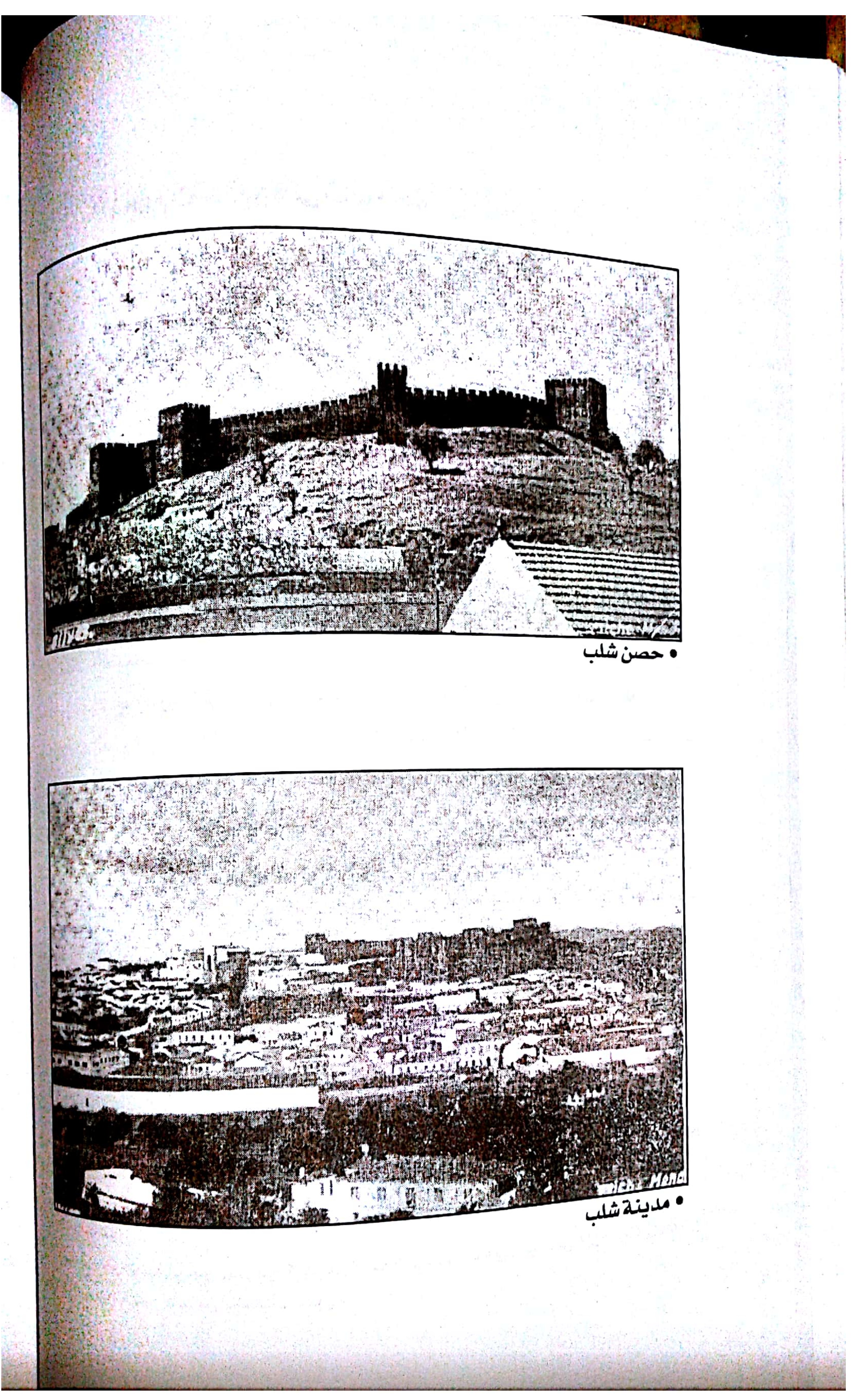
وبعد أن سمحوا للأهالي بمغادرته، قام الموحدون بتدمير الحصن عن آخره، وهو ما يعني أنهم لم يفكروا في المكوث به[77]. إثر ذلك تقدموا نحو حصن طمان الموجود تحت حماية "فرسان

74- البيان المغرب، م. س.، ص. 205-206.

75- حول هذا الاحتفال الذي يطلق عليه كذلك "عقد الألوية" انظر ليفي بروفنصال.
Histoire de l'Espagne musulmane. T. III. P. 90.

76- يذهب "روجيريو دي هوبيدان" R- de Hoveden والذي ليس لما يكتبه الكثير من المصداقية، إلى أن الحصن استسلم بعد عشرة أيام من المقاومة غير المجدية.

77- حسب قانون يهم وضعية الحصن صدر في اكتوبر من السنة الذي سقط فيه بيد الموحدين، فإن البرتغاليين اعادوا ترميمه وتعميره بعد شهرين فقط من انسحاب الموحدين منه.



• حصن شلب

• مدينة شلب

الهيكل" Templarios [78]. وخلال تقدمهم، أتلفوا كل المحاصيل الفلاحية الموجودة بحقول المنطقة من عنب وغيره من الفواكه والخضر، دون أن يجدوا أمامهم أية مقاومة[79].

ولم يدم حصارحصن طمان أكثر من ستة أيام، ذلك لأن مناعة أسواره وشجاعة "فرسان الهيكل" الذين يقومون بحمايته، جعلوا احتلاله أمراً متعذراً دون حصار طويل الأمد، وهو ما لم يكن الموحدون مستعدين له، على اعتبار أنه كان يتوجب عليهم من أجل ذلك استقدام المؤونة للجنود والكلأ للدواب من قرطبة، في وقت كان فيه البرتغاليون قد خزنوا في الحصن كل ما يحتاجونه من مؤونة. ومن الأسباب الأخرى التي عجلت برفع الحصار، تفشي مرضي الحمى والإسهال في المخيم الموحدي -عادة ما كان يحدث ذلك في الحملات العسكرية التي تتم في فصل الصيف- بحيث لم ينج منهما الخليفة نفسه[80].

على ضوء كل هذا، أمر يعقوب المنصور جيوشه بالانسحاب[81] دون أن يرسل، كما يدعي "روجيريو دي هوبيدان" Rogerio de Hoveden ، مبعوثيه إلى سانشو يخيره بين مقايضة شلب بحصن طرش وتوقيع هدنة لمدة سبع سنوات، وبين مهاجمة القوات الموحدية لشنترين[82].

ويؤكد صاحب البيان المغرب من جهته أن المنصور وبعد محاصرته لحصن طمان، جاءه مبعوثو ابن الرنق (سانشو الأول) الذي كانت له رغبة في توقيع هدنة في أقرب وقت ممكن، وأن المنصور أمر إثر ذلك توقيف الهجمات على الحصن إلى أن يتم توقيع الهدنة، وكان قد خطط قبل بداية الحملة لتدمير بلاد ابن الرنك واكتساحها إلى غاية الوصول إلى قلمرية، غير أن المرض الذي ألم به جعله في وضعية لا تسمح له بقيادة جيشه، خصوصاً مع الإرهاق والتعب اللذين بدآ يتمكنان من جيشه. وهكذا أخذ طريق العودة إلى اشبيلية وكتب إلى الجيش الذي يوجد قبالة شلب يطلب منه رفع المخيم. وأثناء عملية الانسحاب، ارتفعت الأسعار في المعسكر خصوصاً مع توقف التموين القادم من أراضي المسلمين[83].

78- تنظيم عسكري كاثوليكي، تأسس عام 1119م بهدف حماية الأماكن المقدسة المسيحية من خطر المسلمين. (المترجم).

79- يشير صاحب البيان المغرب، ص.206، وكذا "هوبيدان" إلى أن جنود يعقوب المنصور اكتسحوا المنطقة الواقعة بين القويشة ولرة ثم توغلوا إلى غاية أرباض قلمرية وأنهم أضرموا النيران في خيرات المنطقة وعملوا السيف في كل من وجدوه بطريقهم. و يقبل "هركولانو" هذه الرواية رغم ما تتضمنه من مبالغات.

80- يتحدث كل من البيان المغرب وكذا مؤلف "تاريخ سانشو الأول" عن انتشار الداءين في المعسكر الموحدي.

81- هذا ما يؤكده كذلك نص كتب على أحد جدران الحصن باللغة اللاتينية جاء فيه أن عدد الجيوش الموحدية المنسحبة قدر بـ 400 ألف من المشاة و500 ألف من الفرسان، وما يمكن أن نسجله على النص المذكور، هو انه لا يختلف من حيث المبالغة العددية، عن المصادر العربية.

82- لم يسع يعقوب المنصور ولا سانشو من أجل الهدنة المزعومة، وقد تجددت المواجهات في فصل الربيع الموالي.

83- البيان المغرب، م. س.، ص. 206.

ويقول يعقوب المنصور في إحدى رسائله الرسمية عن هذه الحملة إنها سمحت بتحقيق انتصارين كبيرين في كل من حصن طرش وحصن طمان، لكنه يسكت عن الفشل الذريع الذي لقيته القوات التي كان يقودها ابن عمه في شلب.

وكانت عودة الخليفة إلى اشبيلية في 21 جمادى الثانية (26 يوليو) حيث وضع مخيمه خارجها، ونظم بالمناسبة احتفالاً كبيراً استعرض خلاله الجند السود الذين يحملون بيدهم الدروع ويضعون على رؤوسهم القبعات الحمر ويمتطون الخيول البيضاء المزينة صدورها بأجراس على شكل سفرجل، كما استعرض الغز الذين يرتدون الجلابيب الزاهية ألوانها، وهو ما حول الاستعراض إلى مشهد يسحر البصر ويفتن العقول. ويصف ابن عذاري الحفل المذكور كما يلي:

«*وفي يوم هذا الوصول نزل على اشبيلية في غاية الحفل وركب السودان على النجب البيض بأيديهم الدرق وعلى رؤوسهم طراطير الطيلقان الشديد الحمرة وصدور النجب منظومة بجلاجيل على شكل السفرجل والأغزاز بضروب الحلل، فظهر تحار فيه الأبصار وتذهل الخواطر والأفكار، والملك لله الواحد القهار*»[84].

ويظهر أن هجوم الموحدين على حصن طمان لم يحقق النجاح المنتظر، كما أن يعقوب المنصور لم يكن راضياً على نتيجته، وهذا ما يؤكده ما قام به عقب عودته إلى اشبيلية؛ فبعد امتثاله للشفاء ونظره في أمور القضاء وبثه في القضايا العالقة التي تهم أحكام الإعدام ومراقبة الموظفين والعمال، أمر باعتقال ابن سنان ومصادرة أملاكه. وسبب هذا العقاب هو أن الشخص المذكور كان أول الفارين خلال وقعة طمان، حيث إنه قفز من على ظهر فرسه واختفى بين الأشجار التي تكسو تلك المنطقة الوعرة[85]. ونفهم من فراره هذا، أن "فرسان الهيكل" خرجوا ضد المحاصِرين ونجحوا في هزمهم.

ونستخلص من كل ما سبق ذكره، أن المصادر العربية والمسيحية على حد سواء لم تستوعب بدقة مجريات الأحداث خلال حملتي 1191م و1192م اللتين قام بهما المنصور، حيث خلط البعض بينهما،

84- نفسه، ص. 206-207.

85- يشير ابن صاحب الصلاة (م. س.، ص. 217) إلى أن والده كان من "أهل الخمسين"، رغم أننا لا نجد اسمه ضمن أعضاء الجماعة الذين أوردهم البيدق، أما هو والذي اعتقله المنصور بسبب جبنه، فقد كان من "الحُفّاظ" حيث كان يستظهر عن ظهر قلب موطأ الامام مالك، وكان في شبابه يشرحه خلال الجلسات الدينية التي كان يترأسها عبد المومن، وقد نقله معه إلى إشبيلية عام 561هـ أبو عبدالله بن اسماعيل الهزرجي بعد توليته أمر إشبيلية، حيث عينه وزيراً له.

وجعلهما البعض الآخر حملة واحدة، مثلما فعل صاحب الروض المعطار الذي يجعل إقامة المنصور في الأندلس سنتين كاملتين، ويقول إنه توجه بعد نزوله بطريفة، مباشرة إلى قرطبة التي ترأس بمسجدها الأعظم الاحتفالات المتعلقة "بعقد الرايات"، ومن هناك انتقل إلى اشبيلية فإلى قصر أبي دانس (قصر الملح) غرب الأندلس، حيث ألقى القبض على من كان يقيم بها وبعثهم كأسرى إلى مراكش. اثر ذلك احتل -حسب نفس المصدر "بالمالا" Palmala ثم "المادا" Almada التي قام بتدميرها، قبل أن يتجه إلى شلب والتي نجح في اقتحامها واحتلالها بعد أن قام بمحاصرتها.

نفس الخلط بين الحملتين نجده عند صاحب المعجب الذي كتب مؤلفه اعتماداً على الذاكرة أثناء مقامه في المشرق، والذي يقول إن شلب احتلها أولاً بيدرو[86] أخو سانشو الأول ونجل الفونسو هنريكيث[87] بمساعدة الصليبيين، وأن المنصور اغتاظ لما علم بذلك، وقرر استعادتها وأحوازها قبل أن يتجه إلى حصن طرش الذي قام باحتلاله كذلك.

وفيما يخص ابن خلدون فإنه يميز بين الحملتين، لكنه يجانب الصواب عندما يقول إن المنصور اتجه مباشرة من طريفة إلى شلب حيث ترك هناك لمواصلة الحصار القوات الأندلسية التي التحقت به، في حين اتجه هو على وجه السرعة إلى حصن طرش الذي احتله. وبعد أن سكت عما جرى في طمان، يشير ابن خلدون إلى أن يعقوب المنصور خرج في السنة الموالية في حملة إلى شلب التي نجح في استعادتها، وأنه استولى على قلاع أخرى وهو في طريقه إليها.

فيما يتعلق بالمصادر المسيحية، فإن "هركولانو" Herculano وغيره ممن تحدث عن الموضوع وجلهم برتغاليون[88]، تناولوا حملة المنصور على حصن طرش دون أية دقة، ذلك لأنهم اعتمدوا المعلومات الخاطئة التي وردت عند "هوبيدان" Hoveden وعند روض القرطاس، وبما أنهم كانوا مقتنعين بأن ما يوجد في المصدرين لا يتوفر على المصداقية اللازمة، فإنهم شككوا في عودة المنصور إلى المغرب ما بين الحملتين، كما أنهم اختلفوا مع المصدرين فيما يتعلق بمراحل الحملة الثانية، حيث جعلوا الخليفة يحتل أولاً شلب قبل أن يتجه إلى "القصير" و"بالمالا" و"المادا".

86- كان يعرف باسم الأمير العسكري.

87- Op. Cit., Historia de Portugal. T.III. Pp. 211-212.

88- انظر المصدر المذكور (الجزء الأول من ص. 249 إلى ص. 268 و من ص. 516 إلى ص. 519) والذي اعتمد في تناوله لهذه النقطة على ترجمتي للبيان المغرب (الطبعة الأولى) التي تحمل عنوان El anonimo de Madrid y Copenhaguen وكذا على التعليقات التي وضعها دوزي لكتاب كوندي وكذا لروض القرطاس.

ولا نستثني من المصادر البرتغالية غير "كوستا دي بيغا" Costa de Vega الذي كشف في كتابه "دراسات في التاريخ العسكري البرتغالي"[89] عن بعض الأخطاء التي وقعت فيها بقية المصادر بخصوص هذه النقطة، رغم أنه سلم -خطأ- بما جاء في هذه المصادر بخصوص الحصار المكرر لشنترين، وبالكرونولوجية غير المضبوطة لاحتلال باجة، وبالأخطاء التي أوردتها بشأن حملة الأمير دون سانشو إلى منطقتي الشرف ولبلة.

وبخلاف ادعاءات وابتداعات "هويبدان"، وتلطيفات البيان المغرب الذي حاول التخفيف من أهمية فشل الموحدين، قدم لنا مؤلف "تاريخ سانشو الأول" رواية مضبوطة وموضوعية إلى حد بعيد، وهكذا يقول إن يعقوب المنصور قام بهذه الحملة انتقاماً لمقتل والده، وخلالها انضم إليه "ملك" (عامل) اشبيلية و"ملك" (عامل) قرطبة مع كل رجالهم. وقد تقدم "ملك" اشبيلية عبر غرب الأندلس وحاصر مدينة شلب، في حين تقدم "ملك المغرب" يعقوب عبر وادي آنة، قبل أن يجتاز في اليوم الثالث لعيد القديس حنا (احتفل به تلك السنة يوم الأحد) نهر تاجة، ليواصل طريقه إلى طرش التي حاصر حصنها وأجبر المحاصرين الذين أصبحت حياتهم في خطر على الاستسلام. أما "ملك" قرطبة فقد تقدم عبر المنطقة المحاذية لنهر "اليتنخو" وبعد مروره بيابرة التي خرب مزارعها، التقى بيعقوب المنصور بجوار نهر تاجة. وعقب احتلال الخليفة لطرش، وأثناء وجوده بها، أصيب بالتهاب في الأمعاء (حالة إسهال) ارغمه على الاتجاه على وجه السرعة لمهاجمة طمان، قبل أن ينسحب لتوه قاصداً اشبيلية. وعندما علم أخوه عامل المدينة بذلك وكان يحاصر شلب رفع الحصار وتوجه للالتقاء به.

تمرد علي الجزيري

وبسبب حاجته لفترة نقاهة، مكث الخليفة في اشبيلية بعد أن تماثل للشفاء، مدة من الوقت، قام خلالها، وكان الفصل فصل شتاء، شخصياً بإدارة شؤون الرعية والنظر في المظالم والبث كعادته في الأمور القضائية، وهكذا وقف على قضايا أولئك الذين قضوا سنوات في السجن وصادق على تنفيذ حكم الإعدام فيمن صدر في حقه، ومنع وبكل صرامة بعض الممارسات غير الشرعية وكان من بينها الاستماع إلى الموسيقى.

89- احتفل البرتغاليون والجليقيون بفشل الموحدين أمام طمان وهو ما سجلته القصيدة التي اضيفت لـ Liber Santi Jacobi حيث يقول أحد مقاطعها الشعرية إن المنصور توفي من جراء التهاب الأمعاء. انظر:
P.David. La première Campagne de Abu Yussef al Manzur contra Silves. 1190. Bulletin des Etudes Portugaises. 1955.

وأثناء مقامه هذا باشبيلية، وصلته الأخبار عن تمرد أحد الدجالين في مراكش يدعى الجزيري (نسبة إلى الجزيرة الخضراء). ويخبرنا صاحب البيان المغرب أن هذا الأخير وبعدما درس على بعض الطلبة من ذوي التكوين المحدود، أقبل على العلوم الدينية الغامضة، حيث: «كان هذا اللعين في *أوليته يتعلق بأديان الطلب ويلهج منه بحفظ المتشابهات*»[90]. وعلى أعمال الوعظ والإرشاد، وقد نفي بسبب ذلك من الأندلس. وفي المغرب لم يتخل عما بدأه في الضفة الأخرى، وبدأ بالتنقل من مكان إلى آخر يحرض العامة على التمرد.

ولما علم السيد أبو الحسن بوجوده في مراكش أمر بالبحث عنه في كل أحيائها والقاء القبض عليه، لكنه تمكن من الفرار إلى فاس. ورغم نجاح عاملها ابن ومازير في تصفية عدد من أتباعه أو نفيهم، فإنه لم يتمكن من إلقاء القبض عليه، حيث فر إلى المناطق الساحلية ومنها عاد إلى الأندلس. وبسبب إفلاته المستمر من المكامن التي كان يدبرها ضده الموحدون، شاع بين الناس أنه يتحول عند وجوده في مأزق إلى حيوان، فيظهر تارة في صورة حمار وتارة أخرى في صورة كلب أو قط، وهكذا عندما كان الذين يؤمنون بهذه الأمور يجدون قطاً غريباً في بيتهم يعتقدون أن الجزيري أخذ تلك الصورة اضطراراً.

وقد ألقي عليه القبض في النهاية بمالقة مع ابنه والكثير من أتباعه من "أوباش سفلة الأسواق" حسب تعبير ابن عذاري، والذين غصت بهم السجون. إثر ذلك أمر المنصور بأن يقتادوا جميعاً إلى اشبيلية، لكن الجزيري نجح مرة أخرى في الفرار بعد قيام أتباعه بإرشاء القاضي المدعو الواني الذي أمر بإطلاق سراحه. وبما أن هذا الأخير تلقى كرشوة ما مقداره تسعة وتسعون ديناراً، فقد أمر المنصور بأن يعدم تسعة وتسعون من أتباع الجزيري، في نفس الوقت أمر أن يجبر القاضي على تسليم ما تقاضاه ويجلد بعدها تسعة وتسعين جلدة، وهو ما لم يتحمله جسمه، حيث لفظ أنفاسه قبل إتمامها.

بعد ذلك أمر المنصور بتكثيف الجهود للقبض على المتمرد، وبما أنه كان معروف الشكل والهيئة، فقد ألقي عليه القبض دون صعوبة كبيرة بضواحي مرسية التي اقتيد منها إلى اشبيلية. وأثناء تقديمه للمحاكمة نفى وبكل جبن ما نسب إليه من تحريض العامة على التمرد، غير أن ذلك لم يحل دون إعدامه وصلبه، وبذلك طوي وبشكل نهائي ملف هذا المسلسل الغامض.

90- البيان المغرب، م. س.، ص. 207.

وتختلف رواية البيان المغرب هذه عما أورده ابن سعيد المغربي في "المغرب في حلى المغرب"[91] حول الموضوع، حيث يقول إن المتمرد كان عالماً معروفاً يدعى أبا عبد الله محمد بن عبد الله الجزيري، وكانت غايته نشر العقيدة التومرتية الصحيحة وتنقيتها مما علق بها من شوائب، ويورد بعض أبياته الشعرية، كما يشير إلى أن قضيته كانت معروفة في كل مناطق النفوذ الموحدي، وأن هؤلاء طاردوه دون هوادة، في نفس الوقت يقول إن الشعب سلم بإمكانية تحوله إلى كلب أو قط لذا رأف بالكلاب والقطط الغريبة. وقد دام تمرده، حسب نفس المصدر، إلى أن ألقي عليه القبض ناحية بسطة حيث ضرب عنقه وأرسل رأسه إلى مراكش. ويضيف المصدر ذاته أن الجزيري هذا كان يوجد في القاهرة عام 600هـ. ومما جاء عند ابن سعيد بصدده: *«برع في العلم وجال، وثار في رأسه أن يحيي سنة مهديّ الغرب (ويقصد ابن تومرت)، وزعم أن أصحابه غيروا أمره (...) اشتهر أمره، وعظم في النفوس خبره، ووضعت عليه العيون في جميع بلاد بني عبد المؤمن، وشاع عند الناس أنه يتصور في صورة قط وكلب، وكانت العامة ترحم الكلاب والسنانير بسبب ذلك، إلى أن قبض عليه في عمل بسطة وحمل رأسه إلى مراكش»*[92].

سفارة ابن مُنقد

وفي شهر رجب (غشت 1190م) الذي بدأ فيه تمرد الجزيري، تلقى الخليفة الموجود في اشبيلية رسالتين من السيد أبي زيد والي إفريقية وأبي الحسن عامل بجاية يخبرانه بوصول ابن منقد، سفير صلاح الدين الأيوبي، الذي جاءه في مهمة سرية تتلخص في طلب مساعدة الموحدين من أجل محاربة الصليبيين في المشرق[93].

وقد كتب المنصور رداً جوابياً إلى السيدين يشكرهما من خلاله على حسن استقبالهما للسفير، لكنه يمنعهما من التفاوض معه بشأن المهمة التي جاء من أجلها، في نفس الوقت أمر عمال عدد من الولايات أن يسهلوا عملية تنقله إلى فاس في أحسن الظروف، وأن يستضاف بهذه الأخيرة بكل كرم وحفاوة، في انتظار فراغه هو من حملة حصن طرش وطمان. ومع فراغه من هذه الحملة وعودته إلى اشبيلية، رخص لابن منقد بالعبور إلى الأندلس حيث قام باستقباله، لكن دون أن يمنحه المساعدة التي جاء من أجلها والمتمثلة في مده بجيوش موحدية.

91- المغرب في حلى المغرب، م. س.، ص. 323-324.

92- نفسه. ص. 323-324.

93- البيان المغرب، م. س.، ص. 209، حول هذه السفارة، انظر:

Gaudefroy Demombynes. "Une Letrres de Saladin au Calife Almohade". En Mélange René Basset. II. 279 y siguientes

ويشير ابن خلدون ومن نحا نحوه من المُحدَثين، خطأً، إلى أن ابن منقد مكث بفاس، وأن الخليفة استقبله بها، بعد عودته إلى المغرب في خريف 1191م، إثر انتهائه من حملته الثانية التي كانت ضد قصر الملح وشلب. غير أن التسليم بهذه الرواية يعني أن المدة التي قضاها ابن منقد في إفريقية وفاس قبل استقباله من طرف الخليفة دامت أكثر من سنة ونصف. من جهة أخرى نعرف أن الخليفة لم يمر بفاس أثناء عودته إلى المغرب، وعند وصوله إلى مراكش أصيب بمرض بقي معه طريح الفراش لمدة طويلة، بحيث لم يرحل إلى فاس إلا بعد تماثله للشفاء عام 588هـ (1192م)[94].

وقد تباينت التأويلات حول الأسباب التي كانت وراء عدم تقديم المنصور المساعدة التي طلبها صلاح الدين، غير أنها أهملت أكثر هذه الأسباب احتمالاً، وهي أن الخليفة كان، في نظرنا، في حاجة ماسة للسفن التي طلبها صلاح الدين، لاستعمالها في الحملة التي أزمع توجيهها في شتاء تلك السنة إلى قصر الملح وشلب.

ويقبل سعد زغلول عبد الحميد[95] ما جاء في كتاب الاستبصار[96] الذي يرى أن ابن منقد مكث في فاس ينتظر تعليمات الخليفة، وأن هذا الأخير استقبله بالمدينة المذكورة في 6 محرم 588هـ (23 يناير 1192م)، غير أنني أعتقد أن ما جاء في البيان المغرب هو أكثر دقة من الناحية الكرونولوجية؛ بحيث إن اللقاء -حسبه- تم ما بين حملتي طمان وشلب. ومما يؤكد خطأ التاريخ الذي أورده صاحب الاستبصار، أن المنصور بعد عبوره المضيق، توجه مباشرة إلى مراكش وهناك اشتد به المرض، لدرجة عين معها ابنه الناصر ولياً للعهد. ومع حلول سنة 588هـ، وإثر توديعه للوفود الأندلسية التي جاءت لتهنئة الناصر بهذا التعيين، نقل وهو طريح الفراش إلى الرباط، ولم يبرح فراش المرض إلا بعدما وصلها. إثر ذلك فقط انتقل إلى فاس، وهو ما يعني أن وصوله إليها كان بعد 6 محرم.

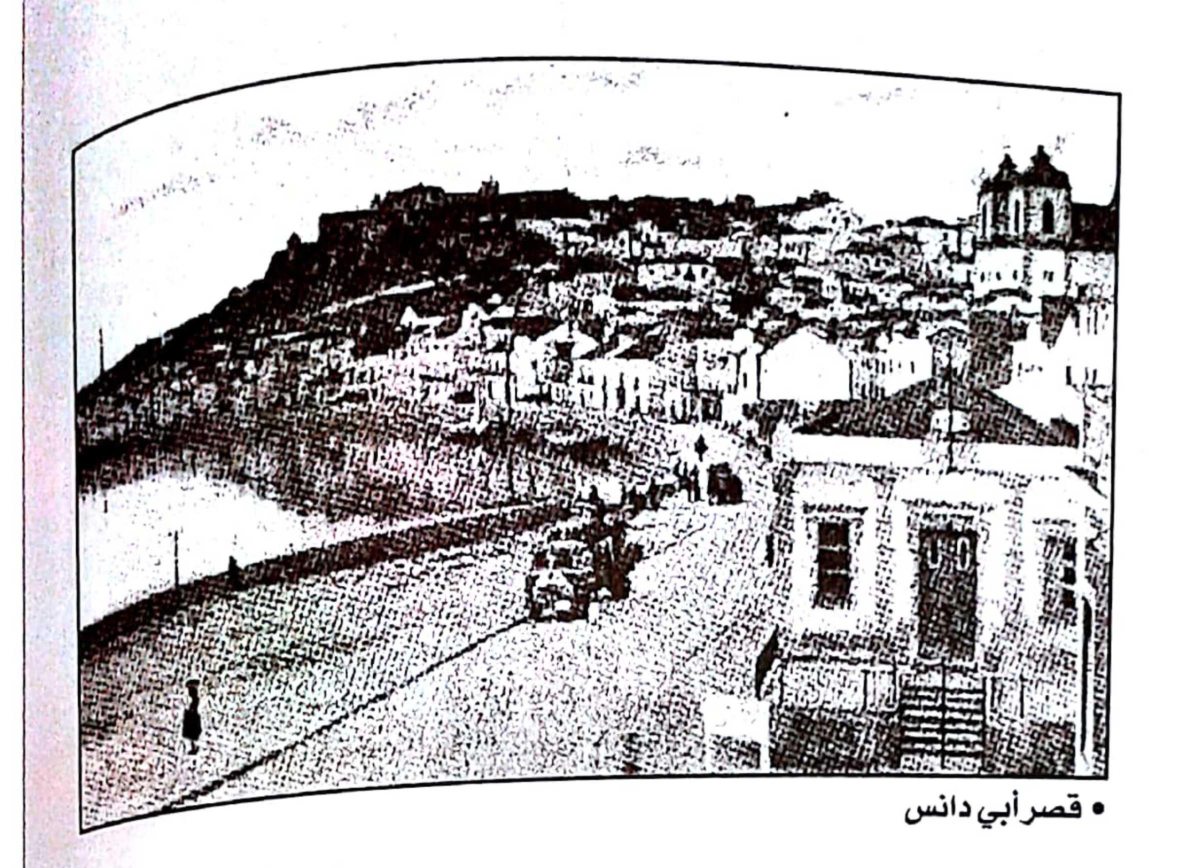
احتلال يعقوب المنصور لقصر أبي دانس وشلب عام 1191م

خصص المنصور كل شتاء 1190م-1191م للإعداد للحملة التي كان ينوي قيادتها صيف تلك السنة، والتي حرص ألا يقع خلالها في الأخطاء التي وقع فيها أثناء حملة السنة

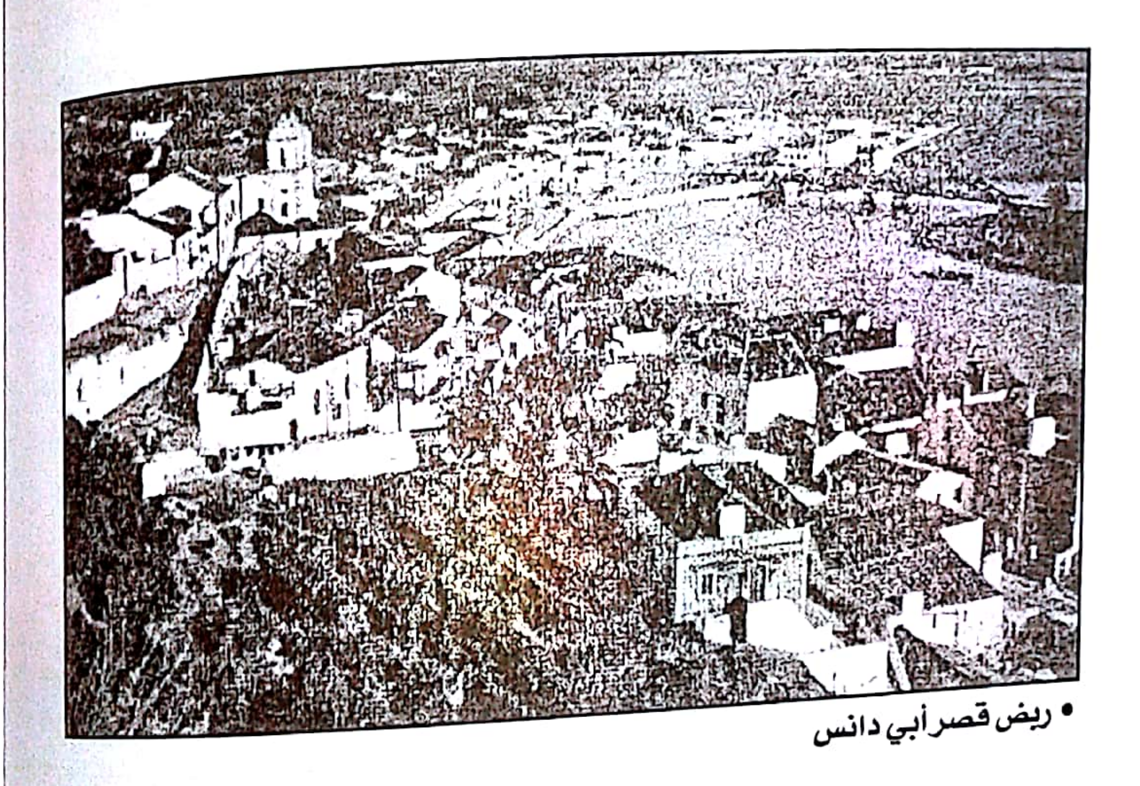
94- ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، م. س.، ص.514.

95- سعد زغلول. م. س.، ص. 37 من الأطروحة.

96- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء، 1985، ص.107.



• قصر أبي دانس



• ربض قصر أبي دانس

السابقة، وكانت الغاية هي ذاتها، أي استعادة شلب. وليتفادى الحرارة المفرطة والنقص في المؤونة التي عانت منهما قواته عند مهاجمته طمان وحصن طرش البعيدين عن قواعده، قرر أن يبدأ الحملة قبل أن يشتد الحر، وفي نفس الوقت يخضع القلاع الموجودة جنوب وادي تاجة والتي يمكن أن ينطلق منها العدو، لتقديم المساعدة لحامية شلب المسيحية ولمناوشة ساقة جيش الخليفة.

وكانت مغادرة هذا الأخير لاشبيلية في فاتح ربيع الثاني -28 يناير 1191م- حيث وضع مخيمه بجوار قصر أبي دانس الذي يورد صاحب البيان المغرب ما يلي حول حصاره: «وتمادى *المشي من اشبيلية على الإحكام العجيب، والضبط لأحوال العساكر وحسن النظام والترتيب، حتى كان الحلول على قصر أبي دانس وتقسمت الحشود وترتبت الجنود، وأهل الخدمة من العبيد يردمون خندق المدينة من جهاتها الأربع وطوائق من المقاتلة الأنجاد قد زحفوا إلى السور يستعذبون طعم المنايا، ويبيعون من الله أنفسهم بالرزايا، ولما عاين المنصور صبر المسلمين على القتال، وقد كثرت فيهم الجراحات بالحجارة والنبال، روح القتال ثلاثة أيام، وقصد تجديد الفكر والاعتزام وانتظار ما كان أعده لذلك المقام، إلى أن وصلت الأجفان البحرية بالعدد الحربية وقد تسابقت لدخول الوادي بتيسير تعجز العقول عن تكييفه وبشكر القدير سبحانه على أحكامه وتصريفه نبهت الذي كفر، وسقط في أيدي المشركين من كل من ألقى السمع وأبصر، فنصبت في يوم وليلة أربعة عشر منجنيقا إذ كانت معدة بعد الفراغ من عملها فأحدق منها بالبلد منايا زاحفة وصواعق قاصفة.*

ولما كان الخامس عشر لجمادى الأولى أمر الجيش بأسره بأخذ الأسلحة ونشر القتال عليهم من كل الجهات، ورمى المجانيق مرة واحدة على مر الأوقات فاشتد القتال وتضاعف عليهم النكال، ولما رأوا أنفسهم في لهوات المنون، وأنهم مع ما لديهم من أهل ومال في بحر الفوات مغرقون، تطارحوا كالفراش على الأسوار، ورضوا بالفرار من الرمضاء إلى النار، ونزلوا على الحكم مستسلمين لائذين بما للخليفة من الأجمال والأفضال وهبطوا من البلد صاغرين، وانسلخوا عنه أجمعين فأودعوا بطون الجوار المنشآت، وضحكت بمناجاتهم كتب البشارات، وحملوا إلى اشبيلية فكانوا عنوان الفتوحات، وشرع المنصور في النظر في أمور الحصن وأحواله، وصلاح ما ظهر من اختلاله، وثقله بأنجاد رجاله، ورسم لسكانه رسوما مشاهر

ومسانهة في مخازن اشبيلية وسبتة على الاستمرار والدوام، والتيسير والتمام، وقدم على الحصن المذكور ابن وزير»[97].

ويشير مؤلف "تاريخ سانشو الأول" إلى أن سكان "ألمادا" و"بالميلا" و"قوينة" عندما لاحظوا سقوط مدينة محصنة مثل قصر أبي دانس، انهارت معنوياتهم ولاذوا بالفرار من قلاعهم التي قام المنصور إثر وصوله إليها بتدميرها عن آخرها[98].

وبعد تحقيق هدفه في المنطقة الواقعة جنوب نهر تاجة، اتجه يعقوب المنصور نحو شلب التي وضع مخيمه بجوارها يوم الخميس 2 جمادى الثانية (27 يونيو 1191م). ويكتفي صاحب "تاريخ سانشو الأول" بالقول إنه أحاطها بالآلات الحربية وبدأ يدك أسوارها ليل نهار، إلى أن أعلن خضوعهم من يوجدون داخلها، والذين سَمح لهم بحمل أمتعتهم ومغادرتها[99].

ويتحدث صاحب البيان المغرب عن الطريقة التي احتلت بها المدينة، والتي لا تختلف عن تلك التي كان يستعملها "خيراردو سام بابور" في غاراته المباغِتة والناجحة، وهكذا: *« لما كان يوم الأربعاء الخامس عشر من الشهر المذكور (15 جمادى الثانية موافق 10 يوليوز) سها الكفار مع الصباح عن الاحتراس والانهمال، واطمأنوا أن ذلك الوقت ليس من أوقات القتال، والمسلمون يرقبون خدع الحرب ارتقاب هلال شوال، فتحسن بغفلتهم وبما كانوا فيه من سهوهم ونومهم دليل من الإدلاء، فتسلل حتى وثب في ثلم السور، وشد ظهره جماعة من الرجال الذكور ورفعوا به*

97- البيان المغرب، م. س.، ص. 210-211. يتعلق الأمر بأبي بكر نجل سيدراي بن وزير، أمير منطقة غرب الأندلس، والذي تمرد على ابن قسي أثناء فتنة 540هـ، وكان تمرده في شعبان (يناير، فبراير 1146م) وقد خضع فيما بعد للموحدين وكان ضمن قواتهم أثناء احتلالهم لإشبيلية في شعبان 541هـ (يناير 1147م) بعد اخلائها من طرف المرابطين الذين فروا إلى قرمونة. وفي سنة 552 هـ/ 1157م عـزل من منصبه كعامل على منطقة غرب الأندلس، حيث انتقل عقب ذلك إلى إشبيلية التي كان يوجد بها عام 554هـ/1157م حسب البيان المغرب. وأثناء حصار ابن مردنيش لقرطبة، زور عاملها، كما مر بنا، رسالة وقعها باسم سيدراي هذا، ينصح من خلالها ابن مردنيش برفع الحصار عن قرطبة والتوجه على وجه السرعة إلى إشبيلية، مؤكداً له إمكانية احتلالها دون أدنى صعوبة. وفي سنة 566هـ/1170م قاد سيدراي مع أحد ملوك الطوائف الأخرين ويدعى ابن عزون قافلة إلى بطليوس، وفي شتاء السنة الموالية 567هـ/ 1172م اقنع الخليفة بالسماح له بإخراج أقاربه من باجة لتخليصهم من تجاوزات عاملها ابن سحنون ومن عواقب سقوط المدينة بيد البرتغاليين. وفي سنة 1174م أسر ابنه أبو بكر محمد عامل شيربة Serpa وكان قد شغل عام 555هـ/1160م منصب حاكم قصر أبي دانس أثناء احتلاله للمرة الأولى من طرف البرتغاليين، وبعد أن استعاده يعقوب المنصور عام 587هـ/1191م عينه عليه من جديد، حيث بقي بمنصبه ذاك إلى عام 609هـ ، تاريخ مقتله في معركة العقاب، حيث خلفه اثرها على قصر أبي دانس ابنه البكر عبدالله.

98- لا تتحدث المصادر العربية عن قوينة Coina التي تقع بين "ألمادا" Almada و"بالملا" Palmela.

99- Op. Cit., Las Cronica dos Setes... T. I. p. 171.

لرايات، وصكت الطبول وملأ الجو ضجيج التكبير والصيحات، فلم يستيقظ الكافرون إلا وهم في قبضة المنون بين مطعون ومضروب، ولا وقفوا إلا في نجيع من دمائهم مصبوب، فبادروا ينادون بشعار الأمان، فضرب لهم أجل عشرة أيام، فانقلبوا وقد أجاز لهم طاغيتهم طلب الأمان، وشكر لهم ثبوتهم على عظيم الامتحان، وخرجوا من قصبة شلب يوم الخميس الخامس والعشرين لجمادى الآخرة، ورحل المنصور عن شلب يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور ووصل اشبيلية في الرابع لرجب من السنة المؤرخة فانقضت هذه الغزاة الكريمة في ثلاثة شهور»[100].

وقد دامت هذه الحملة ثلاثة أشهر، وكان لها صدى كبير جداً، بحيث إن الملوك المسيحيين الذين كانت لهم هدن مع الموحدين وجدوا أنفسهم، حسب البيان المغرب، مجبرين على تجديدها، بينما اضطر البرتغاليون والذين لم تكن لهم أية هدنة مع هؤلاء، لتوقيع هدنة مدتها خمس سنوات[101].

عودة المنصور إلى مراكش وتعيين الناصر ولياً للعهد

إثر الانتصارات التي حققها، وإثر توقيع الهدنة مع المسيحيين، خصص المنصور صيف 1191م للإشراف على الأمور الداخلية، وعلى تقوية القدرات الدفاعية للمناطق الحدودية والتي كان المسيحيون يهددونها باستمرار. وبعد أن عين أقاربه على عواصم ولايات الأندلس، استدعى قواته يوم 22 سبتمبر (فاتح رمضان) إلى بستان البحيرة[102] المجاور للوادي الكبير، ومن هناك أخذ على رأسها طريق البحر، حيث عبر المضيق بعد خمسة عشر يوماً (6 أكتوبر) ليواصل سيره نحو مراكش، التي عاوده المرض بعدما حل بها، وقد اشتد به هذه المرة لدرجة أشرف معها على الهلاك، وكان ذلك سبباً في تعيينه لابنه محمد (الناصر فيما بعد) ولياً للعهد[103]. وقد كتب بهذا الخصوص إلى كبار المسؤولين من أقاربه، أمثال السيد أبي زيد والي إفريقية وأبي يحيى عامل اشبيلية، والذين عجلوا بإرسال الجواب الذي عبروا من خلاله عن مباركتهم لهذا التعيين[104]، كما أرسل إلى وفود إفريقية

100- البيان المغرب، م. س.، ص. 211-212.

101- نفسه، ص. 212.

102- "بحيرة الوادي" عند ابن عذاري وتوجد باشبيلية، م. س.، ص. 212.

103- كان عمره آنذاك حسب صاحب المعجب عشر سنوات. م. س.، ص. 438.

104- يتحدث صاحب المعجب عن تمرد حدث أثناء مرض المنصور قاده أحد إخوته يسميه نفس المصدر أبا يحيى يقول إنه دعا لنفسه بكل الأندلس وأنه بعد مبايعته في مرسية قصد فاس، لكن بعد أن شفي المنصور من مرضه أمر بتنفيذ حكم الاعدام فيه. ويظهر هنا أن صاحب المعجب وقع له خلط فيما يتعلق باسم الشخص المعني، ذلك لأن الشخص الوحيد من بين السادة الذي كان يحمل اسم أبي يحيى هو عامل إشبيلية -نجل عبدالمومن- الذي لم يتردد في الاعتراف بالناصر كولي للعهد. م. س.، ص. 404-405.

والأندلس يأمرهم بالمجيء إلى العاصمة لنفس الغرض، وكان من بين الذين حضروا ضمن الوفد الأندلسي، اليهودي المتأسلم يوسف بن الفخار سفير ملك قشتالة الذي أراد أن يعبر بذلك عن رغبة ملكه في الحفاظ على الهدنة. حدث هذا في شتاء 1191م-1192م.

وفي الوقت الذي وصل فيه السيد أبو زيد من إفريقية على رأس وفد مهم من عرب سليم ورياح، وكان محملاً بالهدايا النفيسة، وجد الخليفة قد غادرها بعد أن نصحه الأطباء بقضاء فترة نقاهة في الرباط وفاس، لهذا ترك السيد والوفد المرافق له على وجه السرعة مراكش حيث لحقوا بالخليفة عند أول محطة توقف بها وكانت على ضفاف نهر تانسيفت، وبعد أن شكرهم على زيارتهم، طلب منهم العودة إلى العاصمة للوقوف على ما تنعم به من رخاء و ما تعرفه من عمران، وهناك قضوا ثمانية أيام أكرموا خلالها غاية الكرم قبل أن يلتحقوا بالخليفة في فاس هذه المرة، وكان قد استعاد عافيته، وذلك ليتدارسوا معه مشاكل إفريقية الشائكة.

أشغال البناء في الرباط وحصن الفرج

بعد ذلك عاد يعقوب المنصور من جديد إلى الرباط حيث كان يميل للإقامة، في وقت بدا يفكر فيه في تحويلها إلى عاصمة للخلافة، وقد أمر من أجل هذا بترميم قصبتها، كما أمر أن يطلق عليها اسم المهدية لتشابهها من حيث الموقع الجغرافي بمهدية إفريقية الواقعة ببرزخ يحيط بالبحر.

وإثر إعطائه التعليمات المتعلقة بالشروع في العمل، عاد إلى مراكش في منتصف سنة 589هـ (النصف الثاني من يوليو 1193 م). ويؤكد صاحب البيان المغرب أن الخليفة شرع خلال عودته إلى الرباط في ترميم القصبة ووضع التصاميم المتعلقة بالأشغال المزمع إنجازها، ويضيف أن هذه العودة كانت إثر انقضاء فترة النقاهة التي قضاها في فاس، أي في النصف الأول من سنة 588هـ (1192م).

من جهة أخرى، ليس صحيحاً أن يعقوب المنصور، أراد عند الشروع في أشغال البناء، أن تكون الرباط شبيهة بالإسكندرية كما يذهب ابن خلكان، كما أنه ليس صحيحاً أن تشييد المدينة وبناء أسوارها ووضع أبوابها تم كله سنة 593هـ (1197م)، وأن ذلك كان تخليداً لذكرى معركة الأرك كما يريد صاحب روض القرطاس المعروف بعدم دقته في ضبط التواريخ. إن التاريخ الذي أورده هذا المصدر والمتأخر خمسة أعوام عن السنة الحقيقية للشروع في البناء، هو تاريخ الانتهاء من تشييد الأسوار ووضع الأبواب حسب ما نقرأ عند ابن سعيد[105].

105- حول الأخطاء التي وقعت فيها المصادر العربية عند حديثها عن تأسيس الرباط، انظر:

J.Caille. La Ville de Rabat .T. I- Texte, p .67 .

وقد عاد سفراء الملوك المسيحيين لزيارة المنصور من أجل تجديد الهدنة الموقعة معه، غير أن الشروط التي وضعوها وطريقة كلامهم أثناء المفاوضات، لم ترقه حسب مؤلف البيان المغرب، لذا وبعد تدارس الأمر مع مستشاريه، قرر طردهم بكل فظاظة وإعلان استئناف الحرب على الممالك التي يمثلونها.

وفي السنة الموالية أي 589هـ (يوافق اليوم الأول منها 6 يناير واليوم الأخير 26 ديسمبر 1193م) وبسبب عدم اقتناعه بما أنجز من أشغال في الرباط، أمر بالشروع في بناء حصن الفرج والذي اختار كمكان له أعلى منطقة الشرف حسب صاحب المعجب، ليكون "الطالع بين سحرها ونحرها"[106]، وفي نفس الوقت مقراً لإقامة أبطال الجهاد. وانطلاقاً من البرج الذي شيده وبسرعة فائقة بأكبر قصور الحصن، أصبح ممكناً مراقبة مدينة اشبيلية والسهل المحيط بها بشكل كامل.

وكان الخليفة ومن عاصمة ملكه مراكش، يتابع باهتمام كبير أشغال البناء هذه، ويطلب المعلومات الدقيقة بشأنها، ومع عدم اقتناعه بما كان يقدم له من شروحات، ولإرضاء فضوله في هذا المجال، استدعى شخصياً إلى العاصمة المهندس المشرف على البناء.

تمرد الأشل

يمثل تمرد منطقة الزاب نموذجاً حياً لوضعية عدم الاستقرار التي كانت تعرفها إفريقية والتي كان سببها دائماً، إما خيانة العرب وإما طريقة حكم الموحدين الماكرة والتي هدفوا من خلالها ضمان خضوع المنطقة. وقد قاد هذا التمرد أحد المتطلعين إلى الحكم يلقب الأشل، تمكن بعد أن ادعى أن قيامه ضد الموحدين هو تنفيذ للإرادة الإلهية، من أن يجمع حوله العديد من الأتباع الذين صدقوا أكاذيبه. هذا التمرد والأضرار التي ألحقها بالموحدين، أقلق الخليفة الذي أمر السيد أبا زكريا بتدبير حيلة تسمح بالقبض على الأشل[107].

106- يقول المعجب في هذا الصدد، إنه لما عاد من حملته على شلب وبحكم ولعه بأعمال البناء والتشييد، أمر بأن يبنى حصن على "النهر الأعظم" وأن تبنى داخله قصور وقباب. وبعد الانتهاء من أعمال البناء هذه أطلق على الحصن اسم حصن الفرج، وقد خصص أحد أجنحته (سراديقه) والذي يطل مباشرة على النهر لاستقبال الوفود التي جاءت لتهنئه بالانتصار الذي حققه في معركة الأرك كما سنرى. م. س.، ص.418.

107- البيان المغرب، م. س.، ص. 215.

وقد خرج السيد على رأس قواته يبحث عنه، لكن العرب الموجودين ضمن هذه القوات قرروا خيانة السيد والاستيلاء على مخيمه وأمتعته، وهكذا فبعدما أرسل الجواسيس الذين تعرفوا على المتمرد والمكان الذي يختبئ فيه، طلب من العرب إلقاء القبض عليه مقابل مكافأة خاصة، لكن هؤلاء تلكؤوا في تنفيذ الأمر، وبدؤوا يتحينون الفرصة لتنفيذ ما دبروه ضد السيد الذي علم بكل ذلك، مما دفعه للتظاهر بأنه أوقف البحث عن المتمرد وبأنه يستعد للعودة إلى بجاية، في وقت استدعى فيه العرب الذين وعدهم بالكتابة إلى البلاط الموحدي ليخبر الخليفة بإخلاصهم ويطلب منه مكافأتهم على ذلك. وقد أسعد هذا العرب الذين، اتفقوا معه بعد انسحابهم عقب الاجتماع، على زيارته في اليوم الموالي لكن عقب ذلك وبعدما جن الليل، خرج السيد خفية مع بقية رجاله ولم يتوقف إلا بعد اقترابه من قلعة بني حماد التي دخلها في اليوم التالي. ولما علم العرب بالأمر تأسفوا على ضياع فرصة الاستيلاء على مخيم السيد وأمتعته، لكنهم سعوا عنده حتى يفي على الأقل بما وعدهم به، بحيث لم يتردد شيوخهم وقادة جيشهم في تلبية الدعوة التي وجهها لهم بعد دخوله قلعة بني حماد، والتي أخبرهم من خلالها أنه يود تسليمهم المكافأة الموعودة. وعند حضورهم، نظم وليمة ضخمة على شرفهم، وبعد أن اتخذ الإجراءات الأمنية اللازمة، أمر بإغلاق أبواب القلعة وتكبيل أبنائهم الذين حضروا معهم بالسلاسل، إثر ذلك اقسم أمامهم بأنه لن يفك هؤلاء قبل أن يسلموه الأشل، وأنهم إذا ما حالوا دون إرسال راس هذا الأخير إلى مراكش، فالتي سترسل بدلها هي رؤوس أبنائهم.

ورغم هذا التهديد رفض العرب خيانة صديقهم وجارهم بتلك الطريقة، حيث كان جوابهم حسب مؤلف البيان المغرب: «*ما نسلم جارنا ولا نغدر دخيلنا ولو أتى القتل على جميعنا*»[108]، غير أن زوجاتهم وأمهات أبنائهم المسجونين، نهروهم وطردوهم من بيوتهم قائلين لهم: «*أيقتل أبناؤنا برجل منافق ذي حيل سارق؟*»[109]. وفي خضم الانقسام الذي وقع بين العرب حول الموقف الذي يجب اتخاذه، حاول الأشل الفرار، إلا أن مجموعة من أقارب المسجونين ألقوا عليه ومساعده القبض، ونقلاهما إلى بجاية حيث قطع رأساهما واللذان علقا على أحد أبواب المدينة.

108- البيان المغرب، م. س.، ص. 216.

109- نفسه، ص. 216.

يحيى بن غانية يخلف أخاه علياً

لم يحل الانتصار المدوي الذي حققه الموحدون في الحمة، وإعادة التنظيم الإداري لإفريقية، دون عودة بني غانية إلى مسرح الأحداث مستغلين في ذلك انشغال يعقوب المنصور بالمشاكل الداخلية وبالصراع المتزايدة خطورته في الأندلس، وهكذا ما أن انسحب من إفريقية حتى عاد علي بن غانية وقراقش الغزي للظهور في جنوب تونس، وبدآ يعدان العدة للانتقام من الموحدين اثر الهزيمة النكراء التي منيا بها في الحمة، غير أن الموت فاجأ عليا قبل أن يحقق ذلك.

ويقول صاحب المعجب إنه توفي متأثراً بجراحه في خيمة بدوية عجوز، عقب فراره من مواجهة كانت له ضد الموحدين[110]، لكن حكاية المعجب هذه لا تستند على أساس. أما ابن خلدون فيؤكد أنه أصيب إصابة قاتلة في مواجهة مع نفزاوة، وأن ذلك كان في سنة 584هـ [111]، في حين يشير التجاني إلى أن موته كان بسبب إصابته بسهم طائش على مقربة من توزر[112]، وهو نفس المكان الذي يقول صاحب الاستبصار إنه توفي به[113].

وبعد مقتل علي، اختار إخوته وشيوخ المرابطين أخاه يحيى لخلافته، هذا الأخير تمكن على امتداد نصف قرن تقريباً، وبشجاعة وفعالية نادرتين من مواصلة الكفاح ضد الموحدين الذين الحق بهم أضرارا بليغة ومتكررة. وقد تحالف في البداية مع قراقش لإعادة محاولة أخيه للاستيلاء على قسنطينة[114] وكانت أهم حصون إفريقية، غير أن المحاولة باءت بالفشل اثر النجدة التي تلقاها المحاصَرون من طرف عامل بجاية السيد أبي الحسن، وهو ما أجبره على الانسحاب نحو الجنوب دون أن يفكر أبو الحسن في ملاحقته. وإثر انسحابه قام بالاستيلاء على بسكرة. وقد أعاد الكرة من جديد ضد قسنطينة لكنه لم يحقق النجاح هذه المرة كذلك، عندها اتجه نحو بجاية التي فشل هي الأخرى في احتلالها، مما أجبره على الانسحاب نحو الجريد للالتقاء بقراقش وإقامة تحالف معه[115].

110- المعجب، م. س.، ص. 388-389.

111- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 512.

112- رحلة التيجاني، م. س.، ص. 38.

113- الاستبصار، م. س.، ص. 155. المعجب، م. س.، ص. 189.

114- توجد اليوم داخل التراب الجزائري، شمال شرق البلاد، غير بعيد عن الحدود التونسية (المترجم).

115- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.509.

قراقش وعرب الذباب[116]

وفي سنة 586هـ (1190م-1191م)، انفصل زعيم الغز قراقش عن يحيى بن غانية وعبر من جديد عن استعداده للتعاون مع الموحدين، وربما كان ذلك تنفيذاً لأوامر صلاح الدين التي يكون نقلها السفير ابن منقذ والذي مر آنذاك بإفريقية. وللتعبير عن رغبته في التعاون مع الموحدين زار قراقش الوالي العام لأفريقية واعترف بسلطته.

وبعد الحفاوة التي استقبل بها والهبات التي تلقاها، قصد قراقش قابس التي قتل بعض أهاليها، وأخضع لسلطته كل المنطقة المجاورة لها، في نفس الوقت قرر توجيه ضربة حاسمة لعرب الذباب المنتمين لكونفدرالية بني سليم، وهكذا استدعى حوالي ستين من شيوخهم إلى وليمة أقامها بقصره الموجود في قصبة العروسين[117]، وكانوا يمتلكون ثروات ضخمة تحصلت لديهم من أعمال النهب، وقد جاؤوا إلى الوليمة مرتدين الملابس الفاخرة والحلي النفيسة. وبعد دخولهم القصر، أمر مضيفهم وحليفهم السابق، جنوده بإحكام إقفال الأبواب وقتلهم جميعاً. إثرها تمكن وبسهولة من الاستيلاء على مخيمهم، مما أجبر من كان نجا على الالتجاء إلى منطقة برقة، حيث تحالفوا مع بقية قبائل بني سليم وقرروا محاربة قراقش حتى الموت. هذا الأخير سوف ينقلب مرة أخرى على الموحدين بعد فشل سفارة ابن منقذ، بعدما استولى على طرابلس التي سبق وأن اعترفت بسلطة يعقوب المنصور عام 586هـ، ودخل في تحالف جديد مع يحيى بن غانية سمح لهما بالسيطرة على كل المنطقة الجنوبية من إفريقية إضافة إلى طرابلس والجريد.

حملة المنصور الثانية إلى الأندلس

ونتيجة لهذه التطورات الخطيرة، انتقل يعقوب المنصور على وجه السرعة إلى الرباط عام 590هـ (1194م) ليبدأ من هناك الإعداد للحملة التي يتوجب توجيهها ضد المتمردين في إفريقية، وبعد وصوله، استدعى عمال الأندلس لإعطائهم التعليمات المتعلقة بالمناطق التي يشرفون عليها، وكانت الهدنة التي وقعها مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن قد انتهت صلاحيتها لذا قام هذا الأخير، وبعدما علم بانشغال الخليفة بشأن إفريقية وبالاستعدادات التي يقوم بها

116- حول عرب الذباب ، انظر العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 97.

117- تعرف كذلك باسم قصبة قابس، وكان قد بناها أمراء بني جامع الهلاليون.

من أجل الخروج في حملة جديدة ضدها، بمهاجمة منطقة اشبيلية بشراسة كبيرة[118]. وقد ودع المنصور عمال الأندلس في الرباط، قبل أن يعبر إلى سلا التي توجه منها إلى مكناس، غير أنه وأمام تجدد طلبات النجدة وخطورة الوضع في الأندلس قرر تغيير الاتجاه؛ حيث إنه اكتفى بمد عمال إفريقية بالمساعدة اللازمة من الرجال والأموال، وانطلق نحو شبه الجزيرة الإيبيرية. ومما شجعه على ذلك، قصر المسافة التي تفصله عنها ووفرة المؤونة بها؛ وهو ما يجعل مشكل توفير الزاد لقواته غير مطروح[119].

وقد عبر المضيق يوم الخميس 20 جمادى الثانية 591هـ (فاتح يونيو 1195م)، وبعد استراحة يوم واحد في طريفة، واصل السير نحو اشبيلية، التي التقى قبل وصولها، بعاملها الذي غادرها وفداً من أعيان المدينة من أجل استقباله. وكان الخليفة وقواته أثناء توقفهم بالمحطات المؤدية لعاصمة الأندلس الموحدية، يقيمون في المنازل التي أعدت مسبقاً لاستقبالهم. وفي اشبيلية نزل المنصور ببحيرة باب جَوهر حيث توافد عليه السكان لتهنئته بمقدمه السعيد[120]. وقد تكفل الشيخ أبو بكر بن زهر مع سلطات المدينة بتدبير الأمور المتعلقة بإقامة القوات المرافقة للخليفة. وفي يوم الخميس 8 يونيو، استقبل هذا الأخير في لقاء سري أفراد عائلته. وفي اليوم الموالي، خرج إلى حصن الفرج للاطلاع على أشغال البناء الجارية به، قبل أن يعود ساعة الظهيرة إلى المسجد الأعظم من أجل أداء صلاة الجمعة. أما يوم السبت فقد خصصه لمعاينة الجيش، وكانت معاينة دقيقة متأنية قدم خلالها الأجور و"البركة" لأفراده، وكان يرافقه أثناءها خاصته ورجال بلاطه.

وفي يوم الخميس 11 رجب (22 يونيو) غادر اشبيلية عبر إحدى ضفتي الوادي الكبير، وبعد ثمانية أيام من السير وصل إلى قرطبة التي استراح بها ثلاثة أيام قبل أن يغادرها يوم الثلاثاء 23 رجب (4 يوليو)، حيث مر بحصن الفرج قبل أن يقيم مخيمه بسهلي شلبطيرة وقلعة رباح[121].

118- قاد ذلك الهجوم الذي تمت بواسطته ابادة عدد مهم من سكان منطقة الوادي الكبير، مطران طليطلة "مارتين دي بسيرغا" Martin de Pisuerga الذي كانت ترافقه فرقة فرسان قلعة رباح. وتصف La Primera Cronica General. p. 881 الهجوم الذي قاده المطران على النحو التالي: "ومر من قلعة إلى أخرى مضرماً النيران في الأراضي الفلاحية والحصون المأهولة قبل أن يعود إلى بلاده والسعادة تغمره لما حققه من نجاح في حملته".

119- البيان المغرب، م. س.، ص. 217.

120- نفسه، ص.218.

121- نفسه، ص. 218. يعتقد عبد الحميد سعد زغلول خطأً بأن يعقوب المنصور استولى على قلعة رباح قبل وقوع معركة الأرك، ذلك لأنه لم يحسن فهم الفقرة التي يتحدث فيها الروض المعطار (م. س.، ص. 344-345) عن إخلاء المسيحيين للقلعة قبل وصول المسلمين.

معركة الأرك[122]

وقد قبل الفونسو الثامن دخول التحدي، حيث استدعى أتباعه واتجه على وجه السرعة إلى طليطلة التي مكث بها بضعة أيام في انتظار وصول بقية قواته، ومن هناك انتقل إلى حصن الأرك[123]، وهو أقصى نقطة في مملكة قشتالة، ووضع مخيمه عنده، وكان عاقداً العزم على مواجهة يعقوب المنصور إذا ما اجتاز ثغر "كونكوستو" Congosto [124]، وذلك حتى لا يتيح له فرصة اكتساح أراضيه كما فعل خلال حملتيه الأخيرتين ضد البرتغال. وبما أن ألفونسو كان متأكداً من تفوق رجاله من حيث القدرات القتالية، فإنه قرر دخول المعركة، رغم التفوق العددي لأعدائه، دون أن ينتظر وصول ملكي نبرة وليون لمعاضدته، وكان الأول قد اجتاز نقطة الحدود بين المملكتين، بينما كان الثاني قد وصل طلبيرة.

ونقرأ فيما ورد عند الذهبي رواية لا تخلو من طرافة عن المواجهة المرتقبة، وهكذا فبعد أن تحدث بمبالغته المعهودة عن عدد القوات المكونة للجيش المسيحي والتي يُقدرها بـ 25 ألف فارس و200 ألف من المشاة، يقول إن رعايا الفونسو، وليس هو فقط، كانوا متأكدين من الانتصار، ويضيف أن عدداً من التجار اليهود المحملين بكميات مهمة من الأموال كانوا يرافقون هذه القوات، وكان سبب وجود هؤلاء التجار، رغبتهم في عقد صفقة مربحة تتمثل في شراء الغنائم والأسرى الذين سيقعون بيد الفونسو.

وكان المنصور انطلاقاً من ثغر "كونكوستو" يراقب كل المنطقة السهلية التي وضع بها العدو مخيمه. وقد عبر المسيحيون عن رغبتهم في بدء القتال يوم 17 يوليو، وكانوا يتمنون أن يستجيب

122- انظر مقالتي التي تحمل عنوان: "حملة الأرك". مجلة المعهد المصري للدراسات الاسلامية. الجزء الثاني، Fasc 1-2، ص.1-72. مدريد.

123- كان هذا الحصن هو أقصى نقطة في مملكة قشتالة.

124- لا نعرف بالضبط أين كان يوجد هذا الثغر، وحسب علمنا، لم يقم أحد لحد الآن بمحاولة تحديد مكانه، ولا نستبعد أن الأمر يتعلق بثغر "كابيثويلا" Cabezuela الذي يقع على مسافة 20 إلى 25 كلم جنوب "ثيوداد ريال" Ciudad Real في الطريق المؤدية إلى قلعة رباح، أو يتعلق بثغر "ريبينتون" Reventon المجاور لحصن "بالنثويلا" Valenzuela والواقع على بعد 10 كلمترات شرق قلعة رباح. وحسب صاحب روض القرطاس فإن الثغر المذكور يبعد مسيرة يومين عن الأرك، وقد تمكن أمير المؤمنين وبفضل وجود هذا الثغر -الذي وصله يوم الخميس 3 شعبان- في منطقة مرتفعة، من مراقبة كل المنطقة السهلية المحيطة به. وأصبح، عند نزوله لاجتياز "نهر الخبلون" El Jabalon، وجهاً لوجه مع القوات المسيحية المعسكرة في الأرك.

الطرف الآخر، غير أن المنصور فضل الاستراحة ذلك اليوم والدخول في القتال في اليوم الموالي، وهذا ما أجبر القشتاليين على الانتظار في الميدان المزمع أن تشهد المعركة رحاها فيه إلى بعد منتصف النهار، حيث انسحبوا في حالة إرهاق تام ناجم عن الحرارة المرتفعة والعطش وثقل السلاح الذي كانوا يحملونه.

في تلك الأثناء وبعد أن جمع المنصور كل قادة الجيش، قام الوزير أبو يحيى حفيد الشيخ عمر ينتي بإلقاء خطاب حث فيه الحضور على طلب العفو من الخليفة على ما ارتكبوه من زلات، والتوجه بأكف الضراعة إلى الله الذي يجاهدون في سبيله. وفي جو مؤثر طلب هؤلاء العفو من الخليفة. بعد ذلك ألقى القاضي أبو علي بن الحجاج خطبة دينية عدد فيها مزايا الجهاد واستنهض الجميع على القيام به بحماس وإقدام.

وتذكرنا ما أوردته بعض المصادر العربية من تنبؤات عن نتائج معركة الأرك، بما حدث في معركة الزلاقة، فبالنسبة لهذه الأخيرة يقول صاحب الروض المعطار إن القاضي أحمد بن روميلة رأى فيما يراه النائم، النبي وهو يبشره بالانتصار، أما بالنسبة للأرك فيقول صاحب روض القرطاس إن أمير المؤمنين شاهد فارساً نازلاً من السماء على صهوة جواد أبيض جميل وبيده راية خضراء، وقد أخبره بأنه ملاك من السماء السابعة أرسله رب العالمين ليبشره بالنصر. ويتحدث مؤلف "التاريخ العام الأول" من جهته عن حلم رآه ألفونسو الثامن أُنبئ من خلاله أن هزيمته كانت عقاباً له على السنوات السبع التي قضاها في الملاّح مع إحدى اليهوديات، حيث خوطب في منامه بما يلي: « *لهذا السبب انهزمت في معركة الأرك وفقدت كل رجالك*»[125].

وبعد الانتهاء من الخطبة الدينية وما شملته من مواعظ، عُقد مجلس الحرب، حيث عبر من خلاله عن رأيهم، أولاً الموحدون ثم العرب فالغز وأخيراً قبائل زناتة والمتطوعون. وبعد الاستماع إلى كل هؤلاء، طلب المنصور رأي قواد الأندلس، لأن جيوشهم وإن كانوا أقل شجاعة من جيوش المغرب، فإنهم أدرى منهم بطريقة قتال المسيحيين وخططهم الحربية. وقد نصح أحد القواد الأندلسيين، ويدعى عبد الله بن صناديد، الخليفة بتقسيم جيشه كثير العدد إلى قسمين، يتولى قيادة القسم الأول الشيخ الموحدي الذي يحظى بأكبر قدر من ثقة أمير المؤمنين، على اعتبار أن وجود هذا الشيخ على رأس الجيش سيجعل النصارى يعتقدون أنه هو الخليفة، والذي يجب أن يتولى قيادة القسم الثاني المكون من الموحدين والحرس السود وبقية

125- Op. Cit., Primera Cronica General. Ed. Menendez Pidal. P. 685

القوات المشكلة للساقة. وأضاف القائد الأندلسي أن مهمة القسم الثاني يجب أن تنحصر في معاضدة القسم الأول إذا ما اضطر للتراجع، وفي نفس الوقت تطويق ألفونسو أثناء انشغاله بقتال قوات الصفوف الأمامية لهذا القسم.

وقد عمل المنصور بالنصيحة، حيث وضع على رأس القسم الأول من الجيش أهم وزرائه، أبا يحيى، الذي سقط صريعاً على غرار العديد من المسلمين في أول مواجهة مع فرقة الفرسان المسيحية. وكما كان الشأن في معركة الزلاقة تراجعت القوات الأندلسية والمتطوعون منذ بداية القتال، وذلك بسبب شراسة الجيش المسيحي، غير أن التفوق العددي للموحدين سمح بدخول قوات جديدة أكثر حيوية للمعركة، قامت بتطويق قوات ألفونسو التي أنهكتها حرارة فصل الصيف المفرطة (جرت المعركة يوم 18 يوليو) وثقل وزن الأسلحة التي كانت تحملها.

وحتى يكون الحدث مشابها لما وقع في معركة الزلاقة، نسبت المصادر العربية المتأخرة عند حديثها عن معركة الأرك، رسالة تحد بعث بها ألفونسو الثامن وزوجته إلى يعقوب المنصور، مشابهة للرسالة الاستفزازية التي تقول المصادر العربية إن ألفونسو السادس بعث بها إلى يوسف بن تاشفين.

ويشير صاحب البيان المغرب إلى أن المعركة بدأت في منتصف النهار واستمرت إلى غروب الشمس، أما "La chronique latine"، وهي هنا أقرب إلى الصواب في تقديرنا، فتقول إن المواجهة استمرت طيلة الصباح، ومع اشتداد حرارة منتصف النهار وإحساس المسيحيين بأن هزيمتهم باتت وشيكة، سحبوا ملكهم من ساحة الوغى. ويستعمل هذا المصدر مجموعة من الجمل الغامضة التي يريد أن يبين من خلالها أن جيش المسلمين بخطته المعهودة القائمة على الكر والفر، وتحركه بحرية على امتداد سهل "لامانشا" الفسيح، نجح في تفادي المواجهة مع فرقة الفرسان في الجيش القشتالي، والتي أصيبت بسبب ذلك بحالة فوضى سرعان ما شملت بقية الجيش المسيحي، وهو ما استغله المسلمون الذين هاجموا عدوهم بفعالية كبيرة حيث كبدوه خسائر فادحة. وتضيف "La chronique latine" أن التفوق الكمي للمسلمين في العتاد الحربي ساهم بدوره في انتصارهم، لأن: «*العدد الهائل من النبال التي أخرجت من كنانها، ورغم أنها تطايرت في الهواء بشكل عشوائي، فإنها انتهت في أجساد المسيحيين والذين سببت لهم جراحاً بليغة*»[126].

126- يتحدث مؤلف "التاريخ العام الأول" بدوره عن التفوق الكمي للمسلمين من حيث العتاد الحربي عند تناوله -كما سنرى- للهجوم الذي قام به المنصور ضد "بلسنثية" Plasencia خلال حملة السنة الموالية، حيث كتب مايلي: «*هاجم البرج بعنف كبير بواسطة عدد كبير من الجنود المدججين بالبراقيل والذين لم يتوقفوا عن القتال على امتداد نهار وليلة*».

وقد اعتبرت المصادر العربية الانتصار في معركة الأرك أهم من الانتصار في معركة الزلاقة نفسها، وهذا صحيح إلى حد بعيد، ذلك لأنه وبخلاف يوسف بن تاشفين الذي عاد إلى المغرب دون أن يستفيد استفادة عملية من انتصاره، تقدم المنصور بعد المعركة نحو أراضي المسيحيين حيث احتل مجموعة من القلاع والحصون[127]، كما قام خلال السنتين الواليتين بغارات متعددة على أراضي العدو دون أن يتجرأ ألفونسو الثامن وحليفه ملك أراغون على الوقوف في وجهه.

ويقدر ابن خلدون والبيان المغرب عدد قتلى المسيحيين في المعركة بـ 30 ألفا إضافة إلى 5000 أسير ألقي عليهم القبض في حصن الأرك، مقابل 500 قتيل في صفوف المسلمين. ورغم أن هذه الأرقام لا يمكن أن تكون إلا مبالغاً فيها، فهي وبحكم المصداقية التي يتمتع بها ابن خلدون، وبحكم اعتماد البيان على معلومات دقيقة، تعتبر في نظرنا أقرب إلى الصواب مما أورده ابن الأثير الذي يقدر عدد خسائر المسيحيين بـ 146 ألف قتيل و13 ألف أسير، إضافة إلى غنائم قوامها 46 ألف حصان و100 ألف بغل و100 ألف حمار و70 ألف خوذة و60 ألف درع، مقابل 20 ألف قتيل في صفوف المسلمين. أو ما جاء به صاحب روض القرطاس والذي قدر عدد المسيحيين الذين شاركوا في المعركة بـ 300 ألف، قتل أغلبهم وأسر ممن تبقى 24 ألفا. وحسب ذات المصدر فإن سقوط هذا العدد الهائل من القتلى في صفوف المسيحيين إضافة إلى الأسرى سمح ليعقوب المنصور باكتساح بلادهم بسهولة ودون أن تعترض طريقه أية مقاومة، حيث توغل إلى غاية جبل سليمان المجاور لـ"قلعة النهر" Alcala de Henares .

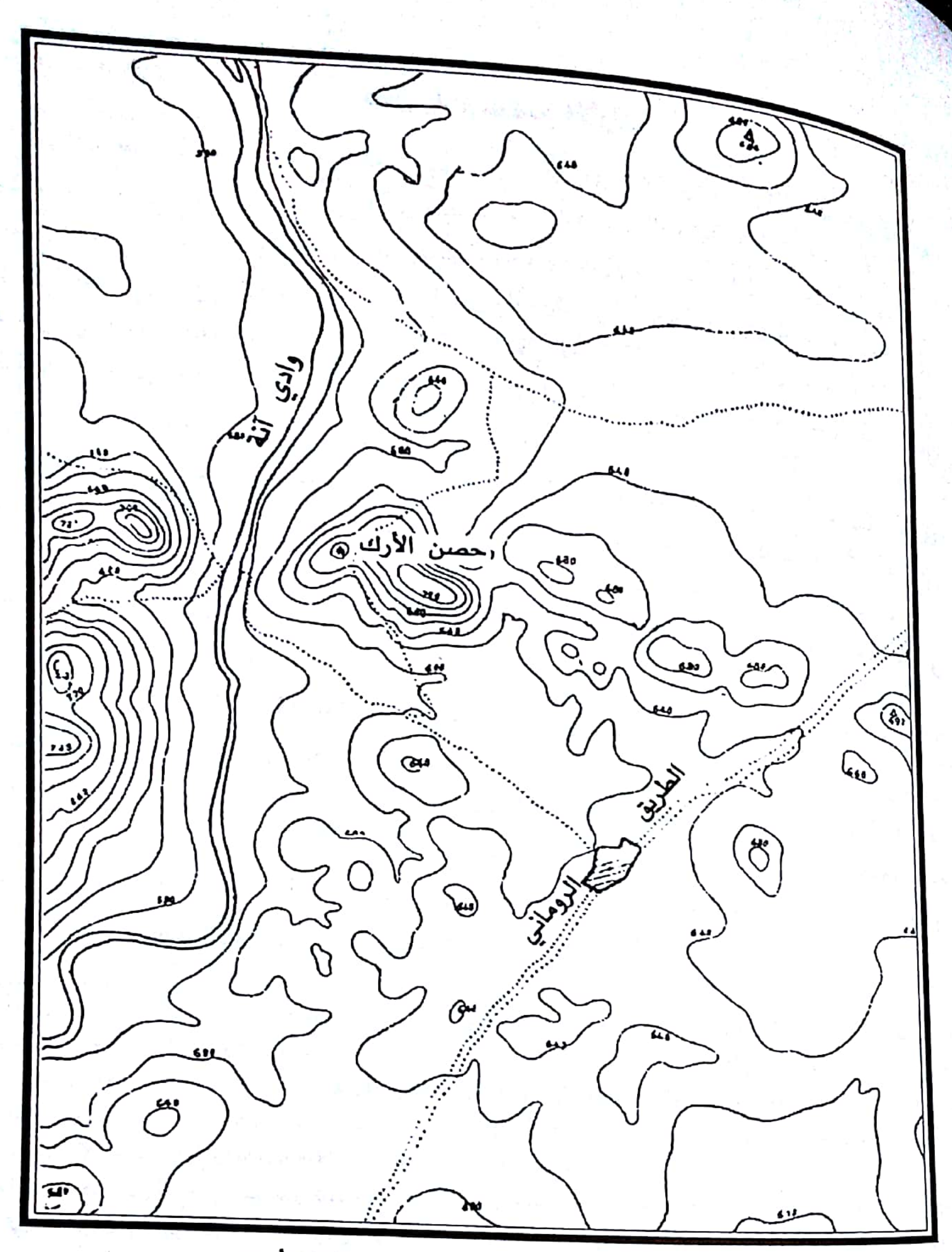
ومهما تباينت الأرقام، فالمؤكد هو أن عدد الضحايا في صفوف المسيحيين كان مرتفعاً جداً. أما سبب ذلك فهو الإصرار الذي قاتل به فرسانهم بل وحتى رهبانهم، إضافة إلى التفوق العددي للعدو. وعن مشاركة الرهبان في القتال، يورد El Chronicon Coimbrense حكاية ثلاثة منهم كانوا ضمن الضحايا، كما يذكر، شأن Chronique Latine، أسماء عدد من النبلاء الذين قتلوا في المواجهة. ويتحدث مؤلف "Kalenda de Ucles"، عن تسعة عشر من الرهبان لقوا حتفهم بجانب عدد لا يحصى من المؤمنين. وإذا كان تضارب الأرقام التي تقدمها المصادر لا يسمح لنا بتحديد عدد القتلى بنوع من الدقة، فإنه على الأقل يعطينا فكرة عن عنف المواجهة.

127- يتعلق الأمر بحصون الأرك و "كاركويل" Caracuel و"قلعة رباح القديمة" و"بنابينتي" Benavente و"مالقون" Malagon ووادي "الفرثة" Guadalferza

وبالإضافة إلى التفوق العددي للعدو وإصرار المسيحيين على القتال، هناك سبب آخر لارتفاع عدد الضحايا في صفوف هؤلاء؛ يتمثل، حسب مؤلف "التاريخ اللاتيني"، في العشوائية التي خرجوا بها للمعركة بعد مباغتتهم من طرف المسلمين، وكانوا يعتقدون بعد أن أظهر يعقوب المنصور عدم رغبته في دخول القتال خلال اليوم السابق، أن المسلمين لن يجرؤوا على القتال في مجال مكشوف مثل الذي وضع فيه الطرفان مخيميهما.

ولمعرفة الأثر السلبي الذي تركته هذه المعركة على نفسية ومعنويات ألفونسو الثامن، وكذا على القدرات القتالية لقواته، يكفي أن نذكر أنه لم يتجرأ، بالرغم من مساعدة مملكة ليون، على اعتراض طريق يعقوب المنصور في أي من الحملتين اللتين سوف يقوم بهما عامي 1196م و1197م، واللتين توغل خلالهما بشكل كبير داخل أراضي مملكة قشتالة. وقد اضطر ألفونسو بعد الهزيمة، لتوقيع هدنة مع الموحدين مدتها عشر سنوات. وحتى بعد انقضاء مدتها، تأخر سبعة عشر شهراً آخر قبل الدخول في مواجهة جديدة ضدهم، حشد لها جيشاً يفوق بكثير ذاك الذي خاض به معركة الأرك، كما حاول أن يضفي عليها طابعاً صليبياً.

ويقدم لنا مؤلف "التاريخ العام الأول" تفسيراً آخر لهزيمة ألفونسو في معركة الأرك يصعب تصديقه، فقد قاتل "دون دييغو لوبيث دي هارو" Don Diego Lopez de Haro وغيره من النبلاء، حسبه، دون حماس، بعدما سمعوا الملك وهو يقول إن فرسان منطقة الجوف لا يقلون شجاعة وإقداماً عن فرسان قشتالة. إن هذا التفسير لو كان صحيحاً حقاً لما بقي "دون دييغو" متمتعاً بالعطف والرضى الملكي بعد المعركة، لذا فإن ما ذهب إليه المصدر المذكور اختلق في نظرنا، للتخفيف من مرارة الهزيمة.



• تصميم للمكان الذي دارت فيه معركة الأرك

استسلام حصن الأرك

بعد انسحاب الفونسو نحو طليطلة، التجأ "دون دييغو" ورجاله إلى حصن الأرك، وكان عددهم يقل بكثير عن خمسة آلاف (الرقم الذي تقدمه أكثر المصادر العربية اعتدالاً) ذلك لأن الأمر يتعلق بحصن حدودي صغير، بني أصلاً ليستوعب حامية من بضع مئات من الرجال[128]. ولما تبين له أن الحصن أصبح آيلاً للسقوط في يد العدو، وأنه يتعذر الاحتماء به ولو لبضعة أيام أخرى، حاول "دون دييغو" مهاجمة الموحدين وفتح الطريق في اتجاه قشتالة، لكن في الوقت الذي وصل فيه باب الحصن، وهمز فرسه بالمهماز مؤذناً بانطلاق الهجوم، تخلى عنه أتباعه الذين فروا داخل الحصن، في وقت لم يجد هو بدا من التراجع إلى الوراء وإنهاء هذا المشهد المخزي.

وكان يعقوب المنصور يعتقد بأن ألفونسو الثامن التجأ كذلك إلى الحصن للاحتماء به، لذا حاول أسره بأي ثمن، غير أن حليفه ومستشاره "دون بيدرو فرنانديث دي كاسترو" أكد له فراره إلى قشتالة. وقد حاول الخليفة إقناع "دون دييغو" بالتنازل عن الحصن وترك رهينة من إثني عشر فارساً، لضمان مجيئه فيما بعد إلى مراكش وتسليم نفسه كأسير، وهدده بمداهمة الحصن وضرب عنق كل من يوجد به إذا ما رفض ذلك[129].

وفي اليوم الموالي للمعركة، حل بحصن الأرك صهرا "دون دييغو" (زوجا ابنتيه) الدوقين "دون آلفارو" و"دون كونثالو دي لارا" مع بعض قواتهما. وقد بذل "دي كاسترو" عدو "دييغو" اللدود كل ما في وسعه لاعتقالهما، غير أن هذا الأخير وبعد تسليمه الرهائن الاثنى عشر الذين طلبهم الخليفة، نجح في إخراجهما معه من الحصن متنكرين، في وقت استقبل فيه "دون بيدرو فرنانديث" بخيمته بقية المحتمين في الحصن -بعدما دخله- قبل أن يسمح لهم بالعودة إلى بلادهم. وبما أن "دون دييغو" لم يف بوعده ويحضر إلى مراكش، فقد قطعت رؤوس الرهائن الاثنى عشر.

128- يعتبر حصن الأرك من بين الحصون الحدودية الصغيرة التابعة كلها لقلعة رباح القديمة، وبالتالي فقد كان أقل أهمية من هذه الأخيرة، أما شهرته فقد اكتسبها من المعركة. ومما يؤكد أن قلعة رباح كانت أكثر أهمية من الحصون المجاورة وضمنها حصن الأرك، أن ألفونسو الثامن لما توجه في وقت لاحق إلى حصن العُقَاب، كانت قلعة رباح هي الوحيدة التي نجحت في إظهار بعض المقاومة، حيث إنها لم تستسلم إلا بعد أربعة أيام من بداية الهجوم عليها، مقابل ذلك استسلمت حصون الأرك وبيدرا بونا" Piedra buena" و"بنابينتي" و"كاركويل" دون مقاومة.

129- لا نتوفر على أية معلومات بشأن تسليم الحصن وما قام به أثناء ذلك "دون بيدرو فرنانديث دي كاسترو" و"دون دييغو لوبيث دي هارو" غير تلك التي وردت في الترجمة البرتغالية من "التاريخ العام الأول" والتي نشرها "ثيروت" في الملحق الحادي عشر وما يليه من كتابه "التاريخ اللاتيني"، ورغم تحريف هذه المعلومات وطبعها بطابع مسرحي من أجل جعلها أكثر إثارة، فإن التوقف عندها يبين لنا أنها استندت إلى أحداث واقعية.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن تدخل "دون بيدرو" أولاً في معركة الأرك بواسطة حاميته، ثم ثانياً في المفاوضات المتعلقة بتسليم الحصن، كان حاسماً. ويرجع تدخله إلى حقده على "آل لارا" وعلى الملك الفونسو. ويظهر أن هذا الحقد جعل منه مساعداً فعالاً ووفياً للخليفة، بحيث أدى له خدمات متعددة من بينها سعيه في التحالف الذي أقامه يعقوب المنصور مع ملك ليون. وسوف ينتقل "دون بيدرو" في وقت لاحق للإقامة بمملكة ليون، غير أن هذه الأخيرة سوف تطرده من ترابها عام 1213م على إثر توقيعها لمعاهدة سلمية مع قشتالة، وهو ما اضطره للرحيل إلى مراكش حيث توفي في 18 غشت 1214م [130].

وبعد حسم موضوع حصن الأرك وتحقيق الانتصار النهائي، واصلت حملة يعقوب المنصور عملياتها الحربية لكن لمدة قصيرة، أعطى خلالها الأوامر لفصائل جيشه من أجل الاستيلاء على خمسة حصون صغيرة بمنطقة قلعة رباح، كلها تقع على مسيرة يوم واحد من حصن الفرج، وكانت الحاميات المسيحية الموجودة بهذه الحصون وضمنها قلعة رباح القديمة قد قامت بإخلائها بعد هزيمة الأرك[131].

وفي يوم الثلاثاء 27 شعبان (7 غشت)، وبعد عشرين يوماً كاملة من تاريخ المعركة، وصل الخليفة إلى اشبيلية. ويرجع سبب هذا التأخر من جهة إلى الإيقاع البطيء الذي كانت تتحرك به حملاته العسكرية كما أشرنا إلى ذلك غير ما مرة، ومن جهة أخرى إلى قيامه بمهاجمة القلاع سالفة الذكر. وقد أقام فور وصوله، احتفالاً رسمياً بالانتصار، في قصره بحصن الفرج، تخلله استعراض عسكري نظم بجهة القصر المقابلة للنهر، وكانت أمطار الخير تتهاطل أثناء الاحتفال، وهو ما سعد له الخليفة الذي شكر الله عليها وعلى الانتصار الذي يسره له.

حملة منطقة الجوف وطليطلة

قضى الخليفة شتاء 1195م-1196م في حصن الفرج، مكان إقامته المفضل، حيث أكمل غرس الأشجار ببستان البحيرة الواقع سفح الحصن، وشيد النواعير المخصصة لسقيه. ومع

130- مكث ابنه "الباريث بيريث دي كاسترو" Alvarez Perez de Castro في المغرب بعد ذلك ، ونعلم انه كان (بعد احدى عشرة سنة من وفاة والده) يوجد على رأس حامية من الفرسان المرتدين في جيان عام 1225م، حيث قاوم بحماس الحصار الذي فرضه عليها فرناندو الثالث، وبسبب تلك المقاومة اضطر هذا الأخير لفك الحصار. وبعد مهاجمة غرناطة من طرف فرناندو كان هو الذي تولى التفاوض معه باسم المسلمين. وسوف يتصالح في وقت لاحق مع ملكه الأصلي فرناندو الذي ضمه إلى صفوف جيشه و كلفه بحماية المنطقة الحدودية الواقعة بين مرتش وأندوجر.

131- يعطي "روجيريو دي هوبيدان" هنا مثالا آخر عن عدم مصداقية ما كتبه، بحيث يقول إن المسلمين قاموا بهجوم آخر استهدفت فيه القوبشة ودير آخر لا يذكر اسمه. ورغم إعجاب هركولانو بهوبيدان الذي يعتبره أحسن من كتب عن تاريخ البرتغال من الأجانب، فإنه يستبعد قيام المسلمين بهذا الهجوم. Op. Cit., Historia de Portugal .III, p 222.

حلول فصل الربيع، استدعى جيوشه المقيمة بنفس المنطقة. وبعد عقد مجلس حربي، قرر رفض مقترحات مختلف السفارات التي بعث بها ألفونسو الثامن والخروج في حملة جديدة لغزو منطقة الجوف. وكانت مغادرته لاشبيلية في منتصف جمادى الأولى592هـ (15 أبريل 1196م)[132]، وقد وصلت في نفس اليوم مقدمة الجيش المكونة من الأندلسيين إلى حصن منتانجش حيث شرعت مباشرة في مهاجمته، وفي اليوم الموالي حل بالمكان المذكور يعقوب المنصور مع السواد الأعظم من قواته. ولم تجد حامية الحصن أمام وصول هذا الجيش الجرار بداً من طلب الأمان الذي منح لها، والذي أمر الخليفة على ضوئه، القائد أبا عبد الله ابن صناديد ضمان وصولها بسلام إلى أقرب نقطة خاضعة للمسيحيين، غير أنها وما أن ابتعدت عن الحصن بفرسخ واحد حتى سطت عليها مجموعة من العرب الذين قتلوا رجالها وأسروا من كان يرافقهم من نساء وأطفال. ولما علم يعقوب المنصور بما جرى ثار غضبه وسجن الجناة كما أطلق سراح من أسر من نساء وأطفال، وأمر ابن صناديد بمرافقتهم إلى أن تطأ أقدامهم بلاد النصارى.

بعد ذلك توجه الخليفة نحو ترجالة عاصمة ثغر الشمال بهدف محاصرتها، غير أنه وجدها خالية من سكانها الذين غادروها قبيل وصوله، وقد قام لتوه بتعقبهم بحيث نجح في اللحاق بهم وقتل معظمهم، وذلك قبل أن يسير صوب "سانتاكروث" التي فر منها هي الأخرى ساكنوها. إثرها ودون أن تعترض طريقهم أية مقاومة، عبر الموحدون نهر تاجة في اتجاه بلسنثية Plasencia والتي كان ألفونسو قد أنفق على تأسيسها وتحصينها أموالاً طائلة[133]، قبل أن يأمر نصارى أقاليم قشتالة الشمالية بتعميرها، حسب ما يستشف من رسالة يعقوب المنصور الرسمية المتعلقة بالحملة. وأمام خطر الهجوم الموحدي، التجأت حامية المدينة إلى أحد الحصون المنيعة، غير أن

132- يقول صاحب البيان المغرب إن مغادرته لإشبيلية كانت يوم الاثنين 15 رجب، ونعتقد أن هذا التاريخ غير مضبوط، أولاً لأن 15 رجب لا يصادف يوم الاثنين وإنما الجمعة، وثانياً لأنه يتعارض مع ماورد عند صاحب "حوليات طليطلة" الذي يقول: *«أسرع ملك المغرب السير نحو "بلنسية" Palencia و"ترجالة" Trujiillo و"سانتا كروث" Santa Cruz و"مونتانجش" Montanchez قبل أن ينتقل على رأس قواته إلى طلبيرة حيث أمر بقطع ما بها من أشجار الزيتون، ومن هناك توجه نحو "سانتا أولايا" Santa Olalla و"اسقلونة" Escalona ثم إلى "مقيدة" Maqueda التي هاجمها دون أن يحتلها، وقد واصل بعد ذلك طريقه قاصداً ناحية طليطلة التي أمر بقطع أشجارها ودواليها. وقد دامت المدة التي مكثها بجوارها عشرة أيام وكان ذلك خلال شهر يونيو».*

133- مجموع رسائل موحدية. م. س.، الرسالة 35.

افرادها لم يتمكنوا من مقاومة الحصار أكثر من ليلة واحدة اضطروا بعدها للاستسلام، حيث وقع أسرهم في اليوم الموالي.

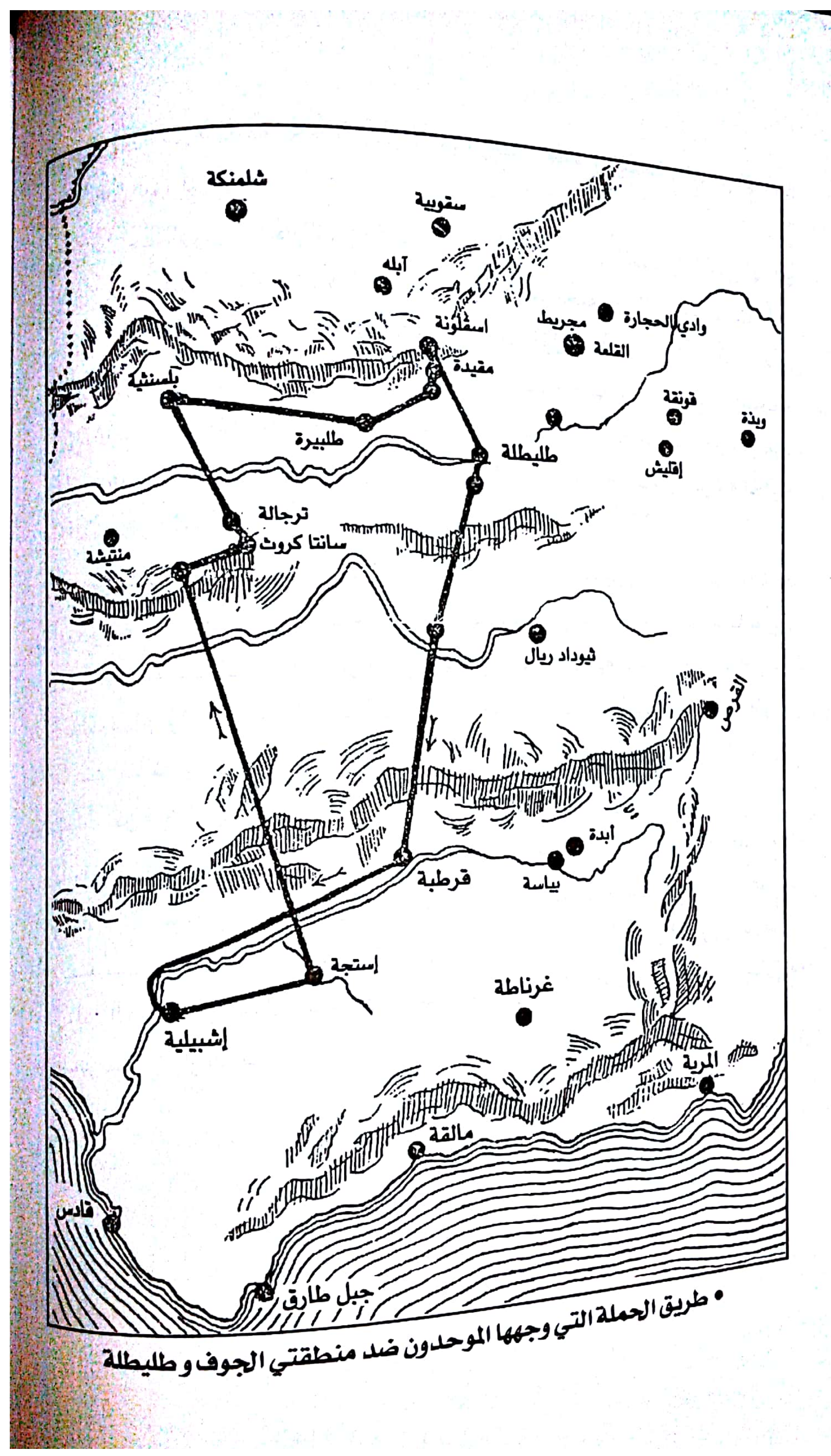
ويشير صاحب الروض المعطار إلى أن يعقوب المنصور أسر عامل المدينة و150 من أعيانها والذين أمر بنقلهم إلى الرباط للمساهمة في تشييد المسجد الجامع بها[134]. ويقدم لنا مؤلف "التاريخ العام الأول" معلومات إضافية في الموضوع حيث يقول إن الخليفة: «*أمر بقتل مطران المدينة وكهنتها ومن بها من المسيحيين قبل أن يهاجم وبكل عنف برجها بواسطة الجنود المدججين بالبراقيل والذين لم يتوقفوا عن القتال طيلة اليوم والليلة. هذه الوضعية جعلت "الفونسو طييث دي هارو" Alfonso Tellez de Haro الذي احتمى مع قواته داخل البرج، عاجزاً عن أية مقاومة، وهو ما أجبره على الاستسلام*»[135].

وقد واصل الغزاة تقدمهم عبر نهر تاجة إلى أن وصلوا إلى طلبيرة التي نهبوا أراضيها الفلاحية وقطعوا أشجار الزيتون الموجودة بجوارها، لكن دون أن يجرؤوا على محاصرتها، وذلك لعدم توفرهم على أدوات الحصار اللازمة وعلى المؤونة الكافية لضمان نجاحه في حالة ما إذا طالت مدته. وقبل التوجه إلى طليطلة، قاموا بعمليات عسكرية أخرى شمالها سطوا من خلالها على "سانتا أولايا" Santa Olalla و"إسكالونا" Escalona كما حاولوا احتلال "مقيدة" Maqueda لكن دون نتيجة.

ولما حلوا بطليطلة خرجت ساكنتها ضدهم بكل جرأة من أجل حمايتها، وكانت للموحدين طيلة الأيام العشرة التي عسكروا بجوارها مواجهات ضدها. ويقول يعقوب المنصور في رسالته عن هذه الأيام العشرة، إنها كانت "مثمرة"، على اعتبار أن قواته نهبت خلالها أشجار الكروم وغيرها من الغلال. لكن الحقيقة أن القوات الموحدية اضطرت في النهاية إلى الانسحاب دون أن تحقق أية نتيجة، غير عملية إبراز الذات هاته.

134- جامع حسان اليوم.

135- Op. Cit. La Cronica General. P. 682.



• طريق الحملة التي وجهها الموحدون ضد منطقتي الجوف و طليطلة

الغارات الموحدية الليونية على قشتالة

في هذه الأثناء دخل ملك ليون، وكان قد استعد لمهاجمة قشتالة، في اتصالات مع يعقوب المنصور بحيث طلب منه أن يمده بفيلق يعينه على مهاجمة العدو من جهة "تيرا دي كامبوس" Tierra de Campos، وما أن تلقى هذا الدعم حتى هاجم "بولانيوس" Bolanos و"بيالون" Villalon وفرشية" Frechilla [136]. وتتحدث المصادر المسيحية عن الخسائر الفادحة التي تكبدها القشتاليون والتي مردها أعمال النهب التي قام بها الليونيون في الأراضي الفلاحية الدانية قطافها، والموحدون في الكنائس والأديرة[137].

وعند وصول ملك ليون إلى "كاريون" Carrion، قرر حسب مؤلف "التاريخ اللاتيني"[138] إلغاء الولاء الذي يدين به لملك قشتالة، والذي كان قد أعلنه في احتفال رسمي أقيم في بلاط كاريون"عام 1188م، حيث قبل فيه يد ألفونسو الثامن، والذي ألبسه في المقابل، وحسب التقليد الجاري به العمل آنذاك، لباس الفرسان.

وقد واصل المسلمون والليونيون تقدمهم إلى أن وصلوا إلى "بياسيغرا" Villasirga، في وقت أصبحت فيه كل المنطقة الجنوبية الغربية من قشتالة تحت رحمتهم، ومما زاد الوضع تأزماً بالنسبة للقشتاليين، خروج ملك نبرة، "سانشو الفورتي" Sancho el Fuerte ضد المنطقة الشمالية من مملكتهم، حيث توجه إلى صورية و"ألماثون" Almazon وقام حسب صاحب "التاريخ اللاتيني": «*بقتل وحرق ونهب كل ما وجد أمامه*». ويضيف هذا المصدر أن "سانشو الفورتي" شيد في "لوغرونيو" Logrono، وبالضبط بجوار المنطقة الفلاحية التي تكسوها دوالي العنب، حصناً أطلق عليه اسم حصن الغراب، أراده قاعدة عسكرية ينطلق منها في غزواته ضد العدو.

كل هذا جعل مملكة قشتالة تعيش وضعية حرجة، لدرجة أصبح من الصعب معها العثور على مكان آمن داخل ترابها، غير أن المدد أتاها من حيث لم تكن تحتسب، أي من جهة الشرق؛ ففي شهر أبريل 1196م ومع بداية الحملة الموحدية-الليونية ضد قشتالة، توفي ملك أراغون ألفونسو الثاني عدو قشتالة اللدود، آنذاك سعت أرملته "سنشا" Sancha وهي في الوقت ذاته خالة ألفونسو الثامن

136- Op. Cit, Tudense, T. V. P. 108.

137-Op. Cit., Cronica de Alfonso VII. p.188.

138- Op. Cit., La Cronica Latina. Ed. Cirot. P. 46.

الذي كانت تكن له وداً كبيرا، سعت أن يقيم ابنها بيدرو الذي اعتلى عرش أراغون، تحالفاً مع ابن خاله ملك قشتالة الذي أمده بالأموال اللازمة التي سمحت له بتجهيز جيشه والالتحاق به على وجه السرعة. ولم يستطع هذا التحالف في البداية شيئاً أمام هجمات الموحدين والليونيين والنبريين، باستثناء النجاح النسبي الذي حققته حامية "آبلة" في مناوشاتها ضد الموحدين[139].

لكن بعد ذلك، وكان فصل الصيف قد انصرم نصفه، عقد ملكا قشتالة وأراغون مجلساً حربياً تدارسا فيه الوضع القائم، والذي قررا على ضوئه وضع مخيمهما بجوار آبلة وبالضبط في Palmera de Rio Frio، وهو مكان بالإضافة إلى مناخه الصحي المعتدل، يمكن انطلاقاً منه وبسهولة، تقديم النجدة للفصائل المحتمية من الخطر الموحدي بالمدن والقلاع الواقعة جنوب وادي الرملة و"كريدوس" Gredos، وفي نفس الوقت إيقاف تهديدات الليونيين ومنعهم من القيام بأعمال النهب والتخريب على هواهم.

الانسحاب الموحدي والهجوم القشتالي على ليون

لقد أرغم رد الفعل القشتالي-الأراغوني، والحرارة المفرطة التي كانت تعرفها المنطقة إبان فصل الصيف ذاك، ثم مشكل التموين الذي كان يعاني منه الموحدون دائماً عندما يتعلق الأمر بعمليات حربية طويلة الأمد، أرغم يعقوب المنصور على إنهاء الحملة في منتصف شهر يوليو، وكانت قد مرت ثلاثة أشهر على انطلاقها. والحقيقة أن الخليفة لم يتمكن خلالها من الدخول في مواجهة جديدة مع أعدائه ولا تحقيق انتصار حاسم شبيه بانتصار الأرك، بل كان كل ما حققه هو تكبيد العدو الخسائر المادية الفادحة وأسر أفراد من قواته. وأثناء انسحابه، وعلى بعد مسيرة يوم واحد من طليطلة، هاجم قلعة دار الكَارة ثم قلعة "بيدرا بوينا" Piedrabuena، الواقعة على بعد 20 كلم شمال غرب الأرك، والتي لم يصلها خلال غاراته التي أعقبت معركة الأرك. وفي مطلع شهر غشت، عاد إلى اشبيلية من جديد حيث كتب في السادس منه (9 رمضان) إلى أهل فاس وسلطاتها، رسالة رسمية يخبرهم من خلالها بما جرى في الحملة.

ولما علم ألفونسو الثامن وبيدرو الثاني بانسحاب الموحدين، رفعا مخيمهما وقصدا مملكة ليون في نفس الوقت أرسلا القائد "فرناندو رودريكيث البراثين" Fernando Rodriguez Albarracin على رأس فيلق مهم للحاق بملك ليون داخل تراب مملكة قشتالة واحتجازه بها قبل أن يعود إلى بلاده ويحتمي

139- Cronica de Avila. Publicada por Gomez Moreno. Bol, Ac. Historia, 1943.

بقلاعها، غير أن هذا الأخير والذي علم قبلهما بانسحاب الخليفة الموحدي، تنبأ بالهجوم القشتالي- الأراغوني وعاد بسرعة إلى بلاده دون أن يتمكن "فرناندو رودريكيث البراثين" من اللحاق به، رغم أنه تعقبه إلى غاية الحدود الليونية التي قصدها كذلك ملكا قشتالة وأرغون، حيث التقيا بقائدهما هناك، وكانا أثناء تقدمهما يقومان مع قواتهما بنهب وتخريب كل ما يجدانه أمامهما. وأمام غياب أية مقاومة، توغلا في تراب مملكة ليون إلى أن وصلا إلى "بولانيوس" و"بيالون". في تلك الأثناء خرج على رأس قواته ضدهما حاكم مدينة "بنابينتي" Benavente الكونط "دون فرناندو دي كابريرا" Don Fernando de Cabrera، حيث تمركز بـ"كاسترو بيردي" Castroverde في محاولة منه قطع الطريق عليهما، غير أنهما نجحا في محاصرته بها، وبعد استيلائهما عليها، أسراه وعددا من النبلاء الموجودين ضمن قواته، قبل أن يواصلا زحفهما داخل مملكة ليون. وبعد استيلائهما على "كاسترو كونثالو" Castro Gonzalo اتجها إلى "بنابينتي" التي كان ملك ليون قد احتمى بحصونها رفقة قوات مسيحية ومسلمة، حيث اكتفى بالدفاع عنها دون الخروج للمواجهة. وأمام عدم تمكنهما من احتلالها، عرجا نحو الشمال واحتلا "بلنسية دي دون خوان" Valencia de don Juan [140] و"أردون" Ardon. آنذاك أصبح عليهما الخيار بين أخذ طريق مدينة ليون (عاصمة المملكة) وطريق مدينة أستورغة Astorga، وقد آثرا التوجه إلى هذه الأخيرة والتي قصداها بعد عبورهما لنهر "أوربيغو" Orbigo. وفي الوقت الذي كان فيه السواد الأعظم من قواتهما يحاصرها، اكتسحت بعض فيالقهما بقية أنحاء المنطقة، بحيث وصلت إلى غاية "ربل دي كامينو" Rabal de Camino و"بيرثو" Bierzo واللتين نشرت فيهما الرعب، وبذلك انتقمت من مملكة ليون وما أحدثته قواتها من خراب بقشتالة شهرا واحدا إلى الوراء.

وقد تمت حملة ملكي قشتالة وأرغون التأديبية هذه في وقت وجيز جداً، بحيث انسحبا من مملكة ليون في فاتح غشت، وهو ما يعني أن حملتهما استغرقت ما بين أسبوعين وثلاثة أسابيع. ومما يؤكد هذا الاحتمال، وجود يعقوب المنصور في دار الكَارة و"بييدرا بوينا" Piedrabuena الواقعتين بمملكة قشتالة خلال النصف الثاني من يوليو، وهو ما يعني ضمنياً أنهما لم يكونا ليتجرآ على القيام بالحملة، مع وجوده هو في التراب القشتالي.

وأثناء مرورهما بجوار العاصمة، استوليا على "قلعة اليهود" التي قاومت هجومهما لمدة ثلاثة أيام، وكانت توجد على نهر "توريو" Torio بجوار القنطرة المؤدية إلى العاصمة[141]. وفي التاسع من غشت وبعد أن قاما بتحصينها، عادا مباشرة إلى قشتالة على رأس قواتهما وكانا محملين بالغنائم.

140- كانت تعرف في ذلك الوقت باسم "قوينثة" Goyanza.

141- حسب La Cronica de José ben Zadic التي اعتمدها J-Gonzalez في دراسته المونغرافية عن ألفونسو التاسع، فإن المهاجمين حطموا الكنيس والدور التي كانت توجد بالقلعة كما أسروا من بها من رجال ونساء وأطفال.

هناك دليلان آخران على قصر مدة الحملة وانتهائها قبل متم غشت، أولهما أن ألفونسو التاسع انتقل قبل هذا التاريخ وبعد زوال الخطر الذي يتهدد مملكته إلى جنوبها، حيث نجده ما بين 12 و18 غشت في سلمنقة، وثانيهما أن بيدرو الثاني، والذي نعلم أن الاحتفالات بتتويجه ملكاً لأراغون تمت في "دقورة" Dacora خلال شهر سبتمبر، كان عليه الرجوع إلى مملكته قبل ذلك للقيام بالاستعدادات التي تتطلبها المناسبة.

الحملة ضد طليطلة ومجريط ووادي الحجارة
التنكيل بابن رشد

وخلال فصل الشتاء، وبعد أن أنزل قواته في الثكنات، قام الخليفة بعملية تفتيش صارمة أهمت الموظفين القائمين على الأملاك العامة، وقد انتهت التحريات بعزل عدد من الذين ثبت تورطهم، وتعيين آخرين مكانهم. وعندما حل فصل الربيع، استدعى قواته من جديد، وإثر تجهيزها بالعتاد الحربي اللازم، غادر على رأسها اشبيلية قاصداً قرطبة، وكان ذلك يوم الاثنين 14 أبريل. وبما أن الموسم الفلاحي كان جيداً تلك السنة، فقد مكث بقرطبة ينتظر حلول موسم الحصاد[142]، وفي نفس الوقت يستمع إلى الاتهامات الموجهة لابن رشد من طرف أهل المدينة، خصوصاً الفقهاء الذين اعتبروه مبتدعاً. وبما أن الخليفة اقتنع بأدلة هؤلاء فقد أمر بسجنه وتفريق تلامذته[143].

ومن قرطبة قصد طلبيرة. ولما علم ألفونسو الثامن أنه دخل الأراضي المسيحية، أرسل بمبعوثيه يقترحون على الخليفة توقيع هدنة، غير أنه طردهم مهانين، قائلاً لهم إن كل ما بقي أمامهم هو انتظار سيوف وسهام قواته. إثر ذلك واصل تقدمه، وبعد هجوم غير حاسم على مقيدة، قصد طليطلة التي لم يتوقف عندها إلا وقتا وجيزا قام خلاله بنهب وتخريب ضواحيها، آنذاك ومع علمه بالتقاء ملك قشتالة من جديد بملك أراغون في مجريط، قصد هذه الأخيرة بغاية الدخول في مواجهة معهما[144]. وقد قام مباشرة بعد وصوله بمحاصرتها لعدة أيام، غير أن الملكين المسيحيين كانا قد غادراها نحو منطقة وادي الرملة الجبلية، تاركين هناك "دييغو لوبيث دي هارو" الذي دافع

142- البيان المغرب، م. س.، ص. 226.

143- لما عاد إلى مراكش، وبعيداً عن تأثير من وجه الاتهام، أصدر عفواً في حقه واستدعاه إلى العاصمة، البيان المغرب، م. س.، ص. 226.

144- نفسه، ص. 227.

عنها باستماتة معتمداً في ذلك على حامية مكونة من النبلاء والعامة[145]. وبعد فشل المنصور في الاستيلاء عليها، اتجه نحو "قلعة النهر" ومنها إلى وادي الحجارة. وبسبب ما قام به من أعمال السلب والنهب والتدمير، تحولت الأراضي التي مر بها إلى خراب. وعلى غرار مجريط قاومت مدينة وادي الحجارة الهجوم الموحدي باستماتة، أكثر من ذلك، استغلت حاميتها قيام الموحدين ببعض الهجمات العشوائية في المنطقة، لتباغت مخيمهم الذي لم يكن به غير المكلفين بالحراسة، والذين لم نجد صعوبة كبيرة في هزمهم والسطو على ما كان في المخيم من غنائم[146].

وفي اليوم الموالي تظاهر يعقوب المنصور أنه ينوي فرض حصار جديد على وادي الحجارة، لكنه عقب خروج مبعوثيه محملين بالرسائل التي كتبها إلى القائمين على مختلف ولايات مملكته يخبرهم بالنجاح الذي حققته الحملة، رفع مخيمه وأخذ طريق العودة عبر "الركون" و"قونقة" و"إقليش" و"وبذة"، وبعد اجتيازه لسلسلة جبال الكرص، واصل السير على امتداد الوادي الكبير إلى أن وصل إلى جيان ومنها إلى قرطبة التي حل بها يوم 15 غشت، ثم إلى اشبيلية التي دخلها في 19 من نفس الشهر. وقد استغرقت المدة التي قضاها خارج عاصمة الأندلس أربعة أشهر، لكن لم يقضها كلها في الحملة، ذلك لأن انتظاره في قرطبة حلول موسم الحصاد لجمع المحاصيل، وانشغاله بقضية ابن رشد، أخذا جزءاً لا بأس به من المدة المذكورة، وهو ما يعني أن حملة تلك السنة لم تكن أطول زمنياً من حملة السنة التي سبقتها.

صراع قشتالة ضد ليون والبرتغال

وكما كان الشأن في حملة السنة الفارطة، لم يجرؤ ملكا قشتالة وليون على القيام بأي رد فعل حاسم ضد الغارات التي قام بها الموحدون خلال حملة هذه السنة. ويقول البيان المغرب إن ألفونسو وبعد أن تخلى عنه أتباعه انسحب إلى المناطق الجبلية، والتي لن تكون، في نظرنا، غير سلسلة جبال "وادي الرملة"؛ على اعتبار أنها الوحيدة التي توجد بالمنطقة. ومع ذلك فإننا لا نستطيع أن نؤكد هل مر هذه السنة، وكما فعل في السنة الفارطة، بـ"فيافي آبلة".

وفي الوقت الذي كان يعقوب المنصور يكتسح فيه أراضي قشتالة، نجح ملك ليون في استعادة "قلعة اليهود"، غير أننا لا نعرف هل توغل هو الآخر في أراضي قشتالة وهل تلقى من أجل تحقيق

145- Op. Cit., Cronica Latina. P. 49.

146- البيان المغرب، م. س.، ص. 227.

تلك الغاية مساعدة من الموحدين، وإن كنا نشكك في إمكانية قيامه بذلك، على اعتبار أنه كان في وضعية حرجة تجعل عملية الدفاع أمراً صعباً فبالأحرى القيام بالهجوم.

وفي سنتي 1196م-1197م وبسبب الشكاوى التي كان يتلقاها البابا "ثليستينو" Celeste الثالث من طرف ملك قشتالة وأساقفتها عقب الحملة الموحدية-الليونية، أصدر فتوى كفر فيها ألفونسو التاسع وتابعه "بيدرو فرنانديث دي كاسترو"، ورخص لرئيس أساقفة طليطلة ليصدر بياناً يجيز فيه إعلان الحرب على مملكة ليون، وكأن الأمر يتعلق ببلد الكفار، في نفس الوقت قام هو شخصياً بإلغاء رابطة الولاء التي يدين بها رعايا مملكة ليون لملكهم.

ولم تتوقف قرارات البابا عند هذا الحد، بل إنه وعد البرتغاليين في أبريل 1197م -قبيل انطلاق حملة يعقوب المنصور الثانية- إذا ما أعلنوا الحرب على ألفونسو التاسع، ببراءة بابوية تجعلهم ينعمون بنفس الرضى الرباني الذي يناله الصليبيون الذين كانوا يذهبون للقتال في بيت المقدس. ولينالوا ذلك، قام البرتغاليون وعلى غرار القشتاليين بمهاجمة ليون من جهة جليقية، واحتل ملكهم سانشو الأول مباشرة بعد مغادرته لقلمرية كلا من "توي" Tuy و"بونتيبيدرا" Pontevedra [147].

وعقب انسحاب الخليفة إثر حملته الثانية، عاد القشتاليون والأراغونيون لغزو أراضي ليون انطلاقاً من "كاسترو بيردي" Castroverde التي يحتمل أنهم احتفظوا بها من غزوتهم الأولى لليون، وبما أنهم اكتسحوا خلال هذه الغزوة الأولى المناطق الشمالية من ليون، فإنهم سلكوا خلال الغزوة الثانية الطريق الجنوبي، وبعد احتلالهم "ألبا دي ليستي" Alba de Liste ، نزلوا عبر نهر "دويرة" مروراً بسمورة ونورو، حيث نهبوا "قريتي "الكاربيو" El Carpio و"براديناس دي سان خوان" Paradinas de San Juan، ومن هناك انتقلوا إلى منطقتي "شلمنكة" و"ألبة دي تورمس" قبل احتلالهم لحصن "مونريال".

توقيع الهدنة

في هذه الأثناء، وبالضبط خلال شهر غشت، اتجه ألفونسو التاسع ملك ليون إلى اشبيلية بهدف إجراء محادثات مع يعقوب المنصور ومحاولة إقناعه بمده بمساعدات جديدة تسمح له بمواجهة الغزاة، غير أن أمير المؤمنين وبسبب توقيعه هدنة مع ألفونسو الثامن إثر انسحابه من

147- Op. Cit., Historia de Portugal. T. III. P. 228 .

قشتالة، لم يقدم له ما كان يرغب فيه. في ظل هذه الوضعية الجديدة، وأمام حالة اليأس التي أصبح يحس بها، لم يجد ملك ليون بداً من الخروج ضد أعدائه الذين اعترض طريقهم بمنطقة "البة دي تورمس"، في وقت أصبحت كل القرائن تؤكد أن معركة حامية الوطيس على وشك الوقوع. وقد سعى النبلاء الموجودون في المعسكرين، بمن فيهم "بيدرو فرنانديث دي كاسترو" الذي كان متيقناً من هزيمة ملك ليون، للحيلولة دون وقوع المعركة، وطلبوا من ملكة قشتالة "دونيا ليونور" Dona Leonor القيام بوساطة من أجل توقيع الهدنة، وحتى يتحقق ذلك اقترحت زواج ابنتها "برنكويلا" Berenguela بملك ليون.

إن الشروط التي أملاها ألفونسو الثامن بمقتضى هذا الزواج، ثم هدنة العشر سنوات التي وقعها مع المنصور قبل عودة هذا الأخير إلى المغرب، جعلته طليق اليدين، وفي نفس الوقت سمحت له بتوجيه كل اهتمامه للنزاع الذي كان له مع مملكة نبرة التي أراد تحسيسها بمدى فوته، إثر مهاجمتها عام 1198م وخصوصاً سنة 1199م (بعد وفاة يعقوب المنصور)، حيث حاصر مدينة "بيتوريا" حصاراً استمر مدة طويلة وانتهى باحتلالها عام 1200م. وقد سمح هذا الانتصار لألفونسو بنسيان هزيمة الأرك، لكن ليس نسياناً تاماً، ذلك لأنه استغل هدنة العشر سنوات سالفة الذكر، للاستعداد بشكل جيد لمعركة تسمح بالانتقام من الموحدين وبمحو أثر الهزيمة بشكل نهائي.

أما بالنسبة ليعقوب المنصور، فإنه توجه بعد الانسحاب من أراضي قشتالة، إلى قرطبة، للاحتفال بليلة القدر وختم تلاوة القرآن، بعد ذلك قصد اشبيلية التي حل بها في فاتح شوال (19 غشت) كما مر بنا، حيث قضى ما تبقى من الصيف في إنهاء أشغال البناء بمسجدها وفي أعمال البر وعلى رأسها تقديم الصدقات للفقراء والمحتاجين. بعد ذلك انتقل إلى حصن الفرج، مكان إقامته المفضل والذي كان يحب كثيراً موقعه وهواءه النقي، وقد بقي به طيلة فصل الخريف ومعظم فصل الشتاء، ولم يعد وحاشيته إلى اشبيلية من جديد إلا في منتصف فبراير، حيث بقي ما يزيد عن شهر، خصصه للإجراءات المتعلقة بالسفر إلى المغرب.

في هذه الأثناء، ولم يكونا قد وقعا بعد الهدنة بينهما، قام ملكا قشتالة وليون، كل لحسابه، بالتفاوض مع يعقوب المنصور، وقد حل ألفونسو التاسع شخصياً باشبيلية لطلب مساعدة المنصور، كما سلف ذكره، في حين أرسل ألفونسو الثامن بسفارة جديدة إلى عاصمة الأندلس الموحدية تلخصت مهمتها في إقناع يعقوب المنصور بتوقيع الهدنة، وهو ما نجحت فيه، خصوصاً

وأن الخليفة كان يريد العودة إلى المغرب وهو مرتاح البال. وقبل مغادرته الأندلس، أعاد تنظيم القوات المكلفة بالدفاع عنها. وكانت مغادرته لاشبيلية في العشرية الثانية من جمادى الأولى (ما بين 20 و30 مارس 1198م)، حيث عبر المضيق في فاتح جمادى الثانية (10 أبريل) قاصداً فاس التي قضى بها عشرين يوماً قبل أن ينتقل إلى عاصمة ملكه[148].

عودة الخليفة مريضاً إلى عاصمة ملكه
آخر المنجزات التي قام بها

عاد الخليفة إلى عاصمة ملكه وقد بدت عليه علامات المرض والإنهاك الناجمين عن الحملات طويلة الأمد التي قام بها، وهكذا بعد أن زكى ابنه الناصر على ولاية العهد، انسحب من الحياة العامة مخصصاً وقته للتعبد ولأعمال البر والإحسان، ومن جملة ما قام به في هذا الاتجاه بعد شهور قليلة من رجوعه من الأندلس، وكانت قد حلت سنة 595هـ (يوافق اليوم الأول منها 3 نوفمبر 1198م واليوم الأخير 23 أكتوبر 1199م)، إصدار أمر بتختين من لم يختن بعد من أطفال مراكش، ووضع دينار ذهبي ودرهم فضي وفاكهة في يد كل واحد منهم، وكانت الغاية من منحهم النقود تغطية نفقات العلاج، أما الغاية من منحهم الفاكهة، فهو الانشغال بها عن ألم الختانة[149].

ومن منجزاته الخيرية الأخرى، إنشاء مارستان فريد من نوعه في مراكش أنفق على بنائه بسخاء وجهزه بما يلزمه من معدات، ولا نعرف بالضبط تاريخ تدشين هذا المارستان، والذي كان يعقوب المنصور أثناء وجوده بمراكش يزوره كل جمعة ليراقب عن كثب كيف تسير أموره، وقد حافظ على هذا التقليد إلى غاية وفاته.

وقبل أن توافيه المنية عام 595هـ، قدم دليلاً آخر على صرامته الدينية، وكان هذه المرة على حساب اليهود، فهؤلاء تأزمت وضعيتهم كثيراً منذ قيام الدولة الموحدية، حيث أصبحوا أمام ثلاثة

148- البيان المغرب، م. س.، ص. 228.

149- يشير ابن عذاري إلى أن المصاريف التي أنفقها في هذه المناسبة وصلت إلى مليون دينار، وهو رقم مبالغ فيه لا محالة،
ومما ورد عنده في هذا السياق: « *وفي سنة خمس وتسعين وخمس مِاية أمر المنصور بإعذار الأطفال بمراكش* وان يجعل
في يد كل واحد منهم *دينارا من ذهب ودرهما من فضة وحبة من الفاكهة الخضراء، ليشغل بها الطفل عن* الم ويصرف
الدينار في مداواته، *فكان يذهب في ذلك فوق الألف ألف ما بين ذهب وفضة*» م. س.، ص. 228 . ويقول صاحب المعجب
في نفس الاتجاه، وهو أقرب إلى التصديق هنا، إنه مع بداية كل شهر رمضان كانت تقدم للخليفة لائحة بأسماء اليتامى
وغيرهم من المشردين والمهملين والذين يجمعون في مكان مجاور للقصر، وبعد تختينهم يمنح كل طفل كسوة وقطعة خبز
ورمانة، وكان يضاف على ذلك أحياناً درهمان من السكة الجديدة، م. س.، ص. 228.

خيارات هي: اعتناق الإسلام أو المنفى أوالمقصلة. وقد سمح للذين قبلوا منهم اعتناق الإسلام والمكوث في المغرب، خلع اللباس الذي كان يميزهم وارتداء لباس المسلمين، كما أنهم أصبحوا يؤمون المساجد وحفظ أبناؤهم القرآن، ولم يعودوا -على الأقل من الناحية الظاهرية- يتميزون عن المسلمين في شيء. غير أن يعقوب المنصور والذي كان يشك في حسن إسلامهم[150]، أجبرهم على ارتداء الشكلة[151]، وعلى تعويض العمامة بقلنسوة مشوه شكلها شبيهة بالبردعة، كانت تغطي بالإضافة إلى الرأس، الأذنين. ولم ينجحوا في التخلص من هذا اللباس الغريب إلا على عهد الناصر، وذلك بعد دفعهم لهبات مالية مرتفعة[152].

إحساس يعقوب المنصور بتأنيب الضمير

عانى المنصور خلال أيامه الأخيرة وبشكل مستمر، من حالة تأنيب الضمير بسبب إعدامه لأخيه وعمه، وكان يشاهد فيما يرى النائم والده يتوسطهما وهو يخاطبه قائلاً: «إنك ميت *وإنهم* ميتون، ثم *إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون*»[153]. وبسبب الأثر الذي تركه هذا الحلم في نفسه، استدعى أبناءه الخمسة عشر وأخبرهم به، وكان أثناء قيامه بذلك يبكي بمرارة والندم يمزق كيانه، وهو ما أثر فيهم كثيرا. وبعد استعادته لبعض توازنه، استدعى عجوزين من نساء البلاط وأرسلهما لزيارة زوجة عمه وأم أخيه ليطلبا له الصفح منهما ويترجيانهما تخليصه من دين الدم الذي لهما عنده. وقد رفضت الأولى استقبالهما وأمرت خدمها بطردهما، في حين سامحته الثانية بكل شهامة، وللتعبير عن امتنانه، عين أخاها عاملاً على فاس ثم على مالقة التي تولى أمورها طيلة ثلاثين سنة وإلى غاية وفاته، ذلك لأن يعقوب المنصور أوصى به ابنه الناصر وطلب منه أن يوصي به خلفاءه من بعده[154].

150- كان يقول حسب صاحب المعجب: « *لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم، ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئا للمسلمين ولكنني متردد في أمرهم*». م. س.، ص. 435.

151- هو لباس أزرق داكن طويل الكمين بشكل مبالغ فيه بحيث يصلان إلى القدمين تقريباً.

152- حول الشكلة ولونها الأزرق الداكن، انظر دوزي، Suplement aux dics arabe. T.I. P. 588 والمعجب، وتاريخ الدولتين.

153- البيان المغرب، م. س.، ص. 229.

154- المصدر الوحيد الذي يتحدث عن حالة تأنيب الضمير عند المنصور هو البيان المغرب، الذي يحاول أن يخفف من مأساوية تصرف المنصور باعدامه لأخيه وعمه، عندما يشير أن كثيرين هم سلاطين المسلمين تصرفوا بنفس الطريقة. م. س.، ص. 229-230.

وقد وصل تأنيب الضمير الذي سببه له ذلك الحلم، إلى حد فكر معه في التنازل عن العرش والتوجه كلياً إلى التعبد وإلى أعمال البر والإحسان. ومما زاد حالته تأزماً أنه وعند عودته من الأندلس على إثر معركة الأرك، وفي الوقت الذي أقام به مخيمه بجبل إيجليز[155]، انتابته الوساوس حول من له حقوق ملكية الأراضي التي شيدت عليها مراكش، وبعد أن علم من شيوخ مصمودة أن نصف هذه الأراضي كانت تمتلكها قبيلة جيلانة والنصف الباقي قبيلة هزميرة، رفض دخول المدينة قبل استدعاء أصحابها وتعويضهم عنها.

وصية يعقوب المنصور

وعندما أحس بدنو أجله، استدعى إلى قصره الجديد بالصالحة كبار شيوخ الموحدين وكذا خاصته من الأقارب والمساعدين وألقى فيهم الخطاب-الوصية الذي ذاع وانتشر بعد ذلك في كل ربوع بلاد المغرب[156].

وقد مجد في بداية الخطاب العقيدة والسلطة الموحديتين وأتباعهما، ثم ذكر كيف أنه سار دائماً على نهج والده وجده اللذين حرصا دائماً على ضمان الأمن والاستقرار وتطبيق الشريعة واحترام الهدن والأحلاف الموقعة مع الغير. بعد ذلك وبعينين مغرورقتين بالدموع ومركزتين على كل الحاضرين قال: «*أيها الناس رحمكم الله إن هذه العلل والأمراض قد توالت علينا وهدت قوانا وهتكت جوارحنا وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة آخر عهدنا بهذه الدنيا وأنها القاضية علينا فانظروا رحمكم الله وأعانكم على طاعته من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين*»[157].

عندها بدأ الحضور بالبكاء والنحيب، قبل أن يأخذ الكلمة باسمهم جميعاً الشيخ أبو موسى ابن محمد بن أبي حفص بن علي الذي ذكر الخليفة بأنه سبق وأن جعلهم يعترفون بابنه محمد الناصر ولياً للعهد، وأنهم أدوا القسم من أجل ذلك، لذا ليس هناك من خيار غير تزكية ما أقسموا عليه، وأضاف أنهم يستغربون من السؤال الذي يطرحه عليهم، وقد زكى عدد من الحضور كلام الشيخ أبي موسى. وبعد أن استمع الخليفة إليهم، خاطبهم من جديد قائلاً: «*كل ما ذكرتكم سمعنا*

155- اصبح اليوم يعرف باسم كيليز، ويوجد عند قدمه الحي الأوروبي بمراكش.

156- البيان المغرب، م. س.، ص.230. إن لهذا الخطاب الوصية أهمية كبيرة في نظرنا، لأنه يعطينا فكرة عن حنكة المنصور ودهائه السياسي، ويشير ابن خلدون إلى أن هذا الخطاب اشتهر بين الناس والذين اعتادوا تذكره. وباستثناء البيان المغرب والذي يتحدث عنه بشكل مفصل، فان بقية المصادر تكتفي بالإشارة إليه بشكل مقتضب.

157- نفسه، ص. 230.

ولكن ما شغل نفوسنا شيء سوى صغر سنه ولله ما خفي وللناس ما ظهر وإذا وافقتم على ما ذكرتم فادعوا الله تعالى باليمن والإقبال والتوفيق فيما ادعيتم وعليه عولتم والله تعالى يعينكم ويعينه بكم لا رب سواه وإذا كان بعون الله تعالى فلا تتركوه لرأيه حتى يتنبه ويظهر ويكمل عقله»[158].

بعد ذلك وجه نظره نحو السيدين أبي الحسن وأبي زيد قائلاً[159]: «إن هذين الرجلين لخير هذه البينة كنا قدمناهما على إخواننا[160] وعلى بلادنا فليكونا على ما عهدناهما عليه وما ربطنا لهما في حياتنا. ثم قال رضي الله عنه: هذا الرجل أبو الغمر[161] هو من عقلاء الناس وأتمهم صيانة وعفافا وقد انقطع الينا وعول علينا فلتكونوا له أعوانا وأنصارا وكذلك الرجل عنا الحاضر في نفوسنا محمد بن إسحاق[162] غرضنا فيه أن تجروه على السنن الذي أجريناه وتحفظوا جانبه وتوفوه حق انقطاعه إلينا حتى يظهر عليه بركة انحياشه إلى هذا الأمر وإياكم والتفريط وإياكم والتفريط في هذين الرجلين، ثم قال رضي الله عنه بعد أن أطرق ساعة وعيناه تذرفان دموعا وقال أوصيكم بتقوى الله تعالى وبالأيتام واليتيمة فقال الشيخ أبو محمد عبد الواحد يا سيدنا يا أمير المؤمنين ومن الأيتام واليتيمة قال اليتيمة جزيرة الأندلس والأيتام سكانها المسلمون وإياكم والغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعيتها، ولتعلموا أعزكم الله أنه ليس في نفوسنا أعظم من همها ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى وحسن نظركم فيها فانظروا من المسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها. ثم قال رضي الله عنه: وهؤلاء الأغزاز أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا لأن الموحدين لهم سهام يرجعون إليها وليس للأغزاز سهام».

وقد أوصى كذلك بالعرب الذين يوجدون في خدمته لتتم العناية بهم، وكذا ليتم إشراكهم في الحملات العسكرية حتى لا يستطيبوا الراحة والكسل، كما طلب أن يخصص مكان لدراسة

158- نفسه، ص.231.

159- كان السيد أبو زيد كما مر بنا، وهو حفيد عبد المومن أكثر المتحمسين لبيعة المنصور على غرار والده أبي حفص عمر والذي لعب دوراً أساسياً في بيعة يوسف الأول، وقد شغل أبو زيد هذا مناصب سياسية وعسكرية مهمة من بينها منصب والي افريقية. أما أخوه أبو الحسن فقد ناب عن المنصور بمراكش عندما رحل هذا الأخير في حملته إلى إفريقية ضد ابن غانية، وقد أشرف آنذاك على إتمام أشغال البناء بالصالحة.

160- كان المنصور يتوفر على الأدلة الكافية التي تجعله يشك في وفاء اقاربه لذا طلب من كبار شيوخ الموحدين، الا يولوا أياً منهم مناصب المسؤولية.

161- يتعلق الأمر بابن أو حفيد أبي الغمر بن عزون سيد روندة، والذي استولى بمساعدة أخيه أبي العلاء على شيريس. وبعد محاصرته عام 540هـ (1145م) من طرف براز، خضع للموحدين وأصبح من رجالهم الأوفياء.

162- خلف والده اسحاق بن غانية على عرش ميورقة، لكن اخوته قاموا بعزله بسبب انضمامه للموحدين، كما مر بنا، وقد عينه هؤلاء فيما بعد عاملاً على دينية.

ونقاش طلبة العاصمة، في نفس الوقت نوه بحسن سيرة قاضي القضاة أبي القاسم بن بقي[163]، وطلب أن يحتفظ به في منصبه، وهو ما طلبه كذلك للوزير عبد الرحمن بن يوجان[164]، والذي كان مقتنعاً بكفاءته ونزاهته في تسيير الشؤون المالية للمملكة أكثر من أي شخص آخر.

بعد ذلك قام باستعراض القبائل الموحدية الواحدة تلو الأخرى، حيث وجه النصح لها ولقادتها، وأخيراً وجه نظراته إلى القواد والشيوخ والذين خاطبهم قائلاً: «*ترانا نذهب عنكم إلى البقاء ونترككم في دار الفناء وقد أزلنا عن أعناقنا وجعلنا في أعناقكم هذه القلادة نطلبكم بها بين يدي الله تعالى فانظروا من المسلمين وأجروا الشرائع على منهاجها ومشوا أوامر الله سبحانه وسنة نبيه محمد ﷺ*». إثرها توجه بالدعاء إلى الله ليكون للحاضرين سنداً، وقد انسحب هؤلاء عقب ذلك وكانت آخر مرة يرونه فيها على قيد الحياة[165].

لقد عمدت للتطرق بنوع من التفصيل لهذا الخطاب ونشر فقرات منه، أولاً لأنه لم ينشر بعد، وثانياً لأنه يبين بُعد نظر يعقوب المنصور الذي لم يفارقه حتى وهو على فراش الموت، بحيث إنه يقدم التوجيهات المتعلقة بتسيير الشؤون الإدارية للإمبراطورية بعد مماته، وهي الشؤون التي كان يراقبها شخصياً في حياته، وكان انشغاله بها في ذلك الظرف الحساس، ناجما عن تخوفه مما ستؤول إليه البلاد في وقت لازال ابنه وخلفه الناصر قاصراً. ويسمح لنا الخطاب كذلك بأخذ فكرة عن التقدير الذي كان يكنه لابني عمه أبي حفص ولأبناء الشيخ عمر ينتي، بخلاف بقية إخوته وأقاربه والذين كانت ثقته بهم محدودة.

ومما نسجله في الخطاب، غياب أية إشارة للمهدي وعقيدته، وهو ما يؤكد، وإن بشكل غير مباشر، ما أشيع عنه من عدم إيمانه بعقيدة المهدي وما كان ينسب إليه من خوارق العادات. كما نسجل

163- هو أبو القاسم بن أبي الوليد بن بقي بن مخلد، والذي ترك المالكية ليعتنق المذهب الظاهري الذي أسسه ابن حزم، وهو ما جعله يحظى بعناية خاصة من طرف المنصور. ويقول صاحب المعجب إنه بعد أن عينه قاضي القضاة، جعله يصدر الأحكام في مكان لا يفصله عنه إلا ستار من خشب، حتى يتمكن من الاستماع إلى تلك الأحكام.

164- سنتطرق في الفصول اللاحقة لمغامراته خلال المرحلة الموالية لعصر المنصور. يسميه صاحب روض القرطاس بالأصفر (الشاحب)، ويقول عنه إنه كان أحد دهاة الموحدين. ويضيف -وفي تناقض صارخ مع ما جاء في وصية المنصور- أن هذا الأخير كلما رآه كان يتطير منه. ويطلب من الله أن يقيه لعنته.

165- يرجح البيان المغرب أن وفاته كانت في ليلة الجمعة 12 ربيع الأول، غير أن يوم 12 لا يوافق الجمعة وإنما الاثنين، لذا اعتقد وكما يستنتج من تاريخ بيعة ابنه الناصر، أن وفاته كانت يوم 22، وهذا ما يؤكده كذلك الشريف الغرناطي في شرحه لقصيدة القرطاجني عندما يقول إنه توفي ليلة الخميس 22. البيان المغرب، م. س.، ص. 234.

وبخلاف الاهتمام الذي أبداه بالأندلس ومستقبلها، تحاشيه الحديث عن إفريقية، في وقت كان بنو غانية لازالوا يخلقون بها العديد من المشاكل للسلطة الموحدية.

ومن شبه المؤكد أن وفاته حدثت يوم الخميس 22 ربيع الأول 595هـ (22 يناير 1199م)، وقد بقيت طي الكتمان في البداية إذ دفن بشكل مؤقت في بهو قصره قبل أن ينقل جثمانه إلى تنملل، حيث ووري الثرى بجوار والده وجده والمهدي. والجدير بالذكر هنا أن العامة خدعت في وفاته، لأن انبهارها بخصاله وانتصاراته جعلها تعتقد تارة أنه اعتزل الدنيا واعتكف في أحد رباطات الأندلس شأن أي مجاهد زاهد، وتارة أخرى أنه رحل إلى المشرق لأداء مناسك الحج. هذا الاعتقاد الأخير ساد بالخصوص بين المشارقة، لدرجة أصبحوا يؤكدون معها أن ضريحه يوجد في سوريا[166].

بُعد بصيرة يعقوب المنصور ومعتقداته

كان يعقوب المنصور رجلاً مؤمناً، حرص على الجهاد وحاول السير على خطى الخلفاء الراشدين، وكان يؤم الناس في المساجد ويبث بنفسه في الخصومات التي تقع بين رعاياه ويراقب بدقة الأمور المالية للبلاد، وقد اكتسب تجربة في شؤون الحكم على عهد والده حيث شغل منصب وزير ما بين 577هـ (سنة التنكيل ببني جامع) و580هـ (سنة مبايعته إثر كارثة شنترين). وإذا كانت انشغالاته الكثيرة قد أجبرته على التخلي عن إمامة الناس في المساجد وعن البث شخصياً في الدعاوى المرفوعة إليه، فإنه حافظ بكل حزم على مراقبة تصرفات كبار الموظفين؛ وقام في هذا الإطار بوضع حد للكثير من التجاوزات ومعاقبة من يرتكبها، كما أصدر فتاوى صادق عليها الفقهاء.

وقد وصل حرصه على وضع حد لتجاوزات كبار الموظفين لدرجة كان يستقبل معها شهرياً في العاصمة المراقبين وشيوخ القبائل، ليعرف منهم مدى احترام المسؤولين في المناطق التي قدموا منها، للقوانين ولأسعار المنتوجات الفلاحية وغيرها. وكان أول ما يقوم به أثناء الاستقبال هو طلب تقارير مفصلة عن سيرة هؤلاء المسؤولين.

من جهة أخرى، كانت رغبته في الحفاظ على سلطته الشخصية وتركها بعيدة عن أي تهديد -بعد التجربة التي تعرض لها والده بل وهو كذلك في بداية عهده-، سبباً في ضربه وبصرامة على يد

166- عن الأساطير التي نسجت حول الأيام الأخيرة من حياة المنصور وكذا عن وفاته، انظر وفيات الأعيان لابن خلكان، ونفح الطيب للمقري (الجزء الثاني) والاستقصاء للناصري (الجزء الأول) وأطروحة سعد زغلول عبد الحميد. ويقول ابن عذاري بهذا الصدد: « *أخبرني الحاج ابن مرينة قال أخبرني بعض المشارقة في بلادهم أن قبر المنصور ملك المغرب في بلاد الشام*». (المترجم).

كل من تسول له نفسه التآمر عليه، وقد فاق في هذه الصرامة والده، ولم يتوان من أجل ذلك في إراقة دم أخيه وعمه وفي التنكيل بأقاربه وإهانة الكثير من الذين كان يشك في إخلاصهم.

إن سيره على خطى والده وجده في الورع وإكرام أهل العلم وأولياء الله، وحمله للقب أمير المؤمنين، لم يحل دون اهتمامه بجوانب أخرى لم يولها سلفه كبير عناية؛ فقد تأثر إلى حد كبير بأدباء الأندلس وفلاسفتها، وكان هذا التأثر سبباً في عدم إيمانه بعقيدة المهدي، وفي اعتباره أن التفكير الديني لجده عبد المومن، لم يكن يخلو من سذاجة مردها تسليمه بعصمة هذا الأخير. ومن الأدلة على عدم إيمانه بالعقيدة التومرتية، ما حدث عام 584هـ عند عودته من حملته على إفريقية؛ فقد كان يرافقه الغز الذين خضعوا له بقابس وقفصة، والذين قام معهم بزيارة تبركية لتمثل على غرار ما كان يفعل والده وجده. آنذاك وبعد أن رآهم بعض المسنين المقيمين هناك، تذكروا كلام المهدي لتلامذته عندما قال لهم إن من يعمر منهم طويلاً سوف يشهد جلوس أمراء مصر تحت شجرة الخروب يستظلون بها وهم يستمعون إليه، وقد ضحك يعقوب المنصور عندها من سذاجتهم وسرعة تصديقهم. في نفس السياق، أسر هو شخصياً لفقيه أندلسي من المرية يدعى أبا العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف، أنه لم يؤمن أبداً بالمهدي وبعصمته، وعاب على طالب من جيان أخبره أنه درس كتب ابن تومرت وعقيدته، وقال له إنه كان أولى به أن يدرس القرآن والسنة.

لقد تعرف يعقوب المنصور وبفضل ما أخذه عن علماء الأندلس، على مذهب ابن حزم الظاهري الذي أعجب به كثيراً، مثلما أعجب به في وقت ما ابن تومرت، وذلك بسبب رفض هذا المذهب للتقليد ورجوعه مباشرة للقرآن وأخذه منه أحكام الشريعة، اعتماداً على مدلوله اللغوي وليس على الرأي والقياس. لكن بخلاف ابن تومرت الذي قام بقراءة الموطأ وشرحه، واعتبر الأحاديث المدنية المروية عن الإمام مالك أهم مصادر السنة، وهو ما لم يجرؤ على رفضه عبد المومن ولا ابنه يوسف، خصوصاً مع وعيهما بأن المذهب المالكي هو مذهب أهل المغرب بالإجماع، بخلاف ذلك، أعلن يعقوب المنصور الحرب على هذا المذهب ومنع دراسة كتب الفقه والفروع، وأمر بإحراق بعضها مثل المدونة والنوادر. في المقابل، وبسبب تأثره اللامحدود بالمذهب الظاهري، اعتبر كتابات ابن حزم المرجعية الأساسية التي يجب أن يعتمدها كل علماء الدين. وقد استخرج من هذه الكتابات استنتاجات عقائدية جديدة[167]، وحظر كل اجتهاد لا يتقيد بالمعنى الحرفي للقرآن والسنة.

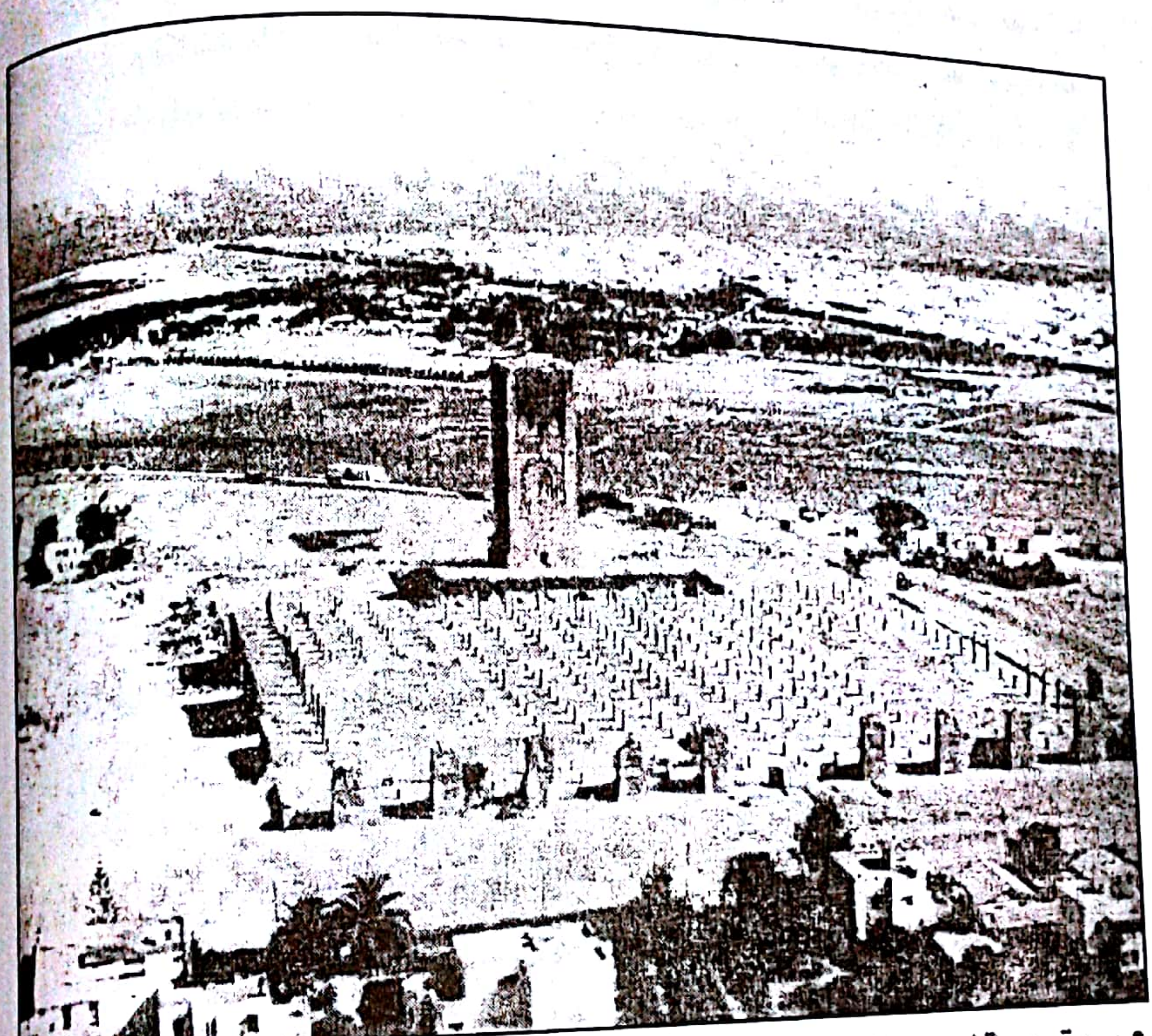
167- بعد أن حاصر واحتل في جمادى الأولى 587هـ (ماي- يونيو 1191م) شلب، ذهب لزيارة أوقية وهي قرية مغمورة ولد بها ابن حزم. وقد تلفظ أثناء ذلك بكلمات، عبر من خلالها عن استغرابه كيف ينتمي إلى مكان حقير مثل ذاك عالم عظيم مثل ابن حزم.

وبالرغم من هذه القناعات، فإن يعقوب المنصور وحرصاً منه على استقرار واستمرارية الإمبراطورية، حافظ على كل شعائر وطقوس الموحدين، وكان يذكر في رسائله الرسمية المهدي بنفس الألقاب التي كان يذكره بها والده وجده، ولن يتم التخلي عن هذا التقليد إلا على عهد ابنه المأمون، الذي لم يكتف مثل والده بعدم تصديق عقيدة المهدي، بل عبر عن تكذيبه لها علنياً، مما كان يعني حرمان المستفيدين منها من امتيازاتهم، وهو ما جر على هذا الخليفة الكثير من المشاكل وجعله يدخل في مواجهات سياسية وخيمة العواقب، كما سنرى.

الإدارة على عهد يعقوب المنصور

كانت نفس يعقوب المنصور تعيش حالة صراع بين فجورها وتقواها، وهكذا ففي الوقت الذي كان يدفعها الأول لإراقة دماء كل مشكوك في إخلاصه بمن في ذلك أقرب الناس إليه، كان يدعوها الثاني للإيمان والورع، بحيث أولى الخليفة اهتماماً خاصا بالأعمال الخيرية وبكل ما يمكن أن يسمو بنفسه. ويشير النويري أنه وبعد أن أمر عام 584هـ بقتل أخيه وعمه، أقبل على حياة الزهد والتقشف وأصبح متواضع المأكل والملبس، أما صاحب روض القرطاس والذي يعتبر يعقوب المنصور أعظم خلفاء الموحدين، فيقول إن في عهده عم الأمن والاستقرار وانتشر الرخاء في ربوع الإمبراطورية، ومع تناسيه للخراب الذي جره العرب والمرابطون (بنو غانية) على إفريقية، يضيف أنه وبفضل كل ذلك، كان بإمكان المرأة أن تذهب بمفردها من نول لمطة بأقصى سوس إلى برقة في ليبيا دون أن يعترض طريقها أحد. وحسب نفس المصدر، فإن الجبايات في عهده اقتصرت على الخراج والزكاة والعشر. ويظهر أن هذا الكلام ينطوي على بعض المبالغة رغب من خلالها صاحب روض القرطاس الإشادة بيعقوب المنصور وعهده، ذلك لأننا نعلم من سجلات الحسبة التي تعود لهذه الفترة، فرض الإدارة الموحدية لجبايات غير تلك التي أوردها المصدر المذكور.

لقد كانت موارد الدولة كثيرة، وهو ما سمح بمداخيل مرتفعة جداً تم استعمالها في تمويل حملاته العسكرية بجيوشها الجرارة، وفي تشييد حي الصالحة بمراكش، وفي الأعمال العمرانية الكبرى بالرباط واشبيلية وحصن الفرج. ويؤكد صاحب المعجب أنه كان دائم البناء والتشييد. والحقيقة أن المساجد والمدارس والمستشفيات والقناطر وصهاريج المياه والأنزال التي شيدها صبغت العصر الموحدي ببريق خاص.



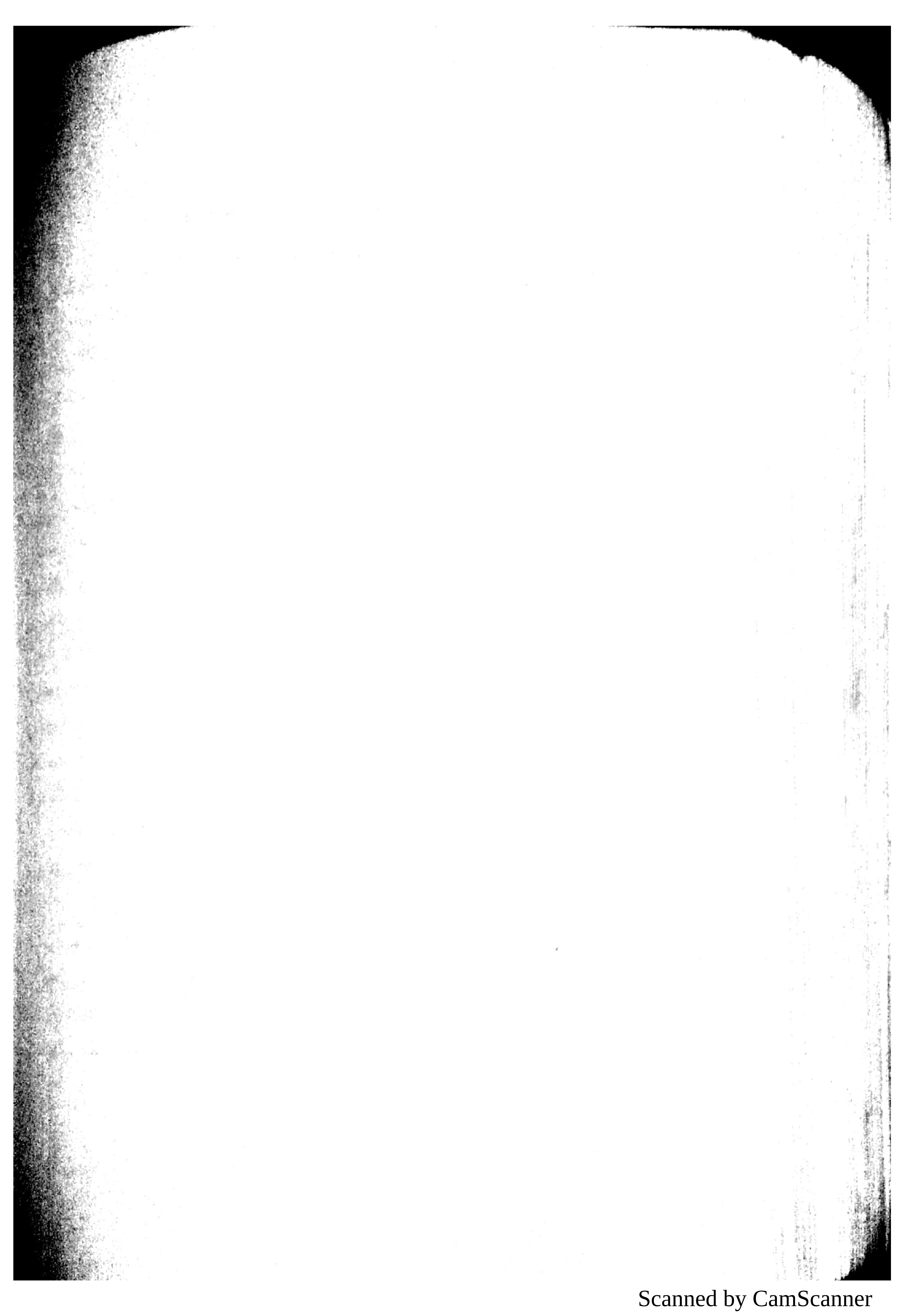
• صورة جوية لصومعة حسان

مواهب يعقوب المنصور العسكرية

كان الانتصاران الكبيران اللذان حققهما على حساب بني غانية وألفونسو الثامن في حملتي الحمة والأرك وراء حمله للقب المنصور الذي عرف به. غير أن هذين الانتصارين وعلى أهميتهما الظاهرية، لم يحققا غير القليل من الناحية العملية، وهنا يجب الإشارة إلى أن الطريقة التي كانت تتم بها حملاته العسكرية بشكل عام، لم تكن تسمح بتحقيق نتائج حاسمة على المدى البعيد؛ فقد كان يستعد لها بشكل متأن، ويقوم فيها بقطع مسافات طويلة، ليهاجم جيش عدو لا يرقى إلى أهمية جيشه عدة وعتاداً، وهكذا فلاستعادة شلب كان عليه أن يقوم بحملتين عسكريتين خلال سنتين متتاليتين ضد البرتغال ليواجه عدوا يقل عنه كثيراً من الناحية العددية، ومع ذلك لم يتمكن من هزمه إلا بعد أن تحالف ضده مع مملكة ليون. ولتحقيق الانتصار في معركة الأرك كان عليه أن يستفيد من غطرسة ألفونسو الثامن وثقته الزائدة في قدراته، والتي جعلته يخرج لمواجهة قوات الموحدين التي يفوق عددها بكثير عدد قواته. ومع ذلك فالانتصار في هذه المعركة لم يفد يعقوب المنصور إلا فيما استولى عليه بشكل مفاجئ من قلاع حدودية لا يتجاوز عددها أربعة أو خمسة. وبالنسبة لحملتي 1196هـ و1197هـ فإنهما لم تكونا أكثر من هجمات تخريبية فشل ألفونسو في صدها بسبب حالة الإحباط التي أصابت قواته على إثر هزيمة الأرك، وبسبب الهجمات الموازية التي قامت بها ضد مملكته وبشكل مباغت قوات مملكتي ليون ونبرة. وبخصوص حملة إفريقية فقد نجح يعقوب المنصور في استعادة المدن وغيرها من المناطق التي استولى عليها علي بن غانية، لكنه فقدها من جديد بعد عودة القوات الموحدية إلى مراكش.

وتعتبر المصادر العربية أن الموحدين عرفوا أوجهم مع يعقوب المنصور، غير أن الحقيقة هي غير ذلك؛ فقد ترك لابنه الناصر أمبراطورية تقل مساحة عن تلك التي ورثها عن والده. وكان عليه بجانب إخماد تمردات أقاربه والذين قطع دابرهم بعنف، أن يخوض القتال في جبهتين بعيدتين عن بعضهما البعض هما إفريقية والأندلس، وهو ما أجبره وباستمرار على إهمال إحداهما على حساب الأخرى. والواقع أن ما سيقع في هاتين المنطقتين، وليس فقط ظهور المرينيين في المغرب، كان سبباً في اهتزاز الصرح الموحدي وفي سقوط دولتهم، وهنا أقصد هزيمة العقاب ضد القشتاليين وإعلان الحفصيين لانفصالهم وتأسيسهم لدولة جديدة في إفريقية.





الفصل الخامس

الخليفة الموحدي الرابع أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن

ولد في نهاية 576هـ[1] (ربيع 1181م) وتم اختياره ولياً للعهد وعمره تسع سنوات، وقد حكم مدة خمس عشرة سنة[2]، على اعتبار أنه توفي في الثانية والثلاثين من عمره. وكانت بيعته بعد ثمانية أيام من وفاة والده، ولم يكن هناك من عارض اعتلاءه العرش، لأن السادة وكبار شيوخ الموحدين احترموا رغبة يعقوب المنصور وتوصياته لهم أثناء وجوده على فراش الموت.

وكما كان منتظراً زكى الخليفة الجديد كبار الموظفين في المناصب التي كانوا يشغلونها على عهد والده، حيث احتفظ أبو زيد بن عبد الرحمن بن موسى بن يوجان (ابن أخي السيد عمر ينتي ومن الذين أشاد المنصور بهم) بمنصب الوزير[3]، وتولى ابنا الشيخ عمر ينتي، أبو زكريا وأبو محمد عبد الواحد الوصاية على الناصر، في حين شغل ابنا السيد عمر، أبو الحسن وأبو زيد، وكانا بمثابة عميدي العائلة الإمبراطورية، منصبين بارزين في بلاط الملك الجديد.

لقد تمكن يعقوب المنصور بفضل حيويته وتدخله الناجح في الأندلس أن يضمن استقرارها لبضع سنوات، خصوصاً وأنه أرغم البرتغاليين على التنازل عن عدد من مناطق غرب الأندلس، كما أرغم ألفونسو الثامن، بعد هزمه في معركة الأرك واكتساحه لأراضي مملكته ونهبها، على

1- حسب المعجب، م. س.، ص. 438. وأبو الفدا، الجزء الثالث، ص. 96. وقد اشتهر باسم محمد الناصر.

2- يؤكد صاحب الحلل الموشية (ص. 134) أن المدة التي حكم خلالها هي خمس عشرة سنة وأربعة أشهر و ثمانية عشر يوماً، وكان ابناً لجارية مسيحية، وحسب صاحب المعجب كان أشقر اللحية أزرق العينين، قليل الكلام، بخيلاً جدا، وكانت مدة ولايته ست عشرة سنة إلا شهراً، م. س.، ص. 438-439.

3- سيكون لأبي زيد هذا دور أساسي في انهيار الإمبراطورية.

توقيع هدنة لمدة عشر سنوات. هذه المكتسبات، إضافة إلى استمرار التحالف الموحدي-الليورقي قائماً، جعل الأندلس لا تطرح مشاكل كثيرة للموحدين بعد وفاة يعقوب المنصور. غير أن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لإفريقية، لأن تمرد بني غانية والعرب أخذ أبعاداً جديدة وامتد إلى مختلف أنحاء البلاد امتداد النار في الهشيم.

الأوضاع في إفريقية والهزائم الموحدية

منذ عودة يعقوب المنصور من تونس إلى مراكش، وطيلة عشر سنوات، بقيت إفريقية تواجه مصيرها بنفسها واعتماداً على إمكانياتها لا غير، لأن الخليفة وجه اهتمامه خلال كل هذه المدة للحرب في الأندلس. وبسبب ذلك لم يتردد يحيى بن غانية (خليفة أخيه علي)، وقراقش مع أتباعه الغز، ومنشق موحدي استقل بالمهدية يدعى محمد بن عبد الكريم، لم يترددوا في توجيه ضربات موجعة للموحدين، من خلال السيطرة على معظم مناطق إفريقية، بحيث لم يكن قد بقي خارج سلطة يحيى بن غانية لما اعتلى الناصر العرش غير تونس وقسنطينة. أمام هذه التطورات، قرر الوصيان على عرش الخليفة المراهق، وبعد أربعة أشهر من توليه الحكم، إرسال عامل بجاية السيد أبي حفص عمر إلى باجة لفك الحصار الذي ضربه عليها يحيى بن غانية، لكن الحامية التي كان يقودها سقطت في كمين وضعه لها الميورقيون الذين نجحوا في إقناع العرب الموجودين ضمن الحامية بالغدر بالسيد ونهب مخيمه، وقد اضطر هذا الأخير بسبب ذلك للفرار ليلاً إلى قسنطينة التي عاد منها إلى بجاية. وكانت هزيمة السيد هذه، الأولى من نوعها لجيش أشرف على تنظيمه وصيا الخليفة الجديد واللذان قررا على إثرها عزل السيد أبي حفص، المولع بالأدب وحياة اللهو أكثر من ولعه بالحرب وهمومها، وذلك بعد أن اتهماه بالإهمال والفجور[4].

لقد انزعج الموحدون في مراكش كثيراً لهذه الهزيمة التي من المحتمل أنها وقعت في ربيع 1200 م، وأرسلوا على إثرها جيشاً جديداً للمنطقة، كما عزلوا عامل تونس الشيخ أبا سعيد بن أبي حفص الذي فقدوا الثقة في فعاليته، وعينوا مكانه السيد أبا زيد بن أبي حفص عم الناصر الذي سبق له وأن شغل هذا المنصب على عهد يعقوب المنصور[5]. غير أن هذا الإجراء مني بفشل أكبر، لأن عامل

4- كتب عنه المقري: «*أبو حفص عمر بن حسن الهوزني، الحسيب العالم المحدث، رحل إلى مصر ثم إلى مكة، وسكن إشبيلية وخدم المعتضد، فقتله سنة 460هـ*». نفح الطيب، الجزء الثاني، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت 1968، ص. 93.

5- لا نعرف بالضبط التاريخ الذي عين فيه السيد أبو زيد عاملاً على تونس للمرة الثانية، ويعتقد "بيل" في المونغرافية التي أعدها تحت عنوان: Les benous chanya أن ذلك حدث عام 1199 م وأنه بأمر منه خرج السيد أبو الحسن ضد بني غانية حيث انهزم أمامهم بجوار قسنطينة.

تونس الجديد والذي كان برفقته عدد متواضع من الجنود، سلك الطريق الساحلي حتى يتفادى لقاء الميورقيين، لكنه وما أن وصل إلى تونس حتى فوجئ بمحاصرتها من طرف المتمرد ابن عبد الكريم الذي لم يرفع الحصار إلا بعد أن ذهب عنده وفد من الموحدين نبهه لعواقب القتال بين القبائل الموحدية، وكان ابن عبد الكريم هذا من قبيلة كومية التي ينتمي إليها عبد المومن[6].

وبجانب القوات التي كان يقودها السيد أبو زيد، أرسل الموحدون إلى إفريقية فيلقاً موحدياً آخر كان يقوده الوزير أبو زيد عبد الرحمن موسى بن يوجان، اقتصرت مهمته على إيقاف اعتداءات العرب، وذلك من خلال جولة عسكرية حملته من تلمسان إلى قسنطينة عبر بجاية، قبل العودة من جديد إلى قسنطينة في ربيع – صيف 1200م[7].

استيلاء يحيى بن غانية على المهدية

وفي الوقت الذي فشل فيه الموحدون، رغم محاولاتهم المتعددة، في القبض من جديد بزمام الأمور في إفريقية، ظهر مؤشر آخر حاولوا الاستفادة منه، يتعلق الأمر بالنزاع الدائر بين محمد ابن عبد الكريم وابن غانية، فقد شجعت هذا الأخير الانتصارات التي حققها في المهدية وتونس، على مهاجمة ابن غانية، وقام أولاً بمحاصرة قابس، وبعد أن فشل في احتلالها، انتقل إلى قفصة التي نجح في إخضاعها لكنه هزم فيما بعد بضواحيها، وبالضبط في المنطقة المعروفة باسم "قصور لالة"، وهو ما أجبره على الالتجاء إلى المهدية التي حاصره بها يحيى بن غانية. وبما أن هذه المدينة كانت منيعة وتطل على البحر وهو ما يسمح لها بالحصول على التموين، فإن ابن عبد الكريم كان بإمكانه مقاومة الحصار لمدة غير محدودة، لكن دهاء يحيى بن غانية وسذاجة عامل تونس الموحدي حالا دون ذلك؛ فقد طلب يحيى من السيد أبي زيد سفينتين حربيتين لمحاصرة ميناء المهدية، وتعهد مقابلها بإعلان خضوعه للموحدين، وعوض أن يرفض أبو زيد الطلب ويترك الخصمين يصفي بعضهما البعض، قدم السفينتين للميورقي الذي أجبر ابن عبد الكريم على الاستسلام، حيث قام بسجنه قبل أن يدبر مؤامرة لاغتياله نفذت بنجاح في صيف–خريف 1200م[8].

6- تشير رحلة التيجاني أثناء حديثها عن تمرد هذا المغامر إلى أنه وعلى غرار الملوك حمل لقبا خاصاً هو المتوكل، وأنه حاصر تونس في محرم 596هـ (أكتوبر- نوفمبر 1199م)، حيث وضع مخيمه جهة قرطاج في مكان التقاء بحيرة تونس بالبحر والمعروف بحلق الواد. وقد هزم الحامية الموحدية ونهب كل المنطقة، مما أجبر عامل تونس المعين السيد أبا زيد وعاملها المعزول الشيخ أبا سعيد إلى إرسال وفد من شيوخ الموحدين نجحوا في إقناعه بأن تلك الحرب بين الإخوة لن تكون إلا في صالح ابن غانية، وهو ما جعله يفك الحصار ويعود إلى المهدية.

7- البيان المغرب، م. س.، ص. 238.

8- تخبرنا بذلك رحلة التيجاني. ويكتفي ابن خلدون في العبر بإشارة عابرة لهذا الحادث، أما البيان المغرب فلا يأتي على ذكره.

والحقيقة أن يحيى بن غانية لم يكن ليفي أبداً بما وعد به من إعلان خضوعه للموحدين وهكذا فبعد قضائه على ابن عبد الكريم، أصبح طليق اليدين ولم تعد سلطته مقتصرة على الشريط الساحلي الممتد من صفاقس إلى طرابلس عبر قابس، وإنما امتدت إلى غرب وأواسط إفريقية، في وقت كان فيه موحدو مراكش منشغلين بتمرد سوس الذي قامت به قبيلة جزولة، العدوة التقليدية للإمبراطورية الموحدية.

تمرد سوس

قاده شخص أندلسي يدعى ثائر بن جزولة ويعرف بأبي قصبة بن عبد الرحمن بن الفرس(9) سبق وظهر على عهد يعقوب المنصور، حيث سطع نجمه لعبقريته وأفكاره الدينية الجريئة، لكنه اختفى إثر ذلك، عندما أحس أن حياته أصبحت في خطر. وبعد اعتلاء الناصر العرش، عاد للظهور من جديد وهذه المرة بمنطقة جزولة، مدعياً أنه القحطاني الذي أخبر به النبي. وتمكن من أن يجمع حوله العديد من الأتباع، لدرجة نجح معها في هزم جميع الفصائل التي أرسلها الموحدون ضده سنتي 597هـ و598هـ (1201م-1202م)، وهو ما أجبر هؤلاء على تجهيز جيش قائم بذاته للخروج ضده، وفي نفس الوقت حذروا مصمودة والقبائل المجاورة لها من مغبة التساهل معه أو غض الطرف عما يقوم به من أعمال مناوئة للسلطة الموحدية. وقد توجه الجيش ومعه الخليفة إلى ركراكة التي امتدت إليها دعوة المتمرد. وأمام الأهمية العددية للقوات الموحدية تخلى عنه أتباعه، ومع ذلك قرر دخول المعركة وليس معه إلا عدد قليل من الرجال، حارب على رأسهم بشجاعة. وبعد مقتله في المواجهة، قطع رأسه الذي نقل إلى مراكش، وكانت هزيمته في نفس التاريخ تقريباً الذي استعاد فيه الموحدون ميورقة(10).

لقد تصادف تمرد أبي قصبة هذا، مع فيضان مهول عرفه الوادي الكبير، وكان ذلك بالضبط خلال شهر جمادى الثانية 597هـ (مابين 9 مارس و6 أبريل)، حيث اكتسحت المياه السهول والمداشر

9- جاء في شأنه عند ابن خلدون: «هو عبد الرحيم ابن الفرس من طبقات العلماء بالأندلس ويعرف بـ"المهر"». العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 337 (المترجم).

10- يورد ابن خلدون الذي يذكر هذه المعلومات، بعض الأبيات الشعرية التي نظمها هذا المتمرد والتي يقول فيها إن الإرادة الإلهية هي التي اختارته لما يقوم به، ويضيف ابن خلدون إن الناصر لم يخرج ضده شخصياً، وهذا أمر محتمل على اعتبار صغر سن الخليفة والذي لم يبدأ بالمشاركة في الحملات العسكرية إلا ثلاث سنوات بعد اعتلائه العرش. العبر، الجزء السادس، ص. 449 . أما صاحب المعجب والذي يقدم هو الآخر معلومات عن هذا المتمرد فيقول إنه ينتمي إلى جزولة، ولا يسميه بالأمازيغية يعني ابن الجزار-ة-، ويضيف أن هزيمته تزامنت مع استعادة الموحدين لميورقة عام 1202م. م. س.، ص. 232.

الموجودة على ضفتيه، على امتداد المنطقة الرابطة بين قرطبة وجزيرة قادس. نتيجة لذلك وصل عدد المنازل التي دمرها الفيضان في اشبيلية وحدها إلى ستة آلاف، كما قضى بسببه ما لا يقل عن سبعمائة من تجار القوافل غرقوا في الأوحال الناجمة عن الفيضان[11].

الأوضاع في جزر البليار

بعد إخماد تمرد سوس، وفي الوقت الذي تزايد فيه خطر بني غانية في إفريقية، قرر الوصيان على العرش الموحدي ومعهما كبار الشيوخ، وضع مخطط طموح يرمي للقضاء بشكل نهائي على خطر العدو والذي لم تستطع أي من الهزائم السابقة التي تكبدها أن تضع حداً له، وكان المخطط يرمي أولاً إلى الاستيلاء على جزر البليار قاعدة عمليات الميورقيين، ثم بعد ذلك واعتماداً على القوات البرية والبحرية، الانتقال إلى إفريقية من أجل توجيه الضربة القاضية ليحيى بن غانية وأتباعه.

وتتميز الأخبار الواردة في المصادر العربية بشأن جزر البليار خلال هذه المرحلة بكثير من الغموض والتضارب، فحسبها كان علي بن الربرتير (القائد أبو الحسن علي بن الربرتير) قد نجح عام 581هـ، مباشرة بعد مغادرة بني غانية مع قواتهم "ميورقة" قاصدين بجاية التي هاجموها في نفس السنة[12]، نجح في استقطاب الأسرى وخصوصاً المرتزقة المسيحيين الذين كانوا يشكلون القوات الوحيدة تقريباً التي بقيت بها، لكنه وبعد أن أخلى سبيل هؤلاء وأولئك والذين رحلوا إلى بلدانهم، وبعد أن انتقل هو إلى مراكش رفقة الأمير محمد بن غانية المطاح به، قام سكان الجزيرة بالتمرد من جديد على سلطة الموحدين.

وقد أرسل يعقوب المنصور ضدهم وقتها، حسب بعض هذه المصادر، فيلقاً يقوده أمير البحر أبو علي بن جامع، غير أن بني غانية وبفضل مساعدة بيدرو الثاني ملك أراغون وقطلونية، تمكنوا من طرد الموحدين بشكل نهائي، وعينوا إثر ذلك تاشفين بن غانية أخا علي، أميراً عليهم. هذا الأخير وأثناء حصاره لقسنطينة علم بمناورة الربرتير، لذا أرسل إلى ميورقة بشكل مستعجل

11- هذا ما ورد عند صاحب الروض المعطار، م. س.، ص. 59. أما صاحب البيان المغرب فنقرأ عنده: «... *وقيل إن الذي نهب من دور إشبيلية بهذا السيل ستة آلاف دار، وذكر التجار الواصلون من غرب الأندلس أنهم عثروا بالرمال الكبار على سبعمائة شخص من الغرقى*». م. س.، ص. 239.

12- اعتمد كل من كوديرا Codera في كتابه Decadencia y desaparicion de los almoravides، ص.183، وكامبير Campaner في كتابه Bosquejo historico de la dominacion islamita en las Baleares من ص. 147 إلى ص. 155، عند حديثهما عن الوجود الموحدي في جزر البليار، على المصادر العربية التي كانت معروفة وقت نشرهما لكتابيهما، لذا وقعا في عدد من الثغرات والأخطاء التي أمكن تصحيحها بعد اكتشاف البيان المغرب ورسالة الناصر الرسمية.

أخويه عبد الله وغازي واللذين انتقلا أولاً إلى صقلية ومنها حملتهما سفينة إلى ميورقة التي استوليا عليها دون صعوبة، وتوليا الحكم بها بعد أن عزلا أخاهما تاشفين.

ويقدم لنا ابن خلدون رواية مختلفة عما سلف ذكره[13]، حيث يقول إنه أثناء قيام الميورقيين بحملتهم على بجاية، عينوا على جزر البليار طلحة بن غانية ليتولى أمورها، في تلك الأثناء تمرد أخوه محمد، الذي سبق عزله، رفقة الريرتير واستولى على السلطة من جديد. وفي الوقت الذي أرسل فيه يعقوب المنصور قواته إلى الجزيرة لضبط الأمور، عارض محمد ذلك وطلب مساعدة بيدرو الثاني الذي أمده بقوات مسيحية. وقد تخوف سكان ميورقة من انتقام يعقوب المنصور، لذا عزلوا محمدا وعينوا بدله أخاه تاشفين. ولما علم علي بكل هذه التطورات، وكان يحاصر قسنطينة، بعث إلى الجزيرة أخويه عبد الله والغازي، حيث قاما بعزل تاشفين والذي حل محله عبد الله[14].

ويشير "بيل" Bel، بخصوص هذا الموضوع، إلى أن الأسطول الميورقي الذي استولى على بجاية اضطر لمغادرتها بعدما علم باقتراب الأسطول الموحدي الذي جاء لاستعادتها، في تلك الأثناء اقترح بعض الميورقيين الالتجاء إلى صقلية الموجودة تحت سلطة "كييرمو" الثاني Guillermo II، بينما اقترح آخرون الالتجاء إلى طرابلس حيث يوجد قراقش. وبعد الوصول إلى هذه الأخيرة، بعث علي ابن غانية بفيلق إلى ميورقة وضع على رأسه أخويه عبد الله والغازي واللذين توقفا أولاً بصقلية ومنها توجها إلى ميورقة، حيث قاما أولاً بفك الحصار عن القلعة التي كان يحتمي بها ابن نجاح، ومن هناك توجه الجميع إلى العاصمة التي فتحت لهم أبوابها. غير أن رواية "بيل" هذه تبقى دون أية مصداقية عندما نطلع على ما يقدمه لنا البيان المغرب من معلومات بخصوص هذه النقطة[15].

من جهة أخرى، هناك موضوع لم يُول لحد الآن الأهمية التي يستحقها، ويهم التطور الحاصل في العلاقات الخارجية لبني غانية منذ دخولهم في مواجهة مباشرة مع الموحدين؛ فإلى غاية موت إسحاق بن غانية، كان نشاط الميورقيين الأساسي هو القرصنة، لكنهم خلال تلك المرحلة، وفي الوقت الذي كانوا يهاجمون فيه سواحل قطلونية وجنوب فرنسا وربما الأراضي الإسلامية الواقعة تحت سيطرة ابن مردنيش في شبه الجزيرة

13- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 235.

15- البيان المغرب. م. س.، ص. 239.

14- Op. Cit., Les benous ghanya. P. 71.

الإيبيرية، اقاموا علاقات ودية مع جمهوريتي بيزة وجنوة الإيطاليتين سمحت بتبادل تجاري مثمر معهما، وفي نفس الوقت حرصوا على عدم مناصبة الموحدين العداء، لذا ورغم دعوتهم للخلفاء العباسيين خلال خطبة الجمعة، فقد كان إسحاق يبعث باستمرار بالأسرى والهدايا إلى مراكش معبراً بذلك عن ولائه لهم وإن كان بشكل رمزي.

بعد ذلك، وبفضل تحالفهم مع بيدرو الثاني ملك أراغون وقطلونية الذي كان يمدهم بالجنود، نجح بنو غانية المرة تلو الأخرى في صد الهجمات التي كان يشنها عليهم أسطول يعقوب المنصور والذي لم ينجح في احتلال يابسة إلا عام 583هـ. ومنذ هذه السنة وإلى غاية وفاة يعقوب المنصور، حافظت ميورقة وكان على رأسها عبد الله بن غانية على علاقات ودية مع المسيحيين، وهكذا وقعت في 584هـ (1188م/1189م) معاهدة سلم وتجارة مع جمهورية جنوة، كما وطدت علاقاتها مع مملكة أراغون وقطلونية. ورغم أننا لا نتوفر على وثائق دبلوماسية لهذه العلاقات، فإن الرسالة التي كتبها الناصر إثر احتلال الموحدين لميورقة تؤكدها، ذلك لأنها تقول إن انتصار الموحدين هذا، كان بالنسبة لملك أراغون وبرشلونة أشد إيلاماً من السهم وأكثر إقلاقاً من السيف وأكبر كرباً من الموت، وتضيف الرسالة إلى أنه انتصار على النصارى وعلى الممالك الواقعة على سواحل المتوسط قاطبة [16].

وخلال عهد الناصر، هاجم عبد الله بن غانية يابسة، وكان ذلك في شتاء 596-597هـ (1199-1200م)، شجعه على ذلك الانتصارات التي حققها أخوه علي في إفريقية وقلة تجربة الخليفة الجديد. غير أن أمير البحر الموحدي ابن ميمون[17] المتمركز بميناء يابسة، نجح في إضرام النار في اثنتين من سفن العدو، وبذلك أرغم عبد الله على الانسحاب. وفي الشتاء الموالي، استغل عبد الله عودة أسطول الموحدين إلى ميناء سبتة لقضاء فصل الأمطار، وشن

16- مجموع رسائل... ، م. س.، الرسالة، 36.

17- هناك ثلاثة أشخاص حملوا هذا الاسم وكانت لهم علاقة بالأساطيل البحرية، أولهم ورد ذكره عند صاحب روض القرطاس (ص. 205)، هو أبو الحسن علي بن عيسى بن ميمون أميرال الأسطول المرابطي الذي حل بساحل وهران بغرض انقاذ تاشفين بن علي الذي كان يحاصره الموحدون، وقد خضع بعد سقوط الإمبراطورية المرابطية لعبد المومن، وهو الذي هدم صنم قادس المعروف، والثاني ورد ذكره عندصاحب المعجب (ص. 242) وهو أبو عبدالله بن ميمون المزداد في دانية، وهو بحار محنك عرض عليه أهالي المرية السلطة بعد طردهم للمرابطين. غير أنه رفض ذلك وفضل البقاء على رأس أسطوله، والثالث هو أمير البحر الذي دافع عن يابسة ضد عبدالله بن غانية، والذي لا نعرف هل كانت له قرابة ما مع أحد حاملي الاسمين سالفي الذكر.

هجوماً على ميورقة نجح بواسطته في الاستيلاء عليها. وقد ترك بها قبل انسحابه، مساعده القائد ابن نجاح الذي سبق له وأن فقد يابسة عام 583هـ لفائدة الموحدين[18].

وفي صيف 598هـ (1202م) استعاد أسطول سبتة الموحدي ميورقة، وكان يقوده السيد أبوالعلاء إدريس بن يوسف، الذي تمكن من إلقاء القبض على ابن نجاح وإرساله إلى مراكش التي ضرب بها عنقه. وفي السنة الموالية قاد السيد أبو العلاء بمساعدة الشيخ أبي سعيد عثمان ابن أبي حفص، أسطولاً ضخماً إلى ميورقة. وقد توقف الأسطول أولاً في دينيا حيث قام القائدان باستعراض قواتهما المكونة من 1200 فارس و700 نبال و15 ألفا من المشاة دون إحصاء ربابنة السفن. وكان قوام الأسطول 300 قطعة من بينها 70 "غرابية" (مركب حربي صغير) و30 سفينة للمطاردة و50 سفينة كبيرة، والباقي قوارب مختلفة الأشكال. أما العتاد الحربي فكان يتكون من المجانيق والسلالم والمجارف والمعاول والفؤوس والأكياس والحبال والأكبال والزرود والسيوف والرماح والخوذ والدروع والأتراس والأقواس، إضافة إلى كميات مهمة من المؤونة.

وبعد أداء صلاة الجمعة في يابسة، ركبت القوات الموحدية البحر صوب ميورقة يوم السبت 24 ذي الحجة (3 سبتمبر 1203م)، وعند وصولها خرج عليها عبد الله بن غانية وحاميته في الوقت الذي بدأت تقوم بالتحركات الأولى في الميناء، حيث وقع قتال عنيف دارت فيه الدائرة على الميورقيين الذين قتل أميرهم. وقد اضطر الأهالي إثر ذلك إلى إغلاق أبواب المدينة، غير أن الموحدين، وبعد سبعة أيام من تاريخ الإنزال، تمكنوا من السطو على ميورقة ونهبها، لكنهم لم يلحقوا أية أضرار بقصبتها[19].

وكان يتقدم السيد أبا العلاء والشيخ أبا سعيد عند دخولهما المدينة، جندي من الغز يحمل على سن رمحه رأس عبد الله بن غانية[20]. وبعد دخولها أرسلا من ينادي بإيقاف النهب، ومنعا

18- يشيرصاحب البيان المغرب، م. س.، ص. 240، إلى أنه بعد أن أنبأت الكواكب بقرب سقوط الأمطار، وبعد أن تهاطلت هذه بشكل طوفاني تعذر معه حتى على الطيور العودة إلى أوكارها، ضرب عبد الله "لعنه الله" حصاراً على منورقة اضطر معه سكانها وبسبب تمكن الجوع منهم إلى أكل الموتى، وبسبب عجزهم عن مواصلة الدفاع عنها سلموه إياها، حيث عين عليها رجلا من أتباعه يدعى ابن نجاح.

19- اقدم هنا معلومات مفصلة عن هذه الحملة لعدم علم المؤرخين المتأخرين بها، ذلك لأنها لم تصبح معروفة إلا بعد صدور الكتاب الذي يتضمن رسالة الناصر الرسمية وكتاب الروض المعطار. وبخصوص البيان المغرب فإنه لا يورد أي شيء عن الحملة، ويخلط بينها وبين الحملة على ميورقة. م. س.، ص. 239-243.

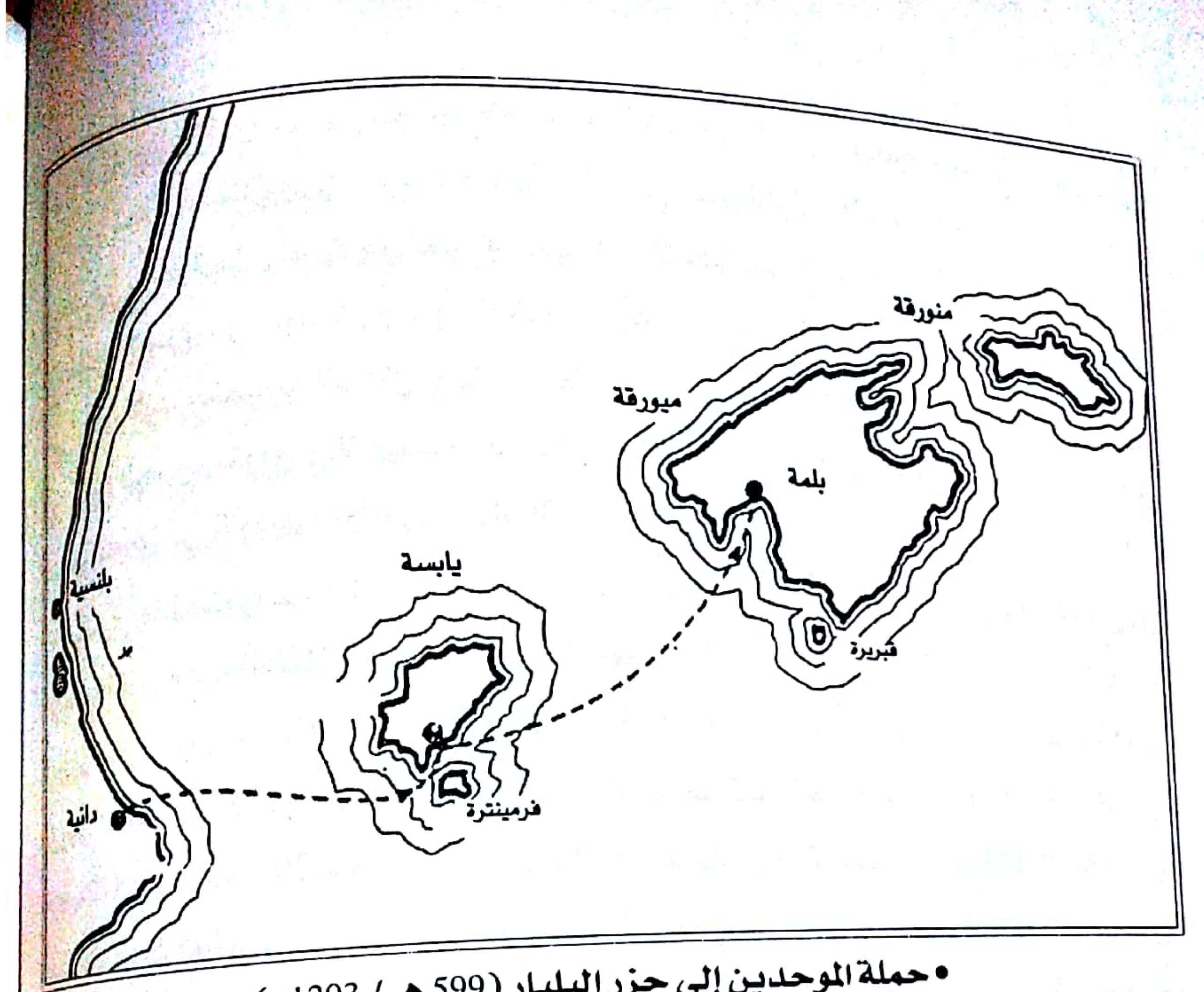
20- يقول صاحب المعجب، إن عبد الله هذا خرج سكران للقتال وأنه أصيب بجروح قاتلة بسبب تعثر فرسه. م. س.، ص. 452.

الأمان للذين اعتكفوا في بيوتهم من الأهالي، ثم كتبا إلى الناصر، العائد حديثاً إلى مراكش، لإخباره بنجاح الحملة وفي الوقت ذاته ليقدما له رأس عبد الله وأعلام بني غانية المرابطية التي وقعت في يد قواتهما. ولم يتأخر القائدان بعد ذلك إلا وقتا يسيرا في العودة إلى مراكش محملين بالغنائم والأسرى من الجنسين والذين أدخلوا المدينة على ظهر الجمال. وقد تم إنزال الأسيرات في أماكن كانت مخصصة للقوافل، وعقب النظر في أمرهن، تقرر إطلاق سراحهن، وزوجت منهن من كانت في سن الزواج، وذلك بعد تسليمها المهر المستحق، ولم يكن حظ الأسرى سيئا كذلك، بحيث أدمجوا في الجيش النظامي بعد إطلاق سراحهم.

ويشير صاحب روض القرطاس ومعه "بيل" في منوغرافيته حول بني غانية، إلى أن الناصر قاد بنفسه الحملة ثم عملية الإنزال بميورقة[21]، غير أن الأدلة التي استقيناها من البيان المغرب ومن رسالة الناصر الرسمية، وكذا من الرواية المفصلة التي أوردها صاحب الروض المعطار تؤكد غير ذلك، فقد غادر الناصر مراكش نحو فاس في الرابع من جمادى الثانية (18 فبراير 1203م) أي في الوقت الذي بدأت فيه الاستعدادات للحملة، وبعد أن قضى هناك ثلاثة أشهر (أبريل ومايو ويونيو)، أخذ في شهر يوليو طريق العودة إلى مراكش (قبيل سقوط ميورقة بيد القوات الموحدية) حيث استقبل في شهر غشت (ذي الحجة) بها المنتصرين. ولا يستبعد أن يكون الناصر قد انتقل إلى سبتة أثناء غيابه عن مراكش، للوقوف على استعدادات الأسطول الذي كان ينوي توجيهه نحو ميورقة، لكنه من غير الوارد أن يكون قد انتقل بنفسه إلى جزر البليار على رأس هذا الأسطول، كما أنه من غير الوارد أن يكون حصار ميورقة قد استمر أكثر من شهرين، وأنها لم تسقط بيد الموحدين إلا في ربيع الأول عام 600هـ (نوفمبر، ديسمبر 1203م)[22].

21- يضيفان أن الحصار دام شهرين حيث تم احتلال ميورقة في ربيع الأول عام 600هـ.

22- في مطلع سنة 600هـ وبعد استعادة جزر البليار وفي الوقت الذي كان فيه مستشارو الناصر يعدون العدة للحملة على إفريقية، وقع في جبل ورغة تمرد قام به شخص يدعى العبدي، ادعى أنه المهدي المنتظر وأنه سليل فاطمة ابنة الرسول، وقد التفت حوله العديد من القبائل كما التف حوله سكان جبال غمارة، غير أنه هزم وقطع رأسه الذي علق على باب الشريعة بفاس، أما بقية الجثة فبعد أن صلبت وعلقت على نفس الباب لمدة خمسة عشر يوماً تم إحراقها، وكان ذلك في نفس اليوم الذي انتهي فيه من ترميم جدارها. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت تلك الباب تعرف بباب المحروق.



• حملة الموحدين إلى جزر البليار (599 هـ / 1203م)

علاقات الموحدين الدبلوماسية مع نبرة وقشتالة

قام ألفونسو الثامن خلال المرحلة الممتدة ما بين 1188م و1200م باستعادة الأراضي التي انتزعها منه سانشو الأول، وفي نفس الوقت نجح في السيطرة على "بيتورية" Vittoria . وبسبب تواضع القدرات العسكرية لسانشو، فقد ذهب إلى الأندلس الموحدية، وربما إلى المغرب لطلب مساعدة حلفائه الموحدين، ويظهر أن سفره هذا كان وراء الأسطورة التي أوردها "روجيريو دي هوبيدان" المعروف بخياله الخصب، والذي يتحدث عن علاقة حب نشأت بينه وبين إحدى بنات يعقوب المنصور[23]. ويؤكد مؤلف "التاريخ اللاتيني" خبر انتقاله إلى مراكش[24].

23- انظر دراستي التي تحمل عنوان:

Estudios de la campana de Navas de Tolosa en "Las Grandes Batallas de la Reconquista Durante las Invasiones Africanas" p. 219 y siguientes. Editorial Marroqui. Tetuan, 1956.

24. Op. Cit. La Cronica Latina. P. 50.

ونستشف من وثيقة يعود تاريخها إلى 7 فبراير 1200م أنه بعد مدة قصيرة من انتقال سفارة نبرة إلى مراكش، توجهت إليها سفارة أخرى بعث بها ملك أراغون بيدرو الثاني، وقد جاء في الوثيقة أن هذا الأخير كان مديناً للمدعو "استيف ماريمون" بـ 5000 مصمودية (عملة الموحدين)، جزء منها ديون عالقة بذمة والده، والجزء الآخر تكاليف السفارة التي كان ينوي القيام بها في تلك الأثناء إلى بلاط سلطان مراكش، شخص تابع لملك أراغون[25] يدعى ابن بنيشت Benist [26].

ومن السفارات المسيحية الأخرى التي حلت بالبلاط المغربي خلال نفس المرحلة، نذكر تلك التي بعث بها إينوصان الثالث، وتضم رجال دين جاؤوا لافتداء الأسرى، وكانوا يحملون رسائل توصية من البابا إلى أمير المؤمنين مؤرخة في 8 مارس 1199م. هناك كذلك السفارة التي بعث بها ألفونسو الثامن لتجديد الهدنة التي وقعتها قشتالة مع الموحدين عام 1197م. وبما أن الهدنة الجديدة كانت لمدة عشر سنوات، فإن تاريخ هذه السفارة سيكون هو سنة 200لم، على اعتبار أن دون رودريغو يخبرنا أن التاريخ الذي تنتهي عنده هو 1210م. وفي سنة 204لم، حل بمراكش إبراهيم بن الفخار وزير ملك قشتالة، من أجل التذكير بضرورة احترام الجانبين للهدنة الموقعة.

ومما يؤكد لنا تكرار السفارات المسيحية إلى مراكش على عهد الناصر، إحداث هذا الأخير لمنصب خاص تتلخص مهمة صاحبه في السهر على استقبال وفود الملوك المسيحيين وعلى إقامتهم وكذا القيام بعملية الترجمة أثناء محادثاتهم مع المسؤولين الموحدين. وقد قام الناصر بعد توقف المواجهات الحربية عام 1211م على إثر فقدان شلبطيرة، بتعويض شخص كان يشغل هذا المنصب يدعى أبا أوبيل بشخص آخر يدعى أبا الجليس محارب.

استيلاء الميورقيين على تونس

إذا كان الموحدون قد سددوا ضربة موجعة لبني غانية المرابطين بطردهم من جزر البليار، فإن هؤلاء ردوا عليهم بالمثل لكن في إفريقية، حيث وجه لهم يحيى بن غانية ضربة كانت هي الأخرى موجعة. ففي غشت 1203م وقبل أن يخرج الموحدون من دانية لمحاصرة ميورقة، بدأ

25- Miret y Sans . P 684 . Boletin de Buenas Letras . Barcelona, ano 1905 . p . 239.

26- يقول المصدر المذكور إن ابن بنيشت هذا كان يهودياً أو مستعرباً.

يحيى حصاره لتونس. وكان جمود أصحاب القرار في مراكش قد شجعه على احتلال طرابلس وقابس وصفاقس وكذا الجريد، إضافة إلى القيروان وتبسة وباطنة. ولتنفيذ خطته الرامية إلى إخضاع تونس، تمركز أولاً بالجبل الأحمر جهة الجرفين المطلين على المدينة، وبعد مرور عدة أيام على ذلك، نقل مخيمه إلى مكان يقع بين باب السويقة وباب قرطاجة، في وقت استولى فيه أخوه غازي على حلق الواد، وهي القناة التي تربط بحيرة تونس بالبحر، وقام بإغلاقها بواسطة عرمة شيدها ليمنع مرور السفن. وبعد أن ترك هناك فصيلة لحمايتها، نقل خيامه إلى جوار أسوار المدينة في مكان غير بعيد من باب الجزيرة، حيث قام بسد الخندق المجاور للباب ووضع هناك المجانيق والآلات الحربية. وفي يوم السبت 7 ربيع الثاني سنة 600هـ (15ديسمبر 1203م) وبعد مرور أكثر من أربعة أشهر على بداية الحصار، تم احتلال تونس وأُسر عاملها أبو زيد وأبناؤه وعدد من الشخصيات الموحدية، في وقت فُرض فيه على أهالي المدينة أداء غرامة مالية قيمتها 100 ألف دينار[27].

ولم يكن يحيى بن غانية وهو في قمة مجده وعلى وشك فرض السلطة المرابطية بكل إفريقية وطرابلس، يتوقع أن البناء الذي بذل الغالي والنفيس في تشييده سوف ينهار بالسرعة التي انهار بها.

حملة الناصر إلى إفريقية

خصص الموحدون كل سنة 600هـ (1204م) لتجهيز الحملة التي هدفوا من خلالها استعادة إفريقية، وهكذا خرج الخليفة الشاب على رأس قواته من مراكش في الأيام العشرة الثانية من شهر جمادى الثانية 601هـ (ما بين 2 و12 فبراير 1205م)، وبعد حشده لكل قواته في الرباط، وإثر إصداره لقرار يتمثل في عزل عمه أبي إسحاق يوسف عامل اشبيلية بسبب تجاوزاته، أخذ وبكل عزم وتصميم طريق الشرق. ولما لاحظ يحيى بن غانية أن الأسطول الموحدي يقترب من تونس، وكان ذلك في نفس الوقت الذي كانت فيه القوات البرية القادمة من بجاية تتقدم نحوها، خاف أن يحاصر من جهتي البر والبحر، لذا قام بإخلائها. وكان وصول الأسطول البحري إليها قبل القوات البرية. وعند دخولها، منح أمير البحر الموحدي أبو إسحاق أهاليها الأمان، بينما قتل أنصار بني غانية، وذلك قبل أن يبعث من يخبر الخليفة بهذا النصر السهل،

27- رحلة التيجاني، م. س.، ص. 204؛ و"بيل" في تذييله لكتاب: Les Banous Ghania

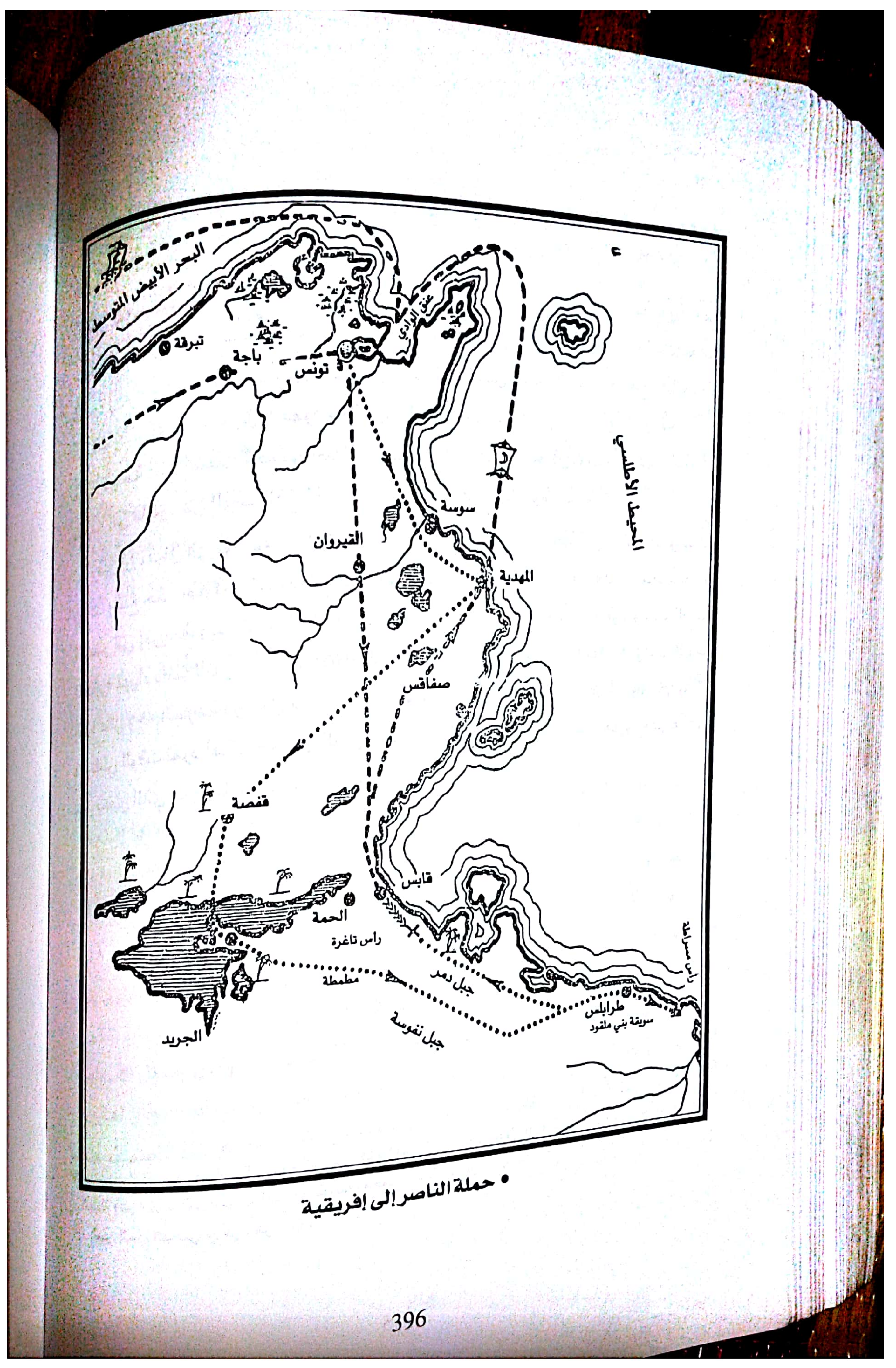
إثرها أرسل هذا الأخير مجموعة من الموحدين إلى المدينة تحت قيادة داود بن أبي داود الذي عُين عاملاً عليها.

وقد نقل يحيى عقب ذلك ثرواته إلى المهدية التي عقد العزم على الحفاظ عليها، حيث جمع فيها الكثير من المؤن تحسباً لحصار طويل الأمد، وبعد أن ترك للدفاع عنها حامية مشكلة من صفوة رجاله وأخلصهم عَين على رأسها ابن عمه الحاج علي بن غازي، غادرها مع رجاله نحو الجنوب وذلك بهدف تنسيق الجهود مع العرب لمقاومة الموحدين. وبعد مروره بالقيروان، أخذ طريق قفصة التي اضطر لإخلائها بعد وقت وجيز، عندما علم أن جيش الموحدين البري كان في طريقه إلى قابس، في الوقت الذي كان فيه أسطولهم يتأهب لمحاصرة المهدية[28].

وقبل أن يدخل في مواجهة مباشرة مع الموحدين، انتقل يحيى بن غانية إلى جبلي دمر ونفوسة بهدف وضع حد لمحاولات التمرد التي بدأ يخطط لها بعض الأهالي، بعدما علموا بمجيء جيش الناصر إلى إفريقية، وبعد الدعاية التي قام بها بينهم جواسيس هذا الأخير ومبعوثوه، وكانت المنطقة المذكورة مهيأة دائماً للتمرد. في تلك الأثناء نادت تاجرا كذلك بالناصر، مما أجبر يحيى على التوجه إليها على وجه السرعة من أجل محاصرتها وإجبارها على الاستسلام، وقد أذن لجنوده بنهبها[29]، في نفس الوقت تمرد أهالي طرابلس الذين طردوا العامل المرابطي تاشفين بن الغازي، وهو ما أثار حنق يحيى الذي هاجم المدينة بعنف بحيث حولها إلى خراب.

28- يتحدث الناصر في رسالته الرسمية التي حررها بالمخيم الذي ضربه بجوار المهدية بنوع من التفصيل عن مراحل الحملة وعن الكيفية التي تمت بها استعادة إفريقية. مجموع رسائل، م. س.، الرسالة، 37.

29- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 334.



• حملة الناصر إلى إفريقية

حصار المهدية

وفي الوقت الذي كان يحيى متحصناً بجبل دمر[30]، وصل الناصر إلى قابس التي عين عليها عاملاً جديداً، كما ترك بها جزءاً من القوتين البرية والبحرية، قبل أن يغادرها مع معظم قواته في اتجاه المهدية التي وردت منها الأخبار حول خروج حاميتها بكل جرأة ضد الموحدين الذين كانوا يحاصرونها، حيث تمكنت من قتل العديد منهم بينما أجبرت الباقي على الالتجاء إلى السفن.

وقد قام الموحدون بعد ذلك بفرض حصار جديد على المدينة رصدت له كميات كبيرة من المجانيق وآلات الحصار، لكن حامية المدينة خرجت ضد المحاصِرين من جديد بجرأة لا تقل عن تلك التي فكوا بها الحصار في المرة السابقة، وأضرموا النيران في آلات الحصار، في وقت لم تستطع فيه القوات الموحدية التي باغتها الهجوم، القيام بأي رد فعل. ولإعادة فرض الحصار مرة ثالثة، اضطر الموحدون لصنع السلالم والمجانيق وغيرها من الأدوات المستعملة في دك الأسوار، إضافة إلى بناء أبراج يتجاوز علوها علو أسوار المدينة. والظاهر أن ذلك الخروج الناجح زاد المحاصَرين ثقة بالنفس، وبما أنهم كانوا متيقنين من قرب وصول يحيى لمساعدتهم، فقد واصلوا الحصار باستماتة، في وقت التجأ فيه عامل المدينة علي بن الغازي، وكان من العارفين بمكائد الحرب وخباياها، إلى كل الحيل الممكنة لإفشال الحصار[31].

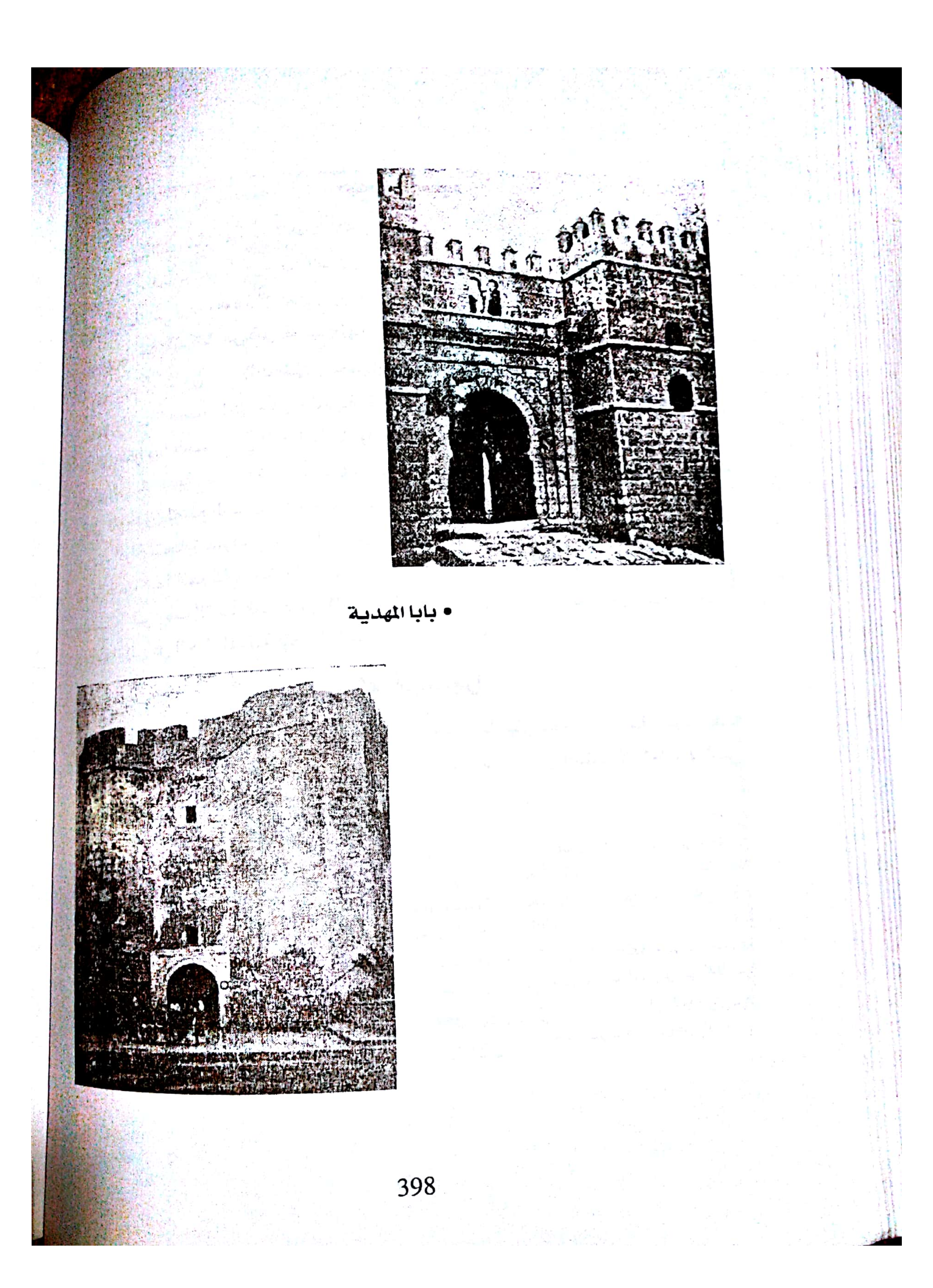
معركة رأس تاجرا [32]

وكان الموحدون واعين بأن يحيى الذي حصل في تلك الأثناء على دعم عرب زغبة وشريد وهما فرعان من عرب بني سليم، قادر على القيام بهجوم مباغت انطلاقاً من الجنوب لاستعادة الأراضي

30- نسبة إلى بني دمر المقيمين بجبال نفوسة. (المترجم).

31- يتحدث صاحب روض القرطاس، م. س.، ص. 232، عن تفاصيل هذا الحصار، فيشير إلى أن المجانيق التي حاول بها الموحدون تدمير اسوار المدينة كانت تطلق حجارة يتجاوز وزن الواحدة منها طناً، وقد أزاحت إحداها عن مكانه باب المدينة الحديدي وكان مستنداً على حوامل من الزجاج الأخضر، وتعلوه تماثيل نحاسية. غير أن هذا المصدر يخطئ في تحديد تاريخ الحصار الطويل وإخضاع الموحدين للمدينة، إذ يجعل ذلك في سنة 601هـ.

32- ورد عند صاحب الروض المعطار بخصوص تاجرا: «*تاجرا، موضع من أحواز قابس، تغلب عليها يحيى بن إسحاق، فتحرك إليه صاحب المغرب الملك الناصر أبو عبد الله من مراكش في جمادى الأولى من سنة إحدى وستمائة 601هـ، فنزل عليها في صفر 602هـ فحاصرها، وفي التاسع أو في السابع والعشرين من جمادى الأولى 602هـ انهزم يحيى بن إسحاق فكان بين هزيمة تاجرا وبين فتح المهدية شهران وستة وعشرون يوماً*». "فصل حول تاجرا" الروض المعطار، م. س.، ص. 125-126.



• بابا المهدية

التي فقدها، في وقت تقوم فيه حامية المهدية بمهاجمة مخيمهم. ولتفادي ذلك، جهز الموحدون جيشاً من أربعة آلاف فارس وضعوا على رأسه قائداً معروفاً بشجاعته هو أبو محمد عبد الواحد الذي نجح في إجبار يحيى على التراجع إلى غاية الصحراء. وكان هذا الأخير يفضل التنازل عن بعض الأراضي التي يحتلها، على مواجهة الموحدين، غير أن مرافقيه نصحوه بالقتال. وقد وضعت القوات الموحدية التي يقودها عبدالواحد مخيمها في مكان يعرف باسم منزل أم العافية، ومن هناك انطلقت تقتفي أثر العدو، وكان العرب الذين أجبروا من طرف يحيى على ترك عدد منهم، رهائن عنده -حتى يضمن مشاركتهم في القتال إلى جانبه- قد استعدوا للمشاركة في هذه المعركة التي سموها معركة النساء، لأنهم قبل انطلاقها ربطوا في مكان قريب من مكان وقوعها، جمالهم التي وضعوا بها أمتعتهم وبجوارها تركوا العربات التي تجرها الدواب والتي كانت تحمل نساءهم، وانطلقوا في قتال انتحاري لم يتركوا لأنفسهم فيه من خيار غير النصر أو الموت.

وكان عبد الواحد عارفاً بخطة الكر والفر التي ينهجها العرب، لذا أمر رجاله بالتخلص أولاً من الجمال والعربات وعدم المبالاة بالغنائم قبل تحقيق النصر النهائي. وخلال ثلاث ساعات وهي المدة التي استغرقها القتال، تمكن الموحدون من إفشال عدد من الهجومات المضادة التي شنها يحيى، ومن إرغامه على التراجع منهزماً، وملاحقته إلى أن حل الظلام. وكان قد ترك عائلته وبقية خاصته في مكان آمن يبعد خمسة فراسخ عن مكان المعركة، وكلف بحراستهم بعض رجال ثقته. وأثناء فراره مر بمكان وجودهم وحملهم معه. وكان وقوع تلك المعركة يوم 12 ربيع الأول 602هـ (17 أكتوبر 1205م) في مكان يبعد خمسة أميال عن رأس تاجرا وخمسة عشر ميلاً من قابس، وفيها تكبد يحيى خسائر فادحة، حيث فقد أخاه جبارة وكاتبه الخاص علي اللمطي وعامله على المهدية الفتح بن محمد، بالإضافة إلى أحسن قواده ومعظم جنوده. أما الموحدون فإضافة إلى الانتصار الذي حققوه، تمكنوا من فك أسر السيد أبي زيد عامل تونس وعائلته وشخصيات موحدية أخرى، وكان يحيى قد ألقى عليهم القبض جميعاً أثناء انسحابه من تونس، كما تمكنوا من وضع أيديهم على كل الثروات الضخمة التي جمعها أولئك الرحل الشجعان طيلة عشرين سنة، من أعمال النهب التي كانوا يقومون بها بتلك المنطقة الشاسعة أطرافها والممتدة ما بين طرابلس وبجاية.

استسلام المهدية

وأثناء رجوعه ظافراً إلى المخيم الموحدي الموجود أمام المهدية، قام عبد الواحد وعلى مرأىً من المحاصِرين باستعراض قواته والاطلاع على ما حصلته من غنائم، في نفس الوقت أمر وبشكل

مهين الشخص الذي كان يحرس السيد أبا زيد أثناء أسره والذي حاول قتله عندما علم بانتصار الموحدين، أمره أن يمتطي ناقة ويحمل العلم الأسود -شعار العباسيين- الذي أخذ من المعركة. إلا أن كل هذا لم يؤثر على معنويات المحاصَرين، كما لم تؤثر عليهم هزيمة يحيى، بحيث إنهم تحملوا الحصار ثلاثة أشهر أخرى تقريباً، وكان الموحدون قد نقلوا كل الآلات الحربية المخصصة لاختراق المدينة، إلى منطقة بعينها، خططوا انطلاقاً منها لفتح هوة بسور المدينة.

وبعد مرور حوالي أربعة أشهر على بداية الحصار، اقتنع علي بن الغازي أنه ليس هناك أية جدوى من مقاومته مدة أطول، لذا طلب الأمان الذي منح له وعائلته. وكان دخول الجيش الموحدي إلى المدينة يوم السبت 27 جمادى الأولى 602هـ (11 يناير 1206م)[33].

إثر ذلك، فكر علي بن الغازي في الالتحاق بأخيه يحيي، غير أنه وبعد أن قضى ليلة 27 جمادى الأولى، التي سلم فيها المهدية، بمخيمه الذي وضعه في المكان المعروف باسم قصر قراضة، بعث في صبيحة اليوم الموالي إلى الناصر يعلن خضوعه له ويعرض عليه خدماته، وقد استقبله هذا الأخير إثر ذلك بحفاوة كبيرة وسلمه جزءا من الهدايا التي وردت عليه في نفس ذلك اليوم من سبتة. وبما أن علياً هذا سبق له وأن أدى فريضة الحج، وبسبب مقاومته المستميتة للموحدين أثناء الحصار، فإن هؤلاء كانوا يلقبونه بالحاج الكافر. وسيرافق الخليفة إثر ذلك إلى تونس ثم إلى مراكش، كما أنه سوف يشارك فيما بعد في معركة العقاب والتي قضى بها.

وقد بقي الناصر بالمهدية عقب إعطائه الأمان لأهاليها مدة شهر تقريباً، قام خلاله بترميم ما خرب منها وتنظيم إدارتها، كما عين عاملاً جديداً عليها هو أبو عبد الله محمد بن عمر ينتي[34]. وفي 20 جمادى الثانية (فاتح فبراير) أخذ طريق العودة إلى تونس، وفي الثاني والعشرين من نفس الشهر وأثناء توقفه بمكان يدعى منزل أبي نصر، كتب رسالة رسمية يخبر فيها بالانتصار الذي حققه، وجهت نسخ منها إلى مختلف أنحاء الإمبراطورية. ومع وصوله إلى تونس وكان ذلك في فاتح رجب (12 فبراير)، رخص للجنود المنتمين لتلك المنطقة بمغادرة الجيش من أجل التفرغ لنشاطهم الزراعي والرعوي.

تعيين عبد الواحد الحفصي والياً على إفريقية

في بداية سنة 603هـ خرج الموحدون في حملة جديدة ضد منطقة طرابلس، تولى قيادتها أخو الخليفة السيد أبو إسحاق، الذي غادر تونس في صفر من السنة المذكورة (سبتمبر 1206م)،

33- هذا هو التاريخ الذي أورده التيجاني، أما الزركشي وابن عذاري، وبسبب خطأ الناسخ، فقد كتبا 29 بدل 27.

34- رحلة التيجاني، م. س.، ص. 209.

وكانت مهمته تتلخص في إخضاع المتمردين الذين قاموا ضد السلطة الموحدية في جبلي نفوسة وبني دمر. وفي طريقه إلى هناك مر بمدينة طرابلس، كما اقترب من أراضي سويقة بني مكود الواقعة بين لبدة ومشطرة[35].

وبعد تكلل هذه الحملة وكسابقتها بالنجاح، بدأ الخليفة يفكر في العودة إلى مراكش، غير أن تخوفه من أن تضيع ثمار كل تلك الانتصارات في حالة عودة يحيى بن غانية إلى المنطقة، جعله، وقبل أن يعود إلى عاصمة ملكه، يتخذ قراراً يتمثل في خلق توزيع إداري جديد في إمبراطوريته تتحول بمقتضاه إفريقية إلى شبه نيابة الملك. وإذا كنا لا نستطيع أن نعرف هل الفكرة في حد ذاتها هي للخليفة الذي لم يكن عمره قد تجاوز ستا وعشرين سنة أم لمستشاريه، فإن الذي نعرفه هو وقوع إجماع حول الشخص الذي رشح للمنصب؛ يتعلق الأمر بعبد الواحد بن أبي حفص الذي حقق الانتصار في تاجرا والذي بالإضافة إلى السمعة التي يتمتع بها، ينتمي إلى عائلة الحفصيين الذين أثبتوا أكثر من مرة وفاءهم للموحدين.

ويربط التيجاني بين الوضعية الإدارية الجديدة التي منحت لإفريقية، وبين التجارب الصعبة التي عاشها الموحدون هناك؛ فرغم أن الحملات التي قادها إليها عبد المومن ويوسف ويعقوب كانت طويلة وشاقة وكلفت الكثير من الرجال والأموال، فإنه وبسبب بعد إفريقية عن مراكش، كان المتمردون يقومون من جديد ضد السلطة الموحدية لمجرد عودة الخليفة إلى عاصمة ملكه.

ويرى صاحب البيان المغرب أن عبد الواحد الحفصي قبل منصبه الجديد دون أي تحفظ[36]. وقد منح إثر ذلك صلاحيات واسعة تهم الجانب العسكري والمالي. بخلاف هذا ترى مصادر أخرى مثل التيجاني أن عبد الواحد لم يقبل المنصب بسهولة، وأن الناصر ومن أجل إقناعه أرسل وفداً مهماً ترأسه ابنه وولي عهده، وأن الوفد لم ينجح في مهمته إلا بعد محادثات مطولة وبعد خطاب مستفيض ألقاه ولي العهد أمام عبد الواحد، بين من خلاله الفائدة التي ستعود على

35- يقول صاحب البيان المغرب عن ذلك: «وفي سنة ثلاث وستمائة شرع الناصر في تفقد البلاد... فأمر بتجهيز عسكر كثيف قدم عليه السيد *أبا إسحاق بن المنصور فخرج من تونس في شهر صفر، حتى دخلوا ما وراء طرابلس واستأصلوا بني دمر ومطماطة وما ولاها، ووقفوا على آخر جبال نفوسة، وجاوزوا حد عمرانها المحدود، وشارفوا ارض سويقة بني مكود، يقدمهم النصر والتأييد إلى كل سبيل*». م. س. ص. 248. (المترجم).

36- ومما أورده صاحب البيان المغرب بهذا الخصوص: «*لما فرغ الناصر من جميع الأشغال نظر في من يولى على جميع إفريقية،... فأجمع فكره وأوقف نظره الموفق على شيخ الموحدين وأكبر نجباء جماعتهم اجمعين ابا أحمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي فأصفق على هذا النظر الشديد العقلاء والألباب*». م. س.، ص. 249. (المترجم).

الموحدين بقبوله للمنصب. غير أن النقطة التي لم تتنبه لها هذه المصادر، هي استحالة القيام
العهد لأي خطاب بسبب صغر سنه، ذلك لأنه وإذا كان عمره عام 610هـ عندما خلف والده على
العرش يتراوح ما بين عشر وخمس عشرة سنة، فإنه لما عُين عبد الواحد على إفريقية عام 603هـ
كان في طفولته الأولى، بحيث كان سنه يتراوح ما بين ثلاث وثماني سنوات[37].

وكما اختلق هذا الخطاب، اختلقت الشروط التي وضعها عبد الواحد لقبوله المنصب، خصوصاً وأن إيراد هذا وذاك في المصادر التاريخية كان ضرورياً، وذلك بسبب النتائج بعيدة المدى التي سوف تترتب على قرار التعيين.

عودة الناصر إلى مراكش

بعد انقضاء شتاء سنة 1206 م، غادر الناصر تونس وكان ذلك يوم 7 شوال 603هـ (7 مايو 1207م)[38]. وفي يوم 9 من نفس الشهر ضرب مخيمه بباجة التي رافقه إليها عبد الواحد قبل أن يعود مباشرة إلى تونس التي باشر فيها ابتداءً من يوم 10 مهمته الجديدة. وقد انتقل الناصر بعد ذلك على رأس جيشه إلى تلمسان التي قضى بها شهر ذي الحجة، ومن هناك أصدر الأوامر لعمال الأندلس من أجل مراقبة الأمور المالية والتي كان يوليها اهتماماً خاصاً. وعقب الاحتفال بعيد الأضحى (8 يونيو)، واصل السير في اتجاه فاس التي ضرب مخيمه بضواحيها في مطلع محرم 604هـ (28 يونيو 1207م). وأثناء وجوده هناك، قام بتحريات حول تصرفات عمال المنطقة، انتهت بعزل عاملي فاس ومكناس واللذين تلقى عنهما شكاوى في حقهما من طرف الرعايا. وفي شهر صفر (سبتمبر) حل بمكناس التي أصيب فيها بمرض أقعده الفراش شهراً كاملاً، وذلك قبل أن ينتقل إلى الرباط التي قضى بها شهر أكتوبر، بحيث لم يبرحها في اتجاه مراكش إلا بعدما أحس أنه شفي تماماً من مرضه.

معركة شليف التي اختلقتها المصادر التاريخية

ويقدم صاحب روض القرطاس كرونولوجية مغلوطة عندما يؤكد أن يحيى بن غانية اعترض الناصر على ضفتي نهر الشليف يوم 30 ربيع الأول سنة 604هـ (24 أكتوبر 1207م)، وكان يقود -حسبه- جيشاً جراراً مؤلفاً من العرب ومن بربر صنهاجة وزناتة، تمكن بواسطته من إلحاق هزيمة نكراء بالخليفة[39]

37- رحلة التيجاني، م. س.، ص. 209. العبر الجزء السادس، م. س.، ص. 335. يقبل "بيل" رواية التيجاني ومن تبعه من المصادر العربية، دون أي تحفظ.

38- البيان المغرب، م. س.، ص. 249.

39- روض القرطاس، م. س.، ص. 148.

إن العودة إلى ما أورده صاحب البيان المغرب والذي يتحدث بنوع من التفصيل عن المراحل التي قطعها الخليفة في تنقله، يبين بطلان ادعاءات صاحب روض القرطاس، ذلك لأن التاريخ الذي يجعل فيه المعركة، كان الخليفة قد وصل فيه إلى الرباط[40]. ويصدق "بيل" بسذاجة ما جاء عند صاحب روض القرطاس بهذا الخصوص، لذا لا يتورع عند حديثه عن الطريق التي سلكها يحيى للوصول إلى مكان المعركة، في القول إنه تنقل من غرب الأوراس نحو منطقة التل عبر منخفض الحضنة، دون أن يدرك بأن هذه المعركة لم تقع أصلاً وأن الأحداث التي ألصقت بها تهم كلا من معركة شبرو[41] التي وقعت بمنطقة تبسة والتي تمكن خلالها عبد الواحد الحفصي من هزم يحيى مرة أخرى، ومعركة تاهرت والتي تمكن فيها يحيى من هزم عامل تلمسان، وكلا المعركتين لا ذكر لهما عند صاحب روض القرطاس.

لقد بقي شغل الناصر الشاغل بعد وصوله إلى مراكش، هو مراقبة الشؤون المالية والقائمين عليها. وهكذا استدعى عمال كل الولايات وعين في حضورهم عمر بن أبي زيد مفتشاً عاماً لبيت المال بالمغرب والأندلس، وعلى ضوء ذلك كلفه بالقيام بأعمال التفتيش والمراقبة بكل صرامة. وبحكم ميل الجباة الطبيعي للغش والاختلاس، كان لزاماً أن يسفر التفتيش عن معاقبة بعضهم ونقل البعض الآخر نقلاً تعسفياً إلى مناطق أخرى.

وبالنسبة ليحيى بن غانية، فإن فقدانه على إثر هزيمة تاجرا لثرواته ومتاعه والقلاع والمدن التي خضعت له، لم يحل دون مواصلته للحرب ضد الموحدين، وكان مقتنعاً وكما أثبتت التجربة من قبل، أنه بعد عودة الخليفة مع السواد الأعظم من قواته إلى مراكش، لن يستطيع عمال إفريقية مع العدد المحدود من الجنود الموحدين الذين معهم، ودون مساعدة جادة من طرف العرب، والذين كان يحيى يعرف أنهم لن يترددوا في خيانتهم، لن يستطيع هؤلاء العمال مقاومته مقاومة مستميتة، وهكذا بدأ يعمل على خلق الاضطرابات والقلاقل في الواحات الجنوبية وبمنطقتي الجريد وطرابلس. ورغم تخلي بعض فروع قبائل عرب بني سليم مثل مرداس والعوف عنه وانضمامهم إلى الموحدين، عقب الصدى الذي خلفته بينهم انتصارات هؤلاء، فإن فروعاً أخرى من عرب بني هلال وبني سليم لم يترددوا في الالتفاف حوله؛ ومن أبرز هؤلاء فرع الدواودة الذي قدم له زعيمه محمد بن مسعود البلط دعماً لا مشروطاً، مما ساعده على استئناف أعمال السلب والنهب ضد الأراضي الخاضعة لسلطة الموحدين.

40- البيان المغرب، م. س.، ص. 249.

41- تاريخ الدولتين، م. س.، ص. 13.

هزيمة يحيى بن غانية في شبرو

لم يدرك يحيى في البداية، أن عامل إفريقية الجديد عبد الواحد الحفصي ينفرد بموارد عسكرية لم تكن متوفرة عند سابقيه، وأنه يعتمد بالإضافة إلى كل القوات التي تركها الخليفة تحت تصرفه، على من انضم إلى الموحدين من العرب، بعد تعيينه على إفريقية. وفي 24 أكتوبر 1207م (30 ربيع الأول 604هـ) وكان الخليفة قد وصل إلى مراكش، وقعت مواجهة جديدة بين الطرفين بمنطقة تبسة وبالضبط على ضفة شبرو وهو أحد روافد نهر المجردة، حيث جرى قتال عنيف استمر حسب ابن خلدون طيلة النهار، ولم ينسحب يحيى ورجاله إلا بعد نزول الظلام في وقت تعقبهم فيه الموحدون الذين لم يتراجعوا إلا بعدما أخذوا منهم أمتعتهم. ورغم إصابة يحيى بجروح أثناء القتال فإنه تمكن من النجاة بنفسه والالتجاء إلى الصحراء.

وقد استُقبل خبر هذا الانتصار في مراكش بارتياح كبير، وحسب ابن خلدون دائماً فإن عبدالواحد طلب بعد هذا الانتصار من الخليفة الوفاء بوعده وإعفاءه من مهامه، غير أن هذا الأخير اكتفى بشكره والاعتذار له عن عدم قدرته تلبية طلبه في ذلك الظرف الذي تعرف فيه بلاد المغرب مشاكل خطيرة، ووعده بالنظر في الموضوع مستقبلاً، في نفس الوقت أرسل له 200 ألف دينار وهدايا ثمينة. وأمام موقف الخليفة هذا، لم يجد الشيخ عبد الواحد بدأ من القبول بالأمر الواقع ومواصلة تعقبه ليحيى بن غانية، الذي اقتنع بأنه لم يعد هناك أمل في الانتقام من الموحدين في إفريقية خصوصاً مع ما أصبح يجده من صعوبات في الحصول على التموين وفي منح الغنائم لأتباعه العرب، لذا اقترح على هؤلاء ترك إفريقية وواليها المخيف وشأنهما.

هزيمة الموحدين في تاهرت

في سنة 605هـ (يوافق اليوم الأول منها 16 يوليو 1208م واليوم الأخير 5 يوليو 1209م) وبسبب مرضه، قدم عامل تلمسان السيد أبو الحسن عمر استقالته، وكان قد شغل ذلك المنصب لأول مرة عام 581هـ. والظاهر أن القبائل الزناتية خصوصاً بني مرين منهم، استغلوا فرصة مرضه لعرقلة المواصلات والسطو على القوافل التي تتنقل بين تلمسان وسجلماسة. وقد عُين محله السيد أبو عمران بن يوسف[42] الذي انتقل إليها مزهواً واثقاً من نفسه وإمكانياته، وبعد تقلده لمنصبه الجديد خرج من المدينة في جولة تفقدية بأنحاء الولاية علم خلالها باقتراب يحيى

42- الروض المعطار، الفصول التي يتحدث فيها عن تاهرت وتلمسان، م. س.، ص. 126-127 وص. 135-136،

من تلمسان. ورغم محاولة الزناتيين، وكانوا يتعاطفون مع يحيى، إيهام العامل المعين بأن الخروج ضد هذا الأخير والقضاء عليه هو من السهولة بمكان، فقد بقي متردداً في القيام بذلك، غير أن النصيحة التي تلقاها في تلك الأثناء من الشيخ عبد الواحد والذي طلب منه من خلالها عدم الدخول في أية مواجهة مع يحيى، والانتظار إلى أن يصل هو بحيث يقومان معاً بالقضاء عليه وإبادة قواته، جعلت السيد ومستشاريه يعتبرون نصيحة الشيخ إهانة لهم ولقدراتهم، وقرروا بسببها التوجه نحو تاهرت لمهاجمة العدو. ولما لاحظ ابن غانية أنهم ابتعدوا عن قواعدهم، هاجمهم وهزمهم بسهولة خصوصاً وأن مرافقيهم من زناتة تخلوا عنهم وانسحبوا نحو قلاعهم. وقد قتل السيد في المواجهة وأسر أبناؤه وبقية أفراد عائلته وكاتبه أبو الحسن بن عياش وعدد من طلبة تلمسان. وكان عدد الرجال الذين فقدهم الموحدون في المواجهة هو 1600 [43].

وعقب المعركة نهب المنتصرون مخيم السيد وحولوا تاهرت إلى أطلال لم تُعمر بعد ذلك أبداً. وقد أغلقت تلمسان عقب الهزيمة أبوابها والتجأ أبناء القبائل المجاورة إلى المناطق الآمنة التي يتعذر على العدو الوصول إليهم بها، في وقت واصل فيه هذا الأخير نهب مزارع المنطقة. في ظل هذه التطورات، انتقل عامل فاس السيد أبو زكريا على وجه السرعة إلى تلمسان في محاولة منه لإعادة الهدوء والاستقرار إليها، بينما بدأ الناصر ولمجرد علمه بالخبر، بتجهيز جيش جديد وضع على رأسه الوزير أبا زيد بن يوجان الذي ما أن وصل إلى تلمسان حتى انسحب يحيى بن غانية إلى الصحراء، وذلك حتى لا يجد نفسه في وقت واحد مجبراً على مواجهة هذه القوات وتلك التي كان يُنتظر أن يقودها نحو المنطقة الشيخ عبد الواحد[44].

وإثر توديع الناصر لابن يوجان، أصدر عفواً عاماً في حق المسؤولين السابقين عن مالية الدولة بالمغرب والأندلس، والذين تم اعتقالهم بعد ثبوت تورطهم في قضايا غش واختلاس. مباشرة بعدها أقبل على إعادة تنظيم الإدارة، كما عزل عددا من الموظفين وعين آخرين. وقد قضى الخليفة إثر ذلك، وكان في عنفوان شبابه، ثلاث سنوات مستمتعاً بحياة البلاط وملذاتها دون أن يكدر صفوه شيء، خصوصاً مع قناعته بأن الشيخ عبد الواحد يؤدي مهمته على الوجه

43- البيان المغرب، م. س.، ص. 253.

44- لا أظن أن الرواية التي أوردها "بيل" والتي تقول إن يحيى وقبل انتقاله إلى المغرب الأوسط توجه إلى سجلماسة التي نهبها، تتوفر على مصداقية، كما لا تتوفر عليها في نظرنا رواية ابن خلدون التي تقول إن يحيى وبعد انسحابه من سجلماسة اعترض طريقه الشيخ عبد الواحد الذي هزمه وأخذ منه كل ما نهبه.

الأكمل في إفريقية، وأن الممالك المسيحية في الأندلس ملتزمة بالهدنة التي وقعتها مع والي
والتي زكاها هو بعد توليه الخلافة.

معركة جبل نفوسة

وأثناء وجوده في الصحراء، نجح يحيى بن غانية في جمع قوات جديدة، حيث التف حوله بقايا المرابطين وعرب الدواودة الذين يقودهم محمد بن مسعود، بالإضافة إلى عرب رياح وشريد وعوف ودياب ونفطة، واتفق معهم على غزو إفريقية من جديد، غير أنه وقبل الشروع في ذلك خرج ضده الشيخ عبد الواحد على رأس قواته. وقد وقعت المواجهة بقدم جبل نفوسة بجوار وادي الدبوسة، وفيها دارت الدائرة على ابن غانية الذي انكسرت شوكته وتبخرت كل آماله في بعث الوجود المرابطي من جديد بشمال إفريقية.

وفي الوقت الذي كان القتال على أشده، ضرب عبد الواحد خيامه ونصب أعلامه وهو ما يعني أنه لن يقبل إلا بأحد الخيارين: النصر أو الموت. ومقابل عزيمته هذه، تعرضت معنويات الميورقيين لهزة عنيفة بعد تخلي بني عوف عنهم، وهو ما أرغمهم على الفرار، غير أن ذلك لم يحل دون مطاردتهم من طرف الموحدين الذين لم يتركوهم إلا بعد أن حل الظلام.

ولا نتوفر على معلومات بشأن اليوم والشهر الذي وقعت فيهما المعركة والتي حقق فيها الشيخ عبد الواحد -حسب ابن خلدون- أهم انتصاراته على يحيى بن غانية. ولإعطاء فكرة عن أهمية هذا الانتصار، يورد ابن خلدون ما جاء على لسان ابن ناجيل -الكاتب الخاص للشيخ عبد الواحد- الذي يقول إن الغنائم التي ظفرها الموحدون كانت من الأهمية بمكان، بحيث تطلب شحنها ما لا يقل عن ألف دابة. إلا أننا نظن أن هذا الرقم فيه بعض المبالغة، ومما يقلل من مصداقيته، أنه هو نفسه الذي أورده صاحب الروض المعطار عند حديثه عن الدواب التي استعملها الموحدون لشحن الغنائم التي ظفروها عقب هزمهم لابن غانية في معركة تاجرا التي وقعت قبل أربع سنوات.

وكما هو الشأن في غيرها من المعارك المصيرية، ترك العرب جمالهم وأمتعتهم وخصوصاً نساءهم وأطفالهم بمكان قريب من ساحة المعركة، مشكلين بهم خطاً دفاعياً. وكانت غايتهم من ذلك إيجاد حافز على القتال، والاحتماء -في إطار خطة الكر والفر التي يعتمدونها- بذلك الخط الدفاعي. وقد حققوا في البداية بعض التقدم، إثر مهاجمتهم للجناح الأيمن من قوات الموحدين. غير أن بقاء الشيخ عبد الواحد ضمن ساقة جيشه، حيث قاتل بشجاعة، سمح له بتحقيق

الانتصار النهائي. وقد لقي حتفه في المواجهة، عدد من قادة بني غانية وزناتة والعرب، من بينهم محمد بن الغازي بن غانية وزعيم الدواودة محمد بن مسعود البلط وابن عمه حركات.

وبمناسبة هذا الانتصار، نظمت احتفالات كبرى ألقيت فيها القصائد الشعرية. والحقيقة أن المناسبة كانت تستحق ذلك، لأن عبد الواحد وفي مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات تمكن أن يحقق في إفريقية من الانتصارات الحاسمة ما عجز عن تحقيقه كل من يعقوب المنصور ومن بعده الناصر خلال خمس وعشرين سنة من القتال.

المقاومة المرابطية

تتحدث المصادر التاريخية وبشكل قدحي عن الكيفية التي أقبل بها المرابطون على حياة اللهو والترف وملذات الحياة في الأندلس المتحضرة، وذلك بعد أن تركوا حياة البداوة والخشونة في الصحراء، غير أن ما ذهبت إليه هذه المصادر يجانب الصواب بالنسبة لبني غانية المرابطين، فهؤلاء تركوا الحضارة الأندلسية التي ترعرعوا فيها وتركوا جزر البليار الفردوسية والتي كانت ملذات الحياة سهلة المنال بها، ليوجهوا كل اهتمامهم للقضية التي نذروا أنفسهم لها، وهو ما جعلهم أهلاً لكل تقدير واحترام.

إنهم وبعد أن فرضوا وجودهم كقراصنة مرهوبي الجانب على امتداد الجناح الغربي من البحر الأبيض المتوسط، استغلوا أول فرصة أتيحت لهم لإعلان حرب لا هوادة فيها على الإمبراطورية الموحدية، وكان ذلك عقب موت يوسف الأول. وإذا كنا من جهة لا ننظر بتقدير إلى ما قام به بنو غانية من أعمال سلب ونهب وبطش وصلت إلى درجة البشاعة في بعض قرى ومدن إفريقية، فإننا من جهة أخرى لا نستطيع أن ننظر إلا بتقدير وإعجاب لصلادتهم وإخلاصهم للقضية التي كرسوا أنفسهم لها.

لقد سقط علي بن غانية بإفريقية وأخوه عبد الله بميورقة في ساحة الوغى بكل شجاعة، وأظهر أخوهما وخلفهما يحيى شجاعة نادرة وحيوية لا تعرف الكلل في إفريقية كذلك، وتمكن المرة تلو الأخرى وعلى امتداد نصف قرن من محاربة الموحدين رغم قساوة الهزائم التي تكبدها، ورغم روح الغدر التي ميزت العرب الذين كان يعتمد عليهم. وهكذا فبعدما اقتنع باستحالة القيام بأي تحرك ناجح في إفريقية مادام عبد الواحد الحفصي عليها قائماً، فضل وبدل الخضوع لسلطة الموحدين شأن عدد من أفراد عائلته[45]، أن يهيم على وجهه في الصحراء لمدة ثلاث

45- من بين هؤلاء حسب ابن خلدون، أخوه سير بن اسحاق بن غانية الذي وبعد أن خمدت همته إثر هزيمة معركة نفوسة، أعلن خضوعه للموحدين الذين رحبوا بذلك حيث استقبلوه بحفاوة ورخصوا له بالانتقال إلى مراكش.

سنوات. وفي 609هـ (1212م) -سنة معركة العقاب- اتجه إلى ودان[46]، وكانت نقطة صعبة الاختراق، خصوصاً بعد التحصينات التي وضعها بها قراقش لتفادي خطر أعدائه من الموحدين وعرب دباب الذين قتلوا عام 586هـ (1190م-1191م) غدراً عددا من شيوخ ودان. وقد تمكن يحيى وبتواطؤ مع عرب دباب من اعتقال قراقش واغتياله بعد ذلك[47]. وبعد انتقامه من قراقش كان على يحيى أن ينتظر، عشر سنوات أخرى، وفاة عبد الواحد الحفصي الذي لا يقهر، قبل أن يستأنف كما سنرى، محاولاته الرامية لإعادة السلطة المرابطية للمغربين الأوسط والأدنى.

وبخلاف يحيى، أعلن أحد إخوته ويدعى سير إسحاق بن غانية، وبسبب ما أصبح يحس به من إحباط وخيبة أمل عقب هزيمة جبل نفوسة، أعلن خضوعه للموحدين الذين استقبلوه بترحاب ورخصوا له بالانتقال إلى مراكش.

شن هجوم بحري على قطلونية

يقدم لنا صاحب البيان المغرب، معلومات عن قرارات التعيين والعزل التي أصدرها الناصر في حق كبار الموظفين، وفي نفس الوقت يورد خبراً لا نجده عند غيره؛ مفاده أن السيد أبا العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطولين الموحديين الموجودين على ضفتي مضيق جبل طارق، والذي قام من قبل وبنجاح بغزو جزر البليار، قاد عام 1210م حملة كبيرة ضد السواحل القطلونية، ألحق من خلالها أضراراً جسيمة بالعدو. ويضيف ذات المصدر أن القوات البحرية الموحدية لم يسبق لها أن حققت انتصاراً يفوق هذا الأخير بريقاً[48]. وقد جاءت هذه الحملة البحرية الموحدية، في اعتقادنا، كرد فعل على الهجوم الذي شنه في نهاية مارس من نفس السنة بيدرو الثاني ملك أرغون الذي وبعد أن حشد قواته بـ"مونثون" Monzon استولى بمساعدة جنود "هيكل الرب" Templarios على حصون "أدموث" Ademuz و"قشتلفبيب" Castelfabib و"شرتلة" Sertella.

في هذه الأثناء كذلك، قرر الشيخ عبد الواحد الحفصي ذو الحنكة الواسعة والحيوية التي لا تعرف الكلل، وضع حد وبشكل نهائي لتجاوزات عرب بني سليم، ومن أجل ذلك أسر شيوخهم الذين حملهم معه إلى تونس، وكان واعياً بأن هذه هي الطريقة المثلى التي سترغمهم على عدم العودة

46- هي أهم مركز في منطقة واحات تمتد إلى غدامس شرقاً وإلى فزان غرباً.

47- رحلة التيجاني، مخطوط الجزائر، رقم 2014، م. س.، ص. 45.

48- البيان المغرب، م. س.، ص. 253.

للتعاون مع يحيى بن غانية. في نفس الوقت تقريباً، قاد عامل طرابلس الموحدي حملة ضد منطقة جبال نفوسة، وبذلك تمكن الموحدون من إقرار السلم بكل إفريقية.

اندلاع حريق مراكش

ولا نعرف هل حدثت في المغرب خلال تلك السنة أحداث مهمة أخرى غير الحريق المهول الذي شب في قيسارية مراكش والأسواق المجاورة للقصر الملكي ليلة الخميس 13 جمادى الأولى (2 نوفمبر 1210م). فقد استيقظ الناس تلك الليلة على لهيب النيران التي تبين لهم استحالة إخمادها، في وقت لم يجد فيه الناصر من حل غير مغادرة قصره والصعود إلى صومعة المسجد المجاورة ليتأمل، دون أن يستطيع شيئاً، النيران الملتهبة والتي زادت من حدتها الرياح والحرارة المرتفعة، بحيث أتت على ما كان في مخازن العاصمة من مؤن. وإذا كان القليل من هذه المؤن قد سلم من لهيب النيران، فإنه لم يسلم من أيدي السوقة. وبعد أن خمدت النيران وبعد معاقبة السوقة الذين قاموا بأعمال النهب، بدأ الناصر مباشرة بترميم الأسواق المتضررة، ليس فقط بسبب النشاط التجاري المهم الذي كانت تعرفه، وإنما لكونها كانت بمثابة حاجز طبيعي ممتد أمام القصر الملكي، يسمح بحمايته عند الحاجة[49].

الحرب على الواجهتين / الهجوم القشتالي

بقيت الإمبراطورية الموحدية حبيسة قدرها الذي لم يكن ليسمح لها بأن تنعم بسلم شامل على جبهتيها الحدوديتين: فعندما كانت توجه كل اهتمامها للقضاء على التمرد في إفريقية، كان النصارى يستغلون الفرصة لتوجيه الضربات الموجعة للأندلس الموحدية، وعندما كان هؤلاء ينقلون قواتهم إلى شبه الجزيرة لوضع حد لهذه الهجومات، كان بنو غانية ومعهم العرب في إفريقية يستغلون الوضع للاستيلاء على ولايات برمتها.

غير أنه وخلال السنوات التي كان الموحدون منهمكين أثناءها في غزو جزر البليار ومطاردة يحيى في إفريقية، لم يتمكن القشتاليون والليونيون والبرتغاليون من مد نفوذهم على حساب الموحدين، أولاً بسبب المواجهات التي كانت بين بعضهم البعض، وثانياً بسبب الهدن التي وقعوها مع المنصور والتي مُدد العمل بها على عهد الناصر. ويشير المطران دون رودريغو إلى أن ألفونسو الثامن كان ينتظر انقضاء الهدنة التي تربطه وأمير المؤمنين على أحر من الجمر، للانتقام لنفسه من

49- نفسه، ص. 257-258.

الهزيمة التي مني بها في الأرك[50]. هذا الإحساس كان يشاركه فيه ابنه الوحيد الأمير فرناندو الذي كان يدعو ويلح، بسبب رغبته التي لا تقاوم في القتال لأول مرة ضد المسلمين، على ضرورة إعلان الحرب المقدسة على العدو. وقد قرر ألفونسو في النهاية إعلان هذه الحرب على الموحدين دون انتظار انتهاء فترة الهدنة. من أجل ذلك غادر طليطلة عام 1209م على رأس قواته، في وقت اجتمع فيه رئيس رهبانية قلعة رباح "روي دياث دي يانكواس" Ruy Diaz de Yanguas مع قواته في شلبطيرة[51]. وقد قصد الملك إثرها جيان وبياسة، في حين توجه رئيس الرهبانية صوب أندوجر التي تمكن بعد مهاجمتها من الحصول على غنائم كثيرة، كما استولى على أربعة حصون هي: "بلش" Vilches و"بيلبافون" Pilpafon و"فصورة" Fesora و"مونتورو" Montoro والتي خربها كلها باستثناء "بلش".

وفي السنة الموالية -1210م- عبر ألفونسو الثامن "موية" Moya وكان ذلك يدخل في إطار استعداداته للحرب. وقد عبر أمير المؤمنين عن احتجاجه لهذا التصرف من خلال سفارة بعث بها إلى ألفونسو الذي لم يبال بها، بحيث واصل استعداداته مستفيداً في ذلك من المساعدة المقدمة من طرف بيدرو الثاني ملك أراغون. أمام هذا الوضع، وبسبب طلبات النجدة المتكررة من أهالي الأندلس، أصدر الخليفة أوامره بتحديد الطريق التي سوف تمر منها الحملة التي قرر الخروج فيها إلى الأندلس للجهاد، وبضبط المحطات التي سوف تتوقف عندها.

وعلى إثر هذه الاستعدادات الحربية الأولية، طلب الأمير فرناندو، وريث عرش قشتالة من البابا إينوصان الثالث مباركة أول مشاركة له في القتال ضد الكفار، وفي نفس الوقت الحيلولة دون قيام ملك ليون باستغلال فرصة عدم وجود القوات القشتالية داخل مملكتها والإغارة على القلاع الحدودية. وتلبية لهذه الرغبة، صدرت براءة بابوية مؤرخة في 22 فبراير 1211م يأمر فيها إينوصان الثالث، مطران طليطلة وأساقفة سمورة وطرغونة وقلمرية، بإصدار قرار تكفير غير قابل للنقض ضد الملوك المسيحيين الذين قد يتراجعون -في الوقت الذي يهاجم فيه ألفونسو وابنه المسلمين- عن هدن أو معاهدات سلمية وقعوها من قبل مع قشتالة.

50- Bellum de Alarcuris corde altissimo reponebat. Segun don Rodrigo, VII.33. Menebat in alta mente regis postium Cronica Latina. p. 55.

51- Don Rodrigo, VIII, 35 .

عبور الناصر إلى الأندلس

ولما وصل الإذن البابوي إلى إسبانيا، كان الجيش الموحدي قد عبر المضيق، ذلك لأن الناصر قرر توجيه كل اهتمامه لمحاربة المسيحيين في إسبانيا واستعادة مجد والده، بعد الاستقرار النسبي الذي عرفته إمبراطوريته شاسعة الأطراف، عقب إخماد تمرد يحيى بن غانية واستعادة جزر البليار وتفويض أمر إفريقية إلى رجل محنك ووفي للقضية الموحدية هو عبدالواحد الحفصي. وقد غادر الخليفة مراكش يوم السبت 20 شعبان (6 فبراير 1211م)، في اتجاه الرباط التي قضى بها شهر مارس، والتي غادرها بمجرد تحسن أحوال الجو، وكان ذلك في 18 شوال (4 أبريل). وعند توقفه بمحطة مرج الحمام، أرسل من ينقل أوامر جديدة متعلقة بالحملة إلى القائمين على شأن الأندلس، قبل أن يستأنف السير في اتجاه المحطة الموالية وهي القصر الكبير (قصر كتامة). ويظهر أن نقص المؤونة وعقم الإجراءات الإدارية والبطء الذي كانت تتحرك به الحملة، جعل الاستياء شاملاً بين الجنود الذين أصيبوا بالإرهاق قبل أن يصلوا إلى الأندلس.

في خضم كل هذا، صب الناصر جَمَّ غضبه على عمال مختلف الولايات الذين اعتبرهم المسؤولين الأساسيين على الصعوبات التي اعترضت الحملة، وعلى حالة التذمر السائدة بين القوات المشكلة لها، ولم يتردد في اتخاذ إجراءات في حقهم عادة ما تتخذ في حق المتمردين، وهكذا عزل أولاً عامل فاس وسجنه مع كل مساعديه وعين محله الوزير أبا محمد بن مثنى، ثم عزل عند وصول الحملة إلى القصر الكبير، عامل المدينة محمد بن يحيى بن تاكفت الذي نُقل إلى فاس حيث أعدم مع عاملها المعزول بعد صلاة الجمعة. وكان ذلك في نهاية مايو أو مطلع يونيو 1211م.

وبعد أن وصلت القصر الصغير السفن القادمة من مختلف موانئ الإمبراطورية، بدأ العبور حيث انتقلت إلى الضفة الأخرى للمضيق كل القوات إضافة إلى حرس الخليفة وحاشيته وأمتعته. عقب ذلك وبالضبط في يوم الاثنين فاتح ذي الحجة (16 مايو) أبحر الخليفة في اتجاه طريفة التي استقبل بها عمال الأندلس وقوادها وفقهاءها الذين جاؤوا للسلام عليه، قبل أن يواصل السير يوم السبت 21 مايو في اتجاه اشبيلية التي وصل سهلها بعد عبوره لفج إبراهيم. وفي 15 ذي الحجة (30 مايو) دخل المدينة حيث نزل مع حاشيته بقصور بحيرة باب جوهر.

وخلال النصف الأول من يونيو، وأثناء إقامته باشبيلية، أعلن حالة الاستنفار. وحسب صاحب روض القرطاس الذي أطلق هنا كذلك العنان لخياله، فإن نصارى قشتالة تملكهم الرعب بعدما

علموا بوصول أمير المؤمنين، وغادروا القلاع الحدودية للاحتماء بالمناطق الداخلية. وعلى طريقة "هوبيدان"، الذي يتحدث كما مر بنا عن زيارة ملك نبرة إلى الأندلس والمغرب وهيامه بابنة يعقوب المنصور، يتحدث صاحب روض القرطاس وبالتفصيل عن زيارة سانشو لأمير المؤمنين الناصر، وهي زيارة لا يمكن وصفها إلا بالوهمية، وإن المعلومة الوحيدة التي يمكن تصديقها فيما أورده المصدر المذكور بخصوص هذه النقطة، هو ما تعلق بتاريخ وصول الناصر إلى اشبيلية والذي جعله في 17 ذي الحجة (فاتح يونيو).

وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الموحدي يعبر المضيق، توجه ملك قشتالة وابنه الأمير فرناندو بمعية جنود مجريط ووادي الحجارة ووبذة وإقليش نحو الشرق حيث قصدوا شاطبة، وقد وصلوا البحر في شهر مايو. وأثناء قيام ملك قشتالة بهذه الغارات، حاصر القائدان القشتاليان "ألفونسو طايث" Alfonso Tallez و"رودريغو كوتيريث" Rodrigo Gutierrez اعتماداً على قوات طليطلة، برج "وادي الفرثة" الذي تمكنا من احتلاله.

حصار شلبطيرة

ولم يمكث أمير المؤمنين بسبب هذه العمليات الاستفزازية أكثر من شهر واحد في اشبيلية التي غادرها على رأس قواته في نهاية مايو صوب حصن شلبطيرة [52]، وكان سكانه المسيحيون قد فروا منه عقب انتصار يعقوب المنصور في معركة الأرك عام 1195م مخلفين وراءهم أمتعتهم، غير أنهم عادوا لاحتلاله ثلاث سنوات بعد ذلك التاريخ، حيث اكتسحوا أراضي العدو التي قاموا فيها بالسلب والنهب، رغم قناعتهم بأن وجود الحصن داخل أراضي المسلمين، وعلى مسيرة يوم بكامله من أقرب نقطة خاضعة للمسيحيين، يجعل إمكانية تلقيهم للنجدة عند الضرورة أمراً متعذراً.

وعن حصن شلبطيرة يقول الناصر في رسالته الرسمية المؤرخة في 2 ربيع الثاني (13 سبتمبر)[53] والتي وجهها إلى رعاياه في مختلف أنحاء الأمبراطورية: «*وكان المعقل المعروف بشلبطيرة قد علقت به حبائل الصلبان، وتألم ببقائه وسط البلاد قلب الإيمان، قد جعلته النصرانية إلى كل غاية جناحا، وأعدته لأبواب المدائن مفتاحا، تهان شعائر الله في سنامه وبطحائه، ودين الحق عن*

52- تقع بين قلعة رباح والقمم الأمامية من جبل الشارات، في منتصف الطريق المؤدية من أندوجر إلى قلعة رباح والتي تصل وادي آنة بالوادي الكبير.

53- البيان المغرب، م. س.، ص 261-262.

بيمينه وشماله وأمامه وورائه، *تعتقده الكفار حجها وجهادها، وتخدمه ملوكها ورهبانها وبلدانها، وتسرب إليه درهمها ودينارها، وتزعم أنه يعصم دارها ويحط أوزارها*»[54].

كان من الطبيعي إذاً أن يجعل الموحدون من هذا الحصن وجهتهم الأولى، وقد أرسلوا ضده قبل وصول بقية الجيش، مجموعة من الفرسان الممتطين لخيول عربية أصيلة، أمروا بالإغارة على الحقول المجاورة له، غير أن حامية من الحصن مشكلة من 400 فارس خرجت ضدهم بكل شراسة، ولم تتراجع خلف الأسوار إلا بعد أن تدخلت بقية القوات الموحدية بكل ثقلها من أجل مؤازرة الفرسان الموحدين. في نفس الوقت ولتعزيز القوات الدفاعية للحصن، أخلى المسيحيون القرية الصغيرة الموجودة بالتل المجاور له. وقد أضرم العدو إثر ذلك النيران في القرية كما شدد الحصار على الحصن، ووجه صوبه أربعين من المجانيق، أمطره بواسطتها بوابل من القذائف والسهام التي لم تتوقف ليل نهار، في نفس الوقت قامت فيالق من جيشه بأعمال نهب في كل منطقة طليطلة. وبعد مقاومة بطولية، قرر المسيحيون الموجودون بالحصن تسليمه للمسلمين إذا لم يقدم لهم ألفونسو الثامن الموجود بسلسلة جبال سان بيسنتي"San Vicente بجوار طلبيرة النجدة. وبعد أن عقد هذا الأخير مجلسه الحربي قرر تأجيل القتال ضد المسلمين إلى السنة الموالية، وبالتالي رخص لهم بتسليمه.

ويقدم لنا صاحب الروض المعطار بخصوص هذه النقطة معلومات لم تستغل لحد الآن رغم أننا لا نجدها في المصادر العربية الأخرى التي تناولت الموضوع، وهكذا فبعد وصفه -وبمبالغة طبعاً- لحجم الحجارة التي كانت تطلقها المجانيق الموحدية، يخبرنا أن هؤلاء وقبل احتلالهم لشلبطيرة استولوا على حصن الثلج أو اللج (الكتابة غير واضحة في المخطوط الأصلي)[55]، كما يخبرنا أن الوفد الذي بعث به من كان محاصَراً بشلبطيرة إلى ألفونسو، حمل معه عينة من الحجارة الضخمة التي كانت تطلقها المجانيق الموحدية، وفي نفس الوقت أخبر هذا الأخير باستحالة مواصلة مقاومة الحصار، والذي استمر واحداً وخمسين يوماً.

ويورد مؤلف الروض المعطار كذلك جزءا من رسالة رسمية أخرى بعث بها الناصر من أندوجر إلى عبد الواحد الحفصي والي إفريقية بشأن احتلال شلبطيرة، وفيها يتحدث عن أسباب الاحتلال بنفس العبارات التي وردت في الرسالة سالفة الذكر التي أوردها صاحب البيان المغرب.

54- نفسه، ص. 261-262.

55- من المحتمل أن يكون هو نفسه El Castiel de Dios ، وهي قلعة صغيرة فقدها المسيحيون في نفس وقت فقدان شلبطيرة حسب Anales Toledanos .

هناك مصدر آخر لم تتم الاستفادة منه لحد الآن بخصوص هذه النقطة، وهذه المرة مسيحي هو "التاريخ اللاتيني لملوك قشتالة" الذي يؤكد أن حجم المجانيق كان كبيراً جداً، ويضيف أن ألفونسو الثامن ترك "لوبيث دي هارو" للدفاع عن طليطلة إذا ما تطلب الأمر ذلك، بينما خرج هو على رأس قواته يجوب القرى القشتالية القريبة من جبال سان بيسنتي قبل أن يتوقف بهذ الجبال. وحسب هذا المصدر فإن حصار حصن شلبطيرة دام أكثر من شهرين، اضطر بعدها سكانه للاستسلام، نجاة بأنفسهم وإنقاذاً لما يمكن إنقاذه من ممتلكاتهم.

وإذا ما قارنا بين مختلف المصادر التي قدمت معلومات وتواريخ عن الموضوع، نستشف أن حصار الحصن بدأ في منتصف شهر يوليو وأن احتلاله تم في الأيام الأولى من شهر سبتمبر[56].

ويقدم صاحب الروض المعطار مرة أخرى معلومات مغلوطة؛ وهكذا فكما جعل تاريخ بداية الحصار سابقا للتاريخ الحقيقي، يجعل مغادرة الناصر لاشبيلية سابقة للتاريخ الذي تمت فيه[57] كما أنه وحتى يجد تبريراً لكارثة العقاب، يخلط أحداثها بأحداث حصار شلبطيرة، وهو ما لم ينتبه إليه مؤرخونا الذين أخذوا عنه بكل سذاجة، رغم أن كل المصادر المعاصرة للأحداث، عربية منها ومسيحية تذهب إلى عكس ما ذهب إليه هو. وهكذا يجعل حصار شلبطيرة يدوم ثمانية أشهر أي يمتد إلى نهاية الشتاء، و يربطه باحتلال قلعة رباح من طرف ألفونسو والذي لم يحدث إلا في السنة الموالية، ويعتبر أن سبب فقدان هذه القلعة ونكسة الموحدين فيها وفي العقاب يرجع لحالة الإرهاق التي كان يعاني منها الجيش، وللدسائس التي كان يحيكها الوزيران ابن جامع وابن المثنى، ويختم سلسلة معلوماته المغلوطة بخصوص هذه النقطة، بجعل تاريخ سقوط شلبطيرة بيد الموحدين في متم ذي الحجة 608هـ (2 يوليوز 1212م).

وفاة ولي عهد قشتالة

وبعد شهر واحد من فقدان المسيحيين لشلبطيرة، وبالضبط في يوم 14 أكتوبر، توفي الأمير فرناندو الابن البكر لألفونسو الثامن وهو في ريعان شبابه، وقد نزلت تلك الوفاة نزول الصاعقة على والده وكل الشعب القشتالي الذي انهارت معنوياته. ونتفق مع

56- خلال فترة حصار شلبطيرة، حدثت حالة استنفار في مختلف قلاع وحصون قشتالة، والتي بدأت بترميم أسوارها تحسباً لأي حصار مشابه. لكن وبعد أن انسحب الموحدون أمر الفونسو القائمين على هذه القلاع والحصون بإيقاف الأشغال المتعلقة بتقوية قدراتها الدفاعية وتخزين الأسلحة والعتاد لمعركة السنة المقبلة التي كان ينتظر أن تكون حامية الوطيس.

57- كان ذلك حسب الروض المعطار في منتصف صفر 609هـ، م. س.، ص. 416.

"سيروت" Cirot في قوله إنه ليس هناك مَن وصف حادث وفاة الأمير فرناندو أحسن من مؤلف "التاريخ اللاتيني"، ومما جاء في المصدر المذكور بهذا الخصوص: «مات بمجريط زينة المملكة وزهرة شبابها والساعد الأيمن لوالده. وبسبب هذه المصيبة ذبل قلب الوالد ووهن، وأصاب الرعايا من سكان المدن الاضطراب، واعتبروا أن ما حدث هو نتيجة لغضب الرب ونقمته ورغبته في أن يعم الحزن في الأرض، ذلك الحزن الذي لم يستثن منه أحد، بحيث ذر الكبار الرماد على رؤوسهم وارتدوا المسوح وغيره من ملابس الحداد، وأصاب العذارى الهزال، و تغير وجه الأرض، و ألقت الملكة لينور، ذات الحسب والنسب والأصل النبيل، بعدما وصلها الخبر، بنفسها على الفراش الذي يرقد عليه ابنها جثة هامدة، وألصقت شفتيها بشفتيه وشبكت يديها بيديه في محاولة يائسة منها بعث الحياة فيه من جديد أو الموت معه. إنه مشهد أكد كل من حضره أنه لم ير ما هو أكثر مأساوية منه»[58].

ولم يجد ألفونسو الثامن من داء لألمه هذا أحسن من إعلان الحرب على الكفار، وهكذا فمباشرة بعد دفن الأمير في "ويلكاس دي بورغس" Huelgas de Burgos، خرج على رأس جيشه وكان يرافقه النبلاء من أصحاب الثروات والقائمين على مدن مجريط ووادي الحجارة ووبدة وقونقة وإقليش. وقد سار على إحدى ضفتي نهر جوقر حيث استولى على "القلعة" و"جلقرة" و"كارديان" و"كويبس"، وحصل على غنائم مهمة كما حرر الكثير من الأسرى. ولم يثنه على مواصلة عملياته الحربية غير قساوة الشتاء التي أرغمته على العودة إلى طليطلة، والتي بدأ بها لتوه ودون كلل الإعداد للحملة الكبيرة التي كان ينوي قيادتها في السنة الموالية.

من جهتهم بدأ الموحدون يهيئون لنفس الحملة، لكن الناصر لم يعبر المضيق على رأس جيشه الجرار في تلك الأثناء، كما اعتقد مؤرخونا الذين اعتمدوا على روض القرطاس، لأن معركة العقاب التي خاضها بهذا الجيش ستقع بعد سبعة عشر شهراً، وهي مدة طويلة يستحيل الحفاظ فيها على كل ذلك الجيش مجتمعاً، حتى وإن كان عدده لم يصل إلى الرقم الذي ذهب إليه صاحب روض القرطاس وهو 600 ألف. إن الأقرب إلى الصواب بخصوص هذه النقطة هو أن الناصر وعلى غرار ألفونسو لم يبدأ بجمع قواته استعداداً لمواجهة العقاب إلا في ربيع 1212م .

58- Op. Cit. La Cronica Latina. P. 58.

تحركات الجيش المسيحي

وفي يوم الأربعاء 20 يونيو بدأ الجيش المسيحي بالتحرك(59) وكان يضم ثلاثة فيالق، يكون الأول الأجانب الذين طلبوا التمركز في الطليعة بسبب رغبتهم الكبيرة في القتال ضد المسلمين وكان يتولى قيادتهم "لوبيث دي هارو"، مباشرة بعدهم تمركز الفيلق الذي يقوده ملك أراغون بينما أخذ ألفونسو الثامن الذي كان يقود قوات قشتالة الساقة.

وقد احتل المسيحيون مالقون Malagon يوم 24 يونيو، لكن بعد ذلك وابتداءً من يوم 26 بدأ يتعكر صفو الحملة بسبب نقص المؤونة، غير أن هذا لم يمنع من احتلال قلعة رباح والتي أعلن سكانها المسلمون خضوعهم في فاتح يوليو. هذا الخضوع جعل ألفونسو يعارض رغبة اللفيف الأجنبي المشارك في الحملة وكان يسعى إلى ذبح المستسلمين، وبسبب معارضة ألفونسو تلك، ترك اللفيف الحملة غاضباً، وكان يشارك فيها لدوافع صليبية. وقد حاول أفراده إثرها مباغتة طليطلة واحتلالها، لكن وبسبب فشلهم غادروا شبه الجزيرة نحو بلدانهم الأصلية(60).

ورغم حالة القلق التي أثارها هذا الانسحاب داخل المعسكر المسيحي، فقد استأنفت قواته السير في اليوم الموالي لانسحاب اللفيف الأجنبي، وتمكنت من إخضاع كل من "بيدرا بوينا" Piedra Buena و"بينابينتي" Benavente و"قرقويل" Caracuel خلال يومي الجمعة 5 والسبت 6 يوليو. في تلك الأثناء حضر "سانشو الفويرتي" Sancho el Fuerte على رأس 200 من الفرسان لينضم لقوات ألفونسو، وليعبر بذلك عن نسيانه لكل أعمال السلب والنهب التي اقترفها ملوك قشتالة ليس ضد والده وجده فقط، وإنما ضد كل أسلافه منذ عهد جده الأكبر "سانشو دي بينيالين" D.Sancho de Penalén.

وبعد مرور الجيش المسيحي بشلبطيرة، وكانت لاتزال بيد المسلمين، هاجمت قوات طليعته قمة جبل الشارات التي احتلتها يوم 11 يوليو، وفي يوم 13 أقام الملوك المسيحيون الثلاثة (ملوك قشتالة ونبرة وأراغون)، مخيمهم بسهل "موردال" Muradal القاحل، في وقت غادر فيه الموحدون حصن "فرول" Ferrol الواقع جنوب الهضبة الموجودة بالمنطقة، وكانت بمثابة برج طبيعي يتم منه مراقبة كل تحرك بثغر "لالوسا" La losa (61) المجاور.

59- لمزيد من المعلومات حول استعداد المسلمين والمسيحيين للحملة، انظر كتابي: Las Grandes Batallas de la Reconquista

60- في نفس السياق يقول صاحب La Cronica Latina إن سبب الانسحاب يعود إلى عدم قدرتهم تحمل حرارة الصيف وعدم وجود ملك المغرب الذين جاءوا بهدف القتال ضده، ضمن العدو.

61- كانت قوات من الجيش الموحدي تتمركز بممر "لالوسا"، بحيث لم يكن بإمكان أحد المرور منه دون موافقتها.

لقد كان احتلال قوات "لوبيث دي هارو" لقمة جبل "الشارات" وحصن "فرول" وراء قيام الناصر بالسيطرة على ثغر "لالوسا" شديد الوعورة، والذي كان بسبب ذلك، وحسب تعبير الفونسو الثامن "يكفي فقط لحمايته ألف رجل، يمكنهم الحيلولة دون احتلاله حتى ولو اجتمعت ضدهم كل قوات الأرض"[62].

ولم يجرؤ الناصر الذي غادر اشبيلية على رأس جيشه في نفس الوقت الذي انسحب فيه اللفيف الأجنبي الصليبي من طليطلة، لم يجرؤ على شن الهجوم على المسيحيين، خصوصاً بعد أن تواردت أخبار تقول إن عدد الجنود الذين يشكلون جيش هؤلاء مرتفع جداً. وقد فضل تأجيل ذلك إلى أن تعبر قوات العدو وادي آنة وتتوغل في مرتفعات جبل الشارات، بحيث تتم مباغتتها في الوقت الذي يكون الإرهاق قد تمكن منها. وبما أن هذه القوات المسيحية سوف تضطر إثر ذلك للانسحاب، حسب تصور الناصر، فإن الموحدين سيقومون بقطع الطريق عليها وإبادتها عن آخرها. ومن أجل ضمان نجاح هذه الخطة، وضع الخليفة المقر العام لقيادته في جيان، وكان قد وفر لقواته كل ما يلزمها لتخوض القتال في أحسن الظروف، في وقت علم فيه من المسيحيين الذين فروا من مخيمهم، أن هذا الأخير يعاني من نقص كبير في التموين. وإذا انضافت إلى هذا عوامل أخرى مثل انسحاب اللفيف الأجنبي الصليبي من الحملة، وتمركز القوات الموحدية في بياسة قبل وصول المسيحيين إليها وهو ما سمح باحتلال جل منافذ جبل الشارات، وضَرْب الخليفة لمخيمه في "سانتا إلينا" Santa Elena المقابلة لثغر "لالوسا"، تبين لنا أن الناصر كان في وضعية تسمح له بخوض المعركة المصيرية في أحسن الظروف.

في ظل هذه المتغيرات، أصبح الخطر الذي يحدق بالقوات المسيحية كبيراً جداً، فالمكوث بسهل "موردال" كان يعني البقاء في متناول العدو، والاحتماء بخنادق "لالوسا" كان يعني التعرض لعملية إبادة جماعية من طرف قوات هذا الأخير. بعبارة أخرى، في هذه الوضعية أو تلك كان الانتصار في متناول الموحدين.

ممر جبل الشارات

وبعد أن عقد الملوك المسيحيون الثلاثة مجلس حرب مع قادة جيشهم، اقترح بعض هؤلاء النزول إلى قدم الجبل من جديد والتوجه من هناك إلى ممر آخر أقل وعورة يبعد مسيرة يومين

62- Op. Cit., Don Rodrigo. Lib. CapVII. P. 182.

أو ثلاثة عن المكان الذي يوجدون به، لكن وبما أن الجيش المسيحي كان يتكون من عناصر تم لها قبيل بداية الحملة بوقت قصير، فإن القيادة كانت واعية بإمكانية تخلي هذه العناصر عن الحملة في أية لحظة إذا ما تم الانتقال إلى مكان آخر، ولعل انسحاب اللفيف الأجنبي منها، هو مثال لم يكن ليتم إغفاله. وإذا انضاف إلى هذا، عنصر آخر شخصي يتمثل في العار الذي كان يعنيه بالنسبة لملك قشتالة التراجع عن القتال، فهمنا لماذا تقرر في النهاية مهاجمة ثغر "لالوسا" ولو أدى ذلك إلى الموت، بدل التراجع خطوة واحدة إلى الوراء.

لقد تم اتخاذ هذا القرار يوم الجمعة 13 يوليو، والحقيقة أنه كان من المحتمل جداً أن تتكرر في اليوم الموالي، وربما بشكل أفظع، كارثة الأرك، لو لم يظهر على مسرح الأحداث في مساء نفس يوم الجمعة رجل يقطن تلك الجبال يعيش على القنص ورعي الماشية، دل ألفونسو على منفذ يوجد بالسفح الجنوبي لجبل الشارات يمكن أن تنفذ منه قواته نحو أحد السهول المجاورة، وللتأكد من صحة ذلك أرسل هذا الأخير، "لوبيث دي هارو" وضابطاً أراغونياً يدعى "غارثيا روميرو" Garcia Romero لمعاينة المنفذ المذكور الذي قادهما وقواتهما إلى السهل المعروف اليوم بـ"ميسا ديل الراي" Mesa del Rey، والذي وضعا به مخيمهما وفي نفس الوقت نجحا في ردع فيلق فرسان موحدي حاول طردهما منه. وهناك قضيا ليلتهما بعد أن أرسلا في طلب بقية القوات المسيحية والتي لحقت بهما فجر اليوم الموالي.

وقد لاحظ ألفونسو أثناء اليومين المواليين لوصوله إلى السهل، ومن خلال المناوشات التي جرت بين طلائع جيشه والجيش الموحدي، أن هذا الأخير يوجد في وضعية تسمح له بتوجيه ضربات موجعة إلى جناحي جيشه المكونين من مليشيات المدن المشاركة في الحملة، والتي تقل صلابة وانضباطاً عن القوات الكنسية وجيش النبلاء، لذا ولتفادي ذلك، مزج عناصر من جيشه النظامي ومن نخبة فرسانه بهذه المليشيات، وهو ما منح الجيش برمته ثقة في النفس كان لها دور فعال في تحقيق الانتصار النهائي.

معركة العقاب

حاول الموحدون خوض المعركة يوم السبت 14 يوليو ثم يوم الأحد 15 لكن المسيحيين لم يقبلوا دخولها إلا يوم الاثنين، لذا اكتفى الموحدون خلال اليومين السابقين برصد تحركات المسيحيين وعرقلة مناوشات فرسانهم، وفي فجر يوم الاثنين بدأت تنتظم تحت إمرة الملوك الثلاثة، ثلاثة فيالق تمركز الأول وكان يقوده ألفونسو في الوسط، والثاني وكان يقوده "سانشو النافاري" في

الجهة اليمنى، والثالث وكان يقوده ملك أراغون في الجهة اليسرى. وقد بادرت بالهجوم طليعة القوات المسيحية التي أرغمت مقدمة الجيش الموحدي على التراجع. ويقول صاحب "التاريخ العام الأول" بخصوص هذه المواجهة إن: «*قواتنا والتي صعدت نحو أماكن وعرة وصعب القتال فيها وُوجهت بقدم ثابتة من طرف الموحدين الذين كانوا يقومون بالهجومات المضادة بكل شجاعة، وهو ما خلق اضطراباً في الصفوف الأمامية للجيش المسيحي اضطر من يوجد بها إلى التراجع. وقد لاذت بعض مليشيات المدن بالفرار مما أجبر بعض فرسان المواقع الخلفية من جيش قشتالة وأراغون على الانتقال إلى مكان الخطر لتغطية الفراغ الذي تركته المليشيات الفارة. ورغم أن هذا سمح للمسيحيين بمواصلة القتال، ورغم أن جيش النبلاء قاوم ببسالة، فإن القوات المسيحية لم تستطع شيئاً أمام عزيمة ورباطة جأش الجيش الموحدي الجرار، والذي تمكن من إلحاق أضرار كثيرة ليس فقط بفيلق الوسط وإنما كذلك بفيلقي الأجنحة*»[63].

و لما لاحظ ملك قشتالة المأزق الذي توجد فيه قوات الطليعة وكذا تلك التي توجد خلفها، قرر بذل مجهود إضافي، حيث تقدم وببرودة أعصاب نحو الصفوف الأمامية، في وقت التفت فيه ساقة الجيش حوله التفاف رجل واحد. وكان ألفونسو على استعداد للموت في تلك اللحظة؛ لذا بدأ يقاتل بنفسه بمعية حاملي الراية الملكية، في وقت دخل ملكا أراغون ونبرة المعركة من جهة الأجنحة، وبدءا بتسديد الضربات للجيش الموحدي الذي اضطر للتراجع إلى الوراء. وكان آخر مكان بقي بمنأى عن هذه الضربات هو السهل الفسيح الذي يوجد به الناصر، والذي بدأ المسيحيون، وبعدما انتظموا على شكل هلال، بتضييق الخناق عليه، لكن الخليفة ورغم ذلك حافظ على رباطة جأشه وكان يتلو وهو في هذا الموقف الصعب سوراً من القرآن، غير أنه في النهاية وأمام الخطر المحدق، اضطر للفرار في اتجاه بياسة التي توقف بها فقط لتغيير دابته قبل أن يواصل السير في ليلة نفس اليوم نحو جيان[64].

63- Op. Cit., Primera Cronica General P. 701. .

64- يقول صاحب البيان المغرب إنه بقي يقاوم برباطة جأش لدرجة أن سهام العدو كانت تصل إلى المكان الذي يوجد فيه، وهو ما جعله في وضعية خطر حقيقي، بحيث إنه كان على وشك أن يفقد حياته أو على الأقل أن يقع في الأسر. ومما جاء في المصدر المذكور: «*ولت جموع المسلمين فمشت الهزيمة عليهم وثبت النصر لدين الله ثبوتا كان يودي به ويمكن العدو منه، حتى وصلت رماحهم إليه، ثم انحاز راجعا فسلم...*»، م. س.، ص. 263. لكننا نعتقد أن كلام صاحب البيان المغرب هذا يجانب الصواب، فالحقيقة هي أن الناصر لم يظهر من الشجاعة والحيوية خلال المعركة ما أظهره والده في معركتي الحمة والأرك، بل إنه فر مذعوراً في اتجاه بياسة. ويقول مؤلف La Primera Cronica General إنه عندما وصلها طلب منه سكانها النصيحة، فرد عليهم قائلاً: «*أنا عاجز عن أن أنصح نفسي، فكيف أنصحكم، وركب دابته فاراً إلى جيان في ليلة نفس اليوم*» م. س.، ص. 702.

وقد شكلت قضبان السياج الغليظة الموصولة بالسلاسل والتي وضعها الموحدون في السهل الذي يوجد به الخليفة، حاجزاً منيعاً أمام سيوف المسيحيين وسهامهم ونبالهم. ولا نعرف كيف نجح هؤلاء في النهاية في اختراقها، ولا من قام بذلك، لكن الذي نعرفه هو أن تجاوزها فسح أمامهم المجال لمهاجمة المسلمين الموجودين بالسهل والتلال المجاورة لـ "سانتا إلينا" Santa Elena. وبخلاف مليشيات المدن وبشكل عام فرق المشاة، والتي أقبلت عناصرها على الغنائم تغترف منها ما استطاعت من مجوهرات وملابس وأوان رفيعة متناثرة هنا وهناك، بخلاف ذلك، امتثل النبلاء وفرسان الجيش النظامي لتعاليم مطران الحملة الذي كفر « *كل من يضع يده على شيء مما يوجد في ساحة المعركة قبل انتهائها* »[65]، وواصلوا -رغم الإرهاق الذي كانوا يحسون به- ملاحقة الفارين بكل ضراوة إلى غاية مشارف بلش الواقعة على بعد ثلاثة فراسخ من "سانتا إلينا"، حيث قتلوا أثناء المطاردة من المسلمين ما فاق عدده أولئك الذين سقطوا في المواجهة أثناء المعركة.

عدد المحاربين والقتلى

تتحدث كل من المصادر العربية والمسيحية عن عدد المشاركين في المعركة وعدد القتلى الذين سقطوا فيها بمبالغة يصعب تصديقها. وقد نستفيد هنا مما ورد عند ابن خلدون الذي ذكر أن العادة جرت أن تبالغ المصادر العربية والمسيحية في تقدير عدد جنود العدو وفي عدد قتلاه أثناء المعركة، مقابل التقليل من عدد قتلى الطرف الذي تتعاطف هي معه. والحقيقة أن الأرقام المرتفعة التي تقدمها تلك المصادر لم تكن تتماشى وإمكانيات تموين الجنود المتوفرة في ذلك العصر. هذه الوضعية لم تحد عنها معركة العقاب، فالمصادر المسيحية مثلاً تجعل عدد القتلى في صفوف النصارى أقل بكثير مما هو عليه في الواقع، وهكذا لم يتجاوز عددهم حسب مؤلف "التاريخ اللاتيني" خمسة وعشرين، ولم يتجاوز حسب "أرنود" Arnaud ثلاثين، وهو ما ليس منطقيا على اعتبار أن القتال كان وجهاً لوجه، حيث توجب على كل شخص أن يقاتل عدوه في مواجهة شخصية فرضت استعمال السيوف والرماح والدبابيس، دون السهام، مما يعني أن القتال لم يحسم بسهولة وبالتالي لم يكن بإمكان أي طرف أن يكبد الطرف الآخر أعدادا كبيرة من القتلى دون أن يتعرض هو لنفس الشيء. أكثر من ذلك، عرفت المعركة شوطين مختلفين؛ فقد أرغم

65. Op. Cit., Cronica Latina. D. Rodrigo. Lib. VIII. Cap. II. P. 70.

المسلمون في البداية المسيحيين على التراجع، بحيث إنهم لاذوا بالفرار وبدؤوا بالصياح الذي عبروا من خلاله عن قرب هزيمتهم، ولم يستعيدوا أنفاسهم إلا بعد أن دخل ألفونسو القتال، على إثر سماعه لذلك الصياح، مفضلاً الموت على التسليم بالهزيمة.

إن المرجح هو أن عدد قوات الناصر لم تتجاوز 100 ألف بينما لم تصل تلك التي كانت مع ألفونسو 60 ألفا، ورغم أن عدد قتلى المسلمين تجاوز عدد قتلى المسيحيين، فإنه بكل تأكيد وكما هو بديهي لم يصل إلى 100 ألف.

وبعد تحقيق المسيحيين للانتصار، ورغبة من ملوكهم الثلاثة المشاركين في المعركة جني ثمار الانتصار، وربما كذلك بسبب نتانة الجثث التي فاحت رائحتها بسرعة نتيجة الحرارة المرتفعة التي كانت تعرفها المنطقة، قرروا في 18 يوليو رفع المخيم والتوجه إلى "بياسة" التي غادرها سكانها. وقد أرسلوا من هناك فيالق احتلت "بانيوس" و"بلش" و"حصن العقاب" و"فرول" وذلك قبل أن يتوجه الجيش برمته إلى وبذة حيث أسر هناك ما لا يقل عن 60 ألفا من المسلمين.

ويجعل ألفونسو عدد قتلى المسلمين في المعركة 60 ألفا، إضافة إلى الأسرى، بينما يجعلهم مؤلف "التاريخ اللاتيني" 100 ألف[66]، أما "أرنود" فيقدر عدد قتلى المسلمين في وبذة وبياسة وحدهما بـ 40 ألفا.

كان من الطبيعي إذاً، وبعد هذا الانتصار الكبير أن يحتل ألفونسو الثامن على الأقل مملكة جيان، لكن ولقناعته بتعذر الاحتفاظ بها لمدة طويلة، قرر عدم القيام بذلك، خصوصاً مع وجود عوامل متعددة أصبح معها مواصلة الحملة أمراً صعباً، من بينها وعورة الطريق وعناؤها، ونهم الجنود وإقبالهم على الغنائم دون روية، وحرارة الصيف المفرطة وتفشي الأوساخ والقذارة بين الجنود وهو ما أدى إلى انتشار وباء الطاعون بينهم بشكل مهول[67].

وللتعبير عن امتنانه لملك نبرة على مشاركته في الحملة، أعاد له ألفونسو الثامن عددا من الحصون التي سبق وأخذها منه، في نفس الوقت وقع هدنة مع ملك ليون الذي كان قد استغل انشغال القشتاليين بحملة العقاب ليستعيد، بدعم من القائد "بيدرو فرنانديث"، عدداً من الحصون الحدودية.

66- Ibid, P. 87.

67- قضى بسبب الوباء الذي انتشر في خريف تلك السنة بقرى ومدن قشتالة عدد مهم من النبلاء والأسياد.

أهمية الانتصار المسيحي

تعتبر المصادر المسيحية يوم 16 يوليو 1212م -تاريخ معركة العقاب- بمثابة بداية عهد جديد في تاريخ حروب الاسترداد، فقد مالت بشكل نهائي كفة هذه الحروب لصالح المسيحيين على حساب المسلمين، بعدما بقيت كفتها تتأرجح بين هذا الطرف وذاك منذ استعادة المسيحيين لطليطلة عام 1085م. وإذا كان التجاء مسلمي الأندلس حسب ذات المصادر إلى أبناء ملتهم في الضفة الأخرى للمضيق على عهد المرابطين والموحدين قد أعطى لحروب الاسترداد دماً جديداً وجعل الوجود المسيحي في شبه الجزيرة أكثر من مرة في وضعية حرجة، فإن هزيمة العقاب شكلت نقطة تحول نهائي في هذه الحروب، على اعتبار أنها وضعت حداً لمسلسل التدخلات الناجحة للإمبراطوريات البربرية في شؤون الأندلس، ذلك لأن المحاولات التي سوف يقوم بها المرينيون فيما بعد لن تحول دون الفقدان التدريجي والحتمي للأندلس.

إن ما نسجله على المصادر أعلاه، هو أن ما ذهبت إليه له طابع رمزي أكثر منه واقعي، ذلك لأنها أعطت لمعركة العقاب من الأهمية أكثر مما تستحقه. إننا لا ننفي أهمية الانتصار الذي حققه المسيحيون بها، لكننا لا نرى أنها سجلت نقطة الحسم النهائي في حروب الاسترداد، ذلك لأن الإمبراطورية الموحدية ونظراً لخصوصياتها؛ لم يكن بإمكانها أن تمنع وإلى الأبد هذه الحروب، وإنما كل ما كان بإمكانها هو تأجيل قيام المسيحيين بها لوقت ما، لأن وضع حد لحروب الاسترداد لم يكن ليتحقق دون القضاء على الممالك المسيحية التي تقوم بها وهو ما لم يكن متيسراً، ولعل ما جرى مع يعقوب المنصور لخير دليل على ذلك، فلم يحصل من خلال غاراته الجريئة على طليطلة، ومن انتصاره الكبير في معركة الأرك، على أكثر من نصف دزينة من الحصون الحدودية الخالية من السكان. لذا فإننا نرى أنه حتى لو كان قد قدر للناصر الانتصار في العقاب، فإن الأمواج الموحدية كانت ستتكسر لا محالة أمام أسوار الحصون القشتالية، ولم يكن الموحدون ليصلوا وفي أحسن الحالات إلى ما وراء نهر تاجة، قبل أن يضطروا للتراجع من جديد. بعبارة أخرى؛ إن التسليم بأن انتصار الموحدين في العقاب كان سيشكل خطراً على الوجود المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية برمتها يعني أننا نضع في سلة واحدة جنود الرهبانية وغيرهم من القوات المسيحية الموجودة في شبه الجزيرة خلال القرن الثالث عشر الميلادي، مع الجنود الذين اندحروا مع دون رودريغو في مطلع القرن الثامن الميلادي.

نخلص إذاً أن المصادر المسيحية أرادت أن تضخم من أهمية معركة العقاب، لتبين خطورة عواقبها على المسيحية لو آل النصر فيها للموحدين، وهو مافعلته تقريباً مصادر عربية فيما بعد، حيث إنها ربطت انتصار المسيحيين في العقاب بالانهيار المثير للإمبراطورية الموحدية؛ فالناصر عاد منها حسب هذه المصادر خامد الهمة، مملكته في اندحار وأموره في انهيار، بحيث لم يهنأ له بال أبداً إلى أن قضى كمداً في شعبان 610هـ، نفس سنة دخول إحدى طوائف بني مرين الرحل إلى المغرب كعادتها بحثاً عن المؤونة والكلأ، غير أنها هذه المرة وجدته فارغاً من سكانه الذين هلكوا وفرسانه الذين رضخوا والمدافعين عنه الذين استشهدوا في العقاب.

قيام الموحدين بهجوم مضاد وشن القشتاليين لهجمات أخرى

لم يكن الفصل الأخير من معركة العُقاب بالنسبة للمسيحيين بنفس بريق النجاح الذي تحقق خلال بقية فصولها؛ بحيث إن هروب الناصر منها والمجزرتين اللتين قام بهما المسيحيون في حصن العقاب وبدة لم يحولا دون قيام المسلمين برد فعل سريع، بعدما علموا بتسريح القوات المسيحية المتحالفة ضدهم وانتشار الأوبئة والمجاعة خصوصاً في قشتالة، وهكذا جمع عمال جيان وغرناطة وقرطبة قواتهم وهاجموا، وإن كان ذلك دون نجاح، حصون "بانيوس دي إنثينا" Banos de Encina و"العقاب" Tolosa و"فرال دي كاسترو" Ferral de Castro التي كان ألفونسو قد غزاها قبل ذلك بقليل، كما قاموا يوم 22 سبتمبر بمحاصرة بلش التي لم يتراجعوا عنها إلا بعد علمهم بقرب وصول قوات طليطلة ومجريط ووبذة التي بعث ألفونسو على رأسها الأخوين "مارتينيث نونييث" Martinez Nunez و"كونثالو" Gonzalo. وخلال نفس فصل الخريف، قام المسلمون بغارتين أخريين على حصني السرج ومغارات القلعة[68] واللتين رحل ألفونسو بنفسه لاستعادتهما في فبراير 1213م، قبل أن يخرج في الشهر الموالي رفقة بعض قواته وكبار مسؤولي طليطلة ومكادة واشقلونة وعدد من النبلاء من أصحاب الثروات، ويحتل حصني "ابن قصر"[69] و"كاستيل دي ديوس"[70].

68- Anales Toledanos، الجزء الأول ص. 352 ، 353 من ترجمتي. لم أستطع التوصل إلى معرفة موقع المكان الذي كان يحمل اسم السرج والذي يذكره هذا المصدر في حملة 1212م هذه ثم في حملة السنة الموالية.

69- لم أستطع أن أتعرف على المكان الذي كان يوجد به.

70- أصبح يعرف فيما بعد باسم Castillar de Santiago de Mata

وأثناء عودته إلى قشتالة ودائماً رفقة عدد محدود من الرجال، حاصر ألفونسو الثامن حصن الكرس الذي قاوم قائده ابن الفرج الحصار بشجاعة وفعالية لمدة شهر تقريباً. وقد سقط أثناء الحصار ما لا يقل عن ألفين من القشتاليين. ورغم إحراق المحاصرين البرج الخشبي للحصن والذي يتحدث عنه كل من صاحب الروض المعطار ومؤلف حوليات طليطلية الذي يسميه السداد، ورغم طلقات المجانيق، فإن المسيحيين لم ينجحوا في اختراقه، خصوصاً وأن هذه الطلقات لم تتمكن من تدمير أسواره. ولم يستطيعوا إخضاعه إلا بعد تفاقم المجاعة داخله، وكان ذلك يوم الأربعاء 22 ماير.

ويقدم لنا كل من مؤلف "التاريخ اللاتيني" وصاحب الروض المعطار تفاصيل لم يتم الاستفادة منها لحد الآن في دراسة الموضوع؛ فقد كلف ألفونسو، مهندسا موريسكيا بتشييد برج عال يسمح بمراقبة ما وراء أسوار الحصن، غير أن ابن الفرج وباتفاق مع المهندس المذكور قام بإحراق البرج. في تلك الأثناء تمكن جاسوس مسيحي من التسلل داخل الحصن، قبل أن يغادره ليخبر ألفونسو بالخصاص الذي يعرفه في الماء والمؤن، وهو ما كان، كما مر بنا، سبباً في استسلام الحصن الذي أقامت حاميته بعد إعلان خضوعه، سوقاً بجانب أسواره باعت فيه ما لم تستطع حمله، في وقت منح فيه ألفونسو الدواب للمستسلمين من أجل نقل أمتعتهم إلى جيان(71).

وبعد احتلال حصن الكرس وتكليف قوات خاصة بحمايته، توجهت القوات المسيحية جنوباً حيث سطت على حصن "ريوبار" Riopar الشامخ والذي يقع بجوار منبع نهر "موندو" Mundo على بعد كيلومترات قليلة من حصن الكرس. ويظهر أن هذين الانتصارين الصغيرين شجعا سرية مسيحية مكونة من 60 فارساً و400 من المشاة على مغادرة طلبيرة، والتي كانت تعاني فيها من الجوع، للقيام بغارة طائشة. غير أنه وبعد اجتيازها للوادي الكبير واقترابها من اشبيلية، قام المسلمون بتصفيتها عن آخرها، وكان ذلك خلال شهر يوليو. ويتوافق تصفية سرية طلبيرة من الناحية الكرونولوجية مع معركة مرج الحيمر التي وقعت بمنطقة اشبيلية عام 610هـ (1213م) وهو ما قد يوحي بأن الأمر يتعلق بهذه المعركة، غير أننا وباعتمادنا على ما جاء عند صاحب الروض المعطار، نتبين أن الأمر يتعلق بمواجهتين مختلفتين، فهذا المصدر يؤكد أن القوات الميسيحية كان يقودها أثناء معركة مرج الحيمر ملكا قشتالة وليون اللذان اكتسحا بواسطة جيشيهما منطقة اشبيلية، وأن حفيد عبد المومن السيد أبا زكريا بن أبي حفص خرج ضدهما،

71- ورد عند صاحب الروض المعطار أن الحصن سقط بيد المسيحيين عام 620هـ. لكن يظهر أن الناسخ نقل الرقم خطأ، لأن المؤلف قصد 610هـ، بدليل أنه كتب في مكان آخر: «*وكان ذلك في سنة عشر وستمائة*»، م. س.، ص. 202.

بحيث قتل من رجالهما ما لا يقل عن عشرة آلاف، وهو ما لم يقع خلال المواجهة الأخرى، ويضيف ذات المصدر أن المسلمين حققوا في مرج الحيمر انتصاراً كبيراً.

احتلال القنطرة
والفشل في السيطرة على ماردة وبياسة

ورغم المرض الذي ألم بألفونسو الثامن والذي كاد يودي بحياته، بقيت فكرة الحرب من أجل الصليب مستحوذة على تفكيره، وهكذا بعد إقراره السلم من جديد مع ألفونسو التاسع ملك ليون، عقب التوصل إلى اتفاق يقضي بطرد "بيدرو فرناديث دي كاسترو" من مملكتيهما بعدما أثاره من شقاق ودبره من دسائس[72]، نجح ملك قشتالة في إقناع ملك ليون بمحاصرة واحتلال القنطرة بمساعدة سرية قشتالية من ستمائة فارس يقودها "دييغو لوبيث دي هارو"، في حين خرج هو في عز الشتاء وكان في حالة سقم، ضد بياسة التي رممها المسلمون وأعادوا تعميرها. لكن وكما فشل ألفونسو التاسع في احتلال ماردة فشل هو أمام أسوار بياسة، رغم ما قام به من مجهودات لاختراقها. وقد دام حصاره لها طيلة شهر ديسمبر والأسابيع الثلاثة الأولى من يناير. وأثناء فترة الحصار، وبالضبط في 22 ديسمبر 1213م (فاتح شعبان 610هـ) توفي الناصر في مراكش، وكان ذلك بعد أقل من سنة ونصف على هزيمة العقاب.

وقد أرغمت ألفونسو الثامن قساوة الشتاء وتفاقم المجاعة بين رجاله على الانسحاب إلى قشتالة خامد الهمة في فبراير 1214م، ولم يعد لمغادرتها من جديد إلا في شهر سبتمبر، حيث خرج من بورغوس قاصداً البرتغال، وعند وصوله إلى بلد الوليد علم وبكثير من الأسى بخبر موت صديقه العزيز وتابعه الوفي "دييغو لوبيث دي هارو" الذي وافته المنية يوم 16 من الشهر المذكور، وكان ألفونسو ينوي تعيينه وصياً على عائلته. وقبل أن يصله خبر وفاة صديقه هذا، وصله خبر وفاة ألد أعدائه "بيدرو فرناديث دي كاسترو" الذي قضى في مراكش يوم 18 غشت، ولم تمهل المنية ألفونسو نفسه، حيث توفي في 6 أكتوبر من نفس السنة[73].

72- يشير مؤلف La cronica latina إلى أن إقرار السلم بين المملكتين وطرد "بيدرو فرناديث دي كاسترو" من ترابهما تم بعد وساطة "دييغو لوبيث دي هارو" ص. 74. غير أن كونثالث "J. Gonzalez" في مونغرافيته حول الفونسو العاشر فهم خطأ ما ورد بهذا الخصوص في La cronica latina حيث ترجم الجملة القائلة: Mediante didaco, expulso et Pedro de utroque regno ب: «إن السلم بينهما تحقق بوساطة من المطرود دون دييغو وكذا بوساطة بيدرو فرنانديث». ص. 150.

73- Op. Cit., La cronica latina. P. 75.

تاسيس مقرانة ومحاصرتها

وفي شتاء 1213-1214م، وعند عودة ألفونسو الثامن إلى قشتالة للاستراحة من متاعب حصار بياسة، بقي المطران "دون رودريغو" على الحدود بمعية القوات الرهبانية المنتمية لقلعة رباح، لتعزيز صفوف الحاميات الموجودة هناك والعمل على التخفيف من حدة المجاعة المتفشية، وخصوصاً لتشييد حصن مقرانة والذي كانت الغاية من وراء إقامته، الحد من غارات المسلمين الذين ينطلقون من حصني الأرك وملقون ومن قلعة رباح ومن ثغور "ريبرتون" و"ألوبير" وكونفوستو وشلبطيرة و"موردال" و"الجبل" للإغارة على منطقة طليطلة.

وبسبب حدة التساقطات، اضطر المطران لإيقاف أعمال البناء في مقرانة وعاد إلى طليطلة حيث احتفل بعيد الفصح. في تلك الأثناء وبالضبط في 2 أبريل 1214م هوجم الحصن الجديد من طرف سرية مسلمة مكونة من 700 فارس و1400 من المشاة، نجحت في قتل العديد من أفراد الحامية المسيحية المكلفة بحراسته، وكان بإمكانها الاستيلاء عليه لكنها آثرت الانسحاب قبل أن يبعث المطران بقوات مسيحية جديدة[74].

إن شن هذا الهجوم وتكلله بنجاح، هو خير دليل على خطأ ما نسب للموحدين ومسلمي إسبانيا بشكل عام من انهيار تام في المعنويات بعد هزيمة العقاب. إن الصحيح هو أن ثبوط همة المسلمين لن تحدث إلا سنوات فيما بعد، ولأسباب أعمق بكثير من الهزيمة في العقاب. صحيح أن الاتصال بالأندلس ساهم في إفقاد الحركة السياسية الدينية الموحدية التي أنشأها المهدي بن تومرت على أساس من العنف والرعب، البعض من قوتها وتماسكها، لكن هناك عوامل أخرى كان لها دور أساسي في هذا الضعف؛ فتعيين خلفاء لم يتجاوز عمرهم مرحلة الطفولة، وروح الفردية التي طبعت القبائل العربية الخاضعة للإمبراطورية، واستقلال إفريقية، ثم دخول بني مرين المغرب الأقصى، كلها عوامل فسحت من جهة المجال للغزوات الكبرى التي قام بها فرناندو الثالث وعجلت من جهة أخرى بنهاية الأسرة الموحدية.

وفاة الناصر

في يوم الثلاثاء 10 شعبان (25 ديسمبر 1213م) وأثناء قيام ألفونسو بمحاصرة بياسة، لفظ الناصر أنفاسه الأخيرة وعمره لا يتجاوز 32 سنة. وتتضارب المصادر حول هذه الوفاة المبكرة؛

74- Op. Cit., Cronica General. p. 707.

فابن خلكان يقول إنه قتل خطأً من طرف حراسه السود، ويقدم في هذا السياق مبرراً سخيفاً، فالخليفة حسبه كان قد أمر حرسه بقتل كل من يجدونه ليلاً بحديقة قصره، وليتأكد من مدى سهرهم على تنفيذ هذا الأمر تسلل ليلاً إليها وهو متنكر، وما أن شاهده الحرس حتى قاموا بقتله. ورغم أنه كان يصرخ في وجههم قائلاً: "أنا الخليفة" فإن هؤلاء لم يتعرفوا عليه إلا بعدما أردوه قتيلاً. من جهتهما يؤكد كل من صاحب الروض المعطار والزركشي أن موته كان نتيجة عضة كلب، غير أنهما لا يستبعدان إمكانية وجود سبب آخر للوفاة[75]. وبالنسبة لصاحب روض القرطاس فإن الناصر مات مسموماً بكأس خمر قدمت له من طرف إحدى زوجاته بتواطؤ مع بعض وزرائه. أما عبد الواحد المراكشي فيعتقد أن وفاته كانت نتيجة ورم في الدماغ تفاقم خطره يوم الجمعة 5 شعبان (21 ديسمبر) وتركه دون كلام إلى يوم الثلاثاء الموالي، وقد نصحه الأطباء أثناء ذلك بإجراء عملية فصد، لكنه رفض، مما جعله يلفظ أنفاسه الأخيرة يوم الأربعاء 10 شعبان.

شخصية الناصر وطبعه

لم يصل الخليفة الموحدي الرابع محمد الناصر إلى عظمة أسلافه الثلاثة، كما أن شخصيته كانت أكثر غموضاً من شخصية هؤلاء جميعاً. وإن اعتلاءه العرش في سن مبكرة جعلت أعمامه أبناء السيد عمر بن عبد المومن وشيوخ الموحدين المنحدرين من عائلة عمر ينتي، يستأثرون بالحكم، خصوصاً بعد المهام التي أناطها بهم يعقوب المنصور أثناء تلفظه بوصيته الأخيرة.

ولم يكن للناصر ولع بالثقافة والعلوم على غرار جده يوسف الأول، كما لم يتوفر على مواهب القيادة التي ميزت والده يعقوب المنصور وجد هذا الأخير عبد المومن، مقابل ذلك كان خجولاً كما كان يعاني من اللجلجة، وهو ما جعله منطوياً على نفسه. من جهة أخرى كان بخله الشديد وراء المراقبة الصارمة التي فرضها على رجال إدارته المتهمين بالفساد والاختلاس. ولم يعرف عنه أنه استقبل في بلاطه كبار العلماء من طينة ابن رشد وابن طفيل، كما لم يتميز عهده بمشاريع عمرانية ذات بال مثل تلك التي أنجزها أسلافه في كل من تنملل ومراكش والرباط واشبيلية، بل اقتصرت تلك المشاريع على القيام بتحصينات متواضعة لبعض المدن، وترميم بجامع القرويين -يظهر أنه لم يتم على نفقته الخاصة-، وذلك بالرغم من عظمة الإمبراطورية، والثروات المتحصلة لديها من فترات أسلافه التي كانت تعرف هدوءاً وسلماً نسبيين.

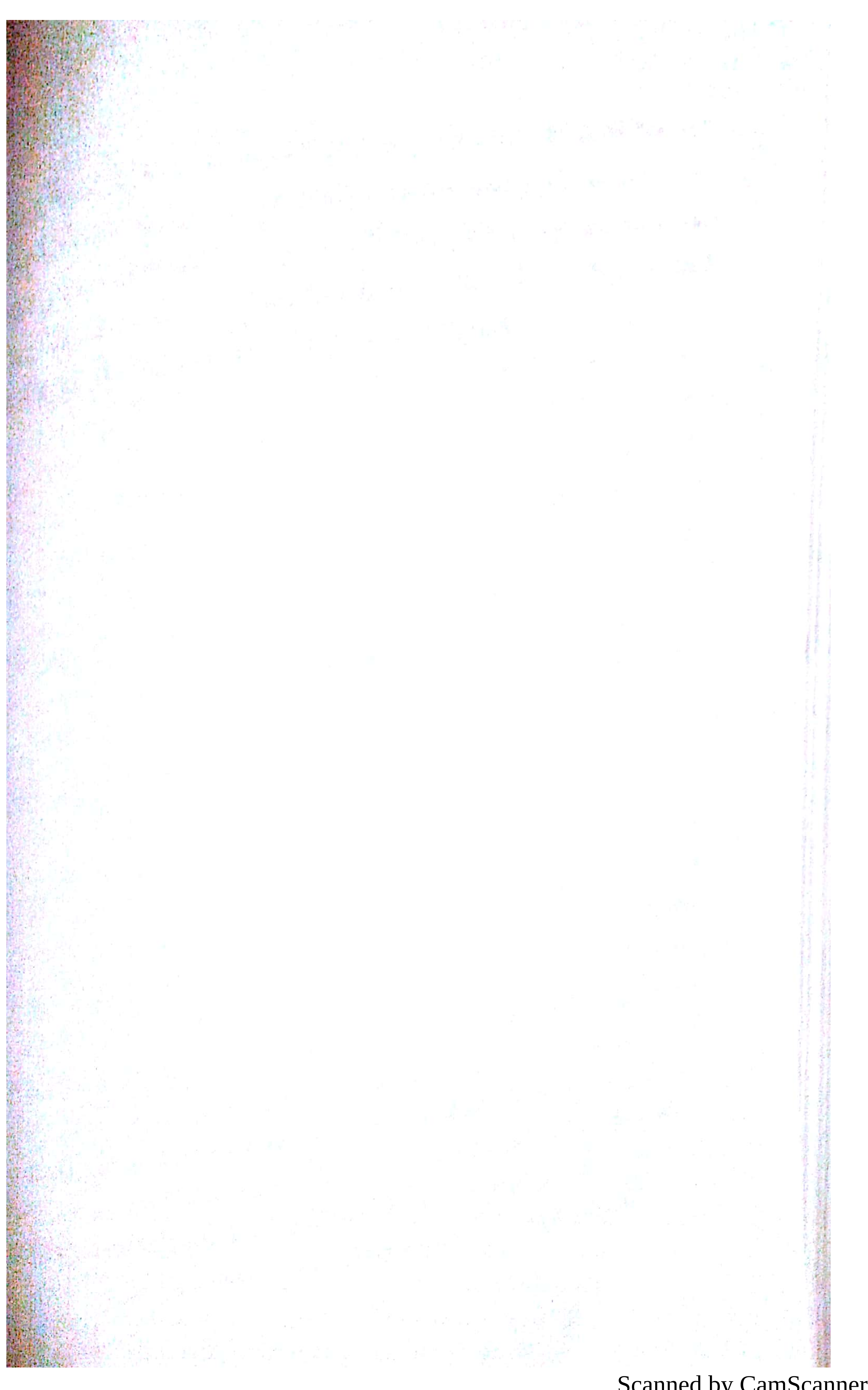
75- جاء عن صاحب الروض المعطار بخصوص وفاته: «وكانت وفاته يوم الثلاثاء 10 شعبان 610هـ وكان سبب وفاته من كلب عضه في رجله» م. س.، ص. 416.

وتصف المصادر التاريخية الناصر بالشخص الذي كانت له إنجازات حربية كبرى في جزر البليار وإفريقية والأندلس، غير أن دوره في الحملات التي وجهت إلى هذه المناطق كان رمزياً، فهو لم يشارك شخصياً في حملة البليار، أما مشاركته في الحملتين الأخريين، فتدخل في إطار التقليد الذي كان معمولاً به، والمتمثل في كون الحملات الموحدية، وحتى تأخذ طابع الأهمية، يتوجب أن يكون على رأسها أمير المؤمنين، أولاً لأن وجوده يضمن نوعاً من التجانس بين العناصر المشاركة في الحملة والتي لم يكن يربط بينها في كثير من الأحيان رابط، وثانياً لأن هذا الوجود يضفي على الحملة طابع الشرعية، بحكم ما يمثله الخليفة من سلطة روحية. لكن الناصر وبسبب صغر سنه وقلة تجربته لم يدرك هذه الأشياء أثناء حملة ميورقة لذا لم يشارك فيها، إلا أنه حتى لما شارك فيما بعد في حملتي إفريقية والعقاب فإنه لم يظهر شيئاً مما عرف به والده من إقدام ومواهب عسكرية.

لقد سمحت النزاعات الدائرة بين الممالك المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، إضافة إلى الهدنتين طويلتي الأمد اللتين وقعهما يعقوب المنصور مع مملكتي ليون وقشتالة على إثر انتصار الأرك وما أعقبه من غارات كان يكتسح بواسطتها أراضيهما، سمحت للموحدين بالإعداد لحملتي جزر البليار وإفريقية بالشكل الذي يسمح بتكليلهما بنجاح. وهنا وجبت الإشارة إلى أن الفضل في استعادة ميورقة بشكل سريع ونهائي، لا يرجع للناصر الذي لم يكن له في ذلك أية مساهمة ذات بال، بل يرجع بالأساس إلى التفوق الكبير للموحدين في العدة والعتاد على أعدائهم المرابطين المدافعين عن الجزيرة. أما الفضل في الانتصار بإفريقية، فيعود بدرجة أولى إلى عبقرية الشيخ عبد الواحد الحفصي. لقد أكدت معركة العقاب غياب المواهب العسكرية لدى الناصر؛ ففي الوقت الذي كان فيه في وضعية جد مناسبة تسمح بهزم المسيحيين، وبدل أن يحذو حذو والده بل وعدوه ألفونسو الثامن ويتموضع في طليعة جيشه ليعطيه دماً جديداً، وكان هذا الجيش قد حافظ على معنوياته المرتفعة منذ انتصار البليار، اكتفى بالمكوث في خيمته يتلو آيات من القرآن، قبل أن يفر مذعوراً عندما علم أن الدائرة دارت عليه وأن النصر حالف المسيحيين. ولم يكتف بالفرار إلى جيان ومنها إلى اشبيلية دون القيام بأية محاولة لمعالجة الوضع على ضوء التطورات الحاصلة، بل أسرع في العودة إلى عاصمة ملكه مراكش، تاركاً مسلمي إسبانيا يواجهون مصيرهم بأيديهم معتمدين على إمكانياتهم المحدودة، ومحاولين الاستفادة من المشاكل التي كانت تتخبط فيها قشتالة والتي شجعتهم على القيام بهجوم مضاد ضد منطقة جبل الشارات.

لقد انزوى الناصر في قصره إثر هزيمة العقاب، وعاش خلال السنة والنصف الموالية، حياة خاملة انتهت بوفاته وهو في ريعان شبابه في ظروف غامضة، وربما بمؤامرة مدبرة من طرف رجال بلاطه. ولم تنته بوفاته مشاكل الأسرة الموحدية، ذلك لأن الناصر الذي اعتلى العرش وهو قاصر وغير مهتم بشؤون الحكم، ترك مصير البلاد في يد ابنه القاصر كذلك، والذي سوف تتهيأ خلال عهده كل الظروف التي ستكون وراء انهيار الإمبراطورية الموحدية.

❖ ❖ ❖



الفصل السادس

يوسف الثاني وبداية عصر الانحطاط

بعد موت الناصر تمت مبايعة ابنه يوسف وعمره يتراوح بين عشر وخمس عشرة سنة، وإن اعتلاءه ملك العرش من جديد وهو لم يتجاوز مرحلة الطفولة أو على الأكثر المراهقة، كان يعني أنه لن يكون مخالفاً لسلفه فيما يتعلق بالإمساك بزمام السلطة، وهو ما جعل المجال مفتوحاً أمام كبار الشيوخ والوزراء لتحقيق طموحاتهم الشخصية وتنفيذ مؤامراتهم. في وقت أزمنت فيه الحروب الأهلية، وأصبح خلع الخلفاء واغتيالهم يتم بكل بساطة وبرودة أعصاب، وفقد الموحدون سيطرتهم على الأندلس أكثر من أي وقت مضى، وهو ما جعلها عرضة لحروب الاسترداد، التي قادتها الممالك المسيحية ضدها. وقد انفصلت إفريقية عن مراكش، واستغل بنو مرين كارثة العقاب وما أعقبها من أوبئة ومجاعات ليهيئوا الظروف التي ستؤدي إلى تفكك الإمبراطورية الموحدية بشكل أسرع مما كان منتظراً.

وتختلف المصادر التاريخية في تحديد عمر السلطان الجديد وقت اعتلائه العرش، فابن خلكان وابن خلدون يقولان إن عمره كان خمس عشرة سنة[1]، وصاحب المعجب يقول إنه ولد قبل وفاة جده يعقوب المنصور بأربعة أشهر، أي في فاتح شوال 594هـ (6 غشت 1189م)[2]، وهو ما يعني أن الناصر أنجبه وعمره أربع عشرة سنة، وهذا أمر مستبعد، بالنظر إلى ضعف قدرات الإنجاب عنده، بحيث إنه في حياته كلها لم ينجب إلا ثلاثة أبناء[3].

1- العبر. الجزء السادس، م. س.، ص.523.

2- ويضيف أن أمه كانت جارية مسيحية تدعى قمر وتعرف باسم حُكيمة. المعجب. م. س.، ص 238.

3- قضية الانجاب هذه قد تساعدنا كذلك على معرفة سن يوسف عند وفاته، فالمصادر تختلف في تحديد المدة التي عاشها حيث منها من يذهب إلى أنه عاش عشرين سنة بينما منها من يرى أنه عاش خمسا وعشرين، وهذا أمر مستبعد على اعتبار أنه لما توفي لم يكن قد أنجب بعد، بل فقط ترك إحدى جواريه حاملاً حسب صاحب روض القرطاس، م. س.، ص. 319 ، وهو ما يتماشى مع ما جاء في البيان المغرب، الذي يقول عند حديثه عن الحملات التي قادها عبد الله بن وانودين في غرب الأندلس ضد بني مرين على عهد الرشيد، حيث يقول إن عبدالله هذا تزوج من ابنة يوسف الثاني وأنه بفضل هذا الزواج حصل على لقب السيد مع كل الامتيازات التي يخولها.

وبخلاف ابن خلكان وابن خلدون، يقول صاحب الحلل وكذا مؤلف البيان المغرب إنه اعتلى العرش وعمره عشر سنوات، ويظهر أن هذا ما يؤكده صاحب الذخيرة عندما يقول إنه كان طفلاً قلقاً خجولاً لم يصل سن البلوغ ولا تجربة له بأمور الحكم، يقضي معظم وقته في اللهو واللعب داخل القصر[4].

وحسب صاحب روض القرطاس فقد عينه والده ولياً للعهد عقب عودته من الأندلس إثر هزيمة العقاب[5]، كما عين بعض شيوخ الموحدين أوصياء عليه[6]. وقد بعثت له، عقب وفاة والده برسائل البيعة كل ولايات الإمبراطورية باستثناء إفريقية التي عارض واليها الشيخ عبد الواحد في البداية مبايعة طفل، غير أن الوزيرين المتحكمين في السلطة أقنعاه بمبايعة الخليفة الجديد، بعدما ذكراه بوفائه للموحدين.

توقيع الهدنة مع قشتالة

لقد تناولنا في الفصل السابق ما قام به كل من القشتاليين والمسلمين خلال المدة القصيرة التي تفصل معركة العقاب عن تاريخي وفاة كل من الناصر وألفونسو الثامن، واللذين تزامنا تقريباً بحيث لم يفصلهما عن بعضهما البعض إلا شهور معدودة. ولم يكن الحال في مملكة قشتالة بأحسن مما أصبح عليه في المغرب، فقد اعتلى عرش قشتالة طفل لا يتجاوز عمره اثني عشرة سنة[7] هو إنريكي الأول، وعرفت البلاد ارتجاجاً داخلياً مصدره الطموحات السياسية لعائلة "لارا" Lara، وأطماع ملك ليون، ثم بعد ذلك الموت المبكر لإنريكي الأول نفسه، وصغر سن خلفه فرناندو الثالث. وقد سمحت هذه الوضعية المضطربة التي تمر بها مملكة قشتالة، للمسلمين أن ينعموا بالسلام في الأندلس لمدة طويلة نسبياً، ذلك لأنه كان لزاماً الانتظار إلى أن يصل فرناندو سن البلوغ ليلم كل القوات القشتالية ويجدد بواسطتها بعزم ونجاح ما بداه جده ألفونسو الثامن، لكن وفي انتظار ذلك، كان على "دونيا برنكويلا" الوصية على إنريكي الأول أن

4- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 24.

5- كان ذلك في الأيام العشر الأواخر من ذي الحجة 609هـ (مابين 13 و 22 ماي)، م. س.، ص. 316.

6- يحصر ابن خلدون هؤلاء في اثنين هما الوزير ابن جامع وصاحب الأشغال (وزير المالية) عبدالعزيز بن أبي زيد اللذان أصبحا يتحكمان في جميع الأمور ذات الشأن العام. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 523-524، بخلاف ذلك يقول صاحب الحلل الموشية إن الذي شغل الوزارة على عهده هو عبدالله بن وانودين والذي تزوج فيما بعد ابنته. م. س.، ص. 161.

7- Op. Cit., Cronica Latina. P. 82.

تبعث بإبراهيم بن الفخار الإسلامي[8] في سفارة إلى مراكش من أجل توقيع هدنة جديدة تسمح لها بالتفرغ لحل المشاكل الداخلية الشائكة.

وفيما يتعلق بالخليفة الموحدي الجديد، فقد تولى الوصاية عليه بالإضافة إلى أبي موسى عيسى[9]، الشيخان أبو علي عمر بن موسى بن عبد الواحد الشرقي وأبو مروان عبد الملك بن يوسف ابن سليمان التملي. وكانت بيعة أفراد الأسرة الإمبراطورية وشيوخ الموحدين له يومي الخميس والجمعة (26 و27 ديسمبر 1213م)، أما بيعة العامة فكانت يوم السبت، وقد حضرها صاحب المعجب الذي يصفها لنا بنفس الطريقة التي أسلفناها عند الحديث عن بيعة يعقوب المنصور.

وتخبرنا المصادر العربية أن يوسف وتبعاً للأعراف السائدة، عين مباشرة بعد مبايعته أعمامه عمالاً على ولايات الإمبراطورية، غير أن الواقع هو أن يوسف لم يقم بأكثر من المصادقة على ما قرره في هذا السياق الأوصياء عليه والذين اختاروا السيد إبراهيم، أخا جده يعقوب المنصور وأبا الخليفة المقبل المرتضى، عاملاً على فاس (سوف يفشل في صد هجمات المرينيين عليها) كما اختاروا السيد أبا زكريا إسحاق الأحول عاملاً على إشبيلية.

يوسف الثاني وإخماد التمردات

أمام عدم قدرته على القيام بأي تحرك عسكري ذي بال، قضى يوسف الثاني كل فترة ملكه بالعاصمة حيث نما وترعرع، دون أن يبرحها، اللهم للذهاب إلى تنمل لزيارة ضريح المهدي وأضرحة أسلافه بها، وهو ما أصبح عرفاً دأب عليه ملوك الأسرة الموحدية. وفي بداية عهده، وبالضبط بعد أربعة أشهر من بيعته، ومباشرة بعد انقضاء فصل الشتاء وتوقيع الهدنة مع قشتالة في مايو 1214م، أُلقي القبض على متمرد غامض الأصل اسمه عبد الرحمن، ادعى أنه فاطمي من فرع بني عبيد، وكان قد حل بإشبيلية على عهد يوسف الأول حيث عاش حقيراً مغموراً لسنوات طويلة، قبل أن ينتقل إلى مراكش التي سجن بها طيلة الفترة الممتدة مابين 596هـ و601هـ (1200م-1204م). وعندما انطلقت الحملة الكبيرة التي خرج فيها الناصر إلى إفريقية، أطلق سراحه عامل العاصمة أبو زكريا يحيى بن إبراهيم الهزرجي، وقد حاول مباشرة بعد ذلك إثارة القلاقل، كما حاول استمالة صنهاجة من خلال

8- البيان، المغرب م. س.، ص. 266. ورد ذكر ابن الفخار عند "مياس بياكروسا" Millas Vallicrosa في كتابه La Poesia Sagrada Hebraico-espanola، ص. 45. مدريد 1948. ويشير "شرلماشير" Schirlmacher في كتابه-Von Spanien Geschichte، الجزء الرابع، ص. 347 إلى أن البابا إنوصان الثالث، أنب ملك ليون في رسالة بعث له بها يوم 4 نوفمبر 1220م، على إرساله يهوداً بدل نصارى في السفارات التي بعث بها إلى أمير المؤمنين وغيره من عمال الموحدين.

9- هو الوحيد من بين أبناء عبدالمومن الذي كان لايزال على قيد الحياة، وقد سبق أن اخذ منه علي بن غانية بجاية.

أعمال الورع والتقوى التي حرص على الظهور بها. وبعد عشر سنوات من التمرد، نجح في جمع الكثير من الأتباع كون بهم جيشاً كبير العدد، خرج على رأسه إلى سجلماسة التي هزم عاملها السيد أبا الربيع سليمان عمر، غير أنه وبسبب أصله الغريب على المنطقة وعدم توفره على عصبية يستند إليها، فشل في تكوين نواة صلبة بين القبائل البربرية، وهكذا ألقي عليه القبض بأحواز فاس حيث قطع رأسه الذي أرسل إلى مراكش. وبجانب هذا التمرد عرفت البلاد تمردين آخرين سنتي 612هـ و618هـ في كل من جزولة سوس وصنهاجة، غير أنهما كانا معزولين وافتقرا إلى التخطيط اللازم، لذا انتهيا بالفشل ومقتل مدبريهما بعد أن كانا سبباً في اضطرابات وأضرار بليغة عرفتها البلاد.

بداية الغزو المريني

وبجانب هذه التمردات التي تم إخمادها، ظهر في تلك الأثناء بشرق المغرب الأقصى تمرد سوف تكون له أبعاد خطيرة، قام به بنو مرين الذين كانوا في عداء دائم مع الموحدين بحيث لم يخضعوا أبداً لحكومة مراكش، اللهم بحد السيف، وهكذا فبعدما خانوا عام 605هـ أثناء حملة تاهرت عامل بجاية، استغلوا حالة اليأس والخبل التي عاشها الموحدون عقب هزيمة العقاب، للخروج من منطقة السهوب الواقعة بين سجلماسة وفكيك التي كانوا يعيشون بها حياة الترحال، وبدؤوا بالتوسع غرباً حيث وصلوا إلى جرسيف ثم عبروا بعد ذلك نهر ملوية[10].

وقد بدأ توغلهم بمنطقة الغرب عام 611هـ (1214 م)، وبعد سنتين من ذلك، أي مع بداية عهد يوسف الثاني، وصلوا إلى منطقة تازة ثم إلى نواحي فاس. وبسبب القلق الذي سببه ذلك لحكام مراكش، أرسل هؤلاء ضدهم قوات يقودها أبو علي بن وانودين، في نفس الوقت أمروا عامل فاس السيد أبا إبراهيم إسحاق بتعبئة القبائل المجاورة. ورغم أن عدد قوات بني مرين كان محدوداً، فإن مهارة فرسانهم وغلبة خشونة حياة الترحال عليهم، ورغبتهم اللامحدودة في الحصول على الغنائم، جعلت خطرهم يتضاعف أمام عدو خامد الهمة منهار المعنويات.

معركة مشكالة (11)

وعندما علم المرينيون أن الموحدين أرسلوا ضدهم جيشاً منظماً، تركوا عائلاتهم وثرواتهم في حصن تازوطة بالريف، وخاضوا ضدهم معركة على ضفة وادي النكور دامت ثلاثة أيام، غير أنها لم

---

10 - يقدم لنا صاحب روض القرطاس وعلى اعتبار أنه أحد رعايا ملوك بني مرين، تفاصيل مدققة عن عاداتهم وقيام دولتهم م. س.، ص. 364 ، وقد أتممت ما جاء عنده حول معركتهم الأولى ضد الموحدين بما ورد حولها عند صاحب الذخيرة، م. س.، ص. 28.

11- لم يعد اسم هذا المكان معروفاً اليوم في المغرب، ويسميه دوزي مشعالة، أما "دي سلان" فيقول في هامش ترجمته للبربر إن اهل الريف الذين استطلع رأيهم أخبروه أنهم لا يعرفون معنى الكلمة، ويعتقد هو أن الأمر يتعلق بنوع من النباتات، وهو في هذا لا يختلف كثيراً عن "ماورا" الذي يقول في ترجمته البرتغالية لروض القرطاس إن الأمر يتعلق بشجرة شبيهة بشجرة الصنوبر الغابوي.

تحسم لأي طرف، وفي اليوم الرابع انسحب السيد أبو إبراهيم علي الذي كان يقود الجيش الموحدي نحو تازة في خطة مدروسة، أراد من خلالها استدراج المرينيين إلى المكان الذي وضع فيه مخيمه بين تازة والمقرمدة، ومهاجمتهم بعد أن يتوغلوا في تلك المنطقة، لكن خطته باءت بالفشل، حيث إنه وخلال المواجهة التي دامت اليوم كله، دارت الدائرة على الموحدين الذين جرح الكثير منهم، وغنم منهم المرينيون كل ما كان معهم بما في ذلك ملابسهم التي جردوهم منها، وهو ما اضطر الموحدين للالتجاء، وهم شبه عراة، إلى تازة وفاس، مضطرين، أمام خجلهم من شكلهم المخزي، للقيام بكسوة ما أمكن من أجسامهم ببعض أوراق الأشجار. ومما يؤكد أن المرينيين لم يكن يهمهم من المعركة غير الغنائم، إخلاؤهم سبيل السيد أبي إبراهيم نفسه بعد أن تعرفوا عليه.

وقد وقعت المعركة في صيف 1216م، وخلال الشتاء الموالي فضل المرينيون إيقاف هجماتهم والاستمتاع بالانتصار الذي حققوه. وفي ربيع 1217م (ذو الحجة 613هـ) وضعوا مخيمهم بالقرب من تازة، وطلبوا من عاملها أن يقيم لهم سوقاً خارجها ليبتاعوا منه ما يحتاجونه من مؤونة وملابس وأسلحة، ووعدوه بالانسحاب في وقت لاحق دون أن يحدثوا أي أضرار بالمنطقة. ويظهر أن غطرستهم هذه أغضبت العامل الذي خرج ضدهم على رأس قواته، غير أنهم تمكنوا من هزمه وقتله ونهب مخيمه عن آخره.

ويؤكد صاحب البيان المغرب[12] أن عدد فرسان بني مرين الذين خاضوا هذه المواجهة لم يتجاوز 400، في المقابل يجعل كل من صاحب الذخيرة السنية وصاحب روض القرطاس عدد القوات الموحدية عشرة آلاف[13]، ضمت بالإضافة إلى تلك التي أرسلت من مراكش، قوات قبائل مكناسة والتسول والبرانس وسيدراتة وهوارة وفشتالة ولمطة، إضافة إلى قوات قبائل فاس وتازة.

احتلال البرتغاليين لقصر أبي دانس

ولم يكن الوضع في الأندلس بالنسبة للموحدين بأحسن مما هو عليه في المغرب، فمملكة البرتغال والتي من الراجح أنها كانت تعاني على غرار مملكة قشتالة من الجوع ووباء الطاعون، لم توقع شأن هذه الأخيرة هدنة مع الموحدين، لذا فإنها استغلت وصول فصيلة من الصليبيين الألمان لتقوم بواسطتهم بمحاصرة قصر أبي دانس، وكان هو الحاجز الأساسي الذي يحول، ومنذ عهد يعقوب المنصور، دون توسع البرتغاليين جنوب وادي تاجة. ومن أجل تكليل العملية بالنجاح، تمت الدعوة في كل ربوع المملكة إلى حملة صليبية أهيب بكل قادر على القتال للمشاركة فيها. وقد خرجت سفن الفصيلة الصليبية من لشبونة

12- البيان المغرب، م. س.، ص. 251.

13- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 27-28. روض القرطاس، م. س.، ص. 161.

متوغلة في خليج الملح من أجل المشاركة فيها. وفي 30 يوليوز 1217 م بدأ الحصار الذي كان طويلاً وشاقاً بسبب موقع القصر والتحصينات التي كانت توجد به، وكذا بسبب المقاومة العنيدة للمدافعين عنه[14]. ويشير صاحب "تاريخ الملوك السبعة الأوائل" إلى أن قوام القوات البرتغالية المشاركة في الحصار هو عشرون ألفا من المشاة وقلة من الفرسان، وكان يقود هذا الجيش عدد من رجال الدين[15].

ومن أجل فك الحصار، طلب قائد القلعة عبد الله بن الوزير، مساعدة عمال بطليوس وقرطبة وإشبيلية وجيان الذين جهزوا لذلك جيشاً مهماً، في نفس الوقت أرسلوا أسطولاً من اثني عشرة سفينة لقطع الطريق على الفصيلة الصليبية في مصب وادي الملح. وكان وصول القوات الأندلسية البرية التي أرسلها عمال الولايات سالفة الذكر إلى قصر أبي دانس في شهر سبتمبر، في وقت نجح فيه المحاصرون وبشجاعة في صد عدد من هجمات العدو. وقد أقامت قوات النجدة الأندلسية مخيمها على مقربة من القلعة، في مكان يعرف باسم "ريبيرا دي سيتيموس" Ribera de Sitimos، وبدأت مباشرة بالمناوشة حيث حققت بعض التقدم على حساب المحاصرين يوم 11 سبتمبر، لكن في اليوم الموالي، هاجم هؤلاء مخيمهم وهزموهم هزيمة نكراء. ويشير صاحب روض القرطاس إلى أن المسلمين وبسبب الرعب الذي دب فيهم لاذوا بالفرار قبل أن تبدأ المواجهة، أما صاحب الروض المعطار فيقول إن 60 فارساً مسيحياً وهم الذين قاموا بالهجوم، كانوا كافين لجعل الفزع يدب في صفوف الأندلسيين. ويتحدث كتاب "تاريخ ألفونسو الثاني البرتغالي" بطريقة أكثر اعتدالاً عن الواقعة، فيشير إلى أن الأندلسيين هم الذين أخذوا البادرة في البداية حيث قاتلوا بحيوية. ورغم أن المسيحيين قاموا بعد ذلك بمباغتة مخيمهم وهزمهم، فإن المتخلفين داخل القلعة واصلوا مقاومة الحصار الذي ازداد حدة وعنفاً بعد المواجهة[16].

وبعدما فشلت كل المحاولات لاختراق الأسوار، تم العمل بنصيحة قائد الأسطول الصليبي الذي اقترح تشييد برجين يوازيان في علوهما أبراج القلعة، صعد إليهما جنود مسلحون بالبراقيل، كما وُضع على كل منهما منجنيق، وبدأ انطلاقاً منهما هد الأسوار. وبعد أن اقتنع من يوجد وراءها بعدم جدوى المقاومة، عبروا عن استعدادهم للاستسلام والانسحاب من القلعة مقابل السماح لهم بأخذ ما يقدرون على أخذه من ممتلكاتهم، غير أن المهاجمين رفضوا ذلك، واشترطوا عليهم إذا ما رغبوا

14- يقدم هركولانو في تاريخه- وصفاً مستفيضاً للحصار اعتماداً على ما جاء بصدده في المصادر المسيحية وفيما رواه الصليبيون المشاركون فيه.

15- يسمي بعض هؤلاء بأسمائهم ويتحدث عن المهام الدينية التي كانوا يشغلونها، ومن بين الذين يذكر أسماءهم نجد: Don Pedro Palmella, Don Martin Baregon y Don Martin Perez.

16- Op. Cit., Cronica de Los Primeros Reyes de Portugal.

في الانسحاب التخلي عن كل ممتلكاتهم، وهو ما رضخ له المحاصرون في النهاية حيث فتحوا أبواب القلعة وغادروها يوم 18 أكتوبر، بعد شهرين ونصف من الحصار، نفد خلالهما كل ما كان يوجد بها من مؤونة، في وقت كان المهاجمون قد ضربوا بحد السيف سكان القرى المجاورة.

وبعد استسلام القلعة، تظاهر عاملها عبد الله بن وزير باعتناق المسيحية، وهو ما كان له صدى كبير بين المسيحيين والمسلمين على حد سواء على اعتبار عراقة العائلة التي ينتمي إليها، غير أن البرتغاليين اكتشفوا حقيقة أمره بعد أيام قليلة، عندما فر إلى بلاد المسلمين[17].

ولا نعتقد أن انتصار البرتغاليين هذا كانت له انعكاسات كبيرة على مستقبل الوجود الإسلامي في الأندلس، ولا أنه كان بمثابة الحلقة المفقودة في سلسلة اسمها حروب الاسترداد، والدليل على

17- برز نجم آل بني وزير بغرب الأندلس منذ سقوط دولة المرابطين، وقد تمرد أحد أفراد عائلتهم وهو ابو محمد سيدراي ابن عبد الوهاب بن وزير القيسي في يابرة وباجة وأعلن خضوعه لابن قسي، لكنه وبسبب خلاف نشأ بينهما سجنه هذا الأخير بمرتلة، وبعد إطلاق سراحه دخل في مواجهة مع ابن قسي حيث تمكن من هزمه واستولى إثر ذلك على مرتلة وبطليوس عام 540هـ، بعد ذلك خضع لسلطة الموحدين وساعدهم عام 541هـ على احتلال إشبيلية، لكنه في السنة الموالية وعلى إثر تمرد المساطي، أعلن رفضه للسلطة الموحدية، وهو الرفض الذي استمر إلى عام 545هـ (1150م) حيث انتقل مع بقية ملوك الطوائف إلى سلا لتقديم البيعة لعبد المومن. وقد حظي منذ ذلك التاريخ بعطف الخلفاء، إذ عينه عبدالمومن عاملاً على شلب كما جعله يوسف الأول من بطانته، وكان هو الذي أهدى هذا الأخير الجارية التي سوف ينجب منها ابنه يعقوب. وفي عام 1174م ساهم في إعادة تعمير باجة، غير أنه سيتم أسره، فيما بعد لبعض الوقت في إشبيلية، بعدما نسبت إليه رسالة مزورة يدعو فيها ابن مردنيش لاحتلال هذه المدينة، ومع ذلك حافظ على ولائه للموحدين. ونجده عام 560هـ وأخاه أبا الحسن يرافقان السيد أبا حفص عمر إلى الأندلس من أجل الحصول على بيعة السيد أبي سعيد حاكم قرطبة لفائدة الخليفة الجديد يعقوب المنصور. وقد عاد إثرها وأخاه إلى مراكش حيث نجدهما عام 565هـ على رأس الحامية الأندلسية بها. بعدها وبفضل شجاعته وحنكته وخصوصاً بسبب معرفته بالأندلس وبالضبط بمنطقة بطليوس، خرج على رأس قافلة موحدية توجهت من مراكش إلى بطليوس، كما أرسل بعد ذلك في سفارة إلى مملكة ليون كانت الغاية منها تصفية الأجواء بعد النزاع الذي نشب بين الموحدين وملك ليون فرناندو الثاني. ومن المحتمل أنه توفي بعد هذه السفارة بقليل، على اعتبار أننا لا نجد بعد هذا التاريخ أي ذكر له في المصادر، في المقابل نجد ذكراً لابنيه أبي بكر محمد بن سيدراي بن وزير الذي عين عاملاً على باجة عام 570هـ (1174م) واخي هذا الأخير علي الذي عين عاملاً على شِيربة والذي سوف يأسره البرتغاليون فيما بعد. وفي عام 587هـ (1192م) وبعد استعادة يعقوب المنصور حصن أبي دانس عين أبا بكر بن وزير حاكماً عليه، وهو المنصب الذي بقي به إلى وفاته وكان ذلك بعد معركة العقاب (التي شارك فيها) بقليل. وسوف يخلفه ابنه عبد الله الذي عين على رأس الحصن إلى غاية سنة 614هـ (1217م)، وبعد سقوط هذا الأخير بيدالبرتغاليين انتقل عبدالله إلى مراكش ومنها عاد إلى إشبيلية لشغل منصب جديد بها، وفي يوم عيد الأضحى من سنة 626هـ (31 أكتوبر 1229م) وعقب تمرد سكان هذه المدينة على الموحدين ومبايعتهم لابن هود، نجح هذا الأخير، وكان يطارد الموحدين وأتباعهم دون هوادة، في إقناع العامة بأسر محمد بن وزير وبقية أفراد عائلته. وقد أمر ابن هود بعد عودته إلى أشبيلية عام 627هـ (1230م) على إثر هزيمته في ماردة، بقتل عبدالله بن وزير وأحد إخوته.

ذلك أن الصليبيين الألمان الذين شاركوا في الحصار والذين كانوا يسعون إلى مواصلة التقدم جنوب نهر تاجة، غادروا إسبانيا مجبرين بعد أن أمرهم البابا بالتوجه إلى بيت المقدس؛ وملك البرتغال ألفونسو الثاني، الذي لم يشارك في الحصار شخصياً، فضل الإقبال على أمور أخرى مثل إعادة تعمير بلاده، ومنح الامتيازات لبعض المخلصين له، بل والدخول في نزاعات مع رجال الدين، فضل كل ذلك على القيام بمغامرات حربية غير معروفة نتائجها. أما مملكة قشتالة فلم تكن في وضعية تسمح لها باستغلال سقوط قصر أبي دانس لتكثيف العمليات العسكرية ضد الموحدين، أولاً لأن الهدنة التي وقعتها معهم لم يكن قد انتهى أجلها، وثانياً لأن وفاة الملك إنريكي الأول في 6 يونيو 1217م (أربعة أشهر قبل احتلال قصر أبي دانس)، ثم النزاعات الداخلية التي كانت تعيشها والتي كان يقف وراءها آل "لارا" وملك ليون، استأثرت بكل اهتمام "دونيا برنكويلا" وغيرها من المؤيدين لتعيين ابنها فرناندو الثالث ملكاً.

النزاع مع بني مرين وانتشار المجاعة

وفي الوقت الذي كان البرتغاليون يحاصرون قصر أبي دانس في الأندلس، كان على المرينيين في المغرب أن يدخلوا في قتال مع بني أشقر وهم في الأصل فرع من المرينيين تحالفوا مع عرب رياح، وأعلنوا الحرب على أبناء جلدتهم حيث نجحوا في هزمهم بعد معركة دموية دارت رحاها يوم 22 جمادى الثانية 614هـ (26 سبتمبر 1217م) في وجرتان[18]، قتل خلالها من الجانب المريني الأمير أبو محمد عبد الحق وابنه إدريس. غير أن المرينيين وقبل أن يواروا الثرى أميرهم، قاموا برد فعل حاسم تمكنوا خلاله من إلحاق هزيمة نكراء بأعدائهم بعد أن استولوا على مخيمهم، إثرها واصلوا القتال تحت قيادة أميرهم الجديد أبي سعيد عثمان بن عبد الحق ضد عرب رياح، إلى أن أجبروهم على الخضوع والالتزام بأداء الجبايات، حسب كل من ابن خلدون وصاحب روض القرطاس[19].

وقد عانى المغرب خلال تلك المرحلة وعلى امتداد ثلاث سنوات (615هـ و616هـ و617هـ) من المجاعة التي تفاقمت بشكل كبير بعد أن انحبس المطر وعم الجفاف وانتشر الجراد، وبسبب هذه الوضعية المتأزمة، سمى المصامدة سنة 618هـ (1221م) بعام "وقليل". وللتخفيف

18- مكان مجاور لنهر سبو يبعد أميالا قليلة عن تافرطاست.

19- العبر، م. س.، ص 243؛ وروض القرطاس، م. س.، ص. 374.

من حدة المجاعة، قام حكام مراكش بتوزيع ما يوجد في خزائن الدولة من مؤونة على الرعية، لكن ذلك لم يحل المشكل، أساساً في المناطق القروية التي أقبل سكانها على أعمال النهب وقطع الطرقات؛ مما جعل الأمن ينعدم فيها، خصوصاً تلك الموجودة بالشمال. هذا الوضع استغله المرينيون الذين بسطوا سلطتهم على المناطق القروية، وهو ما جعل سلطة حكومة مراكش تنحصر في المدن فقط[20].

النشاط الدبلوماسي

في ظل تلك التطورات، اكتفى وزراء يوسف الثاني بتحرير رسالة (تحمل تاريخ 10 ربيع الأول 617هـ الموافق لـ 15 مايو 1220م) دعوا فيها، وتقليداً لعبد المومن وخلفائه من بعده[21]، لاعتناق الدعوة الموحدية والتشبث بأهدابها والوفاء لحكامها. في نفس الوقت، قبل هؤلاء الوزراء بتجديد الهدنة مع مملكة قشتالة والتي أرسلت من أجل ذلك سفراءها إلى مراكش. وبعد توقيع هذه الهدنة، بعثت حكومة مراكش رسالة إلى "دونيا برنكويلا" (مؤرخة في 6 رمضان 617هـ الموافق لـ24 أكتوبر 1220م) وكانت بمثابة الملكة الفعلية للبلاد والوصية على عرش فرناندو الثالث، تطلب فيها باحترام ما تم الاتفاق عليه[22].

وبخصوص بني مرين، فإن الموحدين لم يقوموا بأي إجراء ضدهم، رغم أنهم واصلوا مد نفوذهم شمال المغرب. وأمام خطرهم المتزايد، اضطر عامل فاس ومكناس والرباط موسى ابن عبد الصمد إلى الوصول معهم إلى اتفاق يحترمون بمقتضاه الأراضي الواقعة تحت سلطته مقابل غرامة تصل إلى 10 آلاف دينار سنوياً[23].

أعمال البناء والتشييد في إشبيلية

ومما قام به الموحدون في الأندلس خلال هذه الفترة، نذكر إصلاح أسوار اشبيلية التي كانت قد تعرضت لعدة أضرار، وتشييد حزام دائري حول المدينة. وقد تولى القيام بذلك السيد

20- البيان، م. س.، ص. 266-267.

21- من بين الرسائل التي تصب في هذا الاتجاه نذكر اثنتين من توقيع عبد المومن يعود تاريخ الأولى إلى 543هـ والثانية إلى 556هـ والثالثة من توقيع يوسف الأول يعود تاريخها إلى 3 رمضان 561هـ. انظر: مجموع رسائل...، م. س.

22- البيان المغرب، م. س.، ص. 267-268.

23- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 55.

أبوالعلاء إدريس بن يوسف الأول الملقب بأبي العلاء الكبير[24]، وكان قد شيد في السنة السابقة (617هـ) برج الذهب لاستعماله كمرقب وبرج دفاعي لصد الهجمات المسيحية التي يمكن أن تأتي من الضفة الأخرى للنهر[25].

ومما لاشك فيه أن هذا السيد قضى مدة محدودة في إشبيلية، ذلك لأنه ومع إتمام أشغال البناء هذه، وربما قبل إتمامها، صب عليه حكام مراكش جمّ غضبهم وقاموا باستدعائه، غير أنه وبفضل الحماية التي حظي بها من طرف الوزير ابن المثنى أعيد له اعتباره وتم تعيينه عاملاً على إفريقية عقب وفاة الشيخ عبد الواحد في فاتح محرم 618هـ (25 فبراير 1221م). وكان شيوخ الموحدين في تونس قد حاولوا جعل هذا المنصب وراثيا واختاروا لخلافة الشيخ عبد الواحد ابنه أبا زيد عبدالرحمن دون استشارة حكام مراكش، لكن أبا زيد هذا عزل بعد ثلاثة أشهر من تعيينه، حيث عُين مكانه أحد أبناء عمه بشكل مؤقت في انتظار وصول أبي العلاء إدريس[26].

عودة ظهور يحيى بن غانية
حصار قاصرش وركانة

مباشرة بعد وفاة الشيخ عبد الواحد، ظهر يحيى بن غانية من جديد في تخوم إفريقية، وفي سنة 619هـ (1222م) خرج ضده أبو العلاء الذي توجه إلى قابس على رأس فيلقين يقود أحدهما بنفسه، بينما يقود الآخر أبو زيد عبد الرحمن. ومن قابس قصدا ودان لمحاصرة ابن غانية بها، لكن في الوقت الذي وصلا فيه واحة غدامس، توغل ابن غانية في الصحراء ونجح في إقناع أهالي بسكرة بالتمرد قبل أن يقوم أبو زيد باستعادة المنطقة ومعاقبة المتمردين. في هذه الأثناء كان وزراء الموحدين في مراكش يحيكون الدسائس ضد أبي العلاء حيث نجحوا في إقناع يوسف الثاني بتوقيع قرار عزله، غير أن المنية وافت أبا العلاء في شعبان 620هـ (سبتمبر 1223م) قبل أن يصله القرار المذكور. وهو القرار الذي قام بإلغائه (بعد فوات الأوان) عبد الواحد المخلوع، عندما خلف يوسف الثاني الذي وافته المنية في 4 يناير 1224م.

24- هو الذي قام بغزو جزر البليار على عهد الناصر، وتسميه المصادر العربية بأبي العلاء الكبير وذلك لتميزه عن ابن أخيه أبي العلاء المأمون.

25- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 57-58.

26- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 269.

وفي الوقت الذي كان فيه حكام مراكش المتهورون منهمكين في عزل وتعيين الحكام، وهو ما أصبح خاضعاً للدسائس والمؤامرات التي وجدت داخل البلاط تربة خصبة سمحت بترعرعها، وقع ملك ليون ألفونسو التاسع في 26 غشت 1218م معاهدة سلمية مع قشتالة. وبما أنه لم يكن يرتبط بأية هدنة سارية المفعول مع الموحدين، فإنه خرج في حملة صليبية محدودة الأهمية ضد هؤلاء، اعتمد فيها على الرهبانيات العسكرية والمتطوعين من قشتالة وفرسان غشكونية[27]. وقد قصدت الحملة هذه المرة كذلك قاصرش، لكنها وعلى غرار حملة 1214م باءت بالفشل. ويصف صاحب "حوليات طليطلية" فشل حصار قاصرش كما يلي: «*لقد هاجموها لكنهم فشلوا في احتلالها، وقد اضطروا وبسبب الأمطار الغزيرة التي تهاطلت تلك السنة، لرفع الحصار والذي استمر من منتصف نوفمبر إلى نهاية ديسمبر*»[28].

وبخصوص مملكة قشتالة، فإن معاهدة السلم التي سبق ووقعها ملكها الراحل ألفونسو الثامن مع الموحدين انتهت صلاحيتها عام 1219م، وهو ما يعني أنها كانت لمدة خمس سنوات. ومما يؤكد ذلك، خروج مطران طليطلة "رودريغو خيمنيث دي رادا" Rodrigo Ximenes de Rada في حملة صليبية ضد الموحدين يوم 11 سبتمبر من السنة المذكورة، حيث توغل عبر أراغون وتمكن من احتلال ثلاث قلاع موحدية هي: "ميرة" و"شرويلة" و"شيرة" وذلك قبل أن يصل في 30 من نفس الشهر إلى ركانة، التي يقول بصددها صاحب "حوليات طليطلة" إن المسيحيين: «*قاموا بمهاجمتها بالمجانيق في جو من الصخب والفوضى، ورغم أنهم تمكنوا من تدمير أبراجها ومعاقلها، فإنهم فشلوا في احتلالها. وعندما انسحبوا من أمامها وكان ذلك يوم عيد القديس مرتين (21 نوفمبر 1219م)، كانوا قد فقدوا ما لا يقل عن ألفي رجل*»[29].

الدسائس السياسية

ولم يقم الموحدون بأي رد على الهجومين الليوني والقشتالي سالفي الذكر، ذلك لأن الحكام الموحدين كانوا غارقين في نزاعاتهم الشخصية؛ فالوزير أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان والذي كان يعقوب المنصور يكن له تقديراً خاصاً وكان من بين الذين أوصى بهم قبل وفاته، حافظ

27- Op. Cit., Julio Gonzalez Alfonso IX de Leon. Tomo I. P. 190.

28- Op. Cit, Anales Toledanos. Tomo I, P. 356.

29- Ibid. P. 477.

على منصبه الرفيع خلال عهد الناصر وكُلف بقيادة بعض الحملات العسكرية كما عُين بعد ذلك عاملاً على تلمسان، لكنه دخل فيما بعد في عداء مع الوزير النافذ أبي سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم ابن جامع[30] الذي لم يكتف بعزله وتعيين مكانه السيد أبي سعيد بن يعقوب المنصور، بل أمر بسجنه بنفس مدينة تلمسان، قبل أن يتم ودائماً بإيعاز منه، نفيه إلى جنجالة بولاية البسيط الأندلسية. ورغم الأمر الذي صدر عن عبد الواحد المخلوع، بعد مبايعته، بالعفو عنه، فقد عمل ابن جامع على أن لا يتم ذلك، عندما طلب من أخيه أبي إسحاق قائد أسطول سبتة بإبعاد ابن يوجان إلى ميورقة وفقاً لما قرره مستشارو يوسف الثاني قبل وفاته. ولما علم ابن يوجان بالأمر فر من جنجالة إلى مرسية وكله إصرار على الانتقام من بني جامع، ووضع حدا لاستئثارهم بالوزارة[31].

وفي الوقت الذي وصل فيه إلى عامل مرسية السيد أبي محمد عبد الله بن المنصور (كان يشغل هذا المنصب منذ سنة 616هـ الموافق لـ 1219 م) قرار اعتقاله ونفيه إلى ميورقة، طلب هو مقابلته وبين له أنه من الحيف أن يتولى الخلافة غير أبناء المنصور، على اعتبار أنه سمع هذا الأخير وهو يقول لشيوخ الموحدين إنه إذا لم يُظهر الناصر الكفاءة المطلوبة، يمكنهم عزله وتعيين مكانه أخيه عبد الله،

30- استأثر بنو جامع بالوزارة منذ عهد عبد المومن، وتوارثوها إلى 621هـ، سنة تمرد العادل. وكان إبراهيم بن جامع هو اول من تقلد الوزارة منهم ، وهو اندلسي الأصل ينتمي إلى طليطلة لكنه قضى طفولته وشبابه بـ "رُوتة" قرب قادس، وقد امتهن صناعة الغلايات. وعندما ظهر ابن تومرت ببلاد المغرب انتقل إلى هناك وأصبح من أتباعه، ولما غادر هذا الأخير مراكش والتجأ إلى الأطلس كان برفقته، وأصبح منذ ذلك التاريخ من المقربين إليه، وقد حظي فيما بعد برعاية عبدالمومن (المعجب، م.س.، ص. 238) الذي ولد بقصره ادريس بن ابراهيم بن جامع، والذي سوف يصبح فيما بعد وزيراً ليوسف الأول ورجل ثقته. وحسب صاحب مسالك الأبصار، فإن إدريس بن جامع هذا جمع ثروة طائلة، من مظاهرها أنه في بهو قصره الفخم كان بامكان خمسمائة امرأة أن تلعب القراج في وقت واحد، غير أن أيام العز لم تدم بالنسبة إليه حيث أمر يوسف الأول عام 573هـ حسب، البيان المغرب، بنفيه وعائلته إلى ماردة التي مكث بها إلى أن عفا عنه يعقوب المنصور عام 579هـ. وفي سنة 577هـ وعلى اثر وقوع قائد أسطول سبتة غانم بن مردنيش في الأسر، عين مكانه أخا إدريس عبد الله، ولم يكن قد طاله النفي الذي استهدف عائلة بني جامع. وعلى عهد الناصر عين ابن عبد الله هذا ويدعى ابا سعيد عثمان عاملاً على طرابلس وذلك قبل أن يعين في منصب الوزير الذي شغله ابتداءً من 605هـ. وقد أصبح اثناء ذلك يتمتع بنفوذ كبير خصوصاً على عهد يوسف الثاني. وفي سنة 617هـ قام هذا الأخير بعزله لكنه عاد بعد ذلك بقليل ليتولى الوزارة. وعلى إثر وفاة يوسف خطط بنجاح حتى تتم مبايعة عبد الواحد المخلوع خليفة. وبسبب العداء الذي كان يناصبه لعامل تلمسان ابن يويون تمكن من عزله قبل أن يدبر مؤامرة نفيه إلى جنجالة بالأندلس، وبما انه عارض بعد ذلك تعيين العادل خليفة، فإن شيوخ الموحدين وبعدما دبروا مؤامرة اغتيال المخلوع قاموا بعزله ونفيه إلى الأطلس، لكنه وبسبب سعيه لدى أخيه أبي إسحاق، وكان قائداً لأسطول سبتة، من أجل قطع الطريق على العادل أثناء عبوره للمضيق، تقرر اغتياله، وهو ما تم بهسكورة في ربيع 621هـ (1224م)، وكان مقتله بداية لأفول نجم بني جامع.

31- الروض المعطار، م.س.، ص. 174-175.

وأضاف أن عليه هو أن يضع حداً لهذه الوضعية الشاذة، والاستفادة في ذلك من وجود ثلاثة من إخوته (هم أبو العلاء وأبو موسى وأبو الحسن) على رأس عمالات قرطبة ومالقة وغرناطة، بحيث يكفيه الكتابة إليهم وتذكيرهم بأن الخلافة لا يجب أن تخرج من نسل المنصور. وقد اقتنع عبد الله (كان قد رفض في البداية مبايعة عمه عبد الواحد) بموقف ابن يوجان، واعتقد أن موحدي المغرب والأندلس سيقتنعون به كذلك، اعتباراً للخدمات الكبيرة التي قدمها ابن يوجان للدولة عندما كان يتولى الوزارة على عهد المنصور والناصر. من هذا المنطلق، وبعدما حصل على تأييد إخوته، أعلن عبد الله نفسه أميراً للمؤمنين وتلقب بالعادل. والواقع أن الخطوة التي أقدم عليها كانت لها عواقب وخيمة؛ حيث أفسح بها المجال لعهد الاضطرابات والحروب الأهلية التي سوف تؤدي إلى انهيار الإمبراطورية الموحدية.

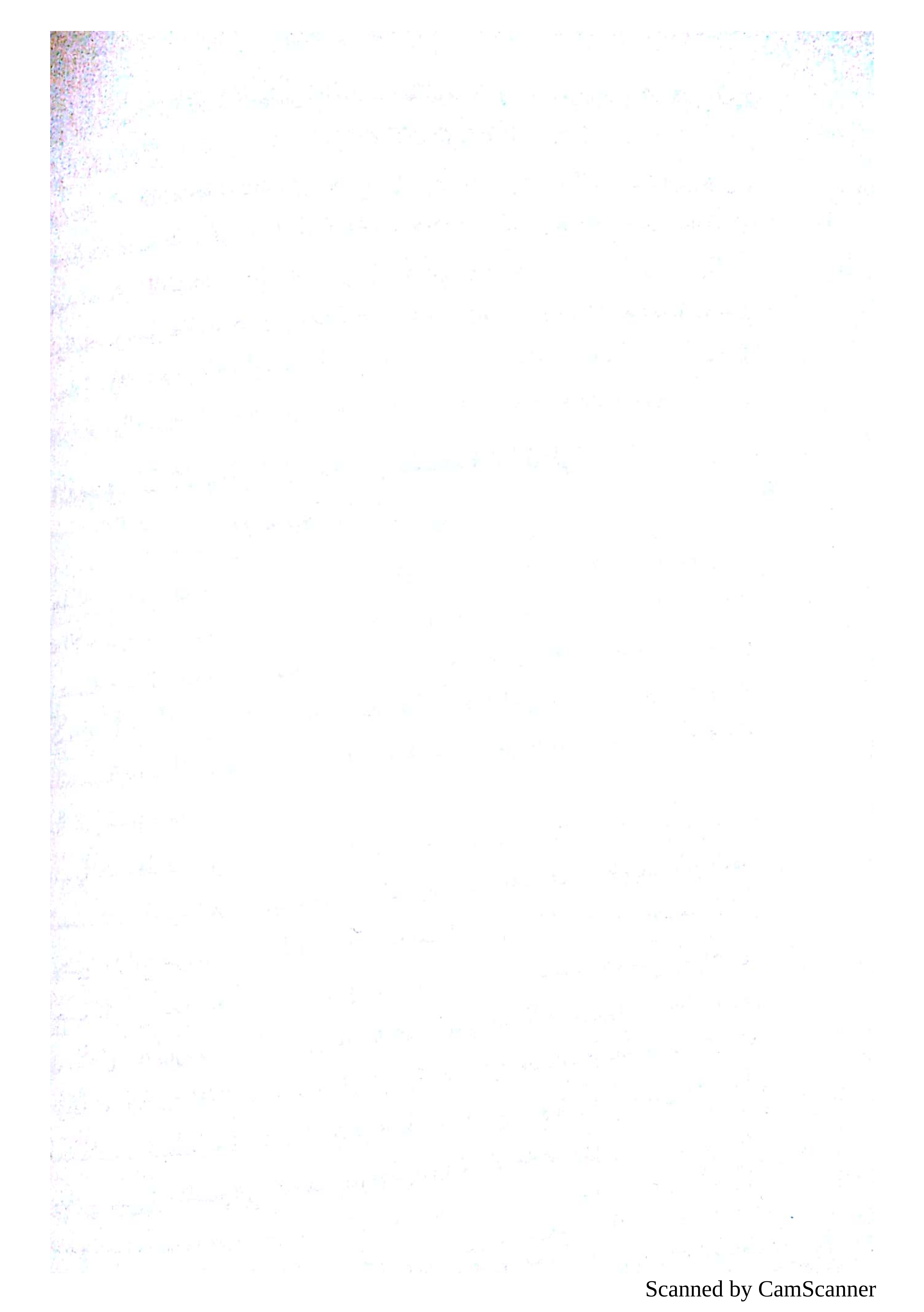
الهجومات الليونية / احتلال بلنسية القنطرة / موت يوسف الثاني

وقد حاولت مملكة ليون دون غيرها من الممالك المسيحية توسيع نفوذها في منطقة وادي آنة خلال السنوات الأخيرة من عهد يوسف الثاني، من أجل ذلك وقعت في "بُرونال" Boronal في 13 يوليوز 1219م هدنة مع البرتغال مدتها عشرون سنة، في نفس الوقت شنت بقيادة "مرتين سانشيث" Martin Sanchez [32] غارة على طرجانة الواقعة بمنطقة إشبيلية. وقد نجح الليونيون إثر ذلك في احتلال بلنسية القنطرة لكنهم فشلوا أمام قاصرش التي يقدم لنا صاحب "حوليات طليطلية" صورة حية عن مقاومتها.

في تلك الأثناء، وبالضبط في يوم 25 مارس 1223م توفي ملك البرتغال الذي لم يول كبير اهتمام لحروب الاسترداد، وفي شهر سبتمبر من نفس السنة توفي عامل إفريقية أبو العلاء إدريس بن يوسف، وفي الرابع من يناير 1224م توفي يوسف الثاني. ويتفق كل من صاحب روض القرطاس[33] وصاحب تاريخ الدولتين على تاريخ وفاة هذا الأخير لكنهما يختلفان في تحديد أسبابها، بحيث يرى الأول أنه كان ضحية عجل نطحه في قلبه، ذلك لأنه كان يهوى تربية الخيول والثيران التي كانوا يأتونه بها من الأندلس. هذه الرواية يقبلها ابن الخطيب وبعده الناصري، بعد إدخالهما عليها تعديلات طفيفة، مقابل ذلك يرى صاحب تاريخ الدولتين ومعه ابن خلدون أن وزيره أبا سعيد بن جامع دس له السم في الطعام بتواطؤ مع فتىً اسمه مسرور.

32- الابن غير الشرعي لسانشو الأول ملك البرتغال، وقد أعلن ولاءه لمملكة ليون في صيف 1220م.

33- روض القرطاس، م. س.، ص. 378.



الفصل السابع

أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن المخلوع وأبو عبد الله بن يعقوب المنصور

لم يطرح تقليد وراثة العرش الذي سنه عبد المومن أي إشكال على عهده وعهد خلفائه الثلاثة المباشرين، لأن الخلافة كانت تؤول وبشكل تلقائي لأحد أبناء الخليفة المتوفى، لكن وبعد وفاة يوسف الثاني دون أن يترك وريثاً، اعتبر أبناء يعقوب المنصور والناصر أنهم أحق بالخلافة من عبد الواحد بن يوسف الأول العجوز والذي وبسبب المدة الزمنية الطويلة التي مرت على وفاة والده الخليفة، فقدت قيمتها الألقاب التي كان يحملها[1].

ورغم أن وفاة يوسف الثاني المفاجئة دون أن يترك ولداً باغتت شيوخ الموحدين، فإن هؤلاء وافقوا وبسرعة على اقتراح الوزير عثمان بن جامع والمتعلق بمبايعة عم والد الخليفة المتوفى، وسنه آنذاك قد يكون تجاوز الستين.

وكانت أم الخليفة المعين وهي أميرة تنتمي لأسرة بني حماد اسمها مريم، من بين الذين أسرهم عبد المومن أثناء معركة القلعة، وقد تزوجت بعد ذلك من يوسف الأول الذي سوف يرزق منها ثمانية أبناء؛ أربعة ذكور وأربع إناث[2]. ولم يسبق لعبد الواحد هذا أن شغل أي منصب على عهد والده لأنه كان أصغر إخوته، لكن لما اعتلى العرش محمد الناصر عينه عاملاً على مالقة سنة 598هـ (1202م) وهو المنصب الذي شغله لمدة أربع سنوات، ثم عُين بعد ذلك على رأس قبيلة هسكورة، قبل أن يصبح عاملاً على سجلماسة حيث نجح هناك في إخماد أحد التمردات التي عرفها عهد يوسف الثاني كما مر بنا.

1- كانت قد مرت أكثر من أربعين سنة على وفاة والده يوسف الأول.

2- المعجب. م. س.، ص. 468.

وبعد عزل أبي العلاء إدريس من عمالة اشبيلية ونقله إلى تونس، خلفه عبد الواحد، لكن لمدة قصيرة، ذلك لأننا نجده في مراكش في ربيع الثاني عام 620هـ إثر وفاة يوسف الثاني، في وقت أصبح فيه عبد الله البياسي عاملاً على اشبيلية.

لقد بويع عبد الواحد خليفة يوم الأحد 13 ذي الحجة 620هـ (7 يناير 1224م) غير أن خلافته لم تدم أكثر من ثمانية أشهر. ويشيد عبد الواحد المراكشي، الذي تعرف عليه شخصياً، كثيراً بخصاله وصفاته الحميدة، كما يتحدث عن شكله، فيقول إنه كان: «*أبيض تعلوه صفرة، جميل الوجه جدا، معتدل القامة، متناسب الأعضاء وله من الولد -على علمي- ثلاثة: محمد، وهو أكبرهم، وعبدالرحمن، وأحمد، وبنات*»[3]. أما ابن خلكان فيقول عنه إنه لما تولى الخلافة كان عجوزاً، ورغم ذكائه الحاد، لم يعرف -حسبه- كيف يتكيف مع طموحات وغطرسة كبار شيوخ الموحدين الذين تعودوا، على عهد سلفيه، على تسيير أمور الدولة كما يحلو لهم، وهكذا فبعد أن أرغموه على القبول بالعرش، أرغموه على التنازل عنه، ودبروا مؤامرة قتله خنقاً، ثم قاموا بنهب قصره وسرقة كنوزه وانتهاك حرمة حريمه.

ويعتبر عبد الواحد هذا أول خليفة موحدي يخلع عن العرش ويقتل، وكما لاحظ صاحب روض القرطاس، فإن شيوخ الموحدين أصبحوا بعد مقتله يلعبون داخل البلاط الموحدي نفس الدور الذي لعبه الأتراك داخل البلاط العباسي.

ونقرأ في "التاريخ اللاتيني لملوك قشتالة" الذي كتبه معاصر للأحداث، أنه بعد وفاة الناصر أصبح العرش شاغراً لأنه لم يترك وريثاً. آنذاك وقع خلاف بين الموحدين في شأن من يتولى الخلافة، وبعد تعيين عبد الواحد قام من كان يرفض بيعته بقتله، ومنذئذ تفاقم الخلاف وعم الشقاق بين أصحاب الحل والعقد في تلك البلاد التي لم تعرف السلم إلى اليوم، «وهو ما نتمنى *ألا تعرفه أبداً*»[4].

تمرد العادل

كان أول ما قام به عبد الواحد هو إعادة أخيه الأكبر أبي العلاء إدريس إلى منصبه على رأس ولاية إفريقية، وهو قرار وصل إلى تونس متأخراً كما مر بنا. وبعد شهرين بالضبط على بيعته، تمرد في مرسية عبد الله نجل أخيه يعقوب المنصور، وهو ابن جارية من أصل برتغالي تدعى سر

3- نفسه، م. س.، ص. 471.

4- Op. Cit., La cronica latina. p. 106.

الحُسْن، أسرها والده في شنترين، دون شك أثناء حملته على حصني العقاب وطمان صيف 1190م، لذا فإن ابنها عبد الله وأثناء تمرده سوف يكون قد تجاوز الثلاثين بقليل. ويقدم لنا صاحب روض القرطاس أوصافه فيقول إنه كان: «*أبيض اللون، تام القد، نحيل الجسم، أشهل العينين، أقنا الأنف، خفيف العارضين*»[5].

وبعد اقتناعه بمبررات ابن يوجان للمطالبة بالعرش، عرض عبد الله الموضوع على إخوته الذين عبروا له عن تأييدهم وذلك قبل أن يستدعي موحدي مرسية الذين بايعوه دون تردد. إثرها توجه إلى اشبيلية حيث عزل السيد أبا الربيع بن أبي حفص وكان قد عينه عليها حديثاً عبدالواحد المخلوع. وأثناء مقامه في اشبيلية بايعته كل ولايات الأندلس باستثناء المنطقة الشرقية، ذلك لأن السيد أبا زيد أخا البياسي والذي كان يتولى السلطة في بلنسية ودانية وشاطبة وألشيرة، حافظ على وفائه لخليفة مراكش. ولا نعرف هل موقف أبي زيد هذا هو الذي جعل البياسي يسحب تأييده لعبد الله أم أن هذا الأخير هو الذي شك في وفائه، لكن الذي نعرف أن الاتفاق بين الرجلين سرعان ما تم خرقه. وبعد طرد البياسي من قرطبة ثم من جيان انتقل إلى بياسة حيث عبر له سكانها عن تأييدهم[6].

وبعدما علم كبار شيوخ الموحدين في مراكش بما جرى في الأندلس، بدؤوا بمعارضة المخلوع، وهكذا تمرد الشيخ أبو زكريا بن يحيى بن أبي حفص على رأس قبيلة هنتاتة، وكتب إلى العادل يخبره بالوضع المضطرب الذي كانت عليه العاصمة. في تلك الأثناء انضم إلى المتمردين يوسف ابن علي، شيخ تنملل. وقد قام هؤلاء بنفي عثمان بن جامع الذي كان وراء تعيين المخلوع إلى هسكورة في الأطلس، بسبب الأوامر التي وجهها إلى أخيه قائد أسطول سبتة بمنع العادل من عبور المضيق. ورغم المساعدة التي تلقاها من أخيه، فشل ابن جامع في الفرار من منفاه، وتم اغتياله في ربيع عام 621هـ (1224م) بمكان حاول الاختباء فيه[7].

تمرد البياسي وحصار بياسة

وإذا كانت الظروف مواتية بالنسبة للعادل في المغرب من أجل اعتلاء العرش، فإن الأمر لم يكن كذلك في الأندلس، وهكذا فالبياسي الذي قام بطرده من جيان وأبذة بعدما سحب تأييده له،

5- روض القرطاس، م. س.، ص. 323.

6- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.527.

7- الروض المعطار، م. س.، ص. 174-175.

تقوت شكيمته في بياسة خصوصاً بعد الدعم الذي تلقاه من طرف فرناندو الثالث[8]، وهو ما حذا بالعادل إلى إرسال أخيه إدريس (المأمون فيما بعد) لمحاصرة بياسة، وكان قد حل آنذاك فصل شتاء 1224م- 1225م. وبسبب برودة الطقس وتهاطل الأمطار، تعقدت مهمة المحاصِرين الذين بدؤوا يتخوفون من حدوث فيضانات بالوادي الكبير ومن احتمال حضور ملك قشتالة لنجدة البياسي، لذا لما عبر هذا الأخير للسيد إدريس عن استعداده لمبايعة العادل من جديد وتقديم أحد أبنائه كرهينة، لم يتردد السيد إدريس في قبول العرض. وبما أن السيد إدريس اعتبر أن هذا الاتفاق يبرر انسحابه، فقد عاد إلى اشبيلية، لكنه وبعدما وصلها اتهم بالجبن وأهين بسبب ذلك.

وقد التزم البياسي بما تعهد به، ومع ذلك وما أن تحسنت أحوال الطقس حتى غادر جيش آخر اشبيلية لتجديد الحصار، وكان يقوده هذه المرة عثمان بن أبي حفص الذي اقترب من بياسة من جهة الجنوب، وبعد أن عبر الوادي الكبير وفي الوقت الذي لم يعد يفصله عنها إلا خمسة أميال، خرجت ضده مجموعة من الفرسان المسلمين لا يتجاوز عدد أفرادها المائة، وكان يعاضدها بعض المرتزقة المسيحيين. ولما رأى المحاصِرون هؤلاء، لاذوا بالفرار دون أن يدخلوا معهم في المواجهة. ولم يتم بعد ذلك إعادة الكرة ضد البياسي[9].

رحيل العادل إلى المغرب

لقد أصبح الوضع لا يطاق في الأندلس بالنسبة للعادل، لذا، قرر نتيجة لتخوفه من تحقيق البياسي لانتصار حاسم ونهائي يكون سبباً في تضييعه هو لفرصة تولي الخلافة، قرر الانتقال إلى المغرب بعد أن عين أخاه أبا العلاء حاكماً عاماً على الأندلس، وكانت خاصة العادل وبعد هزيمة جيشه أمام قوات البياسي، قد حملت ذلك الشخص المزعج والمقلق الذي هو ابن يوجان مسؤولية المصائب المتكررة التي تحل بالموحدين في الأندلس. لذا وبعدما نجحت هذه الخاصة في فصله عن بطانة العادل، أرسلته إلى سبتة.

وعقب عبور العادل للمضيق، التقى في القصر الصغير بأبي محمد بن أبي حفص الذي حياه ببيت شعري فيه من الحكمة والبلاغة ما كان كافياً ليجعل الخليفة يعينه والياً على إفريقية بدلاً من ابن عمه أبي زيد الذي استدعاه إلى مراكش. ولما وصل العادل إلى سلا، وقبل أن يأخذ طريق

8- في تلك الأثناء انطلقت حملة فرناندو الثالث ملك قشتالة التي استهلها باحتلال قيجاطة في خريف 1224م.

9- Op. Cit., La cronica latina. p. 114.

مراكش، استدعى عرب بني جشم من أجل تقديم البيعة. في تلك الأثناء قام ابن يوجان، وكانت تربطه علاقة صداقة بعرب الخلط، بمناورة نجح من خلالها في تأخير مجيء عرب سفيان لتقديم البيعة للخليفة الجديد، وهو ما سيؤدي إلى مواجهات بين الخلط وسفيان كانت سبباً في نهاية العادل المأساوية.

ومع وصوله إلى العاصمة واعتلائه العرش، زكى الخليفة الجديد كبار الموظفين في مناصبهم، وبعث برسالة رسمية إلى أتباعه في الأندلس يخبرهم فيها أن الوضع على أحسن ما يرام في المغرب وأن الموحدين استقبلوه بحفاوة وعبروا له عن تأييدهم ووفائهم، وكانت غايته من بعث الرسالة الرفع من معنويات من وجهت لهم[10].

هزيمة البياسي ومحاصرة قبية

و ما أن تأكد من عبور خصمه إلى المغرب، حتى قرر البياسي توجيه الضربة الحاسمة لسلطة الموحدين في الأندلس، وهكذا خرج ضد اشبيلية حيث يوجد أبو العلاء، قبل انقضاء فصل شتاء 1225م - 1226م وقام بمحاصرتها[11]، لكن عكس كل التوقعات، وربما بسبب عدم ضمه إلى القوات التي اعتمد عليها في الحصار العدد الكافي من المقاتلين المسيحيين، انهزم البياسي وفقَد حصن القصر وطرجانة وحصون منطقة الشرف التي سبق وخضعت له. وعلى إثر انكسار العدو، بعث أبو العلاء برسالة إلى العادل في مراكش مؤرخة في ربيع الأول 623هـ يخبره من خلالها وبأسلوب فيه الكثير من البلاغة والبيان بما حدث[12]. غير أن الموحدين لم ينعموا براحة البال طويلاً في الأندلس، ذلك لأن فرناندو الثالث الذي أعاد تنظيم قواته، قام ابتداءً من 7 يونيو بمحاصرة حصن قبية حيث استعمل في ذلك كميات كبيرة من المجانيق. وكان الحصار طويلاً وشاقاً ودام أكثر من شهرين[13]. وقد أرسل

10- العبر، م. س.، ص. 527.

11- البيان المغرب، م. س.، ص.271.

12- نفسه، م. س.، ص.271.

13- جاء في "التاريخ اللاتيني" بخصوص دخول المسيحيين إلى الحصن: *«كان الحصن منيعاً، وكان يخيط به ثلاثة اثقال وعدد من الأبراج العالية، وقد دخله الملك بعد أن اضطر لاستعمال القوة والحيلة في نفس الوقت. وبعدما تأكد المسلمون أن النجدة لن تأتيهم وانه لم يعد بمقدورهم الدفاع عنه، عرضوا على فرناندو الثالث أن يسلموه له، شريطة ان يتركهم يغادرونه بسلام».*

البياسي، الموجود في قرطبة، أثناء الحصار كميات كبيرة من المؤونة وبعض عتاد الحرب إلى المحاصِرين. ولما تبين للمحاصَرين أن هزيمتهم أصبحت مؤكدة، طلبوا مهلة ثمانية أيام قبل تسليم الحصن، وكانت غايتهم من ذلك، انتظار قوات النجدة التي أرسلوا في طلبها من اشبيلية والتي لم تأت أبداً، وهو ما أجبرهم على الاستسلام. وبعد أن زود فرناندو الحصن بالمؤونة اللازمة، وضع به حامية عسكرية وغادره نحو طليطلة في 15 غشت 1226م[14].

مقتل البياسي
تقييم وعرض كرونولوجي لمغامراته

لقد تمرد القرطبيون على البياسي ورغبوا في قتله بسبب تقديمه المساعدة للقوات المسيحية التي كانت تحاصر قبية، شجعهم على ذلك الهزيمة التي مني بها في اشبيلية. وبسبب خوفه على حياته حاول الفرار من قرطبة عبر باب مؤدية للبساتين الموجودة في أرباضها، وكان يريد التوجه إلى حصن المدور، غير أن المتمردين لحقوا به في المنحدر المؤدي إلى الحصن. وبعد أن ضربوا عنقه، أرسلوا برأسه إلى اشبيلية حيث يوجد أبو العلاء والذي أرسله بدوره إلى مراكش. وما أن رآه العادل، ولم يكن قد مر إلا وقت قصير على وصوله العاصمة، حتى قذف به أرضاً وانفجر غاضباً يلعن عدوه اللدود وكل من يمت إليه بصلة[15].

وبخلاف مؤلف "التاريخ العام الأول"، تعتبر المصادر العربية، مثل البيان المغرب وروض القرطاس والعبر، البياسي خائناً يهاجم قلاع المسلمين ومدنهم، ويسلمها لفرناندو الثالث بعد إخضاعها[16]. غير أن الواقع يختلف نوعاً ما عن ذلك؛ صحيح أنه آثر مصالحه الشخصية على مصالح المسلمين، وصحيح أنه تمرد على العادل من أجل تحقيق طموحاته الشخصية، لكن هذا الأخير تمرد بدوره على سلطة الخليفة الشرعي. ثم إنه وبعد أن عزل من منصبه كعامل لجيان، وخوفاً على حياته التجأ إلى حصن بياسة، وكان كل ما بقي تحت سلطته. وحتى لا يضطر للاستسلام للعادل، تحالف مع ملك قشتالة وبدأ يرافقه ويقدم له المساعدة في حملاته ضد المسلمين، وكانت في المؤونة أكثر منها في الرجال[17]. وفي المقابل كان فرناندو يهاجم القلاع التي

14- Ibid, La cronica latina. P. 116. Op. Cit. Primera cronica general. p.721.

15- هذا ما يؤكده كل من صاحبي البيان المغرب و La cronica latina .

16- البيان المغرب، نفسه، ص. 272-273؛ والعبر، الجزء السادس، م. س.، ص.527.

17- تقول La cronica de Ocampo عن المساعدة التي قدمها لفرناندو الثالث أثناء حصاره لحصن قبية: «ارسل ملك بياسة *الكثير من الدقيق والحبال والحديد من اجل مساعدة الملك في الحصار الذي ضربه عليه*».

رفضت الخضوع للبياسي ويسلمه بعضها، في حين لم يقترب من تلك التي كانت وفية لهذا الأخير. ثم إن البياسي استغل أكثر من مرة صداقته مع المسيحيين ليخفف من حدة هجومات هؤلاء على بعض أراضي المسلمين، وهذا ما نستشفه مما جاء في Cronica de Ocampo بصدد الحصار الذي ضربه فرناندو الثالث على جيان؛ فبعد أن فقد الأمل في إخضاعها: «رفع مخيمه وتوجه نحو مارتوس، *عند ذلك ترجاه ملك بياسة الرفق بسكانها وعدم إلحاق الأذى بهم، وقد قبل الملك فرناندو رجاءه، وانتقل من هناك إلى ببرش حيث أراد مهاجمة قلعتها، وهنا ترجاه مرة أخرى كي يعدل عما نوى عليه، وهو ما لباه فرناندو الذي انتقل إلى القنديت، وقبل أن يقوم بمهاجمتها ترجاه ملك بياسة العدول عن ذلك، وهو ما قبل به فرناندو، لكن هذه المرة طلب منه الا يترجاه من جديد إذا ما قرر مهاجمة مناطق أخرى*»[18].

وبعد إعلان ولائه لفرناندو الثالث ودفعه ما أنفقته قشتالة من أموال دفاعاً عنه، التزم بأن يسلم لهذه الأخيرة قلعة شلبطيرة وكانت رافضة لسلطته، وحصنا "حمامات البلوط" وقبية وكلاهما كذلك لم يكونا قد اقتنعا بشكل كامل بسلطته، ودائماً ووفاءً بما التزم به من قبل، بحامية مسيحية في قصبة بياسة. وقد اضطر سكان "حمامات البلوط" وشلبطيرة في النهاية للاستسلام للمسيحيين بعد أن تعذر عليهم مقاومتهم، في حين أغلق حصن قبية أبوابه ورفض الاستسلام وهو ما جعل المسيحيين يفرضون عليه حصاراً دام أكثر من شهرين.

ولما علم ملك قشتالة بمقتل تابعه الوفي البياسي تأسف لذلك كثيراً، وأمام تخوفه من قيام سكان المدن والقلاع التي سقطت بيده حديثاً بما قام به أهالي قرطبة، عزز القدرات العسكرية لحاميات أندوجر ومارتوس وبياسة والتي خضعت له بشكل نهائي، وعاد إلى طليطلة.

وقد حاول البياسيون طرد الحامية المسيحية من قصبة المدينة بمساعدة قوات يقودها عامل جيان عمر بن عيسى بن أبي حفص، الذي تمكن بتحالف مع محمد بن يوسف المراكشي، من دخول المدينة، لكنه لم يتمكن من مباغتة القصبة، لذا قرر الانسحاب في نفس اليوم، ودون أن يقضي هناك ولو ليلة واحدة، رغم توسلات البياسيين الذين حاولوا إقناعه بمحاصرة القصبة ولو ليومين أو ثلاثة، على اعتبار أن الحامية المسيحية والتي لا مؤونة لها لن تستطيع المقاومة أكثر من ذلك، غير أن تلك التوسلات لم تجد لديه آذاناً صاغية. وسبب ذلك، تخوفه من قيام العدو

18- نفسه، ص. 109.

باعتراض طريقه بإحدى الفجاج التي يتم عبرها مغادرة المدينة. وبانسحابه، أصبحت بياسة خاضعة لسلطة المسيحيين بشكل نهائي[19].

ورغم الغموض الذي يلف مسيرة البياسي ومغامراته العسكرية، أعتقد أنه بإمكاننا القيام بضبط كرنولوجي لهذه المسيرة، استناداً إلى المعلومات التي يُقدمها لنا بهذا الصدد كل من "التاريخ اللاتيني" والروض المعطار والبيان المغرب، وكذا استناداً إلى الخلاصات التي وصل إليها "خيمينيث هرنانديث" في مقاله حول برج الحمة وحمامات البلوط[20]. ففي 13 صفر (6 مارس 1224م) تمرد العادل الذي اعترف به وقتها البياسي، وكان قد عزله المخلوع من منصبه كعامل لقرطبة وجيان، غير أن اعترافه بالعادل لم يدم إلا وقتا قصيراً، حيث إنه وعلى غرار أخيه أبي زيد عامل بلنسية أعلن استقلاله. وفي صيف نفس السنة، أرغمه العادل على التخلي عن جيان وأبذة وهو ما دفعه إلى الالتجاء إلى بياسة، حيث عمل على تقوية قدراته العسكرية اعتماداً على دعم المسيحيين الذين تحالف معهم. وفي نهاية شهر سبتمبر، وكان فرناندو الثالث ذاهبا لزيارة قيجاطة، خرج هو للقائه بمنطقة مورادال حيث أعلن ولاءه له. ومع حلول فصل الشتاء، عاد فرناندو إلى طليطلة ليغادرها من جديد في بداية 1225م، حيث ذهب إلى قونقة ليدرس من هناك إمكانية القيام بحملة ضد شرق الأندلس. وبما أن أبا زيد (أخا البياسي) تخوف من عواقب الحملة عليه، فقد خرج هو الآخر للقاء به في "مُوية" وأعلن ولاءه له. وفي يونيو 1225م خرج فرناندو في حملته التي استهدفت جيان ولوشة وبريغو وحمة غرناطة، إضافة إلى حصني مارتوس وأندوجر اللذين خضعا له وهو في طريق عودته إلى طليطلة. وفي نفس صيف 1225م قامت القوات المسيحية، التي استُعملت في الحملة على جيان، وبدعم من البياسي بمهاجمة الإشبيليين وهزمهم. موازاة مع ذلك، قامت القوات المسيحية الموجودة في "موية" و"ألرقون" و"وبذة" و"قونقة" وبدعم من "البارو طيث" بهزم قوات مرسية في منطقة توجد شرق المدينة تعرف باسم "عصف"، في وقت أعلنت فيه كل من قرطبة وقلاع منطقة الشرف والمنطقة الممتدة بين قرطبة واشبيلية ولاءها للبياسي. في تلك الأثناء، وكان العادل قد رحل إلى المغرب، عبر البياسي عن استعداده للتنازل عن شلبطيرة وحمامات البلوط وقبية لفرناندو الثالث، ولتأكيد صدق نيته، قدم له وكضمانة قصبة بياسة. وبالفعل فقد خضعت شلبطيرة وحمامات البلوط للمسيحيين في نفس شتاء 1225م-1226م، لكن

19- الروض المعطار، م. س.، ص. 122.

20- Al-Andalus, Vol.V, Fasc, 2. pp.413 y siguientes.

قبية رفضت الخضوع. وفي مارس 1226م حاصر البياسي، بمساعدة المسيحيين، اشبيلية، لكنه وبشكل غير منتظر هُزم في سهل حصن القصر، في وقت تمردت عليه حصون منطقة الشرف التي سبق وخضعت له. بعد ذلك، وبالضبط ما بين 7 و15 غشت 1226م حاصر فرناندو الثالث قبية، وكان البياسي أثناءها يمد المحاصِرين بالمؤونة والعتاد الحربي. والظاهر أن تصرفاته هذه اغضبت منه أهالي قرطبة، الذين تمردوا عليه بسبب تخوفهم من أن يُرخِص لحامية مسيحية بالنزول في قصبتها على غرار ما فعل في بياسة، وقاموا بمطاردته أثناء فراره صوب حصن المدور، وعندما صعد المنحدر المؤدي إلى الحصن، وكان على وشك دخوله والنجاة بنفسه، قام وزيره، الذي اعتبر أن قضية سيده خاسرة لا محالة، بقتله. وبما أنه قُتل وقبية لم تخضع بعد للمسيحيين، وكان قد وعدهم بها، كما مر بنا، قام هؤلاء عوضاً عنها باحتلال بياسة بشكل نهائي في خريف 1226م، بعدما غادرها سكانها. وبمقتله انتهت مغامراته التي دامت حوالي سنتين.

وكرد فعل على الهجومات التي شنتها القوات المسيحية الموجودة في المناطق الحدودية على باينة وقونقة و"كاسترو دي الريو"، قام أبو العلاء، الذي خرج على رأس جيش كبير العدد، باختراق الأراضي التي احتلها المسيحيون؛ وبعد مروره بـ"ببرش" استولى على مارتوس، غير أنه لم يتمكن من الحفاظ عليها، لأن القوات المسيحية الموجودة بقلعة رباح وكذا تلك الموجودة بالمناطق الحدودية، استعادتها قبل أن يقوم بذلك فرناندو الذي خرج لنفس الغاية على رأس قواته، لكن قبل وصولها، وأثناء مروره بالطريق المؤدية إلى قلعة رباح علم بخبر استعادتها من طرف المسيحيين[21].

ومن الأحداث الأخرى التي عرفتها الأندلس سنة 1226م، خروج ملك ليون في حملة على بطليوس خلال فصل الصيف، ومهاجمة ملك البرتغال لـ"إلباس"، غير أن أياً منهما لم يتمكن من تحقيق النجاح الذي كان يطمح إليه[22].

مقتل العادل

لم تكن الأمور أحسن حالاً بالنسبة للموحدين في المغرب؛ فالعادل عين وزيراً له بعد وصوله إلى مراكش أبا زيد بن أبي محمد بن أبي حفص، وفي نفس الوقت نكل بابن يوجان صديق

21- Op. Cit., La Cronica Latina Apéndice. p. 38

22- يتبنى صاحب La cronica latina الرواية القائلة إن ملك البرتغال اضطر للانسحاب من أمام "إلباس" وهو في حالة أسف وحزن شديدين بعدما تخلى عنه أتباعه. وبخصوص حملة ملك ليون، يقول نفس المصدر إن فشلها يعود إلى عدم قدرة الملك المذكور تحمل حرارة فصل الصيف. وقد توجه إثر ذلك إلى جليقية لزيارة ضريح القديس شانت ياقب. نفس المصدر، ص. 119.

الخلط وهسكورة الكبير. وقد أعلنت القبيلتان، بسبب ذلك، خروجهما عن سلطة العادل وقامتا باكتساح منطقة دكالة وإشاعة الخراب فيها، بعد أن هزمتا جيشاً موحدياً يقوده إبراهيم ابن إسماعيل بن أبي حفص. وكرد فعل على هذا التمرد، ذهب شيخا هنتاتة وتنملل ابن الشهيد ويوسف بن علي -حاميا العادل- إلى الأطلس لتعبئة قبيلتيهما ضد هسكورة.

وعند عودتهما إلى مراكش، وقبل الخروج في حملة ضد المتمردين، توجه الشيخان إلى القصر الملكي وطلبا مقابلة الخليفة، وقد أخذا موعداً لذلك. في تلك الأثناء كان هناك من أخبرهما بأن العادل استعمل عبارات تهجمية في حقهما، وفي نفس الوقت علما أن المأمون قد أعلن تمرده في إشبيلية. وقد شجعهما هذا وذاك على التوجه، وهما في حالة غضب، رفقة قواتهما إلى الجناح الذي يعقد فيه الخليفة مجلسه، وعندما رآهما هذا الأخير وكان محاطاً بكبار رجال الدولة، أدرك ما نويا عليه، وفر إلى أحد الحصون، لكنهما تبعاه وهما مصممان على قتله، وقبل الوصول إليه، قتلا أحد خدمه حاول أن يثنيهما ومن يرافقهما عن قصدهما، كما قتلا ابناً للعادل صغير السن. وقد حاول الخليفة إثرها الاختباء، لكن ذلك كان عبثاً، لأنهما سرعان ما اكتشفا مكانه وقاما بقتله خنقاً[23].

وحسب صاحب روض القرطاس المعروف بخياله الخصب، فإنهما طلبا منه أولاً التنازل عن العرش، وبما أنه رفض فقد وضعا رأسه في حوض ماء وقالا له إنهما لن يتركاه قبل أن يتنازل عن العرش ويبايع أخاه المأمون، غير أنه رفض ذلك وأجابهما بأنه لن يموت إلا وهو أمير للمؤمنين. آنذاك لفا عمامة حول عنقه وخنقاه بها ورأسه في الماء. حدث ذلك يوم الثلاثاء 21 شوال 624هـ الموافق لـ 4 أكتوبر 1227م[24].



23 -البيان المغرب، م. س.، ص. 273.

24- روض القرطاس، م. س.، ص. 324-325.

الفصل الثامن

أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور[1] وعبد الواحد بن محمد الناصر

قبل مقتل أخيه العادل بعشرين يوماً، أي في الثاني من شوال 624هـ (15 سبتمبر 1227م) تمرد في اشبيلية المأمون بن يعقوب المنصور وحفيد ابن مردنيش (من جهة أمه الأميرة صفية)[2]. وكانت تتوفر فيه كل الشروط ليصبح ملكاً عظيماً لو لم تعاكسه الظروف؛ فقد كان حسن الصورة، ذا ثقافة عالية[3]، وسهولة مدهشة في إراقة الدماء، كما أن طموحاته لم تكن لها حدود، ولعل هذه النقطة الأخيرة هي التي جعلته يقتدي بأخيه العادل ويسعى هو الآخر للخلافة.

بيعته

كان المأمون واعياً بأن أول إجراء يجب عليه القيام به لضمان بيعته، هو كسب تأييد شيوخ وأعيان الدولة الموحدية المقيمين في اشبيلية، ومعرفة مدى قبولهم به. من أجل ذلك اتفق في رمضان عام 624هـ (يبتدئ في 15 غشت وينتهي في 13 سبتمبر 1227م)، مع القاضي عبد الواحد

1- يقدم صاحب الإحاطة، م. س.، الجزء الأول، ص. 410-411، نقلاً عن ابن عسكر المالقي (مؤرخ مالقة) معلومات عنه قبل اعتلائه العرش، فيشيد بمواهبه غير العادية التي ظهرت مذ عين وهو فتى يافع، عاملاً على مالقة من طرف أخيه الناصر، كما يبدي إعجابه بالحدائق الغناء التي أقامها على ضفاف "وادي المدينة" بمالقة.

2- المصدر الوحيد الذي يقدم لنا معلومات عن ولادته هو صاحب روض القرطاس، الذي يجعل ذلك عام 581هـ ويضيف أن ولادته كانت في مالقة، وإذا كان ذلك صحيحاً فإن والده لم يشهد ولادته، على اعتبار أنه كان يوجد في مراكش خلال السنة المذكورة.

3- بحكم نشأته في الأندلس اهتم بشكل كبير بدراسة اللغة والأدب العربيين على حساب كتب التوحيد وعقيدة الموحدين، كما أقبل على دراسة موطأ مالك والأحاديث الصحاح للبخاري وسنن أبي داود، ويظهر أنه انتسب إلى المذهب المالكي الذي كان منتشراً على عهد الموحدين في كل بلاد المغرب والأندلس.

ابن أبي الأصبغ بن الحجاج، أن يقوم هذا الأخير خلال صلاة عيد الفطر، بإلقاء خطبة بليغة يذكر فيها بمناقب المهدي ومن خلفه من الموحدين، وبعد أن يأتي على ذكر العادل، يذكر أخاه أبا العلاء[4] ويدعو إلى مبايعته، مبيناً ما في ذلك من منفعة للمسلمين.

ولم يكن يعلم بالخطة غير صاحبها، لذا فإن القاضي لما نهض لإلقاء خطبة العيد، بدأ يرتعش وكاد يغمى عليه خوفاً من العواقب[5]. لكن ومن حسن حظه، وجد كلامه تربة خصبة وآذاناً صاغية، بحيث اجتمع في اليوم الموالي شيوخ الموحدين وأعيان اشبيلية بقصر أبي العلاء، وأشادوا بما ورد في خطبة العيد، وطُلب من القاضي إعادة تلاوتها حتى يتسنى لمن فاته ذلك الإصغاء إليها، وفي هذه المرة، وبعد أن زال عنه الخوف، كان القاضي أكثر بلاغة ووضوحاً. وقد أشاد أكثر من المرة الأولى بأبي العلاء، الذي نهض الحضور مباشرة بعد انتهاء الخطبة للسلام عليه ومبايعته. ولم يتأخر الخبر في الوصول إلى مراكش، حيث قام كبار رجال الدولة الغاضبين من العادل، بعزله وقتله وإرسال بيعتهم كتابة إلى المأمون.

بالإضافة إلى شيوخ اشبيلية وأعيانها، بايعه في الأندلس عامل بلنسية أبو زيد (أخو البياسي)[6]، والذي يذهب صاحب الإحاطة إلى حد القول إنه كان وراء تمرد المأمون، وإنه فعل ذلك انتقاماً من العادل[7]، الذي لما استلم رأس أخيه في مراكش ضربه بصولجانه وانهال بوابل من الشتائم عليه وعلى كل قريب منه، بل وقتل أخاً آخر له -حضر ذلك المشهد- بعد أن احتج على تصرف الخليفة ذاك[8].

وما أن تولى الخلافة، حتى بعث على غرار أسلافه، رسالة وعظ إلى مختلف جهات الأندلس[9]، يحض فيها على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمثابرة على أداء الصلوات والابتعاد عن الموبقات من شرب الخمر وغيره. لكن وبخلاف التقليد الذي دأب عليه أسلافه في رسائلهم، لم يرد في رسالته أي ذكر للمهدي بن تومرت وعقيدة التوحيد، وهو مؤشر على ما سوف يقوم به عند وصوله إلى مراكش.

4- لا تتفق المصادر العربية بشأن طريقة كتابة اسمه، وهكذا نقرأ في بعضها "أبو العلاء" بينما نقرأ في أخرى "أبو العلى"، وبهذه الطريقة ورد في كتاب "التاريخ العام الأول" (طبعة "مينيندث بيدال")، بينما ورد في طبعة "أوكامبو" من نفس المصدر بالطريقة الأولى.

5- المصدر الوحيد الذي يتحدث عن بيعته والطريقة التي تمت بها هو البيان المغرب. م. س.، ص. 274-275.

6- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.528.

7- الإحاطة، الجزء الأول، م. س.، ص. 411.

8- Op. Cit., La Cronica Latina. P. 116.

9- الإحاطة، م. س.، الجزء الأول، ص. 412-414.

بيعة يحيى بن الناصر في مراكش

في نفس اليوم الذي قتل فيه العادل، اجتمع كبار شيوخ الموحدين لتعيين خلف له، غير أن ابن يوجان اقترح عدم حسم الموضوع قبل أن يتعرفوا على ما ينوي عليه سيد الأندلس الجديد أبوالعلاء الذي أثبت أكثر من مرة كفاءته، والذي أصبح له استقلال شبه تام في مناطق نفوذه، وبالتالي يمكن أن يكون الرجل المناسب لتولي الخلافة. وتذهب بعض المصادر العربية إلى أن اقتراح ابن يوجان لقي قبولاً في البداية، حيث عبر كبار الشيوخ عن قبولهم مبايعة أبي العلاء، لكنهم بعد أن فكروا ملياً في الموضوع، وخصوصاً في طبعه الدموي وما يمكن أن يقوم به ضدهم بسبب ما ارتكبوه في حق أخيه العادل وعمه المخلوع، غيروا موقفهم وقبلوا باقتراح أبي زكريا بن الشهيد شيخ هنتاتة وأبي يعقوب بن علي شيخ تنملل، والقاضي بتعيين يحيى بن الناصر خليفة. غير أننا نعتقد أن السبب الحقيقي الذي جعل شيوخ الأطلس ومعهم شيوخ الموحدين يتراجعون عن موافقتهم المبدئية على مبايعة المأمون ليس هو طبعه الدموي، وذلك لأن هذا الطبع لم يظهر إلا في ما بعد، وإنما لأنه جعل من هسكورة والخلط سنده، وهو ما كان يشكل خطراً على الاستقرار الموحدي.

وقد أخرج تصرف موحدي مراكش هذا، المأمون عن صوابه، وكرد فعل على ذلك وقع في خريف 1227م هدنة مع فرناندو الثالث لمدة سنة، التزم من خلالها أن يدفع لهذا الأخير جزية قيمتها 300 ألف مثقال مرابطي، يؤدي جزءا منها دفعة واحدة والجزء الباقي عبر مراحل[10].

وبعد أن وطد سلطته في الأندلس، بدأ ومنذ شتاء 1227م- 1228م يبحث عن الأتباع في المغرب، بهدف إضعاف نفوذ خصمه يحيى، وقد كتب من أجل ذلك إلى ابن يوجان الذي لم يكتف بالانضمام إليه، بل إنه دخل في اتصالات مع هلال بن المقدم أمير الخلط وعمر بن واقريط شيخ هسكورة المؤيدين للمأمون، للتخطيط معاً من أجل محاصرة مراكش وإرغام سكانها على مبايعة المأمون وذلك بعد عزل يحيى[11].

10- يؤول صاحب روض القرطاس الأحداث تأويلاً خاطئاً حيث يضفي عليها صبغة مسرحية، وهكذا يقول إن موحدي مراكش أرسلوا له ببيعتهم وأنه بعد التوصل والإخبار بها في الأندلس، اخذ طريق مراكش، لكنه لما وصل الجزيرة الخضراء أخبر أن بيعته تم إلغاؤها، عندها أنشد بيت شعر مقلداً الحسن بن علي، الذي طلب الثار لعثمان لما علم بمقتله، وذلك قبل أن يطلب من فرناندو الثالث أن يمده بالجنود. م. س.، ص. 326-327.

11- الروض المعطار، م. س.، ص. 175.

وقد نجحت خطتهم، بحيث شرعوا في محاصرة العاصمة، التي خرجت حاميتها أكثر من مرة ضدهم، لكنهم تمكنوا من إبادة عناصرها، وهو ما أجبر يحيى على الفرار إلى تنملل[12]، في وقت قامت فيه المجموعة التي يقودها أبو عبد الله بن الحسن الجَوْزَهَر والسيد أبو حفص بن أبي حفص بمبايعة المأمون. غير أن يحيى عاد بعد ذلك إلى مراكش رفقة حاميه شيخ هنتاتة[13]، وتمكنت القوات التي تحت إمرته من قتل المتآمرين ومعهم ابن يوجان وابنه اللذان تم ضرب عنقيهما بعد اكتشاف مخبئهما، ونهب الرعاع منزليهما واستباحوا نساءهما.

تمرد ابن هود

في تلك الأثناء لم يكن بمقدور المأمون التفكير في الانتقال إلى المغرب والتخلص من خصمه، بسبب ظهور متمرد آخر في منطقة نفوذه كان خطره عليه أكبر، يتعلق الأمر بأبي عبد الله محمد ابن يوسف بن هود الجذامي، الذي سيتمكن من وضع حد للوجود الموحدي بالأندلس، بعد أن قاد تمرداً قام به ضدهم مسلمو إسبانيا[14].

ويقول صاحب البيان المغرب عن ابن هود هذا، إنه ينتمي إلى جيش مرسية النظامي، وان أسلافه شغلوا مناصب مهمة شرق الأندلس، لكنه لا يورد أية إشارة قد توحي بأصله الملكي[15]، في حين يقول صاحب الإحاطة إنه سليل المستعين بن هود[16]، ويقول مؤلف "التاريخ العام الأول" إنه سليل ابن هود ملك سرقسطة[17]. أما صاحب "التاريخ اللاتيني لملوك قشتالة" فيؤكد أنه شخص من العوام، شارك في عدد من الغارات كجندي غير نظامي قبل أن يعلن تمرده. وقد كان حسبه شجاعاً، طارد بطريقة لا هوادة فيها الموحدين، حيث كان يدعو للتمرد عليهم بسبب رفضهم لخلافة بني العباس وإعلان الخلافة فيهم. كما كان يدعو إلى تطهير المساجد التي دنسوها بظلمهم وقهرهم للشعب. وقد اعتقد الأندلسيون، حسب نفس المصدر، أن ما يدعو إليه

12- حدث ذلك في جمادى الثانية 625هـ/ مايو 1228م، بعد سبعة أشهر من بيعته.

13- الروض المعطار، م. س.، ص. 175.

14- حول تمرد ابن هود، انظر:

M-Gaspar Remiro Historia de Murcia Musulmana. P. 267 y siguientes.

15- البيان المغرب، م. س.، ص. 276.

16- الإحاطة، الجزء الأول، م. س.، ص. 141.

17- Op. Cit., Primera Cronica. P. 721.

ما هو إلا تنفيذ للإرادة الإلهية، لذا كانوا على استعداد للخروج عن سلطة الموحدين وتنفيذ كل ما يأمرهم به. ولتأجيج العداء بينهم وبين الموحدين، أمرهم بالتنكيل بهؤلاء أشد تنكيل، وهو ما قاموا به دون رحمة، حيث ذبحوا رجالهم وقطعوا ثُدي نسائهم وقتلوا أطفالهم[18].

وحسب صاحب البيـان المغـرب، فقـد أخبـر منجمُ ابن هود، بأنه سيصبح سلطان الأندلس[19]، ونصحه بالذهاب إلى شخص يدعى المقـدم الغشتي[20] حتى يساعده في الوصول إلى الحكم. وكان الغشتي هذا قائد عصابة من قطاع الطرق تنهب كل من يقع في يدها من مسلمين ومسيحيين. ولما روى له ابن هود ما سمعه من المنجم، رحب به وخرج معه ورجاله في غارة ضد المسيحيين، مكنتهم من إلقاء القبض على عدد من الأسرى والحصول على بعض قطعان الماشية. بعدها مباشرة تمت مبايعة ابن هود بأحواز مرسية في منطقة تقع على وادي رقوطة تعرف باسم الصخيرات[21]، حيث انضم إليه الكثير من الأندلسيين الذين علموا بما كانت تعرفه مراكش من فوضى.

وقد خرج ضده أبو العباس بن أبي موسى بن عبد المومن الذي خلف العادل على ولاية مرسية، لكن ابن هود هزمه، وتمكن من أسره بعد دخوله مرسية. بعد ذلك خرج ضده عامل بلنسية السيد أبو زيد الذي هزمه هو الآخر واستولى على مخيمه[22]. وفي فاتح رمضان (4 غشت 1228م)، وإثر عودته ظافراً إلى مرسية، أعلن بيعته لخليفة بغداد ولقب نفسه بأمير المسلمين. وكرد فعل على ذلك، غادر المأمون اشبيلية[23]، وعند مروره بغرناطة كتب إلى أخيه أبي زيد المنهزم في بلنسية

18- Op. Cit., La Cronica Latina. P. 122.

19- البيان المغرب، م. س.، ص.277.

20- لا أعرف كيف أكتب اسمه بالحروف اللاتينية، فـ Gaspar Ramiro يتردد في كتابته بين Gaxati و Caxati والمصادر الإيطالية تسميه El Fascini و Agostino ، وصاحب الإحاطة يسميه القوشتي، في حين يسميه ابن عذاري الغشتي. وقد وعد ابن هود هذا المغامر بتعيينه أمير بحر أسطوله إذا ما آل إليه أمر الأندلس، وبالفعل فقد جعله قائد أسطول إشبيلية لما اعترفت هذه الأخيرة بسلطته، ثم عينه قائداً لأسطول سبتة لما خضعت هي الأخرى له. وقد ذاع صيته إثر ذلك كقرصان رهيب على امتداد البحر الأبيض المتوسط. ولما تمرد أهل سبتة على ابن هود، حاول الغشتي هذا الفرار والعبور إلى الأندلس على ظهر أحد القوارب، غير أن النصارى ألقوا عليه القبض، حيث بقي أسيراً بيد البرتغاليين الذين لم يتعرفوا على هويته إلا بعد أن تقدم به العمر. البيان المغرب، م. س.، ص. 277-278.

21- يقول مؤلف البيان المغرب (ص.278)، إن بيعته تمت في رجب 625هـ/مايو 1228م، أما صاحب الإحاطة فيقول إنه أعلن تمرده في فاتح رمضان 625هـ/4 غشت 1228م أي بعد أحد عشر شهراً من بيعة المأمون.

22- يقول ابن عذاري، (ص. 276-277)، إنه هزم عامل مرسية ثم عامل بلنسية اللذين خرجا ضده، أما صاحب الروض المعطار، فيقول إنه هاجم مرسية بغتة واستولى عليها، وذلك باتفاق مع قاضيها أبي الحسن القشتالي، الذي نجح في خداع العامل بحيث أقنعه بأن ابن هود جاء ليعلن خضوعه، وعلى هذا الأساس قدمه له.

23- يشير صاحب الروض المعطار، إلى أنه عندما علم بتمرد ابن هود تذكر البيت الشعري الذي معناه أن الطبيب عندما يجد نفسه أمام مرضين مختلفين فإنه يعالج أخطرهما.

يشجعه ويخبره بقرب وصوله. وقد وقعت المواجهة بين قوات المأمون وقوات ابن هود بضواحي لورقة، وقد مني هذا الأخير بهزيمة نكراء، التجأ بسببها إلى مرسية. ورغم أن قوات المأمون لاحقته وقامت بمحاصرة المدينة، فإنها اضطرت بعد ذلك للانسحاب دون احتلالها، بسبب مقاومة سكانها الذين حافظوا على وفائهم لابن هود.

ويتوافق ما جاء عند المقري مع ما ورد في "التاريخ اللاتيني" بشأن السهولة الغريبة التي كان مسلمو إسبانيا ينساقون بها وراء كل مغامر أعلن تمرده على السلطة القائمة، ولعل حالة ابن هود لخير دليل على ذلك، فقد آل إليه حسب المقري، أمر الأندلس بسهولة كبيرة، رغم أنه كان مثل البهلوان يمشي في الأسواق ضاحكاً في وجوه الناس أو مفاجئاً إياهم بأسئلته الغريبة، وهو ما لم يعهدوه في سلطان من قبل. وبسبب ذلك نال إعجاب الحمقى والرعاع وانطبق عليه المثل القائل: «*يضحك البلهاء ويبكي العقلاء*»[24].

مغادرة المأمون للأندلس

ولما عاد المأمون إلى اشبيلية تلقى بيعة عمال سبتة وفاس وتلمسان وبجاية[25]، كما تلقى بيعة شيخ الخلط هلال بن المقدم، الذي تعهد له بعدم مبايعة يحيى ولو سقاه ماء الخلود. وفي خريف نفس السنة (525هـ) قرر المأمون الانتقال إلى المغرب حتى يتمكن من حسم مشكل الخلافة بشكل نهائي. وبدأ بتنظيم القوات التي سترافقه، حيث كون لذلك فصيلة من 500 فارس مسيحي. وقبل أن يغادر الأندلس وقع هدنة أخرى لمدة سنة مع فرناندو الثالث الذي تلقى منه مقابل الالتزام بها، جزية ثانية تقدر بـ 300 ألف مثقال مرابطي. وفي ذي القعدة 529هـ -أكتوبر 1228م- عبر من الجزيرة الخضراء إلى سبتة، بعد أن ادعى أنه ذاهب إلى المغرب للبحث عن المتطوعين الراغبين في الجهاد بالأندلس.

ويؤكد صاحب روض القرطاس[26]، الذي يميل دائماً إلى المبالغة عندما يتعلق الأمر بإعطاء الأرقام (ومع ذلك صدقه من نقل عنه من المؤرخين المتأخرين)، أن ملك قشتالة وعده بجيش جرار قوامه 12 ألف فارس، لكن في الوقت الذي طلب منه المأمون هذه القوات، أجابه: «*لا أعطيك الجيش إلا على شرط أن تعطيني عشرة حصون مما يلي بلادي أختارها بنفسي وإذا مَنَّ الله*

24- نفح الطيب، م. س.، ص. 132-133.

25- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 529.

26- روض القرطاس، م. س.، ص. 329.

تعالى عليك ودخلت مراكش تبني للنصارى الذين يسيرون معك كنسية في وسطها يظهرون بها دينهم ويضربون فيها نواقيسهم في أوقات صلواتهم، وإن أسلم أحد من الروم لا يقبل إسلامه ويرد إلى إخوانه فيحكمون فيه بحكمهم، ومن تنصر من المسلمين فليس لأحد عليه من سبيل»[27].

ويكفي الاطلاع على ما يتضمنه كتاب "التاريخ العام الأول" بشأن القوات التي كان يتوفر عليها فرناندو الثالث خلال هذه الفترة، ودرجة حاجته إليها، وهو يعد العدة لمحاصرة قرطبة، لنقتنع بعدم صحة ما ورد عند روض القرطاس بشأن الفرسان الاثني عشر ألفاً؛ ففرناندو لم يكن بمقدوره التنازل عن أي مجموعة من فرسان جيشه مهما قل عدد أفراده، لسبب بسيط هو أن عدد الفرسان الذي يتوفر عليه لم يكن يكفي حتى لأغراضه هو، كما أن قضية القلاع العشر التي يجب على المأمون أن يتنازل عنها، وكذا المعاملة التي يجب أن يعامل بها المرتدون في الديانتين، هو مما يجانب الصواب.

إن فرناندو لم يمد المأمون حتى بالفرسان المسيحيين الخمسمائة الذين اعتمد عليهم في العبور إلى المغرب، فهؤلاء جمعهم بنفسه، وهم ليسوا أكثر من مغامرين -على شاكلة آل "كاسترو" Los Castro، كانت غايتهم تجريب حظهم في الأراضي الإفريقية بعدما خاب في الإيبيرية. وهكذا يمكن القول إن النقطة الوحيدة الصحيحة في علاقة المأمون بفرناندو قبل مغادرته الأندلس، هي تجديد الهدنة لسنة أخرى مقابل جزية قوامها 300 ألف مثقال مرابطي.

27- بدأت محاولات التبشير المسيحي في شمال غرب إفريقيا على عهد القديس "فرانسيسكو دي أسيس" San Francisco de Asis وبموافقته، وقد أنجز "سينيبال" Cenival دراسة حول هذه المحاولات نشرت في مجلة هسبيريس، عدد 1927، ومنها نعلم أنه في عام 617هـ/ 1220م (عَهْد الملك المراهق يوسف الثاني)، قُتل خمسة فرنسيسكانيين. ولما اعتلى الخليفة العادل العرش، أرسل البابا هونوريو Honorio الثاني بعثة دينية أخرى، قُتل سبعة من أفرادها عام 1227م -لا نعرف هل على عهد العادل الذي قُتل هو الآخر في 4 أكتوبر من السنة المذكورة، أم على عهد خلفه يحيى-. ويخصص مؤلف كتاب "تاريخ الفونسو الثاني البرتغالي" فصلين يمزج فيهما بين الحقيقة والخيال، بشأن مقتل خمسة فرنسسكانيين بالمغرب عام 1220م (نفس السنة التي تحدث عنها سينيبال)، ومما ورد عنده، أنه وبترخيص من القديس "فرانسيسكو دي أسيس" غادر الخمسة صقلية صوب تونس، حيث بدأوا بالتبشير علانية، لكنهم وأمام التهديد بالقتل غادروا تونس رفقة "فرنانديث دي كاسترو" الذي نقلهم بحراً إلى المغرب. وقد انتهى بهم المطاف بمراكش حيث باشروا التبشير بحماس أكبر مما كان عليه الأمر في تونس، وكانوا يقومون بذلك في حضرة الخليفة نفسه. ورغم ثبوت كراماتهم بالدليل المحسوس، فقد تم إعدامهم ومزقت جثثهم إرباً إرباً. ومن الأخطاء التي وردت في هذا المصدر قوله إن "دون فرنانديث دي كاسترو" نقل الفرنسسكانيين الخمسة من تونس عام 1220م، مع أننا نعلم أن هذا الأخير مات في مراكش يوم 18 غشت 1214م، وكذا قوله بمقتل نفس الشخص عقب ذهابه إلى مراكش للاطلاع على الحالة التي أصبحت عليها جثث الشهداء الخمسة بعد مقتلهم، ثم قوله إن الخليفة وهو آنذاك طفل لا يتجاوز عمره إحدى عشرة أو إثنتي عشرة سنة، قتل الفرنسسكانيين الخمسة خنقاً بيده، بعدما رفضت تنفيذ ذلك شخصية نافذة في البلاط إثر ما رآه من كرامات الراهب "برناردو" Bernardo.

معركة إيجليز
واحتلال مراكش من طرف المأمون

وبعد أن توقف عدة أيام في سبتة، واصل طريقه إلى مراكش، التي وضع مخيمه قبالتها، وكان ذلك في شتاء 1228م-1229م. في تلك الأثناء خرج ضده ابن أخيه يحيى على رأس القوات التي كانت تحت تصرفه، حيث وضع خيمته الحمراء في مرتفع إيجيليز المحاذي للمدينة.

وما أن بدأ القتال، حتى هاجمت الفصيلة المسيحية خيمته الحمراء، رمز سلطة الخليفة ومزقتها[28]، وقد أعلنت إثر ذلك قوات يحيى عن هزيمتها، في وقت قام مستشاروه بسحبه من ساحة المعركة، وفروا معه إلى جبال هنتاتة بالأطلس الكبير. وعندما دخل المأمون مراكش قام بالتحريات اللازمة بشأن الأعمال الإجرامية التي ارتكبها الموحدون، خصوصاً المنتمين لقبيلتي تنمل وهنتاتة، والذين نجح في استدراجهم إلى العاصمة بعدما منحهم الأمان. وفي الوقت المقرر لحضورهم من أجل السلام عليه، استدعى عددا من الفقهاء وضمنهم القاضي المكيدي الذي توجه إليه المأمون بالسؤال التالي: «*ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصا ثم نكثوا عليه وخلعوه ثم قتلوه، ثم بايعوا شخصا آخر فنكثوا عليه وقتلوه، ثم بعثوا بيعتهم هذه إلي، ثم نكثوا أيضا علي*». وقد أجاب القاضي: «*وجب عليهم القتل أجمعين يا أمير المؤمنين*» وتلا سورة المنافقين وضمنها: **﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها، والله خبير بما تعملون﴾**[29].

إثرها أمر المأمون بقطع رؤوسهم، حيث أعدم في ذلك اليوم قرابة مائة منهم، دفنوا جميعاً في خندق تم حفره خارج المدينة بجوار باب السادات. ولم يوقف الخليفة الجديد بعد ذلك تحرياته التي شملت كل الموحدين المشكوك فيهم والمتخلفين بمراكش، والذين كان ينفذ حكم الإعدام فيهم وفي أبنائهم ولو كانوا قاصرين. ولتخليد ذكرى رؤوسهم التي علقت على أسوار المدينة أنشد المأمون أبياتاً قال فيها:

أهل الحرابة والفساد من الورى	يغرون في التشبيه للذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره	بالقطع والتعليق في الأشجار
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصروا	فوق الجذوع وفي ذرى الأسوار
لو عم حلم الله كافة خلقه	ما كان أكثرهم من أهل النار

28- البيان المغرب، م. س.، ص. 284.

29- الإحاطة، م. س.، ص. 411؛ البيان المغرب، م. س.، ص. 285.

وعلى عادته، يضع صاحب روض القرطاس ما قام به المأمون عند دخوله مراكش، في قالب مسرحي مع عدم إغفاله المبالغة في تضخيم الأرقام، وهكذا فبعد تقديمه وفق ما يتماشى ومزاجه، المشهد المتعلق بإلغاء المأمون لعقيدة المهدي، يجعل عدد الموحدين الذين أعدمهم هذا الأخير في مراكش بعدما ثبتت خيانتهم 4.600، مع أن عددهم في الواقع لم يتجاوز المائة. إن الرؤوس التي علقت على أسوار المدينة والتي يقول إنها لمن تم إعدامهم، كانت في الأصل للذين قضوا في معركة إيجليز، التي وقعت، كما مر بنا، في شتاء 1228م-1229م، ثم للذين قضوا في معركة واونزرت التي وقعت صيف 627هـ (1230م)، وهذه هي التي سببت نتانتها والرائحة الكريهة التي فاحت منها، احتجاج أهالي مراكش، كما سنرى.

صحيح أن عنف المأمون وعمله بنصائح فقهائه المتعصبين دفعت به إلى إعدام الأبناء القاصرين لشيوخ الموحدين الذين ثبتت خيانتهم، لكن الذي يجانب الصواب هو الطابع المسرحي الذي يصوغ به صاحب روض القرطاس هذا المسلسل الذي أضفى على كل جزئياته صورة قاتمة، بحيث يذهب إلى حد القول إن المأمون أمر بإعدام كل شيوخ الموحدين وأعيانهم دون استثناء، ودون رأفة بالآباء ولا بالأبناء. ومن المشاهد التراجيدية التي يقدمها لنا في هذا السياق، الكيفية التي أمر بها إعدام ابن أخته والذي لما سيق به أمامه، وكان من حفظة القرآن، وعمره لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة، توسل إليه قائلا: «*يا أمير المؤمنين اعف عني لثلاث*»، *قال ماهي؟ قال*: «*صغر سني وقرب رحمي منك، وحفظي للكتاب العزيز*»، عندها نظر المأمون إلى القاضي المكيدي وقال له: «*كيف رأيت قوة جأش هذا الغلام وإقدامه على الكلام في هذا المقام؟*» فقال له القاضي: «*يا أمير المؤمنين: إنك إن تذرهم يُضلِوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا*»، فأمر بقتله[30].

اشبيلية تبايع ابن هود

وفي الوقت الذي هزم فيه المأمون ابن أخيه يحيى في مراكش حيث انتقم من شيوخ الموحدين بكل شراسة، فقد تقريباً كل سلطته في الأندلس، ذلك لأن أهالي اشبيلية وبعد أيام قليلة من ذهابه إلى المغرب، وبالضبط في يوم الخميس ثاني عيد الفطر 626هـ (31 أكتوبر 1229م) اجتمعوا في مكان يعرف باسم النخيل، وقرروا بعد مداولات طويلة الخروج عن طاعة الموحدين والخضوع لسلطة ابن هود، حيث قام أبو بكر بن البنا بتحرير رسالة البيعة التي بعثوا له بها. وقد أرسل لهم ابن هود

30- روض القرطاس، م. س.، ص. 331.

أخاه أبا الحسن عضد الدولة، الذي حل بهم في 17 ذي الحجة - نوفمبر- ليهنئهم على مساندتهم للخليفة العباسي وعلى تأييدهم لأخيه[31].

استقلال عبد الواحد بتونس

شهدت سنة 627هـ (يوافق اليوم الأول منها 20 نوفمبر 1229م واليوم الأخير 8 نوفمبر 1230م) تقهقراً آخر للسلطة الموحدية، وهذه المرة في إفريقية؛ فقد عين المأمون، عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص والياً على تونس[32]، وكان يرافقه إليها أخوه أبو زكريا الذي حرضه على الخروج عن سلطة المأمون بعدما علمه من غضب شيوخ موحدي تونس من هذا الأخير، بسبب المجزرة التي قام بها ضد إخوتهم في مراكش. غير أن عبد الله رفض ذلك وعارضه بكل طاقته. وبسبب الجدل الذي دخل فيه بخصوص هذا الموضوع مع بعض شيوخ الموحدين وكذا مع أبي زكريا، أصدر أمراً لهذا الأخير بعدم مغادرة بيته، لكن أبا زكريا نجح في الفرار إلى قابس حيث رحب به عاملها ابن باقي، الذي عبر له عن استعداده لتعيينه مساعداً له، وهو القرار الذي دعمه كل موحدي تونس[33].

ولما غادر أبو عبد الله تونس، وبعدما وضع مخيمه بضواحيها، وكان قاصداً القيروان، تقدم منه شيوخ الموحدين متظاهرين أنهم جاؤوا ليطلبوا الهبة المعهودة والتي تأخر في منحها لهم. غير أنهم وباتفاق مع أبي زكريا، بدأوا بعد اقترابهم من خيمته برشقها بالحجارة، إلى أن أرغموه على الفرار، والظاهر أنهم آثروا عدم قتله احتراماً لأخيه. عند ذلك مباشرة عين المتمردون أبا زكريا أميراً عليهم، وعاد الجميع إلى تونس حيث بويع بكل مظاهر الإجلال والتقدير التي يبايع بها كبار الخلفاء. وقد عين أبو زكريا إثرها الوزراء والكتاب، وبعث بالرسائل إلى المدن والقرى، واتخذ كشعار له عبارة "الحمد لله وحده"، مع احتفاظه ببقية شعارات وطقوس الموحدين، ومن ضمنها طابع القداسة الذي كان يحظى به اسم المهدي بن تومرت. في نفس الوقت ألقى القبض على السيد عبو الذي سبق

31- البيان المغرب، م. س.، ص. 289.

32- عين عاملاً على إفريقية على عهد العادل، غير أنه مكث بمراكش إلى أن تولى المأمون الحكم، حيث انتقل إلى تونس ليباشر مهامه في شعبان 623هـ/ غشت 1226م. البيان المغرب، م. س.، ص. 290.

33- يذهب ابن خلدون إلى أن عبدالله بن أبي محمد عين أخاه أبا زكريا عاملاً على قابس في جمادى الأولى سنة 624هـ غير أن هذا غير صحيح، كما أنه غير صحيح ما أورده من جزئيات حول هذه البيعة، والذي يخالف ماورد بصددها لدى صاحب البيان المغرب، ويظهر أن ابن خلدون، وبحكم تأليفه للعبر وهو تحت سلطة الحفصيين، كان مجبراً على تغيير بعض الحقائق. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.531.

للعادل أن عينه قائداً لقصبة المدينة. من جهتهم ألقى أهالي بجاية القبض على السيد أبي عمران الذي أرغموه على مغادرة المدينة بحراً. وقد مات أثناء الإبحار بعد غرق سفينته.

وفي الوقت الذي وصلت فيه أخبار التمرد وما آل إليه مصير السيدين إلى مراكش، وللانتقام من أبي زكريا، تقرر ظلماً وعدواناً قتل أخيه أبي محمد، الذي سبق وعارض بشدة تمرد ابي زكريا، وكان بسبب موقفه ذاك قد استقبل بحفاوة كبيرة إثر فراره وعودته إلى مراكش.

إلغاء العقيدة الموحدية

وبعد أن روى عطشه بدم من انتقم منهم، قام المأمون باستئصال جذور عقيدة الموحدين التي وضع أسسها ابن تومرت، من كل بلاد المغرب[34]، باستثناء إفريقية التي فقد السيطرة عليها. وقد بدأ بكتابة الرسائل التي يوصي فيها باتباع المذهب السني، كما أمر بحذف اسم المهدي مما سيضرب من سكة، ومن خطبة الجمعة ومن المراسلات الرسمية، في نفس الوقت أمر بإلغاء كل الاحتفالات والعبارات والطقوس التي تدل على عقيدة الموحدين، والتي سرى العمل بها منذ تأسيس الإمبراطورية[35].

وقد كتب رسالة بخط يده أمر بنسخها وتوزيعها في كل أنحاء مملكته، بين فيها أنه ليس هناك من مهدي غير المسيح عيسى بن مريم، وأن ابن تومرت ليس بأكثر من جاهل لا يعرف بأي يد يُحمل كتاب الله، وأنه بسبب ذلك ليس بأهل للعصمة التي تنسب له خطأً، هذه الرسالة ذيلها بعبارة تقول إن الخطوة التي أقدم عليها هو، كان والده ينوي القيام بها، لو أتيحت له الفرصة والوقت اللازمان[36].

34- يشير صاحب روض القرطاس إلى أن المأمون جحد عقيدة التوحيد علناً، قبل أن يقدم على قتل شيوخ الموحدين الذين علق رؤوسهم على أسوار المدينة. غير أن هذا المصدر يخلط بين قتلى هذا الحدث وأولئك الذين سقطوا في معركة إيجليز التي خاضها ضد يحيى في شتاء 526هـ/ 1228-1229م، والمعركة التي خاضها ضده بالأطلس، في رمضان 627هـ (صيف 1230م)، م. س.، ص. 331-332.

35- يقول صاحب الإحاطة: «وصرف عزمه *إلى محو آثار دولة الموحدين، وتغيير وسمها، فازال اسم مهديها من الخطبة والسكة والمآذن، وقطع النداء عند الصلاة "تاصليت الإسلام" وكذلك "منسوب رب" و"بادري"* وغير ذلك. م. س.، ص.411-412؛ في نفس الاتجاه يقول صاحب البيان المغرب إنه أمر بإلغاء عبارات أمازيغية من الأذان مثل: «سؤدود *وناردي*». م. س.، ص. 286.

36- يشير صاحب الإحاطة في الجزء الأول، م. س.، ص. 412، إلى أن النص الكامل للرسالة والتي يورد فقرات منها، يوجد بكتاب "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذاري المراكشي".

يحيى بن الناصر يمنى بهزائم جديدة

وقد بقي يحيى وأتباعه من الموحدين سنة كاملة معتكفين بالأطلس دون أن يقوموا بأي رد فعل ضد المأمون الموجود بمراكش، لكنهم بعدما علموا بإعدام ما يزيد عن مائة شيخ موحدي وخصوصاً بعدما علموا بإلغاء عقيدة الموحدين وحل مؤسساتهم، قرروا التحرك، وهكذا توجهوا إلى مراكش في ربيع الأول 627هـ (فبراير 1230م)، غير أنهم وما أن وصلوا إلى مشارفها حتى هزموا بسهولة، مما أجبرهم على العودة من جديد إلى ملاجئهم في الأطلس. ومن الذين أسرهم المأمون أثناء المواجهة، القاضي يحيى بن محمد بن عبد الحق الذي سلمه مباشرة لشيخ الخلط والذي لم يطلق سراحه إلا مقابل فدية مالية قيمتها 5.000 دينار.

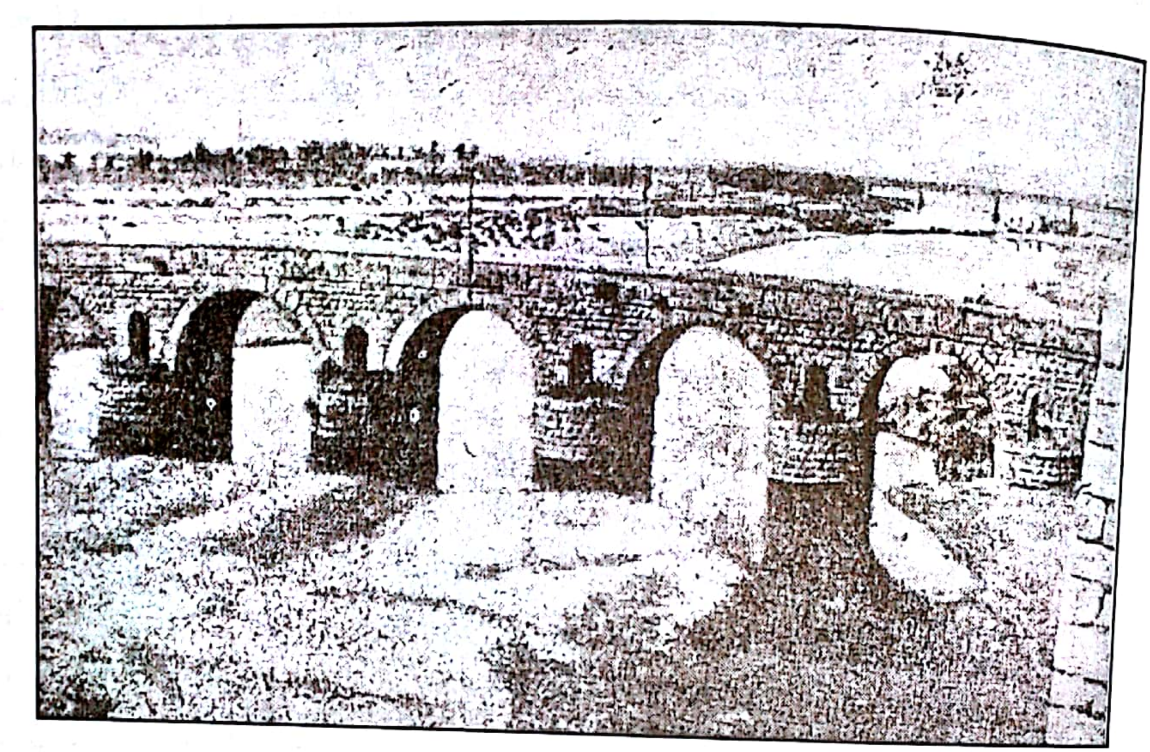
وبسبب دعم الخلط والفصيلة المسيحية له، كان المأمون مقتنعاً بتفوقه على أعدائه، لذا خرج في رمضان من نفس السنة (يوافق اليوم الأول منه 14 يوليوز واليوم الأخير 12 غشت 1230م) يقتفي أثرهم في سفوح الأطلس. حيث هزم يحيى ورجاله من جديد في مواجهة دارت بينهما بسهل واونزرت، قبل أن يلاحقهم داخل الجبال وإلى غاية لجاغة. وقد قام المأمون بمجزرة رهيبة في صفوف أعدائه، انتهت بتعليق ما لا يقل عن 4.000 من الرؤوس المبتورة على أسوار مراكش، في وقت أدرك فيه يحيى أن هزيمته هذه المرة نهائية، وهو ما جعله يترك الأطلس ويلتجئ إلى سجلماسة.

وبسبب حرارة فصل الصيف، فاحت روائح النتانة بسرعة من الرؤوس المعلقة، وهو ما دفع بسكان مراكش للتعبير عن احتجاجهم، لكن المأمون لم يبال بذلك، وكان يرد قائلاً: «*إن روائح هذه الرؤوس هي عطور بالنسبة للذين يحبوننا ونتونة بالنسبة للذين يكرهوننا*».

استعادة قوات ليون لماردة وتكبد ابنهود لهزيمة نكراء

وفي الوقت الذي كان فيه أتباع يحيى يتكبدون الهزيمة تلو الأخرى في خروجهم اليائس ضد المأمون، تجرأ ابن هود، بعد أن آل إليه أمر كل الأندلس تقريباً، على مواجهة ملك ليون في ماردة[37]، غير أنه مني بهزيمة نكراء في مواجهة دارت بينهما بمنطقة صقع في شهر مارس 1230م، وذلك

37- في نفس هذه الأثناء استولت القوات الكنسية التابعة لمطرانية شانت ياقب على منتيشة.



• الجسر الروماني (ماردة)

رغم التفوق العددي لقواته. وعلى إثر هذه الهزيمة سقطت مدينة بطليوس والمناطق المجاورة لها بما في ذلك ماردة، بيد الليونيين.

وقد قام ابن هود عقب الهزيمة، بإعدام الأخوين عبد الله وعبد الرحمن بن وزير، وسبب ذلك ليس اعتناق الأول للمسيحية وجبن الثاني وخمود همته أثناء المعركة كما يرى "دافيد لوبيث" David Lopez [38]، وإنما لوفائهم للموحدين. ومما يؤكد هذا، وجودهما رهن الاعتقال أربعة أشهر قبل المعركة، حيث ألقى عليهما القبض أهالي اشبيلية في 31 أكتوبر 1229م، أي مباشرة بعد مبايعتهم لابن هود. ويبالغ صاحبا الإحاطة والبيان المغرب في وصف الحماس الذي دخل به ابن هود القتال ضد الليونيين، حيث وصل حسبهما إلى غاية خيام هؤلاء، عكس بقية قواته، والتي ما أن غاب عن نظرها حتى ضعفت همتها ولم تبد أية مقاومة، وهو ما جعلها تنهزم بسهولة، لدرجة أن ابن هود عند عودته إلى ساقة جيشه وجدها في حالة فوضى، كما وجد مخيمه قد نهب.

محاصرة سبتة من طرف المأمون ووفاته

لا تقدم لنا المصادر أية معلومات أخرى عن المأمون خلال ما تبقى من سنة 627هـ وسنة 628هـ (يوافق اليوم الأخير من هذه السنة 28 أكتوبر 1231م)، وهو ما يدل على أنه لم يقع خلال هذه الفترة شيء ذو أهمية، لكن بعد هذه المدة القصيرة من الهدوء الظاهري، والتي لم يبرح خلالها العاصمة، عاد لحمل السلاح من جديد سنة 629هـ (يوافق اليوم الأول منها 29 أكتوبر 1231م واليوم الأخير 17 أكتوبر 1232م)، ولم يضعه هذه المرة إلا بعد مقتله؛ وهكذا فبعدما تأكد من أن يحيى لم يعد يشكل أي خطر عليه، بحيث لم يعد له من يشد بهم عضده، بعدما تخلى عنه أتباعه الموحدون الذين استقروا في جبالهم الأصلية، خرج المأمون على رأس جيش كبير العدد قاصداً مكناسة استجابة لتوسلات أهاليها، الذين كاتبوه شعراً ونثراً يستنجدونه، بعدما عجزوا عن فك الحصار الذي سموه في إحدى مراسلاتهم "بمرتاج الغرب" والذي ضربته عليهم قوات فزاز ومكلاطة. وبما أن قوات القبيلتين فرت بعد اقترابه من المدينة، فإنه واصل السير قاصداً سبتة، التي علم أن أخاه السيد أبا موسى (عامل مالقة السابق) أعلن استقلاله بها. وما أن وصلها حتى حاصرها من جهة البر، لكن وبما أن المدينة كانت تتوفر على منفذ بحري، فإن أهاليها لم يعانوا من الخصاصة التي

38- يعود سبب الخلط الذي وقع فيه "لوبيث" إلى فهمه خطأً فقرة من كتاب ابن الأبار "الحلة السيراء".

يعاني منها عادة من يتم حصار مدينتهم، ذلك لأن التموين الذي كان يأتيهم من الضفة الأخرى للمضيق لم يتوقف، كما لم يتوقف تعاملهم التجاري مع مدن هذه الضفة[39].

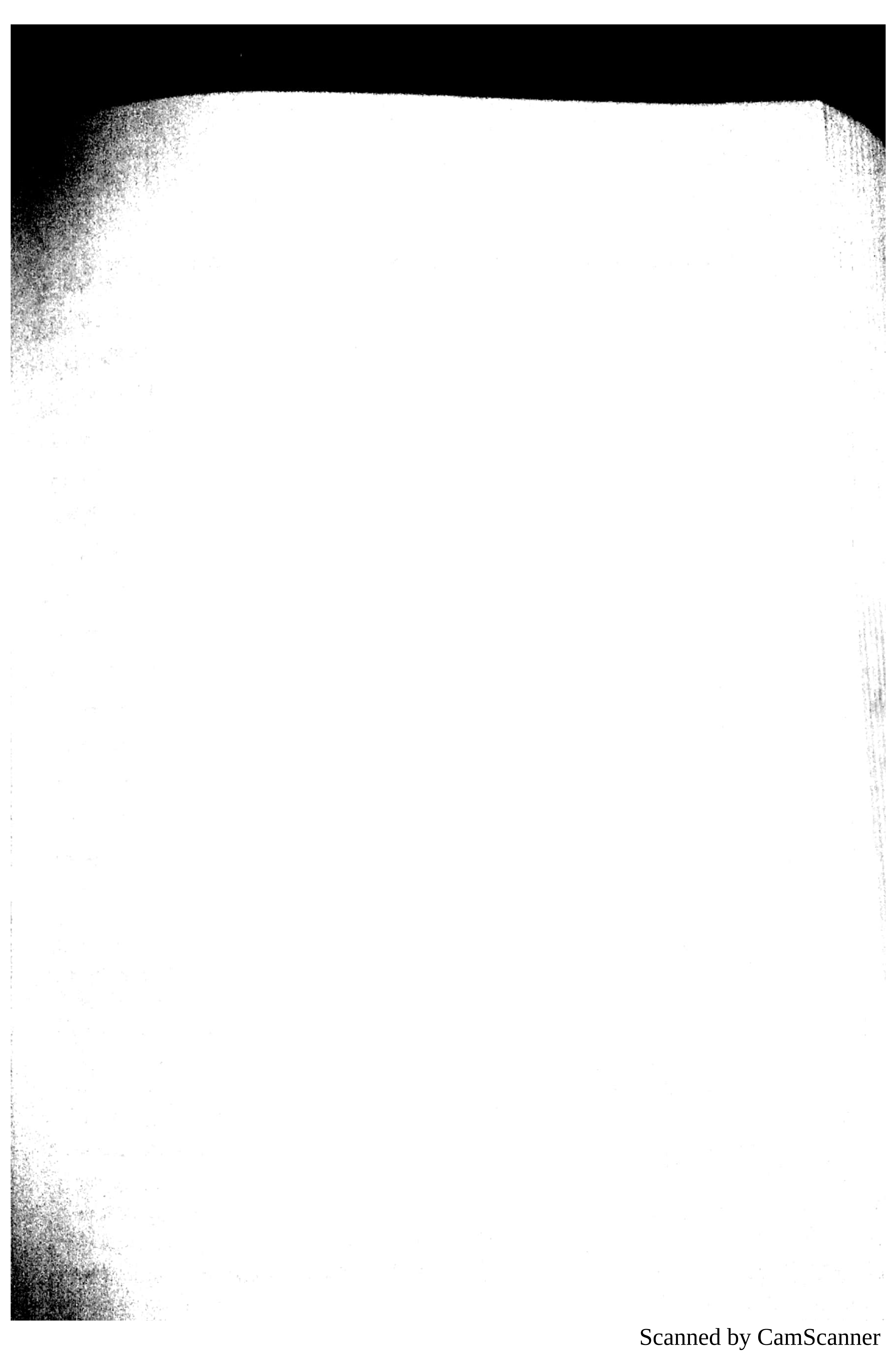
ورغم قصفه المدينة بثلاثة مجانيق وضعهم بجوارها، فإن المأمون فشل في فتح منافذ بأسوارها. وبعد ثلاثة أشهر من الحصار، اقتنع بعدم جدوى مواصلته. في تلك الأثناء وصلته الأخبار بعودة يحيى من جديد إلى مراكش وقيامه بقتل عدد من سكانها وأسر آخرين بعد نهب أملاكهم، وإضرامه النيران في الكنيسة المخصصة لفصيلة المرتزقة المسيحيين التي كانت تعمل لحساب المأمون[40]. وقد قام هذا الأخير لتوه بإحراق المجانيق وبقية معدات الحصار، وغادر أسوار سبتة على وجه السرعة، وكله عزم على القضاء على يحيى بشكل نهائي هذه المرة. وليخفف عن الفصيلة المسيحية التي ترافقه، وعد أفرادها بأن يترك لهم كامل الحرية لينتقموا لأبناء ملتهم الذين لوحقوا وأعدموا بمراكش، كما أقسم لهم بأن يترك لهم ولمدة ثلاثة أيام كامل الحرية ليقوموا بنهب المدينة. لكنه وبعدما وصل إلى أم الربيع، وبسبب الغيظ الذي سببه له فشله أمام سبتة، وهو الغيظ الذي وصل إلى درجة الجموح مع علمه بقيام أخيه أبي موسى بتسليمها لعدوه اللدود ابن هود، لفظ أنفاسه كمداً، في اليوم الأخير من سنة 629هـ (17 أكتوبر 1232م) وعمره 48 سنة، بعد فترة حكم مضطربة دامت خمس سنوات وثلاثة أشهر ويوما واحدا.

39- حتى يضمن مساعدة أسطول إشبيلية ويُفشل حصار المأمون، لم يتردد السيد أبو موسى في التحالف مع ابن هود، متناسياً حمام الدم الذي كان وراءه ابن هود والذي استهدف موحدي الأندلس ومسلمي الأندلس.

40- يؤكد هذه المعلومات كل من صاحب روض القرطاس، م. س.، ص. 333. وابن خلدون، العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.531؛ والبيان المغرب، م. س.، ص. 297.

وحسب Chronique de Vingt Quatre Genéreaux de Lordre Mineurs فقد قتل يحيى يوم 16 سبتمبر 1232م عقب دخوله مراكش، خمسة رهبان مسيحيين، وذلك انتقاماً من المرتزقة المسيحيين الذين كانوا سبباً في هزيمته. هذه المعلومة يؤكدها كذلك Wadding في كتابه Annales Minorum الجزء الأول، ص. 296.

وبعد شهر ونصف من دخول الرشيد مراكش رفقة المرتزقة المسيحيين، قام باصلاح الكنيسة المخربة، وأعاد للجالية المسيحية الامتيازات التي منحها إياها والده، وكرد فعل على ذلك كتب له البابا "غريغوريو" الرابع في السنة الموالية يشكره على ذلك. وفي سنة 1237م، وكان يحيى قد انهزم وترك مراكش، نجد البابا المذكور يعبر عن سعادته للوضعية الجيدة التي اصبحت تعيشها الجالية المسيحية المقيمة بالمغرب.



الفصل التاسع

عهد الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون[1]

أولت المصادر العربية التي تناولت تاريخ الدولة الموحدية، اهتماماً خاصاً بعصر الخلفاء الأربعة الأوائل، والذي عرفت الدولة خلاله أوج ازدهارها، وذلك على حساب عصر لاحقيهم من الخلفاء التعساء الذين اقترنت أسماؤهم بحالة التشتت والخراب التي آل إليها مصير تلك الإمبراطورية العظيمة.

ونستثني من هذه الوضعية كلا من ابن عذاري وابن خلدون، فالأول ورغم أنه لا يخرج عن منهج بقية مؤرخي القرون الوسطى من العرب، في تصورهم الضيق للأشياء، فهو وباعتماده مصادر لم تعد متوفرة اليوم، يسمح لنا بتكوين صورة واضحة نسبياً عن أحداث هذه المرحلة والظروف التي أفرزتها، خصوصاً تلك التي عرفها عصر الرشيد بن المأمون. أما الثاني فرغم أنه لا يتوقف عند تفاصيل وجزئيات المرحلة، فهو يعطينا فكرة واضحة عنها، بفضل اعتماده مصادر يمكن قبول بعض ما تقدمه من معلومات. بخلاف ذلك، لا يتناول صاحب روض القرطاس المرحلة إلا بشكل مقتضب. وعلى غرار كل ما كتبه، يجب أخذ ما ورد عنده هنا بتحفظ. وفيما يتعلق بالمراكشي فإنه لا يصل تقريباً إلى المرحلة المذكورة، بحيث يتوقف من الناحية الكرونولوجية عند 621هـ. أما النويري وابن الأثير فإنهما لم يوليا للمرحلة إلا اهتماماً محدوداً.

مبايعة الرشيد ودخوله مراكش

اعتلى عرش الدولة الموحدية بعد وفاة يعقوب المنصور، مجموعة من السلاطين الذين لم تتجاوز أعمارهم مرحلة الطفولة، وهو ما ساهم في حالة التمزق التي سيؤول إليها مصير

1- نشر هذا الفصل على شكل مقال في مجلة هسبيريس. العدد الأول والثاني، سنة 1954.

الإمبراطورية، خصوصاً وأن توليهم الحكم أفسح المجال لتطلعات شيوخ الموحدين الذين أفرطوا في استعمال السلطة، مما كانت له انعكاسات سلبية على ذلك النظام المتراص الذي وضع أسسه عبد المومن ورسخه خلفاؤه الثلاثة الأوائل.

وهكذا فقد تمت مبايعة الناصر قبل وصوله سن الرشد، ورغم أن يعقوب المنصور كان قد عينه في نهاية 587هـ ولياً للعهد، فإنه في وصيته ترك لشيوخ الموحدين كامل الحرية لاختيار الشخص المناسب لخلافته. وهكذا لما ذكروا له أنهم أقسموا على بيعة الناصر، رد عليهم بأن صغر سنه يشغله، وطلب منهم ألا يتركوا له حرية القرار إلى أن يصل سن الرشد[2].

وبالنسبة ليوسف الثاني (المستنصر) بن الناصر، فقد تمت مبايعته وعمره عشر سنوات ومات وعمره عشرون سنة، أما الرشيد فقد اعتلى العرش كما سنرى وعمره أربع عشرة سنة وقضى وعمره أربع وعشرون، في حين أن خصمه يحيى بويع وعمره ست عشرة[3]. وبعد وفاة الرشيد حاول بعض شيوخ الموحدين أن يعينوا خليفة له، ابنه الذي لم يكن عمره يتجاوز أربع أو خمس سنوات.

لقد خلقت وفاة المأمون المفاجئة بإحدى ضفتي وادي العبيد (الفرع الأيمن لنهر أم الربيع) في اليوم ما قبل الأخير من سنة 629هـ (16 أكتوبر 1232م)، مشكلاً خطيراً للقوات التي كانت ترافقه والتي كان يريد أن يستعيد بواسطتها مراكش التي احتلها يحيى بن الناصر قبل ذلك بما يزيد عن الشهر.

ولم يكن سن عبد الواحد الابن البكر للمأمون (سيحمل لقب الرشيد عند توليه الحكم) يتجاوز آنذاك أربعة عشر عاما، ومع ذلك فقد نجحت أمه وهي جارية مسيحية ذكية ماكرة تدعى حبابة، في حل هذا المشكل عندما أقنعت قادة الجيش بأن الحل الوحيد للحفاظ على الوحدة وعدم السقوط بيد العدو، هو إخفاء وفاة المأمون ومبايعة ابنه سراً ومواصلة السير إلى مراكش لاستعادتها من يحيى.

وتشير المصادر العربية إلى أن الرشيد وخلال عهده المضطرب كان سيد تصرفاته، وأصدر ما أصدره من قرارات انطلاقاً من قناعاته الشخصية، وهذا يجانب الصواب، لأن أمه التي كانت وراء اعتلائه العرش، كانت تقف بمعية مستشاريه الموحدين وقائد المرتزقة المسيحيين وراء كل

2- البيان المغرب، م. س.، ص. 299.

3- يقول المقري إنه اعتلى العرش وهو صغير السن ودون تجربة. نفح الطيب. م. س.، ص. 697.

القرارات التي اتخذها خلال سنوات حكمه الأولى، مثل تلك المتعلقة بالصراع مع الخلط الذين كان يقودهم مسعود، ومع هسكورة الذين كان يقودهم ابن وقاريط الهسكوري، ولم يبدأ باتخاذ قراراته بنفسه إلا لما بلغ سن الرشد، أي خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة من حكمه، والتي حرص فيها على أن تكون علاقاته مع بني مرين سلمية، وذلك حتى يتسنى له أن يقبل داخل قصره على حياة البذخ والملذات التي تغري الشباب في سنه[4].

وقد تمت البيعة الخاصة لعبد الواحد في 30 ذي الحجة 629هـ (17 أكتوبر 1232م) أي اليوم الموالي لوفاة والده المأمون، حيث حمل لقب الخليفة الرشيد، ولم تكن بجيشه عناصر موحدية، ذلك لأن هؤلاء وبعد الانتقام الدموي لوالده من شيوخهم، التجأ قسم منهم إلى جبالهم الأصلية بينما انضم الباقي إلى صف يحيى. وكان أول من اعتمدت عليه حبابة في بيعة ابنها، قائد الفصيلة المسيحية الذي يسميه صاحب البيان المغرب بـ"سانشو" ويسميه صاحب روض القرطاس "مرقسيل" قائد الروم.

وبسبب ميله الطبيعي للمبالغة، يقول مؤلف روض القرطاس إن عدد القوات المسيحية التي كانت ترافق المأمون وقت وفاته قوامها اثنا عشر ألف فارس، ثم يقول في مكان آخر إن الرشيد كان له ثلاثة قواد رئيسيين، كل واحد منهم تحت إمرته جيش من عشرة آلاف رجل. وبجانب مبالغاته، يخلط صاحب روض القرطاس بين الأحداث، ويجعل من بني سفيان وقائدهم كانون بن جرمون بن عيسى عضد حبابة ومساعديها الرئيسيين، ويضيف أن جرمون تحالف مع الرشيد بعد أن طرده من مراكش كل من الخلط وهسكورة، وهذا غير صحيح لأن الخلط الذين أيدوا المأمون وكانوا أول من بايعه عندما تمرد في اشبيلية، كانوا في هذه الأثناء مع الرشيد، في حين كان بنو سفيان مع الطرف الآخر[5]. و يقع صاحب روض القرطاس في خطأ آخر، عندما يقول إن شعيباً أخا ابن وقاريط كان يقود جيش هسكورة المكون من عشرة آلاف جندي، وأن هذا الجيش كان تابعاً للرشيد، مع أننا نعلم أن الجيش المذكور كان يقوده ابن وقاريط الذي لم يكن في صف الرشيد، لأنه تخلى عن المأمون في حياته بعد خلاف معه. أكثر من ذلك، هذا الجيش سيشن على الرشيد حرباً لا هوادة فيها كما سنرى.

4- المصدر الوحيد الذي يقدم لنا معلومات شخصية عن الرشيد هو البيان المغرب الذي يقول عنه: «*أزهر اللون أشقر كث اللحية حسن القد في وجهه يسير نمش*». م. س.، ص. 299.

5- إن الخلط الذين تمردوا على العادل، لم يعترفوا بيحيى كذلك، وقد كتب قائدهم هلال بن محمد كما مر بنا إلى المأمون بعد هزمه لابن هود، يخبره أنه لن يعترف بيحيى ولو سقاه ماء الخلود.

ولا يجب أن نستغرب من الخلط الذي وقع فيه صاحب روض القرطاس، والذي يعود لتراجع القبائل العربية في مواقفها وانقلابها على الخلفاء الذين توجد في خدمتهم، والذين يلتجئون إليها في وقت الشدة دون أن يأخذوا بعين الاعتبار عواقب ارتدادها. ورغم جشع هذه القبائل وقلة انضباطها، فقد حتمت وحدة الديانة واللغة الالتجاء إليها، وهو ما جعلها بمثابة المحور المتحكم في ميكانزمات الحكم خلال هذه المرحلة، خصوصاً وأن تفوقها العسكري على الحزب الموحدي منهار المعنويات[6]، وكذا على بقية القوات التي تعمل في خدمة الخلفاء (باستثناء المرتزقة المسيحيين) كان كبيرا جداً، وهو ما جعلها بمثابة حَكم يقرر في مصير الخلافة وإلى من ستؤول.

غير أن ما نستغرب له، هو أن هذه القبائل العربية المعروفة بخداعها وخيانتها، كانت تصدق وبكل سذاجة وعود الحكام وبالتالي لا تتردد في الانتقام لهم، رغم أن هؤلاء لم يكن قد بقي لهم من سلاح لإقناعها غير الدسائس والدهاء السياسي ونوع من الميكيافيلية ذات الخصوصية المغاربية.

ومن الأخطاء الأخرى التي وقع فيها صاحب روض القرطاس، قوله إن المأمون هو أول من جلب القوات المسيحية إلى المغرب، ونحن نعلم أن المرابطين قاموا بذلك من قبل، ولعل حالة "الربرتير" خير دليل على ذلك. كما نعلم أن أوائل خلفاء الموحدين، ورغم صرامة عقيدتهم كان لهم مرتزقة مسيحيون؛ فقد اعتمد عليهم عبد المومن في قمع تمرد "المساطي"، كما استفاد منهم ابنه يوسف، الذي بالإضافة إلى الجنود الثلاثمائة والخمسين الذين كان يقودهم "خيراردو سام بابور"، كانت في خدمته حامية مسيحية كلفها بحراسة تَوَرْتَة الواقعة بمنطقة تادلة. نفس الشيء يقال عن يعقوب المنصور وعلاقته بعائلة من المقاتلين المسيحيين تعرف باسم آل كاسترو، فقد قام أشهر أفراد هذه العائلة ويدعى "بيدرو فرنانديث دي كاسترو" بمهاجمة "ثيوداد رودريغو" (مدينة رودريق) بمعية الموحدين، كما قاتل في صفوف هؤلاء بشجاعة خلال معركة الأرك. وقد كانت وفاة هذا القائد المسيحي بمراكش.

وكيفما كان الحال فإن المرتزقة المسيحيين الذين كانوا مع المأمون وقت وفاته، سيلعبون دورا مهماً في حسم الخلافة لفائدة الرشيد، وقد سبقت الإشارة إلى أن يحيى وبعد استيلائه على مراكش من جديد، أحرق الكنيسة التي كان مرتزقة المأمون يتعبدون بها، وهو ما جعلهم يقسمون

6 - من الأدلة التي تثبت غياب الروح القتالية لدى الموحدين ما وقع مع مسعود قائد الخلط فقد حاصرته القوات الموحدية في بهو القصر الملكي وكان وحرسه دون سلاح تقريباً، ومع ذلك لم يتمكن الموحدون، رغم تفوقهم العددي، من هزمهم وقتلهم إلا بصعوبة كبيرة.

على الانتقام، في وقت وعدهم المأمون بأن يترك لهم وعلى امتداد ثلاثة أيام كامل الحرية لنهب المدينة. وحتى لا يخمد غضبهم أو يتراجع هو عن قراره، كانوا يسرعون السير للوصول إليها، لذا لما توفي بشكل مفاجئ، تحمسوا لفكرة إخفاء خبر وفاته، لأن ذلك سيسمح لهم بدخول المدينة في أسرع وقت. وهكذا أشاعوا داخل المخيم أن المأمون مريض فقط، وأنه مُمدد على سرير بسبب عدم تمكنه من امتطاء جواده.

ومع اقتراب الرشيد من مراكش، خرج ضده يحيى مع أتباعه الموحدين ومناصريه عرب بني سفيان الذين كان يقودهم جرمون بن عيسى. ولا نعرف يوم ولا مكان المعركة التي دارت فيها الدائرة على يحيى، ومن المحتمل أنها وقعت حوالي 8 محرم (25 أكتوبر 1232م)، ذلك لأننا نعلم أن بيعة الرشيد تمت أسبوعاً واحدا قبل ذلك، أي في اليوم الأخير من ذي الحجة (17 أكتوبر) على ضفة أم الربيع، كما أننا نعلم أنه دخل العاصمة منتصراً يوم 15 محرم (فاتح نوفمبر).

وعلى غرار يحيى، فر عامل مراكش أبو السعيد بن وانودين، وهو ما دفع بالأهالي بعدما وجدوا أنفسهم دون حاكم، إلى تعيين السيد أبي الفضل جعفر عاملاً على المدينة، وكان أبو الفضل هذا رجلاً عفيفاً ودون طموح سياسي، واشترط مقابل قبوله بالمنصب، تحرير وثيقة، شهد على صحتها الطلبة وأمناء الحِرف، جاء فيها أنه لم يتم تعيينه برغبة منه وإنما بإلحاح من الشعب تفادياً لحدوث أعمال شغب وفوضى.

وبفضل حسن تدبيره، نجح العامل المعين في تسليم الرشيد المدينة دون مشاكل، ومن جهته قام هذا الأخير، أو بالأحرى أمه ومستشاروها[7]، بإصدار ظهير منح فيه الأمان إلى كل سكان مراكش، كما أصدر عفواً عاماً على كل الموحدين الموجودين بها، وقد ألغى نفس الظهير الضرائب غير الشرعية.

7- يقدم لنا صاحب البيان المغرب لائحة بإسم كبار موظفي بلاط الرشيد، ومنها نعلم أن وزراءه هم: السيد ابو محمد عبدالله حفيد يعقوب المنصور، وأبو زكريا بن أبي الجمر، وأبو عبدالله محمد بن عبدالله الجنفيسي -استوزره مرتين- وابو محمد عبدالعزيز زكريا، وأبو علي السيد بن أبي محمد عبدالعزيز. وأمناء بيت ماله هم: عبدالرحمن بن عمر بن وابن الخير القبائلي، والسيد أبو محمد، وأبو موسى بن عطوش. وكتابه الخاصون هم: أبو زكريا الفزازي، وأبو القبيجي، وابو عبد الله الحسين بن أبي أشعرة، وأبو عبد الله الفازازي، وأبو عبد الله بن سليمان، وابو العلاء بن الحسن، وأبو المعترف بن عامر، وأبو الحسن الرعيني، وأبو القاسم القباجي، وأبو عبدالله التلمساني (كان عدد منهم في خدمة والده)، وجباته هم: أبو محمد سعيد الملقب بأبي البركات وأبو إسحاق في مراكش، وعبدالله بن طراوة وأبو العباس ابن هشام وأبو عبد الله بن أبي البركات في سبتة، وحاجبه هو: أبو الفضل المبارك التكروني. اما بالنسبة لمنصب صاحب الشرطة فقد شغله أبو موسى، الذي بعدما عين في منصب آخر، حل محله على التوالي كل من ابي محمد بن ماكسن، وابي زكريا ابن عطوش، وأبي الحجاج بن مليح وعاصم الهسكوري، وأبي الحسن الزلماط. البيان المغرب، م.س.، ص. 299-300.

وفي الوقت الذي توجه فيه القاضي أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق مع قواته إلى المدينة
ومعه الظهير المذكور، تمركز الأهالي بجوار أسوارها وكلهم عزم على منع المرتزقة المسيحيين من
تنفيذ ما كان المأمون قد وعدهم به، لكن القاضي قام بطمأنتهم، قبل أن يجتمع بالطلبة وأمناء
الحرف بجوار باب السادات، حيث أخبرهم بموت المأمون، وهو ما كانوا يجهلونه، وبهزيمة يحيى
وببيعة الرشيد وبحسن نوايا المنتصرين. وبعد أن اطمأنوا على مصيرهم، سمحوا للقاضي بدخول
القصر الخليفي حيث تمت تلاوة الظهير، كما عبروا عن استعدادهم لمبايعة الرشيد، وقاموا
مباشرة بعد تلاوة الظهير بالتوقيع على مرسوم البيعة. إثر ذلك عاد القاضي إلى مخيم الرشيد
ليخبره بمبايعته، وباستعداد الأهالي للترحيب به كخليفة جديد بمراكش التي دخلها على رأس
قواته في 15 محرم 630هـ (فاتح نوفمبر 1234م).

ويشير صاحب البيان المغرب إلى أن وفاة المأمون سمحت بإلغاء وعده للمسيحيين والمتعلق بنهب
المدينة، خصوصاً وأن حبابة نجحت في إقناع هؤلاء بالتراجع عن قرارهم، مقابل هبات مالية سخية.
أما صاحب روض القرطاس والذي يحرف هنا كذلك الأحداث، فيقول إن حبابة ولضمان دعم قادة
الجيش الثلاثة، أغدقت عليهم العطاء ووعدتهم بغنائم المدينة إذا نجحوا في احتلالها، لكن وبسبب
العفو العام الذي صدر في حق السكان، لم يعد بالإمكان حصول القواد على الغنائم التي وعدتهم
بها، لذا ولإرضائهم أرسلت لهم قيمة تلك الغنائم نقداً، وكانت تقدر بنصف مليون دينار[8].

ويظهر أن المنتصرين لم يتقيدوا بكل ما التزموا به، وهكذا فعرب بني سفيان، والذين سبق لهم
أن هاجموا المدينة شهرين قبل ذلك، حيث قاموا بجميع أنواع السلب والنهب واستولوا على ما وجدوا
بها من غنائم، لم يكونوا ليسلموا من بطش الخلط المرافقين للرشيد، حيث نهبوهم واستولوا على
ماشيتهم وغيرها من ثرواتهم. وبعد دخول الرشيد مراكش، وكان يرافقه عمه السيد أبو محمد
سعيد الذي كان يكن له تقديراً كبيراً، تلقى البيعة الرسمية من طرف القبائل. حدث ذلك خلال
النصف الثاني من محرم (ما بين 2 و 12 نوفمبر 1232م)[9].

ومن بين الذين جاؤوا لتقديم البيعة، ابن وقاريط شيخ هسكورة المعروف بشغبه، والذي سيلعب
دوراً بارزاً في الأحداث المشؤومة التي عصفت بدولة الموحدين، وكان يرافقه إخوة الرشيد

8- نفسه، ص. 300-301، روض القرطاس، م. س.، ص. 334.

9- يورد صاحب البيان المغرب فقرة من بيعة إحدى هذه القبائل للرشيد مؤرخة في شهر محرم 630هـ. م. س.، ص. 302-303.

الصغار[10]. وكان ابن واقريط هذا قد غادر مراكش من قبل صوب قبيلته الجبلية خوفاً من المأمون، بعد مساعدته ليحيى في احتلال العاصمة. وبسبب رغبته في التصالح مع الرشيد ولعب دور ما في الحياة السياسية، حمل معه إخوة هذا الأخير. وحتى يحقق ما خطط له، حاول الاستفادة من صداقته للسيد أبي إسحاق وكسب صداقة زعيم الخلط مسعود بن حميدان.

تمرد ابن وقاريط والإجراءات المتخذة لإعادة السلطة الموحدية لسابق عهدها

نجح الخائن ابن وقاريط بواسطة إحدى الدسائس التي لا نعرف تفاصيلها، في عزل الوزير السيد أبي محمد سعيد والذي قتل بعد ذلك في ظروف غامضة[11]. وكان ابن وقاريط يسعى من وراء دسيسته تلك تولي الوزارة، غير أنه وأمام فشله في تحقيق مسعاه، بدأ يخطط لمغادرة العاصمة. وكان قد حصل لفائدة قبيلته على الإعفاء من الضرائب المستحقة عليها، بل وحصل من الخليفة على ظهائر أخرى تسمح له بتقاضي الضرائب المستحقة على قبيلتي هزرجة وأغمات أوريكة. وفي نهاية سنة 630هـ (يوافق اليوم الأخير منها 6 أكتوبر 1233م) سيفر من مراكش، ليعلن تمرده ويستولي على القبيلتين سالفتي الذكر بدعم من أبناء قبيلته، في وقت لم يكن الرشيد قد أكمل سنته الأولى في الحكم. ورغم محاولة الجابي عبد الرحمن بن عمر بن واين الخير إقناعه بالتراجع عن قراره والعودة إلى البلاط، فإن ذلك لم يعط نتيجة، وهكذا بايع من جديد يحيى واتجه إلى مزالة للالتقاء به.

وكرد فعل على ذلك، بدأ أوصياء الرشيد في شتاء 631هـ (1234-1233م) بالإعداد لحملة تأديبية غادرت العاصمة في ربيع نفس السنة، بعد أن تركوا، نائباً عن الخليفة في مراكش، السيد أبا الربيع إدريس. وقد توجهت الحملة إلى تادلة[12] عاصمة هسكورة الشمال، عبر هزرجة التي

10- كان والدهم قد تركهم بإشبيلية عندما عبر المضيق، ولما تمرد أهالي إشبيلية على سلطة الموحدين وبايعوا ابن هود، تم طردهم من المدينة، وقد التجؤوا إلى سبتة حيث يوجد عمهم أبو موسى، وبعد تمرد هذا الأخير اتجهوا إلى العاصمة، لكن وبعدما دخلها يحيى، غادروها إما اضطراراً بعدما نفاهم هذا الأخير وإما فراراً منه، وقد انتهى بهم المطاف في منطقة هسكورة.

11- بعث له يحيى برسالة صب عليه من خلالها جم غضبه، بسبب نقضه لقسم الوفاء الذي يجمعه به ولمروره إلى صف الرشيد، وقد رد عليه برسالة استعمل فيها نفس لغة التهجم والتوبيخ. البيان المغرب، م. س.، ص. 304.

12- توجد في الأطلس الكبير جنوب شرق مراكش على بعد 15 كلم من أيت أورير، قرية صغيرة لازالت إلى اليوم تحمل اسم تادلة، ويشير صاحب نظم الجمان أن عبدالمومن عندما خرج في حملته ضد هزرجة وهسكورة الشمال عام 526هـ هاجمها، وذلك قبيل احتلاله لقلعة تاسغيموت الواقعة حسبه في منتصف الطريق بينها وبين آيت أورير، أما صاحبا روض القرطاس والعبر، فيخلطان بين تادلة مصمودة هذه ومنطقة تادلة الواقعة في سفوح الأطلس المتوسط، والتي كانت عام 526هـ بعيدة عن القاعدة التي تنطلق منها العمليات العسكرية لعبدالمومن وبالتالي كان بمقدور المرابطين حمايتها دون كبير عناء.

قاموا بنهبها وتدميرها. في تلك الأثناء كان يحيى وابن وقاريط قد جندا قوات من هسكورة سفح الأطلس الجنوبي، ومزالة وكلاوة واتجها على رأسها إلى مراكش التي نجحوا في احتلالها بغتة.

ولما علمت حبابة بالخبر وكانت بقَصْرِها، كاتبت ابنها تطلب منه الرجوع فوراً إلى مراكش لإيقاف الخطر المحدق. وقد قرر بالفعل مستشارو الرشيد العودة بمجرد تلقيهم الرسالة، وكان ذلك عبر قبيلة هزرجة التي نهبوها من جديد. وبما أن قوات يحيى حاولت قطع الطريق عليهم بهذه المنطقة، فقد حدثت مواجهة دارت فيها الدائرة على يحيى الذي اضطر إلى الفرار مع أتباعه جنوباً نحو سجلماسة.

وعند عودة الخليفة المراهق إلى مراكش مع قواته، انضمت إلى الفصيلة المسيحية التي تعمل لحسابه، مجموعة أخرى من المغامرين المسيحيين الذين كان يقودهم "كونثالو" Gonzalo شقيق القائد "سانشو" الذي سبق وهزم يحيى مرتين. ورغبة من "كونثالو" هذا في تقديم خدمة للخليفة الذي سيعمل لحسابه، مر وهو في طريقه إلى المغرب، بقادس التابعة لابن هود الذي ورث الرشيد العداء له من والده، وقتل العديد من سكانها، كما أسر آخرين وذلك قبل أن يقوم بتخريبها وتركها عبارة عن أطلال، وقد بقيت على تلك الحال إلى أن احتلها فرناندو الثالث عقب استعادة المسيحيين لاشبيلية[13].

وبسبب غضب شيوخ الموحدين من يحيى الذي ارتمى في أحضان ابن وقاريط وأبناء جلدته من هسكورة، ورغبة منهم في إعادة الاعتبار لعقيدة الموحدين والتي يستفيدون في ظلها من امتيازات كثيرة، اعتقدوا أن الحل الأمثل هو التباحث مع مستشاري الرشيد حول عودتهم إلى البلاط وإعادة العمل بعقيدة التوحيد. وكان أول من أخذ البادرة شيخ من جدميوة يدعى أبا عثمان ابن سعيد بن زكريا، اعتمد في مساعيه على وساطة فريدة من نوعها؛ فقد كان يزور بعض التجار المسيحيين منطقة جدميوة باستمرار، هؤلاء أقام الشيخ المذكور صداقة مع أحدهم، بحيث دأب التاجر المسيحي على منحه الهدايا مقابل الحصول على امتيازات في معاملاته التجارية. وكان

13- بخلاف رواية البيان المغرب هذه والتي تجعل تخريب قادس في عهد الرشيد، يقول صاحب الذخيرة السنية عند تناوله لأحداث سنة 642هـ (عهد السعيد خلف الرشيد): «*في هذه السنة دخلت مدينة قادس بالسيف فنهبوها وبقيت خالية فبناها القائد أبو عبد الله الرنداجي*»، م. س.، ص. 66. بعد ذلك وعند تناوله لأحداث سنة 647هـ يشير إلى أن القائد المذكور قتل ثمانين قائداً مسيحياً في جزيرة قادس (نفسه. ص. 77). من جهته يقول "سيبولد" Seybold في مقالته حول قادس، والمنشورة في "دائرة المعارف الإسلامية" إن احتلال قادس تم في 660هـ/1262م، دون أن يحيل على أي مصدر، وهو هنا يقصد دون شك تاريخ احتلالها وإعادة تعميرها من طرف الفونسو العاشر.

المسيحي يعمل لحساب تاجر مسيحي آخر يدعى "خوان كيس" Juan Kis [14]، كان هو الآخر مكلفاً بالأعمال التجارية لقائد المرتزقة المسيحيين "سانشو"، الذي كان يستفيد دون شك من نفوذه الشخصي الكبير في نشاطه التجاري. ورغبة من خادم "خوان كيس" في خدمة شيخ جدميوة، عرض على مشغله قضية الشيخ، وقد أبدى "كيس" اهتماماً بها، وأرسل مبعوثيه للتعرف على الشيخ ونواياه. بعدها ذهب هو شخصياً للتعرف عليه حيث وعده بمساعدته، حتى يكون أول شيخ موحدي يخضع لسلطة الرشيد، وبالتالي يصبح عبرة لغيره من شيوخ الموحدين الذين تخلوا جميعاً عن يحيى لاستسلامه استسلاماً تاماً لابن وقاريط عدو الموحدين والرافض لفكرة لم شملهم من جديد. وبمجرد رجوعه إلى مراكش، عرض "كيس" الموضوع على "سانشو" الذي تنبه إلى أهميته، وعرضه بدوره على مستشاري الرشيد الذين تبنوا الفكرة والتي أصبحت بذلك تحظى بمباركة رسمية[15].

وقد حمل "سانشو" بنفسه إلى أبي عثمان صك الأمان الذي يتضمن كذلك الامتيازات التي سيحصل عليها. إثرها انتقل الشيخ مع عائلته ومن تبعه من عشيرته إلى العاصمة حيث استقبل بحفاوة كبيرة، وكان ضمن المستقبلين "سانشو" نفسه. وقد بدأ أبو عثمان على التو، يعمل وبكل حماس من أجل إقناع بقية الشيوخ ليحذوا حذوه، موضحاً لهم استعداد أصحاب القرار داخل مراكش لإعادة العمل بعقيدة التوحيد.

وقد تقبل شيوخ الموحدين الموجودين بجبال الأطلس دعوته قبولاً حسناً، وأخذ أغلبهم طريق مراكش صحبة موسى بن الناصر أخي يحيى الأكبر، لكن الخلط والذين سبق ورفضوا إرسال ممثليهم إلى مراكش لتهنئة الخليفة الجديد بسبب انصياعهم لنصائح ابن وقاريط الخادعة، وبسبب غطرستهم وثقتهم الزائدة في قدراتهم، قرروا منع شيوخ الموحدين من الوصول إلى العاصمة، فأرسل قائدهم مسعود بن حميدان فصيلة من الفرسان لمباغتتهم وإعمال السيف فيهم، غير أن الخطة باءت بالفشل، بحيث علم الموحدون بالأمر والتجؤوا إلى جبالهم للاحتماء بها من الخطر المحدق بهم.

هذا التصرف العدواني كان بمثابة قطرة الماء التي أفاضت الكأس، ذلك لأن أوصياء ومستشاري الرشيد الذين غضوا الطرف إلى ذلك الوقت عن تجاوزات الخلط، بسبب ما قدموه لهم من دعم ضد يحيى وخصوصاً بسبب قوتهم العسكرية، قرروا أن يضعوا حداً لتجاوزات

14- يسميه صاحب البيان المغرب، جوان كيس، م. س.، ص. 307. (المترجم)

15- لم يورد "اليماني" Alemany في كتابه "ملشيات مسيحية في خدمة سلاطين المغرب المسلمين" Milicias Cristianas al Servicio de los Sultanes musulmanes de al-Magreb هذه الرواية لأنه لم يعلم بها، ذلك لأنه لم يعتمد إلا على المصادر المعروفة والمنشورة إلى ذلك التاريخ، وهي أقل تفصيلاً من البيان المغرب بخصوص هذه المرحلة.

هؤلاء. ومع قناعتهم بعدم قدرتهم على هزم الخلط في ساحة المعركة، بدؤوا يخططون لحيلة تسمح لهم بتجريدهم من أسلحتهم وإجبارهم على الخضوع. وبعد مداولات مطولة، استقر الرأي على إرسال الوزير السيد أبي محمد، على رأس حامية المدينة إلى منطقة حاحة الساحلية بحجة جباية الضرائب، وكانت الغاية الحقيقية هي اللقاء بقائد الخلط ودعوته إلى البلاط. وكان أصحاب القرار في مراكش يعرفون أنه لن يتأخر في المجيء بعدما يعلم أن لا قوات توجد في العاصمة[16]. وقد ظن مسعود بن حميدان، المعتد بنفسه وقوته، أن الرشيد إنما يدعوه للاستناد إليه في الحفاظ على عرشه[17]، ولم يدر بخلده أن الأمر يتعلق بمؤامرة، لذا قرر الانتقال إلى العاصمة رفقة عدد قليل من الحرس. ولما وصلها، بدأ بالحضور كل صباح إلى باب القصر جرياً على العادة، في انتظار الترخيص له بملاقاة الخليفة.

وكان يقيم بمراكش وقتئذ أحد أعمام ابن وقاريط يدعى معاوية، كان يتظاهر بعدم رضاه على سيرة ابن أخيه، ومع ذلك حاول أن يستغل وجود مسعود في العاصمة ليقيم تحالفاً معه، من أجل ذلك دعاه إلى وليمة نظمت في دار ابن تلاتيماس. وقد علم مستشارو الرشيد بالأمر، وأرسلوا في صباح نفس يوم الوليمة صاحب الشرطة أبا محمد ماكسن إلى بيت معاوية لاعتقاله، في وقت كان فيه مسعود كعادته ينتظر بباب القصر استقباله من طرف الخليفة. ولم ينجح صاحب الشرطة المعروف بطبعه المضطرب في تنفيذ الأمر بالسرعة المطلوبة، غير أن مستشاري الرشيد تمكنوا من تدارك الموقف، وأرسلوا بشكل مستعجل الشيخ أبا موسى لإلقاء القبض على معاوية الذي كان قد امتطى صهوة جواده ليهم بالفرار، وحتى لا يعلم مسعود بإلقاء القبض على عمه ويحاول فك أسره، نقل الأسير على التو إلى "دار الإشراف" (دار الجمارك) حيث ضرب عنقه في ضحى نفس اليوم.

وقد تلقى مسعود الخبر دون أن يقلق له أو يفهم مغزاه، واكتفى بالقول: «*أفسد الشيخ أبو موسى غداء الخلط وطعامهم*»، في تلك الأثناء كان رجال البلاط قد قرروا عدم تضييع مزيد من الوقت وحددوا التاريخ الذي يجب أن يوضع فيه حد لحياة مسعود.

16- قال له أحد مقربيه حسب البيان المغرب: «*أجب هذا المسكين الذي استدعاك فإنه أراد الاستظهار بعلاك*»، م. س.، ص. 311.

17- وصلت الغطرسة بالخلط إلى درجة لا يمكن تصورها، ومن مظاهرها حكاية طريفة يوردها صاحب البيان المغرب على لسان أحد جنودهم، الذي امتطى جواده واتجه نحو البحر شاهراً سيفه وهو يصيح: «*إن كانت لك يا بحر طاقة فبارزني*» ص. 310. ويبالغ هذا المصدر ومعه ابن خلدون وصاحب روض القرطاس في تقديرهم لعددهم، حيث يجعلون عدد فرسانهم بـ 12 ألفا ومثلهم من حملة الأتراس، أما عدد مشاتهم فكان، حسبهم، لا يعد ولا يحصى، كما لم تكن تحصى عدد قوارير الذهب والفضة وكذا عدد رؤوس الماشية التي يملكونها.

نهاية مسعود بن حميدان ومرافقيه

يقدم لنا ابن عذاري في البيان المغرب معلومات قيمة لا ترد عند غيره حول الكيفية التي تمت بها تصفية مسعود، ولأهميتها سنوردها بنوع من التفصيل وكما جاءت عنده: «لما استحكم الرشيد التدبير المتقدم ووصل مسعود المذكور فاوض أهل مشورته في كيفية القبض عليه وتم له القصد في ذلك بما أشار عليه، وعين الرشيد يوما لذلك واعد بالقصبة برياض الحزب يحيى بن عبد الرحيم وضيع والده ومعه من الفتيان أعداد أهلوا لقتال مسعود بن حميدان وتجالده وجعل معهم أيضا من العبيد الجنانين، اعدادا كثارا في مواضع خفية عن الأبصار وعين صاحب الشرطة أبو محمد ابن ماكسن للجلوس بأعوانه وحدسه بمربعة أهل الدار لإصلاح البابين اللذين عليها أحدهما باب الرحبة الكبرى والثاني رحبة القباب واستعد لهذا كله بما اقتضته الحال وعدف الذين برياض الحزب بأن يماشي بعضهم العربي إذا دخل مسدعى وحده على العادة للمثول بين يدي الخليفة الرشيد إلى موضع محدود يكتنفونه فيه عن يمين وشمال ويخرج الباقون من الجنانين وغيرهم من مواضع مكامنهم لاستيصاله والبطش به، فلما وقر في النفوس ذلك أشعر الناس بقعود أمير المؤمنين وخرج الاذن لمسعود بن حميدان بالدخول إلى السلطان فقام من موضع جلوسه ومعه جماعة من إخوانه أبطال رجال يسحبون الزهر، ويستعملون في مسيرهم معه الهزء واللهو، ولما افضوا إلى باب الرياض المذكور حيث الترتيب المشار إليه نفذ له الأمر بأن لا يدخل معه سواه فتردد في ذلك متلوما وقال أنه لا يدخل إلا مع أصحابه ولا يتجه له أن يفارقهم وتوقف هنالك عن الإجابة إلا أن كان مع عصبته فقيل له: إنك تعلم العادة في أن لا يدخل أحد لأول وهلة إلا بعد استيذان ولابد من سلامهم بعد حلوله بالمجلس واستيذانهم على ذلك بحكم العادة الجارية وبعد لاي أنفذ أصحابه مع جانبي الباب ودخل وحده وسد في ظهره فظهر له ابن عبد الرحيم في نفر قليل يمشون معه فلما كان متوسطا بالمكان المحدود لا لقاء اليد في والفتك به بصر بجملة من الجناني العبيد وغيرهم وأحس بالشر وبمسايرة ابن عبد الرحيم وغيره له على غير عادة ثم القى الملأ المذكورون أيديهم فيه وانخرط ابن عبد الرحيم في سيفه والعربي في أيدي الناس وبيده سكين وفي ذراعه فراعه ما رأى ورأى الموت قد ففر نحوه فاه، واستقبله من جهاته كلها رداه، فانتفض من أيديهم كما ينتفض العقاب، وظهر منه للذين اكتنفوه ما اضطربوا له أشد الاضطراب، فأفلت من أيديهم وضربه ابن عبد الرحيم بالسيف فلم يصبه إلا بذبابها ثم خر على وجهه صريعا دهشا قد استولى عليه الجزع وخامره افراط الفزع وظهر من عدم الانتفاع به في

ذلك المحل الشنيع وقلة الاصطناع ما لم يكن فيه مقدرا بحال ثم جذب العربي سكينه وقصد الباب الذي دخل منه ولو أراد قتل ابن عبد الرحيم لما منعه منه مانع ولكن حماه الأجل في بقائه واشتغل العربي بالنجاة بنفسه والإفلات من الشرك الذي كان يتخبط في مهاويه. ولما استقبل الباب أعلن بصوته ليسمع من وراء الباب فكل من كان داخل الباب فر أمامه هيبة وفرقا ففتح الباب وخرج إلى جماعته في زي المحارب الذاب عن نفسه فأشهروا حديدهم وصاروا كرجل واحد وقد وسطوا بينهم شيخهم وقصدوا باب الرحبة الكبرى ليخرجوا من هنالك فاتبعهم في مدى هذه الرحبة كل من كان مختفيا بالرياض وهم يشتدون في أعقابهم فعاينهم كل من كان في الرحبة من القرابة والكتاب والخدمة والبوعديين فتحققوا أن العرب هم المطلوبون فانجعر كثير من الناس في بيوت هنالك ولم يبق إلا بعض البوعديين والذين في أعقاب العرب من فتيان وغيرهم ينادونهم من أمامهم فكان من البوعديين في ذلك عناء وانتهاض إلا أن العرب أشد قتالا وبأسا وهم يشتدون نحو الباب الكبير الذي يفضى بالخادج إلى مربعة أهل الدار فألفوه مسدودا في وجوههم فأعطوا بعضهم لقتال الذين يلونهم وبعضهم لكسر الأعمدة وفتح الباب واستصعب ذلك عليهم مدة لوثاقة الباب وأعمدته، وفي أثناء ذلك تسور البوعديون من جهة طريق باب القرابة على الجدرات واستعلوا على العرب وأتاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم والأمر يشتد والنفوس من إفلاتهم تضرم نارا ثم تيسر للعرب فتح ذلك الباب على فخامته وقد نيل منهم النبل الشديدة ودونه جملة أبواب لا قبل لهم بها ولا لغيرهم فأفضوا إلى مربعة أهل الدار وبها أبو محمد بن ماكسن بأعوانه على مقتضى الترتيب الأول ففر هو وأعوانه إلى جهة وليس لهم ورد ولا صدر، ولا عين ولا أثر، قد غلت أيديهم لإفراط الخور، وانجحر ابن ماكسن في تلك السقائف وهو يشاهد الحملات ويعاين المنايا كيف تخترم النفوس وتختطف الأرواح فلما أفضت العرب إلى الباب الثاني وهو الذي يفضي بالخارج منه إلى رحبة القباب ألفوه أيضا مسدودا في وجوههم وخالطهم في تلك المربعة من كان يقاتلهم من باب الرياض إلى هذا المكان والبوعديون وغيرهم قد تسوروا الجدران وهم يقاتلونهم من السقف بالحجارة فلما عاين العرب ما لا قبل لهم به وأيقنوا بالهلاك وأنه لا نجاة ولا فرار توسطوا شيخهم وصاروا يموتون دونه واحدا واحداً وكان هو آخرهم قتلى، وعند ذلك آبت العقول وقد شردت، وعادت النفوس وقد كادت أن تزهق أو زهقت والمنادي ينادي بقطع رأس العربي المذكور فقطع من فوره وحمل إلى أمير المؤمنين وهو بباب الحزب فشكر الله تعالى على ما تمم له من صنعه الجميل، بالشكر العريض الطويل، وفي أثناء انفلات

العربي من الرياض حيث كان ابتداء أخذه فخيف من خروجه وإفلاته ولو أخره الأجل وأمهله والهمه الخروج على باب القراقين لتوصل إلى مرغوبه ولكن قضاء الله تعالى لا يرد بأسه عن القوم المجرمين فبعث أمير المؤمنين إلى كنيسة النصارى ليستصرخ من بها على قلتهم من تجارهم وضعفائهم وأولى الأعذار منهم وكان المتوجه إليهم عنبر الذي أفضت إليه الحجابة بعد سنين.

قال الفقيه الكاتب أبو عبد الله التلمساني رحمه الله ولقد كنت في أحد المساجد بالقشاشين للقراءة هنالك فدخل ناس أخبروا بالقضية على غير وجهها فخرج جميع من كان به فلفيت بسوق البرذعيين الفتى المذكور وهو على فرس خالي الركاب أشهب اللون من خيل الخليفة وليس على الفتى رداء ولا في قدميه إلا جلدها وكان المطر في ذلك اليوم وفيما قبله من الأيام، متواليا شديدا لا يفتر والأزقة والسكك قد غصت بالناس وهو قد أطلع عنان فرسه ووراءه نحو ثلاثين من فرسان النصارى وتجارهم وهم يستحثهم والطين قد علاه حتى لا يتبين لون فرسه ولا لون ثيابه وقد تشوه بما تلوث به لا يلوى على أحد ثم قصد باب القراقين بمن معه فألفوا العربي وأصحابه في مصارعهم وأبرزهم القتل إلى مضاجعهم»[18].

إعادة الاعتبار لعقيدة التوحيد
ومحاصرة مراكش من طرف عرب الخلط

اعتبر نجاح المؤامرة بمثابة انتصار كبير على الخلط وفوز لأصحاب القرار داخل البلاط. وبعد تقديم رأس مسعود إلى الرشيد، تم الطواف بجثته وجثث مرافقيه بكل أنحاء المدينة قبل الإلقاء بها بجوار باب القراقين. إثر ذلك بدأت عملية تفتيش دقيقة استهدفت كل الخلط الوجودين بالمدينة، والذين انتهى الأمر بإعدامهم ونهب أملاكهم.

ولم يدرك مستشارو الرشيد الذين اتخذوا هذا القرار الانتقامي المتهور، العواقب الوخيمة التي سوف تترتب عنه إلا بعد تنفيذه، لذا وتحسباً لرد فعل الخلط، أسرعوا بإرسال بعض الفرسان من أهل ثقتهم إلى حاحة حاملين رسالة سرية إلى السيد أبي محمد تخبره بما جرى، في نفس الوقت تم إغلاق أبواب المدينة ومنع أي كان من دخولها أو مغادرتها، حتى يتأخر ما أمكن وصول الخبر إلى عرب الخلط، وبالتالي يتم بذلك تفادي قيامهم بمهاجمة الحامية التي يقودها أبو محمد أثناء عودتها إلى مراكش. وقد تمكنت الحامية وبفضل السرعة والسرية التي عادت

18- البيان المغرب، م. س.، ص. 300-303.

بها، من دخول العاصمة دون مشاكل، وكان ذلك بعد أربعة أيام فقط على مقتل مسعود.

وبما أن عودة قوات أبي محمد سمحت بضمان الحماية لمراكش، فقد بُعثت رسائل إلى شيوخ الموحدين الملتجئين إلى جبال الأطلس، تم من خلالها حثهم على العودة وإخبارهم بإعدام زعيم الخلط. ورداً على ذلك، أرسل أبو علي بن عزوز شيخ هنتاتة ويوسف بن علي شيخ تنمل مبعوثيهما إلى مراكش، حيث وضعا، وبعد اقتناعهما بحسن نوايا حكام مراكش، شرطاً لعودة سيديهما؛ يتمثل في إعادة العمل بالنظام القائم على عقيدة التوحيد كما كان عليه الأمر منذ عهد المهدي وإلى أن تم إلغاؤه من طرف المأمون. وقد قبل مستشارو الخليفة المراهق بالشرط، وبدأ الموحدون بالتوافد على مراكش، حيث استقروا بمنازلهم السابقة، وأعيدت لهم أملاكهم وإقطاعاتهم، كما عينوا من جديد في المناصب التي كانوا يشغلونها من قبل. ورغم أن إعادة العمل بالنظام القائم على عقيدة التوحيد لقي معارضة بعض النافذين، وهو ما أقلق العائدين، فإن ذلك سرعان ما تم تجاوزه، خصوصاً أمام الانشغال بأمور أخرى أكثر خطورة.

إن الإهانة الكبيرة التي وجهت للخلط دون أي ترو، ودون التفكير قبل ذلك في التقليص من قوتهم، جعلت هؤلاء يعلنون الحرب على السلطة القائمة. وقد عينوا من أجل ذلك، يحيى بن مسعود ابن حميدان قائداً لهم خلفاً لوالده، وتحالفوا مع ابن وقاريط وأتباعه من هسكورة، في نفس الوقت قدموا بيعتهم ليحيى بن الناصر، وخرجوا قاصدين العاصمة. وكانوا أثناء توجههم إليها يقومون بأعمال السلب والنهب بالمناطق التي يمرون بها. وأمام عدم توفرهم على المعدات الحربية اللازمة لاختراق مراكش التي أغلقت أبوابها، أقبلوا على تخريب الأراضي الفلاحية المجاورة لها، حتى يرغموها على الاستسلام بعد أن تتمكن منها المجاعة.

وقد خجل زعيم المرتزقة المسيحيين "كونثالو"، الذي حل، على ما يظهر، محل أخيه "سانشو" في قيادة الفصيلة المسيحية، من جمود الموحدين، لذا لم القوات المسيحية محدودة العدد والمحنكة، وخرج ضد العدو بعد أن انضم إليه بعض المسلمين وكانت ضمنهم حفنة من المنشقين من قبيلة هسكورة، الذين كان يقودهم خصم ابن وقاريط الشيخ عبد الصمد بن يلولان الهسكوري. وقد توجهت هذه القوات صوب تانسيفت حيث يوجد مخيم الخلط، ومباشرة بعد اجتيازها النهر، دخلت في قتال دموي مع عناصر من هؤلاء، في وقت بدأت فيه عناصر أخرى من الخلط ومن المتحالفين معهم والمتفرقين بكل المنطقة، بالتوافد على مكان القتال لنجدة فريقهم، وهو ما جعل وضعية المسيحيين حرجة جداً. ويظهر أن القتال دام طيلة النهار، وفي

المساء اضطر "كونثالو" وقواته للانسحاب عبر قنطرة تانسيفت بعد أن أجبروا العدو على إخلائها، إثر هجوم انتحاري. وقد دخلوا العاصمة ليلاً بعد مقتل العديد منهم. ولما علم سكان مراكش بعودتهم منهزمين انهارت معنوياتهم، في وقت بدأ الجوع يستبد بهم. وهو ما استغله الخلط، وكانوا يتوفرون على الكميات الكافية من التموين، وبدؤوا بالاقتراب التدريجي من المدينة بعد أن استولوا على السهل المجاور لها. شجعهم على ذلك تيقنهم من عدم تجرؤ المدافعين عنها على مواجهتهم من جديد، بعد الهزيمة التي ألحقوها بهم في المرة السابقة. وقد وصلوا في إحدى بجماتهم إلى غاية الأسوار الجنوبية لمراكش، متخطين المصلى الذي يقع خارجها، وهو ما أجبر حامية المدينة على الخروج ضدهم، حيث انتشرت على امتداد المنطقة الموجودة ما بين الصهريج الذي يفصل باب القصر عن باب الشريعة وبين سوق الحبوب. لكنها أصيبت بالذعر بعدما لاحظت عزم العرب على القتال والإمكانيات المهمة التي يتوفرون عليها. وكان أهالي مراكش المحاصرون يشاهدون من شرفات أسوارها كيف انتشرت قوات الحامية، وكيف لم تجرؤ على بدء القتال، وبقيت في مكانها دون أن تتحرك، إلى غاية المساء حيث دخلت العاصمة من جديد بعدما انسحب الخلط إلى مخيمهم.

وقد فرض الخلط وابن وقاريط بعد ذلك حصاراً صارماً على المدينة دب معه اليأس واستفحل الجوع لدرجة أُكلت معها جثث الأموات. وأمام عجزهم عن مقاومة الحصار لمدة أطول، بدأ الموحدون يفكرون فقط في الكيفية التي تسمح لهم بمغادرة مراكش والالتجاء إلى الجبال وإن بشكل مؤقت. ورغم أن كل من كان بالمدينة أيد الفكرة، فإن لا أحد وجد الطريقة التي يمكن تنفيذها بها، وذلك بسبب الحصار المفروض من جميع الجهات. وهكذا لم يبق أمام مستشاري الرشيد غير استعمال الحيلة والدهاء لضمان النجاة، بحيث زوروا رسائل وقعوها باسم شيخ عرب سفيان جرمون، موجهة إلى الرشيد، يعبر الشيخ من خلالها عن رغبته للالتقاء بالخليفة والدخول تحت طاعته. وبعد أن أغدق مستشارو الرشيد العطاء على من أمروهم بحملها، حددوا لهم المكان الذي يجب أن يمروا منه والذي يسمح للخلط بإلقاء القبض عليهم. وقد تم ذلك وفق ما خُطط له، وبعد استنطاق حاملي الرسائل، صرحوا أنهم مرسلون من طرف جرمون الذي تركوه وبني سفيان، أعداء الخلط الألدة، على ضفاف أم الربيع في طريقه نحو العاصمة. ولم يكن الخلط ليصدقوا أن بني سفيان يجرؤون على مواجهتهم، لكن أمام وجود الدليل المحسوس المتمثل في الرسائل، وأمام اعتراف حامليها، قرروا الخروج صوب أم الربيع حيث اعتقدوا بوجود قوات

جرمون، وذلك قبل أن تنضم إلى قوات الرشيد. وبعدما علم في مراكش أن الحيلة انطوت على المحاصرِين السذج، وأنهم ابتعدوا عن العاصمة، تم اتخاذ إجراءات مستعجلة للانسحاب. وقد قام الأهالي من المنسحبين بحمل الخفيف من متاعهم وبيع ما دون ذلك، عندها ظهرت في المدينة الحبوب التي أخفاها الجنود والذين قاموا ببيعها؛ وكانت من الأهمية بحيث تكفي لتموين المدينة لمدة طويلة.

فرار الرشيد إلى الأطلس وسجلماسة

وبعد أن حدد اليوم الذي يجب فيه ترك المدينة، غادرها من رغب في ذلك من العامة، حيث تجمعوا في مكان مجاور لأسوارها، في وقت بقي فيه الرشيد وحاشيته بجناح الاستقبال من قصره في انتظار انتهاء الخدم من إعداد الأمتعة التي سيتم حملها، وفي ضحى اليوم المعلوم، غادر الخليفة الشاب المدينة عبر باب "الكحل" وعيناه مغرورقتان بالدموع، وكان قد عين نائباً عنه بها السيد أبا محمد عبد الله بن زكريا. وبعد إغلاق باب الكحل وبقية الأبواب، توجه الخليفة بالدعاء إلى الله ثم أخذ وحاشيته طريق الجبال، وقد وصلوا في نفس اليوم إلى ضواحي أغمات حيث ضربوا مخيمهم هناك. في تلك الأثناء علموا أن الخلط الذين اكتشفوا الخدعة، عادوا بأقصى سرعة من أجل اللحاق بهم قبل أن يتوغلوا داخل الجبال، وبالفعل تمكنوا من إلقاء القبض على كل الذين غادروا المدينة في اليوم الموالي لتركها من طرف الخليفة، وأخذوا منهم كل ما وجدوه معهم، بل وجردوهم من ثيابهم بما في ذلك الداخلية منها، وكان من بين الذين وقعوا بيدهم قاضي القضاة أبو زيد المكادي[19].

وبسبب تخوفهم من أن يصلهم الخلط، اضطر الرشيد ومن معه من الموحدين إلى رفع مخيمهم في اليوم الموالي والالتجاء إلى أغمات، على اعتبار أنها توفر لهم حماية أكبر، وأنه انطلاقاً منها يمكنهم الوصول إلى الجبال. وقد صدق تنبؤهم بخصوص خطر الخلط، ذلك لأن هؤلاء وصلوا المخيم بعد أن غادره الموحدون بيوم واحد، وكانت خيبة أملهم كبيرة لإفلات هؤلاء من أيديهم وخصوصاً لعدم تمكنهم من الغنائم التي كانوا يحلمون بالحصول عليها. وبسبب سذاجتهم وسرعة انخداعهم، بدؤوا يتبادلون الانتقادات، ومع ذلك توجهوا إلى أغمات التي حاصروها، لكنهم رفعوا الحصار عنها بعد يومين فقط كما يؤكد صاحب البيان المغرب، ولم

19- نفسه. ص. 322.

يكونوا على دراية بالخصاص الذي تعرفه في التموين، وإلا لما رفعوه عنها إلا بعد أن يتفشى فيها الجوع وتستسلم اضطراراً[20].

ولم يكن رفعهم للحصار يعني تخليهم عن فكرة مطاردة الرشيد، الذي اتجه بعد مغادرته لاغمات نحو تالمقت، ومن هناك أخذ طريق الأطلس، في وقت اقترح عليه شيخ تنملل أبو يعقوب يوسف إرسال قوات إلى أحد مداشر تنملل يسمى ويرجان، لاعتقال السيد أبي إبراهيم بن أبي حفص المعروف باسم أبي حافة، والذي كون هناك بؤرة مقاومة معاضدة ليحيى. وقد قبل الرشيد بالاقتراح وأرسل بالفعل حامية ضد أبي حافة، وهو ما علم به الخلط الذين اعتبروا أن الفرصة أصبحت سانحة للسطو على مخيم الرشيد بسبب عدم وجود القوات المكلفة بحمايته. في تلك الأثناء أُرسل من يخبر الحامية بالعودة على وجه السرعة لإنقاذ الموقف، ولم تكن قد وصلت بعد إلى أبي حافة[21]. وللحيلولة دون تمكين الخلط منه، توغل الرشيد ومرافقوه بشكل كامل داخل الأطلس، بل وعبروه، حيث وصلوا إلى غاية منطقة هرغة بالأطلس الصغير، والتي استولوا بها على حصن يدر الذي كان أبو إسحاق بن أمغار، عدو شيخ تنملل، قد خزن به ثرواته وما يمتلكه من مؤن.

والحقيقة أن فقر منطقة الأطلس ووعورة تضاريسها، لم تكن لتتماشى مع طباع الخليفة وحاشيته المتعودين على غنى مراكش ورغد العيش بها، لذا قرروا الانتقال إلى حاضرة أخرى مزدهرة هي سجلماسة[22]، حتى يتمكنوا من هناك، وبعد تنظيم صفوفهم من جديد، من العودة لمحاربة الخلط واستعادة العاصمة. وكان عاملاً على سجلماسة آنذاك نجل حفيد ابن مردنيش، ملك مرسية المعروف، ويدعى أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش والذي سمح له اعتماده على فصيلة مسيحية صغيرة، بإدارة شؤون المدينة بشكل شبه مستقل. ومع اعتقاده بأن قضية الوحدين الذين التجؤوا إلى سجلماسة خاسرة، قرر مقاومتهم، وأمر قريبه أحمد بن أبي النجاح

20- اختفت المؤونة من أسواق أغمات ومنازلها، لدرجة أن كل ما حصل عليه جابي الرشيد بعد أن قام بمصادرة ما كان يوجد في السوق والمنازل لم يتجاوز 90 مداً من القمح، وهو ما كان يكفي فقط للمؤونة الخاصة بالخليفة وأهله. نفسه. م.س.، ص. 322-323.

21- مما يؤكد لنا ذلك أن هذا السيد سوف يكون مع يحيى أثناء حصاره اللاحق لمراكش، وسوف يتدخل بشكل مشين من اجل إرغام المدينة على الاستسلام.

22- حول تاريخ مدينة سجلماسة وما كانت تعرفه من ازدهار تجاري منذ تأسيسها وإلى غاية تخريبها في القرن السادس عشر، انظر. G.S. Colin, en E-I-IVpp, 419-421.

بالخروج ضدهم. وبعد مناوشات اليوم الأول، أدرك الموحدون أنهم في وضعية صعبة بسبب عدم توفرهم على المؤونة، وكانوا يعتقدون بخلاف المفاجأة التي منوا بها، أن المدينة ستفتح لهم أبوابها مرحبة، وتسمح لهم بأن ينعموا بخيراتها. وابتداءً من اليوم الثاني لوصولهم، نفد ما تبقى من المؤونة في المخيم الموحدي، في وقت ارتفع فيه صياح الأطفال وبكاؤهم بعد أن تمكن منهم الجوع. لكن فجأة، وكأن الأمر يتعلق بمعجزة، تغير الوضع رأسا على عقب، ذلك لأن القوات المسبعية التي توجد مع أرقم رفضت مقاومة الحصار الذي فرضه الموحدون على المدينة، وبعد اتفاق مع أبناء ملتهم المرافقين للرشيد، فتحوا أبوابها للمحاصِرين. وأمام هذا الوضع غير المنتظر، لم يبق لأرقم من خيار غير طلب الأمان وإعلان خضوعه.

سقوط مراكش واعتلاء يحيى العرش من جديد

وفي الوقت الذي كان فيه الموحدون من أتباع الرشيد يستريحون في سجلماسة بعد المحنة التي مروا بها، وفي نفس الوقت يعيدون تنظيم قواتهم ويسعون للدخول في تحالف مع عرب سفيان ضد الخلط، عاد هؤلاء، بسبب عجزهم عن ملاحقة الخليفة الذي توغل في منطقة الأطلس الوعرة، وبسبب لهفتهم على الغنائم، إلى مراكش وضربوا حصاراً خانقاً عليها، كان سبباً في انتشار المجاعة انتشاراً رهيباً، اختفت معه المؤونة من قمح وشعير وغيرهما من الأسواق، ولم يجد الأهالي أمام هذه الوضعية المأساوية من زاد غير البرتقال الذي اقتاتوا بالحلو منه والحامض، وذلك قبل أن يضطروا إلى صنع الخبز من "الفيتور"-[23] والزيتون والتابود[24]، والعصيدة من زهور الخروب. وقد مات العديد من سكان مراكش جوعاً بسبب الخصاص داخلها، في وقت كانت تتراءى من أعلى أسوارها، الحقول الواقعة خارجها وهي مكسوة بالحبوب التي حان حصادها، لاقتراب فصل الصيف، لكن لم يكن بالإمكان الوصول إليها، لأن أبواب المدينة موصدة والخلط يحيطون بأسوارها خصوصاً الجنوبية منها -تمركزوا بساحة سوق الماشية المجاورة للمصلى- يقومون انطلاقاً منها، يومياً وبالتناوب برشق المدينة بالحجارة.

23- الفيتور كلمة أمازيغية لازالت تستعمل إلى اليوم، حيث يقصد به ما يبقى من ثفل بعد عصر الزيتون، ويستعمل كوقود للأفران.

24- التابود كلمة أمازيغية كذلك وتقابلها بالعربية كلمة البردي، وهو نبات مائي ينمو في المستنقعات. انظر: Ethymologie-Loust. Mots et Chose Berbers.P.499 y Gs. Colin. Magrebines. Héspéris-1°. Fasc. 1926. pags. 60-61. n° 2-Communication del Prof. L. di. Giacomo.

ومن المعطيات التي تؤكد لنا وهن قوة المحاصَرين، ما رواه شاهد عيان بخصوص التراشق بالحجارة بينهم وبين محاصريهم، فقد كانت تلك التي يلقي بها هؤلاء على برج باب الشريعة تتجاوز "الرصيف" وتصل إلى غاية " فندق" السكر وباب النفيس، وهو ما يدل على قوة بنيتهم، بينما تلك التي كان يلقي بها المحاصَرون لم تكن تتجاوز الأسوار إلا بمسافة قليلة.

في ظل حالة الإحباط هذه، غادر المدينة كل من استطاع، قبل أن يقوم الخلط بالهجوم الذي نجحوا من خلاله في اقتحامها، في وقت تمكن فيه يحيى بن عبد الرحمن الذي عينه الرشيد على المدينة وكلفه برعاية إخوته الصغار، من الفرار عبر نفق باب الصالحة والتجأ إلى قرية تاماروت الموجودة في هنتاتة، حيث مكث إلى أن قام الرشيد بغزو مراكش من جديد.

وقبيل احتلال المدينة بقليل من طرف الخلط، دخل السيد أبو عبد الله بن أبي حفص الذي سبق للموحدين أن هاجموه أثناء توغلهم في الأطلس بسبب دعمه ليحيى، في اتصالات مع المحاصَرين الذين اعتقدوا أن تدخله لدى الخلط، سيحول دون حدوث أعمال النهب، ويظهر أنهم على هذا الأساس فتحوا له أبواب المدينة، غير أنه وما أن دخلها حتى بدأ وابنه عمر ومن معهما، بالقيام بأعمال النهب لحسابهما، دون أن ينتظروا مجيء ابن وقاريط ويحيى مع أتباعهما من الخلط وهسكورة والذين كانوا سيقومون بنفس الشيء. وقبل وصول ابن وقاريط ويحيى مراكش بثلاثة أيام أو أربعة، حل بها وزير هذا الأخير والذي تعقب إخوة الرشيد، حيث نجح في أسرهم. وقد حملهم مع كل ما حصل عليه من غنائم إلى جبال الأطلس. ومباشرة بعد استسلام المدينة، ودون انتظار مجيء يحيى، خرج السكان الجائعون إلى الحقول لحصد الحبوب رغم أنها لم تكن قد أصبحت بعد جاهزة للاستهلاك.

إن عودة يحيى إلى مراكش لم تكن تعني أنه أصبح من جديد الآمر الناهي، فالقلة القليلة من الموحدين الذين بقوا معه كانوا قد فقدوا كل نفوذهم، مقابل ذلك أصبح ابن وقاريط يتمتع بنفوذ كبير سمح له بأن يتحول إلى الرجل القوي في العاصمة، والحقيقة أنه عرف كيف يوازن بين غطرسته ومهارته في تطويع أولئك الجهلة وقصيري النظر من عرب الخلط[25]. ومن مظاهر فقدان يحيى للهيبة التي تميز الخلفاء، أن أدنى جنود الخلط مرتبة كانوا يدخلون عليه وهو في

25- عرف بلقب الفشتال (الكبش المتوحش)، لأنه كان يترك أحد طرفي عمامته ينزل حتى ركبتيه. عن ذلك يقول صاحب البيان المغرب: «*أطلق ابن وقاريط ذؤابة من عمامته يقول له الناس الفشتال*»، ويضيف نفس المصدر أن غروره وانعدام بصيرته لم يكن لهما حد. م. س.، ص. 328.

اجتماعاته، ويجلسون بجانبه بكل وقاحة دون مراعاة لما كان يطلبه منهم الشيوخ والعلماء من احترام لمقامه. وأمام خيبة أملهم بسبب تلك التصرفات، فترت همة شيوخ الموحدين الذين لا يزالون في خدمته. وليرضيهم هم كذلك، اضطر لتعيين أحدهم وهو السيد الحسن بن أبي علي عبد الله ابن أبي حفص وزيراً، غير أن هذا الأخير وبسبب مرضه ترك منصبه لأخيه الأصغر أبي إبراهيم، ويظهر أن العمر لم يطل بأي منهما؛ فقد مات الأول بعد سقم واغتيل الثاني، وكان رحيلهما سبباً في ازدياد معنويات الموحدين انهياراً.

وعلى غرار والده الناصر، كان يحيى خاملاً قليل الاكتراث بأمور الحكم، لا يمتلك شيئاً من مواهب المأمون وحيويته، وقد سلم أمور الحكم إلى أحد الغلمان اسمه أبو حمامة بلال، وصل نفوذه إلى درجة أصبح يرد فيها على جميع العرائض والالتماسات التي ترفع للخليفة، بل ويضع عليها أحياناً خاتم الخليفة[26]، ومرد ذلك أن يحيى كان مصاباً بشلل في يده اليمنى يتعذر عليه معه حمل طرف برنسه وصولجانه كما كانت العادة، وبطبيعة الحال تحرير الظهائر الرسمية، لذا كان الفتى بلال يكتب هذه الظهائر بقلم رقيق جداً وبمداد يميل إلى البياض، وذلك قبل أن يسلمها ليحيى ليعيد الكتابة فوقها بمداد أحمر بيده المشلولة كيفما اتفق، وبما أنه كان ينسى التوقيع، فإن بلال لم يكن يتحرج في إضافته من تلقاء نفسه. كل هذا جعل الشك يتسرب في مدى مصداقية الظهائر الخليفية وهل هي فعلاً من تحرير الخليفة، وهو ما لم يحدث قط مع أي من أسلافه، وقد ذهب الأمر بالبعض إلى حد الادعاء أن هذه الظهائر كانت تحررها امرأة.

ولم يكن فقدان يحيى لاحترام الخاص والعام ناجما عن ضعف شخصيته فقط، وإنما كذلك لضائقته المالية، فعندما دخل مراكش من جديد وجدها نهبت بشكل تام، وهو ما جعله دون أية موارد تسمح بتغطية مصاريف الخلافة، وقد تكفل بتغطية مصاريف قصره في البداية الخلط وهسكورة مناصفة، غير أنهم بدؤوا بالحد منها بشكل تدريجي. وبجانب أزمته المالية، عاش يحيى أزمة من نوع آخر سببها التصرفات الطائشة للفتى بلال، فقد

26- هذه العلامة هي التي تضفي الصبغة القانونية على الظهائر وغيرها من الوثائق الصادرة عن السلطان أو القاضي أو غيرهما، شكلها يتغير بتغير الفترات الزمنية. وكان السلطان يضع العلامة السلطانية بنفسه أو يكلف بذلك كاتبه الخاص، وكان مكانها لنسبة للحالة الأولى في السطر الموالي لمكان كتابة التاريخ، بينما كان مكانها بالنسبة للحالة الثانية بعد البسملة.

اعتقل هذا الأخير السيد علي بن الناصر أخا يحيى عندما كان يهم بمغادرة حمام عمومي، بتهمة محاولته الفرار من مراكش للقاء الرشيد على غرار ما قام به أخواه موسى وزكريا. وبسبب تأثير الفتى على مولاه، لم تنفع أية شفاعة بما فيها تلك التي قام بها أحد شيوخ العرب للحيلولة دون تنفيذ حكم الإعدام فيه. ويظهر أن النهاية المأساوية لهذا السيد تأثر لها عرب الخلط أنفسهم، أما شيوخ الموحدين فإن الحادث كان بالنسبة لهم بمثابة القطرة التي أفاضت الكأس، حيث غادر أغلبهم العاصمة بسببه.

معركة أوجذام وعودة الرشيد إلى مراكش وموت يحيى

كان طبيعياً أن لا يدوم طويلاً عهد يحيى بمهازله التي لا تحصى، بحيث إنه وبعد شهور قليلة من دخوله مراكش، أعاد الرشيد تنظيم قواته مستفيداً في ذلك من الأموال التي حصل عليها بسجلماسة. وقد دمج فصيلة الجيش المسيحي الخاضعة لأرقم بن مردنيش في الفصيلة المسيحية التابعة له، واتجه إلى فاس حيث وضع يده هناك كذلك على المال العام الذي سخره في ضم عناصر جديدة إلى جيشه كان من بينها عرب سفيان، الذين أقنعهم بعد مفاوضات مع قائدهم جرمون ابن عيسى، بالانضمام إليه والاتجاه إلى مراكش لمحاربة عرب الخلط، عدوهم المشترك.

وبعدما وصل خبر ما خطط له الرشيد العاصمة، دب فيها الرعب من جديد، وقد خرج ضده يحيى وبمعيته الخلط وهسكورة، حيث ضربوا مخيمهم في مكان يعرف باسم "المجالس"[27]، قبل مواصلة السير صوب الجهة التي كان ينتظر أن يأتي منها العدو الذي عبر أم الربيع. وكان لقاء الجيشين في منطقة تعرف باسم أوجذام (أنجذام عند ابن عذاري)، وقعت فيها مواجهة محدودة الأهمية بين طليعتيهما، حقق خلالها أتباع الرشيد بعض التقدم. وسوف يستمر القتال بشكل محدود طيلة عشرة أيام، قبل أن تحدث المواجهة الحاسمة والتي قاتل فيها الطرفان بشكل انتحاري، وكان كل منهما واعياً بأن مستقبله سيحسم من خلال المعركة. وفي الوقت الذي كان فيه القتال على أشده والنتيجة لم تحسم بعد، اندفع المرتزقة المسيحيون الموجودون ضمن قوات الرشيد بشكل لا يقاوم، في اتجاه مكان تجمع أهم عدد من قوات العدو والتي أجبرت على الفرار. وقد بدأت إثر ذلك قوات الرشيد بملاحقة العدو بشكل لا هوادة فيه، محركهم في ذلك

27- يوجد خارج باب أكناو شمال مراكش.

بالإضافة إلى حقدهم على الخلط الذين عاثوا في الأرض فساداً، رغبتهم في الاستيلاء على الثروات الكبيرة التي جمعها هؤلاء من أعمال النهب منذ تحالفوا أول مرة مع المأمون.

وبعد هذا الانتصار، بقي جيش الرشيد خارج مراكش لعدة أيام، في انتظار انتهاء القائمين على شؤون الدولة من إعادة التنظيم الإداري للمنطقة التي اكتسحها الخلط والممتدة ما بين أم الربيع وتانسيفت؛ وهي المنطقة التي تقيم بها قبائل صنهاجة ودكالة وركراكة، وهكذا تم فرض الجبايات من جديد على المنطقة وكان الخلط قد قاموا بإلغائها، في نفس الوقت تم ترحيل هؤلاء إلى منطقة سوس، ومنحت المنطقة التي كانوا يقيمون بها إلى عرب سفيان الذين سُمح لهم كذلك بالاحتفاظ بكل الغنائم التي وقعت في أيديهم.

وبعد دخوله العاصمة، استقبل الرشيد بحفاوة كبيرة، وأصدر مستشاروه عفواً عاماً في حق من تخلف بها. وقد تساقطت الأمطار إثر ذلك، وهو ما سمح بحرث الأراضي وزرعها من جديد، باستعمال احتياطي الحبوب التي كان الخلط قد خزنوها عقب حصاد سنة 633هـ (1236م).

وحسب صاحب البيان المغرب فإن عودة الرشيد إلى الحكم لم تكن تعني نهاية القلاقل، فقد عرفت سجلماسة اضطرابات جديدة كان يقف وراءها شخص صنهاجي، بدأ تمرده بضواحي المدينة قبل أن يدخلها بتواطؤ مع سكانها الذين فتحوا له الأبواب، مما سمح له بقتل عاملها السيد أبي يعقوب بن علي بن يوسف التمللي، الذي سبق وعينه الرشيد عليها بعد مغادرتها نحو فاس. وأمام حالة الفوضى التي أصبحت عليها سجلماسة، اضطر شيوخ الموحدين، الذين تركهم الرشيد بجوار العامل، للفرار إلى الأطلس، بينما التجأ السيد موسى وكان هو الآخر يوجد بالمدينة، إلى درعة حيث قتل. وقد تمكن إثر ذلك السيد أبو محمد بن عبد العزيز من إخماد تمرد الصنهاجي، لكنه أعلن استقلاله بسجلماسة التي بقيت خاضعة لسلطته إلى أن نجح عامل درعة ابن وانودين في طرده منها وإعادة سلطة الرشيد إليها.

ويورد ابن خلدون بخصوص هذه النقطة حكاية مختلفة، معظم فصولها غير صحيحة؛ فهو لا يأتي على ذكر مقاومة سجلماسة للرشيد عندما انتقل إليها، ولا خضوعها له بعد ذلك، في المقابل يشير إلى أن هذا الأخير لما خرج ضد يحيى، ترك نائباً عنه بسجلماسة يوسف بن علي بن يوسف التملي، وعين بجانبه وكعامل لها ابن عم يوسف هذا، ويدعى يحيى بن أرقم بن محمد بن مردنيش. في تلك الأثناء نجح متمرد صنهاجي في الوصول إلى خيمة يحيى بن أرقم وقتله بها، وهنا قام ابن هذا الأخير بقتل المتمرد انتقاماً لوالده، وفي الوقت ذاته، وخوفاً من قيام الرشيد بعزله، أعلن تمرده. ويضيف ابن خلدون

أن الرشيد خرج ضد المتمرد عام 632هـ، وأن عامله على درعة ابن وانودين، وبعد أن استعاد سجلماسة، عفا على متمردها[28].

إن ما ينبغي توضيحه هنا هو أن القضية الأكثر استعجالاً بالنسبة للرشيد، لم تكن تمرد سجلماسة وإنما تعقب الخلط والقضاء على يحيى بن الناصر، خصوصاً بعد انتصار معركة اوجذام والذي أصبح يحيى على إثره في وضعية حرجة جداً، لدرجة أن ابن وقاريط نصح الخلط بالخروج عليه ومبايعة ابن هود في الأندلس، بغية الحصول على مساعدته لإيقاف خطر عرب سفيان الذين يعملون لحساب الرشيد. وكان ابن وقاريط يدرك بدهائه ومكره بأن ابن هود لن يستطيع بل ولن يرغب في مساعدة الخلط، ومع ذلك أقنعهم بأن يرسلوا إليه معه وفداً من اعيانهم كان من بين أفراده، أحد أبناء علي بن هلال وهو من قادتهم. وكانت غاية ابن وقاريط من كل ذلك، النجاة بنفسه والمكوث بالأندلس بمنأى عن خطر الرشيد وأتباعه من الموحدين، ذلك لأنه لم يعد يحس بالأمان بكل المنطقة الغربية من المغرب حيث يوجد الخلط، بل لم يعد يحس به حتى بمسقط رأسه هسكورة. وعند وصوله إلى الأندلس استُقبل الوفد بحفاوة من طرف ابن هود. وبخصوص ابن وقاريط، فكما كان منتظراً مكث في اشبيلية يمارس هوايته المفضلة وهي حياكة الدسائس، والتي لن يتخلى عنها إلا عام 635هـ عندما سيسلم للرشيد، كما سنرى.

وقبل أن يستفيق الخلط من وقع الهزيمة ويقوموا برد فعل ضد الرشيد، قرر مستشارو هذا الأخير الخروج في حملة ضدهم، وقد شارك الموحدون الذين تصالحوا مع الرشيد في الحملة. وبعد أن عين السيد أبو محمد عبد العزيز عاملاً على مراكش، خرج الرشيد على رأس قواته في اتجاه الشمال. وبفضل انتصاره السابق الذي قوى شكيمته، لم يستطع أحد أن يعترض طريقه، منذ مغادرته العاصمة وإلى وصوله إلى فاس. وبما أنه حل بهذه الأخيرة مع اقتراب فصل الصيف وقبل موعد الحصاد، فإنها كانت في حالة خصاص كبير، جعله يجد بها صعوبة في الحصول على التموين وفي دفع مستحقات الجنود، وهو ما أجبره على إرسال السيد أبي محمد حفيد يعقوب المنصور مع بعض عناصر جيشه من المسيحيين والمسلمين لاستخلاص الضرائب من قبيلتي غمارة وفزاز[29].

في هذه الأثناء استقبل عرب معقل يحيى الذي تخلى عنه أتباعه بحيث التجأ وحده تقريباً إلى منطقة الغرب، وكان عرب معقل قد وعدوه بالمساعدة لاستعادة سلطته. وبسبب

28- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 537

29- نفسه. ص. 535؛ والبيان المغرب، م. س.، ص. 366.

ظنه بأن مساعدتهم ستسمح له بالعودة إلى الحكم، فقد أذعن لطلباتهم وبدأ يوزع عليهم الظهائر التي تتضمن هبات وهمية. ومع ذلك وبسبب طلباتهم التي لم تتوقف، ورغبتهم في الحصول على مزيد من الظهائر، تذمر منهم وقرر تركهم ومواصلة مغامرته الشائكة. وفي يوم 28 شوال 633هـ (6 مايو 1236م) قام أحدهم، وربما لإرضاء الرشيد الذي كانت قواته تجوب المنطقة، باغتياله. وقد دفنت جثته، بعد بتر الرأس، بقلعة المهدي[30]؛ في السهل المعروف باسم فحص الزاد والواقع بين وادي الحلو و"مخاضة النساء"، على امتداد الطريق الرابطة بين فاس وتازة، أما الرأس فأهدي إلى الرشيد الذي وضعه في قدر عسل وأرسله إلى مراكش، مع أمر يقضي بإعدام حسن بن زيد شيخ عرب عاصم والأخوين قايد وفايد شيخي قبيلة بني جابر التابعة لعرب سفيان، واللذَين دبر أمر إعدامهما شيخ بني قرة جرمون، بسبب المنافسة التي كانت بينهما وبينه.

ولإرضاء الرشيد، أرسل إليه عرب معقل بالإضافة إلى رأس يحيى، هدية أخرى هي مجموعة من الخيول، غير أن شيوخ الموحدين استولوا عليها قبل وصولها إلى فاس. ولما علم بالأمر الوزير أبو موسى بن عطوش، حاول إجبارهم على التخلي عنها، غير أن أحد شيوخ الموحدين ويدعى أبا إسحاق بن الشيخ وكان ينتمي إلى قبيلة هرغة ومنحدرا من أحد أفراد الجماعة (أهل العشرة)، استخف بقرار الوزير الذي كان شأن كثير من الموحدين، ينتمي إلى قبيلة كومية (مسقط رأس عبد المومن)، وأمام هذا التحدي أمر الوزير باعتقال كل الشيوخ المدانين، لكن وحتى لا تأخذ القضية أبعادا أخرى، تم إلغاء أمر الوزير.

وبعد رجوع القوات التي أرسلها لاستخلاص الضرائب من فزاز وغمارة، غادر الرشيد فاس صوب مراكش، وقد قطع المسافة بين المدينتين في واحد وعشرين يوماً، حيث كان دخوله مراكش في مطلع سنة 634هـ (يوافق اليوم الأول منها 4 سبتمبر 1236م). ويرجع سبب هذا التأخر في الوصول إلى العاصمة، إلى الإيقاع البطيء الذي كانت تسير به حملات الخلفاء الموحدين، كما أوضحنا ذلك من قبل.

وبعد أن تأكد من أن العرش أصبح من نصيبه وأنه لم يعد له عليه منافس، وكان قد وصل سن الرشد حيث أصبح عمره ثماني عشرة سنة، عين عددا من أقاربه في المناصب الأساسية. وقد تزامن

30- يقول ابن عذاري: «ودفن في قلعة في فحص يعرف بفحص الزاد وهو بين وادي أبي حلو ومحاض النسا». نفسه، ص. 336.

ذلك مع نجاح ابن وانودين، الذي عُين عاملاً على درعة بعد مقتل السيد أبي موسى بن الناصر، في إعادة سلطة الرشيد إلى سجلماسة، التي طرد منها السيد أبا محمد بن عبد العزيز، وكان قد أقام بها عقب إخماد تمرد الصنهاجي، نظاماً شبه مستقل بحيث أصبح يتصرف كخليفة حقيقي.

وصول الجنويين إلى سبتة، ومهاجمة ابن وقاريط للرباط وسلا، واعتراف اشبيلية وسبتة بسلطة الرشيد

وفي سنة 633هـ (يوافق اليوم الأول منها 16 سبتمبر 1235هـ واليوم الأخير 3 سبتمبر 1236م)، وفي الوقت الذي كان فيه الرشيد ومؤيدوه من الموحدين يقاتلون ضد يحيى وحلفائه من الخلط، كانت سبتة تعرف أحداثاً لم تعرها حكومة مراكش أدنى أهمية؛ فقد وصلت إلى ميناء المدينة مجموعة من السفن قادمة من جنوة، وكان على ظهرها إضافة إلى ربابنتها، مجموعة من التجار الذين حلوا بالمدينة لأغراض تجارية. وتشير المصادر العربية إلى أن أبا العباس أحمد بن محمد اليانشتي (الينشتي عند الروض المعطار)[31] الذي سبق واستقل بالمدينة بعد أن فشل المأمون أمام أسوارها، وكان قد رفض سيادة ابن هود عليها كذلك، أفشل مخطط السفن الجنوية التي كانت ترمي لاحتلالها. وقد أورد صاحب البيان المغرب رواية بعيدة الاحتمال بخصوص وصول الجنويين جاء فيها: «*وذلك أنهم لما وصلوا إلى سبتة في مراكبهم برسم محاولات تجاراتهم، فاجتمع منهم في ديوانهم وربضها عدد كثير، فراموا التغلب عليها بتحيلاتهم وإرادتهم فخيب الله سعيهم فيما راموه من التحيلات، وأكذبتهم نفوسهم بما خيلت لهم من التخيلات (...) فلما كان في اليوم المذكور خرج للقائهم أبو الحسن ابن اليانشتي فألقاهم في جموع لا يستطاع إحصاؤهم (...) فبينما هم بمقربة من الباب يحاولون إليه المسير إذ لم يبق بينهم وبينه إلا شيء يسير، إذ أقبلت عليهم عساكر البربر داخلين على الباب فكسروهم وقتل كل واحد منهم من قتل من الروم*»[32].

إن الاحتمال الأقرب إلى الصواب بخصوص هذه القضية، هو أن أهل القبائل المجاورة وباتفاق أو بدونه مع اليانشتي، وأمام نهمهم وجريهم وراء الغنائم، قاموا بالسطو على المحلات التي كان يمتلكها الجنويون بالمدينة وأرباضها والتي خزنوا بها ما حملته سفنهم من سلع، في وقت لم يستطع فيه هؤلاء منعهم. لكن بعد ذلك قام أسطول جنوي مجهز بالمجانيق، بضرب المدينة التي

31- ينتمي إلى قرية نشتة التي توجد بمقاطعة قونقة، وكان من كبار التجار. الروض المعطار، م. س.، ص. 622.

32- البيان المغرب، ص.349-350.

أصبحت في وضعية حرجة، اضطرت معها لأداء غرامة على الأضرار التي ألحقتها بالتجار الجنويين، دفعها اليانشتي من المال العام. ويقدر صاحب روض القرطاس تلك الغرامة بأربعمائة ألف دينار، وهو رقم، على غرار كل الأرقام التي يقدمها هذا المصدر، مبالغ فيه.

هذا عن شمال البلاد، أما عن جنوبها، فما يمكن أن نسجله، هو التحسن النسبي الذي عرفته الوضعية السياسية عام 634هـ (يوافق اليوم الأول منه 4 سبتمبر 1236م واليوم الأخير 23 غشت 1237م)، رغم أن الجفاف أدى إلى ارتفاع الأسعار بشكل فاحش، بحيث وصل ثمن الرطل الواحد من الدقيق إلى 37 درهماً. وحسب مؤلف البيان المغرب فقد تم في تلك الأثناء مضاعفة قيمة الدرهم عشرين مرة، وهو ما استفادت منه -حسبه- الحركة التجارية بشكل عام. ولا نعرف سبب الرفع من قيمة الدرهم بهذا الشكل ولا الفائدة الفعلية التي تم تحقيقها من وراء ذلك.

وفي نفس السنة، عاد الرشيد من جديد إلى فاس حيث استقبل هناك وفداً من المرينيين أكرم مثواه، وقد قضى بقية تلك السنة بالمدينة متحملاً قلة مداخيل الضرائب والناجمة عن الجوع والغلاء. ولم يعرف عام 634هـ ذاك، من الأحداث المهمة غير الهجوم الذي شنه ابن وقاريط على سلا والرباط، وكان محركه في ذلك حقده اللامحدود على الموحدين من أتباع الرشيد، بحيث لم يهدأ له بال حتى لما ترك الخلط لمصيرهم وانتقل إلى اشبيلية، لذا أقنع ابن هود بتكليفه بقيادة هجوم على المدينتين لاحتلالهما، وأسر أم الرشيد حبابة وأخته فاطمة وزوجها الفقيه أبي العلاء المقيمين بسلا. وقد أكد لسيده الجديد أن الأمر سيكون من السهولة بمكان، على اعتبار عدم وجود أية قوات عسكرية بالمدينتين.

وبواسطة السفينتين اللتين منحهما إياه ابن هود، واللتين جمع بهما ما أمكنه من المتطوعين، أخذ طريق البحر حيث انتهى به المطاف بمصب أبي رقراق، وكان على وشك الاستيلاء على الرباط، غير أن سكان المدينتين والذين كان عددهم يفوق بكثير عدد القوات التي معه، أرغموه على الانسحاب عائداً من حيث أتى. ولما وصل الرشيد الخبر، أرسل على وجه السرعة فصيلة لحماية الرباط، وأمر أن تلتحق به في فاس أمه وأخته.

ومن فاس عاد الخليفة إلى عاصمة ملكه حيث قضى الشهور الأولى من سنة 635هـ (خريف وشتاء 1237م). وفي ربيع تلك السنة وبالضبط في شهر شوال (يوافق اليوم الأول منه 17 مايو واليوم الأخير 14 يونيو 1238م) بايع الإشبيليون الرشيد واعترفوا من جديد -على الأقل من الناحية الاسمية- بسلطة الموحدين، ونجح أبو عمر بن الجد في تعيين السيد أبي عبد الله بن السيد

أبي عمران عاملاً على المدينة. وفي صيف نفس السنة، توجهت سفارة أندلسية إلى مراكش لتقديم البيعة، وقد غادرت اشبيلية على ظهر سفينتين كبيرتين، وقبل وصولها إلى هناك توقفت بسبتة. ولما علم سكان هذه الأخيرة، وكانت استقلت عن الموحدين منذ أواخر عصر المأمون، بما عقد الأندلسيون عليه العزم، أرادوا أن يحذوا حذوهم، لكن كان عليهم قبل ذلك الإطاحة بأبي العباس اليانشتي الذي تمرد على سلطة الموحدين وتولى أمور المدينة منذ 630هـ (1232م). وحتى يحققوا ذلك، دخل السبتيون في اتصالات مع السيد أبي العباس بن أبي السعيد وكان يوجد بمنطقة غمارة رفقة ابن عبد الله بن أبي جلول، حيث وقع الاتفاق أن يدخل إبراهيم ابن مسعود، وكان من اتباع الرشيد، سبتة ويحاول كسب ثقة اليانشتي، وهو ما تسنى له، بفضل ما كان يتظاهر به من زهد وورع. ونتيجة لذلك تمكن ابن مسعود هذا من معرفة كل التفاصيل عن أعداء اليانشتي ومناصريه والقدرات الدفاعية للمدينة. بعدها ودائماً وفق الخطة المتفق عليها مسبقاً، توجه السيد أبو العباس على رأس حامية عسكرية صوب سبتة حيث تمركز قبالتها. وبما أن القوات المكلفة بالدفاع عن المدينة كانت محدودة العدد، فقد انهزمت بسهولة وقتل ستمائة شخص من أفرادها من بينهم أحد أبناء اليانشتي وعدد من أقاربه. إثر ذلك فتح أهل سبتة من المؤيدين للموحدين أبواب المدينة للمهاجمين. ولم يجد اليانشتي من حل غير الاستسلام وهو ما قام به كذلك بعض أتباعه، حيث تم اعتقالهم. غير أن المنتصرين سيقررون بعد ذلك إطلاق سراحه والسماح له بالانضمام إلى الوفد الذي توجه إلى مراكش لمبايعة الرشيد. وسوف يموت اليانشتي وابنه وكذا بقية أفراد سفارتي اشبيلية وسبتة بمراكش إثر إصابتهم بوباء الطاعون[33].

وقد توقفت السفينتان اللتان تحملان سفارة اشبيلية بميناء مزغان، لتواصل السفارة من هناك طريقها براً نحو مراكش والتي حلت بها بعد ذلك بقليل سفارة سبتة. وبما أن بيعة السفارتين اعتبرت بمثابة انتصار كبير للرشيد، فقد نظمت على إثرها الاحتفالات التي خرجت فيها العامة، وللتعبير عن سعادتها، إلى "البحاير" (البساتين) التي تحولت إلى أسواق عرض فيها التجار منتوجاتهم. وبالإضافة إلى بيعتهم له، أسدى أهل اشبيلية خدمة أخرى للرشيد؛ فقد أقنعهم الفقيه أبو عبد الله الموناني أن أحسن هدية يمكن أن يقدموها للخليفة هي تسليمه ابن وقاريط، لأن رغبة الرشيد في الوصول إليه لم تعد تفوقها رغبة، خصوصاً بعد ما قام به في سلا. وقد لبى الإشبيليون طلب الخليفة، وألقوا القبض على المتمرد الذي أرسل على

33- حسب رواية أخرى، ماتا بعد أن تجرعا السم الذي دس لهما في الحليب.

ظهر سفينة إلى أزمور، حيث سجنه بها عاملها أبو زكريا بن عطوش، وكان يوجد بها كذلك كأسرى، عدد من أعيان الخلط، من بينهم علي بن هلال وأخوه شجاع، والذين اعتقلهم الرشيد عام 634هـ عقب عودته من فاس.

وبعد أن ضربت رؤوس الأسرى العرب في أزمور، وضعت في زبيل (شواري)، وضع بدوره على ظهر جمل، أجبر ابن وقاريط على امتطائه إلى غاية مراكش، وقبل دخولها، أوقف الجمل حتى يتسنى لسكانها شتم ابن وقاريط والبصق عليه. بعدها تواصل التجوال به، وكانت آخر محطة أوقف عندها هي رباط هسكورة، وذلك قبل أن يقطع رأسه الذي علق على باب الشريعة[34] ليكون عبرة لمن يعتبر من أبناء جلدته. ولم يكن كل هذا كافياً ليخمد حنق الرشيد أو بالأحرى مستشاريه على الخلط الذين استدرجوا إلى مراكش بنفس الطريقة التي استدرج بها مسعود بن حميدان، بحيث حلوا بالعاصمة دون أن يتذكروا المؤامرة التي حيكت ضد ابن حميدان والنهاية المأساوية التي آل إليها مصيره. وقد عاملهم حكام مراكش برفق عند وصولهم، وسمحوا لقواتهم بضرب مخيمهم على ضفتي نهر تانسيفت. لكن وما أن انتهى الرشيد ومستشاروه من وضع الخطة، حتى استدعي شيوخ الخلط للحضور. وعقب إيداعهم السجن، توجهت القوات الموحدية إلى الدواوير التي تقيم بها عائلاتهم، وبما أنها كانت دون حماية، فقد نُهبت دون رحمة، وأُسر من كان بها من نساء وأطفال. وبسبب هذا الإجراء اكتظت أسواق مراكش بفتيات الخلط اللواتي عرضن للبيع كجوار. بعد ذلك تقرر نقل من بقيت منهن دون مشتر، إضافة إلى النساء والأطفال، إلى دار الجمرك وبهو المسجد الأعظم، قبل أن يرخص لبني سفيان وبني جابر أعداء الخلط الألدة، أن يحملوا إلى بيوتهم ما شاؤوا من فتيات الخلط كباراً وصغاراً.

وفي تلك السنة، وبعد طول انحباس، تساقطت الأمطار بكميات مهمة، سمحت بتوفر المحاصيل لدرجة بيعت معها ثلاثة أمداد (جمع مد) حفصية من الشعير بدرهم واحد، وبفضل توفر النقود تنافس الناس في اقتناء حاجياتهم من ملابس وغيرها، وقد وصل الرواج إلى درجة بيعت معها القطعة الواحدة من القماش بثمانين درهماً من العملة الرائجة آنذاك. غير أن مراكش لم تنعم بالرخاء والطمأنينة كثيراً، ذلك لأن الطاعون سينتشر فيها مع حلول فصل الصيف، وكان من بين ضحاياه، كما مر بنا، وفدا اشبيلية وسبتة اللذان كان أفرادهما لا يزالان بمراكش في

34- يشير ابن خلدون إلى أنه صلب بهذا الباب. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 536.

صيف 1237م، والذين رغم فرار بعضهم من المدينة هرباً من الطاعون، فإنهم لم يستطيعوا النجاة، حيث مات أغلبهم على الطرقات بعد أن أدركهم هناك الوباء.

وبعد حلول سنة 636هـ بوقت قصير (يوافق اليوم الأول منها 14 غشت 1238م)، خطا محمد ابن يوسف بن الناصر نفس خطوة القائمين على اشبيلية وسبتة، حيث بايع بدوره الرشيد باسم أهالي غرناطة ومالقة وجيان وبقية الأراضي الخاضعة له. وكانت بيعة ولايات الأندلس للرشيد رمزية أكثر منها فعلية، ومع ذلك قنع بها الرشيد الذي استمر ذكر اسمه في الوثائق الرسمية وفي خطبة الجمعة إلى غاية وفاته سنة 640هـ (يوافق اليوم الأول منها فاتح يوليوز 1242م واليوم الأخير 20 يونيو 1243م).

بخلاف ذلك، كانت سلطته في المغرب فعلية، وقد اعترفت بها طنجة، بجانب سبتة التي عين عليها أبو علي بن خلاص، كما اعترفت بها منطقتا الغرب وغمارة اللتان عين عليهما ابن وانودين الذي غادر مراكش، ليلتحق بمنصبه الجديد، على رأس جيش جرار. وكان الخليفة قد منحه بالإضافة إلى الرايات والطبول مجموعة من الظهائر وقعها له على بياض.

لقد كانت منطقة الغرب تعرف حالة فوضى، مردها سنوات الجفاف الطويلة وكثرة الفتن وغياب سلطة مركزية قوية، خصوصاً وأن المأمون وبعده الرشيد وبسبب انشغالهما بمحاربة يحيى والقبائل المنشقة، لم يتمكنا من إعادة النظام والاستقرار إليها. وكان المسؤول المباشر عن حالة الاضطراب التي تعرفها المنطقة، عرب رياح الذين رغم وقوفهم في وجه المرينيين وتحالفهم مع الموحدين، فإنهم وعلى غرار غيرهم من العرب الرحل كانت أعمال النهب تشكل جزءا من نمط عيشهم، وهكذا فبعد نهبهم وتخريبهم لمنطقتي فاس ومكناس، دخلوا في حروب متواصلة مع قبائل زناتة بمنطقة القصر الكبير. هذه الوضعية التي أدت إلى انعدام الأمن على امتداد الطرقات، بجانب تقدم بني مرين داخل التراب المحسوب على الموحدين، جعلت مستشاري الرشيد يقترحون عليه منح سلطات واسعة لابن وانودين بما في ذلك الترخيص له، إذا ما تطلب الأمر ذلك، استقدام قبائل عربية جديدة من إفريقية. وبعد تعيينه، لم يقيد الرشيد يد ابن وانودين إلا بشرط واحد، هو تفادي المواجهة مع المرينيين، ذلك لأن الرشيد ورغم فشله في جلبهم لصفه عام 634هـ أثناء مروره بمنطقة الغرب، كان لا يزال يسعى إلى استقطابهم، من خلال إغرائهم بالهدايا النفيسة.

وكان أول ما قام به ابن وانودين بعد مغادرته مراكش، هو العمل على إعادة السلطة الموحدية إلى سبتة بشكل رسمي، ولتحقيق ذلك رافقه إليها أبو علي بن خلاص البلنسي وأبو زكريا بن محازم

الكومي، وكان الأول قد عُين عاملاً عليها والثاني مسؤولاً على مخزن الأسلحة الموجود بها. وبعد عدة أيام من ضربه لمخيمه قبالة سبتة، قرر رفعه والتوجه في حملة تفتيشية بمنطقة غمارة والتي اعترفت عدد من قبائلها بسلطة المرينيين. ولتفادي ما يمكن أن يأتيهم من ابن وانودين خصوصاً فيما يتعلق بإجبارهم على أداء الجبايات غير الشرعية، التجأ سكان عدد من هذه القبائل إلى الجبال والمناطق التابعة للمرينيين. هذا التصرف أثار غضب ابن وانودين الذي توجه إلى مناطق نفوذ المرينيين وطالبهم بتسليم الفارين، وبما أن المرينيين رفضوا ذلك، فقد بدأ يستعد للمواجهة، غير أن الرشيد وبعدما علم بذلك، أرسل يأمر ابن وانودين بعدم كسر السلم الهش الذي يربطه بالعدو، وهو ما قبله ابن وانودين على مضض.

و لا تورد المصادر التاريخية أحداثا أخرى عن السنة التي نحن بصددها (636هـ)، غير تمرد وقع في حصن تيوينوين بمنطقة سوس قاده شخص من العوام يدعى ابن جوجة، عبر عرب معقل عن استعدادهم لمساعدته، لذا دعاهم لزيارته في الحصن. ولإخماد التمرد تم استعمال الطريقة التقليدية التي أصبحت من خصوصيات البلد والمرحلة، وهي تقديم الرشوة لتحقيق المطلوب، وهكذا قام عامل سوس أبو محمد بن أبي زكريا بن إبراهيم بإرشاء عرب جزولة من أجل مساعدته على القضاء على المتمرد، حيث بدأ أحد المرتشين يردد بأعلى صوته بعد دخول عرب معقل الحصن، بأن المتمرد وباستدعائه لعرب معقل يريد الحصول على مساعدتهم من أجل الاستيلاء عليها وطرد سكانها، إثر ذلك قام مرتش آخر وكان من شيوخ جزولة بقتل المتمرد الذي بترت يداه اللتان أرسلتا إلى عامل سوس، أما رأسه فحمله قاتله إلى الخليفة بمراكش، والذي كافأه على ذلك بملء القفة التي أتى فيها برأس المتمرد، دراهم.

ولم يكن ابن وانودين، بطبعه المقدام وبقدرته الكبيرة على حياكة الدسائس، ليقبل بالجمود الذي فرضته عليه حكومة مراكش في تعامله مع المرينيين الذين ما فتئت عدوانيتهم تزداد، لذا بدأ يخطط حسب البيان المغرب لتكسير شوكة هؤلاء، من خلال تكليفه لعبد مسيحي باغتيال أميرهم الجسور الطموح أبي سعيد بن عبد الحق[35]. وبعد تكلل العملية بنجاح وتقديمه الحماية اللازمة لمنفذها، بعث بكاتبه الخاص أبي الحسن السرقسطي إلى مراكش، ليوضح لأصحاب

35- المصدر الوحيد الذي يورد بالإضافة إلى السنة، الشهر الذي اغتيل فيه أبو سعيد بن عبد الحق هو الذخيرة السنية، غير ان هذا المصدر وكذا روض القرطاس يجعلان من سنة 638هـ تاريخا لاغتياله، بينما يجعله ابن خلدون وصاحب البيان المغرب في 637 هـ، ويظهر ان هذا التاريخ الأخير هو الأقرب إلى الصواب، على اعتبار أن ابن وانودين كان يوجد خلاله في منطقتي الغرب ومكناس، وعلى اعتبار كذلك أنه خلال تلك السنة دخلت قواته في مواجهة مع قوات عثمان بن عبدالحق.

الحل والعقد فيها، إيجابيات اغتيال الأمير المريني، وليحاول إقناعهم بضرورة تجديد القتال في ذلك الظرف بالذات، والذي كان المعسكر المريني يعرف فيه انشقاقاً سببه النزاع الذي نشأ من أجل الظفر بالزعامة، بين بني حمامة وبني أشقر، وقد بين ابن وانودين من خلال مبعوثيه إلى مراكش، أهمية الاعتماد على بني أشقر في تحقيق هذا المبتغى.

وبمجرد تعيين أبي المعارف محمد أميراً على المرينيين، قطع بنو أشقر علاقتهم به، وهو ما كان ينتظره ابن وانودين الذي نجح في استقطابهم، وتمكن بواسطتهم من هزم بني حمامة في مواجهة وقعت بمنطقة سلفات. وبعد هزيمتهم هذه، وضع المرينيون كميناً لابن وانودين، معتقدين أنه سيقوم بملاحقتهم، غير أن هذا الأخير توجه إلى مكناس صحبة حلفائه الجدد، حيث وضع مخيمه بضواحيها، قبل أن يبدأ بفرض الضرائب غير الشرعية على سكانها، الذين وبعد أن أثقل كاهلهم بما أخذه منهم، تركهم قاصداً فاس التي قام فيها بنفس الشيء، وكان سبب تصرفه ذاك، حاجته إلى الأموال لدفع أجور جنوده. إثر ذلك عاد إلى منطقة مكناس من جديد، وقد ضرب مخيمه بالقرب من زرهون التي أُجبر سكانها على الفرار مخلفين وراءهم منازلهم وماشيتهم ومحاصيلهم الفلاحية.

في تلك الأثناء، وحتى يضعوا حداً للتصرفات التعسفية لقوات ابن وانودين، انتقل المرينيون إلى منطقة مكناس، التي ضربوا مخيمهم على بعد ثمانية أميال منها. وقد وقعت إثر ذلك مناوشات بين فصيلة من قواتهم قوامها خمسون فارساً يقودها الأمير معارف، وبين المرتزقة المسيحيين الموجودين ضمن قوات ابن وانودين، دارت فيها الدائرة على هؤلاء، والذين قتل حسب صاحب الذخيرة السنية رئيسهم وما لا يقل عن مائة من مرافقيه[36].

هذه الهزيمة أثارت ثائرة ابن وانودين الذي أمر كل قواته بالاستعداد للانقضاض على العدو، وكان هو الآخر مستعداً للقتال. وقد بدأ الموحدون بمهاجمة فرقة فرسان بني مرين المشكلة من عرب بني حمامة، وكانوا يعتقدون أن العرب الذين انضموا إليهم وضمنهم بنو أشقر أعداء بني حمامة سيقاتلون بجانبهم، لكن هؤلاء تناسوا عداءهم لبني حمامة ورفضوا الدخول في المواجهة، بل وتركوا المعسكر الموحدي، وهو ما أدى إلى تكبد الموحدين لهزيمة جديدة، تحمل ثقلها بالأساس

36- يورد صاحب البيان المغرب خطأً اسم قائد القوات المسيحية، حيث يقول إنه يدعى أبا درية. ويقول ابن خلدون إنه حدث قتال وجهاً لوجه بين قائد المرتزقة المسيحيين ومحمد بن إدريس بن عبد الحق وأن كلا منهما أصاب الآخر بجروح، لكن وبخلاف جرح المسيحي الذي كان قاتلاً، فإن جرح المريني لم يكن بنفس الخطورة، ومع ذلك فقد أحدث له عيبا دائما في وجهه، ولذلك كان أصحابه ينادونه بأبي ضربة. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 245.

المرتزقة المسيحيون الذين قتل العديد منهم. وأمام هذا الوضع، لم يجد ابن وانودين بداً من الالتجاء إلى مكناس تاركاً خلفه مخيمه وما يوجد به من أمتعة، لبني مرين[37].

وخوفاً من أن يقوم بنو مرين بمحاصرة المدينة، وهو ما لم يكن بإمكان ابن وانودين مقاومته، خصوصاً وأن سكانها يناصبونه العداء، اضطر إلى الفرار ليلاً مع ابنه عبد الكريم في اتجاه القصر الكبير حيث خلف عائلته. وهنا وجب التذكير أنه إذا كان كبار موظفي منطقة الغرب والقائمون على أمورها المالية، لم يتوقفوا طيلة السنتين اللتين قضاهما ابن وانودين عاملاً عليها، عن رفع التقارير ضده إلى مراكش، فإن هذه التقارير ازدادت بعد هزيمته، وكانت كلها تخبر بتجاوزاته وتطلعاته الانفصالية وخصوصاً مراسلاته مع عرب إفريقية -على منوال ما قام به أبو زكريا-، وهو الأمر الذي لم ينفه أبداً، على اعتبار أنه قام به تنفيذاً لأوامر عليا.

ولما علم ابن وانودين بالاهتمام الذي أعاره الرشيد للشكاوى التي رفعت ضده إثر هزيمته، غادر القصر الكبير رفقة عائلته وخدمه وحرسه الخاص المكون من خمسين فارساً، قاصداً جبال هنتاتة بالأطلس الكبير والتي لم يغادرها طيلة ما تبقى من عهد الرشيد[38]. وقد حاول بعض فرسان المرينيين ملاحقته أثناء فراره، لكنهم لم يستطيعوا الوصول إليه. من جهة أخرى، دخل الرشيد مع المرينيين في مفاوضات، بعدما لاحظ أنهم يسيطرون على شمال المغرب، وأن هزيمته أمامهم أصبحت أمراً مؤكداً، وبعث لهم بعدة مراسلات، تكللت بتوقيع هدنة بين الطرفين.

وبجانب عودة السلم إلى البلاد، تميزت سنة 638هـ (يوافق اليوم الأول منها 23 يوليو 1240م واليوم الأخير 11 يوليو 1241م) بتهاطلات مطرية غزيرة، نجم عنها موسم فلاحي جيد توفرت فيه المحاصيل بكميات كبيرة سمحت بانخفاض أثمانها، كما سمحت بتوفير أموال سخرها الموحدون في إعادة ترميم عدد من البنايات التي كانت الاضطرابات المتكررة قد حولتها إلى خراب. والواقع أن السلم الذي استتب تلك السنة، ساهم فيه، وإن بشكل غير مباشر، النزاع الداخلي الذي نشب بين المرينيين؛ فقد قام بنو أشقر وبطلب من عرب معقل بمحاصرة مكناس، وكان بنو أشقر هؤلاء قد

37- بعد فرار ابن وا نودين إلى مكناس، توجه قائد بني سفيان جرمون بن رياح رفقة رجاله عند الأمير المريني أبي المعارف حيث أعلن أمامه عن خروجه عن طاعة الرشيد، وهو ما أسعد الأمير الذي أكرم مثواه. ولم يطل مقام جرمون بجوار أبي المعارف حيث وافته المنية في ذي الحجة من نفس سنة 638هـ (يوافق اليوم الأخير منها 11 يوليوز 1241). الذخيرة السنية، م. س.، ص. 60

38- يؤكد صاحب الذخيرة السنية، خطأ أنه عاد إلى مراكش حيث قتله الرشيد دون أن يتذكر الخدمات التي أسداها له في الماضي خصوصاً على فترة حكم السعيد (640هـ - 646هـ). نفسه، ص.60.

دخلوها من قبل، بعد أن تحالفوا مع ابن وانودين. ويرجع سبب تحالفهم ذاك مع عرب معقل وسعيهم لدخول المدينة من جديد، رغبتهم الوقوف في وجه بني حمامة الذين كانوا يسعون للسيطرة على كل المنطقة وضمنها مدينة مكناس التي كانت تدفع لهم ضرائب سنوية. ولم يقبل بنو أشقر رفع الحصار عن المدينة إلا بعد أن توصلوا بغرامة حرب قيمتها 4.000 دينار.

وبخصوص سنة 539هـ (يوافق اليوم الأول منها 12 يوليو 1241م واليوم الأخير 30 يونيو 1242م)، لا تذكر المصادر العربية أي حدث ذي بال وقع فيها، غير إعدام السيد أبي حفص، الذي تسبب فيه تهور كاتب البلاط ابن المومناني وكان يتمتع بنفوذ كبير داخل القصر الملكي[39]؛ فبعد أن علم أن الرشيد أمر أبا حفص بالاستعداد للتوجه على رأس قوات عسكرية إلى منطقة هسكورة التي أعلنت تمردها، بعث له -وكان مولعاً بعلم التنجيم- برسالة تهنئة يخبره من خلالها بأن ذلك سيكون بمثابة الخطوة الأولى في طريق وصوله إلى الخلافة، وأمر حامل الرسالة بتسليمها إلى من يوجد بباب السراجين القديمة المجاورة لمسجد الكتبية، قصد إيصالها إلى أبي حفص. ولما استلمها القائد أبو المسك المكلف بالحراسة بالباب المذكور، سلمها لتوه إلى الرشيد، الذي لم يكلف نفسه عناء الاطلاع على فحواها، على اعتبار أنها لا تعدو أن تكون رسالة تهنئة بليلة القدر (31 مارس 1242م)، وأرسل إلى كاتب البلاط الهدية المعهودة التي دأب على تقديمها له في مثل هذه المناسبات. وعندما أخبر ابن المومناني بأن الرسالة انتهى بها الأمر بيد الرشيد، أسرع وهو في حالة رعب ببعث رسالة أخرى يعتذر من خلالها و يطلب الصفح. هذا التصرف دفع بالرشيد إلى العودة إلى الرسالة الأولى، وبالتالي إلى إصدار أمر بإعدام الرجلين، حيث أخرج السيد أبو حفص سيء الحظ والذي لم يكن له أي علم بالرسالتين، من بيته بقميص نومه فقط، دون أن يسمح له بارتداء ملابسه، ونقل إلى القصبة التي أعدم بها، بينما أعطيت الأوامر للبغالين بإعدام ابن المومناني ضرباً بالدبابيس على رأسه.

أما سنة 640هـ (يوافق اليوم الأول منها فاتح يوليو 1242م و اليوم الأخير 20 يونيو 1243م) فإن أهم ما ميزها هو قيام الرشيد، وكانت مملكته تعرف نوعاً من الاستقرار الناجم عن تفاديه المواجهة مع المرينيين، بتشييد بساتين وأجنحة جديدة في قصره، حيث نقل إقامته إلى جوار حديقة "تدفق" الكبيرة، التي شيد بجوارها مجوعة من المنازل خصصها لسكن شيوخ الموحدين

39- سبق له أن أرسل في سفارة إلى ابن هود، وقد نجح أثناء مروره بإشبيلية في إقناع الإشبيليين بتسليم ابن وقاريط للرشيد، عندما بين لهم أن ذلك يعتبر أحسن هدية يمكنهم تقديمها للخليفة. (المترجم)

وموظفي البلاط والباشوات والحجاب والخدم والعبيد، متناسياً الخطر الذي يتهدد الإمبراطورية التي أصبحت تعيش مرحلة أفولها بعدما فقدت الكثير من أجزائها. وكان مصدر الخطر الرئيسي منطقة الهبط التي أعلنت تمردها.

لقد كان الخليفة الشاب والذي لم يتجاوز عمره الرابعة والعشرين ربيعاً، يفكر، وعلى غرار العديد من سكان مراكش، فقط في حياة اللهو والترف عندما باغته الموت؛ فقد ركب أحد الأيام قارباً بحوض الحديقة الكبيرة سالفة الذكر، رفقة خليلاته من أجل التسلية، غير أن القارب انقلب (دون شك بسبب دعاباتهن الطائشة). وتشير إحدى الروايات إلى أن الرشيد قضى في الحوض، وتؤكد رواية ثانية (أكثر مصداقية) أنه أُخرج منه وهو لايزال على قيد الحياة حيث حمل إلى قصره، لكنه توفي بعد ذلك بثلاثة أيام، أي في 10 جمادى الثانية (5 ديسمبر 1242 م)، وكان سبب الوفاة الحمى أو التهاب الرئة الناجم عن الغرق، بينما تشير رواية ثالثة رواها شاهد عيان، هو حاجبه أبو الوكيل ميمون بن سعادة، إلى أنه امتطى القارب ليلاً بهدف التسلية، وكان البرد قارساً، وقد خلع وهو على ظهره عمامته مما جعله يصاب بنزلة برد نجم عنها حالة حمى، وقد أنزلوه إثر ذلك من القارب ونقلوه إلى قصره الذي لفظ به أنفاسه، وكان ذلك يوم الجمعة 10 جمادى الثانية 640 هـ (5 ديسمبر 1242م).

كرونولوجية عهد الرشيد

يفتقر ما أورده ابن خلدون بخصوص كرونولوجية عهد الرشيد إلى الوضوح، أما ما أورده بصددها صاحب روض القرطاس فمليء بالأخطاء، والحقيقة أن الحديث بنوع من الدقة عن هذه الكرونولوجية أصبح فقط متيسراً اليوم، بعد اكتشاف مخطوط البيان المغرب الذي أفاض في الحديث عنها.

ويمكننا انطلاقاً من هذه المصادر الثلاثة، تقديم ما يلي بخصوص هذه الكرونولوجية:

- السبت 29 ذي الحجة 629هـ (16 أكتوبر 1232م): وفاة المأمون.
- الأحد 30 ذي الحجة 629هـ (17 أكتوبر 1232م): بيعة الرشيد.
- بداية محرم 630هـ (ما بين 24 و26 أكتوبر 1232م): هزيمة يحيى أمام الرشيد.
- 15 محرم 630هـ (الاثنين فاتح نوفمبر 1232 م): دخول الرشيد إلى مراكش ومبايعته بشكل رسمي.
- ما تبقى من سنة 630هـ (يوافق اليوم الأخير منها 6 أكتوبر1233م): إعادة تنظيم الشؤون الإدارية بمراكش، وقيام الخلط بنهب عرب سفيان ثم هزيمتهم بعد ذلك أمام يحيى، ومواصلة ابن وقاريط حياكة الدسائس.

- نهاية 630هـ: إعلان ابن وقاريط لتمرده.
- منتصف 631هـ (ربيع 1234م): مفاوضات الصلح بين الفصائل الموحدية.
- ربيع 632هـ (1235م): محاصرة الخلط وهسكورة لمراكش، وفرار الرشيد إلى الأطلس ومنه إلى سجلماسة.
- بداية صيف 632هـ (1235م): استسلام مراكش ليحيى.
- بداية 633هـ (نهاية 1235م): مغادرة الرشيد لسجلماسة، والوصول إلى اتفاق مع عرب سفيان، وهزيمة يحيى.
- منتصف 633هـ (ربيع 1236هـ): دخول الرشيد إلى مراكش، وملاحقة الخلط.
- 29 شوال 633هـ (6 يونيو 1236م): مقتل يحيى.
- 634هـ(يوافق اليوم الأول منها 4 سبتمبر 1236م، واليوم الأخير 23 غشت 1237م): عودة الرشيد إلى فاس.
- منتصف 634هـ (ربيع 1237م): شن ابن وقاريط لهجوم على الرباط وسلا.
- شوال 635هـ (يوافق اليوم الأول منه 17 مايو، واليوم الأخير 14 يونيو 1238م): تقديم أعيان اشبيلية وسبتة بيعة مدينتيهما للرشيد، وتعيين ابن وانودين عاملاً على الغرب.
- 636هـ (يوافق اليوم الأول منها 14 غشت 1238م، واليوم الأخير 2 غشت 1239م): بيعة غرناطة للرشيد، وانهزام ابن وانودين أمام المرينيين، ووقوع تمرد في سوس وإخماده.
- 637هـ (يوافق اليوم الأول منها 3 غشت 1239هـ، واليوم الأخير 22 يوليو 1240م): مقتل عثمان ابن عبد الحق، وهزيمة ابن وانودين أمام المرينيين من جديد، واستتباب السلم وتحسن الأوضاع بمراكش.
- 639هـ (يوافق اليوم الأول منها 12 يوليو 1241م، واليوم الأخير 30 يونيو 1242م): انطلاق أعمال البناء في مراكش بأمر من الرشيد، وإعدام السيد أبي حفص والسكرتير ابن المومناني.
- 10 جمادى الثانية 640هـ (5 ديسمبر 1242م): وفاة الرشيد.

اعتبارات عامة

عجلت السنوات العشر التي قضاها الرشيد في الحكم، دون شك في انهيار الإمبراطورية الموحدية، وذلك لما عرفته هذه السنوات من حروب أهلية ونزاعات وتشبط في الهمم وطموحات عمياء، سمحت باعتلاء العرش لأمراء في خريف العمر مثل "المخلوع" أو قاصرين وطائشين مثل الرشيد. والحقيقة أن هذا الوضع المتأزم ساهم فيه شيوخ الموحدين والذين تعودوا ومنذ عهد

المستنصر على التدخل دون قيد أو شرط في شؤون الحكم، وتحريك الخلفاء وفق مصالحهم، وهو ما جعل الحفاظ على الاستقرار السياسي أمراً مستحيلاً.

لقد فقدت شجاعة الموحدين العسكرية الكثير من مقوماتها في مرحلة الدعة والخنوع هاته. ولعل ما أظهروه من جبن في كمين القصر الملكي ضد مسعود بن حميدان، والرعب الذي انتابهم وجعلهم يتفادون مواجهة الخلط ويفرون إلى الجبال نجاة بأنفسهم، لخير دليل على فقدانهم للحماس والإيمان اللذين استند إليهما المهدي وخصوصاً عبد المومن في غزو كل بلاد المغرب والأندلس، وفي تأسيس أعظم إمبراطورية بربرية في التاريخ.

وبجانب السادة وشيوخ الموحدين، ساهمت القبائل العربية بدورها في التعجيل بانهيار الإمبراطورية، فهذه القبائل ومن بينها بنو سفيان والخلط لم تكن تؤمن بمفهوم البناء، فرغم أنها تحقق الانتصارات، فإن طبعها الدموي وميولها الانتقامية، كانا يحولان دون استفادتها من هذه الانتصارات، ولعل ما يقدمه لنا من معلومات صاحب البيان المغرب بخصوص الخلط وحلفائهم من هسكورة لهو أبلغ دليل على ذلك.

وبخلاف هذا وذاك، فإن المرتزقة المسيحيين رغم قلة عددهم وعدم تأقلمهم مع الوسط المغربي، كانوا بمثابة السند الوحيد الذي شد به الرشيد عضده، وتمكن بواسطته من حسم أغلب المواجهات العسكرية لصالحه، ولعل ذلك هو الذي جعلهم يحظون من طرفه وكذا من طرف والده من قبل بمعاملة خاصة، وهنا لا يجب أن نغفل عنصراً آخر هو كون الرشيد من أم مسيحية.

إن ما يلفت انتباهنا هنا بخصوص هؤلاء المسيحيين، هو ما أورده بشأنهم صاحب البيان المغرب؛ فقد كانت تربطهم -حسبه- صداقة متينة مع شيوخ الأطلس الكبير، كما أنهم كانوا يتدخلون دون حرج في الأمور السياسية، وهذا ما يؤكد أن الحركة العنصرية الرافضة للأجانب لم تكن قد ظهرت بعد، ذلك لأنها لن تبرز إلا خلال العصر المريني، وجاءت في رأينا كرد فعل على الغزو الإيبيري لبلاد المغرب[40].

صحيح أن الرشيد كان وراءه كذلك بعض الوزراء من المسلمين الصادقين، غير أن هؤلاء لم يكن لهم في بلاطه ثقل المسيحيين، كما أنهم لم يفكروا أبداً في إعادة السلطة الموحدية إلى الأندلس، بل أنهم لم يفكروا حتى في القيام برد فعل ضد الهجوم الواسع الذي اكتسح به فرناندو الثالث أرض الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيرية، وكان كل ما قاموا به هو الاعتماد على بعض حلفائهم في الأندلس، لردع الخطر المسيحي الذي استفحل بشكل لم يسبق له مثيل على امتداد عصر الوجود الإسلامي بالأندلس.

40- هناك عنصر آخر هو اشتداد حدة حروب الاسترداد وما أعقبها من طرد العرب من الأندلس. (المترجم).

الفصل العاشر

أبو الحسن علي بن السعيد بن إدريس

ابن يعقوب بن يوسف بن عبد المومن

فاجأت نهاية الرشيد المأساوية في حادث القارب، أقاربه وكبار رجال الدولة الذين لم يحسبوا لها حسابا، لذا لم يعينوا ولياً للعهد على حياة الخليفة. وأمام الحدث غير المنتظر، اجتمع بشكل مستعجل الشيوخ وأصحاب القرار بمراكش ومعهم السادة المنحدرون من نسل عبد المومن، ببيت القرابة (صالون العائلة الإمبراطورية). وكان ضمن المجتمعين السيد أبو الحسن الذي سيتولى الخلافة، وهو ابن جارية، أسود اللون كأمه[1].

وأثناء الاجتماع، اقترح البعض أن يخلف الرشيد ابنه البكر، وكان في مرحلة الطفولة، وحاولوا تبرير ذلك بكون الرشيد نفسه اعتلى العرش وهو طفل، بحيث إن والده المأمون توفي وعمره لم يتجاوز الرابعة والثلاثين. وكانت غايتهم من الاقتراح الحفاظ على امتيازاتهم طيلة فترة الوصاية، غير أن أغلبية المجتمعين رفضت تعيين، ملك قاصر من جديد، حيث كانت تجربة يوسف الثاني ويحيى والرشيد لاتزال عالقة في الأذهان[2] . وأمام تعارض الآراء واحتداد النقاش، عبر أبو الحسن عن قلقه وقال لشخص يجلس بجواره: «*لئن لم يبرموا هذا الأمر وإلا أبرموه بغير اختيارهم*»[3]. والحقيقة أن التوتر وصل إلى درجة حاول معها بعض الحاضرين إخراج سيفه من غمده. في هذه اللحظة وضع أبو محمد عبد الله ابن وانودين، وكان دون شك الشخص الذي قال له أبو الحسن الجملة سالفة الذكر، حداً للنقاش الدائر، عندما أخذ أبا الحسن من يده وأجلسه على عرش الخلافة وقدم له البيعة، وهو ما فعل مثله بعد ذلك مباشرة، بعض أقاربه وبعض شيوخ الموحدين ثم بقية الحضور.

1- في حديثه عن الجواري اللواتي يستقدمن من النوبة، يطري الإدريسي على جمالهن وكذا ما يتصفن به من حسن خصال الأمومة، مما يجعلهن مطلوبات جداً للزواج ببلاد المغرب، وكان ارتفاع الطلب عليهن سبباً في غلاء ثمنهن.

2- البيان المغرب، م. س.، ص. 359.

3- نفسه، ص. 359

وكان أول إجراء قام به الخليفة المعين بعد الانتهاء من تلقي البيعة، هو اعتقال بعض الشيوخ الحاضرين في الاجتماع، والذين رفضوا تعيينه بسبب تخوفهم من طبعه العنيف. وقد أجبرهم في البداية على أداء غرامة مالية، ثم أمر إثر ذلك بسجنهم، هذا الإجراء طال كذلك أم الرشيد. ولم يكن حظ من شغل منصب رئيس العبيد على عهد هذا الأخير بأحسن من ذلك حيث أمر بجلده ألف جلدة، بعدما علم أنه تلفظ في حقه بعبارة نابية، مفادها أنه سيرسله إلى القبر رفقة أخيه المتوفى.

ومما يثير الاستغراب، أن السعيد اعتمد في حفاظه على العرش بدرجة أولى على عرب الخلط أعداء أخيه الألدة، والذين استقدمهم من منفاهم بسوس من الجهات الأخرى التي كانوا يوجدون بها، دون أن يتذكر ما قاموا به من تجاوزات وأعمال عدوانية ضد السلطة الموحدية. في نفس الوقت احتفظ بفيلق المرتزقة المسيحيين الذين سبق لوالده أن نقلهم إلى مراكش، حيث احترم معتقداتهم، وسمح لهم بممارسة شعائرهم في الكنيسة التي توجد بالمدينة.

تمرد سبتة وسجلماسة

وقد رفضت كل من سبتة وسجلماسة مبايعته، وقام عامل سبتة أبو علي بن خلاص البلنسي بمبايعة أمير تونس أبي زكريا[4]، الذي تلقى كذلك بيعة عامل سجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجي، والذي استقل بالمدينة وضرب السكة باسمه وأغرى العرب بالهبات، وهو ما شجع الناس على التوافد عليه من مختلف الجهات. وسبب تمرد عبد الله الهزرجي هذا، هو ما ورد على لسانه بعد وفاة الرشيد، الذي عينه عاملاً عليها، واعتلاء السعيد العرش، حيث قال معلقاً على ذلك: «*كيف أبايع أسوداً حبشياً*»[5]، ورغم أنه حاول الاعتذار فيما بعد، وبعث برسالة إلى السعيد يحابيه ويعبر عن عكس ما تلفظ به، فان هذا الأخير لم ينس ذلك الكلام الجارح، وأمر أن يكتب على ظهر نفس الرسالة عبارة: «*قد وعتها أذن واعية*»، ثم أمر بتمزيقها وإعادتها إلى صاحبها، الذي قام، أمام هذا الرد، بمبايعة أمير تونس.

4- ينتمي إلى عائلة توارثت المناصب الرفيعة، فجد والده أبو إبراهيم إسماعيل بن الولالي الهزرجي (يسميه البيدق بإسماعيل يكيگ)، كان أحد أفراد أهل العشرة الذين عاضدوا المهدي في بداية دعوته (ويورد المعجب أسطورة يقول فيها إنه ضحى بنفسه من أجل إنقاذ حياة عبد المومن)، وجده ويدعى أبا زكريا يحيى، سبق وعينه الناصر عام 601هـ عاملاً على مراكش، ووالده ويدعى زكريا عُين عام 615هـ وزيراً ليوسف الثاني. (المعجب، م. س.، ص. 238 و240). أما هو والذي انتهت حياته بشكل مأساوي، فكان آخر المتحدرين من نسل إسماعيل بن يكيگ يتولى منصباً مهماً على عهد الموحدين.

5- البيان المغرب، م. س.، ص.360.

حملة أبي زكريا أمير تونس إلى تلمسان

وخلال نفس سنة توليه الخلافة، تحالف السعيد مع أبي يحيى يغمراسن (يغمراسان عند ابن عذاري) ضد المرينيين، ووضعا خطة لمحاربتهم على جبهتين في وقت واحد، غير أن الخطة لم تكلل بالنجاح، ومرد ذلك أن أمير تونس، وبعدما لاحظه من تمردات ضد السعيد وتحالف هذا الأخير مع يغمراسن، قرر غزو المغرب الأوسط، حيث خرج على رأس حملة عسكرية ضد تلمسان، وكان يتخوف من أن يتحول الحلف الثنائي بين السعيد ويغمراسن إلى حلف ثلاثي يشمل أبا يحيى المريني، وهو ما قد يشجع الرشيد على الخروج في حملة على رأس الجيوش الثلاثة ضد إفريقية. وقد غادر أبو زكريا تونس في نهاية سنة 640هـ (يوافق اليوم الأخير منها 20 يونيو 1243م) على رأس جيش جرار من العرب والأندلسيين والتونسيين، حيث يجعل صاحب البيان المغرب عدد أفراده بين فرسان ونبالين عشرة آلاف[6].

ولتفادي دخول العرب، وكما هي عادتهم، في نزاعات ثنائية، أمر شيخ كل قبيلة أن يضع مخيم قبيلته في مكان منفصل عن مكان غيره، كما أمر كل القوات، ولتفادي تكدسها أمام منابع المياه المحدودة، بأن لا تتحرك في توجهها نحو المغرب الأوسط في يوم واحد[7]. وبعد وصول هذه القوات إلى تلمسان، أمر بتطويقها بالنبالين والذين أطلقوا العنان لنبالهم التي تراشقت عليها دون توقف، في وقت لم يستطع فيه أحد الخروج لرد الهجوم. وقد استمر الحصار ثمانية أيام، لكنه لم يشمل كل المدينة، والدليل أن يغمراسن، وأمام عجزه عن مواجهة عدو يفوقه عدة وعدداً، تمكن من مغادرة تلمسان رفقة عائلته وفصيلة من الفرسان، ثم عاد بعد ذلك، ودون صعوبة، لإخراج إحدى زوجاته كان قد تركها هناك[8].

وقد دخل أبو زكريا تلمسان بعد مغادرتها من طرف يغمراسن، ومنح الأمان لسكانها، غير أنه لم يمكث بها إلا سبعة عشر يوماً، ذلك لأن يغمراسن والذي تحالف بعد تركها مع بني عبد الواد، تمركز

6- نفسه، ص.361.

7- حول حملة أبي زكريا إلى تلمسان، انظر: العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 538. حول نفس الحملة يقول صاحب الذخيرة السنية، إن أبا زكريا كان يرافقه 24 ألف نبال وأنه اقتحم المدينة عبر باب إيلان في نفس اليوم الذي بدأ محاصرتها، وكان ذلك خلال شهر صفر، ويضيف أنه بعد إخضاعها عرض على شيوخ الموحدين، أن يصبح أحدهم عاملاً عليها، لكنهم رفضوا ذلك جميعاً وهو ما أجبره على التفاوض بشأنها مع يغمراسن، حيث تخلى له عنها. م. س.، ص. 61.

8- البيان المغرب، م. س.، ص. 361 .

مع قواته بالجبل المطل عليها، وبدأ يعد العدة لاستعادتها من جديد، وكان مكان تمركزه يسمح له بشن هجوم ناجح عليها، وهو ما وعى به أبو زكريا الذي اقتنع، بعد أن تداول الأمر مع مستشاريه، أن الحل الأمثل يكمن في إقامة السلم مع يغمراسن والتخلي له عن المدينة، وبالتالي ربحه كحليف يمكن الاستفادة منه في قطع الطريق على الموحدين إذا ما حاولوا غزو إفريقية[9].

وبعد إعلان السلم بين الطرفين، عاد أبو زكريا إلى تونس التي استغرق غيابه عنها ثلاثة أشهر، ورغم تخليه عن تلمسان، فإن حملته كانت ناجحة، على اعتبار أنها شجعت سبتة إضافة إلى عدد من مناطق الأندلس على مبايعته[10].

فرار شيوخ الموحدين إلى سجلماسة

في غضون ذلك، أي في سنة 541هـ، أعطى السعيد أدلة أخرى على طبعه الدموي؛ فقبل أن يغادر مراكش على رأس حملته ضد بني مرين، أمر بإعدام السيد عزوز، زوج أخته عزونة، بعدما سلمته هذه الأخيرة، وبكل براءة، ورقة عثرت عليها في بيتها، كانت تتضمن ما يكفي لإدانة زوجها[11]. وأثناء الحملة اعتقل، مباشرة بعد وضعه لمخيمه على وادي تانسيفت، أبا عثمان السعيد بن زكريا الذي أرسله، بعد أن أمر بمصادرة كل أملاكه بالعاصمة، إلى عامل فاس لينفذ فيه حكم الإعدام. هذان الإجراءان ومثلهما، أثارا الرعب في العديد ممن كانوا يحيطون بالخليفة والذين انفضوا من حوله. ومن بين هؤلاء أبو زيد عبد الرحمن بن زكريا الجدميوي، أخو أبي عثمان سالف الذكر، وكان من كبار شيوخ الموحدين، وله درجة وزير، وقد قرر الفرار إلى سجلماسة[12] رفقة ابن واجاج وأبي السعيد العَوْد الرَبَّاط الهنتاتي، وكانت تحرسهم مجموعة من المسيحيين الذين تعاقد معهم أبو زيد، ليضمنوا وصوله ومرافقيه إلى سجلماسة بسلام، لكنهم وأثناء وجودهم في طريق درعة، اعترض سبيلهم عرب بني يغز الذين أخذوا منهم مطاياهم وأسلحتهم بل وجردوهم مما كانوا

9- يشير عبد الرحمن بن خلدون في العبر إلى أن يغمراسن هو الذي بادر بالدخول في مفاوضات مع ابي زكريا من اجل إقرار السلم بينهما، وأنه اعتمد في ذلك على وساطة أمه وكانت تدعى صوت النساء، م. س.، ص 398. أما يحيى بن خلدون فيشير في "تاريخ بني عبد الواد" إلى أن المبادرة لم تأت من يغمراسن، غير أن روايته وكما لاحظ "برونشفيك" Brunschvig تنقصها الموضوعية، فهو كخديم بني عبدالواد كان طبيعياً أن ينحاز إليهم، وبالتالي ينفي أن يغمراسن هو الذي سعى في البداية إلى السلم. انظر: La Bérbérie Orientale sous les Hafsides. Tome I. 31, n° 2.

10- البيان المغرب، م. س.، ص. 362.

11- نفسه. ص. 362.

12- كان قد استقل بها، أخوه عبد الله بن زكريا.

يرتدونه من ملابس، بحيث لم يتركوا لهم إلا ما يسترون به عوراتهم إضافة إلى دابة واحدة، كانوا مجبرين، وللوصول إلى غاية سجلماسة، على التناوب والمسيحيين المكلفين بحراستهم، على امتطائها. ومما زاد في تأزم وضعهم أنهم ضلوا الطريق. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ ففي الوقت الذي أصبحوا في حيرة من أمرهم، خرجت ضدهم مجموعة من عرب معقل. عندئذ أدرك أبو زيد، وكان عارفاً بجشع العرب وفي نفس الوقت بسذاجتهم، أنه لا خلاص لهم من هذه الورطة الجديدة غير استعمال الحيلة، لذا قال لهم مباشرة بعد أن حياهم: «*يا معشر العرب قد بلغتم الأرب، احبسونا في عشرة آلاف دينار نؤديها، وفي أقرب وقت إليكم نعدوها*»[13]. وكان العرب قد عقدوا العزم على قتل مرافقيهم المسيحيين، لكنهم بعدما سمعوا ما اقترحه عليهم بشأن الفدية، نقلوا الجميع إلى خيامهم، حيث عاملوهم معاملة حسنة ومنحوهم مهلة ثلاثة أيام للوفاء بما تعهد به أبو زيد بشأن الفدية، فقال لهم: «*إيتوني بشقف أو عظم فاتوه بكتف بعير*»، كتب عليه إلى أمين بيت مال سجلماسة، اليهودي ابن شلوخة يطلب منه منح حامل الرسالة عشرة آلاف دينار سجلماسي، ووقع الرسالة باسم عبد الرحمن بن زكريا.

وبعد وصول العربي الذي حمل الرسالة إلى سجلماسة سأل عن اليهودي المذكور الذي سلمه الرسالة قائلاً: «*اعطني ما فيها قبل أن تتمها بالقراءة*»، وقد أجابه اليهودي: «*نعم أهلا وسهلا بك يا أخا العرب*»، وطلب منه مرافقته عند عامل سجلماسة ليخبره بالأمر. ولما علم منه العامل بقصة الفدية، أحسن استقباله وأمر له بالطعام، وأرسل اليهودي ليأتيه بالنقود، في حين استمر هو في استجواب العربي حيث عرف منه اسمه وأصله وقيمته بين بني قبيلته، عندئذ قال له إنه لا يمكنه أن يسلم النقود له شخصياً وأن الذي له الحق في استخلاصها هو شيخ العرب شخصياً، وبعثه في طلب شيوخه، وكانت غاية العامل إيقاعهم في شباكه. وعندما وصل العربي عند بني عشيرته أخبرهم بأنهم إذا ما رغبوا في الفدية فعليهم بالذهاب إلى سجلماسة. ولم يتردد هؤلاء في الذهاب عند عبد الرحمن ابن زكريا الذي خاطبهم قائلاً: «*أخذتم إخواننا وأجنادنا وكانوا قاصدين إلينا وافدين علينا، لن تبرحوا من هنا حتى يصلوا إلينا*»[14]. وبهذه الطريقة تم إطلاق سراح أبي زيد ومرافقيه، حيث استقبلوا في

13- البيان المغرب، م. س.، ص. 364.

14- تبين لنا هذه الرواية التي أوردها ابن عذاري، أن هذا الأخير وكلما تعلق الأمر بالأحداث القريبة من زمانه إلا وقدم بصددها تفاصيل وجزئيات، سمح له بها ما كان يعتمد عليه من مصادر مباشرة عايشت الأحداث، وهذا ما سجلناه بالإضافة إلى هذه الرواية مع رواية مقتل مسعود بن حميدان، كما مر بنا، أو مع رواية إطلاق سراح ابن وانودين، كما سنرى. نفسه، ص. 364-365.

سجلماسة بجفاوة. وقد فضل إثر ذلك أبو السعيد الهنتاتي الرحيل إلى تونس حيث أكرم مثواه أميرها، بينما بقي أبو زيد بسجلماسة التي لن يتردد في خيانة عاملها الذي أنقذ حياته، وذلك من أجل التصالح مع الخليفة وكسب رضاه من جديد[15].

خضوع سجلماسة للسعيد

وبسبب انشغاله بالتمرد الذي عرفته سجلماسة والذي كان خطره يتزايد يوماً بعد آخر، قرر الخليفة إيقاف الحملة التي خرج على رأسها شمالاً ضد المرينيين، وعاد إلى مراكش ليأخذ من هناك طريق درعة. وحتى يتمكن من مباغتة أبي عبد الله الهزرجي، أمر مجموعة من الفرسان المشاة أن يسبقوه لمراقبة الطريق ومنع أي كان من التنقل عبرها وذلك حتى لا يصل خبر حملته إلى عدوه، في نفس الوقت، وزيادة في الاحتياط، أمر عبد الله بن وانودين أبناء جلدته من عرب يغز بمراقبة الطريق كذلك، وللمزيد من التمويه، بعث الخليفة إلى شيوخ سجلماسة ظهير تقدير واحترام.

في ظل هذه الأوضاع، ودون تحرج أو تأثم، دبر أبو زيد الجدميوي مؤامرة ضد عامل المدينة، حيث أقنع قواد الحامية المسيحية للمدينة بافتعال تمرد، بدأه هؤلاء بدخولهم القصبة عنوة وهم مسلحون بعد أن أزاحوا عن طريقهم حراسها العرب. وعندما لاحظ العامل ذلك، فهم أن التمرد يستهدفه، وفر من الباب الخلفي للقصبة، والتي احتلها للتو أبو زيد[16] الذي كتب إلى السعيد يخبره أنه أخمد التمرد وأن المتمرد وبعد انكساره غرق في الطين. وقد شكره السعيد على الخدمة التي أسداها له وأغدق عليه الهبات والعطايا، في وقت أُسر فيه المتمرد الذي حمله بعض العرب إلى السعيد مكبلاً بالحديد. ورغم محاولة بعض شيوخ العرب الشفاعة له لدى الخليفة، من خلال تذكيره بوصية المهدي المتعلقة بعدم إراقة دم المنحدرين من أهل العشرة مهما كانت الأسباب[17]، فإن السعيد والذي كان بعيداً كل البعد عن الاقتناع بتلك الوصية، لم يعرهم آذاناً صاغية، وبعد أن أعاب على الأسير تمرده، أمر بقطع رأسه وتعليقها على باب الكحل بمراكش وضَربِ الطبول بالمناسبة.

15- نفسه. ص. 365.

16- نفسه. ص. 365

17- أخبر المهدي أن كل سكان الأرض هم عبيد لأبناء أفراد الجماعة، وهو ما احترمه عبدالمومن الذي رفض معاقبة أحد أسلاف عبدالله الهزرجي هذا (ربما والد جده) رغم انه قتل أحد إخوة الخليفة. انظر:

Op. Cit., Docs Inéd. P.152.

القيام بحملة إلى منطقة الغرب وتوقيع السلم مع المرينيين

وبما أن السعيد حقق الهدف الذي كان يرمي إليه، فقد قرر إيقاف الحملة قبل وصولها إلى سجلماسة، حيث عاد على وجه السرعة، ودخل متخفياً إلى القصر الملكي بعد أن طلب من بقية القوات اللحاق به. حدث ذلك في نفس سنة 642هـ (يوافق اليوم الأول منها 9 يونيو 1244م، واليوم الأخير 28 مايو 1245م)، والتي عرفت وفاة الأمير المريني أبي معرف محمد بن عبد الحق. وخلال تلك السنة كذلك، قرر السعيد الخروج في الحملة التي سبق وأن أجلها إلى منطقة الغرب، وكانت غايته مراقبة أمورها المالية، وفي ذات الحين القتال ضد المرينيين إذا ما اقتضى الأمر ذلك. وقد توقف في رحلته من مراكش إلى فاس بنفس المحطات التي كان يتوقف بها أسلافه. وبعد أن قضى بعض الوقت بهذه الأخيرة، قام خلاله بعزل موظفين وتعيين آخرين، انتقل مع قواته إلى القرمدة التي ضرب مخيمه بضواحيها.

وكان المرينيون ومنذ أن أفشلوا، على عهد الرشيد، كل المحاولات التي قام بها ضدهم ابن وانودين انطلاقاً من منطقة الغرب، قد استقروا بجهة تازة وبدؤوا من هناك بشن هجومات على منطقة مكناس انطلاقاً من زرهون وسلفات، غير أنهم ومع حلول السعيد بالمنطقة، اضطروا للانسحاب إلى جبال ورغة، بعدما أدركوا أنه لا قبل لهم بمواجهة قوات السعيد، وكان قوامها عشرين ألف فارس حسب صاحب روض القرطاس وابن خلدون الذي نقل عنه. وقد بايع بنو أشقر الذين انشقوا عن المرينيين بسبب خصومتهم مع بني حمامة، كما مر بنا، السعيد ومنحوه كعربون على وفائهم أربعين من الرهائن تم إيواؤهم بدار الجوزة في فاس. إثر ذلك جاء عند الخليفة يغمراسن رفقة ألف فارس لتقديم بيعته والتعبير عن رغبته في الدخول في خدمته، وبعد أن أكرم الخليفة مثواه، منحه ألف فارس موحدي وأمره أن يخرج على رأس الألفين في حملة ضد المرينيين من أجل طردهم من منطقة الغرب.

ولما وصل يغمراسن إلى نهر ورغة وجده في حالة فيضان، وهو ما أجبره على الانتظار إلى أن تراجع مياهه، حيث قام بعبوره متعقباً المرينيين في انسحابهم إلى منطقة كرت، غير أنه لم يتمكن أو لم يرغب في الدخول معهم في قتال. وبعد أن عاد إلى فاس اتهم بالخيانة، لذا وخوفاً على حياته غادرها، عبر باب الفتوح، ومعه بنو أشقر. وكان بنو أشقر يريدون وبأي ثمن فدية رهائنهم الذين

سلموهم للسعيد، رغم علمهم بصعوبة ذلك، على اعتبار أنهم نقضوا عهدهم معه. وبعد مغادرتهم لفاس، نزلوا بمنطقة جولان، قبل أن يواصلوا السير إلى غاية نهر سبو الذي وجدوا على ضفته اليمنى أبا يحيى مع أبناء جلدته من المرينيين الذين ضربوا مخيمهم عند صخرة أبي البياس، لكن بدل الانضمام إليهم، انتقلوا إلى القرب من المقرمدة حيث يوجد مخيم السعيد والذي كان قد أرسل من يأمر يغمراسن بالحضور في الحال، غير أن هذا الأخير وخوفاً على حريته بل وعلى حياته رفض الانصياع للأمر، وهو ما حذا بالخليفة الغاضب إلى إرسال القائد المسيحي أبي المسك مع مرتزقته وبعض أفراد الجند النظامي لاستقدامه عنوة. هذا التصرف لم يكن ليرضى عنه بنو أشقر الذين قتلوا مرافقي أبي المسك بينما قاموا باعتقاله هو، ولم يطلقوا سراحه إلا بعد أن أُخلي سبيل رهائنهم الأربعين. في تلك الأثناء (ذي الحجة 642هـ موافق مايو 1245م)، وقع السعيد معاهدة سلمية مع الأمير المريني أبي يحيى، عاد على إثرها إلى مراكش دون أن يدخل في أية مواجهة مع المرينيين، باستثناء مناوشات محدودة الأهمية، يجعل منها صاحب الذخيرة -وكذا صاحب روض القرطاس الذي نقل عنه- معركة دموية دامت اليوم كله، وانتهت بقتل الأمير المريني أبي معرف من طرف قائد مسيحي يدعى "خوان كايطان" Juan Gaitan، وبفرار بقية المرينيين إلى جبل غياثة. غير أن صاحب الذخيرة لا يفتأ يتناقض مع ما أورده هنا، فهو وبعد أن يجعل المواجهة تحدث في ذي الحجة 642هـ، يقول في مكان آخر، إن وفاة أبي معرف حدثت في جمادى الثانية من نفس السنة، أي ستة أشهر قبل التاريخ أعلاه.

أسر ابن وانودين وفراره

ومع رجوع السعيد إلى مراكش، بدأ الذعر يدب من جديد في كبار الموظفين وكان كل منهم يتوقع أن يطاله العقاب، ومن بين الذين تعرضوا له هذه المرة، أبو محمد بن وانودين، وهو من كبار شيوخ الموحدين؛ سبق له أن شغل مناصب رفيعة، وكان له دور أساسي في اعتلاء السعيد العرش. وبعد أن اعتقله، قام بترحيله إلى أزمور رفقة شخصين نافذين آخرين هما أبو زكريا بن محازم وأبو زكريا بن عطوش، وهناك أمر قائد المدينة بالاحتفاظ بهم بعد تكبيلهم بالسلاسل الحديدية التي كانوا يتحركون فيها بصعوبة بسبب ثقلها، كما أمر عشرة من الرجال بحراستهم ومراقبة ما يقولونه ويفعلونه، والحقيقة أن وزراء السعيد أنفسهم لم يعرفوا السبب الذي دفع به لاعتقال الشخصيات الثلاث[18].

18- البيان المغرب، م. س.، ص. 368

ومع قناعته بأن سجنه سينتهي بإعدامه، قرر ابن وانودين القيام بمحاولة فرار إلى المناطق الجبلية، بدأها بصداقة منفعة مع أحد سجانيه يدعى ابن المعلمة والذي ضمن من خلاله صداقة بقية السجانين الذين كسب ثقتهم جميعاً بعد أن أغدق عليهم العطايا. في تلك الأثناء علم أن الشيخ أبا الحسن يعلى قادم إلى أزمور، وبما أنه تخوف أن يكون ذلك من أجل تنفيذ حكم الإعدام أو من أجل نقله من أزمور، قرر تنفيذ خطة الفرار بتواطؤ مع ابن المعلمة الذي توصل منه مقابل ذلك بما قيمته خمسون ديناراً، منح منها هذا الأخير عشرة إلى صديق له، كلفه بالانتظار على ظهر قارب بضفة النهر، وفي نفس الوقت أشاع بين بقية السجانين بأن يعلى قادم لإطلاق سراح ابن وانودين، واستحثهم على طلب البشارة منه، وقد منحهم ابن وانودين جل ما بقي معه من دنانير ووعدهم بامتيازات وهدايا أخرى، إذا ما يسر الله أمره وحصل على حريته، في نفس الوقت شغلهم طيلة اليوم الموعود بالأكل والشرب واللهو.

ولما جن الليل وكان ظلامه حالكاً، وضع ابن المعلمة، وكان مكلفاً بالحراسة تلك الليلة، مزيتة الإنارة وجلباباً شبيهاً بجلبابه في زنزانة ابن وانودين، التي كان يدخلها بين الفينة والأخرى متظاهراً بأنه يقوم بمهمة الحراسة، قبل أن يعود إلى مكان وجود بقية الحراس. ولما نفذ الزيت من المزيتة التي مع الحراس، قال لهم ابن المعلمة «*أنا أسوقه إليكم*»[19] واتجه نحو الزنزانة، حيث ألبس ابن وانودين الجلباب وطلب منه حمل القلة والخروج وكأنه أحد الحراس، وبما أن سظم هؤلاء كانوا نياما، فإنهم لم ينتبهوا له. بعد ذلك غادر ابن المعلمة الزنزانة، حيث عاد إلى رفاقه قائلاً: «*كنت نسيت آنية الزيت فرجعت برسمها ودخلت عليكم وأنتم رقود كلكم فكنت مجريا لكم*»[20]. إثر ذلك تركهم من جديد ولحق بابن وانودين حيث ركبا القارب الذي كان ينتظرهما. ولم يعلم أحد بفرار ابن وانودين إلا صباح اليوم الموالي، عندما خرج ابن عطوش من زنزانته وتوجه إلى زنزانة ابن وانودين التي وجدها فارغة.

وبعد عبوره إلى الضفة الأخرى للنهر، سار ابن وانودين مع مرافقيه على الأقدام، لكن وبسبب عدم قدرته السير دون توقف، كانا يحملانه من حين لآخر على ظهريهما، وبعد مسيرة يوم كامل، وفي ساعة متأخرة من الليل وصلوا إلى دواوير بني سفيان. آنذاك فقط اقتنعوا بأنهم أصبحوا في أمان. ولما طلبوا مقابلة كانون سيد بني سفيان، أجابهم رجاله، ولم يكونوا قد تعرفوا عليهم،

19- نفسه، ص. 460.

20- نفسه، ص. 369.

بأن سيدهم لن يخرج في تلك الساعة ولو كان السائل أعز أصدقائه ابن وانودين. وقد بين لهم السائلون أن الأمر يتعلق بالفعل بهذا الأخير. ولما علم كانون الخبر، خرج لتوه لاستقباله حيث فرح بمقدمه غاية الفرح ومنحه 150 فارساً من صفوة من معه، خرج رفقتهم قاصداً الجبال، لكنه قبل ذلك مر بمراكش التي وصلها ليلاً، حيث اقترب من أحد أبوابها التي طرقها برمحه، وحين اقترب منه حارسها الذي تعرف عليه، صاح فيه قائلاً: « *قل للسلطان ابن العنبر ترى ابن وانودين وصل إلى جبله وفر في أمنع مكان، فيعمل ما شاءه من أعماله*»[21].

ولما وصل إلى الجبال استقر بمنطقة تيفنوت، وكان قد مر بمنطقة لجاغة، كما مر بقبيلة هنتاتة التي أخبر شيوخها بما وقع. ورغم أن السعيد أرسل إليه في تامزاورت، حيث استقر بعد مغادرته تيفنوت، وفداً على رأسه رئيس الطلبة أبو محمد العراقي، يعده بالعفو ويعرض عليه منصباً رفيعاً، فإنه رفض ذلك لأنه كان متيقناً بأن السعيد لن يغفر له صداقته لبني سفيان، وأن مصيره سيكون الموت إذا ما عاد إلى مراكش. ويخبرنا صاحب البيان المغرب أن السعيد كان ينوي بالفعل قتل ابن وانودين، غير أن منجمه أثناه عن ذلك عندما أخبره أن وفاته هو ستحدث مباشرة بعد موت ابن وانودين.

وقد عفا السعيد بعد ذلك على صاحبي سجن ابن وانودين، ابن محازم وابن عطوش لعدم انضمامهما إليه في فراره، بل وعين هذا الأخير من جديد وزيراً له حيث رافقه في حملته ضد المرينيين.

الحملة ضد المرينيين

قرر السعيد وضع حد للهدنة التي تربطه بالمرينيين المستقرين بمنطقة الغرب، والخروج في حملة ضدهم، وهكذا غادر مراكش بعد توزيع "البركة" على الجنود، وكان يرافقه بجانب هؤلاء، عرب بني جابر والخلط والفصيلة المسيحية. وقد ترك نائباً عنه في العاصمة السيد أبا زيد بن إبراهيم، بينما رافقه أخو هذا الأخير المرتضى، الذي سوف يتولى الخلافة من بعده[22]، وكان آنذاك عاملاً على أغمات، كما رافقته حاشيته المكونة من السادة والوزراء وأمناء السر. وكانت الحملة، كعادة تلك التي يقودها خلفاء الموحدين، تتحرك ببطء.

21- نفسه، ص. 369.

22- هو ابن السيد أبي إبراهيم إسحاق بن يوسف بن عبد المومن الذي كان عاملاً على إشبيلية عام 604هـ، ثم عاملاً على غرناطة عام 607هـ، وعلى فاس عام 610هـ.

وقد توجه الجيش إلى تمسنا حيث كان المرينيون متمركزين مع حلفائهم في ضواحي واسنات، وكانت طلائع جيشهم تجوب كل المنطقة في تحريات استكشافية. وعندما أصبح السعيد على مقربة من العدو، أسرع جنوده للتزود بالمياه، غير أن المرينيين اعترضوا طريقهم، وهو ما أدى إلى وقوع قتال بين الطرفين شارك فيه الأمير المريني أبو يحيى الذي رفع علمه في ربوة قريبة من مكان المعركة. ورغم أن الفصيلة المسيحية الموجودة ضمن جيش السعيد حاولت الانقضاض عليه هناك، فإن وعورة المجال وتدخل القوات المرينية، أفشل مهمتها. بل إن الفصيلة فقدت رايتها كما تعرضت لخسائر مهمة في الرجال والعتاد، اضطرتها للاحتماء بمخيم السعيد، الذي وبعدما لاحظ ما يجري، أعطى الإذن لبقية قواته لدخول المعركة، التي استمرت إلى أن حل الظلام، والتي قاتل فيها الطرفان بحيوية واستماتة كبيرتين.

وقد وقع أسيراً بيد الموحدين، عبد مريني عارف بخبايا أمور أسياده، فقرروا في البداية قتله، لكن السعيد فضل بدل ذلك استدعاءه واستجوابه، حيث علم منه أن لقاءً سرياً تم على بعد ميلين من المكان الذي كان به مخيم الموحدين، بين الأمير المريني أبي يحيى وشيخ عرب سفيان أبي حديد كانون، اتفقا فيه على مهاجمة الموحدين من جديد وحددا يوماً لذلك، كما اتفقا أن ينسحب كانون مع قواته بعد الهجوم مباشرة صوب العاصمة ليقوم بمباغتتها، في حين يواصل يحيى القتال.

هذه المعلومات سمحت للسعيد بالاستعداد للمواجهة، وخلال اليوم الموعود، وقبل أن يبدأ المرينيون هجومهم، أمر قواته بمباغتتهم في هجوم كاسح. وبسبب فشلهم في مقاومته، انسحب المرينيون غرباً، وفقاً للخطة التي وضعوها مع كانون، وكانوا واعين بأنهم إذا ما نجحوا في جعل السعيد يلاحقهم فإنهم سيسهلون مهمة كانون في مهاجمة مراكش، وهو ما حدث بالفعل؛ ففي الوقت الذي ابتعد فيه السعيد، في ملاحقته لهم، عن قواعده، قصد كانون مع قواته من بني سفيان مراكش، وهو عاقد العزم أن يفعل فيها ما فعله الخلط على عهد الرشيد.

خيانة عرب بني سفيان ودخول الخليفة إلى مراكش

وبما أن السعيد كان يعلم بالأمر، فقد أمر برفع مخيمه بسرعة وأخذ طريق مراكش، لكن في تلك الأثناء تواردت عليه أخبار أخرى جعلته يغير وجهته صوب دكالة، مفادها أن كانون وأمام استحالة مباغتته العاصمة، أخذ طريق أزمور التي لم تكن تتوفر على حماية جيدة، لأن عاملها أبا عبد الرحمن القاسم بن زكريا الهنائي كان قد غادرها مع أبناء قبيلته نحو تامسنا من أجل تقديم الولاء والهدايا

إلى السعيد. وقد فتح العامل الذي كان ينوب عنه، ويدعى علي بن يزيمر التامردي، أبواب أزمور لكانون، بعدما أُشيع خبر يقول إن السعيد قد قتل في منطقة الغرب، وهو ما شجع الأوباش على إحراق السفن الراسية في الميناء والتي صنعت من الخشب الذي أخذ من أطلال مسجد حسان بالرباط. ولم يكن العرب المرافقون لكانون أقل عنفاً، بحيث إنهم مارسوا كل أنواع الشطط ضد سكان المدينة، خصوصاً اليهود منهم. لكنهم وبعدما علموا بأن السعيد حي يرزق وأنه أخذ طريق العودة إلى عاصمة ملكه، توجهوا إلى جبل الحديد عبر دكالة للاحتماء فيه. وبما أن الخليفة كان يعلم بالوجهة التي نووا الذهاب إليها، فقد أسرع السير وباغتهم وزعيمهم كانون، قبل أن يغادروا أزمور، وانقض عليهم بعنف وهو ما أجبرهم على الفرار مع قائدهم غرباً بحثاً عن حماية المسيحيين.

وقد أرسل السعيد إلى مراكش رؤوس الأعداء الذين تم قتلهم، وأقسم على إبادة أهالي أزمور لتواطئهم مع العدو، غير أن توسل بعض الأشخاص الذين عرفوا باستقامتهم والذين أكدوا له أن سكان المدينة كانوا مغلوبين على أمرهم، وأن كثيرا من الأذى لحقهم من طرف عرب بني سفيان، جعله يصدر عفواً عاماً لم يستثن منه إلا الخائن ابن يزيمر الذي نقل إلى مراكش حيث تم الطواف به في شوارعها، قبل أن ينفذ فيه حكم الإعدام.

تمرد مكناس وخضوعها والتصالح مع عرب بني سفيان

بعد انسحاب المرينيين من واسنات توجهوا نحو مكناس التي تمرد سكانها ضد عامل السعيد وقاموا بقتله. وقد قرر قاضيها وبعض أصحاب القرار بها، وعلى غرار اشبيلية وسبتة وطنجة، مبايعة أمير تونس المنتمي لأسرة الحفصيين وذلك لتفادي انتقام السعيد، في نفس الوقت اتفقوا مع المرينيين ولتفادي اعتداءاتهم دفع جزية سنوية لهم.

وبعد أن وصلت هذه الأخبار السعيد، أخذ طريق مكناس وهو يكاد ينفجر من الغيظ، ولم يخفف من روعه إلا الرسائل التي وصلته من بعض أعيان المدينة وكذا من العامة يعتذرون له فيها ويحملون مسؤولية مبايعة الأمير الحفصي إلى قاضي المدينة. وقد أرسلوا له بعد ذلك عقد بيعة جديدة، مؤرخا في 19 ذي الحجة 643 هـ (7 مايو 1246 م)، حرره ابن عبدون، يعبرون له من خلاله عن خضوعهم.

وليس لنا من أخبار عما قام به السعيد خلال السنتين المواليتين (644هـ و645هـ) غير تصالحه مع أبي حديد كانون وأتباعه من عرب بني سفيان، وذلك بهدف الاستفادة منهم في الحملة التي كان ينوي القيام بها إلى تلمسان، وهو ما دفعه إلى تناسي تمرداتهم السابقة وتجاهل التمرد الذي يمكن أن يقوموا به مستقبلاً.

مخطط السعيد الرامي
لإعادة أمجاد الإمبراطورية الموحدية

وضع السعيد ومنذ توليه الخلافة، مخططاً طموحاً يفوق إمكانياته وقدراته العسكرية، وكان يرمي من خلاله إخضاع المرينيين، وبعد ذلك هزم أمير تونس وإخضاع ولاية إفريقية من جديد للسلطة الموحدية. وقد حاول من أجل ذلك، الاستفادة من السفارة التي وصلته ومعها بعض الهدايا، من صاحب صقلية فريدريك الأول الذي قدم له من خلال السفارة، التعازي في وفاة أخيه. وللوصول إلى ما يطمح إليه، أرسل السعيد بدوره سفارة إلى أمير صقلية، غايتها طلب بعض الدعم للأسطول الذي كان ينوي الخليفة الموحدي، غزو إفريقية بواسطته. والحقيقة أن حلم السعيد بهزم أبي زكريا الحفصي كان أمراً بعيد التحقيق، لأن هذا الأخير كان قد وطد نفوذه بإفريقية بشكل كبير، خصوصاً بعد مبايعته من طرف عدد من أصحاب القرار في الأندلس والمغرب، وكان يعد العدة، وبعد أن خضع له يغمراسن، لإخضاع كل بلاد المغرب لسلطته.

وحتى يُقنع مستشاريه بما رمى إليه، قام الخليفة باستدعائهم وحدثهم عن حالة التمزق التي تعيشها الإمبراطورية؛ فأبو زكريا استقل بإفريقية، ويغمراسن ومعه بنو عبد الواد تمردوا في تلمسان وبايعوا أمير تونس الذي كان يشجعهم على التوجه إلى مراكش لمهاجمتها، ويعدهم بالمساعدة من أجل ذلك، وابن هود استقل بشرق الأندلس وأعلن بيعته للخليفة العباسي، وبنو الأحمر بايعوا أمير تونس، والمرينيون بسطوا نفوذهم شمال المغرب. وقد ختم السعيد كلامه قائلاً بأنهم إذا قبلوا بهذه الوضعية ولم ينشغلوا بها، فإن إمبراطوريتهم سوف تعرف نهايتها لا محالة. ورغم أن مخططه كان محكوما عليه بالفشل، فالسعيد كان عاقداً العزم على تنفيذه، بحيث كان ينوي بعد استعادته لمكناس، إخضاع المرينيين وذلك قبل التوجه إلى تلمسان ومن ثمة إلى إفريقية للقضاء على الحفصيين.

الحملة إلى تلمسان

بدأ السعيد يستعد لهذه الحملة منذ اعتلائه عرش الخلافة، وفي فاتح ذي الحجة سنة 645هـ (28 مارس 1248م) غادر مراكش حيث ضرب مخيمه أولاً في تانسيفت التي التحق به فيها كانون مع أتباعه من عرب بني سفيان[23]. وكان منجمه قد حذره من القيام بالحملة لأنها سوف تكون

23- إن الثقة العمياء التي وضعها السعيد في كانون أمر يثير الاستغراب، فبعد كل ما قام به ضده نجده يتصالح معه ويضمه وأتباعه من العرب إلى القوات التي خرج بها في حملته الخطيرة تلك، دون أن يضع في عين الاعتبار امكانية خيانة كانون له من جديد. وبسبب لون بشرتهما الذي يميل إلى السواد، كان يطلق على السعيد وكانون استهزاءً اسم الأشقرين.

سبباً في إراقة دم كثير. وبما أن عيد الأضحى صادفه وهو في تانسيفت، حيث تم نحر العديد من الأكباش، فقد اعتبر أن الدم الذي تحدث عنه المنجم يقصد به دم الأضحية.

وفي 15 من ذي الحجة (11 أبريل) غادر تانسيفت صوب تازة، حيث قبل بتوقيع معاهدة سلم مع الأمير المريني أبي يحيى، بعد أن قبل هذا الأخير بشروطه والمتمثلة في المساهمة في الحملة بفصيلة عسكرية من بني أشقر، وفي تركه لبعض أتباعه كرهائن في تازة، وذلك لضمان عدم قيام المرينيين بمهاجمة القوات الموحدية من الخلف أثناء توجهها نحو تلمسان.

وقبل وصوله إلى هذه الأخيرة، أرسل من يأمر يغمراسن بالحضور والانضمام إليه، وكان رد هذا الأخير أنه يعد نفسه من رعاياه وتحت سلطته، لكنه لن يستطيع الانضمام إليه بسبب وجود المرينيين وهم أعداؤه ضمن جيشه، وأن كل ما في وسعه القيام به، هو إرسال فصيلة مهمة من بني عبد الواد للانضمام إلى الجيش الموحدي.

وقد رد عليه السعيد غاضباً بأنه إذا لم يحضر عنده شخصياً، فإنه سيقوم بمحاصرته في تلمسان[24]، وهو ما حدث بالفعل، الشيء الذي أجبر يغمراسن وقواته وعائلته على الالتجاء إلى منطقة تامجردت[25] الواقعة بين الجبال، ومن هناك أرسل من جديد بمبعوثيه إلى السعيد، يعرض عليه المصالحة والسلم، غير أن الخليفة وبطبعه الغضوب، رفض العرض رفضاً قاطعاً، وقرر ملاحقته داخل الجبال، دون أن يبالي بصعوبة ولا بخطورة ذلك، وكان بنو عبد الواد قد تمركزوا في جميع المنافذ المؤدية إلى تامجردت. ومما زاد الطين بلة، رفض شيوخ الخلط ومعهم حوالي ألف فارس مرافقة السعيد في صعوده المتهور إلى تلك المنطقة الوعرة.

هزيمة السعيد ومقتله

وبعدما شاهد من يرافقه وعلى رأسهم وزيره ابن عطوش تلك الفجاج الضيقة، نصحوه بالانسحاب، غير أنه لم يعر كلامهم اهتماماً، وقال لوزيره مستهزئا وهو يسرع السير، ادخل هنا إذا كنت خائفاً، وأشار إلى كم قميصه، وقد أحس الوزير أنه جرح في كرامته، لذا سل سيفه من غمده وتقدم هو الأول صوب العدو، يتبعه السعيد على ظهر بغلته ولم يكن أقل غضباً، وكان

24- كان كانون أول من نصح السعيد بعدم قبول عذر يغمراسن وبإلزامه بالحضور شخصياً. العبر، الجزء السادس، م. س، ص. 538-540.

25- يسميها صاحب البيان المغرب تامجردت؛ وروض القرطاس تامزدكت وابن خلدون تامجزدت، وهي منطقة توجد بين الجبال مما يجعلها ملجأ منيعاً، ويشير "بيل" إلى أنه لم يتم التعرف على مكانها بالضبط.

بسبقه الباشا منصور. إثرها، وبعد أن توغل الموحدون في تلك المسالك الوعرة، هاجمتهم قوات بنمراسن التي نجحت في هزمهم[26]، حيث سقط قتيلاً الوزير ابن عطوش والجندي المكلف بحمل الراية، قبل أن يلقى السعيد نفس المصير[27]. حدث ذلك يوم الثلاثاء متم صفر عام 646هـ (موافق 23 يونيو 1248م)، ولم يكن الخليفة قد تجاوز الثلاثين عاماً، حكم منها خمسة أعوام وثمانية أشهر وواحدا وعشرين يوماً. وقد تفكك إثر ذلك جيشه الذي لاذ أفراده بالفرار، في وقت قام فيه الخلط وبنو أشقر بنهب كل المخيم قبل أن يتمكن بنو عبد الواد من الوصول إليه. ومن غير المستبعد، أن يكون بنو عبد الواد هم الذين سمحوا للخلط وبني أشقر بنهب المخيم، لأنهم كانوا قد وعدوهم بذلك إذا ما رفضوا القتال إلى جانب السعيد.

لقد ورث السعيد عن والده صفات مثل العزم والصرامة والطبع العنيف، أما صفاته الأخرى مثل قصر النظر والسذاجة فقد ورثهما لا محالة عن أمه المنتمية للجنس الأسود، وهذا ما تجلى في نسيانه لخيانة الخلط والأعمال الدموية التي قاموا بها على عهد أخيه الرشيد، وعفا عنهم بسهولة بل وأدخلهم في خدمته. في المقابل استغنى عن عرب سفيان الذين كان لهم -بمعية المرتزقة المسيحيين- دور أساسي في الحفاظ على عرش الرشيد، كما لاحق وبكل عنف الشيخ ابن وانودين الهنتاتي، وهو صاحب الفضل الأول في توليه الخلافة. تجلى قصر نظره كذلك في تبنيه للفكرة الخرقاء المتمثلة في إعادة وحدة الإمبراطورية الموحدية، في وقت لم يكن يتوفر فيه على الإمكانيات المادية التي تسمح بتحقيق ذلك، وكذا في تحويله إلى عدو الرجل الوحيد الذي كان بإمكانه أن يعتمد على مساعدته وهو يغمراسن، بحكم اشتراكهما في نقطة بعينها هي مناصبة العداء لبني مرين والحفصيين.

وبسبب استهانته بكل قوانين الحرب، واعتقاده وبسذاجة أن الخلط وسفيان والمرينيين وبحكم العداء القائم بينهم، واستعدادهم الدائم للخيانة والغدر، سوف يقومون جميعاً بمساعدته. وبسبب

26- يورد ابن خلدون رواية شبيهة بتلك التي أوردها صاحب البيان المغرب بشأن الكيفية التي انهزم بها السعيد، لكنه قبل ذلك يأخذ بالرواية البعيدة عن الحقيقة التي أوردها صاحب روض القرطاس والتي تقول إن الخليفة وضع مخيمه أمام قلعة تامجردت، وأنه لم يغادر المخيم إلا في اليوم الرابع حيث امتطى صهوة جواده وسار لمدة نصف يوم، غايته في ذلك مراقبة القدرات الدفاعية للقلعة، وكان الناس ينامون القيلولة. في تلك الأثناء باغته اثنان من حرس القلعة من بني عبد الواد حيث قتلاه ووزيره، إثر ذلك حضر يغمراسن مسرعاً ليعتذر للخليفة المحتضر.

27- يوم واحد قبل ذلك قُتل جرمون بن سفيان، حيث خلفه في مهمة قيادة عرب سفيان أخوه يعقوب بن جرمون. البيان المغرب، م. س.، ص. 386-387.

ثقته الزائدة في شجاعته الشخصية، والتي بلغت إلى درجة التهور، سقط في النهاية دون أن يحقق أي مجد، بل وكان هذا السقوط وبالطريقة التي تم بها، سبباً في انهيار معنويات قواته التي تفرقت، تاركة الفرصة بذلك للخلط أولاً ثم للمرينيين بعد ذلك لينهبوها، وكان المرينيون قد فضلوا، وبتخطيط مدروس، عدم الدخول معه في أي مواجهة حربية.

من جهة أخرى، وفي الوقت الذي كان يتطلع فيه لإعادة أمجاد الإمبراطورية ووحدتها، حيث نصص كل طاقته وموارده للإعداد للحملة على تلمسان وتونس، ضيع الموحدون وبطريقة لا تغتفر اشبيلية؛ فأثناء الحصار الطويل الذي فرضه عليها فرناندو الثالث والذي دام سبعة عشر شهراً، كاتبه أهل اشبيلية يستعطفونه استعطاف اليائس، من أجل مساعدتهم والقيام بواجب الجهاد، غير أنه وبسبب انهماكه في خططه العمياء لم يعر توسلاتهم أدنى اهتمام.

ويقول صاحب الذخيرة بشأن تقديم المساعدة للاشبيليين[28]، إن أبا يوسف يعقوب الذي سيتولى فيما بعد إمارة المرينيين، كان ينوي نجدتهم وفك الحصار عن مدينتهم، لكن أخاه أبا يحيى الذي كان يتولى آنذاك إمارة بني مرين، كتب إلى سيد سبتة أبي علي بن خلاص يطلب منه الحيلولة دون ذلك، ومع هذا فقد انتقل أبو يوسف إلى سبتة، غير أن ولياً صالحاً كان يقيم بها، يدعى أبا عبد الرحمن يعقوب، أقنعه بإرجاء فكرة العبور إلى الأندلس للجهاد إلى أن يستولي على كل بلاد المغرب ويدخل مراكش. ويظهر أن صاحب الذخيرة أراد بهذه الحكاية أن يضفي طابع القدسية على جهاد أبي يوسف في الأندلس، ذلك لأنه سيقوم به بعد سقوط دولة الموحدين[29].

28- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 67.

29- يقول مؤلف البيان المغرب عند حديثه عن استيلاء فرناندو الثالث على اشبيلية، إن المسيحيين وضعوا مخيمهم قبالتها في جمادى الأولى من سنة 645هـ /سبتمبر 1247م، وإن الحصار دام سنة وخمسة أشهر، وأن المنازل خلت من المؤونة، باستثناء بعض منازل الأغنياء مثل منزل الفقيه القاضي ابن منظور، وكان من ضمن الذين يستحثون الناس على المقاومة ويطلب منهم أن يصوبوا سهامهم ضد العدو ليجبروه على الانسحاب. غير أن الاشبيليين لم يعد بإمكانهم المقاومة بعدما طال الحصار ونفدت المؤن في وقت لم تصلهم المساعدة من بقية مناطق الأندلس، وهكذا أكلت العامة الجلود في غياب القمح والشعير، وكتبوا إلى أمير المؤمنين السعيد وإلى كل المسلمين في الضفة الأخرى للمضيق رسالة توسل ينشق لها الحجر، غير أن لا أحد بالى بها، وخصوصاً السعيد الذي لم تثنه عن مخططه الرامي للقيام بحملة ضد تلمسان وإفريقية والتي لم يحقق من ورائها ما كان يطمح إليه. وقد نظم الشاعر أبو موسى هارون بن هارون قصيدة طويلة يصف فيها حالة الألم والبؤس اللذين عانى منهما الاشبيليون بسبب الحصار، ويورد ابن عذاري ستين بيتاً منها، بينما يورد صاحب الذخيرة واحدا وثلاثين بيتاً من قصيدة أخرى نظمها ابن سهل، وفيها يستنجد بمن يوجد في الضفة الأخرى للمضيق من مقاتلين، وخصوصاً بأمرائهم.

الفصل الحادي عشر

أبو حفص عمر المرتضى بن إسحاق ابن يوسف بن عبد المومن

كان السعيد قد عينه عاملاً على سلا عندما خرج في حملته ضد تلمسان، كما عين أخاه أبا زيد بن إسحاق نائباً عنه في مراكش. وبما أن خبر مقتل الخليفة فاجأ مرة أخرى شيوخ الموحدين الذين تخلفوا بمراكش، كما فاجأهم بعد ذلك مباشرة خبر مقتل ابنه البكر وولي عهده عبد الله وكان لا يزال طفلاً -قتله المرينيون أثناء ملاحقتهم ونهبهم للجيش الموحدي عقب مقتل السعيد-، فإنهم لم يعينوا مرشحاً آخر، وإن كانوا متفقين على ضرورة بقاء العرش داخل نسل عبد المومن. وبعد أن جمعهم عامل العاصمة من أجل اختيار الخليفة الجديد[1]، اقترح بعضهم العامل نفسه، وكان من السهل عليه الاستئثار بالخلافة، بحكم أن قوات الجيش كانت بجانبه، لكنه رفض قبول المنصب الخطير (لا نعرف سبب الرفض)، عند ذلك بدأ تداول أسماء مرشحين آخرين من نسل عبد المومن وكان عدد منهم حاضراً، وبسبب عدم تحقيق الإجماع، قام أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجنفيسي واقترح للمنصب أبا حفص عمر المرتضى عامل سلا، لما كان يتمتع به من حسن الخصال مثل الذكاء والرحمة والتواضع. وقد تم قبول الاقتراح بالتهليل، وبما أنه كان غائباً، فقد تسلم عقد البيعة الذي حرر في حينه، نيابة عنه أخوه أبو زيد.

1- تم ذلك في مسجد المنصور يوم 13 ربيع الأول سنة 646هـ، حسب روض القرطاس، والذي بإعطائه لهذا التاريخ يصحح الخطأ الذي وقع فيه ابن رشيق عندما يرى أن الاجتماع تم في فاتح ربيع الأول، أي يوم واحد بعد مقتل السعيد بتامجردت. في نفس الوقت يتفق مع ابن خلدون الذي يقول إن اختيار الخليفة الجديد تم بعد وصول الفارين من الجيش الموحدي إلى مراكش. العبر، الجزء السادس، م. س.، ص.542.

ولم يكن هناك من عارض البيعة غير الشيخ عبد الله بن يونس الذي وضع كشرط لقبوله بالخليفة الجديد، عدم قيام هذا الأخير باستوزار أخيه أبي إسحاق الذي كان قد رافق السعيد في حملته ضد تلمسان، والذي قصد بعد نجاته، سجلماسة وليس مراكش، وهو ما سمح له بعدم السقوط في يد المرينيين[2].

وقد كُلف القاضي ابن سلامة بنقل عقد البيعة إلى سلا حيث يوجد الخليفة المعين، لكن قبل وصولها، وأثناء مروره بتامسنا، التقى بهذا الأخير الذي كان يقصد مراكش، وهناك، وبمجرد لقائهما، تمت مراسيم البيعة داخل خيمة ضربت في أحد الحقول. وأثناء مواصلته السير نحو العاصمة، خرج لاستقبال الخليفة الجديد، عبد الله بن يونس. وبما أن الخليفة المعين، لم يكن يعلم بأن مبايعته مقيدة بشروط تتعلق بمن سيستوزرهم، وضعها عبد الله هذا، فقد عينه وزيراً له، كما عين على رأس عرب بني جابر كانون بن يعقوب، في حين زكى يعقوب بن جرمون في منصبه على رأس عرب بني سفيان.

وقد وصل إلى مراكش دون أي موكب رسمي، وأقام في "بحيرة" (بستان) كان يمتلكها، إلى أن تم استقباله من طرف سلطات المدينة، آنذاك دخل قصره وهو محاط بهيئة الخلافة. وكان أول إجراء قام به إثر ذلك هو اعتقال عدد من الذين تمت الوشاية بهم، وكان على رأسهم حاجب السعيد القاضي أبو المسك وأحد أفراد خاصته ويدعى أبا زيد بن البقاء، إضافة إلى أخت السعيد الأميرة عزونة التي صادر بعد سجنها الثروة المهمة التي كانت تمتلكها. بعد ذلك عين أخاه أبا إسحاق القادم من سجلماسة وزيراً أعظم دون أن يبالي بمعارضة ابن يونس.

استيلاء المرينيين على تازة وفاس

وبعد ثمانية أيام من مقتل السعيد، وفي الوقت الذي استقر فيه المرتضى بمراكش وأخذ بزمام الحكم، دخل المرينيون تازة وهي أول مدينة مهمة تسقط بيدهم[3]. وكان السعيد قد ترك بها إثر

2- البيان المغرب، م. س.، ص.388.

3- يقول صاحب الذخيرة السنية إنهم توجهوا أولاً إلى مكناس التي استولوا عليها، وإنهم بعد بضعة أيام من ذلك قصدوا تازة. غير أننا نعتقد أن هذه الرواية خاطئة لأن مدة ثمانية أيام لم تكن كافية ليعلم المرينيون بمقتل السعيد وللالتقاء بفصيلة من بني أشقر والانتقال إثر ذلك من شمال تازة حيث يوجدون إلى جرسيف ليقطعوا الطريق على الموحدين الفارين من منطقة تلمسان ونهب أمتعتهم، ثم الذهاب إلى مكناس في الشمال الغربي والمكوث فيها لبضعة أيام، فالذهاب إلى تازة والتفاوض بشأن خضوعها لهم. مقابل ذلك نعتقد أن صاحب البيان المغرب على صواب في تأكيده أن تازة كانت المدينة الأولى في المغرب التي خضعت لسلطة المرينيين، م. س.، ص. 72.

استقباله لقوات بني أشقر وخروجه ضد يغمراسن، الرهائن الذين سلمهم له الأمير أبو يحيى كمربون على وفائه. ويعود سبب قيام المرينيين بالتوجه إلى تازة مباشرة بعد انضمام بني أشقر إليهم، وبعد نهبهم للفارين من قوات السعيد، إلى تخوفهم من أن يسبقهم إليها بنو عبد الواد. وعند دخولها، أرغموا عاملها السيد أبا دبوس بإطلاق سراح الرهائن وفي نفس الوقت بالتنازل عن المدينة. وبحكم أن الموحدين الموجودين بها، كانوا في وضعية لا تسمح لهم برفض شروط المرينيين، فإن الحل الوحيد الذي بقي أمامهم هو تكليف الولي الصالح أبي علي سليمان بالتفاوض مع هؤلاء على شروط الاستسلام، حيث نجح في إقناعهم بترك عامل المدينة وعائلته بمغادرتها[4].

وبعد عشرة أيام من استيلائه على تازة، ذهب الأمير أبو يحيى إلى جرسيف التي استولى عليها وعلى كل قلاع ملوية، وذلك قبل أن يقصد فاس حيث دخل في مفاوضات مع القائمين عليها الذين خرجوا لبيعته بالرباط الواقع في ضواحي باب الشريعة، وكان ذلك في منتصف يوم الخميس 26 ربيع الثاني عام 646هـ (18 غشت 1248م)، أي بعد شهر وثمانية أيام من دخوله تازة، وبعد شهرين من مقتل السعيد. وهنا كذلك أعطى الأمان لعامل المدينة الذي سمح له بمغادرتها، وجعل معه حامية من خمسين فارساً رافقته إلى غاية أم الربيع.

تمرد فاس على سلطة المرينيين

وقد بقي الأمير المريني بفاس سنة كاملة[5]، حيث غادرها في ربيع الأول 647هـ (يوافق اليوم الأول منه 24 مايو واليوم الأخير 22 يونيو 1249م)، قاصداً المنجم المعروف باسم عوام، والواقع بمنطقة فزاز، وذلك بهدف إخضاعه لسلطته وأخذ المغارم من القبائل المجاورة له[6]. وقد ترك نائباً عنه في فاس أحد مواليه ويدعى السعود بن خرباش الهاشمي[7]. في تلك الأثناء اقترحت مجموعة من الشيوخ الفاسيين على القاضي أبي عبد الرحمن الموجلي التمرد على الأمير يحيى وقتل مولاه السعود وطرد الحامية المرينية من المدينة ومبايعة المرتضى والذي كان حسبهم أحق

4- بعد أن منحه الأمير أبو يحيى الأمان، أمر حامية من خمسين فارسا بمرافقته وحاشيته إلى غاية نهر أم الربيع. نفسه، ص. 72.

5- خلال شتاء تلك السنة وبالضبط في 27 رمضان (13 يناير 1249م) استسلمت اشبيلية لمحاصريها بعد أن فقدت كل أمل في تلقيها النجدة، ذلك لأن توسلات سكانها لم تجد آذاناً صاغية، سواء من طرف أبي يحيى الموجود في فاس أو من طرف المرتضى الموجود في مراكش.

6- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 74.

7- يسميه ابن عذاري، المسعود بن خربش الحشمي، البيان المغرب، م. س.، ص. 391.

بالطاعة. ورغم أن القاضي حاول أن يثنيهم عما عقدوا العزم عليه، وبين لهم النتائج الوخيمة التي يمكن أن تترتب عن ذلك، فإنهم اتفقوا على تنفيذ خطتهم مع قائدي الفصيلة المسيحية[8] التي سبق وعملت بجيش السعيد، والمكونة من مائتي فارس. هذه الفصيلة كانت قد تخلفت في فاس لحراستها، وقد قاتلت المرينيين عندما جاؤوا لاحتلالها، لكن يحيى أرغمها على الخضوع وضمها إلى جيشه النظامي. وبما أن عناصرها بقوا أوفياء للموحدين، فإنهم لم يترددوا في قتل السعود، حيث قاموا بذلك في صبيحة يوم الثلاثاء 20 شوال 647هـ (14 ديسمبر 1249م). مباشرة بعدها بدأ الشيوخ الفاسيون في نهب القصر الملكي، كما بايعوا المرتضى الذي وعدهم بالمساعدة والتي لم تصل أبداً. ولما علم يحيى بما جرى، عاد مسرعاً إلى فاس وقام بمحاصرتها.

وقد حاول يغمراسن استغلال هذا الوضع المضطرب لاحتلال تازة، لكن يحيى وحتى يحول دون ذلك، ترك فصيلة من 500 فارس لمواصلة الحصار الذي ضربه على فاس، وتوجه إلى تازة التي توقف بها ثلاثة أيام، قبل أن يغادرها مقتفياً أثر يغمراسن الذي أدركه قرب وجدة في أخر يوم من سنة 647هـ (4 أبريل 1250م)، حيث هزمه هزيمة نكراء في مواجهة تعد الأولى من نوعها بين المرينيين وبني عبد الواد. وقد عاد يحيى إثر ذلك إلى فاس لمواصلة حصارها، وحتى يحول دون وصول المياه إلى المحاصَرين، غير مجرى النهر الذي يعبر المدينة، في نفس الوقت جند عددا من سكان القبائل المجاورة لمكناس، للمشاركة في الحصار.

وفي 20 جمادى الثانية 648هـ (19 سبتمبر 1250م)، وبعد ثمانية أشهر من بداية الحصار، ومع فقدان المحاصَرين للأمل في تلقي المساعدة من الموحدين، اضطروا للاستسلام. وقد أجبرهم أبو يحيى على إرجاع كل ما نهبوه إضافة إلى غرامة مالية قيمتها 100 ألف دينار، حسب صاحب روض القرطاس و 300 ألف حسب مؤلف البيان المغرب. وحتى يضمن الحصول على الغرامة المذكورة، اعتقل بدار الجوزاء كبار شيوخ وأعيان المدينة، والذين نفذ حكم الإعدام، يوم 2 رجب (فاتح أكتوبر)، في ستة منهم، تبين له أنهم الأكثر تورطاً في المؤامرة التي استهدفت المرينيين. وقد أخضع هذه المرة فاس لسلطته بشكل نهائي[9].

8- هما الشديد و زونار، ولا يذكر ابن خلدون وصاحب البيان المغرب إلا أولهما. أما الثاني، فقد ورد ذكره في بعض المصادر العربية عند حديثها عن الحصار الذي سيفرض على مراكش فيما بعد، حيث سينضم إلى القوات الموجودة مع أبي عبدوس.

9- الذخيرة السنية، م. س.، ص.78.

العلاقات الدبلوماسية بين المرتضى والبابا

قضى المرتضى السنتين الأوليين من اعتلائه العرش دون أن يحرك ساكناً، ودون أن يبالي بتوسلات أهل فاس المحاصَرين من طرف المرينيين. وفي 18 ربيع الأول 648هـ (10 يونيو 1250م) بعث إلى "إينوصان" الرابع برسالة كلف بنقلها الراهب الفرنسيسكاني "لوبي فرنانذث دي أيين" Lope Fernandez de Ayn المقيم بمراكش، والذي سبق وعينه إينوصان الرابع مطراناً لها عام 1246م (السنة الرابعة من حكم السعيد بن المأمون)، بعدما علمه عن المعاملة الحسنة التي أصبح يحظى بها المسيحيون من طرف المأمون ثم من طرف خلفائه. وكان المطران المذكور وقت حلوله بمراكش لأول مرة، يحمل رسالة من البابا إلى السعيد، يقدمه من خلالها وفي نفس الوقت يهنئ الخليفة بانتصاريه، في سجلماسة حيث قضى على التمرد الذي قام هناك، وفي منطقة الغرب حيث أوقف زحف المرينيين واستعاد مكناس. ولم يفت الرسالة التذكير بالدور الفعال الذي لعبته الميليشيات المسيحية في تحقيق الانتصارين. وبما أن الخليفة رحب بالمبعوث البابوي وعبر عن استعداده لاستقبال المزيد من المسيحيين وتحسين ظروف ممارستهم لشعائرهم الدينية، فقد طمع البابا فيما هو أكبر، وطلب من السعيد أن يُقدم على الخطوة الموالية والمتمثلة في اعتناقه المسيحية، وبين له أنه وبفضل ذلك سينال عناية الرب والكرسي الرسولي. في نفس الوقت، وحتى تكون مساهمة المسيحيين الذين يعملون لحسابه أكثر فاعلية، ويتفادى بواسطتهم وقوع مآس مثل التي كان وراءها يحيى بن الناصر عندما حاول استعادة مراكش، اقترح عليه أن يسلمهم بعض الحصون، التي تبقى من الناحية الاسمية تحت سلطته، وكذا بعض الموانئ والتي يمكنهم الالتجاء إليها عند الضرورة، ولم يفته في النهاية أن يطلب منه الإصغاء إلى النصائح التي يوجهها له المطران "لوبي" ويعتبرها وكأنها صادرة عنه شخصياً، خصوصاً وأن تلك النصائح ستضمن له سعادة الروح وخلاصها.

ومع قناعة البابا بنجاح مبادرته الدبلوماسية هذه، كتب إلى مسيحيي مراكش وغيرهم من المسيحيين المقيمين بإفريقيا يخبرهم بتعيين الراهب "لوبي" مطراناً للمدينة، في نفس الوقت كتب إلى أمراء تونس وبجاية وسبتة يطلب منهم أن يقدموا له المساعدة ويسهلوا اتصاله بالمسيحيين المقيمين على أراضيهم، هذا بجانب كتابته إلى ملوك أراغون ونبرة وقشتالة والبرتغال، وإلى السلطات المدنية والكنسية الموجودة بالمدن الساحلية من شبه الجزيرة الإيبيرية، وإلى السلطات الكنسية للمناطق التي يمر منها المطران، وإلى مطراني "جنوة"

و"مرسيليا"، وإلى المجالس الدينية لـ"نربونة" و"طرغونة" و"أبورتو" و"لشبونة"، وإلى أساقفة "برشلونة" و"بلنسية" و"ميورقة" و"بيونة"، وإلى المجالس البلدية لمدن "سان سيباستيان" و"كاسترو" و"لاريدو" و"أورديايس" و"سانتاندير" وغير هؤلاء مِمن لهم علاقة من قريب أو بعيد بالرهبانية الفرنسسكانية التي ينتمي إليها المطران "لوبي".

إن هذه الإجراءات التي قام بها البابا "إينوصان" الرابع، تبين الأمل الذي كان يعقده على بعثة المطران "لوبي" من أجل نشر المسيحية ببلاد المغرب، بل ومن أجل إقناع الخليفة السعيد باعتناقها. لكن الواقع كان بعيداً عن كل ذلك، فمساعي البابا وكما كان منتظراً لم تكن لتحقق شيئاً، ليس فقط بسبب وفاة السعيد المفاجئة، وإنما لأن اهتمام هذا الأخير بالمسيحية كان له هدف واحد، هو الاستفادة من المليشيات المسيحية التي كان يسعى أن يحقق بواسطتها أحلامه الخيالية المتمثلة في إعادة بناء الإمبراطورية الموحدية بعد إخضاع الأمير المريني واستعادة إفريقية.

وإذا كانت الرسائل البابوية وعملية التبشير التي قام بها المطران "لوبي" لم تجد آذاناً صاغية على عهد السعيد، فما بالك على عهد خلفه المرتضى، وهذا ما نستشفه من رسالة مؤرخة في 10 يونيو 1250م، وجهها هذا الأخير للبابا، وكلف بنقلها المطران "لوبي" إثر عودته إلى روما، وفيها يعبر وبعد حديثه المفصل عن عقيدة التوحيد، عن استهجانه بتسليم المسيحية بما يسمى بالثالوث المقدس، ويعبر عن تحفظه في تقوية العلاقات مع الكرسي الرسولي (الفاتيكان)، وبالتالي لا يقدم أي مقترح في هذا الاتجاه، كما لا يشير لا من قريب ولا من بعيد لما اقترحه البابا سنتين إلى الوراء على سلفه السعيد. ومع ذلك لم تخل الرسالة من لغة دبلوماسية، بحيث يؤكد الخليفة فيها أنه يكن كل احترام وتقدير للمقام البابوي، وأنه بسبب ذلك حرس على تلبية ما جاء في رسائله، وعلى معاملة مبعوثه المطران "لوبي" بكل أريحية. وفي الختام يعبر عن استعداده ليستقبل وبكل ود الشخص الذي يختاره البابا ليحل محل المطران المذكور[10].

والظاهر أن هذه الرسالة خيبت أمل "إينوصان"، خصوصاً مع ما أكده له المطران "لوبي" من استحالة تحقيق أي تقدم في عملية التبشير مع وجود المرتضى في الحكم. وقد بعث البابا

10- نشر كل من "تيسران" Tesserant و"ويث" Wiet مقالاً في مجلة هسبيريس (عدد 1926، ص. 27-53) قاما فيه بترجمة رسالة المرتضى والتعليق عليها، وقد ضمنا المقال كل الوثائق البابوية التي لها علاقة بها وبمساعي الراهب "لوبي". ومما يؤاخذ على المقال، عدم تمييزه بين هذه الرسالة وبين تلك التي بعث بها البابا إلى السعيد، وبتسليمه بما جاء عند صاحب روض القرطاس بخصوص الكيفية التي عامل بها المأمون المسيحيين، وبخصوص إهانة يحيى بن الناصر لهؤلاء.

برسالة جوابية إلى الخليفة مؤرخة في 17 مارس 1251م، يحذره من خلالها من مغبة عدم منح حصون للمسيحيين الذين يعملون لحسابه للاحتماء بها عند الضرورة، ويخبره بأنه وفي حالة عدم القيام بذلك، سيمنع مسيحيين آخرين من الرحيل إلى المغرب، كما سيعطي تعليماته للمطران "لوبي" الذي كان ينوي إرساله من جديد إليه (يظهر أنه لم يصل المغرب أبداً وأنه استقر باشبيلية)، ليأمر من يوجد به بمغادرته. و الواقع أن قرار البابا منع وصول قوات مسيحية جديدة للعمل في جيش الخليفة، كانت له انعكاسات سلبية على هذا الأخير، حيث ساهم في الهزائم المتكررة والمخجلة التي مني بها.

تمرد أبي القاسم العزفي في سبتة

وفي الوقت الذي كان فيه الأمير المريني يمد سلطته نحو شمال المغرب، خضعت سبتة (ومنذ وفاة المأمون) لسلطة أكثر من شخص واحد، قبل أن تعلن تبعيتها لأمير تونس أبي زكريا الذي عين عليها كأمير للبحر أبا يحيى بن زكريا (ابن عم أبي يحيى الحفصي الذي قتل في معركة الأرك)، وكجابي للضرائب أبا عمر بن أبي خالد الإشبيلي. لكن وفاة أبي زكريا وتجاوزات رجليه، ثم وصول المدعو الشقاف -سبق أن تفاوض والرايس شعيب بشأن تسليم اشبيلية لفرناندو الثالث في ديسمبر 1249م- مع رجاله وضربهم لمخيمهم بسهل المدينة، دفع بالفقيه أبي القاسم العزفي للتمرد بعد أن تلقى دعم قائد البحر المدعو الرنداحي[11]، والذي تولى تسديد الضربة اللازمة، حيث أعد وليمة لمجموعة من البحارة وفر لهم فيها ما استطابوه وأثخنوا فيه من أكل وشرب. في تلك الأثناء، أرسل من يثق فيهم لقتل الشقاف ومرافقيه من القواد والجنود الأندلسيين، في حين ذهب هو ليخبر الفقيه العزفي بما قام به. وقد اضطرب هذا الأخير لسماعه الخبر وبدأ يرتعد خوفاً، بينما عاد الرنداحي إلى بيته، حيث جمع البحارة السكارى والذين هاجم بواسطتهم قصبة المدينة. وقد قتل في الهجوم أبو عمر بن أبي خالد، أما أبو يحيى بن زكريا فقد وضع على ظهر قارب ونفي إلى الأندلس، والتي غادرها بعد ذلك نحو تونس. وكان تاريخ التمرد هو 27 رمضان 647هـ الموافق 3 يناير 1250م.

حملة أمان يملولن [12]

وفي سنة 649هـ (1251م)، وبعد أن بسط يحيى نفوذه بكل المنطقة الممتدة بين فزاز والرباط، طلب من سكان سلا أن يعلنوا خضوعهم له ويسلموه مدينتهم. ولما علم المرتضى بالخبر، وكانت قد

11- البيان المغرب، م. س.، ص. 397.

12- مان ملولين عند صاحب الذخيرة، م. س.، ص. 80؛ ،امن ملولنين عند صاحب البيان، م. س.، ص. 403؛ وأمان إملولن عند ابن خلدون، م. س.، 543. (المترجم).

مرت ثلاث سنوات على اعتلائه العرش لم يحرك خلالها ساكناً، قرر الخروج ضد يحيى، وهكذا وبعد زيارته التبركية إلى تنملل والتي قام بها في فاتح رمضان (17 نوفمبر 1251م)، غادر مراكش في الخامس منه (21 نوفمبر)[13]، على رأس جيش من الموحدين والعرب والمسيحيين، قاصداً سلا، التي لم يتوقف بها إلا أياما معدودة، للاستخبار عن تحركات المرينيين و نواياهم.

من جهته، وبعدما علم الأمير يحيى بالجيش الجرار الذي يوجد مع المرتضى، سعى للتفاوض معه من أجل المصالحة وتوقيع معاهدة سلم[14]، وبحكم أن المرتضى وبطبعه كان يميل إلى التريث وتفادي القتال، فإن عرض خصمه ما كان إلا ليروقه، لكن وزراءه ومستشاريه خصوصاً الشيخين المرينيين أبا عمران موسى بن زيان الونجاسني وأخاه أبا الحسن علي[15]، شجعوه على القتال، بدعوى استحالة وجود ملكين في مملكة واحدة. وقد توجه المرتضى إثر ذلك إلى سلا وكانت حملته وبالإضافة إلى الجيش الجرار، تضم الآلاف من الجمال التي كانت تحمل الخيام والمؤن والأسلحة، إضافة إلى 400 بغل خصصت لحمل أمتعة الخليفة والأموال. وقبل الوصول إليها، ضرب مخيمه في مكان قرب مكناس يعرف باسم أمان يملولن، في وقت قام فيه أبو الحسن علي ابن زيان، الذي أمره الخليفة أن يسبقه إلى سلا، بمهاجمة أحد جناحي الجيش المريني، بينما قام الموحدون بمهاجمة الجناح الآخر[16]. في تلك الأثناء أصدر الأمير أبو يحيى الأوامر لرجاله بالانسحاب واستدراج الموحدين إلى غاية الكمين الذي وضعوه لهم في الخنادق، غير أن هؤلاء والذين اتخذوا الاحتياطات اللازمة لم يقوموا بملاحقتهم. ويظهر أن أبا يحيى حاول بعد ذلك الدخول من جديد في مفاوضات مع المرتضى، وكتب إلى شيخ عرب بني سفيان يعقوب بن جرمون الموجود بالمخيم الموحدي، يطلب منه السعي لدى الخليفة من أجل الوصول إلى تسوية للنزاع.

وقد قام الموحدون برفع مخيمهم من أمان يملولن في ليلة نفس اليوم الذي ضربوه فيه، ولا نعرف هل سبب ذلك هو الرسالة التي تلقاها جرمون، والتي ربما اعتبرها بمثابة دعوة صريحة لإقامة

13- البيان المغرب، م. س.، ص. 399.

14- العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 543.

15- خرجا عن سلطة المرينيين وانضما إلى الموحدين بعد خلاف مع يحيى الذي حاول محاصرتهما مع فرقة عسكرية من اتباعهما بتابركشت (منطقة يازغة) الواقعة قرب فاس. وقد خصص المرتضى لهما واتباعهما بعد انضمامهما إليه، راتباً قاراً كما منحهما بعض الأملاك في صنهاجة.

16- حدث ذلك حسب مؤلف الذخيرة السنية في فاتح محرم 650هـ (14 مارس 1252م)، م. س.، ص. 80.

السلم، وبالتالي أمر من تلقاء نفسه برفع المخيم، أم أن ذلك حدث نتيجة خطأ فادح في التقدير (لا تتحدث المصادر عن طبيعته) ارتكبه الوزير عبد الله بن يونس. ولم يضيع المرينيون الفرصة، فبسبب حالة الفوضى الناجمة عن رفع مخيم الموحدين بهذه الطريقة المرتجلة، قاموا بمهاجمتهم بعدما أخذوا طريق مراكش، واستولوا على كل ما كان يوجد في مخيمهم من أمتعة. حدث ذلك في فاتح محرم 650هـ (14 مارس 1252م).

تمرد علي بن يدر في سوس

وبسبب هذه الهزيمة التي تكبدها الموحدون دون أن يقاتلوا، ثبطت همة المرتضى، الذي وبمجرد وصوله إلى أزمور أمر بنفي الوزير ابن يونس إلى تامصلوحت. وقد تفرقت عائلة الوزير المعزول بعد ذلك، خوفاً مما قد يصيبها، في أنحاء البلاد، وكان من بينهم شخص يدعى علي بن يدر، حيث التجأ إلى سوس وأسس إمارة صغيرة، اعتقد المرتضى أن القضاء عليها هو بالأمر الهين، وكلف بذلك بعض قواته التي انضمت إليها حامية تارودانت، غير أن هذه القوات فشلت في إخضاع المتمرد، مما أجبرها على العودة إلى مراكش خاوية الوفاض.

هذا الانتصار المعنوي رفع من معنويات ابن يدر الذي تجرأ على محاصرة مراكش بعدما حصل على دعم عرب بني حسان والشبانات، ورغم أنه اضطر إلى رفع الحصار بعد وصول القوات الموحدية، فإنه عاد لمهاجمتها من جديد بعد انسحاب هذه القوات. في غضون ذلك حُكم بالإعدام على الوزير ابن يونس بعد أن ثبت أن له مراسلات مع قريبه المتمرد[17].

معاقبة الخلط

في تلك الأثناء قرر المرتضى القيام بعمل آخر، أكثر سهولة من إخماد تمرد ابن يدر، هو الانتقام من الخلط بسبب ارتدادهم على السعيد ومسؤوليتهم في هزيمته ومقتله. وبحكم أن شيوخ الخلط الذين تم استدعاؤهم إلى مراكش كانوا مقتنعين ببراءة ذمتهم، فإنهم قبلوا الانتقال إلى العاصمة عن طيب خاطر، حيث تم إدخالهم إلى القصبة، وأمر عبيد المخزن بعد ذلك بإعدام ستين منهم[18].

17- كان يخبر المتمرد من خلال تلك المراسلات بالوضع القائم في مراكش، وبعدما اكتشف أمره تم سجنه بالقصبة المعروفة باسم دار الحكماء، ووضع القاضي ابن سلامة الحجز على أملاكه كما أمر بسجن أبنائه. ورغم رفضه الاعتراف بما أدين به فقد نفذ فيه حكم الإعدام. البيان المغرب، م. س.، ص. 404.

18- يتحمل شيوخ الخلط دون شك المسؤولية في هزيمة ومقتل السعيد، ذلك لأنهم وفي الوقت الذي بدا فيه القتال انسحبوا من المواجهة، وباتفاق مع بني أشقر قصدوا المخيم الذي قاموا بنهبه قبل أن يصله بنو عبد الواد، في نفس الوقت قتلوا أخت السعيد الأميرة نجمة. نفسه، ص. 405.

ولم ينج من غضب الخليفة كذلك، عرب بني جابر الذين اعتقل شيخهم يعقوب بن محمد ابن قيطون، في حين لم يمس عرب بني سفيان بأذى، ذلك لأن شيخهم يعقوب بن جرمون حافظ على وفائه للموحدين.

هزيمة الموحدين في بني بهلول

وبعد أن انتقم ممن اعتبر خائناً من العرب، بدأ المرتضى يعد العدة لغزو فاس من جديد، وهكذا وعقب زيارته التبركية المعهودة إلى تنملل غادر مراكش، وعند وصوله إلى منطقة بني بهلول الواقعة بأحواز فاس، دخل في مفاوضات جديدة مع المرينيين، لم تفض لأية نتيجة، لأن هؤلاء رفضوا الخضوع لسلطته. وهو ما نجم عنه مواجهة بين الطرفين انتهت بهزيمة مروعة للموحدين، كان سببها مساعدو المرتضى من العرب[19] الذين تواطؤوا مع المرينيين، مقابل تقاسم الغنائم المهمة الموجودة بالمخيم الموحدي[20]. وبعد أن آلت الغنائم إلى العدو، لاذ المرتضى بالفرار وكذا جيشه الذي تفرق عنه، وقد التجأ الخليفة أولاً إلى أزمور ومن هناك قصد مراكش[21]. وقبل أن يصلها، وفي مكان يقع بمنطقة دكالة يعرف بموضع "راط"، خرج لاستقباله السادة وشيوخ الموحدين والذين حملوا معهم كل ما يلزم لإعادة تشكيل ساقة جيشه، وذلك حتى يدخل العاصمة بما يلزم من مظاهر الأبهة. في تلك الأثناء أمر بسك دراهم جديدة من الفضة ليقوم بتوزيعها عند وصوله.

وقد أحس بالخجل من هذه الهزيمة المخزية، وأقسم أن لا يخرج في أية حملة أخرى، لكن في المقابل لم يحس بالخجل في مكاتبة عدوه الذي هزمه الأمير أبو يحيى، حيث أرسل يطلب منه المساعدة في البحث عن خليلة سقطت بيد المرينيين عندما نهبوا مخيمه. بعد ذلك، وبمجرد توقيعه معاهدة سلم مع المرينيين، أقبل بشكل تام على التمتع بملذات الحياة.

19- يزيف صاحب روض القرطاس الحقائق بشأن هذه المواجهة حيث يقول: «*فسار حتى نزل ببني بهلول من قبله مدينة فاس، وكان خوف بني مرين قد خامر قلوب أهل محلته فكانوا منذ قربوا من أحواز مدينة فاس لا يرقدون ليلا، فانطلق فرس لبعض الأجناد فجرى بين الأخبية وجرى الناس في أثره ليأخذوه، فظن أهل المحلة أن بني مرين ضربوا بها، فركب الناس وهاج بعضهم في بعض، وفروا منهزمين لا يلوي أحد على أحد*». م. س.، ص. 340.

20- يجعل صاحب الذخيرة السنية تاريخ هذه الهزيمة في 6 جمادى الثانية 653هـ (13 يوليوز 1255م)، م. س.، ص. 81.

21- يشير صاحب البيان المغرب إلى أن هذه الهزيمة كانت أكثر فداحة من تلك التي مني بها الموحدون في أمان يملولن التي لم يسقط فيها قتلى تقريباً والتي كان سببها سوء التنظيم والخطة الفاشلة التي وضعها الوزير ابن يونس. س.، ص. 408.

أعمال البناء في قصبة مراكش

منذ وصوله من أزمور، أعطى المرتضى الأوامر لترميم قصر المجالس[22] وإدخال إصلاحات عليه تسمح باحتضان مجالس اللهو. في نفس الوقت بدأ بتشييد القصور لأبنائه الكبار والتي نذكر من بينها "دار العرائس" و"دار البلار" والمباني التي تجاورها والتي توجد كلها بحي أبي دانس، كما رمم وشيد عددا من البنايات داخل القصبة، كان أولها مسجد علي بن يوسف وآخرها بناية الفاتحة التي لم تحمل له الفأل الحسن، إذ بسببها هوجم قصره. وقد امتدت الفترة التي أقبل فيها على أعمال البناء من سنة 653هـ إلى سنة 655هـ، وأنفق من أجل ذلك أموالا طائلة[23].

فشل الموحدين في سوس وطنجة وسجلماسة

لم تزدد وضعية الموحدين إلا تقهقراً مع تقدم الوقت؛ فمنطقة سوس خضعت للمتمرد علي بن يدر المتحصن بتيوينوين، والذي هزم من جديد الجيش الموحدي الذي أرسل المرتضى على رأسه أبا محمد بن أصناج[24] عام 655هـ (1257م)، وكان الجيش المذكور قد وضع مخيمه في تارودانت. وطنجة وبسبب عجز الموحدين وعدوانية المرينيين خضعت لصاحب سبتة الجديد أبي قاسم العزفي الذي وضع بها حامية قوية، وكان يتصرف فيها وكأنها خارجة عن سلطة الموحدين، رغم أنه في رسائله للمرتضى يعبر له عن تقديره الكبير، ويناديه بألقاب الخلفاء، ويخبره بتفاصيل ما يجري على ضفتي المضيق. أما سجلماسة فقد حدث فيها هي الأخرى تمرد انتهى بتسليمها للمرينيين من طرف المدعو محمد القطراني، وهو شخص طموح دون مبادئ أو أخلاق، تمكن من أمور المدينة بعد أن قربه إليه عاملها أبو محمد ابن عبد الحق بن زَجّوَا الجنفيسي المعين من طرف المرتضى. وبما أن العامل المذكور كان مصاباً بشبه شلل في جسمه، فقد اعتمد على القطراني في تسيير أمورها، لكن هذا الأخير وبعدما أقتنع أنه أصبح صاحب القرار بالمدينة، قام بعرضها على المرينيين شريطة أن يتركوه

22- يوجد هذا القصر شمال مراكش، خلف باب تاغازوت، وكان بمثابة إقامة مؤقتة للخلفاء، ينزلون به أثناء توجههم إلى الرباط.

23- حال الاندثار التام لقصور الصالحة مع الأسف، دون توصلنا إلى معرفة الأماكن بالضبط التي شيد بها المرتضى هذه البنايات، والتي يذكر البيان المغرب أسماءها... م. س.، ص. 409.

24- هو سليل عمر بن علي الصنهاجي، أحد افراد أهل العشرة، والذي توفي عام 537هـ أثناء الحملة الكبيرة التي وجهها عبد المومن إلى الشمال. انظر: Op. Cit., Docs Ined. P. 48.

عاملا عليها. ولم يكن أبو يحيى ليتردد في قبول العرض المغري، حيث انتقل على وجه السرعة إلى سجلماسة، و قام بتواطؤ مع القطراني بعزل وسجن ابن زجوا، وعين أحد قواده عاملاً عليها وبجانبه عين القطراني جابياً، قبل أن يعود إلى فاس التي وافته المنية بها في 19 رجب 656هـ (22 يوليو 1258م).

ولما اندلعت الحرب الأهلية بين المرينيين، والتي تواجه فيها عمر، الابن البكر لأبي يحيى والوريث الشرعي للعرش مع عمه أبي يوسف يعقوب، اعتقد القطراني أن الفرصة أصبحت سانحة أمامه لتحقيق استقلال أوسع بسجلماسة، وقام بطرد فرسان المرينيين وقائدهم المعين من طرف أبي يحيى، وجَنَّد في المقابل عساكر من العرب، في نفس الوقت كتب إلى المرتضى يعتذر عما حصل مع ابن زَجْوا، ويقترح عليه إعادة السلطة الاسمية للخليفة الموحدي على المدينة، شريطة الاعتراف به كعامل مستقل. وقد تظاهر المرتضى بقبوله العرض وعين قاضياً على سجلماسة الفقيه أبا عمر الحجاج الذي حل بها رفقة فصيلة مسيحية تلقت الأوامر بتدبير مؤامرة لاغتيال المتمرد الخداع، وهو ما تم بالفعل عام 658هـ ، بعد جهد جهيد، وسنتين طويلتين من التخطيط.

النزاعات داخل البيت المريني وحدوث تمرد في سلا

في شهر رجب 656هـ (يوافق اليوم الأول منه 4 يوليوز، واليوم الأخير 2 غشت 1258م) توفي، كما مر بنا، الأمير المريني أبو يحيى الذي سبق وغزا فاس، حيث خلفه ابنه البكر عمر، الذي رفض بيعته قسم مهم من شيوخ المرينيين الذين بايعوا بدله عمه أبا يوسف يعقوب الموجود في تازة. وقد تمكن يعقوب هذا من الإطاحة بابن أخيه وطرده من فاس إلى مكناسة التي بقي منفياً بها إلى نهاية 657هـ (يوافق اليوم الأخير منها 17 ديسمبر 1259م) سنة مقتله - بعد 21 شهراً من خلافته لوالده- من طرف بعض أقاربه في قضية ثأر شجعهم عليها دون شك عمه وخصمه أبو يوسف يعقوب الذي رغب في التخلص منه إلى الأبد.

ويقول صاحب الذخيرة السنية، الذي يورد تفاصيل عزل عمر ونفيه إلى مكناسة، إنه قام في رمضان 657هـ (ما بين 22 غشت و20 سبتمبر 1259م) بقتل 13 من شيوخ المدينة، وإن مقتله هو

كان على يد ثلاثة من أبناء عمه، وإن ذلك حدث بجوار عين غبولة في فاتح محرم 658هـ (18 ديسمبر 1259م)، أي بعد سنة ونصف من وفاة والده[25].

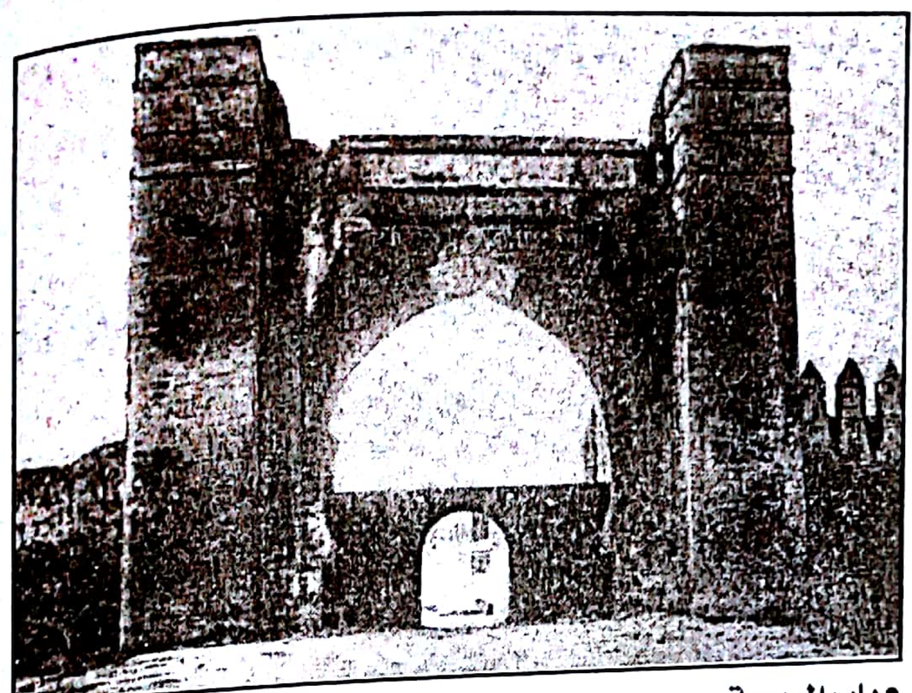
وبعد مقتله بقليل، غادر ابن أخ آخر لأبي يوسف يعقوب (ليس ابن يحيى وإنما ابن عبد الله) يدعى يعقوب بن عبد الله، مملكة عمه احتجاجاً على اغتصابه الملك، وقصد رفقة قوات مرينية، رافضة لسلطة السلطان الجديد، منطقة تامسنا. وحسب ابن خلدون فقد سبق لأبي يحيى أن عين يعقوب بن عبد الله هذا عاملاً على سلا عندما أخذها من الموحدين عام 649هـ (يوافق اليوم الأول منه 26 مارس 1251هـ، واليوم الأخير 13 مارس 1252م)، غير أنه اضطر لمغادرتها بعد أن استعادها المرتضى والذي عين عليها عاملاً موحدياً هو أبو عبد الله محمد بن أبي يعلى الكومي، والذي فرض عليها، حسب البيان المغرب، حراسة مشددة؛ حيث وضع حاميات من النبالين وغيرهم من حملة السلاح، بكل مداخل نهر أبي رقراق المؤدية للرباط وسلا[26].

وبعدما استقر يعقوب بن عبد الله مع أتباعه بتامسنا، حاول الاستيلاء على سلا، غايته في ذلك إما أن يصبح من جديد عاملاً عليها، وإما أن يقطع الطريق في الوصول إليها على عمه المغتصب للحكم في نظره. وقد اجتاز النهر عبر مخاضة الرومان ووضع مخيمه بالقرب من عين غبولة، وكان وصوله إلى أبواب المدينة مع كل رجاله، حسب البيان المغرب، ليلاً. وبما أنه كان على علم بضعف قدراتها الدفاعية، فقد كلف بعض هؤلاء بوضع سلالم على أسوارها، تمكنوا بعد صعودها من الوصول إلى برج المراقبة، وقتل من يقوم بالحراسة، وكسر المزالج، وتسهيل دخول المهاجمين الذين وضعوا علمهم في أعلى البرج. آنذاك فقط دوت صرخة الإنذار والتي اتجه السكان على إثرها نحو الباب، لكنهم وما أن رأوها محتلة من طرف الأجنبي حتى فروا إلى بيوتهم، وكان المهاجمون وبعد كسرهم للباب الخارجي، قد فتحوا ممراً عبر السور الداخلي[27]. في هذه الأثناء قام عدد كبير من السلاويين، وفي محاولة للنجاة بأنفسهم، بعبور النهر سباحة والالتجاء إلى الرباط دون سلاح

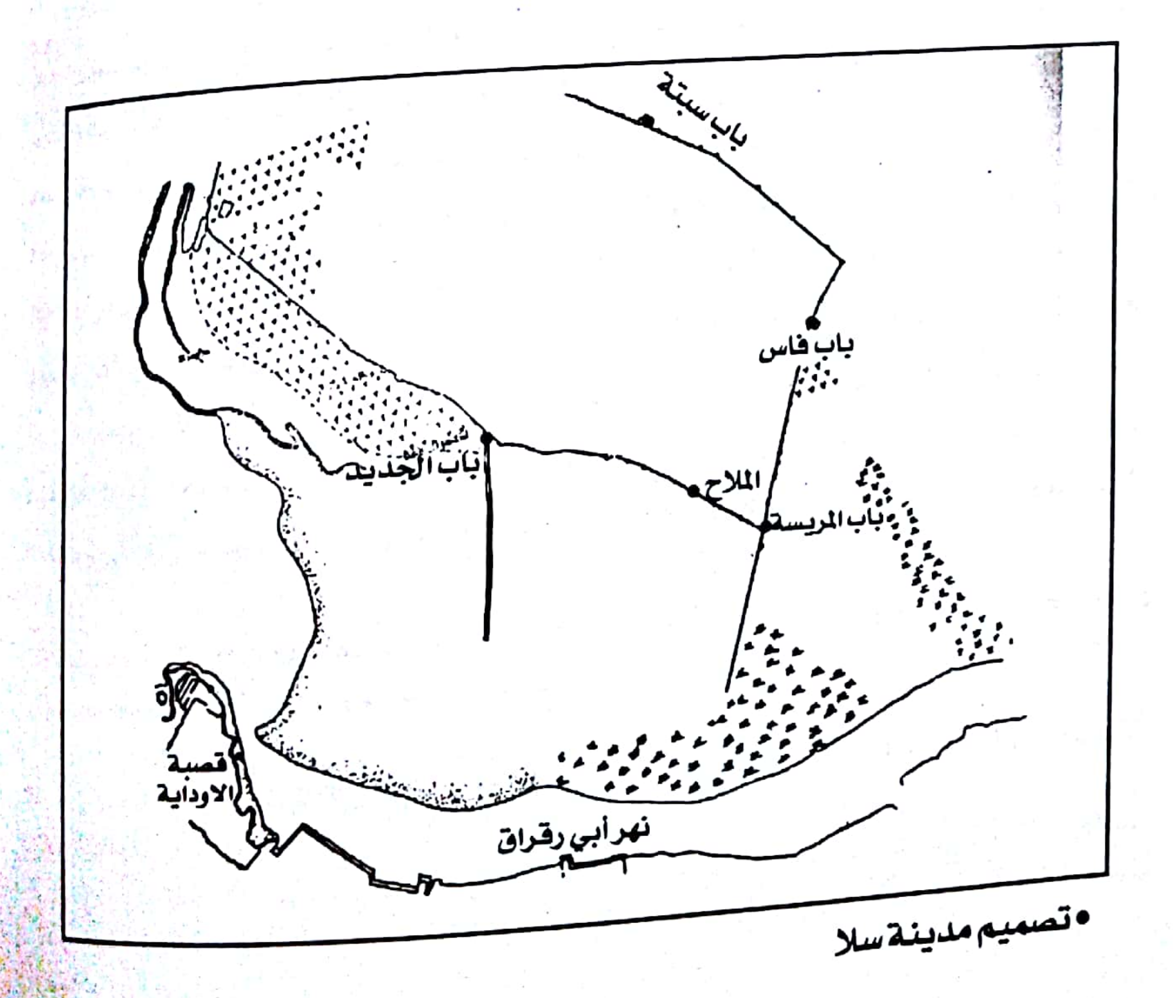
25- بسبب خلافهم مع عمهم الذي اغتصب الملك، غادر ثلاثة من إخوة عمر، هم أبو مظهر وأبو سليم وأبو حديد فاس مع أتباعهم، وقصدوا طنجة التي استولوا عليها خدعة، غير أنهم سوف يقتلون بعد ذلك مع كل أتباعهم. البيان المغرب، م. س.، ص. 433.

26- حول هذه النقطة، انظر المقالة التي نشرتها بمجلة هسبيريس تحت عنوان: استيلاء أسطول ألفونسو العاشر على سلا، لا نجدها عند عدد 1952، ص. 17 -76.

27- يقدم صاحب الذخيرة السنية رواية مختلفة عن الطريقة التي استولى بها يعقوب بن عبد الله على سلا، لا نجدها عند غيره، فقد تظاهر حسبها برغبته في دخول أحد حماماتها للاغتسال، ولما رخص له بذلك، باغت القصبة واستولى عليها، م. س.، ص. 93.



• باب المريسة



• تصميم مدينة سلا

وملابس. في المقابل أقبل المرينيون وبعد مداهمتهم للمدينة، على أعمال النهب طيلة تلك الليلة واليوم الموالي. وكان عامل سلا وعلى غرار سكان المدينة قد التجأ إلى قصبة الرباط، ومن هناك فر على ظهر أحد القوارب إلى أزمور مخلفاً وراءه متاعه وحريمه.

وبعد أن خضعت له سلا والرباط، أعلن يعقوب بن عبد الله وعلى منوال عمه أبي يوسف استقلاله، وحاول كسب ود السكان وتكوين جيش صغير، في نفس الوقت، وعلى شاكلة الموحدين والرينيين والذين كان يعمل لحسابهم مرتزقة مسيحيون، كتب إلى ألفونسو العاشر، يطلب منه أن يبث له بـ 200 جندي مسيحي، يشد بهم عضده ويكونون سنده، ويضمن بهم طاعة الرعايا ومقاومة هجومات الموحدين وتلك التي يمكن أن يشنها عليه عمه سلطان فاس[28]. وخوفاً من أن يدخل شيوخ سلا في اتصالات مع عمه لمبايعته وتسليمه المدينة، استدعاهم إلى قصبة الرباط، وبعد استعراضهم وتجريدهم من أسلحتهم، أمرهم بعبور النهر من جديد والعودة إلى ديارهم بسلا.

وقد وجد ألفونسو العاشر في طلب الأمير المتمرد الفرصة التي كان يتمناها لتحقيق مشروعه الصعب الذي طالما أجله، والمتعلق بتنظيم حملة صليبية إلى المغرب. من أجل ذلك أعد أسطولاً تجمع في اشبيلية على ضفاف الوادي الكبير[29]، قبل أن يتوجه إلى خليج قادس (أو جزيرة قادس كما يسميها صاحب البيان المغرب)، المكان الذي انطلق منه وكذا الذي عاد إليه بعد فشل الحملة. ويعتقد "بايستيروس" Ballesteros، والذي لم يطلع على المعلومات الموجودة في المصادر التي اعتمدناها هنا، أن ألفونسو ربما يكون قد ذهب أثناء الإعداد للحملة، من اشبيلية إلى ميناء "سانتا ماريا" Santa Maria ليراقب خروج سفن أخرى كانت تنوي الالتحاق ببقية الأسطول الموجود في خليج قادس.

28- استند هنري طيراس في كتابه "تاريخ المغرب" Histoire du Maroc على جملة وردت لدى ابن خلدون تقول إن يعقوب بن عبد الله دخل في اتصالات مع تجار الأسلحة، ليخلص إلى أنه طلب من التجار الإسبان المجيء إلى سلا ليشتري منهم الأسلحة وأن هؤلاء استغلوا فرصة الاحتفال بعيد الفطر لمهاجمة المدينة. غير أننا نعتقد أن ابن خلدون لم يرد بهذه الجملة ما ذهب إليه طيراس، ويؤكد ذلك، الأحداث التي وقعت، وعلى رأسها احتلال يعقوب بن عبد الله لسلا ووصول الأسطول المسيحي إليها ورغبة يعقوب في الحصول على دعم المسيحيين.

29- رغبة منه في إيجاد مبرر معقول لاختيار ألفونسو العاشر لسلا كنقطة الانطلاق لحملته الصليبية، يستند "بايستيروس" Ballesteros في مقالة نشرها بمجلة Al-Andalus. vol.VIII, fasc,16 تحت عنوان: "احتلال سلا في عهد الفونسو العاشر الحكيم"، يستند إلى وثيقة بابوية مؤرخة في فاتح أكتوبر 1246م يؤكد فيها البابا "إينوصان" الرابع أن ملك سلا يريد أن يعتنق المسيحية ويسلم مملكته للبابا ومن خلاله لرهبانية "شانت ياقب"، واعتقد أن هذا التبرير الكاذب والسخيف لم تعد له أية قيمة، بعد اكتشاف مخطوط البيان المغرب والذي يقدم لنا تبريراً معقولاً ومنطقياً لاختيار الفونسو العاشر لمدينة سلا من أجل البدء في مشروعه الصليبي.

نهب قادس ومهاجمة
أسطول ألفونسو العاشر لسلا

وبالإضافة إلى تحديده لمكان انطلاق الحملة والنقطة التي قصدتها، يبين لنا صاحب البيان المغرب وبشكل غير مباشر سبب استهدافها لسلا بالضبط، كما يقدم لنا معلومات جديدة عن خراب قادس، والتي انطلقت الحملة من مينائها[30].

وقد حافظ ألفونسو العاشر على سرية المكان المستهدف، غير أن تنظيم الأسطول والاستعدادات الجارية لذلك، ما كانت لتمر دون أن تلفت انتباه مسلمي ضفتي المضيق، لذا كتب صاحب سبتة الفقيه أبو العباس العزفي إلى القائمين على موانئ المغرب وإلى سكان مدنه الساحلية يخبرهم بتلك الاستعدادات وباحتمال شن المسيحيين لهجوم عليهم. وقد أصغى بعض سكان سلا لهذه التحذيرات وغادروا المدينة، لكن هؤلاء لم يشكلوا إلا الأقلية، أما الأغلبية فلم تأخذ ما وصلها من أخبار مأخذ الجد، واعتبرت أن استهدافها بهجوم مسيحي أمر مستبعد[31].

وفي اليوم الأخير من شهر رمضان 659هـ (8 سبتمبر 1260م) ظهرت في أعالي البحار السفن المسيحية التي اقتربت من سلا بحيث أصبح بإمكان سكانها مشاهدتها، غير أنهم لم يبالوا بذلك في البداية، وظنوا أنها سفن تجارية، ولكن سرعان ما أدركوا أن الأمر هو غير ذلك، عندما بدأت تتجمع

30- يشير صاحب البيان المغرب إلى أن أحد النبلاء المسيحيين يدعى "كونثالوا" Gonzalo، (شقيق "سانشو" Sancho قائد الفصيلة المسيحية التي رافقت المأمون إلى المغرب) ذهب سنة 631هـ (يوافق اليوم الأول منها 7 أكتوبر 1233م واليوم الأخير 25 سبتمبر 1234م) إلى المغرب رفقة رجاله للانضمام إلى الفصيلة المسيحية التي يقودها أخوه والتي أصبحت في خدمة الرشيد بعد وفاة والده المأمون، وكان الرشيد وهو من أم مسيحية، يستقبل المرتزقة المسيحيين استقبالاً حسناً، حيث كان يرى فيهم سنده الحقيقي، وقبل أن يتوجه إلى المغرب، وبحكم أن مسلمي الأندلس كانوا قد قطعوا كل علاقة مع الموحدين، فإن "كونثالو" لم يتردد في مباغتة قادس التي نهبها وعمل السيف في من استطاع من أهلها، ثم حمل كل من نجا من تلك المجزرة الرهيبة كأسرى إلى آسفي حيث نزل، قبل أن يأخذ طريق مراكش والتي أسرع سكانها إلى شراء وفدية أبناء ملتهم من الأسرى الذين حملهم "كونثالو". ويؤكد صاحب البيان المغرب أن ما قام به هذا الأخير كان سبباً في إخلاء وخراب جزيرة قادس، بحيث لم يعد هناك أي أثر يشهد على وجود مدينة ما. وقد بقي الوضع كذلك إلى أن استولى فرناندو الثالث على اشبيلية وضواحيها بما في ذلك قادس. ونتيجة لحالة الخراب هذه، فإن خليج قادس وبحكم عدم خضوعه لأي كان، أصبح مجالاً مفتوحاً يمكن لأي أسطول استعماله دون خوف أو حرج.

31- يورد صاحب البيان المغرب جزءا من الرسالة الجوابية التي بعث بها أمير المؤمنين المرتضى إلى صاحب سبتة يشكره من خلالها على غيرته الدينية وعلى إخباره للمسلمين بخطر الأسطول المسيحي، ويحثه بمواصلة إخبارهم بكل المستجدات المتعلقة بالموضوع، والرسالة مؤرخة في 3 ذي القعدة- 10 أكتوبر- أي بعد استعادة المسلمين لسلا.

بالمكان المقابل لمصب النهر وبشكل تدريجي، سفن محملة بالجنود المسيحيين وصل عددها إلى 37، منها 12 قرقوراً ومركبان إضافة إلى سفن شراعية وسخاطير (قوارب نقل الأمتعة)[32].

وقد أصيب سكان سلا من جراء ذلك بحالة ذهول، واحتفلوا بعيد الفطر (9 سبتمبر) في جو مشحون، في وقت لم يقم فيه الأمير المتمرد يعقوب بن عبد الله بأي رد فعل، خصوصاً وأنه لم يستبعد أن يكون الأمر يتعلق بالمرتزقة المسيحيين الذين طلبهم من الفونسو ليوطد بواسطتهم نفوذه بالمدينة.

وفي اليوم الثاني من عيد الفطر (10 سبتمبر)، دخلت سفن الحرب المسيحية مياه نهر أبي رقراق وهي محملة بالقوات، وبما أن المدينة لم تكن تتوفر على أسوار من جهة النهر، فإن الإنزال وكذا الهجوم تم بسهولة، وكان في طليعة الجيش المسيحي النبالون. ولم يجد المهاجمون في طريقهم مقاومة تذكر، خصوصاً وأن مجموع من كان يحمل السلاح من سكان سلا لم يتجاوز عشرين فارساً، قاتلوا المسيحيين إلى أن سقطوا جميعاً، أما بقية الرجال فلم يكونوا مسلحين، لأن يعقوب جردهم، كما مر بنا، من أسلحتهم، بسبب تخوفه منهم. وأمام حالة الهلع التي اجتاحتهم، لاذ السكان بالفرار عبر باب المدينة الذي حدث فيه ازدحام أدى إلى وفاة العديد منهم، في وقت استولى فيه المسيحيون على سلا التي ارتكبوا بها كل أنواع التجاوزات المألوفة في مثل هذه الأحوال، حيث قتلوا كل من وجدوه في طريقهم[33]، وأسروا النساء والأطفال الذين سجنوهم بالمسجد الأعظم، كما طوقت قواتهم أسوار المدينة تحسباً لأي هجوم مضاد. وكان يعقوب بن عبد الله يشاهد كل ذلك من قصبة الرباط وهو يكاد ينفجر من الغيظ الممزوج بالرعب، لأنه لم يستسغ كيف أن المسيحيين الذين طلبهم بنفسه لحماية سلا، جاؤوا لطرده

32- أوردت في الملحق الثاني من المقالة التي نشرتها عن احتلال سلا (هيسبريس، العدد الأول والثاني، سنة 1952م)، النص الذي يتحدث فيه صاحب البيان المغرب عن هذا الحدث غير المعروف. ويؤكد "سيبولد" Seybold في مقال نشره بدائرة المعارف الإسلامية عن قادس خلال المرحلة التي نحن بصددها، أن هذه تم الاستيلاء عليها عام 1262م، لكنه لم يورد أي مصدر توثيقي، وأعتقد أنه وقع في خلط وأن الأمر لا يتعلق بسنة الاستيلاء عليها وإنما بسنة إعادة تعميرها من طرف الفونسو العاشر. من جهته يجعل صاحب الذخيرة السنية من سنة 642هـ وليس 632هـ، تاريخ احتلال ونهب قادس، التي تحولت حسبه إلى خراب، ويضيف أن الذي أعاد تعميرها هو قائد بحرية سبتة أبو عبدالله الرنداحي الذي قتل بنفس المدينة عام 647هـ حوالي ثمانين قائداً مسيحياً. الذخيرة السنية، م. س.، ص 80.

33- في مقارنته بين مالقة وسلا، ووصفه لهذه الأخيرة يقول ابن الخطيب إن ثلث مجالها تشغله القبور وثلثها الثاني هو عبارة عن أطلال.

منها. وهكذا لم يبق له من حل غير الالتجاء إلى القصبة طلباً للنجاة، بعد أن تعذر عليه، حسب مؤلف البيان المغرب، عبور النهر ومغادرة المدينة.

استعادة المرينيين لسلا

وقد وصل خبر ما حصل، إلى السلطان المريني أبي يوسف يعقوب بعد يومين من حدوثه؛ أي في 4 شوال (12 سبتمبر)، وكان يوجد بتازة[34]، التي غادرها على وجه السرعة في ليلة نفس اليوم، على رأس فصيلة صغيرة من خمسين فارساً، قاصداً سلا التي وصل ضواحيها مساء اليوم الموالي (13 سبتمبر). وبعد أن ضرب مخيمه بالقرب من أسوارها، دعا قبائل الغرب والمناطق المجاورة لسلا للانضمام إليه، وكان عدد قواته بسبب ذلك يتزايد بشكل سريع، وهو ما سمح له بمحاصرة المدينة، غير أنه لم يكن يتوفر على الوسائل اللازمة لتدمير الأسوار، لذا اكتفى بمحاولة حفر بعض المنافذ فيها من خلال استعمال الرماح والحجارة.

وبعدما لاحظ المسيحيون أن هناك قوات تفوقهم عدداً تحاول مهاجمتهم، وأنهم لا يتوفرون على وسائل دفاعية مضمونة، قرر قائد الحملة، أميرال قشتالة "خوان غارثيا بيامايور" Juan Garcia Villamayor مغادرة المدينة بسرية في ليلة 13شوال (21 سبتمبر)، بعد أن نقل إلى السفن الأسرى والغنائم[35]. وبسبب ذلك الانسحاب لم يحدث قتال بين الطرفين. ويقدم لنا صاحب البيان المغرب تفاصيل مهمة عن انسحاب المسيحيين[36]؛ فيؤكد أن المسلمين كانوا سيقتحمون سلا لو استمر بها المسيحيون، ويقتلون من يجدونه بها منهم، ويضيف أن هؤلاء وقبيل الانسحاب، أضرموا النيران في المدينة، حيث امتد لهيبها إلى المنازل والمساجد والأسواق، وتمكن من الأثاث والسلع التي لم يستطيعوا نقلها بسبب ثقل وزنها وكبر حجمها. وحتى يوهموا عدوهم

34- هذا ما يؤكده صاحب الذخيرة السنية الذي ورد عنده: *«وخرج من رباط تازة مبادرا ومسرعا لإغاثتها واستنقاذها مشيرا على ساعده في أمره، وكان خروجه من رباط تازة لإغاثتها بعد أن صلا العصر من اليوم الرابع من شوال في الوقت الذي اتصل به الخبر فيه، فسار في نحو خمسين فارسا من أعيان مرين بقية يومه وأَسْرَا ليلته تلك»*. م. س.، ص. 94. غير أنه يجب أخذ المدة الزمنية التي اعتبر فيها صاحب الذخيرة السنية أن السلطان المريني قطع فيها المسافة بين تازة وسلا، بنوع من التحفظ، ذلك لأن الطريق البري الذي يصل المدينتين اليوم طوله 327 كلم، ومن المؤكد أن الطريق المستعمل خلال المرحلة التي نحن بصددها كان أطول ، فقد كانت به التواءات أكثر، بحيث كان لزاماً المرور بشمال زرهون.

35- ورد بهذا الشأن في كتاب "مكتبة الكتاب الإسبان" Biblioteca de Autores Espanoles. Tomo 66, P. 14: *«وقد قرروا مغادرة المدينة لأنه لم يكن هناك من قريب يمكنه أن يقدم لهم النجدة، في وقت بدأ المسلمون يتوافدون عليها براً وبحراً»*.

36- البيان المغرب، م. س.، ص. 424-425.

بأنهم لا يزالون في المدينة، تركوا راياتهم معلقة بأعلى الأسوار كما وضعوا الدمى في الفتحات الضيقة الموجودة بهذه الأسوار، في وقت بدؤوا فيه بفك أمراس سفنهم تدريجياً وبحذر شديد حتى لا يلفتوا الانتباه. وعندما أصبح يوم 14 شوال (22 سبتمبر) غامر بعض المتطوعين المسلمين بوضع السلالم على الأسوار، وبعد صعودها أدركوا أن المدينة فارغة. وقد انتشر الخبر بسرعة داخل المخيم المريني، ودخل أبو يوسف مع قواته إلى سلا دون قتال[37]، حيث شرع وبكل جدية في تحصين الجهة المطلة على النهر التي دخل منها القشتاليون والتي لم تكن تتوفر على أسوار، في نفس الوقت بدأ بتشييد ترسانة لصنع الأسلحة[38].

معركة أم الرجلين

وبعد أن خضعت له كل من سلا والرباط، مد الأمير أبو يوسف يعقوب غاراته إلى تامسنا، وهو ما أجبر المرتضى على أن يوجه ضده جيشاً موحدياً مكوناً من العرب والغز والمسيحيين، وضع على رأسه أبا زكريا بن يحيى بن عبد الله بن وانودين. وقد التقى هذا الجيش مع المرينيين على ضفة أم الربيع في المكان المعروف باسم أم الرجلين. ورغم تفوقه العددي وأهمية ذخائره، لم يتمكن الجيش الموحدي من تفادي الهزيمة، وذلك بسبب خيانة عرب بني جابر الذين تفرقوا عنه، مما جعل الذعر يدب في بقية عناصر الجيش الذين لاذوا بالفرار، وكان أول الفارين الشيخ علي ابن أبي علي الهبطي الذي لم يتردد في الانضمام إلى صفوف المرينيين[39].

في تلك الأثناء بدأ المرتضى يفكر بجدية في الخروج شخصياً في حملة ضد المرينيين، غير أنه تراجع عن ذلك عملاً بنصيحة وزيره ابن بخيت[40]، في وقت عاد فيه المرينيون إلى بلادهم

37- يشير صاحب روض القرطاس إلى أن السلطان المريني استعادها بعد 14 يوما من فقدانها، بينما يقول صاحب البيان المغرب إنه استعادها بعد 23 يوماً، أما ابن خلدون في العبر، فيكتفي بالقول إنه حاصرها مدة 14 يوماً، ويجعل "بايستيروس" Ballesteros اعتماداً على ما كان يتوفر عليه من مصادر (اكتشفت مصادر أخرى فيما بعد لم يصل إليها) مدة خضوع سلا للمسيحيين 25 يوماً، أما "غارثيا كوميث" Carcia Gomez فيشير في مقالة تحت عنوان: "مقارنة بين مالقة وسلا"، نشرت بمجلة الأندلس، إلى أن طرد المسيحيين من سلا تم بعد 24 يوماً من احتلالها. وإذا كنا لا نستطيع أمام هذا الاختلاف تحديد المدة بالضبط التي قضاها المسيحيون بسلا، فإن المؤكد هو أن المدة التي تفصل وضع السلطان المريني مخيمه بجانبها، عن مغادرتهم لها هو ثمانية أيام.

38- Henri Térrasse. Les Portes de l'Arsenal de Salé. Hesperies, 1922, 4° trimestre. P. 357 a 371.

39- يظهر أن الموحدين حققوا في البداية بعض التقدم على عدوهم خلال مناوشات حدثت في منطقة غير بعيدة عن النهر، ولعل ذلك ما حذا بابن وانودين إلى مكاتبة المرتضى يخبره بأن جيشه قد انتصر على عدوه.

40- ابن بكيت عند ابن خلدون، م. س.، ص. 546. (المترجم).

ظافرين. وقد وقعت معركة أم الرجلين هذه في صيف 659هـ (1261م)[41]، أي قبل شهرين من هزيمة الموحدين في معركة أخرى وقعت بسوس في خريف نفس السنة، كان من بين قتلاهم فيها قائد الحملة محمد بن سلامة[42].

توجيه حملة جديدة إلى سوس ومقتل القائد "دون لوبي"[43]

دفعت هذه الكارثة الجديدة وخصوصاً توطيد نفوذ ابن يدر في سوس، بالمرتضى ليرسل ضد هذا الأخير أفضل وزرائه؛ أبا زيد بن بخيث بمعية فصيلة مسيحية مهمة يقودها القائد "دون لوبي"[44]. غير أن الموحدين لم يستفيدوا من هذه القوات المسيحية لإنجاح الحملة، ومرد ذلك، على ما يظهر، خمول وتكاسل القائد المسيحي الذي كان يرفض تنفيذ أوامر الوزير، الذي اضطر إلى رفع تقارير في الموضوع إلى المرتضى، أرسل على ضوئها هذا الأخير من يأمر "دون لوبي" بالعودة إلى مراكش، بعد أن دبر مؤامرة لاغتياله، أمر الشيخ أبا زيد بن أبي زكريا الجدميوي الموجود بتامجدرت بتنفيذها؛ وهكذا فعند مرور "دون لوبي" وهو في طريقه إلى مراكش بالقرية المذكورة، تم إيواؤه مع ستة من مرافقيه في أحد المنازل، في وقت وضع فيه باقي أفراد الفصيلة مخيمهم بسهل مجاور. ولما جن الليل أمر الشيخ أبو زيد بن أبي زكريا بقتل "دون لوبي" ومرافقيه الستة ورمي جثثهم في أحد الآبار. وكان قد اتفق مع سكان وادي النفيس بحمايته إذا ما حاول باقي أفراد الفصيلة المسيحية إيذاءه. وعندما اقترب من هؤلاء، وحتى يوهمهم بأن "دون لوبي" ومرافقيه لاذوا بالفرار، بدأ يشتم مترجمه ويحمله مسؤولية هذا الفرار المزعوم، ويقول له إنه وضعه في موقف صعب أمام الخليفة لأنه لن يستطيع أن يقدم له "دون لوبي" أسيراً كما أمره. ولم تنطو الحيلة على المسيحيين إلا

41- كان المرتضى قد استعد لها بشكل كبير واستنفر من أجل المشاركة فيها كبار الشخصيات الموحدية وشيوخ سفيان والخلط وبني جابر وعاصم وقواد المسيحيين والغز. البيان المغرب، م. س.، ص. 427-428.

42- يقول البيان المغرب إن ذلك من علامات الانحطاط الذي آلت إليه الإمبراطورية الموحدية.

43- دنلب عند ابن خلدون. م. س.، ص.546؛ وذي اللب عند ابن عذاري، م. س.، ص. 429. (المترجم).

44- يتحدث ابن خلدون (العبر، الجزء السادس، م. س.، ص. 345) ، عن "دون لوبي" هذا لكن ليس بنفس تفصيل صاحب البيان المغرب الذي يورد معلومات عن ظروف أسره ومقتله، ويضيف أنه كان رجلاً خاملاً لا عزم ولا شجاعة له، ولم يكن يظهر حماساً إلا عند مطالبته بأجرته التي يتقاضاها يومياً، والتي يكثر من الاحتجاج إذا لم يستلمها في يومها. ونعلم من البيان المغرب كذلك أنه بجانب الفصيلة التي كان على رأسها "دون لوبي" توجهت إلى سوس فصيلة مسيحية أخرى كان يقودها قائد يدعى كرثيا" Garcia (فرسية عند ابن عذاري)، البيان المغرب، م. س.، ص. 429.

جزئياً؛ فقد كانوا يعلمون أن قائدهم قد قتل، لذا عادوا إلى مراكش وهم في حالة حزن وأسى، لكنهم لم يكونوا يعلمون أن المؤامرة يقف وراءها الخليفة، بل كانوا يعتقدون أن سكان تجانرت (تكانرت عند ابن عذاري)، قاموا بها من تلقاء أنفسهم، لذا رفعوا له عند وصولهم العاصمة، شكاية ضد هؤلاء، غير أنهم سيعلمون بعد ذلك أن الخليفة كان يقف وراء مؤامرة الاغتيال[45].

هجوم المرينيين على مراكش

قام الأمير المريني يوسف بن يعقوب بحملة ضد سجلماسة عام 660هـ (1262م) غير أنه لم يستطع إخضاعها، وكان عليه أن يقوم في الوقت نفسه بإخماد تمردات أقارب السلطان المخلوع عمر بن أبي يحيى الملتجئين بمنطقتي القصر الكبير وغمارة، والذين انتهى بهم الأمر إلى الاستسلام. بعد ذلك، وفي متم سنة 660هـ (خريف 1262م) قرر مهاجمة مراكش. وعند اقترابه منها وضع مخيمه في إيجليز. ولما علم المرتضى بالخبر، أغلق أبواب المدينة وجهز قواته للحرب وأمر السيد أبا العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس (سوف يخلفه على العرش) بالخروج معه إلى سبيل المجالس لمواجهة العدو. وقد استغرق القتال مدة شهرين، حيث استمر إلى مطلع سنة 661هـ (1263م). وكان ضمن القتلى عبد الله، الابن البكر للأمير المريني، الذي تلقى التعزية فيه من الخليفة المرتضى نفسه، والذي التزم مقابل انسحاب المرينيين، بدفع جزية سنوية لهم، وهو ما قبل به أبو يوسف، حيث عاد في شهر رجب من تلك السنة (يوافق اليوم الأول منه 11 مايو، واليوم الأخير 9 يونيو 1263م) إلى فاس حاملاً معه جثة ابنه[46].

تمرد أبي دبوس

كان هذا النجاح النسبي الذي حققه الموحدون على حساب المرينيين سبباً في مأساة كبيرة انتهت بمقتل المرتضى؛ فأبو دبوس الذي قاد القوات الموحدية ضد المرينيين، دخله الغرور بسبب الانتصار الذي حققه، وبدأ يتطلع إلى منصب يكون له فيه من النفوذ ما يتجاوز به سلطة الوزراء، وهو ما جر عليه عداء هؤلاء وحقدهم، ولفقوا له تهمة تقول إن له مراسلات سرية مع الأمير المريني. بسبب ذلك بدأ الخليفة يشك في وفائه، وطلب منه كبح تطلعاته، وهو ما لم يرقه، بحيث غادر مراكش غاضباً مرتاباً إلى بستان يمتلكه بضواحيها، وكان قد طلب الإذن بالسماح له بالانتقال إلى هناك بدعوى

45- البيان المغرب، م. س.، ص. 429.

46- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 98.

الاحتفال وبشكل بسيط بختان بعض أبنائه، لأن الضائقة المالية لا تسمح له بإقامة الاحتفال بالعاصمة. وفي ليلة نفس اليوم، فر من البستان رفقة ابن عمه السيد أبي موسى عمران قاصداً فاس[47].

وكانت مغادرة أبي دبوس لمراكش في العشرية الثانية من محرم 663هـ (ما بين 3 و11 نوفمبر 1264م) أي بعد أكثر من سنة ونصف على انسحاب أبي يوسف يعقوب إلى فاس. وعند التقائه بهذا الأخير عرض عليه وضعيته، ووصل معه إلى اتفاق قام على إثره الأمير المريني بمراسلة قائد الخلط علي بن أبي علي، الذي انقلب على الموحدين إثر معركة أم الرجلين كما مر بنا، يطلب منه أن يقدم لأبي دبوس ما يحتاجه من مساعدة لمحاربة المرتضى. وقد غادر أبو دبوس في ذي القعدة من تلك السنة (ما بين 15 غشت و13 سبتمبر 1226م) مدينة فاس، بعد أن قضى في الاستعداد للحملة العسكرية التي خرج على رأسها حوالي عشرة أشهر، وكان محاطاً أثناء مغادرته للمدينة بحثالة القوم التي كانت تضرب الطبول وهي رافعة الأعلام. وبما أنه كان يتخوف من تراجع الأمير المريني عن موقفه، ويسلمه للمرتضى، خصوصاً مع شعوره أنه بدأ يحتقره، عمل على الابتعاد عن فاس بأسرع ما يمكن، بحيث أمر أن تواصل الحملة سيرها رغم حلول الظلام، إلى أن وصلت إلى مكناس والتي انتقل منها إلى تادلة التي احتفل فيها بعيد الأضحى (23 سبتمبر 1265م). وفي صفر 664هـ (نوفمبر) التقى في منطقة الأطلس بجلداسن (كلداسن عند ابن خلدون) الهسكوري الذي قضى بجواره فصل الشتاء. ولم يتوقف طيلة ربيع وصيف تلك السنة عن محاولاته الرامية لكسب أتباع جدد من بين العرب وهسكورة، وهو ما أوصاه به أبو يوسف يعقوب. في نفس الوقت دخل في اتصالات مع أتباعه بالعاصمة[48]، والتي لقي تمرده صدىً كبيراً بها، جعل المرتضى في حالة توتر مستمرة دفعته ليفقد ثقته في الجميع، وكان من بين الذين اعتقلهم، شيخ عرب بني سفيان مسعود بن كانون وشيخ بني جابر وقائد المسيحيين. والواقع أن تصرفه هذا خدم مصالح أبي دبوس الذي انضم إليه كل الغاضبين من المرتضى والخائفين منه، وكان من بينهم إضافة إلى عرب بني سفيان وبني جابر والمرتزقة المسيحيين، قبائل هسكورة وهزرجة. وبخروج كل هؤلاء عن طاعته، أصبحت مراكش دون حماية، ومما زاد الوضع تأزماً، أن المرتضى كان قد أرسل جيشه إلى ركراكة وحاحة لإجبار سكان المنطقتين على أداء الضرائب.

47- يقول ابن خلدون إنه التجأ قبل ذلك إلى الأطلس حيث كان يسعى إلى الحصول على دعم مسعود بن كلداسن. والعبر الجزء السادس، م. س.، ص.547.

48- بعد أن كتب له يطلب معلومات عن الوضع في مراكش، تلقى جواباً يقول: «*أقدم فإن الناس في غفلة والجيوش متفرقة في أطراف البلاد وليس تجد وقت فرصة مثل هاذا*». الذخيرة السنية، م. س.، ص. 110.

أمام هذه الوضعية، نصح الوزير أبو موسى بن عزوز، المرتضى بأن يستدعي وعلى وجه السرعة ابن وانودين وابن علوش مع قواتهما، ورغم إلحاح الوزير، فإن الخليفة رفض النصيحة غاضباً واعتبر أن الأمر لا يستحق، وأن عاصمته غير معرضة للخطر. في غضون ذلك، قام أبو دبوس الوجود بالجبال القريبة من مراكش، بتنظيم القوات التي التفت حوله، ونزل في خريف 665هـ على رأسها إلى أن وصل أغمات، حيث هزم قوات الوزير أبي زيد التي خرجت ضده.

وكان المرتضى الذي رفض الإصغاء لنصائح أي كان، يوجد في حالة اضطراب منعته من اتخاذ أي قرار، وهو ما سهل مهمة أبي دبوس الذي بدأت قواته تقترب من العاصمة، بحيث وصل شيخ عرب بني سفيان علوش بن كانون رفقة فصيلة من أبناء جلدته إلى غاية باب الشريعة التي غرز بها رمحه في وقت كان المصلون يؤدون صلاة الجمعة، وبسبب الضجة التي أحدثها وصوله، هرع الأهالي إلى سور المدينة، وهناك شاهدوا كيف وصل علوش وبجرأة إلى باب الشريعة دون أن يستطيع أحد الخروج ضده.

مهاجمة مراكش

وفي اليوم الموالي (السبت) توجه أبو دبوس ورجاله إلى باب أغمات[49]، ومن هناك أرسل من يقوم بالتحريات اللازمة حول الأسوار المجاورة لها، وبعد أن تبين له أنها دون حراسة، أمر بعض رجاله بتسلقها وكسر مزاليج الباب التي دخل منها المدينة بكل سهولة. وقد اكتفى المرتضى، بعدما علم بالأمر، بإرسال ابنه أبي عبد الله مع عشرة من العبيد وتَرَّاس واحد، لمعرفة ما يجري. وعند وصولهم إلى باب الصالحة تراءى لهم فرسان العدو وسمعوا ضربات طبوله، وهو ما جعلهم يعودون على وجه السرعة إلى القصبة، حيث أمر أبو عبد الله بإغلاق بابها المعروفة بالبويبة وكذا تلك المعروفة بباب الطبول.

ولدخول القصبة، كسر المهاجمون قفل باب البويبة[50]. في تلك الأثناء مر أبو دبوس بجوار باب الطبول قبل أن يصل إلى الحي المجاور لباب الكحل التي وجدها مفتوحة، وفي الوقت الذي كان فيه بجوارها، قامت هسكورة بنهب قيسارية المدينة وإضرام النار فيها. وفي منتصف النهار تم فتح ديوان

49- المصدر الوحيد الذي يتحدث عن هجومه على مراكش وفرار المرتضى منها هو البيان المغرب، ص. 438-439.

50- دخل اتباع أبي دبوس أولاً المدينة قبل أن يتوجهوا إلى الحي الإمبراطوري -القصبة- والذي يورد صاحب البيان المغرب بصدده أسماء أماكن لم تعد موجودة اليوم إذا ما استثنينا مسجد المنصور، م. س.، ص. 439.

الخراج الذي حفر به المهاجمون ممراً وصلوا عبره إلى "سراج القباب". وفي مساء نفس اليوم، التحق أبو دبوس بالمهاجمين عبر باب الطبول، حيث قضى هناك تلك الليلة. ولم يدخل القصر الملكي إلا بعدما تأكد من أن المرتضى غادره ولاذ بالفرار.

وكان المرتضى قد غادر مراكش في جنح الظلام، حيث توجه أولاً إلى الإقامة المعروفة باسم الفاتحة التي أشرف بنفسه على بنائها، وأحكم إغلاق بابها -باب النحل-، وعملاً بنصيحة أبي موسى بن عزوز، قرر مغادرتها في نفس الليلة حيث قصد جبال الأطلس، وبعد مروره بتانششت وصل في منتصف الليل قرية كيك التي ينتمي إليها ابن عزوز. وبما أن هذه الأخيرة سبق وأعلنت ولاءها لأبي دبوس، فإنها رفضت إيواءه كما رفضت السماح لابن عزوز بمرافقته. وقد اضطر إثر ذلك ترك القرية قاصدا جدميوة حيث يوجد وزيره السابق أبو زيد الجدميوي، غير أنه منع من الوصول إليها. وقد انتهى به المطاف في شفشاوة التي كتب منها إلى ابن وانودين وابن عطوش يطلب منهما الالتحاق به على رأس قواتهما، غير أن رسالته وصلتهما متأخرة لأن الاثنين كانا قد عادا إلى مراكش[51].

مقتل المرتضى

عندئذ أخذ المرتضى طريق أزمور وكان قد عين عاملاً عليها أحد أصهاره يدعى عبد العزيز ابن عطوش، سبق ودفع للمرينيين مقابل إطلاق سراحه مالاً كثيراً، غير أن العامل المذكور رفض استقباله. وفي منتصف الليل وهو دون مأوى وفي حيرة من أمره، التجأ للاختباء في مغارة مجاورة لأورتوصوف حيث وجد بها في اليوم الموالي وهو في حالة يرثى لها. وبعد أن ألقي عليه القبض، كبل بالسلاسل ونقل إلى سجن أزمور، قبل أن يُرسل من يخبر بذلك أبا دبوس[52] الذي كتب له يسأله عن ثروات بيت المال، ويعده بالعفو إذا ما كشف له عن مكانها.

وقد رد عليه برسالة مؤثرة يخبره بأنه لا يتوفر على شيء، ويطلب منه في المقابل الرأفة به. والحقيقة أن قلب أبي دبوس لان لذلك، ومال إلى مراعاة القرابة التي بينهما (أبواهما هما ابنا يوسف وحفيدا عبد المومن)، وبدأ يفكر في العفو عنه ونقله إلى العاصمة، غير أن السيد أبا زيد

51- البيان المغرب، م. س.، ص. 447.

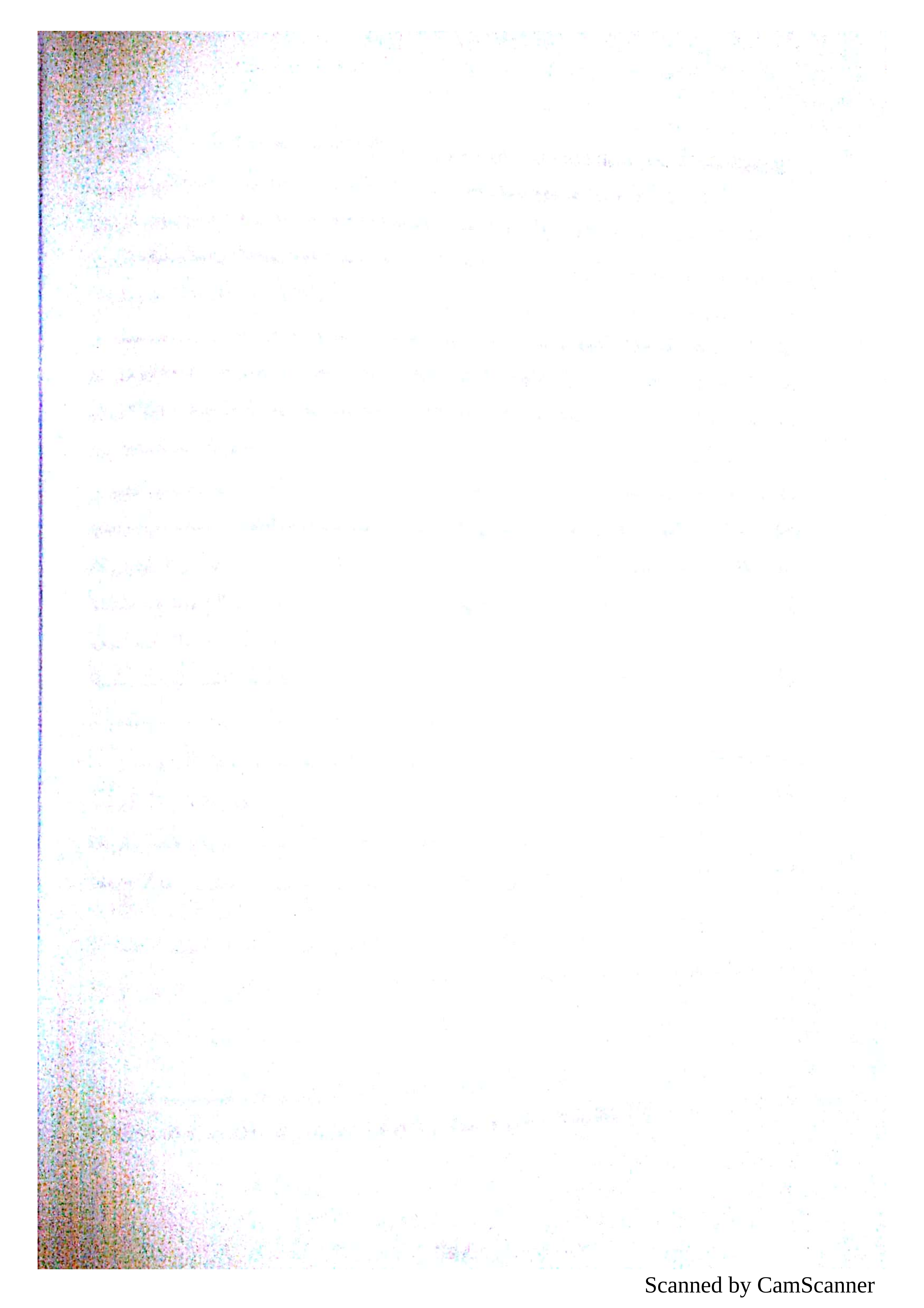
52- يشير ابن خلدون في العبر إلى أن المرتضى لم يكن بإمكانه الالتجاء إلى علي بن زجدار الذي تمرد على المرينيين، كما لم يكن بإمكانه الالتجاء إلى هنتاتة، لأن أبا دبوس كتب إلى الأول يطلب منه أن يبايعه، كما أن هنتاتة كانوا من بين الذين بايعوه.

نصحه بقتله. وهكذا أعطى الخليفة الأمر بأن ينفذ ذلك أثناء نقله إلى مراكش. وعند الوصول إلى فرزغون وجد هناك السياف المكلف بتنفيذ الأمر، لذا أوقفت البغلة التي كان يمتطيها وهو مكبل اليدين وحُفر قبره. وأمام هذا المشهد، طلب السماح له بأن يصلي ركعتين، تلفظ على إثرهما بالشهادتين وأعطى عنقه للسياف. حدث ذلك يوم الثلاثاء 22 صفر 665هـ (22 نوفمبر 1266م) بعد شهر واحد من فراره من قصره[53].

صحيح أن المرتضى وقبل توليه الخلافة شغل دائماً مناصب قليلة الأهمية، لكنه في المقابل كان ذا ثقافة عالية، ولم يكن يحب القراءة فقط بل كان مولعاً أيضاً بالكتابة، حيث نظم الشعر وكتب النثر، ورغم أنه شاعر متوسط الموهبة، فإنه لم يغفل جمع أشعاره في ديوان خاص. ومن بين أهل العلم الذين قربهم منه، هناك العالم الموسوعي ابن القطان الذي أهداه عددا من أعماله. وبجانب ولعه بالأدب، كان له ولع خاص بالموسيقى. والحقيقة أن حبه لحياة البذخ والترف جعلته غير قادر على مواجهة المشاكل الخطيرة التي عرفتها البلاد، خصوصاً وأن طبعه اللين الذي يميل إلى التريث والتمهل كان وراء تفاديه الدخول في المواجهات المباشرة، ليس فقط في علاقاته مع شيوخ العرب الذين ما كانوا ليترددوا في خيانته، أو أعدائه الشخصيين الذين استعمل معهم سوء النية والمكر والخداع بدل المواجهة للتخلص منهم، وإنما كذلك مع المرينيين حيث اضطر، تفادياً للقتال ضدهم، والذي كان يتكبد فيه باستمرار هزائم مخجلة، إلى توقيع اتفاقية سلم معهم،عرض من خلالها سمعة الخلافة إلى عار دفع الجزية.

إن خمول المرتضى وانعدام المواهب القيادية والقدرة على رد الفعل لديه، يتأكد لنا من خلال السلبية التي تعامل بها مع حصار أبي دبوس لمراكش، وهو الحصار الذي انتهى بفراره بطريقة مخزية وبموته بطريقة مأساوية أصبحت معها نهاية الأمبراطورية أمراً حتمياً، عجل به لا محالة الطموح الأعمى لخلفه، الذي ما كان ليتردد في الارتماء في أحضان المرينيين أعداء الموحدين الألدة.

53- يقول ابن عذاري عن المكان الذي دفن فيه: «وقبره الآن مشهور بفرزغون»، البيان المغرب، م. س.، ص. 44.



الفصل الثاني عشر

أبو دبوس بن أبي عبد الله محمد بن عمر ابن عبد المومن، آخر خليفة موحدي

اسمه الشخصي أبو العلاء، وعرف بأبي دبوس لأنه وعلى عهد إقامته بالأندلس لم يكن يفارق دبوسه. هو الأخ الأصغر (من بين تسعة إخوة) لعبد الله البياسي خصم الخليفة العادل الذي تحدثنا عنه من قبل[1]. بعد اعتلائه عرش الخلافة سمى نفسه الواثق بالله والمعتمد على الله. كان أشقر الشعر أزرق العينين أبيض البشرة مما يدل على أن أمه كانت جارية مسيحية. وقد حكم سنتين وأحد عشر شهراً وثمانية أيام، أي ما بين 22 محرم 665هـ (23 أكتوبر 1266م) ومتم ذي الحجة 667هـ أو فاتح محرم 668هـ (30 أو 31 غشت 1269م)[2].

وكان أول ما قام به بعد توليه الخلافة، هو أداء صلاة الشكر في مسجد القصبة، ثم الخروج إلى المدينة لإيقاف أعمال النهب التي كان يقوم بها الأوباش والذين قتل اثنان منهم. ورغم أن بيت المال كان شبه فارغ من السيولة، واحتياطي المؤونة نفد من خزائن الدولة، فإنه ومن أجل الحصول على الشعبية اللازمة، ألغى ضريبة المكوس التي فرضت على الأهالي قبل اعتلائه العرش بوقت قصير، واكتفى بغيرها من الضرائب، وفتح في وجه التجار ثلاثة من أبواب المدينة هي باب النفيس وباب

1- لا زال المهتمون بتاريخ هذه المرحلة يعتقدون وإلى اليوم أن عبد الله وهو ابن حفيد عبد المومن، لُقب بالبياسي لتمرده في بياسة، غير أننا نستنتج مما ورد عند صاحب البيان المغرب، الذي يقول إن عبد الله وإخوته التسعة عرفوا باسم البياسيين، نستنتج أن والد هؤلاء، محمد حفيد عبد المومن عاش سنوات طويلة بهذه المدينة - ربما كان عاملاً عليها- وقد حمل أبناؤه العشرة اسمها لأنهم ولدوا جميعاً بها.

2- وزر من السادة أبا زيد عبد الرحمن بن السيد أبي عمران، وأخاه من أبيه أبا موسى عمران بن أبي موسى، ومن الشيوخ ذوي الحظوة أبا محمد بن زاجو وأبا زيد بن عبد الكريم، ومن العامة أبا الحسن الموجيلي، وعين ككاتب خاص أبا الحسن الرعيني ثم أبا عبد الله التلمساني وكلاهما ممن تولى هذا المنصب مع خلفاء سبقوه، في حين عين في منصب الجابي أبا عبد الله ابن أبي البركات الذي شغل هو الآخر هذا المنصب مع خلفاء سابقين، وأخيراً عين على القضاء إسحاق بن القصاص.

المخزن وباب أغمات (أطلق على هذه الأخيرة اسم باب الفتح لأنه دخل منها مراكش)، بحيث أصبح بإمكانهم إدخال وإخراج السلع دون أية قيود. وقد شمل سخاؤه أصحاب الأراضي الزراعية بمنطقة مراكش والذين أسقطت عنهم الضرائب، وكذا جنوده الذين أجزل لهم العطاء. ولم يجد صعوبة في العثور على المال لإرضاء هؤلاء، وذلك بالتجائه إلى التقليد المعتاد والمتمثل في تغريم بعض كبار الموظفين المسؤولين على الأملاك العامة، وذلك بعد عزلهم واعتقالهم.

ومع وصول أخبار اعتلائه العرش الأمير المريني، أرسل سفارة إلى مراكش لتهنئته وفي نفس الوقت مطالبته بالالتزام بما اتفقا عليه، غير أن الخليفة الجديد وفي نشوة النجاح لم يبال بطلب الأمير المريني، الذي وأمام إحساسه بالإهانة خرج ضده. وقد غادر فاس في ربيع الثاني (30 سبتمبر 1266م)، بعد شهرين من دخول أبي دبوس مراكش، مروراً بتامسنا ثم بدكالة التي دمرها بعد نهبها[3]. وبجانب حصده لعداء الأمير المريني، دخل أبو دبوس في عداء مع شيخ هسكورة مسعود ابن جلداسن الهسكوري وكان من الذين أبلوا البلاء الحسن في نجاحه. وللقضاء عليه، خرج الخليفة مباشرة بعد مرور شتاء 1266م/1267م، أي بعد ستة أشهر من اعتلائه العرش، في حملة ضد هسكورة، غادرت مراكش يوم الخميس 5 شعبان (فاتح مايو 1267م). وكانت أول نقطة وضع مخيمه بها هي "بحيرة بولحرب". وبعد أن مكث هناك أسبوعاً كاملاً كان يقوم فيه بالإجراءات الأخيرة المتعلقة بالحملة، انتقل يوم 8 مايو (12 شعبان) إلى نقطة محاذية لنهري أغمات والزاط، توجد بمنطقة هيلانة، وتعرف باسم دار الرماق، ثم إلى نقطة أخرى تسمى تادارت معطاسة وضع مخيمه بها في 19 شعبان (15 مايو). وقد استقبل هناك مبعوثه لدى بني مرين الولي الصالح أبا العباس الحميدي بن مخلوف، والذي أمره بالعودة مرة أخرى إلى فاس بتعليمات جديدة تهم إقامة السلم مع المرينين. في تلك الأثناء، وبفضل مساعي الوزير أبي فارس عبد العزيز بن عطوش، تم الصلح بين الخليفة ومسعود بن جلداسن، والذي بمقتضاه تراجع أبو دبوس عن قراره في مهاجمة هسكورة، وأخذ طريق العودة إلى مراكش في 25 شعبان (21 مايو) عبر وادي الدبل ثم عبر تانسيفت. وكانت عودته إلى العاصمة ضرورية، أولاً ليضع حداً لتجاوزات العرب الموجودين

3- لتبرير الهجوم المريني، يقول صاحب الذخيرة إن أبا يوسف وبعد أن علم بانتصار أبي دبوس أرسل سفيره ليهنئه وفي نفس الوقت يطلب منه الالتزام بما اتفقا عليه. غير أنه وبعد أن قرأ الرسالة قال للسفير: «*ما بيني وبينه عهد إلا السيف، ارجع إليه وأمره أن يبعث بيعته وأقره على ما بيده من البلاد ...*»، وكانت الرسالة بنفس الأسلوب الذي يتوجه به الخلفاء إلى عمالهم والقواد إلى أتباعهم، لذا قرر أبو يوسف بعد قراءتها الخروج ضده. الذخيرة السنية، م. س.، ص. 111.

بها، وثانياً لإجهاض مؤامرة دبرها في غيابه عبد العزيز بن الخليفة السعيد الذي اعتبر أنه أحق بالخلافة من أبي دبوس، لكونه ينحدر وبشكل مباشر من نسل يعقوب المنصور. وكان قد دعمه في تطلعه ذاك شيوخ من بينهم ابن بخيت وابن جلداسن، بينما عارضه آخرون من بينهم أبو الشرف عبد الرفيع وابن عبد القاهر.

وكان أبو دبوس قد علم بالمؤامرة أثناء وجوده بتادارت معطاسة لكنه لم يخبر بها أحداً بمن في ذلك خاصته. فقط عند وصوله إلى وادي تانسيفت، أرسل من يخبر بالأمر عامل مراكش ابن أخيه السيد أبا زيد بن عبد الرحمن الذي أمره بالتحقق من الموضوع، وقتل مدبر المؤامرة بعد الحصول على الدليل الذي يثبت إدانته[4].

وبعد استئصاله لهذا الخطر، أرسل الخليفة فصيلة عسكرية لاستخلاص الضرائب من حاحا وركراكة، كما خرج على رأس فصيلة أخرى لإخماد تمرد سوس، وكان ذلك في نهاية شهر مايو أو مطلع شهر يونيو. وفي تانسيفت وهي المحطة الأولى التي توقف بها، استقبل سفير أمير تلمسان يحيى يغمراسن الذي بعث له بهدايا ورسالة يقدم من خلالها فروض الطاعة ويعبر عن استعداده لمساعدته ضد المرينيين.

وبعد اجتيازه الأطلس، أمر الشيخ أبا زكريا أن يتقدم الحملة حتى يعبئ بقية قبائل الأطلس الذين يحتلون جبل سروة، والذين سبق وهاجموا على عهد أبي يعقوب يوسف مَنجم أغبار[5]، بينما توغل هو مع بقية الجنود في وادي سوس عبر مسكروطن -فم أمسخود الحالية- حيث احتفل بعيد الفطر (25 يونيو 1267م)، قبل أن يواصل طريقه في اليوم الموالي إلى مكان يعرف باسم بني بداس -ينتمي إليها ابن يدر- يقع على نهر سوس، على مسافة ستة أميال من تيوينوين. وقد مكث هناك ثلاثة أيام، قام خلالها بتسليم ظهائر إلى جزولة وبقية قبائل السهل، يأمرهم من خلالها بالمكوث بتلك المنطقة إلى غاية القضاء على تمرد ابن يدر. إثر ذلك انتقل إلى بني تازغونت التي وضع مخيمه بها يوم 6 شوال. وبعد أن تداول مع مستشاريه حول المحطة الموالية التي يجب الخروج ضدها، وكان الخيار بين بني تورغت وبني تيزغت[6] تم تفضيل الأولى، لأن الأمر يتعلق بغدير مهم. وعند

4- اعتمد في اعتقاله على تاجر يدعى أبا العباس السقاطي.

5- يتحدث ابن عذاري الذي عاش في فترة قريبة جداً من عصر آخر خليفة موحدي، عن هذه الحملة ومراحلها بدقة كبيرة.

6- قد يسمح القيام بدراسة جغرافية أو طبوغرافية جادة ومتأنية لمنطقة وادي سوس، بالتعرف على عدد من الأماكن التي وردت أسماؤها فيما جاء عند ابن عذاري بخصوص الحملة.

وصولها، أُمر شيخ جنفيسة عبد الله بن محمد، بقطع المياه على سكان المنطقة وبتحويلها نحو مكان وجود المخيم الموحدي. بعد ذلك قصدت الحملة بني مقر ثم تارودانت التي وصلتها في 8 شوال (2 يوليو)، فحصن تيزغت التي وصلته في اليوم الموالي، وكان مكلفاً بالدفاع عنه القائد حمدين صهر وابن عم علي بن يدر. وفي مساء 12 شوال (6 يوليو) وبعد أربعة أيام من الهجومات المتتالية، اضطر حمدين للاستسلام للموحدين. وكان من بين الأسرى كذلك إحدى أخوات علي بن يدر. وقد خصص الموحدون ليلة الخميس 12 شوال وكل نهار الجمعة 13 لنهب الحصن الذي قتل عدد كبير من المدافعين عنه، في وقت تعهد فيه حمدين ومقابل الحصول على حريته بدفع فدية قيمتها 70 ألف دينار. وفي اليوم الموالي (السبت 14 شوال)، واصلت الحملة سيرها بعد أن كتب الخليفة رسائل رسمية تخبر بسقوط تيزغت، في نفس الوقت قام بتوديع شيوخ الساقية الحمراء الذين جاؤوا لتقديم البيعة. وفي يوم الأحد، وبعد التوقف في منطقة تعرف باسم أبي داود، استقبل زكريا بن وانودين الذي جاء على رأس وفد من بني واوزغيت أعداء علي بن يدر لإعلان ولائه للخليفة الجديد. وفي 23 من نفس الشهر (17 يوليو) وضع الموحدون مخيمهم بجوار تارودانت التي كانت في حالة خراب تام. بعد ذلك وبالضبط في 27 شوال (21 يوليو) أُرسل إلى مراكش من يستقدم معدات الحصار، وذلك لاستعمالها في محاصرة حصن تيوينوين المعروف. وكان الجيش الموحدي يعلق الأمل على حمدين وهو أسير عنده، أن يقوم بإقناع المحاصرين بتسليم الحصن، غير أن هؤلاء لم يأبهوا به، وهو ما جعل الجيش يبدأ بصنع المجانيق، حيث استغرق ذلك 12 يوماً. ومباشرة بعد الانتهاء منها، أي في 13 ذي القعدة (4 غشت) بدأت الهجومات التي امتدت طيلة ثمانية أيام. ورغم أن الموحدين لم يتمكنوا من اختراق الحصن، فإن سكانه طلبوا الأمان وتعهدوا بأن يعملوا ما في جهدهم ليجعلوا علي بن يدر يعلن خضوعه، وهو ما تحقق بالفعل حيث أرسل علي بن يدر مبعوثيه يعلنون خضوعه. في غضون ذلك، وبالضبط في يوم 29 ذي القعدة (20 غشت) حل بالمخيم العديد من عرب معقل الذين جاؤوا لتجديد البيعة، حيث استقبلهم أبو دبوس بحفاوة كبيرة، قبل أن يعلن عن انتهاء مهمة الحملة، ويأمر بعودتها إلى مراكش التي دخلها دخول المنتصرين في 28 محرم 666هـ (9 أكتوبر 1267م).

إثر ذلك اضطر أبو دبوس، وبسبب الهجومات المرينية التي استهدفت منطقة دكالة وأشاعت فيها الخراب[7]، إلى محاباة يغمراس، بحيث وطمعاً في مساعدته لمهاجمة المرينيين أعدائهما

7- تحول الذخيرة السنية هذه الهجومات إلى حصار مؤقت لمراكش. م. س.، ص. 115.

المشتركين، بعث له بالهدايا النفيسة حسب ابن خلدون[8]. وقد لبى يغمراسن الطلب وقام بمجموعة من الغارات شمال المغرب وبمنطقة ملوية، وهو ما أجبر أبا يوسف يعقوب ومن أجل صدها على الانسحاب من دكالة.

وكان خروج الجيش المريني من فاس في منتصف ربيع الأول عام 666هـ (4 ديسمبر 1267م) حيث تواجه مع قوات يغمراسن في وادي تلاغ القريب من ملوية[9]. والواقع أن الطرفين خاضا المواجهة بجدية كبيرة، ووضع كل منهما قرب مكان المعركة العربات التي كانت تحمل نساءهم وعيالهم الذين ارتدوا أحسن ما عندهم وكانوا يشجعون المقاتلين بترديدهم لأناشيد حربية تلهب الحماس. وقد دامت المعركة التي وقعت يوم الاثنين 12 جمادى الثانية (فاتح فبراير 1268م)، من الضحى إلى منتصف النهار ، وفيها دارت الدائرة على بني عبد الواد حيث اضطر يغمراسن للانسحاب بسرعة نحو تلمسان، في وقت سقط فيه قتيلاً ابنه وولي عهده عمر، إضافة إلى عدد من مساعديه الأقربين.

ولم يتوقف أبو يوسف يعقوب بعد هذا الانتصار في فاس إلا وقتاً قصيراً، بحيث خرج بعد شهر ونصف، أي في فاتح شعبان (16 أبريل 1268م) ضد أبي دبوس الذي نقض عهده معه ونسي المساعدة التي قدمها له، وتحالف مع عدوه يغمراسن. وقد توغل أبو يوسف إلى غاية أم الربيع حيث قضى فصلي الربيع والصيف في اكتساح المنطقة ونهب محاصيلها الفلاحية. ومع حلول الخريف وبالضبط في فاتح محرم 667هـ (10 سبتمبر) قصد تادلة حيث استقر الخلط الذين بايعوا أبي دبوس. وبعد أن وضع مخيمه في وادي العبيد، قام بمهاجمتهم وتمكن من الاستيلاء على أمتعتهم وأسر نسائهم. من هناك مر إلى منطقة صنهاجة التي نهبها هي الأخرى، ثم عاد إلى فاس لقضاء فصل الشتاء قبل أن يجدد هجوماته على أراضي الموحدين في الربيع الموالي. هذه الهجومات امتدت إلى غاية حوز مراكش التي حل بها في ذي القعدة 667هـ (يوليو 1269م). وبسبب غاراته المتكررة، ألح شيوخ الموحدين والعرب على الخليفة للخروج ضده، بعد أن ادعوا أن الأمر يتعلق فقط بفصيلة عسكرية، وأن بقية الجيش المريني بقيت في تازة لحمايتها من هجمات بني عبد الواد. وقد صدقهم أبو دبوس وجمع قواته من الموحدين والعرب والغز والمسيحيين وخرج يقتفي أثر العدو الذي تظاهر بتخوفه منه وبدأ بالانسحاب مبتعداً عن العاصمة. وبعد أن

8- العبر. م. س.، الجزء السادس، ص. 550-551.

9- الذخيرة السنية، م. س.، ص. 115.

استدرجه إلى غاية وادي أغفو دخل معه في مواجهة شارك فيها أبو دبوس بنفسه، الذي وأمام عدم توفره على العدد الكافي من الرجال الذين يمكن أن يضمن بهم الانتصار، حاول الفرار والالتجاء إلى العاصمة لكن دون أن يستطيع، لأن العدو لحق به وأرداه قتيلاً بعد أن أسقطه من فوق صهوة جواده. حدث ذلك يوم الأحد 2 محرم 668هـ. إثرها قُطع رأسه وحُمل إلى الأمير المريني الذي أمر بنقله إلى فاس والطواف به عبر أسواقها قبل تعليقه على أحد أبوابها.

وقد توجه أبو يوسف يعقوب مباشرة إلى مراكش، في وقت لم يجد فيه كبار شيوخ الموحدين ومعهم عائلة أبي دبوس من مخرج غير الفرار إلى جبال الأطلس حيث بايعوا هناك إسحاق أخا المرتضى الذي بقي ملتجئاً هناك إلى أن ألقي عليه القبض وعلى ابن عمه أبي سعيد بن السيد أبي الربيع وعائلتيهما عام 674هـ (1275م)، حيث اقتيدوا إلى مراكش للمثول أمام السلطان المريني الذي أعدم الجميع.

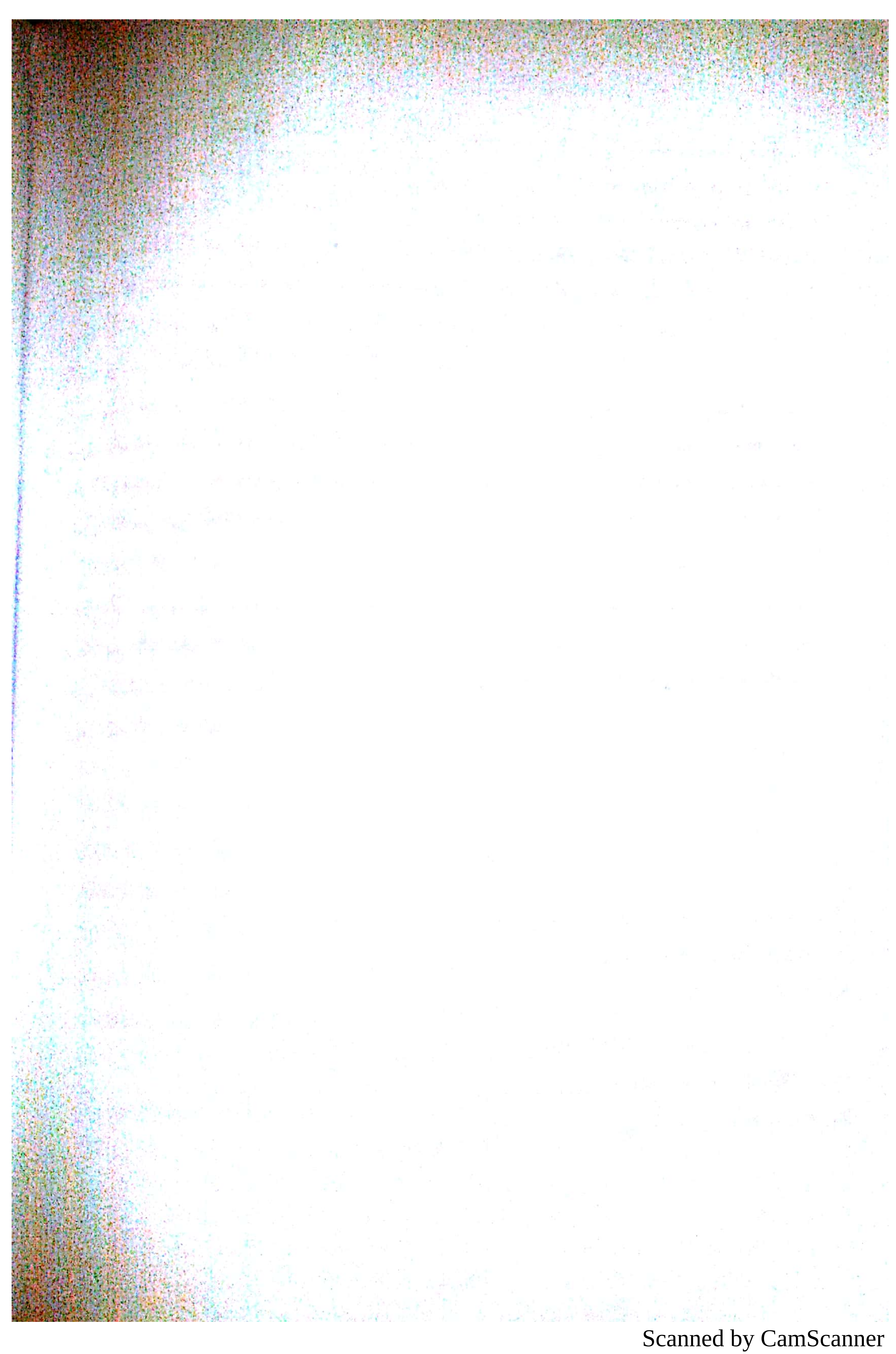
وكان فقهاء العاصمة وقضاتها وموظفوها الموحدون قد خرجوا أثناء دخول المرينيين لاستقبال السلطان الجديد وطلب الأمان الذي منح لهم يوم الأحد 9 محرم (8 سبتمبر 1269م). والظاهر أن أبا يوسف يعقوب كان كريماً معهم، بحيث زكاهم في مناصب، في نفس الوقت الذي أطلق على نفسه لقب أمير المسلمين.

من جهة أخرى وبخصوص أبي دبوس الذي يعتبر عملياً آخر خليفة موحدي، فهو في الأصل واحد من السادة الكثيرين الذين ساهموا في تأجيج حدة الحروب الأهلية التي كانت وراء طرد الموحدين من الأندلس. وقد عاد إثر ذلك إلى مراكش وهو يراهن على شيئين: أصله الملكي وشهرته كمحارب شجاع، هذا وذاك أهلاه لشغل منصب وزير المرتضى. وكان النجاح الذي حققه ضد الهجوم المريني على العاصمة، وكذا مساهمته في حياكة المؤامرات داخل البلاط وراء إقدامه على تلك الخطوة الخطيرة التي جعلته يقع بين يدي ألد أعدائه، الأمير أبي يوسف يعقوب الذي لم يكن ليسمح بأن يخدعه شخص مثل أبي دبوس أصبح يظن وبسذاجة أنه بإمكانه، بعدما وصل إلى الحكم، الاستغناء عن المرينيين الذين ساعدوه في تحقيق ذلك. وهكذا قام باستفزازهم دون أن يضع حساباً للعواقب، معتقداً أن تحالفه مع يغمراسن سيقيه خطرهم، وهو ما كان مخطئاً فيه، لأن تصرفه ذاك لم يترتب عنه فقدانه العرش فقط والذي ضحى من أجله بالغالي والنفيس، وإنما حياته كذلك. والواقع أنه إذا كانت من كلمات تقال في حق هذا الخليفة فهي: القدرة على حياكة المؤامرات، وخلق الصراعات، ومداهنة السُوَقة، ونقض العهود. وكلها أمور لا ترقى لأن تكون في شخص كتب له أن يحمل لقب آخر خليفة موحدي.

وبعد نهايته المأساوية تلك، كانت هناك محاولة أخرى لتمديد عمر الإمبراطورية الموحدية، قام ابنه عبد الواحد الذي التجأ إلى تنملل حيث بويع تحت اسم الخليفة المستعين بالله، غير أن أحداً لم يصدق بأن هناك عمراً جديداً للخلافة الموحدية، وهكذا وبعد خمسة أيام من مبايعته، تم خلعه، أو ربما تنازل من تلقاء نفسه، بعدما أدرك أن الخلافة الموحدية التي سعى إليها لم تعد إلا سرابا، ولجأ إلى الأندلس حيث أصبح تحت حماية ملك أراغون ألفونسو الثالث، الذي رخص له بالإقامة في قلعة أيوب ثم في بلنسية بعدما خصص له معاشاً وكذا لابن عمه حاكم بلنسية السابق السيد أبي زيد الذي كان قد اعتنق المسيحية. بعد ذلك ودائماً أثناء وجوده في خدمة ملك أراغون، حاول تولي الحكم في تونس، غير أنه قتل أثناء الحملة التي خرج فيها إلى هناك والتي باءت بالفشل، رغم الدعم الذي قُدم له من طرف أسطول "روجير دي لوريا" Roger de Lauria. ولم يكن مصير أخيه عثمان بأحسن من مصيره، حيث، وسيراً على نفس خطاه، انتهت حياته بشكل غامض في منطقة جربة.

أما القلة القليلة من شيوخ الموحدين الذين لاذوا أثناء دخول المرينيين العاصمة بالفرار، إلى الجبال التي بايعوا بها إسحاق أخا المرتضى بعد ذهاب عبد الواحد إلى الأندلس، فقد بقوا في معاقلهم الأطلسية إلى سنة 674هـ (1275م)، إذ ألقي عليهم القبض بعد فشلهم في صد هجوم مريني استهدف تلك المنطقة الوعرة التي اعتصموا بها، واقتيدوا إثر ذلك إلى مراكش حيث نفذ فيهم حكم الإعدام كما سلف ذكره.





اعتبارات عامة

تناول عدد من الباحثين المعاصرين من أمثال "شارل أندري جوليان" و"هنري طيراس" و"جورج مارسي" الخطوط العريضة للإصلاح الموحدي وللإمبراطورية التي قامت على أساسه في بلاد المغرب، والدور الذي لعبته في تاريخ الغرب الإسلامي، وهكذا بينوا خصوصيات الحضارة الموحدية ونشاطها الديني والعسكري والاقتصادي، كما تطرقوا لإنتاجها الأدبي والفلسفي والفني، وأعنوا الانتباه إلى ما يستحقه كل ذلك من اهتمام.

لقد ظهرت الحركة الثورية الموحدية المعادية للمرابطين، والتي انحصر وجودها في البداية بالأطلسين الكبير والصغير، بمظهر غريب بل وعدائي للحضارة الأندلسية التي تبناها المرابطون، وهكذا لم يعتمد التنظيم السياسي والإداري لقبائل مصمودة على النظام المخزني ولا على هيئة الوزراء والكتاب الذين ينظمون الإدارة، على غرار ما كان عليه الأمر مع المرابطين، كما لم يكن لهذه القبائل اهتمامات فنية، ولا تجاوز نشاطها الاقتصادي حاجيات سكان جبليين متعودين على الحياة الصعبة لمنطقة الأطلس الفقيرة.

إن المجال الوحيد الذي قبلت فيه القبائل الموحدية القيام ببعض التغيير في البداية هو المجال الديني، بحيث إنها تجاوزت الحدود الضيقة لإسلامها التقليدي، وقبلت بالتجديد والتنظيم الصارم الذي فرضه عليها إمامها المهدي. غير أن الوضع سوف يتغير بعد القضاء على الإمبراطورية المرابطية، وهكذا فعبد المومن ورغم حرصه على الاحتفاظ بالعقيدة الموحدية، المتعصب لها، دون أدنى تغيير كما وضع أسسها المهدي، فإن إرثه لمؤسسة إدارية بمكنزمات معقدة، واتصاله بالمراكز الثقافية الكبرى لبلاد المغرب والأندلس، دفعه لترك انعزاله التقشفي،

وفتح الأبواب للتأثيرات الثقافية للأعداء الذين هزمهم، وهكذا نجده يحتفظ بالوزراء والكتاب المرابطين، ويعتمد في تعليم الطلبة والحفاظ على أساتذة أندلسيين، ويفتح المجال -دون أن يعي بذلك- لازدهار الفنون.

لم يكن عبد المومن، بخلاف ابنه وحفيده، نتاج وسط مرهف متأثر بالثقافة الجمالية، لذا كانت عروض قتالية متقنة يقوم بها جيش مسلح ومدرب تدريباً عالياً، أجمل من كل الإبداعات الفنية التي قد ينتجها الكائن البشري. ولهذا لم يفكر في تشييد القصور الفخمة، بل قنع بما ورثه عن أعدائه. أما تشييده للمساجد العظيمة، فسببه رغبته في تأكيد تدينه الشديد، وهو في هذه المساجد نجح وبتلقائية في المزج بين الغنى الفني الأندلسي والتقشف والبساطة الموحدين، الشيء الذي نتج عنه توازن يثير الإعجاب.

إن أوائل خلفاء الموحدين وبفتحهم الأبواب للتأثيرات الخارجية، أرادوا التوفيق بين هذه التأثيرات وبين عقيدة ابن تومرت الصارمة. وقد رأينا كيف أنه في بداية الدعوة وأثناء وجود المهدي بالأطلس، كان تَرْكُ الواجبات الدينية يعاقب عليه بصرامة كبيرة، وكيف أن الوعظ ونشر التوحيد استمرا داخل الدوائر الرسمية، والتي كانت السلطة المركزية تحاول من خلالها نشر العقيدة الحقة داخل كل أرجاء الإمبراطورية.

وبحكم أن الموحدين جددوا فقط في الجانب الديني، فإنهم لم يدخلوا في بلاد المغرب أية إصلاحات أخرى غير تلك المستقاة من مبادئهم وقناعاتهم الدينية، بحيث إن سَن نظام الخلافة نفسه كان نتيجة حتمية لإيمانهم بعقيدة المهدي. أما التعديلات التي أدخلوها على الإدارة فكانت محدودة، إذ احتفظوا بما ورثوه عن المرابطين، مع منح امتيازات خاصة للقبائل المؤسسة، بحيث آلت كل المناصب المهمة إلى أوائل الذين اتبعوا الدعوة الموحدية ثم إلى المنحدرين منهم، وكذا إلى الهيئة الخاصة من الطلبة والحفاظ والتي بعد أن نشأت وترعرعت على مبادئ التوحيد، أصبحت تشكل الهيئة البيروقراطية التي تعتمد عليها الإمبراطورية في تسيير شؤونها.

إن الإيمان المتوهج الذي فرض بالحديد والنار، والذي اجتمعت عليه قبائل، أهم ما يميزها هو الميل الطبيعي للفردية والانعزالية، جعل ظهور إمبراطورية عظيمة أمراً ممكناً. غير أن هذا الإيمان سوف يضعف بشكل تدريجي، بحيث إن عقيدة التوحيد لم تستطع أن تحل محل المالكية المنتشرة في بلاد المغرب ولا محل الظاهرية الموجودة في الأندلس. وهكذا فالتأثر بما هو أندلسي، بل وفقدان الإيمان بعقيدة التوحيد ظهر جلياً عند بعض الخلفاء، فخَلَف عبد المومن

يوسف الأول، ورغم أنه بربري الأصل، كان لا يختلف، بحكم تربيته الأندلسية، في ثقافته وذوقه الفني الرفيع عن ملوك الطوائف الأندلسيين، اللهم ما تعلق بمواهبه السياسية وعظمة الإمبراطورية التي كان على رأسها، وحفيد عبد المومن يعقوب المنصور، لم يُسلم أبداً بعصمة المهدي وبعقيدته، وابن هذا الأخير المأمون أنكر علناً هذه العقيدة، وهو ما تبخر معه كل الحماس الموحدي القائم على الجهاد ضد المجسمين.

ومع ذلك، تبقى تجربة الموحدين فريدة من نوعها، لأنها سمحت لأول وآخر مرة في تاريخ المغرب، بتوحيد بلاد البربر المسلمة على أسس لاهوتية غيبية. والواقع أن العقيدة الموحدية وخصوصاً مواهب الخلفاء الثلاثة الأوائل، وجدية مساعديهم الأقربين ووفائهم، كانت وراء الازدهار الكبير الذي عرفه الغرب الإسلامي على عصر الموحدين. لكن بعدما أصبح أمر الخلافة بيد أطفال أو بيد طامعين لا كفاءة لديهم، حادت الإمبراطورية عن المسار الذي رسمه لها الخلفاء الأوائل وبالتالي عرفت تشرذماً وتمزقاً كانا سبباً في نهايتها.

لقد كان هناك تناقض لا يمكن تصوره بين حماس الموحدين الأوائل (السابقين) والذين كرسوا لقضيتهم كل إمكانياتهم وإمكانيات قبائلهم، وبين لا مبالاة الشعوب التي خضعت لطغيانهم، وهكذا فقد كانوا (على غرار القوط في شبه الجزيرة الإيبيرية) يحكمون بلاداً لم يكن لسكانها الأصليين أي رد فعل تلقائي ضد المتمردين، سواء كان هؤلاء من العرب الرحل الذين استنزفوا خيرات البلاد، أو من غيرهم من المتمردين، مثل بني غانية، الذين قاموا وباستمرار ضد الحكم الموحدي، ومن هنا كان لزاماً ولإخماد هذه التمردات إعداد الجيوش الجرارة التي يقودها الخلفاء، وهو ما ليس بالأمر السهل الذي يمكن تكراره باستمرار.

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة للموحدين الأوائل، فما بالك مع المتأخرين منهم الذين أصبح الجبن من صفاتهم، بحيث غدوا بسببه عاجزين عن القيام بأي مجهود حربي، وهو ما جعلهم يخضعون للقبائل العربية، وخصوصاً للمرينيين الذين استولوا على أرجاء الأمبراطورية الشاسعة، المنطقة تلو الأخرى. والواقع أن عدم التبصر السياسي الذي ميز أواخر الخلفاء الموحدين، والطموحات غير المبررة للسادة، والنفوذ الواسع الذي أصبح يتمتع به شيوخ الموحدين الذين استولوا على السلطة، كان بمثابة سوسة الخشب التي نخرت الجسم العملاق الذي ما فتئ أن تهاوى.

ولم تكن المشاكل التي عانى منها الموحدون في شبه الجزيرة الإيبيرية بأقل من تلك التي سببتها لهم القبائل العربية في بلاد المغرب. صحيح أنهم دشنوا وجودهم في الأندلس بالقضاء

على ملوك الطوائف (خلال مرحلة ظهورهم الثانية) دون مقاومة ذات بال من طرف هؤلاء، وضموا بذلك الأندلس إلى إمبراطوريتهم، وصحيح كذلك أنهم أوقفوا تقدم حروب الاسترداد، لكنهم في المقابل لم يتمكنوا من إخضاع ولو مملكة مسيحية واحدة، رغم تواضع هذه الممالك والنزاعات الجانبية التي كانت تمزقها. بل إن المنصور فقط، ودون غيره من الخلفاء، تمكن بفضل مواهبه الكبيرة كحاكم وقائد عسكري، وبفضل تفوقه في العدة والعتاد، من إيقاف -بشكل مؤقت فقط- التقدم المسيحي، بعد الانتصار الذي حققه في معركة الأرك التي كانت نتائجها رمزية أكثر منها عملية. والدليل على ذلك أن حروب الاسترداد سوف تستأنف من جديد، خصوصاً بعد التحالف بين ليون وقشتالة، وتزايد قوة أراغون، وفي الوقت ذاته تراجع قوة الأمبراطورية الموحدية في بلاد المغرب وفقدانها السيادة على الأندلس، وهو ما جعل مسلمي شبه الجزيرة والذين تخلى عنهم خلفاء مراكش، يواجهون مصيرهم بأيديهم.

إن الخلفاء الموحدين لم يدركوا الخطر الذي يمكن أن يأتيهم من القبائل العربية في بلاد المغرب ومن الساكنة المسلمة في الأندلس، وهكذا فبسبب تعصبهم للغتهم وعقيدتهم، لم يروا في القبائل العربية غير قوة عسكرية يمكن الاستفادة منها لتحقيق مآربهم، وعلى هذا الأساس، نقلوهم إلى المغرب الأقصى، وتركوهم يعيثون في الأرض فساداً. وبسبب حكمهم الطغياني (شأن حكم المرابطين) نالوا حقد مسلمي الأندلس وكراهيتهم، وهو ما استغله ابن هود وأتباعه للقضاء على سلطتهم.

لقد أراد ابن تومرت أن يجبر البسطاء والأميين من العامة على قبول ما تعلمه في المدارس المشرقية من معارف دينية تجريدية عميقة، رغم أن ذلك لم يكن في متناولها، ولعل هذا ما جعلها تميل إلى الممارسة الصوفية الأكثر بساطة وحرارة، حيث أقبلت على كبار الأولياء، وهو ما كان يتماشى مع توجهاتها الفطرية.

إن حالة السلم التي عرفها العصر الموحدي على عهد تولي السادة حكم الولايات، يمكن مقارنتها وإن بشكل جزئي بالسلم الروماني، غير أن هذا السلم استمر لفترات محدودة جداً، ذلك لأن بلاد المغرب كانت متعودة على الحروب المزمنة، كما أن دماء البشر كانت تراق فيها دون أدنى اعتبار، لذا لا يمكن، حسب تقديرنا، قبول الفكرة التي تقول، إن المرأة العزلاء كان بإمكانها أن تتنقل وحدها من برقة في ليبيا إلى نول لمطة على الساحل الأطلسي دون أن يزعجها أحد، بل الصحيح وكما لاحظ ابن خلدون، هو أن الخراب وانعدام الأمن جعلا من المناطق الداخلية في إفريقية وأجزاء من المغرب، وبعد أن هجر الأهالي ديارهم، أطلالاً لا طير يطير في سمائها ولا وحش يسير في أرضها.

المصادر والمراجع

قائمة الأعمال الكاملة لإمبروسيو هويثي ميراندا

المصادر والمراجع العربية

المصادر والمراجع الإسبانية

المراجع الفرنسية

قائمة الأعمال الكاملة
لامبروسيو هويثي ميراندا(*)

1- كتب عن التاريخ الأندلسي

1910 Historia critica de la Guerra de África en 1859-1860 por A. JOLY. Trad. A. Huici, Madrid, Imprenta y litografia de Bernardo Rodriguez, 243 pp. (Reseña sin autor en la revista La Lectura, tomo I (1911), pp. 495-498).

1916 Estudio de la campaña de las Navas de Tolosa, Anales del Instituto General y Técnico de Valencia, I, Valencia, Imprenta Hijos de Francisco Vives Mora, 196 pp.

1956 Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas (almorávides, almohades y benimerines), Madrid, CSIC, Instituto de Estudios Africanos, 407 pp. (Reseñas en RIEEIM, 4 (1956), pp. 213-215; L. Torres Balbás en Al-Andalus, 21 (1956), fasc. 2, pp. 446-447; L. Seco de Lucena en MEAH, 5 (1956), p. 265).

1956-1957 Historia politica del Imperio Almohade, 2 vols., Tetuán, Imprenta Cremades, Editora Marroqui, Instituto General Franco de Estudios e Investigación hispano-Árabe, (vol. I, 1956, 390 pp. y vol. II, 1957, pp. 391-697). (Reseña del primer volumen en RIEEIM, 4 (1956), pp. 208-213 (en árabe); Ch. Pellat en Arabica, 4 (1957), pp. 78-80).

1969-1970 Historia musulmana de Valencia y su región. Novedades y rectificaciones, 3 vols., Valencia, Anúbar, Ayuntamiento de Valencia, (vol. I, 1969, 317 pp.; vol. II, 1970. 246 pp.; vol. III, 1970, 299 pp.).

(*) أنجز هذه القائمة الباحث الإسباني بيثينثي كارلوس نابارو. انظر:
Ambrosio Huici Miranda . Historia Politica del Imperio Almohade . Estudio Preliminar. Emilio Molina Lopez y Vicente Carlos Navarro. Edicion facsimil. Ed. Universidad de Granada., 2000 . P. 692 .

1917- Anónimo de Madrid y Copenhague, Anales del Instituto General y Técnico de Valencia, II, Valencia, Imprenta Hijos dle Francisco Vives Mora. Prólogo 10 pp., trad. y estudio 208 pp., texto árabe 179 pp. (El texto árabe fue impreso en la Imprenta Ibérica, Madrid 1917).

1918- El Cartás. Noticias de los reyes del Mogreb e historia de la ciudad de Fez por Aben Abi Zara. Traducción castellana con prólogo y notas. Anales del Instituto General y Técnico de Valencia, III, Valencia, Imprenta Hijos de Francisco Vives Mora, 454 pp.

1952- "Al-Hulal al-mausiyya" crónica árabe de las dinastias almorávide, almohade y benimerin, Colección de Crónicas Árabe de la Reconquista, I, Tetuán. Editora Marroqui. 240 pp. (Re-señas de E. Lévi-Provençal en Arabica. I (1954), p. 118; L. Seco de Lucena en MEAH, 2 (1953), p. 157; H. Terrase en Hespéris, 42 (1955), 1 y 2 timestres, pp. 272-273 y G. Deverdun en Hespéris, 46 (1959), 1 y 2 timestres, pp. 132-133.

1953- Al-Bayan al-Mugrib fi ijtisár ajbár muluk al-Andalus wa-l-.Magrib por Ibn Idari al-Marrakusi. Los Almohades. Tomo I. Traducción española, Colección de Crónicas Árabes de la Reconquista, II, Tetuán, Editora Marroqui, 339 pp. (Rese-ñas de E. Lévi-Provençal en Arabica, I (1954), p. 245; L. Seco de Lucena en MEAH, 2 (1953), pp. 157-158 y G. De-verdun en Hespéris, 46 (1959), 1 y 2 timestres, pp. 132-133).

1954- Al-Bayan al-Mugrib fi ijtisár ajbár muluk al-Andalus wa-l- Magrib por Ibn Idari al-Marrakusi. Los Almohades. Tomo II. Traducción española. Colección de Crónicas Árabes de la Reconquista, III, Tetuán. Editora Marroqui, 382 pp. (Reseñas de L. Seco de Lucena en MEAH, 2 (1953), pp. 157-158 y de G. Deverdun en Hespéris, 46 (1959), 1 y 2 trimestres, pp. 132-133).

1955- Kitáb al-Mu'yib fi ajbár al-Magrib por. Ábu Muhammad 'Abd al-Wahid al-Marrakusi. Libro de lo admirable en el resumen de las noticias del Magrih. Traducción española, Colección de Crónicas Árabes de la Reconquista, IV, Tetuán, Editora Marroqui, 342 pp. (Reseña de G. Deverdun en Hespéris, 46 (1959), 1 y 2 trimestres, pp. 132-133).

1963- III parte de al-Bayan al-Mugrib por Ibn Idari, [años 533--665], en colaboración con Muhammad b. Tawit y Muhammad Ibrahim al-Kittani, Tetuán, Instituto Mulay al-Hassan, Imprenta Cremades, 490 pp., (Traducción al español de las páginas 11-98 en Ibn Idari: al-Bayan al-Mugrib: nuevos fragmentos almorávides y almohades, Valencia 1963, Textos Medievales 8, pp. 245-448. El resto está traducido en Al-Bayan al-Mugrib

fi ajbár muluk al-Andalus wa-l-Magrib por Ibn Idari al-Marrakusi. Los Almohades. Tomo I y II, Colección de Crónicas Árabes de la Reconquista, II y III, Tetuán 1953 y 1954).

1963- Ibn Idari: al-Bayan al-Mugrib: nuevos fragmentos almorávides y almohadas, Valencia, Textos Medievales 8, Valencia, gráficas Bautista, 490 pp. (Las páginas 1-244 corresponden a la traducción al español del texto árabe publicado en "Un fragmento inédito de Ihn Idari sobre los Almorávides", Hespéris-Tamuda, 2, fasc. 1 (1961). pp. 46-111; las páginas 245-448 corresponden a la traducción al español del texto árabe publicado en III parte de Bayan al-Mugrib por Ibn Idari, Tetuán 1963, pp. 11-98).

1964- Rawd al-Qirtas, 2 vols., Valencia, Textos Medievales 12-13, impreso por J. Nácher, (vol. I, 334 pp. y vol II, pp. 341-798).

1966- Traducción española de un manuscrito anónimo del s. XIII sobre la cocina hispano-magribi, Madrid, Imprenta y Editorial Maestre, 316 pp.

1969- Ibn Sahib al-Salat, Al-Mann bi-l-Imama. Estudio preliminar, traducción e indices. Valencia. Textos Medievales 24, Anúbar. 252 pp.

3- نشر المصادر اللاتينية

1916-1922- Colección diplomática de Jaime I el Conquistador, Valencia, 6 vols en 3 tomos (Tomo I, años 1217 a 1253, primera parte, pp. 1-288 y segunda parte, pp. 289-608, Valencia 1916. Establecimiento Tipográfico Hijos de F. Vives Mora; Tomo II, años 1216 a 1276, primera parte, pp. 1-212 y segunda parte, pp. 213-397, Valencia 1919, Imprenta "La Voz Valenciana"; Tomo III. años 1218 a 1274, primera parte, pp. 1-240 + XII y segunda parte, pp. 241-479 + XXIII, Valencia 1922, Renovación Tipográfica).

1976-1988- Documentos de Jaime I de Aragón. 5 vols., Valencia-Zaragoza, Textos Medievales, Anúbar. (Vol. I, años 1216-1236, Valencia 1976, Textos Medievales 49, 394 pp.; vol. II. años 1237-1250, Valencia 1976, Textos Medievales 50, 370 pp.; vol III, años 1251-1257, Zaragoza 1978, Textos Medievales 51, 340 pp.; vol. IV, años 1258-1262, Zaragoza 1982, Textos Medievales 55, 365 pp.; vol. V, años 1262-1268, Zaragoza 1988. Textos Medievales 77, 300 pp.).

ب- نصوص بيداغوجية

S.F. Vidas de Cornelio Nepote. Texto y traducción, Valencia. Imprenta Doménech, 388 pp.

S. F. Gramática latina. El primer año de latin. Teoria y ejercicios. Versiones y vocabulario, Valencia, Renovación Tipográfica s.a., 126 pp.

S. F. Gramática latina. El segundo año de latin. Teoria y ejercicios. Versiones, Valencia, Renovación Tipográfica. 228 pp.

S. F. Lecturas históricas latinas. I. Los Godos. La Reconquista, Valencia. Renovación tipógráfica, 239 pp.

S. F. Lecturas históricas latinas. II. Los tres Alfonsos (VI, VII y VIII), Valencia, Renovación tipógráfica. 218 pp.

S. F. Lecturas históricas latinas, Valencia, Libreria Maraguat, 210 pp.

1913- Las crónicas latinas de la Reconquista. Estudios prácticos de latin medieval, Valencia, Establecimiento Tipográfico Hijos de F. Vives Mora, 2 vols., (vol. I. 379 pp., vol. II 440 pp.).

1919- Lengua Latina. Nociones Gramaticales, Valencia, La Voz Valenciana. 231 pp.

1924- Gramática Latina. El segundo año de latin. Teoria y ejercicios. Versiones y vocabulario, Valencia. Renovación Tipográfica. 247 pp.

1930- Fábulas de Fedro. Traducción del latin. Ed. en latin y castellano, Valencia, Ed. Doménech, 232 pp.

5- مقالات في مجلات علمية

1911- "Las cuentas de Roger de Lauria", Revista del Centro de Estudios de Granada y su Reino, 4, pp. 57-66, 149-156, 261-268, 369-372.

1915- "Las cuentas de Roger de Lauria", Revista del Centro de Estudios de Granada y su Reino, 5, pp. 102-111.

1919- "La leyenda y la historia en los origenes del imperio almohade", Al-Andalus, 14, fasc. 2. pp. 339-376.

1952- "La toma de Salé por la escuadra de Alfonso X. Nuevos datos", Hespéris, 39, trimestre 1 y 2, pp. 41-74. (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica, I (1954), p. 122).

1953- "La invasión de los Almorávides y la Batalla de Zalaca", Hespéris, 40, trimestre 1 y 2, pp. 17-76. (Reproducido en Las grandes batallas de la Reconquista durante las

invasiones africanas (almorávides, almohades y benimerines), Madrid 1956, pp. 19-82). (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica I (1954), p. 122).

1954 -"El sitio de Aledo", MEAH, 3, pp. 41-54. (Reproducido en Las grandes batallas de la reconquista durante las invasones africanas (almorávides, almohades y benimerines). Madrid 1956, pp. 85-99).

1954 -"La campaña de Alarcos", RIEEIM, 2, fasc. 1 y 2, pp. 1-71 (Reproducido en las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas (almorávides, almohades y benimerines), Madrid 1956, pp. 137-216). (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica, 2 (1955), p. 128).

1954- "El reinado del califa almohade al-Rasid, hijo de al-Ma'mun", Hespéris, 41, trimestre 1 y 2. pp. 9-45. (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica. 2 (1955), p. 129).

1954- "La batalla de Uclés y la muerte del Infante don Sancho (1108)", Tamuda, 2, semestre 2, pp. 259-286. (Traducido al árabe "Waq 'at Uqlis wa-masra ' al-amir dun Sanyuh", Tituan, 2 (1957), pp. 115-130; reproducido en Las grandes batallas de la Reconquista durante las invasiones africanas (almorávides, almohades y benimerines), Madrid 1956, pp. 103-134).

1957- "La cocina hispano-magribi durante la época almohade", RIEIM, 5, fasc. 1 y 2, pp. 137-155.

1958- "La participación de los grandes jeques en el gobierno del imperio almohade", Tamuda. 6, semestre 2, pp. 239-277.

1959- "Un nuevo fragmento del "Bayan al-Mugrib". Datos inéditos y aclaraciones sobre los últimos años del reinado de Alfonso VII el Emperador", Al-Andalus, 24, fasc. 1, pp. 63-84.

1959- " Ali b. Yusuf y sus empresas en el Andalus", Tamuda, 7, semestre 1 y 2, pp. 77-122. (Traducido al árabe " Ali b. Yusuf wa a'maluhu fi-l-Andalus", Tituan, 3-4 (1958-1959), pp. 153-176).

1959- "La salida de los almorávides del desierto y el reinado de Yusuf b. Tasfin: aclaraciones y rectificaciones", Hespéris, 46, trimestre 3 y 4, pp. 155-182.

1960 -"El Rawd al-Qirtas y los Almorávides. Estudio critico", Hespéris-Tamuda, 1, fasc. 3, pp. 513-541.

1961 -"Un fragmento inédito de Ibn 'Idari sobre los Almorávides", Hespéris-Tamuda, 2, fasc. 1, pp. 43-111. (Traducción de las páginas 46-111 en Ibn 'Idari: al-Bayan al-Mugrib:

nuevos fragmentos almorávides y almohades, Valencia 1963, Textos Medievales 8, pp. 1 a 244).

1961-1962- "Kitab al-tabij fi-l-Magrib wa-l-Andalus fi 'asr al-muwahhidin li-mu'allif mayhul", RIEIM, 9-10, pp. 15-256.

1962- "Los Banu Hud de Zaragoza, Alfonso I el Batallador y los almorávides (Nuevas aportaciones)", Estudios de Edad Media de la Corona de Aragón, 7, pp. 7-38.

1962- "Contribución al estudio de la dinastia almorávide: el gobierno de Tasfin Ben 'Ali Ben Yusuf en el Andalus", Études d'Orientalisme Dédiées à la mémoire de Lévi-Prorençal, II, Paris, pp. 605-621.

1963- "Nuevas aportaciones de "Al-Bayan al-Mugrib" sobre los al-morávides. Zaragoza, Cotanda, Córdoba y al-Mahdi , Al-Andalus. 28, fasc. 2, pp. 313-330.

1963-1964- "El Cadi de Valencia Ibn Yahhaf quemado vivo por el Cid. Revisión del proceso", RIEIM, 11-12, pp. 149-167.

1965- "Las luchas del Cid Campeador con los almorávides y el enigma de su hijo Diego", Hespéris-Tamuda, 6, fasc. único, pp. 79-114.

1968- "Novedades y rectificaciones sobre la historia musulmana de Valencia: El reinado de Abu Bakr Muhammad Ibn 'Abd al-'Aziz al-'Amiri", Ligarzas, 1, pp. 99-125.

6- إسهامات في موسوعات علمية

6-1- موسوعات مختلفة

1912- Con Maximiliano Alarcón y Cándido González. Clasificación de varios documentos árabes publicados en Manuscritos árabes y aljamiados de la Biblioteca de la Junta. Noticia y extractos por los alumnos de la sección de árabe bajo la dirección de J. Ribera y M. Asin, Madrid 1912, Junta para la Ampliación de Estudios é Investigaciones Cientificas. Centro de Estudios Históricos, 320 pp. + 18 Láminas. (A. Huici clasificó quince documentos árabes, los n.° XV, XVII. XIX, XX, XXI, XXIV, XXVI, XXVII, XXXIV, XXXV, XXXVI, XLV, XLIX, LVIII, LXIII).

1970 -"The Iberian Peninsula and Sicily", The Cambridge History of Islam, II, Cambridge University Press, pp. 106-439.

2-6- دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية بالفرنسية)

s.v. "Abu Ya 'kub Yusuf, b. 'Abd al-Mu' min", E.I.2, I, pp. 165-166.

s.v. "Abu Yusuf Ya 'kub, b. Yusuf b. 'Abd al-Mu'min, al-Mansur", E.I.^{2}, I, pp. 165-166.

s.v. "Arkush", E.I.^{2}, I, pp. 654-655.

s.v. "Arnit", E.I.^{2}, I. pp. 678-679.

s.v. "Badjdjana", E.I.^{2}, I. pp. 888-889.

s.v. "Balat", E.I.^{2}, I. pp. 1018-1019.

s.v. "Baldj b. Bishr b. 'Iyad al-Kushayri'", E.I.^{2}, I. pp. 1021-1022 (con M. SCHMITZ).

s.v. "Balish", E.I.^{2}, I, pp. 1027-1028.

s.v. "Banbaluna", E.I.^{2}, I. p. 1043 (con E. LEVI-PROVENÇAL).

s.v. "Barshaluna", E.I.^{2}, I, p. 1086 (con C. F. SEYBOLD).

s.v. "al-Basit", E.I.^{2}, I, pp. 1115-1116 (con C. F. SEYBOLD).

s.v. "Basta", E.I.^{2}, I, p. 1121.

s.v. "Batalyaws", E.I.^{2}, I. pp. 1124-1125 (con C. F. SEYBOLD).

s.v. "Bayyana", E.I.^{2}, I, p. 1184.

s.v. "Bayyasa", E.I.^{2}, I. pp. 1184-1185.

s.v. "Bitrawsh", E.I.^{2}, I, p. 1287.

s.v. "Buhayra", E.I.^{2}, I, p. 1327.

s.v. "al-Bunt", E.I.^{2}, I, p. 1350.

s.v. "al-Burt", E.I.^{2}, I, pp. 1377-1378.

s.v. "al-Busharrat", E.I.^{2}, I, p. 1383 (con C. F. SEYBOLD).

s.v. "Daniya", E.I.^{2}, II, pp. 114-115 (con C. F. SEYBOLD).

s.v. "Djabal Tarik". E.I.^{2}, II, pp. 362-363.

s.v. "Djahwarides". E.I.^{2}, II. p. 339.

s.v. "Djarunda", E.I.^{2}, II, pp. 497-498.

s.v. "Djayyan", E.I.^{2}, II, pp. 528-529.

s.v. "Al-Djazirat al-Khadra", E.I.^{2}, II, pp. 537-538.

s.v. "Djazira Shukr", E.I.^{2}, II, p. 539.

s.v. "Djillikiyya". E.I.^{2}, II pp. 554-555.

s.v. "Fahs al-Ballut" E.I.^{2}, II, pp. 762-763.

s.v. "Finyana". E.I.^{2}, II, p. 937.

s.v. "Firrish". E.I.^{2}, II, pp. 945-946.

s.v. "Ghalib b. 'Abd al-Rahman al-Siklabi", E.I.^{2}, II, p. 1021.

s.v. "Gharb al-Andalus", E.I.^{2}, II, pp. 1032-10:33.

s.v. "Gharnata", E.I.^{2}, II, pp.1035-1038 (con H. TERRASSE, pp. 1038-1043).

s.v. "Al-Gazal, Yahyà b. Hakam al-Bakri", E.I.^{2}, II, pp. 1032-1033.

s.v. "(al-) Hakarn Ibn 'Uk(k)asha", E.I.^{2}, III, p. 76.

s.v. "al-Hakam I", E.I.^{2}, III, pp. 76-77.

s.v. "al-Hakam II", E.I.^{2}, III, p. 77.

s.v. "al-Hamma", E.I.^{2}, III, pp. 137-138.

s.v. "'Hammudides", E.I.^{2}, III, p. 150.

s.v. "al-Hulal al-Mawshiyya", E.I.^{2}, III, pp. 589-590.

s.v. "al-Humaydi", E.I.^{2}, III, pp. 593-594.

s.v. "al-Hurr b. 'Abd al-Rahrman al-Thakafi'", E.I.^{2}, III, pp. 607-608.

s.v. "al-Husam h. Dirar", E.I.^{2}, III, p. 622.

s.v. "Ibn Bashkuwal", E.I.^{2}, III, p. 756 (con M. BEN CHENEB).

s.v. "Ibn al-Faradi", E.I.^{2}, III, p. 785 (con M. BEN CHENEB).

s.v. "Ibn Ghalbun", E.I.^{2}, III, pp. 794-795.

s.v. "Ibn Habib", E.I.^{2}, III, p. 798.

s.v. "Ibn Hayyan", E.I.^{2}, III, pp. 812-813.

s.v. "Ibn Kasi" E.I.^{2}, III, p. 839.

s.v. "Ibn al-Kitt", E.I.^{2}, III, pp. 865-866.

s.v. "Istidja", E.I.^{2}, IV, pp. 265-266.

s.v. "Kadis", E.I.^{2}, IV, p. 400.

s.v. "al-kal'a", E.I.^{2}, IV, p. 488.

7- مقالات تاريخية نشرت في الصحافة اليومية

7-1- مقالات نشرت ما بين 1909 و1911

1908 -"Elección de un sultán marroqui. Traducción del Rud-el-Cartás", Blanco y Negro, n.° 920 (19-12-1908), s.p., [sin firma].

1908 -"Los Edrisies en Marruecos. Cómo muere un descendiente del Profeta", Por Esos Mundos, vol. XVII (julio-diciembre), fasc. 167 (diciembre 1908), pp. 524-525.

1909 -"La penetración pacifica en Marruecos", Ergos, n.° 48 (15-01-1909), pp. 2-4.

1909 -"La Caaba de la Meca", Nuevo Mundo, n.° 785 (21-01-1909), s.p., [firmado con el seudónimo Aben Hud].

1909 -"Ergos", Ergos, n.° 49 (31-01-1909), pp. 13-14.

1909 -"Un alcaide toledano (de la "Crónica latina" de Alfonso VII)", Por Esos Mundos, vol. XVIII (enero-junio 1909), fasc. 168 (enero 1909), pp. 29-32.

1909 -"La caricatura en Oriente", Nuevo Mundo. n.° 787 (04-02-1909), s.p., [firmado con el seudónimo Aben Hud].

1909 -"Hombres de negocios y hombres de letras", Ergos, n.° 50 (15-02-1909), pp. 29-30.

1909 -"La protección en Marruecos", Ergos, n.° 51 (28-02-1909), pp. 45-46.

1909- "Del "folk-lore" de la Cabilla: el cadi y la vendedora de jabón. Los estudiantes de Fez", Por Esos Mundos, vol. XVIII (enero-junio 1909), fasc. 169 (febrero 1909), pp. 121-122.

1909- "España en Marruecos. Nuestra embajada a Fez. Un contraste doloroso. El acuerdo Franco-Alemán. Lo que siente la colonia española", diario El imparcial (20-02-1909), p. 1. [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "Una visita a Abd-el-Aziz. La vivienda del destronado. Sultán de undécima clase. La inteligencia Franco-Alemana. !Mziana!- El porvenir", diario El imparcial (21-02-1909), p. 1, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "De Tánger à Arcila. La mehalla". diario El imparcial (22-02-1909), p. 1, [firmado ron el seudónimo Pedro Navarro].

1909-"España en Marruecos. La embajada española. Su viaje à Fez.- El camino. Algún comentario", diario El imparcial (04-03-1909), p. 1, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "De Marruecos. La politica de Muley Hafid", diario El imparcial (11-03-1909), p. 1 [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "El feminismo musulmán en 1908". la Lectura, tomo I (marzo), pp. 321-323.

1909- "La mentalidad mora", Ergos, n.° 52 (15-03-1909), pp. 61-62. 1909 "De Marruecos. El pretendiente diario El imparcial (27-03-1909), p. 5, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "La burguesia comercial de Fez", Ergos, n.° 53 (31-03-1909), pp. 77-78.

1909- "El mercado de esclavos en Marruecos", Ergos, n.° 54 (15-04-1909), pp. 95-97.

1909- "De Marruecos. Hafid y los embajadores", diario El impar-cial, (21-04-1909), p. 4, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "El Majzen derrotado", diario El imparcial (30-04-1909), p. 1, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909 -"La moral entre las máquinas", Ergos, n.° 55 (30-04-1909), pp. 109-110.

1909 -"Habilidades de Muley Hafid. Situación de una mehalla. Las tribus en rebelión. Nueva politica", diario El imparcial (11--05-1909), p. 1, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "Los desiertos", Ergos, n.° 56 (Madrid 15-05-1909), pp. 129-130.

1909- "Lo de Marruecos", Diario de Navarra (16-05-1909), p. 1, [sin firma].

1909- "España en Marruecos. El fracaso de la embajada", diario El imparcial (17-05-1909), p. 1, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "La intransigencia de Muley Hafid", diario El imparcial (18-05-1909), p. 1. [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "Los ocios del Sultán", Diario de Navarra (19-05-1909), p.1, [sin firma].

1909- "Vida de la mujer entre los Tuareg", Diario de Navarra (21-05-1909), pp. 1-2, [sin firma].

1909 -"Los transportes en Marruecos", Ergos, n.° 57 (31-05-1909), pp. 143-144.

1909- "La montaña del perjurio. Del folk-lore marroqui", diario El imparcial (07-06-1909), p. 3, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "Marruecos y sus habitantes", Ergos, n.° 58 (15-06-1909), pp. 161-163.

1909- "El comercio marroqui. Mogador", Ergos, n.° 59 (30-06-1909). pp. 175-176.

1909- "Los peligros del libro", Ergos, n.° 59 (30-06-1909), pp. 177-178.

1909- "Cosas de Marruecos: el Harem imperial", Por Esos Mundos, vol. XVIII (enero-junio 1909), fasc. 170 (marzo 1909). pp. 222-224.

1909- "Las supersticiones de los moros", Por Esos Mundos, vol. XVIII (enero-junio 1909), fasc. 172 (mayo 1909), pp. 386--393.

1909 - "Supersticiones morunas: las procesiones marroquies", Por Esos Mundos, vol. XVIII (enero-junio 1909), fasc. 173 (junio 1909). PP. S01-505.

1909 - "Marruecos: los trabajos agricolas", Ergos, n.° 62 (15-08--1909). pp. 223-224. [sin firma].

1909- "El valor rifeño", diario El imparcial (24-08-1909), p. 2, [firmado con el seudónimo Pedro Navarro].

1909- "El comercio marroqui: Mazagán", Ergos, n.° 63 (31-08-1909), pp. 237-238, [sin firma].

1909- "los amores del Roghi: venganza moruna", Por Esos Mundos, vol. XIX (julio-diciembre 1909), fasc. 175 (agosto 1909). pp. 129-131.

1909- "Destilación de la madera en vasos cerrados. I", Ergos, n.° 64 (15-09-1909), pp. 255-256.

1909- "El comercio en Marruecos. Marraquech", Ergos, n.° 65 (30-09-1909), pp. 269-270.

1909- "La vida de los pueblos modernos. Rio de Janeiro", Ergos, n.° 65 (30-09-1909). pp. 272-273.

1909- "Hace cincuenta años... La Guerra de África. Combates preliminares. Á la defensiva. El Serrallo", Por Esos Mundos, vol. XIX (julio-diciembre 1909), fasc. 176 (septiembre 1909), pp. 221-224.

1909- "Música española en Marruecos", Nuevo Mundo, n.° 819 (16-09-1909), s.p.

1909- "Los santones rifeños", Nuevo Mundo, n.° 821 (30-09-1909). s. p.

1909- "El teatro de la guerra. Estudios etnográficos", La Ilustración Española y Americana, tomo LXXXVIII, 2.° semestre. n.° XXXVII (08-10-1909), p. 218.

1909- "Destilación de la madera en vasos cerrados. II", Ergos, n.° 66 (15-10-1909), pp. 290-292.

1909- "Hace cincuenta años... La Guerra de África. En el Serrallo. El cólera y las enfermedades. La morisma", Por Esos .Mundos. vol. XIX (julio-diciembre 1909), fasc. 177 (octubre 1909). pp. 370-373.

1909- "El Carnaval rifeño", Nuevo Mundo, n.° 824 (21-10-1909). s.p.

1909- "Los bosques y el fuego", Ergos, n.° 67 (31-10-1909). pp. 301-302.

1909- "La vida económica en Marruecos. El mohtaseb y los umana de Fez", Ergos, n.° 68 (15-11-1909), pp. 319-320.

1909- "Hace cincuenta años... La Guerra de África. La ofensiva. La Batalla de los Castillejos. En Monte Negrón. El campamento del hambre", Por Esos Mundos, vol. XIX (julio-diciembre 1909), fasc. 178 (noviembre 1909), pp. 471-477.

1909- "La ceremonia nupcial en el Rif", Nuevo Mundo, n.° 826 (04-11-19091), s.p.

1909- "Los judios en el Rif", Nuevo Mundo, n.° 827 (11-11-1909), s.p.

1909- "El rifeño y la muerte", Nuevo Mundo, n.° 829 (25-11-1909). s. p.

1909- "Hace cincuenta años... La Guerra de África. Después de las penalidades. El paso de Cabo Negro. Á la vista de Tetuán, Por Esos Mundos, vol. XIX (julio-diciembre 1909), fasc. 179 (diciembre 1909), pp. 497-503.

1909- "La casa rifeña", Nuevo Mundo, n.° 831 (09-12-1909), s.p.

1910- "Marruecos económico", Ergos, n.° 71 (01-01-1910), pp. 4-5. 1910 "La pasta de madera en la fabricación del papel" Ergos, n.° 72 (15-O1-1910), pp. 24-26.

1910- "Las riquezas mineras del Mogreh". España en África, n.°-68 (enero 1910), pp. 12-13.

1910- "Una alianza de Marruecos y Holanda contra España", Por Esos Mundos, vol. XX (enero-junio 1910), fasc.180 (enero 1910), pp. 100-105.

1910- "La propiedad territorial en Marruecos", Ergos, n.° 73 (01-02-910), pp. 30-33, [sin firma].

1910- "El trabajo de la mujer", Ergos, n.° 73 (01-02-1910), pp. 45-46.

1910- "Descubrimientos punico-romanos: Cartago-Duga-Timgad", Por Esos Mundos, vol. XX (enero-junio 1910), fasc. 181 (febrero 1910). pp. 255-267.

1910- "Los santuarios rifeños", La Ilustración Española y Americana, tomo LXXXIX, 1.° semestre, n.° VI (15-02-1910), pp. 95 y 98.

1910- "La exposición de España en la Argentina. A los productores españoles" Ergos, n.° 76 (15-03-1910). p. 96.

1910- "Frente á Alhucemas y el Peñón. Los Bocoyas y los Beni Urriaguel". La Ilustración Española y Americana, tomo LXXXIX, 1.° semestre, n.° XIII (08-04-1910), p. 210.

1910- "La natalidad y la riqueza de las naciones", Argos, n.° 79 (01-05-1910), pp. 143-144.

1910- "El cincuentenario de la Guerra de África. El tratado de Tetuán". La Ilustración Española y Americana. tomo LXXXIX, 1.° semestre, n.° XXII (15-06-1910), pp. 355-356.

1910- " Topografia tetuani", Ergos, n.° 86 (15-08-1910), pp. 277-278.

1910- "Economia tetuani", Ergos, n.° 88 (15-09-1910), pp. 313-314.

1910- "Los monopolios marroquies". Ergos, n.° 90 (15-10-1910), pp. 35-4-355.

1910- "La amistad del rey moro de Sevilla. El jardin de las Calaveras", Por Esos Mundos, vol. XXI (julio-diciembre 1910), fasc. 191 (diciembre 1910), pp. 926-930.

1911- "Los árabes españoles", Ergos, n.° 111 (01-09-1911). pp. 333-334, [sin firma].

2-7- مقالات نشرت ما بين 1959 و 1967

1959- "El Cid visto por los musulmanes", diario Las Provincias (18-01-1959), p. 10.

1961- "El principe omeya, Abd Allah el Balansi", diario Las Provincias (07-05-1961), p. 16.

1961- "Ruzafa y su historia musulmana", diario Las Provincias (13-05-1961), p. 13. (Reproducido en el Almanaque del año 1962 del diario Las Provincias, pp. 165-168).

1961- "Valencia árabe. Dos acequieros musulmanes reyes de Valencia", diario Las Provincias (21-05-1961), p. 16.

1961- "Valencia árabe. Los musulmanes y los riegos del Levante español", diario Las Provincias (28-05-1961) p. 14.

1961- "Valencia vista por los musulmanes", diario Las Provincias (04-06-1961), p. 14.

1961- "La munia de Abd al-Aziz y los jardines del Real", diario Las Provincias (11-06-1961), p. 16.

1961- "La reconquista de Valencia por los almorávides y la leyenda de Cardeña", diario las Provincias (18-06-1961), p. 16.

1961- "Alfonso I el Batallador y la batalla de Cullera", diario las Provincias (25-06-1961), p. 16.

1961- "Aben Ganiya, gobernador de Valencia y la batalla de Fraga", diario Las Provincias (02-07-1961), p. 12.

1961- "Aben Ganiya, gobernador de Valencia, por los almorávides y la leyenda de la Campana de Huesca", diario Las Provincias (09-07-1961), p. 14.

1961- "El historiador, diplomático y poeta valenciano Aben Al-Abbar", diario Las Provincias (16-07-1961). p. 13.

1961- "La disnastia de Almanzor en Valencia y la batalla de Paterna", diario Las Provincias (23-07-1961), p. 12.

1961- "Valencia musulmana. El toledano al-Qadir, infortunado rey de Valencia. I", diario Las Provincias (29-10-1961), p. 17.

1961- "Valencia musulmana. El toledano al-Qadir. infortunado rey de Valencia. II", diario Las Provincias (05-11-1961), p. 14.

1961- "El cadi de Valencia Ibn Chajjaf, quemado vivo por el Cid. I", diario las Provincias (12-11-1961), p. 14.

1961- "El cadi de Valencia Ibn Chajjaf, quemado vivo por el Cid. II", diario las Provincias (19-11-1961), p. 16.

1961- "El cadi de Valencia Ibn Chajjaf, quemado vivo por el Cid.III", diario las Provincias (26-11-1961), p. 14.

1961- "El Cid Campeador en Levante. Su valor heroico, su genio militar y sus victorias. I", diario Las Provincias (03-12-1961), p. 14.

1961- "El Cid Campeador en Levante. Su valor heroico, su genio militar y sus victorias. II", diario las Provincias (10-12-1961), p. 14.

1961- "El Cid Campeador y su actividad diplomática en el Levante. I". diario Las Provincias (17-12-1961), p. 14.

1961- "El Cid Campeador y su actividad diplomática en el Levan-te. II", diario las Provincias (24-12-1961), p. 14.

1961- "Valencia musulmana. El Cid Campeador: su pensamiento juridico y su justicia. I", diario Las Provincias (31-12-1961). p. 14.

1962- "Valencia musulmana. El Cid Campeador: su pensamiento juridico y su justicia. II", diario Las Provincias (07-01-1962), p. 12.

1962- "El clima bélico y la moral combativa durante la invasión árabe y la Reconquista. I", diario Las Provincias (14-01-1962). p. 12.

1962- "El clima bélico y la moral combativa durante la invasión árabe y la Reconquista. II", diario Las Provincias (21-01-1962), p. 12.

1962- "La reconquista de Valencia por los almorávides. I", diario Las Provincias (28-01-1962), p. 14.

1962 -"La reconquista de Valencia por los almorávides. II", diario Las Provincias (04-02-1962), p. 12.

1962- "El primer gobernador almorávide de Valencia, Abd Allah ben Fátima" diario Las Provincias (11-02-1962), p. 16.

1962- "La batalla de Uclés y los gobernadores almorávides de Valencia y de Murcia. I", diario Las Provincias (18-02-1962), p. 14.

1962- "La batalla de Uclés y los gobernadores almorávides de Valencia y de Murcia. I", diario las Provincias (25-02-1962), p. 14.

1962- "Muhammad ben al-Hayy, segundo gobernador almorávide de Valencia", diario Las Provincias (04-03-1962), p. 16.

1962- "Los almorávides valencianos en la batalla del Congost de Martorell", diario Las Provincias (25-03-1962), p. 14.

1962- "El avance aragonés hacia Levante y la batalla de Cotanda", diario Las Provincias (01-04-1962), p. 16.

1962- "La expedición de Alfonso I el Batallador por Valencia y Andalucia. I", diario Las Provincias (08-04-1962). p. 16.

1962- "La expedición de Alfonso I el Batallador por Valencia y Andalucia. II", diario Las Provincias (15-04-1962), p. 14.

1962- "Los avances de Alfonso, el Batallador, hacia Valencia", diario Las Provincias (22-04-1962), p. 16.

1962- "Abenganiya, gobernador de Valencia", diario Las Prorincias (29-04-1962), p. 16.

1962- "La desaparición de los almorávides en Levante. I", diario Las Povincias (13-05-1962). p. 14.

1962- "La desaparición de los almorávides en Levante. II", diario Las Provincias (20-05-1962). p. 14.

1962- "Los Banu Maymun de Denia, almirantes corsarios del imperio almorávide. I", diario Las Provincias (27-05-1962), p. 16.

1962- "Los Banu Maymun de Denia, almirantes corsarios del imperio almorávide. II", diario Las Provincias (03-06-1962), p. 14.

1962- "Ibn Mardanis, rey de Levante: Valencia y Murcia. I", diario Las Provincias (17-06-1962), p. 18.

1962- "Ibn Mardanis, rey de Levante: Valencia y Murcia. II", diario Las Provincias (24-06-1962). p. 16.

1962- "Alfonso VII e Ibn Mardanis en la conquista de Almeria por los almohades", diario Las Provincias (01-07-1962), p. 16.

1962- "Los levantinos con Ibn Hamusk ante Carmona y Granada", diario Las Provincias (08-07-1962). p. 14.

1962- "Derrota de Ibn Mardanis en Fahs al-Challab cerca de Murcia y sumisión de Ibn Hamusk a los almohades", diario las Provincias (15-07-1962). p. 14.

1962- "La reconquista almohade de Murcia y Valencia y la muerte de Ibn Mardanis" diario Las Provincias (22-07-1962). p. 16.

1962- "La campaña de Huete y los levantinos. I", diario Las Provincias (05-08-1962), p. 12

1962- "Se levanta el sitio de Huete: la retirada. II", diario Las Provincias (12-08-1962), p. 12

1962- "La familia levantina de Ibn Mardanis al servicio del imperio almohade", diario Las Provincias (07-10-1962), p. 14.

1962- "Valencia y Murcia en la campaña de Santarem con el califa almohade Yusuf b. Abd al-Mu'min", diario Las Provincias (14-10-1962), p. 16.

1962- "Las campañas de Ya'qub al-Mansur y la sublevación del gobernador de Murcia", diario Las Provincias (21-10-1962). p. 14.

1962- "El califa al-Nasir y la reconquista almohade de las Baleares desde Denia", diario Las Provincias (04-11-1962), p. 16.

1962- "La batalla de Las Navas de Tolosa", diario Las Provincias (11-11-1962), p. 14.

1962- "La decadencia del imperio almohade y la sublevación del Sayyid al-Adil en Levante", diario las Provincias (18-11-1962), p. 14.

1962- "El último gobernador almohade de Valencia", diario Las Provincias (25-11-1962). p. 14.

1962- "La rebelión de Ibn Hud en Levante y el fin de la dominación almohade en el Andalus I", diario Las Provincias (02-12-1962), p. 14.

1962- "La rebelión de Ibn Hud en Levante y el fin de la dominación almohade en el Andalus II", diario Las Provincias (09-12-1962). p. 16.

1962- "Zayyan Ibn Mardanis y el fin de la dominación musulmana en Valencia. II", diario Las Provincias (16-12-1962), p. 16.

1962- "Zayyan Ibn Mardanis y el fin de la dominación musulmana en Valencia. II". diario Las Provincias (23-12-1962), p. 48.

1962- "Consideraciones generales sobre la historia musulmana de Valencia y el Levante español", diario Las Provincias (31-12-1962). p. 14.

1967- "Un enigma en la vida del Cid Campeador, su hijo Diego", diario Las Provincias (30-0-4-1967), p. 40.

1967- "La cocina hispano-musulmana en el siglo XIII. Sus caracteristicas", diario las Provincias (09-07-1967), p. 40. (Reproducido en el Almanaque del año 1967 del diario Las Provincias, pp. 141-143).

1967- "La cocina hispano-musulmana en el siglo XIII. Los platos de carne al horno o en el asador", diario Las Provincias (23-07-1967), p. 40.

8- محاضرات

1910- "Los estudios árabes y el africanismo español", Revista de Derecho Internacional y Politica Exterior, Madrid. 13 págs. (Conferencia pronunciada el 2 de mayo de 1910 en el Ateneo de Madrid, en las sesiones de Información acerca de la politica tradicional de España en Marruecos).

1954- "Los almohades en Portugal", Anais da Academia Portugue-sa da Historia, 5, serie II, pp. 11-51.(Conferencia pronunciada en la asamblea general ordinaria de la Academia Portuguesa de Historia el 29 de abril de 1953 - Lisboa). (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica, 2 (1955), p. 258).

1954- "Las campañas de Yaq'ub al-Mansur en 1190 y 1191", Anais da Academia Portuguesa da Historia, 5, serie II, pp. 55-74. (Conferencia pronunciada en la asamblea general ordinaria de la Academia Portuguesa de Historia el 1 de mayo de 1953 - Lisboa). (Reseña de E. Lévi-Provençal en Arabica, 2 (1955), p. 258).

1965- "Valencia musulmana", (conferencia pronunciada el 9 de diciembre de 1965 en el Ateneo de Valencia durante las IV Sesiones de Cultura Hispanomusulmana. No publicada).

1965- "Problemas de la investigación en el campo del arabismo" (conferencia pronunciada el 16 de diciembre de 1965 en el Ateneo de Valencia durante las IV Sesiones de Cultura His-panomusulmana. No publicada).

9- إسهامات علمية أخرى

1915- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1914 a 1915, Valencia, Establecimiento Tipográfico Domenech, 73 pp.

1916- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1915 a 1916, Valencia, Establecimiento Tipográfico Domenech, 75 pp.

1917- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1916 a 1917, Valencia, Establecimiento Tipográfico Domenech, 75 pp.

1919- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1917 a 1918, Valencia, Establecimiento Tipográfico Domenech. 81 pp.

1920- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1918 a 1919, Establecimiento Tipográfico Domenech.

1921- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1919 a 1920, Valencia, Establecimiento Tipográfico Huici, 83 pp.

1922- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1920 a 1921, Valencia, Renovación Tipográfica, 71 pp.

1923- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1921 a 1922, Valencia, Imprenta Hijo de F. Vives Mora, 75 pp.

1924- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1922 a 1923. Valencia, Imprenta Hijo de F. Vives Mora, 75 pp.

1925- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1923 a 1924, Valencia, Imprenta Hijo de. F. Vives Mora. 69 pp.

1926- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1924 a 1925, Valencia, Imprenta Hijo de F. Vives Mora, 73 pp.

1927- Instituto General y Técnico de Valencia. Memoria del curso de 1925 a 1926, Valencia, Imprenta Hijo de F. Vives Mora, 77 pp.

* * *

المصادروالمراجع (*)

1- المصادر العربية

- ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي، المعجم في أصحاب القاضي الإمام الصدفي، دار الكتاب، القاهرة، 1967.
- ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي ، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، 1963.
- ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عزت العطار حسيني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955-1956.
- ابن الآبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلنسي، إعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1961.
- ابن أبي زرع، علي بن عبد الله، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1972.
- ابن الأثير، عزالدين أبو الحسن علي بن أبي المكارم، الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1989.
- ابن بسام، علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، 1978-1979.
- ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، الجزءان الأول والثاني، تحقيق عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1995.
- ابن تومرت، محمد (المهدي) أعز ما يطلب، تحقيق عبد الغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، 1997.
- ابن حيان، حيان بن خلف، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، نشر وتحقيق فيدريكو كورينطي وبيدرو شلميتا ومحمودصبح، ترجمة وفهرسة ماريا خسوس فيغيرا، المعهد الإسباني العربي للثقافة بمدريد وكلية الآداب بالرباط، 1979.
- ابن الخطيب، السلماني لسان الدين، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد السلام شقور، منشورات كلية الآداب، تطوان 1988.
- ابن الخطيب، السلماني لسان الدين، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق أحمد مختار العبادي، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الفكر، بيروت، 1988.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، مطبعة السعادة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1948.

(*)يكتفي المؤلف في بيليوغرافية النص الأصلي من الكتاب، بإيراد أسماء المؤلفين دون عناوين كتبهم، لذا قمنا بوضع بيليوغرافية جديدة تضبط المصادر وفق الأعراف الأكاديمية المتعارف عليها، وفي نفس الوقت تأخذ بعين الاعتبار ما صدر من كتب وحقق من مصادر، خلال العقود الأخيرة. المترجم.

- ابن سعيد المغربي، الإيناس في علم الأنساب، تحقيق أبو جعفر محمد بن حبيب البغدادي، النادي الأدبي، الرياض، 1980.
- ابن صاحب الصلاة، أبو مروان عبد الملك، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس، بيروت، 1964.
- ابن طملوس، أبو الحجاج يوسف، المدخل لصناعة المنطق، المطبعة الأبيرقة، مدريد، 1916.
- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد زنيبر ومحمد بن تاويت وعبد القادر زمامة، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، الدار البيضاء، 1985.
- ابن القطان، الكتامي أبو الحسن علي بن محمد الفاسي، نظم الجمان فيما سلف من أخبار الزمان، ، تحقيق محمود علي مكي، منشورات كلية الآداب، الرباط، (د.ت).
- أبو داود، السجستاني سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق وشرح أحمد سعد علي، القاهرة، 1952.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، تقويم البلدان، بيروت، دار صادر، (د ت).
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1960.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل، كتاب البتر المسبوك في تواريخ الملوك، تحقيق محمد زينهم ومحمد عزب، المكتبة الثقافية الدينية، القاهرة، 1995.
- الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
- الإدريسي، محمد بن محمد، نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار، المعهد الشرقي، نابولي، 1975.
- الزركشي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1289هـ.
- الصنهاجي، أبو بكر (البيدق)، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، تحقيق عبدالحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1975.
- الصنهاجي، أبو بكر (البيدق)، المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1971.
- الطرطوشي، أبو بكر محمد، سراج الملوك ، المطبعة الأزهرية المصرية، ،القاهرة 1319هـ
- الغزالي، أبو حامد، إحياء علوم الدين، تحقيق مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1939.
- القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، 1969.
- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.
- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق محمد امين الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ.
- مالك بن أنس، أبو عبد الله، موطأ الإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق أحمد راتب عمروش، دار النفائس، بيروت، 1971.
- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدارالبيضاء، 1979.

الرباط، 1972.
- مؤلف مجهول، الذخيرة السنية، نشر عبدالوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، 1972.
- مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتحقيق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدارالبيضاء، 1985.
- مؤلف مجهول، مفاخر البربر، ثلاثة نصوص عربية عن البربر في الغرب الإسلامي، دراسة وتحقيق محمد يعلى، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، 1996.
- مجموعة رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، نشر ليفي بروفنصال، المطبعة الاقتصادية، الرباط 1941.
- المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تلخيص اخبار المغرب، تحقيق محمد العربي العلمي ومحمد سعيد العريان، دار الكتاب، الدارالبيضاء، 1978.
- مسلم، ابو الحسن بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة، 1991.
- المقري، احمد بن محمد، ازهار الرياض في اخبار عياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي، الرباط، 1978.
- المقري، احمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
- الناصري، احمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدارالبيضاء، 1954-1956.
- النويري الكندي، احمد بن عبد الوهاب، نهاية الأرب في فنون الأدب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1954.

2- المراجع العربية

- اشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الثانية، القاهرة، 1958.
- بيل، الفرد، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981.
- التازي، عبدالهادي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد السادس (الموحدون)، مطبعة فضالة، المحمدية، 1987.
- الجلاب، حسن، الدولة الموحدية، أثر العقيدة في الأدب، منشورات الجامعة، الدار البيضاء، 1983
- حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، مطبعة دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1993.
- الراشد، عبد الجليل عبد الرضا، العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس، مكتبة النهضة، الرياض، 1969.
- سعد زغلول، عبد الحميد، فترة حاسمة من تاريخ المغرب، بحث بمجلة كلية الآداب والتربية بالجامعة الليبية، المجلد الأول، المطبعة الأهلية، 1958.
- شعبان عبد الرحيم، المسكوكات الموحدية في تاريخ المغرب الوسيط (524هـ-668هـ/1129م -1269م)، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 1996. (غير منشور).
- العبادي، أحمد مختار، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مطبعة المصري، 1968.
- العربي، محمد، دور الأشياخ في تدهور الدولة الموحدية (515هـ674هـ)، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 1987. (غير منشور).

- علام، عبد الله علي، الدولة الموحدية بالمغرب، دار المعرفة، القاهرة، 1964.
- العمراني، محمد، الفتن والتمردات بالمغرب الأقصى والأندلس خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 1996. (غير منشور).
- عنان، محمد عبد الله، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1964.
- الفناي، مراجع عقيلة، قيام دولة الموحدين، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، (د ت).
- الكتاني، محمد المنتصر، الغزالي والمغرب، بحث القي في مهرجان الغزالي بدمشق، مطابع كوستا توماس وشركائه، القاهرة، 1962.
- لوتورنو، روجير، حركة الموحدين في المغرب، ترجمة أمين الطيبي، الدار العربية للكتاب، تونس، 1982.
- مؤنس، حسين، السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، بحث بالمجلة التاريخية المصرية، المجلد الثالث، العدد الأول مايو 1950، دار المعارف بمصر.
- مؤنس، حسين، عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدي، بحث بمجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول، المجلد الثالث عشر، الجزء الثاني، ديسمبر 1950، مطبعة جامعة فؤاد الأول.
- المغراوي، محمد، دراسة في النظم بالغرب الإسلامي: خطة القضاء بالمغرب في عصر الدولة الموحدية (515هـ-668هـ/1121م-1269م) . دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 1987. (غير منشور).
- المغراوي، محمد، العلماء والصلحاء والسلطة بالمغرب والأندلس على عهد الموحدين. دكتوراه الدولة في التاريخ، كلية الآداب، الرباط، 2002. (غير منشور).
- المنوني، محمد، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب، الرباط، 1977.
- المنوني، محمد، المصادر العربية لتاريخ المغرب: من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث. (الجزء الأول)، كلية الآداب، الرباط، 1983.
- المنوني، محمد، حضارة الموحدين، دار تبقال للنشر، الدار البيضاء، 1989.
- المنوني، محمد وآخرون، التاريخ الأندلسي من خلال النصوص، شركة النشر، الدارالبيضاء، 1991.
- موسى، عمر عز الدين، الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1991.
- النجار، عبد المجيد. تجربة الإصلاح في حركة ابن تومرت، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الثانية، 1995.
- النجار، عبد المجيد ، المهدي بن تومرت، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

* * *

1- المصادر والمراجع الإسبانية

- Aleman y Boluffer, José .Tratados de la formación de la palabra en la lengua castellana, la derivación y la composición .Libreria General de Victoriano Suarez .Madrid, 1920.
- Aleman y Boluffer, José .Milicias cristianas al servicio de los sultanes musulmanes de Almagreb .Homenaje a D .Francisco Codera .
- Alfonso X, Rey de Castilla .Primera crónica general de España .Estudio y notas por José Filgueira Valverde .Cuarta edición .Ilustrada .Ed .Ebro, D,L . 1976 .
-Almonacid, Claveria .De Huete a Cuenca con los Almohades en 1172 .En Cuenca, N° 28. 1986 .PP .7-38.
-Alonso Nuñez de Castro .Cronica de los señores reyes de Castilla .Ed .Pablo de val. Madrid, 1665.
-Alvaro Camper y Fuertes .Bosquejo histórico de la dominación islámica en las islas Baleares. Ed. Conselleria d'Educacio i Cultura .Palma de mallorca . 1987 .Reprod .Facs de la edición de 1888.
-Arié , Rachel .España musulmana : Siglos VIII-XV .Ed .Labor .Barcelona, 1987.
-Ballesteros, Antonio .Itinirario de Alfonso X, rey de Castilla, Boletin de la Real Academia de la Historia, 109, s.I, 1936.
-Ballesteros, Antonio .La Reconquista de Murcia .Boletin de la Real Academia de la História., 111, s.I, 1942.
-Ballesteros, Antonio, La toma de Salé en tiempos de Alfonso X el Sabio .Al Andalus, 8. Madrid-Granada, 1943 .pp .89-128 .
-Bosch Villa, jacinto. El elemento humano norte africano en la historia de España Musulmana. Cuadernos de la biblioteca Española de tetuán .Tetuán, n° 2 .Noviembre, 1964 .pp . 17-37.
-Bosch Villa, Jacinto . Los almoravides .Ed .Facsimile de la edicion de Tetuán de 1956. Ed .Universidad de Granada .Granada, 1995.
-Bosch Vila, Jacinto, La Sevilla islámica 712-1248, Universidad de Sevilla.
-Bosch Vila, Jacinto .Sugerencia acerca de la fuente histórica Almohade de Kitab al Rawd al Mitar .Estudios de la Edad Media de la coróna de Aragón,6, Sección de Zaragoza, 1950, P.1-6.

-Bosch Vila, Jacinto .El Magreb y al Andalus, siglos XI-XIII (Historia Universal, Salvat LXVII-LXVIII .Barcelona .Ed .Salvat, 1981 .pp .232-259

-Burns, R .I., Los Mundos de Alfonso el Sabio y Jaime el Conquistador .Razón y fuerza en la Edad Media .Valencia, 1990.

-Crónica de la población de Avila . Edición y indice por Amparo Hernandez Segura .Ed. Lencia . 1966.

-Crónica latina de los reyes de Castilla .Edición de Luis Charlo Brea. Madrid, 1999.

-Gacigas Lopez, Isidoro .Sevilla almohade y últimos años de su vida musulmana. Ed. Instituto de Estudios Africanos .Madrid, 1951.

- Flores, Enrique .España sagrada .Ed .Gabriel Ramirez . Madrid, 1762.

-Gaspar Ramiro, Mariano .Historia de Murcia musulmana .Ed .Andrés Uriate .Zaragoza, 1905.

-Codera y Zaidin, Francisco. Decadencia y desaparición de los almorávides en España. Zaragoza, 1899.

-Herculano, Alexander .Historia de Portugal. Octava edición. Dirigida por David Lopez de Azevedo .Edición, Oruada. Lisboa, 1920.

-Julio Amor Calzas, Juán .Curiosidades históricas de la ciudad de Huete .Ed. Facs. De los originales publicados en 1904 y 1930. Ediciones Gaceta Conques, 1987.

-Menendez Pidal, Gonzalo. La España del siglo XIII, leida en imágenes .Madrid, 1986. Menendez Pidal, Ramón. La España del Cid .Ed.Espasa Calpe .Madrid, 1969.

-Pastor, R. Del Islam al Cristianismo. En las fronteras de dos formaciones económico-sociales. Toledo, siglos XI-XIII. Barcelona, 1975.

-Jimenez de Roda, Rodrigo. Investigaciones históricas sobre la Edad Media .Pamplona, 1925.

-Torres Balbas, Leopoldo .Arquitectos andaluces de las épocas almoravide y almohade. Al Andalus. Vol .XI, Fasc 1 . 1946 .pp, 214-224 .Madrid.

-Torres Balbas, leopoldo. Aznalfarache. Crónica arquelógica de la España musulmana. Al Andalus. Madrid-granada .Vol. XXV. Fasc, 1. 1960. pp. 222-228.

-Torres Balbas, leopoldo. C ácers y su cerca almohade. Al Andalus .Madrid .Vol .XIII. Fasc, 2 . 1948 .pp .446-472.

-Ubieto, Arteta. Historia de Aragón. Creación y desarrollo de la corona de Araglón. Zaragoza, 1987.

-Urvoy, D .El mundo de los ulemas andaluces del siglo XI-XIII, Madrid, 1983.
-Viguera, Maria Jesus. Los Reinos de Taifas y las invaciones magrebies : Al Andalus del XI al XIII, ed .Mapfre .Madrid, 1992.
-Viguera, Maria Jesus (coodrdinacion). El retroceso territorial de Al Andalus: almorávides y almohades, siglos XI al XIII . Ed. Espasa Calpe. Madrid, 1997.

* * *

2-المراجع الفرنسية

- Bel, A .Les Benou Ghanya, derniers representants de l'empire almoravides en Espagne aux XI è et XII è siècle .Paris, 1946.
- Bosch Vila, Jacinto .Ibn Mardanish .Encyclopédie de l'Islam. 1971. Pp. 859-60.
- Brickelman,C .Histoire des peuples et des états islamiques depuis les origines jusqu'à nos jours / Trad .Française de M .Tazerout .Ed .Payot, Paris, 1949 .
- Dozy, R .Histoire des musulmans d'Espagne . Nouvelle edition, revue par Levi Provençal. 3 Vol. Leyed, 1932.
- Drague, G. Esquisse d'Histoire religieuse au Maroc. Cahier de l'Afrique et de l'Asie. Paris, 1952.
- Ferhat, Halima .Sebta des origines au XVI siècle .Rabat, Edition Al Manahil, 1993.
- Gautier, E. Moeurs et coutumes des musulmans. Ed. Payot, Paris, 1931.
- Goldziher, I. Etudes sur la tradition islamique / Trad .Par Léon Bercher. Ed. -maison-noeuvre, Paris, 1952 .358 p.
- Goldziher,I. Le dogme et la loi de l'Islam: Histoire du développement dogmatique et juridique de la religion musulmane / trad. De F. Arin. Ed. Geuthner, Paris, 1920 et 1973.
- Goldziher,I. Mohamed Ibn Toumert et la théologie de l'Islam dans le Nord de l'Afrique au XI è siècle . Impr. Fontana, Alger 1903.
- Guichar, Pièrre. L'Espagne et la Sicile musulmane aux XI è y XII è siècle .Ed .Presses Universitaire de Lyon, 1991.
- Guichar, Pièrre .La vie sociale et économique de l'Espagne musulmane aux XI è et XII è siècle à travers les fatwa/s du Miyar d'al-wansharishi .Mélange de La Casa de Velazquez, 1990. pp. 197-236.

- Julien, CH.A .Histoire de l'Afrique du Nord, Tome II .De la Conquete arabe à 1830, 2ème edition .Revue par R .Le tourneau /Paris, 1966.
- Kably, M. Societé, pouvoire et religion au Maroc a la fin du Moyen Age. Paris, Maisonneuve et larose, 1986.
- Levi-Provençal, E .Histoire de l'Espagne musulmane, Ed.Maisonneuve. Paris 1944-1950.
- Mazzoli-Guintard, C., Villes d'al-Andalus. L'Espagne et le Portugal à l'epoque musulmane, Rennes, 1996.
- Terrasse, H. Islam d'Espagne. Une Rencontre de l'Orient et l'Occident, Ed. Plon, Paris 1958.
- Terrasse, H. L'Espagne du Moyen Age. Civilisations et Arts , Ed. Fayard, Paris, 1966.
- Triki, A.Théologiens et juriste de l'Espagne musulmane: aspects polémiques. Paris, 1982
- Urvoy, D. Penser d'al-andalus: la vie intellectuelle à Cordou et à Seville au temps des empires berbères (fin XI è siècle-début XII è siècle). Toulouse, 1990.

❖ ❖ ❖

الفهارس

فهرس بعض الأعلام الجغرافية
التي وردت في الكتاب مع مقابلها بالإسبانية

آبلة: Avila

ابرنيش: Abrantes

ابشدة: Ubeda

أرقنال: Arganal

أرقوس: Arcos

إستجة: Ecija

إشقلونة: Escalona

أقليش: Ucles

ألبة: Alava

البسيط: Albacete

الرقون: Alarcón

الفونت: Al- Funt

القصير: Alcocer

القنطرة: Alcantara

الكرس: Alcaraz

إلج: Elche

الينتخو: Almejo

اندوجر: Andujar

أورويلة: Orihuela

باجة: Beja

باينة: Baena

ببستر: Bobastro

برج الحمة: Burgalimar

بسطة: Baza

بطروج: Pedroche

بطليوس: Badajoz

بلاط الصوف: Balazote

بلج: Vilches

بلش: Velez Rubio

بلنسية القنطرة: Valencia de Alcantara

بنبلونة: Pamplona

بونة: Bona

بياسة: Baeza

بيانة: Villena

ترجالة: Trujillo

تورش بردش: Torres Verdas

ثيوداد رودريغو (مدينة رودريق): Rodrigo Ciudad

ثيوداد ريال (المدينة الملكية): Ciudad Real

جبال شقورة: Montes de Segura
جبل تونبس: Monte de Tumbos
جبل الشارات: Sierra Morena
جبل الصومعة: Monte de Alminar
جبل الكواكب: La Montaña de las Estrellas
جزيرة شقر: Alcira
جلمانية: Jurmeña
جليقية: Galicia
جيان: Jaén
حجر الأيل: La Peña del Ciervo
حرطة لوجة: Horta-lagoa
حصن الأرك: Alarcos
حصن ابن قصر: Avenxore
حصن بنيول: Buñol
حصن جابر: Alcala de Guadaira
حصن السرج: Alazarch
حصن شلير: Castillo de Salir
حصن طرش: Torres Novas
حصن العقاب: Navas de Tolosa
حصن الغراب: El Castillo de Corvo
حصن الفرج: Aznalfarache
حصن القصر: Aznalcázar
حصن قليج: Coruche
حصن كيك: Kik
حصن لبه: Castillo de labas
حصن لك: El Castillo de Luque
حصن المدور: Castillo de Almodóvar
حصن المنار: Magacela
حصن المنكب: Almuñecar

حمامات البلوط: Baños de la Encina
دانية: Denia
ردنة: Redinha
ركانة: Requena
رندة: Ronda
زكندر: Zuyundar
السبيكة: Al Sabika
سمورة: Samora
سهل الفندون: Al Fundun
شاطبة: Játiva
الشرف: Aljarafe
شلب: Silves
شلبطرة/شلبطيرة: Salvatierra
شلمنكة: Salamanca
شلوقة: Sanlucar
شنترين: Santarem
شنتفيلة: Santafila
شنت ياقب: Santiago de Compostela
شنطلولية: Suntululya
شنيل: Genil
شوقر: Júcar
شيربة: Serpa
شيريس: Jerez
صورية: Soria
طبيرة: Tavira
طرثونة: Tarzona
طرغونة: Taragona
طروش: Turus
طريانة: Triana

طلبيرة: Talavira
طلياطة/طرجانة: Tejada
طمان: Tomar
عصف: Aspe
عقبة الأباليس: Cuesta de los Diablos
غرب الأندلس: Algarbe
غشكونية: Gascuña
غليرة: Galera
فرسيندة: Fresenda
قاصرش: Cáceres
قاية: Caya
قرياقة: Caravaca
قرطاجنة: Cartagena
قرقونة: Karkuna
قرمونة: Carmona
قسطلقان: Castacan
قصر أبي دانس: Alcacer do Sal
قطلونية: Cataluña
قلعة رباح: Calatrava
القلعة الملكية: Alcala Real
قلعة النهر: Alcala de Henares
قلمرية: Coimbra
قلية: Cullar
قليرة: Cuellera
قنطرة جبريل: Puente del Gabriel
قونقة: Cuenca
قيجاطة: Quesada
كركوي: caracuel
لبدة: Alcira

لبلة/نبلة: Niebla
لرة: Leira
لوشة: Loja
لورقة: Lorca
ماردة: Mérida
مجريط: Madrid
مجمع الأودية: Confrentes
مدينة الزهراء: Medina Azara
مدينة شذونة: Medina-Sidonia
مرتش: Martos
مرتلة: Mértola
مرج القبداد: Guadalete de las fuentes
معبر القتبانية: Vado de Cantiñana
مغارات القلعة: Las Cuevas de Alcala
مقرانة: Almagro
منطقة الجوف: Extremadura
منطقة صقع: Alenge
منطقة الغدر: Algodor
منورقة: Menorca
مونتاجش/ منتيشة: Montanchez
مونتيقوط: Monteagudo
ميورقة: Mallorca
ناضوش: Nadux
نبرة: Navarra
نخلة النهر: Palma del Río
نربونة: Narbona
نهر تاجة: El Tajo
نهر تامطة: El Río Tamata
نهر دويرة: Río Duero

وادي آش: Guadix

وادي آنه: Guadiana

وادي برج: Río de la Torre

وادي جابر: Guadiara

وادي جنجالة: Valle de Chinchilla

وادي الحجارة: Guadaljara

وادي حدارة: Darro Rio

وادي دلر: Dilar Rio

وادي رقوطة: Valle de Ricote

وادي الرملة: Guaderrama

وادي الغزالة: Río de Castalla

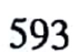
وادي كساس: Río Kasas

وادي الملح: El Saldo

وبذة: Hucte

يابرة: Evora

❖ ❖ ❖



فهرس الأعـــلام والبلـــــدان والقبائـــل

- ب -

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

-ع-

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ن -

❖ ❖ ❖

فهرس الصور والخرائط

I- الصور

II- الخرائط

فهرس المحتويات

الفصل الثالث

بيعة أبي يعقوب يوسف 209

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

يوسف الثاني وبداية عصر الانحطاط 431

الفصل السابع

أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المومن المخلوع وأبو عبد الله بن يعقوب المنصور 445

الفصل الثامن

أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور وعبد الواحد بن محمد الناصر 455

الفصل التاسع

عهد الخليفة الموحدي الرشيد بن المأمون 471

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفهارس

